

إسحق ماشباش

بزيقوه زاوه

حرب بزيقوه

ترجمة: وليد تحقاه

المجلد السادس من مجموعة المؤلفات الكاملة الستة عشر مجلداً،
الشعرية والنثرية ، للكاتب المكرم من جمهوريات الأديغي، والقبرتاي
- بالقر ، والقرشاي - شركيسيا ، الكاتب الحائز على العديد من
جوائز الاتحاد السوفييتي وروسيا الاتحادية ، وكاتب كل الشراكسة في
جميع أنحاء العالم إسحاق ماشباش. مايكوب 2014.

الفصل الأول

-1-

الوقت: الفجر الباكر. الأهل والفلاحون الأحرار¹ يملؤون دار أسرة المتنفيين² شرلاًقوه ولو أن الشمس لم تبزغ من وراء جبل بيباو. دماء الخيول في مرابطها مقابل البوابة المضفورة من العيدان تغلي: تلوك أرساخها، وتعضعضها أمام الرجال المحتشدين أمام مرابط خيول بيوتهم. وجوههم نحو الجبل الذي تلوح قمته البيضاء، يقدمون قلوبهم وأرواحهم للشمس التي تشرق ناسين إن كانت قرية باستوك الشابسغ ما تزال قائمة.

-يا شمسي، يا إلهي، - استقبل شرلاًقوه ناغوه الشمس بيديه المرفوعتين بالدعاء، باعثاً الرهبة في قلوب الرجال المنصتين. واستجاب له الجمع ففعلوا ما فعل. وفي الحال ران الصمت على جناح النساء، وعلى الخيل، وعلى الدواب لا تعرف ما حدث- أطلّي علينا يا شمسنا بوجهك الخيّر، واجعلينا ممن سيخطون اليوم خطاهم المباركة. ولا يغب وجهك الوضاح عنا!

هزّ الشيخ صالح ذو الجرم الضئيل رأسه، مشيحاً بوجهه، معتقداً بالإله الأعظم حين يخلو إليه في غياب الفلاحين، متمعضاً من طريقة دعاء شرلاًقوه الذي يسمعه، إذ ينقض كل ما نفعل وما نقول بدعوة واحدة. يا ربّ أسبغ على

¹ في اللغة الشركسية "فقولاً". وبعض قبائل الشركاسة كالأبزاخ لم تعرف النظام الإقطاعي، ولا العبودية أو القنانة، أو تخلصت منها. وفي الموسوعة الفرنسية تترجم الكلمة بالفلاحين الأحرار. وهي طبقة متعددة الأوضاع في أوروبا، وباختصار: هم فوق العبيد، وتحت الأحرار. وصار المصطلح يعني أخيراً، بعد زوال النظام الطبقي، عامة الشعب، ولكنه غير مقصود هنا لأن المؤلف يستعمل في مؤلفات أخرى مصطلحاً خاصاً بهم. ونقصد بالفلاح والفلاحين في هذه الترجمة على كل حال من يمكن أن يسمّوا أيضاً بالأقنان. المترجم. وكافة الحواشي للمترجم.

² ترجمنا بالمتنفيين الأسر القوية في القرى طبعاً لأن الأديغة لم يعرفوا المدينة في تلك العصور، من لا ينتمون إلى طبقة الأمراء أو النبلاء.

الشابسغ الإسلام، وإن حرمتهم الطعام في ما تبقي من عمرهم. وفي كل حال نفرض عليهم الإسلام بالقوة. نحن هنا لا يسعنا الفرح إذ نُنسيهم آلهتهم، في حين يقف شرلأقوه أمام الفلاحين، ينفذ لهم ما يريدون داعياً إلى الشمس وإلى السماء...

هوى من في الدار من أصحاب القلانس وصاحبات الخمار، بمن فيهم صالح، إذ لا يمكن أن يستثني نفسه منهم، على الركب وظلوا جالسين يرددون أدعية شرلأقوه ناغوه، وأيديهم ورؤوسهم ترتفع على المسطبة حتى أكملت الشمس إشرافها من وراء جبل بيباو.

داعب دفء الشمس الصباحية يدي الأمير الشاب حجمقوه ألقس البضتين وأظافره الوردية، والرجال المتنفدون من هنا وهناك يعيدونه من البيت الذي رُبي فيه إلى بيت أهله، واستقرّ في الوجه الصبوح النحيل. شفتاه المعتدلان بين الرقة والغلظة تُضيفان عليه نوعاً من الوقار لا يليق بعمره. ويستقر شارباه اللذان بدأ ينموان كزرع لم يكتمل. ولكنك متى تأملت عينيه ذهلت عن كل هذا: إنهما تبخثان في روية كمن فقد شيئاً. والشاب المرتدي كساء أسود على يسار ألقس ليس أصغر منه عمراً إن لم يكبره. والاثنان، ولو لم تلدهما أم واحدة، ولم يولدا في بيت واحد، عاشا معاً سنواتهما الثماني عشرة، وغذا حليب أمّ واحدة عظامهما.

في السنتين الأخيرتين لم يجلس علي سلطان في حضرة ألقس. ومتى ركبا اتخذ مكانه على يسار الأمير، تاركاً له اليمين. ما العمل: مكانة الأكبر سنّاً تقليد شفهي في كل زمان.

- حظينا اليوم بنهار رائع، - قال أحدهم قبل أن يستفيق الحشد الناهض.
- في أي يوم نحن من الأسبوع يا صالح أفندي إن شاء الله؟ - توجه شرلأقوه إلى الرجل الأسمر النحيف أمامه وصدره يزدهم بالأمل في الطريق الذي سيسلكونه، وبالقلق معاً.

- إن اعتمدت التاريخ الهجري فنحن في عام ألفٍ ومئتين وسبعين، وفي يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة. - أجاب صالح مقوّمًا ذقنه المائلة،

طرباً بصوته رغم علمه بأن الحاضرين لم يفهموا منه شيئاً. - هداانا الله إلى الإسلام، طريق الخير والصالح!

- آمين! - وافقه أحد أتباع شرلأقوه متسرعاً. وردد وراءه الآخرون.

- هل يمكن يا صالح أفندي أن تكرر ما قلته بلغة الشراكسة ليفهمها الفلاحون المنصتون إليك؟ - سأل شرلأقوه، الرجلُ الرُبعة المتين، الأفنديّ الصغير الظاهر كفسيلة شجرة تحت العربة، متفحصاً إياه من قبعته إلى القدمين. ثم ألقى الزعيم المُتهَيّء للسفر نظرة باسمة على الجمع.

- ليس من اللائق أن أعيد بلغة الأديغة ما قلته بلغة الله العظيم الذي يتضرع إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، ولكن، اغفر لي يا إلهي هذه المرة، وأنذر لك، أن أختتم القرآن ثلاث مرات، - لوى صالح أفندي ذقنه الشبيهة بذقن الماعز، وتظاهر بتأمل السماء، - نحن اليوم في العام 1764، الأربعاء الثاني والعشرين من شهر آذار. ليجعل الله طريقنا طريق المسلمين الذين على السراط المستقيم. آمين يا ربي!..

- آمين، شاع الاتساق في ترديد الواقفين.

- كلامك الآن مقبول، تكلمت بالأديغة الآن، وليكن يومنا سعداً علينا... هكذا متى دعوت استُجيب لدعائك تبعاً لمن تبتهل إليه. - عزا شرلأقوه ناغوه جمال الصباح إلى شخصه. ثم أسرع وتوجه إلى الشمس المواجهة له الآن، ودعا رافعاً يديه: - شكراً لك يا شمسنا الذهبية، يا إلهنا الكبير. حققت لي ما رجوته منك لحظة غيابك البارحة. الخلود لك يا شمسي، ويا سمائي. ثم خاطب بالنبرة نفسها من في الدار من رجال ونساء: - هيا لننطلق! ليس طريق أرض البجدوغ طريقاً سهلاً، إنه طريق مهيب!

ضجت الدار بالحركة، ووقف الفلاحون الرعاة أمام باب الزريبة، واستعد ساسة العربات. واختطف شرلأقوه ناغوه طرف الكساء كجناح طائر، وقفز إلى سرج حصانه. ونظر واقفاً إلى الجمهور:

- هيا اركب يا ألقس!

جاء لحجمقوه ألقس بالحصان الأبيض الذي جرى البحث عنه عاماً كاملاً في

أنحاء بلاد الأبراخ، حتى وصل محمداً في هذا الربيع. تجاوز الأمير الشاب الرجلَ الربعة المكلف بخدمة الحصان، فمسح على جبينه. وفي اللحظة التي قفز فيها إلى السرج زاح الحصان قليلاً عن مرمى الشاب فغضب شراً فقه علي سلطان علي الشاب الفلاح، ونهزه:

- هل يحكك ظهرك يا حاغور!

- اهدأ لحظة أيها الشاب!.. - أسرع شراً فقه الأكبر المدرك لنزق ولده. ثم أضاف بنبرة ناعمة: - لا يُرفع سوط في مثل هذا اليوم... لا ذنب لحاغور، نزق الحصان وطباع أبراخ منطقة توبا سيان...

لم يعلق حاغور موسى على أقوال آل شراً فقه. بل ابتعد بمنكبيه العريضين كمن لم يجر له شيء، وعبر بين العربتين المحملتين بهدايا مناسبة عودة الأمير الشاب من مكان تربيته، ووقف إلى جانبهما.

وشرع المغني يتلفت نحو الأمير الشاب مردداً مع عازفي الشابات والربابات الاثني عشر أغنية المناسبة:

أنصتوا إذ سأنشد لنور عيني

لا تدعوني أقول فيه ما لا يليق به.

رفرت أغنية عودة ربيب الأتاليك¹ فوق أصوات البشر واصطفاق قوائم الخيل. الراقصون الذين ثبتوا أطراف أكسيتهم في زنانيرهم يتمايلون إلى الجانبين على لحن الأغنية. تغلبهم الثقة بإمكان رفع أصواتهم، يرفعون رؤوسهم وهم يحتلسون النظرات فيما بينهم، ومن يخفض رأسه يبحث بعينه عن الأرض، ومن يرفعه يبحث في عالم الصباح. وبعد قليل ينسجمون في صوت غليظ مرددين وراء المغني:

ربينا فوق كل البشر.

وأنت الولد البكر لأهلك.

¹ الأتاليك. تقليد قديم يقضي بترية أولاد الأمراء في أسرٍ غير أسرهم لتنشئتهم على القوة ولاكتساب أقرباء وحلفاء حرب. وكان التزاوج بين الطرفين محرماً.

وأنت سندٌ من الذهب لوالدك الذي خرجت من صلبه.
وجسدك المبارك يزخر بالسلاح.

وليكن حصانك ذو الفم الأبيض جزءاً من رجولتك!

وتذهب بك الظنون إلى أن النساء تخلين عن شيء من الخفر إذ ترى في عيونهن
ترديدهن للأغنية في سرائرهن وإن لم يحركن شفاههن. وحجمقوه ألقس الذي
ترتفع كل هذه الجلبة من أجله ناسٍ أنه على صهوة حصانه، وشرلأقوه ناغوه في
مكان الصدارة من الحفل ذاهلاً عن مكانته. وبعدما اختلجت أفخاذ الحصانين
بعض الوقت خرجا من الباب الذي أشرعه الفلاحون. ووراءهما الفرسان
المرافقون للريب والعربات المحملة بهدايا الناس له، والعربات الحاملات للفتيات
الرصينات.

يخرج آل شرلأقوه من باستوك دون أن ينسوا المرور بأحيائها الثلاثة. الفلاحون
يصطفون على أسوار بيوتهم رغم أن خبر الاحتفال بعودة الريب انتشر منذ
بضعة أيام. والأولاد على ذرا الأشجار، والمستنات على الأبواب، والكنائن
يختلسن النظر من نوافذ المطابخ الملحقة بالبيوت.

الريب يتميز من جمع الفرسان. ولا يقتصر السبب على اتخاذ موضِعاً على
يسار شرلأقوه ناغوه بل يضاف إليه الكساء الأشقر اللامع تحت أشعة الشمس
الفتية. لم يُخطئ شرلأقوه ناغوه في انتقاء الحصان وقد نسي الجهد الذي بذله
للاهتمام إليه منذ أن ركبه لأول مرة؛ فأَي فرح يعادل أن يراك الناس بهذا
الحصان! اختلس ناغوه نظرة إلى ألقس وبشٍّ في وجهه.

كم يليق به ركوب الخيل كأنه خلق ليحتل صهوته! القامة المشدودة تتناسب
مع الحصان، ولا يبالغ في رفع الزمام، ولا في هزّ الساقين. لقد استوعب كل
تعليماته إليه. وفجأة طفت على ذاكرة شرلأقوه ناغوه الرجال المتنفدون من
الشابسغ: أباته وناورز وشُكش وزانه. يعيش هؤلاء عمرهم محافظين على
طبيعتهم. وفي مختلف القرى لا ينفصل كلامهم عن أفعالهم. ويتقاسمون أفراحهم
وأتراحهم. يلوم ناغوه نفسه على أنه لم يرتب مرافقة هؤلاء لموكب الأتاليك من
داره وإن كان أباته وناورز سينضممان إليه بعد مسير نصف نهار. يقول لنفسه:

ما كان يجدر بي أن أوفر عليهما جهد المسير غير الضروري، فقد كانا مبعث اطمئنان للفلاحين المرافقين. وكانا سيربان انطلاقتنا وترتيب أمرنا!.. والولد علي سلطان ينتظره السعد. وسيأتينا ضيوف كثيرون، لا من الشابسغ وحدها، بل من الأبراخ والجمكوي والبجدوغ والقبرتاي. يكفي شرفاً حجمقه قانشاو كبير أمراء البجدوغ؛ وإلا فما معنى جهودي طوال هذه السنوات؟! أما أولادنا نحن فنريهم على قدر طاقتنا. يقولون: اعمل المعروف وارمه في البحر، ففعلت...

بعدما خرج موكب الأتاليك من باستوك، وتقدم بمقدار سماع النداء مرتين صاروا في غابة تحمز¹. وعلى عادة الفرسان حين يحسون بالخطر انقسموا ثلاث مجموعات: سبقتهم مجموعة، وبقي بعضهم على مقربة من العربات التي تمتطيها النساء، أما البقية فتأخروا عن الموكب قليلاً. كان ألقس يود الانضمام إلى أقرانه غير أن ناغوه لم يقبل: - يا ألقس مكانك الحالي هو الموضع المناسب لك! - عرف ناغوه نية الشاب الذي يمسك بلجام حصانه فمنعه، - من يعرف من أين يأتي الخطر، وهل هناك مكان آمن تماماً! ما يجري في مجاهل تحمز لا يعرفه إلا إلهنا الكبير إله الغابة، وقد أوصلت إليه دعائي وأتأمل منه أن يتفهمه. وإذا اقتضت الضرورة نتعاون. هل تتذكر ما جرى لنا في الربيع الفائت في طريق عودتنا من الجمكوي؟!.. لا أتذكر موقفاً أصعب منه في حياتي... ابتسم ألقس في سره، وألقى نظرة رضا نحو ناغوه.

حدث كثيراً أن وجد ناغوه نفسه في موقف أخطر من ذلك الذي وقع فيه في الربيع. ليس ما على جسده أثر ضربة سيف أو خنجر وحيدة. لا يكفي في الشابسغ أن تمتلك الكثير من الماشية لتكون من أسرة متنفذين. عليك أن تتحلى بشجاعة يفتقدها الآخرون. وإن اجتاحت بطولة لم يجترحها غيرك فذاع صيتك، فهذه بطولة. وهذا هو السر وراء سبقهم اسمه بصيحة الإعجاب واي واي! كل ندبة على جسده وراءها قصة. ولا تزال تُروى إلى الآن في مضافات الشابسغ. وتكفي الندبة التي تحتل كامل الوجنة اليسرى التي يراها ألقس من

¹ غابة الإله أو الغابة الإلهية كما سيأتي قريباً.

مكانه لتكون قصة، فالحنة التي تعرض لها فيما هو عائد من أرض الجمكوي وهو يدرّب ربيبه على الأسفار كان هو سببها، لا رجولة عصابة المجرمين التي قابلها؛ خيرٌ لك أن يُجتزَّ رأسك بضربة سيف من أن يُقتل ربيبك في حضرتك. حاولوا الهروب من المصيبة فحثّوا خيلهم، ولكنه اعتبر ما يفعله أمام ربيبه عاراً فشدّ زمام الحصان، وارتمى تحت خناجر المجرمين. وقد عادوا فخورين إلى باستوك لولا أن يد ابنه علي سلطان جرحته. وظل الحادث مدار أحداث القرية أسبوعاً كاملاً...

اجتاز شراً لقوه وجماعته غابة تحمز مع اشتداد وطأة الشمس. ولما انحدروا من المرتفع الضيق بعد قليل دخلوا السهل الواسع الذي تفوح منه رائحة العشب الكثيف الطري. ومتى قطعوا غلوة حصان أو غلوتين فسيستقبلهم في تخم الغابة ناورز وأباته. ومفرق الطريق هو مكان اللقاء.

التقى أقطاب الأسر المتنفذة في الشابسغ كما اتفقوا دون أن ينتظر أحدهم الآخر. تصافحوا وتعانقوا بحرارة كما لو مضت أعوام على فراقهم. ولملت الهدايا من زناير فضية ومطرزات تحت أشعة الشمس بعدما أخرجتها النساء من العربات. وانبعثت من جموع الرجال أصوات اصطكاك الخناجر والزناير الفضية. ويُسمع من هنا وهناك ترحيب الفرسان الأصدقاء من الطرفين. والفلاحون ألقوا مجموعة في مكان منزوٍ. ومع أن ملابسهم ليست بأناقة الآخرين فإن البرية الجميلة تتقبل نظافتهم المطلقة ورشاقتهم، فيشيعون جواً من الصفاء والراحة لا تدري ماذا تسميه. ومواشي آل ناورز، وآل أباته وآل شك، وآل زانه، الهدايا للفتى الربيب، ترعى في مجموعات مستقلة على جانبي الطريق. -يا شراً لقوه، قولك قولنا، وفعلك فعلنا، - قال كبير آل أباته العجوز الأسمر قازجري من الجمع باسم الحشد. - إن أردتم الاستراحة فجماعتك ضيوفنا، وسلاحك سلاحنا. ما رأيكم أنتم يا آل ناورز؟

- كلامٌ صهرنا كلامنا. - أسرع ناورز بالإجابة، التفت إلى داريت خان أخته التي لم يرها منذ الربيع. وبشّ في وجه ابن أخته علي سلطان.

- رضي الله عنكم أيها الأمير¹. - توجه شرلاًقوه بالخطاب مشدداً على كلمة "الأمير". فملتفتون يتخاطبون بهذا اللقب وإن لم يكن عند الشابسغ أمراء. - عوضكم الله أضعاف ما بذلتم اليوم لإكرامي. إن كان هذا رأيكم فلنُعِدَّ السير لنوفر الوقت.

حين ارتقى الجمع مع الغروب مرتفعاً ليس بالعالي ظهر فجأة مرعى "نجد". الجبل يلتف متعالياً إلى اليمين، أما على اليسار فالغابة تبتعد مع انحدار الجبل إلى سهل معشب واسع. ووراء الجبل الذي يستقبلونه بوجوههم تمتد أملاك كبير الأمراء حجمة قانشاو، أمير البجدوغ الذي ربي له شرلاًقوه ناغوه ابنه طوال ثمانية عشر عاماً.

لمحوا ثلاثة فرسان على ظهر المرتفع، يتوسطهم الفارس المرتدي كساء رمادياً. استعد فرسان المتنفيذين بالسلاح.

- من هؤلاء يا ترى؟ - سأل شرلاًقوه مُسمِعاً رفاقه، غير مرتاح لسلوك الفرسان الثلاثة.

صاح الفارس ذو الكساء الرمادي:

- يا شرلاًقوه ، ليسهل الله طريقك! إن كنت تجهلني فاسأل رفاقك. ثم استداروا وعادوا.

- هذا شبّاكوه أحمد!.. أسرع أحد شباب آل أباته بالجواب.

- هذا هو إذن! - ابتسم شرلاًقوه ناغوه الذي تظاهر بعدم معرفة الفارس ذي الكساء الرمادي. ثم أضاف عابساً: - التقينا بشرّ رجلٍ من الناخووي، ينطبق عليه قولهم: عدّ أدراجك إن قابلته!..

- أراك يا حاغور لا تقول شيئاً، - قال الفلاح الأسمر النحيف الوجه، - هيا ندخّن شيئاً من التبغ - ثم أخرج كيساً من التبغ الأصفر المقطّع.

- ماذا نضيف؟ - قال حاغور وهو يحشو الغليون، - قال آل شرلاًقوه كل ما يعرفون، غير أنني لا أعرف ما ينوون بحق أمير البجدوغ.

¹ يستعمل لقباً، ليس هو الأمير تماماً، بل أقرب ما يكون إلى "المحترم".

- لا ييخلون بالمال، - أضاف رجل آخر.

- يقولون في المثل: ما يقربك من الريب هو الماشية... آل شراًقوه لا يتنازلون عن رأس ماشية إن لم يعوضوه بثلاثة. ضاقت أرض الشابسغ بجشعهم فوصل إلى البجدوغ. - قال تحخوخوه نباؤوه وهو يمص الغليون ويعيد الكيس إلى محله.

- هذا صحيح يا تحخوخوه، - وافق حاغور موسى الفلاح، - ولكن لا أظن أن شراًقوه ربي ابن حجمقوه مقابل رأس ماشية واحد. لا يزال يحاجج فلاحي الشابسغ غير أن فطنته، بإرادته أو دونها، تقوده إلى أفكار بعيدة...

-2-

حين وصل موكب الريب إلى ظاهر قرية أمير البجدوغ الكبير حجمقوه قانشاو تناهى إلى أنوفهم رائحة مرقة اللحم، والشلامة¹ وأطعمة أخرى مطهوة بالسمن، وأعشاب طازجة، علامة على أن الاحتفاء بابنه سيكون مشهوداً. وأنعش هذا قلوب المسافرين المتعبين، وزاد في سرعة الخيل. وبدأ الجمع المتفرق يتجمع. وأعاد شراًقوه ناغوه الشاب ألقس الذي كان منحه بعض الحرية إلى يساره. وألحق ابنه علي سلطان بناورز وأباته وغيرهما من الكبار وإن كان لا يتناسب عمره مع هذا المحل. يحترمونك بقدر المكان الذي يرونك فيه، وبقدر ما يحترمونك يولونك أهمية. عليك في مثل هذا الموقف أن تتكبر، لا أن تتواضع. فهم شراًقوه الكبير هذه الفكرة جيداً، وغرس في نفس ابنه هذا السلوك. وفي هذه الحالات عليك أن تعود الناس على هذا، لا أن تحسب حساب ما سيقول الناس. انظر كيف تعامل معنا شباكوه الثرثار. تمكن من أن يجبر الجمع على اللجوء إلى السلاح، ويولي شخصه أهمية.

تراجع الفارس الذي كان قد خرج مسرعاً من طؤابغوه، واختفى في زاوية الشارع، ولم يتأخر عنه الفارسان الآخران.

¹ نوع من المعجنات السهلة للمناسبات المستعجلة.

- كشفوا أمرنا! - ازداد نبض شرلأفوه.

الفرسان الذين خرجوا مسرعين من القرية لم يعودوا عن رهبة. منذ الصباح كان الصبيان يرصدون من سيحصل على البشارة. من الفرسان الثلاثة سيحظى بها؟ أنت ومزاج الأمير حجمقوه، يمكنك أن تغتني من كلمة واحدة منه. تجاوز الصبي الفرسان المصطفين وراء مرابط الخيل الذين يملؤون الحيّ، وفرّق الجمع المحتشد بصدر حصانه، واقتحم غرفة الأمير الكبير حجمقوه قانشاو، وارتمى أمامه على ركبتيه:

- البشارة يا أمير!.. - يأتون بالريب.

ينتظر رواد المضافة الكبيرة جواب الأمير صامتين. والصبي واقف على قدميه.

- جعل الله منك رجل خير يا ولدي. تبينت عن رجل طيب. - ابتسم الأمير ابتسامة خفيفة وهو يتأمل الضيوف، - ابنٌ من أنت يا ولدي؟

- أنا ابن الحارس مرزيج يا أمير. - أسرع الصبي بالجواب مغتبطاً بذكر اسم والده.

- دعوه ينتقي من قطع الخيل ما يريد. وأضيفوا إليه سوط حصان وخيطوا له كسوة. - أعطى الأمير تعليماته للرجلين الواقفين إلى جانب الباب دون أن يُبدي فرحته. - وليشارك كل من يستطيع امتطاء الخيل في قريتي في استقبال الضيوف. ولا يخلُ عازفو الشبابة والربابة والمغنون بجهدهم. وليشارك عازفو الأبواق. ليكن فرحي فرحاً لأصدقائي وأعدائي. تقبّل يا إلهي كل ما قلْتُ فأنت من يحققها. - مد الأمير كفيه أمام وجهه وهمس بعض الوقت. ثم أضاف على مسمع من الجلوس: - الله أكبر! ومسح وجهه براحتيه. فردّد الحاضرون وراءه وقلدوا حركة يديه.

وفي غمضة عين لم يبق أحد وراء أعنة الخيل. استقبل الفرسان، كلٌّ في مقامه، الضيوف المرافقين للريب. وتبعهم المشاة ومعهم الصبيان الذين اصطحبهم أهاليهم إلى المضافة. وتدفقت إلى الغرف لثنائي والدة الأمير الشاب، ونساء أسرة حجمقوه، ونساء القرية. وكادت غرفة الأمير نفسها تفرغ. واشترك عازفو الشبابة المستندون إلى الحائط الذي تقف إليه أحصنة الأمراء، وعازفو الربابة

والأبواق في عزف المقطوعة المعتادة في مثل هذه المناسبة، مناسبة استقبال الريب.

حين استقبلت مجموعة الحراس التي يتزعمها الحارس مرزيج الضيوف تبادلوا معهم التحية برفع الأيدي وأسواط الخيل ملفوفة على سواعدهم. واصطحبهم إلى شارع آخر. ولما وصلوا إلى حي الأمير ترجلت النسوة اللواتي في العربات وتبعن الفرسان.

لم تقع عينا الأمير الكبير على ابنه خلال سنه الثماني عشرة إلا مرتين. المرة الأولى حين حلق آل شراًقوه رأس الصبي وجاءوا به يُرونه لأهله، والثانية حين أقيم له احتفال بمناسبة خطواته الأولى. وفي المرتين يكاد الأمير لم ير شيئاً من ابنه. وحين ولد الصبي كان بوّده أن يراه في غرفة سيدة البيت ولكن السيدة رفضت بحجة أن الصبي الطري ليس فيه بعدُ شيء جدير بالرؤية. حتى السيدة لتناي لم تقع عيناها على الصبي إلا مرتين أو ثلاثاً. ظل الولد في رعاية المريية إلى أن سافروا به إلى أسرة الأتاليك. وبعد مضي سبعة وثلاثين يوماً على ولادته استلمه شراًقوه ليكون مربيّه. وطوال هذه السنين لم يمر يوم على الأمير حجمقوه قانشاو لم يتمنّ فيه رؤية ولده. ولكنه لم يلمح برغبته مهما كان شوقه إليه، لا إلى أقرانه، بل حتى لزوجته. انتظر حتى عودة الريب متحلياً بالصبر والرجولة. ولم يرزق الزوجان بصبي آخر كأخهما قطعاً نسلهما عنده. زارت الزوجة كثيراً من العجائز الطبيبات دون علم الزوج، أرقدوا على بطنها دجاجة حاضنة بيوضها، وكلبة حاملاً، ونامت مع قرعة مقسومة شطرين، ولكن لم ينفعها شيء مما فعلت. ولم يرأف بها الله. والآن تفهّم الله حزنها، فأنزل عليهما رحمته. شكّت لتناي بحالها. يا ليت الأمير رزق بفتاة، ما كان ليتمنى أكثر من هذا. لو حدث هذا لصاهر أحد أمراء الجمكوي النافذين...

شرعت الضجة تقترب فوقف أحد الجالسين في المضافة إلى النافذة. ووقف غيره وراءه. ولما نهض الأمير بحقوقه شراندقوه، وانضم إلى المستطلعين وراء النافذة، بقي الأمير الكبير وحيداً في صدر المجلس. كان بقلبه وروحه في الفناء ولكنه لم يتحرك من مجلسه محترماً شخصه ومنصبه. تبدو العينان الزرقاوان الممتزجتان

بشيء من لون العسل تحت الحاجبين في الوجه الحليق حديثاً. وهو يمحط عنقه فتعرف أنه يُصيحخ السمع إلى الفناء. واليدان الممدودتان فوق الركبتين نحيلتان حتى لتبدو عروقهما. والخفان المقصَّبان بخيوط الذهب يلمعان في أرض الغرفة التي حجب الواقفون على النافذة الضوء عنها قليلاً. وجُعِبَ الرصاص الفضية تُضفي نوعاً من الضخامة على الجسد. والقبة الشقراء المستديرة ترفعه.

- ما شاء الله يا حجمقوه! - قال الأمير بحقوقه باعتداد وهو يمد النظر إلى ما فوق الواقفين إلى النافذة. - جاؤوا إليك بأمر شاب رشيق.

كان الأمير يتفحص الأسلحة المثبتة على البساط المعلق على الجدار كأنه يراها لأول مرة، متظاهراً بأنه لا يُنصت إلى ما يقال له، مع أنه كان يتمنى أن يسمع المزيد من الإطراء على ولده. ولم يطل انتظاره لهذه الإطراءات إذ انحال بها عليه الواقفون إلى النافذة.

قال الأمير بحقوقه:

- هيا يا حجمقوه نرحب بالأمر الشاب.

توقف أمير البجدوغ ليدفع الأمير حجمقوه شراندقوه إلى التقدم عليه.

لم يقبل الأمير بحقوقه:

- وهل نسيت تقاليد الأديغة أيها الأمير!

- أَلستَ ضيفاً وتكبرني في السن يا أمير!

- أَلستَ أحاول ألا تقع في الخطأ لأني أكبر منك سنّاً؟! أنت صاحب المناسبة السعيدة. وأنت من أعادوا إليه الأمير الشاب. عليك أن تتقدمنا وإن كنت أصغر سنّاً. - ردّ الأمير بحقوقه باسمّاً. سنرى حين يعود الأمر إلى التقاليد والعمر كيف ربي آل شرلأقوه الأمير؛ قد يكون بيت الشابسغ لم يتجنب تقاليد الأديغة...

خرج الأمراء من غرفة الضيوف وتجاوزوا المسطبة الطويلة أمام الغرف يبضع خطوات. الناس يملأون الدار والحي ومع ذلك فهناك فراغ أمام الأمراء يَمَكِّن من الاقتراب منهم. والنبلاء والعبيد يقفون في صفين متقابلين.

قاد قريبُ الأمير الكبير الريبب، وإلى جانبه علي سلطان، يسبقهم المتنفذون

شرلأقوه وناورز وشكش وأباته وزانه، إلى حضرة الأمير، ووقف متنحياً قليلاً إلى اليسار.

إلى الجانب يقف الأمراء والنبلاء¹، ممسكين بأحد غطاء ي الرأس اللذين تبادلهما الطرفان، والشهود السبعة من آل حجمقوه، لحظة قُدِّم ألقس إلى مربيه قبل ثمانية عشر عاماً. ومن آل شرلأقوه خرج سبعة أيضاً يحملون شبيهه غطاء الرأس الأبيض ذاك، وانضموا إلى شهود آل حجمقوه. ودون مزيد من الكلام جمعوا الغطاءين، ومدوها إلى الأمير الكبير:

- الأمير الشاب الذي أعاده آل شرلأقوه أيها الأمير الكبير هو حجمقوه ألقس ابن أمير البجدوغ الكبير قانشاو. والشهود يتحللون من قسمهم راجين لكم الخير.

حين فرغت المسافة بين أمراء البجدوغ ومتنفذي الشابسغ رفع شرلأقوه يده وحياهم تحية الإسلام:

- سلامٌ عليكم أيها المبجلون!.. وفي الحال سرت ابتسامة دافئة على وجه الأفندي صالح تعبر عن رضاه بما سمع. - لتهنأ بابنك يا أمير البجدوغ الذي يذكرونه بالخير في كل أرجاء الأديغة، ليحي متسلحاً بسيف الناريتين، تغلب عليه سيرة البطولة، حبيباً إلى أمه، لطيفاً مع والده، متذكراً إياناً أحياناً، ولتكن أرضه مفروشة بالبطولات!.. أنا أنجزت مهمتي أيها المبجل!..

تنحى المتنفذون جانباً ففتحوا ممراً لربيهم الأمير. ولم يتأخر ألقس في الوقوف في حضرة الأمراء. ووقف إلى يسار علي سلطان أحد الأمراء الشباب كي لا يقف وحيداً.

- نهاركم سعيد أيها الأمراء، - حياهم ألقس تحية الشابسغ الأديغية. ابتسم بحقوقه شراندوقوه في سره: لم ينس مربيه الشابسغ العنيدين.

¹ لقب النبيل "وَزَق" من المصطلحات المشككة. والمفارقة أنه لقب سلمي، يوصف صاحبه، كما سيتبين من الرواية، بالشكر أكثر منه بالخير، وهم دائماً ضد الفلاحين، وحرّاس في خدمة الأمراء.

والتفت الأفندي صالح نحو شرلأقوه. تذكر طريقة دعائه هو في حضرة الفلاحين حين أزمعوا السفر إلى بلاد البجدوغ. نصحنًا الشاب ولكنه لم يفهم شيئاً مما قلناه. وهل تظن نفسك أعادوك إلى بلاد أهلها من الفلاحين الشابسغ؟! لم نستطع طوال عام كامل أن نعوّد فلاحينا الغلاظ على تحية الإسلام. يا لشماتي يا ربينا الغالي؛ أسعدت قلوب فلاحينا من أمثال حاغور موسى. ما أكثر ما نصحتك يا شرلأقوه أن تعتني بتربية الأمير الشاب!.. وانظر الآن إلى العاقبة!

خطأ ألقس الخطوة الأولى، فقلق الأب حجمقوه خائفاً من ألا يعرف إلى أين يخطوها. ولما خرجوا من الغرفة تذكر ما قاله له الأمير بحقوقه. ولكن، بفضل الله، صافح الأمير الشاب أولاً بحقوقه شراندوقوه. ثم تخطى والده وحيّا الأمراء الآخرين واحداً واحداً. ثم عاد إلى والده فتعانقا للمرة الأولى في حياتهما، وتبادلا النظر بعيونهما المتحيرة بين الزرقاء والعسلية. وأسبلا جفونهما دليلاً على استحياء متبادل. وجرى لألقس ما لم يجر له في لقاءاته ببديل والده شرلأقوه طوال ثمانية عشر عاماً فارتخت أطرافه. وسرعان ما تخلص الأمير من هذا الشعور العذب الذي بثه فيه اللقاء، فتراجع بضع خطوات ووقف ينتظر ما سيقال.

لم تصدر نامة من الحضور طوال هذا الوقت، ولم يخطُ أي منهم خطوة في غير مكانها. بقي كلٌّ في مكانه كأنه دُرّب عاماً كاملاً لمثل هذه الساعة. لم تكن هذه التقاليد وليدة اليوم، فالأديغة شذّبوها طوال آلاف السنين التي هي عمرهم، حتى دخلت فيها أمور جديدة متنوعة. والأديغي البسيط عاش حياته يزرع الأرض، ويربي الأولاد، ويتكلم لغته، ويغني بها ويعزي، ويفرح في الأفراح. يعمل جهده لينمح تقاليد كل الجمال.

ألقي الأمير الكبير حجمقوه قانشاو نظرة رضا على رعيته. ما أجمل الطبيعة اليوم كأنهم أطلوا انتظاره لابنه! - يرد الأمير الكبير بتحية الإسلام والفرح لا يسعه. - لن ينسى آل حجمقوه أبداً معروفَ آل شرلأقوه. وستبقى صورة كل فرد منهم في قلوب البجدوغ من أمرائهم إلى نبلائهم - الحراس، جميلة خيرة.

والشكر لكم أنتم أيها المرافقون من ناورز وأباته وزانه على جهودكم من أجل آل حجمقوه وآل شرلاقوه. وسنكافئكم أضعاف ما قدمتم. تفضلوا أيها الضيوف الأعزاء، بيتي بيتكم، وفرحي فرحكم!.

وفي الحال ارتفعت أصوات الشبابات والربابات والأبواق. وتحرك الجمع الواقف، وملاً الراقصون الساحة. الرجال على الجانب الأيمن والنساء على الأيسر. وبدأت أيام الفرح السبعة.

بعدما مضى بعض الوقت على جلوس الضيوف في المضافة قال بحقوقه شراندوقوه:

- الحق أقول: ما يضيركم يا آل حجمقوه وآل شرلاقوه أن تمتنعونا بتأمل وجه ابنكم؟!

- ليس هذا الولد من النوع الذي يُعرض على الجمع، - قال الأمير الكبير، - ألا يزال طفلاً؟

- لا، ليس صحيحاً، ألا تتذكر يا حجمقوه الضجة التي أثرناها على باب خان القرم حين مُنِعنا من مقابلته؟ كنا وقتها في عمره الآن! - أجاب الأمير بحقوقه مستمتعاً.

- هل تقصد يوم أهانونا، ولووا أذيال خيلنا، وهربنا لا نلوي على شيء؟ كنا مجنونين حين أثرنا هذه الضجة.

- لم يكن حادثاً فريداً من نوعه... هذا أمر آخر... - تفكّر الأمير بحقوقه قليلاً ثم أجاب على سبيل المزاح: - هيا يا حجمقوه، لا تخرج بنا عن الموضوع! اطلب الأمير الشاب قبل أن يفعل بنا الشراب فعله! لم ينبس شرلاقوه ببنت شفة.

- إن كانت هذه رغبتك فليأتوا به! - كتم الأمير الأب ما يعتمل في قلبه، - إن تفوّه الأمير الشاب بما لا يجوز فأنت المسؤول عنه.

حزّ في نفس شرلاقوه ناغوه كلام الأمير الكبير بشأن الأمير الشاب ألقس. ما الأمر؟ ألا تثق بي؟ لم أدّخر جهداً. فعلت كل ما بوسعي. دخلت به إلى كثير من مضافات أمراء الجمكوي. أصغى إلى كلام الكبار، وفعل مع الصغار ما

يفعلونه. ثم هل تعرف ما سأقوله لك أيها الأمير الكبير: هذا ولد لبيب خلافاً لما تتعشم فيه. لا تُسئ به الظن! أنت لا تعرف، أما أنا فليست معرفتي به وليدة اليوم. بل منذ طفولته المبكرة...

لا يرى ألقس الذي أُسْتُدعي إلى غرفة الضيوف من هم أمامه. ولا يسمع ما يقوله له الأمير بحقوقه. ما في الرأس مما يهيج الدم في الأطراف شيء آخر. كان قد لامس بكتفه عارضة الباب كأن قدميه لا تحملانه فأبعدها بسرعة كأنها تحرقه. خيل إليه أن وجنتيه التهبتا: من هذه الفتاة الطلقة الوجه، القريبة من القلب، الواقفة في قبقابها الخشي؟.. قامتها هيفاء كغصن بندقة لدين. ومع الأنف الذي يكاد ارتفاعه الضئيل يُلحظ، ينحدر وجه أسمى إلى شفتين لمياوين، يعلوه حاجبان مسننان كجناحي سننونة، تنير من تحتها عينان كخوختين نصف ناضجتين وحين تسري الابتسامة الخفية على الخدين الأسمرين تضفيان جمالاً على جمال نظرتها الودود. والضفيرتان اللتان بثخن الذراع، مذكّرتين إياك بسواقي الجبل، تلعبان على أعلى الصدر. والثوب المطرز بخيوط الذهب هو بلون السماء فيخيلُ إليك أنها ستُحلّق من فوق القبقابين الخشبيين إلى عنان السماء.

من هذه الفتاة يا ترى؟..

-3-

- ما أعجب ما تصرّف شراً قوه كانه لم يتعرفنا! - قال وُسْتَقوه، أحد الفرسان الثلاثة، بعدما مشوا لأياً.

- تعارك طبعه الثعلبي وقلبه الذئبي في نفسه، - قال شباكوه أحمد كأنه كان ينتظر هذه الملاحظة، والتفت إلى اليسار، إلى الرجل الحزين الذي امتزج شارباه بلحيته. - يكفي يا أخي الصغير، لا تدع الحزن يُفنيك! لا خطورة في حال الولد، سنجد حلاً له.

- وأنا هذا رأيي يا أحمد. - نظرت عينا أكجكوه أنزور السوداوان من بين لحيته الكتّة وشاربيه، وبلّ شفتيه الجافتين بطرف لسانه، - أملنا في الله، وبعده

أنت... يكفيننا ألا يبقى الولد الوحيد الذي رزقنا به أعرج.

- ألا يقف الولد على رجله؟ - سأل شباكوه مرة أخرى على نية التخفيف من أحزان الرجل.

- بلى، يا مبارك النسل - استعجل وُسْتَقْوِه، فقاطع صديقه - شُفِيت الساق عرجاء، كأن من جبرها كان أعمى!

ابتسم شباكوه أحمد حين سمع ما قيل في المجبّر. لأجل هذا كان المرحوم والذي يقول: الطبيب حسنٌ إن شُفي المريض، وإلا فالعتب عليك رغماً عنك. أياً كان المجبّر فهذا ما جرى للغلام. وهو يعرف أنه جرى له مثل هذا، ولكنه تحلى بالرجولة فأعاد العلاج. ليس من السهل أن تكسر من جديد عظماً ملتحمًا. وهذه رجولة لا من المريض فحسب بل من الطبيب أيضاً.

- لا عتب لنا على من جبر رجل الغلام. - قاطع أكجكوه رفيقه كي لا يثير الشكوك في قلب المجبّر الذي يصطحبونه... عاجله على عجل شديد... من لي عتبٌ عليه هو الثرثار ابن شرلأقوه علي سلطان شبه المجنون. هل يجوز أن تضرب الساق بالعصا يا مبارك النسل؟ ثار غضب أكجكوه من جديد وهو يتذكر كيف عاد الصبي إلى الدار برجل تتدلّى. هسّمت الضربة ساق الولد إلى شظايا... كنت تجاوزت هذا الأمر لولا أن والده أهانني: "على ولدك أن يعرف مع من يلعب. كان قال لي: ليس آل شرلأقوه من يلعبون معهم هذه اللعبة، بل آل أكجكوه من عليهم أن يدوروا حفاة. وإن كان جرؤك لا يعرف هذا فاجلس على حافة فراشه وأفهمه!" أليس هذا معيباً يا مبارك النسل؟

- قال لك لأنك سمحت له!.. - احتدّ وستقوه.

- بل لأنه لا سند لي... ماذا يجري لك إن وقفت في وجه الريح وبصقت؟! نحن في مثل هذا الموقف.

- ألم يكن الفلاحون حاضرين؟ - لا يكفّ وستقوه عن السؤال.

- وما الفائدة من حضورهم يا مبارك النسل؟ هؤلاء لا ينفعون في شيء. لا يتورعون عن إيذائنا بأي طريقة إلا إذا احتمينا بالإخوة حاغور التسعة... دع هذا الولد يكبر فيغلب حظه حظّ آل شرلأقوه. سيأتي يوم يكون لي فيه الغلبة

عليهم. لا أكتمك أي أشعلت النار في حقلمهم لأنه الوحيد الذي أقدر عليه. انقطع الصوت الأصم لأكجكوه أنزور فجأة. ومرة أخرى بلّ شففيه الجافتين والتفت إلى رفيقيه. يتظاهران بالاستماع إلى وقع حوافر الخيل ولكنهما يتفكران بألم في ما سمعاه. كم من المآسي التي تحدث في أرض الشابسغ كل يوم! ليست هذه الحقيقة وليدة اليوم، ولن ينتظرا الغد ليعرفاها. تعقب المأساة مأساة. ليست الأيام السعيدة كثيرة في عالمهم.

الأسر المتنفة من أمثال أسرة شرلأقوه وزانه وأباته... تهيمن على بلاد الشابسغ الجبلية مثل الرعد والبرق الذي عصاه النارية جاهزة في كل لحظة. يعيشون حياتهم وكل ما يريدون يتحقق لهم: مهما تمنوا، من مطر وريح... تحقق لهم. يفرضون نمط حياتهم وعاداتهم على الجميع.

يعيش آل شباكوه عمرهم لا فقراء ولا أغنياء. والناخوي الذين إليهم ينتمون يعيشون في سفح الجبل، ووجوههم نحو الشمال الذي هو قبلتهم، لا يستطيعون أن يديروا ظهورهم للجبال، يجدون في هذا بركة وفرحاً. يزرعون ويربون الماشية، ويتكاثرون، ويسعدون بأولادهم، وإن لم يسعدوا بهم فليس بيدهم إلا الحزن عليهم. ليست سماؤهم مشمسة دائماً، فلا تخلو البلاد من مصاعب، والتفاوت بينهم يتسبب في صدامات بين الأسر، فيرتفع صليل السيوف. ولكنك لا يمكن أن تساوي بين الناخوي والشابسغ الذين منهم المتنفدون من أمثال شرلأقوه وأباته وناورز وشكش. بدأ أحمد يفهم هذا الأمر منذ أن وصلت قدماه إلى ركاب الحصان، واستطاع أن يتنقل من مكان إلى آخر. ويظل يفكر في السبب ولكنه لا يجد مبدءاً له ونهاية. استمع إلى الأحاديث التي تجري في المضافات منذ سنين كثيرة، وساهم فيها، ورحل معهم إلى المعارك عند الضرورة. وحضر كثيراً من أفراح المتنفذين والفلاحين والعبيد. وعاش طويلاً وهو يعتقد أن الحظ يولد مع الإنسان. واقتنع طويلاً بالرأي السائد أن المتنفذين والأمراء هم من سلالة القمر. وحين سأل نفسه يوماً: هل يمكن أن يكون قد ولد مع مهنة المجبر؟ استطاع أن يجيب بنفسه بالسلب على هذا السؤال. والده أشتمر هو من وجهه إلى هذه المهنة. استطاع أن يتعلم المهنة من خلال تقليده له. هذه سنة

الحياة: الماء لا يستقر على رأس المرتفع. والمنخفض لا يبقى خالياً. والحصان حين يعدو في حماة الظهيرة ينشر الهواء حوله. والشجرة حين تخشى من الفناء تجدد نفسها، ولا ينبت الزرع ما لم تبذر الحب.

- ناديتي يا أحمد بـ "أخي الصغير" ولكن أظن أننا من عمر واحد. - قطع أكجكوه فجأة أفكار شباكوه.

- هذا رأيك يا أحمد؟ - أجاب دون استعجال.

- إن كنت أصغر من وستقوه بستتين يا مبارك النسل - لمعت أسنان أكجكوه من بين لحيته وشاربيه، وابتسم في وجهه، - أليس هذا عمري أيضاً. يقول وستقوه إنه وُلِدَ سنة الجدري المخيفة. وبعد تلك السنة بستتين مثلث أمام الشمس في موسم البطيخ. يقولون إن البطيخ أخصب في تلك السنة.

- قد يكون هذا السبب في أن رأسك كبير كبطيخة هائلة. - التفت وستقوه إلى رفيقه وانفجر ضاحكاً. وهز الحصان إحدى أذنيه.

- يا إخوتي الكبار، - أوقف شباكوه الحصان، - أرتكب عاراً. أنت يا وستقوه من يجب أن يحتل مكان الأكبر، أغفر لك لأنك الأكبر. نحن من مواليد العام نفسه حسب ما يروي أكجكوه. وأنا أصغر ببضعة شهور. فعلى رواية العارفين ولدت مع أول ثلجة. هيا يا أكجكوه قف إلى اليسار!.. وقف أكجكوه أنزور إلى يسار وستقوه دون تعليق فصار كل في مكانه الذي يمليه ترتب العمر.

- لم أكن أحفل بما تحفل به يا شباكوه. - ضحك وستقوه ذو الوجه المجدور، - كان كساؤك الذئبي اللون مناسباً ليتوسطنا فهيات لك هذا المكان. والله أرعبنا شرأفوه بنظرة واحدة. - وبقي كلامه دون جواب.

- ما العمل؟ قد يحدث أن اللباس يعلي شأنك. وقد يطير الكلام المحكم بقبعتك. ولذا لا تؤذني. ولا تدفعني إلى أن أفعل ما ليس من شأني. أليس كلامي صحيحاً يا أكجكوه؟

- صحيح، لم تُخطئ في شيء يا أخي الصغير.

- هذا هو الكلام المقبول، - ضحك شباكوه حتى اهتز حاجباه الكثيفان.

- ثبت الآن في مكانه.

مشى الفرسان الثلاثة بعض الوقت وكلٌّ في مكانه الصحيح. اختار وستقوه الخبث واثقاً من نفسه، وفي الوقت الذي كاد يلوح فيه تخم الغابة تسمّر الفرسان الثلاثة فجأة، وتوقفوا صامتين ممسكين بأعنة خيلهم. استقرت الشمس الحمراء على قمة الجبل. وشرعت تحتفي. وفي هذه اللحظة يفكر الفرسان الثلاثة في أمر واحد: أن يأتيهم اليوم الجديد كيومهم هذا؛ يدعون إلى الشمس أن تأتيهم بنهار لطيف، رعوده قليلة، ومطره غير عاصف، وأولادهم سعداء في أسرهم. والأحصنة الثلاثة تنظر هادئة كأنها فهمت مراد أصحابها. لا تحرك شيئاً مما عليها كأنها تخشع لهذا الإله الغارب.

وكما هو مألوف في غروب الجبال ساد مساء لطيف. وما إن ولجوا غابة تحمز حتى هبط ظلام كثيف يكاد لا يرى أحدهم فيه الآخر. وبعد مدة سأل شباكوه:

- الحق يا أكجكوه، ما أخبار حاغور الذي تتأمل منه الحماية؟

- وماذا تكون أخباره؟ لا هم أحياء ولا هم أموات. كبيرهم تزوج في الشتاء الماضي، وعنده الآن صبي يدرج.

- أعرف أن بداد متزوج. وماذا عن كريم؟

- وكريم يكدح في أرضهم الصغيرة بأظافره العشرة. ومن يُلُونَه: حبيج، وسَبَح، ولاق، ورشد، أراهم أحياناً في الشارع يتعاورون قبعة واحدة. ولاشين المسكينة امرأة طيبة جداً؛ وإلا فهل من السهل خدمة تسع قبعات؟ لم يسمعها أحد تشكو إليه.

- ولماذا هم تسع قبعات؟ هل تعد المسكين بداد بين من يحتاجون إلى خدمة؟

- يا حسرتي! من حسن حظ بداد أن عنده أمّاً حكيمة. ولولاها كان آل شرلاقوه ضموه إليهم. وآل أباته كأثمهم ليسوا من قضى والده على يدهم، يعيش على هامش الحياة قائلاً: الله خلق المتنفذين ومطايهاهم الخيولُ المخصية، والفلاحون في خدمتهم.

- وما الداعي إلى أن يقول مثل هذا؟ - استغرب شباكوه ما يسمع. - وهل

- هو كبير الإخوة التسعة عبثاً، هل فقد عقله؟
- والله لا أعرف. ربما لأن آل شرلأقوه أهدوه حصاناً بسرجه حين تزوج. وإلا فالرجل ما زال في عقله.
- الأمر لا يقتصر على آل شرلأقوه. الأديغة طوال عمرهم يُحسنون إلى من عنده فرح. ما سمعته وقتها هو أن فلاحي باستوك تكفلوا بنفقات عرسه.
- الفلاحون لا يقصّرون من هذه الناحية في شيء.
- ممّ يشكو الفلاح الأجير عند شرلأقوه إذن؟
- تقصد موسى؟ أخمن أن حاغور موسى أعقلُ الإخوة جميعهم. يبدو أنه أقرب إلى طبع والده.
- لم ألق بوالده غير أن آل أباته يتكلمون إلى الآن على رجولته. الرجل العظيم يتموا أولاده الكثيرين. يقال إنه نطق أسماء أولاده التسعة لحظة احتضاره.
- متى كبر آل حاغور وبلغوا سن الرجولة - شارك وستقوه الذي ظل صامتاً يكتفي بالاستماع، - فلا أحسد آل أباته فحسب، بل لا أحسد متنفذي الشبابغ كلهم.
- لا يُحسدون إن استطاع الإخوة التضامن. قال أكجكوه كأنه يحدث نفسه، ثم أضاف بصوت أشدّ تصميمًا: - آل شرلأقوه عرق خبيث عديم الإيمان. ألم تر ما فعلوه بالإخوة الثلاثة آل خوشت؟ فرقوهم، ورموا العداوة بينهم. يقيمون في باستوك يغلي قلب أحدهم متى رأى الآخر.
- في منتصف الليل اعتلى الفرسان الثلاثة مرتفع باستوك. كانت القرية توسعت إلى التلة الأخرى غير مكثفة بالتلة الأولى فلا تراها إلا إن أمعنت النظر. النجوم كبيرة في منتصف الجبل ولكن القمة العالية الملتفة تتغلب عليها فتغطي القرية بظلمتها. ومع ذلك تعرّف أكجكوه أنزور على بيته: يضيء مصباح زيتي صغير من تلك الناحية. وعلامة على أن في البيت أحداً يراقص ضوء المصباح أحياناً متأثراً بحركة أحدهم.
- ينتظروننا، - قال أكجكوه، - هذه أمنا تسهر على الولد.
- شفي الولد مما يستدعي السهر عليه. الرجل المكسورة التأمّت على حالها. ولا

يزالون يخافون أن يطاء الولد على القدم اليسرى التي لما تكتس باللحم. وأشد الخائفين على الولد هي الجدة التي لا توفر لعنة متاحة على آل شرلاقوه. ابتسم شباكوه أحمد وهو يتأمل الصبي المريض: هل كان من جبر هذه الرّجل أعمى؟ عليه ألا يفعل ما لا يُجيد، الأفضل له أن يعمل في ورشة الحدادة. بإمكانه في أسوأ الأحوال التحكم في المطرقة والسندان.

الصبي الذي استدعوا من أجله شباكوه أحمد في حدود الثالثة عشرة. لم ير أكجكوه أنزور في طفولته ومع ذلك فهو جالس أمامه كأنه رآه سابقاً يراه. لا تصدّق أنه من كُسرت رجله قبل شهرين. عيناه السوداوان الصغيرتان تتراقصان، لا تعباً بمن يتفحص رجله. ينظر إليه ظناً منه أنه أحد الفلاحين الذين يعودونه متى انتهت أعمال المساء. ينظر إليه راغباً في النهوض.

- ما اسمك أيها الصبي، هل يمكن أن نحمل اسماً واحداً؟ - مسح شباكوه على رأس الصبي المحلوق حديثاً.

- أنا اسمي نطار، أهو اسمك أنت أيضاً؟

- يا حسرة كدت تخمن اسمي! - مازح شباكوه الصبي. - أنا اسمي شباكوه أحمد. هل سمعت به؟

- لم أسمع.

- خمنت هذا. - ابتسم شباكوه وهو يرفع حاجبيه الكثيفين.

بدا من عيني العجوز التي لم تنطق إلى الآن، محتفظةً بغطاء رأسها الأسود رغم حرارة الجو، الواقفة إلى جانب الصوفا، أنها تريد أن تقول شيئاً، ولكنها لم تجد الفرصة لتتكلم.

- هل أنت من ذهب والدنا في طلبه، الآن تذكرت. - سرت البرودة فجأة في قلب الصبي، وتصيب جبينه عرقاً، وعض شفتيه.

- أليست رجلاً يا نطار، هل تخاف أن تقف على رجلك وأنت في الفراش؟ - سأل شباكوه بعدما عرف جزع الصبي.

- أطأ عليها ولكن نانا ترفض. - ونظر الصبي نحو جدته.

- يا صغيري إياك أن تقف!.. - صرخت العجوز.

- اطمئني يا أمنا؛ لن يتأذى الصبي. الساق التأمت تماماً لولا أنها عوجاء.
- غداً إن شاء الله سنفعل بها شيئاً. تصبحوا على خير. - مسح شباكوه على رأس الصبي، وعاد إلى الغرفة المجاورة.

رجع المضيف أكجكوه على إثر شباكوه ووستقوه. وجهاز الطعام في منتصف الليل. وخلال تناول الطعام لم يجر أي حديث يتعلق بساق الصبي. كان أنزور يخفي قلقه، كان يتوقع أن يقول الطبيب شيئاً بعد الطعام. ولم يجد من اللاتق أن يسأل في حضور الضيوف. ولما لم يقل شيئاً تبادل الرجلان تحية الليل وافترقا.

نحس شباكوه ووستقوه باكراً رغم سهرهما إلى وقت متأخر. وانقضى الفطور دون الخوض في موضوع الصبي. كان شباكوه راضياً عن تنفيذ تعليماته بأن يتركوا الصبي ينام مرتاحاً:

- والآن يا أنزور نتكلم في موضوع الصبي. عندي لك رجاء واحد: لتخرج النساء من البيت! والأفضل أن يذهبن إلى الجيران. ثم أبعد عن المسطبة الطينية بجانب الموقد كل ما عليها باستثناء الوسادة. وضع فوقها لوحاً خشبياً سميكاً مشرباً بالماء الساخن. والباقي مهمتنا، وستقوه وأنا. وإن قررت البقاء معنا فلا مانع لديّ. ثم رجاء آخر: اثبني بمن جبر ساق الصبي.
- هو في أرض الدار منذ أن سمع باستقامتي لك. - قال أنزور، وانصرف إلى مهامه.

انفتح الباب، ودخل شاب غليظ القوام في حدود العشرين من العمر:
- نهارك سعيد! - رفع يده وحيّاً. - جئت يا شباكوه إذ سمعت أنك تطلبني.
- اجلس إذن!

- لا، سأبقى واقفاً. - ولم يفارق جانب الباب.
- هل تعرف ماذا أنوي أن أفعل بالصبي؟
- لا، سأعرف متى أخبرني. - قال بصوت خشن، وأضاف: - أنا خدمته على قدر استطاعتي، ولم أنجح. - أطرق الشاب برأسه، وباعد بين قدميه.
- أنوي أن أكسر ساق الولد من جديد.

- لم أسمع بمثل هذا. - دارت عينا الشاب في محجريهما - هذا قدرٌ من الله يا شباكوه، - الأفضل أن تتركه على حاله.
- لا يقال للطبيب مثل هذا. - إن كنت لا تعرف من أين يأتي الخير فالأفضل أن تتعلمه. عليك أن تساندني.
- هذا خارج قدرتي يا شباكوه، لا تجربني!
- وأنا أحس كما تُحس بالألم! إن لم نفعل هذا فسينادي الناسُ الشابَّ نظار بالأعرج!
- وإن كانت عاقبة الخير الشرِّ؟ - تشجع الشاب فأجاب.
- يم تناديك القرية يا أخي الصغير؟
- تناديني بترز شعبان يا أخي الكبير.
- سنتناسى اليوم موضوع الشر يا بترز... تعال نتجه إلى الخير. يحدّثني قلبي أن مرادنا سيتحقق. لا بد أن الصبي جاهز، أرى والده قادماً.
- تبع أكجكوه الرجال الثلاثة الذين خرجوا من المضافة ودخل الغرفة. وقف وستقوه على رأس الصبي كي لا يرى والدّه كيف ينيمون الصبي على لوح الخشب المغمور بالماء الغالي. وشحب وجه الصبي كأنه يعرف أن بانتظاره ألماً شديداً. أخرج شباكوه من جيبه رزمة ملفوفة من الحشيش اليابس. وغمرها بعض الوقت في الماء الغالي ثم أخرجها. وشم عن ذراعيه وشرع يفرّك الحشيش المبلول. لم ينبس الفتى طوال هذا الوقت بكلمة، فما كنت تعرف أنه هو من كان أمس نشيطاً في فراشه. ولما شرعت رائحة مرة تنبعث من الحشيش مد الرزمة إلى بترز شعبان:
- خذ، شُئها أنت أيضاً...
- وفي الحال حصر وستقوه يدي الصبي الذي كان يشم الرزمة إلى المسطبة، ونام على جسده ب صدره. وقبل أن يجد والده الملتحي الفرصة ليعضّ شفتيه أعاد شباكوه كسر الساق الملتوية بحركة واحدة.

عربات الشابسغ التي تجرها الثيران، وفرسانهم، ومشاهم يتوافدون منذ ثلاثة أيام إلى السوق التي ستُفتتح غداً في بُشْدَه على الساحل. وليس الشابسغ وحدهم، فإن أنصت إلى الناس سمعت أصوات البجدوغ والأبزاخ والجمكوي، بل لا يتأخر النغوي البدو الذين يقطنون أعالي نهر بشزَه عن سابقهم. وهم يراقبون الطريق بحذر لأنهم يعرفون أنهم في بلاد غريبة، ويتبادلون نظرات الاطمئنان.

كلما عصرت الجبال الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى مضيق بشده غلظت أصوات رواد السوق وتعاملهم، وارتفعت أصوات احتكاك عجلات عرباتهم بالصخور في أسافل الجبال. ونهر بشده الصغير تتعر مياحه بالصخور، ثم تصب في المضيق المريح. ولكن هذا لا يخفف سرعة النهر. وهو يتقافز بموجاته كأنه فرح بالمأساة التي تنتظره إذ سيبتلعه البحر، وينفرج عن حصاه البيضاء كأن الفرح لا يسعه.

كان ضوء الفجر في المضيق يكاد ينبلج حين انحدر الفارسان من الجبل واجتازا النهر. والحصانان يتصاعد منهما الغبار دليلاً على أنهما قطعاً طريقاً طويلاً. والرجلان المكتنفان أمام الفارسين يثقلان على الحصان. سار الفارسان على الضفة بعض الوقت لا يكاد أحدهما يلحق بالآخر.

- يا مَقاي!

- ماذا يا مامرقوه؟

- يخطر لي أن أسألك فأنسى، أنت أبزاخي ومن سكان الجبال... ما حقيقة هذه الصخرة الكبيرة؟

- ليس عندكم في الجمكوي مثل هذه الصخرة يا مامرقوه، فمن أين لك أن تعرف. هذه مسكن الأقزام التي في الحكايات. والشابسغ يسمونه اسماً آخر.

- أهذه هي؟.. قل لي من البداية، سمعتهم يتحدثون عنها. لا أظن من نحتوها كانوا يفتقرون إلى القوة، ولكن لا أعرف كيف كانوا يعيشون فيها...

- ليس مسكن الأقزام صالحاً للسكن.

- ماذا إذن؟

- مقابر لهم متى ماتوا.

- ألا تقول لي هذا من البداية يا مقاي!.. والله عجيبٌ هذا الإنسان البائس: يوصي بيت له في الصخر متى مات. استمتع بالحياة يا مقاي ما دمت حياً. ما حاجتي إلى مثله بعد الموت؟ ليعبثوا بجثتي إن أرادوا!

- وهذا كلام حق يا مامرقوه. ولكنك تتمنى أن يعاملوا جثمانك باحترام... رفع النبيل مامرقوه أنفه وضحك من كلام مقاي، واعتبر ضحكته المدوية جواباً لمقاي.

منذ خريف العام الماضي، بل خريفه وشتائه، كانت السفن التركية على الشاطئ معدودة، تنقطع عن الشاطئ خريفاً وشتاءً لصعوبة الإبحار. وتبعاً لهذا كانت الأسواق الموسمية تنقطع. وإن وُجدت كانت محدودة بالقياس إلى أسواق الصيف. وفي الشتاء كان يحدث أن تتحدى السفن الأمواج العاتية فتعبرها. ولكن ليس بمثل هذه السفن المعدودة كانت الأسواق تنعقد، فهذا هي السفن الآن ترسو هنا وهناك بانتظار السوق التي ستفتتح غداً. وتتجه إلى الشاطئ الأديغي واحدة تلو الأخرى، ولا تعود إلى حيث انطلقت محملة. وكلما اقترب النهار من الأرض ارتفع ضجيج النهر إلى عنان السماء. وفي كل مكان تسمع حممة الخيل ولهاث الثيران. وإلى جانبها أصوات إطلاق نار من المسدسات، لا لسبب إلا لترجية الوقت. عربات الثيران محملة بجلود الماشية وبالات الصوف. والصناديق المختومة مملأى بالسمن والعسل. وتبدو كرات الشمع البيضاء - الصفراء في كل مكان من السوق. وأسراب النحل لا تدع لك طريقاً كأنها ضئيلة بعسلها. ورغم أن السوق جاهزة منذ اللحظة فلا أحد يفكر في البيع أو التبادل. الجميع يتفقدون ويسألون، والأسرّ منهم يجلسون في مجموعات. وفيها يتردد سؤال الأديغة الأزلي "ما الأخبار؟" والأصاغر سنّاً يخترعون ألعاباً متنوعة: يتسابقون على خيولهم، ويسدون على الأهداف، ويتصارعون، ويرددون مع الأغاني. وحين يأتي المساء، ويتحلقون حول النار تلتهب حكاياتهم وألغازهم مع النجمة المسائية الأولى.

أما من لا يعرفون الراحة فهم الفرسان الحراس على الشاطئ. الشيخ الذي يضع

المصحف في حضنه محاطاً بأكياس الملح. ومن السفينة التي رست خرجت مجموعة في قارب صغير واقتربت من الشاطئ. وفي الحال وصل الفرسان، ونهض الشيخ من مقعده الوطيء.

- أهلاً، - خاطب الشيخُ البحَّارَ بالتركية. أخرجوا الصناديق من القارب ونقلوها إلى مكان مسقوف. - ماذا في سفنتك من بضاعة ممنوعة عندنا؟ - ليس في سفنتي مثلاً هذا.

- احلفْ على القرآن!

- أحلفُ بالقرآن أن لا شيء في سفنتي لا يتوافق مع بلادكم.

- احلفْ أيضاً أنك لا تأتِي بالكوليرا إلى بلادنا.

- أحلف بالقرآن أني لم آتِ بالكوليرا في سفنتي.

- تفضَّلْ أيها الضيف، - أعاد الشيخ المصحف إلى الطاولة وتبادل هو وقريبه

الملاح العناق الدافئ. - ما الأخبار في نواحيكم بإذن الله يا دكتاش؟

- بخير يا شيخ.

- كل هذا بأمر الله.

- نعم يا أفندي.

- ما أخبار حسن مراد بإذن الله؟ لم يعرِّج إلينا، لا أعرف ماذا ينوي.

- حسن مراد بخير يا أفندي، سيصل بعدي. أتوقع أن يصل بعد بضع ساعات في المساء.

سُمِحَ لكل من يصل إلى شاطئ الأديغة بالدخول إلى البلاد بعد أن يحلف بالقرآن. ويؤخذ من كل مركب كيسُ الملح الذي هو طموح الأديغة الأزلي أجرة للرسو. وستوزع أكياس الملح على قرى الشابسغ منذ الغد كيساً لكل قرية.

وقبيل الفجر في اليوم التالي افتتحت السوق. يبادلون القادمين من تركيا الأقمشة والبارود بجلود البقر والخراف. يتفقدون الأقمشة الناعمة التي تُلفُّ بها الخناجر والسروج. وإلى السفن ينقل الحمالون الجلود وصناديق السمن. ويملؤون المراكب بالأكياس. والعبيد الذين جرى شراؤهم يجلسون بوجوه فرعة، يتبادلون نظرات القلق بانتظار المراكب التي ستُقلُّهم: هذا يبكي، والآخر يضحك،

والثالث يصيح.

- لا تبك يا أخي الصغير، - يقول أحد الفلاحين الشباب لغلام يمسح دموعه بطرف قميصه. - ليس من اشترونا أسوأ ممن باعونا. الأمر الوحيد الذي بيدنا هو هذا، لا تنس طرف السماء، يشير للصبي إلى السماء الجميلة بين الجبلين المزدانين بأجمل الأعشاب.

- لا تنسوا الله أينما ذهبتم، - يخاطب الأفندي حامي ديار الأديغة من الغرباء العبيد المباعين. - اذكروه في سركم!

- أخرس الله فمك!.. - لعنت إحدى الإماء الأفندي.

- لا تنس يا مامرقوه أنني تعهدت بالعودة! - يلتفت الشاب المقيد إلى النبيل المجرم لحظة ارتقاء المركب. ثم يستعرض صامتاً غابات الجبل الساحلي.

ومن هذا الجانب تغلي سوق الأديغة: الأقمشة تُباع، ويوزن السم، ويُختبر العسل باللسان، وتكُدس جلود البقر الجافة. ويملاً أحدهم مسدسه بالبارود الذي اشتراه، ثم يطلق النار مختبراً إياه. ويتناقلون فيما بينهم ماء النار لاختبار الذهب. وتلمع خيوط الذهب في الشمس حين يمدونها. ويفكرون مختلف أنواع الجلود. ويكنسون بالمقشّات ما على أقمشة الكساء من غبار. ويحمل الترك والنغوي ما اشتروه من الأديغة من سروج. وينشرون على أكتافهم الأغصية القصيرة، يتبادلون الابتسامات، ويتشاحنون، ويتصالحون.

انتهى مامرقوه ومقاي من بيع الرجلين اللذين جاءا بهما ولذا يتسكعان في أنحاء السوق وأيديهما خلف ظهورهما. وإن تركا السوق فليس لهما بيت يأويان إليه إلا أن يهيما على وجهيهما إلى حيث تسوقهما أقدامهما. كانا اعتادا التوجه إلى شرلأقوه ناغوه متى انتهيا من السوق، ولكن الأخير غائب. سمعا أمس أنه جرت إعادة الريب إلى أهله في البجدوغ.

توجه مامرقوه إلى حيث بدت مجموعة من الأقمشة الملونة. وفي الحال رأى العجب: حسن مراد الذي تعرف عليه العام الماضي في بيت شرلأقوه ناغوه يعاين نوعاً من الأطلس السميك الجميل، وإلى جانبه شاب تركي آخر.

- سلام عليكم يا حسن مراد!

- عليكم سلام.
- ألم تتعرف عليّ؟
- عندما انتهى حسن مراد من معاينة القماش نظر إلى مامرقوه، واستقبله بكل ضخامته ماداً يديه:
- يا مامرقوه، كنت مشغولاً بالنسج فلم أعرف من يناديني. - قال بالتركية والتفت إلى الشاب بجانبه، فبدأ الشاب يترجم إلى الأديغية. - كيف تقضي وقتك وماذا تشتغل؟ وهل آل شرلأقوه بخير؟
- لا بأس بحالنا، وآل شرلأقوه بخير، وعندهم فرحة كبيرة.
- وهل تزوج علي سلطان؟
- ألا يزال شاباً على الزواج؟
- ما مناسبة فرحتهم إذن؟
- أعادوا ربيهم إلى البجدوغ. هل تتذكر ألقس؟
- وكيف لا أتذكره؟ والده الأمير الكبير حجمقوه صديقي، أقرب إليّ من شرلأقوه.
- إن كان صاحبك فكيف لم يدعُك إلى فرحتهم الكبيرة اليوم؟
- لو عرف الأمير حجمقوه قانشاو بوجودي هنا لبغني. هل مضى وقت طويل على إعادة ألقس إلى أهله؟
- أول من أمس.
- ليس هذا بالمدة الطويلة؛ ما رأيك يا طلعت؟
- هذا قرارك يا أفندي.

-5-

شاع في باستوك خبرُ إعادة كسر رجل الصبي ابن أكجكوه أنزور، وإعادة جبرها. ورغم أن الموسم موسم عمل في الحقول فالذين عادوا الصبي من جيران وأصدقاء... كثيرون. كان الزوار الذين لا تتسع لهم غرفة الصبي يجلسون في الغرفة الأخرى، أو يقفون في الفناء. ومن لا يدعون لك طريقاً هم الصبيان.

وإلى المساء، وقت إقامة حفلة الجابشه¹، يظل هؤلاء الصبيان يحتلون الساحة. لم ينقطع الطرُق على السندان، المُشعَّرُ بقدم ضيوف جُدد إلى الجابشه، منذ المساء. وكان يصدف أن تأتي طرقات جديدة وأصحاب الطرقات الأولى لم يدخلوا غرفة المريض بعد. ولم يكن أحد يجد من اللائق الدخول دون طرُق. ويخيل إليهم أن وطأة الألم تخف كلما اشتد الطرُق. والصبيان هم من في قمة السعادة. لا يدخرون جهماً لطرُق السندان بكل قوة.

ازداد عدد الزوار من كبار الأعمار منذ غروب الشمس. وشباكوه الذي يتأمل تراجع آلام الصبي ينتظر مع رفاقه في الغرفة الأخرى. الأخبار المتنوعة التي وصلت من الشابسغ كثيرة. ووصل حديث السُّمَّار مع انتظار الطرقات على السندان إلى الأبراخ والبجدوغ، بل إلى الجمكوي أبعدهم عنهم. ولم ينسوا القوزاق على الضفة الأخرى لنهر بشزه. ورتبوا أمور خان القرم وبلاد الترك. نادى شباكوه مرة أخرى الشابَّ بترز شعبان الواقف إلى جانب الباب طوال اليوم:

- بترز، يكفيك وقوفاً، هيا اجلس!

- لا يا أخي الكبير، لا تطلب مني هذا، ألسْتُ الأصغر!

- نَقِّدْ ما يطلبه منك الكبير وإن كنت الأصغر. - لم يقبل وستقوه، - تتجاهل أوامرنا طوال النهار.

- لا، لا تقل هذا، الله لا يقبل العصيان، أنا اعتدت الوقوف على قدمي طوال النهار.

- أتعن نفسك في الورشة؟ اجلس متى طُلب منك! - نهره المضيف أكجكوه. سمع شباكوه اسم الورشة فنظر نحو بترز شعبان. تذكَّر أنه قال وهو ينظر إلى ساق الصبي مساء أمس: هل مَن جبرها حداد؟ وصباح اليوم حين رأى غِلظ تكوينه الجسدي واعوجاج قدمه حكم بأنه حداد، ولكنه لم يجد من اللائق أن

¹ حفلة سمر تقام للجرحى وأصحاب الكسور الثقيلة للترويح عنهم، لها تقاليد معروفة ربما اندثرت الآن.

يسأله إن كان بيظرياً يركب النعال للدواب، فتناسى الأمر. والآن تأمل بعمق الشاب الواقف إلى جانب الباب: وجهٌ مرَّكَّبٌ من أنفٍ ضخمة وعينين واسعتين، والذراعان كأنهما تصلان إلى ركبتيه خلافاً لما يتناسب مع قامته. وأعجب ما فيه أذناه النافرتان كقطعتين من الشلامه¹ غيرِ ناضجتين. وفوق العنق الغليظ الذي لا يبين بين الكتفين رأسٌ ثقيل. ولما اكتشف شباكوه الآن ما لم يره فيه هذا الصباح ابتسم فنظر إليه بمزيد من الرضا دون أن يعرف السبب.

كان الرجال مشغولين بحملٍ بترز على الجلوس، غير أن ما كان يشغله ويبهجه هو طريقة طرق الزوار على السندان. الإنسان البسيط مركب بطريقة عجيبة. لكل إنسان أسلوب في حياته كما له طريقته في الضحك، وفي البكاء، وفي الطعام، وفي طريقته في الغناء وطريقته في السير وطريقة عيشه. ولا تذهب بعيداً إذ يمكن اكتشاف هذا في أسلوب الطرق على السندان. هذا يُصدر له صوتاً رناناً، والآخر يُسرّع به، والثالث يُصمُّه، الطارق يرهق السندان.

سأل شباكوه:

- هل أنت حقاً حداد يا بترز؟

- بإذن الله، وإن سمح إلينا الأكبر فأنا حداد. - أجاب الحداد، ثم سأل بلا مناسبة: - هل تستغرب مهنتي يا أخي الكبير؟

- ولماذا أستغرب يا أخي الصغير؟ ما دفعني إلى السؤال هو تخميني مساء أمس أنك حداد. - ألقى شباكوه نظرة أذفاً إلى الحداد.

- هذه عاقبة تدخلك في عمل لا تتقنه، - لام الحداد نفسه، - رأيت أسرة أكجكوه في محنة فقلقت معهم؛ وإلا فأنا لا أعرف شيئاً عن مهنة التجبير يا أخي الكبير. رأيت والدي بضع مرات يفعل هذا فتشجعت على اقتراف المأساة...

لام شباكوه نفسه حين استمع إلى كلام الحداد الشاب. هذا هو السبب في ضرورة الامتناع عن الحديث عما لا تعرف. إذا كان الأمر كما تروي أيها

¹ نوع من المعجنات.

المسكين فأنت طبيب ماهر. لم تخطئ في ما فعلت. حميت روح الصبي. وأزحت
المأساة عن آل أكجكوه. لا يليق بجدة نطار أن تغتابك. وأنا أراجع عن
الكلمات القاسية التي وجهتها إليك.

- أحسنت يا بترز!.. اجترحت رجولة، لا تندم على ما فعلت. غلبت
معروفك على العيب.

- كان بترز أفضل حداد في المنطقة فوثقنا بإمكانه في معالجة الصبي. - قال
أحد فلاحي آل أكجكوه، - لا شيء يعجز عنه آل بترز، حافظوا على هذه
السمعة طوال عمرهم.

- لا، الأفضل أن أبقى حداداً.

- من حظ الإنسان أن يفعل ما يتقنه. - وافقه شباكوه، - ولكن هذا لا يعني
ألا تساعد من في مأزق. انتقل والدي إلى رحمة الله وهو يردد: الإنسان لا
يعجز عن شيء يحاوله. لا يولد الإنسان وهو ماهر في كل أمر. يعتاد على
الحياة بأعمال الخير وبالضرورات، ويجني منها نصيبه من العمر. حتى الطفل
الذي يسقط في أول محاولة له للمشي فينكسر أنفه لا يتوقف عند هذه
المحاولة، بل يحرص على عدم السقوط، ويتقدم.

قال أنزور في نفسه: يتكلم شباكوه كعجوز حكيم بما لا يتناسب مع عمره.
ويجري الكلام على رجولته في بلاد الشابسغ بما لا يتناسب مع عمره أيضاً. من
المعروف أن الطبيب يعرفه من يحتاجه ومن لا يحتاجه. هذا غني عن البرهان.
الرجولة... رجولتك ليس من السهل أن يتكلم الناس عليها. لا يستوي الجبن
والشجاعة. الجبان يشيع جبنه بسهولة، ولا يبقى أحد يجهله. ومن لا يعرفه
يعرفه. ومن يعرفه يزداد معرفة به. أما الرجولة فانتشارها بين الناس صعب. لا
يقتنع بها كل من يسمعها. الرجولة تقف رجولةً في وجهها. ربما جابه شباكوه
كثيراً من أمثال هذه الرجولات. أليس من الرجولة أن تنهال بالسوط على ظهر
شرلأقوه الذي ترتعد منه بلاد الشابسغ.

نخص الجمع فانقطعت سلسلة أفكار أكجكوه وذكرياته. وتبعهم حين فهم
أنهم سائرون. وشعر في نفسه بشيء من الحرص على الصبي فلم يجد من

المناسب أن يقف على رأسه. ملاً الخارجون من المضافة الدار بصوت طرق قوي. ودوّت طرقه بترز عالية كأنه يريد أن يعلمهم طريقة الطرق.

خلت الغرفة تقريباً حين خرجت مجموعة الصبيان من الجابشه. الصبي نظار ممدد على الفراش المبسوط على مكان مرتفع. وعلى الوسادة الكبيرة يظهر رأسه الحليق. وفي طاسة الماء الكبيرة التي أمامه على المقعد الوطيء بيضة كبيرة ربما بيضة دجاج رومي. وجدران الغرفة الأربعة مطلية بالطين. ومن السقف يتدلى قرص الأبوة¹ الذي أكل نصفه.

لم يُبقِ الشباب الذين لهوا طوال اليوم طرفاً من القرص لم يعضوه. وربما لم يبق لهؤلاء شفاة وأسنان. المصباح الدهني على النافذة يُصدر أصوات احتراق مميّزة. وهو يكشف عن سُحنة أي شخص وإن لم يكن منيراً تماماً. والشباب يقتربون واحداً واحداً من طاسة الماء فينثرون منها على الصبي. ولما حان دور شباكوه لوى المريض وجهه المنتفخ الصغير، يريد ألا يرى طبيبه.

- نظار، أرجوك أن تنظر إليّ، لا يجوز أن نتعادي أنت وأنا. منح شباكوه مع الصبي.

- كيف أنظر إليك وأنت من كسر رجلي!.. - دمدم الصبي من جهة الجدار.
- من يستحق هذا الكلام هو شرلأقوه علي سلطان، لا أنا، - دغدغ عنق الصبي.

- وأنت أيضاً... - لم يقتنع نظار.

- إن كنت تفكر هكذا فقد سُفّيت!.. أين هو قرص الأبوة؟ دعوني أضدمه
- جثا شباكوه على ركبتيه. وفيما يحادث الصبي كان القرص جاهزاً أصلب من الحجر. وجلس واحد ممن في الغرفة من الطرف المقابل له. - من كان يجب أن أباريه في هذا هو بترز شعبان، لا أنت، ولكن لا بأس بك. - مازح غريمه،
- أفلتِ القرص الآن إن كنت رجلاً!..

¹ بالشركسية تعني الكلمة شيئاً يُضرب بالفم. ويكون قاسياً جداً لاختبار شجاعة الشباب الذين يتنافسون على اقتطاع جزء منها بأيديهم مقيدة.

بدأ القرص يتحرك في الاتجاهين فبدأ الغريمان يحاولان النيل منه. تظاهر شباكوه أنه يحاول الإمساك به بيده فلم يقبل المحتفلون. وطلبوا منه أن يضع يديه وراء ظهره. ونظر نطار المريض فضحك. وحاول الرجلان النيل من القرص دون جدوى. عضّ شباكوه بقواطعه فلم يصبه بل لطمه القرص فألمته شفتاه. ومع أنه لم يتألم كثيراً فقد ركض في أرجاء الغرفة متظاهراً بالألم. والتفت إلى الصبي الذي علّق شامتاً:

- تستحق هذا، جرّب إن كان الألم ممتعاً!

استمرت ضجة الحفلة طوال الليل. لم تبق لعبة لم يتكروها من أجل تخفيف الألم عن الصبي وإلهائه عن رجله. كان المرح والضحك يغلبان على كل الألعاب. وانصرفوا إلى الحكايات والغناء، وكان لكل هذا هدف واحد هو الصبي الراقص في الفراش.

في اليوم التالي خرجت جماعة شباكوه إلى ظاهر قرية باستوك بهدف ترويض الخيول، وتوجهوا جهة الجبل.

كان الجو معكراً، والشمس تلسع كالنحل، ويخيّل إليك أن ليس في الدنيا موضع ظل بمقدار شبر. الموسم موسم حصاد والجميع منهمكون فيه. تركوا طريق البرية من أجل ألا يتهمهم من يراهم بالكسل، وتوغلوا في الجبل. سقوا الخيل، وأرسلوها في المرعى. وفي العودة لم يسلكوا طريق الذهاب بل التفوا نحو برية آل شرلأقوه بتوجيه من أكجكوه أنزور. خطر له أن يُري شباكوه حقل القمح العائد لشرلأقوه، والذي أشعل فيه النار. ولما اقتربوا من الحقل لفت شباكوه انتباه الجميع رافعاً صوته:

- هذا هو الحقل الذي حدّثك عنه قبل أيام.

الحقل في المضيق يكسوه سواد الحريق.

- يا حسرتي، لن تضرّ آل شرلأقوه بهذا شيئاً. ما يحزّ في نفسي هو عرق الفلاحين الذي ضاع سدى فيه.

براً أنزور نفسه.

- وعرق جيبني فيه كذلك، ولكن ما العمل...

حسنٌ أنك تتفهم يأس الوحدة، قال شباكوه في سرّه، والتحق برفاقه الذين سبقوه. وبعد ما ساروا بعض الوقت وصلوا إلى حقل قمح ضيق. لا يزال وحيداً إلى الآن لم تمتدّ إليه يدٌ بشر.

توقف شباكوه:

- يا أسفي، سيفنى ما فيه.

قال أحدهم:

- لا يجد المسكين الوقت لحصاده.

- متى ينتهي من محاصيل شرلأقوه ليتفرغ لحقله؟! هذا الحقل لتخخواخوه نبافؤه البواب. - ترجل أكجكوه من الحصان. لم يطأ أرض القرية منذ أسبوعين. يعمل في محصول شرلأقوه. هو على البيدر الظاهر أمامكم.

لم يتجاوز الفرسان حقل القمح.

يتأثر قلب الفلاح متى رأى محصولاً يتبدد في مكانه. ولا يتجاوزه ما أمكن. قررت المجموعة حصاده. عاد الفارسان اللذان هُرعاً إلى القرية دون تأخير بالسلال وبقاطعات السنابل. ومع الغروب كانوا جنوا السنابل، وأتوا بها إلى البيدر القريب.

وفي اللحظة التي نفضوا فيها الغبار عنهم وقرروا الركوب وصل تخخواخوه نبافؤه حاملاً شوكة خشبية كبيرة. حياهم وقال لهم مستغرباً ما يرى:

- الحق يا شباكوه الذي نسمع به ولا نراه؛ هل قطعت كل هذه المسافة من الناتخوأي لحصاد المحصول!

- فعلت هذا لأنهم قالوا لي إنك مشغول يا تخخواخوه. - استقبل شباكوه الرجل كما لو كان صديقاً قديماً. - إن كان هناك ما لا يعجبك فأخبرنا. لم تسقط منا سنبله قمح ولا حبة. ليعمل أحدهم عندك أيضاً كالعبد!

ضحك الجمع.

- ليجعل الله كل العبيد الذين تحت النير مثلكم! - ضحك تخخواخوه أيضاً... رأى شباكوه ووستقوه حال الصبي نطار يتحسن فخرجا من باستوك، وكما تُملي واجبات الضيافة ودعوها إلى ظاهر قريتهم، وتابعوهما إلى غابة تحمز.

سمع حسن مراد الخبر الذي يجري تناقله في البجدوغ فلم يتردد في زيارة الأمير الكبير لتهنئته. وعلى كل حال سيزور تلك المنطقة: أفاق باكراً في اليوم التالي، وسافر. رافقه مامرقوه ومقاي ففرح كثيراً بهما، إذ سيجنبانه أي خطر حتى يصل إلى بيت الأمير. الله حريص، والأفضل بعده أن يأخذ المرء حذره.

مضت على العلاقة بين حسن مراد والأمير الكبير بضع سنوات. وفي تلك الأيام كانت التجارة جديدة على بلاد الأديغة. وهو يقدر العلاقة بينه وبين الأمير. ولا يتذكر أنه دخل بلاد الأديغة دون أن يلقي عليه السلام. ويروي حسن مراد كثيراً أنه لولا الأمير الكبير لما وجدوا جثته في أكثر من مناسبة. كان في تلك الأيام التي تعرض فيها للأخطار أكثر شباباً وثوراً، يعيش لا يحسب حساباً للحيطه والحذر. ومن أين كان سيعرف موقف الناختوي من الأترك. أقام في بلاد الأديغة يروح ويغدو أينما أراد، معتداً بنفسه، كأنه خلق فيها، يرسل الناس الذين يشتريهم إلى الساحل، ومن هناك إلى تركيا.

- في الناختوي شاب اسمه شباكوه؛ أهو حي، ألم يقض على يد أحد إلى الآن؟
- سأل حسن مراد مامرقوه بعدما صحا فجأة من أفكاره.

- سألتني عن شباكوه؟ سمعت سيرة شخص بهذا الاسم... لم يكشف مامرقوه عن معرفته بشباكوه. - بلاد الأديغة تتحمل كثيرين من أصحاب النزوات المجنونة. من يهتم هؤلاء؟ يودون أن يُسمعوا الجميع وقّع حوافرهم من قبل أن يُخلقوا... ثم إني أجنب يا ضيف أمثال من تأتي على ذكركم من الصبيان الذين ما تزال أنوفهم تسيل. أهينهم وأتركهم.

- وهذا حق... ولكي رأيت في شباكوه رجولة.

- هل أهانك؟

- لا أعرف إن كانت إهانة. كان فعل بي هذا أمام الناس في عز الظهيرة: اعترض على شرائي الناس وبيعهم في تركيا، فحملني مكتفياً على حارك حصانه. وفيما هو في طريقه إلى النغوي البدو لبيعي لهم ساق الله إليّ حجمقوه قانشاو الأمير الكبير، فجعله يُطلقني. وبعدها سمعت بعض أخباره مرتين أو ثلاثاً،

ولكن لا أعرف ما جرى له... وكان معه رجل مجدور الوجه يظل يبتسم لي.
يقال إن الناتخوي يكرهون الأتراك... ماذا قالوا؟ لا أعرف بنفسى، ولكن لا
أعرف ما فعل الترك بهم...

- يا ضيفى والله أهانك الناتخوي الثرثارون ذوو الوجوه الشقراء. - ابتسم
مامرقوه فى سره وصورة شباكوه ووستقوه ترتسم أمامه. - وهل يفعل مثل هذا
برجل مثلك؟! هذا لا يليق، لماذا لم تخبرني إلى الآن؟ من أجل هذا يقول
الأديغة: المذنب يقفز طليقاً، والبريء تنهراً قدماء. والله لن أغفر هذا لشباكوه
يا ضيفى. لا يجوز أن تفعل هذا بضيف البلاد حتى لو لم يكن أحدنا يعرف
الآخر!..

انفعل طلعت، المترجم بين التاجر حسن مراد ومامرقوه، الواقف جانباً، وهو
يترجم عبارة "الضيف لا يفعل به مثل هذا" فهل يليق بضيف البلاد أن يشتري
أحداً ويبيعه فى بلاد أخرى؟! هذا الذى تولونه كل هذا الاحترام ليس كما
تتخيلونه. لا تعتزوا به، ولا تدعوه يخدعكم. دمر مستقبل العديد من الناس بما
فى كيسه من المال. ودفع كثيراً من فتيات الشراكسة فى دور البغاء إلى أن
ينحرن أنفسهن بالمقص.

- لا حاجة إلى أن تقول شيئاً لشباكوه من أجلى.

- ما الأمر أيها الضيف؟ هل تخاف منه؟

- لا أودّ أن يشيع اسمى فى هذه الحادثة.

- ولماذا يشيع؟

- إن كان هذا رأيك فتصرف كما تريد!

- والله لن أقبل أن يُهان ضيف البلاد. ونحن ولدنا فى أحد أطراف بلاد
الأديغة. جمالها جمالنا، وقبحها قبحنا!.. لا ضرورة لأن نبرز اسمك يا ضيفنا. أنا
أعرف سبيلاً للوصول إليه. وهل غريب أن تشتري أولاد الفلاحين؟ عليهم أن
يفرحوا إن أصبح لأحدهم قيمة يُشتري ويبيع بها!.. شكراً لك إذ تدفع أسعاراً
لا نستحقها. سأجعله يتوب إلى الأبد عن إهانتك!.. - تظاهر مامرقوه
بالغضب. ثم قال فى نفسه: ليعطك الله عمراً إلى أن تراني جابهاً شباكوه.

- ليرض الله عنك يا مامرقوه! - قال حسن مراد بحيث لا تعرف إن كان صدق ما قاله له مامرقوه أم لم يصدّق. سأعتبر أبواب بلاد الأديغة مفتوحة لي إن ساندني أمثالك. حين أجوب هذه البلاد أتنشّق الغبار، لا أعد هذا مفخرة لي فحسب بل أساعد الأديغة في ما ليس عندهم. آمل أن يذكرني يوماً ما بالخير، - الشكر لهم، حتى وإن لم يقدّروا أفعالي، فلا عتب لي عليهم، فكثيرون من أمثالي يرحلون عن العالم إلى الجنة. سأخدمهم بقدر طاقتي. يا إلهي لا تحرم بلاد الأديغة من الخير الدائم!..

نعم، نعم، ومن أجل أن تغتني منها أنت أيضاً. حدّث طلعت نفسه مرة أخرى. لا تقتصر خدمة الأديغة على أن تبيعهم خيوط الذهب والأقمشة والبارود. لو دفعت الأسعار الحقيقية لما تشحن من هنا لكان كلامك في محله. وإلا فأنت تتكلم من جهة بلسان معسول، وترتكب الجريمة في الجهة الأخرى. كان الأفضل ألا أسمع لسانك الذي يقطر عسلاً. أرافقك مضطراً من أجل لقمة العيش. من تسافر إليه لتهنئته لا يملك ثلث ما تملك، بل إن بلاد البجدوغ كلها لا تقدر على منافستك...

- تتكلم لغة أديغية ممتازة يا أخي الصغير؛ من أين تعلمتها؟ - سأل النبيل مامرقوه الذي كان قد سافر بفكره إلى بلاد الجمكوي طلعت.

- علّمني إياها صبيان الأديغة.

- هل تعلمتها في بلاد البجدوغ؟

- ولماذا تخمّن هذا؟

- لأن لهجة البجدوغ طاغية عليك.

- ومع ذلك لم أتعلمها في البجدوغ، بل في تركيا. عشنا في دار واحدة نحن وأولاد بعض من اشتروهم من بلاد الأديغة، وتزوجوا في تركيا، وربينا فيها. يبدو من كلامك أنهم كانوا من بلاد البجدوغ. كانت أسراً ممتازة.

- هل يتذكرون أصولهم؟

- يقولون إنهم يتعرفون قراهم إن رأوها، ولكن لا يتذكرون أسماءها.

- من العجيب أنهم لم ينسوا لغتهم.

- وأنا أتعجب ايضاً.

- هكذا يا أخي فالإنسان إن قيدته ورميته إلى أعلى شجرة وجد وسيلة للعيش عليها. ما أشد ما نلقى منهم العذاب حين تأتي بهم ونبيعهم. لا أتكلم على جنس الرجال فهؤلاء متى أدركوا قوتك تناسوا قوتهم وسكتوا يراقبونك خفية بوجوه عابسة منتظرين الأفضل. المشكلة مع النساء، يُمششن وجوهنا وأيدينا كالهرة، ويلعنننا بقدر طاقتهن، لا أحب سماع لعنات النساء. أتشاءم منها، وأتوجس الشر. وهم كما تقول يؤسسون أسراً كبيرة في بلاد الغربية. ويقدرّون على تعليم غيرهم لغتهم. ألا يكفي أن تعيش في أي مكان مكتفياً بكسرة الخبز؟!

- حقاً، تكلم مقاي.

- ولكن أليس من المأساة انتزاع الطفل من حضن أمه!... - استغرب طلعت ما يسمع. - من أين تأتي ببلاد أجمل من المكان الذي ولدت فيه؟ وها أنا قلبي في بلادي مع أي في بلادكم الجميلة. لا أؤيدكما في موقفكما...
- والله لا أعرف يا أخي الصغير، أينما كنت فأنت على الأرض. - قهقهه مامرقوه بصوت أشبه بنعيق الغربان التي لا سماء معينة لها.

بعد العصر، بدت من بعيد قرية الأمير الكبير حجمقوه. الناس يملؤون قرية طؤايغوه المجاورة. لا يمكن أن تشك في أن في القرية مناسبة فرح. وبينهم أشخاص موزعون في مجموعات يلعبون ألعاباً مختلفة. ومنهم الفرسان، ومنهم المشاة. ويصدر من دار الأمير عزف الشبابات والربابات.

تعرف بعض آل حجمقوه على التاجر التركي فاستقبلوه، وقادوه مع جماعة مامرقوه من خلال الزحام المرح إلى دار الإمارة.

ما إن خرج طلعت من الغرفة حتى اقتاده الحارس المكلف بمرافقته إلى حلبة الرقص. دخل عريف الحفلة كأنما كان ينتظره إلى وسط الحلقة وخاطب الحضور:

- شرفوا اليوم بالرقصة الأولى في حفلتنا الرجل الذي جاء من تركيا خصيصاً لأجل مشاركة الأمير حجمقوه قانشاو وآله فرحتهم، ويُرِيهم، من حماسته،

أخصّ قدمه في رقصته. فليخطُ بيننا خطوة مباركة، وأنتم هيا إلى التصفيق! ارتفع صوت الموسيقى، ورافقها التصفيق الحماسي. دخل طلعت إلى الحلبة. وما إن حرك قدميه حتى ظهرت بحقوقه جانسور من بين الفتيات متوردة الخدين، وألقت نظرة أخرى إلى حجمقوه ألقس، ثم انخرطت في الرقص يتدلى كُماها أنيقين، تقفز كأنها ستطير. دار طلعت عدة مرات مازجاً الرقص الأديعي بالتركي. ثم أعاد جانسور إلى نسق البنات محيياً برأسه الجمهور.

اصطحبوا الشاب التركي بعدما لبثوا بعض الوقت يراقبون الراقصين إلى حيث يُسمع العزف والتصفيق. ومن فوق الجمهور الواقف يعلو العمود الخشبي الأملس المغروز في الأرض. وفي أعلى العمود حُفّان من الجلد. يحاول الشبان تسلقه والحصول على الخفين ولكنهم ينزلقون ولما يتسلقوا إلا بضعة أشبار. وفي كل مرة يضحكون من الخاسر.

خرج من الحشد حاغور موسى:

- ألا يجوز أيها الحشد أن أتسلق بقدمين حافيتين؟

- ولماذا لا يجوز؟

- وأضاف بعض النبلاء:

- اخلع نعليك أيها الضيف الشابسغ. وتعرّ إن شئت!..

- لم يعبأ حاغور موسى بالكلمة المرة التي رموه بها. تفل في راحتيه، وألقى نظرة على الجمهور. وفي الحال التقت نظراته بنظرات طلعت. فتبادلا الابتسام كأن أحدهما يعرف الآخر منذ سنين. خطا حاغور الأشبار الأولى بسرعة. ولما وصل إلى منتصف العمود وإبهاماه نافران عليه انطلقت هتافات التشجيع فجأة. حُبل إليهم لوهلة أنه ينزلق إلى الأسفل فدُعروا، ولكنه استراح فاستجمع كل قواه متذكراً الكلمة المرة التي رماه بها أحدهم. سال العرق على جبينه. والتهبت راحته وأخمصاه ناراً. وشرعت عيناه تغيمان. كنت أفضّل أن أصارع مئة شخص على أن أتسلق هذا... مرة أخرى تنفس عميقاً. انزلق بضع مرات وهو يحاول بيديه ورجليه. ولما ظن أنه يستطيع الإمساك بالخف ارتعشت رجله اليسرى، ولكنه كان واثقاً من قوة ساعديه فلم يجزع. مد يده اليمنى معتمداً

على رجله اليسرى فتناول الخفين بها. وما إن حطّ قدمه على الأرض حتى سلّم الخفّين للشاب التركي:

- هذان من نصيبك أيها الضيف، مبروك عليك!
- حياك الله، أبنّت عن شجاعة. الشجاعة كالحب مبدولة لمن يستحق.
- ألقى طلعت نظرة ود على وجه حاغور.
- إن كنت تعتبر ما فعلتُ رجولة فسأتصرف كما تريد لأنك ضيف. - تبادلّا نظرات دافئة، وتصافحا بكل مودة.

-7-

لم تنقطع وفود المهنيين بعد الأسبوع، بل تلاه أسبوع آخر. كان يتردد على البيت من تلقى الدعوة، ولكن الوقت لم يكن مناسباً له، وكذلك المسافرون الذين يسمعون الخبر في طريقهم. وكان كل ضيف يُستقبل بشارات الاحترام. ومتى انصرف ودّعوه إلى ظاهر القرية.

آل حجمقوه من الأعراق الكبيرة في البجدوغ. وليست إمارتهم حديثة العصر. ولم يبق في قريتهم طؤابغوه من يروي قصة غناهم، فقد جرفهم الزمن. ومهما ملك آل حجمقوه لم يُبق هذا الملك أحداً من مُسنّيتهم. مضى أمراؤهم إلى مصيرهم تاركين وراءهم ما كنزوه. وتركوا للناس كثيراً من الروايات المتناقضة التي يصعب اختيار واحدة منها. ولكن كلّ إنسان مهموم بطريقة حماية عرقه. يعيش آل حجمقوه يهدفون إلى الجميل، ويتجنبون القبيح. يعيشون وهم يفعلون الجميل، وعندهم في الوقت نفسه من يتولى تجميل القبيح.

وفي آل حجمقوه خصلة يتيهون بها فخراً، وعند الحاجة يستمدون منها الثقة بالنفس. - ليسوا سريعي النزق. يكرهون ردود الفعل المفاجئة. إذا أرادوا أن يوجهوا إليك كلاماً ما حفروا حول الموضوع وأشعروك بمراهم دون أن يتكروا ثغرة، حريصين عليك وعلى أنفسهم. وإن لم تتقبل لم يدينوك صراحة برفضك. وفي يوم ما، قريب أو بعيد، متى أخطأت فوقعت في موقف لا مهرب لك منه، ذكروك بتنبيههم لك. وإن لم يحدث داروا حول الموضوع فنبشوه، وألزموك

بموقفهم عبر كومة من الأسرار والعقد.

حين دخل الإسلام إلى بلاد البجدوغ كان أول من تفهم أساس الدين الجديد هو والد الأمير الحالي حجمقوه قانشاو. وإلى الآن لا ينسى الابن ما قاله الأب بشأن الإسلام:

- أليس محتوى الإسلام هو ما نقوله نحن الأمراء؟ الأديغي البسيط يحتاج إليه!..

وكان الأب الأمير من أوائل من توجهوا إلى الحج رغم تقدمه في العمر. وعاد إلى بلاده حاجاً بعمامة. وبدأ الناس ينادونه من وقتها بالحاج. يتذكر حجمقوه قانشاو هذا الحدث كأنه جرى اليوم رغم مضي الكثير من الوقت عليه. كان وقتها في حدود العاشرة. ومضى عليه الآن سبعون عاماً لم يشعر بها كمن يريد أن يشرب من ماء الجبل فلا يذكره.

- لا تنس الله يا ولدي، احفظه في قلبك، - يتذكر كما اليوم هذه الوصية من والده وهو على شفا الموت عاجز عن الخروج من البيت. - إن استغلته لصالحك لم تعجز عن تحقيق أي هدف. لا أقصد أن تكتفي بقبول الإسلام فحسب بل أن توجه تعليماته الفعالة لمصلحتك... الأديغي يقضي عمره أجيلاً عند أحدهم، فمن تسخره لله فكأنك سخرته لنفسك. لا تنس هذا!..

والأمير الكبير قانشاو نفسه عاش منذ شبابه نصف سنواته وفي قلبه حلم لذيذ هو الحج. وما كان ينتظره طوال تلك المدة هو ما كان يتوقع أن ينتبه إليه والده فيطلبه منه. ولم يجرؤ هو أن يصارحه برغبته. ولما لم يصدر شيء عن الوالد توجه الابن إليه يوماً وقال له:

- يا والدنا، أريد رأيك في أن أتوجه إلى الحج؟..

- عندك نية حسنة، رضي الله عنك... - أجاب الأب بعدما جلس مدة يتفكر في الأمر. - العادة أن يُقلم من الشجرة فروعها الأولى، فانس الموضوع لشخصك يا ولدي. ومتى فارقتكم بلغ وصيتي لأول من تجدونه لابس قبة. يخيل إلي أنه يجب أن يكون في أسرنا دائماً حاج بحيث يكون لكل جيل حاج منه... لا يجتمع في خلية النحل زعيمان... وأنت ما رأيك؟..

لم يعترض الأمير الشاب على والده. كان يستوي وقتها أن تكسر شجرة بلوط بكتفك وأن تحالف رغبة الحاج. ثم إنه مهما كانت رغبة قانشاو في الحج لذيدة فقد كان في كلام والده حكمة: حقاً فاجتماع حاجين من الأسرة نفسها صعب كما لا يجتمع زعيمان في خلية النحل، ولا حاجة للكلام على القرية، فالأمر نفسه ينطبق عليها. كان التخلي عن الرغبة في الحج صعباً ولكنه تحمّل، وظلت وصيته نذراً على قانشاو. ولما بُشِّرَ بسلام كانت وصية الحاج أول ما أشاع الفرح في نفسه.

عاشت أسرة الأمير أياماً من السعادة بعد أفراح المولود. لم يجلس الأب وابنه مرة واحدة يتحدّثان إلا أن يلتقيا في أرض الدار من بعيد. عاش الاثنان على التقليد الأديغي الأزلي. الاحترام الذي يبيده الناس للأمير الكبير عظيم. ويحظى الأمير الشاب بنصيبه من الاحترام. ومن هذه الناحية لا يدخر النبلاء - الحراس جهداً. والعبيد يمشون دون أن يصدر عنهم حتى وقع الأقدام. وأمام الأمير الشاب يصمتون كأنهم فقدوا اللسان والفم. وبالقياس إلى البجدوغ ففلاحو الشابسغ يتمتعون بحرية كبيرة. شهد مواضع كثيرة لا سلطة فيها للمتنفذين. وقليلاً ما رآهم مخنيي الظهور والرؤوس. وحين يغيبون عن ناظر بك ولا يخافون منك يتطاولون إلى أعالي الجدران ويفزعون إلى محشاتهم وشوكاتهم. وأحياناً حين ينسى ويتحدث إلى الفلاحين يفغرون أفواههم دهشة ويخرسون. يختلسون النظر إلى النبلاء - الحراس فيخرسون. ما أكثر ما لَمَحَ النبلاء لألّقس ألا يفتح حديثاً مع الفلاحين والعبيد - البوابين. ولكنه يُصم السمع عن كل ما يقولون.

ومن يرفض كل سلوك ألّقس مع الفلاحين هو الحارس مرزيج. لا يقبل أن يقف إلى العبيد جامعي الروث ويتحدث إليهم. يشتعل غضباً، يود لو يهجم على العبيد فيوسعهم جلدًا. كم نَبَّههم ألا يقفوا حيث يقف الأمير الشاب!.. والآخر، ريبب الشابسغ، يغيظك بسلوكه. أليس من العيب أن تقف إلى جانب جامعي روث الخيل فتحدث إليهم؟ أنت لا تدرك أنك تقص الفرع الذي تجلس عليه من الشجرة. لا يليق به ما يفعله الآن؛ فلأذهب إلى الأمير

الكبير أخبره.

لم يكن حجمقه قانشاو يقضي في الدار كثيراً من الوقت. ولا يسمح للنبلاء المحيطين به ولا للفلاحين أن يروه. ولا من عاداته أن يُهين العبيد، ولا الفلاحين الذين يظهرون له في طريقه. ومرزيج الحارس هو المسؤول عن سلوك حجمقه، فلا حاجة للحديث في هذا الموضوع - يكفي أن يشكّ في أحد أو شيء مجرد شك.

واليوم يجلس حجمقه في البيت مع ذكرياته عن والده. الغرفة الواسعة خالية. ولا يصدر من جهة الدار صوت يقطع جبل الذكريات، حتى في الحي. يفكر في لقاءه بالأمير الشاب والحديث الذي سيجريه معه. في ذهنه كثير من الأفكار يقولها له. وهو الآن تخور قواه مع تقدمه في السن. فمن يعرف ماذا ينتظره؟ الإنسان كالزجاج. حقاً في الذهن كثير مما يجدر به أن يوصله إليه ولكن وصية والده الحاج في مقدمتها. متى أطلع الولد على ما في صدره منذ سنين فقد أدى هو واجبه، وتحلّ من نذره. سيُلمز الأمير الشاب بتنفيذ وصيته. ولن يقتصر الحديث على هذا، بل سيتكلمون في مواضيع أخرى، فأمام الشاب كثير من الالتزامات.

انفتح الباب ونظر مرزيج الحارس من خلله:

- عذراً أيها الأمير، هل يمكن أن أدخل؟

- تعال أيها الحارس مرزيج، - نظر إليه الأمير مرتاحاً. وعرف أن الحارس غاضب. - كأنك غاضب!

- نعم يا أمير... وإن كنت لا أعرف إن كنت ستقبل سببه... وقف الحارس بكل ضخامته ككيس مملوء أمام الأمير.

- هذا يتعلق بسبب غضبك يا مرزيج.

جفل الحارس مرزيج لحظة. أظني جئت لنفسى بمصيبة. حسناً، لم آتِ بلا سبب، بل مهموماً بسلوك خاطئ من أحدهم. ليس من شأني تربية الأمير الطائش الذي أساء الشابسغ تربيته. أنا أقوم بواجبي نحوك. ومع ذلك فقد تشجّع في اللحظة نفسها. قرر أن يترك ألقس جانباً ويتهم أحد الفلاحين، غير

أنه لم يجده لائقاً. هذه مهمة الحارس الأسنّ. ما شأن الأمير الكبير به؟ سائير غضبه وإن كان حسن المزاج، فأورّط نفسي... فقرر التراجع.

- لا أعرف إن كنت غاضباً يا أمير، وإن كنت غاضباً فمن الأمير الشاب.

- ماذا؟ هل أخطأ الأمير الشاب في شيء؟

- لا أعرف إن كان فعل يا أمير، ولكنه يفعل... كما قلت لك فهو لا يحترم نفسه. واقف بين جامعي الروث يمزج معهم... هل هذا جائز؟.. - يحفظ الحارس بعينه السوداوين ناسياً أنه في حضرة الأمير الكبير.

- لا يجوز يا مرزيج!.. - وجد الأمير الكبير الحجة التي يريدتها فابتسم في سرّه.

ووافق الحارس، ولن يجد أحسن من هذه الفرصة للحديث مع ابنه.

- وأنا أرى هذا يا أمير... - انفجرت أسارير مرزيج ولكن عينيه السوداوين أظلمتا خديه.

- استدعوا الأمير الشاب! - قال الأمير الكبير وعدّل من جلسته.

سُمع وقع أقدام مسرعة بعد قليل.

- هل يُسمح لي بالدخول يا أمير؟- يقول ألقس يغلبه الحياء. ثم يدخل دون انتظار الجواب. - هل طلبتني يا والدنا؟

- طلبتك، - تفحص قانشاو الأب ابنه مسروراً من مناداة ولده له بصيغة الجمع "والدنا"، ناسياً وشاية الحارس. - لم يصدف أن سرّ بولده منذ عادوا به كما اليوم، ربما بسبب اختلاّتهما. - هيا اذهب إلى هناك واجلس!

لم يجلس ألقس.

- متى أمرتك بالجلوس فاجلس يا ألقس! - قال والده حين عرف نية ابنه البقاء واقفاً، - أنت وأنا أماننا مهمة. علينا التحدث في موضوعاتنا.

جلس الأمير الشاب على المقعد الوطيء القريب من الباب. انحرف الخنجر المعلق بالزنار قليلاً أثناء الجلوس فقومه.

تطرق الأب وابنه إلى موضوعات كثيرة. استعرضا بلاد الشابسغ، وعادا إلى بلاد البجدوغ. ثم وصل الوالد إلى آل حجمقوه من أجل تقريب الموضوع الذي بعث من أجله إلى الولد، وأطلعته على حياة الإخوة. وفيما يتحدثان عن أنجع

الوسائل لجمع المال دخلا في موضوع الإسلام، ثم وصلا إلى جدّ الأمير الشاب.

- لا شك أن آل شرلأقوه لم يحدّثوك في شأن جدك. - دار الوالد حول الحديث من بعيد ليعرف إن كانوا حدّثوه بشيء. - أقول هذا ولكن من أين لهم أن يعرفوا أخبار جدك؟! حتى نحن الإخوة ننسى أحيانا.

- وكيف يجهلون أخبار جدي؟ حكاهما لي آل ناغوه كثيرا. كان ألقس يستغرب وجهة نظر والده من مربيّه؛ فإن جاؤوا له بسيرة أحد من البجدوغ فسيّرة جدّه! - هكذا إذن يا ولدي! - فرح الأمير بما سمع وإن كان يعتقد أن هذا هو ما يجب أن يكون. - حيا الله آل شرلأقوه، وحيا كل الشابسغ الذين لم ينسوا أفضال جدك عليهم. لا يقتصر فضل جدك على البجدوغ بل إن ظهر بين الأديغة رجل صالح بففضل جدك، فلا تنس هذا، وقابلّه بثواب صلاتك وأعمالك الصالحة. وإن كان الأمر هكذا أسمعُك خبراً من جهة جدك. وأتأمل منك أن تفهمه. ربما قدّر الله هذا...

روى الأمير الكبير لولده الحكاية كلها بتفاصيلها، من وصية الجد إلى النذر الذي تعهد به الابن. وخيل للأب أنه تنفس ملء رئتيه حين فرغ من رواية الحكاية. وبعدما انتهى الأب من قصة النذر جلسا، الأب والابن، بعض الوقت صامتين. وكلما مضى الوقت والأمير الشاب لا يعرف بم يجب ارتفع قلق الأب: من يعرف ماذا سيكون موقف هؤلاء؟ هل وصل إدراكه إلى فهم ما قلت له؟..

- على ما يبدو يا والدنا، - فهم ألقس أصل الحكاية، - فأنا الفسييلة الثانية من آل حجمعقوه...

- إن كان عقلك وصل إلى أن تفهمه فأنت، - قال الأب وقبعته لم تعد تتسع لرأسه إعجاباً بفهم ابنه. - أنا قلت ما عليّ، والآن أنت ورأيك. أنا من اليوم أتخلل من نذري... ثم لي عندك رجاء آخر يا ولدي وسبق أن طلبته منك: عُذ إن أمكنك إلى لغة البجدوغ. - وضرب له مثالا على الفرق بين اللهجتين.

- تغلب عليّ لهجة الشابسغ يا والدي ولكن سأبذل جهدي. وضعتني في

موقف صعب في موضوع الحج هذا. - كان في ذهني أمور أخرى... ثم لو اطلع عليه آل ناغوه لكان أفضل.

بعدها جلسا نصف نهار، كانت آخر جملة قالها الابن هي التي لم تعجب الأب: - هذا الموضوع يا ولد يتعلق بآل حجمقوه، لا بآل شرلأقوه!.. أريدك أن تفهم هذا ابتداء من اليوم. - أضاف الأب بعدما رأى ابنه يتغير لونه. لا أطلب أن تنسى آل شرلأقوه، عاش آل حجمقوه طوال عمرهم مستقلي القرار، فلا أريد أن تحتمي بأحد... لا تحزن مما قلت لك. إن نحن لم نتحدث فيها فلن يأتي أحدٌ يحدثنا.

وفي الحال صحا ألقس:

- لا يا والدنا، ليس في ما قلته لي ما لا يجوز. لست جاهزاً في هذه اللحظة لأبلغك رأيي في موضوع الحج. لا تؤاخذني، سنجتمع مرة أخرى بعد أن أفكر عميقاً في الأمر.

كان الأمير الكبير راضياً عن جواب الأمير الشاب. هذا أيضاً بفضل الله نوع من الرجولة أَرْضَى به.

- سأعود إلى غرفتي إذن، - حُيِّلَ إلى ألقس أن حديث الأب والابن انتهى. لابد أن الأمراء الشباب في زيارتي.

- أود أن أبلغك شيئاً آخر أيضاً، - أوقف الأب الأمير الشاب المنصرف، - لا تتودد كثيراً إلى العبيد والفلاحين والنبلاء الصغار!

- ربما وشى بي مرزبج؟..

- احذر من مرزبج، هذه أسرة شريرة وإن منحناهم لقب النبيل!..

الفصل الثاني

-1-

مضى عامٌ على إعادة آل شرلأقوه ربيهم إلى البجدوغ. بدأ الصيف يقترب من نهايته مفسحاً الطريق للخريف. وبدأ المساء المنعش يعلو الجبل بعد حرّ الهاجرة. وجنى الفلاحون المحاصيل من الذرة والقرع... وشرعوا يرتبون أكوام الحشيش في دورهم. وامتألت دار آل شرلأقوه الفسيحة بأكوام الحشيش أكثر مما في العام الماضي.

زار شرلأقوه ناغوه سفح الجبل قبل أيام، وتفقد المراعي. يمكن ألا يبقى منها شيء في غزوة ليلة. ما تفعله دون أن يراك أحدٌ ليس عليه شاهد. لم تبدأ سرقة كومة حشيش أحدهم بناغوه. يفعل هذا آل شرلأقوه طوال عمرهم. ومن لا يريد أن ينطق اسم أسرهم يسميهم بلصوص الحشيش.

في العام الماضي حين عاد ناغوه من سفرة الريب إلى البجدوغ أمر بمضاعفة المستودع الخاص بالحشيش. إن كان عندك ماشية حصلت على القماش والبارود، والملح الذي يفتقرون إليه جميعهم. من تعطف عليه تعطيه أو تبيعه كما تشاء، ومن يكره السؤال تجبره عليه، ومن يودّ يركع أمامك على ركبتيه. إن كان عندك بارود فعندك الرصاص. وبالرصاص تنشر الرهبة على رؤوس الجميع. ولن تحرمك السفن التركية على الشاطئ منه. فما إن ترسل وراءهم حتى يتهافوا عليك. ولن يجعلوك تتعب في الحصول عليه.

ما إن خرج ناغوه إلى الريف ليتفقده حتى عاد أدراجه. ولم يعرف العاملون في داره من الفلاحين سبب عودته المفاجئة. تبادل حاغور موسى وتحخوخوه نباؤه النظرات. وسرّع العبد المكلف بتكسير الخطب من إيقاع فأسه. والخادما المكلفات بخدمة المطبخ اللواتي يسترحن أمام بابه أسرعن بالهروب يسبقهن حفيف أذيال أثوابهن. وحدهما الكلب المقعي إلى جدار مخزن القمح والديك الأحمر لم يتحركا.

ما إن ترجل شرلأقوه ناغوه من الحصان حتى دخل غرفة السيدة دون توقف.

رأى السيدة داريت بغطاء رأسها الأبيض تعاقب البنت الخادمة وراء الباب.

- ما الأمر؟ ماذا جرى بينكما؟- صرخ شرلأقوه على المرأتين اللتين ظهراهما إليه.

لم تلتفت داريت رغم تمييزها صوت زوجها، واستمرت في ضرب الخادمة وتوجيه الكلمات القاسية إليها، وقميصُ النوم العريض يتدلى من جسدها. وقدمها عاريتان في حذاء تركي كيفما اتفق. وشعرها غير المضفور يلعب على ظهرها كقطعة سحابة سوداء.

صرخ شرلأقوه ثانية بالمرأة:

- ألا تسمعينني!.. - رتبي ثيابك ودعيني أدخل بعد ساعة.

لم ير أيَّ إنسان لحظة خروجه من غرفة السيدة. كانت الدار خاوية كما لو أن رجلاً عاتية هبت ففرقت أهلها. نظر هنا وهناك دون فائدة. سُمع صوت الفتاة الخادمة الآن على نحو أعلى. ضرب شرلأقوه ظاهر جزمته بسوط الحصان. واختلج خده الأيمن أكثر من مرة. ولما عزم على الخروج سمع فجأة صوت تحخوخوه نبافؤه النحيف من وراء مخزن الحبوب:

- عيب يا ناغوه ما يحدث في غرفة السيدة!..

- ماذا يهمك أنت من هذا يا تحخوخوه؟.. - سألته شرلأقوه ناغوه يكظم غيظه بصعوبة وقدمه في الركاب.- كان الأفضل لك أن تمسك زمام الحصان وتساعدني في الركوب.

- وكيف لا أهتم؟ أليست تلك التي تصرخ إنساناً؟!

- إن كنت مهتماً فخذ أنت أيضاً هذه!..- أخرج شرلأقوه رجله من الركاب وانحال بالسوط على كتف تحخوخوه. - دلكم يا أبناء الكلاب فتمردتم.

التقط تحخوخوه عصا من الأرض وعيناه يغطيهما الدم، ولكن حارساً فلاحاً ظهر في الحال فلجمه. ووقف بينهما علي سلطان مباعداً بين رجليه.

- لا يجوز ما تفعل - قال حاغور موسى الذي وصل موجهاً الكلام إلى تحخوخوه نبافؤه، متجاهلاً الآخرين، وتأبط تحخوخوه، وشرع يبعده.

- يا تحخوخوه وأنت أيضاً يا حاغور! - ناداهم شرلأقوه غاضباً!.. لا تنادياني

بعد الآن بـ"ناغوه" بل بـ"أمير" هل سمعتما؟ "أمير" لست وحدي الأمير، بل هذا الواقف هناك!.. أشار إلى علي سلطان شرلاًقوه بطرف السوط.

وصلوا إلى المكان الذي كان يُهرع إليه شرلاًقوه ناغوه حين يغضب. ولم يتبادل الأب وابنه كلمة طوال هذا الوقت. ولم يقف أحدهما إلى جانب الآخر بل وراءه. أعاد ناغوه الحصان إلى المرعى، وجلس على الجذع اليابس الذي يرتفع عوده فوق ماء الساقية القادمة من الجبل. وصبّ من الماء البارد على وجهه بضع مرات، وعلي سلطان واقف على الضفة غير العالية يراقب والده. النهار حار إلا في الجبل. الماء يجري مقهقهةً تَين منه أحياناً الحصى الداكنة. والغابة التي مالت أوراق أشجارها إلى الصفرة، ولكن مظهرها العام ما يزال أخضر، تهمس تحت السماء التي حممها الحر.

لا يظهر في الأفق أي إنسان.

ما الذي رآه شرلاًقوه الأب في هذا المكان؟ يخيل إليك في البداية أنه جميل: الماء، والمرعى، والجبل، والغابة، والضفة. وبعد قليل تحيم على رأسك الضفة الأخرى العالية المبللة مجللةً بالظلمة. وتتدلى منها جذور أشجار عارية. ورائحة السحب تحيم فوق منعطف المضيق الذي تصدر عن مياهه الساقطة أصواتٌ تشبه أنين البشر. والطيور في هذا الاتجاه تتدلى بأجنحتها لتنعطف مع النهر. أما الأشجار التي على ضفة النهر الجبلي الصغير فلا تشبه المظاهر الأخرى له: تبدو لك كأنها في لهفة قلق.

جلس علي سلطان على طرف القارب القديم الذي يجلس عليه والده. غسل هو الآخر يديه، وتظاهر بغسل وجهه. وراقب الأسماك التي تسبح بصعوبة في النهر المنحدر. وقال لوالده:

- ما كان علينا أن نأتي إلى هنا كأننا خرجنا مذعورين من الدار على صوت غضبك... لا تعجبني طباع تحوخوه.

ينظر ناغوه في ماء النهر متفكراً في كلام ابنه. وترسم أمامه في الماء صورة داريت وهي تتعارك مع خادماتها. ليست هذه أول مرة يرى زوجته في هذه الحال. ولأول مرة يرى حتى خدم الدار يتدخلون في مشاجرة نسائية، وربما هذا

هو السبب في أنه لا ينسى هذا الشجار. لم تكن نظرة تحخوخه ودية. كان واقفاً أمامه كفحل متمرّد بقرنين سوداوين. ولو استطاع لرفع سيده إلى السماء وخبط به الأرض!.. ولو كان تحخوخه صالحاً لما باعوه إلى أباته المحتال. وحين اشترّيته منه ببارودة كان غلاماً أقول له: امش فيركض، وأقول: اركض فيطير. لم يكن يتجاوز أوامري، ليس شبراً بل مقدار إصبعين. ألا ترى ردّه على معروفي إليه وترّيته رجلاً؟! كنت أنوي أن أمنحه حصّة فلاح حر وأجعل منه فلاحاً صالحاً. ومن رأيت سحتته اليوم لو جعلت منه فلاحاً صالحاً لمحاك من الوجود!..

- أراك يا والدنا لا تقول شيئاً؟- تعجب علي سلطان من إحجام والده عن الإجابة.

- وماذا أقول؟ كلامك صحيح. ما كان علينا أن نخرج من الدار...- قال الأب وأضاف بعد قليل:- لا خوف... تركنا في الدار من يقف في وجه الفلاحين...

- أعرف أن لا داعي للقلق. ليس هذا قصدي، كانوا يستحقون أن نبقي في الدار ونهري جلودهم!..

- لا يا ولد. ليس من المناسب أن تعادي هؤلاء كثيراً مثلما تفعل والدتك. مهما قلت لوالدتك فإنها لا تفهم كلامي؛ بل لا تعبرني أهمية. تُعامل النساء بعنف، تجرّهن من شعورهن، وتفترق الرجال بجمرة ملتهبة. كنت أود أن نتحلى بطباع آل حجمقوه... لا أكنتم أني أغبط آل حجمقوه على طباعهم الحسنة! - وكيف لنا أن نصبح مثلهم؛ آل حجمقوه من سلالة أمراء!..

- وهذا صحيح، من سلالة أمراء... - يقول الأب، ثم يثور غضبه: - ولماذا لا نصبح نحن؟ وهل عجيب أن آل شراًقوه ليسوا من سلالة أمراء؟! هل تظن أن آل حجمقوه وُلدوا أمراء؟ وهل أملاكنا تقلّ عن أملاكهم؟ نحن لسنا أمراء لأن الشابسغ ليس عندهم أمراء. هؤلاء الهُبل لا يعرفون؛ وإلا كانت الإمارة من حقهم. وكانت شرفاً للأسر المتنفذة. لا أعرف قوماً في العالم دون أمراء إلا الشابسغ المساكين...

- والأبزاخ ليس عندهم.

- وأيُّ نفع من هؤلاء الملتحين أصحاب الشوارب الذين تأتي على ذِكْرهم؟! لا يجيدون إلا المصارعة والقتال. وهل تظنهم أحسن من فلاحينا؟ ما يجب أن تسعى لأجله يا ولد هو لقب الإمارة. وبدونه لا فائدة من المثلث مهما ملكت. هذا ما يخطر لي الآن أن تفكر فيه. والفلاحون ليسوا كلهم فلاحين. منهم من يستحق أن تقربه إليك، ومنهم من يجب أن تبعده... يا أسفي، حين كسرت رجل ابن أكجكوه أنزور ما كان يجب أن أتبع الحادث بكلام مسيء. حوّلته إلى عدو بدلاً من أن أعاقبك. وشباكوه استضافوه ثلاثة أيام. ووصلني أنه تكلم عليّ في حفلات الجابشه. أساء إلى سمعتي عند الفلاحين. وأثار عندهم أفكاراً كثيرة ما كانت تخطر لهم.

- أهذا ما وصل إليه شباكوه الآن؟ - تغيّر لون علي سلطان، - يعيش حياته وهو يتدخل في ما لا شأن له به. يجب أن نمسك به في أعماق غابة تحمز ونلقّنه درساً...

- لا تحاول أن تفعل هذا وحدك، شباكوه يتمتع بقوة فائقة. - أكّد شرلأقوه الكبير على ابنه ألا يقترف أي حماقة، - الأفضل من هذا أن تراقب حاغور موسى، فهو خبيث في سرّه. لا أرى فلاحاً يبعث على الخوف مثله في جوارنا. عاقل أكثر مما ينبغي خلافاً لعمره. صحيح أنه لا يتكلم كثيراً ولكنه يُقنع الجمع الذي يختلط به. وتحفظ عائلة مسنّته بصلة قربي به. ولا بد أن نتصالح مع آل أكجكوه...

- بأي طريقة؟

- لا أعرف، سنفكر.

- زهرم أنت ووالدتنا مساء يوم ما.

- لا عمل لنا هناك. أنت سبب المصيبة فعليك أنت زيارتهم.

- والله لن أزورهم!

- ستزورهم يا ولد!

- بأي حجة أذهب إليهم؟... - لان صوت علي سلطان الآن دليل تراجع،

مقتنعاً أن لا قيمة لرأيه.

- سيمضي قريباً عام ونصف على شفاء الولد ولذا ستزوره ومعك حصان جاهز لتصلحه.

في إحدى الأمسيات، في الساعة التي يتجمع فيها الفلاحون في ظل جدار ما وقف شرلاًقوه علي سلطان بيده زمام الحصان على باب دار أكجكوه. لم يفهموا في البداية ما يرون. ثم قال الفلاح أرسى:

- ثرثأر آل شرلاًقوه جاءكم يصالحكم ويبيده حصان جاهز، ذاك هو، انظر!
- ليذهب إلى حيث لا رجعة! وما حاجتي إلى حصانه؟ يكفي ما جرّعنا من عذاب!

كان علي سلطان يعرف أن أكجكوه أنزور بين جمع الفلاحين. نظر مدة إليهم مترجلاً ولا يجد من اللائق الدخول إلى الدار.

- ما يعتمل في قلب هذا الشاب يا أكجكوه يساوي مئة حصان. - ضحك حاغور موسى بغلظة. - أفضل أن تنكسر رجلي على أن أكون في محله. اذهب، هل تحرص على أملاك آل شرلاًقوه؟ خذه!..
ضحك الجميع.

أشاح علي سلطان بوجهه، ربما عرف أن الضحك موجه إليه. ووخز شيء ما قلبه كأنه سيغرسه في الأرض التي يقف عليها. واحمر خداه شعوراً بالإهانة. وخرج أكجكوه أنزور من بين الجمع دون أي حماسة، ولحق به أخوه الأصغر تايمز.

-2-

- الحشيش الذي نتوجه إليه ليس لآل شرلاًقوه. - قال تحخوخوه الذي صارت قامته النحيفة السمراء جزءاً من الليل.

- من أين تعرف؟ - سأله حاغور موسى الذي ليس من عادته أن يجيب بسرعة.

الثوران على طريق البرية يسيران على مهل ورائحة الذرة الصفراء تُسيل لعابهما.

وكلما رفعا قوائمهما المتعبة تسلط عليهما ظلام المساء القاهر. ورائحة الرطوبة التي تفوح من الغابة التي يخيم عليها الظلام والخوف تملأ الهواء. والعتمة التي تهبط على النهار المنصرم تزحف ثقيلة على الأرض. من حين لآخر تنعق الغربان ممزقة الظلام الذي لا يسمح لك أن ترى من يمد يده إلى عنقك.

مضى وقت طويل على خروج حمالي الحشيش من بركة آل شرلأقوه. يسرون حائدين عن طريق العربات والغابة على يسارهم. لم يتخيل حاغور موسى أن أكوام القمح الثلاث التي جاء بها شرلأقوه من المرعى بعدما دلّه عليها بهذا البعد.

- أعرف لأن الأرض التي نحن فيها تعود لأسرة غوايه. - قال نباؤه الذي جلس إلى الآن لا يجيب، وأخرج كيسه. وأشعل النار بقدحة واحدة، وشرع يدخن من الغليون.

- لا أعرف إن كانت له، أخبرني أنه اشتراها. - قال حاغور بلامبالاة.

- ألم يخبرك أنه بادلها بعجل؟

- نعم تماماً.

ضحك الاثنان لأنه الخبر لم يكن جديداً عليهما.

- أليس من العيب ما نفعله، نذهب عمداً لسرقة الحشيش اليابس؟ لم يكن تحخوخوه يتوقف عن الاحتجاج. - ليت أسرة غوايه أمسكوا بنا وأشبعونا ضرباً. مضى زمن بعيد لم يمسك بنا أحد.

- هل نسيت كيف جلدوا ظهرك قبل أيام؟

- يا موسى، كُفّ عن هذا الحديث، لست راضياً عنك فيه.

- ما ذنبي؟

- من الذي جاء بي إليك في ذلك المكان!.. كنت أريد أن ألعب العصا على رأس شرلأقوه.

- لو عرّوك من ثيابك وربطوك إلى أسفل خزان الحبوب يصبون عليك ماء البطيخ، وتركوك طعماً للذباب لعرفت ماذا كنت تنوي!.. لا تقل يا تحخوخوه

ما لا لزوم له. هل تظن الذين وقفوا على رأسك إخوانك؟
- أليس حسناً إذن إن كان رأيك أنت أيضاً هكذا؟ - ندعهم يفعلون بنا ما يريدون ونحن مفتّحو الأعين. - يستولي الغضب على نباله. - اليوم يخلعون شفتي الصبية أكوزه. وغداً يسخون بجلدي، وبعد غد ماذا ينوي بحقك أولاد الكلب هؤلاء؟

يجلس حاغور في مقدمة العربة كالبومة كأنه يقول: نتكلم في موضوعات لا ضرورة لها. ليس أسوأ من أن تكون عاجزاً. صحيح أن حاغور ليس متقدماً في السن ولكنه شهد من المشاق ما يكفيه.

كان موسى في العاشرة من العمر حين قتل آل أبياته والدّه الشاب: قرروا أن يجعلوا من ميتته عبرة للعبيد. يروي فلاحو الشابسغ إلى الآن أنهم حبسوه في خزان الحبوب المليء بالجرذان حتى لفظ أنفاسه. ويوم قُتل والده أشعل موسى النار في أكوام حشيش أسرة أبياته، وهام على وجهه مرتعباً مما فعل، حتى وجد نفسه في عمق غابة تحمز. ومنذ ذلك اليوم تحملت أسرة حاغور الكثير من الأهوال. وظل الأعداء يتعقبون الولد في يوم الدفن والأيام التالية فلم يتركوا مكاناً لم يبحثوا فيه: قلبوا غابة تحمز، وانتقلوا إلى الأراضي المجاورة، فلم يجدوه مهما حاولوا. فخمّن بعضهم أن بعض الوحوش افترسته، وبعضهم أنه احترق في كومة الحشيش.

أما موسى فقد قرر أن يقضي النهار في الغابة، ويعود في الليل إلى البيت، يسد جوعه بما يجده، فضاع في عمق الغابة، خدعه الطريق الذي لم ينقذه. بكى وسكت. صاح بأسماء إخوانه واحداً واحداً. ولكن لم يسمع إلا صدى صوته. وحدث أن رأى نفسه نائماً تحت إحدى الأشجار يلعب إخوته الصغار. وسار عدة أيام بلا مُعين باتجاه البجدوغ، ظناً منه أن قريته تقع في الجهة التي تبرز منها الشمس من بين أوراق الأشجار. وبعدما قضى في الغابة قرابة الشهر، صادف فلاحاً من البجدوغ هارباً بجلده مثله، ورافقه عاماً. وفيما يقضيان الوقت تحت الغابة هاجمت شلّة من الأمراء - النبلاء برئاسة بحقوقه شراندوقوه الفلاح المطارد وابقق تائمير فأمسكوا به، فهرب هو محتماً بالغابة إلى

إيتاو إيثك. ومنذ ذلك اليوم خرج موسى من الغابة عاجزاً عن البقاء فيها. ولما لم يجد وايقق تامبر دار في الجوار يخدم من في طريقه من الأمراء والنبلاء، يفرح إن مسح أحد على رأسه، ويصرعه بعضهم بصفعة متقنة. التحق بأمه لاشين التي عادت أختها إلى باستوك، وأخرجت من دار أبائه الأسرة التي بقيت بلا أب، فضمتها إليها. ومنذ ذلك اليوم يخدم موسى عند شرلأقوه.

- ليس بعد المأساة التي جلبوها لي مأساة أعظم. يمحس موسى من التبغ متفكراً، وتلمع فوهة الغليون الحمراء من الظلام.

كانت عيشة الفلاحين واحدة. ورغم أن حاغور قضى عشر سنوات من سني عمره الإحدى والعشرين كالثور المربوط إلى العربة فقد كانت آلامه مكدسة في صدره ككومة من الخطب، ولم يروها لأحد. وكلما تقدم في العمر وازداد قوة اشتدت رغبته في الانتقام. وحمل معه ماضيه كالسيف المرفف.

- أليس هذا ما يدفعني إلى القول، - يبدو على كلام تحخوخوه العتاب، تعيش وأنت تتحمل كل المصائب.

- وهل أنا وحدي من يبلونه بالمصائب؟

- لا، لست وحدك.

- ماذا تنوي إذن؟

- يا حاغور، لا تظل تسألني دائماً هكذا، - احتد تحخوخوه فجأة كنار التبغ.

- لو كنت في موقف أستطيع فيه الإجابة لما فعلنا الليلة ما فعلنا.

- كأنك تغضب يا تحخوخوه؟

- ما الفائدة من أن أغضب؟ يجثمون على رقابنا وإن لم نغضب. يخطر لي أن

أقف هنا، وأصرخ بكل طاقتي لأنه الوحيد الذي ييدي.

- هذا في وقت الشدة.

أغضبت كلمات موسى رفيقه تحخوخوه وإن كان الظلام يلفهما. ما الذي

جرى لحاغور؟ لا يوافقني مهما قلت له. نحن الاثنين مثل ثورين مربوطين إلى نير

واحد، ولكنهما لا يتفقان. من المعيب ألا يكون عندك إلا هذا الحد من

الفهم... أنا أكلمه من باب الثقة، وهو ينظر شزراً إلى ما أقول. لا يثق بي.

- أَيكون يظنني واشياً لآل شرلأقوه؟.. هذا لا يجوز... لست ممن يُنظر إليهم هكذا. أي عار هذا؟!
- ما كنت أريد الوصول إلى هذا الكلام، ولكن بأي عين تنظر إلي يا حاغور؟
- ارتجف صوت تحخوخوه.
- لا أفهم معنى سؤالك - لم يعبا موسى وإن فهم أن رفيقه غاضب جداً.
- بلى، فهمته.
- لم أفهمه.
- لا تتظاهر بالجنون يا حاغور!..
- لم أقل شيئاً أستحق به أن تصرخ عليّ.
- بلى، قلت لي... أنت تسخر مني هذا المساء... هل تظن أن آل شرلأقوه أعاروني أذهم وأركبوني عربتك؟!
- الآن لا أفهم ما تقول.
- أقول لأنك تنظر إليّ هذه النظرة!.. إذا وصل بك الأمر إلى هنا فإذهب لسرقة الحشيش من أجل آل شرلأقوه. أنا لا عمل لي هناك... - قفز تحخوخوه فجأة من العربة، وعاد حاملاً على كتفه الشوكة التي تناولها من العربة.
- ما أضيّق خلقك يا تحخوخوه!- صاح موسى الذي لا يعرف ما حصل في إثر تحخوخوه. - ارجع يا مسكين لم تضيع أخلاق أسيادك. أمرك بالعودة حالاً!
- سنرى من منا لم يضيع طباع آل شرلأقوه. هيا اذهب لسرقة الحشيش لأنك خلقت لهذا، هيا!.. اختفي تحخوخوه في الظلام وهو يصيح إلى من خلفه.

-3-

كانت داريت في مزاج جيد رغم أنها لم تكن تظهر كثيراً بوجه باسم. لم يكن الوجه المستدير الأسمر ينوي أن ينهر أحداً. تطير من الفرح كأن أي أسرة لم تشهد الفرح الذي تشهده أسرتها. والخادما يتبادلن نظرات الاستغراب ولكنهن في مزاج حسن أيضاً. وما يلمسنه يحملنه براحه، غير خائفات من أن

يسقط منهم. بل عمّ الابتهاج أوساط الرجال أيضاً. تُعرف هذا من طريقة عملهم وتناولهم للأشياء.

ليس عند آل شرلأقوه اليوم عرسٌ لابنهم، ولا حتى لأن أفراسهم ولدت ثلاث مَهار. فرُح داريت الذي يكاد يطير بها هو ما يرين على البيت. حتى الغربان تحط على ذرا أشجارهم كأنها عرفت بالموضوع. ودجاجاتهم تغني، وديكهم يصدق بكل قواه.

تجلس داريت تحت شجرة الإجاص الكبيرة أمام البيت، تفتش قطعة القماش التي تطرزها. تتنافس أشعة الشمس وخيوط الذهب والفضة. وأطراف غطاء الرأس تعابث الريح الخفيفة. وتَهْتَز ثمار الإجاص الصفراء بين الأوراق كأنها معجبة بتطريز داريت.

ما الذي يبعث الفرح في نفس داريت إلى هذا الحد؟ سألت الدائر التي تجلس فيها وإن لم تسأل هي نفسها هذا السؤال. نامت البارحة كما تنام في كل ليلة. وكما تستيقظ كل يوم فعلت اليوم. وبحرص شديد مشطت لها شعرها أكوز التي نالت عقاباً شديداً قبل أيام، وضفرت لها. وجلست إلى المائدة التي أُحضرت لها راضية دون أن تعلّق عليها بكلمة واحدة. وغمست الخبز الطري في مزيج العسل والسمن. ولما خرجت من الغرفة نظرت إلى جبل بيباو شاعرة في أعماقها بجمال البلاد الجبلية. وابتسمت للغميمة البيضاء الوحيدة في السماء الهادئة، مشبهةً إياها بوجهها. ثم أمرت بإخراج مقعدها الوطيء إلى تحت شجرة الإجاص.

لم تكن داريت وحيدة في مزاجها الحلو هذا اليوم ففي الصباح الباكر ركب شرلأقوه ناغوه في منتهى السعادة، وخرج. ولما خطر لها زوجها فجأة ابتسمت. كان قد لبس وخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه كي لا يزعج زوجته ظناً منها أنها نائمة. ومن أين لشرلأقوه أن يعرف أن زوجته الحبيثة كانت تراقبه بعين واحدة. وناغوه بالقياس إلى داريت رجل نحيل ضئيل الجسم.

- يا أكوز، يا صغيرتي، تعالي لحظة، - نادى داريت فتاة الخدمة، - برَبَّكِ انظري إلى تطريزي؛ أليس جميلاً؟

لم تحفل أكوز بمناداة سيدتها لها باسمها، بل بعبارة "صغيرتي"، غير عارفة سبب هذا الانقلاب فتوقفت. وفغر حاغور موسى الواقف في الجهة الأخرى عينيه. ونبض قلبه بطريقة مختلفة كعادته كلما رأى الصبية. ولكن سرعان ما تبدد الفرح النابت في الصدر حين تذكر رياء داريت.

- جميل جداً، - تفقدت أكوز القماش المطرز.

تفحصت داريت الفتاة متجاوزة التطريز كأنها ترى الفتاة لأول مرة اليوم. جفلت داريت في غمرة تأملها للفتاة. لا تتذكر داريت أنها رأت في الفتاة التي تخدمها منذ سنوات أي نوع من الجمال أو القرب من القلب. وُحِّل إليها أن من تقف أمامها فتاة أخرى. الخصر دقيق جداً، والذراعان معتدلتا الطول تنسجمان مع قامتها الطويلة. وترى نفسك في خديها كأنهما مرأتان. والشفتان العسليتان تتوهجان. والجيد الطويل يمتد مع الكتفين العاليتين. والصفيرتان تسقطان على الظهر. ومن العينين الصافيتين ينبعث شيء من الحزن. والثوب الذي تلبسه وغطاء الرأس يناسبانها كأنها خلقت للجمال وحده!

غامت عينا داريت كأن الطبيعة تذوب في الظلام. واليدان سقطتا في حضنها كأنها عاجزة عن رفعهما. وغدا الوجه المدور غمامة سوداء فازرقت شفتها الرقيقتان.

- وماذا تعرفين أنت من الجمال؟! - انتزعت داريت القطعة المطرزة من يد أكوز. - الأفضل من هذا أن تري الحليب المحترق في قعر هذه القدر. اغربي من وجهي أيتها الساقطة الصغيرة حالاً ونظفيتها. ولا تبخلي بيديك فركاً إن كنت لا تريدني قطعهما!

ارتعشت أكوز، وخيل إليها أنها تغور في الأرض، وكعصفور سقط في الغرفة ولا يعرف طريق الخروج ارتجف القلب الصغير في الصدر، وارتجفت الساقان.

- ماذا تنتظرين أيتها المتصنعة التي لا تمل من تزيين وجهها؟ - سمع من في الدار صراخ داريت، وسرى على ظهورهم كالسوط.

هبّت ريح عاتية، تكنس كل ما أمامها، فصحت أكوز وهربت من أمام داريت. وتوجهت إلى القدر التي تتسع لقراءة عشرين دلواً حين يأتي ضيوف إلى

المنزل. كانت القدر تسع لاثنتين من حجم أكوز. ولا تستطيع أن تهرها. والقدر مغطاة بطبقة من الهباب وبقايا الطعام المحترق. ولا يمكن حتى للسيف أن يزيل هذه الطبقة. ملأ اليأس قلب أكوز فداخت. وقفت بعض الوقت تحت رموشها الطويلة ويخيل إليها أنها في الدار الآخرة. إنها مثل عود طري لم تتسع لها الغابة فنبتت في البرية. والفتاة التي لم تعد تعرف إن كانت لها دموع، تحرقها الإهانة. وكما تفعل في مثل هذه المواقف عضت على طرف شفرتها فعاد إليها وعيها. وكان أول من لمحته حين فتحت جفניה هو حاغور موسى القادم إليها بخطوات واثقة. زاد الحياء من خفقان قلبها. وبعد نوبة البرد القارس التي داهمتها بدأ ينبعث في صدرها نوع من الدفء اللذيذ. ليست هذه أول مرة يحدث فيها لأكوز مثل هذا، بل منذ هذا الربيع. وأشد ما تأثرت كان يوم بدؤوا يكومون الحشيش في الخريف في دار شرلأقوه. منذ اليوم الذي خافت فيه على موسى الواقف فوق كومة الحشيش من السقوط.

- لا تيئسي يا أكوز، - قال موسى، ودحرج القدر الهائلة من منصبتها إلى كومة الرماد. - سأتيك بالماء والرمل وسيف الغابة.

وجدت أكوز في نفسها القوة فجأة كما لو أن السبب هو قلب القدر التي أمامها. فأحكمت غطاء الرأس، وثمرت عن كُتي ثوبها الذي فقد لونه. عاد حاغور ومعه كل ما وعد بإحضاره. وخجلت أكوز من تشميرها المبكر أمام رجل، فأخفت يديها وراء ظهرها. ولاحظ حاغور هذا فبدل جهده لإزالة السواد من القدر.

- حياك الله يا حاغور، - قالت أكوز بدفء من القلب.

- افركي السواد دون استعجال. وإن احتجبت زودتك بالماء. - قال موسى حاغور وانصرف كما أتى بكل اعتداد.

شرعت أكوز بالعمل على تنظيف القدر المتسخة بالسواد، ولكن من لا يفارق الذهن هو حاغور موسى الذي كان أمامها قبل لحظات. لم يرفع رأسه وينظر إلى ذراعيها العاريتين اللتين أخفتها عنه. ما أشد عفاه بالقياس إلى غيره من الفلاحين الشباب! حين تلتقي بتخوخوه نباؤه وحدهما لا يتوانى عن النظر

إليها وممازحتها. ماذا كان يضيره لو نظر!.. جفلت أكوز خجلة مما خطر لها. وبدت حمرة الخجل قانية على خديها. زادت من حدة حركتها للقدر كأنها تكفر عن خاطرتها. وألقت نظرة امتعاض لا تعرف سببها إلى داريت التي لا تكف عن إزعاجها.

لم تكن داريت مهتمة بلجوء أكوز حين جلت القدر إلى حاغور موسى، ولا بما قال لها وما خدمها به. بل كانت نقست عما يعكر مزاجها بأن صبت غضبها على الصبية، وانصرفت إلى تطريزها. وكلما غرزت الإبرة في القماش تفحصت كيس التبغ؛ ماذا تطرز في الكيس الذي تكاد تنتهي منه. تحب هي وزوجها أن يتحادثا قبل النوم، وقبل أن يطفأ المصباح، ولذا ستضع الكيس سرّاً تحت الوسادة الليلة، وتقدمه هدية له. وناغوه يحب أن تقدّم له شيئاً. ومن عاداته أن يفرح بما تقدمه إليه كما الأطفال. ثم إن هذه الهدية تكون في غاية المتعة حين تلامس فخذه فخذه، ويتناثر شعر رأسها على يديه. تعرف داريت كل ما يسرّ الرجل. وهل السيدة داريت أبشع من تلك الصبية الطائشة التي تنظف القدر بيديها؟! إنما الفتاة الوحيدة لآل ناورز المتنفيين الأغنياء الذين يعيشون في الشابسغ. لم تمس يداها طوال عمرها الوسخ. النهدان ضخمان والجسد متناسق معهما. زوجوها فحسد الناس آل شرلأقوه إذ ستمنحهم أسرة كبيرة. وقد تحقق ما توقعوا فولدت له صبيّاً جميلاً. وهذا يكفي إذ يجب أن يتمتع شرلأقوه بها...

ولا تتصور أنها ولدت علي سلطان فهي كعروس البارحة. وأحياناً يختلس الرجال إليها النظر بأطراف أعينهم. وقازجري نفسه كان يسلب الأنظار. رجل ضخم، وشارباه الكثيفان ما من امرأة إلا يسيل لعابها إليهما. أما عيناه فالأفضل ألا تنظر إليهما.

اشتهد داريت أن ترى نفسها في المرأة. مرّت بإصبعها على حاجبيها الضيقين، ووصلت إلى طرفي عينيها. تريد النظر في المرأة ولكن الأخيرة غائبة عنها.

- هيا اذهبي وهاتي لي المرأة. - انتفضت داريت برأسها كحية تهاجم هدفاً،

ونادت أكوّز.

وصلت المرأة إلى داريت قبل أن تبرد كلمتها. وكالعادة وقفت أكوّز تمسك المرأة مقابلها. أصلحت غطاء الرأس الملون. وبلّت طرف إصبعها ومسدت بها حاجبيها. تأملت داريت نفسها طويلاً في المرأة، وابتسمت لما رأت يدي أكوّز الملوّثتين بالهباب: هذا جزاؤك، سنرى الآن دلالك وعُنجك.

-ألا تستطيعين تثبيت هذه المرأة اللعينة!.. - نهرتها داريت منشفة بسطوها على الفتاة المسكينة. وارتسم فراش الزوجية الذي ألهمهما أن تطلب المرأة دافئاً عذباً. وتخيّلت أنها تحتطف الرجل الذي ستهديه الكيس.

-4-

عاد تحخوخوه نبافؤه إلى الدار على الحصان، وحاغور موسى وأكوّز ينظفان القدر في مواجهة الفلاحين. منذ وقت طويل تركت داريت ظل شجرة الإلجاص. وبعد ما تأملت نفسها في المرأة زعمت أنها تعبت من التطيرز فدخلت غرفتها ولجأت إلى فراشها المريح. كان نوماً عميقاً لم يعلم به غيرها سواءً حلمت أم لم تحلم. ولما رأى تحخوخوه موسى وأكوّز إلى جانب القدر فتش الدار بسرعة. الفلاحون الذين تعثر بهم حين لا يريدونهم اختفوا الآن كأنهم هربوا، والنساء بأثوابهن الطويلة اللواتي كنّ يتلصصن من هنا وهناك كأنهن ينتظرن لقاء أكوّز بموسى، اختفين من تحت السماء الآن.

ماذا رأى الاثنان في القدر العتيقة لآل شرلأقوه؟.. يصب موسى الماء على القدر في حين تمسحها أكوّز. وفي الحال يبدأ الدم يتسرب من قلب تحخوخوه نبافؤه. ويتصبب جبينه عرقاً حتى قبل أن يترجل من الحصان. انظر الآن إلى ما يفعل موسى الذي لم يُد أي رد فعل حتى في داخله لما سمع الضرب الذي تتعرض له أكوّز، فبقي جالساً كالخلد دون أي مظهر للحزن... ساط تحخوخوه الحصان الذي لا ذنب له فأجبر العاملين في تنظيف القدر على الالتفات. ترجل تحخوخوه دون أن يعيرهما اهتماماً، وتوجه نحو الحظيرة ممسكاً بزمام الحصان.

- نهارك سعيد يا تحخوخوه نباؤه، أراك لا تقول شيئاً؟! - نادى أكوز الرجل المنصرف. - هل أنت غاضب؟
- تحخوخوه لا يعرف كيف يغضب، - قال حاغور مُسمعاً تحخوخوه، ونظر إلى ردِّ فعل أكوز.
- من يرى طريقة تنظيفك القدر لا يغضب إن تحمّل. - قال تحخوخوه لمن وراءه دون التفات.
- لا بأس إن تكلمت ولم ينحبس لسانك. - تابع حاغور راكب الحصان المنصرف وهو يرفع دلو الماء.
- ما الأمر يا موسى؟ هل تخاصمتما؟ سألت أكوز متوجسة أن يكون هناك جفوة بين الرجلين.
- ليس بين تحخوخوه وبينى مثل هذا. - انتبه حاغور إلى أنه يكشف الآن سرّه فاستدرك بسرعة ممّوهاً ما جرى: - أقول هذا لأنه يكره الكلام.
- ليس مثل تحخوخوه من يقال فيه مثل هذا، - لم توافقه أكوز، - هو طلق الوجه معنا نحن النساء. ويتمتع بروح المزاح.
- أليس هذا رأيي أيضاً؟ - يوافقها، - إن كان تحخوخوه مزوحاً معكن، أنتن النساء، فهو معنا ثقيل الدم.
- عجيب ما تقول؛ لا يمكن أن تأخذ عنه مثل هذا الانطباع البتة، - تفكرت أكوز في ما سمعت.
- داخلت الوسائوس قلب موسى من قول أكوز "مزوح مع النساء" لماذا يمزح تحخوخوه مع هذه الفتاة البسيطة؟.. ما العمل إن كان نبت في صدره نحوها مثل ما في صدري؟ يشل الشك المفاجئ أطراف موسى. ويُحِيل إليه أنه يسلبه أكوز الواقفة إلى جانبه. يدرك أن وقوفه معها غير مناسب فينظر إليها بطرف عينه، ليس في مظهرها ما يدعو إلى الشك: ما تزال تمشح بالخرقة المبلولة. لا بأس إذن، تتجاوزه نوبة الشك كما داهتمه. تبين أنها ليست كما تخنّ موسى. مسحت بقوامها المشبه للنملة القدر فجعلته كالمرأة.
- كفها تنظيفاً، - قال موسى، - لم يولد بعد من يستطيع إرضاء داريت!

- لا ألوم داريت، - نظرت أكوّز إلى شجرة الإاجاص، - لا ذنب لها إن خلقت هكذا؛ بل إني أشفق عليها أحياناً..

استغرب حاغور موسى ما سمع. ألا تسمع ما تقول أكوّز التي يشفق عليها الفلاحون؟ تشفق على زوجة شرلأقوه البطرة! كنا سنرى ما تفعل لو كانت هي مكانك...

- لا تحاولي يا أكوّز أن تثبتي خطأ القول المأثور: الشبعان والجائع لا يعرف أحدهما الآخر. - رفض حاغور آراء أكوّز رفضاً مطلقاً. - لم يُخلق أحد بمثل طباعها. إنها امرأة معتادة أن تتقيأ المُلْك وتتتمر على من تقدر عليه. الكلب عندما يشبع يمتلئ شحماً ويتحول إلى كلب مسعور، وهذا ما جرى لداريت. وليست وحدها بهذا الطبع فهو سائد في الأسر المتنفذة. - لا أحد يستطيع الوقوف في وجوههم. ولذا يجلدونك إن أردادوا، وإن أرادوا أهدوك كالخروف، أو باعوك كالحصان!..

سمعت أكوّز الجملة الأخيرة التي تتكلم على البيع فارتعدت أوصالها. وبدأ لوّغا يشحب. تذكرت كلام داريت قبل أيام: "التجار الذين كانوا يقفون كل يوم على عتبتنا اختفوا..." تعيش حياتها وهي تصغر، فتصغر كلما أتى التجار إلى بيت شرلأقوه. وما أكثر ما خطر لها أن تهرب إلى غابة تحمز، ولكنها لم تستطع. وما أكثر ما رأت أكوّز الصبايا والصبيان الشراكسة الذين اشتراهم التجار الأتراك يمشون أمام قريتها باستوك. وصدف أن باتوا لدى آل شرلأقوه. ورغم أنها بيعت هي الأخرى كهؤلاء الصبايا والصبيان فهي تفضل ألف مرة أن تباع في بلادها على أن تُساق إلى بلاد غريبة. ففي أسوأ الأحوال تخدم على الأرض التي تمشي عليها، وتتكلم بلسانك. وتُظْلِك شمّسك وسماؤك.

- ما الذي لا يسمح لي بالنوم؟ أهى ذبابة؟! - صدر صوت داريت الغاضب من غرفتها.

شحب وجه حاغور موسى علامة على أنه لا يُطيق صوتهما. وركضت أكوّز نحو الغرفة وإن لم ينادوها باسمها إذ تعرف أنها المطلوبة. وبقي موسى مدة يدور في المكان. ثم حمل السيف الذي نظفوا به هباب القدر، وانصرف. لم يتوجه إلى

كومة الحشيش حيث تحخوخوه، بل إلى الكومة التي يجبها حين يكون راغباً في الاختلاء بنفسه. كانت الشمس مالت للغروب ولكن الجو ما يزال حاراً. الصيف يجز بحره كأنه غاضب لكونه في آخر أيامه. ممتع أن تجلس وظهرك إلى أسفل كومة الحشيش. وليس هذا هو السبب الوحيد لتعلق موسى بهذا المكان: مقابل هذه الكومة يبدو من بعيد جبل بيباو مستقيم الظهر، لا ينحني لأي سبب. يقطع السحب البيضاء، ويتسم للبرق والرعد. يدرك الناظر أنه يقف حراً في مكانه. الآن صحيح أن ما أمام ناظري موسى هو الجبل، ولكن من لا تفارق مخيلته هي أكوز. كبرت ونشأت دون علم أسيادها وهي ما تزال طفلة في ظنهم. تفتحت فجأة، ووقفت بينهم منتصبه القائمة كشجرة كرز. يفهم ما وراء مزاح تحخوخوه؛ أين هو الآن يا ترى؟ منذ أيام يتجنب لقاءه.

ما كان يُفلق تحخوخوه هو نفسه ما كان في بال موسى! هو أيضاً يستظل بالكومة الأخرى. في ذهن كل منهما الفتاة نفسها وإن حُبل إليهما أنهما يعيشان في عالمين مختلفين. لا يدرك أحدهما ما في نفس الآخر، ولكن يحتمنه. لم يصارح تحخوخوه صاحبه موسى بما في سرّه. لم يكتشف أن لأكوز مثل هذه المكانة في قلبه. كان يحدث أحياناً أن يثرثر معها و يمازحها. والآن ألا ترى إلى أين وصلت برادة حاغور؟.. والآن عرف السبب الذي تخاصما من أجله حين ترافقا في مشوار سرقة الحشيش. لم يتقبل ما خرج من فمه. بديهى أن أكوز إذا كان أمثاله في حضرتهما فستجد أمثالي قبيحين. لا وأخذك. لو كنت مكانك لاتخذت الموقف نفسه. عيب علينا أمام من يعرفوننا كأننا تعادينا بسبب هذه الصبية، سيسخرون منا. بل إذا وصل بك الأمر إلى هذا الموقف فلن أدعك أبداً تشك بما في قلبي تجاه أكوز. ومتى جاء الوقت المناسب سنرى من سيحظى بقلب أكوز. يا صاحبي، ليست أكوز موضوع المشكلة، بل لأني كنت أعتقد أنك تتمتع برجولة غير التي انكشفت عليها. ليس خصامنا عجباً فلا تخلو الحياة من مثل هذه المواقف. ماذا كان سيحدث لو أنك لم توصل الكلام في الليلة نفسها إلى شرلاًقوه؟! ما العجيب في أنك ملأت العربة وحدك وأنتي بها؟ أنت لا تعرف أيها البائس أنني لم أبتعد عنك في تلك الليلة خطوة

واحدة. حرست جِملك طوال الوقت وحميتك. أأنت أم أنا واشي آل شرلأقوه؟ أمسكت بك في موقف تعجز فيه عن أي فعل أو كلام. ما فعلته عيب، ليس من الإنسانية ولا من الصداقة في شيء. كنت الوحيد الذي يمكن أن أثبته حزني وشكواي. بقيت الآن بالنسبة إلي شجرةً مقلمة الأغصان في العراء. أنا أعاملك كأن أملك ولدتي ولكنك لا تعرف.

قطع وقع حوافر الخيل المقترّب أفكار تحخوخوه. نظر فرأى شرلأقوه الكبير أمام باب الدار، وموسى يستقبله. ألا ترى كيف يُمسك زمام حصان شرلأقوه ويساعده على الترحل! لا يكفي هذا، امسح بيدك على الأرض التي يقف عليها!..

جال شرلأقوه بعينيه هنا وهناك، ثم نادى مستقلاً من استقبلوه:

- أين من في الدار؟!

جفل تحخوخوه الذي كان يغتاب صديقه الفلاح، وتوجه نحو شرلأقوه دون وعي. وخرج الفلاحان اللذان كانا يعملان في خزان الحبوب.

- ألم يعد الأمير علي سلطان؟

- لا يزال غائباً منذ خرج في الصباح.

- كم نتهتكم على أن تنادوني بالأمير!..

جابهه حاغور كأنه كان ينتظر هذه المناسبة:

- لم نعتد على هذه الكلمة.

- ماذا تقصد بهذا الكلام؟ غامت عينا شرلأقوه.

أجاب تحخوخوه رافعاً جفنيه الثقيلين كمن يطلب من السيد ضبط أعصابه:

- لم نعتد بعد على هذه الكلمة، هذا مقصد حاغور.

- إن لم تعتادوا فاعتادوا! - هدأ صوت شرلأقوه قليلاً.

خيل لشرلأقوه أنهم رفعوه وألقوا به في النار. ودارت عيناه في محجريهما ناسياً أنه هو من يقف أمام الفلاحين. وهرب الدم من وجهه كأن كل ما في جسده من الدم هجم إلى رأسه، ثم عاد إلى قدميه. وفي الحال خطر له آل حجمقوه كلهم كأنه في دارهم. ثم ضبط أعصابه وهدأ متذكراً ما قال لابنه يوماً في

مسألة الطبع الجميل. وعاد الدم الذي كان قد هرب من وجنتيه إليهما. وشعر بانتظام نَفْسِهِ. وتراخت قبضته عن السوط الذي أعدّه لهذه المناسبة، فوافق الفلاحين:

- كلامكم صحيح. وكيف تعتادون على مناداتي بالأمر بهذه السهولة. والإنسان لا يطاء الأرض بقدمه منذ ولادته. كفى، وأنت يا حاغور لا تحفظ عيناك إلى هذا الحد؛ لا أجبرك!.. طلبت منكم هذا الطلب لأن مناداتي بهذا اللقب لا تشرفني وحدي بل شرف لكم أيضاً. وهل نحن الشابسغ أقل شأنًا من البجدوغ والجمكوي الذين عندهم أمراؤهم فلا يكون عندنا أمراؤنا؟! وإن لم تكونوا راغبين فلا بأس، ولكن قد يكون بين الفلاحين من يرغب. لا تحتدوا بهذا الشكل!.. وإن فكرتم قبل أن تحتدوا فلن يؤذيكُم...

لم يعلق أحد من الحضور بخير أو بشرٍ على كلمات شرلأقوه. وكان هو نفسه مهموماً بمفارقة من أحاطوا به فحسب، ولكنه لم ير من اللائق أن يفارقهم هكذا كأنهم أربعوه. يجب أن تقف مكانك حين تستقبلك كلاب القطيع، وإلا مزقتك إرباً إرباً. أليس هؤلاء أيضاً كلاباً، بل أسوأ منها؟! ران على شرلأقوه خوف خفيّ خلافاً لحاله في السنوات الأخيرة. ظل يتصورهم صبياناً حتى كبروا وأصبحوا رجالاً شجعاناً يمكن أن يقتلعوا رأسك بكل سهولة! يجب أن أختلق لهؤلاء عملاً لئليهم، وإلا قابلوك مع مرور الزمن بسيف مشهرة. آل أباته عندهم كل سنة أسلوب مستحسن لترويع الفلاحين. ليست المشكلة مع تحخوخه، هذا يمكن في حال الضرورة أن تطوّعه، بل مع حاغور الذي لا يجوز أن تُرّيه وجهاً طلقاً؛ يُعزل الحصان العضوض من قطع الخيل...

- كفاكم، لا تتجمعوا فسيبوا الأمل لنفوسكم! - نصحهم شرلأقوه وهو يفارقهم، - فكّروا في ما قلت لكم بشأن الشابسغ فتبادل النصح في ما بيننا. ولا تهتموا بالأبزاخ الملتحين إذ ليس لهم أمراء. هؤلاء من الناس الذين يدنسون عِرْقنا، الذين لا يصدقون في شيء ولا يلتزمون...

السكون يسود باستوك وقرى آل شرلأقوه الأخرى المحيطة بها. لا يُسمع من قريب أو بعيد حتى نباخ كلب. كأن الجميع ينتظرون خطراً داهماً. البيوت

المسقوفة بالقش، والتي أمامها مساطب طويلة، تختبئ تحت ظلمة صلاة العشاء القادمة. وتبدو مصابيح الدهن الصغيرة. ويبدأ حوار الأبقار في أفنية البيوت ينقض ظلام الليل. كان الجبل العالي يهيمن على القرية كالظلّ. وأضواء النجوم القليلة لا تقدر على مقاومة الظلام. والبومة توقفت بعد بضع صيحات كأن أحداً يخنقها.

مهموماً بتأخره، مستعجلاً، توجه الأفندي صالح إلى الجامع الذي بناه في العام الماضي شرلاًقوه المنتفد وبعض الفلاحين الأغنياء بدافع الغيرة لدى عودتهم من البجدوغ. لم يجد أحداً أمام الجامع الذي تعلو منارته كأنها تثقب السماء. ما أكثر متاعب الأفندي صالح في كل مساء! يصبح بأقصى ما عنده حتى ليتمزق صوته، ثم يقف وحيداً أمام الله. ليس من ينتظرهم هم شرلاًقوه وبعض الفلاحين الأغنياء، بل يتمنى أن يأتي بالفلاحين الذين تقبلوا الإسلام كلهم. ولكنهم لم يتقبلوا كلامه مهما قال لهم أو فعل. في باستوك كلها هو راضٍ عن فلاح واحد فقط: أكجكوه أنزور. لا يفوت صلاة واحدة في الجامع. تقبل الإسلام في أعماقه، فيصلي من قلبه. يقف خلفه فيفعل مثل ما يفعل هو.

أخرج ساعة الجيب الفضية من الجيب الداخلي للقميص، وتأملها ولكن الظلام لا يسمح برؤية عقاربها. ومن أين للفلاحين الذين لم يروا طوال عمرهم ساعة أن يعرفوا موعد الصلاة!.. والذين عندهم ساعات يتأخرون. نظر الأفندي صالح نحو بيت آل شرلاًقوه. البجدوغ هم من يقدرّون تعب الأفندي موفد الله، فيشمنون جهده. سكان قرية طؤابغوه كلهم، بمن فيهم الأمير الكبير حجمقوه، يصطفون قبل أن يحين موعد الصلاة. متى سافر إلى البجدوغ رجع وقد امتلأ قلبه حبوراً ورضاً، واقتنع بقبول الله صلاته؛ ما أسعد من يؤمهم!..

المصباح الزيتي الذي أشعله صالح باكراً بعد صلاة العصر يشعّ سراً من الجامع. وهل يصلح سقف من القش جامعاً؟! حظائر شرلاًقوه متقنة أكثر من هذا الجامع. وليس فيه شبر من السجاجيد التي في جامع طؤابغوه. هل تستطيع أن تمثل أمام الله الذي يتوسل إليه الجميع على جلد عنزة؟! فتح صالح بهذه الاحتجاجات باب الجامع. استنشق طويلاً رائحة زيت المصباح. وفجأة سمع

وَقَعَ أَقْدَامَ قَرِيبٍ: أَكْجَكُوهُ أَنْزُورُ:

- سلام عليكم يا أفندي!

- وعليكم سلام، - فرح صالح أفندي بطريقة تحية القادم، - ألم نلتق اليوم يا أنزور؟

- لا يا أفندي، اليوم زرتُ أسرة غُوايه.

- وماذا يجري بأمور تلك الأسرة بإذن الله؟

- بخير، موسمهم هذه السنة جيد.

- هذا من رضا الله.

- لم ألاحظ يا أفندي مثل هذا الاتجاه في أسرة غوايه.

- بسم الله! ما تقوله عجيب... ألم تأت لهم على ذكر الله؟

- والله يا أفندي أسمعُهم ذكر الله، ولكنهم لم يسمحوا لي به... أمسك مُضيفي بمشط قدمي فأسكنتني قائلاً: سيفعلون بك ما فعلوا بأفندينا.

- سبحان الله! ماذا فعلوا بأفنديهم؟

- يروون أنهم ربطوه على ظهر حمار، وربطوا بذيله قطعة نافقة، وأطلقوه في غابة تحمز.

- يا ربي، أظننا بخشيتك، - رفع صالح أفندي عينيه إلى السماء وقلبه يمتلئ جزعاً، - املاً قلب من لا خير في قلبه بالخير، ووجه خير من في قلبه الخير إلينا! - سينال كفار قرية غُوايه جزاءهم متى هبطت السماء عليهم. هؤلاء العديمو الإيمان لا يستحقون الكلام عليهم. ولا حاجة لفلاحينا إلى أن يسمعوا خبرهم... الأفضل أن نفعل نحن ما علينا يا أنزور... ارتقى صالح أفندي الضمئل القائمة المنارة بساقين مرتعشتين، وأمسك بطرف أذنه وبدأ يصيح إلى القرية.

ما إن ارتفع صوت الأفندي المرتحف حتى ارتفعت من القرية أصوات كلاب متفرقة كأنها دُعرت من الصوت. وصدر من جهة باب الجامع نباح كلب مذعور يوحي إليك بأن مصيبة تودي بحياة من على الأرض. وجاوبه كلب آخر من جهة بيت شراًقوه لابد أنه كلب مستنه آرسي. امتلاً قلب أكجكوه

أنزور بالرعب من صوت المؤذن ومن عواء الكلاب. تمتلئ السماء الحافلة بالأسرار دائماً بالنجوم في المساء، فتأملها كأنها تنوي بها شراً. وينصت أنزور مرتعباً كأن خوفاً خفياً سيختطفه، فينتصب شعر رأسه.

قال شرلأقوه ناغوه حين سمع الأذان:

- والله تصعب عليّ صلاة العشاء.

وفي الحال تناهى إلى سمعه نباح الكلاب، فقال:

- كلبُ من يا ترى يغني رثاء الوقواق؟

ارتعبت داريت التي كانت تزيج بقدمها إبريق الضوء دون أن تكلف نفسها الانحناء:

- هذا فأل شر. كأنه كلب آل مستنه، يا ويلي هذا فأل شر، فأل شر!

ينصت شرلأقوه ويشهد:

- هذا كلب مستنه أرسى!

- الكلب يشبه أصحابه تماماً، غضب شرلأقوه: - ألا يعرفون أن تصرف الكلب بهذه الطريقة ينذر بالشر؟!

- هي أسرة أبالسة!.. - تشارك المرأة زوجها غضبه، - لنتنظر انبلاج الفجر حتى إذا دخل كلبهم دارنا عذبته بالإبرة. أعدك أن أفعل به هذا. ثق بي! ابتسم شرلأقوه:

- وماذا تنوين بحق سائر الكلاب؟

احتدت داريت مستاءة من طريقة سؤال زوجها، وتصلبت كتفها، وجحظت بعينها:

- أنت المسؤول عنها.

حين دنا شرلأقوه الأكبر وشرلأقوه الأصغر من الجامع رأيا جمعاً غفيراً على الباب خلافاً للأيام السابقة. لم يستغربا حضور أنزور الملقب بمعاون الإمام لأنهما اعتادا على رؤيته. ما استغرباه هو حضور حاغور موسى. ولم يكونا الوحيدين في الاستغراب، حتى صالح أفندي لم يفهم سبب حضوره رغم ترحيبه به. قال علي سلطان في نفسه: لماذا يأتي إلى صلاة العشاء للمرة الأولى، لا

الفجر ولا الظهر؟ ورمى حاغور بنظرة من جانبه. وكان السؤال نفسه في ذهن الأب كما لو كانا متفقين عليه. الخطوة الأولى تضع دائماً في الظلام. ربما كان خجلاً من غيابه قبل الآن. أقول هذا ولكني لم أر شيئاً من هذا القبيل لما حدّثت في عينيه قبل أيام. أما قال لي الرجل الدّعِي "لم نعتد على لقب الأمير" ستعتاد عليه طوعاً أو كرهاً يا صغيري! حتى الجامع ما كنت تريده ولكنك حضرت. أنت لا تعرف بعدُ أسرار الحياة.

كان شرلاًقوه يقول هذا ولكن لا شكّ في أنه يُخطئ بحق حاغور موسى. ليس الفلاح الشاب كما يصفه شرلاًقوه. صدف كثيراً أن فكر في اجتذاب الإسلام للفلاحين الشبان. وعلى روايات الضيوف في المضافات فقد تقبّل الجمكوي الإسلام. ولم يتأخر البجدوغ عنهم إن لم يسبقوهم. ورأى الأمر بعينيه لما خالط البجدوغ. مهما كان كبر الشجرة أو صلابتها فالحياة تُبعث فيها من الجذر. وإذا كان سائر الأديغة تقبّلوا الإسلام فلا بد أن يتقبله الشابسغ إن عاجلاً أم آجلاً. وفي الأخبار أن غيرها من القرى تبنى فيها جوامع. ومن عاند ووقف في وجه الإسلام هو عرق غوايه. ويأتون في قراهم وفي منطقة أباته، وأنزور وزانه، على ذكر الأفندية المسلمين. ولا يتخلون عن آهتهم. ولا يستطيعون التخلي عن إلههم الجديد. ورأى الأفندية في بلاد البجدوغ هم الذين يفتتحون الاجتماعات والمؤتمرات. ورغم حضور الأمراء تلك الاجتماعات فإن ما يتقبله الفلاحون هو كلام الأفندية. ويعتقدون أن كلامهم أقرب إلى العدل والصواب. لما دخلوا الجامع للصلاة وقف أمامهم صالح أفندي الضئيل الذي لا يكاد يرتفع عن الأرض إماماً. وكما يفعل الأمير الكبير حجمقوه فقد تقدم شرلاًقوه ووقف إلى يسار الإمام. ووقف علي سلطان في الصف الأول. يقلدون حركات الإمام في وقوفه وجلوسه وركوعه ووجوههم إلى القبلة. ووقفوا مدة على جلود الخراف كأنها الجوارب. لم تكن لغةً صالح أفندي اللغة الأديغية ففيها كثير مما لا يفهمونه. وأحياناً يصرخ وأحياناً يهمس. وفي الانتقال من وضعية إلى أخرى يرتفع صوته. لم يكن حاغور يتعجب من طريقة الصلاة بل من تصرفات علي سلطان. ينطق بصوت عال وراء ما يرددونه من كلام الإمام أشياء كثيرة.

ئيسيك حتى أكجكوه أنزور. إنه يصلي بحماسة كأنه خلق للإسلام، فيجلس ويقوم بنشاط.

لم تطل الصلاة. وقال صالح أفندي للمصلين:

- من يود أن يتعلم أول درس في الصلاة فليأت غداً! أنوي أن أعلمكم بإذن الله بصوت عالٍ، وعن ظهر قلب. والآن صرتم من المسلمين الذين أدعو الله أن يصبحوا على خير.

واختتم دون أن يعرف السبب بما اعتاد عليه:

- سلام عليكم.

رجع شرلاًقوه إلى البيت منشراحاً جداً خلفاً لما غادره به. وعرفت داريت الجالسة إلى المرأة هذا فتقبلته بترحيب:

- هل تعرفين من رأيت في الجامع يا بنت آل ناورز؟ - سأل الرجل وهو يفك الحزام عن الكساء- وأكمل دون انتظار سؤال المرأة: كان حاغور بين المصلين.

- هذا عجيب! أكيد أنه حاغور موسى؟ - سألت داريت غير مصدّقة.

- نعم هذا الدب الذي تعرفينه.

- اعتبر يا رجل إذن أن الشابسغ رضخوا للإسلام.

- لا أعرف إن كانوا رضخوا، كان هناك.

- هذا القبيح ما الذي جاء به يزحف كالدب إلى الجامع؟

- أنت عتقت في الكلام، ولكن لم أعط أكجكوه عبثاً حصاناً مجهزاً... أظن أن له علاقة. لا شيء يعجز عنه فعل الخير!..

انصرفت داريت عن حديث زوجها، واندست في الفراش حالما داهمتها رغبة ما. أسندت إلى الصوفا الخشبية الموجهة إلى الجدار وسادتيها الكبيرتين. التفتت إلى الزوج، ودون أن يراها وضعت الكيس الذي طرزته أمس تحت الوسادة.

لم يطفئا المصباح خلفاً لعادتهما عند النوم. ولولا أنها تريد تقديم الكيس لأطفأت المصباح بنفخة واحدة. بقي الزوجان مدة في الفراش دون حديث. شرلاًقوه ينام على ظهره وعيناه في السقف هائماً مع فكرة ما. وداريت قررت ألا تفتتح الحديث فهي تنتظرُ الزوج. ولكن داريت تبدأ شيئاً فشيئاً بالتأثر

بخلود الزوج إلى الراحة وسرّخان خواطره، وهذا يدفعها إلى الغضب. وفجأة تطفو أكوز على سطح أفكارها. وتتوهج وجنتاها كأن زوجها تصرّف معها على نحو غير لائق:

- التجار ينسوننا.

- وفيّمْ تحتاجينهم؟

- احتجتهم، - غضبت داريت من برود الزوج، كانت تريد أن تقول له: ليس من يخيّطون له كيساً ويتعبون عليه شخصاً مثلك، ثم تدير ظهرها له، ولكن أكوز التي ارتسمت في الذهن في منتهى الجمال لا تفارق خيالها. أنوي أن أبيعهم الفتاة الثرثرة الخبيثة التي ربيناها عندنا.

- من تقصدين؟ أكوز! - استغرب شرلاًقوه ما يسمع.

- ومن غيرها في خدمتي بهذه الأوصاف؟ - أجابت داريت بصراحة وقحة.

- وما الذي أوصلك إلى هذا القرار؟

جلست داريت بكل ضخامتها في الفراش، والتفتت إلى الزوج بنظرات قاتلة وشعرها متناثر على كتفيها:

- ما أوصلني هو خوفي من أن تغري ولدك بالفاحشة. ألا ترى سلوكهما؟ وكيف ترى إذا كان الله خلقك أعمى؟!

الفصل الثالث

-1-

السماء الباهتة تحيم على أرض البجدوغ كأن حرارة الصيف حممتها. أوراق الأشجار لم تعلق بعدُ بأشعة الشمس المشرقة من وراء الجبل. ومئات الآلاف من الأوراق المصفرة لم تنتظر الشمس بل توجهت إلى الأرض التي ستسقط عليها. ولذا يخيل إليك أنها كفت عن التهامس فيما بينها خائفة من التحرك. الفلاحون متجمعون على مقربة من بيت آل حجمقوه إلى جانب أحد أسوار البيوت. ويبدو في الشارع بعض من يحملون أكياساً طويلة على ظهورهم.

وعربات الثيران تأتي إلى المكان. كل يؤدي عمله وليس بينهم حديث إلا الضروري منه. والنبل الحارس مرزيج يشرف عليهم. ومعه السوط الخاص بالخيل والمنتهي بكرة رصاصية.

اليوم يوم جني محصول أمير البجدوغ الكبير حجمقوه. يملأ الفلاحون مخازن الحبوب، ويكيل كل منهم ما حمله من الحبوب بالمكيال، كل بدوره.

- يا لاأجي، ما أشد حرصك!.. - وجه مرزيج الكلام للفلاح الواقف على المكيال يملؤه بالدخن.

- لو عملت به لما قلت هذا. - غمغم الفلاح ذو القبعة المهترئة، دون أن يرفع جفنيه وينظر إلى محدّته.

- املاً الدلو إلى آخره يا عديم الإيمان! - غضب مرزيج جاحظاً بعينه السوداوين. - أنت ثرثار، املاً جيداً إذ أمروك.

تبادل الفلاحون الواقفون بانتظار الدور النظرات. وسرت ضجة خفيفة بين البعيدين قليلاً عن الحارس. وبعد قليل ارتفعت أصواتهم وقد اكتسبوا شيئاً من الجرأة. شدّ مرزيج قبضته على السوط، ولكنه تذكر حالاً ما جرى في هذا المكان نفسه في العام الماضي. كانت ثارت ضجة كبيرة بين الفلاحين القادمين لتقديم المحصول. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فكسروا أكثر من مكيال. ولولا الأمير الكبير حجمقوه لقطّعوا الحارس مرزيج إرباً إرباً.

لجم العرق المتصبب على جبين مرزيج من تلك الذكرى غضبه.

- سمع أمير البجدوغ الكبير حجمقوه الضجة فأوهمهم أنه خارج من البيت، يتنزه في أرض الدار. ولكن لم يمنع هذا التصرف الفلاحين من التعبير عن غضبهم بعيونهم الجاحظة. ما يزلون يزحفون على مرزيج. حقاً أيها الحارس مرزيج، ماذا يضريك أن تتحلى ببعض الإنسانية؟! - تشجع فوجه لاججي الذي وقف الفلاحون إلى جانبه.

- وإن لم نفتح أفواهنا أجبرتمونا!.. لماذا لا تُبقي شيئاً من البهجة في عملنا؟ وإلا بقي في حلقنا بكل مرارته... - ساهم فلاح آخر في الجدل.

- كفى، قلت ما قلت وانتهى، - لان صوت مرزيج وتأمل الفلاحين بعين

أخرى. - وإن كفتُ عن مثل هذه الملاحظات فيم تكافئونني؟.. هل تظنونني
دمية تراقبكم فتعلقوا على كلامي؟!

ربما كان هذا ما يريده الفلاحون إذ هدؤوا بعد ثورتهم، وزال التوتر من أطرافهم
على نحو ملحوظ. وإذا كان ما يدفعون من محاصيلهم يثقل عليهم فما العمل؟
يفرغونه في المكيال. ويطؤون بأحذيتهم المطاطية كومة الدخن، ويملؤون الأهراء.
والحارس مرزيج يكتفي بمراقبتهم دون توجيهات.

حقاً هدأ الفلاحون غير أن حجمقهو قانشاو، الأمير الكبير يغلي قلبه فلا يجد
مكاناً له في الدار الواسعة. يذرع المسطبة جيئة وذهاباً بيدين معقودتين إلى
الخلف. والفلاحون الذين يقدمون محاصيلهم يتناقصون مع الوقت.

حين اعتلت الشمس رؤوس الأشجار خرج آخر فلاح من الذين يقدمون
حصة الأمير من المحصول. ولما كان هذا ما ينتظره حجمقهو فقد توجه إلى
المخزن الطويل. توجس مرزيج شراً من مشية الأمير، فاستقبله يمشي مثل طير
مائي يزاحم غيره من الطيور:

- نهارك سعيد أيها الأمير. جيء بكمية غير قليلة من الدخن، لم يُنقصوا إن لم
يزيدوا. - وتبع مرزيج الأمير الذي توجه إلى باب مستودع الحبوب.

دخل أمير البجدوغ الكبير ومرزيج المستودع:

- ناؤلني سوط الحصان... - ولما وصل المطلوب إلى ذراعي الأمير النحيلتين،
ساط الحارس على وجهه فأفرغ فيه غضبه. - كم قلت لك يا سليل الكلاب
ألا تتعرض للفلاحين يوم تقديم المحصول؟!

- أيها الأمير! - لم يدع الأمير الحارس الذي لم يلق مثل هذا العقاب من يوم
ما اكتسب لقب "الحارس" يُكمل كلامه.

- اسكت! - زاد وجه حجمقهو شحوباً على شحوب. رمى السوط على وجه
الحارس وخرج من المخزن.

لم يعد الأمير باتجاه بيت الإمارة. تجاوز الدار ودخل بين أشجار الفواكه. لم يبق
شيء على أشجار الإجاوص والتفاح. ألقت عليه الأوراق الصفراء نظرة مع هبة
نشيطه للهواء كانت تنتظرها. اقترب من الصوفا التي توضع له عادة للاستمتاع

بخضرة الأوراق، والتي لم تُرفع بعدُ من مكانها. لم يجلس عليها، تفقدتها وابتعد عنها. وتفقّد أشجار الكرز باحثاً عن طريقة لتهدئة نبضات قلبه. وتظاهر بأنه يخفض أحد الأغصان.

لم يرتح حجمقوه بين الأشجار الكبيرة مهما فعل. وفيما هو ينصرف لا يجد راحة لنفسه رأى الأوراق المصفرة لشجرة التفاح التي تنظر إليه متناثرة فخطر له أن يهزها ويُسقطها: أمسك الشجرة بيديه وهزها ولكن الأوراق لم تسقط كما اشتهى، وبقي أكثر الأوراق على أمها. بدأ القلب يهدأ حين ركز قوته على هزّ الشجرة. تذكر كيف ساط الحارس مرزيج فابتسم. كان يجب ألا يكتفي بسوط واحد. وعلى كل حال كان يرغب في هذا منذ زمن بعيد. مضت الأيام لا يستطيع أن يجد الموقف المناسب. إنه متهور فحسب. عليك أن تلاطف الفلاحين حين تراهم في مجموعات، وحين تراهم فرّادى يمكن أن تنزل فيهم ضرباً كما تشاء. هذا هو السبب في أن والدي ظل مهيباً، في حين تسبب أنت ضجة في داري. لا يحتاج الفلاحون إلى الاشتباك معهم يوم دفعهم ما عليهم من الحبوب إذ أن قلوبهم مملأى بالغضب. تذكر كيف سمحت لجروك أن يحظى بالحصان المسرج بشارة عودة الأمير الشاب ألقس. ولا تظن أني لا أعرف الحادثة. وكان بين آل حجمقوه صبيان يستحقون تلك البشارة. وكان الأفضل أن يبقى ذلك الحصان الممتاز في دار حجمقوه، لا في دارك. عليك أن تعرف أين تذهب أملاكك؛ هذا ما كان والدنا يوصينا به دائماً. ولكن الوصية غابت عنا في غمرة فرحنا.

لما اقترب من عمود البئر رأى الرجلين اللذين يترجلان عند مربوط الخيل. عرف من لباسهما أنهما ليسا من أمراء الجوار. لا تسمح الحظيرة التي بينه وبينهما أن يراهما على نحو جيد. متقاربان في العمر، وجسدهما ضخمان.

لما اقتربا من الباب عرفهما الأمير قانشاو فتساءل: ماذا يريدان ولماذا يأتيان على غير عادتهما؟ دعوناها في العام الماضي بمناسبة عودة ابنا الريب فلم يلبيا الدعوة. جاءنا في تلك المناسبة أناس من أماكن أبعد من مكان هذين، وحملوا إلينا الهدايا. أما هذان فأيديهما في جيوبهما...

استقبل الأمير الكبير حجمقوه الضيفين بالترحيب:

- من اللذان أراهما؟! هيا تفضّلا! يا ضيوفنا الناتخوي الجيران، يا من نسمع دُكرهما ولا نراهما.

- تشارك سعيد أيها الأمير حجمقوه. - رفع شباكوه أحمد يده اليمنى والغبار بمألكساءه دليلاً على طول رحلتها، وفعل مثله وستقوه خلفه.

رد الأمير على تحيتهما وسار بهما إلى غرفة الأمير.

قال شباكوه حين عرف إلى أين يسير بهما:

- لا يا أمير، لا عمل لنا في تلك الناحية. ولا ننوي البقاء طويلاً. نحن على طريق سفر. نود أن نصلح قليلاً من وضعنا فحسب.

نفذ المضيف رغبة الضيفين دون تعليق. وما إن جلسا حتى جيء بإبريق الغسيل، وأُخذ الكساءان إلى التنظيف.

لم يخالط الأمير الضيفين إلى أن انتها من أشغالهما. وقضى بعض الوقت بعد أن اغتسلا وأُعيد الكساءان نظيفين، ثم دخل غرفة الضيوف. وبعد أن جلس بعض الوقت ليعطي للضيفين استراحة يستعيدان فيها نشاطهما، ويتأملان، سأل:

- أراكما قطعتما طريقاً طويلاً.

سأل وستقوه:

- وهل ترى علينا تلك السمة علينا أيها الأمير حجمقوه؟

- لا أعرف إن كنت رأيت هذا، ولكن ربما جواباً على ما قلتاه. - تظاهر الأمير بالتراجع عن كلامه متذكراً كلام شباكوه "نحن على طريق سفر".

- لا بأس إذن، قال شباكوه، وابتسم.

- الحق ماذا يريد هذان؟ يقولان مرة إنهما على طريق سفر، ومرة يقولان: هل ترى علينا هيئة المسافرين من بعيد؟ وهل أنا جالس أمامهما ألعب مع هذين المهرجين؟ ليفرحا إن احترمتها فدخلت عليهما. إن لم يكونا نيوان الجلوس فلماذا قصدا مضافة الأمير، لا بيتاً آخر؟ كانا وجدا فيه إبريق ماء. أقول: ربما ارتكبا جريمة ما فقصداني ملتجئين إليّ، ولكنهما يقولان إنهما لن يطبلا

الجلوس. شباكوه لا يُطيق الأتراك ويظل يتابعهم. ولم تكفه أرض الناختواي والشابسغ فبدأ الآن يقطع طريقهم في أرض البجدوغ. وقد تكلموا في شأنه عقب صلاة الظهر قبل أيام، يعيرون عليه ما يفعل، ويسيء إلى سمعة الأدبغة. وقرروا إن بالغ في سلوكه أن يطرحوا الموضوع في المؤتمر الذي سيعقد شتاء في الناختواي.

وفي الحال وصلت المائدة كأنهم يُعلمونهما أن الطعام جاهز دائماً في بيت الأمير. البخار يتصاعد من الباستا، والعصيدة حمراء قانية، والباخسمه تملأ الكؤوس. ورائحة الدجاج المسلوق تصل إلى الطريق.

- أيها الأمير حجمقوه، - قال شباكوه قبل أن يمدوا أيديهم إلى الطعام، - سبب قدومنا أنا ووستقوه هو تهنئتك على عودة ربيك وإن تأخرنا فسامحنا! - حياكما الله ورضي عنكما. كنت أتمنى أن تحضرا فرحتنا، وأرسلت إليكما غير أنني لم أركما بين الضيوف.

- أبلغونا، كنا غائبين، كنا في باستوك فلما عدنا وجب علينا السفر حالاً إلى الوبيخ. وأنت تعرف كيف تتداخل الأمور فلم نستطع القدوم إليك. وبعدها لم نجد الفرصة المناسبة لزيارتك.

- خمنتُ غيابكما... - جلس الأمير بعض الوقت يتساءل: أين كانا، ثم لم يستطع إلا أن يسألهم: - أظن أن ما تسعيان وراءه قضية مهمة. - الحقيقة ليست سفرتنا إلى أرض القرم من أجل قضية هامة... - لم يصرح شباكوه بالسبب.

- إذن قطعتما كل هذا الطريق دون فائدة؟ - لا نندم وإن قطعنا تلك المسافة. - كان جواب ووستقوه مختصراً وغامضاً. - الكلب يموت ميتة الكلاب. هذا موضوع لا يستحق الخوض فيه. كان بودنا رؤية الأمير الشاب.

كان ما يفكر فيه الأمير في تلك اللحظة هو كلام ووستقوه "الكلب يموت ميتة الكلاب"، لا أن يعرفهما على ابنه. وهو جالس بوجه شاحب كحمامة، كأن أحداً لم يقض تحت سيفه.

- كان يسرني جداً أن تتعرفا الأمير الشاب ولكنه غائب جهة الساحل. من سوء الحظ أنه غائب.
علّق وستقوه:
- إن كان جديراً بهذه الأسفار فقد صار رجلاً.
وفي الحال شُمع صراخ امرأة. انتصب رأس شباكوه ووستقوه كقوسين مشدودين.
وقلق حجمقوه لأنه عرف صاحبة الصوت:
- أي مأساة نسوية هذه؟ - نهض شباكوه.
قال حجمقوه الأمير الكبير والحياء يغلبه:
- والله أيها الضيفان لا أعرف كيف أخبركما. أظن أننا، أنا والزوجة، جُئنا. -
دخلت مرحلة المخاض.
- والله جنس النساء في وضع صعب. - ابتسم وستقوه وهو ينظر إلى جهة الصوت.
وفي الحال خرج كل من في دار الإمارة من كبار وصغار، بمن فيهم الضيوف، تبعاً للعادات.
وقبل أن يجتاز شباكوه ووستقوه ظاهر القرية، عرفا من إطلاق نار البنادق والمسدسات، ورمي القبعات في الهواء بولادة ذكرٍ سيسمونه بالتجري. وفد إنسان جديد إلى هذا العالم. فانضمّا مبتسمين إلى حملة إطلاق النار في الهواء.

-2-

بالقياس إلى العام الماضي اعتاد حجمقوه ألقس هذا العام على دار والده. ربما لم يمر يوم نسي فيه آل شرلأقوه على مبدأ: أبوك من ربّك لا من ولدك. متى بقي الأمير الشاب وحده جال بخياله في أرجاء باستوك. ومتى تذكر كيف كانوا يدفعون كلب أسرة مستته أرسى على النباح سرت ابتسامة دافئة على شفثيه. كان يختبئ من ناغوه وداريت، مربيه، اللذين لا يقبلان أن يلعب مع أولاد الفلاحين، فيلعب معهم في الجبل لعبة تفتيش أعشاش الصقور. وعراهم بالخصى مع أولاد القرية الواقعة على ضفة النهر، وفرحهم إذا كُسرت رجل

أحدهم أو يده، أو جرح، إذ سيقيمون له حفلات الجابشة الليلية، وسباقات الخيل على طرف القرية. ورواية الحكايات وراء أكوام الحشيش، ولعبة الطميمة بينها مع هبوط ظلام المساء... تنهد ألقس فجأة وهو غارق في أفكاره البعيدة وارتمى بقلبه إلى بلاد الشابسغ. لا شيء يفضل أن يُطل على جبل بيباو. وكان أكثر ما يبعث فيه الحزن هو تذكُّره وهو في ريف طؤابغو جبال الشابسغ. قممها البيضاء تعاند السحب. كان يخطر له أن يقفز إلى صهوة الحصان فيعود إلى تلك البلاد.

وأرياف البجدوغ هي ما كانت تسجنه في ملل لا ينتهي. فسواء نظر إلى اليمين أم إلى اليسار فما لا تدرك العين أبعاده هي الأرياف. ومتى هبت الريح صُفرت ودارت فيها. وما لا تفرج به العين ولا يطيقه القلب سواقيها الكسولة. حتى ليخيّل إليك أنها تعبت فكفّت عن الجريان. لا تصدر عنها أي نائمة فرح كسواقي الشابسغ التي تهمّ أن ترفع أجنتها فتطير.

ومع أنه كان يشعر بالملل في القرية البجدوغ التي أعادوه إليها فهو يعرف في نفسه أنها الأرض التي عاشت فيها أسرة حجمقوه، والتي ولد هو فيها. ربما كان هذا الشعور يجري في دمه وإن لم يلقنه إياه أحدٌ. وحين يسرح به قلبه في بلاد الشابسوغ فنداء العرق هذا والذي لا يعرفه هو في البداية ما يصبرّه. يسري من إصبع قدمه الصغرى التي يطلّ بها الأرض إلى آخر شعرة في رأسه. وحين يأتيه مثل هذا الوقت القصير اللذيذ فليس على الأرض أسعدٌ من حجمقوه ألقس. تنبعث في قلبه البجدوغ في مثل تلك اللحظات: السماء المرقطة يراها قلبه، وما كان يسميها السواقي الكسولة عروق دمه، والبراري الواسعة أفكاره، وما فيها من الغابات شَعره، والقمم العالية مرعى عينيه. وينسى في تلك الساعة بلاد الشابسغ دون أن يدري كيف. ومع أنه كان يلوم نفسه على هذا الشعور أحياناً فإن قلبه يرتقي إلى الأرض التي فيها جذوره.

ما في ذهن حجمقوه ألقس منذ أن أعيد إلى الأرض التي ولد فيها أمران: الأول وصية جده التي أوكل تنفيذها إلى والده، فرسا عليه تنفيذ النذر بالحج. فأينما توجه حمل معه هذه المهمة. وجب عليه تنفيذ هذا النذر الذي لا يعرف من

أين أتى. ومنذ أن أبلغه والده دار هذا النذر معه كظلٍّ غير منظور. ويعرف أن والده ينتظر جوابه، وإن لم يلمح إليه. قرر أن يستشير آل شراًقوه فلم يقبل والده، ولكنه حمل معه هذه الذريعة الخفية. ولما التقى بالأب شراًقوه وابنه في السوق تذكر ما لمح به والده فلم يستطع إبلاغهما. والآن بأي ذريعة يقضي الوقت مرتاح القلب؟ يجب أن تفي بما تعهدت به، وإلا فإن أقرب الناس إليك، دُعك من الأغراب، سينظرون إليك بعين أخرى. وجدُّه، حتى لو لم يكن من وجوه البجدوغ، فهو ممن له احترام في البلاد. ولم يوص هذه الوصية دون أساس.

كان للأسباب التي تشكك ألقس في زيارة الكعبة جذورها. لم يكن قد تقبل بقلبه بعدُ الإسلام الذي يعمل جده لأجله، وهو الذي تربى بين الشابسغ. وكلما وقع في موضع خوف أو فرح كان آلهة الشابسغ ملجأ. وحين يرى ما يفعل من هو بينهم يعود إلى إله الإسلام متمنياً لو لم يكشفوه. كان الحارس مرزيج أول من اكتشف أمره فوشى به إلى والده. غير أن الأخير فهم أن الإسلام صعب على ربيب الشابسغ فلم يتعرض له في هذا الشأن لأنه واثق أنه سيتقبل الإسلام إن عاجلاً أو آجلاً.

لم تعد المشاعر التي كانت تنتابه حين يسمع صوت المؤذن تُلَمَّ به الآن. بل إنه الآن يحدث أن ينتظر الأذان كأنه اعتاد عليه. وأوّل ما ينتظره هو أذان المساء. قلب الإنسان في المساء غيره في الصباح. ربما يغلبه غموض أسرار الليل القادم، فيلين قلبه. ثم إذا أضيفت إليها النجوم شعر الإنسان الضعيف بالحاجة إلى اللجوء إلى سقفه. ولا يضيق بمشوار الجامع. ليس دعاء الشابسغ تحت الأشجار مثل دعاء البجدوغ. الجامع المفروش أرضه بالسجاجيد المتنوعة الألوان متى أويت إليه يعتمل شعور في القلب، فتبهج أفكار في الرأس جديدة. والمصاحف التي فوق الرفوف هي التي تستميلك إلى أفكار لم تتوقعها مطلقاً. وحين يقرأ الأفندي المصحف المفتوح يحلّل إليك أن الأوراق التي يقلّبها أجنحة سيظهر بها. وحين تشتعل المصابيح التي على النوافذ تخلق لك أجنحة تطير بها إلى فضاء الليل. وعلى ما يروى في المضافات ففي قرى الشابسغ تُشاد الجوامع.

لا يعرف ألقس حين يخطر له هذا الخبرُ السببُ في امتعاضه وحزنه. ومع ذلك فالخبر في الصدر دافئاً. ويتصب أمامه جده كبيراً، وإن لم يره. ولكن حين تخطر له جانسور ينسى كلَّ شيء حتى زيارة الكعبة. يحمل معه الدفء الذي نبت في الصدر، والذي لم يكشفه لأحد. إذا لم يُيُح لعلي سلطان بما في قلبه، فما من صديق له في طُوابغوه يكشفه له. لا أظن أن مثل تلك الفتاة بلا خطيب أو مغازل. وإن لم يكن عندها فمن ينتظرونها جاهزون.

تساءل في سره: لماذا لا يذهب شقيقه الصغير باتجري الذي لم يسمع بعد بكاءه، والذي تربيته أسرة بارينقوه بغدسار، إلى الحج؟ إذ أنه هو الآخر من آل حجمقوه، يتعين عليه تحقيق وصية جده. وسيحلل والدّه من نذره. لو لم يكن جديراً بهذه المسؤولية لما وُلد ذكراً خلافاً لرغبة الأسرة في أنثى. لام ألقس نفسه على الأفكار الشريرة التي انتابته بحق أخيه. نحمل الغلام الرضيع الذي ما يزال الحليب يسيل على شفثيه مالا يجوز، كما حمّله والده هو قبل أن يولد نذر الحج. هو الآخر عليه مسؤوليات كبيرة مستقبلاً. ليحفظه الله!

قرر ألقس أن يخبر والده باعتماده الحج. ومع ذلك لا يجد من اللائق أن يبادر والده. وينتظر أن يفتح غيره الموضوع. وكلما تقدم الوقت بدا ارتياحه للأمر. ولكن الطريق ينتظره بعيداً عجيباً، ليس طريقاً بين قريتين... نظر من النافذة فرأى والده في الفناء فخرج من الغرفة. ولما سرح بالنظر رأى حصانه بيد الفلاح مرزيج يخرج من حظيرة الخيل، وحصان والده جاهز للركوب.

- تعال يا ألقس - نادى الأب الذي صعد إلى المسطبة ابنه، - نروض حصانينا.

ما إن خرج الأب وابنه من الدار حتى تبعهم وقّع حوافر حصان مرزيج، فتلفت حجمقوه الأمير الكبير، وفي الحال أوقف حصانه وقال له:

- عُد يا مرزيج. نحن سنتجول في ظاهر القرية فحسب. - خرج الفارسان وصارا في المرتفع خارج طُوابغوه، التفت الأمير إلى الفارس الذي يتبعه ببطء. - قف إلى جانبي يا ولدي.

ما كان في ذهن الرجلين ولا يستطيعان البوح به أمرٌ واحد. وكلٌّ منهما ينتظر المبادرة من الآخر. يتجنبان خوضه. لم يتركوا موضوعاً في حدود قرية طؤابغو لم يتكلما فيه. وطوال الوقت كان الابن، لا الأب، هو من يبدو عليه قلقه. كان ألقس يفهم أن من يسأل ينتظر الجواب؛ ولكن ماذا بيده؟ لا فائدة من مزيد من الوقت:

- يا والدنا، أراك لا تسأل؟ - سأل ألقس لا يعرف بم يبدأ، معتقداً أن السؤال قد يفتح الباب.

- عن أي شيء يا ولدي؟ - أجاب الأمير قانشاو كمن لا يعرف، - تكلمنا في الكثير من الموضوعات، ووصلنا إلى الكثير من الناس...

- ليس هذا مقصودي - أسرع ألقس بانتزاع الكلام من والده، - أتكلم على موضوع الحج الذي سبق أن تكلمنا فيه.

- قلتُ في موضوع الحج كل ما عندي. وأنت من لم يُجب إلى الآن... - لم يُفصح الأب مرة أخرى عما في نفسه.

ابتسم ألقس خفية شاعراً بصبر والده. ووقعُ الحوافر يشتدّ على طريق القرية المسائي المتجمد.

ومن بعيد تظهر الأشجار.

- أنا جاهز حتى لو كان السفر حالاً. - نطق ألقس أخيراً بالكلمة التي كانت صعبة عليه.

سار الأمير الكبير مدة دون أن يقول شيئاً. وكان الابن قد تخفف من حملة، فمضى منشرح القلب كالبرية التي يسيران فيها.

- حياك الله يا ولدي، ولم أنتظر منك جواباً آخر. ولكن ما أريد قوله في هذا الموضوع هو عدم إلحاحي عليك بالاستعجال. ليس موضوع الحج وصية ملحة. ما يجب أن تلتزم به الآن موضوع آخر: احرص على أن تحس بالأرض التي تقف عليها، وتثمن ما تفعل، وتجد في نفسك الرجولة والعقل، ونحن لن نألو جهداً.

فرح ألقس إذ اكتشف أن هذه هي المهمة. وحيّل إليه أن السماء العالية زادت

عُلُوًّا. وتوقفت أمام ناظره صورة جانسور التي قرر الابتعاد عنها لأنه مسافر إلى الكعبة.

قطع الوالد أفكار ألقس الغارق في الفرح:

- حصانك الأبيض هذا ليس صالحاً يا ولدي!

انتفض ألقس برأسه، ونظر باتجاه والده لا يعرف عيب حصانه، وقبل أن يجد الفرصة للسؤال التقيا بالفارس الذي خرج من وراء المنعطف.

-3-

قبل أيام فحسب اختبر الحارس مرزيج بنفسه القوة التي يختزنها سوطه. كلما تذكر الضربة التي تلقاها من حجمقوه قانشاو أحرقتة نار الإهانة. يحمل معه الحزن دائماً كأن ظهره لم يتلق أي سوط في حياته. آل حجمقوه ساطوه وهو فلاح مرات عديدة في البرية. وفي قرية مجاورة من الناتخواي أشبعوه ضرباً حتى شوهوا وجهه. ولكن ما جرى له آخر مرة يُنسيه كل الإهانات السابقة. ليست المشكلة في أن الأمير انتزع منه السوط وضربه فقد يكون السبب غضباً عابراً تناول بسببه، ومن قبيل العلاقة اليومية بينهما، كما تضرب ابنك إن لم يُطعك. انتهت الواقعة هذه، ولكن ما يملؤه همّاً وحزناً هو نظرة الغضب التي كانت في عينيه. كان يفضل ضربة ثانية بالسوط على هذه النظرة العدائية. ففي أسوأ الأحوال كان الأمير نقّس عن غضبه.

كان مرزيج يداري أحزانه مهما كانت عظيمة. يقف أمام الأمير مثل جبل في يده. والسوط المذليل بكرة الرصاص ملفوف على ساعده كمن لم يحدث له شيء. ويعتبر فُوجّه لامجي السبب في كل ما جرى له. وكلما فكّر في أنه سيتمكن منه يوماً ما ابتسم وارتاح قلبه. والوقت الذي ينتظره بين الغد وما بعده هو موسم الفلاحة في بداية الخريف. ألن ينقطع المطر يوماً؟ ما إن تنشف الأرض حتى يكون فوجّه لامجي في أوائل من يُهرعون إلى الفلاحة. قطعة الأرض التي هي معقد الأمل للامجي تقع في مضيق الغابة قريباً من الأبخاخ. إن أمسك به هناك فلن يسمع به أحد. سأربط ابن الكلب هذا إلى محراثه بدلاً

من الثور، وأفلح عليه ممسكاً بيد المحراث. ولن أكتفي بهذا بل سأقطع لسانه حتى لا يتكلم الدهر كله.

انقطع مطر الأيام الثلاثة الذي تحمله الريح الشرقية الباردة، واعتدلت أيام الخريف الرائعة. كان مرزيج يتابع ما نواه بحق فُوجِه لاجمي ولكن التنفيذ لم يجر كما كان يخطط؛ فالفلاحون يملؤون البرية في حين يريد هو ألا يراه أحد.

بعد عصر أحد الأيام تحقق ما نوى مرزيج: لاجمي في المضيق يحرث وحده. ولا يرى أحداً في الجوار يمكن أن يراك. مرزيج الذي كان تعهد ألا يضرب الحصان بعد الآن أخلف بعهد وساطه، واندفع إلى الوادي. أنصت فإذا به يسمع عجباً: لاجمي يغني مرثية "حائلك محمد"، فيتردد الصدى في كل الأنحاء. والغريب أن صوت ابن الكلب جميل، والمساء كأنه يردد معه! والشمس وقفت على رأس الغابة تستمع إليه. والأرض المحروثة التي يتركها وراءه تتابعه. وتصفق للأغنية التي يسمعونها. والغريان وراءه لا تسعها الدنيا من الفرح... استمر في الغناء، استمر! سأريك والأغنية عالقة في حنجرتك!

تجاوز مرزيج البيلسان الكثيف مسرعاً، وأسرع إلى الفلاح:

- ماذا يا ابن فوجه الصغير، أنت تحرث !

- أحرث بإذن الله.

- وتغني!

- وأغني بإذن الله.

لاجمي مشمر عن ذراعيه. ومن قدميه يبرز حذاء من جلد البقر كبير على قياس قدميه الكبيرتين. وعلى وجهه المتعرق بقايا تراب الفلاحة. ويبدو جبينه العريض محمراً بسبب الشمس المائلة للغروب. ويتسق ساعدها الثخينان الكثيفا الشعر مع قدميه الكبيرتين.

انطفأت الروح القتالية لدى مرزيج من منظر لاجمي أمامه: سيربطك هذا مكان الثور قبل أن تربطه! عنده من القوة ما يكفي لجِرِّ المحراث مكان الثورين. حُبِّل لمرزيج أن أمامه أحد العمالقة الأسطوريين.

- والله لا أعرف يا لاجمي ما يبعث فيك المرح. - غيّر مرزيج نبرة صوته عفواً.

أراك في غاية الانشراح!

- أنا مرح بإذن الله لأني أعمل ما عليّ. - ألا ترى ما أحرثه فيتصاعد منه البخار؟! إن كنت تريد أن تعرف فهذا مصدر مزاجي الطيب كما يقول المثل: "من يستصعب العمل تسقط عينه".

- هذا صحيح، - قال مرزيج لائماً نفسه، وتذكر أيام كان يحمل لقب الفلاح، ويعمل كغريمه.

لم يمض وقت طويل على انفصال مرزيج عن طبقة الفلاحين فينسى أفراح الفلاح وأحزانه. الزمان الذي ضُمّ فيه مرزيج إلى الحراس هو الزمان الذي ظهر فيه لاجبي فلاحاً يافعاً يطوّع المحراث وحده. ثم انتقل إلى دار الإمارة مديراً لشؤونها. ولولا أن مرزيج ترك المحراث وأمسك بالسوط من وقتها، يرقص على كتل التراب التي يخلفها المحراث بالحصان، ويخالط الفلاحين، لما عرف عذوبة الأرض ونعومتها.

أصبح مرزيج يرغب في أن يمسك بيد المحراث ويفلح عليه. ومهما عمل مرزيج حارساً، ومهما ظلم الفلاحين، احتفظ في زاوية من قلبه بلقب الفلاح. يقول: يخطئ من يزعمون أنهم نسوا لقب الفلاح. ولا أنسى الوضع الذي أنا فيه. تنظر إليّ يا بن فُوجه؛ ولكن لو كنت مكاني لرأيتُ ماذا كنت تفعل.

- أظن أرضك ناعمة؟ - ظهر على مرزيج رغبته في الإمساك بيد المحراث.

- كل من تعامله برفقٍ ناعمٌ دائماً.

- دعني أجرب. نحن أيضاً جاؤوا بنا بالشوكة ورموا بنا على سطح الأرض، - ارتقى مرزيج من سهوة الحصان كقطعة حجر.

نظر فُوجه لاجبي إلى مرزيج بطرف عينه لا يعرف تفسيراً لما يرى ويسمع، وابتسم. إيه يا دنيا، ما أشد تفاوت أبنائك! ترفعين هذا، وتنزلين بذاك. تغلقين فم هذا، والآخر يروي رغماً عنك. ما الذي أجبرك يا مرزيج لتعمل خادماً على باب أحدهم؟ من حظ الإنسان أن يعيش تحت السماء لم ينس إنسانيته ولو كان يقاسم الثور أتعابه!

- جرب! أتذكر أنك كنت يوماً تمسك بيد المحراث...

تفل مرزيج في كفيه السميكتين، وفرك أحدهما بالآخر، وأمسك بالحرث:
- بسم الله... والتفت إلى لاجي باسمًا.

مشى مرزيج بعض الوقت مباعداً بين ساقيه، ناثراً التراب الأسود من ورائه، ثم التفت. الشمس تطل من وراء الغابة كحجرٍ بطيخة حمراء رقيق. والتراب الذي تكوّم من ورائه هيج الغريان من جديد. تلتقط الهوامّ دون اعتبار للاجبي.

- كيف ترى فلاحتي؟ - صاح مرزيج من وراء الحرث ناسياً أنه حارس.

- ممتاز يا مرزيج!.. - يتابع لاجبي مرزيج مشيراً شارة الاستحسان بإيمانه.
- ألا تسمع صياح الغريان!

- يا حسرتي ما كان أسعد العمل بالحرث!.. - لست وحدك من يسعد، بل الأرض أيضاً. تنشقّ كأنها تنقّس عن ضيق العام كله فترسل البخار، وتنفس ملء صدرها على مرأى منك. لا بأس أن تتعب الثيران، إن أمرعت هذه الأرض فحن والثيران سنسعد. ثم يلتفت قائلاً لا يدري ما الذي ألهمه: - إنس سوء التفاهم الذي حدث بيننا قبل أيام. كل من على الأرض تنشأ بينهم مثل هذه الخلافات. لم أكن أود أن أسيء إليك. اركب الحصان، هيا اركب!

ما حاجة لاجبي إلى حصان الحارس؟ فرحته هو أسرع من كل ما عداها. ألا ترى أن لها أجنحة! لم يُخلق من يسبقها إلى الآن. وأنت أنبت جناحك الذي كسروه! هذا هو ما يبعث المرح فيّ ويمنحني القوة. أما الموضوع الآخر الذي طرحته عليّ فلا أعرف أحداً في القرية لم تُسئ إليه؛ فمن يعبأ بهذا؟! يكفي أن تعترف بخطئك...

وصل مرزيج إلى ضفة أرض الأبراخ المحروثة فأوقف الثورين. جال ببصره دون أن يعرف السبب: رأى أرض لاجبي تتجاوز أرض البجدوغ وتتوغل في أرض الأبراخ.

- رأيت هذه الأرض مهجورة بسبب طغيان البيلسان عليها فحرثتها. - عرف لاجبي سبب توقف مرزيج، ومحبطاً نفسه بعض اللوم.

- وهل يقبل منك الأبراخ ما فعلت؟

- وماذا يفعلون بها؟ لم يحرقوها طوال عمرهم.
- تدفق الدم الحار إلى رأس مرزيج في هذه اللحظة، غير أنه أخفى شعوره. ثم ابتسم وهو ينظر جهة أرض الأبراخ ويمسح العرق عن جبينه. من بعيد تبدو جبال وغابات متداخلة. الأرض التي لم يحرقها أحد قبل ولم يرع فيها حيوان، تمتد من أرضه إلى الغابة فيألى أسفل الجبل.
- والله هذا عين الصواب. - لمعت عينا مرزيج السوداوان. وتظاهر أنه يمسح العرق من جديده. كانت هذه الأرض في زمن ما للجدوغ، غير أن أحوالك الأبراخ الملتحين سلبوها منا بالقوة. سمعت هذا مراراً من والدنا.
- ألا يجب أن يسعدوا لأني فلتحتها؟.. - سأل لاجبي متشجعاً.
- أكيد لن يستاؤوا من هذا. بل عليهم أن يشكروك!
- وأنا أرى هذا يا مرزيج. قلت في نفسي: هل يجوز أن تترك الأرض تتشقق من الإهمال؟ فتشجعت. بل أظن أنني كسبت ثواباً... وأعرف أن الأبراخ شرسون في موضوع الأرض. لن يتنازلوا عن محطّ بيضة إن استطاعوا. وعلى كل حال إن منعوني فسأمتنع. وهل يصل بهم الأمر إلى هنا؟!
- لا، لن يصلوا، - وافق مرزيج الفلاح. ثم أضاف: - من يدري؟ أخبرني إن بدر منهم شيء؛ سنقنعهم ببعض آرائنا.
- وأنا منسجم تماماً مع الأبراخ. وهل هم أخوالي عبثاً؟.. حسناً، ولكن من يدري بما يخطر لهم. حياك الله يا مرزيج. لن أنسى إخبارك. إن جنيت منها محصولاً أكثر فسيُغنينا أنت وأنا. وسنعطي حجمقوه نصيبه.

-4-

- لا أعرف يا والدنا ما العيب الذي تراه في حصاني - اهتم ألقس بالموضوع فتوجه إلى والده - التقينا بالفارس الأبراهيمي يوم قلت لي، فلم يتسنّ لنا الكلام فيه.
- هل تقصد الحصان الأبيض؟
- نعم، تكبّد شراً لقوه ناغوه الصعاب حتى وجده. - يبدو من صوت ألقس

إعجابه بالحصان. - بحث في كل أرض الشابسغ والأبراخ. وكان قد أرسل توصية إلى بلاد الجمكوي. وبعد بضعة أشهر باعه إياه أباخي من الجنوب. أعرف أن شرلاًقوه دفع مائلاً كثيراً لأجله. لا تسأل عن سرعته، يطير كالعصفور. لم يخذلني يوماً واحداً. واكتشفت جودته يوم ذهبت إلى الشاطئ.. مُريح أن تمتطيه في وضع الخشب البطيء والعدو. وإن جمعته إلى أحصنة أخرى انسجم معها، ولم يتنمر عليها فيعضّها، ولا يسمح لغيره أن يفعل به هذا. وكان تمام إعجابي به يوم عبرت به نهر إيل. لم يسمح لقطرة ماء أن تلمس ظهره فسار كالحية. والعجيب أنه لا يصدر عنه أي حممة تقليداً لغيره.

أدرك قانشاو وهو يستمع إلى مديح الحصان أنه جرح مشاعر ابنه. في العام الماضي سنحت الفرصة ليتبادل هو وابنه الحديث، ولكن لم يحدث أن تأمل ابنه بكل راحة كما اليوم. هو صبور مثله، وعيناه الزرقاوان - العسلتان حادثان تتحركان تبعاً لما يقول. وكساؤه الوردي، وخنجره المعلق بزناره، وقبعته، كلها منسجمة. وباختصار يشبه والده أكثر من أمه. أمير شاب حقيقي! ولو كان بين ألف فلاح لتمييز منهم كالشمس. ما فائدة الموضوعات التي يرتبها ويفكر بها؟ لم يأل آل شرلاًقوه جهداً في تربيته، ولم يدعوا شيئاً يمكن أن يتقنه فلم يعلموه. يثبت جيداً على صهوة الحصان، ولا يهتز ساعده مع البندقية والمسدس. وعنده قوة خفية لا تتناسب مع نحوله. وأعضاؤه مرنة. وما يحتاجه الآن حكمة الرجال ودهاؤهم.

- إن كنت تتذكر يا ولدي فلم أصف حصانك بالسوء. ولم أقل إنه لا يصلح حصاناً. ظننت أنك فكرت في أصل الكلام. تفكّر في ما قلته لك. نظر ألقس نحو والده وعيناه تدوران في محجريهما مفكرتين، وقال وهو يظن أن كتفيه ضاقتا:

- والله لا أعرف، يعجبني أنا... إلا أن يكون السبب أنك وصفته بالأبيض. - الآن اقتربت من جذر الكلام. أوافقك، ليس حصاناً سيئاً. أعجبني منذ رأيته أول مرة. وعلى كلامك يمكن أن يكون رقيقاً جيداً. ولكنني أظن أنه سيزرك أكثر مما ينفعك، وهذا سبب عدم رغبتني فيه. أنت ما زلت شاباً

وأمامك اختبارات كثيرة. ما حاجتك إلى حصان أبيض يعرفونك به أينما رأوك؟..

- ولكن ألن يستاء ناغوه إن استغينا عنه؟

- ألم أطلب منك أن تنسى شرلأقوه ناغوه؟ انبعث شرارة زرقاء من عيني حجمقوه. - كافأناهم على معروفهم بعشرة أمثاله. أرسلنا معهم من الماشية ما لن يحصلوا عليه طوال عمرهم. بالغنا في إعطائهم حتى بطروا قائلين: ألسنا مثل أمراء آل حجمقوه؟ يقال إنهم هائجون في الشابسغ مطالبين بأن يحصلوا على لقب الإمارة. ألا يعرف شرلأقوه الصغير ابن القذارة معدن آل حجمقوه؟ وهل يكفي أن تلقب نفسك بالأمير ليثبت عليك؟! لا فرق بين أن يفعل شرلأقوه هذا وبين أن يُسرج بقرته المسنة ويركبها. سلمناك إليهم ونحن نعرف هذه النتيجة. وماذا كان بيدنا حين توسّل إلينا أمام أهل القرية؟ هذه عاقبة الإحسان. سيّان ما بين من يفعل الخير ومن يقترب كثيراً من النار ويجلس إليها: يظن نفسه يتدفأ فإذا بها تحرقه.

- ألا ينافسوننا إذن؟

- لا أعبأ بمنافستهم. - لان صوت أمير البجدوغ الكبير وقد عاد إلى وعيه. لا أطلب منه أن يكفّ عن المنافسة. لا فائدة من أن تجلس وتراقب رجولة هذا أو ذاك. البطل ليس من يركب في الخلف، بل من يركبون خلفه! - يتعد شيئاً فشيئاً عن الكلام على آل شرلأقوه. - ولكن ما لا يجوز البتة أن تنساه هو أنه يصدف أن تثب فتتقدم على من كنت تركب خلفهم مزيجاً إياهم. وهذا نوع من البطولات على مبدأ "نضج لحمنا ولم تسودّ أسيّاخنا". ولكنك لن تستفيد من هذا طويلاً. إن لم تنتبه فهو شبيه بالقبعة التي لا تثبت جيداً في الريح العنيفة. ثم ما أريد أن تحفظه جيداً يا ولدي: في كل قرية كثير من الناس إن مددت له فخذ خروف أعاد إليك مئة. وقبل أن تحب شيئاً فُكّر في عواقب تلك الهبة. ولا تبالغ في التودد إلى الفلاحين، ولا في الابتعاد عنهم. إن قالوا: الريح تحب، وافقهم. وإن لم تحب فقل: تحب، ودعهم يوافقونك. واشحن كلامك بالثقة والقناعة لأن السامعين إلى صدقك وكذبك هم هم. وفي شأن

العلاقات بين الكبار والصغار فلدى الأديغة تقاليد ممتازة، ولكن لا تبالغ فتقف في المؤخرة. وتأكد أن ليس على جبينك ما يدل على عمرك.

- حدث يا والدنا أن اختبرت أقوالك حين سافرنا جهة الساحل. - قاطع ألقس أفكار والده على غير العادة.

حلّ الأمير الكبير أصابعه النحيلة المعقودة. وفيما يعتمد هو على مسند المقعد تكاملت أفكاره المرتجلة، وصدر منه صوت اصطدام الحزام.

- هذا هو يا ولدي. ولكنك في بداية الطريق. ليس تركيب الحياة قرن ثور منتصب تحجم عليه فتمسك به. ما لا يراه البصر يجب أن تراه البصيرة. لا أقصد بأقوالي أن تعيد إلى آل شرلاقوه حصانهم الأبيض. مهما كانت عقولهم خفيفة فقد كتب الله أن نصبح أقرباء لهم فأصبحنا. الحصان الأبيض كأصحابه جميل المنظر. تخالط به الأعراس والأفراح. مهما كان حصاناً طيباً وعلى جبينه نجمة فهي ميزته الوحيدة. فكري: هل حصان شباكوه الناتخوي أبيض؟! أم ملون؟ هو من يعرف كيف يختار حصاناً وكيف يركبه. حاول أن تقلده أحياناً!

- وكيف نقلد من نسمع به ولا نراه؟ في طريق عودتي من الأتاليك، ونحن في مرعى نجد، وقف على المرتفع ثلاثة فرسان وتأملوا فينا، فلما نزلوا قال جماعتنا مذعورين: هذا هو شباكوه! لا أعرف إن كان شباكوه يقطر سماً حتى يخافوا من رؤيته.

- ما يروونه في الناتخوي صحيح... - تذكر حجمقه أن شباكوه زاره في مضافته. - يوم ولد أخوك الأصغر كان هو ووستقوه عندي. كانا يريدان التعرف عليك ولكنك كنت في الساحل. هؤلاء آل شباكوه سلالة رجال أشداء. امتزج فيهم دم الشابسغ والأبزاخ. هيا إن كنت تريد أن ترى حصاناً ينسبك حصانك فتعال، - نخض أمير البجدوغ الكبير.

قفز ألقس من مكانه مستغرباً حديث الحصان الذي ساقه والده دون مناسبة. لا يعرف إن كان في دار الإمارة مثل هذا الحصان. ليس بالتأكيد حصان والده فقد رآه: حصان جميل وجيد. أيكون الحصان المذكور اشتروه في غيابه على الساحل؟.. توجه الاثنان إلى حظيرة حصان الأمير، وتبعهما الفلاح السائس.

- هيا أخرج للأمير الشاب الحصان واعرضه عليه!..
جاؤوا إلى ألقس بحصان ضامر البطن، لا كبير ولا صغير. يلهو الحصان وعيناه بارزتان، لا يسيطر على العظمتين الرقيقتين بين المنخرين، ويخطف رأسه غير الكبير إلى الأعلى، ويعبث بعُرقه. ليس على الصدر الضيق الكثير من اللحم، بل تنحدر العضلة إلى ما تحت الصدر. والظهر غير المرتفع كثيراً يتسق مع الرأس غير الكبير. ويُخيل إليك أن القائمتين الخلفيتين في الهواء، لا على الأرض.

- انظر إلى شعر الذقن وجانب الرأس يا أمير، - لفت الفلاح انتباه ألقس.
- ما فائدة هذه؟ سأل الأمير الذي ينظر إلى الحصان بعينين حادتين.
- هذه يا أمير علامات سرعة الجري. انظر إلى قوائمها، - يعبث الفلاح منحنياً بشعر القوائم. - وبينها تنوء كالقرن. وما يغطي الركبتين يملآن الكف. وما بين الفخذين نحيف للسماح للهواء بالنفوذ.
قال ألقس لنفسه: بالقياس إلى هذا فالحصان الأبيض جميل. ومنظره مهيب. لم يخطر لي أن أراقب ما يتكلم عليه الفلاح. بل لم أسمع حصاناً يوصف بهذه الصفات. لا يمكن معرفة جودة الحصان بامتداحه. هو الآخر مثل الصديق، عليك أن ترافقه في طريق، وتعبّر بعض الصعاب لتعرف حقيقته.
- لا فائدة من هذه المعلومات الكثيرة، لا يزال ضنيناً بالحصان الأبيض. -
قال الأمير الكبير للفلاح، مدركاً ما في قلب ابنه. - اخرجنا إلى ظاهر القرية، وتسايقا!

- ركب الفلاح والأمير الشاب كما طلب الأمير. ولما تجاوزا القرية، وصارا على طريق عربات ناعم، قال الفلاح:
- اسبقني يا أمير. ومتى وصلت إلى تلك الشجرة التي تراها لحقت بك.
- لا، اسبقني أنت إلى تلك الشجرة!- لم يقبل ألقس شاعراً بالإهانة. - ثم أعرف ما أفعل.
- لا تُختبِر جودة الحصان بسرعه يا أمير،- لم يقبل الفلاح، - اسمعني وأطعني، لا عيب في هذا.

- سألبي طلبك إن كنت ترى هذا. وافق ألقس دون حماسة. - أنا لا أحب أن يأمرني أحد.

- متى عدنا يا أمير سنتبادل الحصانين، ونختبر طريقة الجري.

انطلق ألقس ولكن الفلاح تجاوزه كقطعة حجر ترمى قبل أن يجد الفرصة للالتفات. وفي الحال أوقف ألقس حصانه الأبيض على مبدأ "متى يئس الفارس كفت الفرس عن الجري". واشتبهى أن يركب الحصان الذي سبقه. ولم يمض كثير من الوقت حتى عادا إلى الدار وقد تبادلا الحصانين.

- هذا هو الحصان الحقيقي! - كان ألقس يطير من الفرح.

- مبروك عليك إن أعجبك. - كان الأمير الكبير فرحاً جداً بموقف ابنه.

- يا أمير ليس هذا الحصان ممن يضرب بصدرة. - استعجل الفلاح، - لا تحاول تعليمه هذه العادة!

- وهل صار صقراً فيضرب بصدرة؟! - وجه الأمير الكبير كلامه إلى الفلاح، مُفهِماً ولده. - ليس الحصان الذي بسرعة السنونو بحاجة إلى هذه الحركة!..

-5-

آل شباكوه ولدوا في الناختواي ويعيشون فيه منذ الأزل. وهم من آلاف الفلاحين الذين يروون الأرض بالدم والعرق. ولن تجد في الشابسغ كلها من يتهمهم بأنهم يسعون إلى امتلاك الأرض، وتربية الكثير من الماشية، والسطو على ما في خزان أحدهم من الحبوب. وليسوا أسرة كبيرة لها في كل ناحية أعضاؤها. وشباكوه أحمد أصغر من أخواته البنات الخمس. وهنّ يدللنه باعتباره لابس القبعة الوحيد. ولما كان أصغر أبناء أمه ظلت تسميه "القُحاطة"، آخر ما تجمعته المغرفة من القدر، إلى أن أصبح رجلاً.

ولم يكن في الناختواي كلها من هو أمهر في معالجة العظام من والده الذي رحل العام الماضي عن الدنيا. ولم تتوقف شهرته في بلاد الشابسغ بل وصلت إلى أبعد منها، فكان يأتيه المرضى من بلاد القبرتاي ومن بلاد الجمكوي. وكان ماهراً أيضاً في طب الأعشاب. وصل صيته إلى كل مكان إذ يقول الناس عنه:

"اعرضه على شباكوه أشمز... من يعالجه أشمز تعود الروح إليه... إن لم تكن تعرف شباكوه أشمز فحياتك عبث". ولما سمع الناس بوفاته لم يبق في بلاد الشابسغ من لم يأت للتعزية فيه. وتتالى المعزون من الأبراخ والجمكوي والجدوغ...

والدة شباكوه أحمد عجوز نحيلة طويلة بيضاء الشعر. وهي تدبر شؤون البيت بنفسها خلافاً لما يوحي به عمرها. ورغم أن إيتاروش، وهذا اسمها، انضمت إلى أسرة شباكوه منذ ما يزيد على نصف قرن فإن أحداً لم يسمعها تتكلم بلغة الشابسغ. تتكلم لغة قومها مستمتعة بجمالها كأنها تعلمتها اليوم. ولم يظهر في القرية أحدٌ يعيب عليها كلامها بلغة قومها، ويحزّ في نفسها. وزوجها الراحل أشمز ظل يناديها طوال عمره: "أبراخ". وربما هذا هو السبب في أن أهل القرية ما زالوا ينادونها "ابنة الأبراخ".

يعرف الناس كلهم شباكوه أحمد إكراماً لوالده. ولا يقتصر الأمر على هذا: ليس من الصعب أن يذكر الناس اسمك بالخير وبالشر. حقاً من طبيعة الشر أن تنبت له أجنحة ينتشر بها، ولكن لم يسمع أحد في سنواته العشرين أنه أساء إلى أحد. وفيه، بالإضافة إلى المهنة التي علمه إياها والده، خصلة أخرى وهي الشجاعة التي يجب أن يتحلى بها كل لابس قبة. ولا يشك أحدٌ في هذا. لا يلاحق شباكوه من يهرب منه، على مبدأ "رأسماله اسم أسرته". ووالدته تذكره كثيراً: "من يخطف منك قبعتك فلاحقه، ومن يخبئ في أيكة مرتحفاً فلا تقترب منه بمصانك".

في ساعة الأصيل، مع انحدار الشمس، يرتب شباكوه أحمد عيدان الذرة البيضاء تحت شجرة الجوز الكبيرة. ويُسمع صوت نحر "بقان" الجبلي من بعيد. والصبيان يلعبون في الزقاق لعبة العصا ويتصايجون. والأكبر منهم يلاحقون صبيّاً صغيراً في كل مكان. وتعرف أنه متعب جداً من المخاط الذي يسيل من أنفه فيمسحه بكُمّه. ويتبدل طرف بنطاله المحزوم بالجوارب الصوفية. وحينما يركض تسقط قبعته عن رأسه لأنها أكبر منه، فيحملها بإحدى يديه.

ابتسم شباكوه الذي يراقب الأولاد معتمداً على السور ب صدره. هكذا نشأ هو

الآخر في القرية. لم يكن يحب لعبة العصا. كانت لعبة الكعوب هي الأثيرة لديه. وإلى اليوم متى رأى الصبيان يلعبون هذه اللعبة لا يستطيع إلا أن يتوقف ويتابعهم، بل يتمنى أن ينضم إليهم. رأى الصبي الذي يطاردونه ارتقى على الأرض حانقاً. وفي هذه اللحظة خرج وستقوه من وراء جدار الحظيرة، وتعرّف على الصبي اليتيم:

- أيها الأعسر، هل أتعبوك؟

كان الصبي جالساً في منتهى العبوس، ولم يُجب.

- وكيف يتعب، ألا تراه لا يستطيع التنفس؟ - ابتسم شباكوه يريد معرفة ردّ فعل الصبي.

- بالله عليك يا جارنا، هذا لا يجوز. - تظاهر مستقوه بالرفض.

- أنت ترى بعينيك وإن لم يكن جائزاً. - لا يزال شباكوه يهيج.

- يا شباكوه، - رفع الولد رأسه وعينه تلمعان - إن كنت رجلاً إلى هذا الحدّ فالعب معهم أنت!

- ولماذا لا أَلعب؟ هات عصاك! - بدأ بالنزول من الجدار.

- وأنا لست أقطع اليد، يمكنني اللعب معهم! - نهض الصبي مدمماً.

- صحيح أيها الأعسر. وقف وستقوه إلى جانب الصبي.

قبل أن يتاح لوستقوه وشباكوه تبادلُ التحية رأيا الصبي احتل مكاناً رغم الصبيان. ونظر بطرف عينه إلى من كان يسخر منه أحياناً:

- اللوم كله على القبة اللعينة. ابتسم شباكوه، ألا ترى حرصه عليها ألا تقع عن رأسه؟

- هيه يا أيها الأديغي البائس، هُك منذ الطفولة رأسك!

- وكيف لا يكون الرأس همّه؟ أليس من أجله يعيش حياته يتصبّب عرفاً؟!

جلس الرجلان على الأرومة التي عند الباب الصغير.

- الحقُّ يا وستقوه، ما الموضوع الذي يشغلك؟ لماذا لم نعد نراك؟

- لو كنت راغباً في رؤيتي لزررتني.

- وما الفائدة من رؤيتك؟ كان الأفضل من هذا أن نزور إحدى الصبايا،

وُثْرِيهَا وَجْهَكَ.

- ما لا أحتاجه هو ما تذكره الآن. - ضحك وستقوه.

- لا أرى فيها ما يسرّ، - لم يقبل شباكوه، - هل تريد أن تعيش حياتك وحيداً كوتد مغروس في الأرض؟ - ظلت والدتك تلحّ علينا حتى نشف لعابها، وصرنا نحن نخجل من دخول داركم. إن لم تكن تهتم بأقوالنا فحقّق للعجوز المسكينة رغبتها!..

- ألا تتركني في شأني؟

- إن كان هذا ما وصلت إليه يا وستقوه فسناًتيك في ليلة ما بالعروس التي تعجبنا بحيث تستغرب ونستغرب، ويستغرب من يسمع، ونضعك أمام الأمر الواقع.

- إن تعهدتم أن تقيموا معها فلا بأس!

- من نريد أن نقيم معهن يُقيم في بيوتنا...

- اهتؤوا بمن إذن، - أسرع وستقوه بمقاطعة صديقه. ولما رفع رأسه فجأة ليحرفه عن موضوع الحديث سأل مستغرباً ما يسمع:- من هذا القادم؟! يأتي فارس مجهول يسوق أمامه حيواناً لا تميّز أهو فحلّ أم عجل. ومن طريقة امتطائه تعرف أنه ليس من أهل القرية. ويتناثر الغبار من حوافر الحصان علامة تعب.

- أليس القادم أكجكوه أنزور؟ - نهض شباكوه مستغرباً قدومه.

- نعم، هو أكجكوه... - لم يستطع وستقوه الجلوس. - أي حيوان أمامه؟

- لا أعرف، ربما ماشية هائمة في طريقه. أهلاً يا أكجكوه، - استقبل شباكوه الفارس، وساعده على الترجل. أنت ضيف عزيز!

لم يربط الحصان على مربوط الباب الصغير، بل طلب من وستقوه الدخول بالحصان. ولما سمعت إيتاروش بصوت الضيف خرجت لاستقباله.

- تفضّل يا ولدي، تفضّل!

- كيف حالك بإذن الله يا أمنا، استقبل أكجكوه العجوز.

- لا بأس يا ولدي، لا نزال نعيش ونحن نتعثر. ماذا تنتظر يا ولدي، ألا

تتفضل!

- يا والدتنا، أريد أن أدعو الضيف، - قال ابنها يشكّ في سبب القدوم بعجل، - ولكن لا أعرف سبب قدومه بالعجل.

- فهمت، - عاد الوعي إلى أكجكوه، - لم تقبل أمنا إلا أن تقدّمه مكافأة على معالجتك للصبي.

- ألا تعرف يا أكجكوه أنني لا أتقاضى أجره على عملي؟
- أعرف.

- ما هذا إذن؟

- الصبي...

- لا، أسأل عن العجل.

- يا مبارك النسل، أما أخبرتك أن أمنا لم تقبل إلا أن أسوقه إليكم...

- كفى يا ولد، لا تُهن الضيف... كان المرحوم أشمّر يكره مثل هذا، يحتاج الولد لهذا السبب يا أنزور.

- والله ما كان لي أن أفعل هذا إذن، الحقّ أنني لست صاحب الفكرة، أمنا هي التي ألحت عليّ.

لم يكن شباكوه مهتماً بكلام الضيف. نظر نحو الصبيان الذين يلعبون وفي الذهن أمرٌ آخر. نادى الصبي الذي كان رأس عصاه في الحفرة.

- تعال يا سوباش!

- ماذا تريد يا شباكوه؟

- هل ترى العجل الواقف هنا؟

- أرى.

- إن كنت ترى فأنا أعطيك إياه. هل تستطيع إيصاله إلى بيتكم؟

انتفض الصبي برأسه الصغير، وتفتّح الواقفين. وتلمّس قبعته دون أن يعرف السبب. وقال فجأة:

- بكل سهولة يا شباكوه! - ألقى نظرة حادة على العجوز الواقفة إيتاروش كأنه يتساءل: أتقبل هذه العجوز يا ترى؟

- مبارك عليك يا صغيري، - مسحت إيتاروش على رأس الصبي. أحسنت، أنت ستكون رجلاً حقيقياً.

لم يتكلموا في أي موضوع ريثما قدموا الغداء للضيف القادم من سفر. والآن ما يستغربه شباكوه ووستقوه هو الموعظة التي ألقاها الضيف وطريقة دعائه قبل أن يمد يده إلى الطعام. وفيما هما يراقبان الضيف باهتمام إذا هما يفعلان ما يفعله، وسَمَّوا بالله قبل الطعام.

- ما أفصحك يا أكجكوه، وما أكثر الكلمات الجميلة التي قدّمت بها للطعام! - قال وستقوه بعد ما فرغ من الطعام. - أظن أن معك قناع الإخفاء، جعلتنا نردد كلماتك ونقلد حركاتك.

- ما مهّدت به للطعام أعاده الله عليك! ولا تندموا على ما تكلمتم به. لستما وحدكما المهتمّين بمشيتخي، كثيرون غيركم. ما الذي يجعل مني أفندياً؛ صالح أفندي رغم أنه تعلم في بلاد العرب، أراه لا يزال يفتقر إلى الكثير. رشّحوني لمنصب معاون الأفندي فقبلت بنية أن أعلم الفلاحين كلاماً جميلاً لا أقترضه من أحد ولا أستعيّره. للأفندية جذور في المؤتمرات. وكلمات هؤلاء تلجم المتنفذين ويتقبلونها في سلوكهم.

- من يدفع تكاليف بناء الجوامع في القرى؟ - سأل شباكوه كأنه لا يعرف شيئاً.

- بأموال المتنفذين. - أجاب أنزور واعياً ما وراء السؤال. وأضاف: - أصحاب الجامع هم من يقفون فيه أمام الله ويصلون، لا من يدفعون تكاليفه. من بنى الجامع بماله مثل من تصدق مساء الجمعة.

- هذا غير ممكن يا أنزور. - ابتسم شباكوه. - أنت من تصدقت اليوم يا أنزور، فكسبت اليوم ثواباً عظيماً بعجلك.

- ليتقبله الله! لست من دفع، بل أنت شباكوه.

- أياً كان الدافع فلا تندم على ما سببت من الفرح للأرملة. ليس هذا ما أتكلّم عليه. بل لأنك تقول: لم يعد الجامع ملكاً لمن بناه بماله؛ لماذا إذن طرد شرّ لأقوه الفلاحين من الجامع؟

- يا مبارك النسل، هل يجوز أن تقلّد شرلأقوه؟ - لا يتزحزح أنزور عن موقفه.
- من تأتي على ذكره مسّه الشيطان. طردهم بحجة أنهم يجتمعون في الجامع فيتكلمون على المتنفيين.
- لماذا يُصمّ شرلأقوه أذنيه حين يجتمع الفلاحون في زاوية أحد الأسوار فيتكلمون على المتنفيين؟ - شباكوه أيضاً لا يتزحزح عن موقفه. ثم يضيف: أسوار الحظائر مُلكٌ للفلاحين فلماذا يتصامّ.
- هل تتجنب إذن الإسلام يا شباكوه؟ - وصل أنزور بنفسه إلى ما كان يشغل باله هو.
- هذا موضوع آخر. ولماذا أتجنبه؟ مصيري هو مصير القرية. إن أنت خرجت وحدك من مجموعة من الفرسان فلن تجري بعيداً...
- جلس الثلاثة إلى وقت حلول الظلام. تكلموا في كثير من الموضوعات وعلى كثير من الأشخاص. وأخيراً دخلوا إلى الموضوع الوحيد الذي لم يتطرقوا إليه: الأبراخ.
- الأبراخُ الملتحون أخوالك يا شباكوه، - روى أنزور الخبر الذي سمع به اليوم، - سمعت أنهم ضربوا بشدة مبالغ فيها فلاحاً لأحد متنفيي البجدوغ، فكسروا ضلوعه.
- من أين هو؟ - سأل مستقوه.
- والله لا أعرف كأني سمعت: لاججي. وقالوا فوجه... المهم واحد من الاثنين.
- ليسا شخصين، - شحب وجه شباكوه، - من جئت على سيرته هو فوجه لاججي. هو ابن خالتي. من أخبرك؟
- أخبرني أحد الفلاحين البجدوغ في طريقي إلى هنا.
- والله هذا خبر سيء، - نهض شباكوه، - لا فائدة من قعودي.
- وفي الحال سافر مع شباكوه كلٌّ من مستقوه وأنزور كي لا يسافر وحيداً، وأخفوا ما عزموا عليه عن إيتاروش، وتوجهوا إلى البجدوغ.

لم يخطئ الأمير الكبير حجمقوه في اختيار الحصان: هو من اختاره من القطيع. في البداية لم يعجبه حين عرضه عليه الفلاح. قال: لن يقبل الشاب الأمير بل أي فلاح أن يركبه. كان الحصان الذي أشار إليه الفلاح أول مرة يقف أمامه غير متناسق القوام. لا يزال شعر العام الماضي على ردفه. يُعاقب بين قوائمه على الأرض كأنه يخاف السقوط. حصان واحد كان أعجب الأمير: ما إن سمع صوتاً غريباً عن القطيع حتى باعد ما بين قوائمه وأصاخ السمع بحذر. مدّ قامته كأنه سيطيّر حتى لئنكره فتقول: ليس هذا ما كان أمامي. حسناً فعل الأمير إذ سمع نصيحة الفلاح.

مرة أخرى دنا الأمير الكبير من النافذة، ونظر نحو الدار. كان ألقس إلى جانب الحصان يتودد إليه كما في المرة السابقة. يخاطبه ماسحاً على جبينه. الآن أنت حر في أن تتوجه إلى أي مكان في رحلة أميرية. الحصان الجيد نصف الرجولة. أعرف من نفسي أنني وقعت في كثير من المهالك لولا الحصان. سمع الأمير الكبير حجمقوه ضجة كبيرة تصدر من جهة الشارع. وانتفض ألقس برأسه، ونظر باتجاه الصوت.

خرج قانشاوا الأمير الكبير من الغرفة لا يعرف تفسيراً لما يسمع. وفي الشارع الآخر يركض الفلاحون وبأيديهم شوكاتهم الحديدية. وبعض الفرسان سبقوهم. والسائس الذي كان مع حصان ألقس اختفى: اختطف الشوكة ويركض حيث يركض الفلاحون.

- ما الذي جرى في هذه القرية؟

لم يبق في الدار من الفلاحين من يجيبه.

وفي الحال صاح الأمير الكبير لابنه الذي ركب:

- ارجع يا ألقس!

- ألا أنضمُّ إلى هؤلاء!

- لا شأن لك بهم. - لم يخرج حجمقوه من مكانه، - وأين الحارس مرزيج؟
كم نصحتك ألا تخرج من البيت دون سلاح؟! - نهر الأمير ابنه.

عاد ألقس إلى البيت مسرعاً، وخرج مدججاً بالسلاح. واتجه مرزبج إلى الدار برفقة فارسين.

- أين أنت منذ الصباح؟ - سأل الأمير الكبير الحارس.

- كنت بين هؤلاء الهائجين يا أمير.

- ماذا يجري في تلك الناحية؟ - سأل الأمير حذراً يحاول إخفاء قلقه.

- الأبراخ كسروا ضلع فُوجِه لاجمي مساء البارحة، فهاج الفلاحون يا أمير.

- ولماذا لم تخبروني بما جرى لفوجه؟

- كنت غائباً أمس يا أمير.

- وهذا الصباح؟

- كنت تترتاح فلم أشأ إزعاجك يا أمير.

- ألا تنق بالأمير ألقس؟ - قدّم الأمير الكبير حجمقوه اسم الأمير الشاب

حذراً على أسماء الحراس - النبلاء. - لا فرق بين أن تخبرني أو تخبر الأمير

ألقس. لا تكرر مثل هذا الخطأ! إن اعتدوا على فوجه فربما اقترف ذنباً يستحق

عليه العقاب. سلاله الأشرار يبحثون دائماً عن الشر.

- حرث أرض الأبراخ فسيلاو دمه يا أمير.

- إن كان فوجه فعل هذا فقد نال عقابه... - اطمأن قلب الأمير الكبير الآن

أكثر من ذي قبل، ثم قال وهو ينظر نحو ابنه: - هذا هو الموضوع، لأجل هذا

قلت: ليس هناك ما تفعله. ولا حاجة لأن تجتمعوا لهم.

- ولكنهم يا أمير يقولون إنهم ذاهبون للقتال.

- وإلى أين سيذهبون؟ - هرب الدم من وجه حجمقوه. - هل ينوون الإغارة

على الأبراخ؟ - اسمع ما خطر لهم! متى حدث أن كان في طوابغوه مثل هذه

العادة؟ هيا استدعوا الأميرين بححقوه ودرب. وليركب النبلاء!

- سنخبر شرلأقوه، - قال ألقس وانتظر بعض الوقت بانتظار رأي والده.

- لا داعي، - قال حجمقوه دون أن ينظر في وجه ابنه، - ليطفئ آل شرلأقوه

النار التي يجاهونها... استدعوا مرحب أفندي!

لم يكن الأمير الكبير يجهل عواقب محاربة الأبراخ. صحيح أن الأبراخ عرق من

الأديغة مثل البجدوغ ولكنهم يعيشون طوال عمرهم في أرض مستقلة. الأبراخ يشغلون الجبال الغابية التي هي الجزء الجنوبي من أرض الأديغة. ومن جهة الغرب يجاورهم الشابسغ. والبرية المليئة بالجبال الممتدة إلى يسار نهر بشنه إلى الشمال هي أرض البجدوغ. والأرض الممتدة إلى الشرق هي أرض الجمكوي. الأبراخ أناس جبليون، الجبل أرضهم، والحجر منعتهم، يعيشون فيها يحمون غاباتهم وموارد عيشهم. وإذا دخل أرضهم غريبٌ ينوي شراءً قابله بالسلاح. يعرف حجمقوه، ليس من اليوم، أنهم شجعان على ظهر الخيل، تغلب على طباعهم الحدة. وهم يسمون أنفسهم بالأبراخ الطحالب¹.

ليس من الحكمة أن تحارب هؤلاء الذين يتحلون بالعناد والحمية والرجولة، يحمون حتى قطعة السحاب التي تغطي سماءهم. لن تلقى منهم إلا المارة. ليس عناد الأبراخ ما أخاف أمير البجدوغ. وليس البجدوغ من خلقوا بلا رجولة. هؤلاء أيضاً عاشوا عمرهم يحمون أرضهم. ليست حماية الأرض المفتوحة من الجهات الأربع مثل حماية المضيق الجبلي المكسو بالغابة. ثم إن عند البجدوغ كما عند الأبراخ تماماً القناعة والإصرار على حماية أرضهم. وقد ظهر هذا مراراً عبر القرون، فتحولت البطولات إلى حكايات تروى في المضافات. ما أغضب الأمير الكبير هو خفة حلوم البجدوغ، وعدم طلبهم السماح من أميرهم. يبدو أنه لم يبق أمراء في البجدوغ. ولم يبق نظام، ولا اعتبار لكبير بين الصغار.

قال لنفسه وهو يتفقد أرض الدار بعينيه: ربما خرجت عن طوري دون وعي مني. لا أحد أمامه إلا ألقس الأمير الشاب والحارس مرزيج. الحارسان الآخران هُرعاً للتبليغ، حتى قبل أن تخرج الكلمة من فمه. أصاخ السمع فحُيِّل إليه أن الجلبة الصادرة من القرية هدأت نوعاً ما. إن كنت استعجلت فقد فعلت ما يريده الأمير بحقوقه تماماً. لا، هكذا أتصور ولكن الضجة لم تهدأ، بل ترتفع.

¹ يشرح الكاتب سبب التسمية بأن من يكذب منهم شهروا عليه السيف، إلى جانب أسباب أخرى. انظر الفقرة الأولى من الباب الثالث.

وصل مرحب أفندي.

- أي اضطراب نشب في القرية يا أمير؟ - ترجل من الحصان الأفندي الذي يبلغ الخامسة والثلاثين تقريباً. ورغم معرفته بما جرى فقد سأل.

- ما العمل؟ لم يكن الأمير يجهل نفاق الأفندي فلم يبح بما في ذهنه. - نعرف متى اجتمعنا بهم.

- سيان يا أمير بين أن تستجيب لنداء الغضب، وأن تقتحم البرق والرعد. قال مرحب أفندي، وأضاف: - إن كان هذا رأيك فلنمض إليهم.

- ليس البرق والرعد مشكلة يا أفندي. ردّ الأمير، - المشكلة هي أن تطلق السماء الصواعق.

ركب دون أن يعقّب الأفندي على كلام الأمير. وتوجها إلى شمال القرية. الفلاحون يملؤون البرية التي تمتد أمام بيت فُوجّه لاجي. والصبيان الذين يتبعونهم أكثر منهم. الفلاحون يحملون الشُّوك على أكتافهم. وتبرز من هنا وهناك بنادق طويلة. والمشاة والفرسان الذين يتسلحون بالقسيّ بينهم. والنساء اللواتي يقلقن لما يقلق له رجالهن ينظرن من خلل أسوار الدور. ومن وراء الأسوار يندفع فلاحون يحملون الأعمدة الخشبية. لما رأى حجمقوه أميرُ البجدوغ الكبير الفلاحين القادمين من الريف البعيد خطرت له غربة الخريف التي تلتصق بالأرض أو تنطلق طائرة في موسم الرياح الباردة أو تساقط الثلوج. إذا لم يكن أمام عيون الفلاحين شيء فما الذي يشيع بينهم الاضطراب؟ نظر الأمير الكبير نحو الجهة التي فيها قرى الأميرين بحقوقه شراندوقوه ودرب تالوستان، ولكن لا يظهر أيّ من اللذين أرسل وراءهما من الريف أو من جهة الجبل. وكلما اقترب من جمهرة الفلاحين ارتفع صياحهم.

- علينا أن نعرّف الأبناخ قيمتهم، وإلا نَعصوا عيشتنا.

- صحيح، صحيح!..

- ونحن عندنا كرامة، كفى ما تحملنا!..

حين اقترب فرسان الأمير الكبير من الفلاحين خرج مرزبج، واقتحم الجمع الهائج بصدر الحصان:

- اهدؤوا أيها الفلاحون، الأمير قادم!
- انقطعت ضجة الفلاحين كسرب من الغربان التصق بالأرض اتقاء العاصفة. والقرميون من الأمير تخلَّوْا عما على أكتافهم من الشوكات. وبينهم من ترجلوا عن الخيل. ومن لم يترجلوا كانوا أكثر.
- أيها المسلمون الذين تُعزّون الله، - نادى مرحب أفندي الفلاحين، - أيُّ فتنة أنتم فيها؟
- ما فعلوا بفوجه لاجبي مأساة لنا يا أفندي، - صاح فلاح من بعيد.
- مأساتنا، مأساتنا! - وافقه غيره.
- ونحن ممن عندهم كرامة!
- نظر حجمقوه إلى جهة المرتفع فرأى مجموعة فرسان ربما كانوا جمع الأمير بحقوقه. جبهة الأبراخ هادئة لا شيء فيها. والجبال التي اكتست بثلج الخريف هادئة. والمهم هو هذه الجهة.
- من يُهنّ يجد الوقت للانتقام، كما يقال. هدّثوا قلوبكم أيها المسلمون، وقفوا في حضرة الله، - أكمل الأفندي الذي قطعوا كلامه، ولكن الواقفين لم يدعوه يكمل، وصاحوا:
- يكفي ما تلقينا من إهانات.
- من يمد يده إلى عينك فمُدَّ يدك إلى روحه!
- ليخرج من تحرقه نار الإهانة ويريد القتال، وليقف أمامي! - خرج الأمير الكبير من بين الفرسان وعيناه تقدحان شرراً. أيُّ شرّ نبت في رؤوسكم فلم يبق في طؤابغوه نظام! ألم يبق في بلاد البجدوغ تقاليد؟!
- لم يقف أحدٌ في حضرة الأمير الكبير. ووصل حراس الأمراء الجيران، ووقفوا على الجانبين. ولما نظر حجمقوه ألقس المدجج بالسلاح إلى الجمهور وجد الأبعاد منهم ينصرفون واحداً واحداً.

الفصل الرابع

-1-

في خمسينيات القرن الثامن عشر كان في إقليم الأديغة تشريع واضح بشأن تجارة الرقيق. التجار هم المسموح لهم، وكان من يسرقوهم أكثر، يقضون الوقت: مهنتهم خطيرة ومحل اختبائهم هو تحصينهم. وحين يدخلون القرى ينجزون أعمالهم بصمت. نهارهم ليل وليلهم نهار.

كانت جبال الشابسغ الحراجية خطيرة عليهم، ومع ذلك كان التجار يفضلونها على سهول البجدوغ والجمكوي. والصبيان والصبايا الذين اشتروهم كانت نفوسهم تهدأ في رحلتهم الطويلة إلى تركيا أو البلاد العربية. ومتى دخلوا غابة تحمز غطت أصوات العصافير والرعب المنبعث من الزوايا المظلمة آمالهم في الهروب إلى قراهم. ويهدؤون إلى من اشتروهم، أليسوا في النهاية بشراً، فهم خيرٌ من الخطر الذي يمكن أن يأتي من وراء أي شجرة ويخطفهم. وإذا لم يكن بين تجار الرقيق شراكسة، فبينهم الآن. وكالعادة فأمثال هؤلاء يتميزون بالقسوة والعناد. يغلب عليهم الظلم، ومن أجل الكوبيك يقتلون إنساناً، ومن أجله يبيعونك. ومامرقوه من بين هؤلاء الذين ظهروا بين الشراكسة. يتابع عمله باهتمام مصداً لتسمية النبلاء بالخيسة حتى إنهم يقولون عنهم "يلاحقون الكلب الراكض حتى يقطعوا ذيله". وهو من جهة الأب ينتمي إلى الجمكوي، والأم أديغة أمها من النغوي. يتناسى ما فيه من عرق النغوي حين يعيش الأديغة، وحين يجد نفسه في القرم يستغل لغة النغوي التي ورثها من أمه.

يعرف كل من شرلأقوه ومامرقوه الآخر منذ أعوام. كان شرلأقوه في سوق كابلو عائداً من القرم حين تعرف على مامرقوه. وفي طريقهما من هناك اصطحبه إلى باستوك وأضافه. وبعدها زار مامرقوه صديقه شرلأقوه مراراً. ومهما كان في عجلة من أمره فلا بد من أن يجعل باستوك محطة له. وإن لم يكن في عجلة لم يفوت الزيارة ولو لم يكن له فيها شاغل. وإن عرج عليه لم يطل المقام كسائر الضيوف. فبعد ليلة يركب ويمضي.

مامرقوه الليلة في غاية الاستعجال ولكنه عرّج على القرية قاطعاً مسافة نصف يوم، حتى صار في ظاهر قرية باستوك. وليس معه اثنان أو ثلاثة كالمرات السابقة، غير أنه ليس وحيداً، فعلى جانب الحصان الأيمن رُبط من وركيه غلام في حدود السابعة عشرة.

- هل وصلنا يا مامرقوه؟.. - سأل الشاب المربوط حين رأى ظاهر القرية.

- أما وعدتك أن أخبرك؛ أأنت مستعجل على الوصول؟

- مستعجل على قطع رأسك يا مامرقوه.

- هيه أيها الذئب! كثيرون ممن هم أشجع منك انتظروا الفرصة. ولكنهم فقدوا رؤوسهم.

- من يفتقر إلى الرجولة يستحق هذا!.. ولكن أينما أخذتني، ولو إلى ما تسميه تركيا، فاعرف أني سأعيش!.. ليس شخصي مهماً بل والدي المسكين الذي سيّحت دمه. لن أهدأ قبل أن أعصرك حتى أسترّد دمه منك. احذر لأني سأعيش على هذا الأمل. لن أفعل مثلك فأفاجئ النائم وأقتله. سأخبرك قبل أن ألاقيك!..

ضحك مامرقوه حتى أسمعَ ظهر المرتفع كله. أما الشاب المغلوب على أمره فقد أشاح برأسه لا يُطيق الضحكة. يظهر جبل بيباو الذي تشرب من الشمس حُمرة غير قريب ولا بعيد. ما يلوح أمام الشاب جبلٌ مكسو بالغابات لا تحيط العين به. لن ترى في أرض الجمكوي مثل هذا. يتفقد الجبال التي كان يشتهي غاباتها التي يراها من بعيد وهو في البرية. في كل اتجاه يأس مطبق.

- أرى أنك شاب عظيم، - قال مامرقوه وهو يتمعن في أقوال الشاب المقيد.

- إن استطعت فستغني عن الدنيا قبل أن تولد. ولم يسموك زيش عبثاً¹.

- مهما كنتُ ففي قلبي ما قلت لك.

- إن وجدت الفرصة فعندك أمنية عظيمة!..

لمعت عينا زيش ثم انطفأتا.

¹ يعني زيش: قائد جيش.

ارتجفت أوصال زيش حين رأى الأرض المحروثة في أسفل الوادي. ارتسم أمام عينيه الأب المستلقي على ظهره، الذي قتلوه في الأرض المحروثة أول من أمس. فقيما كان زيش ووالده يحتران الأرض الصغيرة التي يملكانها فجأتهما المأساة كزمية حجر. اختطفوا الشاب ولما يُلق إلا نظرة واحدة على والده. وهم يحملونه منذ يومين. ولم يسمحوا له خلاهما بأن يلتقي بأحد، ولم يدخل قرية. متى أنزلوه من الحصان قيدوا رجله. ومتى فكوا قيد رجله أعادوا ربطه على ظهر الحصان.

لماذا ندخل هذه القرية بعينها في حين لم ندخل أي قرية إلى الآن. أوصلني أنت إلى حيث يقف شخص ما، لا أريد غيره. سأصرخ وترى ماذا أفعل بك! استمد زيش الشجاعة من القرية التي ظهرت في المضيق. وقرر ألا يوجه إليه بعد كلاماً يثيره. وإلا فسيغضب ويدور حول القرية كما فعل أمس واليوم.

توقفا عند المنعطف. انتفض قلب زيش متسائلاً ما الذي جرى حتى يقف. أجال النظر فلم ير في الجوار ما يبعث الريبة. أظلم مضيق الجبل مع غروب الشمس وراء جبل بياو. وبدأت مصابيح القرية تضيء شيئاً فشيئاً. ما إن أحس زيش أن تلك المصابيح تضيء جوانحه حتى سدّ مامرقوه فم الشاب بخرقه ملفوفة.

- أنت، على ما يبدو، الأفضل أن يبقى فمك مسدوداً. - قال مامرقوه، وشدّ يدي الشاب إلى الخلف بقوة. إن رأيتك تحركت قطعت رأسك!

انتهت هنا الأمنية الحلوة التي كانت لدى زيش. لم يخطر له أن يفعل به مامرقوه ما فعل. القلب ينبض كأنه سيقفز من الصدر. وأصوات الخيل التي يصيح السمع إليها انقطعت. يخيل إليه أنهم ألبسوا الخيل أخفاف السرقة فتطأ الأرض بكل صمت. سدّ فمي بالخرقة لأنه سيدخل بي القرية. يخاف أن أصرخ. من أين عرف ما أنوي؟ يا إلهي اشملي برحمتك! ألهمه أن يدخل القرية. أتوسل إليك أن تحقق لي هذه الأمنية، إن لم يكن لي فلأجل المرحوم والدي. لن أنسى لك هذا المعروف أبداً.

دخلا قرية باستوك. فرح زيش حتى سمع دقات قلبه. سمعني يا إلهي فأشفقت

عليّ. لن أنسى ما أسديت إليّ. متى عُدتُ حراً كان أول ما أقوم به أن أصلي شكراً لك.

مشياً بعض الوقت وهو يعرف من صوت الماء أنهما على الضفة.

لم يكن أحداً في دار شرلاًقوه. وتبدو أكوام الحشيش الثلاث زادت في الظلام كبراً على كبر. وليس على مرابط الخيل على البوابة أي حصان. والحي فارغ.

- ناغوه! صاح مامرقوه.

سُمع نباح كلب. خرج علي سلطان من الغرفة، ونزل من على المسطبة. وأسرع نحو الباب.

- من هذا؟

- هل والدك في البيت؟

- ألا تتفضل!

- لا، أريد مقابلة الوالد فحسب.

- من هذا الضيف الواقف على الباب لا يريد الدخول؟

- سلام عليكم يا شرلاًقوه.

- وعليكم سلام، يا مامرقوه. - تعرف شرلاًقوه الضيف، - أهلاً يا مامرقوه، أهلاً!.. لماذا لا تترجل؟

- مستعجل.

- إن كنت مستعجلاً فما مضى أكثره سيمضي أقله. ما تقوله عيب، وستفرح ابنة آل ناورز. أنت قبل أيام على ذكرك تريد لقاءك...

- لا، أنا مستعجل... على الحصان شخص مقيد كثير الشغب، عليّ أن أوصله الليلة إلى الساحل. لا تؤاخذني، سأمرّ في طريق عودتي. والآن عندي لك رجاء: افترقنا أنا وصاحب لي رغماً عنا في الأبراخ. انتظرتُه أمس، ولكننا لم نلتق. يسعدني أن تذهب غداً إلى المكان الذي نعرفه أنت وأنا في غابة تحمز، وتنتظره هناك حتى الظهيرة.

- من تقصد؟

- أحد معارفك، وهو يعرفك. - قال مامرقوه وأضاف: لا تؤاخذني، لو لم أكن

في ضيق لما أزعجتك. إن سألك من أنت؟ قل له أنا رسول مامرقوه.

- وإن لم يسألني؟

- لا بد أن يسألك... رجل أشقر مجذور الوجه. بلغه أن مامرقوه ذهب إلى

الساحل، لا إلى القرم. يعرف هو أين سأكون. سيجدني متى جاء.

خاطب شرلأقوه ابنه:

- هيا هات الخيول!

صدح المؤذن بصوت عال في الظلمة. وفي الحال ارتفع نباح الكلاب كما

اعتادت. وكلب مستنه أرسى هو الكلب الوحيد الذي انقطع نباحه من الحي

الآخر...

- لا حاجة أن تركبوا!

- وهل يجوز أن نفعل هذا العيب؟! - ألا نوصلك إلى خارج القرية وإن لم

تدخل بيتنا. - ركب شرلأقوه الكبير فتبعه الصغير.

-2-

الشراكسة يُعزّون الضيف طوال عمرهم. يشهد على هذا مرابط الخيل التي على

أبواب دورهم... انتهاء بمضافاتهم. وباب المضافة مفتوح دائماً كي يدخل

الضيف القادم من سفر. ووراء الباب إبريق وطشت جاهزان دوماً. والمنشفة

البيضاء معلقة بمسند الصوفا. وفي مضافة الفلاح ما يحتاجه الضيف وإن لم

تكن مجهزة كمضافة الأغنياء. صوفا خشبية، ومائدة، وبضعة مقاعد. وفي وقت

الصلاة ما يحتاجه المصلي من إبريق الماء والطشت والمصلاة والمنشفة المعلقتان

على الجدار. ووراء الصوفا التي إلى الجدار كشاشة الذباب المصنوعة من ذيل

البقرة.

هناك فرق بين مضافة الأمير ومضافة الفلاح من حيث الإعداد وإن لم تختلفا

كثيراً. مضافات الأمراء والنبلاء واسعة مضيئة. ومنظر الأثاث في مضافات

الفلاحين غير مظهرها في المضافات السابقة. فالأخيرة مزينة تسر الناظر.

وتكفي يد الكشاشة مثلاً: على اليد الخشبية طبقة من الفضة. والطشت

النحاسي لَمَاع. ومسند الصوفا الخشبية أعلى. والمائدة ترتفع عن الأرضية لتدلك على أنها مائدة أميرية. وتلمع الأسلحة المختلفة المعلقة على السجادة الجدارية المطرزة.

في مضافة الفلاح أكجكوه أنزور يجتمع اليوم كثير من الفلاحين. توافد من سمعوا بعودته من الناختوي فرادى ومثنى حتى امتلأت. وكلٌ حسب عمره، أو كما يقال حسب ما يفرضه شارباه. بعضهم جلوس والآخرين وقوف. والصغار يعبرون عن احترامهم للكبار بأن يقفوا إلى جانب الباب.

- ارو لنا يا أكجكوه إن كنت جئت من الناختوي بأخبار سارة كيف عيشة الناختوي الشُّقر ياذن الله؟

- والله لم أقض ليلة واحدة في الناختوي. فُوجِه لاجمي الذي قيل إن الأبخاخ قتلوه، تبين أنه ابن خالة شباكوه أحمد، فوجب علينا أن نذهب في تلك الليلة إلى البجدوغ... لا بأس بحياة الناختوي. هم مثلنا مشغولون بصراعات فيما بينهم. أرى أن مهمة من تعاهدوا بالقسم أسهل. وأنجزوا كثيراً من أعمال الخريف. ويجاهون الغابة يسلبونها شيئاً من الأرض. وعلى تخوم الغابة حرائق كبيرة. والقرع عندهم مخضب أكثر من أي عام مضى.

- إذن تحقق للناختوي مرادهم من موسم القرع، يمكنهم أن يأكلوه مسلوقاً ومشوياً... - قال أحد الفلاحين فأضحك الجمهور.

- إن لم تسبح الفئران في مصل ألبانهم المحمّض فقد حققوا مرادهم. - قال فلاح آخر.

- ليس المصل مشكلة إن لم تلعب الفئران على موائدهم.
قال حاغور موسى الذي كان يضحك مع الفلاحين متظاهراً بالنظر من النافذة:

- أهذا شباكوه القادم إلى هنا!... اتجهت الرؤوس كلها إلى النافذة. - ما كنتم لتعلّقوا على الناختوي كل هذه التعليقات لو كان شباكوه حاضراً...

- وهل شباكوه إله؟.. - ساهم أحدهم.
- لا، ليس شباكوه إلهاً... ولكن فيه شجاعة مئة رجل!.. - صاح بترز شعبان

من ناحية الباب بصوت أجشّ. - ومن يرفض هذا الكلام منكم فليجابه إن ولدته أمه رجلاً... لا تفرحوا، لا تفرحوا، الرجولة ليست مصدر سعادة، بل هي رجولة فحسب...

- صحيح يا شعبان، صحيح. - صحا أنزور الذي كان يضحك مع من يضحكون. - لم ألتق في حياتي برجل أصدق من شباكوه. يا مبارك النسل هذا قلبه قلب ثور الغابة. لن نذهب ونجابه يا بترز. ليأت هو وليقف إلى جانبنا. ليس شباكوه ممن يهددون الخصم من وراء ظهره. يا مبارك النسل إنه لا يتعب!.. في تلك الليلة سافر بي إلى البجدوغ، وقبل أن نقعد أوصلنا إلى الحدود بين البجدوغ والأبزاخ، وحلّ المشكلة التي سافر من أجلها هناك، وعدنا في ظهيرة اليوم التالي. قرية طؤابغو التي عدنا إليها كانت ضاجة جداً. لم يمر عليّ ظرف ألوم فيه نفسي كما في ذلك اليوم. فلاحو البجدوغ الذين كانوا مصممين على الذهاب إلى الأبزاخ للانتقام صاح فيهم الأمير الكبير حجمقوه فتفرقوا. هذا عيب والله أن تكون جباناً إلى هذا الحد. كنت وقعت في موقف حرج لا أعرف كيف أتخلص منه...

- يا أكجكوه أين تواريت حين طرد شرلأقوه المصلين من الجامع. - سأل حاغور موسى معاون الأفندي الذي لا يعرف السكوت. تلعثم أنزور لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل. تبادل الفلاحون النظرات. لسان اللهب الذي كان يتراقص مع لهاث المتكلم توقف واحتدّ. يصدر صوت اشتعال على رؤوس الجميع. ولكن لم تدم الراحة طويلاً. صحا بعضهم فتنفس الصعداء، وحركّ غيره مقعده. وبدل الواقفون على الباب أقدامهم التي يعتمدون عليها. وسرت سعلة غامضة بينهم. حُيِّل إلى أنزور أنهم في الجامع، لا في المضافة. وفي تلك الأمسية كان الجالسون هنا أنفسهم أدّوا الصلاة وينوون الانصراف. كان بترز شعبان مستنداً إلى باب الجامع كما كان مستنداً هنا إلى باب المضافة. وفيما هو يغلق المصحف المفتوح بعيداً عن الحضور سمع صراخ شرلأقوه الغاضب لا يعرف سبب غضبه: "الآن حالاً انصرفوا من وجهي، لا أريد أن أراكم، اخرجوا من جامعي!.. ليس أمثالكم من يجوز لهم اغتيااب الأسر

المتنفذة. لا تساوون بالقياس إليهم روث الحصان!..."

- صحيح يا موسى حاغور، أتذكر مثل هذا. ألا تعرف طبيعتنا نحن الأديغة البسطاء؟ من عادتنا أن نلاحظ أخطاء غيرنا، لا أخطاءنا، فننتقدها. أظن هذا جرى معي في البجدوغ.

- الأفضل أنه جرى هكذا. يا أكجكوه، - قال حاغور، - ما حدث في باستوك جعلك ترى بجدوغ طؤابغوه بعين أخرى. أحسنت يا أمير البجدوغ حجمقوه. كنت من أوائل من قالوا: "وهل عجيب إن غضب شرلأقوه؟ كانوا أنخوا الصلاة فخرج الفلاحون بأنفسهم من الجامع، ولم يطردوهم منه...."

- والله لا أتذكر إن كنت قلت مثل هذا الكلام المعيب. - لم يتراجع أكجكوه المضيف كلياً عن الكلام الذي قاله في اليوم الثاني. - ربما تفوهت بمثل هذا الكلام جاهلاً ما حدث.

- لا فرق كبيراً بيننا فلاحي البجدوغ وفلاحي الشابسغ. - قال حاغور بعدما تأمل ملياً، - متى صاح بنا المتنفذون خبّأنا رؤوسنا تحت كومة الحشيش. وربما أضيف إلى المشكلة انتهاؤهم من الصلاة والتقاؤهم في خروجهم من الجامع. ولكن حين عبس شرلأقوه في وجوهنا كان يجب ألا نخرج من الجامع مطأطين، غارت رؤوسنا بين أكتافنا، كالكلب البريء الذي يصرخون عليه فيطوي ذيله بين فخذه وبمضي. إن كنت تود أن تعرف يا أكجكوه فأنا لم أفعل في حياتي ما أخجل منه كما فعلت في ذلك اليوم. أليس ما فعلنا عاراً؟ وصل خبرنا إلى الأبراز والمخوش. لمّحوا به إليّ حين التقيت بهم قبل أيام.

- ليسوا وحدهم من وصلهم الخبر. - أسرع أكجكوه وقد رُدت إليه الروح، - سألوني عنه في الناتخوأي أيضاً.

الموضوع الذي بقي في ذهن حاغور موسى في اليوم التالي وفي الأيام التالية ليس خبر طرد الفلاحين من الجامع، بل عدم مساهمة الفلاحين في الحديث الذي جرى حول شرلأقوه في مضافة أكجكوه بخير أو بشر. قد يكون أكجكوه ساهم ببعض الكلمات ممسكاً العصا من الوسط غير أن الآخرين لم يفتحوا أفواههم باستثناء بترز الحداد. ولما تجاوز الحديث شرلأقوه تنافسوا في الكلام في

ما يعرفون وما لا يعرفون. ولما وصل الحديث إلى الحكايات والألغاز كانوا مستمتعين أكثر ممن يرى حلماً جميلاً.

الشركسي ماهر في الحكاية فحسب. أضاء وجه حاغور بابتسامة. الشركسي دعه يؤلف حكاية أو يستمع إلى خبر. يغلبون بالحكايات أي عملاق تشاء من عمالقة الأساطير، ويصرعون أشرس أمير، يرتبون في الحكاية الحياة التي يفتقدون إليها على الأرض. والجنة التي يتحدث عنها صالح أفندي يعرفونها منذ أمد طويل من خلال الحكايات. ويطير بساطهم، ويطير حصانهم يعبر البحار. ويتنصتون على الحية الرقطاء التي أمسكت الماء. ويُسقطون الطائر الذي حجب الشمس بجناحه. ويصرعون رجل الغابة... ولكن من لا يجدون سبيلاً إليهم هم أمثال شرلأقوه وأباته وناورز، وفي البجدوغ الأمير الكبير حجمقوه. وفي الجمكوي بولتقوه. وعلى صدر الأبراز والمخوش والويخ والناخوي آخرون. ومن حسن حظ الشابسغ أن عندهم مريثة ابن حتك الحبيب. كان الوحيد الذي تصدى للمتنفذين فقتلوه، غير أن العامة أحيوه بالأغنية وخلّدوه. ما أجمل أن تسمع هذا من تحخوخوه نباؤة. عنده صوت فخم لا يتناسب مع جسده الضئيل. متى غناها رجّ الأرض تحته، وأجبر السامعين أن يرددوها معه. في أحد الأيام التفت حاغور موسى إلى تحخوخوه الذي يحفر أسفل شجرة. من ظهره النحيل يسيل العرق كأن شمس النهار اللطيفة تعبت مع المغني. وهو يهيل التراب من ورائه دون أن يرفع رأسه. والشرر يتطاير من تحت الأشجار التي قُصّت في مناسبات خاصة. وبعد مدة يرفع تحخوخوه الرأس وينظر صوب حاغور موسى. ثم يتذكر شيئاً فيغرس المجرفة تحت الشجرة ويقترّب من حاغور:

- حاغور لن يضيرك إن تنفست قليلاً.

- قل لي إن كنت تريد الاستراحة.

- لا أرفض هذا.

- اجلس إذن!..

- أنظر إليك يا حاغور فأقول: لو كنت تعمل لصالح شرلأقوه لما تصبب العرق منك هكذا!

- يكفي ما نسفح لشرلأقوه من العرق.

يقول موسى لنفسه: عجيبة طباع تحخوخوه، ويتبسم. إذا كان غائباً عن الرقابة، لا ينفك عن ذكر آل شرلأقوه. ومتى كان في جمع لم يأت على ذكرهم بخير أو بشر. صار هادئاً منذ جلده شرلأقوه. بل كف عن ذكر أكوز. وإن قابل الصبية لم يمزج معها كما في السابق. أياكون شرلأقوه شك في علاقة بينهما؟ وما علاقة أكوز بالموضوع؟ ربما يتابع هو أمراً لا أعرفه. إن كان رجلاً باح به، وإلا فما العمل؟ كثير من أمثاله على الأرض.

- يا حاغور - ناداه تحخوخوه نفافؤه، - كنت قررت ألا أقول لك ولكني لا أستطيع: لا أريد الحديث عن خصامنا ليلة ذهبنا لسرقة الحشيش، وإبلاغك شرلأقوه بالحادث متخذاً منه ثقة، بل أريد الحديث في موضوع آخر: لا تتكلم بسوء على آل شرلأقوه، ستكون نهايتك على أيديهم؟ سمعت قبل أيام كلاماً على مامرقوه، وجيء على ذكرك. ولكن لم أفهم تماماً السبب...

ليس اسم مامرقوه ما جعل حاغور ينتفض برأسه، بل استاء من قوله: "إبلاغك شرلأقوه بشجارنا متخذاً منه ثقة". سأل مترثاً وهو ينفث دخان الغليون:

- من أبلغك يا تحخوخوه بهذا؟

- سأقول لك: هو شرلأقوه نفسه.

- هل أبلغك أي رويت له بنفسه؟

- لا، بل سأل عن سبب شجارنا.

- اعرف إذن يا تحخوخوه: أنا لم أحدث شرلأقوه في هذا الموضوع، ولا هو حدثنني. وإن لم تصدقني فهذه الشمس العظيمة شاهدي.

- أصدقك يا حاغور. إذن دخل في الموضوع شخص آخر.

تحادث الصديقان بعض الوقت فخرجا بقلبين متصافيين متوادين أكثر من ذي قبل. فعاد كل منهما إلى عمله وقد انتهى ما كان بينهما من جفوة بسبب أكوز وإن لم يأتيا على ذكرها. راق قلب تحخوخوه، وعاد إلى جسده النشاط كمن نفص الغبار عنه. وقرر أنهما فعلاً خيراً إذ لم يتصارحا في موضوع أكوز؛ إذ لا تعرف أي جانب من جانبي عربة الثيران القديمة سينهار غداً.

قال شرلاًقوه لابنه:

- سأرى ثانية ما رجائي مامرقوه بشأنه.
- إذا كان الرجل لم يأت أمس فلن يأتي اليوم. - ساور الشك قلب علي سلطان.

- وهل تظن الأمور تجري كما تشاء أنت؟! - وأنت إلى أين؟
- قررت مرافقتك.

- لا شغل لك هناك. سأصل وأعود حالاً.

- لا تقل هذا يا والدنا، لن أدعك تمضي وحدك!..

مهما اعترض الأب لم يأبه علي سلطان بل ركب معه. ولم يعاند الأب ابنه، بل سرّ بقلق ابنه عليه، وقال في نفسه: لا مشكلة في ركوبك معي، سترى ما أرى، وتساعدني في ما أفعل. وأنا لازمتُ جدك، نور الله ضريحه، حتى تعلمت منه كثيراً مما لا يعرفه غيري، وجعلني أقدر الرجولة. لم أعرف التأخر في الفراش، عاملاً بقوله "من يُفَقِّ باكراً يولد له عجل". وأنت كأن جدك رباك. أليس ممتعاً أن تبادر إلى العمل ولما يخرج مخلوق إلى النور؟! وهل أجمل من أن تتشقق الهواء نظيفاً، وتقف أمام الفجر وتمططي؟.. تعال يا ولد، تعال... وهذا جبل بيباو ينظر باسماً من طرف السماء.

تسلق الفارسان المرتفع مستقبليْن الفجر. وكلما ارتفعاً لعب نور السماء في عينيهما، وتسلل إلى عُرفَي الحصانين. وجميد الخريف على الطريق، وعلى الأحجار، وعلى الأغصان، كالتراب الأبيض. ويسري النسيم البارد الذي يثيره تسارع الحصانين على الوجه حبيباً إلى النفس. وتنسبك رائحة البرودة الدفء القادم مع الشمس.

- سيكون نهارنا كالبارحة يوماً جميلاً. - يقول الأب وما يراه يُسعد القلب،
- انظر إلى الجبال هناك كيف تبدو!..

يقلّب علي سلطان النظر في هذه الجبال قبل أن ينهّيه أحد. تمر الجبال أمام عينيه من الجانبين كسلاسل من الحديد. تستقبل الخريف بقبعات ووجوه بيض.

يُحِيلُ إليك أنها لا تلامس الأرض بل هي منصوبة على الهواء كأنها تطير.
وأوراقُ الأشجار الملونة المتساقطة في الخريف تتقدم نحو أسفل الجبل. ونهر إيل
يسرع إلى المضيق نائراً مياهه الفضية.

- كلها جميلة!.. - انفعل قلب شرلاًقوه الأصغر. - يقفز قلبي كأني ساطير
حين أرى الجبال.

- حسنٌ يا ولد أن يكون قلبك هكذا. كنت في عمرك أشعر بشعورك تماماً.

- والآن؟

- والآن ماذا؟ أنظر إلى قمة الجبل فأدوخ. - ضحك الأب، - ليس الجبل
وحده بل ظهر الخيل أيضاً يثقل علينا... ليس هذا مهماً. أستغرب ألا يفكر
ألقس بزيارتنا؟

- ألم نكن معاً على الساحل؟

- الساحل يا ولد ساحلٌ. ما أريده أنا هو أن يأتي إلى الشابسغ حيث ربّوه،
أكثر مما يفعل، ونراه عندنا. هل المسألة إن أخبرناه بالحيء إلى الساحل أتى ،
وإن لم نخبره لم يأت؟.. ما أتأمله منه شيء آخر: أن يزورنا كرجل معتد بنفسه
مستقل، يُدخل الفرح إلى قلوبنا ويرقّه عن نفسه. وإن زارنا مع عدد كبير من
الحراس فقد يزيح عنا بعضاً من مخاوفنا. ليس من الصعب تخويف الشرکسي
البسيط. عليك دائماً أن توهم الفلاحين بغير ما أنت عليه. بل توهم الجميع.
وسبب علاقتي بمارقوه يدخل فيه هذا الموضوع. أعرف كثيرين يرتحفون لمجرد
سماع اسمه. ليس هناك ما يردع مارقوه عنك. ومقاي المتأتى في كلامه، والذي
نسافر لملاقاته، لا أظنه رجلاً ضعيفاً. ليس من المستبعد أن ينفعنا هو الآخر في
ما لا ندرى. ألا ترى كيف سلك الفلاحون معنا في الجامع؟ لو استطاعوا
لقتلونا على سجادة الصلاة دون اعتبار لله نفسه. وبعد الحادث كم تتصورهم
قالوا من وراء ظهورنا؟! كدت أشعل النار في نفسي دون أن أدري.

- كأنك تندم على ما قلت يا والدنا!

لم يستعجل الأب في إجابة ابنه. يُحَيِّلُ إليه أن حصانه يستعجل بعد السؤال
ولكن لم يختبر في نفسه هذا الشعور: الخيب يريح الحصان. قلبه هو ما استعجل

فجأة. والدم هجم على وجنتيه على نحو محسوس. هل تصرفني في الجامع صحيح في رأيك أم يغلبك روح الشباب فلا تلاحظ ما فعلت؟ كيف أخبرك عن رأيي يا ولد؟ وقلت في ذلك اليوم في إيتاو - إيتك إن طريقة ثورة شرلاًفه ليست صحيحة. كنت أدنثُ تصرف والدتك ابنة آل ناورز ولكن هل أنا أحسن منها؟..

- ما قلته قلته وانتهى ولو ندمت... - التفت الأب نحو ابنه. - ما يجرحه السيف يُشفى وما يجرحه اللسان لا يُشفى، كما يقال. ماذا سيكون جواب سؤالك الآن؟!.

ندم الآن، ندم. والله طبيعة والدنا عجيبة. يقفز خطوة ويعود ثلاثاً. من يرك هكذا يفقد كل احترامه لك. قلت ما قلت، وفعلت ما فعلت. متى وقفت على ظهور الفلاحين فلا داعي أن تسألهم إن كنت تؤلمهم، بل عليك أن تُثقل على المكان الذي يؤلمهم أكثر من غيره. وكيف تنظر إليك جماعة حاغور نظرة رضا وهم يعرفون عنك هذا؟.. ليست هذه الطبيعة مقبولة. اسمح إذن للفلاح أن يصرك، وانظر ماذا يفعل بك؟!

- لا تندم يا والدنا. ما فعلته في ذلك اليوم قلبي مستعد أن يفعله اليوم؟ لماذا لا تمد يدك إلى روح من يمد يده إلى عينك؟ لا أوافقك يا والدنا على ما تقول. لا تؤاخذني على مخالفتي إياك! انظر إن لم يُشبب أظافره في عنقك ويخنقك!

- وإن لم يعد الضرب يؤلم من تضربه يا ولد؟

- من لا يتألم يا والدنا هو من يسبلون جفنيه.

- وهذا صحيح...

يقف علي سلطان على يسار والده وعيناه غائمتان، غير منتبه إلى قمم الجبال البيضاء التي تقترب. لا يتذكر أنه كلم والده في بضع السنوات الأخيرة كما يفعل الآن. يرى علي ما يُفعل بالأب إهانة وكأنه ليس صاحب الموقع الأيسر. يرفع جسده، ترفعه قوة الحماسة، عن صهوة الحصان شاعراً بالعظمة، راعباً في أن يحث الحصان فيصعد القمة. يخيل إلى علي أنه حصان مندفع تلجمه أيد خفية. والكتفان اللتان كانت متشوقين للقاء الشمس تهدلتا فتكورتا.

تجاوز الفارسان الصخرة التي طغت على الطريق، وتوغلا في غابة تحمز. وفي الحال هجمتا على أنفيهما رائحة الأوراق المتساقطة والرطوبة. وانحسر وقع حوافر الخيل كأن الأغصان المتداخلة تمنعها من الإسراع. أصوات الطيور تستنفر آذان الخيل. وكلما تقدما توغلا في الغابة العذراء. مشيا أمس في هذا الطريق نفسه ولكن علي سلطان لا يجد الأشجار التي اتخذها نقاطاً يتعرف بها علي الطريق. وكيف تجدها وآلاف الأغصان تستقبلك بالوجه نفسه؟!.

دخلا في زاوية شعناء. الآن فحسب فهم علي سلطان أنهما يسلكان طريقاً آخر. كان يوده أن يسأل والده ولكن لم ير من اللائق أن يناديه من خلفه. لو لم يكن يعرف أين يتجه لما طاعه حصانه. عندما توقفا عند الساقية الملاءى بالأوراق اليابسة فحسب عرف أن طريقهما غير بعيد. توقفا وأنصتا ولكن لم يسمعا ما يريب. لم يتأخر الولد عن التزلج بعد والده. مشيا بعض الوقت والأعنة بأيديهما. ظهرت شجرة البطم القديمة التي تشبه عريشة. الحطب المتبقي من النار لا يزال لم يمسه أحد، كما البارحة. ولا تزال على الجرة كأس.

- لم يمر أحد أمس ولا اليوم، - قال علي سلطان.

- هل من رأيك أن ننتظره؟

- ننتظره إلى الظهر.

- ننتظره إن كنت تعرف أنه سيأتي.

جلس شراً لوقه الأب على أرومة غير معلق على كلام ابنه، متفكراً فيه. خلع قبعته ومر بكفه على الرأس المتعرق. اختلس نظرة إلى ابنه وابتسم. كلامك مثل آل ناورز، أسرة أمك، وإن سرق من آل شراً لوقه مظهرك. آل ناورز مهما تكلموا لا يرضون إلا أن يكون مبطناً بالخبث. حتى لو تكلموا مع أحب الناس إليهم لم يُخفوا هذه الطبيعة. متى رشوك بالكلام المرظنوا أنهم هاجموك بجيش كامل. ألا ترى ما خطر لابتئهم، أم علي سلطان، بشأن الخادمة المسكينة أكو؟ أهى صاحبة الفكرة أم أنها لا تزال على موقفها حرصاً على الولد؟ الولد يرافقني أينما ذهبت، لا أرى فيه ما يشككني. هل من اللائق أن أسأله؟ وما المانع؛ لا أحد يسمعنا! وكيف أفتحه وأنا العجوز؟ ثم ماذا ستكون نظرته إلي؟

لا، لن أقترف مثل هذا العيب. ولن أهين نفسي... ليست الصبية مشكلة، بل من ينظر إليّ شزراً، حاغور موسى! متى عاد مامرقوه عاجلنا مشكلته. الملح ينفد منا، لو بادلني إياه بالملح رضيت. وابن الكلب اللئيم شَغِيل ممتاز. صبور على التعب كالثيران. لن ينفك في شيء بعد الآن وإن كان شغياً.

نظر علي سلطان إلى والده فلم يعجبه غرقه في التفكير وإطراقه. لا أعرف إن قسوت عليه في الكلام. وعلى قوله كأني جاوزت حدود الأدب. مهما كان فهو أبّ، وهو لم يتخل تماماً عن آداب الصغار مع الكبار. عدتُ تماماً إلى ما قلتُ لأبي. غضب علي سلطان على نفسه. أيُّ رقةٍ نشأت الآن في الصدر؟! عليك أن تبقى على موقفك، لا أن تميل هنا وهناك!..

- أظن أنني جرحت قلبك يا والدنا؟.. - سأل علي سلطان بعد مدة بقلب أرقّ.

- لا، يا ولد، لم تجرحني، - قال الأب شارداً، وأضاف باسماء، - وكيف نتدابر إذا نحن بما في قلوبنا؟.. والله عدم ظهور من جئنا من أجله مشكلة...

-4-

رغم مرور عدة سنوات على وفاة الزوج، ورغم أن الأولاد التسعة كبروا، فلاشين لم تعد إلى وعيها إلى الآن. لا يمر يوم إلا تتذكره فيه وتفكر. وحين عادت إلى أخيها مع جيش الأولاد الذين أكبرهم بداد في العشرين، لم يبق في باستوك من لم يحزن لمصيبة الأسرة. تطوع الفلاحون وبنوا لها على ضفة النهر قريباً من بيت شرلأقوه بيتاً صغيراً من الأعمدة المحشوة بالعصي. وكما يفعل الشراكسة في مثل هذه الحالة ساعدوها في الطعام وفي الأثاث. وكما تفعل القرية فعل شرلأقوه والأسر المتنفذة. أرسلوا إليها عربة يجرها ثوران من الذرة الصفراء. وبعدها أرسلوا لها من القماش والخراف بضع مرات. قالت لاشين إنها تفضل الموت على أن تأخذ شيئاً من تلك الأسر؛ فما العمل: من المريب أن ترفض المعروف على مبدأ: من يرمك بالحجر فارمه بالجن. كانت السنوات الأولى صعبة ولكن الأولاد الكبار استطاعوا أن يعيلوا أنفسهم. وبداد فرح بأسرته الصغيرة. وموسى

وكريم وصباح ولاقه ورشيد جاهزون منذ اليوم لتأسيس أسرهم. والآخرون الأصغر سناً ينشؤون أذكفاء واعين. ورغم غياب الأب عن الأولاد يطيع بعضهم بعضاً ولا يقتفون أي نوع من الشرور.

حالياً لاشين راضية عن أبنائها. بالطبع بداد يعيش مستقلاً، وباراً بوالدته. وليس عليه أي ملاحظة من هذه الناحية إلا أن تأخذ عليه تجاوبه الزائد مع الأسر المتنفذة؛ ولا يعرف لماذا. وحين يفكر لا يفهم البداية. آل حاغور ليس لهم إلا احتقار الأسر المتنفذة. في حياة الزوج وفي غيابه لم يكن حديث في الأسرة غيره. لماذا ليس للفلاحين في الدنيا بارقة أمل؟ ولماذا يعيش المتنفذون بألسنتهم المخادعة على حساب الفلاحين؟ كانوا يسمعون هذه الأسئلة دائماً من الفلاحين. أما بداد فيتصاغر أمام المتنفذين كأنه لم يسمع قط بهذه الأسئلة. ويغير طريقه من أجلهم بسبب أو دون سبب.

فيما لاشين جالسة تفكر بهذه الأمور أجفلها نداء امرأة. ولما نظرت رأت أكوز تنظر من وراء الباب.

- تفضلي يا صغيرتي، تفضلي!

- حياك الله يا لاشين، أرسلتني تطلب أن تزورها إن لم يكن صعباً عليك.

- وما حاجتها إليّ؟

- لا أعرف يا لاشين، أمرتني فأتيت.

- نعم يا صغيرتي، نعم... لا عتب لي عليك.

وفيما المرأتان تتحدثان خرج من زاوية البيت حاغور موسى وعلى كتفه الشوكة. ولما رأى أكوز خيل إليه لبرهة أنه توقف، ثم دنا منهما خجلاً مما يفعل:

- ماذا يا أكوز؟ ألا يسمح لك بالدخول؟

- تحارك سعيد يا موسى، - حُيِّل لأكوز أن الأرض تحسف بها، وسرت على وجنتيها حمرة الحياء. - أرسلتُ إلى لاشين. أنا منصرفة إذن. - ومضت.

تابعت لاشين بعينيها الفتاة مدة ناسية وقوف موسى إلى جانبها. وقالت

لنفسها: سعيدٌ من ستصبح هذه الصبية من نصيبه. جميلة كالصورة¹، وحلوة الطبع، مهذبة.

- ما سبب مجيء أكويز يا أمنا؟

- أرسلتها ورائي السيدة الكبرى لأسرة شرلأقوه.

- أتساءل لماذا لا تترك هذه المرأة؟

- يا حسرتي، لا أعرف.

- لن تذهبي يا أمنا!

- وأنا يا حسرتي لا أريد هذا يا ولد.

- ألا يكفي عملي في دارها؛ لا يمكن أن تكوني أنت أيضاً فيها. ماذا يمكن

أن يكون بين داريت سيدة آل شرلأقوه وبين لاشين أم الإخوة موسى؟ لا أريد

يا أمي أن تصغري في حضرته. يكفي ما فعل المتنفذون بوالدنا. بهذه الطريقة

بدووا يضمون بداد إليهم. يجب أن نحدث بداد يا أمنا. وإلا سيبقى معلقاً بين

وضع الفلاح ووضع العبد! سأذهب مساء إلى بيت شرلأقوه وأخبرهم أنك

متوعدة. اطمئني، متى صارت داريت تشتاق إلى نساء الفلاحين؟ ستجلسك

أمامها بلسان معسول، وتصرفك مع ثوب عتيق زائد عن حاجتها كما فعلت

في الماضي!..

- ما أحوجني إليه!..

...

مضت عدة أيام.

خرجت داريت فيما موسى يعمل في الدار. هبت نار الغضب في صدرها إذ

تذكرت عدم تلبية لاشين لدعوتها. ثم لم تستطع إلا أن تسأله بمحدد ظاهر:

- كيف تقضي والدتك الجميلة المتكبرة وقتها يا حاغور؟ لا يجوز أن تدير

مؤخرتها لمن يرسلون وراءها باحترام.

- أما أخبرتك يا داريت أن أمنا كانت متوعدة؟ - أجب موسى بجفاء

¹ تعبير لا يزال دارجاً.

ضابطاً أعصابه.

- أرسلت وراءها بعدها أيضاً ولم تأت. لا تُقاطِعنا! لسنا من آل أباته، نحن شرلاًقوه... هل تعتدّ بأولادها التسعة؟!

-5-

سمع أكجكوه أنزور طرق الحداد فلم يستطع البقاء في أرض الدار. قال لنفسه: سأتوجه إلى بترز شعبان وأرى الوضع. لا بد أن الفلاحين تجمعوا عنده. ومطرقته لا تعرف الراحة. هو حداد صادق وإن لم يجبر رجل الولد يومها على نحو صحيح. ييـث الروح في ما يمد يده إليه. ولا يفارق فرسانُ الشابِغ، بل فرسانُ الوبيـخ والأبـزـاخ باب ورشته.

ليست ورشة آل بترز داخل باستوك ولا خارجها. تبدو من تحت المرتفع إن درت حول القرية. مبنية بالحجر من ثلاث جهات، والباب المصنوع من العيدان مفتوح ليلاً ونهاراً. وعلى الباب مربطان للخيل. ومن الجبل تأتي ساقية بُزَاب الصغيرة، يسبقها ضجيجها. ثم يصب في نهر إيل. وفي أرض الدار قطعة حجر كبيرة تُصلح عليها عجالات العربات. ليس في بناء الورشة باب. وبدلاً من قائمتي الباب تبرز بضعة أحجار من الأرض. ومن أحد الجوانب نافذة من الأخشاب والعيدان. وفي مكان آخر يرتفع موقد مبني من العصي والطين. ولولا الموقد ما كان لأحد أن يعرف أن هذا البناء ورشة حدادة.

نظر أكجكوه نحو الورشة فلم ير فلاحين كما توقع. كانت خالية خلافاً للعادة. والمربطان يبدوان كأنهما سئما من الانتظار. نظر نحو باب الورشة عسى أن يكونوا متجمعين هناك ولكن لم ير حتى قبعة واحدة. الدخان يتصاعد من الموقد، والطرق على السندان يتصاعد. وحصى ساقية بزَاب يُصم الآذان.

وصل أنزور إلى حيث عجلة العربة فرأى شعبان مشمراً عن ذراعيه:

- تفضّلْ يا أنزور، تفضل! - قابله الحداد بوجه طلق.

- أين اختفى الفلاحون الذين يجتمعون هنا ويمنعونك من العمل؟

- لا أعرف ما جرى لهم؛ لم يظهر أحد منذ الصباح.

- سمعت رنين سندانك، فخلتُ أنك تنجز عملاً كبيراً، فجئت.
- لا عمل مهماً، بعض الأمور الصغيرة.. - قال شعبان وضحك. وسأل وهو يُخرج من خزان الماء الخشبي قطعة حديد باردة: - كأنك راجلاً يا أكجكوه؟
- هل تريدني أن آتي فارساً؟
- ظننت أنك جئت لتنعل الحصان المسرح الذي أهداك إياه شرلاًقوه... - كانت مزحة بترز شعبان مبطنة.
- يا مبارك النسل ألن تتركوا موضوع هذا الحصان يوماً ما.
- أراك ستغضب يا أكجكوه؟
- ما تقوله عجيب يا شعبان، - عاد أكجكوه إلى وعيه وابتسم: - وهل أغضب بهذه السهولة؟ تباً لهذا الحصان، لم يبق فيه حلاوة الهدية!.. بل لم يكن فيه أي حلاوة من الأصل.
- لن تنطق بأصدق من هذا ، - كان عليك أن ترفض عطية آل شرلاًقوه. صفعوك ثم مسحوا على رأسك... -
- والله أتفهم الأمر يا شعبان. والحصان في داري رغماً عني. شجعني حاغور وجماعته، فأخذته محرّجاً. لم يعد الحصان مشكّلة، بل سلوك شرلاًقوه العجيب معي. ينظر إليّ كأن له ذيناً عليّ. وأعتقد أنه يريد مني امتداحه. وإن صادفته لم يتجاهلني. يدعوني متى جاءه ضيف. وحين بالغ في الإلحاح عليّ ززته قبل أيام، وعدت ألوم نفسي: آل شرلاًقوه يحبون أن تجلس على طرف مائدتهم... -
- دخل بترز شعبان إلى الورشة فدخل معه أكجكوه. أمام الكير حطب كثير. وريثما تحدث الرجلان تكوّن فوق النار شيء من الرماد. تحت النار قطعة حديد. وبنفخة واحدة من الكير تنفست النار. وفي الحال ارتفعت النار في الجمر حمراء وبعدما نفخ في الكير بضع مرات أخرج قطعة الحديد المتوهجة من النار، وبدأ يطرقها فوق السندان. وعلى نحو لا يبدو معه شعبان مستعجلاً على الحديدية الحمراء، ظل يطرق القطعة حتى رقت وصارت عريضة. فهم أكجكوه ما ينوي شعبان أن يفعله بقطعة الحديد، فمع الوقت تتحول إلى ما يشبه الخنجر لولا أنها كبيرة، أو السيف إلا أنها صغيرة.

- الآن استريح يا حلوتي قليلاً، واكتسبي القوة. - وحين رأى الحديدية تبرد ألقاها في الماء، فأصدرت صوتاً هائلاً وبخاراً كثيفاً. - قال أكجكوه: - يا بترز، ما تصنعه الآن، أخمن أنه خنجر ولكنه كبير، وأخمن أنه سيف ولكنه صغير.

- وأنا أقول هذا : ليس سيفاً ولا خنجراً. هو بينهما. إذا قارنته بالسيف فهو أقرب إلى الخنجر - إذا ضربت به الحجر لم يفلّ حده، ويمكن أن تقطع به شجرة البقس. أريد أن أسنّه حتى يناسب ساعد من أصنعه له، وإذا قيل هذه صناعة بترز لا ينجح الصانع منه.

- حقق الله مرادك! من تراه جديراً به فتصنعه له؟

- من ترشّح له؟

- في الشابسغ كثيرون جديرون به.

- إن كان هكذا فالأحق به من غيره شباكوه.

- هل ترجّحك شباكوه؟

- لا، لم يفعل. ولا يعرف أي أصنعه له، بل كنت قررت أن أفعل شيئاً يسره. فكرت فقررت أن أهديه مع السرج سلاحاً بين الخنجر والسيف أصنعه من قطعة فولاذ قاسية ورثتها من والدي. منذ أول يوم رأيته فيه وثقت به. ولي رغبة في مصادقته ولو أنه أكبر مني عمراً. ليس شباكوه من الرجال الذين يتخلون عنك في المواقف الحرجة. أغبطك يا أنزور على هذا الصديق.

- وما رأيك في وستقوه إذن؟

ضحك شعبان والعرق يتصبب منه:

- ماذا يقال: كلُّ امرئٍ صديقُه مرآته.

- وأنا أنظر إلى وستقوه بعين الرضا. وهو من قَرّب شباكوه إليّ، وجعله صديقاً. حياك الله يا شعبان، هذه قيمة عظيمة. رحل والدنا عن الدنيا وهو يردد: الصديق نصيب عظيم. فتح الله باب الجنة عريضاً أمامه.

تذكر أنزور رحلتها من الناختوي إلى البجدوغ، ثم إلى الأبراخ. وأينما حلّ شباكوه أحمد فله صديق. يعرفه الكثيرون، رأى بعينه احترام الناس له، لا في

البجدوغ فحسب بل في الأبراخ أيضاً. نزلا في ثلاث قرى فلم يبق أحد لم يرحب بهما ولم يدعهما إلى المنزل. مفهوم أن يعرفه الرجال، ولكن لا أعرف من أين تعرفه العجائز. قابلنا أيضاً من عرفوه ولكنهم لَوُوا أعنتهم. هؤلاء لهم وضع آخر. لا ينطبق عليهم لقب الصديق. العدو عدو في كل زمان. سيان ألا يكون لك عدو وأن تكون رجلاً بلا قبة.

- لا تخبره يا أكجكوه بقصة السلاح هذا الذي أصنعه له. قد لا أستطيع إنجازه كما أريد.

- أنا واثق من أنك ستقتنه. لا تقل هذا! إن كنت تريد أن تقول: لا تشمر عن ساقيك قبل أن تعبر المخاضة فأنا أوافقك. لن أخبر شباكوه، ثق بي!.. بعد وقت الإفطار تجمع الفلاحون في الورشة. يتشمسون وهم يدخنون، ويحكون الأخبار. وكير بترز شعبان لا يتوقف. وطُرُق سندانه يعلو.

- حنانا، إرو لنا كيف يصوم الأبراخ رمضان. - رجاء أحد الفلاحين.

- أهى طريقة صيام الأبراخ الملتحين ما تسأل عنه؟ - بدأ حنانا مسروراً بالسؤال وهو يمالأ غليونيه: - جيراننا الأبراخ يعيشون حياتهم وهم يظنون أنهم يُحرمون من شيء ماء، ويفوتهم ما يحدث في العالم. الشابسغ، - تظاهر الراوي بالنظر يميناً ويساراً، - قبل أن أبدأ إن كان بيننا من يمت بأصله للأبراخ فليقل... ليس بيننا؟.. والأفضل ألا يكون... نادى كبيرهم من أجل أن يبدؤوا الصيام في وقته: "إيال!" أجابه "ماذا؟". هيا يا ولد توجهْ إلى جيراننا الشابسغ واعرف منهم متى يبدأ رمضان. انطلق قائلاً: "حالا!". حين عاد إيال سأله كبيرهم: ما الخبر الذي جئت به يا إيال. أجاب: والله يا كبيرنا لم آت بخبر مهم. لما انحدرت من الجبل رأيت الشابسغ على الساقية يغسلون أيديهم، ويمسحون آذانهم، فرأيت من اللباقة أن أفعل مثلهم فقلدتهم "ثم يا إيال؟" قاموا فدخلوا بيتاً كبيراً فدخلت معهم. وفيما نحن مجتمعون خرج رجل عبوس ووقف أمامنا. ظل يصيح ويجلس على ركبتيه فجلس، ويضع رأسه على الأرض فنضع، ونبعد بين راحت أكفنا وهكذا قادنا على نحوٍ ممتاز. "ثم يا إيال؟" ثم خرج أحد الكبار في العمر وحدث الرجل العبوس بما لا أدري، وخوفه. ثم

لما رأيتهم يتفرون انصرفت معهم ورجعت يا كبير". "والله يا إيل لم تأت بخبر طيب... صليت معهم صلاة العيد ورجعت... غفر الله لنا إذ أفطرننا قبل أن نبدأ رمضاننا..." - قال الكبير.

تضاحك الجالسون.

وفي الحال رأوا ثلاثة فرسان أغراب عن القرية قادمين. وليسوا من الويخ بدليل طريقة امتطائهم الخيل، فالويخ يهزون برؤوسهم على حركات الحصان. وليسوا من البجدوغ فهؤلاء يلتصقون بالسرّج. فمن هؤلاء القادمون؟

- أيها الشابسغ. أظننا انطبق علينا المثل القائل: "من تأت على ذكره تجده على الباب". - استعجل حنانا، - ألا ترى إلى طريقة ركوبهم؟ إنهم أبزاخ! توقف الفرسان الثلاثة وكلّ منهم يفوق الآخر بلحيته وشاربيه، وألقوا التحية. ونهض الفلاحون الشابسغ وردوا التحية.

- نريد مقابلة بترز، - قال كبير الثلاثة.

- أنا هو. - خرج شعبان من الجمع. - تفضلوا!

- إيل، من نريده هو والدك.

- لن تجدوا والدي.

- أين هو؟

- نائم هناك. - أشار شعبان إلى المقبرة التي تلوح غير بعيدة.

- وهل أنت بترز الحداد؟ - سأل الكبير كمن لم يحدث له شيء، وأضاف:- الحقيقة أن سليم كبيرنا أرسلنا لنأخذ الخناجر.

دخل شعبان دون تعقيب، وأتى بخنجرين ملفوفين بخرقه ملونة، ومدّهما إليهم. - بلّغوا الكبير سليم سلامي.

- وعليكم سلام، سنوصل تحيتك. فارقناكم بخير أيها الشابسغ. - وانصرفوا. انفجر بعض الواقفين ضحكاً:

- ما تفعلونه عيب، - لم يقبل أنزور تصرّفهم. - إن سمعونا عابوا علينا!..
اختفى الفرسان الأبراخ الثلاثة وراء المنعطف وكأنهم يسدون الأفق بأكتافهم العريضة.

مضت ثلاثة أيام وداريت لا تعي ما تفعل: تعثر بما تمسه، وتصدم من تصادفه. لا أحد يعرف ما جرى لها، لا خادماؤها اللواتي ينتظرن إشارة منها، بل تتحرش بقطتها البيضاء الهادئة التي اعتادت أن تنام على قدميها.

- ابتعدي عني أيتها القبيحة! تتظاهرين معي بأنك هادئة. - ركلت القطعة المسكينة التي دنت منها تتودد إليها، وتمسح على قدمها، - أكوز، ألم تسمعي يا أكوز؟.. - نادى داريت من غرفتها. فهُرعت إليها الفتاة في الحال. - هاتي لي غطاء الرأس!

نظرت أكوز إلى الغطاء الملقى على مسند الصوفا، ثم نظرت إلى غطاء رأس سيدتها الملفوف كقبعات الحج. مدت أكوز إليها الغطاء فهجمت داريت عليها وأمسكت بيدها. تمسك بيد شعر أكوز وبالأخرى تشد شفتيها. لم تنبس أكوز بكلمة. كان هدف داريت أن تؤلم أكوز وتدفعها إلى الصراخ، ولكن أكوز تتحمل. ولما رأت الفتاة لا تصرخ أفلتت شفتيها، وهجمت على النهدين الصغيرين الصليبين. ولما قرصتهما صرخت أكوز عاجزة عن الصبر.

- يا لشماتي فيك! - قالت داريت كأنها نفثت من فمها السُّم الذي ضاقت به، ولمعت عيناها. - الآن انشرح صدري.

ومن الغرفة الأخرى جاء علي سلطان على صوت أكوز:

- بالله عليكم! ما الذي يجري هنا؟

- قامت في بيتنا ثرثرة تصرعنا بالصوت... - نظرت داريت وهي تعيد الغطاء إلى رأسها إلى أكوز الواقفة على الباب دامعة العينين. - ألا ترى كيف تبكي الكلبة الطائشة!

- لم أفتح فمي وأوجه كلمة لوالدتك يا علي سلطان، والسماء تشهد لي!.. - انفجرت أكوز باكية، تريد الهروب من البيت ولكنها لا تملك أمرها. ستزيد المصيبة مصيبة كمن يصب الزيت على النار.

- ابتعدي عني، لا تُريني وجهك يا طائشة!.. - لم تجد داريت تحت يدها إلا الغطاء، فخلعته عن رأسها ورمته به الفتاة.

هربت أكوز من الغرفة مرتعبة. نظر علي سلطان إلى أمه وإلى الفتاة. والتقط الغطاء من الأرض. ولما لم يعرف ما يفعل به، مدّه إلى أمه، وألقاه على الصوفا. - ما تقولينه وما تفعلينه بحق هذه الفتاة لا يجوز يا والدتنا!..

- هل والدتك من لا تساويها بالخدمة؟! - نهرت داريت ابنها. - لا تنظر إليّ هكذا على طريقة آل شرلأقوه!.. أنا من لا تتعبون من عتابها، أنت ووالدك. قتلتماني، ولم تُسعداني. لو لم أكن مجنونة لما قطعت هذه المسافة لأربي أولاد شرلأقوه. مهما قلت لهم لم يتقبلوا كلامي. يعيشون لا يستشيرون أحداً!.. - يا والدتنا، ما الخطأ في طلبي منك ألا تتناحري مع الفتاة؟..

- هذه ليست فتاة بالنسبة إليك، بل خادمة!.. صرخت داريت على ابنها ثانية وهي تصلح شعرها المشعث. - لا تُسمِعي بعد الآن هذه الكلمة. سأرسلك أنت وفتاتك إلى الجحيم! أي عادة بدأت بها؟ أنسيت أنك الأمير الشاب؟! ألا تعرف أنه ليس في دار شرلأقوه من يساوي ظُفرك؟ ليسوا وحدهم بل معهم الشابسغ والأبزاخ كلهم. أم تحرّك شيء في قلبك تجاه من تتألم لأجلها؟!

- يا والدتنا!.. - نطق علي سلطان اسم أمه يغلبه الخجل. - ليست أمك!.. - منعت داريت ابنها من الكلام وقد اكتسبت قوةً من تراجع أمامها. - كلامي، لا كلامك! - لا أقول ما يجري على لساني بلا أساس. أنت لا تعرف أنني أعرف ما في قلبك. لا تتظاهر بالجنون على طريقة والدك!..

من الواضح أن داريت تتحامل على الفتاة الخادمة منذ هذا الربيع. في البداية لم تجد نقطة ضعف لمهاجمتها، كانت داريت تستقبح ما تقول الفتاة وما تفعل، تعلّق على طريقة وقوفها وجلوسها. بل كانت تجد ما تعيبه على الفتاة حتى في غيابها. ثم فهمت داريت ما لم تكتشفه في نفسها من سبب كُرهاها لأكوز. مظهر أكوز الجميل والمحجب للنفس يراه الكثيرون، لا داريت وحدها. بدأت في البداية تهم بمظهرها حتى لتظنها تغار من الصبية. ثم بدأت بتجميل وجهها، وفي هذه الأثناء بدأت تفكر في طريقة إزاحة أكوز من وجهها. وكان من بين

الذرائع ما قالته الآن لابنها.

ومع مرور الوقت لم تمد أفكارها جذوراً فحسب، بل لم تعد تثق بزوجها. ولما أطلعتها على الأمر صدق لحظة فغضب، وبعد مرور بضعة أيام رفض أقوالها واصفاً إياها بالجنون، وأسمعها كثيراً من الكلمات القاسية.

- رجاء يا أمنا لا تقولي مثل هذا!.

- أقول لأنك تدفعني إلى القول. وهل تظن والدك أفضل منك؟.. أين غارق هو الآن؟ يخرج مع الفجر ويعود في منتصف الليل. لا أعرف ما العمل الذي لا ينتهي منه. ومهما قلت له ابتسم وتحرّب من الجواب. وهل بنى آل شراًقوه هذه الجدران العتيقة الأربعة لي؟! لا يختلط بنا أحد، ولا نختلط نحن. لم أعد أعرف أن في الدنيا وجوهاً غير وجوه الفلاحين المقيتة. ولا أذكر منذ متى لم أزر أهلي...

وفي تلك اللحظة ابتكرت داريت فكرة زيارة أهلها:

- هيا اذهب ومرهم بتجهيز العربة، سأزور أهلي.

- وأين ستذهبن يا أمنا وقد انتصف النهار؟ الأفضل أن ننطلق غداً وأمامنا النهار. ووالدنا ألن يعود إلى حينها؟..

- ومن يسأل عن والدك؟! وما العجيب إن انتصف النهار؟ من أزورهم هم أهلي. هؤلاء ليلى نهارهم، ونهاري ليلهم!.. ألم أطلب منك أن تأمر بإعداد عربة؟ وأين اختفت هذه الطائشة الصغيرة؟ ألم أنادك يا أكوز؟.. وأنت أيضاً جهزي نفسك!.. - قالت لأكوز التي تصحبها إلى كل مكان تلبسها ثيابها، وتخلعها عنها. وتسرح لها شعرها وتضفره... - اصطحي أفضل ما عندي من ملابس. سأبقى في بيت أهلي حتى يهدأ قلبي!..

في منتصف النهار خرجت العربة من دار شراًقوه، يقودها حاغور موسى، ويحرسها ثلاثة فرسان، وتوجهت إلى آل أنزور، أهل داريت. حقاً هدأ قلب داريت مع فكرة السفر إلى أهلها، ولكن الوسوس تلتطم في صدرها. ليس لأنها تسافر دون علم الزوج، وليست أول مرة تفعل فيها هذا، ما يفتك بها شيء آخر: حين آلمت أكوز في صدرها ظنت أنها نفّست عن غضبها ولكن

وضّعها صار إلى الأسوأ. النهار الخريفي صحوٌ ولكنه غائم في عيني داريت.
والحشيش الناعم الذي يعلوه الفراء يثير القلق في نفسها. وعجلات العربة تظنها
تمشي على جلدها. بل إنها لا تطيق اهتزاز أفخاذ الثورين أمامها:

- يا حاغور ألا يسمحون لك بتزييت عجلات العربة؟

- لا أعرف لماذا تقولين هذا، أزيّتها طبعاً.

- هذا يعني أنك لم تزيّيت جيداً؛ إنها تصرخ!..

- لا تعانديني يا داريت، - التفت حاغور موسى إليها.

انطلقت العربة قبل أن تجد داريت الفرصة لتجيب إجابة قاسية. ولما بدأت
العجلات تقفز نسيت ما خطر لها. ارتابت في أن هناك نية لقتلها بحادث
للعربة فبحثت بيديها المرتعبتين عن جدار العربة حتى أمسكت به. رأت أكوّز
الجالسة وراءها حركتها فابتسمت.

- كأن هذا الرجل يريد أن يقتلنا بالعربة!.. - غمغمت داريت، وألقت نظرة
مخيفة على أكوّز.

عادت العربة إلى اتساق سرعتها بعد النزول من المرتفع. وارتاح جسد داريت
كأنه كان منفوخاً فانفجر. وبدأت الثورة التي رانت عليها ثلاثة أيام تنحسر.
وانتهت إليها السحابة الوحيدة التي تمزقها حافة الجبل الصخرية من جهة
الغرب. والتمتع في صدرها الإحساس بخطأ قرارها اليوم بالسفر إلى أهلها. ماذا
سيقول الرجل متى عاد ولم يجديني؟.. لم أسمع من جهتهم أي خبر أتخذه حجة
للسفر.

- توقف لحظة يا حاغور!.. - صاحت داريت كالرجال، وقالت لابنها: - يا
صغيري، يا ولد، عُد بنا إلى القرية!

- ماذا؟.. - سأل علي سلطان أمه غير مصدّقٍ ما يسمع.

- أريدك أن ترجع... تركنا البيت بعهدة الفلاحين ومشينا. سيبحث عنا والدك
متى عاد. لا يا صغيري ارجع... ماذا سيجري لنا ومعني ثلاثة رجال كبار. لن
أغيب أكثر من بضعة أيام. أخبر والدك ألا يقلق علي... عد، عد!..

- والله أنا كان بودي أن نسافر. مضى وقت طويل لم أر فيه حاج عمر.

اشتقت إلى إخوتي الكبار والصغار.

- لا يا صغيري، يسرني أن تعود. سأبلغهم اشتياقك إليهم. وأفرحهم. هؤلاء الطيبون يحبونك. سيسرهم...

عاد علي سلطان ممتعضاً.

تعجب من في العربة، والفرسان وراءها من سلوك داريت. ومن كان في أزمة هو حاغور موسى: يريد أن يلتفت إلى الورا ولكن لا يجد من اللاتق أن يفعل هذا. داريت بينه وبين من يهواها قلبه مثل كومة من القش. لم يكن أحب إليه من أن يحل محل أحد الفارسين وراء العربة، كان سيمشي يحدث أكوز بقلبه وعينيه بما لا يستطيع بلسانه، دون أن يوحى بالشك إلى أي من الفلاحين. التفت موسى وإن لم يكن يجد الالتفات من اللاتق، ولكن من فعل لأجلها جالسة وراء كومة الحشيش لا تظهر. قال حاغور في نفسه: أنا أعرف ما تستحقين يا داريت: أن أسوطك بملء حريتي!.. كنت أنسيتك غضبك. وجعلتك تلتقطين بأسنانك ما تركلنه برجلك!.. كنت انتقمت لأكوز أضعاف ما تسومينها من العذاب... دلوك فأفسدوا لسانك!..

خرجوا من الغابة وتسلقوا التل، فرأوا البحر الأسود من بعيد يبدو تحت قبة السماء، والشمس تعلوه حمراء قانية. وفيما يلتفون والبحر إلى يسارهم دخلوا ظاهر قرية جُبُغ سريعاً. ولم يبق للوصول إلى قرية كداق حيث يقطن آل ناورز إلا مقدار غلوتي حصان. وفيما يتأمل مرافقو "العروس" البحر لم ينتبهوا إلى الفرسان الثلاثة الخارجين من وراء المنعطف. لفت انتباه موسى وقع الحوافر فانتفض برأسه فتعرف على الأوسط من الفرسان الثلاثة: أباته قازجري.

أصلحت داريت من وضع غطاء رأسها، ومن هندامها. وقفز قلبها.

- يا عجي مما أرى: أليست داريت!.. - ترجل أباته بكل ضخامته من الحصان، وخرجت النساء من العربة. - ما أحوالكم بإذن الله يا داريت؟ وماذا يفعل شرلأقوه في هذه الدنيا؟..

- نحن بخير يا قازجري. وشرلأقوه بخير... وأنتم ما أحوالكم؟ كأنك نسيت نواحينا تماماً. - لمعت عينا داريت كما العادة كلما رأت قازجري. وتظاهرت

بإصلاح غطاء رأسها. - لم يبق عندك رفاق وأصدقاء... شرلاًقوه لا ينفك عن
ذكرك متأملاً أن تزوره...

- وأنا أود أن آتي إلى نواحيكم يا داريت، - قال أباته فازجري بعدوبة مبتسماً
من تحت شاربيه، وتغير منظر عينيه، - تعرفين أن الأيام تمضي ونحن نؤجل من
يوم لآخر... والله أسعدني لقاءنا يا داريت... للأسف ما كان مثل هذا ليخطر
لي... أنتم على طريق، تعالوا. نوصلك إلى المرتفع وإن لم نوصلك إلى كدق.
يلّغي سلامي إلى الكبير الحاج عمر. لا ينسنا؛ ليزرنا من وقت لآخر! وكذلك
شرلاًقوه... ما تقولينه يا داريت غير جائز... كيف لا نمشي معك؟ إذا كان آل
شرلاًقوه نسوا تقاليد الأمراء - النبلاء فآل أباته لم يتخلوا عن هذا التقليد!..
- مزح فازجري مع المرأة، ونهر الفارسين الفلاحين وراء العربة باحتقار، مستاءً
من اضطرابه للحديث معهما: - هيا ابتعدا إلى أمام العربة!..

-7-

وقف علي سلطان بعض الوقت لا يعرف إلى أين يوجه حصانه. تابع العربة
والفارسين وراءها بشيء من الحزن القليل حتى اختفيا. وما لا يفارق ذهنه هو
طريقة غضب والدته. حقاً إنها، سواء صدّقنا والده أم لا، صعبة التحمل. يتغير
مزاجها في اليوم الواحد بضع مرات. تتصرف تبعاً لنزواتها. ما الذي جعلها الآن
تقرر دون مناسبة زيارة أهلها؟..

لم يكن علي سلطان يود الرجوع إلى البيت. يُحِبُّ إليه أنه في أرض غريبة ليست
أرض باستوك التي ولد فيها. ابتعد عن الطريق إلى المرعى واتجه إلى الجبل البعيد.
توقف غير بعيد عن شجرة بطم شعناء، ووجّه رأس حصانه إلى الغرب. تحت
حوافر حصانه مضائق الجبال والغابات وأطراف الصخور المربعة والسواقي، بما
فيها نهر إيل. وكلما انقضى الوقت ونقص من النهار تسللت الشمس الغاربة
أيضاً خفية إلى تحت حوافر ذلك الحصان.

نظر علي سلطان نحو الغرب شاعراً بأن المنظر الجميل أمام عينيه يشرح قلبه،
ويسرّ نفسه. غير أن كلام أمه المُغرَض بشأن الخادمة ما يزال يثقل على

الصدر. ومهما حاول تجنّب التفكير في كلامها اقتحم ذهنه، وسكن رأسه. لا يعرف في نفسه أي عاطفة نحو هذه الصبية، فلا يعرف سبب كلام أمه. أمنا تظل تتكلم في موضوع ما. فليس في كلامها ما يدعو إلى التفكير. وماذا سيكون في قلبي نحو الخادمة الصغيرة العجفاء؛ ألم تبق فتيات في أرض الشابسغ؟! وفي الحال ارتسمت في عيني علي سلطان الفتاة التي كانت تجلس في مؤخرة العربة. سمراء ذات وجه صبح كبعض الطيور. والأنف الأحذب قليلاً يضيفي على الوجه المنسجم معه جمالاً لا يعرف وصفه، ليس في سائر الفتيات. لم ترفع وجهها فتتظر إليه طوال جلوسها في العربة. كنت أظن ساقها نحيلتين مائلتين قليلاً ولكني رأيتهما في أحد الأعراس قبل أيام فلم أعرف أنها خادمة أمنا. تقف على الحذاء الخشبي كالرمح. ليست أقبح من جانسور التي امتدح ألقس جمالها، وأراني إياها إن لم تكن أجمل منها. لا أقول إن جانسور ليست جميلة، نظراتها الودودة تقرّبها من القلب، أما أكوز فعندها نظرة ليست لغيرها. حُيِّل لشرلأفوه أنه يسمع وقع حوافر حصان فالتفت. لم ير ما يريه. وألقى نظرة أيضاً إلى المنحدر الحراجي. ونظر إلى أسفل المرتفع الذي يقف عليه. لم يكن أحد على طريق العربات الملتوي كأفعى. ربما كان وهماً... خرج علي سلطان من موقعه وتوجه إلى الطريق. كان التفاح البري المتساقط يملأ الأرض فلا تجد موطئ قدم. يغريك بجمعه، وحجمها أصغر من التفاح المزروع، ولكنها صفراء - حمراء. قطف أكبرها من الشجرة. وأكلها مستمتعاً بالحموضة القليلة فيها. مرة أخرى مد يده إلى الشجرة. قلب النظر في البلاد الجبلية جهة الغرب فارتقى بقلبه إلى بلاد البجدوغ. مهما بدأت يا ألقس في امتداح أرض البجدوغ بلا نهاية فلا مكان يساوي الأرض الجبلية التي ربّوك فيها. أستطيع أن أرى أي مكان من قمة هذا المرتفع. يكفي هذا الشلال بضحيجه لأحب البلاد كلها. انظر إلى الجبل الذي تنتصب فوقه الشمس: تراه يحمرّ حيناً، ويخضر أخرى. ما أعرفه من ميزات أرض البجدوغ الريح والعشب الكثيف في بداية الربيع. ونحن عندنا كثير منه، ولكن خلافاً للبجدوغ يقتصر على المراعي. ينبت في المضائق، ويلتف حول المرتفعات.

وصل علي سلطان إلى بلاده فيما يظن نفسه في أرض البجدوغ. نظر من فوق رأس حصانه فترأى له روث خيل حديث. وتابع فرأى آثار الروث تدخل إلى غابة المرتفع.

تبين أنه واهم في ظنه سماع حوافر خيل. أثر واحد فقط يخرج من بين الأوراق المتساقطة. يبدو أنه فارس وحيد. لماذا لم يقترب منه الفارس الذي دخل إلى عمق الغابة. أقول: لم يري، ولكني كنت في المرعى بحيث كنت مرئياً من جميع الجهات.

من يتخفّ يُضمر شراً. سار علي سلطان بعض الوقت يكبح حصانه. ثم أسرع فجأة. فحاد الحصان الذي لا يعرف ما جرى إلى طريق باستوك. ولما وصل علي سلطان إلى الرابية المطلة على قريته بعدما قطع مسافة غير قصيرة، متوقفاً أن يظهر له أحدٌ في الطريق، اطمأن قلبه. رأى إلى اليسار المواشي ترعى، والفلاحين يعملون في المضيق البعيد.

عاد علي سلطان إلى البيت من طريق غير مستقيم. نظر في البداية إلى جهة مرابط الخيل فلم ير حصاناً. والمكان الذي يقف فيه حصان والده خلف كومة الحشيش فارغ. رأى فلاحين لم يكن يراهم في الأيام السابقة في الدار فتذكر أن أمه حدّرت من ترك الدار لهم. وأبواب الخادّات مشرعة. ويسمع أصوات ضحكات. وعدد من الفلاحين من أتباع تحخوخوه نفافؤه جالسون إلى جانب كومة الحشيش. لماذا اجتمع كل هؤلاء الحثالة؟ لأجل هذا قالوا: من يغب تأكل الذئب حماره. هؤلاء متى ارتخيت ابتلعوك!..

- أراك قاعداً بلا عمل يا تحخوخوه؟ - سأل علي سلطان الفلاح الذي استقبله.

- أنجزنا كل ما في الدار من أعمال.

- قم وصلّ بمن في الدار! - قال علي سلطان وهو منصرف، - ما سبب ضحك هؤلاء؟ أليكون كلبهم أمسك بثعلب؟¹ - أسمع النساء غير متحمل

¹ مجاز عن الضحك بلا سبب.

قهقهتهنّ.

لم يعلق تحخوخوه بشيء. رفع السرج عن الحصان وأعادته إلى مكانه. نَحْمَلْ على شِرْلَاقُوهِ نَاغُوهِ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَمَامَنَا سَيَجْعَلُكَ تَتَرَحَّمُ عَلَيْهِ. لَنْ يَسْمَحَ بِأَنْ يَنْبَتَ مِنَ الْحَشِيشِ مَا يَكْفِي ثَوْرَيْنِ. اكْتَسَبَ طِبَاعَ آلِ شِرْلَاقُوهِ قَبْلَ أَنْ يُولَدَ. أَيْمَكُنْ أَنْ يَظْهَرَ بَيْنَ آلِ شِرْلَاقُوهِ صَاحِبُ قَلْبٍ رَحِيمٍ؟.. وَبِمَ يَفْضُلُ آلُ أَبَاتِهِ وَآلُ أَنْزُورِ وَآلُ زَانِهِ آلَ شِرْلَاقُوهِ؟! هَذِهِ الْأَسْرُ الثَّلَاثُ تَظُنُّ أَنَّ لَا مَكَانَ فِي الْعَالَمِ لَغَيْرِ أَوْلَادِهِمْ، وَعَلَى الْفَلَاحِينَ أَنْ يَعِيشُوا مَخْتَبَيْنِ وَرَاءَ أَسْوَارِ دَوْرِهِمْ، حَتَّى يَمُوتُوا. وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ الْهَوَاءَ عَنِ الْفَلَاحِينَ كَغَيْرِهِمْ. الْأَسْرُ الْمَتَنَفِّذَةُ تَعِيشُ حَيَاتَهَا مَتَعَطِشَةً إِلَى لَقَبِ الْأَمِيرِ. هَذَا الثَّرَاثُرُ الَّذِي يَقِيمُ الدُّنْيَا أَمَامِي الْآنَ لَا يَبْخُلُ بِشَيْءٍ عَلَيَّ إِنْ نَادَيْتَهُ بِالْأَمِيرِ. مَا كَانَ لِيكَتْفِي بِحَصَانٍ وَاحِدٍ بَلْ كَانَ يَعْطِينِي قَطِيعاً كَامِلاً. كَمْ انْتَحَى بِي وَالِدُهُ وَرَاءَ مَخْزَنِ الْحُبُوبِ وَتَوَسَّلَ إِلَيَّ لِهَذَا الْغَرَضِ؟! كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَعْطِينِي مَا يَكْفِي لِأَصْبَحَ مِنْ أَغْنِيَاءِ الْفَلَاحِينَ. وَلَا يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ عَلَيَّ غَيْرِي هَذَا الْعَرَضَ. لَمْ يَصْرَحْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ بَيْنَ الْفَلَاحِينَ مِنْ أَشْكَ فِيهِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ طَلَبَ مِنِّي أَلَّا أُخْبِرَ حَاغُورَ بِشَيْءٍ!..

- إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُونَ إِذْنُ؟ - نَادَى تَحْخُوحُوهُ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ انْصَرَفُوا خَارِجِينَ مِنَ الدَّارِ، - هَلْ أَرَعَبُوكُمْ؟

- وَلِمَاذَا؟ - لَمْ يَقْبَلِ الْفَلَّاحُ حَنَانًا، - وَهَلْ تَظُنُّنَا أَفْرَاحاً حَدِيثَةً فِيرَعِبُونَا؟ - جَلَسْنَا وَثَرَثْنَا، وَعَلَى قَدَرِ اسْتَطَاعَتِنَا تَكَلَّمْنَا بِسُوءٍ عَلَى آلِ شِرْلَاقُوهِ لِأَنَّ هَهُنَا وَاحِدًا... إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الْكَلْبِ هَؤُلَاءِ رِجَالاً فَلْيَقُولُوا فِي الْجَامِعِ شَيْئاً مِمَّا قَالُوهُ تِلْكَ الْمَرَّةَ. سَيَرُونَ مَا نَفْعَلُ بِهِمْ.

تَرَاجَعَ حَنَانًا حِينَ رَأَى مِنْ بَعِيدٍ شِرْلَاقُوهِ نَاغُوهِ عَائِداً، وَارْتَمَى وَرَاءَ مَنْعُطٍ الشَّارِعِ الْآخَرِ. وَمَا كَانَ يَفْكَرُ بِهِ تَحْخُوحُوهُ لَيْسَ عَوْدَةُ شِرْلَاقُوهِ بَلْ عَدَمُ تَوَافُقِ كَلَامٍ مِنْ اخْتِبَاءٍ وَرَاءَ الْمَنْعُطِ حَنَانًا، وَبَيْنَ سُلُوكِهِ. كَلَامُ حَاغُورَ بِشَأْنِ الْفَلَاحِينَ صَحِيحٌ: يُرْعِبُونَ الْقَطْطَ، لَا الْكَلَابَ. كَلَامُهُمْ حَادُّ، وَقَلِيلُ الْفِعَالِ. لِمَاذَا يَحْدُثُ هَذَا؟ نَحْنُ أَكْثَرُ عِدداً مِنَ الْأَسْرِ الْمَتَنَفِّذَةِ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ. وَنَحْنُ

أقوياء، نعرف أننا نرمي جماعة شرلاًقوه في نهر إيل متى رفعنا شوكتنا في وجوههم. وروح الأديغة التي تمنعنا من فعل هذا ليست فيهم. وضعوا جانباً "الأديغة خابزة" وصاروا يستعملون مصطلح "عادات الأمراء - النبلاء". ربما كتب الله علينا كما يقول المتنفدون أن نبقي فلاحين. وإن كان الله قدّر هذا فأنا أعرف كثيراً منا صاروا أغنياء. وبيننا من ارتقى إلى مرتبة النبلاء. لا أظن كوننا فلاحين قضاءً إلهياً فحسب. هناك عوامل كثيرة نجهلها تدخل في الموضوع. وقد يكون ما لا نفهمه أكثر...

وصل شرلاًقوه ناغوه، وترجل:

- لماذا الدار خالية هكذا؟ - مدّ إليه اللجام ودخل البيت.
"عدت بمزاج جيد جداً ولكنك ستنفجر حالاً" ابتسم تحوحوه. وأصاخ السمع نحو البيت قليلاً، ولكن تلك الناحية كانت هادئة خلافاً لما توقع.
سأل الأب ابنه علي سلطان حين طال غياب داريت عن عينيه:

- أين والدتك، لماذا لا تظهر؟

- أمنا سافرت إلى كداق.

- متى؟

- حوالي الظهر.

- بأي حجة؟

تفحص علي سلطان والده لا يعرف كيف يُخبره بالسبب:

- والله يا والدنا، لا أعرف كيف أروي طريقة سفر أمنا إلى كداق.

هجم القلق على ناغوه الذي كان هادئاً إلى الآن. وعجز عن حلّ سوط الخيل الملفوف على ذراعه، فخلعه، ووضع على طرف الطاولة. ومدّ يده إلى لحيته دون أن يعرف السبب.

- وهل سافرت لأن في بيت أهلها ما يُقلق؟

- لا شيء من هذا؛ ارتح! غضبت فأنهالت ضرباً على الخادمة الصبية.

- وسافرت إلى كداق.

- لا مشكلة إذن، ابتسم شرلاًقوه الأب، - إن سافرت فلتسافر! هي تغير

الجو، ونحن نرتاح قليلاً. كانت أسرة ناورز لا تخلو من مشكلة ما فخلتُ أن شيئاً حدث هناك فأقلقتني. يا للعجب، نحن في مشكلة مع الخادمة. أخاف أن تؤذيها فنقع مع الفلاحين في ورطة لا نهاية لها. لا يوفرون شيئاً بحقنا حتى دون مشكلة. ستجبرني أمك مرة أن أسوطها فتوقعنا في العار. حسناً يا ولد، هذه طبيعة آل ناورز. نزقون هائجون. وخالك حاج عمر من هذا النوع. خنجره مسلول دائماً... - وفجأة احتدّ شرلاًقوه، - الحقّ أيّ طريقة هذه في الذهاب إلى بيت أهلها؟ وهل أنا لعبة في هذا البيت؟ أي اعتداد بالنفس هذا؟ أسألك. - ألا تعرف يا والدنا طبيعة أمنا؟

- أعرف!.. أليست معرفتي هي ما تدفعني إلى ما أقول؟ - لان قلب الأب بعدما صرخ على ولده. - إلى حيث لا رجعة إن شاءت!.. ونحن نستريح...

دفع وقّع حوافر الحصان الذي سمعه الأب والابن إلى النظر عبّر النافذة. خرج ناغوه إذ رأى مامرقوه في أسوأ حال على حصان عار:

- أهلاً مامرقوه. ما أسرع ما عدت! وأيّ حصان تركب؟ ماذا جرى لك؟

- والله لم يجر خيرٌ يا شرلاًقوه، - نظر إليه مامرقوه بوجه متعب، - نهبني الولد المشاكس الذي كنت آخذه إلى الساحل كما ترى.

- والله ما تقوله عيب.

- وما العمل وإن كان عيباً؟ هذا ما جرى لي. لا أعرف كيف رفع جسده عن السرج. دفعني ورماني، وهرب...

وفي الحال تذكر علي سلطان ما رأى وهو على ظهر التل من آثار حصان وحيد.

- هل أنت من توغل وحيداً في الغابة بعد العصر بوقت طويل؟

- لا، لست هو. - أسرع مامرقوه، - هل رأيت أحداً في تلك الناحية؟

- لم أر الفارس، بل رأيت آثاره عند شجرة التفاح البري...

بعد غلوتين أو ثلاث أوقف زيش الحصانين كمن نسي شيئاً. مامرقوه على رجليه، وأنا راكب؛ فلماذا أُسرِع؟ حين كنت أسيراً توعّدت بال الكثير، والآن، وأنا حر، أجري مع الحصانين. هجمت فكرة الانتقام على رأس زيش فتخيل أن قوته تضاعفت. قال لنفسه: سأعود وأدفن مامرقوه بجوافر الحصان، فعاد. وبعد أن جرى بعض الوقت تذكر أن لا سلاح لديه فتوقف. بقي على مامرقوه الذي رماه عن السرج مسدس وخنجر. وليس بالرجل الذي يستسلم إذ رميته عن الحصان.

وقف زيش بعض الوقت كالفراس على مفرق طريقين لا يعرف أين يتجه. ولا يعرف الوقت. والجبل - الغابة حيث هو فارغ قلبه. وفي كل اتجاه التقت الغابة بأسرارها ولا تنوي التخلص منها. علق زيش في الغابة الجبلية دون أن يرى إلا الطريق والفرسين اللذين فاجأه. وفي غمرة أفكاره لم يخطر له أن ينظر جهة الشرق. لم يكن الشاب يعرف؛ وإلا فالنهار كان يأتي من هذه الجهة متمهلاً، مستقبلاً حريته. نظر عبر الريف الصامت فرأى الأشجار تضيء من الظلام، وقمة الجبل الغربي تبدو كسحابة في الأفق. كان زيش يعتقد أنه بلا سلاح، ولكن تبين أن الله جاءه به: على جانب السرج الذي يركب عليه يبدو المسدس.

زيش يركب على حصان غريب وقد منحته أيام الأسر الماضية مزيداً من مظهر الرجولة. والقبعة الفلاحية التي فقدت لوحتها، الكبيرة على قياس رأسه - ربما كانت لوالده - تزيد في عمره. ولولا الحصان المربوط إلى يساره ظننته من الفرسان الوحيدين الجوالين في أرض الأديغة. الإنسان في مواقف الضيق، صغيراً كان أم كبيراً، ترى فيه كثيراً مما لم يكن فيه سابقاً. وما جرى لزيش في شأن والده يجعله رجلاً حتى لو كان الحليب ما يزال يسيل من فمه. أفكاره في الأيام الثلاثة الماضية تحوم فوقه كأفكار ثلاث سنين.

كان قد أقسم أن يقطع رأس مامرقوه فلن يطاء أرض الجمكوي التي دُفن فيها والده قبل أن يبر بقسمه. أيّ الأماكن يقصد مامرقوه أكثر من غيرها؟ سيتجه

إلى القرية التي أخذه إليها قبل ليالٍ، وإلا فأين يذهب؟ وفوق ذلك كانوا ترجّوه أن يعود. ما اسم تلك القرية يا ترى؟ لو كانت الرحلة نهارية لتذكر الطريق. وما اسم الفارسيّين اللذين أوصلاه إلى ظاهر تلك القرية؟ يفكر زيش: قلبه ينطق بالاسمين، غير أن اللسان يعجز.

كانت الليلة الخريفية معتمة حتى لا ترى من يمد يده إلى عينك فلم يتمكن زيش من رؤية وجهيهما. كان مامرقوه أخبره باسم أحدهما. بم كان يناديه مامرقوه؟ خُراً؟ فجأة قفز إلى الذهن اسم خُراً؟ نعم كان يقول: خُراً... نعم بالضبط، وسمّته يردده أكثر من مرة. كان أفضل حل هو أن يجد المكان الذي انتظروا فيه مقاي ال "قق"¹. لا بد أن يمر مامرقوه أو مقاي. كان ترجّى خُراً؟ أن ينتظر مقاي في هذا المكان. وخُراً؟ هو من يجب أن أتبعه. نعم، نعم، إن لم أخطئ فقد كان نطق اسمه. مشى زيش إلى أن صعدت الشمس إلى كبد السماء. ولم يصادفه أحد طوال الطريق. ولم ير أي قطيع على كتف الجبل. أينما أجال عينيه فليس إلا الجبال الصخرية. ظهور الجبال وعرة تمزق السحب. يحدث أن تجد نفسك فجأة مجبراً على النزول من ظهر الجبل، وفيما أنت تنزل ترى نفسك عائداً إلى الأعلى. والطريق متعرج فلا تعرف كم منعطفاً أمامك. وما يغطي كل هذا الجبل غابة لا بداية لها ولا حدود.

أجبر الجوع زيش الذي لم يتناول شيئاً منذ صباح البارحة على البحث بعينه. مد يده إلى الكيس الموضوع تحت السرج فأخرج قطعة جبن يابسة وقطعة من الخبز غير المخمر. لم يكن الخبز أقل قساوة من الجبن كثيراً. عض زيش الخبز فتذكر حفلات الجابشه في الجمكوي. ولو أن والده المرحوم لم يقتلوه بالخنجر بل جرحوه لاجتمعت القرية في حفلات الجابشه حتى يُشفى...

لم يفارق والده ذهنه خلال تناوله الطعام. حتى القليل الذي أكله لم يهنأ به. أكل بدافع الواجب فحسب. عادت الروح إلى زيش لما رفع الإبريق فحسب ليشرّب. كان الجبن والخبز من بقايا مامرقوه. لم يفعل أحدٌ ما فعل زيش كأنه

¹ يعني من يُتأتى في الكلام.

جالس على طرف مائدته. ولماذا يستغرب ما فعل الآن؟ أما أكل أمس بالطريقة نفسها؟ أظعم مامرقوه بيديه الأسير المقيّد على الحصان. وسقاه من الإبريق بيده. الطعام ليس حراماً. أعاد الكيس إلى مكانه، وأغلق فم الإبريق. مشى زبش إلى ما بعد الظهر ليعرف إلى أين يؤدي الطريق. وبعدما خرج من عمق الغابة ومشى خبيئاً بعض الوقت رأى عربات متنوعة تخرج من الجانب الآخر من المضيق. قرر أن يلحق بها، ولكنه لم يكن يريد تغيير طريقه إلى غيره. وفيما هو واقف يفكر في الأمر وقفت العربية بعدما تسلقت المرتفع. وبعد قليل رجع الفارس الثالث.

ترك زبش الطريق، ودخل إلى المرعى ليجد مكاناً لرؤية أفضل للفارس. وقف تحت الشجرة التي تمتلئ بالتفاح البري وانتظره. الفارس ينزل من المرتفع، يخنفي وراء منعطف، ثم يظهر. نظر زبش إلى المكان الذي ينزل منه عسى أن تكون هناك قرية. لم ير شيئاً في المضيق. أليكون الفارس رآه إذ ابتعد عن الطريق ويأتي باتجاه المرتفع الذي هو عليه؟

قرر زبش أن يكتشف النية الحقيقية للفارس فنظر من وراء شجرة. ولما أصبح الفارس وراء منعطف المرتفع خرج من المرعى وتوغل في الغابة. ولما كان من توجه إلى الغرب ليس فارساً من الفلاحين تجنّبه زبش. مشى في مرعى الغابة بعض الوقت، ثم رجع إلى الطريق، ووجّه حصانه إلى حيث سارت العربية.

حثّ زبش الحصانين وصعد إلى ظهر المرتفع. اختفت العربية تماماً. دخل في المضيق الضيق متأملاً أن يراها في منعطف ما، وصعد إلى المرتفع من جديد. نظر فرأى قرية صغيرة، وفي البرية تبدو ثيران الفلاحة مما يدل على أن المسافة إلى القرية ما تزال بعيدة.

فرح زبش كأنه عاد إلى أرض الجمكوي. قرر أن يعرّج على الحراث قبل القرية، حتى يتقرب منه ويعرف الأخبار. كان والدي يتصرف هكذا حين يجد نفسه في أرض لا يعرفها: كان يلتقي بمن في البرية سواء كان راعياً أم حراثاً.

الحراث رُبط إليه ثوران. وأمامهما غلام يمسك بالحبل. ووراء المحراث كهّل. يبدو القسم المحروث من الأرض شريطاً ضيقاً يدل على أن المحراث قطع الحقل مرتين

أو ثلاثاً. وأراضي الجيران محروثة بإتقان:

- بارك الله في محصولك أيها الزعيم الخير، - ترحل زيش، وألقى تحية المناسبة كما كان والده يفعل.

- حياك الله أيها الشاب! - تأمل الحراث الشاب الذي ترحل، - تفضل، أنت ضيف!

- عامر إن شاء الله يا زعيم الخير!.. أعطني يد المحراث واسترخ أنت بعض الوقت!..

تابع الحراث الشاب الممسك بيد المحراث كالرجال، وحكم بأن الشاب سيكون رجلاً حقيقياً. من لهجته ليس من الأبراخ، ولا من البجدوغ، لا بد أنه من الجمكوي. يرتدي قبعته دون أن تغطي الجبين تماماً ولا قفا الرأس، بل الأذنين، كل هذا على طريقة فلاحيهم. أقول كان في غزوة، ولكنه شاب جداً. وإن قلت: لا، فهو يركب حصاناً مجهّزاً بإتقان، والحصان الذي يمسك بعنانه ليس أقل منه تجهيزاً. ربما كان لرفيقه. ولكن أين رفيقه؟... ربما حدث مكروه للولد؛ وأنا سلّمته المحراث وتركته يعمل!..

- أيها الشاب لا يعجبني الحصان المرافق لك.

- قبل أن أجيبك أيها الزعيم المبارك أود أن أعرف اسمك.

- أنا اسمي زُفْباكوه بَجَقان.

- لي سؤال آخر أيضاً يا بجقان إن سمحت. - هل تعرف إن كان خرلأقوه يعيش في هذه الأنحاء؟

- قلت لي: خرلأقوه؟ والله لا أعرف... لا أعرف في هذه المنطقة أحداً بهذا الاسم.

- بلي، التقيت بهم مساء أمس. هل لك أن تفكر أيضاً أيها الزعيم؟ هذا اسمه أو اسم أسرته...

- أتكون تخلط بين خرلأقوه وشرلأقوه؟

- ماذا قلت؟.. شرلأقوه؟ نعم، هذا اسم الأسرة. وهو من أبحث عنه. لمعت عينا زيش فرحاً.

رمباكوه بجقان من أعنف الفلاحين في الشابسغ. ومن أين لزبش أن يعرف هذا؟ اكتشف زبش هذا وهو في أخدود الفلاحة من طريقة كلامه، وعرف أنه رجل حكيم، وليس من النوع الذي يحتمي بأحد. وبعدما جلسا في المساء والرجل يعامل ضيفه باحترام شديد رغم كونه ما يزال شاباً جداً، وبعدما روى له كل ما جرى له، وأطلعته على نيته، قال بجقان:

- فهمت يا زبش، أهانك النبلاء!.. إذا استطعت إلقاء مامرقوه من السرج فهذه بطولة كبيرة. أعرف أن كثيرين غيرك من الرجال الناضجين لا يستطيعون هذا، وهو تنفيس عن ضيقك. إن سمعت كلامي فلا أريدك أن تلاحق مامرقوه الآن. عُذ إلى الجمكوي وزر قبر والدك بمنحك قوة فوق قوتك، وترفع عن والدتك حزنها. تحتاج إلى عدة سنوات حتى تكتشف قوة ساقيك وساعدك. ومتى شعرت بأن قوتك تأتي من منكبيك فاركب بين الربيع والصيف، وعرج علينا. وإلى وقتها سنتنطفئ ثورتك، وتدرك عدالة قوتك. لست وحدك، أنا أيضاً لي دينٌ على مامرقوه. وإن صدف ولم تجديني فأبحث عن شباكوه أحمد من الناتخوي، أو أبزاخ أبده نارچ، أو مجدوغ فوجه لامجي، يدلوك على مكاني...

الفصل الخامس

-1-

آل ناورز من أقوى أسر الشابسغ المتنفذة. متى سافرت إلى جنوب إقليم الأديغة، محاذياً الغرب، وتركت وراءك قرى أباته: ستقاي، وشبُس، وأبن، وأفه، وشَبِق، تدخلها ولا تدخلها، وصلت بعد بضع غلوات للحصان إلى ظاهر أراضي آل ناورز. وقرى جبغ، وبزأمز، ونبل، وطؤزيس، وبسِف، وكُداق، المتناثرة على ساحل البحر الأسود هي منذ الأزل قرى آل ناورز.

الأديغة يشغلون شرق البحر الأسود من الأبخاز إلى جنوب أنابه، ولكنهم لم يكونوا شغوفين بأن يبنوا قراهم بجوار البحر يسمعون صوت أمواجه، وتنسكب عليهم مياهه. كانوا متعلقين، كبارهم وشبابهم بأن يسكنوا والبحر مقابلهم. ولا

يرفعون بيوتهم على أربعة أعمدة سعيًا وراء الجبال. الفضاء الذي يشغله إقليم الأديغة جميل حتى دون البحر. يبدأ الريف الغني بالأرض كحصان بري سريع، بجشد من الجبال والغابات، وخليط من الجمكوي والأبزاخ والبجدوغ والشابسغ والحاتيقيواي والمامكغ والناخووي واليجرقووي والحاتيقيواي والبسلني والوييخ، وينتهي إلى الجبال المكسوة بالغابات إلى الغرب. نسيم البحر في وجوههم، والشمس فوقهم. الأعداء أكثر منهم. لا ينتهون من صراع الأعراق، ويلقون حتفهم في سبيل الرجولة. وإذا كان البدو يرون حياة الجبال حلوة فإن سكان الجبال همُّهم أن يجدوا أرضاً للزراعة. صحيح أن الشابسغ - الناخووي جيران للبحر ولكنهم غير مهتمين بجماله. يجدون راحتهم متى وجدوا في الجبال أرضاً جيدة. يقضون حياتهم والبحر نافذتهم إلى التجارة.

ليس البحر قريباً من آل ناورز كقريه من آل أباته، ولكنه ليس كبعد البجدوغ والجمكوي عنه. وبسبب أنهم يعيشون في موقع ممتاز يختلط بهم المسافرون من جهة القبرتاي نحو القمر، أو إلى إستانبول. ولذا ينجزون أعمالهم التجارية دون حاجة إلى السفر بعيداً. ولما كان القادمون من أماكن أخرى يحتكون بهم فهم يعرفون مختلف الأخبار. يتعاملون في تجارتهم الداخلية تبعاً لأسعار العسل والشمع والصوف وجلود الحيوانات والملح في كابل وكاف وقَبَجَسَراي. ولا يقتصر الأمر على هذا فقد يحدث أن يؤثروا في أسواق البجدوغ. بدايةً طريق كداق هو مفرق الطرق السبعة.

حين بلغ أبناء ناورز الثلاثة مبلغ الرجال وانفصلوا، وجد الحاج عمر حجة في كونه الأصغر بينهم ليبقى في بيت والديه وإن كانت الحياة وحيداً أسهل، فلم يخرج من كداق، ولم يذهب إلى أي مكان. وقد سخر منه أخواه الكبريان طويلاً لأن والده احتفظ بزعامة الأسرة المتنفذة، والإشراف عليه، ولم يمنحها له. يسخران منه قائلين إن كنت بقيت في العش فابق تحت جناحي الدجاجة. ومهما قالوا له اكتفى ناورز حاج عمر بالابتسام دون أن يعير اهتماماً لكلامهما. الأكبران يفهمان وإن تظاهرا بعدم الفهم، أما هو فكان قد فهم منذ زمن بعيد. ما من أحد صنَّع له مهد إلا مات؛ فهل سيخلد والدنا؟! كان

يقول: سيسقط من يده الكبير، فأراه في يدي، كما تسقط المغرفة من يد الخادمة.

وحدث ما توقعه حاج عمر؛ فبعد مُضي عدة سنوات على حياة الأخوين في قرية أخرى توفي كبير آل ناورز. وصارت القرية ملتقى الطرق السبعة كما كان يشتهي. ومع الأيام، وعلى مرأى من الجميع، وعلى استغراب منه نفسه، تتزايد مرابط الخيل أمام داره. ويمتلئ خزان حبوبه. ويرتفع منكباه تبعاً لحجمه، كانت معنوياته عالية فلو أن عنده جناحين لطار بهما خارج أرض الشابسغ.

منذ أن زارت داريت أهلها لم تلتق بأخيها الأكبر كما تشاء. ولا يمكنها أن تلوم أخاها حاج عمر لأنه لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة خارج المضافة. الأمير ججقوه ضيفه. عرّج عليه في طريقه من القرم.

- لم نستطع يا أختنا أن نلتقي منذ البارحة. إياك أن تغضبي مني وتعودي إلى شرلأقوه ناغوه. - التقى حاج عمر بالمصادفة وهو خارج من المضافة بأخته.

- لا، ليس عندي مثل هذه النية. وهل جئت من هذه المسافة البعيدة لأعود بهذه البساطة؟! دُع آل شرلأقوه يشناقون إليّ. سيعرفون قيمتي في غيابي. - ضحكت داريت بوجهها المستدير. ثم استدعته بإشارة من يدها إلى الغرفة. - لم أملك عشية البارحة صبراً فنظرتُ عبر النافذة؛ من هذا الأمير الوسيم جداً؟

- والله أنت خبيثة يا ابتنا¹. تعيشين متشوقة للرجل الوسيم. لو سمع شرلأقوه كلامك لطلقك. - مازحها أخوها الأكبر. وضحكت بحيث لا تميز جدّها من هنزها.

- إن كان شرلأقوه هو من سيطلقني فليفعّل!.. لن يستطيع. - ضحكت داريت بين الجد والمزاح.

- لا يستطيع أن يطلقك، فقد صرت عجوزاً في عصمته.

- وهل ترى عليّ أمارات الشيخوخة؟ - مدّت داريت يدها فأصلحت باهتمام

¹ تكنية شائعة عن الأخت، ولاسيما المتزوجة.

غطاء رأسها، وكيف لا أشيخ وقد رميتوني إلى شراًقوه في قرية تقع في المضيق.

- لا أعرف ما تقولين يا أختنا وابنك في سن الزواج!..

- أأحرم من الذاكرة إن صار ولدي في عمر الزواج؟! - آه منك يا أخي الكبير، لا يزال عندي قلب فتاة حتى إنك لو زوجتني جلبت لك مالاً عظيماً!..

- كفى، أنت ستقولين أشياء كثيرة!.. هيا سأعزفك على الأمير البجدوغ. - أوقف حاج عمر مزاح أخته لأنه اعتاد على سماعه. - الآن حالاً؟

- إن كنت جاهزة فليكن!..

- وهل أقف في حضرة الأمير بهذا الشعر؟! لم تقبل، ونادت: أكوز، أكوز... هذه الفتاة لا تكف عن التجوال كأنها ابتلعت قائمة كلب.

جلست داريت أمام المرأة وأصلحت هندامها كما لم تفعل يوم زواجها. ووقفت طويلاً على أرض الغرفة لا تعرف أيّ ثوب ستلبس. وخرج أخوها من المضافة يسأل إن كانت جاهزة. ما اكتشفته داريت الآن هو أنها سمنت كما لم يحدث في السنوات الأخيرة. النحول سيء، والسمنة ليست حسنة، ولكن ما أروع أن يكون لك قوام رشيق كأنه خارج من خرم الإبرة!.. ألقى نظرة من طرف عينها على أكوز غابطة إياها، ولكن دون أن تغضب عليها. إيه يا زمن، ما أشد ظلمك! ونحن كنا مثل هذه الصبية في زمان ما. وما أكثر شبان الشابسغ الذين تهافتوا علي!.. لأجل هذا يقولون: من يخرّ يخطئ. صرت من نصيب الرجل الوحيد في الشابسغ، أصغر رجل فيهم، لا عليه جلد ولا لحم. من حظي أن علي سلطان ليس كأبيه لوناً وجلداً وقامةً. غلب جمالي وطبعي آل شراًقوه... لم يكن في المضافة كثير من الناس. نهض الرجال لقدم داريت، واستقبلوا بكل احترام المرأة التي دخلت.

- أهلاً أيها الضيف، - ألقى داريت التحية منفعة.

ردّ الأمير ججقوه التحية:

- تفضلي، - ومدّها لها المقعد.
- لا، حياك الله، جئت أحيي ضيفنا.
- من يدعُك إلى الجلوس لن يغتابك بعدُ، اجلسي لا ضير من جلوسك.
- قال الأمير ججقوه، - اشرحي صدور هؤلاء الرجال الجهمين، قد يكون بينهم من يغازلك. لا تستعجلي!
- إن كان بينكم مثل هذا الرجل أيها الضيف فلن أستعجل. - أجابت داريت على المزحة بمزحة. حسناً أنا فعلتُ ما عليّ، ومن عنده مثل هذه النية فليتفضل! - لا يزال العمود الذي كان في غرفتي أيام عزوبيتي، ولا تزال قائمة الباب مخلوعة، أستغرب لماذا لم يثبتوها...
- تضاحك الرجال.
- والله يا أختنا لم تتركي لنا ما نقوله. - قال الأمير ججقوه، ثم أضاف:
- العقوبات التي ألهتنا عما نقول وما نفعل جعلتنا عاجزين عن الكلام.
- من يتذرع بالعقوبات أيها الضيف لا يصلح مغازلاً. - مرة أخرى مزحت داريت.
- لولا رجولة حجمقوه ألقس ريبب الشابسغ تلجمنا لربما لقيت منا ما لا تتوقعين! - قال الأمير ججقوه، وأضحك الجالسين، - والله يا أختي، أنا أعرف وليرضَ الله عنكم آل شراًقوه، الأميرُ الكبير حجمقوه قانشاو راضٍ عنكم في شأن ريببكم. راقبت قبل أيام ريببكم في أحد الأعراس في البجدوغ فأعجبني طباعه وتصرفاته. كلما حان دوره في الرقص ألهب نار العرس حماسة، فلا يبخل أحد بالتصفيق. وكم من البنات فطر قلوبهن، يختلسن النظر إليه!.. وليس آل حجمقوه وحدهم بل كل أمراء البجدوغ راضون عن آل شراًقوه المتنفذين. هذا ما عندي لأقوله عن ريببكم. حقاً لا أعرف ما أقول عنه في موضوع الرجولة، ليس عندي أخبار عن إنجازاته في هذا المجال إذ لم أسمع شيئاً عنها، ولكن لا يُشك فيها. رأيت بنفسي كيفية حمله للسلاح وكيفية ركوبه.
- خرجت داريت من المضافة وقد شحن كلام الأمير رأسها. من حظ الإنسان أن تُكال، أمام جمع من الناس، كل هذه المدائح لريببك. نعم، أنطقك اله

بالخير أيها الأمير، لم نبخل بشيء على ألقس. وحيا الله إخواني الكبار الذين لم يدخروا جهداً من أجل ألقس. لم يذهبوا في رحلة دونهم منذ كان صغيراً، فعرفوه بالناس. ولن يهتمي ربيينا بأحد في ساحة البطولة. ثم إن آل شرلأقوه وآل ناورز لا يفتقرون للرجولة. إن كان في أي أسرة رجولة فهم يعيشون حياتهم يحملونها منذ الأزل. تكفي حكمة الحاج ليذكره الناس إلى الآن.

في الليل حين خلد الضيف إلى النوم، وبقي الأخ والأخت وحدهما، أعادا الكلام في ما قاله الأمير عن ربيب آل شرلأقوه. يحبونه كأنه ابن حقيقي لهم وإن لم يلدوه. سهروا من أجله كثيراً من الليالي، وتحملوا كثيراً من القلق. لم ييخلوا بجهد من أجل أن يقول الناس: ابن الأصول رباة أصحاب الأصول.

- أنا مستعدة أن أذهب إلى أبعد مكان في العالم من أجل أن أسمع ثناء الناس على ربيينا. خطرت لي فكرة المجيء إلى هنا فجأة دون أي سبب ولكني فعلتُ خيراً برحليتي. - ابتسمت داريت من تحت خديها الممتلئين، ونظرت إلى أخيها الأكبر.

- إذا كان الأمير جحقوقه امتدح ربيينا فقدري له هذا. أعرفه منذ زمن ليس من عادته امتداح الكثيرين.

-2-

- لا تُكْمِلْ، - رمباكوه لم ير رجل غابة، - رفض كُنْاي الاستماع إلى الفلاح الذي يروي خبر رجل الغابة الذي رآه رمباكوه بجقان.

- بلى يا كُنْاي، رآه!..

- لا تُكْمِلْ، لم يره.

- ليس من عادة رمباكوه أن يتفوه بالسخافات...

- لنسأله إن لم تصدِّق!

- أرسلوا وراءه!.. - قال الفلاح المستند بظهره إلى السور. ووافقه أحدهم:

- تأخرنا، ليس رمباكوه كسولاً وإن تأخرنا. هيا يا أولاد اركبوا، وبلغوه أن هناك جمعاً من الفلاحين عند كُنْاي، يريدونك في أمر. - قال كُنْاي للغلمان

المحتشدين عند الباب، - عرجت عليه قبل أيام فأخبرتني ابنة آل شُحْبَه أنه يشيِّع ضيفاً من الجمكوي.

منذ زمن طويل يسمع حاغور موسى ذِكر رمباكوه بجقان في الشابسغ، ولكن لم تحن مناسبة يتعرف فيها عليه. كان قد فرح حين أخبروه أن رمباكوه سيزور آل ناورز المتنفذين إذ قرر أن يزوره هناك ويتعرف عليه. ها هم الآن أرسلوا وراءه، وسيتحقق مراده. ولكن ما يكذّره هو قول كُنْاي إنه غائب عن البيت. يا ليتَه تبَيَّن أنه عاد!... رمباكوه صديق حميم لنا تخوأي شباكوه، وأبزاخ نارج. تروى حكايات بطولة كثيرة عنه. من يا تُرى كان جاءه من بلاد الجمكوي؟ ليس ضيفاً عادياً من اهتم بالأمر وسافر لأجله. بجقان له علاقات كثيرة، وله أصدقاء كثيرون. ومن حسن حظنا، نحن الفلاحين، أن يكون عندنا مثلُ هذا الرجل. لولا وجود أسنادٍ مثله لثقلت علينا الدنيا. نعيش حياتنا لا نعرف من أين تأتي الهجمات. رمباكوه أحد النيران التي لا يجروُ ناورز حاج عمر على مدِّ يده إليها. بل لا يجروُ على التعرض للْفُحْها. وما إن يمد يده إليها حتى تحرقه. رمباكوه وسيلة للتنفيس عن صدور الفلاحين، كمن يخرج من البرد إلى الموقد. وهو خير رفيق في الخريف، موسم الحراثة، وفي الربيع موسم البذار، وفي الأعراس، وفي المآتم.

لم يغب الرُّسُل طويلاً:

- لا يزال رمباكوه غائباً منذ خرج.
- والله تأخر كثيراً. - استغرب كُنْاي.
- مؤسف أن يكون رمباكوه غائباً، - حزن حاغور موسى لخبر غيابه، - كنت أود اكتساب صداقته. نسمع أخباره كثيراً، ولا نراه.
- والله لم نعرف أيها الضيف أنك لست على معرفة برمباكوه. - وافق كُنْاي ضيقه حسرتَه، - لن نسمح لك بمغادرة كوداق دون التعرف إليه إن رجع غداً أو بعد غد. رمباكوه ليس من هذه القرية. يعيش في الجانب الآخر من المرتفع في قرية طُوْزيس. ليس بيننا إلا غلوة حصان.
- حياك الله يا كُنْاي، قال حاغور، - وهل تظننا أحراراً في أن نغادر كداق أو

لا نغادرها؟ هذا يتعلق برغبة ابنة قريبتكم. لا تفرح بأمنية حلوة واثقاً منها.

- وهذا صحيح، - وافق أحد الفلاحين الضيف، - آل ناورز مزاجيون، يقولون شيئاً اليوم، ويتراجعون عنه غداً. ثورة غضبهم مثل ضربة سوطهم. ولكنهم يتراجعون عن غضبهم بسرعة. متى غامت عينا ناورز حاج عمر فالأفضل أن تغيب عن وجهه. ففي تلك اللحظة لا يملك نفسه. يصرع من يجده في طريقه.

- وإن قابلته المرأة في طريقه؟ - قاطعه أحد الحاضرين.

- تعرف طعم السوط على ظهرها، ولذلك لا تضع نفسها هذا الموضع.

ليس الشابسغ وحدهم، بل كل الفلاحين من كل مكان، متى التقوا أرادوا معرفة كل ما في العالم من أخبار. ليس عندهم كتاب يقرؤون منه، ولا عندهم دولة قائمة فيأتوا بأخبار الأقوام الأخرى وطبائعها. الشراكسة، دون أي علاقة بغيرهم، كأنهم نزلوا من السماء، يعيشون في قرى وأسر، وفي أعراق، وإمارات مستقلة. يتنافسون على من الأقوى فيهم. يعيشون كأنهم في سيرك للبطولة. لا يعيشون في عزلة عن الناس، فيلى أرضهم يدخل كثيرون ويخرجون. إن ركبوا ليسوا مهمومين بشيء فما من مكان لا يصلون إليه. خيولهم بمثابة قبعاتهم فلا يعودون دونها. لا تنقطع رحلاتهم: إن توجهوا إلى الشمال دخلوا روسيا، وعرجوا على القرم. وإن ركبوا السفينة وعبروا البحر الأسود وصلوا إلى تركيا، فطافوا البلاد العربية. وإن عبروا الجبل كان الجورجيون مضيفيهم. وإلى الشرق خالطوا النغوي والتتر البدو. وإن عبروا الشيشان دخلوا أرض الداغستان، ووصلوا إلى بلاد الفرس.

الشراكسة لا يوافقون أياً من الجيران في أنماط معيشتهم وإن خالطوهم. يقضون حياتهم على صهوات الخيل وهم يظنون أن الطبيعة التي زرعها الله فيهم هي فوق الجميع. ومن صار التجوال طبيعة فيهم هم الأمراء - النبلاء، وليسوا الفلاحين الفقراء المربوطين ليلاً ونهاراً إلى نير العمل. وأينما سافر الأمراء - النبلاء لم يرغبوا في نقل طبائع الأرض التي دخلوها إلى بلادهم. كانوا يعتقدون أن كونهم زعماء لأعراقهم، ولو لم تكن كبيرة، أفضل من زعامة الشعب كله،

يفضلون أن يعيشوا في الظلام خائفين من توغل الوعي إلى الفلاحين، لا تهمهم حياة الفلاحين إذا كانوا هم متميزين. وما شأنهم بوعي الشعب إذا ظلوا على رؤوس الناس من سلالة الشمس ومن سلالة القمر. يقتلون بسلاح النفاق من يقولون: الشعوب المجاورة لها دول، فلماذا لا نفتدي بهم؟

متى سمعوا أن في القرية ضيفاً امتلأت المضافة لأنهم عشاق أخبار. يعيش الشراكسة حياتهم وهم يسمون مواطن الجيران دولاً، ويستغربون ما يحدث فيها. وفي هذه الليلة وصل فلاحو الشابسغ إلى كثير من الموضوعات. ولم ينسوا عيشة آل شراًقوه وفلاحهم. وطُرحت أخبار فلاحي آل أباته. ومهما طافوا، فوصلوا إلى تركيا من أخبار، وإلى القمر، وإلى من يسموهم "بَتَكل" في روسيا¹، عادوا إلى أرضهم وما فيها من أخبار. وما لا ينتهون منه هو عدم المساواة بين حياة الفلاحين والمتنفذين، والفلاحين والأمراء - النبلاء. هذا الموضوع يشغلهم ويؤلمهم، ولا يعتقدون بوجود مخرج منه.

- حياة الفلاحين متشابهة في كل مكان. قال أحد الفلاحين بعدما استمع إلى حديث حاغور القادم من باستوك. إذا كان آل ناورز عصبي المزاج فال شراًقوه جشعون، دَعَكْ من آل أباته فهؤلاء يريدون أن يضموا الجميع تحت جناحهم. أظن أن الله وحده هو من يفهم حياة الفلاح.

- الله يفهمنا، قال حاغور موسى، - ولولا الخوف منه لقضى علينا المتنفذون. ونحن الفلاحين نتحمل جزءاً من المسؤولية في هذا الوضع. نحن كسالى جداً حين ينعقد المؤتمر الكبير. وإذا قارنا أنفسنا بفلاحى البجدوغ والجمكوي ففينا بعض الروح. إن عرضنا مطالبنا في الساحة لم يضرّ إن لم ينفع. إن عرف المتنفذون ما في قلوبنا حسبوا حسابنا. نحن الشراكسة فينا طبع عجيب: إن اجتمع شخصان قتلا الثالث مع الخنازير وأطعماه للكلاب غيبةً.. ومع ذلك لا يخسر ضحية الغيبة شيئاً. الغيبة نوع من الجبن فيعيش من يغتابونه متكبّراً علينا على مبدأ: أنتم قولوا ما تريدون، وأنا أفعل ما أريد. لا أعرف كثيراً مما يُفتَرى

¹ هم القوزاق كما سيظهر في مكان آخر من الرواية.

عليكم يا فلاحى آل ناورز فأظلمكم. هذه حالنا نحن فلاحى شرلاًقوه.

- والله أصبت وصفنا أيها الضيف. - وافقه المضيف كوناي. - ليست هذه مشكلتكم وحدكم، كلنا نحن الفلاحين عندنا المشكلة نفسها. نعيش على رأي بجقان حياة غير متسقة، على طريقة الرجل الذي كان يقول: إن كنت رجلاً فلا تضرب رأسي!..

الفلاحون الذين سهروا الليل كله خرجوا من قضايهم، وانتقلوا إلى الحكايات - الألغاز. وحين ظنوا أنهم انتهوا منها تدخل الرجل الذي كان قد بدأ حكاية رجل الغابة وكأنه كان ينتظر هذه اللحظة:

- يا كوناي اعترضت عليّ في حكاية رجل الغابة، ولكن لا تحاجني قائلاً: لا تجتمع الشياطين في مطلع ربيع كل عام في جبل سوباي؛ لن تجرؤ؛ من رأيهم بعينه أخبرني.

- لو كان الشيطان يرى بالعين ما سموه شيطاناً. - قال كوناي بمزيد من الحذر خلافاً لما قدّ به حكاية رجل الغابة.

- هذا صحيح، لا يمكن رؤية الشيطان بالعين. - وافقه الفلاح الذي كان قد بدأ حكاية الشيطان، ولكني أعرف أنهم يمكن أن ينجفوا وأنت تظنهم أمامك. ولا تحتاج أن ترسل إلى أحد ليشهد. من الحاضرين يجرو أن يقول إن عجوز آل قف ليست من الشياطين؟ لا أحد، لأنكم تعرفون جميعاً أنها شيطان. قبل أيام كنت أسير في "شباي" نظرت فإذا عجوز آل قف تأتي لا أدري من أين سقطت. لا أكتمكم أيها الفلاحون أن قلبي هبط، وحصاني تعثر لا يستطيع السير. ماذا تظنون أني كنت أرى؟ استقرت عجوز قف غراباً أسود أمامي!..

- وبعدها؟.. - سأل أحدهم لا يصبر على انقطاع الخبر. - ماذا سيكون بعدها؟ طار الغراب على مرأى مني!.. وأنا انتشلت نفسي من مضيق سباي خائفاً على روحي.

- يا ابنة الزانية!.. - صاح أحد الفلاحين الشباب الواقفين على الباب. كان الجمع الذي لجم الخوف ألسنتهم صامتين. وسرّ الليل الطويل يُطلّ على المضافة من النافذة الضيقة. صدر صوت أقدام من جهة الباب. ولما انفتح

وظهر رмбаكوه بجقان نهض كل من في المضافة.

- أخبرتني ابنة آل شَحْبَه حال رجوعي إلى البيت أن كنائي أرسل ورائي فجئت متوجساً من مصيبة ما.

- والله كلّفناك جهداً يا بجقان، تبين أن الموضوع ليس كما قررنا. لا تؤاخذنا!.. هذا الفلاح هنا ضيفنا. جاء من باستوك.

نهض كلٌّ من حاغور موسى ورمباكوه احتراماً للآخر، وتبادلا التحية. سأل بجقان بحارة عن الفلاحين الذين يعرفهم من باستوك. وتعرف عيشة بترز الحداد. واستغل حاغور توقُّف الحديث فسأل رмбаكوه:

- سمعنا يا بجقان أنه كان عندك ضيف من الجمكوي؛ ما الأخبار في تلك الناحية؟

- نعم كان ضيفي من الجمكوي، وعدتُ للتو من هناك. تبين أن والد ضيفي قُتل على يد أحد النبلاء، فشيعته حتى لا يعود وحده. وماذا سيكون في الجمكوي من أخبار؟ أمراؤهم يهددون ويتوعدون. ثم سرد لهم المصيبة التي جرت لضيفه. ولما أتى على ذِكْرِ مامرقوه فوجئ حاغور، ثم اختتم حديثه:

- الأديغة في كل مكان لا ينفكون عن الصراعات...

صمت الجميع مدة حزناً على خبر مأساة ضيفه. وضع كل منهم نفسه موضع الشاب الجمكوي:

- ماذا بيدك إذن؟- نقض كنائي الحزن الصامت الذي ران على الجميع، لهذا السبب يشتكون: يا أيتها الدنيا المنحوسة!..

بعدما جلسوا بعض الوقت، أخبروه خجلين من سبب استدعاء الضيف القادم من السفر، ولكن ما العمل بعدما جاء وقُضي الأمر:

ابتسم رмбаكوه. ثم تأمل الجميع وقال:

- لا أعرف لماذا يوصَف بأن في صدره سيفاً، وبعين واحدة، ولكن لا أذكر أنني قابلت رجلاً غابة. أياكون مصدر الإشاعة مقابلتي لمامرقوه في غابة تحمز؟ لا أذكر موقفاً أصعب من ذلك الموقف.- تنهد بجقان عميقاً وكأنه نسي أنه جالس في جماعة، ثم استأنف: - مضى على هذا بضع سنوات. قُبيل الظهر

وأنا عائد من الناختوي دخلت في غابة تحمز. كان الشهر شهر ولادة الأغنام، نيسان، الغابة جرداء تقريباً، مع قليل من الخضرة، يمكن أن تنظر عبرها، ولا تكاد ترى شيئاً. لم يكن حصاني مستعجلاً. والحقيقة كان الحادث المعيب الذي جرى بين الناختوي والشابسغ يثقل عليّ جداً. كيف اشتبكنا بالسيوف؛ ألسنا من عرق واحد وإن لم تلدنا أم واحدة؟! وأنا إلى الآن لم أستطع أن أتقبل الإسلام. لا أفهم كيف يُطبَّق لأننا غير قادرين. وكيف يُصبُّ في عرق الأديغي البسيط ما ليس من دمه عبْر تلاوة بلغة غريبة لا يفهمها؟! ومع ذلك ما العمل؟ فالمتنفذون يفرضون على الفلاحين هذا الدين. ولذا، وما سأقوله تعرفونه أنتم أيضاً، هجم الناختوي على الجوامع التي بناها الشابسغ في قراهم، قائلين: ما تفعلونه أيها الشابسغ عيب، تهجرون إلهنا الكبير. فدمّروها. ولهذا السبب اتفقنا، نحن مجموعة رجال، وزرنا الطرفين ننصحهما.

- من حسن حظنا يا بجقان أن في أرض الأديغة أمثالكم. - قال الفلاح الجالس إلى الموقد بعدما مسح على لحيته الكتّة. - نبقي في حمايتكم وقت الضرورة. - لا تسمحون بصبّ الماء على نار موقدنا.

- لا أعرف إن كنتم في حمايتنا، - أسرع بجقان بمقاطعة المتحدث وكأنه تخرج من إطرائه، - في أرض الأديغة رجال يتمتعون بصفات الرجولة أفضل منا. - إن كان المتنفذون هم من تسميهم بالرجال الأفضل يا بجقان فأنت مخطئ. - قاطعه المتحدث السابق نفسه.

- لا يا نقار، آل شرلأقوه وأباته وناورز وزانه وشكش يستمدون قوتهم من أملاكهم فحسب، ولا نرى رجولة ذات شأن منهم. من أقصدهم هم فلاحون. - ولكن يا بجقان، المتنفذون...

- كفى يا نقار!.. - لم يقبل كناي الذي كان صامتاً إلى الآن، - كفاك حديثاً عن هؤلاء الأوغاد. دُع رمباكوه يُكمل ما بدأه!..

- لا عيب يا كناي في طريقة سؤال نقار، - ألقى رمباكوه نظرة ودوداً جهة نقار، إن كان هذا رأيك يا كبير فلن أخرج عن الموضوع... ولذا، وكما قلت، وأنا أتفكر بعدما أصلحنا بين الحيين اللذين رمى اختلاف الدينين الفتنة

بينهما، وأنا كنت شاردًا نوعاً ما، وقد أرخيت أعضائي، أحاط الحبل المرمي بعنقي، وألقاني من على ظهر الحصان. ولما نظرت رأيت شخصين أمامي، أحدهما مامرقوه والآخر مقاي. الحق أنني في البداية أصابني اليأس إذ كيف أنجو من هذين الخبيثين. وضع مامرقوه قدمه اليسرى على عنقي. وحُيِّل إلي أن عينيه عينا ذئب. أما مقاي فجلس على أرومة هادئاً تماماً. ماذا ينوي هذان بحقي؟ لا يقتلاني، ولا يسرقاني. كلما ضغط بجذائه ضحك مامرقوه في وجهي. قلت له: "يا مامرقوه إن كنت رجلاً فحلّ الحبل عن عنقي وأبعد الحذاء!.." سألتني: "أيها الشابسغ الصغير كأنك تعرفني؟" ¹. وفي الحال سمعت وقع حوافر خيل تقترب لأن أذني كانت على الأرض، فأجبت: "مامرقوه ربما معروف بين الناس بالشرّ، لا بالخير". فقهقه حتى غارت عيناه. وضغط بجذائه على عنقي أكثر من ذي قبل. نهض مقاي وقال: "لماذا يا مامرقوه تقف أمام هذا الرجل؟ أخبرني إن كنت لا تقدر على خنقه" فأجابه: "يا مقاي، لا داعي لكثير من الكلام؛ هات حصان رмбаكوه فحسب". جاؤوا بحصاني المسكين وعيناه حائرتان في محجريهما لا تعرفان ما جرى لي. حمحم حتى خرجت النار من منخريه. قال مامرقوه: "يا رмбаكوه سنُريك كيف نقتل حصانك قبل أن نسلبك روحك" وأفرغ على أذن الحصان مسدسه. قفز حصاني والدم يقطر منه ولكن مقاي شد عنانه فصرعه. وفي الحال رأيته على الأرض يسقط على ركبتيه مضرجاً بالدم، والزبد يسيل من فمه. وأنا انتفضت من مكاني والحبل ما يزال في عنقي، ونظرت فإذا مامرقوه أمامي يضحك ومن فوهة المسدس ينبعث الدخان. هجمت على عنقه قائلاً: يا ابن الكلب ماذا فعلت بي؟ ولكن حُيِّل إلي أن النار التي انبعثت أمامي تلجمني. ورأيت مقاي يركب... هذا ما حدث معي في ذلك المكان. ولما فتحت جفني ونظرت رأيته في بيتنا والرجال يملؤونه. وكان بينهم بضعة فلاحين من طؤزيس. من حسن حظي أنهم كانوا قادمين من البجدوغ وشهدوا الموقف. جاؤوا على صوت حصاني... ربما كان هذا هو

¹ الشابسغ يوصفون عادة بالصغار.

السبب في إشاعة رجل الغابة...

- حين انتهى رмбаكوه بجقان من رواية الخبر، ضاج الفلاحون المستمعون من الإهانة التي ألحقها النبلاء للصوص - القتلة به.

-3-

لا تتذكر داريت أنها نامت مطمئنة البال مرتاحة كما الليلة.

لا شيء مثل البيت العتيق الذي ولدت فيه. عادت ذكريات الزمن الجميل أيام كانت فتاة صاحبة. وكم من حُطَّابٍ تعاقبوا على هذه الغرفة؟ في كل مساء كان يسهر هنا جمعٌ من الشباب!..

خرجت داريت من الأفكار - الذكريات فجأة كما دخلت. وتمثّلت لعينيها مضافة البارحة. ما مضى مضى وانتهى فلا فائدة، وما بقي هو السعادة في المستقبل. ليس على الأرض مثلُ جنس الرجال يحب أن يُسعد نفسه. لا يعانون من ولادة ولا من تربية أولاد. لا ينفعون لشيء إلا للسفريات وارتباد المضافات. ألم تريحهم العشية مجتمعين يُسعدون أنفسهم وقد احمرت وجوههم من سرد الأخبار، واحتساء الباخسمه؟! لم أر في الأمير ججقوه الجاذبية التي رأيتهَا فيه عبر النافذة. إنه ضخَم كبير الأطراف، لا غبار عليه من هذه الناحية، رأسه منتصب لا ينسى أنه أمير. تفحصني غير مهتم برأي الحضور. لا بد أنه مولع برؤية النساء. أخرجني فلم أعرف كيف أتصرف. لا يمكن وصفه بالمسنّ ولا بالشاب. ليس أكبر مني كثيراً، ربما في عمر أخي حاج عمر. والغريب أن شعر الصدغين الشائب الظاهر من تحت القبعة يناسب وجهه. وأظنه مصدر الجاذبية التي يفتقدها. شفتاه أرقّ من المعتاد لا تتناسبان مع الوجه الكبير. شرلاًقوه، ولو أنه ضئيل الحجم، شفتاه الغليظتان مثيرتان للشهوة. ولهذا يسمونه أميراً، ابنَ أمير. مهما كان عنده من عيوب فلقب الأمير يمسخها. أباته قازجري هو من يتمتع بصفات الأمير ولكنه ليس أميراً. مظهره وحده يميّزه ولو رأيته بين مئة أمير. أستغرب عدم مجيء قازجري؟ لا يمكن لآل ناورز إلا أن يدعوه حين ينزل عليهم ضيف. ألا يعرف أُنِي في بيت أهلي ولو أنه ليس لدى

آل ناورز ضيف؟! الرجل كلما اقتربت منه سعى هو إلى الابتعاد. لا تأت إن شئت؛ لن تُقلقني بغيابك.

- انهضي يا ابنتنا، - جفلت داريت من الصوت الأنثوي الصادر من الباب، - سأل عنك أخوك.

- يا خجلتي! - رمت داريت اللحاف عنها وجلست في الفراش، ورائحة الدفء ترتفع من جسدها الضخم. وكالعادة مطّت جسمها كما يفعل الرجال فكادت تسمع طقطقة عظام ظهرها الذي يتناثر عليه شعر رأسها. ثم نادى: أكوز!.. - فدخلت الفتاة كأنها كانت بانتظار النداء.

- يا من حماك الله من الطاعون، - قالت داريت هادئة، - ماذا كان يضيرك أن تتحلّى مرة بشيء من الذكاء فتوقظيني بدلاً من الكنة!.. - هل استيقظ الأمير الضيف؟

- لا، لم يُسمع صوته إلى الآن.

- لماذا أيقظتني الكنة إذن بكل هذه الضجة؟! الكنة كنة دائماً. ما لا تملّ من ترداده هو نومي!.. كانت تقرصني في عزوبيتي كل صباح فتوقظني. وكم مرة نبهوها دون جدوى بسبب هذه العادة!.. نسيت نفسي، هيّا هاتي ثوبي الحمري؛ ليس عندي أنسب منه عليّ. ولا أعرف سبب تشنج ظهري. افركيه قليلاً!..

جهز الفطور ريثما لبست داريت وتزينت. وقُدّم الطعام إلى الأمير جبقوه وحرسه. وأسرجت الخيول.

- لم يُسبل لي جفن طوال الليل. - قالت داريت وهي ما تزال تحت تأثير الغضب من كنتها. وخطر لها أن تعلّق عليها بكلمة جارحة أمام زوجها ولكنها كظمت غضبها كُرمى للضيف. ثم تراجعت مشفقة على أخيها.

- هل هناك ما يزعجك؟

- ما من شيء في العالم يزعجني؛ هل ركب الضيف!..

- وهل يركب ولمّا يدخل البيت؟! - اعترض أخوها حاج عمر وكأنها تستعجل على رحيل ضيفه، - سنخرج ونتنزه قليلاً في ظاهر القرية. ليعرف الفلاحون أن

الأمير ججقوه ضيفُنا!.. وسأعرج به على بضع قُرى.

- اذهبْ به إلى طوابسه، ودعْه يقابل رمباكوه... كيف يتصرف جالب العار هذا؟

- كما تعرفين، لم يتغير فيه شيء. كان عنده قبل أيام قليلة ضيف من الجمكوي لا يزال أنفه يسيل.

- لا أعرف ماذا وجدوا في هذا الرجل حتى يقصده كل فلاح يأتي من أي مكان. يعتدّون به، حتى صار رجلاً مرموقاً.

- لا تقولي هذا يا ابنتنا!.. ابن الكلب رمباكوه بجقان يتمتع بالرجولة. نار موقده يرتفع لهيها، لا تحفُث!

- سترى ناره يوماً ما انطفأت. يقال إن الدجاجة تحفر مصيرها بمخالبها. - قطعت داريت كلامها وصرخت بأكوز الواقعة إلى جانب الباب: كم أمرتك ألا تقفي وتنصتي إلينا حين نتحدث في مثل هذا الموضوع؟! اختفت الفتاة كالخيال فأكملت داريت: - ونحن عندنا فلاح مثل رمباكوه يظل يرصدنا بعين حمراء، وأنت تعرفه. هو السائس حاغور الذي أوصلني. رمباكوه لحسن حظكم يقيم في قرية أخرى. في حين أن فلاحنا يقيم معنا ليلاً ونهاراً. يرى ما نفعل، ويسمع ما نقول.

- ألا تعرفون ما تفعلون به؟! أحسنوا إليه وأبعدوه عنكم! إن أعطيتموه قطعة أرض، وزوّجتموه، انشغل بالأولاد ونسي كل ما في ذهنه الآن. وأنا فعلت هذا بكثير من الفلاحين. أخالطهم متى أردت، يضعون لي على المائدة كل ما عندهم، ويجدون ما ليس عندهم. لو طلبت منهم أن يقفوا الليلة في الماء لفعلوا. لا تتورّع عن فعل أي شيء من أجل المال. عليك أن تستعمل معهم سلاح الإغراء أحياناً. شرلأقوه يصطدم بنفسه بنتائج جشعه. لا يخفُ شرلأقوه من أن يغتني الفلاحون الأغنياء على حسابه. هؤلاء هم أقوى ركائزه، ولكنه لا يعرف...

- متى أعطيت الفلاحين شيئاً من المال وطعوا رأسك! - رفضت داريت رأي أخيها في المال، - هكذا جعلت من هذا اللعين رمباكوه بجقان فلاحاً حراً،

- فتمرد عليك، ولن تستطيع إعادته إلى سالف وضعه.
- ما جعل رمباكوه يتمرد ليس إعطائي إياه فرساً... بل رجولته التي يستمدّها من المحيطين به.
- أراك يا حاج عمر تكرر هذا الكلام. وهل ارتدى الفلاحون الأغنياء من الشابسغ أغطية رؤوس النساء فجبنوا؟! من ليس جديراً بقبعته فليعطني إياها!..
- اكتفى حاج عمر بالضحك، ولم يعتبر كلام أخته إهانة.
- من حظنا يا أختي أنك لم تولدي رجلاً. كنت قاسمتنا أملاكنا نحن الإخوة، فحرمنا نصف حقوقنا.
- أمن أجل هذا ناستم آل شراًقوه الأغنياء حتى لا تبقى أختكم الوحيدة دون مال؟.. من فضل الله أننا لسنا فقراء. عندنا ما ليس لغيرنا. ولكن لن اعتدّ بهذا فأفضل على أحد بحبة دُخن؛ فلا يتأمل مني أحداً!..
- والله أحسن آل شراًقوه تربيتك!..
- لم يغرسوا فيّ قوة لم تكن فيّ. كفى، حبستك في البيت نتكلم في موضوعات فارغة. الضيف ينتظرك. وها هي الخيول جاهزة.
- كان الحراس والفلاحون في الدار بانتظار الأمير ججقوه والمتنفذ حاج عمر. الفلاحون متجمعون في مكان أقرب إلى الحظائر، والحراس أقرب إلى البيت مغترين بأنفسهم. وحاغور موسى بين الفلاحين بحيث لا تدري إن كان ضيفاً أم لم يكن. خرج الأمير من البيت فتعامل معه الحراس باحترام صادق غير مصطنع. وساعده في ركوب الحصان ممسكين بالركاب وبالزمام. وفعل الحارس الأمر نفسه مع ناورز حاج عمر.
- ولم يتبعهما أي فلاح راكب أو راجل.
- ابتسم حاغور موسى حين خرج الفرسان من الدار، وقال لمضيفه ليلة البارحة كنائي:
- ما أشد انتصاب الأمير ججقوه على صهوة الحصان!..
- لأنه يقلد إمرته، فيركب وُفقها. انظر كيف يرفع رأسه المتكبر، - قال، فجعل الوقوف ينظرون.

- هل تعرف يا كوناى قصة الرأس الذي تصفه بالمتكبر؟ - سأل حاغور الجالس إلى كومة من الحشيش.
- لا، لا أعرف.

- وهل لرأس ججقوه حكاية؟ سأل فلاح آخر.
- ما من أمير إلا له حكاية خير أو شرّ، ولكن من يعرف حكاية الأمير ججقوه جيداً هو أبزاح نارج. غير أني سأروي لكم إن أردتم ما سمعت من شباكوه أحمد. تأمل حاغور الفلاحين الذين يرتاحون إلى جانب كومة الحشيش، فحكم بأنهم يودون سماعه، - الأمراء الإخوة ججقوه من أسر الأمراء الظالمّة في البجدوغ، حتى إنهم اشتهروا بأنهم يجبرون الفلاحين على إيراد الكلب الماء. لم يمض الكثير على الحكاية التي حدثت للأمير المتكبر. في أحد الأيام ركب الأمير ججقوه، وخرج وحده ناوياً تفقد ظاهر القرية. وفيما هو ماضٍ رأى فارساً آتياً من جهة مضيق مارتا. لم تكن القرية التي خرج منها بعيدة، خطر للأمير أن يمنعه من السير على الطريق ويجبره على الابتعاد إلى حقل البيلسان فاعترضه. قال الفارس: "أياً كنت فهذا الطريق يتسع لنا كلينا، فلا تدعنا نتواجه!". قال الأمير: "اسلك حقل البيلسان!" ردّ الفارس "لا حاجة إلى أن نشتبك، دعني أمرّ". "ألم أطلب منك الابتعاد، كفك!". احتدّ الفلاح أبده من سلوك الأمير: "إن كانت البرية كلها لا تسعك فعلت بك ما تستحق أيها الكلب المدلل" رمى الفلاح الأمير من على صهوة الحصان وكثّفه. قال الأمير "لا تكتفني بلا جدوى؛ لن تستطيع بيعي أو منحي لأحد!.." سألّه الفلاح: "ولماذا" أجاب الأمير "لأنني أمير". فرح الفلاح أبده، وقال: "لم أعرف هذا، إن كنت أميراً فهذا أحسن لي؛ أنت بعثت كثيراً من الرجال فانظر بنفسك إن كان ما فعلت خيراً". فرح نارج وحمل الأمير ججقوه إلى الساحل، وقال له: "أنا لم آت بك إلى هذا المكان طمعاً في سعرك، ولكنك بعثت كثيراً من الرجال مقابل قماش كساء. ثم ابتعد لأمر ما حين جاء شخص يعرف الأمير: "هل ججقوه بشماف الأمير هو من أراه؟ ماذا جرى لك؟ لم يبح بما جرى له، بل أجابه مشيحاً بوجهه: "لا شيء مهم، قررت أن أعبر بنفسي النهر لأرى ما

وراءه". قال الرجل "أنتم يا آل ججقوه، بطرتم وتجاوزتم كل الحدود، تستحقون كل ما يجري لكم، وأياً كان من فعل بك هذا فمرحى له!". التفت الرجل فرأى أبده فلم يشك في أنه هو من جاء بالأمير مكتئفاً، فقال له وهو يصافحه: "يا أبده عندي لك رجاء؛ لن أسألك ماذا فعل ججقوه إذ ما من شيء يتورع عنه. فعلت به ما يستحق. أرجوك أن تطلق سراح هذا المجرم. لن أكتم سره، وأعدك بأن يبقى ما حدث موضوع سخرية منه إلى الأبد". ليس هناك ما هو أتعس من أن يسخر الناس منك. وافق أبده إذ حكم بأن في ما يسمعه نوعاً من الذكاء، فأعادته إلى ظاهر قريته وأطلقه مكثفاً. قال الأمير المكتف "يا أبزاخ نارج أبده، كان قتلي أهون علي من أن تعيدني بهذه الحال..." - "ولماذا أقتلك؟ منذ الآن ستعرف كيف تمشي في طريقك، وسيطير خبرك إلى الأبعد". لم يحقق نارج رجاء الأمير وأطلقه على حاله. ويقال إن ججقوه بعد هذه الحادثة لم يعد يخرج إلى خارج القرية دون حراس؛ ألم تروا الحاشية المحيطة به؟! - يا للعجب، ما أغرب ما روى حاغور!... - هل يعرف ناورز حاج عمر هذه الواقعة يا ترى؟ أحسنت صنعاً يا أبزاخ نارج!.. جعلتني أشتت بال ناورز الذين يحتفون بمن لم تبق له كرامة...

-4-

قال الأمير ججقوه وهو ينظر إلى حيث يمضي حصانه: - عمر الإنسان يقاس بخبرته في الحياة، هذا ما يعنيه المثل الدارج: ما تراه العين يساوي الإنسان. - لم أكن أصدّق حين أسمع أن الشابسغ يعيشون في بلاد جميلة. - ألا يمنحك شعورك بأنك فوق العالم سعادة؟ تشعر بأن شيئاً لا تعرفه يجري لقلبك. - إن نظرت هكذا من أعلى المرتفع إلى القرية عرفت ما يجري فيها. وترى الفارس القادم من بلادنا. - نحن في أرض جميلة ولكن فلاحينا ليسوا طوع أيدينا كفلاحيكم يا بشماف. - قال حاج عمر منتشياً بمديح الضيف، غير أنه لم يستطع إلا أن يبوح بما يقلقه: - لا يبدي فلاحو الشابسغ تجاه متنفذيه ثلث ما يبديه فلاحو

الجدوغ لأمرائهم. ينظرون إلينا شزراً بأسنان حادة.

- والله يا حاج عمر، فلاحونا الذين تمتدحهم ليسوا كما تظن، يحنون ظهورهم متى رأوك، ويشدونها متى غبت عنهم. قبل أن أتوجه إلى القرم وضعتُ أحد الفلاحين في موقف لا يُحسد عليه. لم أستعن بالحراس، ولم أترك بقعة على جلده لم يصلها سوط الحصان. ابن الكلب تعرّف على أشخاص من الأبراخ فلا يدعوننا نحنًا بجياتنا. يأتي هؤلاء الملتحين أصحاب الشوارب والجفون الكثيفة ليخربوا حياة القرية. تكفي كلمة واحدة لتغيير عقل الفلاح. نحن نحافظ عليهم بصعوبة مع أن الأعنة على رؤوسهم، وأطرافها بأيدينا. الأبراخ، أرسل الله إليهم الطاعون، ليس على ألسنتهم إلا سيرة الأمراء! لا يرون لحاهم وشواربهم فيصفون الأمراء بأوصافهم. وكيف يطيع الفلاح الأمير الذي يسخرون منه!..

- ما ترويه هو بعينه ما يجري لنا، - ظلوا ينكفون دُمَلتته حتى تفجرت. فقال ناورز حاج عمر ينقّس عن كربه: - إذا كان الأبراخ يطرقون بابكم في العام مرة فهُم بيننا كل يوم. أينما ذهبنا، إلى الجدوغ، إلى الجمكوي، الأرض للأبراخ!.. وما العمل بهم؟ نعبّر أرضهم، ومتى عدنا رأيناهم على أبواب دورنا. وهل تظننا أحراراً في شؤوننا؟ متى جرح قلب أحد الفلاحين ركب إلى أنصاره في الأبراخ. وإن أحسنت معاملته فحرصت على كرامته مدّ يده إلى عينك. لا أعرف إن كانوا توصلوا إلى ما سأقول، ولكنهم تعاهدوا عندنا وأقسموا فلا تستطيع أن تتعرض لهم الآن حتى بالكلام. كنا في موقف نستطيع أن نجاهم فيه فُردى، والآن متى تكلمت مع أحدهم وقف جميع المتعاهدين معاً فأشاعوا الفتنة. وإن عرضت على أحدهم شيئاً فيه فائدة له أجاب بأن عليه أن يشاور حلفاءه في القسَم.

- ليس عندنا ما تسميه القسَم الموحّد. الأعراق عندنا تحرص على أنفسها أكثر منكم. يجد أحدهم ما ليس عنده. يجب على قدر الإمكان عدم السماح لأعراق كثيرة بالعيش في القرية. وكما ينبت العشب الضار في الحقل، فهم ينمون تحتك، ويحبسون الهواء عنك!..

- وما السبيل إلى الوقوف في وجههم؟

- تفعل ما يفعل آل حجمقوه. - عليك أن تفرّق بينهم كما تُرمى الكعوب المتبقية في النهاية فُرَادَى أو مَثْنَى. حين يعرف آل حجمقوه أن أسرة ينشأ فيها إخوة كثيرون، يُكثِّرون من السفر إلى الساحل لبيعهم، كما كان والدهم يفعل.

حين سمع حاج عمر بخبر الساحل جاءته ضحكة خفيفة، إذ تذكر أنه رُوي له في الربيع الماضي، في البجدوغ، كيف حمل نارُج ججقوه الواقفَ هذه اللحظة إلى يمينه، إلى تلك الجهة. خشي أن يكون قد انتبه فنظر إليه بطرف عينه. من حسن حظي أنني لم أنطق اسم نارج في سياق حديثنا عن الأبراخ. يقال إنه يشعر بالإهانة حين تأتي له على ذكر الفلاح الأبرخي. وهل الذنب ذنبنا أيها البائس إن جابجت من لا تعرف إن كان بإمكانك التغلب عليه؟!

- آل حجمقوه أذكىء بالوراثة. - قال حاج عمر يريد تجاوز ما ورد على ذهنه فجأة. - يفعلون كل ما في صالحهم مما يناسبهم. خالطتهم بضع مرات. وتعلمت منهم أموراً كثيرة تستحق أن تقتدي بهم فيها. وسبب امتداحي لفلاحي البجدوغ هو أن فلاحي أمير البجدوغ الكبير حجمقوه قانشاو ماثلون أمام عيني. ومهما خالطت فلاحيهم لم أسمع منهم أن منكرًا حدث في قرية طوابغو بين آل حجمقوه. ولم أرَ فلاحاً منهم ينظر شزراً إليهم. يعيشون أسرة واحدة. وإن حدث شيء؛ ألا يُخبرنا ربيينا؟ أيكنمه عنا؟ لا نعرف عنهم أي شيء يُخفونه.

- لستم وحدكم، فهذا رأينا فيهم نحن أيضاً. حكماء، لطفاء، ودُعاة. وإن قلت "دهاة" فلا أعني أنهم كذابون. لم ألقَ حكيماً إلا داهية، ولا داهية إلا حكيماً. الحاج فَرَّق عقله بينهم ورحل عن العالم. ولم يتهمهم أحدٌ بأنهم لا يعطون الأمير الذي كان من نصيبهم حقه من الاحترام. يمكنهم جُعُنًا، ويمكنهم زرع الشر بيننا. وسمعت أصدقاء ربييكم ألقس يمتدحونه في اتخاذ الأصدقاء، وجمع الناس حوله، وسياسيتهم... إنه لا يختلف عن أهله في هذا. ينشؤون وهذه الموهبة في دمائهم. ما لا يعرفه أحدهم يتداركه الآخر. - ما إن بدأ الأمير ججقوه حديثه وكأنه يتحدث في مؤتمر أمراء البجدوغ السنوي حتى رأى جمعاً

يخرج من قرية طؤزيس التي يشرفون عليها وأمامهم نوع من الماشية، فسأل مستغرباً: - أي نوع من الماشية يسوق هؤلاء يا حاج عمر؟

يسوق الناس الخارجون من طؤزيس ثوراً كبير القرنين كما استغرب الأمير: ومن خلفه كثيرون من كبار وصغار. وليسوا كلهم لابسي قبعات، بل قد تكون النساء أكثر من الرجال. وإلى جانب الثور رجل يمسك بالحبل على عنق الثور. ولا يسبق أحد من الجمهور هذا الرجل. يملؤون ظاهر القرية وراعه. وأغرب ما في المنظر هو أن الناس يحملون معهم موائد وقدوراً ومقاعد صغيرة.

الرجل السائر أمامهم هو رمباكوه بجقان. لا يسرع، يرافق الثور متمهلاً، على إيقاع قوائمه. يتجه إلى عمق الغابة. لم يكن أي فرد من الشابسغ محتاجاً لأن يسأل ماذا تحقّق لفلاحي القرية. يسوقون الثور ليقدموه قرباناً. حَمَل حاج عمر نفسه اللوم، بعد ما نظر إلى ضيفه، وقال: هلاً انتظرونا حتى يضحّوا، كما يقال: نهض البعوض في غير وقته؟! الشابسغ الصغير يعيش عمره حاملاً ما هجره غيره؛ فماذا يرى فيه...

- يسوقون الثور إلى المكان الذي تقدّم فيه الأضاحي.

- والله أنا أيضاً خمنتُ هذا.

- أظن أن البجدوغ نسوا هذه العادة منذ وقت طويل؟ يمارسون دينهم السابق إلى جانب الإسلام، لا يسحّون به. مهما نصحناهم لم نستطع أن نحملهم على تركه. ولا يعرفون عدد آلهتهم.

- لا يحملون معهم لوازم أضحى البجدوغ، والمقاعد الصغيرة... - الأمير ججقوه يتعجب من طريقة حمل القدر التي يتصاعد منها البخار بالعصا، - الأفندي يلقي موعظة برفقتهم، ثم يقدمون روح الضحية. هذا التقليد كما روى جدنا تماماً. والله متع أن تشهد الحفلة؛ ما رأيك أنت يا حاج عمر؟..

- من وقع في موقف حرج هو ناورز عمر. لا يريد مخالطتهم، بل رؤيتهم. كان عليه قبل أن يأتي في هذه النزهة معرفة أخبار القرية. وبدلاً من هذا ارتجل هذا المشوار وجاء بالضيف. لولا داريت لربما ما كنت دعوت الضيف إلى طؤزيس. تتدخل ابتنا في ما لا شأن لها فيه. طلبت مني استضافته من أجل إرعاب

رمباكوه فورَظتنا. هل يجوز التوجه بالأمر الضيف إلى حفل هؤلاء؟! وهذا الضيف يطلب الذهاب إليهم كأنه لم ير قطّ كيف يذبجون الثور. البجدوغ، سواء صدّقنا رأي الناس أم لم نصدّق، كباؤهم وصغارهم، أمراؤهم وفلاحوهم، من طينة واحدة. لا يسألون هل ما يطلبونه ممكن أم غير ممكن. يسألون عما يخطر لهم في لحظتهم، ويُلحفون في السؤال.

- والله لا أعرف أيها الضيف، العادة أن يفعل المضيف ما يريد الضيف.
- بدأ حاج عمر يلتف على الموضوع من بعيد، وإن كان لا يرغب، إن شئت فسندهب. المكان الذي نحن فيه حدود قريتنا، فنحن أحرار، إن قررنا مخالطة جمع...

توجه الفرسان إلى عمق الغابة.

توغل فلاحو طوُزيس في عمق الغابة. توقف رмбаكوه بجقان قريباً من شجرة البتولا الكبيرة التي تتمايل أوراقها وسط المرعى دون الاقتراب منها تماماً. الرجال في جهة والنساء في جهة أخرى. خلع رмбаكوه بجقان القبعة، وجثا على ركبتيه أمام الشجرة. ثم خرج من الفلاحين رجل وامرأة ووقفوا على يمينه.

ترجل الفرسان حالما دخلوا إلى المرعى. كان رмбаكوه قد بدأ الدعاء إلى الله فلم يلتفت أحد إلى القادمين. قلوب الجميع الآن، كباراً وصغاراً إلى الجهة التي يتوجه إليها بجقان بالدعاء رافعاً راحتيه.

- يا شجرتي، يا إلهي العزيز، قنا كعادتك من الشرور، نُحرس لسان عدونا، وحسن من حياتنا التي وضعتها تحت تصرفنا!..

- آمين!.. - ردد معه الواقفون.

- انصر سيفنا على من يأتينا لا يريد لنا الخير، وبارك في ضيفنا القادم يريد لنا الخير!..

- آمين!.. - توافق الواقفون الآن أكثر في ترديدهم.

- ليُحَيّ أطفالنا دون أعداء. ضَعْ خِصبك تحت أيديهم، واجعلنا نفرح بالنهار القادم، وهب لنا كل خير!..

- آمين!..

- لا نخفي عنك شيئاً في دعائنا؛ فوافّقنا على أن نمّد أيدينا إلى أرواح من يمد يده إلى أعيننا!..

- وافّقنا يا إلهنا العزيز!.. - ردد الفلاحون معاً، وبصوت أعلى.

شعر الحاج عمر حين وصل الاحتفال، والأصوات إلى الذروة، بشيء من الرهبة يلامس قلبه. الرجال والنساء أصواتهم متناغمة. وأعجب شيء هو أصوات الفتيات الصغيرات الناعمة، دَعْك من الرجال والنساء، بل من الصبيان، التي تصعد من عمق الغابة فنبلغ عنان السماء. ولم يكن حاج عمر وحده، بل حُجِّل للأمير ججقوه أنها ساعة القيامة. وتحمد الحراس في أماكنهم.

أنهى بجقان رمباكوه دعاءه، ونهض. وارتفع صدى الفلاحين، وطاف في أرجاء غابة تحمز، وضاع في إحدى الزوايا. واستولى هدوء خفيّ ثقيل على المرعى. مدّت إحدى النساء مصباح الشمع المعلق على طرف أحد الصُّلبان إلى رمباكوه. مسح رمباكوه جبين الثور بالشمع. وأراق شراب الباخسمة الذي جلبه الحضور على رأس الثور. ثم صرعوا الثور المقيد القائمتين، وذبحه. دعا بجقان بعض الوقت إلى الإله بعدما نهض، ممسكاً بقدح الباخسمة الفارغ. ومهما قال ردد الواقفون كلامه. وأخيراً مدّ البرك¹ وكأس الباخسمة إلى أكبر الفلاحين سنّاً، وقال:

- دُقْ أيها الكبير، - قال رمباكوه، ونظر ناحية الفرسان. ووَزَّع عدد من الأقداح والبرك على الواقفين. وبدؤوا يدورون القدح والبرك فيما بينهم. دنا بجقان من الفرسان متمهلاً وبيده قدحان من الباخسمة وبضع قطع من البرك:

- أهلاً بك أيها الأمير ججقوه. صادف مجيئكم مناسبة أضحيتنا، أنتم ضيوف!..

احتسى الضيوف الباخسمة وأكلوا البرك دون كلام.

سلخوا جلد الثور بسرعة. وارتفع اللهب في أطراف المرعى تحت القدور في كل مكان منه. أودِع اللحم في القدور، ووزعت المغارف على الموائد. ووضعت

¹ حلفه بالشركسية، أشهر أنواع المعجنات عندهم، محشوٌ بالجبنة الشركسية.

المقاعد من أجل المسنين. وعلقوا رأس الثور في عمود قريب من الصليب.

همس حاج عمر بحدوء لضيافته:

- الآن من الأفضل أن ننصرف.

- ماذا سيجري؟

- سيسلقون الثور، ويأكلونه، ويشربون فوقه الباخسمة المخمّرة... كثيرون من

الفلاحين قد يسكرون؛ من يعرف؟ بدا من كلام حاج عمر رغبته في

الانصراف.

انصرف الفرسان بحدوء تام كما أقبلوا. وألقى من رآهم نظرات غاضبة عليهم

كأنهم يقولون: إن كانت أخلاقهم هكذا فإلى الجحيم!.. ونظر إليهم رمباكوه

الذي يغسل يديه وابتسم.

بدأ الأكابر سناً من الرجال والنساء رقصة الوُجّ الدائرية كنار الخطب الملهب.

ارتفعت في المرعى حفلة رقص كبيرة يحيطها الجميع معاً من كبار وصغار. وبعدما

مضى قليل من الوقت على رقصهم نضج اللحم، وصار مع الباخسمة على

الموائد.

-5-

قضت داريت ثلاثة أيام في بيت أهلها وأذناها إلى النافذة مع كل صوت من

حوافر الخيل. وتشاجرت هي وكنتُها في هذه الأيام الثلاثة مرتين. واليوم سادت

قطيعة تامة. وليس النوم هو السبب بل خيط الذهب الذي جلبه حاج عمر في

هذا الخريف من القرم. أمسكت الكنة ببضع حزم من الخيطان وعرضتها على

سلفتها.

- جميلة جداً، - قالت داريت، - هذا الأصفر المائل للحمرة هو ما لا يجده

الناس. كانت عندي حزمة صغيرة جاءني بها شرلاًقوه، فأعطيت منها لهذه

ولتلك حتى انتهت.

- وأنا أحببت هذا اللون - قالت الكنة، وبدأت تلملم الخيوط، - ما جاء به

أخوك قليل كأن الحمل كان سيقطع يده.

احتدت داريت وامئقع لونها لأن الكنة لم تقل لها: "خذي ما أعجبك". ولا يكفي هذا فلم تشكر أخي على حمّله كل هذه الخيوط، بل قالت: "كأن الحمل كان سيقطع يده"، ولقّتها حول يدها. ولم يكفِ هذا أيضاً، بل لا تعترف بجميل المسكين أخي الأكبر الذي جاءها بكل هذا من أقصى العالم. يكفي ما جرّعتِ أخي من أسىّ بتظاهرك بالجنون، ووصفه بكل ما تشائين. والجنون الكبير الآخر هو نحن. أخي حكيم مع الفلاحين ولكنه ظل حليماً في غير مكانه مع زوجته اللئيمة حتى أركبها على رأسه. بأي شيء يتخلف آل ناورز عن آل شكش الذين أنت منهم؟! قطعان البقر العائدة لآل ناورز، والتي لم ير آل شكش مثلها في حياتهم تملأ سفوح المرتفعات. دغك من خيولهم التي تباع بأغلى الأسعار في القرم. والبدو النغوي لا يفارقون باب دارنا. كنت أخرج أن أقول هذا، ولكن عليك أن تفرحي باتخاذك زوجة له!..

- لماذا تصفين أخي بالبلخل وقد جاءك بكل هذا؟!

وتساءلت الكنة غيرَ راضية عن موقف سلفتها منها: كيف تتصرف كخنزيرة متورمة. صار التجبر علي منذ أن تطأ أرض الدار عادة لها كأني لحُقت لأكون تحت تصرفها. ألا يكفي ما عذبتني بلسانها ووشاياتها حين مكثت معي في البيت سنة وأنا عروس جديدة. كم ليلة قضيت مؤرّقة من جراء وشايتكِ بي وأنا البريئة؟! ولما تزوجتِ فرحتُ كما لم أفرح يوم عرسي أمله أن تكفّي عن التدخل بشؤوننا. ولكن لم تتوقفي، ولا تتوقفين الآن. وحين يزورك أخوك الأكبر تعيدينه إليّ بأسوأ مزاج. ومتى زرتنا رميت الفتنة بيننا. أظنّيني خادمة في هذا البيت لا حقّ لي في التفوّه بكلمة؟! إن كنتِ لا تحترميني فاحترمي أخاك الذي أنقاسم معه الوسادة. وإن تجاوزت كل هذا فأسرّتي "شكش" واحدة من أقوى الأسر المتنفذة في الشابسغ؟؟

أجابت الكنة سلفتها الآن:

- ما دفعني إلى هذا الكلام هو رغبتني في أن يأتي لي بأكثر مما أتى به.

- لا تقلقي على ما عندك؛ لن يسلبه أحدٌ منك.

- ومن سيسلبه مني؟

- أنا لم آتِ إلى هنا لآخذ الخيوط.

- وأنا لستُ هنا لا يقيّموني بأكثر من سعر الخيوط.

- ماذا تقولين لي أيتها الفاجرة!.. - التهبت وجنتا داريت كقطعتي جمر، - ألا يمكنني أن أقول شيئاً في بيتنا؟ كلما تفوّهت بكلمة رددتها إلى فمي!.. حان الوقت لتتخلّني عن طباع آل شكش. كيف تتصرفين معي كما يقال في المثل: جاء الكلب الغريب فطرد كلب البيت!.. سأصرخ فأستنفر القرية كلها عليك!..

- يا ابنتنا كلامك عيب، لا يقال مثله هذا!.. - قفرت الكنة من مكانها على صوت السلفة مرتعبة. وسقطت منها كومة الخيوط الذهبية على أرض الغرفة، - أستحلفك بالله لا تفضحيننا في القرية...

- سأفضحك في القرية يا عديمة الأخلاق. لم يبق عندي ما أخجل منه!..

- لطمت داريت فخذيها وقد احتدّ صوتها. - لم نعد أحراراً أن نمشي على رؤوس أصابعنا في البيت الذي نشأنا فيه. لو كانت أُمي حية لما تجرأت أن تقول ما قلتِ يا صاحبة الساقين الطويلتين!..

- ارتاحي يا ابنتنا، - تسمح الكنة على ظهر سلفتها، - لا أقول لك شيئاً عن نية سيئة. وما كنت أنوي أن أقول شيئاً.

- ارفعي يدك عني!.. لا أسمح لكِنَّه مثلك أن تفعل هذا بي!.. - دفعت داريت الكنة فأبعدتها. - لو لم أكن مجنونة لما جئت إلى هنا معتبرة إياك من البشر!..

يا أكوز! أين هذه الصبية؟ هيا بلّغي حاغور أن يجهز العربة!.. وأنتِ جهّزي ملابسي للسفر.

- يا ابنتنا، ارتعبت الكنة، - ما تفعلينه عيب؛ ألا تنتظرين أخاك الأكبر ريثما يودّع ضيفه ويعود من ظاهر القرية!.. بم أجيبه إن سأل عنك؟

- هذا الذي تأتين على ذكره، أهو أحسن منك؟! لا يتراقص اثنان مختلفان، متى فقدت أَمك فأرض والدك لن تسعك.

كانت في منتهى الغضب ولكنها لم تستطع إلا أن تدنو من النافذة حين سمعت وقع حوافر الخيل. أباته قازجري يدنو من سور البيت مع فارسين. انفعل

قلب داريت. وداخ رأسها. ونسيت الكلمة الجارحة التي كانت جهّزتها للكنة. واتجهت إلى الباب بثوبها العريض الملتف على قياس الخصر، وعادت إلى غرفتها أيام عزوبيتها.

واحتارت الكنة التي كانت تتلقى الكلام المهين لا تعرف ماذا تفعل. ولم يخطر لها أن تتعرف الضيف القادم من خلال النافذة. أيُّ سلفة مشؤومة ساقها الله إليّ؟! كنائن القرية يشكون من الحموات الظالمات، وأنا من سلفتي! رأت كومة الخيوط الذهبية على أرض الغرفة فركلتها قائلة "إلى الجحيم!" "وهل يجوز أن تخلقي مشكلة منها؟ إن لم يأتوا بها من القرم فكل شخص من النغوي يدخل قريتنا يأتي بها. الصندوق مليء بها. ولكن ابتنا لا تقبل أن يكون عند غيرها ما عندها هي. وهي كاذبة وإن ادعت أنها لا تملك منها. عندها الكثير فلا تعرف كيف تتصرف بها. كانت تريد أن أقدمها لها بيدي... كان عليّ أن أناكدها فأمدتها إليها!.. لم أصادف في حياتي مثل ابتنا مهما سمعتُ. تتقبل منك حتى براز كلب!.. طال وقوفي هنا. عليّ أن أتصرف وإلا ركبَتِ العربية وأوقعتنا في ورطة لا مخرج منها، والحال أن أخاها لا يحتاج إلى حجة لينهال عليّ تقريعاً. ينظر إليّ كل يوم شزراً. وليلة البارحة أدار ظهره إليّ وبقي يتنهد إلى أن استغرق في النوم...

- هل هجر آل ناورز بيتهم؟! - سمع أهل البيت صوت أباته قازجري. غريب أن بيتكم اليوم دون ضيوف. وأين ضيفكم؟ وهل ابن ناورز خارج القرية؟..

- الحاج عمر يودّع ضيفه.

- لماذا اختصر زيارته؟

- لم يأت الأمير ججقوه في زيارة خاصة إلينا، بل عرّج علينا في طريق عودته من القرم.

- وهل كان الأمير ججقوه ضيفكم؟.. - تبين أن داريت هي من يسأل أباته قازجري عنها، في حين يجري الكلام على الأمير ججقوه. - لم أعرف أنه كان ضيفاً عليكم، ابن ناورز لا يخبرك عن ضيوفه!.. لا أعرف إن كان يريد أن يعيش عمره متخفياً. والله كنت أريد أن أقابل الأمير ججقوه... ألم تكن

مناسبة ممتازة أن أراه هنا دون حاجة إلى السفر إلى البجدوغ؟! أكونان ابتعدا؟!

- خرجا مع الفجر.

- لا فائدة إذن!.. ما أحوال الضيف الآخر إذن؟ كيف يقضي وقته في البيت؟ عرفت داريت التي كانت تنصت على الحديث بقرب النافذة أنها هي المقصودة بالسؤال، فقالت في نفسها: "كان بإمكانك أن تزورنا قبل الآن لو كنت تريد أن تعرف من تسأل عنها. لولا أنت لبقيتُ في بيت أهلي. لو كنت أعرف أنك تعيش بهذا الفهم المحدود لما قدمت لك الكيس الثمين ذكرى مني. استهلكك فيه ما عندي من الخيوط الذهبية المشربة بالحمرة!.. وأنت أينما سافرت لم تقدم لي سرّاً أو علناً هدية لي. حُبْتُ الرجل عميق بمقدار عمق جيبه. أتيت من أجلك خصيصاً تاركاً آل شراًقه؛ فماذا كان يضيرك لو أتيت في اليوم التالي؟ إن كنت تنساني متى غبت عنك فلا حاجة بي إلى مثل هذا الرجل. ما أريده هو أن أظل في بالك إن كنت راكباً أو راجلاً، أو طارك المجرمون، أو عدت إلى بيتك فأعدتْ لك الزوجة التي تعيش معها المائدة، ثم نمتما على وسادة واحدة ورأسكما متلاصقان... فلماذا تعبت بعواطفني إن كنت تعرف أن رجولتك قاصرة عن هذا؟!

تقف غُشْباق غارقة في أفكارها العذبة أمام أباته قازجري قائلة "سمع الله أشجاني فساقلك إليّ. ما أجمل هذه المصادفة أن تأتي في النهار لو رأتك ابنتنا الغاضبة في دارنا لما غادرتنا. يا ربي ما أخبت سلفتي هذه!.. لا شيء ترتدع عن فعله إذا خطر لها. ألا ترى كيف تهددني باستنفار القرية عليّ!.. ماذا كان بيدنا لو وصل هذا الرجل الكبير ونحن في مشادة؟ كانت فضيحة مجلجلة لو حدث هذا!.."

- هل تقصد ابنتنا يا قازجري؟ - أسرع غشباق متهللة الوجه. - هل نخبر ابنتنا الضيفة؟.. يا ابنتنا، يا ابنتنا!.. أأنا ضيف كبير. هل تسمعين يا ابنتنا؟ جاء أباته قازجري!..

خرجت داريت من الغرفة.

- أهلاً يا قازجري!..

- يا عجي يا داريت نسيت منذ متى لم أرك، - استقبل أباته بقامته التي تضاهي قامة الفيل المرأة الخارجة من الغرفة بترحيب مصطنع، مخفياً أنه رآها قبل أيام. - كيف تقضين أيامك بإذن الله؟ شرلاًقوه ناغوه أيضاً أليس بخير؟ وجدت نفسي في حدود أرض آل ناورز فسألت عنهم، فقيل لي إنك هنا فجئت كي لا أعود دون أن أراك. وتبين أن عند من قصدتهم ضيفاً آخر... ماذا أيضاً... أنظر إليك فأراك في شرح الشباب وأتم العافية. يا غشباق أرى سلفتك، تأبى أن تشيخ، بل تزداد جمالاً. انظري إليها: ابنها في سن الزواج ومع ذلك فكأنها هي أيضاً كذلك!..

- لا يتوقع مني أحداً يا قازجري أن أقعد عجوزاً فانية لمجرد أن ولدي سيأتي بكثرة!.. وهل أقتنع بشرلاًقوه لهذا السبب؟.. - قابلت داريت مزحة الضيف بمزحة. - يا ليتني كنت أعرف ما أعرف الآن فبقيت عازبة. كنت جعلت آل شرلاًقوه يعبرون البحر الأسود لاختبار رجولتهم!..

غشباق تهمز رأسها مع السلفة. ما أحسن أن يصفو قلبك أخيراً!.. ستنفج الأمور الآن بإذن الله. وجهي الأمر بفلك الخيل من العربة أفضل من أن تتفوهي بالحماقات. من تستطيعين إقناعه بأن قوام العجوز مثل قوام الصبية!.. ستقعدين يوماً ما عجوزاً وأنت ترددين هذه الترهات. كثيرات من أمثالك حاولن ولكن لم يُفلحن في استرداد الشباب. جشمن أنفسهن الكثير من الصعاب.

دعنا الضيف إلى الدخول. ودخلت داريت إلى المضافة كي لا تتركها الضيف وحده. كان هذا ما تريده، وكان ما وراء نزقها المستمر طوال ثلاثة أيام. هدأ قلبها الذي كان يتلوى ألماً حين صارت في حضرة قازجري، وارتسمت حمرة خجل على وجنتيها.

انفعل قلب قازجري خلافاً لما كان في الماضي. وسرت نعومة لذيدة في جسده. وأنصت إلى نبض قلبه كأنه يسمعها. وألقى نظرة على داريت الواقفة عند الصوفا قريباً من الباب. الوجه المستدير يتناسب مع الجسد المكتنز، وكذلك

الأرداف الملتفة. ورأى الكتفين نحيلتين جميلتين. واليدان البيضاوان الناعمتان تبدوان من الكُمَّين الخمرين.

خطر على بال قازجري أن يدخن. فسأل يريد ملء الوقت:

- وأخيراً كيف تقضين أيامك يا داريت؟

- وماذا أفعل يا قازجري؟ نعيش كما نعرف، - قفز قلب داريت من صدرها بعفوية فخاها صوتها.

أمسك أباته قازجري بكيس التبغ فانفطر قلب داريت لا تعرف ماذا تفعل. الآن فحسب عرفت جمال الكيس الذي بيده. الزخارف عليه بخيوط ذهبية متنوعة الألوان. ومن الرباط الذي بدا تتدلى صغيرتان مختلفتا اللون. لا تتذكر داريت أنهما جلسا وحدهما منذ أن تحرك شيء في قلبها نحو قازجري، ولم يحدث أن تبادلا الحديث عن المشاعر وجهاً لوجه، سرّاً أو علناً، كما اليوم. قالت داريت: الآن إن كان عندك ما تقوله فقله، نحن الآن وحدنا. ليس في العالم من يسمعون. ليتني كنت مكانك، كنت بُحت لك بكل ما في قلبي الملتهب كما تبوح أشعة الشمس للأرض... أنت رجل، أنت من يجب أن يبادر. حسبك أن تمد إليّ طرف الحديث وأنا أتكفل بالبقية...

الفصل السادس

-1-

الأبزاخ أناس جبليون: الشابسغ والويخ على يسارهم ابتداء من نهر لانا إلى نهر شَحَه غُوشه. وعلى يمينهم إلى الشمال الغربي البجدوغ، والجمكوي إلى شرقهم. قلوبهم كبيرة كما كَبُرُ الغابات الكثيفة على الجبال. وهم متجهمون، شُعْتُ اللحى والشوارب، نظراتهم تشبه نظرات الطيور الجارحة. وفي غياهم يسميهم أناس: "الأبزاخ الطحالب".

رمباكوه بحقان على الطريق إلى الأبزاخ معتدلاً بأنهم أرسلوا وراءه: يريد أن يصطحب بترز الحداد وحاغور الفلاحين، ويسافر إليهم ضعفاً. يسمع في كل

مكان أصوات المحشّات. الفلاحون بملابس رقيقة يرمون وراءهم أكوام الحشيش الأخضر. كان بجقان على علمٍ بسفره فلم يعرف راحة طوال الأسبوع الماضي: يخرج مع الفجر، ويعود في الظلام حتى حشّ ما يكفي أبقاره وأبقار جاراته الأرامل. وكوّم أكثرها. واتفق مع زوجته ومع جاراته الأرامل على أن يدرسن البقية. ثم ركب الطريق.

مضى زمن طويل على اتخاذ رمباكوه الأبراخ أصدقاء. يدعونه في أفراحهم، ويُخبرونه بمآتهم. ومهما كانت مناسبة زيارته لهم لم يجد حتى الآن صدوداً من أحد. يعيشون متواذّين متماسكين، محافظين كلٌّ على مكانته: الكبار كبار، والأصاغر سنّاً في مكائهم. ولا يعرف عنهم كثيراً من الحميّة القاسية. يتجشّمون الصعب من أجل العدالة والاستقامة، ومن يكذبُ منهم أشهروا عليه السيف، وربما كان هذا السبب في تلقيهم بالطحالب. وكما لا يجتمع الماء والنار فكذلك لا تجتمع الشجاعة والجن على طريق جبلي واحد. يقولون: إن كنت خائفاً فلا تقف على حافة الصخرة فيدوخ رأسك.

سرت فرحة دافئة على وجه بجقان وهو يفكر في الأبراخ. من سيراهم في مكان استعراض الشجاعة الذي يدعوه إليه جَنَجَتَه سليم كثيرون. سيزور نارج الذي لم يره منذ خريف العام الماضي، ويبارك لمن عندهم مناسبات سعيدة، ويعزي من خسرو أحد أحبائهم.

رأى رمباكوه الفلاح الذي يرمي وراءه أكوام الحشيش فعَرَج عليه يريد أن يُريح الحصان ونفسه في آن. تبَيَّن أن الحشّاش أكبر منه سنّاً بكثير. العرق بين غضون جبينه. والشعر شاب تماماً. والقميص الذي تشرب العرق ينسدل على البنطال المهترئ.

- بارك الله في حشيشك يا زعيم الخير!..

- حياك الله يا أخي الصغير!.. - قال العجوز وهو يحمل حزمة الحشيش. ثم

غرس يد المحشة في الأرض. - تفضل، اجلس، من أين تأتي بإذن الله؟

- من طؤزيس، يا زعم الخير.

- هل قلت طؤزيس؟ تأتي من مكان بعيد جداً. ما الأخبار في نواحيكم؟ ماذا

يقول الفلاحون وماذا يفعلون؟

- الهدوء يسود نواحيها يا زعيم. الفلاحون خرجوا من صقيع الشتاء فلا يتركون حشيشاً في البرية¹.

- ألا يقولون في نواحيكم: الريح الشرقية تجفف الأرض، غضب الله على من عنده ماعز.

- يقولون: حشيش الربيع ينثي، غضب الله على من لا حليب عنده.

- وهذا صحيح. - تفحص العجوز الضيف المسافر. وتكلف سعدة، - إذن على كلامك ما العمل إذ كانت الملعقة الفارغة تُشقق الشفتين؟- إذا عاجلت الرزق وحاربت آخره فلن تمزق الملعقة الشفتين يا زعيم الخير.

- وهذا صحيح. على كلامك فلاحو منطقكم يستغلون الوقت لصالحهم.

- ما العمل إن لم يكن في البيت طعام فهو مغارة، والمائدة إن لم يكن عليها ما يؤكل فهي مجرد لوح قديم من الخشب. يجمعون المال قائلين: الحبة التي وقعت على الأرض وتلك التي وقعت على ظهر الثور لا ينضجان معاً.

- وهذا صحيح. من عنده فالسلة غطاء غليونه.

- ولحم العصفور حساء لمن ليس عنده يا زعيم الخير.

- أراك أيها الضيف حافظت على طؤزيس التي خرجت منها.

- لماذا أيها الزعيم؟

- أقول هذا لأن في طؤزيس بجقان رمباكوه. ليس رمباكوه من معارفي. ولكني سمعت كثيراً ذكره بالخير. فلاحو آل ناورز المتنفدون عندهم سند ممتاز. يقال، وأنت تعرف هذا دون أن أقول لك، إن رجولته وعقله متلازمان. ولا يخفي أنه على صلة بالناس. أراك لا تعلق بشيء على فلاحي قريبتكم! - استغرب العجوز صمت الضيف الفارس، - أياكون نسبكم غير صحيح؟ لم أسمع أن رمباكوه جرح شعور أحد من الفلاحين.

- يا زعيم الخير، ما يدعوني إلى عدم التعليق بشيء على رمباكوه بجقان هو أنه

¹ القول وتاليه من الأقوال التي تعتمد على السجع والجناس بين طرفي الجملة.

أخي الأكبر مني، - لم يُرد رمباكوه أن يعرفه العجوز، إذ استحيا من المديح الذي كِيلَ له.

- ما أغرب ما تقوله!.. ألقى الحشاش العجوز نظرة رضا ثانية عليه مستغرباً ما يسمع. - إذا كنت الأخ الأصغر لرمباكوه بجقان فأنت ضيف غير عادي، أدعوك مرة أخرى إلى البيت. لا يمكن اعتبارك ضيفاً كسائر الضيوف. أدعوك مرة أخرى. ليس زاد الحشاش الذي أطعمتك منه مائدة.

- ليق بيتك عامراً يا زعيم الخير!.. أعدّ تذوقي من طعامك كأني أكلت في بيتك من الشبس والباستا. لا تؤاخذني، لا يزال أمامي مسير نصف نهار، وعلى مبدأ: متى أكل الضيف نظر إلى باب الخروج. يجب أن أصل إلى باستوك الليلة.

- لا عليك أيها الضيف!.. رضي الله عنك إذ توقفت عند كومة الحشيش العائدة لي. بلّغ أخاك الأكبر بجقان تحياتي الفلاحية. وقبّل عني جبينه.

- باسم من أبلّغ بجقان التحيات يا زعيم؟

- أنا من أسرة "بات"؛ فبلغه باسم بات الفلاح. مع السلامة. حقق الله مرادك حيث تتوجه!.. يسرني جداً أنك قريب رمباكوه بجقان. أعتبر نفسي التقيت به فحادثته.

- أسعد الله شيخوختك يا زعيم!..

وقبل أن يتخذ بجقان طريقه صاح الفلاح في إثره:

- لماذا قالوا إذن: في موسم الحشيش لا تتوقع رؤية الثلج؟.

- المعنى: ما لم تجده في موسم الصحو لن تجده في موسم المطر.

- وهذا صحيح، رافقتك السلامة.

لم تغب صورة الفلاح العجوز عن عيني بجقان منذ نزل من المرتفع إلى أن دخل المضيق. وما لم يكن ينساه هو العرق المتجمع في غضون الجبين. لا يزال قوياً رغم سني عمره الكثيرة. وعقله يصل إلى البعيد. ليس لأول مرة يلتقي بجقان بمسّي الفلاحين. صادفهم في المضافات وفي البراري وأماكن حرق الغابات وورشات الحدادة. ينشرون الحكم في حفلات الأعراس وفي حفلات الجابشه.

يهوّن هؤلاء من عيشة الفلاحين. حين تتلو المأساة المأساة يُمرّغ العيش رأسك في الحزن. ولولا هذا الوضع أكان العجوز بات يستطيع حمل النير الذي على عنقه؟ ما يحشه العجوز يجب أن يقاسمه إياه، كما يقول العجوز، المتنفذ الكسول الأنيق، الحاضر في مثل هذه المناسبات شراًقوه. يستهلّ نهاره بالمزاح ويختتمه به.

خطر زبش لمباكوه فجأة وهو سارح في انطباعاته عن الفلاح العجوز: يا رب أكون لم يسمع كلامي ولاحق مامرقوه؟ لم يأت في الموعد الذي حددته له. انتظرت في الأيام الثلاثة الماضية عسى أن يأتي في وقت متأخر عن الموعد. وإن حضر اليوم أو غداً فابنة آل شحبه تعرف مكاني فسيوافيني. إن لاحق المجرم قضى على يده. وأطلعتُ شباكوه على الأمر إذ قد يصادفه. ولم أستطع مقابلة أبده نارج لأنه مسافر. هذ الشاب جمكوي زبش أتوسم فيه أن يكون رجلاً في المستقبل. أبدى لي احتراماً كبيراً مدة سفري معه إلى الجمكوي، وإقامتي فيها. أبدى لي من الاحترام ما لا يبدیه رجلٌ. فيه كثيرٌ من روح الأدیغة وهو في هذه السن المبكرة، لا أعرف أين تعلمها. رافقي وعقله يصل إلى كثير من القضايا، وعرفني على كثيرين من الفلاحين. وسمعت المرحوم والدي يقول إنهم يُكنون في الجمكوي احتراماً كبيراً للروح الأدیغة. وبالنسبة إليهم فنحن الشابسغ لا قيمة لنا. نقضي عمرنا وانعدام قيمتنا على قدر جهلنا. لا أفهم ما السبب في هذا. أقول: ربما لأنها بلاد صغيرة ولكن البجدوغ بالنسبة إلى الجمكوي لا يسكنون بلاداً كبيرة. ونحن لسنا أكثر من غيرنا كثيراً. أظن أن الأرض الجبلية تناسبنا أكثر من غيرها نحن والأبزاخ. يتوافد على الجمكوي ضيوف كثيرون من بلاد أخرى. قراهم متجاوزة ليس بينها مسافات بعيدة حتى ليتمكن أن ترى قرية من قرية أخرى. ربما حياتهم في أماكن مكشوفة تدفعهم إلى مزيد من الحذر. ها قد مشيت نصف نهار ولم أر موقداً للشابسغ بوضوح. ليس السبب عدم وجود قرى للشابسغ. بل تفضّل كل قرية الحياة في مغارتها. يجدون فيها راحة وأماناً أكثر.

انحدر رمباكوه بجقان مع المواشي الرائحة مساء إلى القرية، وتوجه إلى ورشة بترز

شعبان.

- من هذا الذي أراه قادماً؟! - استقبل بترز شعبان الفارس. - أهلاً يا بجقان، لم أتوقع البتة قدومك اليوم. قبل لحظات خطرت ببالي، فتحقق قولهم: من تأت على ذكره تجده أمامك.

- ماذا تفعل في القرية يا بترز؟ هل الإله لبش¹ راضٍ عنك في مهنتك؟.

- لا أعرف إن كان راضياً، ولكني لا أذكر جهداً. كيف حال خنجري الذي صنعتَه يا بجقان؟.. - لم أختبر سيفك بعدُ يا شعبان. سنقع بعد غدٍ في موقف نستعمله فيه. ألم يخبرك أصدقاؤك الأبراخ الملتحون بموقعتهم التي سيريَقون فيها رجولتهم؟ ألم يوجهوا إليك الدعوة؟.

- نعم دَعَوني، لأجل هذا قلت لك إني كنت أنتظرُك غداً لا اليوم. أخبرني من عاد من عندك أنك قادم. تعال اقترُب مني لحظة، - مدّ الحداد يده فأخرج من الحفرة قطعة بين الخنجر والسيف. - أليست مثل القطعة التي معك؟.

- نعم، مثلها لأن الحداد بترز هو من صنعها.

- أصبت يا بجقان. - ضحك الحداد. ولمعت أسنانه من بين هباب الفحم. - ما رأيك فيها؟

- سأقول رأيي فيها حالاً، - أمسك بال سلاح وهو به على السندان كأنه يضره حقيقة. ثم ضحك. لا تخف، أنت لا تصنع سيفاً لا يحز الحديد. قَرَّب رمباكوه السيف إلى لحيته ومررها عليها. سأحلق تماماً حتى لا نلتبس بالأبراخ الملتحين. أحرامٌ أن يكون لدى شباكوه شيءٌ ليس عندي؟.

- لا يا بجقان! أما وعدتكما بأن أصنع لكما سيفين متشابهين تماماً؟ وها قد وفيت. أما قالوا إن شباكوه سيبقى عند الأبراخ؟ سأعطيه السيف هناك. لماذا نحن واقفان هنا؟ تعال إلى البيت. ستجلس وأحلق لك فلا أبقي على وجهك شعرة. متى سمعوا بقدومك اجتمع الفلاحون عندك. والله فعلت خيراً يا بجقان إذ جئت قبل ليلة. يسرني جداً!..

¹ هو إله الحدادة عند النارتيين.

- دَعْنَا نَنْجِزْ مَهْمَةً وَاحِدَةً قَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ الْبَيْتَ يَا شَعْبَانُ!.. فِي بَاسْتُوكِ فَلَاحِ اسْمِهِ حَاغُورِ مُوسَى تَعَرَّفْتَ عَلَيْهِ فِي قَدُومِهِ إِلَى آلِ نَاوُزِ الْأُسْرَةِ الْمَتْنَفِذَةِ. أَعْجَبْتُ بِهِ. كُنْتُ أَوْدُ مِرَافَقَتَهُ إِلَى بِلَادِ الْأَبْرَازِخِ.
- حَاغُورِ مُوسَى مِنْ فَلَاحِي قَرِيبَتِنَا. يَنْشَأُ فَلَاحاً لَا يُعْلَى عَلَيْهِ. - لَا شَيْءَ يُفْضِلُ مِرَافَقَتَهُ فِي سَفَرٍ. فِيهِ مِنَ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ مَا يُجْعَلُهُ قَادِراً عَلَى أَنْ يَصْحَبَكَ إِلَى جَمْعٍ، وَيُخْرِجَ بِكَ مِنْهُ. يُحْتَرِّمُهُ فَلَاحُو بَاسْتُوكِ. لَيْسَ مِمَّنْ يُخْلَفُونَ بِالْوَعْدِ. وَاحِدٌ مِمَّنْ يَلْتَوْنُ الدَّعْوَةَ وَإِنْ كَانَ هَلَاكُهُ فِيهِ.
- سَنْذَهَبُ وَنُخْبِرُهُ إِذْنًا.
- رَكِبَ رَمْبَاكُوهُ وَبَتَرَزَ، وَتَوَجَّهَ إِلَى دَارِ شَرْلَاقُوهِ. خَرَجَ عَلَيَّ سُلْطَانُ مِنَ الْبَيْتِ، وَعَرَفَ أَحَدَ الْفَارَسِيِّينَ:
- أَهْلًا يَا رَمْبَاكُوهُ، - قَالَ شَرْلَاقُوهُ الْأَصْغَرَ مَعْتَدًا بِنَفْسِهِ، - مَا أَبْعَدَ مَكَانَ وَقُوفِكَ!..
- جِئْنَا نَطْلُبُ حَاغُورَ مُوسَى، - لَمْ يَتَرَجَّلْ رَمْبَاكُوهُ مِنَ الْخِصَانِ.
- الْفَلَاحُ الَّذِي تَسَالُ عَنْهُ فِي الْحَشِّ. - أَجَابَ عَلَيَّ سُلْطَانُ دُونَ أَنْ يَنْطِقَ اسْمَ حَاغُورِ اسْتِخْفَافًا.
- حَاغُورِ مُوسَى، - قَالَ بِحَقِّقَانِ مُشَدِّدًا عَلَى الْاسْمِ، أُبْلِغُهُ مَتَى عَادَ مِنَ الْحَشِّ أَنْ يَكُونَ جَاهِزًا غَدًا صَبَاحًا لِأَنَّنَا ذَاهِبُونَ إِلَى بِلَادِ الْأَبْرَازِخِ.
- وَاللَّهِ لَا أَعْرِفُ أَنْ عِنْدَنَا فَلَاحًا جَدِيرًا بِاصْطِحَابِهِ إِلَى الْأَبْرَازِخِ، - ابْتَسَمَ عَلَيَّ سُلْطَانُ.
- لَمْ آتِ إِلَى هُنَا لَتَرْجِيَةِ الْوَقْتِ يَا شَرْلَاقُوهُ، - لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِي صَوْتِ رَمْبَاكُوهِ، - بَلَّغَ حَاغُورِ مُوسَى، دُونَ أَنْ أَكْرَرَ، مَا قُلْتُ لَكَ.
- انْصَرَفَ الْفَارَسَانِ مِنْ أَمَامِ دَارِ شَرْلَاقُوهِ.

-2-

حُيِّلَ لِحَاغُورِ مُوسَى أَنْ بِلَادِ الْأَبْرَازِخِ مُخْتَلِفَةٌ جَدًّا عَنْ بِلَادِ الشَّابَسُغِ. يَتَعَجَّبُ مِمَّا يَرَاهُ. وَإِذَا كَانَتْ الْغَابَاتُ الْجَبَلِيَّةُ تُشَبِّهُ تِلْكَ الَّتِي فِي الشَّابَسُغِ فَإِنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى

الأبزاخ الذين خالطهم عالم آخر تماماً. رأى كثيرين من فرسان الأبزاخ في نواحي باستوك والبجدوغ، ولكن لم ير قطُّ جمعاً كبيراً كما يرى اليوم، وربما كان هذا هو السبب في تخيُّله أرض الأبزاخ عالماً آخر. كان يسمع وصف الأبزاخ بالملتحين كثيفي الشعر فيضحك معتقداً أنه لا يجوز تعميم هذا الوصف عليهم إذ قد يكون هؤلاء لم يجدوا الفرصة للحلاقة. والآن يغلب لون اللحي السوداء والشوارب على من اختلط بهم. كبارهم وصغارهم فرسان إلا النساء، ومدحجون بالسلاح كأهم سينطلقون اليوم لمجابهة جيش من لصوص المواشي.

تلتف غابة جبلية طولها بضع غلوات حصان، وعرضها أقل من غلوة، وإذا نظرت إلى اليسار رأيت جبلاً كالجدار تسقط عنك قبعثك إذا حاولت بلوغ قمته بالعين. وإلى اليمين حيث ترحف السحب المنتفة، توجه جنجته سليم بالضيوف... ومع أن المضيف يعج بالفرسان فإنهم ما يزالون يتوافدون. وفي أعلى المرتفع تتوقف عربات النساء. وتعرف، وإن لم تُمنع النظر، أن ضيوفاً كثيرين يُدعون إلى حيث يقدم الطعام للرجال: هؤلاء يقفون في المكان الذي يتمتع بإطلالة أفضل مع مظاهر الاحترام. والمضيفون في الخدمة. ويوقفون الصبيان قريباً من الصخرة الكبيرة التي أُتخذت مطعماً للرجال. والمسنون من الرجال يجلسون في مرتبة أعلى من الجميع. والشباب الذين ما زالوا في عنفوان قوتهم يقفون قريباً من النساء المسنات. والكهول أقرب إلى الصبايا.

يعن حاغور موسى النظر معجباً بتعامل الأبزاخ فيما بينهم. ما أحسن أن يتعامل الناس بهذه الطريقة المؤدبة!.. وليست أرض الشابسغ محرومة من الأدب. وهؤلاء أيضاً أبناء أمهات شركسيات. ويعيشون باحترام متبادل. ولكن مهما قلنا فليس بيننا مثل هذه العلاقات... لن نستطيع أن تصف المتنفذين والفلاحين في صف واحد. وإن فعلتَ اعتبر المتنفذون فعلتك إهانة العمر. ولا أقول إن الأبزاخ خالون من التفرقة البتة، ولكنك لا تلاحظها. ثم إن الأعجب من كل هذا هو عدم وجود عريف للحفل في الساحة ينظمه، فكلُّ يتبع التقاليد المعروفة بينهم. تساءلت عن سبب إعطاء الصبيان المكان الأعلى ولكنني فهمت الآن السبب.

- يا بجقان، قد يكون القصد من وضع هؤلاء الصبيان في الطليعة تربيتهم، تطبيقاً لقولهم: ما تراه العين يساوي العمر كله.
- لا أعرف سبب وضع البنات مقابل الكهول، والشباب مقابل المسنات.
- وهذا له مغزى: - ابتسم رمباكوه، - ربما يؤدي خلط دميين حارين إلى الفوران... ما رأيك أنت؟
- وهذا له أساسه يا بجقان...
- ألقي حاغور موسى نظرة جانبية إلى بترز شعبان الذي ظل صامتاً. يتفحص شعبان ظهر المرتفع والمضيق والجبل الصخري حيث تمارس البطولات. وكلما خرج فارس من عمق الغابة انتفض برأسه. بل يمتد بصره إلى ما وراء النساء المسنات في المرعى.
- عجيب غياب شباكوه!.. - كلما مضى الوقت سأل شعبان قلقاً.
- أتأملهم فلا أراه بينهم.
- ليس شباكوه وحده الغائب، بل نارج أيضاً. - مرة أخرى لفت بجقان انتباه الواقفين. - لا تنظر يا شعبان إلى مكان وقوف الضيوف! شباكوه والدته أبراخية ولذا لا يعدّه الأبراخ ضعيفاً.
- يبحث بجقان عن جمكوي زيش من وقت إلى آخر كما يبحث عن نارج وشباكوه. شباكوه يعرف أصول اللياقة وقواعد التعامل، أما زيش فهو من لا يعرف شيئاً، ولم يظهر البارحة ولا اليوم.
- أليس هذا نارج وشباكوه؟ كيف تقول إنهما غائبان؟ - صاح بترز شعبان.
- أين هما؟ يبحث بجقان.
- يقفان في آخر صف المسنين.
- عربة الثيران التي ظهرت من الطريق الخارج من الغابة تثير اهتمام القريبين منها، وضجةً بينهم غير مألوفاً:
- يأتون بالرجال لابس القبعات النسائية¹.

¹ يجري الكلام على نوع من القبعات النسائية القديمة الملونة.

في العربة ثلاثة أشخاص يرتدون قبعات ملونة. ولما رأى الواقفون فارساً من بين المسنين خرج ووراءه فارسان آخران هددوا. وقبل أن يصل الفرسان الثلاثة تماماً خرج الثلاثة أصحاب القبعات الملونة من العربة.

- من هؤلاء الذين يرتدون قبعات نسائية ملونة؟ - لم يُطق موسى صبراً.

- هل سمعت أن الجبان يأتي بالقبعة النسائية؟ - قابل السؤال بسؤال.

- سمعت.

- إذا كنت سمعت فمن يلبسون قبعات من خرق ملونة يسموهم بأصحاب القبعات النسائية. متى وقع القوم في موقف صعب فالعادة أن يُلبسوا من يصابون بالجبن قبعة من هذا النوع. من يُلبسونه هذه القبعة لا يحق لوالديه ولا لزوجته ولا لأولاده أن يقفوا وسط الساحة. وإن أبدى شجاعة في الحرب خلعوا عنه القبعة. وُفِع الحظر عن أهله.

- وإن لم تحدث معركة؟

- إن لم تجر معركة أو حرب يأتون بهم إلى مثل ساحة اختبار الشجاعة التي تراها اليوم. هل مضى على ارتداء هؤلاء الثلاثة قبعاتهم زمن طويل؟

- منذ العام الماضي. - ساهم المضيف جنجته في الحديث. - في العام الماضي حين هاجمنا النغوي البدو أبدى هؤلاء جبناً. رموا السلاح واختبؤوا في الغابة وهم يرون العدو يحرق القرى ويسبي النساء. ولما دُحر العدو خرجوا من الغابة ولكن لم يتقبل أحدٌ جبنهم.

- وهل هم أرباب أسر؟ - سأل رمباكوه بجقان.

- أحدهم رب أسرة، وهو الواقف إلى اليمين... وابنه الأكبر هو من احتج على جبن والده. حين هربت الأسرة إلى المنخفض رفض الانضمام إليها وحمل السلاح وقاتل. هل ترون ذاك الحصان الأشقر هناك؟ أتكلم على الشاب الذي يركبه. أذن له الكبار أن يختلط بالجمع مكافأة له على رجولته. أما الآخران المرتديان قبعة العار فهما شابان.

- هل هؤلاء الثلاثة هم من أظهروا جبناً في منطقة الأبراخ الدنيا؟ - سأل شعبان.

- لا، كان هناك شخص رابع، غير أنه في الحقيقة أبدى رجولة إذ أنه حين ألبسوه القبعة دفعته الإهانة إلى أن يرمي بنفسه في تلك الهوة أمام الجميع.
- وهل هذه رجولة؟ - سأل حاغور.
- وإن لم يكن رجولة... لماذا يقول الأديغة: إن مجابهة الموت رجولة؟ اعتبر الكبار الإهانة التي شعر بها فدفعته إلى الانتحار رجولة فأعادوا إليه الاعتبار. وأعيد أهله إلى الجماعة.
- لا تفارق عيون المجتمعين في ساحة اختبار الرجولة الرجال الثلاثة ذوي القبعات الملونة. ويعرفون أصل الحكاية وإن لم يسمعوا كلام الكبير.
- اليوم يقف أصحاب قبعات العار في موقف إبداء الرجولة، - قال الكبير، متى جرى باتجاه تلك الصخرة وعدى الوادي قفزاً فله الحرية في خلع القبعة. وأقول، والله شاهدي، إن الصخرة التي جاء بها الخيل لا يرونها للمرة الأولى. لا تنسوا أن الحصان يكفّ عن الجري متى دبّ اليأس في قلب فارسه؛ أليس للحصان أيضاً روح؟ فإما أن تكونوا رجالاً وإما أن تموتوا!.. من منكم الثلاثة سيكون الأول؟
- ركب أصغر الثلاثة سناً وهو الذي كان يعض على شفثيه. حثّ الحصان وانطلق. طاف الساحة بسرعة حتى لا يظهر منه غير القبعة، وتسلق الصخرة العمودية بحركة واحدة، فسقطت القبعة مع قوائم الخيل الأربع التي ظهرت في الهواء.
- طار أنين القلق في الهواء ثم هدأ. وخفّ نبض قلب حاغور موسى كأن حجراً ثقيلاً سقط عن كتفيه.
- ركب الأكبر سناً بقبعته الملونة. جرى حول الساحة كما فعل من سبقه، وتوجه إلى الصخرة العمودية. وفي لحظة التسلق أفلت العنان ورمى بنفسه عن الحصان. أما الحصان فتابع جريه وعبر الوادي محمماً. ضج الحاضرون، وشاعت الفوضى فيهم، إلى أن خرج الفارسان اللذان كانا واقفين إلى جانب الصبيان ويدهما رسن حمار، فعاد الهدوء إلى الساحة.
- دنا الكبير في الحفل من الذي بقيت قبعة العار على رأسه:

- إن كنت محروماً من الرجولة أيها الجبان فأمسك بزمام الحمار، واتجه به إلى حيث تريد من جهات المعمورة الأربع، لتختاره موطناً لك. هذا قرار الكبار. ومنحك الحق في أن تستدعي أهلك متى وجدت مكاناً تستقر فيه.

حين سار الفارسان بالجبان لم يرفع أحد من الحضور رأسه ليتابعه حتى عبرا به المضيق. وما كان يهمهم هو ثالثهم المتبقي منهم. ركب الثالث رغم أن مصير سابقه الجبان صعب موقفه. جرى هو الآخر بالحصان حول الساحة، ثم انطلق كالسهم، وسقطت قبعة العار عن رأسه في الوادي.

بعدها انتهى الاستعراض عاد الرجل الذي قاد الأحداث إلى جمعه. وفي الحال خرج من الجمع نفسه رجل أسن منه مصحوباً بفارسين. سبق صاحبيه بمقدار رأس حصان، وتوجه إلى الجمهور الذي حضر إلى ساحة إبداء الرجولة:

- الكبار يطلبون ممن يرغب في اجتراح بطولة أن يقف وسط الساحة. تعاور الواقفون على إيصال نداء الفارس حتى علم به الجميع. خرج فارسان من بين الكهول، ومن الشباب خمسة أو ستة. ولم يتأخر عنهم بعض الضيوف. تشجع حاغور موسى للانضمام إلى الراغبين في اختبار رجولتهم، ولكن لم يجد من اللائق اللحاق بهم فجأة: عنده رفاق، وجيء به مرافقاً لضيوف الأبرار. انتبه رمباكوه إلى نية حاغور فالتفت إليه:

- ما نيتك يا حاغور؟

- أرغب ألا أتخلف عن الضيوف.

- أحسنت يا حاغور إن كان عندك مثل هذه النية!.. - قال رمباكوه بصوت رفعته حماسته، ولكن بهدوء، - لا عار في ساحة اختبار الرجولة هذه.

- أفهم يا بجقان.

- لا أظنك تفهم. إن فهمت فلا تفعل ما خطر لك فجأة.

- لا يا بجقان، ليست مسألة نزوة عابرة. - قال حاغور موسى هادئاً بصوته الغليظ. - يحدثني قلبي أنني سأربح في ساحة الاختبار.

- وأنا يحدثني قلبي أن أعبر السحابة البيضاء، غير أن رجولتي لا تُطيق رغبتى. لا يجوز اتخاذ قلبك مستشاراً وحيداً. يجب أن تستشير حصانك أيضاً. لا يقفز

أحد بحصان مستعار يا أخي الصغير. لا أقول هذا اعتقاداً مني بافتقارك إلى الرجولة. ترافقنا لأنك تتمتع برجولة فلاح. أعدك قفزت من الصخرة العالية لمجرد تفكيرك في الأمر. في بلاد الشابسغ كثير من المواقف التي يمكن أن نختبر فيها رجولتنا. لا تنس هذا أينما ذهبت يا أخي الصغير!.. ما يدفعني إلى هذا الكلام هو سلوك المتنفذين. ليتني أريتك كيف تصرف معنا شرلاًقوه علي سلطان قبل أن نأتي إلى هنا... من هذا الذي أراه؟ كأنه جمكوي زبش. نعم، هو بعينه. أيها الفتى البائس من يفعل فعلك؟! أخاف عليك وعلى حصانك أن يكسر المضيق رأسيكما... ألم تعدني على قبر أبيك ألا تتصرف بنزوة عابرة؟! - وفي اللحظة التي قرر فيها بجقان التوجه إلى الفتى لينصحه انطلق الشاب...

...

عاد مؤتمر الأبراخ إلى عمله بعد اختبارات الرجولة. وكانت مناقشة مختلف الموضوعات المعروضة عليه تمضي إلى نهايتها. ويمكن أن تلاحظ أن مجريات اختبارات اليوم جرّدت العاملين المتعبين في المؤتمر من تحفظاتهم من طريقة كلامهم، ومن تعاملهم فيما بينهم، ومن ترتيباتهم. يتناثرون في المرعى الجميل فرسناً ومشاة. والمسنون منهم يتسامرون تحت ظلال الأشجار. ومقابل هؤلاء مصحفٌ على المائدة. وفي مكان آخر بعيد عن الأسماع يتباحثون في موضوع الخلافات بين الأسر. توقف رمباكوه وصحبه مقررين عدم مغادرة المؤتمر دون إبلاغ أعضائه كأننا لا نوليهم احترامنا، بل ينتظرون أن يحلوا موضوعاً أو اثنين. أفهمهم أيها الشاب حقيقة موقفنا!.. - تابع حاغور موسى بعينه من نادوه بـ "أيها الشاب"، فاستغرب أن يُكلّف شاب بهذا الأمر بوجود رجال مسنين. وصار يرغب في سماع الموضوع.

وقف الشاب الذي كلّفه معتداً بأسرته أمام المؤتمر.

- ما طلبك من المؤتمر أيها الشاب؟ - سأل أكبر الأعضاء سنّاً.

- لا نرى القرار الذي اتخذته مؤتمر قريتنا مناسباً أيها الكبير، فجئنا به إليكم نكلفكم بإعادة دراسته وتقويمه.

- ما الذي لا يُرضيكم أيها الشاب؟
- ما لا يُرضينا يا كبير هو أن الفأس المسروقة لا تساوي عشرين ثوراً. وإن كانت تساوي حقاً فلا قدرة لدينا على سداذه.
- هاتوا صاحب الفأس، - أوصل المنادي حالاً الرجل. - هل صحيح أن فأسك سُرقَت؟

- صحيح يا كبير، سرقها مرتفقوه برسر.
- ضع يدك على المصحف، وأقسم أمام الناس أنك لا تظلمه.
- أقسم باسم القرآن أني لا أتهمه ظلماً.
- هل تقبل اتهام ابن أسرتكم مرتفقوه برسر بسرقة الفأس؟
- نعم يا كبير، - فأُس آل يدج سرقها مرتفقوه برسر.
- أقسم ويدك على القرآن أنك لا تتهمه ظلماً.
- أقسم باسم القرآن...
- ثقوا أن المؤتمر سيحل مشكلتكم على نحو صحيح. واطمئنوا أن الكبار سينصفونكم.

انضم ممثلاً الأسرتين إلى أبناء الأسرتين الجالسَيْن على الجانبين. وجلس الكبار المحكّمون مدة لا يُسمع كلامهم، ولكن يُفهم من حركاتهم موضوع نقاشهم. لم يكن حاغور موسى يحضر مثل هذا المؤتمر لأول مرة. ففي منطقة الشابسغ تجري المؤتمرات على هذا النحو أيضاً. كيف سينهي الكبار موضوع آل مرتفقوه؟ يقلق منتظراً النتيجة. بالغوا في تقييم الفأس. والجميع يعرفون أنها لا تساوي عشرين ثوراً... التقت نظرة حاغور فجأة بنظرة رجل آخر، وفي الحال سأله ربماكوه:

- ما رأيك يا حاغور في هذه المسألة؟
- والله لا أعرف يا بجقان، هذه متروكة للكبار... - ما إن أجاب حتى رأى موفدي آل مرتفقوه وآل يدج يُصرفون عن المحكمة. وسكت الواقفون في هذه اللحظة. ونهض الجالسون على الحشيش. وتقدم الواقفون جماعات إلى الأمام. لم يتحرك كبار المؤتمر. أحدهم متكئ بذقنه على رأس عصاه، والآخر منتصب

الظهر. وإذا كان أحدهم يجلس ساهياً فهو يداري حاله. وكلام الرجل المسن الذي وقف ليعلن القرار قصير إلى حد مقبول:

- يا آل مرتقوه وآل يدج، نرى قرار مؤتمر قريتك بشأن الفأس عادلاً. نحافظ على الحكم وإن كنا نعرف أن الفأس لا تساوي عشرين ثوراً، كي يرتدع من يفكر في السرقة، ويكون عبرة لمن يعتبر. ونلحّ على آل مرتقوه أن يسدّدوا ما حكم عليهم به في مهلة شهر واحد دون مناقشة أو اعتراض. سيبقى ليديج ثلاثة ثيران لأن فأسه لا تساوي عشرين. ونأمر مؤتمر قريتك أن يوزع السبعة عشر ثوراً الأخرى على أرامل القرية. ويضيف الكبار أن الغرامة ستتضاعف في حال لم يُنفذ الحكم. وهذا حكم قطعي لا يقبل الاعتراض.

انصرف الغائمون والغارمون من أمام الكبار دون كلمة واحدة. وفي الحال هدأت أرجاء المؤتمر. التفت سليم إلى بجقان يود أن ينصرف بضيوفه. وفهم الأخير الأمر فأشار بطرف مرفقه إلى حاغور. ولكن حاغور رأى متعجباً الرجل الذي التقت نظرتَه بنظرته يتوجه إلى المؤتمر برفقة شاب في حدود العشرين. وهبّ محاولاً أن يلحق به وينادي: تامبر!.. ولكنه كظم اندفاعه أمام الناس. تعرّف على الرجل الذي أقام معه بعض الوقت في غابة تمز، ثم انقطعت أخباره عنه. حين سمع أن النبلاء قتلوا تامبر بكاه كما يبيكي أباه دون أن يعرف الناس ما جرى له. ومهما عانى من عذاب لم يكن ينسى استقامة تامبر، ولم يمر يوم غاب فيه عن خاطره. وها هو الآن يقف أمام المؤتمر كأن لم يحدث له شيء. لماذا هو في بلاد الأبخاخ. هو من البجدوغ، ومن رفيقه هذا؟ يبدو من لباسه أنه ليس شركسياً. وقبعته، وبنطاله العريض من الأسفل غريان. وقميصه المسدل محزوم بما يشبه نطاقاً من الجلد. وخلافاً لعمره فوجهه الصبوح بريء وصريح.

وقف الاثنان أمام المؤتمر، فالتفت الجميع نحو الكبار منتظرين ما سيحدث وقد خيم عليهم هدوء قلق. ومنهم من تحلى عن مكانه المحدد وتقدم. وحاغور الذي هدأ انفعاله تلقّت يمنة ويسرة غير مدرك ما يجري. التقت نظرتَه بنظرته جنجته سليم. بدا من عيني المضيف جهله بالموضوع. ولما لاحظ حاغور هذا الأمر قال غير مطيق الصبر:

- أنا أعرف هذا الرجل.
- والله لا أعرفه أنا. قال سليم ونظرته إلى الكبار، غير عارفٍ إلى من يوجه كلامه.
- ما شكواك أيها الشاب؟ - سأل كبير المجتمعين.
- ليس ما عندي شكوى، بل رجاء يا كبير، - قال تامر بثقة.
- نسمعك.
- نرجوك، هذا الشاب الذي معي وأنا، أن تقبلونا مواطنين في الأبراخ.
- أتقصد اللجوء؟
- لا يا كبير، بل اعتبارنا جزءاً منكم.
- ضع يدك على المصحف وأقسم!..
- أقسم باسم القرآن ألا أقول غير الصدق يا كبير.
- وأنت أيضاً أيها الشاب.
- الشاب الذي معي إلهه غيرُ إلّنا يا كبير.
- انتفض بعض الكبار الذين سمعوا كلام تامر. ورفّوا بأعينهم. وضجّ الواقفون في الجهة الأخرى.
- جاؤوا بالكافر إلى حضرة المجلس! - قال أحد الواقفين.
- ماذا جرى لك؟ - نهر شخص آخر سابقه.
- وفي الحال شهر المتخاصمان مسدسيهما. وارتفع ضجيج من الناحية التي يقفان فيها. وارتفع فوق الجميع الكلام المؤثر لمن لم يقبلوا سلوك الرجلين. ورأوا عدداً من الناس تواجهوا في مكان الرجلين.
- أيتها الجماعة، - رفع كبير المؤتمرين يده. اهدؤوا لحظة!.. - ماذا يشبه إله هذا الشاب إذن؟
- إله هذا الشاب هو من يسمونه إله الكفار يا كبير.
- هل قلت: إله الكفار؟ - قال الكبير رافعاً حاجبيه. وألقى نظرة على رفاقه حائراً ماذا يفعل. واستدار فهمس لأحدهم. وهزّ الآخر رأسه حالاً مشيراً إلى موافقته له. - حسنٌ أن يكون للكافر إلهٌ. ليُقسم باسم إله الكفار. يقول

- الكبار: لن نناقش موضوعه ما لم يفعل هذا.
- نقل تامبر إلى رفيقه بالروسية كلام الرجل. وفكر في العاقبة غير المنتظرة للأمر.
- رفع الشاب قميصه دون أن يقول شيئاً، وأخرج الصليب المعلق بعنقه. وترجم تامبر ما يقوله الشاب والصليب في راحة يده:
- يحلف الرجل القوزاقي باسم الصليب ألا يقول إلا الحق.
- لا بأس إذن... اغفر لي يا إلهي، يا من يتوسل إليه الكثير ولا يتوسل هو إلى أحد، إن كنت فعلت ما لا يحلّ فعله. لم يحدث أن وجدت نفسي في مثل هذا الموقف. - قال الكبير، وبعدما جلس مدة يتمتم، سأل: - من أنت؟ وما الذي جاء بك إلى بلاد الأبراخ؟
- أنا يا كبير أتمني إلى البجدوغ. ومن يعرفوني ينادوني تامبر. ومن أسرة وابقق. قضيت عشر سنوات من سنوات عمري الثلاثين دون وطن. أُلجأني الأمراء - النبلاء إلى النجاة بجلدي، فعشت في غابة تحمز. وعشت في الجمكوي والقبرتاي. ولما لم يكفّ الأمراء - النبلاء عن ملاحقتي التجأت إلى البتكل القوزاق وعشت بينهم. والد هذا الشاب الذي معي كان مضيفي. وكان صديقاً وفيّاً لي. وظل يقاسمني لقمته حتى قتلوه. وحين يئسنا من إمكان الحياة هناك التجأنا إلى أرض الأبراخ. ونحن نتأمل منكم أن تقبلونا في عداد أبناء شعبكم. قولكم قولنا، وسلاحكم سلاحنا!
- ما اسم رفيقك القوزاقي؟ - سأل العجوز جمه تناو الذي لم يقل شيئاً إلى الآن ممتعضاً، من رأس عصاه المعتمد عليها بذقنه.
- اسمه ميشكا، واسم أسرته نكراس.
- هل قلت ميشكا؟ أيّ اسم هذا!.. - ولماذا لا تعود أنت إلى البجدوغ؟
- لم تعد يا كبير بلاداً للبجدوغ بالنسبة لي.
- هل في سجلك جريمة قتل؟
- هناك شيء ما ضد الأمراء - النبلاء.
- ورفيقك؟
- وهو الآخر انتقم من الأمير قاتل والديه. ولا يلام على ما فعل.

- هكذا إذن!.. - تلعنم العجوز مرة أخرى لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل.
وتأمل الجالسين بنظرة خفية. - من مُضيفكم في بلاد الأبراخ؟
- لم نتخذ بعدُ مضيفاً يا كبير، استعلمنا عن موعد انعقاد مؤتمر البلاد، وجئنا اليوم نترجاكم.
- حقاً يقبل الأبراخ لجوء من يعادي الأمراء - النبلاء، غير أن وجود رفيق لك يصعب الأمر. سنتشاور، نحن الكبار.
- استقبل حاغور موسى الرجلين حالما انصرفا من أمام المجلس. وسأل ضائفاً بالفرح الذي في صدره:
- هل تتذكرني يا تامبر؟
- وقف تامبر بعض الوقت يتفحص الرجل الواقف أمامه من القدمين إلى الرأس، ثم ابتسم يغلبه الفرح:
- وهل سكنت معي يا حاغور غابة تحمز عبثاً؟! - وهجم كلٌّ على الآخر.
- تصدر أصوات عالية وضجيج من مكان اجتماع مسيّ المؤتمر. ويقفز الرجال المعنيون بلجوء وايقق تامبر ونكراس ميشكا في غمرة النقاش. ليس عدم اتفاقهم سراً. يتواجهون بعيون متقدة وكأنهم سيتماسكون بأطراف أكسيثهم.
- لا مشكلة في موضوع البجدوغ، أوافقكم، - لا يقبل جمه تناو، - ولكن قولوا ماذا تنوون بحق البتكل. ليس من جنسنا، وهو كافر، ولن يقبل الله منا إن آويناه. إن سمعتم كلامي فلن أسمح له أن يقف أمامنا؛ دُعك من أن نفتح له باب بلادنا!..
- لا تقل هذا يا تناو، من التجبأ إليك فتوابه مئة ضعف!..
- الكافر تكسب ثوابه إن أقرت دمه. هذا ما يقوله الله الذي يبتهل إليه الكثيرون ولا يرجو هو أحداً، والقرآن كتابه.
- ما تقوله يا تناو عيب، - لم يقبل الكبير مرة أخرى. ليس من تقاليد الأديغة أن يطردوا من يلجأ إليهم. ولن يقبل الناس منا وإن أخطأنا. ما رأيكم أيها الكبار في الموضوع؟
- بلاد الأبراخ كبيرة، لن يضرنا وجوده فيها؛ فليبق!..

- لبيق فيها، لبيق!.. - تكلم عجوزان آخران معاً.
- الإنسان يقاس بمعاملته للناس، فليبق!..
- أرجوا البائس ألا يأكل من لحم الخنزير!.. - قال جمه تناو، وأشاح بوجهه.
- حين نهض كبير المجلس أَسْتُدْعِي وايقق تامبر ونكراس ميشكا إلى المجلس مرة أخرى. ثم تأمل الكبير الواقفين دون كلام، وناداهم:
- أيها الأبراح، مَنْ بينكم يضيف هذين إلى أن يقفا على قدميهما؟
- إن كنت تراني يا كبير جديراً فأنا سأضيفهما، - خرج جنجته سليم من الجمع.

...

الوقت منتصف الليل. وايقق تامبر يستعيد وهو في الفراش أحداث اليوم الثقيل. لا تقتصر ذكرياته على هذا اليوم فعند هذا الرجل الكثير. حين وصلت الأفكار المتدافعة إلى سيسار منعه الهمّ الثقيل الذي جثم على صدره من النوم فنهض من الفراش. ألقى الكساء الخفيف على كتفيه، وهمّ بالخروج من الغرفة فألقى نظرة إلى حيث ينام ميشكا. عرف من طريقة اضطجاعه أنه لا ينام غير أنه لم يكلمه.

خرج من الغرفة فوجد الجوار كله صامتاً كأنّ ليس في الدنيا غيره. نظر إلى السماء المقمرة فحَيَّلَ إليه أن النجوم تتأمله. ومن بين أغصان شجرة الجوز التي دلف تحتها كانت النجوم تلمع أيضاً. وفيما هو يشعل الغليون وهو على المقعد الصغير خرج سليم.

- أظننا متشابهين يا تامبر في النوم. - دنا سليم وقعد على أرومة عتيقة. قررت حين رأيته خارجاً من الغرفة أن ندخن معاً قبضة تبغ.

- أَلَسْتُ في مشكلة يا سليم إن كنت تعاني الأرق مثلي؟ - قال تامبر، وأشعل الغليون فأضاءت لحيته وشارباه. ونادى ديك الفجر من طرف القرية، وجاوبه ديك آخر. جلس الضيف والمضيف معاً بعض الوقت ينسيان همومهما. وتحدثا في موضوعات كثيرة.

- والله أنا راضٍ عنك يا تامبر في تصرُّفك نحو ميشكا حفيد نكراس إيغناات.

- والدُ هذا الشاب كان رجلاً ممتازاً. وأنا سمعتهم كثيراً يتحدثون عنه. ولكن لا أعرف إن كان الابن اكتسب بعض فضائل والده.

- بلى اكتسب، - جزم تامر، - كثيراً ما ذقت من طعام بيترو ابنِ إيغناث. أكذب عليك إن قلتُ إنه كان من عمري، كان أكبر مني بكثير، ولكنه اتخذني صديقاً دون أن يأخذ فارق العمر بالاعتبار. لم يخل عليك بشيء متى عرف أنك شركسي. وكان والد بيترو إيغناث كذلك رجلاً صالحاً، رجلاً قوياً لا يُعلى عليه. كان معاون القائد العسكري كوندراتك بولافين الذي هزّ القيصر. وكان صديقه الحميم. ولما رحل بولافين المنتمي إلى الروس البتكل نتيجة تأمر الأمراء - النبلاء جاء إيغناث برفقة حوالي ألفي جندي وعسكروا عند كولد على ضفة نهر بشره. ولذا يعدون الشراكسة أصدقاء لهم.

- يا عجي يا تامر ما أغرب ما أسمع منك! - صاح جنجته سليم من فوق الأرومة، وتناول الكيس ثانية ليملاً الغليون. لم أعرف أن لجدّ ضيفي الشاب مثل هذه السيرة. أليست أسرته إذن تحتقر الأمراء - النبلاء كالأبزاخ!.. من نحتاجهم، نحن الأبزاخ، هم أمثال هؤلاء. لم تخبر المؤتمر بهذه المعلومات؟ ما شأنك أنت بالعجوز تتاو، بلاد الأبزاخ ليست تتاو، ورغم وجود كثيرين من أمثاله ففلاحو الأبزاخ لا يتصرفون بمثل عقولهم. كان عليك أن تخبرهم، أنت مذنب في هذا يا تامر، مذنب...

-3-

- لا تؤاخذني يا سليم، أريد أن أستضيف ضيوفك. - قال أبده نارح للمضيف في فرصة انقطاع الحديث.

- الضيف متى أقام ثلاثة أيام صار جزءاً من الأسرة يا نارح. - أجاب سليم ونظر نحو بجقان. - أستضيف هذا الشاب الجمكوي منذ ليلة أمس فحسب.

- يا زعيم الخير، - قال زيش الجالس أقرب إلى الباب، - كان والدي يقول: لا يحلّ ضيفٌ على ضيف، ولذا لا أعدّ نفسي ضيفاً كما يقول بجقان.

- إن كنت تسمح لنا يا سليم معتبراً قدوم الضيف من شأنه هو، وانصرافه من

شأن مضيفه، - قال بجقان لسليم، - فسنرى كيف يستقبلنا أبده نارج لأن من يبدل مضيفه يذبحون له جدياً ذكراً، - ليق بيتك عامراً، وليلازم الحظ السعيد أسرتك، ولتشهد أفراح أولادك، ولتعش معهم شيخوخة سعيدة!.. إذا قديمنا ضيوفاً إلى الأبراخ فلنسافر إلى الأبراخ العليا، ولنأكل من طعامهم، ولنخالط فلاحيهم!

- إن كنت أعطيك الضيف الجمكوي مع الضيوف الشابسغ يا نارج، - نظر سليم باسمّاً إلى الضيوف، - فلا تطمع في استضافة تامر وميشكا. هذان لا يزال الوقت مبكراً لتعرضهما للخطر في أسفار ورحلات بعيدة.

- إن كان هذا رأيك فأنت أدرى يا سليم. كان يسرني أن يرافقانا، لن أطيّل غيابهما، بضعة أيام فحسب...

- لا يا نارج، لا أريد أن يدخل بيننا عتاب في هذه المسألة. أرسل لي الأمير بحقوقه يريد اختبار رجولتي فلا أريد أن يظن أن ضيفي ارتعبا فالتجأ إليك.

- ألا ينوي الأمير بحقوقه التوقف عن سلوكه يوماً ما؟! - إن جاءك يا سليم فأخبرني. مضى زمن طويل لم يصطدم فيه صدرا حصانينا.

خرج الفرسان الستة من دار جنجته سليم قبل أن تعلق الشمس الجبل، وتوجهوا إلى الأبراخ العليا. ما إن ارتفع وقع حوافر الخيل حتى وضع الأكبر والأصغر بين الفرسان. الأكبر بين الجمع هو أبده نارج غير أنه وضع مكانه التالي له في العمر رماكوه بجقان، غير متناس أنه المضيف. فوقف هو إلى اليسار، وأوقف إلى يمينه شباكوه أحمد حتى إذا أرسلوه هو إلى مكان ما بقي الصف محافظاً على الترتيب الصحيح. وسار وراءهم حاغور موسى في الوسط وإلى يمينه ويساره الشaban الأحدث عمراً.

يخرج الجمع عبر الطريق الوحيد إلى القرية الجبلية، دون أن يحثوا الخيل، ولا يُرخوا الأعنة أيضاً محافظين هكذا على احترامهم لأنفسهم. يقطعون قرية دكاباه فلا يقطع طريقهم أي فارس، دُعك من النساء! يحييهم الناس بأيّد مرفوعة ويتركون لهم الطريق.

يتعجب زيش خلال عبورهم قرية دكاباه مما يرى، ومع ذلك فما يهتم به ليس

الشارع الذي يملأ العين، ولا البيوت، ولا الفلاحين المتجمعين قرب الأسوار؛ يهتم بأن يثبت نفسه على السرج حتى لا يقول من يتابعه من وراء: أي فارس هذا؟! ورفاقه من رجالات الشابسغ والأبزاخ. كان والدي المرحوم يقول: بقيمك الناس تبعاً لما تظهر به بينهم، ويحترمونك تبعاً لتقييمهم. عصر الألم قلب زيش حين زار طيف والده ذهنه. لم يتوقع أن يغيب مامرقوه عن مناسبة اختبار الرجولة لدى الأبزاخ. وهذا سبب سروره حين قيل له إن بجقان سافر إلى تلك المناسبة. لم يمر فارسٌ دون أن يتفحصه طوال مسيره في أرض الشابسغ. وصل إلى مكان اختبار الرجولة وكلما رأى فارساً في أرض الأبزاخ توقع أن يكون هو مامرقوه، ثم يخيب أمله. وبحث عنه في صدارة الجمع في المكان، وسأل عنه. قيل له: "إن كنت تريد مقابلة مامرقوه فلا تبحث عنه في مجامع الناس، اجث عنه في ليالي الغابات. والأفضل أن تبحث عنه على شاطئ البحر. ومتى رأيت رجلاً مقيداً فانتظر من جاء به يتحقق مرادك. ولكن أفضل ما تفعله هو أن تتجنب أي علاقة بمامرقوه؛ لم يحصد أحد الخير منه. وكل من يُقيم معه علاقة ينتكب..." لم أكن أريد أن أتخذ من مامرقوه رفيقاً أو أقيم معه أي علاقة، هو من تعلّق بي فحمل المصيبة إلى أسرتنا...

تجاوز الفرسان مضيق قجيس، وخرجوا من وراء المنعطف فرأوا القرية التي كانوا ضيوفاً فيها. أي بيت يا ترى من بين البيوت المغطاة بالبردي يخص سليم؟.. قد يعرفه إن بحث من رأس الجبل إذ أن أمام المسطبة الجميلة شجرة كبيرة. نظر زيش في الاتجاه الذي توقعه ولكنه رأى بيوتاً كثيرة أمامها أشجار كبيرة. حقاً لم يتعرف زيش على بيت سليم غير أن نظرتة إلى تلك الجهة كانت نظرة مودة. يبدو سليم بطريقة ضحك وبعض طباعه قريباً من والده. وكانت اللحظات التي يصبح فيها قريباً جداً منه هي حين يتحدث عن الأسر المنتفذة. وهو موقف والده تماماً من الأمراء - النبلاء الجمكوي.

- يا حاغور أنصب سلماً للطريق!..¹

¹ يُقصد بسلم الطريق رواية حكايات وطرخ ألغاز لتزجية الوقت ودفع الملل.

- والله لا أعرف يا زعيم الخير كيف أنصب سلماً بوجود الأكبر سناً. - أجاب حاغور موسى معتدّاً بإسناد المهمة إليه، خجلاً أمام الكبار سناً.
- أظن يا رمباكوه أنكم تُنشئون شباب الشابسغ على شيء من الخفر والانتواء، - قال نارج بعد قليل لصديقه.
- وما العمل يا صديقي، وكيف لا ننشئهم هكذا ونحن جيران للأبزاخ!.. - أجاب بجقان مازحاً، - الولد إن ضحكت في وجهه رأى بين أسنانك جنباً، والعود إن لم تُلوه وهو طري صعب عليك حين يقسو.
- الشابسغ جيراننا، وأنا راضٍ عن اكتسابنا بعض خصالهم يا رمباكوه، وأنا موافق على أن طعامكم أذكى من طعام سائر الأديغة، وموافق على أن بنات الشابسغ أجمل من بناتنا، وموافق على أحسن الصفات في العالم التي تفتخرون بها؛ ولكني أعرف في حاغور منذ العشية عيباً فليدافع عن نفسه إن استطاع. وهو لا يحتاج إلى حماية منك لأن الشابسغ كلها يمكن أن تختفي وراء منكبيه العريضين: لا أفهم كيف يربونكم أتمم الشابسغ الصغار¹؛ بترز يتكلم دون انتظار الإذن، وحاغور صامت دائماً، وشباكوه وسنان... هيا يا حاغور انصب السلم!..
- مهلاً يا أبده، لحظة، هل أنت غاضب حقاً؟!
- ألا تعرف لماذا يسموننا الأبزاخ الطحالب؟.. - ضحك نارج وأسنانه البيضاء تلمع من بين شاربيه السوداوين. - هيا أيها الشاب؛ ألم أطلب منك سلماً وإلا نعسنا؟! أنا والجمكوي، مع شباكوه.
- أخرجك الأبزاخ الطحلب يا حاغور، هيا إرو لنا شيئاً مما يقال في نواحيننا على الأبزاخ نكايه به!.. - صاح شباكوه الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن.
- والله لا أعرف تحديداً ما الذي تقصده.
- أَلِف من عندك إن كنت لا تعرف؛ الكلام مجاني!..
- يروى أن قرية من الشابسغ وأخرى من الأبزاخ كانتا تعيشان متقابلتين،

¹ كان يطلق على الشابسغ هذا اللقب.

- بدأ حاغور، - ولا تزالان على حالهما، ولذا قرر الجار الشابسغ أن يختبر طيبة الجار الأبراخ. في أحد الأيام زار الجار الشابسغ جاره الأبراخ، واستعار منه قدراً. طبخ بها باستا ممتازة من الدخن وأعادها مع قدر أصغر في داخل القدر الكبيرة، مع الشكر الوافر. قال الجار: "لماذا أيها الجار جئت مع قدري بقدر آخر؟" "ما أفعل يا جاري العزيز بما ليس لي؟ صدف أن استعرتُ قدرك في وقت مخاضها، فولدت قدراً صغيرة، فأعدتها مع أمها ليجد صاحب البضاعة بضاعته". فرح الأبراخ قائلين: "ولدت قدرنا قدراً صغيرة". بعد أيام ذهب الجار الشابسغ إلى جاره الأبراخ فاستعار القدر نفسها. ولما طال الوقت على القدر جاء صاحبها وراءها: "لماذا يا جار طال بقاء القدر عندك؟" أجاب الشابسغ: "يصعب عليّ أن أبلغكم لأن ما حدث مأساة: جاء المخاض إلى قدركم فماتت!.." قال الأبراخ: "ما هذا الكلام يا جار؟ هل تموت القدر؟!" سخر الأبراخ مستغرباً ما يسمع. قال الشابسغ: "لا عجب في ما تسمع؛ كيف لا تموت من تلد؟!" انصرف الأبراخ لا يعرف ما يقول أو ما يفعل. وهكذا اكتشف الشابسغ أخلاق جاره الأبراخ.

تضاحك الفرسان لما انتهى حاغور موسى من حكاية القدر. وضحك أبده نارج من أعماق قلبه حتى اهتز حلقة كأن سيلاً صَبَّ فيه، حتى إن الخيل نصبت آذانها الرفيعة لا تعرف ما حدث.

- هل فهمت يا زيش، - نادى نارج من وراءه، - كيف يستصغرننا الشابسغ؟ ولكنني أستغرب أمراً واحداً لم يجر في هذه الحكاية: كيف لم تنشب حرب بسبب القدر بين الأبراخ - الشابسغ؟ لا أعرف الأبراخ يتحملون إهانة من أحد.

- ومن أين تعرف إن لم تنشب حرب؟ هل تظن أن قدر الأبراخ جاءها المخاض فماتت اليوم؟.. - رد شباهو على مزحة نارج.

- هكذا يا جمكوي يقولون: إتحذ من يغتابونه مضيئاً! هل أستطيع أن أكون مضيئاً لهؤلاء؟! - يضحك نارج.

من هو في غاية السعادة من بين الشابسغ هو بترز.

لا يندم زبش على أن أمثال هؤلاء الرجال الكبار صاروا أصدقاءه نتيجة الأحوال. لو كان والده حياً لِمَا وَسِعَتْهُ الدنيا من الفرح. رجولتهم ومزاحهم متلازمان. البارحة فحسبُ تعرف على نارج ورغم ذلك يحادثه كأنه يعرف طوال عمره. يمازحه مؤيداً إياه في مسألة الشابسغ. ليس اليوم فحسبُ يتحدثون في مضافات الجمكوي عن رجولة نارج. كان من بين أوائل المعدودين من رجال الأدبغة في كل أرجائهم حين يتجمع فلاحو قريتهم في مضافتهم. وشباكوه ورمباكوه من عداد رجالات الشابسغ. ولولا أن حاغور وبترز يتصفان بصفاتهم لما قبلوا أن يصاحبوهما.

وصل الفرسان بعد الظهر إلى قرية جَعْر، قرية نارج. تعرف غنى المنطقة بالإجاص من الأسوار العالية لبساتين القرية الواقعة على يمينهم. وحول البيوت المسقوفة بالبردي أشجار الفاكهة، ومن جدران مخازن الحبوب العالية المصنوعة من الأعمدة المضفورة بالعيدان تتدلى عرائيس ذرة العام الماضي. وعلى المساطب الممتدة أمام البيوت ضفائر الفلفل التي لَوّحتها الشمس. وغير بعيد عما سبق تبدو عناقيد الكالينا¹ صفراء.

توهم زبش وهم يلتفون حول الجدار العالي الذي لا يمكن رؤية ما وراءه حتى من على ظهر الحصان، أنهم على باب دار نارج. ولما تركوا البيت وراءهم فهم أنه بيت أحد المتنفذين. أينما طفت في أرجاء إقليم الأدبغة وجدت ترتيبات هؤلاء واحدة: يرونك أنت من بيوتهم، ولا تراه من الخارج. يختبئون دائماً من عدو مجهول.

بعدما تركوا البيت ذا الأسوار العالية وراءهم، وانعطفوا، ثم توجهوا إلى البيت الأنيق على بساطته، لم يشك زبش في أنه بيت نارج. الدار - البستان، حيث البيت، مسور بسياج لا يصل إلى ذقن الإنسان. ورأى فيها مخزن حبوب وإسطبل كسائر دُور الفلاحين، وكومتي حشيش مغطاتين تقفان في صف واحد. والخطب المجهز للشتاء مقطّع ومرتب بين الخزان والإسطبل، ومغطى كي

¹ شُجيرة لها عناقيد صغيرة من ثمر صغير يستعمل غالباً دواء للسعال والأمراض الصدرية.

لا يبلله المطر.

المضافة التي دخلوها مرتبة دون أثاث زائد عن الحاجة. كل أنواع الأسلحة الخفيفة، من المسدس إلى البندقية القديمة على بساط جداري. وفيها خلافاً لمضافات الفلاحين الأخرى التي دخل إليها مقعدان - سريران خشبيان مسندان إلى جدارين. والموقد الطيني المرتفع قليلاً عن الأرض يستند إلى الجدار. وأرض الغرفة مطينة كالمرآة، لا يبدو فيها أيُّ خدش.

جهزت مائدة الطعام حالماً رُفعت أباريق الغسيل والطسوت، مما يدل على أن الأسرة كانت بانتظار الضيوف. ودارت كؤوس الباخسمه عليهم. وحين خمن الفلاحون الجيران أن الضيوف انتهوا من الطعام بدؤوا يتجمعون.

لم يرفع أبده أحمد عينه عن اليد اليسرى لزيش طوال تناوله الطعام. لم يسأله عن شيء ما داموا على المائدة، والآن لم يستطع أن يصبر:

- ما مشكلة يدك يا زيش؟ هل كانت مكسورة؟

- هل تقصد هذه؟.. - رفع زيش يده كأنه كان ينتظر السؤال. - انكسرت في طفولتي وأنا ألعب على جليد نهر قَرْزِه.

- دعني أراها لحظة! - نظر شباكوه إلى يد الشاب، - التحمت دون أن يجبروها على نحو صحيح. - يا للحسرة، كيف لم أكن أنا المعالج!..

- إن كان هذا رأيك يا أحمد فأنا أيضاً أتألم منها، - قفز زيش من مجلسه، وقبل أن ينتبه الجمعُ لما يفعل حصر يده بين الباب والقائمة وكسرها...

...

- ما فعلته يا زيش غير جائز!.. - تناول بجقان كيس التبغ رافضاً تصرّف زيش.

أدار بعض الشباب الواقفين عند الباب رؤوسهم، وخرج بعضهم من الغرفة. وتفحص أبده نارج الضيف الجمكوي المحتدّ وقد فهم ما جرى، غير عارف ما يقول أو يفعل.

- أيها الجمكوي لا يجوز أن تفعل ما فعلت، ضع يدك على المائدة!.. - قال شباكوه، ثم توجه إلى المضيف، - أحتاج إلى لوح خشبي يا نارج. اجلس إلى

المائدة على ركبتيك دون أن تحرك يدك... وأنت يا بترز أمسيك بكتفيه بقوة حتى لا يحركهما...

وصل اللوح الذي طلبه شباكوه، وبعدما وضع اليد المكسورة على اللوح بدأ يجمع اللحم على العظم المكسور.

حين هدأت فورة الحماسة، وبدأت إعادة فتات العظم إلى مكانه، تعمق شعور زبش بالألم. وعرض على شفتيه، وقد تبين أن الأمر أصعب مما توقع. وتصبب العرق من جبينه ومن وجنتيه.

- هل تؤلمك؟ - سأل بجقان. - تحمل أيها الجمكوي إن غلبتك خفة الشباب!.. تفعل ما يخطر لك دون أن تسأل أحداً أيها البائس. والذنب كله ذنبك يا شباكوه!.. حرّضت الشاب بتعبيرك عن استيائك من طريقة جبر يده. - من عرف أن الشاب الجمكوي يتحلى بكل هذه الرجولة؟..

- لا يعتبر التصرف المرتجل الطائش رجولة. - ارتفعت سحابة من الدخان على رأس بجقان. - يجب أن يعتمد كل تصرف على العقل؛ وإلا أصابك ما لم تتوقعه.

- يا بجقان، أيها الزعيم المبارك، - قال زبش خجلاً من فعلته، - لا تؤاخذني، في كلامك نصيب من الصحة. ما كان عليّ أن أنجرف وراء حميتي. ولكن، مع ذلك يا زعيم، ما فعلته اليوم أفكر فيه منذ زمن. كيف يعيش الإنسان بشقٍ واحد من جسده؟ مهما فعلت تخذلني اليد اليسرى. وأنت يا نارج ساجني على ما سببت لك من القلق...

- أيها الجمكوي، يعود العقل إلى الإنسان بعد فوات الأوان. - رفض بجقان كلام الشاب. - ارتكبت الخطأ نفسه عند الأبخاخ في مناسبة اختبار الرجولة.

- اترك هذا الفتى في حاله يا رمباكوه، - تدخّل نارج، - الآن وقت فوران دم الشاب الجمكوي. - تذكّر ما أكثر ما ارتكبنا في عمره. وقعنا في مهالك كثيرة، ولكن إقدامنا أنقذنا من أصعب المواقف. يجب أن تتجرأ على كل عمل. جرأتي هي التي ساقنتني إلى الأمير بايزرقوه وأنا أتساءل هل الحصان الذي أركبه ذكر أم أنثى. ربما لو كنت فكرت لوجدت أسلوباً آخر ولما فعلت. ولكن

لم أكن لأجد في ذلك اليوم فرصة للتفكير. كنت شاباً، في وقت فورة الدم. كانوا مجتمعين في الجمكوي يقولون: قرر الأمير بايزرقوه أن المساواة بين الأمراء - النبلاء والفلاحين مستحيلة؛ فليركب الأولون الأحصنة المخصصة، والآخرون الأفراس المؤنثة، فقررت التوجه إليه متمعضاً من الخبر. ليس ما أثارني هذا القرار فحسب، بل سمعت أنه قال للجمع الذي هو بينهم: "ليتني رأيت فلاحاً يركب حصاناً مخضياً!.. كنت بعته مع حصانه بثمان بنطال" فقررت أن أقابله لأعرف كيف سيتصرف. صدف أن كان الأمير واقفاً على الباب حين دخلت داره. مررت أمام باب المضافة الذي يقف إليه الأمير عدة مرات جيئةً وذهاباً. أدت ظهر الحصان للأمير بعض الوقت لعلّ الحصان يرميه بروثه. تبين أن حصاني ذكي فكأنه عرف رغبتني فشر روثة. وطوال هذه المدة بقي الأمير واقفاً يراقب ولم يعرف السبب وراء ما يجري في أرض الدار. نهر الأمير رجاله: "من هذا الذي وستخ باب المضافة؟" حين يكون مصير المحاولة النجاح تسير الأمور كما تريد: لم يكن أحد في الجوار. كنت مستعداً للأمير ولرجاله ولو كانوا حاضرين. قلت: "إن كنت تريد أن تعرف من أنا أيها الأمير فاسمي أبده نارج، وإن سألت عني في الأبراز أجابوك" وكشفت منذ البداية عن اسمي دون أن أدري. ربما كان تصرفي على هذا النحو هو السبب في ارتعاشته. توجه الأمير نحوي وقد لان صوته: "ألا تفضل يا أبده؛ لماذا لا تزال على صهوة الحصان؟" أجبته "لا أيها الأمير بايزرقوه، لست ضيفاً فأترجل. ألا تمنع النظر في ما أركب أذكرّ هو أم أنثى؟" تلثم الأمير لا يُحير جواباً، يتفحصني من فوق إلى تحت. وفجأة رأيت عبيدين ينظران من وراء مخزن الحبوب. "بالله عليك، أنت لست ممن عنيتهم... هيا يا نارج تفضل إلى المضافة". - استقبلني الأمير بودّ شديد. قلت له بخشونة: "أيها الأمير أجبني حالاً: هل ما أركبه حصان ذكر أم فرس أنثى؟" قال "لعنة، لماذا كبرت المسألة إلى هذا الحد؟ هو حصان ذكر، ذكر!.. كفى، تفضّل". "إذن انتهت مهمتي إذ جئتك على حصان ذكر". وخرجت وهو يتابعني بنظراته... هذا ما جناه لي شبابي وجراؤي. لا أعرف إن كنت أمتدح نفسي يا بحقان؟..

- لا أرى يا أبده افتخاراً بالنفس في ما رويت، - قال بجقان بعد تفكّر، - ولا يمكن أن تحكم على رجولتك أنها بنت الساعة. دفعك عدم المساواة بين الأمراء - النبلاء من جهة والفلاحين من جهة إلى أن تفعل ما فعلت. هذا التصرف ينبع من فكرة عميقة. هكذا يجب أن تتصرف مع الأمراء - النبلاء. لا أعرف شيئاً لا يخطر على بال الفلاحين إن لم يعرف الأولون حدودهم.

- سمعت كثيراً من الناس يقولون لابن بايزرقوه: سنفعل بك ما فعل الأبرار نارج بوالدك... - تدخل زيش في الحديث.

- اهتدأ يا زيش، - اعترض شباكوه على تحريك الشاب يده، - بإمكانك متى ربطتها أن ترقص إن أردت. وأنت يا بجقان كلامكما كليكما صحيح. تعرف ماذا يقال يا جمكوي؟ "فكّر ثم تكلم، وفتش المكان ثم اجلس!.." أنت طائش بلا حد؛ لا أريد أن أراك وقد فعلت هذا ثانية!..

- هذا يا زعيم تبعاً لطريقة ربطك.

- ألم يأمرك ألا تتحرك؟.. - تدخل شعبان.

- أنا لست ممن يجردون الخنجر مرتين، - ردّ شباكوه أحمد على من يتكلم مخالفاً الأوامر. إن لم يصلح الجبر الآن فلن يصلح أبداً. ولكن متى صلح فلا تتكلم كثيراً. هيا يا بجقان أنصّب السلم، فاحك لنا شيئاً. سأشد يد الجمكوي فلا تسمعون صراخه على الأقل!.. - مازح شباكوه الحضور، - ونظر زيش المستجمع قوته، والذي يتصبب عرقاً من تحت جبينه، وابتسم.

- وهذا صحيح يا شباكوه، - مصّ بجقان الغليون بضع مرات مطمئناً أن الخطر على الشاب انتهى، وبدأ: لم نأت إلى هنا من أجل استرضاء من كسر يده. الأفضل من هذا أن تعيروني سمعكم. سأروي لكم ما سمعته عن الطريقة التي عرفوا بها عمر الرجل، يعني الإنسان: فيما عدد من الفلاحين مجتمعون في مضافة فلاح حكيم يتحدثون عن محاسن الرجل ومساوئه، قال المضيف: "سأزوّج ابنتي من يروي عمر الرجل على نحو صحيح". كان بين الجمع من قال في نفسه: "سيخطفون ابنتك إذن سريعاً". قدّر الجالسون، كلّ حسب تخمينه، عمر الرجل بأربعين عاماً أو أقل أو أكثر، غير أنهم تنافسوا غير قادرين على

معرفة عمره. بدأ الحضور يحتجّون: "والله لا بد أن بعضنا استطاع تقدير عمر الرجل، ولكن المضيف يريد أن يختار لابنته الأفضل". وفي الحال دخل إلى المضافة شاب، ووقف مع الأحداث سناً. دَعَوْه إلى الجلوس ولكنه كان الأصغر سناً فرفض. قال الشاب: "أنا عندي بعض الكلام في الموضوع إن سمحتم" فأذِنوا له: "كنت في طريقي إلى بلاد الجمكوي قبل أيام حين قابلت عشرين ذئباً. عبرت وسط مجموعة الذئاب دون أن أحيد عن الطريق، تشاؤماً من تغييره. ولم يتحرك أيّ ذئب. ثم التقيت في الطريق بثلاثين عروساً، ولكن لم أعبر من بينهن، بل حدث عن طريقهن. وبعدما مشيت قليلاً صادفت ستين حصاناً، كلٌّ منها مقيد نصف تقيد. وبعدما تجاوزتها التقيت بثمانين حصاناً مقيدة تماماً. وهكذا وصلت إلى الجمكوي" وخرج الشاب من المضافة كما دخل. قال المضيف "أحسنَ الشاب، لقد عرف عمر الرجل" فحرّ في نفس الجالسين أنه لم يُخبرهم بعمر الرجل.

- إذن ما عمر الرجل اعتماداً على كلام الشاب؟ - سأل بحقان الحضور.
- إذا سمحت لي يا زعيم الخير فأنا سأخبركم بعمر الرجل، - فاجأ زيش الجالس على ركبتيه الحضور، - ونظر من تحت حاجبيه إلى شباكوه.
تبادل الجالسون والواقفون النظرات مستغربين سرعة الشاب. وابتسم رمباكوه راوي الحكاية. وسرت ابتسامة دافئة على وجه نارج النحيل كما يحدث له في مثل هذه المناسبات. وقال شباكوه الذي انتهى من ربط اليد المكسورة:
- الآن يمكنك، لا أن تجيب عن السؤال، بل أن ترقص!! - لطم شباكوه ذقن زيش وقد اطمأن عليه، لطمة خفيفة.
- ليس عليك الليلة يا جمكوي أن تتجاوب معهم فتتكلم، - قال رمباكوه،
- ولكن لا تتأمل منهم أن يقيموا لك حفلة جابشه بسبب كسرِكَ. هات إن كنت رجلاً ممتازاً عمر الرجل!!..

- ليقُلْ!!.. - وافق حاغور الذي بقي صامتاً إلى الآن.
- "حين قابلت عشرين ذئباً عبرت بينها" معناه يا زعيم أن الرجل متى صار في العشرين فهو جريء كالذئب لا يعرف الخوف". "حين التقيت بثلاثين عروساً

لم أعبر بينهم... "معناه أن الرجولة تأتي مع الثلاثين، فيجد قوته وحكمته وفهمه. "قابلت ستين حصاناً نصف مقيدة" تعني أن قوى الرجل تضعف مع الستين تبعاً لعمره. وتصبح الشيخوخة نصف قيد له. "وبعد قليل قابلت ثمانين حصاناً..." تعني أن طريق الرجل في الثمانين شارف على النهاية، والشيخوخة صارت قيداً حقيقياً، فيقعد غير قادر على أن يقف على قدميه. هذه معاني حكاية الفلاح الشاب.

- صحيح، وما أدراك بها؟

- ما رويته يا زعيم الخير سمعت والدي يرويّه.

قال رمباكوه: متى عدت سنتين إلى الورا، بالقياس إلى اليوم الذي تعرفت فيه على زيش، وإن مارس اليوم حرية أمام الحضور، فقد اكتسب الآن قيمة الرجال، ولكن لا أعرف إن كان يدرك قيمة السلاح الذي بيده. لم ألتق إلى الآن بشاب مثله لم ينس والده. لا ينقص شيء من ذاكرته مهما قال أو فعل. كان والده فلاحاً ليبياً معروفاً في عداد فلاحي الجمكوي. وقد سمعت ذكره كثيراً حين ذهبت للتعزية. أكرم مامرقوه ومقاي بحق هذا الرجل. أين هما الآن يا ترى؟..

-4-

الرطوبة غير المرئية تنبع من تحت شجرة الجوز أمام البيت رغم ضيق النهار. إذا نظرت من بستان جنجته سليم نحو أسفل المرتفع رأيت المضيق الموازي لجدار الجبل، العابق برائحة الخضرة والهواء الحار. والطريق الوحيد إلى أرض البجدوغ الذي يلامس جانب الماء حيناً، فيرتد عنه سريعاً، خالٍ من الحركة.

وايئق تامبر جالس تحت شجرة الجوز الضخمة يصنع سرجاً. يعمل في صناعة الجلد منذ أن جعله الأمير بحقوقه يهيم على وجهه في أرجاء غابة تحمز. وقد زاد في مهارته وهو في بلاد القبرتاي. ولما دخل إلى روسيا لم ينس مهنته وإن قلّ عمله. والسلاح تحت يده عند الحاجة كما اعتاد في أثناء حياته في الغابة. ابتسم تامبر حين تذكر عدم مجيء الأمير بحقوقه، إذ انقضت عدة أيام على

الموعد الذي حدده. الموعد يجب احترامه فإذا أخلفت به تغير رأي الناس فيك. ولكن الأمير لا يعدّ وعده وعداً إن لم يُخلف به. ستتخلص من هذه العادة أيها الأمير، لن أسمح لك أن تفعل بي ما فعلت في غابة تحمز، لن أتعامل معك بالصدق كما فعلتُ سابقاً فأضع نفسي تحت تصرفك!.. إما أن تموت وإما أن أموت. لن أهجّر من أجلك أرض الأديغة، أرضي وسمائي، وأرحل إلى بلاد أخرى. ولدتُ في هذه الأرض، وفيها سأدفن!.. يا إلهي كيف انشقت الأرض وابتلعت سيسار؟! لم أترك قرية في إقليم الأديغة لم أذهب إليها وأسأل عنها فيها. وقيل لي إن الأمير بحقوقه أرسلها إلى القرم ولكني لا أصدّق. جعلته يقسم على القرآن أنه لم يبيعها لحسن مراد ويرسلها خارج تركيا. وأذنته أنه إن كذب فسيفقد رأسه. في الليل، أول ليلة من الزواج هجم عليّ نبلاء الأمير حجمقوه وسلبوا سيسار مني... يا إلهي هل سنجتمع ثانية؟ وإن لم نجتمع فلا أريد أكثر من أن تبقى سيسار حية على وجه الأرض. وأرضى أن أعيش العمر من أجلها دون زواج!..

تعرف تامير قبل أن يجد الفرصة لحمل السلاح على سليم وميشكا العائدين من المنحلة. وفي الحال ترك ما بيده واستقبلهما.

- كيف الحال يا تامير، إن شاء الله في سلام؟ - ترجل سليم من الحصان الذي يمسك تامير بخطامه.

- كما ترى يا سليم تجمدت عيني وأنا أصد مجي الأمير بحقوقه.

- وما العمل؟ قدوم الضيف بيده، وانصرافه بيد المضيف. إن أتى فلن نخذه. نستقبله بقدر طاقتنا... من فضل الله أن حسن مراد وباريتقوه بَعْدَسار لا يُحيجاننا في غمرة تنافسهما إلى البارود. قبل لحظات التقينا بحسن مراد الذي كان حلّ ضيفاً على جمه تناو. لا بد أن أموره تيسّرت من طلاقة وجهه. هل تعرف ماذا قال جمه تناو لضيفه حين عرّفت ميشكا على الضيف المرتدي طربوش التجار الأتراك؟ قال: "من صافحتّه روسي كافر فاغسل يدك!..". وأرسل له إبريق ماء.

- أيّ عار يا سليم ألحقوه بأخي الأصغر!.. - خرج تامير عن طوره فاحتد في

حضرة المضيف. - عمَّ يبحث تناو؟ ما أشد ما يتحامل علينا!.. ألم أنذره قبل أيام ألا يهين أخي الأصغر؟..

- لا تقلق يا تامبر، - ألقى سليم نظرة على الضيف بطرف عينه وابتسم، - لقي تناو المنفلتُ اللسان جزاءه. لست وحدك بل كلُّ من يهين ميشكا يهينني!.. لا يكفي أن يغسل ضيفك يده بل يطهرها إن قطعها. فإن قطعها طهر نفسه. وتناو نفسه شَمَ رائحة كافر فعليه أن يجدع أنفه. قلت لك يا تامبر ألا تهتم لهؤلاء. الأديغي البائس لا يمكن أن تلجم لسانه عن مثل هذه التفاهات. هيا، الأحسن من كل هذا أن نذوق من العسل الطازج الذي جنيناه تَوَّاً من المنحلة.

لم تكن سيسار تفارق ذهن تامبر رغم العسل الطازج والخبز الطري في الأيام التالية. ولم يعد يسأل عن المشاق التي سيلاقيها في بلاد الأبراخ كما لاقى في الأماكن الأخرى. مهما وجد من صعاب فستهنون أمام أبناء العرق الواحد. ولن يسمح بإهانة أحد ما دام الدم يجري في عروقه. لم يؤذ تامبر أحداً. ولم يقابل بالشر إلا من بادره به. قال: الرأس، فبقي القائل دون رأس!.. ومهما قال أو فعل فمن لا يجد طريقاً إليها هي سيسار. أما القضايا الأخرى فقد حالفه الحظ ضدها. من يحمل السلاح ضد ميشكا فسينتهي بالسلاح!..

بعد ظهر أحد الأيام، وفيما سليم وصحبه جالسون يعلمون ميشكا بعض الكلمات الشركسية، عرَّج عليهم الأمير بحقوقه مع عدد كبير من النبلاء، آتين من بلاد الشابسغ. استقبلهم سليم لأن التقاليد الشركسية تقضي باستقبال من يقف على الباب وإن كان عدواً.

- يا جنتجه - خرج من النبلاء أحدهم، - إن كنت ابن أملك فاركب وامش معنا!..

- ما عندي دليلاً على رجولتي هو قبعتي الشركسية فانظر إليها، وحيتها، ولا تخن التقاليد. الباب الذي تقفون عنده هو أرض أسرة جنتجه طوال عمرهم. ولم يبدأ بي ولن ينتهي. ثم إنك، لا تؤاخذني، لست أنت مطلوبي أيها الفارس النبيل الذي لا أعرف اسمه وأصله. بل هو الأمير بحقوقه شراندقوه الذي

أخلف بوعده الذي أخبر به، فإن كان رجلاً، فليخرج معترفاً بذنبه، وليقف أمامي!

- ما هذا الذي نسمعه يا أمير!.. - لم يقبل أحد النبلاء، - وضاج غيره.

- أيها النبلاء!.. - رفع الأمير بحقوقه يده وخرج منهم.

- أيها الأمير بحقوقه!.. - قال تامير بكل اعتداد، - إن كانت مشكلتك معي فأنا جاهز في أي وقت كما تعرف!.. - لا تُهن مضيفي، ولا أقبل أن تهينه!..

وقبل أن يجد سليم الفرصة للكلام حضر اثنان من الجيران الفلاحين. وظهر من زاوية السور ثلاثة فرسان.

- لماذا ضيوفك يا سليم على سروجهم يرفضون الترحل؟ - قال أكبر الفلاحين وقد فهم الموضوع، ثم توجه إلى النبلاء شاملاً الأمير معهم: - ليس سليم وحده هو مضيف تامير الفلاح وميشكا الروسي أيها النبلاء، هما في ضيافة بلاد الأبخاز بأسرها. أقول لكم قبل أن ترفعوا السلاح.

- نحن لم نأت إلى الأبخاز لرفع السلاح ونحارب، - تراجع الأمير بحقوقه حين رأى الأمر على غير ما توقع، - على وابق تامير دين لي كان يُقضى في موعد مؤتمر البجدوغ، فليردّه إليّ. وإن كان حُماة آل جنجته سليم يريدون المساهمة فيه فلا مانع لديّ.

- لا قيمة عندنا لمؤتمر البجدوغ!.. - جواب الجار الفلاح مختصر، - إن كانت لك قضية مع الفلاح تامير فاعرضها على مؤتمر الأبخاز الذين هو منهم. ولكن أظن أن جرح تامير أعمق من جرحك أنت أيها الأمير!..

- إن كان هذا رأيكم فسنعرض القضية على مؤتمر الأبخاز، - انصرف الأمير بحقوقه شراندوقوه من باب سليم فجأة كما وصل. وتبعه رفاقه النبلاء والغبار في إثرهم.

الفصل السابع

-1-

الليل ثقيل في إقليم البجدوغ. انقطع الهواء عن العالم. الخيول التي شبت حتى منتصف الليل تجمعت متقابلة الوجوه. النبلاء رفاق الأمير حجمقوه ألقس نائمون ولكن الأمير نفسه لم يذق طعم النوم إلى الآن. وإذا استمعت إلى شخير علي سلطان الذي يتوسد السرج ويفترش الفروة القصيرة ظننت أن عربة تتسلق المرتفع مترنحة. ولا يكفي شخير بل يضاف إليه صريف أسنانه. هم نائمون كالأموات منذ لاحقهم الفلاحون الجمكوي أمس ، فهربوا لا يلوون على شيء، بالإضافة إلى أنهم فقدوا رفيقين لا يعرفون مكانهما.

يلوم ألقس نفسه: ليس هذا مضماراً لإظهار البطولة: أن تغير في منتصف الليل على قرية غارقة في النوم وتسرق منها حصانين أو ثلاثة. لن يعد أحد هذا التصرف بطولاً. وسيعيب عليهم من يسمع هذا الخبر من الناس، وأهم طردوا ولوحقوا. من حسن حظهم أن خيولهم كانت جيدة. هربوا من أهل القرية بأن لم يتجهوا إلى البرية بل إلى جبال الأبراخ العالية حتى التجؤوا إلى الغابات. كانت داريت لا تقبل من ألقس حين ينام في طفولته، أن يسند رأسه إلى يديه، بحجة أن هذه الوضعية فآل شر، ولكنه يضطجع الليلة بهذه الوضعية وعيناه إلى السماء المقمرة. وما العمل إن كانت فآل شر فهو يحبها. تطير أفكاره إلى البعيد، ويتحكم في جذورها كما يريد. كان عليه حين سمع أن عند الأبراخ مضماراً لإبداء البطولة الذهاب إليه دون أن يُصغي إلى والده. الحصان الذي يركبه كالطائر بلا أجنحة. هو من النوع الذي يفهم ما في ذهنك وإن لم تتحكم فيه بالزمام. حَزَّ في نفس ناغوه وداريت التخلي عن الحصان الأبيض، ولكن والدنا فكر إلى الأبعد. وأعرف أن علي سلطان أيضاً ساء ما فعلت وإن كنتم شعوره. تأمل ألقس نجوم السماء: كلها متشابهة، تنظر إليك بوجوه تخفي الأسرار. ما معنى لمعانها في السماء؟.. في النهار تختفي إذ تهمزها الشمس. وأعجب ما في السماء العلاقة بين القمر والنجوم. النجوم تحيط بالقمر؛ فلماذا

لا تحيط بالشمس؟! تشرق صباحاً فتضيء القرية، كل المخلوقات من بشر وشجر وحيوانات... وجوهها نحوها.

سمع ألقس عواء ذئب أنساه النجوم. ولم يكن ممكناً أن تعرف إن كان العواء من مكان قريب أم بعيد. أخرج ألقس المسدس من تحت السرج وجلس مستنفراً. وفي اللحظة نفسها عوى ذئب آخر. ونصّت الخيول برؤوسها وأصاحت السمع. وأحدها، وهو حصان علي سلطان، لم يُطق البقاء ساكناً فخرج من القطيع. نقضت المخاوف الليل الهادئ الذي كان ساحة تأملات ألقس.

مرة أخرى أصاح ألقس السمع: عوى الذئب الأول مرة أخرى من دُغل الخوخ البري. انتظر ألقس الذئب الثاني ممسكاً بالمسدس ولكن الاتجاه الذي كان العواء صدر منه هدأ الآن. وفي الحال تذكر ألقس عباءة والده المصنوعة من جلد الذئب، الخضراء الشعثاء المعلقة بالجدار. يلبسها أيام البرد. تفرقت الخيل مدركة الخطر القريب منها. وقفت بعض الوقت مدبرة أعجازها لبعضها. ثم عادت فالتقت بوجوهها.

- ما الذي جرى؟ - قفز علي سلطان حين تبّهوه.
- لا شيء مهم، - خفض ألقس طرف بنطاله، - اسمع لحظة!..
- هل سمعت وقع حوافر خيل؟ - يصغي شراً لقوه جاثياً على ركبتيه، - لا أسمع شيئاً، ربما توهمت.
- لا تستعجل!، الآن حالاً...

انقطع عواء الذئب. وحثّل إليهم أن الهدوء عاد إلى الخيول. بدأ ضيق الليل يتغير إلى رطوبة منعشة دليلاً على قدوم النهار. ويُلحظ ضوء النجوم الآن على نحو أوضح.

- لا شيء يا رجل، بل أوهام، - ملّ علي سلطان من الإصغاء إلى الليل الصامت. - الجمكوي كفّوا عن ملاحقتنا منذ زمن بعيد.
- ليس على الجمكوي أتكلم، بل على الذئب التي تعوي من دغل الخوخ البري.

- هكذا إذن!.. - هدأ قلب شرلأقوه، أنا أصغي وأذني على الأرض... ألم تعرف بوجود الذئب هنا؟ الذئاب تفضل السكنى بالبرية على الغابة. يدور الذئب في الليلة الواحدة الأبراخ والجمكوي. وفي النهار يختبئ في مثل هذه الأدغال. لأجل هذا طلبت ليلة أمس عدم الوقوف عند أكمة الخوخ البري. يا ألقس الذئب ليس مشكلة. المشكلة عودتُنا صفر اليدين. لن يستجوبنا أحد عما فعلنا وأنجزنا، ولكن ألا نعرف أننا لم نحقق شيئاً من الرجولة التي كنا في اختبارها؟!

- وهذا ما يُقلقني أيضاً، - وافق حجمقوه ألقس، - نعود وأيدينا في جيوبنا. ألا تنظر إلى هذين النبيلين كيف ينامان!.. أغبطهما طوال الليل، لا يشعران بالإهانة.

- ومن أين سيأتي هؤلاء بالشرف؟ - حاول علي سلطان إلقاء اللوم عليهما في ما لم يتحقق للمجموعة. - يأكلان حيث يجلسان، وينامان حيث يسقطان. أعرف ما يستحق هذان أن تفعل بهما... لنتركهما في البرية وننصرف. حاولنا عبثاً أن نجعل منهما رجالاً، فخلقنا لأنفسنا الهم...

- لا يا علي سلطان، لا يجوز هذا، علينا أن نعيدهما لأننا اصطحبناهما. لا أعرف تحديد سبب انضمامهما إلينا. لا ينويان التحلي بأي رجولة. ومع ذلك سيجيبانك إن سألتهما أنهما جاءا لاجتراح البطولات.

- لن أدع هذين دون أن أدبر لهما مكيدة، - لا ينوي علي سلطان الكفّ عنهما، - أخرج المسدس واقترب منهما، ثم أطلق في الهواء: - هيا أفيقا حالاً أيها النبيلان!..

قفز النبيلان من مرقديهما. ووفقاً لأياً لا يعرفان ما جرى لهما. غضب أكبرهما حين عرف من أصوات الضحك أن علي سلطان يهينهما:

- أيّ إهانة تُلحق بنا يا علي سلطان!.. يصعب عليّ أن أبوح بالحقيقة ولكننا منذ انطلقنا لم تكفّ عن أذانا. تُعاملنا كالدبية والكلاب. هل ترانا أقل شأنًا منك؟ إن كنت لا تعرف ماذا تفعل برجولتك فأشهرْ خنجرك!.. - جرد النبيل سلاحه، - لا أتذكر أن النبلاء كانوا أقل شأنًا من متنفذي الشابسغ!..

ولمع خنجر شرلأقوه في الظلام:

- ليس عليّ أن أجيب على نبيل كسول مثلك.

وسُمع صوت أسلحة النبلاء الآخرين.

- ما هذا التصرف الشائن؟! - قفز حجمقوه ألقس وارتمى بين المتجابهين. في لحظة ما عادت الشجاعة إلى علي سلطان حين وقف ربيب أسرّتهم حائلاً بينه وبينهم. وشعر بالساعد الحامل السيف عادت إليه العزيمة:

- تحرّك من مكانك إن كنت رجلاً!..

- أيها النبيل في اجتماعات الرجال، ألا تعرف قرابتي بمن سحبت عليه سلاحك؟ - نهر ألقس كبير النبيلين حين تأكد أنهما لن يتراجعا.

- أعرف يا أمير، - انكسر صوت النبيل عضو الاجتماعات.

- أعيد الخنجر إلى مكانه إن كنت تعرف!..

- الروح تباع، والشرف يُشترى يا أمير. أهاننا، نحن النبلاء، أخوك الأصغر.

- كان عليك أن تفكر في الإهانة ليس الآن، بل في براري الجمكوي!..

- ما العمل يا أمير، لولا احترامي لك لعرفت هذا الولد العنيد قيمته!.. - أعاد النبيل بامبت الخنجر إلى غمده. وفعل النبيل الآخر فعله.

كان آخر من أغمد خنجره هو علي سلطان. وأعاد تذخير المسدس الذي أطلق منه، وارتداه. وبدأ القلب الذي كاد يخرج من صدره يهدأ. - يا أولاد الكلاب، دّللوكم حتى خرجتم عن حدود الأدب، - قال علي سلطان. ألا تعرفون أن نفوذ آل شرلأقوه يعادل سلطة أمرائكم الذين تتبعون لهم؟..

وعاد النبيلان إلى حصانیهما:

- ماذا تنويان؟ - ناداهما ألقس.

- لا عمل لنا في هذا المكان يا أمير، - - أجاب نبيل المؤتمر، لا نرى من اللائق أن نصاب من ليس عنده إلا هذا القدر من الأخلاق. الأفضل أن ننأى بأنفسنا.

- ترجّلا حالاً!.. - قال حجمقوه ألقس يكظم غيظه. - إذا كنا انطلقنا من طؤابغوه فلنعدّ إليها!..

- إذا كان هذا رأيك يا أمير فكلامك أمرٌ، - ترجَّلْ بامبت.
انتفضت رؤوس من كانوا في اختبار الرجولة على عواء الذئب في دغل الخوخ
البري. وفي الحال تجاوب معه ذئب آخر.

-2-

الأمير الكبير حجمقوه قانشاو يتمشى بمحاذاة السور. ليست حال إمرته سيئة.
لا تنقص قطعانه إن لم تزد. قطعان الخيل الثلاثة ظهورها تلمع كالمرآة.
الفلاحون جنوا محصول القمح، والآن يعملون في جني الذرة الصفراء. والصيد
الذي ينصرم لم يحمل له ما يؤلم ظفَّره. سماؤه وأرضه في سلام. في القرية لا يمكن
أن يخلو الفلاحون من بعض المشكلات، ولكن ماذا يهمه هو ما دامت لا
تمسه. وأمور ألقس على ما يرام، منسجم مع أقرانه من الأمراء الشباب. لا
يفتقر إلى احترام الناس. وفي الأعراس في موقع الصدارة دائماً على عادة آل
حجمقوه. وفي هذا الربيع تكلم في مؤتمر البجدوغ بحكمة كما يتكلم أيُّ أمير
كبير معزز. ولم يُنقص شيئاً مما أوصي به إن لم يزد فيه. حكم الحضور بأنه
مشروع أمير كبير للبجدوغ مستقبلاً فلم تسعه قبعته من الفرح. ما العمل:
يمضي الشتاء ويأتي الصيف. ونحن هل نخلد بصحتنا وعقلنا؟ حسنٌ أن يشتهر
بين الناس. ستصله إمرة الأمراء دون التوسل إلى النبلاء ودون الأساليب الخبيثة.
سأزوجه ليؤسس أسرة. وأنا ألزم شيخوختي!

ما كان يشغل بال قانشاو شيء آخر: بعدما خاض ألقس مغامرات في أرض
الجمكوي وعاد، قرر بعد أسبوع أن يتوجه إلى القرم، وها هو غائب. واليوم
مضت عدة أسابيع. كان يُفترض أن يعود في آخر شهر من الصيف. إن فكر
أن يرسل وراءه بضعة رجال من النبلاء فالقرم منطقة واسعة؛ أين يبحثون فيه
منها؟.. وإن فكر في أن يرسلهم ليستقبلوه في معبر البحر فقد يكون ألقس
دخل إلى إقليم الأدبغة منذ زمن طويل. وإن قال إنه عاد إلى أسرة الأتاليك التي
ربَّته فهم أيضاً كانوا أرسلوا فلاحاً قبل أيام قلقين عليه. كان عليه أن يرافقه.
ما كان يجري عليه أيُّ سوء لو تحشم مع ولده هذه المشقة في شيخوخته. لو

رافقه إلى معارفه كان استقبائهم له أفضل من أن يقدم نفسه لهم بأنه ابن الأمير حجمقوه. سيستقبلونه ولو لم أرافقه، متى سمعوا باسم حجمقوه كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم. والنقود التي حملها كافية إذا عاش وحده في القرم. وشرلاقوه ألا يكون اصطحب بعض المال؟ لا يجوز اتّخاذ آل شرلاقوه موضع ثقة تماماً فمن تُردفه على حصانك يمكن أن يحتل صهوته. من عادتهم أن يبحثوا في جيبك ويملقوا جيوبهم. ليس غياهم مشكلة إن لم يعتدّ عليهم مجرم ما. إن اتخذت أمثال مامرقوه أصحاباً خطر لهم ما لم يخطر لك قط. منذ خريف العام الماضي لم يطرق مامرقوه دارنا. ربما لأني لم أفتح له وجهي!... ليس بعيداً أن يكون قُتل وألقي به في زاوية ما، فقد سمعت أن فلاحاً من الجمكوي يلاحقه. مرّ فلاح كهل مسرعاً بثورين، مثيراً الغبار.

يا سليل الكلاب؛ انظر ماذا يفعل! متى وصل إلى زاوية دارنا ساط الثورين فأثار الغبار نكاية بي. من يا ترى في صدره كل هذا الحقد علينا؟ عقد حجمقوه ذراعيه وراء ظهره، وراقب الرجل المار صارخاً. لم يتبين سائق العربة بسبب الغبار المتصاعد. ولم يكن في الفناء فلاح يمكن أن يخبره بموية الرجل. متى دخل الأمير الدار اختفى الفلاحون منه. إن كنا محظوظين فلن يهاجمنا مجرم في مثل هذه الساعة. في أرض الدار عدد من الفلاحين الهبل نُعليهم، ولكنهم يتكونك رهن المهاجمين وإن كانوا سيسبونك. من سيكون؟ ربما شخص من أشباه فوجه لامجي. ومن يكون لامجي بالقياس إلى آل حجمقوه!.. هو مثل بعوضة إلى جانب صقر. يعيش مثيراً الغبار. هناك فلاحون كثيرون يريدون أن يطيروا، مثلهم مثل لامجي، ولكنهم يولدون دون أجنحة. وأعرف بمن يحتمي فوجه لامجي: جماعة شباكوه... يا عديم الإيمان، غضب حجمقوه الأمير الكبير من تلقاء نفسه، غمرنا بالتراب! ما سبب استعمال هؤلاء المهرجين لشارعنا مثيرين الغبار، ناقضين راحتنا؟

- هيه؛ ألم أذاك! - فتش الأمير الكبير قانشاو أرجاء الدار. - أما من أحد في الدار؟ من هذا الذي تسبب لنا في كل هذه القذارة؟ لا تسمحوا منذ اليوم لأحد أن يستعمل شارعنا. لا تسمحوا لأحد أن يمر أمام دارنا؛ ومن لا يسمع

منكم صادروه هو وعربته!

هبّت الريح فجأة من جهة الغرب. في البداية اهتزت أعالي الأشجار. ثم اتجهت إلى سطوح الإسطبلات. هزّت مزروعات البستان ودغدغت الحُفّ الأصفر للأمير الكبير. ولما اشتدت عبث بأطراف زنار الأمير الفضي. مرّت على ظروف الصفر، ولاعبت قبعة الأمير. ونزلت عاصفة التبن التي رفعتها على رأس الأمير. قال الأمير: أي ريح بدأت الآن؟ ونفض التبن عن ملابسه. لا إمكانية الآن للوقوف خارج البيت، هجمت على كبد السماء فجأة سحب سوداء كأنها تتسلل من فوق ذرا الأشجار المتصادمة. الولد البائس غائب في الجهة التي تهب منها العاصفة...

حُيِّل للأمير أنه يسمع أصوات حوافر خيل أعقبت هبة الريح. نظر جهة العمود الذي غلّق به رأس حصان وعظامه كي لا تصاب الماشية بالعين فلم يخطئ حدسه: رأى ثلاثة فرسان أحدهم ألقس. والآخران كأنهما صديقان وليسا صديقين. رفعته فرحة عودة ابنه سالماً وقوة الريح. ثم عرف الفارسين: مامرقوه ومقاي المتأتى. ما الذي جمع إليه هذين؟ لم تسلم الفرحة من بعض التعكير. يتبين أن الأمر كما توجست. وكيف تسير في طريق مستقيم برفقة الاثنين اللذين تحلى الله عنهما؟! هذا هو سبب تأخرنا مسبباً لنا الضيق... - مرحباً مامرقوه. - استقبل الأمير الكبير حجمقوه الرجلين مخفياً حقيقة شعوره نحوهما. - وأنت يا ولد طال غيابك والله!..

خرج العبيد المختبئون وراء الجدران من مخابئهم حين رأوا أميرهم الكبير يستقبل الفرسان. وسمعت أصوات فرح النساء. وارتفعت الفرحة في دار الأمير فجأة كهبوب العاصفة. وعلى حارك حصان ألقس شخص مكتّف. أما حصانا مرافقيه ففارغان إلا من بعض لوازم الطريق.

- أيها الأمير حجمقوه، - قال مامرقوه بعدما ردّ السلام، - تباعدت طرقاتنا منذ زمن بعيد. عشنا شبابنا معاً، والآن، إذ تعدّ نفسك هربت، توجّب علي أن أسافر مع ولدك. لا تتكلم يا حجمقوه، أعرف طريقة ركوبك أنت أيضاً. لم نغامر معاً في بلاد واحدة فحسب. ولم نفتحم معاً موضع اختبار رجولة واحد

فقط. ولكن دخلنا دارك مثنين ابنك الأمير الشاب وطريقة ركوبه وطريقة إمساكه بلجام فرسه، ولاسيما أنه ابن الأمير الكبير. يقال: المبالغة في المديح كالمبالغة في الاغتياب، ولذا، وأنت تعرف أنني قليل الكلام، اعتبر ابنك جديراً بالإمارة. أحسنَ ابنك وأرضانا طوال صحبتنا.

- قضينا، أنت وأنا كثيراً من الأسفار معاً يا مامرقوه، - الأمير راض عن الإطراء بحق ابنه، ولكنه يخفي رضاه، - ما العمل؟ غافلنا الزمان وركب وراءنا. لا أظن أن ما أتكلم عليه قد أثر فيك. أنظر إليك فأراك كيوم عرفتك لأول مرة.

- القوي لا يشيخ قلبه يا حجمقوه، - ضحك مامرقوه راجاً جبال النغوي.
- خذوا هذا المكتف إلى والدتنا _ أمر ألقس الواقف ينصت إلى حديث الفلاحين.

لام الأمير الكبير في المساء ابنه حين بقيا وحدهما على اتخاذه مامرقوه ومقاي رفيقين، ناسياً القلق الذي عاناه نتيجة تأخر ابنه، ولكن خطر له الآن أن يستفيد من الاثنين لصالحه إن وافقا. أرسل أحدُ أعند أمراء البجدوغ قزاقوه قامش وراء ألقس لحضور مأدبة طعام عنده مساء غد، ولا بد أن يكون الأمير قُنْجقوه، والأمير ججقوه حاضرين المأدبة.

- هل يمكن أن يشوا بنا ونحن واثقون منهم؟ - سأل ألقس والده.
- اجلس وسط الجمع دون خوف، وتكلم بثبات وإصرار، وأنا كفيل بالبقية...
واطمئن على مبدأ: لا تبُح بسرّك في ظلمة أو غابة. أقنعهم بأقوالك وأفعالك.
ودع الجمع ينظرون إليك وأنت تدري ما سيحدث!..
في اليوم التالي، بعدما رفعوا مائدة الغداء من المضافة، بدأ الأمير الكبير دون أن يُفصح عن مراده:

- يا مامرقوه، لا أعرف رأيك؛ عندي مهمة معك.
- المهم يا حجمقوه أن نتذكرنا أخيراً في أي مهمة؛ نسمعك.
- اعتبراً أي طلبٍ لكما منجزاً إذا سافرتما الليلة إلى قرية الأمير قزاقوه قامش!..

- حجمقوه لماذا أنت عاتبٌ الآن على ذي القروح قامش؟
- يتصرف على نحو يستدعي العتاب!.. - ضحك حجمقوه، - لا يترك جمعاً ساهراً دون أن يرمي الفتنة بينهم متى شرب الباخسمه وشراب العسل. يعلق بأحدهم فلا يدعه حتى يفقأ عينه. يستهجن كل ما يفعله غيره أو يقوله. ألا تعرف طبيعته!.. وهذا لم يعد يهمني. وليس بيننا مشكلة، لم أؤذه ولم يؤذي. ما لا أتحملة هو افتخاره بنفسه. يزعم أنه يحمي قريته حتى من البعوض؛ فسرى موقفه بعد أن تُغيروا عليها. هذا هو عتي الوحيد عليه. وِم أعتب على هذا الثرثار غير هذا؟!
- أعرف أن قزانقوه قامش يحب امتداح نفسه. - لم يثق مامرقوه بكلام الأمير، - لا أظن أنك حائق عليه لهذا السبب وحده يا حجمقوه؟ ولكن ماذا يهمني أنا؛ هات السعر!..
- سأعطيك حصاناً أبيض يجلب لكم ثمناً جيداً، بالإضافة إلى ما تجنونه من غارتكم.
- وهل الحصان الأبيض حصان؟! - زمّ مقاي المتأني شفتيه.
- وهل هو حصان شرلأقوه؟ - سأل مامرقوه.
- ألم يبق في العالم غيرُ حصان شرلأقوه؟! - غضب حجمقوه، - منحت لآل شرلأقوه قطبعاً من الماشية مكافأة تربية ولدي. ولا شأن لي بما أعطيتهم فصار في أيديهم، يذبحون ويبيعون ويهبون كما يريدون. ما تهبه تهبه للأبد. ربما يكون الحصان الأبيض نفسه ما آتي على ذكره. لا أخجل مما قلت ولا أخاف.
- كلامك صحيح. وما شأننا به؟ - أيد مامرقوه الأمير. - ولكن نخبرك أننا لا نريد حصاناً. لا نستطيع اصطحابه الآن. لو كانت وجهتنا القرم قبلنا بالحصان الأبيض. الثمن الذي تعرضه لقزانقوه ذي القروح قليل.
- قليل. - وافقه الأبراهيمي مقاي.
- وافق حجمقوه على المبلغ المطلوب حتى لا يتوغلا أكثر في السرّ. وإن عرف أن المشروع الذي يفكر فيه سيتحقق دفع عشرة أمثال ما طلبا.
- سنضرب في قرية الأمير قزانقوه، بل في داره. - أكمل مقاي بصعوبة ما

بدأه.

- إن أغرتما على داره فهو أفضل طبعاً. سيكون عنده الليلة كثيرون من المدعوين إلى الطعام. وما سيخرج من جيبى من المال ليس قليلاً.

...

المأدبة في قرية قزانقوه في ذروتها. ومن البجدوغ العليا والبجدوغ الدنيا جاء كثيرون. وحجمقوه ألقس جالس في أعلى المراتب خلافاً لعمره، ولكن إكراماً لوالده. الجميع متحمسون؛ يأتي اللحم إلى المائدة فيعود عظماً. والباخسمة وماء العسل حلاً محل الماء. والأمير قُنجقوه لا ييخل بخطب الانتخاب. والأمير ججقوه يستمع إلى خطب جاره منتصب الرأس. والأمير قزانقوه قامش الذي يهيلون عليه الثناء جالس متورد الخدين.

انتهى الأمير قنجقوه من الخطبة التي ألقاها، ولما همّ برفع الكأس رفع حجمقوه ألقس رأسه فجأة، وأنصت:

- اهدؤوا لحظة!

- أراك أيها الأمير تكرر هذه العبارة في هذه الأمسية؛ ماذا جرى لك؟ - غضب الأمير قنجقوه.

- أنا لم يجر لي شيء، - قال ألقس دون مناكفة من نُهره، - يخيل إليّ أن مصيبة ما ستجري في القرية الليلة... قلبي يحدثني يا جماعة...

-3-

- هيا اذهب واستعلم إن كان الأمير الكبير وحده! قالت لَتْناي سيدة البيت للخادمة.

حين كانت الخادمة في الغرفة، ولما خرجت قبل لحظات، كانت الفكرة التي تخفيها لَتْناي تمد جذورها، ولا تعرف الخمود: ما لا يفارق ذهنها هو كآبة الأمير الشاب. منذ عاد ألقس من القرم فحسبُ لاحظت الأم كآبته وضيقه الجديدين عليه. صحيح أن الأم والابن قليلاً ما يلتقيان غير أن ملاحظة الأم تذهب إلى البعيد. عاشت مع ولدها الذي حملته، في سِرِّها، كما يجب أن

تعيش: طفولة ألقس المبكرة، وخطواته الأولى، وصباه، ومراهقته، وبداية شبابه، وصوت الضحكة الأولى له، والبكاء الأول، وركوبه الأول... ما أكثر ما سفحت من الدمع تتمنى أن تنظر، ولو بعين واحدة، عبر سياج دار شرلأقوه لتراه!.. وبعدها عاد ألقس من دار شرلأقوه بأقل من سنة، ولدت طفلاً كانت هي وزوجها يتمنيان أن تكون طفلة ترعاها في شيخوختهما، سَمِّيا الطفل بالتجري، وسرعان ما أرسلاه إلى أتاليك آخر وهو بارينقوه بغدسار. ولو كان الأمر بيد لثناي لما أعطته إلى أتاليك، تريد أن تضم رضيعها إلى صدرها الدافئ. تشتاق إلى أن تسمع نفسه، وترى حركات أصابعه، وتشعر بلمسات قدميه الصغيرتين. لا تنسى شيئاً منها. ما العمل؟ لا يمكن تغيير شيء من تقاليد تربية أولاد الأمراء في غير بيوتهم. ومع ذلك فكما يقال: من هو في مرأى العين دائماً كالروح، أنساها اكتئاب ولدها الأكبر ابنها الصغير بالتجري.

- ليس الأمير الكبير وحده يا سيدي، - عادت الخادمة بالخبر الذي أرسلت من أجله، - قيل لي إن النبيل مغاسه ضيفه. - وكيف يقيم الأمير الكبير وحده في الغرفة!.. - قالت السيدة لثناي غير راضية عن الخبر، - أخبروني حين ينصرف النبيل مغاسه. - هيا تابعي أشغالك، أريد أن أجلس وحدي.

لن يبقى النبيل مغاسه إلى الأبد في غرفة الأمير. قالت لثناي، وارتاحت على المقعد المغطى بريش الإوز. أبعدت تطريزتها، وغرست الإبرة - الخيط في القماش الخشن. وضعت كفيها البيضاوين إحداها فوق الأخرى، وعادت إلى أفكارها التي تقلقها. لا أعرف إن كان جرى له شيء في القرم أم سحرته فيها فتاة لعب من اللواتي لا شيء يتورعن عنه؟ إن حدث هذا فقد وقعنا في مشكلة لا خلاص منها. ولسنا وحدنا بل جانسور أيضاً. لا أدري هل أستدعي العجوز جَنْجَز. الأمير الشاب الجميل وقع في حيرة حقيقية لا يعرف معها أين يتجه. يركب ويخرج وحده. لا موعد محدد لعودته. كانوا يتكلمون في البجدوغ العليا عن أمير شاب علقت به جنية بيضاء. يا ويلتي، ليحمنّا الله منها!..

انفتح الباب ودخلت الخادمة:

- الأمير الكبير مغاسه خرج من الدار.

- حسناً فعل، - لم تَبُحْ لثنائي بِنَيْسَها، وقالت للفتاة وكأنها غير مهتمة بشيء:
- أخبريهم أن يطبخوا لي باستا من الدُخْن الناعم مع حليب الجاموس. ولا
بأس أن تُدَحِّن الباستا قليلاً في الموقد. سمعت في الجمكوي أنه مزيج طيب.
لم يكن في غرفة الإمارة غيرُ الأمير الكبير حجمقوه. يذرع أرض الغرفة ويده
معقودتان وراء ظهره كما هي عادته حين يفكر في أمر ما. رأى السيدة تدخلُ
الغرفة فلم يعرف سبباً لقدموها: زوجته مرتاحة كما هي عادتها دائماً. غطاء
الرأس الملون ينسدل على كتف الثوب الحريري. وفي قدميها حذاء جلدي ناعم:
- تفضلي، تفضلي يا ابنة آل وَجَبْشِه!.. أنت ضيفة حقيقية!.. - استغرب
الرجل قدوم من يستقبلها بالمزاح، ثم سألها وهو يتفحصها: - ماذا؟ هل يُقلِّقك
شيء؟

- لو كان يقلقني لاستدعيتك... - أجابت السيدة لثنائي وهي تنتظر جلوس
السيد لتجلس هي أيضاً، وابتسمت للرجل.
- لم يكن من عادتك أن تأتي إلى غرفة الإمارة... - لَيِّنَتِ السُّحْنَة الناعمة
للمرأة مزاج الرجل، حتى صار كالعجينة المطواع.
- اشتقتُ إليك يا قانشاو فجئت أراك... - مرة أخرى نظرت لثنائي نظرة
الطُف إلى زوجها، - لا أعرف ماذا جرى لك؛ أأكون جرحت مشاعرك دون
أن أدري؟ أراك تتجنبني كثيراً.

تسمر الأمير حائراً على أرض الغرفة لا يدري أيعود إلى كرسي الإمارة أم يجلس
إلى الكرسي القريب من المرأة. وكيف لا تنسى زوجتك مع مشاغلِك التي لا
نُهاية لها؟! هذا حازِب، والآخر سرق، والثالث عنده عرس، والرابع عنده مأتم.
إذا كانت البجدوغ الدنيا هادئة فالبجدوغ العليا تغلي. مصيبة تتلو مصيبة.
ليس من عادة لثنائي أن تأتي إلى هنا نهاراً، لا بد أن هناك ما يشغل بالها.

عاد الأمير إلى كرسيه، وجلست المرأة على طرف السرير.

- يا ابنة آل وَجَبْشِه، والله لم أعرف أنك تشتاقي إلي حتى هذا الحد. - قال
الأمير مرائياً، - لم تجرحي شعوري، ولن تجرحيه. كلانا قانع بفضل الله. إن لم

نتمتع كلانا بهذه الخصلة فلن يحترمنا النبلاء ولا الفلاحون. ولن تبقى لنا هبة أمام أمراء البجدوغ الصغار. أشفقت على النبيل مغاسه الذي كان هنا قبل أن تأتي أنت. عنده امرأة جنية رزقته بطفل، فصارت تأمره أن يورد الكلب الماء. وعلى كلامه لا يغضب فلاحٌ منفلت اللسان كما تغضب تلك المرأة...

- لا يستحق من يُشيع أخبار أسرته في القرية لقب النبيل. - لم ترتج لتناي إلى سلوك النبيل. - كان الأفضل أن تعود تلك المرأة إلى أدبها. وهل يروي لك النبلاء سلوك زوجاتهم المنحرف؟

- ليس هذا وحده بل يروون لي أسراراً أخرى... وهل أنا أمير البجدوغ الكبير عبثاً؟! إيه يا ابنة آل وجبشه لو عرفت ما أعرف من أسرار النبلاء لنزعت عنهم كل صفة إنسانية. وهل تظنين أن النبيل مغاسه يروي لي أسرار مع زوجته لأنه يجني؟ لو استطاع لأفرغ عليّ الآن مسدسه. لست من يحتاجه هذا الرجل بل اجتماع البجدوغ. - يخطط لما ينويه بحق المرأة.

- لا يجوز أن تسمح لمثل هذا النبيل أن يدّس لقب النبيل. لا حاجة لأن تسمح لمثل هذا الرأس الفارغ أن يتكلم في حضرتك وأن تسمعه!.. - احتدت لتناي السيدة. - هل تزوج تلك المرأة الشريرة ليحلّ مؤتمر البجدوغ مشكلته معها؟ هل استشار المؤتمر في زواجه منها أم تصرف وفق تعليمات المؤتمر؟ كان الأفضل أن يعالج النبلاء أعضاء المؤتمر قضاياهم الشخصية بأنفسهم. ليتكلموا على موضوع الأميرين قزانقوه وججقوه!.. مضى أكثر من سنتين على القطيعة بين الأمير ججقوه وزوجته. فقدت المسكينة ملامحها الأنثوية. ولا يمضي أسبوع على الأمير قزانقوه دون أن يجلد امرأته بالسوط. هذا القليل الذي أعرفه؛ فكيف بما لا أعرفه!.. لهم ملامح أبناء القمر حين يركبون، لطفاء، تلمع وجوههم كالمرأة. وإن جلسوا رتبوا أمور القرية. يعرفون من قدرك إن رضوا عنك، وإن نؤوا لك الشر أسقطوك... كفانا يا قانشاو كلاماً على هؤلاء الأشرار، ليس من أجل هذا أتيتُ إلى غرفة الإمارة.

منذ زمن بعيد لم ير الأمير وجنتي لتناي تتقدان كما اليوم. تبدأ المرأة تعتني بشكلها بعد أن تلد. هذا وقت عودتك إلى خصرك النحيل السابق يا ابنة آل

وجبش، ولكن من أين لنا أن نستعيد الماضي!.. كنت جميلة في زمن مضى، وانتزعتك من أهلك بصعوبة. لم تكوني راغبة عني، ولكن أميراً شاباً من الجمكوي وقف في طريقنا فأتعبنا. خرجت عصبة فرسان من الغابة ونحن نزفك من أهلك فمشينا بك بين نصول الخناجر. وقد تصرّفت في ذلك اليوم على نحو أَرْضَانِي: قلت لهم: من يمسنني فسأقتله بحد هذا الخنجر فأوقعت رفاق الأمير الشاب في حيرة حتى أحجموا عن نيتهم. مررنا من جانبهم وهم شاهرون السلاح حتى أوصلناك إلى هنا. ليذهب النبيل مغاسه إلى الجحيم؛ من يهتم به؟! إن حاولنا حلّ كل المشكلات التي تصل إلينا ما وجدنا سبيلاً إلى الحياة. ليس رأيك عارياً عن الصحة. وأنا أعرف هؤلاء منذ زمن بعيد، ولكن لا يأتي أحدٌ ويشكو إليّ. يوهونك بأنه ليس في بلاد الأديغة أسرة أحسن منهم.

كانت أفكار السيدة لتناي مختلفة: حقاً لم يحدث بينها وبين الرجل أي مشكلة منذ تزوجت، ولكنها خجلت من الخاطرة التي غرت ذهنها: لا يترافق شخصان مختلفا المزاج!.. قالت لنفسها: لا أعرف إن كان الرجل لاحظ هذا فنظرت إليه بطرف عينها. وندمت على مجيئها إلى غرفة الإمارة. ماذا دهاني حتى آتي إلى هنا وأحلّ مشكلة نبيل من سفلة الناس؟ الأفضل من هذا أن نتحدث في موضوع الأمير الشاب وحدنا، وبصراحة.

- لو رآنا أحد النبلاء لفضحنّا في القرية! - قال الأمير وقد انتبه إلى انفرادهما في غرفة الإمارة، - وفي كل الأحوال ينبش الأمراء - النبلاء عن أي ملاحظة تسيء إلى آل حجمقوه.

- اطمئن من هذه الناحية؛ أوصيتهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول إلى هنا. - سرت على وجه لتناي ابتسامة خفية.

- يا ابنة آل وجبشه أراك تنوين أمراً ما. هاقي ما عندك. أنت لا تأتين إلى هنا من أجل حلّ قضايا مؤتمر البجدوغ.

ابتسمت السيدة لتناي، تعني أنك لن تقول أصدق من هذا. ثم سألت الأمير بحذر وقد امتقع لونها قليلاً:

- لا بد أنك لم تر ألقس منذ مدة غير قصيرة؟

- دخل إليّ صباحاً؛ ما الأمر؟
- ألم تلاحظ عليه شيئاً؟
- وماذا ألاحظ؟ - قال الأمير ثم انتفض برأسه من طريقة سؤال المرأة. - هل جرى له شيء؟
- لا تجزع؛ لم يجر شيء لألقس. - ما يدفعني إلى السؤال هو أنني لاحظت عليه الاكتئاب منذ عاد من القرم. لا يأكل، يعيد المائدة التي يُدخلونها إليه كما هي. ولم أعد أسمع ضحكته. ولم يعد يسأل عن أصدقاء وأقران كما في الماضي. يركب ويخرج وحده. أكّدتُ على مرزيج ألا يسمح للولد أن يخرج وحده، ولكنه يختبئ من الحراس.
- أهذا ما يُقلقك؟ - لم يكن الأمير يسمع هذا الكلام لأول مرة. منذ زمن بعيد أخبره مرزيج. - لا تقلقي لهذا. لا يمارس الأمير الشاب ما تقلقين لأجله. كان هذا سلوكنا حين كنا في عمره...
- ولكنه يختبئ من الحراس... يقصد دائماً الغاية على ضفة نهر بشره.
- لن يستطيع الاختباء من الحراس. يتابعونه أينما ذهب. واليوم أخبروني أنه ذهب لصيد السمك.
- وأين هذه الأسماك؟..
- بعيداً عن قرية طؤابغوه بغلوة حصان. - نظر الرجل إلى المرأة وابتسم.
- لماذا تبسم؟.. أنت تخفي عني شيئاً.
- لا أخفي عنك شيئاً يا ابنة آل وجبشه، ما يُضحكني هو عدم فهمك سبب كتابة الأمير الشاب. كم عمر ابنك؟ عنده من الأفكار ما يدعوه للكتابة. لا يمكن للنساء أن يفهمن هذا الموضوع. وأنا لو أجبرتني على أن أحلل ما يجري في قلب الفتاة فلن أستطيع. من يمكن أن يفعل هذا هو جنس النساء. هل فهمت؟ سأخبرك إذن: مكان صيد السمك قريب من قرية بجحقوه شراندقوه. وفي تلك القرية فتاة في سن الزواج اسمها جانسور. - نهض الأمير وجلس إلى جانب زوجته مغموراً بالسرور، - وأنا سمعتُ أن جانسور تعجبك. هل فهمت الآن؟

- لا مشكلة إذن. - تنفست لتناي الصُّعداء وتنحّت عن الأمير الذي جلس إلى جانبها. - أنا ظننته مساً من الجن فارتعبت. هيا عُد إلى مجلسك!.. ستسبب في أن يرانا أحد فيجللنا العار في شيخوختنا. تعجبنى جانسور كنة لي. وأُمُّها أنجبت أسرة أمراء. ووالدها ليس امراً سيئاً. وهو الآخر خلّف كثيراً من الأمراء. لولا أنه يحسدنا قليلاً، يستكثر ما عندنا ويستقلّ ما عنده... إذا كانت هذه مشكلة ألقس فلا بأس. هذا حُسْنُ حظٍّ. وأنتَ ما رأيك بجانسور؟..

- رأيي في ابنة آل بحقوقه هو رأيك تماماً. ولكن لو كان الأمر بيدي لزوَّجته إحدى بنات أمراء الجمكوي... ليس عندنا قريب في الجمكوي يدعمنا في علاقاتنا بالأبزاخ. خدعُتنا، خلافاً لتوقُّعنا في شأن باتجري. كنت أنوي أن أزوجه لو كان فتاة في نواحي الجمكوي.

- كنا اتفقنا على هذا ولكن الله لم يشأ. متى حان وقت زواج باتجري زوجناه فتاة من الجمكوي. - قالت لتناي ضاحكة.

- لن أعارض هذا، ولكن لا يستوي تزويج فتاة من الجمكوي ومُدُّ جسر هناك، وأن تتزوج فتاة منهم... - عاد حجمقوه وهو يعيد التفكير إلى كرسي الإمارة.

-4-

يعود فوجه لامجي من الغابة راكباً فوق حمل الخطب. أفكاره تشبه أتعاب الثورين المربوطين إلى النير. حين يتسلق الثوران المرتفع بالحمل ينتفخ وجه الفلاح كما تنتفخ أوداج الثورين: ليس موسم القمح السنة على ما تأمل. تشققت الأرض وقت تكوُّن السنابل، ثم أحملت، فاحترق الحبّ. وفي موسم الحصاد لم ينقطع المطر فحصدوه وسبقأهم في الماء. ولم يكفِ ما دَرَزَه الريح فذهب المطر بالباقي.

كان فرحاً بأنه انصرف إلى الدُّرة الصفراء حين أدرك سوء موسم القمح. وحين يدخل حقل الذرة الذي يشبه الغابة، فيرى العرائيس المزدوجة التي بُنْخَن الذراع

يعدّ المؤونة التي تقوم بأود الأسرة صارت في خزان الحبوب. ولكن كما يقال: من أين جئت أيتها المصيبة! غزا قطيع من الدببة الحقل في إحدى الليالي فركته والذرة ما تزال تسيل حلياً أبيض أثراً بعد عين. أثقلت الفكرة التي داهمت ذهن لامجي قلبه كيوم خريف قايض.

أيّ أمل بقي لامجي؟ لم يبق من موسم العام الماضي حبة تودّع موسم العام الجديد. لو لم يرسل إليه شباكوه أحمد شيئاً من الدُّخن لبقيت كُفّه مفتوحة للسؤال كما يقال: التسول كالصباح. وقاسمنا آل حجمقوه ثلث محصول هذا العام. لا أعرف لماذا يقال: من لا يعمل يبق غليونته فارغاً؟ نعم، ولا نستطيع حشو غليوننا. ونرضى حتى إن لم نحشّه إن حصلنا على ما نعول به الأسرة عامنا. لو كنت كآل حجمقوه لقلت: من يملك فالسلّة غليونته. وما لا أفهمه لماذا علينا ان نعمل لصالح الأمراء - النبلاء؟ بأي شيء يفوقنا هؤلاء؟ إذا كانت لهم أيدي فنحن أيضاً عندنا، وإذا كانوا يسيرون على رجلين فنحن نفعل الأمر نفسه، وإذا كانوا يملكون رؤوساً فرؤوسنا ليست أصغر من رؤوسهم. وإذا كانوا يحتفلون بالأعراس فنحن أيضاً نحتفل. ومآتمهم ومآمتنا متشابهة. ما الذي تختلف فيه أملاكنا إذن؟ إذا كانوا راكبين الخيل فنحن نركب عربات الثيران. وإذا كانوا طوال العام يثرثرون فنحن نعمل كالثيران المربوطة إلى النير. ونصّف ما نجنّيه لهم. من أين وصل إلى الأديغة مثل هذا النظام؟ وهل لدى الأقوام الأخرى مثل هذا النظام؟ يا إلهي هل عدم المساواة هذا يجري بعلمك؟ لماذا يجب أن يضيع من عاش ألف سنة مع من لم يعيش عاماً؟!

يُخَيَّل إليك أن عربة لامجي الخشبية القديمة تصرخ محصورة تحت الغابة كما بقاء أسئلة الفلاح دون جواب. تنثر حيناً صوتها وراءها، وتحتقن حيناً عاجزة عن التنفس. نظر لامجي نحو الثورين اللذين يرتفع ظهراهما وينخفض رأساهما. يُخَالِفاً بين قوائمهما بمشقة دون أي استعجال، ويسيل منهما اللعب اللزج الثقيل. يمكن للثيران أن تشعر بالإهانة؟ نعم؛ وكيف لا!.. لماذا ترفض أحياناً النير إن لم تكن عندها كرامة؟! وفي هذه الحالة تنظر إليك على أنك تتوسل إليها بعيونك. صحيح أنها لا تتكلم ولكنها لا تخلو من الحزن والشعور بالظلم.

ترجل لاجحي من عربة الخطب لائماً نفسه على أنه يضيف حملاً على حملهما. حُيِّل إليه أن العربة خفّت ولكن سرعة الثورين لم تزد. والكتلة الناتئة فوق الكتفين لم تصغر.

السما ممتلئة بقطع الغيوم الممزقة كما أمس وأول من أمس. والشمس التي تركت طريق الصباح إلى طريق الظهر تبدو كأنها في أرجوحة: تختفي حيناً بين الغيوم، وتظهر حيناً.

وصل بعدما سار بعض الوقت بالعربة إلى النبع الصغير تحت شجرة الصفصاف. تعلق لاجحي بمؤخرة العربة كي لا يبلل رجله بماء الساقية، وعبر الماء وراء الثورين. ولما عبر القصب وغاب في المنعطف، دخل في الأرض المحروقة. وظهر على اليسار غير بعيد نهر بشزه. وما إن صارت الغابة وراءه حتى ظهر أحد أطراف جبل الأبراخ من بين كومة السحب. وخطر سليم وميشكا وتامبر للفلاح البجدوغ. ماذا يعمل جنجته سليم يا ترى على هذه الأرض؟ قضى عمره في تربية النحل وأشجار الفواكه. ولا ينسى صناعة الجلود في الشتاء. ويستثمر الأرض الصغيرة التي يملكها فوق المرتفع. يرى على مائدته من يدخل داره في أول العام وفي آخره، الباخسمه وعصائر الفواكه. يطعم التفاح البري بالبلدي، ويزرع الإجاص إلى جانب التفاح. يجب أن يسافر إلى سليم في الخريف ويأتي ببعض الغراس. إذا زُرعت بجانب البيت أثمرت بعد بضع سنين. وسيفرح بها الأولاد. لا نستطيع الحصول على الفواكه إلا بالمبادلة بالدخن. متى انتهى الأولاد لم تستطع أن تمنع عنهم شيئاً. كان قال لي: خذ الأغراس وازرعها؛ لن تضرك إن لم تنفعك، ولكني لم أستطع متابعة الموضوع. وما أخبار وايق تامبر ونكراس ميشكا يا ترى؟ ألا يزالان يتابعان جمه تناو وبحقوقه شراندوقوه؟

- أراك تأتي بالخطب يا فوجه؟

قطع حجمقوه ألقس الواقف فوق رأسه أفكاره. هل نزل عليه من السماء؟ من أين ظهر له؟ هو وحيد، وليس معه حارس. يخمن أن يكون مسافراً ليحل ضيفاً على أحد ولكن ليس في وجهة حصانه أي مكان يقصده. ليس إلا عربة

الثيران والفارس وفوجه.

- آخذ الحطوب بإذن الله.

- يبدو من كلامك أنك تتحضر للشتاء.

- نعم أستعد له.

- حملك قليل.

- يكفي هذا اليوم.

تفحص حجمقوه ألقس الفلاح فوجي لاجي. طويل وعريض المنكبين. يرتكز على رجلين ثابتتين. ينظر إليه بوجه مرتاح، معتداً بقوته وإن كان وجهه خالياً من أي تعبير عن الفرح. وإن أمعنت النظر فيه رأيت طرف كسائه مرقعاً بخيط من الكساء نفسه. ومن قبعة الفلاح انسلخت بعض قطع الصوف. ويتزرن بقطعة من الحبل. وفي يده عصا وردية خفيفة للثيران. وأعجب ما لاحظ ألقس في الفلاح يداه اللتان لم ير لهما مثيلاً. أصابعه الشخينة الطويلة تتجاوز ركبتيه. وتبدو العروق الزرقاء على ظاهر الكف. ودّ ألقس لو يتأمل يديه هو، ولكن لم يعرف كيف يفعل. نقل اللجام من يد إلى الأخرى. عرف، وإن لم يتأمل يديه أنهما أصغر من يدي الفلاح الكبيرتين. من أراه بجسد الفيل يصرعك بضربة واحدة وإن كنت مصارعاً أو عملاقاً. إذا كنت تمسك يد المحراث دائماً فلا بد أن تكبر يداك. نحن لا نحمل إلا اللجام والسوط، وأضف إليهما المعلقة. يليق بلاجي القتال والمصارعة أكثر مما تليق به الحراثة. أليس مفيداً أن تصحب هذا إلى غارة ما. ألبسُه قميصاً من الزرد على قياس جسده يصرعك بصدوره. لا يُخفي أهله آل مشقوه¹.

- يكفي اليوم، وغداً إن سقط الثلج؟.

- إن سقط لا مشكلة، ليسقط!

- الحق يا فواجه، أستمع إليك، - قال حجمقوه ألقس بالنبرة نفسها التي كان يكلمه بها، - أليس للأمير الذي أنت في حضرته اسم؟!

¹ أولاد الدب.

- وكيف يكون بلا اسم!...- ابتسم الفلاح. - لست بل ثوراي عندهما أسماء.
- هذا الذي على اليمين أناديه بالنبيل الكبير، والذي على اليسار بالنبيل الصغير.
- إذن أليس في دارك يا فواجه من يحمل اسم الفلاح؟
- أليس الفلاحون في رأيكم حيوانات، لماذا لا يكون في داري منهم؟
- يا فواجه، كأن جلدك يحكك، تشتتهي عقوبة.
- ولماذا يحكني يا حجمقوه؟ الأضلاع التي أشاعت جماعة والدك أن الأبراخ كسروها هي التي تحكني. هل تعرف أنها حين تحكني أسنّ أسناني لجماعة حجمقوه الأمراء - النبلاء الذين يتبع لهم الحارس مرزيج!.. لا تظنوا أنني لا أعرف يا حجمقوه!.. لو كان من أطلقتموهم علي رجالاً لما قيدوني وضربوني تمتعاً بالضرب، فالرجل المقيد لا يُضرب كما يقال.
- ما تأتي على ذكره يا فواجه لست على علم به.- يتعجب الأمير الشاب مما يسمع ناسياً غضبه. وقد لان صوته على نحو ملحوظ.
- أستم من أرسل الأبوة، ولعبتم في حفلة الجابشه؟
- كنت في حفلة الجابشه، - تذكر ألقس أن والده أرسله لعيادة المريض،
- ولكن أقول لك ثانية: لست مطلعاً على ما رويت. أسمع له لأول مرة. وإن لم تصدق فأنا أقسم بسلاحي.
- لا حاجة إلى القسم، - بدأ فواجه لاجبي يتغير، - ربما لم يُطْلَعوك. لا أَلَحْ عليك قائلاً أنت من قاتلني. ولكن الإهانة التي أُلْحِقت بي أمام الناس في القرية جاءت من طرف آل حجمقوه. من يُهَن يجد الفرصة للانتقام، ولذا لن أنساها طوال عمري. لن يهدأ لي بال ما لم أجد أحد آل حجمقوه بعضا طرية. أنصحك ألا تعترضني!..
- الآن فحسب فهم ألقس أن فوجه لاجبي يتمتع بقوة خارقة. تبدأ العروق تنتفخ فوق الأيدي الضخمة، وملعت العينان كالبرق، وحِيلَ إليه أنهما تتسعان. ولم يكف هذا فانفتل رأسا كتفيه. والفأس المعلقة بالحبل كأن الروح دبّت فيها فهي تهتز. وانغrust قدماه في الأرض كمن يستعد للمصارعة. قال ألقس: والله عجيب ما يتهمني به هذا الرجل. أهذا ما ابتكره والده ليرهب به الفلاحين؟..

وهل هذه طريقة لإرهابهم؟ بل هو تصرّف نبلاء، لا تصرّف أمراء!.. من يتكبر هذه الأفكار هو الحارس مرزيج. ما من وسيلة ظلم لا تخطر بباله. لا تدعهم يفعلون ما تنكشف فيه معتقداً أنك لن تُعرف!.. وما فعلناه بقزاقوه قامش؟ من المؤكد أننا غلبنا قامش في تلك الليلة، لم يكتفوا بالإغارة على القرية بل هاجموا دار الأمير قامش وسرقوا خيول ضيوفه، بل حصان الأمير نفسه!.. كان بقي في الدار مخذولاً لا يعرف كيف يتصرف. لهذا يقال يجب أن تستمع أيها الدعيّ إلى ما يقال لك. ربما ظن حين قامت ضجة في الدار أن المغير أبراخ نارح. كان الأمير جبقوه ارتقى تحت المائدة. وبعد أن جرى ما جرى، خرج إلى الدار يرمي بالمسدس في الفراغ على لا شيء. إن اكتشفونا في هذه الحادثة كما يقول الفلاح فوجه؟ ارتعب ألقس من جديد. سيتكاتف أمراء البجدوغ العنيدون وسيسوّدون حياتك. ثِقْ بما يفعله والدنا؛ إنه سرٌّ أبدي. لم يخل على مامرقوه ومقاي بالمال الذي يسد فمويهما. والآخراّن أعطهما السعر الذي طلباه يضحيا بأنفسهما بدلاً من أن يخوناك... من الذي قال عنه فوجه لاجي: لا تظنوا أنني لا أعرفه؟ سأسأله وأعرف، وأهدئ غضبه الفلاحي. هؤلاء لا يجوز أبداً أن تحاربهم، يجب أن تلاطفهم. ألا ترى كيف ينظر إليّ شرراً كدبّ هائج!.. لا يثق بي.

- إن تبين أن الحادثة التي ترويها صحيحة فقد ألحقوا بك إهانة شديدة. أوافقك في هذا. وأنا أقول ما تقوله أنت تماماً.
- أنا لا أتكلّم في ما ليس صحيحاً.
- أوّد أن أعرف، إن لم يكن سرّاً عليّ، من الذين أهانوك.
- ألم أقل لك؟ - رفع لاجي جفنيه الثقيلين ونظر إلى الشاب من طرف عينه،
- ألم أقل إنهم الأمراء - النبلاء حجمقوه...
- ليس هؤلاء من أسأل عنهم. بل من اعتدوا عليك.
- إن كنت تريد أن تعرف من اعتدى عليّ فسأقول لك: صديقا والدك مامرقوه ومقاي هما من اعتديا عليّ بالضرب المبرح. ربما تعرفانها أنت أيضاً؟ كانوا ضيوفك في بداية هذا الخريف. هل تتذكر؟..

في مكان أعلى بقليل من المكان الذي يصب فيه بُسْقُوس متكاسلاً في نهر بشزه، وعلى الضفة اليمنى بغلوتي حصان أو ثلاثة، تقع القرية الأرمنية الصغيرة التي يسكن فيها آل بارينقوه في صدر بلاد البجدوغ. يتوجه بُشْشه إلى شرق غابة الكبيرة غواغوه، ولا يكفيه هذا فيعبرها ويتوسع في البرية. وحين تنعطف الغابة إلى جهة الغرب تعبر الأماكن المستنقعية، ثم تتوغل تحت جبال الشابسغ تاركَةً وراءها بسقُوس. ثم تتوجه إلى الشمال وتتوقف على السهل الواقع إلى اليسار كأن الضفة اليمنى لنهر بشزه أرعبتها.

ما إن تدخل عُمق غابة غواغوه حتى تلتقي في مرعى الغابة الكبير بقرية قزانقواي. تترك هذه القرية وعمق الغابة إلى يسارك فتمشي مقدار ما تصل إليه صيحتان، فتبدو إيدَبسقواي. وإذا اتجهت إلى الغرب، وقبل أن تصل إلى البيوت الفلاحية تماماً تبدو من مرعى الغابة القرية الأرمنية الصغيرة الموزعة على أحياء، القابعة بجوار إيدَبسقواي. وهي قرية الأديغة - الأرمن، يتكلمون لغة الأديغة ويمارسون عاداتهم، دون أن ينسوا المكان الذي جاؤوا منه. والأسر الستون كلها تقريباً تعمل في البيع والشراء. كبارهم وصغارهم ماهرون في هذه المهنة. ومصدر الربح هو ما يتحكم في القرارات.

إن شئت منادة آل بارينقوه باسم أرمني قلت: بارينيان. وهم من أقوى التجار في البجدوغ. ويعرفون من أين تأتي أموالهم، ويتابعون أين تذهب. يعيشون وهم يعرفون ما تُغلّ عليهم. وإن اعتبرت شعب الخمشي والشيشان بلاداً واحدة فما فيهما من الدكاكين لا تعادل ما في القرية الأرمنية إيدَبسقواي وحدها من الدكاكين. كل من فيها ممن يعرف العد والتبادل يعمل في التجارة، ومن الصعب معرفة المشترين. وفي أيّ وقت تقصدهم تجد محلاتهم مفتوحة.

كان حجمقوه قانشاو يميّ النفس بلقاء أقرائه الأتاليك في الجمكوي ولكن هل تسير الأمور كما تريد؟ لم تكن النتيجة كما يريد هو. ظن آل حجمقوه أنهم لا يفتقرون إلى من يسلمونه ابنهم لتربيته، فخدع الطامعون في تربيته بعضهم بعضاً. في اليوم الذي جاء فيه بائجري إلى العالم كان بارينقوه بغدسار

أتى إلى الأمير حجمقوه ومعه بارود وأقمشة. وفي اليوم نفسه قرروا أنهم يفضلون قرابة التجار الكبار، لا في البجدوغ وحدها بل في بلاد الأدبغة كلها، على قرابة عدد من أمراء الجمكوي المرائين، فلبى آل حجمقوه توسّل بغدسار. وقد مضى على الحادثة أكثر من سنة.

- كان علينا تبنيّ بالتجري منذ بعض الوقت. - قال بغدسار بلغة شركسية صافية لا تعرف معها أصله الأرمني. كنت غائباً، ولم يمض أسبوع على عودتي.

- هل كنت في نواحيننا يا بغدسار بإذن الله؟ - سأل حجمقوه قانشاو.

- كنت عند النغوي البدو، - ابتسم بغدسار دليلاً على أنه يريد أن يروي شيئاً. - إن كنت محظوظاً رافقتك شخص جيد منهم. لا يحترمونك بتقديم نفسك ضعيفاً. هذه ثالث مرة أخالطهم فيها، وأنقذت نفسي منهم بشق النفس. لا هم لأي منهم إلا خداعك وسرقتك. متى سهوت عن غرضك لحظة فقدته. وفي النهاية كانت مجموعة تتبعني تريد أن تسرق مني أنواع الأقمشة.

- كيف استطعت الإفلات منهم إذن؟.. - لم يترك الأمير بحقوقه، المبتشّر الذي يطلقونه في مناسبات الأفراح في دار حجمقوه وقتاً للتاجر لينهي كلامه.

- ظنوا أنهم يخدعونني فخدعتهم. تبين أن المضيف يعرف مكان المجرم الذي نصب لي فخاً، فلم أسلك هذا الطريق بل طريقاً آخر أبعد من الأول، حتى وصلنا إلى أتايجقوه قسي في القبرتاي. وأقسمت بعدها ألا أكرر هذه الرحلة إلى النغوي البدو، ولو كانت تنتظرنني أعظم الثروات. لن تستطيع أن تفهم طبيعتهم، ولا طريقة عيشهم. لا يستقرون في مكان كأن النار في أذنان خيلهم. لا أفهم كيف يعيشون بلا بيوت ولا أيّ عمار آخر. عرباتهم القديمة بيوتهم، فإذا بهم يخطر لهم الرحيل فيشون، ويسرعون. يثيرون الغبار بحوافر حيواناتهم، ثم يسرعون إلى حيث العشب الغزير فيخربونه بأقدامهم، ويقضون الليل حول نيران روث الحيوانات يتدفقون. وفي النهار تراههم ممسكين بقطع اللحم المسلوقة دون ملح. لا تحسدهم على حياتهم وإن كان عندهم كثير من الماشية...

- ألم تُعرج يا ضيف على قرمزايه؟ - سأل بحقوقه دون اهتمام بما روى

الضيف.

- لم أعرج هذه المرة على قرمزيه. بقيت على يسار طريقي.
- والله أخطأت يا بارينقوه... كان عليك أن تمرّ على قرمزيه، قرية جيدة،
وفيها رجال حكماء. لو عرف صديقي القديم سوناي أنك قادم من بلاد
البجدوغ كان استنفر النغوي لاستقبالك ردّاً على تحية الأمير بحقوقه شراندوقوه
فيه ذكاء عظيم لم يرثه من أحد. لا يتجاوز حدود قريتي في طريقه من القرم أو
إليها دون أن يعرج عليّ. ويعرف قانشاو هذا... - ألقى الأمير بحقوقه كلماته
دون أن يتوقف للتنفس. ثم ارتسمت سيسار أمام عينيه. يا ربّ ما جرى لتلك
الفتاة الفلاحة أخيراً؟ كنت أرسلتها إلى سوناي تاركاً له حرية التصرف بها...
بارينقوه بغدسار أصغر من الأميرين اللذين معه في المضافة بخمسة عشر عاماً
تقريباً. رجل أسمر طويل الوجه، وتحت الأنف الرفيع شفتان رقيقتان، والذقن
منسجم مع الوجه كعمود منحوت على العنق النحيل. يتحدث بغدسار الآن
عن النغوي غير أن من في الذهن هو باتجري الذي جلبوه. يُصيح السمع أحياناً
لعله يسمع صوت الطفل. المضافة بعيدة عن غرفة النساء فلا تسمع ما يجري
فيها وما يقال. ما أكثر ما يتكلفون من جهد لتجهيز الطفل!.. كل الأعمال
التي تدخل فيها المرأة تطول. سواء كنت مطلعاً أم لا فهنّ يتزاحمن، حركة كثيرة،
وإنتاج قليل، كلهن منصرفات إلى باتجري. العجيب أن الأمير قانشاو لا يُلحّح
بشيء بشأن الصبي. لا يسأل عنه في شيء. تلهّفُ على رؤية الصبي وإن لم
يكن من صلب طوال الطريق من النغوي، إلى القبرتاي، إلى هنا. وكان أصعب
ما في الطريق حين دخلتُ إقليم البجدوغ ولم يبق من الطريق الكثير. وطوال
هذا الطريق لم أفارق صهوة الحصان الذي تصبب عرقاً، وإن لم أخرج شعوره...
سُمعُ ثغاء خراف في الفناء القريب من المضافة. النعاج لا تسمح بالتأخر عن
أمّاتها. الفلاحون يُهدون اليوم للأمير الخراف مصحوبة بنعاجها بمناسبة قدومهم
بالصبي إليه لرؤيته. طريقة عيش أمراء البجدوغ هؤلاء وسيلة للحصول على
الماشية؛ ففي كل مناسبة تنهال عليه من كل جانب. ونحن مشغولون بالبيع
والشراء، ننفض الغبار عن أجسادنا ويحرق دُخان روث الحيوانات عيوننا مع

النجوي. تسافر إلى الغرب لتجلب ما ستبيع في الشرق. وما الذي عند النجوي تجلبه من عندهم؟ هل تجلب الماشية من تلك المسافة إلى هنا؟ كنت أقسمت ألا أعود إلى مخالطة النجوي، وسيتفهمني الله الذي أقسمت باسمه، ولكني سأعود إليهم ولو مرة واحدة. اعرض عليهم أقمشة ملونة ينثروا عليك ما عندهم!.. وطلاء الوجوه مرغوب عند نسائهم. وكيف يشغلن وقتهن والرجال ليلاً ونهاراً مع الماشية؟! والنساء متى ملأن القدور باللحم غير المملح وسلقنه انتهى عملهن. ثم ينبرين لدهن وجوههن والمرايا في أحضانهن حتى تصبح حمراء. ينتظرن رجالهن، والبنيات ينتظرن العرسان.

- كيف يعيش الأمير أتا جقوه بإذن الله؟ - سأل حجمقوه، - لم يزرنا منذ أن عرج علينا في طريقه من القرم، وكان ألقس في عامه الثاني. ربما نسينا!.. حقاً ليس بيننا تلك المعرفة العميقة، غير أنه لما دخل حدودنا أبي أن يكمل طريقه دون أن يمر علينا.

- لا، لم أر عليه مثل هذا. - قال بغدسار، - عرف أن الصبي الأمير ربيبي ففرح. وروى لرواد المضافة سيرتك الجيدة. وأرسل إليك معي تحياته الكبيرة.

- وعليكم السلام، - نهض قليلاً مع ذكر التحيات، وردّ على السلام بالسلام، - الأمير أتا جقوه من الأمراء المهمين في القبرتاي. عنده الكثير من الماشية، وغني بالخيول جداً. وعلى ما يقال لا يعرف هو نفسه تعدادها!.. كان قد أرسل لي، حياه الله، عدداً من الخيول حين عاد إلى القبرتاي، ولهذا يشتهي خيولي كلُّ من يراها. ومن بضعة الخيول صار عندي قطع... يا ربي، يا بغدسار، هل استرجع مهاره الأربعمئة التي صادرها منه والد قايسنقوه قازي حين سادت الفرقة بين الأمراء في القبرتاي؟ كان أتى على ذكرها متأثراً جداً. أليس عيباً أن يفعلوا بك مثل هذا؟ وهل الأفراس الأربعمئة عدد قليل؟ وإذا دخلت الفرقة بين الأمراء فماذا سيقول الفلاحون؟.. وهم بطبيعة الحال يتمردون علينا رغم أننا فوق رؤوسهم!..

- ذكر الموضوع لي، يقاضيه من سنوات طويلة. ولا أعتقد أن في المقاضاة فائدة على ما قال.

- والله يظلمونه، - قال قانشاو كأنه لنفسه، ثم احتدّ فجأة. - الحقّ ألم يبق في بلاد القبرتاي نظام؟ على هذه الحال سآتي يا بحقوقه وأستولي على نصف مواشيك، وأسوقها إلينا. ماذا تقول إن تصرفت هكذا؟

- إن فعلت بي هذا فموضوعنا سريع الحل يا حجمقوه. سنشهر الخناجر ونتواجه. إذا فعل الأمير الكبير هذا فالنبلاء سيتوحدون. ثم إذا انضم الفلاحون إليهم فاعتبر إمرتك انتهت هنا... تذكرت يا حجمقوه، سمعتُ جدي مراراً يروي كيف اعتاد آل حجمقوه على سرقة مواشيننا!! ولو عرف أننا سنصبح أقرباء مستقبلاً لما قبل. منحه الله الراحة حيث رحل، كان عجوزاً حكيماً.

- لا تعدّ يا بحقوقه إلى الكلام على الأمور التي مضت.

- ماذا تعرف إذن من موضوعات نتكلم فيها؟ لم يعد لنا شأن بالفتيات الجميلات فنتكلم عليهنّ. نعمل على تزويج ابنا وابنتنا. ولم نعد نافع للغزوات والمغامرات. لم يبق لنا إلا أن نجلس إلى موقد إمرتنا، ولكن لا أظن أنهم سيسمحون لنا...

- ومن لن يسمح لنا؟

- وهل تسأل عن هذا!! الأمراء الشباب الذين من أصلابنا.

- هل نسيت أن الولد الأصغر لم يقبل حين قلت إني سأعرض قضية وايقق تامير على مؤتمر الأبراخ؟ كأن الثيران الستين التي سأسترجعها من الأبراخ يمكن أن يركلها ويمشي! قال: يكفي ما عندنا، وسيزيد على حاجتك وحاجتي!!.. عديم الإيمان لا يعرف كم سأعطيه إذا تزوج وانفصل عنا، ولذا ينظر إلي من تحت جبينه!!..

- تبين أن ابنك الأصغر مجرّ تصرف بشكل صحيح مع الفلاح تامير. - ابتسم قانشاو، - ما حاجتك إلى التعامل مع الأبراخ واتخاذهم محادثين؟ لا بد أن تجد في الأبراخ رجالاً ملتحمياً غزيرِ شعرٍ الوجه يقوم بأعمالك دون أن تظهر أنت على المسرح.

- وهذا ما أبحث عنه... - ارتجف الأمير بحقوقه بضع مرات ووجنته اليسرى تنتفخ.

وفي الحال تذكر حجمقوه ولديه الاثنين. وسرت ابتسامة دافئة على وجهه. أعطيهما كل ما يسلبانه مني. وهل نحن عجوزان إلى هذا الحد فنيأس؟! ألا يجوز أن نشارك أبناءنا أفراحهم إذا كانوا في سن الزواج؟ ماذا استفدنا من سنوات عمرنا الخمسين؟ نعيش عمرنا نتصارع على من يفوز بجلد الضحية¹. من يلتقطها يجر بها، ومن يلحق به وينتزعها منه يركض وراء الآخرين. سألحق بعرس ألقس غير أبي لا أعرف ما أقول بشأن الأصغر. أصبح حجمقوه قانشاوا يقلق لعدم الدخول بالطفل إلى الغرفة. مرة واحدة فقط رأى بالتجري منذ أخذه إلى مكان تربيته: كان هذا لما حان موعد حلاقة شعره فجاءوا به. والآن هو ولد نشيط، ولكنه لا يعرف الكلام، يهجم على ما يراه.

صدرت أصوات نساء من جهة باب المضافة: كان واضحاً أنهن يأتين بالطفل الأمير. تباعد النبلاء الواقفون عند الباب. ولما انفتح الباب المجاور لباب المضافة ظهر ما على أرض الغرفة: سرج، وخنجر، وبعض النقود، وسوط، وبندقية، ومسدس، ومُصحف.

- يا ربي - انشغل بال حجمقوه قانشاوا، - إلام سيمد يده من بين هذه المعروضات؟

- هذا لا يحتاج إلى سؤال: السرج والنقود.

- من أين عرفت؟ - لم يُطق بارينقوه إلا أن يسأل.

- سأقول لك كيف عرفت: أر آل حجمقوه حصاناً مسرجاً واحرِمهم من الطعام والماء!.. نعتبر هذه مسألة منتهية، والأمر الثاني: لن يختلف في شيء عن مربيهم آل بارينقوه: قل لهم: نُقود يستخرجونه من تحت السحاب.

ضحك الجالسون جميعاً: من قالوا ومن قيل فيهم.

حين جاءوا بحجمقوه بالتجري إلى الغرفة الأخرى ساد الصمت في المضافة كأن لم يبق فيها أحد. تفحص الصبي أرجاء الغرفة: نظر إلى الأسلحة المعلقة على

¹ يكتفي هنا عن الصراعات غير المهمة في الأعراس، وهي تقليدٌ رمي جلد خروف إلى الشباب الفرسان غالباً ليتنافسوا على من يحصل عليه فيفوز بجائزة من البنات.

الجدار، وكرر النظر. ومَرَّ بعينيه على السرير المغطى ببساط جميل. وبعدها فحسبُ رأى ما وُضِعَ له على أرض الغرفة. صمت لحظة ثم توجه إلى السرج، ثم توقف. أمسك بيمينه بالخنجر المرصع غمده، وبالييسار بالنقود. ثم تأبط المسدس والقامة، وتجاوز المصحف والمسدس، وجلس على السرج.

- هذا كثير عليك، تضم كل شيء إليك، هذا غير ممكن، - لم يُطق قانشاو إلا أن يضحك، - أتوسل إليكم باسم الله أن تضموا إليه مصحف جدّه!

-6-

دفع وقُغ حوافر الخيل الذي صدر عن منعطف الطريق الجبلي جماعة بحقوقه شراندقوه المجتمعين في المرعى الجبلي إلى امتطاء خيولهم. ثم هدؤوا لما عرفوا أنهما الفارسان اللذان أرسلوهما في مهمة.

- ما الأخبار؟

- لا أخبار مهمة يا أمير. الفلاح تامبر سافر مع الشاب الكافر إلى أرض الناختوي.

- وحدهما؟

- معهما أبده نارج وجنجه سليم. وعلى قولهم يجب أن ينضم إليهم رمباكوه بجقان.

- ماذا ينوي هؤلاء المهرجون؟ - سأل الأمير بحقوقه نفسه. - لا فائدة من الوقوف هنا. تركناهم يفلتون منا!

- دعونا نسافر إلى الناختوي يا أمير، هؤلاء لن يكون مضيفهم إلا شباكوه، نغير عليهم ليلاً، - قال أحد النبلاء.

نظر بحقوقه شراندقوه بعين حمراء غاضبة إلى النبيل، وركب طريق البجدوغ دون تعليق. وراءهم أرض الأبراخ، وإلى يسارهم يلتف إقليم الشابسغ، وإلى الغرب تبدو جبال الناختوي. لا يصدر عن مجموعة الأمراء - النبلاء غيرُ وقع حوافر الخيل. يثيرون الغبار على الطريق الصيفي. وأفكار الأمير بحقوقه تتجمع في صدره غباراً ضبابياً. مضى اليوم ثلاثة أمثال الموعد الذي توعّد فيه تامبر أن

يأتي برأسه؛ فبأي حجة سيعود اليوم إلى البيت الذي أطلق فيه هذا الوعد؟ يمكنه أن يدخل بيت الإمارة بطريقة ما ولكن كيف يدخل غرفة سيدة البيت؟ لا يستطيع الأمراء - النبلاء العشرون التغلب على الفلاحين الاثنين. يخطر لي أن أفعله وحيداً، ولكن يا حسرتي من أين تأتي بقوة الشباب؟ فإن غلبني وصرعني بقيت موضع سخرية الناس إلى الأبد. نعم، أنا أعرف ما سأفعل به!.. - تأتي مجموعة فرسان من بلاد الجمكوي ويعترضون طريقنا يا أمير. قال كبير النبلاء فانتفض الأمير برأسه.

- من هم يا ترى الآتون من أمامنا؟ - ارتفع الأمير بحقوقه عن السرج قليلاً ونظر. - لا أظنهم فرساناً أديغة. انظر يا مجر؛ عيناك أحدٌ من عيني، - قال لابنه، - يبدو من طريقة ركوبهم أنهم من النغوي... أليس هذا سوناي؟! تعرف بحقوقه شراندقوه وسوناي عبد الله، كلٌّ على الآخر. وريثما تبادل الأمير البجدوغ، والمتنفذ النغوي السلام لم يتحرك أيٌّ من فرسان الطرفين. بقي كلٌّ في مكانه. وانتشر صوت الرجلين اللذين لم يلتقيا منذ مدة، وحممة حصانتهما في بركة البجدوغ:

- كيف حدث يا سوناي أن نلتقي هنا؟
- يحدث مثل هذا، قضى الله فالتقينا يا شراندوق، - قال سوناي بلهجة البسلي.

- والله لم أتوقع أن نلتقي هكذا!.. تعال، تفضلوا... والله مضى زمن طويل يا سوباي على آخر لقاء لنا... كم عاماً تظن؟
- تقريباً ستة.

- وربما أكثر... هيا يا مجر اسبقونا وخبروا بقدوم ضيف كبير. وأرسلوا حالاً وراء الأمير الكبير حجمقوه. وادعوا الأمراء فُتدق وجحقوه وقزانقوه ووجبش. ومُثروا على بارينقوه بغدسار، وأخبروا من الشابسغ شراً لقوه ناغوه. ومن الأبخاخ جمه تناو. وليستقبلنا أهالي القرى على الطريق.

- هل نرسل رسولاً إلى الأمير بولتقوه في الجمكوي يا أمير؟
- لم يكن مانع من الإرسال وراء الأمير بولتقوه... كفى، هو لا يرسل إن كان

عنده ضيوف أو فرح. لست أميراً أصغر منهم!...

حين أُرسِل النبلاء لتبليغ المدعوين لم يكن قد بقي مع الأمير إلا بضعة فرسان.
في حين توزعَ البقية.

- والله يا جراندوقه نحن على طريق القرم. فهم سوناي أنهم سيستبقونه عدة أيام.

- ليس عجبياً أن تكونوا على الطريق. إن لم يكرم أحدنا الآخر يا سوناي فمن يكرمنا؟ إن وطئت أرض البجدوغ ولم تأكل من الشبس والباستا فلن تكون السيدة راضية.

- لن أستطيع أن أغضب السيدة.

وصل الأمير بحقوقه شراندوقه برفقة الضيوف إلى ظاهر قريته. استقبل الأهالي الضيوف النغوي ركبناً ومشاة، تدوي موسيقى شباباتهم وقروهم في الريف. واكبوهم إلى القرية مع مظاهر الاحترام، ثم إلى بيت الأمير. وفي صباح اليوم التالي مع الشمس بدأ الضيوف المدعوون يصلون. ما إن يصل الضيف حتى يدعوه إلى رقصة، ثم يقدموه للضيف المتنفذ النغوي. ومن ينته من الرقص يُلق عريفا الحفل كلمتين مؤثرتين بحقه. استمر الاحتفال بالضيوف ثلاثة أيام بلياليها لا تنقطع المائدة والعزف على الشبابة. كانوا مريحين سعداء. وفي اليوم الرابع بدأ الضيوف الأديعة ينصرفون. وأول من غادر كان الأمير وجيش الأحمر. وبعده تناو. أما قُنْجق وقزانقوه فلم يكونا صاحبين، فلم ينصرفا معاً. ولما صدف أن يدخلوا معاً غرفة الأمير وجد كلٌّ منهما حجة لتوديع الضيوف. كان طريق حجمقوه قانشاو أقرب الطريق ولكن تبعاً لمنصب إمرته الكبير فقد انصرف هو وشرلأقوه ناغوه وأباته قازجري معاً قبل غيرهم. وفي صباح اليوم الخامس استأنف الضيوف النغوي طريق القرم. شيع ستون فارساً من البجدوغ والنغوي الضيوف يسبقهم بحقوقه شراندوقه وعبدالله سوناي إلى خارج البجدوغ. ووجد بحقوقه وسوناي موضوعات يتحدثان فيها طوال نصف النهار على الطريق. وخلال الأيام الخمسة المرححة كان الضيف يتساءل: ألن يأتي حجمقوه على سيرة سيسار، ولكن لم يخطر ببال حجمقوه ما كان يفكر فيه سوناي. ما كان

في ذهنه شيء آخر: ضيافته للأمرء البجدوغ، والأنخاب المتبادلة، وما قيل فيه هو وفي إمرته من تقريظات. كان يتعجب من كتمان حجمقوه قانشاو عدم إعجابه بهذه المدائح. تعودت أيها الخبيث على امتداح الناس لك. تعلم أن لغيرك شوارب أيضاً وإن كنت كبير أمراء. تتخيل أن البجدوغ كلها لك، ولم يبق فيها أمير غيرك!..

- هل تتذكر يا شراندوقه كنت أعطيتني فتاة صغيرة؟ - لم يصبر سوناي على تجاهل الأمير فسأل بنفسه.

- أتذكر، كنت أهديتك. ماذا بعد؟ ألا تسمع كلامك؟

- هذه لم تعد عندي.

- أين هي إذن؟

- بعد انقضاء سنة على منحها لي ركبث حصان ابني وهربت... ظننت أنها رجعت إليكم.

- ما أعجب ما تقوله!.. ليس في نواحيننا مثل هذا الخير. عاد زوجها السابق، ويعيش أرملاً غريباً في بلاد الأبراخ. والله يا سوناي ما تقوله غريب. أتكون حية إلى الآن؟ ألم يكن اسمها سيسار؟.. لو كانت حية لظهرت إلى الآن في نواحيننا...

- حية، حية. قيل لي إنها شوهدت في غابة من غابات البسلني... والله يا شراندوقه تبين أنها فتاة شريرة... قيل إنها تركب الحصان كالرجال وتستعين بالسلاح، - حين كان المتنفذ سوناي يتكلم على سيسار كانت لهجة البسلني - القبرتاي بدأت تطغى عليه.

الفصل الثامن

-1-

وجد شباكوه أحمد وحاغور موسى نفسيهما في أرض الجمكوي، وفي عز الظهيرة. لا يأتي شباكوه إلى الجمكوي لأول مرة. زارها بضع مرات في

مناسبات أفرح أو أحزان. وحين كان يزور القبرتاي والبسلني وجب عليه أن يقطع أرض الجمكوي أكثر من مرة. وعنده كثير من المعارف بين الفلاحين. ولكنه سيدخل تَزَج قرية زيش لأول مرة. أما حاغور السائر إلى يساره فلا أول مرة يطأ أرض الجمكوي.

أرعى شباكوه الزمام فزاد الحصان من سرعته. ولما وصلا بعد قليل إلى الأرض المحفورة في البرية انحرفا عن الطريق. ولما اتجها إلى الأرض المحفورة لم يجد حاغور من اللائق أن يسأل رفيقه وإن لم تكن عنده فكرة عنها. كل ما يقوله ويفعله الكبير أمرٌ له. وهذه عادة شركسية دائمة فلن يحيد عنها. خرجا من العشب الكثيف وتسلقا المنحدر. ترى الجهات الأربع كأنها في كفك. ولا تجد العين أي عقبة في أي مكان. والأرض المحفّرة العالية تطل على أرض الجمكوي المستوية فما تنظر إليه تلعب فيه الشمس الحارقة، فتبدو السماء باهتة كالقماش الذي فقد لونه. الغابة والزرع يتنافسان في كل مكان. والأماكن الغنية بالحشيش الأخضر المائل إلى الأصفر تزدحم بالمواشي.

- كل ما تراه الآن يا حاغور هو بلاد الجمكوي. - نَزّه شباكوه عيني رفيقه متجولاً بيده في الأرض المستوية. - وبسبب حياتهم على المضيق الواقع على يسار نهر لابا يسمى الجمكوي: سكان لابا. وقبل أن تصل إلى نهر شحكواشه تماماً، تتناثر قراهم على ضفاف لابا وفرزه وشخراج ووُله، وإلى الشمال الغربي الذي اقتربنا منه يعيش جيرانهم الحاتيقواي والبجدوغ. والجهة الجنوبية الشرقية التي تصل غاباتها الجبلية إلى اليجرقواي هي أراضي المخوش. والمماكغ يعيشون في جبال الأبراخ الممتدة إلى الشرق. وإذا مشيت إلى الشرق ثلاثة أيام وصلت إلى النغوي سكان البوادي. وإذا تجاوزت أستراخان، وأنا لم أصل إلى أبعد منها، فالله يعلم مَنْ في تلك الأنحاء. وقد قابلت مَنْ يقول إنه ليس فيها إلا الريح الرملية، ولكن لا أعرف مدى صحة المعلومة. وهل يُعقل ألا يعيش بشر في الجهة التي تشرق منها الشمس؟! أعتقد أن فيها بشراً.

- في أي جهة تقع بلاد القبرتاي؟ - سأل حاغور موسى المتعجب مما يرى ومما يسمع.

- تسأل عن بلاد القبرتاي؟ - هناك: إن مشيت، وأنت إذا نظرت رأيت جبال الأبراخ، وإلى اليسار تتجاوز البسلني، وتبقى القرشاي إلى يمينك دون أن تنحرف إلى الشرق، ولا تنحرف بعيداً إلى الجنوب، بعد كل هذا تصل إلى القبرتاي. وإذا عبرت نهر بشزه إلى الشمال من الجمكوي فالبتكل الروس هناك.

- يقال إن البتكل أناس طيبون إن خالطتهم أو خالطوك. هل هذا صحيح؟

- لا أقول إني عاشرتهم كثيراً، ولكني عبرت نهر بشزه بضع مرات. ما تقوله صحيح. حكمتُ بأنهم أناس صالحون. يستقبلونك بوجوه طليقة. إن عشنا، وعبرنا نهر بشزه يوماً عَرَفْتُكَ عليهم. أناس يتمتعون بالرجولة والصدق. إن لم تحمل السلاح عليهم كرموك غاية التكريم. يبغضون السلاح. ولكن إن أجبرتهم على أن يشهروه عليك فقد جنيت على نفسك.

- والله لو انضمامنا إلى البتكل لكان خيراً... - قال حاغور معجباً بما يسمع، ثم أضاف: - أقول هذا ولكني لست حرّاً بنفسي كسائر الفلاحين. مربوط نهاراً وليلاً إلى عربة شراًقوه القديمة. وحين طلبت منهم أن يسمحوا لي بمرافقتك وافقوا متذمرين...

- لا أعرف ما يدفَعُك إلى هذا الكلام غير أنني لم ألاحظ هذه المرة عليهم مثل هذا الموقف. بل كانوا مرتاحين جداً.

- وكيف يرفضون طلب ضيف كبير مثلك!.. وفعل هذا بهم أيضاً ربماكوه بجقان للتوجه إلى مناسبة اختبار الرجولة عند الأبراخ. كان آل شراًقوه مسرورين جداً لنزولك ضيفاً عليهم. أشاعوا الخبر قبل أن تجد أنت الفرصة. وقدموا إليك ما يقدمونه لأمرء البجدوغ من الطعام. لا أذكر إلى الآن أن آل شراًقوه اعتنوا بضيف ذي أصل فلاحى كما اعتنوا بك.

- ربما كانوا بحاجة إليّ... - ابتسم شباكوه. - تعال، عند عمق الغابة يلتف نهر فرزه، نسقي الخيل، ونعتني بأنفسنا قليلاً. لن ندخل قرية تزج في عزّ الظهيرة. يا ربّي أياكون فكّ الرباط الذي نذهب من أجله دون أن ينتظرنا؟ البائس شاب نشيط، ليس في العالم ما يخاف منه. إن تبين أنه فعل هذا، فسأعاقبه بما يستحق وإن كنا ضيوفاً...

- وهل يفعل هذا؟

- سأقول لك إذن يا حاغور. يعجبني الفلاح زيش الجمكوي. نحن الأسرة نعمل في الطب منذ زمن بعيد. لم أر أحداً كسر من جديد عظمة ملتحمة إن لم نفعلها نحن. لو لم يفعل زيش ما فعل لعاش عمره ويده اليسرى لا تنفع لشيء.

- هل تأمل أن يلتئم بشكل صحيح؟

- أنا واثق من هذا.

- ألا يزال زيش شاباً؛ يجب أن يلتئم عظمه بسرعة. - قال حاغور موسى متفائلاً، - لا يجوز أن تعتب على رمباكوه بجقان، فزيش خفيف أكثر مما ينبغي. يريد أن يهديه إلى طريق قويم تبعاً لعمره.

ليت مامرقوه الذي يلاحقه لم يتسبب له بأذى. عدد من النبلاء تحولوا إلى مجرمين في خدمة الأمراء والمتنفذين. يجعلونك تفضل أشد النبلاء ظلماً، في صدورهم قلوب ذئاب.

شعر الحصانان بماء بارد في الجوار.

تذكر موسى حين أتى على ذكر المجرم إخبار تحخواخوه له أنه سمع شرلاًقوه ومامرقوه يتحدثان عنه. ليس شخصي مشكلة إن لم تجد داريت باباً من الشر لأكوز. هذه المرأة لا شيء يردعها عن فعل ما يخطر لها من الشر. مهما فعلت الصبية حكمت عليها داريت بالسوء. إن فعلوا بأكوز ما يسوء فلن أتردد: سأحرق كل آل شرلاًقوه.

نحض نحر فرزه الأزرق من بين العشب الأخضر مصففاً بأمواجه غير العالية. فعبروه من مخاضته والماء يتجاوز صدر الحصان.

- سنختار البلوطة قرأ، قال شباكوه.

أغصان الشجرة الضخمة القائمة قرب الضفة تُمسك أشعة الشمس الحارة. والساقية الصغيرة القريبة تنشر الرطوبة العذبة كأنهما دخلاً عالماً آخر. ولما نظرا حولهما رأيا مرعى صغيراً قريباً من المكان الذي اختاراه لتخميمهما. هجم الحصانان اللذان ارتويا على المرعى.

أسرع شباكوه بخلع ملابسه. ابتعد موسى بدافع الحياء عن المكان الذي يستحم فيه رفيقه الأكبر، فالتفت حتى الشجرة القديمة الساقطة في الماء، وخلع هو الآخر ملابسه. وظل جسده غارقاً في الماء ريثما غمر بضع مرات رأسه الحليق في الماء. ولما رأى شباكوه يرتدي ملابسه خرج من الماء.

- والله يا أحمد جئت بنا إلى ماء ممتاز. ليس هذا مثل مياه الشابسغ، هو دافئ يغريك بالبقاء فيه.

- وأنا أيضاً تعجبني مياه البجدوغ والجمكوي أكثر من مياه الشابسغ والأبزاخ. مياهنا نحن باردة صيفاً وشتاءً. - أمسك شباكوه بالخنجر، ورماه بضع مرات إلى الأعلى ورأس الزنار معلّق بإبهام رجله. ثم قال لرفيقه وقد ملأ الضفة برغوة الصابون: - الآن يا حاغور احلق لي رأسي. الأرض التي دخلنا إليها أرضُ الجمكوي؛ ليرونا نظيفين كالבشر!

لم يتأخر حاغور في تنظيف رأس رفيقه.

- والآن دورك يا حاغور. أنت شاب في سن الزواج، وفي الجمكوي بنات كثيرات جميلات. أظن أننا سنعود ونحن ثلاثة أشخاص.

- لا يا أحمد، لي فكرة أخرى، - لم يصارح رفيقه الأكبر بما في ذهنه، وبدأ عليه حياؤه.

- اجلس يا حاغور، اسمعني إذ أذنث لك، - لم يسمع شباكوه اعتذار حاغور، وحلق له.

ما إن تناولوا غداءً مما معهما من الخبز والجبن واللحم المجفف حتى صهل أحد الحصانين.

ظهر فارسان على طرف المرعى. ولم يتأخرا في الوصول إليهما. وتعرف شباكوه وحاغور على الفارسين.

- ما الذي تفعلانه هنا وأنتما لا من هنا ولا من هناك؟ - قال مامرقوه دون أن يحییهما.

- جالسان ننتظر تحية مامرقوه، - أجاب شباكوه.

- أهذا شباكوه أحمد الذي لم أتعرفه؟! أهلاً يا شباكوه!.. والله لم أعرفك. أنت

واحد من رجالات الناختواي. أأنت من لا يُلقى عليه السلام؟! - ترجل مامرقوه، وفعل مقاي ما فعل رفيقه.

- والله أيها النبيل مامرقوه لم أتوقع قطُّ أن نلتقي ها. - استغرب شباكوه دون مجاملة. - أنظر إليك فأراك تزداد شباباً. أظن الشيخوخة تتجنبك.

- يا حسرتي يا شباكوه؛ من أين لي هذا!!..نظننا نُسعد أنفسنا فإذا بنا غمضي إلى النهاية. لا بد أني رأيت رفيقك في مكان ما. أين يا ترى، أين؟ رأيتك؛ في الأبراخ أم في الشابسغ؟ هذه يا شباكوه طريقة اكتشاف الشيخوخة إن شئت، وأنت تقول إنني أزداد شباباً.

- ليس مرة واحدة رأيتني يا مامرقوه فثُكركني! لم ترني في بلاد الأبراخ بل في الشابسغ. ولا يراني مقاي للمرة الأولى؛ لا أعرف لماذا لا يتذكرني.

- لماذا يا مامرقوه تسمح لفلان شرلاًقوه أن يثرثر؟ - احتدَّ مقاي.

- أيُّ عيب هذا الذي تقوله في حضرة شباكوه يا مقاي؟ - ألقى مامرقوه نظرة استياء على رفيقه. - وهل حاغور من لم أتذكره؟ نعم، نعم، هل تعرف... هو أحد فلاحي باستوك المعروفين. ما أخبار شرلاًقوه بإذن الله؟

- لا يزال حياً، يعيشون كما تعرف. - أجاب حاغور باختصار.

- تفضّلاً!- قابل شباكوه الرجلين حسب تقاليد الأديغة.

- لا، نحن على طريق، - أسرع مامرقوه بحيث تعرف أنه مهموم بأمر ما.

- ونحن أيضاً على طريق كما أنتم، - تناول شباكوه سرج حصانه.

دخل شباكوه وحاغور قُبيل الغروب إلى قرية تزج. سأل أحد الصبيان عن بيت زبش فأشار إليه. ولما دخلا إلى دار الفلاح المرتبة، لم يستقبلهما أحد. ربطا الحصانين، وتوجها إلى باب المضافة. لم يكن جو المضافة حاراً خلافاً للنهار. ولم تلبث الرطوبة المنعشة أن أشعت من أرض الغرفة الطينية التي رُشَّ عليها الماء. لم تكن الغرفة غنية بالأثاث غير أنها مرتبة ونظيفة. وبعد ما جلسا وقتاً دخلت أمُّ زبش:

- أهلاً بالضيوف، - حيَّتهما بؤدٍّ، ووقفت عند قائمة الباب.

نفض الرجلان للمرأة. وردَّ شباكوه التحية بصفته الأكبر بينهما. ودعا المرأة

للجلوس ولكنها رفضت.

- أتوقع حسب ما أرى يا أختي أن زيش غائب عن القرية.

- لا أظن الولد في مكان بعيد. لو كان ينوي الابتعاد لأخبرني.

كان أحمد مهموماً باليد المجبورة فلم يتأخر في تقديم نفسه ورفيقه إليها. ولما سمعت اسميهما تبين أنها تعرفهما وتنتظرهما، ففرحت أم زيش:

- ألا تزال يد زيش مجبورة إلى الآن يا أختي؟

- نعم، نعم. لم أقبل أن يحلّها مهما حاول. جعلته ينتظر.

- هل تسمع يا حاغور ما تقول أختي؟ كان ينوي أن يحلّ الرباط من عنده!..

والله إن وافقنا رمباكوه أم لم نوافقه فزيش شاب متوثب!..

- بل أكثر من هذا. - هزت أم زيش رأسها.

-2-

في اليوم التالي عرف الجوار أن شباكوه أحمد ضيفٌ على الفلاح زيش، فاستدعوه إلى قرية مجاورة لمعاينة فتاة مقعدة منذ زمن طويل، ولا يزال أحمد غائباً.

ينبئ قدوم النهار بأنه سيكون أشد حرارة من البارحة. صحيح أن الشمس بدأت بالإطلال من فوق رؤوس الأشجار فحسب، ولكن الضيق يسيطر على الأرض كلها. الأشجار تحني رؤوسها محتاجة إلى نسمة ترفعها. والدجاجات المتناثرة أمام البيت لا تريد أكثر من العودة إلى قنّها.

لا أحد في المضافة غير زيش والضيف. لا يصدّق زيش أن يده غير مجبورة منذ ليلة البارحة. يلمسها من وقت لآخر.

- هذا ألم لحظة واحدة، وصيحة واحدة يا موسى، - بسط زيش اليد اليسرى، وفركها مراراً، وطوى الأصابع وبسطها حتى عادت إليها الحياة بعد الحذر.

- شباكوه ماهر، جبرها بحيث لا تعرف إن كانت انكسرت مرتين. والآن لا يعترضني مامرقوه ومقاي بعد الآن!.. سأخنقهما بهاتين اليدين. لن أهدأ وهذان حيّان يرتكبان جرائمهما. كنت أقسمتُ على هذا، بل أقسم ثانية باسم يدي

التي شُفيت.

عصر الألم قلب حاغور. غبط زبش على كلماته التي تعهد بها لوالده الذي رحل قبل أوانه. أما والده هو فقد كان طفلاً لما مات اختناقاً في خزان الحبوب العائد لآل أباته، لم يكن في وضع يسمح له بمثل ما أقسم به زبش. ردُّ الفعل الوحيد الذي كان بإمكانه هو أن يحرق حشيشهم ففعلها وهرب. ليس عندي إلى الآن ما أحجل منه أمام والدي، سيأتي يوم الانتقام له، ولكن والدي لن يشهد هذا.

- ما يفعله شباكوه لا تتساءل عن نتيجته! لهذا يقال: الطبيب الماهر يعرف ما يفعل. - قال حاغور يريد إبعاد ذكرى والده الثقيلة. - وكذلك رجولته. جئنا وهو قلق عليك جداً.

- كان مهموماً إذ لا يعرف ما حدث؛ أليس كذلك؟
- لم أره يشكّ في إمكان التئام يدك، بل كان مهموماً بأمر آخر: خاف أن تفكّ الرباط دون أن تنتظره. حسناً فعلت إذ لم تتصرف بطيش الشباب. كنت أذيت مشاعر شباكوه لو فعلت.

- ما كنت لأفعل هذا قط، - شحب وجه زبش، - ولكنني كنت وقعت بعد ثلاثة أيام في موقف يحملني على فعله. لو كنت أعرف أن الأمر سيجري هكذا ما كنت استعجلت على يدي مسبباً مشكلة لأبده نارج، ومتسبباً في تفرّيع رمباكوه الزعيم المبارك، ومكلفاً شباكوه هذا الطريق الطويل. الحق أنني فكرت بضع مرات في حلّ الرباط. ما عانيته في الأيام القليلة الماضية يساوي مئة يد. ولكن ما العمل؟ كنت بلا حيلة.

- خمنت أن تكون مهموماً بأمرٍ ما حين لم نجدك في البيت مساء أمس، - شكّ حاغور في السرّ الذي لا ييوج به المضيف. ولما عدت لم يكن الهُمّ فارق وجهك. وشبأكوه أيضاً لاحظ هذا. وتكلمنا فيه حين أوينا إلى الفراش... مامرقوه ومقاي هما حتماً من كنت تلاحقهما.

- وما أدراك؟

- هذان الشخصان هما من في ذهنك الآن.

- لم تخطئاً. هذان النيبلان هما من أدّخر لهما قوتي كلها. كنت اكتشفت مكان مامرقوه في الجمكوي لولا هذه اليد المنحوسة. راقبته ليلاً ونهاراً حتى انصرف من بيت مضيفه. حدّثني قلبي أكثر من مرة أن أهجم على بيت النيبل حيث هو وأقتله. ولكن القرية ما كانت لتقبل مني أن أنقض التقاليد الشركسية فصبرت مكرهاً. أمس، وقت تناول الشاي صباحاً، انصرفا إلى سبيلهما، فلم أستطع أن أتابعهما. أحسنا هما ولكنهما تظاهرا بأنهما لم يشعرا بي حتى توغلا في الغابة. غير أنني لم أستطع متابعتهم في الغابة بيد مجبورة كهذه. - حسناً فعلت.

- وكيف أدخل الغابة وأنا أعرف أن أحدهما سيكون خلف ثالث شجرة فيها؟.. هذا ما جرى لي أمس، سواء كان إهانة أم لا. كيف لا يحزّ هذا في نفسك؟ ثم إن ما يؤلمني أكثر هو حلول مامرقوه ضيفاً على القرية المجاورة رغم تحذيري إياه بأني لن أدعه حياً. والآن هما كإبرة في كومة من القش... سألت النيبل الذي كان مضيفه حتى أعرف الاتجاه الذي سلكاه؛ هل تعرف ماذا قال لي؟ كانا آتيين إليك ليكسرا يدك الأخرى ويُرهبنا روحك!..

- نحن من يعاديهم النبلاء بدعمٍ من الأمراء والمتنفذين. - مع الجملة الأخيرة رفع حاغور الذي كان جالساً مرتاحاً رأسه. - يبدو أنهم لا يساوونني بطرف ظفرٍ من أظفارهم. ولا يعيرون النذر الذي نذرته أيّ أهمية. يعيشون فساداً في إقليم الأديغة.

- لا يمكن القول بأن جماعة مامرقوه لا يخافون منك يا زبش. الحال التي رأيناها فيها أمس توحى بأنهما لا يعرفان راحة كأن النار في أذنان خيلهما. - وأين رأيتماهما؟

- في غابة فرزه.

- قلت لي في عمق الغابة!

- نعم، كنا جالسين على ضفة النهر، فالتقيا بنا مصادفة دون علم منا ولا منهما.

- ماذا كانا ينويان لكما؟

- تظاهرا بأنهما لم يتعرفا علينا ولكن شباكوه أعاد إليهما الوعي. فادّعى الخجل ووجهها تحية كبيرة إلينا. غير أنهما انصرفا مسرعين بحجة السفر.

- إلى أي اتجاه؟

- كان رأسا الحصانين موجهين إلى الجهة التي أتينا نحن منها. ولما صارا على الضفة الأخرى لنهر فرزه خرجا من البرية مسرعين دون تغيير اتجاههما حتى غابا عن النظر. إذا كان من الممكن أن تكتشف من هذا فهما متجهان إلى البجدوغ - الشابسغ.

- من الصعب معرفة مقصدهما من اتجاه رأسي الحصانين، - عاد زيش فجلس يتفكر في الأمر. وبعد قليل ضحك ضحكة خفيفة وقال: - في قريننا فلاح أصلع، يرى نفسه ذكياً، والأكثرون يلقبونه بالجنون المنافق. لا يعرف أحد ماذا يتابع، وأمامه دائماً مهام لا نهاية لها. يتنقل من زاوية إلى زاوية. إذا رأى الأمراء - النبلاء هُرُع إليهم بالتحية. ولا يخجل من كلامه. يسمى السود بيضاً والبيض سمراً صُبح الوجوه. إن كانت له مصلحة معك جثا على ركبتيه أمامك؛ وإلا مشى على جسدك ولو كنت نائماً. وإن سألته: أين وجهة حصانك بإذن الله أجابك: إلى القرية عند تلك الساقية، ومتى صار وراءك اتجه إلى مكان آخر. متعطش إلى النبالة. اطلب منه أن يؤلف أغنية للأمراء - النبلاء يحاول وإن لم يفعل هذا في حياته. وإن لم يستطع احتجز أحد الشعراء في مضافته، وذبح له بقرته المسنة الوحيدة، فإن لم يكف فديك الحبش الجاثم على مُستراحه، ونظم بحقه قصيدة مديح. ولذا إن كان مامرقوه سار في خط مستقيم فقد يكون عاد إلى فلاح قريننا الأصلع. اعرف أين ذهب الآن؟.

- أينما ذهب لم يبق فيهما قوة يا زيش. - قال حاغور، وانفجر ضاحكاً.

- سبب ضحكي هو أنك ذكرّتي حين وصفت فلاح قرينكم المتعطش للنبالة بفلاح في قريني باستوك اسمه حنانا. صحيح أنه ليس أصلع كفلاحكم، عليه شعر كثيف ليس منه على الكثير من الناس. وشعره مشكلة له إذ عليه أن يخلقه مرتين في الشهر، غير أنه يتصف بكل ما ذكرت من أحواله. هو من الناس الذين يقال فيهم: قابله بأحد المتنفيدين واحرمه من الطعام ومن

الشراب!!.. ولو كان وحده لهانت المشكلة. المشكلة أنهم منتشرون في كل مكان. هؤلاء ليسوا واحداً أو اثنين أو ثلاثة. هم كالأسماك الشرهة الجزوعة التي في الماء. يفتنون بين الناس، وينشرون الفساد والعداء والنميمة. وهؤلاء هم من يفسدون على الفلاحين عيشتهم. البجدوغ تمتلئ بهم، وليسوا قلائل في الأبراخ. أمثال مامرقوه لصوص وقتلة. تحمل السلاح على الأشرار وتتعامل معهم بما يستحقون، ولكن المصيبة في أمثال مامرقوه: لا يفعلون شيئاً تقريباً من مبادرتهم. لا يمكنك أن تشهر عليه السلاح قائلاً: أنت منافق ولعبة بيد الأمراء - النبلاء، ولكنهم هم من يبيعونك إن استطاعوا بالنميمة والمؤامرة.

- كل ما تقوله يا حاغور صحيح، ليس فيه أي زيادة أو مبالغة، ولكن هل تعرف ما أرى في هذه القضية بالإضافة إلى ذلك؟ يعيشون على فئات موائد الأمراء - النبلاء، يقبعون تحت الموائد كالكلاب يمصون قطعة العظم التي ترمى إليهم، وإذا بهم يتحولون إلى طبقة أغنياء الفلاحين. وفي قرية تزج عدد من الفلاحين يحملون هذا الاسم. ولا أظن قريبتكم تخلو من أمثالهم. السياج الأول الذي يحمي الأمراء هو النبلاء. ومن ذكرهم سياج ثانٍ يحيطون بهم في كل قرية. هذا كان رأي والدي المرحوم.

بدأت الشمس تغزو الأرض مع الغداء فاحتدّت، وثقل النهار الحار أكثر فأكثر. رفع حاغور القبعة اللبادية البيضاء عن رأسه ومسح العرق عن جبينه براحتيه.

- يا للضيق!..

- بلاد الشابسغ ألطف من هنا. - ابتسم زبش متفحصاً الضيف، - في الصيف برية الجمكوي كالحبز الشرسكي المنتفخ، ورغم ذلك تبقى بلادنا مصدر سعادتنا، على قول المرحوم والدي. ولكن لا أعرف لماذا كان يقول هذا. إذا كانت السعادة التي عاشها والدنا فيها ما أعرفه أنا!..

- ما العمل؛ كلٌّ يرى وطنه جميلاً، ومصدر سعادة. من يعيش في الرمل يظن نفسه يسبح. وإذا كان الصيف حاراً والعاصفة تهب في الشتاء، فأنتم في بلاد آمنة، ترون ما يحدث فيها وتعرفون فيها ما يضمر لكم عدوكم وصديقكم...

أعجبني جداً فحركم الدافئ فرزه... واسمه جميل جداً، أحببته جداً.

- ألا نذهب يا حاغور إلى تلك الجهة! نحمم الخيل، ونروّح عن أنفسنا.

- هل عندكم ماء قريب من هنا يغطي ظهر حصان؟ - سأل حاغور وفي ذهنه مخاض نهر فرزه حيث النهر ضحل.

- تعال، -ضحك زيش، - لا أظن شباكوه يعود قبل المساء.

كان الوقت صيفاً حيث تغيض مياه الأنهار والسواقي، ولكن فرزه التي تتناثر حولها القرية ملأى بالماء. ابتعدا عن الجهة التي يستحم فيها أطفال الفلاحين، واتجها إلى أشجار الصفصاف التي يستحم تحتها الرجال.

غمر حاغور وزيش رأسيهما في الماء أولاً ثم حمما الحصانين. وفيما هما يهتمان بالخروج بعدما استحما دخل فارسٌ إلى المضيق. ولما رآهما انعطف إلى جهة أخرى ولم يقترب منهما، وخلع قبعته يريد الاستحمام. لمع رأس الرجل تحت الشمس كقدر برونزي مجلي حديثاً.

ضحك زيش.

- ربما كان هذا الفلاح الأصلع الذي جئت على ذكره هو من يتخفى. - قال حاغور بحدوء وركب.

ما إن سار الفارسان قليلاً حتى صدر صياح رجل من أحد البيوت على الشاطئ.

- ماذا جرى؟ - لجم حاغور الحصان.

- النبيل أردن يعاقب عبده بما يستحق. - قال الفارس الأصلع إلى من وراءه غير مُعيرٍ اهتماماً للصراخ. - أمسكنا به قبل قليل وربطناه معاً.

هاج حاغور دون اهتمام بكلام قنار الأصلع، ووجهه حصانه إلى الدار التي يصدر منها الصراخ. ولحق زيش بالضيف دون تفكير. ولما جريا إلى أمام باب بيت النبيل الذي يصدر منه الصراخ رأيا رجلاً عارياً إلى الخصر، مقيداً إلى مخزن الحبوب. يرشون عليه خليطاً من اللبن وماء العسل، فيتجمع عليه الذباب، فلا ترى شيئاً من وجهه أو شعره أو ظهره تحت الذباب. والنحل وأشباهه تحوم حوله.

- أيُّ قسوةٍ يقتربها هؤلاء!- اقتحم حاغور الباب بصدر الحصان، وقصَّ بالخنجر الحبل الذي قُبِدَ به العبد، فهرب العبد ما إن رأى نفسه حراً إلى الماء عبر الحديقة.

خرج النبيل أردن من الغرفة مسرعاً:

- أيُّ ثرثارين هذان! ما شأنكما بي؟ ماذا تريد أيها الجمكوي الصغير؟ هيا ابتعد من هنا!.. هل أخذت مكان والدك في القرية؟!

- أيها النبيل أردن، لا شأن لك بأصلي. - اقترب حاغور بصدر الحصان من الرجل الواقف على المسطبة. إن سمعتُ أنك تظلم العبد الشاب فسأتيك، لا من الشابسغ فحسب بل من الآخرة. أنا أعرف ما تستحق أنت، ولكن يكفي هذا الآن!- انعطف الفارسان تتبعهما نظرات المحتشدين على صراخ العبد، وخرجوا.

-3-

بدأ ضيق النهار يتراجع شيئاً فشيئاً. والريح التي تصمت عادة في مثل هذا الوقت بدأت تهب متعثرة كأنها أحست بضيق الناس من الحر. وصفقت أوراق الأشجار تعبيراً عن فرحها بهذا التحول المفاجئ. وأيقظت الريح الحرَّ الكسول الأسمر الذي بدأ ينحسر عن الأرض: يتمطى، يتمدد، يتشاءب. ومن سماء الصيف تلمع النجوم كأن أرض فلاحِي الجمكوي مشتهاها.

كان حاغور وصاحبه جالسين ينتظران شباكوه.

- والله يا ضيف، نأحيئنا تشبه نأحييتكم، - أجاب الفلاح الأكبر أمزان على سؤال حاغور. - لا فرق كبيراً بيننا. صحيح أنه ليس عندهم ضيوف فالمتنفذون فوق رؤوسكم، يجبرونكم على تحقيق ما يريدون. وتحملون شرورهم. أأستم أديغة؟ كيف تحتلفون عنا؟ أينما توجهت لأقيت الوضع نفسه: الأمراء لم يعودوا مشكلة، النبلاء هم من يفسدون عيشتنا. لا يتورعون عن إلحاق أي أذى يخطر لهم بالفلاحين.

- لا أقول إن كلامك يخلو من الصحة. - يهز حاغور رأسه موافقاً، - أعرف

دواء واحداً للأمراء - النبلاء - المتنفذين. يجب أن تتجاهلهم برأس حصانٍ شجاعيتك كما يفعل الفلاح تامبر؛ وإلا مروا بخوافر خيلهم على ظهرك. وإن لم تتراجع شهروا عليك الخناجر. لم يترك الفلاح تامبر أذىً يُلحقه ببجقوقه شراندوقوه لم يُلحقه به. والآن يعيش الأمير في الأبراخ غريباً، أقسم ألا يعود دون أن يحمل رأس الفلاح إلى السيدة زوجته. يلاحقه أينما ذهب. ولكني أتوقع أن تكون نهاية الأمير العنيد على يد تامبر.

قال الفلاحون ما قالوا، وربما بسبب ظلمة المساء سأل أمزان:

- هل صحيح يا ضيف ما يقال من أن الشياطين تجتمع مرة في السنة في جبل سبار؟

- والله يا أمزان وأنا سمعُ هذا، بعد أن يقضوا سبعة أيام بلياليها يبحثون قضاياهم الشيطانية، يختتمون بحفلة رقص كبيرة.

- والله عجيبة هي عيشة الشياطين. - استغرب الفلاح الأصغر أيضاً، - في النهار يعيشون بين الناس على هيئة بشرية، يتكلمون إليك، ويصلون معك. وفي الليل يطيرون من فتحات مواقدهم دون أن يراهم أحد، ويلحقون قضاياهم الخاصة بهم. ويقال، ولست متأكداً من صحة الخبر، إن قنار الأصيل مرتبط بهم.

- لا حاجة لأن تسال عن طبيعة قنار الأصيل الشيطانية. حسم زيش النقاش باختصار بعد صمت.

- ماذا يجري إذن أيها الضيف بشأن قولباست¹ - سأل الفلاح أمزان أيضاً.
- أظن أنه ما من قولباستات في نواحيننا. أثارنا مختلفة عن أثاركم، باردة تستحيل الحياة فيها.

- نعم، في نهر فرزه قولباست، رأيته في هذا الربيع بأم عيني.
- حقاً هذا غير ممكن، - استعجل حاغور، - هل رأيته حقاً بعينيك؟
- نعم، رأيته بعيني. كان جالساً على حافة زورق يمشط شعره. ولما سمع صوت

¹ في القاموس نوع من الشياطين الشريرة في الحكايات.

حصاني قفز، لا إلى الماء، بل إلى الغابة على الشاطئ. ورغم ركوبي الحصان فقد عدت به ورجلاي ترتعشان، وأسرعت إلى القرية إذ كيف أعمي عيني وأنا مبصر؟! وبعد حادثتي بشهر تقريباً روى أحد النبلاء أنه رأى في أعالي النهر ما يشبه ما رأيته تماماً، بل كان راكباً زورقاً أيضاً، وهرب إلى الغابة.

- هل تعرف يا حاغور ما لا أفهمه؟ القولباست الذي رآه الاثنان؛ كيف هرب إلى الغابة ولم يغص في الماء.

- أظن أنه يحطّ في الغابة ويراقب من رآه على ما أتصور، وإلا فما سبب لجوئه إلى الغابة؟.. - ما إن انتهى أمزان الذي بدأ هذا الحديث حتى صدح المؤذن فوق القرية. وقبل أن يختتموا حديث القولباست عاد الفلاحان إلى بيتهما للوضوء.

- أعرف أن أهل الشابسغ لم يتقبلوا جميعهم الإسلام، قال زيش، - سيستاء الفلاحون إذا لم نذهب إلى الصلاة. سيقولون أيُّ تُراكِ للصلاة ضيوف الجمكوي!.. فتلوكني ألسنة من لا يحبوني. وما شأن هؤلاء بصلاتنا في البيت؟ يجب ألا تغيب عن رقابتهم. ألم تر كيف انصرف جيرياني دون أن يودعونا، واثقين بأننا سنذهب وراءهم. ستراهم بعد أن يتوضؤوا يعرجون علينا ليعرفوا حقيقة نواياك.

- سنذهب يا زيش، سنذهب، - قال حاغور يبتسم دون أي استعجال. - إن لم نؤدّ الصلاة في بلاد الجمكوي، وقد جئنا إليها، صرنا مدعاة للسخرية. الشابسغ ليسوا متشوقين جداً للإسلام. ولكن صار الآن مدعاة للفخر. ومن جهة بناء المساجد لا يقصّر المتنفذون. وإذا ظلوا قبل الآن وحدهم فقد وجدوا الآن سنداً في الشيوخ والمؤذنين. ولكن الفلاحين ليسوا أغبياء فيشربوا الماء من أنوفهم كما يقال. يفهمون السيء، ولا يضيّعون الحسن. ولا ينسون آلهتهم مع الإسلام. وأنا شخصياً لم أكن متعلقاً جداً بالصلاة. ولكني بدأت أتردد على الصلاة منذ أن طرد شرلاًقوه المصلين من المسجد قبل أعوام. كلما تجمع الفلاحون كان في صالحهم. يستفسرون عما لا يعرفون، ويتباحثون في ما يعرفون. ولولا هذا فالمتنفذون يستفردون بنا، يفعلون ما يريدون. ولم يخل هؤلاء

من الاجتماع قبل الإسلام ولكن عندهم الآن ذريعة لمزيد من اللقاءات.

- هل يفهم شيوخكم شيئاً من الدين؟

- لا أعرف يا زيش، هذا سؤال صعب، - ضحك حاغور، - ولا أعرف كثيراً منهم فأتكلم عليهم. إذا كنت تقصد أفندينا صالح فلا أظنه يفهم كثيراً. ولكن عليه أن يأكل قطعة خبز بعلمه فيأكل. لا أعرف اسم مدرسة القرم، ربما دفع شيئاً، فتخرج فيه الكثيرون من أمثاله كما تنثر المجرشة الحب. غابوا شهراً وعادوا يقولون درسنا وتعلمنا. كل من يذهب، أو من يعود إلى هناك، أو منه، فهو أفندي. ولكني لا أحسدكم: هم بين مطرقة المتنفذين وسندان الفلاحين.

- لا أعرف أن لهم أخلاقاً وإن كانوا يعملون من أجل الله. - أعرب زيش عن عدم رضاه عن الأفندية والموالي. - إنما تذهب القرية إلى الجامع فنفعل مثلهم. نعرف حقيقتهم ومع ذلك نقف وراءهم ونردد كلامهم، على علمٍ بصفتهم. ولكن لا يمكن أن يُطْلَعوك على كل ما يفعلون. يروى أن رجلاً من اليجرقواي غلب الأفندي. هل سمعت؟ ربما لم يصل إليكم هذا الخبر. كان لليجرقواي طائر من أشباه الغراب، مربى ومهذب. في صباح أحد الأيام خرج الرجل من الغرفة، فرأى الطائر في داره على ظهر جاموسة لا يُعرف صاحبها، ينقر ظهرها. فرح الرجل قائلاً: والله لم يضع معروفي مع الطائر، جاءني بجاموسة. وبعد بضعة أيام على الاحتفاظ بالجاموسة في الدار جاء صاحبها إلى الرجل وقال: "سمعتُ أن جاموسة تائهة حلّت عندك فجئتُ". أجاب صاحب الطائر: "لا، ليس في داري جاموسة مفقودة، بل ساقها إليّ طائري مكافأة لي على معروفي معه"، وامتنع عن التخلي عن الجاموسة لصاحبها. قال الرجل: "ليدرس الأفندي القضية إذن وليحكم بيننا" وانصرف. وكان هذا ما يريده اليجرقواي تماماً: كان يريد اختبار الأفندي: أيتطابق كلامه مع فعله؟ وهل هو مستقيم؟ ذهب الرجل اليجرقواي مع انصراف صاحب الجاموسة إلى الأفندي، وهمس في أذنه: "أبقى لي على الجاموسة نتشارك في حليها" وافق الأفندي؛ ألا تعرف طبيعة الأفندية. حان الموعد، فنظر الأفندي في حكم الجاموسة: اليجرقواي لم يسرق الجاموسة. ولم يسلبها من أحد. بل ساقها إليه طائره. فهو رزق ساقه الله إليه، لا علاقة

لك بها أيها المدعي"، وحكم له بالجاموسة. في اليوم التالي ملاً الجرقواي صحناً بروثها، وغطاه بشيء من الزبدة، وأخذه إلى الأفندي. كان الأفندي في طريقه إلى الجامع فأوقفه: "يا أفندي جئت بك بأكورة إنتاج الجاموسة من الزبدة، فسم بالله، وذُقْ!" قال الأفندي "أدخل الصحن إلى البيت، إلى البيت!" قال الرجل "ذُقْ منه ثم أدخله" ورفع الغطاء عن الصحن. أدخل الأفندي أصابعه الطويلة إلى عمق الصحن، ورفعها إلى فمه، فصاح "الله، الله، ما أشد العار الذي ألحقته بي!.. أطعمتني روث الجاموسة" قال الرجل: "يا أفندي لم تأكل الروث هذه اللحظة بل حين أعطيتني ما ليس لي" وأعاد الجاموسة إلى صاحبها.

- لا يجوز بعد ما رويته أن تذهب إلى الصلاة، - ضحك حاغور بملء فمه. فعل بالأفندي الذي لا أخلاق له ما يستحق. سأرويهما حالما أعود إلى صديق جديد في الأفندية يدعى أكجكوه أنزور.

نادى الفلاحان اللذان انصرفا للتوضؤ كما توقع زيش:

- تعال أيها الضيف إلى الصلاة إن كنت جاهزاً.

تعجب حاغور موسى من الجامع الذي دلف إليه، غير أنه مبني على الطراز نفسه. - رأى أمثال هذا الجامع في البجدوغ والشابسغ والأبزاخ. ولا تختلف السجادات على الأرض. بل تتطابق طريقة وضع المصاحف. وبالقياص إلى فلاحى الأبزاخ والشابسغ فالفلاحون القادمون إلى هذا الجامع أكثر نظافة وترتيباً: يلبسون أفضل ما عندهم، ومن وجوههم ورؤوسهم حليقة أكثر من غيرهم. ولما استعدا للتوجه إلى الجامع لاحظ حاغور على المضيف زيش هذه الملاحظة، فقد دخل وارتدى من جديد. ولما انصرف الفلاحان للوضوء كان حاغور تساءل: ألن يجدا هنا ماء للوضوء، ولكنه فهم الآن السبب الحقيقي لعودتهما إلى بيتيهما.

خرج أفندي متقدم في السن بعمامة، فأسرع مصلّو العشاء إلى سجاجيد الصلاة. وبعدما وقفوا قليلاً في حضرة الله، وجلسوا ووقفوا، نظر حاغور إلى اليمين بطرف عينه فرأى إلى جانبه النبيل أردن الذي ظلم العبد. ما الذي جمع

هذين الرجلين؟ هل قصد النبيل الوقوف إلى جانبه أم كان مصادفة؟ ونظر النبيل فعرف حاغور. شعر النبيل بالرعشة التي سرت في جسده. ولما جثّوا على الركب نظر إليه مرة أخرى كسابقتها. ونظر حاغور إليه ثانية وابتسم له ليعرف ردّ فعل النبيل، فتظاهر النبيل أردن أنه لم ير شيئاً.

انتهت الصلاة فاخفى النبيل كأن الأرض ابتلعه: خرج من الجامع وهو يزيح الفلاحين عن طريقه بمرفقه. الحصان الأبيض والرأس الحليق سيّان. رأى بين الفلاحين الواقفين إلى جانب النبلاء الرجل صاحب الرأس الحليق الذي رآه اليوم في المضيق عند الماء. وكما قال زيش: يشمّ جماعته، ويقف أقرب إليهم.

كان حاغور موسى يتفحص المصلين، ولكنه لا يعرف كيف ينظر إليه الفلاحون والنبلاء. كان يقول: أنا فلاح شرکسي مثلكم. ولا يشك أن ما فعله اليوم بأردن النبيل انتشر في أرجاء القرية. وقد روي خبر ما فعله بالنبيل وعبدته بين الظهر والعشاء ثلاث أو أربع روايات.

ضحك زيش حين خرجا، ومشيا في ضوء القمر:

- هل تعرف يا حاغور ما قيل لي قبل لحظات؟ سألني الفلاحون: هل ضيفك هذا من قيّد النبيل أردن إلى خزان الحبوب؟!

- سأقول لك إذن ما سألوني عنه: - قال الفلاح الجار، - لاحق أردن، ودفعه بصدر حصانه حتى قفز في النهر.

- أهل قرية تزج سعداء الآن. - ساهم الفلاح الآخر الذي كان معهم، - وجدوا من الروايات المتعددة للخبر الواحد ما يكفي. لا أحسد النبيل أردن. سيدفعونه إلى إعادة خلق رأسه. وسيرد اسمه في الأغنية. حياك الله أيها الضيف، فعلت به ما يستحق فأعدت إليه الوعي بحقيقته. ولكن أشد ما أثار استغرابي هو وقوفكما جنباً إلى جنب في صلاة الليلة.

- والله وأنا لا أعرف كيف جرى هذا. - استغرب حاغور أيضاً، - لا بد أن النبلاء حملوني معهم بصدورهم حين تدافعوا إلى الصف الأول خلف الإمام. ما العمل؟ عندنا أيضاً يفعل المتنفذون هذا. يُخَيَّل إليهم أنهم يقفون أمام الله إن سبقوا إلى الصف الأول.

- لا أظن أن صلاة العشاء مقبولة من النبيل أردن. - لم يكن زيش يستطيع التوقف عن الضحك. ربما ابتل سرج بنطال النبيل!! لم يكن من عادته الانصراف بهذه السرعة.

- لو كنت مكانه لما ذهبت إلى الصلاة وأنا أعرف ما قيل في القرية، - لم يتقبل أمزان مجيئه إلى الجامع.

- من أين تعرف ما يقال وراءك. كان الفلاح الآخر يضحك أيضاً.

- النبلاء الذين لا تنتهي من أخبارهم لا أخلاق لهم. - كفّ زيش عن الضحك، وغيّر نبرته، - والله أوصولوا إليه الخبر قبل أن ينتشر. لاشكّ في هذا. وأولهم الأصلع قلار الجاهز تماماً لهذه المهمة. سيوصل إليه أكثر مما سمع، وبروايته هو.

انصرف الفلاحون حين وصلوا إلى باب دار زيش، بعدما تبادلوا التمنيات بليلة سعيدة.

ظنوا أن شباكوه في المضافة ولكنه لم يعد بعد. ولا يعرف حاغور وزيش سبب عدم عودته. قال حاغور الذي يرفع رأسه كلما سُمع صوت وأنصت:

- ليس شباكوه من الذين يبدلون مضيفهم، والله غيابه عجيب، هل مكان غيابه بعيد؟

- لا، مسافة ثلاث قرى. أي ثلاث غلوات حصان تقريباً، - وما إن انتهى من كلامه حتى سُمع وقع أقدام، - أظنه شباكوه.

وقبل أن ينهض زيش انفتح الباب وقفز قلار إلى الداخل:

- مساء الخير! لم آت لأسهر طويلاً، أريد أن أسلم على الضيف.

- اجلس يا قلار، - قرّب زيش المقعد إليه.

- اجلسا، تفضلاً، - جلس قلار على طرف المقعد، - والله سببت لكما الإزعاج. أيها الضيف أريد اختصار السبب الذي جئت من أجله. اليوم تحليلت بإنسانية عظيمة بحق العبد الذي كانوا يسومونه العذاب. اسمح لي أن أشكرك باسم فلاحى قرية تزج. يا لشماتى بالنبيل أردن، تركته يراك إلى جانب العبد الشاب كلما رآه. نحن لو لم يكن عندنا من يدعمهم من أمثالكم لقرّنا النبلاء

الأشرار إلى الثيران. حياك الله، هذا ما جئت لأجمله.

- يا قلار، لا أفهم ما قلت، - كنتم حاغور ضيقه بالضيف.

- ما الذي لا يمكن أن تفهمه في كلامي أيها الضيف الكريم؟ أحسنت صنعاً، هذا ما يجب أن تسلكه مع أي فلاح. - أسرع قلار وقطع كلام الضيف وعيناه تدوران في محجريهما.

- ما لا أفهمه يا قلار - أكمل حاغور ما بدأه بمجدوء، - هو عدم توافق ما قلته لنا عند ماء المضيق، وما تقوله الآن.

- انس كلامي السابق أيها الضيف، - استعجل قلار، ومسح عن رأسه العرق براحتيه. حين طلب مني أردن أن أمسك العبد معه أمسكته، ولم أربطه معه. نحن ما قيمتنا، يتصرف معنا النبلاء كما يتصرفون مع ذلك العبد الشاب. أنتم سنئدنا. أطال الله عمر من فيه صفات الرجولة مثلكم... والد زيش كان من رجالات قرية تزج. ولكنهم قضوا عليه في ريعان الشباب. رحمة الله عليه، أنا لم أفعل شيئاً يا زعيم الخير. لست ممن لا أخلاق لهم. قل لي تعال، وأنا مستعد لمرافقة أي رجل مثلك!.. والله شاهدي على أنني لم أفعل أي سوء بالفلاح يا زعيم الخير!

زيش جالس لا يطيق صبراً، يفكر في أن ينهض ويركل الفلاح إلى خارج البيت. لن يتحمل المزيد من الإصغاء إلى كلامه ومن رؤيته. ولكن كيف تطرد، وأمام الضيف، من دخل إلى بيتك؟ وماذا سيكون رأي من يسمعون الخبر غداً؟ ما إن حدث زيش نفسه قائلاً: ومع ذلك سأفعل به هذا إن استمر في نفاقه دون اعتبار للضيف وللناس، حتى دخل شباكوه والفلاحان اللذان رافقاه إلى الغرفة:

- مساء الخير، وأهلاً بكم، - ألقى شباكوه التحية ووقف قليلاً يتفحص حاغور، ثم قال ضاحكاً: - أخبرني يا حاغور: هل جئت إلى الجمكوي ضيفاً أم غازياً؟ ماذا فعلت بالنبل أردن؟ لم يبق في الجمكوي خبرٌ غيرُ خبركما!..

- راعي الخراف هذا ينوي شيئاً بحقنا، - أوقف شباكوه حصانه حين رأى الراعي بعصاه يجري نحوهما. وفعل رفاقه مثله.
- أظن أن عبد النبيل أردن راعي خراف، - قال زيش، والتفت إلى حاغور، - يشبه العبد الذي خلّصته منه في ذلك اليوم.

وصل الراعي:

- رافقتكم السلامة يا زعيم الخير!

- حياك الله يا أخي الصغير!

طويل القامة، متورد الوجنتين علامةً على أنه في الهواء الطلق دائماً. بنيته قوية. تبدو من عينيه السوداوين حكمة عميقة تُنسيك الحزن الذي فيهما. والكتفان اللتان تريدان التحليق مرفوعتان، لا تخفيان أنه يعيش حياة كبت. وبنطاله الخشن لم تبق فيه بقعةٌ لم ترفع. والقميص باهت باستثناء ما يحميه الإبطان. والقبعة اللبادية مرقعة من الأعلى بقطعة ملونة. والخُفان تهرأ وجفاً. وعصا الراعي التي تشبه رقاقة العجين ملساء على كتفه.

- ما أطلبه يا زعيم الخير، - قال الراعي بصوت حاد، - أنا منذ أول من أمس أرعى الخراف هنا منتظراً مروركم. أحذكم، لا أعرف من هو تحديدًا، كنت في حالة حرجة، أظنه هذا الزعيم المبارك، قدم لي خدمة، وما أزال إلى اليوم في رهبته. كنت أود معرفة اسمك يا زعيم الخير.

- اسمه حاغور موسى، - أجاب شباكوه، - يأتي من بلاد الشابسغ، أحد فلاحي قرية باستوك.

- حياك الله يا أخي الكبير. لن أنسى طوال عمري ما قدمت لي. هذا هو ما أستطيع أن أقدمه.

- وما اسمك أنت يا أخي الصغير؟

- والله يا زعيم الخير لا أعرف كيف أقول، - حكّ الراعي قذاله بفكر، - لا

أعرف أن لي اسماً بشرياً. يناديني آل النبيل أردن: زي...¹ هذا اسمي إن تقبلتموه.

عصر كلام الراعي الشاب الواقف أمامه قلب شباكوه ألماً. كثيرون من أمثال هذا الشاب تلتقي بهم في كل مكان من إقليم الأديغة. لا أسماء لهم إلا حَف²، وَبَف³... يقضون حياتهم: الشمس فرحتهم، والليل رُعبٌ لهم. أيُّ سباق خيل - تخاطفٌ جلد خروف يأخذوننا إليه!.. يا دنيانا المنحوسة، هذا عُرسُه، والآخر مآتمه!..

- لا يُنادى الفلاح يا أخي الصغير بـ"زي"، - قال شباكوه وهو يترجل، معتبراً ركوبه غير لائق: - لا يمكن أن نقبل هذا اسماً لك. بم كانت والدتك تناديك؟ - ترجل رفاقه كما فعل كبيرهم.

- أنا لستُ من هذه القرية يا زعيم الخير... ولا أعني والدي ولا والدتي. ما سمعته هو أنهم جاؤوا بي من هناك - أشار إلى جهة المخوش - مقابل قطعة قماش بنطال. قلبي يحدّثني أنني من جهة ذلك الجبل. في النهار تسرح عيناوي في تلك الجهة، وفي الليل مسرح أحلامي.

- على كلامك جيء بك من المخوش، - نظر شباكوه إلى حيث أشار الشاب.

قال حاغور موسى لنفسه: بالقياس إلى هذا الشاب فأنا محظوظ. أعرف قبر والدي، وأعرف اسمي ونسبي. ومن أريد أن أصبّ عليه حقدي الأبدي فأتشفى منه معروف. لم يكسر أحدٌ كتفي، وإن حاول أن يفعل فلن يستطيع. لماذا تعتب على العبد الراعي، لا ذنب له، من تسبب في مأساته هم النبلاء الذين يبحثون عن المصائب. وأيُّ مأساة أشدُّ من أن تعمل أنت لصالح نبيل، في حين لا يعرف والداك شيئاً عنك!.. لأجل هذا يقولون: حبلُ الفقير يهره

¹ لا شيء، صفر.

² كلب أعمى.

³ أنف صغير، غير أن المعنى الحرفي: أنف أعمى.

الغني.

- أنظر إليك يا مخوش فأراك، - قال حاغور لا يدري لماذا سماه بالمخوش،
- قويّ البنية جداً، فكيف تسمح لهم بأن يمسكوا بك وأنت في وعيك ويفعلوا
بك ما فعلوا في ذلك اليوم؟

- لو كان النبيل أردن وحده يا أخي الكبير لما سمحت له أن يفعل هذا بي.
جماعة الفلاح قلار هم من صرعوني وكثّفوني. ولكني سأجعل من فعلتهم وبالأ
عليهم. مرة أخرى أشكرك يا أخي الكبير، أوخّركم، مع السلامة. يا زعماء
الخيز.

- لا تياس يا مخوش!.. - بشّ شباكوه في وجه الراعي. - أنظر إليك فأراك
كما قال حاغور قطعة حجر. من يمدّ يده إلى عينك فمدّ يدك إلى روحه، هذا
جزء من تقاليدنا نحن فلاحي الشابسغ. هل تعرف جمكوي زيش؟
- وكيف لا أعرف زيش يا زعيم! فلاح من قريتنا.

- إذن يا مخوش متى يئست فنحن جاهزون، أخير زيش. - ليس زيش ممن
يتركونك وحيداً في الساحة.

استأنف المسافرون طريقهم، وبقي الراعي الذي سمّوه بالمخوش مدة طويلة على
جانب الطريق يتابع بعينيه المسافرين، معتمداً بذقنه على رأس عصاه. لا يتذكر
من سنوات عمره الإحدى والعشرين يوماً كيومه هذا وقفت فيه ثلّة من الفرسان
وكلموه.. تفكّر في أمره فأحسّ أن قوته الجسدية التي أنساه إياها النبلاء تسري
في أطرافه. الآن نظر بعين أخرى إلى دنياه التي عاشها في يأس مطبق. والشمس
التي ترتفع إلى كبد السماء نظر إليها بوجه طلق. وبدت له جبال المخوش
أعلى. سمّوني بالمخوش لأني مخوش!.. أليس اسماً عظيماً بالقياس إلى "قلار"
الأصلع¹. ليناديني أردن الآن باسم المخوش، ولن أقبل منهم ألا ينادوني به.
يكفي ألا أردّ عليهم متى نادوني "زي". وهل أنا حيوان فينادوني به! حتى
الحيوان يُطلّقون عليه اسماً. وها أنا لا أكلم خرافي فحسب بل أناديها بأسماء

¹ نوع من البصل البري.

جميلة. وإلا فمن المريب أن تنادي ذا روح بـ"زي". ليت قنار الأصلع يخرج مرة إلى ظاهر القرية فألاقيه في طريقني!.. سأنبث الشعر في رأسك وأقتله شعرة شعرة... لام مخوش نفسه على أن قنار الأصلع خطر بباله في مثل هذا الصباح الجميل. تأمل القرية التي على ضفة نهر فرزه، ثم نظر إلى جهة القبلة حيث تظهر جبال المخوش. خطر له أن يغني، غير أنه كالأبكم لا يعرف لحن أغنية ولا كلمة منها. نبثت في الصدر ألحان كاللهب تغني للشمس وللمخوش، وانطفأت فجأة. نظر إلى حيث يسافر الفارسان باحثاً عن مساعد. وفي الحال تألم قلبه بدلاً من الأغنية، وتملك الحزن قلبه وجسده كله.

هبت الريح الخفيفة التي تودي بالضيق المرمين على جبال المخوش، وسرت على رؤوس أصابعها الحافية على ذرا الأعشاب. وارتمت في بطن فرزه متظاهراً بالعبث بصوف الغنم الكثيف. خرج فارسان من القرية يتبعان العربة، وتوجهها إلى حيّ الأمراء. ينظر مخوش فيرى الشمس الحارة تلعب فوق القرية. نهض جمكوي زيش بين خواطر مخوش. وتذكر أنه لا يعرف زيش الذي زاره كبار الرجال، ولكنه كذب عليهم فقال: وكيف لا أعرفه!.. لا أعرف عنه الكثير. هو من يقولون عنه إنهم قتلوا والده، وسبوا ابنه مقابل قطعة قماش بنطال. كنت غبطته على اسمه الجميل¹ وإن اشتروه بثمن قطعة بنطال. لو لم يكن رجلاً لما تخلص من الأشرار الذين حملوه مقيداً. حياك الله يا زعيم الخير؛ إن لم يخطئ هو في فلن أخطئ فيه عمري.

مرة أخرى تابع مخوش الفرسان بعينه، كانت نظرتيه الثانية فرحة مشحونة بالأمل خلافاً للأولى.

كان جمكوي زيش ينصت إلى وقع حوافر الخيل ولكن أفكاره كانت عند الراعي العبد الذي بقي وراءهم. لا تفارق ذهنه، ولا عينيه، طريقة كلام المخوش ووقفته. من يحمل لقب الفلاح هو عبد عند الجمكوي. هذا ما كان والدي المرحوم يسمى به أمثال مخوش. يعيش عمره حياً ولكن لا يخفى أنه ليس

¹ قائد جيش. وسبق.

محروماً من الرجولة. وفي كلامه ووعيه تفكير. كنا عيّرنَاه بأنه صرخ حين كَتَفَه... وكيف لا تصرخ إذا حولوا جلدك إلى مسرح للذباب والزلاقط والهوام الأخرى؟!

- إذا كنت تبحث عن صديق جيد يا زبش - قطع حاغور موسى خواطر الفرسان، - فلا تخسر المخوش. أعتقد أنه شاب يقدر الإنسانية، لا تتخذ أصدقاء ممن يتمنون الرجولة، ولا تثق بهم، كالذين تكلمت عليهم. لا تتخذ إن قالوا لك: الصديق مثل فردة البنطال، لا تستغني فردة عن أخرى. وافق الفرسان بمن فيهم جمكوي زبش على كلام حاغور. وبدت من بعيد قرية قان جبل.

- يا حاغور، - قال شباكوه، - هل تعرف ما جرى لنا، أنت وأنا، بشأن الشاب الذي سميناه المخوش؟ علينا إذ منحناه اسماً أن نخطط له قميصاً ونهديه إياه.

- صحيح والله، لا أعرف القميص، ولكنه يكاد لا يلبس بنطالاً. غير أنني لا أعرف من أين تأتي به؟

- ماذا؟ لا تعرف من أين تأتي بقماش بنطال؟ - استغرب شباكوه ضاحكاً. ضع النبيل أردن على كفل حصانك، وخذه إلى الساحل يشتروه منك بقطعة قماش جيدة¹. لن أوسخ نفسي بالنبيل أردن بأن أحمله على كفل حصاني ولو أعطوني زيادة على قطعة القماش. - قال زبش كأنهم سيفعلون بأردن حقيقة ما يقولون.

- ولكن إن لم نفعل هذا فلن نستطيع وفاء الراعي المخوش حقّه، - نحن ليس معنا هنا قرش واحد.

- والله يا شباكوه وأنا أيضاً أفكر في هذا. - قال حاغور متأنياً دون نبرة مزاح. - إذا كانت بلاد الجمكوي عاجزة عن شراء قطعة بنطال للشباب المخوش فأنا

¹ يتردد في هذه الرواية، وفي غيرها مثل رواية خان جري للكاتب نفسه، وفي أمثالهما، أن العبد كان يُباع ويُشترى بثمان قطعة قماش للبنطال.

أهجرها وكرامتي حصاني. - وضع زيش حداً للمزاح.

- قد يكون صحيحاً، - قال الفلاح الأكبر الذي أرسلوه وراءهم من قرية قان حبل. - صدف أن لم نجد في الجمكوي إبرة نخط بها حذاء أولادنا. يدعي الأمراء - النبلاء في أحاديثهم أنهم يملكون من كل ما في الدنيا، وإن أردت صعدوا إلى السماء فأنزلوا ما تريد... قبل أيام لم يجدوا في القرية من الصابون ما تغسل به الزوجة. يستولي الأمراء - النبلاء على كل ما يأتي به التجار. فإن زاد عندهم شيء تناهبه الفلاحون.

- وهذه هي الحال عندنا، وهذه حال الدنيا، - قال شباكوه، - لماذا يقال: من بيده القدرة يفعل ما يشاء؟..

كان على مشارف قرية قان حبل كثير من الناس. وسمع ضجيج أصوات الفرسان المنهمكين في لعبة الجلد المرمي للفرسان. تداخل الفرسان، يلحقون بمن انتزع منهم الجلد. يقطعون عليه الطريق ويسترجعونها منه فتسود الفوضى من جديد. وفي مثل هذا الموقف يزداد فضول الناس لا يعرفون ما حدث. بعدما بحث جمكوي زيش بعض الوقت بين الفرسان التقت عيناه بعيني شباكوه، ولما عرف أن الأخير يمنحه الإذن لمشاركتهم أرخى زيش الزمام وانطلق. ظل يدور حولهم لا يقترب كثيراً منهم حتى صار وسطهم لا يعرف كيف، فانتزع الجلد. لحق به الفرسان وداروا حوله، ثم أفلت وسبقهم بمقدار غلوة حصان. ولكن جرى في هذه اللحظة أن أفلت منه الجلد. ورثما رجع بالحصان أخذه من خلفه وجرى به نحو الغابة. فافتنع الفرسان وكفوا عن ملاحقته. وانصرف زيش شاعراً بالإهانة مما جرى له، خجلاً.

- هل ستبقون أيها الضيوف هنا؟ - اقترب منهم فلاح فارس، - تعالوا إلى حلبة المصارعة.

في وسط الأرض المعشبة رجالان. وحول الساحة يجلس الصبيان في حلقة. ووراءهم الفلاحون الفرسان وراء المشاة. والحضور في هرج ومرج يتساءلون قائلين: من منهما ثوري. لا فرق كبيراً بين المتصارعين. ولكن يد المصارع الحليق الرأس تبدو أقوى. وتبينت صحة توقُّع حاغور. تجاذب المصارعان مدة، ثم حمل

الرأس الحليق خصمه وألقاه على العشب. ولم يصمد المصارعون الآخرون طويلاً أمام الحليق الرأس.

- أيها الضيوف... - ليُصارع أحدكم بطلنا الباسل!.. - صاح أحدهم من بين الواقفين، والتفت الحضور نحو موقع شباكوه وصحبه.

- نحن يا حاغور من يريد هؤلاء إشراكهم في المباراة. لا أعرف إن كانوا دعونا إلى المصارعة... - ابتسم شباكوه.

- نصارع إن رغبوا، لن ندعهم يترجوننا. - توسّط حاغور الساحة.

- تماسك المتصارعان، ودارا الحلقة حذرين. كان حاغور قد راقب المصارع الخصم في مبارياته السابقة، فكان حذراً من الجانب الأيسر للخصم. وما إن حاول الخصم عرقلته، حتى رفع رجله اليمنى، وألقى بصاحب الرأس الحليق بعيداً. وفي الحال خرج من بين الواقفين مصارع يتقل في راحتيه، وسمع صوته من جهة النبلاء الفرسان:

- دعوني أصارع هذا الشابسغ!

- دعوا الضيفين يتصارعان!.. - ساد المرح بين الواقفين. وتراجع المصارع الذي كان قد خرج.

المتحدي الذي خرج من بين النبلاء وصاح، تعرف على حاغور موسى؛ كان النبيل أردن. لم يكن حاغور تفحص النبيل جيداً يوم هجم على داره، وساعة وقفاً جنباً إلى جنب في الجامع، وصلياً: رجل ربعة عريض المنكبين. وأطول منه جداً.

- يا جماعة، - دخل شباكوه إلى الساحة رافعاً يده اليمنى، - أنا صاحب الثور حاغور، ولذا عندي مثل هذا الشرط: ليتعهد أن يكسو عبده الراعي من الرأس إلى القدمين إن صرعه حاغور، وإن لم أسمع مثل هذا التعهد فلن أسمح لثوري بالمصارعة.

- لا مشكلة في ما تطلب أيها الضيف القادم من الشابسغ البعيدة، أقبل شرطك. وهو إن تعهد أن يخدم مكان العبد الراعي ثلاثة أيام فسأصارعه.

- أعدك أيها النبيل أردن إن غلبتني. وتماسك الخصمان كياسمينيتين بريتين

-5-

حين رافق زيش الضيوف من الجمكوي وودعهم، كانت أفكار حاغور موسى في باستوك متلهفاً للوصول إليها. أصعب ما في الطريق وأطولُه هو اجتياز أرض البجدوغ. ولما خرجا من أرض الجمكوي ودخلا الغابات المستنقعية المرتفعة في أرض البجدوغ، أحسّا بالجو اللطيف، بل أحس الحصانان أيضاً. وحين عبرا نهر بششه الفائض نفضت الخيل غبار الجمكوي عنها، وشعرت ببرودة الجو.

انحدرت الشمس من كبد السماء إلى المغيّب. وطوال هذه المسافة لم تقع عينهما على أحد. بل لم يريا في القريب أو البعيد أي قرية. ولما تسلقا المرتفع رأيا فارساً يرعى بضعة رؤوس من الماشية. وبعدها سارا قليلاً رفع الفارس رأسه ونظر، وفي الحال ساق الماشية وهرب إلى الغابة.

- لا بدّ أن في عمق الغابة قرية ما، - قال شباكوه.

- ربما ظن أننا سنحمله أسيراً، هرب الفارس سريعاً.

- لا يجوز مؤاخذه الجيجانيه: بسبب الأمراء - النبلاء يهاجمهم الأبراخ من اليسار. ومن الخلف الجمكوي، ومن الجنوب أقرباؤهم الخمشي. وحياتهم كذلك الصراع التناحري. ألم تر كيف استجابت المواشي للرجل؟ هي الأخرى اعتادت على الخوف الذي لا نهاية له. وهل قليلون من في إقليم الأديغة من أمثال مامرقوه ومقاي وأردن النبلاء، الباحثين عن فريسة؟ وكل هذا سببه عدم وجود دولة في إقليم الأديغة. سافرت إلى عدة دول فلم أر بينها ما يحدث فيها مثل ما يحدث في إقليم الأديغة. نحن في صراع الأعراق ولا نفكر في المودة بينها. كل أمير همّه المحافظة على قريته وأرضه، خائف أن يُسلب شيء منه، يعلي سور بيته وأرضه. حتى خان القرم، تسنده تركيا لصغر خانيته. وفيها دولة واضحة. والخان هو من يدير شؤون البلاد. يأترون بأمره، وكذلك قلعة نور الدين ووري وسيراسكيش التي يحتلها، وبعدها تأتي قرى كثيرة يحكمها الأمراء، باسم "ميرزا". نحن لا وزن لنا في العالم. نعيش كالطيور التي تنتقل على رؤوس الأشجار. نخطّ

حيث شئنا، ونغني حسب مزاجنا، نفرح حيث يجب أن نبكي، ونبكي حيث يجب أن نغني. لو كان في القرى سلطة يمكن أن تشتكي إليها لما عامل أردن عبده بمثل هذه القسوة. يعيش كلٌّ على هواه. يا مبارك النسل، كما يقول وستقوه، حتى قطع الماشية له قائد، بل له راع.

- كيف تسير الأمور إذن يا شباكوه في إقليم القبرتاي؟ - سأل حاغور وهو يتفكر في أقوال رفيقه.

- هل سألت عن بلاد القبرتاي؟.. أليس سكان البلاد شراكسة؟ هؤلاء أيضاً يعيشون في صراع الأمراء المتنافسين على الرجولة. ألا يقال: إذا ضربت قرن الثور اهتز قرن الغزال. الفلاحون المساكين هم من لا يسلمون من أذى الجميع. ولكنني وجدت في القبرتاي ناحية إيجابية: لا يهتمون بخان القرم، ولا يعبؤون بتركيا كما نفعل نحن. بعدما صار القيصر صهرهم مالت عواطفهم نحوه. وتوثقت علاقاتهم.

- وهل القيصر صهر القبرتاي؟ - أوقف حاغور موسى حصانه من استغرابه للخبر.

- نعم صهرهم.

- والآن ماذا جرى لهم؟ هل طُلِّقت ابنتهم؟

- وهل تظنه صهرهم اليوم فحسب حتى يطلقوها؟.. يقال إنه مضت على المصاهرة مئتا عام. كانت الابنة الصغرى لأmir القبرتاي تيمرقوه زوجة للقيصر إيفان الكبير. لا أعرف اسمها: مريم أم مارينا. أراك لم تسمع بهذا الخبر!..

- وكيف أعرف ونحن نعيش في باستوك، لا نرى إلا ما يظهر لنا من خلال سور شراًقوه؟! اصطحبتني فأريتني بلاد الجمكوي. وعرفتني على كثير من الفلاحين الأصدقاء.

- وجعلتك تُسقط النبيل أردن على قفا رأسه!.. - قال شباكوه على نبرة حاغور، وضحك، - والله وقعنا كلانا في ذلك اليوم في مأزق. بأي وجه كنا عدنا إلى الشابسغ لو صرعتك؟! -

- حين كنا أنا والنبيل أردن نتعارك، - ضحك حاغور أيضاً، - ابن الكلب

رجل ضخم قوي. دفعني إلى اليأس أكثر من مرة قائلاً: إن لم يصرعني الآن فبعد قليل. وحين عرفت أنه يعتمد على قوته فحسب، لا يعرف أصول المصارعة عادت إليّ الثقة فرفعته وألقيت به أرضاً.

- نحن المشاهدين لم نلاحظ عليك يأساً. كان المضحك أن النبيل أردن على رأسك وأنت تحته مثل العمود. وتشجيع الفلاحين كان موجهاً إليك. يتمنون أن يُصرع أردن. جعلتني أشمت بأردن في تلك الموقعة وكأننا جئنا إلى الجمكوي لهذه المهمة. الله يعلم يا حاغور كم سيتحدث الناس في الجمكوي عن بطولتك!.. قالوا إن عنده قوة شبابية كبيرة، أكيد أن زيش فخور جداً بك، لأجل هذا قيل: صديق القرية لا تؤرّها. صرت بهذا سنداً قوياً لزيش ومخوش.

قال حاغور في نفسه: لست من يستحق الثناء في موضوع المصارعة. تحذوخواه نبافؤه، حياه الله، هو من علمني حركات المصارعة، من تقييد القدمين، وضرب الفخذين... العين مجنونة ومن يعتمد على القوة الجسدية وحدها واسع الصدر فحسب، وليس كل من ينفخ صدره مصارعاً. نبافؤه كان نحيلاً متى أمسك بك تعلق بجسدك كالفراد. لا أعرف من أين تعلم كل هذه الأنواع المختلفة من المصارعة. خرجت من باستوك والمسكين يتابعني بعينيه ويغبطني. يصيبه اليأس حين يبقى وحده بين آل شراًفوه. وكيف تعيش أكوّز الآن؟ ماذا ستفعل؟ تؤمر بالركض فتركض، وتؤمر بالجلوس فتجلس. يقرصونها فتتحمل، وتلطمها داريت على ظهرها تتشفى بها. تعيش ولسان حالها يقول: لا تُقِم في البيت، ولا تخرج، ولا أريد أن أراك فيه!

ظن أن شباكوه قال شيئاً فعاد حاغور إلى وعيه. ولكن لم يكن شيء من هذا. حصانه يمشي على راحته، وهو هادئ. قال حاغور وهو يفكر في خواتم الموضوعات التي تحدثوا فيها:

- تبين أخيراً أن النبيل أردن صادق. لم يُخلف بما طلبت منه. وكسا مخوش كأولاد الأمراء.

ابتسم شباكوه:

- لا يصبح أحد نبيلاً إلا بعد أن يتلقى الضرب حتى يتورم جلده ويغلي قلبه.

لا يخدعكَ يا حاغور، ولا تنس ما وراء قولهم: جثة النبيل تتورم سبع مرات. لم يخالفنا لأنه عرف أنه إن خالفنا في حضرة النبلاء والفلاحين كانت هذه نهايته. - ليتك يا شباكوه أضفتَ إلى شرطك حصاناً جاهزاً للركوب. - كان حاغور يستقلّ ما قدّمه النبيل للعبد الشابّ.

- على ما أرى لو استطعتَ كنتَ اشتربتَ بلاد الجمكوي بأسرها... لو فعلنا هذا يا حاغور لربما ظهر في الساحة من هم أقوى. وقتها ما كان هناك شكٌّ في أنهم سيثغلونك راعياً أكثر بكثير من ثلاثة أيام.

- طلبُ بلاد الجمكوي بأسرها مبالغه، ولكني أعتقد أنه كان بحاجة إلى حصان بسرجه. والحقّ أنه شاب وسيم، وشاب حبيب إلى القلب. أأكون تصوريته هكذا؟

- لا، لم تتصور، وأنا رأيتُ فيه ما رأيتَ. - ارتسم الشاب الراعي ثانية أمام عيني شباكوه. - إن وجد لديه شيئاً من الرجولة هان كل شيء. ولكن ما أفكر فيه أمرٌ آخر. هل تعتقد أن النبيل أردن سيُقي عليه ما ألبسناه؟ - والله سيُقي عليه! - أسرع حاغور بالإجابة دون تفكير.

- لا أعرف!.. ألم يقولوا: لا تأخذ ولا تعط مع النبلاء! اقترب الفارسان من ضفة بُحْشَه، وكلٌّ محتفظ بأفكاره. ليس نهر بحشه مثل نهر بششه، الفائص، فالأول صافٍ جداً ترى الحصى الصغيرة في قاعه، يجري بكل هدوء بين ضفتيه. وفيما هما يعبران من الموقع الضحل وقد أرخيا زمام الحصانين شربا من الماء. ولما وصل الماء إلى بطن الحصان مد شباكوه يده وصبّ على وجهه قبضة من الماء. توجهها إلى اليسار، وسارا نحو الغرب، لا الطريق المؤدي إلى القرية الظاهرة، وصارا على الطريق الجبلي المختصر. سارا مدة وكأنه لم يبق لهما ما يتكلمان فيه. خرجا من الغابة إلى الريف المفتوح فقال شباكوه:

- أراك يا حاغور لا تقول شيئاً كأنك نمت على ظهر الحصان. - ماذا أقول؟ أفكر في قيصر روسيا إيفان الذي كان صهرنا... كيف لم يجد البائس بيننا نحن الأديغة، من يصلح أن يكون ملكاً مثله بعدما اتخذ من المرأة الشركسية زوجة؟..

- هل يمكن يا حاغور أن يعيش في خلية نخل واحدة ملكتان؟
- والله سؤالك في محله يا شباكوه، كلُّ مهموم بشخصه، وقومه. هل يسمح لك أن تقطع ذنبه لمجرد كونه سهراً!..
- اسمع يا حاغور، - قال شباكوه بعدما سارا مسافة وكلُّ منهما غارق في أفكاره، - هيا انصب سلماً على الطريق!..
- والله لا أعرف يا شباكوه إن لم نلعب لعبة الأحاجي؟
- من يجب الأحاجي هو رмбаكوه. حسناً، ما العمل؟ لا يزال طريقنا طويلاً، ستصلح نصباً واحدة.
- ابدأ أنت!..
- أنت من يجب أن يبدأ أيها الزعيم.
- أتنازل، وأسمح لك بالبدء. يا أخي الصغير، ابدأ!..
- ذئبٌ لا يؤكل. ما هو؟
- نار.
- صحيح. عصا قرية، ثلاثون عصا، أعطني ثلاثين قرية أقل لك.
- الثلاثون قرية لي: وجاق.
- اعرف إذن: يسندونه إلى ما لا يجدونه لائقاً به.
- والله أوقعني في الفخ: لا أعرف!
- إن أعدت لي الثلاثين قرية التي ربحتها مني قلت لك:
- ماذا بيدي؟ أعيدها.
- مكنته.
- اعرف إذن: ثلاثة مستحيلات.
- السماء لا ينصبون إليها سلماً فيتسلقوها، هذه واحدة. لا يأتون بالماء بواسطة الغربال، هذه الثانية، لا يقلون السمن بالشوكة. ثلاثة.
- ما هذه إذن: أرومة قديمة بسبعة ثقوب.
- هذه لا أعرفها يا حاغور.
- أعطني قرية، وإلا لن أقول لك.

- أعطيك قرية طؤابغوه. بمن فيها آل الأمير حجمقوه.
- أريح وأكل، من يستعدها تكن وبالاً عليه، أميراً على آل حجمقوه، وأريح إمرتهم: رأس.
- مهلاً يا حاغور.
- لا يجوز التمهّل في هذه اللعبة. إن أردت فاعدد!..
- العينان، والأذنان، والمنخران، والفم.
- صحيح والله، استمتع بهم. ربحت الأمراء حجمقوه. كفاك أنت، والآن حان دوري.
- هيا يا زعيم الخير!
- تمشي فيمشي معك، وتجلس فيجلس، وتقوم فيقوم، تناديه فإذا هو أصم.
- الظِّل.
- وهذه يا حاغور: ماهر في الروائح ولكنه ليس كلباً، وله كتف، ولكنه ليس صدرأ.
- ما هذه؟ والله لا أعرف.
- هات إذن خانية القرم كاملة... ثعلب. هات أيضاً: تحت قمر كبير، قمر صغير، تحت القمر الصغير، يرفّ، تحت ما يرفّ شعر...
- هذه أعرفها: حاجب، عين، أنف، فم...
- اعرف إذن يا حاغور: من الأسفل مزخرفات، ومن الأعلى عينٌ من ذهب.
- يا حسرتي يا شباكوه؛ من أين نأتِي بمثله؟ حساء.
- الآن عرفتُ أنك جعت يا حاغور، والشمس تغرب، ولن نبحث في البجدوغ عن مضيف، لنبحث عن مكان مريح نقضي فيه ليلتنا، وليرغ حصانانا، ونحن نذوق من لحم الجمكوي المجفف...

الفصل التاسع

-1-

- يا حاغور توقف لحظة!- نادى الفلاح أرسى حاغور وهو يسوق الخيل من مضيق إيل، - والله التقينا في الوقت المناسب، كنت أبحث عنك.
- هل هناك ما يقلق؟
- لا، كان عندنا اليوم مناسبة قسّم فأرسلني الكبار إليك لتكون عند البلوعة الكبيرة ظهراً.
- وهل الأسر التي ستقسم كثيرة؟
- والله لا أعرف العدد... الفلاحون في التباب الثلاث هم من يريدون تبادل القسم الصادق.
- أظنكم ارتحتم إلى طريقة قسمنا الصادق. - سأل حاغور الفلاح معتداً بجفلة قسم العام الماضي.
- أكيد، - ضحك مستننه أرسى، - ليس في القرية طوال العام حديث غيركم، كلما تصببت جباههم عرقاً جيء على ذكركم.
- أليس من أجل هذا يقولون يا أرسى: الاثنان خيرٌ من الواحد. - كان فرح دافئ يسري على وجه حاغور، - أخير الكبار أني قادم. ألم يستدعوا تحخوخوه؟
- وتحخوخوه أيضاً مدعو، بلّغه هو أيضاً يا حاغور. لا أريد أن أرى في هذا الصباح الجميل وجوه آل شرلأقوه العابسة. آل شرلأقوه لا يعتبرون الفلاح الذي يقصدهم يساوي كلباً شاردأ. لا تُصدّق أن هذه الأسرة من الشراكسة. دُعك من الروح الأديعية، ليس فيهم حتى شيء من الروح الإنسانية. حتى أمراء البجدوغ لا يتصرفون مثلهم. ظهر من بينهم من يُدعى علي سلطان، يا ربي، الأرض لا تحمله. ألم تسمع كيف ضرب كبيرنا بالسوط؟
- سمعتُ - شحب وجه حاغور، - من لا أخلاق عنده يا أرسى لا يميز كبيراً من صغير.

- متى احتدّ حمل السوط.

- المشكلة أنه محدّد دائماً، لم أره يوماً هادئاً. أرض الشابسغ حملت يا أرسى كثيرين من أمثال علي سلطان.

خرجت الخيل من مضيق إيل فلم يعد بإمكان حاغور مرافقة أرسى مزيداً من الوقت. من المفروض أن يسافر شرلأقوه ناغوه وشرلأقوه الأصغر وداريت اليوم إلى البجدوغ. وهذا خبر حسن. يستريحون منهم على الأقل بضعة أيام، على مبدأ: يستريح الحطب بين ضربة فأس وأخرى. يتنفسون ملء صدورهم متى ابتعدوا عنهم. في هذه المسألة أمر واحد لا يعجب حاغور: سيضطحبون أكوز معهم. الصباح صباح خريفى ممتاز للسفر. قال حاغور موسى: هل يمكن لداريت أن تضع قدمها خارج البيت دون أن تصيح على هذا أو ذاك؟ وكما يفعل في كل مرة ابتعد وأوقف العربية.

خرجت داريت من البيت مصحوبة بريح عنيفة. من العجيب أنها صافية المزاج لا تغضب ولا تنهر. وأكوز وراءها كحمامة مطوقة صغيرة.

- ملابسي يا أكوز ضعيتها في العربية، وأنت ابقى هنا، - قالت داريت في طريقها. ثم توقفت ونظرت نحو باب الغرفة. - أتساءل يا شرلأقوه: ماذا يحدث للعربة إن ركبنا معاً فيها؟

توقف شرلأقوه ناغوه لا يعرف ماذا يقول أو يفعل. ونظر جهة علي سلطان. وسمعت أكوز مستغربة. كتمت ابتسامتها، واحتارت أين تخفيها، فأطرقت برأسها. قال حاغور: ما الذي خطر لها الآن؟ وتظاهر بإبعاد العجلة المركونة في أسفل مخزن الحبوب، والتي لا عيب فيها. ليتهما لم تطلب أن أركب وأسافر معها. أي امرأة هذه لا يتقبلها القلب! لم تعد تعرف ما تقول ولا ما تفعل.

- والله لا أعرف يا ابنة آل ناورز، ماذا يجري للعربة، لا شيء، يمكن أن نركب معاً. - لم يُبدِ شرلأقوه امتناعاً عن عرضها.

- لنمتّع نحن أنفسنا يوماً ما!.. - ابتسمت داريت، ثم اقتربت من العربة كأنها تريد قلبها، - ليأت الفلاحون بحصانك، ونحن سنتكلم قليلاً.

- والله لا أعرف يا ابنة آل ناورز، إذا أتى الفلاحون بحصاني من زمامه،

وجلسْتُ أنا في العربة معك؛ أَلن يعيب علينا من يرانا؟..

- ليتني أعيش إلى يوم لا أرى فيه جنس الرجال!.. يعيشون وهم يحسبون دائماً حساب هذا وذاك، ينجلون من أمر ما. حسناً، لا بأس، ستركب متى تجاوزنا ظاهر القرية.

- عاد الدم إلى وجنتي شرلاًقوه. وخرج الفارسان من الدار وراء العربة. وحين قدّر الأب والابن أن العربة صارت خارج القرية ركبا ولحقا بها.

...

يقدم خدُمُ شرلاًقوه الفطور لحاغور موسى بعناية. ولم تخرج أكوز التي كان ينتظرها من الغرفة مدة تناوله الطعام. تمهل في طعامه رغم أنه مستعجل للذهاب إلى الحراثة ومع ذلك لم تتحقق نيته. ونهض مقدراً أنهم شددوا عليها ألا تخرج من الغرفة. وحالما تناول تحخوخوه الطعام الذي سيحمله إلى الحراثتين نادته المرأة التي جهزت له المائدة:

- هل نرسل إليكم الغداء أم تعودون قبله يا موسى؟

- كما تريدون. لا بأس أن نعود، وإن لم نعد فهو أفضل. - قال حاغور لمن وراءه وعيناه باتجاه الغرفة.

- لو كان عندنا من يحمله إليكم لأرسلناه.

- لتحمله أكوز، تستنشق المسكينة هواء نقياً على الأقل. - قالت المرأة الأخرى. - تقيم طوال النهار محبوسة في الغرفة.

كان حاغور مشغول البال جداً إلى الظهيرة. لم يكن يرى المحراث والثورين. لم يكن يرى إلا الشمس التي ترتفع إلى كبد السماء. يقول: أيُّ ثور قوي هذه الشمس؟ ومع كل عبارة يتفل في راحتيه ويمسك يد المحراث بقوة. وأحياناً يلقي نظرة على جماعة تحخوخوه في الطرف الآخر من الحقل، فيراهم منهمكين، يتناثر التراب الرمادي من خلفهم. ماذا كنت تقول يا تحخوخوه لو عرفت من سيقدّم لنا الطعام اليوم؟ ألا تغني أيها المسكين مريثة "الابن الأثير"¹ لأسرة

¹ وتحتل الصفة معنى الابن الأصغر.

حتك!" أليس ممتعاً أن تحرث هكذا وقبضة المحراث بيدك، أن ترى هذه القمم البيضاء؟ صحيح أننا نشتغل كالعبيد لدى أسرة شرلاًقوه ولكن استنشاق هذا الهواء في بلدك لا يُقدَّر بثمن. يا إلهي، يا شمسي، أيُّ عالم جميل سعيد نعيش فيه!.. أبتهل إليك، ولو لم نذكرك، أن تتفهم حال أمثال العبد الراعي المخوش، أما نحن فلا بأس بحالنا ولو تبادلنا الشتائم معهم أحياناً.

ما كان لحاغور أن يعرف بوصول الغداء لو لم يستدعه تحخوخوه وصحبه. طارت فرحة الغداء التي كان ينتظرها فقد جاءت إحدى المرأتين بدلاً من أكوذ بحجة أنها لا يجوز أن تبقى بين الرجال. لم تكن عينه ترى شيئاً مما يوضع أمامه مهما كان. ولما جلس الفلاحون لتستريح الثيران، وليستريحوا هم، وليدخلوا قبضة تبغ، كان حاغور وتحخوخوه يجلسان تحت البلوطة الكبيرة.

اجتمع عند البلوطة قرابة خمسة عشر فلاحاً. لم يجف عرقهم بعد دليلاً على أنهم تركوا أعمالهم تواء. بعضهم يدخن الغليون، وبعضهم واقف، والآخر جالسون.

- سبب اجتماعنا أيها الفلاحون، - قال أكبرهم، - هو أن نتعاهد ونُقَسِّم على الصدق بيننا. لم يحضر أحدٌ هنا إلا لمثل هذه النية. كلهم مؤمنون بالله، يودون أن يُقسموا على أن يتعاملوا بصدق فيما بينهم. وقد دعونا كما، حاغور وتحخوخوه، إلى الاجتماع لأنكما أول من بادر في القرية إلى عقد مجلس لهذه الغاية؛ نسمعكما!..

- حياكم الله أيها الكبير، - قال حاغور، - ونحن جئنا إليكم مقدِّرين شعوركم نحونا، ليتفضل تحخوخوه، وليشرح تفصيلات مناسبتنا.

- ماذا أقول يا حاغور. القرية تعرف طبيعة علاقاتنا، وحرص بعضنا على بعض. مخاوفنا متشابهة، نشارك الصعوبات والأفراح. إن تعاضدنا كعود واحد سهلت الحياة على الجميع، وأحسننا بقوتنا. من الصعب على شخص واحد اقتلاع أرومة حين نحرق الغابة. ومتى تضافرت عدة قوى هانت المسألة. هذا ما عندي لأقوله. ثم إن الأعراق المتنفة ستحسب حسابكم أكثر من ذي قبل. هذا العهد بمثابة إخوة كثيرين في الأسرة، سيحرص كل منكم على الآخر،

وتجاهون المخاوف معاً.

- في كلام تخخوخوه نصيب من الصحة، - قال أحد الفلاحين.

- صحيح، صحيح!.. - وافقه آخرون.

- إذا توافقتم هكذا يا كبيرنا، - قال الفلاح أرسى، - فلنقسم معاً ولنتعاهد بصدق.

نخض الفلاحون جميعهم معاً.

- كل هؤلاء الفلاحين اجتمعوا بقلوب صافية، - مدّ كبيرهم يديه وقال، - يا إلهي، يا شمسي، حقّق لهم نواياهم الحيرة!

- آمين!.. - ردد الفلاحون معاً.

- هؤلاء الفلاحون اتحدت نواياهم متعاضدين، يا إلهي، يا سمائي حققها لنا!..

- آمين، رفع الفلاحون أصواتهم.

- أدخل يا إلهي، يا شمسي، يا قمري، في قلوب المتنفذين الرهبة من الفلاحين المتعاهدين بصدق.

- يا إلهي ويا شمسي ويا قمري لِنُظَلِّنا جميعنا رهبتك!

هزّ صوت الفلاحين أوراق البلوط، وأسقط الأوراق الصفراء منها.

- يا إلهي ويا سمائي الواسعة ويا أرضي الفسيحة، إقبل من كل فلاح حضر هذا القسم قسمه!..

- آمين، مرة أخرى صدر الدعاء واحداً من الجميع.

- يا إله، ويا ربّ أطبق سماءك على كل من ينقض هذا القسم، واخسف به الأرض!.. - قال الفلاحون معاً: لِنُطَبِّق عليه السماء... ولم يلحظ حاغور أيّ خوف في صوت الفلاحين.

-2-

عاد أكجكوه أنزور منذ أكثر من شهر من الدراسة في قَبَجَسراي. تعاقبت على الدار أفراح كثيرة بمناسبة عودته من القرم. كان الفلاحون المتعطشون للأخبار يتبعونه بعد الصلاة، لا تكفيهم رؤيته في الجامع، ولا سماع ما يرويّه،

فيلتقون عنده في البيت. الفلاح الذي يعيش حياته في قريته يتعجب مما يجري في الأماكن الأخرى. وأكجكوه كان اعتاد على تعاقب الزوار فينتظروهم مساء بشوق.

في وحدته في البيت أو في الجامع لا يمل من رؤية طربوشه الأحمر "الفيس". يخلعه وينفض عنه الغبار، ويمسحه بحرص براحته، ثم يعيده برؤوس أصابعه، ويحرص مبالغ فيه حتى ليملّ الناظر إليه. كان الفلاحون يرون "الفيس" لأول مرة، فلم يكونوا معنيين كثيراً بنظرات أنزور الودودة. يسرههم أن يكرر لمساته عليه. ولما بدؤوا يملون منه صاروا يتبادلون الحركات، يشير بعضهم إلى بعض ماذا يفعل الشيخ. وأخيراً صار أصدقائه يرجونه أن يترك هذا الطربوش قليلاً، لا يطيقونه ولا يطيقون غرام الشيخ به.

قال الشيخ: هذا اليوم من الخريف يوم عمل، غير أنني سأقف أمام الله، وأصلي بالناس صلاة الظهر، وأذكر الفلاحين مرة أخرى. فذهب إلى الجامع. كان المصلون قلائل، وهم بضعة مستنّين. صعد إلى المنارة، وأذن كأنه وُلد للأذان. وقلّد مؤذني القرم، فوضع أصابعه على أذنيه، وصدح بصوت مدوّ فوق قرية باستوك. ففزع صدى صوته إلى أكناف الجبال، وسرى على رؤوس أشجار الغابات، وسمعه الحراثون على جوانب القرية. وكلما انتهى من المقطع الذي بدأه استدّار إلى قطر آخر من أقطار الأرض حتى استوفاها. يلعب المؤذن بصوته كيفما شاء وقد تورّدت وجنتاه؛ تحقّق له ما يريده. لم يسمح لأحد أن يغلبه في الأذان طوال الأشهر القليلة التي قضاه في مدرسة قبجسراي. وفي الشهر الأخير وجدوه أهلاً للأذان في الجامع الكبير ففعلها بضع مرات. لا ينسى أكجكوه إلى الآن هذا التشريف. يتذكره بكل عذوبة.

انتهى من الأذان فتأمل باستوك بكل حرية. وابتعد بنظراته إلى خارجها. وفي الحال ابتسم متذكراً منظر قبجسراي. ما أمتع أن تطلّ على أسواقها الثلاث!.. في سوق المواشي خارج المدينة تجدّ الأبقار والخراف والخيول والجواميس في مجموعات مستقلة. وفي داخل المدينة سوق الأطعمة وسوق الملابس متجاورتان. تظهر هاتان السوقان كمسكنين للنمل. والزُّنن يركضون هنا وهناك

في دوي أصم. تذكر أنزور كثيراً من الأمور طوال بقائه على المئذنة. انتصبت أمام وجهه الدكانة التي اشترى منها طربوش الفيس. وتذكر المحتسب النغوي الجهم الذي يتفحص الزين عاقداً يديه دائماً وراء ظهره، ومنع الخيل والعربات، دغك من الناس، من المسير في الشارع الذي سيسير فيه خان القرم حين يخرج من دار الخانية. وكيف كان الفرسان يُخلون الشارع بروماهم. وبعدهم ثلاثة فرسان، ثم الخان. ووراء الخان بضعة فرسان. كان منظر الناس المرتعبين من كل هذا ممتعاً. ومتى تحرك مسؤول مالية القرم عبد الأغر لم يكن حُماته أقل من حماة الخان نفسه.

ليس ما يشرح صدر أنزور، ويُنبت أجنحة له، حياته في القرم، ولا مدرسة القرم وحدها؛ بل ليس ارتداؤه طربوش الفيس وحده. كان في المدينة شيء آخر غير الذكريات يبعث فيه الفرح: مضى على غياب صالح أفندي في الكعبة قرابة عام. والآن ليس في محيط شرلأقوه أفندي أعلى من أنزور. حسناً فعل إذ لم ينتظر عودة صالح أفندي حتى يسافر للدراسة، فسافر ودرس. لا يتمنى شيئاً الآن كما يتمنى أن يتقن قراءة القرآن بصوت جهوري كما يرفع الأذان. لم أسمع لأحد أن يسبقني في تلاوة القرآن. ولما تعلمت معاني اللغة العربية صارت التلاوة أسهل. أعرف أن ما تهتم به تتعلمه وإن كان صعباً. والعجيب أن اللغة العربية لم تصعب عليّ كما صعبت على غيري. متى احتفظت بالمعلومة في قلبي اختفى احتمال النسيان. ثم إنه يُخَيَّل إلي أن أصوات اللغة العربية، وأصوات لغة الأدب تتوافق. ولابد أن هذا مفيد. كان يخيل لي كثيراً أنني أتكلم بلغتي حين أتكلم العربية...

أم أكجكوه المسنين، وصلى بهم الظهر.

- والآن يا أكجكوه، - قال حنانا بعد الصلاة، - اقرأ لنا القرآن كما فعلت قبل أيام، أسمعنا!..

- إن كانت هذه رغبتكم أيها الكبار، - كان أكجكوه سعيداً جداً بطلبهم، - سأتلو عليكم إحدى سورته.

- تقبل الله! - دعا له الفلاح حنانا.

كان أكجكوه أنزور يعرف قراءة سورة واحدة فحسب من القرآن. كان حفظها في المدرسة عن ظهر قلب، فلا يخطئ فيها. "سأقرأ اليوم أول سورة وإن كنت قرأتها قبل أيام إذ لا مانع. وليس في الجامع من يفهم شيئاً من القرآن، بل ليس في باستوك كلها إن لم يعد صالح أفندي من الحج. ومن الصعب أن تجد في الجوار. بل ليس فيه أيضاً. سأهتم بالأمر وأحفظ بضع سورٍ ريثما يعود صالح. وما الصعب في هذا؟ آل أكجكوه أذكىء. وهكذا يسموننا، لا في القرية الكبيرة فحسب، بل في الجوار كله".

كانت الصفحة التي يريدونها جاهزة تماماً، ففتح على المطلوب. بدأ أكجكوه يقرأ جالساً على قدميه المضمومتين، على عادة الترك، وعلى جلد ماعز ناعم، ودون أن يرفع صوته إلى آخره. وكان المسنون يُصغون هازين برؤوسهم مع اللحن كأنهم يفهمون ما يقرأ أكجكوه.

انتهى أكجكوه من التلاوة فأغلق المصحف الذي في حضنه بحرص شديد. ولما بدأ يتمتم على اليد الممدودة إلى المصحف لم يتأخر المسنون عن تقليده. ولما مسح أكجكوه على الصفحات واحدة واحدة، فعل الآخرون مثله. ولما نهض نهضوا معه.

- حياك الله، مرحباً، - قال الفلاح الجالس أمامهم، دون أن يعرف معنى "مرحباً" ولا متى تقال، - فرتجت عن قلوبنا!..
- تقبل الله منكم يا كبير، - وألقى أكجكوه نظرة ودّ منتشياً بأنه يعرف ما لا يعرفون.

- عندي سؤال يا أكجكوه، - نادى حنانا، - بالله عليكم أيها الكبار أن تتوقفوا قليلاً، جرى شيء في هذا الأمر لم أفهمه: قلت وقلبي موجه نحو الإسلام، إلهه إلهي، وكلامه كلامي، ولكن لا أستطيع نسيان آلهة الشابسغ. لا بأس مهما جرى، والآن هذه الآلهة تتصارع في الذهن. وأقول أسماءهم ولو أنني لا أحب ذكرها: شمسي العظيمة متى رأيتها في النهار انفعلي قلبي. في النهار تعذبي، لا كما في الليل... ما العمل يا أكجكوه الأفندي؟.

ليس السؤال الموجه إليه هو ما صدم الرأس. بل مناداته بـ"الأفندي" بعد ما عاد

من القرم جاءت له بفرحة عظيمة. قال لنفسه: هذا هو السبب يا أكجكوه في أن متاعبك الكثيرة كلها لم تذهب سُدى. جعتَ كثيراً، ولكن كما يقال: مشكلة البطن يسهل حلُّها، فقد انتهت مع أول مناداة لي بالأفندي. لن نصبح طوال عمرنا مثل الحاج قايمُرزا الذي درَّسنا. كان غائباً في الحج، ودرس في تركيا عدة سنين. وكان مساعد الأفندي في الجامع الكبير في خانية القرم. يقرأ القرآن مثل ما يغني البلبل. يفسر ما في "الكتاب"، ويتقن التركية كأهلها. هذا هو الأفندي أيها الفلاح حنانا أما نحن فيا حسرتي؛ ماذا نستحق من لقب الأفندي!.. حقاً إذا كان كلُّ يقاس تبعاً لظروفه فأنا أفندي حقيقي. أنتم ماذا تفهمون من الإسلام!.. في الكعبة، وأدخلتُ رأسي في ما يسمى بالذهب المثقوب، ودرستُ في تركيا، لا في القرم. إن وصل بكم الأمر إلى هنا فسأروي لكم في القرآن. وكما يفعل قايمُرزا سأروي لكم "الكتاب" كحكاية قديمة...

- ماذا سألت يا حنانا؟ هل قلت آلهة الشابسغ؟ - سأل أكجكوه، وبدأ يتلعثم. لا يخطر لحنانا إلا كل سؤال تافه. - عنده دائماً أسئلة لا تنتهي. - والله يا حنانا ليس عندي جواب محدد على سؤالك. لو عرفت لسألت قايمُرزا. لا يقول القرآن إلى الآن شيئاً بخصوص الشابسغ المساكين. سأهتم بالموضوع حين أعود إلى البيت وأفكر. وأعرف الرأي فيه. وإذا كان هناك أي جواب استخلصته... وأنت ماذا يجِدُّك قلبك يا حنانا؟

- أنا من أين لي أن أعرف ما يؤمن به قلبي؟.. - زَمَّ حنانا كتفيه، وتأمل المسنين. - إذا أردت أن أقول ما يعتمل في قلبي فهو كثير!.. تختلط أفكاري كما تفعل الريح الشرقية بسقف إسطنبولي.

- ليست الريح الآتية من جهتين يا حنانا هي ما أتكلم عليه. كيف ترى أنت في قراراتك آلهة الشابسغ؟

- هل موضوع كلامك آلهة الشابسغ؟ رفع حنانا حاجبيه كأنه لا يعرف شيئاً، وكأنه ليس من بدأ هذا النقاش. ألا تقول هكذا!.. سأقول لك كيف أتصور آلهة الشابسغ إن كنت تريد أن تعرف: هؤلاء هم ألهتنا، وهم من يمدوننا بالحياة. وإله الإسلام سأتقبله على قدر استحقاقه كما أتقبل الآلهة الآخرين.

وأحبيه كما يحبيه فلاحو الشابسغ. لن أنساه.

- هذا أفضل، - استعجل أكجكوه، لا تنسوا الله، الله الذي يتوسل إليه الكثيرون ولا يحتاج هو إلى أحد، هو القيوم على كل شيء. إن رضي عنك لم يخل عليك بشيء. ادعوا إليه، وصلوا له، لا تسمحوا للأفكار الغريبة أن تتسلل إلى رؤوسكم.

- ما يريد حنانا قوله يا أفندي، - قال شخص آخر، - ماذا نقرر بشأن آلهة الشابسغ؟

- ألم أجبك على هذا السؤال؟! - استغرب أكجكوه عدم فهمهم لكلامه، - متى عدت إلى البيت فسأراجع القرآن ثانية، سأسأله عن رأيه في آلهة الشابسغ. وفي إحدى وقفاتي أمام الله الذي يدعو إليه الكثيرون ولا يحتاج هو إلى أحد، سأطرح عليه هذا السؤال...

تأمل الفلاح حنانا الواقفين عندما سمع الكلمات الأخيرة. فهم المسنون أهمية سؤاله، كما فهم هو. وخرجوا من الجامع وهم ينظرون نظرة أخرى إلى أكجكوه أنزور الذي قال: "حين أقف أمام الله".

كان حنانا يرغب أن يعود مرة أخرى ولكنه أمعن التفكير، فلحق خبياً بالمسنين المنصرفين. يبدو أن أكجكوه الذي ما كنا نعرف قيمته رجل عظيم. وهل الدراسة في القرم أمر سهل؟ قال حنانا لنفسه، وابتسم.

بقي أكجكوه أنزور صابراً في الجامع كما كان يفعل الحاج قايمرزا. تظاهروا بمراجعة القرآن. إن خالطت هؤلاء كثيراً استفزوك بلا ضرورة، وجروك إلى زلة لسان...

دخل أكجكوه أنزور إلى البيت. توقف مستغرباً ما يرى: نطار جالس وفي حضنه المصحف مفتوحاً يتأمل فيه:

- يا ولد، قبل تناؤل القرآن يتوضؤون عادة. يجب أن تكون نظيفاً أمام الله...
- توضأت يا والدنا، - نحض نطار الذي كبر ولم تعد تعرف أنه هو من أعادوا جبرّ رجله. وأعاد المصحف بحذر إلى رفّ الموقد دليلاً على احترامه له وإن كان يجهل ما فيه.

لا يصبر حاغور موسى إلى الآن لأنه عاجز عن أن يصارح أكويز بالعاطفة العذبة التي تنمو في قلبه، ولا لأن تحخوخوه نبافؤه الذي ينافسه سراً يلجمه، ولا لأنه يخاف من فلاح آخر. ولا يمكن القول إنه لا يجد مكاناً يقابلها فيه؛ فإن أراد وجد اليوم أكثر من مكان مناسب ييوح لها فيه بما في قلبه. لا يجد موسى من اللائق أن يقابلها على عجل في زاوية ما على الطريق. إذا كان لا يقِيم العاطفة الأولى التي نمت في صدره بأكثر من هذا فما حياته؟ يود أن يحترم أكويز، ويتبع تقاليد الأديغة. تصرّفه اليوم، إن كان حسناً أم سيئاً، سيبقى ذكرى إلى الأبد بينهما. ثم إن ما يلجم موسى عن حبه لأكويز ليس هذا؛ ففي حال الضرورة يمكن التفكير بطريقة ما لمعالجة الحالة، هناك مشكلة غير محسوبة لم تظهر بعد. ما كان يلجمه ولا يفتح له طريقاً هو طبيعة العلاقة التي تأسست بين الفلاحين الذين يخدمون في الدور، والأسر المنتفذة. ولم يكن المنتفدون وحدهم في هذا بل كان الأمراء - النبلاء متعلقين بها. كانوا يهتمون بمراقبة الفلاحين رجالهم ونسائهم أكثر من عنايتهم بأولادهم. ما إن يلاحظوا أي منكر بين رجل وامرأة من الفلاحين حتى يفرقوا بينهما في اليوم نفسه كي لا يفتحوا المجال للحديث في القرية. كان يجب أن يعرف الأمراء - النبلاء والمنتفدون كل قضية. فإن أطلعتهم كلموك بكل لطف، ولكنهم حرموك منها إلى الأبد. الأمراء - النبلاء والمنتفدون عندهم أسرهم وحظوظهم، ويعيشون حياتهم محتفظين بالفلاحين خدماً لهم ومصدر فائدة. يمكنك أن تتحكم فيهم بلا رحمة طوال العمر. هذا هو السبب في أن حاغور موسى يحتفظ في قلبه بسره، لا يجرؤ على البوح به.

أليس ممتعاً أن تعرّج على أكويز ذات مساء مع صاحبين لك وتصارحها بحبك؟ من أين يأتي موسى بمثل هذا الحظ؟ كل ما في الحياة من أهوال كُتبت على جبينه قبل أن يولد. وما بقي من هذه الأهوال منسياً يظهر كل يوم من هنا وهناك. تذكر موسى الزمان الذي عاش فيه مع وايقق تامبر في الغابة فتنهّد بعمق. لا يتذكر أنه سعد يوماً كما في ذلك الزمان. كانا يجلسان مساءً إلى نار

الموقد ويقطعان الوقت بالحكايات إلى أن يناما. ربما كان تامبر يعرف حكايات بعدد نجوم السماء. عاشا حياة حرة، كل يوم يروي تامبر حكاية جديدة حتى يناما إلى أن باغتهما الفرسان النبلاء. يحكيان حكاية إن شاء، ويتأملان السماء إن شاء. ويقضيان النهار تحت الغابة يصغيان إلى الطيور. ولا يتذكر أن تامبر سرق أو أساء إلى مشاعر أحد طوال تلك الفترة. من كان يكرههم هم الأمراء - النبلاء والمتنفذون. كان يجني مؤونة العام من البستان الذي استصلحه في الغابة. وإلى الآن يحتفظ بصورته والعرق يتصبب من جسده. الآن أفهم لماذا كان من عادة تامبر أن يتنهد عميقاً كلما روى حكاية، أو جاء على سيرة أحد. لأجل هذا كان كلما سألته إن كان هناك ما يؤلمه هزّ برأسه، وتظاهر بالابتسام. لم يرو حكاية تخلو من فتاة جميلة. ومهما كان موضوع الحكاية: العمالقة أو الأمراء أو المحاربون، كان يُدرج فيها فتاة اسمها سيسار. امرأة صبور، يربني بيده عود البندق اللدن يُعرّفي أنها طويلة القامة. يقول لي أحياناً: أود أن أطلعك حين تكبر على حكاية أعرفها بنفسني جرت مع أحد الفلاحين. ومهما قال له الأمراء - النبلاء وفعلوا معه كان تامبر ينتصر عليهم. وإلى الآن لم يكفّ آل الأمير بحقوقه عن ملاحقته ولكنهم لم يستطيعوا حمله على التراجع عن رجولته مقدار إصبع. والشاب الروسي الذي اصطحبه ينشأ ورجولته وأخلاقه متلازمتان.

بقي حاغور وتحخوخوه في دار شرلاقوه ليقضيا الليلة فيها مثلما كانا يقيان حين كان يأتي دورهما في رعاية الماشية. سيطر ضيق شديد على حاغور. نظر جهة النافذة التي تغطيها ستارة ليعرف كم بقي من الليل، ولكن بدا بصعوبة في الظلام ما يشبه البياض، وليس من السهل معرفة الوقت. أما تحخوخوه نباؤه الذي التفت إليه فينام بلا حراك. الله أعلم بم يحلم؛ ما إن ينبلج الصباح، حتى يروي لي حلمه قبل أن يفتح جفنيه. هو سليم الطوية حتى إنه يقاسمك لقمته إن عرف أنك محتاج إليها، بل يعطيك إياها كاملة. هل كُتب على جبين هذا الرجل أيضاً أن يعيش وحيداً؟!

تذكر حاغور أكوز التي قفز بأفكاره عنها. صحيح أعرف عن تحخوخوه أنه

مستعد لمقاسمتي لقمته، ولكنه يجهز نفسه ليعيش كشاب لم تنبت لحيته وشارباه بعد، ولم يفتحه الوقت للزواج. وأراقبه فإذا به ليس عنده من يراها إلا أكوز. انتهى حاغور التدخين. خرج من المطبخ يريد ألا يوقظ صديقه الفلاح. الطبيعة التي ما كانت تظهر من خلال ستارة النافذة جميلة: القمر يغيب كاملاً وراء الأفق، والسماء مرصوفة بالنجوم، نفحت البرودة الآتية من نهر إيل وجنتي حاغور. وفي الأعلى أكوام حشيش كبيرة. ولولا شخير بعض الأبقار في الفناء لظن نفسه سقط في عالم آخر. ونافذة أكوز تبدو في ضوء القمر. لا يصدر من باستوك حتى نباح كلب واحد. ولولا أن غرف الفلاحين الهزيلة المسقوفة بالقش تبدو لظن أنه يعيش في عالم أحلام تحوحوه التي لا تنتهي. هل تتناثر النجوم في سماء الجمكوي كما هنا يا ترى؟ ليست تلك النجوم كنجوم جبال الشابسغ. بل هي عالية، وأصغر حجماً. أما نجومنا فنبذو كجمرات تقفز من النار، وكأنك يمكن أن تمسك بها من شدة قربها. اشتعلت نار غليون حاغور كنار الجلّة. ولا يستطيع، رغم أنه سارح في أفكاره المتنوعة، إلا أن ينظر جهة نافذة أكوز. ما إن قال حاغور: تصبحي على خير يا حلوتي، حتى سقط شهاب يتطاير شرراً من جهة الجنوب. وقف حاغور بعض الوقت ينظر إلى الشهاب الذي أنساه الغليون. وصار يرغب في الدخول إلى البيت وقد ملأ الحزن قلبه إذ أن أحدهم انتقل إلى الآخرة الآن. الفجر اقترب، ولا فائدة من العودة إلى الفراش لأنه لن يستطيع العودة إلى النوم الآن، فليس أمامه إلا الجلوس إلى كومة التبن فينعس أو يفكر. لا يعرف حاغور سبب هذا القرار إذ ليس من عادته أن ينعس في هذا المكان؛ تظل أفكاره ملتزمة كنار الموقد. انصرفت أفكاره حال جلوسه، وقبل أن يمحس غليونه، إلى الحب الذي نشأ بينه وبين أكوز. لا بد من البحث عن حل؛ وإلا فلا فائدة من انتظار ما سيحدث. ألن يتصرف شرلاً قوه ناغوه معه بشيء من الإنسانية إن شرح له عواطفه نحو أكوز؟ ها قد مضت سنوات وهو يعمل معه دون كلل أو ملل على زيادة ملكه. أليس موضع افتخار أن يتخذوك موضع ثقة، فيصارحك شاب وشابة برغبتهما في أن يعيشا معاً؟ لا أطمع في خدمة من شرلاً قوه ناغوه

إلا هذه. إن أسسنا أسرة فسنخدمه معاً. إن لم أفعل هذا لم يبق إلا أن نهرب معاً. وهل تعيش العمر متخفياً؟! إن اكتشفوك في أي مكان حاكموك وفرقوا بالحكم بينكما...

ألا ترى الأمير بحقوقه يلاحق تامر بعد كل هذه السنين داعياً إلى مؤتمر - محكمة!.. وهل تعيش عيشة المهاجر¹ طوال العمر في الغابة؟ ألن تنجب طفلاً؟ كيف تربّي طفلاً على هذه العيشة وأنت بوعيك؟ الأفضل أن تفعل ما تفعله على نحو مشروع. سنقيم عرساً على قدر إمكانيات الفلاحين، لا حاجة إلى أعراس الأمراء وأشباههم. سيفهمني آل شراًقوه إن كلمتهم بالحسنى على مبدأ: الكلام الجميل يُخرج الحية من وكرها، وأطلب من غيري في الوقت نفسه التوسط معهم. هذا أفضل حلّ.

نّبّه وُفّع الأقدام الناعم حاغور فرفع رأسه منتفضاً، وإذا بتحخوخه:

- لماذا أنت هنا يا حاغور؟
- نصحني شخيرك أن أتأمل الليل ففعلتُ.
- لا يا حاغور، لا تبالغ، ليس عندي مثل هذا الشخير.
- إذن ما الأحلام التي رأيتها؟
- لا تنقصني الأحلام.
- اروها لي إذن!..
- أسمعني إذن ما الذي يشغل بالك أرو لك أحلامي!..
- لا شي يشغل بالي. خرجت لأتفقد العجول فقررت الجلوس هنا بعض الوقت.

- من أجل استنشاق بعض الهواء النقي؟

- حررت يا تحخوخوه.

- لا لم أحزر. هات يا حاغور، لا تغيّر الموضوع!

¹ يُقصد بالمهاجر أو بالتعبير الدقيق "حجرت" نوع من يسمّون في الجاهلية وصدر الإسلام بالصعاليك بحسناتهم وسيناتهم.

- بالله عليك، لا تقف فوق رأسي، اجلس. لن تستطيع الآن العودة إلى النوم.
ألا ترى السماء أضاءت؟!

- في كلامك هذا شيء من الصحة. - جلس تحخوخوه إلى جانب الكومة.
- لم أرك حين أفقتُ فجفلتُ وخرجت. وأنت هنا صامتٌ إلى جانب كومة
الحشيش. الله وحده يعلم بـم تفكر الآن! لم ألتق بغيرك يحمل أفكاراً لا نهاية
لها!..

- ألم أقل لك إنه ليس عندي مثلُ هذه النوايا! - كتم حاغور ما كان يفكر
به، - انظر إلى السماء لترى اختلاف النجوم. هذه كبيرة، وتلك صغيرة.
بعضها تلمع، والأخرى كامدة.

- ما تراها أكبر من غيرها، - نظر تحخوخوه إلى السماء، - هي نجوم الأمراء
- النبلاء - المتنفذين. وتلك الباهتة البائسة هي نجوم الفلاحين الشابغ. ألا
تراها تظهر بين الموت والحياة؟! نجمتي ونجمتك بين هذه النجوم.

- أيُّها يا ترى نجمتان؟ - نظر حاغور غير مقتنع تماماً. - أثرهما بين نجوم
الشرق؟ ليس بعيداً. قد تكونان بين مجموعات النجوم تلك.

- ونجوم آل شراًفوه؟

- ألسنا فلاحين عندهم، نجومهم في هذه الناحية أيضاً.

- ونجمة أكوز؟ - لا يكف تحخوخوه عن السؤال.

- وهل تختلف أكوز عنا؟ - وهذه ليست بعيدة عن نجومنا.

- نجوم الشرق، على قولك، هي نجوم الشابغ.

- ربما، - تناول حاغور كيسه ثانية. أتكون أفكار الناس إذن بشأن النجوم
صحيحة؟ - سأل تحخوخوه نفسه. منذ زمن بعيد يسمع ما يُناقَل بشأن
النجوم. وتكلم عليها أكجكوه أنزور قبل أيام في الجامع؛ قال: ليست الأرضُ
عالمنا نحن، بل السماء!.. الإنسان متى فارق الحياة طارت روحه إلى عنان
السماء. إن كان في الكون فرحة ما، فلا بد كما يقول أكجكوه، في مثل هذه
السماء الأنيقة. والشمس والقمر مكاثهما هذه السماء نفسها. من المؤكد أنك
إذا سافرت إلى القمر البعيدة للدراسة فلا بد أن تتعلم فيها كثيراً مما لا تعرف. لم

يكن مجالاً للشك في أن لأكجكوه مستقبلاً. ومن سُحتته تعرف أنه يعرف ما لا يعرفه غيره!.. ونطار ينشأ مثل والده. لا ينسى القرآن. إذا دخلت بيتهم رأته يحمله دائماً... ما نجمة أكوز إذن؟ لابد أن نجمة أكوز قريبة من القلب مثلها. ليس بعيداً أن تكون، كما يقول حاغور، تلك التي بين تلك النجمتين الظاهرتين. تلمع من بين النجوم الأخرى في منتهى الجمال. الجميل لا يخفى أينما كان. نظراتها الصابرة على الأرض مثلُ منظر تلك النجمة، نظرت إليّ قبل أيام وهي في غاية الانشراح ففطرت قلبي. أضف إلى ذلك سماحة طباعها، الحياء الوردي الذي يكسو وجهها حين تقابلها يكفي وحده حتى ينفع قلبك. يا أسفي يا أكوز أنت أيضاً ممن رافقهم سوء الحظ منذ ولادتهم. لو كنت ابنة الأمراء وأشباههم لحملوك على الأكفّ، ولتدافع أولاد الأمراء على بابك. يا إلهي أيُّ تفاوتٍ بين الناس على الأرض!.. ما السبب في هذا؟ ومن المسؤول؟

تبدأ الماشية في الفناء تستيقظ شاعرة بالنهار القادم مع الفجر. ويبدأ خريز نحر إيل يصمت في بطن المضيق. وتبهت النجوم التي خصّوا بها الأمراء، وتلك التي خصّوا بها أنفسهم، ثم تحتفي. ويبدو سطح غرفة نوم أكوز للعين من خلال الظلام الذي يتلاشى. وتبدو ذرا الأشجار والأعمدة بلون ضبابي. ودِيكة آل شرلأقوه التي ما كانت تعرف السكوت تخف حماستها للصباح. سُمع نباح كلب من طرف القرية، وجاوبه غيره بصوت مرهق. والجميع يُحس بخطوات النهار المنيرة وإن لم يسمع صوتها.

- لو كان قوهم: من يستيقظ باكراً يولد له عجل، صحيحاً لكان لنا، أنت وأنا، نصف ما في أرض الشابسغ من الخيل.

- هذا القول المأثور يا تحخوخوه فيه نصيب من الصحة. ولكن لم يُقَل هذا في أمثالنا الذين ليس لهم إلا سواعدهم. هيا، هات الشوكة، نعمل شيئاً في الفناء ريثما يفرغ آل شرلأقوه من نومهم العذب. ألا تعرف أن شرلأقوه الكبير يسره هذا!..

- ماذا جرى لك أنت ووالدك حتى لا تُخالطوا الفلاحين؟ - قالت داريت لابنها في أحد الأيام - لا أعرف الحديث الذي يدور بينكما كل هذا الوقت دون ملل. الفلاحون كسالى حتى مع إشرافكما عليهم. لا تقلّدوهم كما يقول آل حجمقوه البجدوغ: حين باض الطائر الكبير بدأ الطائر الصغير ينافسه بالبيض حتى مرق مؤخرته. هؤلاء يعدّهم الفلاحون من أبناء الآلهة. نحن علينا، كي نقلد الأمراء، أن نجمع المال ليلاً ونهاراً. ما أعرفه يرفعك بين الناس ويخفضك هو المال. إن تكاسلت عنه ألحقت الأذى بنفسك. إن لم تتحن وتلتقط المال فسيغتصبه منك غيرك يا ولد!..

- لا أعرف لماذا تقولين هذا يا أمنا، - كان علي سلطان مستغرباً ما يسمع، - لأننا والله لا نرفع رؤوسنا عن الفلاحين. خطر لي أن أشعلهم في خلع الغابة على الضفة، ونحن لسنا بحاجة إلى هذا البتة، من أجل ألا أتركهم مرتاحين. أن يخلعوا الأشجار أفضل من أن يقعدوا بحجة أنهم انتهوا من سائر أعمالهم، فإن لم يُفدنا في شيء أفادنا في منعهم من التفكير، ومن استغلال قوتهم. متى جلسوا يتحدثون لم يتركوا موضوعاً لم يطرقوه. يتدخلون في حياة البجدوغ والجمكوي والأبزاخ حتى نهر ينّجج. وكل هذا بسبب حاغور.

- ما أكثر ما نصحت والدك ألا يترك حاغور حراً!.. - التقتت داريت الغطاء الكبير الملون من على رأسها فأعادته إلى مكانه. - لا يعرف الهدوء، يظل في حركة دائبة لا أعرف أين تعلم كل هذا. يذرع إقليم الأدبغة جبّة وذهاباً كأنه ورثه. لا يجوز أن ترسله إلى بلاد أخرى بل، كما يقال، لا يجوز أن تسمح له بالنظر من خلل السور. إذا كان لابد من إرسال أحد فليكن أخاه الكبير بداد. موسى لا يساوي قلّامة ظفّره.

- ووالدنا مشغول، متى أتاه من يرجوه في أمر، لا يستطيع إلا أن يجيهم حفاظاً على شرفه.

- وهل رмбаكوه اللعين، من استجاب له والدك؟
- رجاء رмбаكوه وشباكوه شخصياً، أخرجوا والدنا.

قالت داريت في نفسها: كفاك حديثاً عن والدك، لا أريد سماع المزيد عنه. لا هو باللحم ولا بالعظم، صار أصغرُ رجل في الشابسغ من نصيبي. يخذعك منظره على صهوة الحصان، ومتى ترَجَّل لم يتميز من الأرض. لن ينفعلك أن تكبّر قبعتك لأنها لن تضيف إلى قامتك شيئاً... لا يظهر من خلال قائمتي الباب حين يدخل إلى الغرفة. ومتى نام غار جسده في الفراش. ما أسعد من عندها رجل يملأ العين مثل أباته قازجري!.. سيبقى مميزاً أينما كان: على الحصان أم على الأرض أم كان وحده أم مع الجمع. يقدّمه الرجال النافذون عليهم... أليس بؤساً أن يظل أي شخص أطول منك دائماً، وإن وقفت لا تستطيع أن تنظر من فوق رؤوسهم. خجلت قبل أيام حين رأيته بين الرجال في البجدوغ، واحترث أين أهرب بجلدي. من حسن حظي أني صرْتُ جزءاً من آل شرلأقوه وأنا امرأة جسيمة. عليهم أن يتعاونوا كبارهم وصغارهم لتكريمي لأنني شَرَفَت الأسرة. أليس ولدي هذا الجالس أمامي شاباً وسيماً؟! غلبت آل شرلأقوه حتى أفحمتهم فوجموا. كانوا يعرفون أني فتاة جميلة جداً فلم يتوقفوا عن طَرَق باب إخوتي الكبار حتى دخلوا أرض ديارهم. لم يياسوا حتى حصلوا عليّ. لو كنت أعرف وقتها ما أعرف الآن لتفحصت شرلأقوه من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، وما كنت سمحت لنفسني أن أنخدع بقبعته الكبيرة. والوسادة تحت سرج حصانه من المظاهر التي خدعتني. الآن صرت أعرف كيف أختار زوجة لولدي الجميل. لا أريد له امرأة ضخمة، والضئيلة تخرب العرق فهي من لا أريدها البتة!..

- وهل عجيب إن ترجّوه، - خرجت داريت من أفكارها. - والدا من ترجاه فلاحان. من حسن حظنا أن لم يترجّجه أحد الأمراء. كان أرسل معه قرية باستوك كلها.. أين والدك الآن؟

- ركب صباحاً ولم يعد.

- هذا هو شغفه. دَعَه يركب الحصان؛ لا سعادة له غيره كما يقال: أمانة الأعمى أن تكون له عين. مسكين حصانه الأغر؛ كم أشفق عليه! لا يفارق السرج ظهره. وهل الحصان أحسنُّ من صاحبه، يظلّ يميل على أحد جانبيه.

نظر علي سلطان بلطف إلى أمه، وضحك. حتى لو نطقت داريت بكلام جارج فهي أمه لا يلومها، ولا يعارضها، بل لا يجرح شعورها بإبداء عدم الرضا عن كلامها. كان يعرف أنها ستراجع بعد قليل عما قالته فلم يُعرِ الموضوع أكثر مما يستحق. ولكن علي سلطان لم يكن راضياً عما تقول أمه بشأن أبيه في السنتين أو الثلاث الأخيرة؛ فهو ابن لهما معاً. وهو واحد من الرجال أصحاب النفوذ في الشاباغ. ما أحسن طباع آل حجمقوه في هذه الناحية!.. لم يسمع كلمة سيئة قيلت في بيتهم. ليس لهم همٌّ إلا رفعُ نفوذ الأمير الكبير. يقدرون هيئته واحترام الناس له، ولا يُنسون الفلاحين إياهما. وألقس يعيش متطبعاً بطباع والده.

- سأُتفقد الفلاحين إذن، - نهض علي سلطان، - إن لم نفعل هذا قضاؤنا نهارهم جالسين على أرومات الأشجار القديمة.

- لا تذهب وحدك يا صغيري!.. اصطحب اثنين من نخبة الفلاحين. من تكلمت عليهم من جماعة أُرسي الذين أقسموا على التعاهد بينهم لا أخلاق لهم. أيُّ عهد وقسمٍ خطرٌ لهؤلاء الذين لا يعملون ولا يعيشون؟ كان الأفضل من هذا أن يطلبوا من زوجاتهم ترقيع أفقاء بناطيلهم. تحجل أن تراهم على حالهم هذه. أظن حاغور هو من ابتدع لهم فكرة العهد والقسم.

- لا علاقة لحاغور بالأمر.

- من إذن؟

- رمباكوه وشباكوه صاحبا المبادرة.

- شلَّ الله أيديهما فلا يقدرنا على حمل مبادرتهما!

- إن أردت الحق فأول من حمل الفكرة إلى باستوك هو حاغور موسى.

- صار حاغور ذو الرقبة الثخينة رجلاً رغماً عنكم!.. بإهالنا نهض رمباكوه بين أخوالك آل حاج عمر. يغتصب زعامة الفلاحين ناسياً أصله. نحن على رأس لسانه أينما ذهب. ليملاً الطاعون فمه!.. وليعش وأنا طبيبته الوحيدة!..

- ويحدث لنا الأمر نفسه يا أمنا مع حاغور.

- إذا كان يحدث أفلا تجدان، أنتما الرجلان الكبيران، ما تفعلان به؟

- احتدّت داريت وجحظت عيناها، - يا مصيبي بكما، يا أضعف رجلين عرفتهما!.. إن لم يكن عندكما أي علاج للفلاح العنيد فسأجد، وإن لم يبق غيري، دواءً له. فسأميته كما تموت الكلاب.

- نان، التفت علي سلطان وقد وصل إلى قائمة الباب، - إياك أن تفكري بما فعلت بكلب أسرة مستته!.. ستورطينا في قضية لا فكاك لنا منها. لا تقلقي أنت لهذا الأمر، سنجد حلاً ما لحاغور والدنا وأنا...

- إياكما أن تفكرا في مامرقوه، - قطعت داريت الطريق بسرعة.
- ما الأمر؟

- هل تعرف ماذا قال لي مامرقوه حين عرضته عليه هذا الربيع ليشترى به قطعة قماش بنطال؟ قال لي: الذئب لا يصارع ذئباً. والدك أهمل الموضوع مرتاحاً، ولم يُعر أهمية لكلام مامرقوه الخطير. هذا طبعٌ والدك إن أردت أن تعرف. كرهت هذا الرجل؛ شيبني!..

- عجيب والله ألا يبقى في إقليم الأديغة رجلٌ غيرُ مامرقوه. - قال علي سلطان متجاهلاً الكلمات الأخيرة لوالدته بحقٍ والده. - أنا متوجه إلى ضفة النهر.

- يا صغيري، يا ولدي، أستحلفك بالله أن تتجنب الفلاح أرسى في قول أو فعل. إذا كان أبناء هذه القرية يرتدون الخنجر فهو يحمل الفأس¹ في زناره. كل سلالته معروفون بأنهم مرعبون. ليس في أي مكان فلاحون قذرون كما في باستوك ونواحيها. يا صغيري، يا ولدي، أناشدك بالله لا تقترب من مواطن شيطان النهر! قيل إنهم شاهدوه قبل أيام. يهجم عليك ويخطفك إلى قاع نهر إيل، وينكبنا!..

- شوهده الشيطان على الضفة يغسل ملابسه، غير أنه هرب إلى الغابة بدلاً من أن يعود إلى الماء.

- أينما اتجه الشيطان فاحرص على نفسك يا صغيري كما يحرص الله عليك.

¹ يسمى الكاتب سلاحاً قديماً يشبه القوس.

لا يصدر من مضيق إيتاو إيتاش غيرُ حفلات أعراس الجن الشياطين، وقانا الله منهم!.. لا تجعل طريقك في تلك الناحية!..

النهار يصعد بطيئاً إلى الظهيرة. والسمااء مملوءة بنبُت الغيوم. قال علي سلطان لنفسه: "والدتنا تعيش عمرها قلقة من أمرٍ ما. قد تكون مهمومة بأمرٍ لا داعي لها ولكنها تريد أن ينشغل مَنْ في محيطها معها. ألم يبق في باستوك من تخاف منه إلا الفلاح أرسى؟ ليحملُ معه مئة فأس بدلاً من الواحدة؛ لن يُخيفني!.. أهملنا أمر هذا الفلاح حتى تمرّد علينا من بين المتمردين. لو جلدته لصار جلده يستعيد طعم السوط كلما رأيته. الحقيقة أن والدنا يُفطر في روح الأديفة التي يتعامل بها مع الفلاحين. الفلاح كلما أثقلت النير عليه أجبرته أن يجرث الأرض بأنفه. والله امتثل أكجكوه رغماً عنه. يقيم في الجامع كحمامة وديعة يتمتم بالثناء علينا. فعلنا بهم ما يستحقون تماماً: كسرنا أرجلهم، ومسحنا على الجرح. وهل كان عند أكجكوه من المال ما يسافر به إلى القرم لولانا؟ والآن عاد أفندياً لطيف الكلام. لم أوافق خالي حاج عمر في إحدى المناقشات ولكن من أعرفهم قادرين على مجابهة الفلاحين هم نُحبتهم. متى أعطيتهم مزيداً من الحرية، وطلبت منهم أمراً ردّوا عليك جميلك أضعافاً وصاروا سنداً لك. ولكن إن سمحنا لهم بجمع أملاك كثيرة فماذا سيكون سلوكهم معنا؟ هذا أصعب ما في الموضوع، وما يخاف منه والدنا".

وصل علي سلطان إلى مدخل المضيق المائي فرأى شاباً جالساً على قارب. فتوجه إليه بحصانه متسائلاً عن سبب وجوده وحيداً في هذا المكان. ولما التفت الشاب على وقع حوافر الحصان عرفه علي سلطان: هو نطار ابن الأفندي أكجكوه.

- لماذا أنت هنا وحدك يا أكجكوه؟

- أتأمل الماء.

- وهل رأيت فيه شيئاً عجبياً؟

- لا أعرف إن كان عجبياً تماماً، غير أنني أستمتع إلى همس الماء.

- هكذا إذن!.. ما الذي أخفيته إذن حين اقتربت منك؟

- لا شيء.
- وكيف، وما هو يظهر من صدر كسائك!...
- أهذا ما تقصده؟
- نعم.
- هذا كتاب.
- وماذا تفعل به لتمسكه؟
- بلا سبب.
- وهل تعرف القراءة؟
- أكذب عليك إن قلت نعم. أتعلم بعض الكلمات العربية.
- ليعضَّ الكلب والدك!!.. هذا ليس جامعاً لتتعلّم فيه العربية. - احتد شرلاًقوه علي سلطان كنار صُبَّ عليه الزيت. - أعد الكتاب إلى البيت قبل أن أجلدك بالسوط!.. هذه هي الوسيلة التي يعرفها الفلاح ليلطخ سمعتك أمام الله متى سمحت له أن يتعلم القرآن. ونحن لا يخلو بيتنا من كتاب، غير أنني لا أحمله معي. هيا أغرب عن وجهي!..
- انصرف نطار دون أن يتفوه بكلمة.
- وعاد الفارس شرلاًقوه إلى طريقه. وبعد ما سار بعض الوقت سمع صوت غناء عالٍ في الغابة:
- "... إن تجاوزت هذا يا حسرتي،
- ضربتك برصاصة كبيرة
- لن تقتلني رصاصتك الزائفة
- ورصاصك المتعفن."
- عجز عن الاستمرار في الوقوف وهو يسمع ما يصله من مرثية "الابن الأثير للحتك" فوخز بمهمازيه جنب الحصان. وكلما اقترب ممن يُحرقون الغابة اتّضحت كلمات الأغنية:
- "محمد يا سليل آل حاتك
- ألست دليلنا

لو وجدتك في ذلك اليوم

لحضنتك في صدري الدافئ"

حين توقف الكورس ارتفع صوت المغني إلى ظهر المرتفع وطار في الفضاء. ومرة أخرى رددوا معه بأصوات متداخلة دليلاً على سرورهم بالأغنية.

صادف وصول علي سلطان إلى من كانوا يحرقون حشيش الغابة الكلمات الأخيرة من أغنية الفلاح البطل. كانوا يعرفون أن آل شرلأقوه لا يودون الأغنية الفلاحية التي تحكي طريقة قتل الأمير دَوَيّ الشجاع، ومع ذلك رددوا بانسجام أكبر الكلمات الأخيرة منها. عتّف علي سلطان، وهو على الحصان، الفلاحين الذين كانوا يتناولون الغداء:

- كم قلت لكم ألا تغنوا هذه الأغنية!..

- كنت أود أن أعرف سبب امتعاضكم، آل شرلأقوه، من هذه الأغنية؟ - رفع الفلاح أرسى جفنيه إلى الفارس.

- قل لي إن كان ظهرك يحكك حتى أفركه لك بهذا السوط!.. - احتقن رأس علي سلطان بالدم غضباً من السؤال. وفي الحال ندم على مجيئه وحده دون الإصغاء إلى نصيحة والدته.

- أنا جادٌ في السؤال يا شرلأقوه، - نهض الفلاح أرسى من بين الجالسين، واقترب من الفارس وأمسك بزمام حصانه، - لماذا تعادون أغنية الشابسغ الرائعة هذه؟ والدك لا يقبل سماعها، ووالدتك يقشعرّ بدنها. أنتم لا تعرفون أنها راحة لنا، نحن الفلاحين، ولا تتوقف عند هذا الحد بل هي سندٌ لنا. ألن يخطر لك أننا لن ننساها مادام في ضواحي باستوك أحدٌ من الشابسغ؟!

- لم أفكر، ولا حاجة بي إلى التفكير!.. - شدّ علي سلطان الزمام يريد الانصراف ولكن لم يفلته من يُمسك به.

- إن لم تفكر يا شرلأقوه فأنت مخطئ، - ضحك الفلاحون الجالسون من كلام أرسى، - فكّر! يقولون: فكّر ثم تكلم، وفَتّش المكان ثم اجلس!.. والموضوع الآخر المتعلق بجلدي لا تستعجل عليه يا شرلأقوه. ستحين الفرصة لنا كلينا، والآن اذهب حيث تشاء! - أفلت أرسى الزمام، ولطم بكفه المتيسر

-5-

توقف عدة فرسان في مساء أحد الأيام على باب شرلأقوه. منظر الخيل والفرسان يدل على أنهم قطعوا مسافة طويلة. وريثما ربطوا خيلهم أسرع المبلّغون إلى الدار. نهضت داريت متلهفة على لقاء ربيها، وأسهرت إلى المسطبة. والخادومات تراكضن نحو نار الموقد. وحده شرلأقوه ناغوه لم يخرج من الغرفة باعتباره كبير الأسرة. يعرف أن الريب سيدخل إليه قبل غيره، فهو بالانتظار. حين زارت أسرة شرلأقوه بكاملها البجدوغ باقتراح من داريت كان الريب الذي قطعوا كل هذا الطريق لأجله غائباً. كانوا قد وصلوا بعد يومين من اتفاق عدد من أولاد الأمراء وسفرهم إلى الشاطئ. كتموا استيائهم من عدم انتظار الشباب لعلّي سلطان، وقضوا أسبوعاً والريب غائب وعادوا. يبدو أن الأمير الكبير حجمقوه لم يخدعهم، - كان قد أخبرهم أن الأمراء الشباب سيمرون على باستوك في طريقهم إلى البحر أو في طريقهم منه. تقول داريت إن الريب ينسانا ولكن ها هو لا ينسانا. يزورنا برفقة عدد من أولاد الأمراء - النبلاء. من المعيب أن تتهم أحداً بما لا يستحق. هذه المرأة تشاكس دائماً أحدهم. لا تثق بأحد إلا بشخصها.

- تعال يا صغيري، تعال يا ولدي الحبيب، - استقبلت داريت ألقس مألئةً الدار كلها. - دعني أشبع من النظر إليك. لم أرك منذ زمن طويل. انظر كم صار عريض المنكبين!.. ما أشد فرحتي، حياك الله يا صغيري على أنك لم تنسنا. أين والدك يا علي سلطان؟

نهض شرلأقوه ناغوه حين سمع صوت المرأة لا يطيق صبراً. قال في نفسه: انظروا كيف استقبلتهم وطرف ثوبها يتراقص يميناً وشمالاً مع وركيها. هي في الحقيقة متشوقة إلى أن تكون سيدة بيت، ولكنها لا تستطيع كبح عواطفها. لو عرفت قيمتها كسيدة بيت وجلست بالانتظار لدخل إليها الأمير الشاب، فزادها اعتداداً بنفسها. تصرخ حتى ليسمّعها أهل القرية. أحاول أن أجعل منها إنسانة

محترمة، ولكنها لا تصلح!.. ما حاجتها إلى هذا الصراخ؟.. نسيت: أليست ابنة آل ناورز؛ فكيف تتجاوز أصلها؟!

لم يخرج شرلاًقوه ناغوه مهما قالت داريت. لما خفتت الأصوات التي كانت ترتفع في الدار انفتح باب الغرفة مخلخلاً الهواء، ودخلت داريت بعنف:

- هل متّ يا رجل في غرفتك؟!

- ماذا جرى لك يا ابنة آل ناورز؟

- ألا تسمع بقدوم الضيوف، صغيري ورفاقه ؟
- أسمع.

- ما سبب قعودك إذن؟

- اغربي من وجهي يا ابنة آل ناورز، لا أريد أن أراك!.. - انفجر غضب ناغوه، وقفز إلى أرض الغرفة. لم تكف الضجة التي أثارها في الدار فعلقّت بي الآن. أتظنين ربيينا عدوي؟ دعيه يعمل ما عليه قبل أن تهجمي عليه!..

- ما أشدّ نزّك، أجبرتني أن أقول ما لا أريده، - ارتعبت داريت لحظة، وانصرفت. ثم رأت الرجل الصغير الواقف أمامها فجحظت بعينيها وكأنها استمدت شجاعة من ضالة حجمه.

- ألم أقل لك ألا تنظري إليّ دون أن يرفّ لك جفن؟! - وقف شرلاًقوه أمام الزوجة فاقداً أعصابه.

- ليمسحك الله شيطاناً إن لم تكن شيطاناً فعلاً!.. - أرّجت الباب وراءها بعنف، وخرجت كما دخلت.

قال شرلاًقوه في نفسه: "ما أتعسني في هذه السنوات الأخيرة!" ثم أعاد سجادة الصلاة التي أوقعها المرأة بإغلاقها الباب من الجدار. لمس عفويّاً الطشت الذي وراء الباب فركله دون معرفة السبب، لم أسعد يوماً منذ أن دخلت هذه المرأة بيتي. لا تعرف أي امرأة أم رجل. حين تتكلم لا يصدر منها إلا كلام المناكدة. وإن مدت يدها فكما الرجال. ليس فيها شيء يجيبها إلى القلب. متى جاءت ساعة سعلها لم يسع البيت فرحتها. وحين تأتي ساعة النحس تنقبض على نفسها، وتصمت في غرفتها، دون أن تعرف السبب، ظلاً أسود.

حين تراك تشيح بأنفها وعينيها كأنك قتلت أباه. من تجهد وراءه يكلفك قبرا، كما يقال. عاندتُ مقررأً أنني إن لم أتزوجها فلن أتكلم بعد الآن، فانتزعنها من أهلها، فضربت رأسي بفأس منحوسة. يا مباركة النسل، إذا كان الريبب أتى أفلا أعرف أنا كيف أتصرف معه؟! ألا تبقين في مكانك النسائي ولا تدفعيني إلى أن أنفجر!.. لا يجوز ما يحدث، عليّ أن أتصرف مع هذه الثرارة. لن يتحمل قلبي أكثر من هذا. لن أدعها تُفنيني وأنا بوعيي. أن تعيش مع ظلك أفضل من أن تعيش مع هذه الجنية المتمردة. في أسوأ الأحوال يطيعك ظلك بلا حاجة إلى كلام. أليس عاراً ما فعلتهُ بي يوم قررنا السفر إلى البجدوغ مؤخراً؟ حبستني في العربة، وأمرت السائس أن يذهب بالحصان خالياً فجعلتني هُزأة لمن يراني. لماذا أجبرتني على السفر في العربة؟ إن كلمتها فلن تجد منها فماً ينطق بكلام صالح. إن سمحت لها أن تثور وأن تغتاب حققت لها مرادها كأنك أطعمتها من قشدة الجاموس! حين ركبنا العربة اغتابت من خطر لها، ثم نعست، ولم تفتح عينيها حتى وصلنا إلى أرض البجدوغ. يا عجيبي أيُّ امرأة هذه!

كان شراً لقوه ناغوه اكتفى من هجاء المرأة. متى توصل إلى فكرة ما لم يتردد في تنفيذها لولا خوفه من ألا تكون مناسبة لمكانته. أليس من البؤس ألا تحظى بالاحترام في كيرك. ما روي عن أحد الفلاحين في باستوك صحيح: خير لك أن تعاديك القرية من أن تعاديك الزوجة. ما شأن القرية بك؟ لا بأس إن خالطتهم، وإن لم تخالطهم فهو أحسن خوفاً من أن يحزك أحدهم بكلامه. حين تكون من في البيت عدواً لك، تعضك بكلامها، ومتى عدت إلى البيت تنظر إليك بعين السُخط كأنها تريد قتلك، هذا ما وراء قولهم: المرأة الشريرة إحراق للرجل. هل أزور الكعبة؟ ها هو صالح أفندي غائب منذ أكثر من سنة. وخلاها سيجري في نهر إيل الكثير من الماء، وأنا أرتاح قلباً وروحاً. لماذا أعيش أجمع المال؟ علي سلطان يستعد للزواج. الله أعلم من ستكون من نصيبه؛ يسعد معها أم لا؟ يستوي يا ولدي من حذاؤه ضيق عليه ومن عنده امرأة شريرة. لا تستعجل. لا تسمع لأحد، بل انظر إلى الأم وتزوج ابنتها! إن

وجدت لك أمك فتاة تجوع من أجل أن لا تحرش، وتتسخ من أجل ألا تغسل، لسانها حاد كالشفرة، ويمناها خرقاء كاليسرى، لا تعرف أعمال الإبرة، شرهة إلى القشدة، تتأخر في النوم إلى الفجر تكاسلاً عن مدِّ الفراش وطردِ الكلب، فستكون أنت أيضاً قد حُرمت من دنياك إلى الأبد. إن كنت محظوظاً خطوات الخطوة الأولى صحيحة. صحيح ما يقال: المرأة الأولى زوجتك، والثانية ربيبك. يخطر لي أن أُجلسك معي وأنقل إليك هذه الأفكار، ولكن تقاليد علاقات الأب بابنه في شرعة الأديغة لا تسمح. من أين لك أن تعرف ما يغتلي في قلبي؟!

وفي اللحظة صدر وقُفَّ خطوات من جهة غرفة شرلأقوه. هزَّ شرلأقوه رأسه المتورم بالأفكار كأنهم غطَّوه في الماء البارد وأخرجوه. تظاهر بإصلاح هندامه، وعاد إلى مجلسه قبل أن تقفز داريت إلى الغرفة. انفتح الباب بنعومة، وظهر الريبب حجمقوه ألقس:

- مساء الخير يا والدنا!.. - واقترب منه بوجه طلق وعانقه.
ارتاح ناغوه الذي كان ممتعضاً إلى الآن لعناق ريببه. وحُيِّل إليه أنه رُفِع عنه حمل ثقيل. خفَّ الحمل عن كتفيه، وتفحص الأمير الشاب كأنه وجد فيه سنداً يقيه من الضجة التي ترتفع في بيته.

- اجلس أيها الشاب، - قال شرلأقوه، - حسناً فعلتم إذ عرّجتم علينا. فرّجتني، أرسل الله إليك مئة فرحة مثل فرحتي!.. قلت لك اجلس، لا تقف!
- لا، لأبقى واقفاً، - وقف ألقس عند حافة الصوفا. وتفحص شرلأقوه الجالس أمامه.

- لا بأس عليك، اجلس، - لم يرض شرلأقوه إلا أن يُجلس الأمير الشاب.
- إذا سمحت لك بالجلوس فاجلس أيها الشاب. أهلك في البجدوغ بخير وسلامة. كنا عندكم بعدما خرجتم في رحلة بيومين أو ثلاثة.
- أعرف أنكم كنتم في البجدوغ.

- من أخبرك؟ ربما كانت والدتك ابنة آل ناورز ثرثرة.
- لا، تقاطعنا أنتم ونحن دون أن نعرف. حين وصلنا إلى حدود باستوك

لنصطحب معنا علي سلطان سمعنا أنكم غائبون فتابعنا سيرنا إلى حيث نقصد.

- هكذا؟ - هكذا تصرفتم؟- رفع شراًقوه ناغوه حاجبه. - حياك الله أيها الشاب على أنك لم تنس أخاك الأصغر. كان حسناً أن يرافقكم الولد. يعيش كالمسجون في باستوك. وإن ركب فمّن يراهم هم الفلاحون. وإن خرج على رجله فمّن يصطدم بهم هم الفلاحون. في القرية فلاحون يخرجون منها أكثر مما يخرج علي سلطان، ولا أعرف القضية التي يتابعونها. يتزاورون كأن النار مشتعلة في أذناب خيلهم. حاغور خرج منذ الربيع الماضي مرتين من القرية. كان في بلاد الأبخاخ وبلاد الجمكوي. نعم، أكيد أن والديك وأخاك الصغير بخير. ليس في البجدوغ إلا ما جرى للأمير بحقوقه شراندقوه.

- ما الذي جرى لبجقوقه شراندقوه؟

- ألا تعرف الخبر أيها الشاب؟.. حقاً كنت غائباً. اليوم الذي سافرنا فيه إلى طؤابغوه هو اليوم الذي تلقى فيه الإهانة. في عز الظهيرة، دنا فارس من باب داره، ونادى: "جو"، وساط الأمير بجقوقه وسط بضعة النبلاء والفلاحين الذي كانوا في الدار، ومضى. تبعه عدد من الفرسان، ولكن السائط توغل في الغابة دون أن يستطيعوا اللحاق به.

- ربما كان وايقق تامر؟

- الأمير بجقوقه يقول: ليس تامر!..

وفيما ألقس جالس يفكر في الخبر المزعج الذي سمعه تذكر حاغور، فتغير لونه علامة على عدم رضاه عن جولات الفلاح:

- لم أسمع أن حاغور كان في الأبخاخ، أعرف أنه كان في الجمكوي.

- من أخبرك؟

- ليس في البجدوغ غير هذا الخبر.

- ماذا يقال؟

- يقال إنه رتب أمور بلاد الجمكوي. سمعتُ هذا، ليس في البجدوغ وحدها، بل في الساحل أيضاً.

- والله أنا لا أعرف أن هناك مثل هذا الخبر. أي عجيب هذا الذي ترويهِ؟!
- ولكنني ظننت أنك سمعتَ خبر حاغور خلال زيارتكم للجدوغ. أخبرني من
رآه في نواحي البحر أنه رآه جمع عدداً من النبلاء فساطهم في مضيق النهر.
وفي سباقٍ للخيـل صارع نبيلاً مهماً فصرعه. ويقال إنه كسا عبداً راعياً مقابل
المصارعة...

- يا للعجب، ما هذا الذي ترويهِ؟! - نهض ناغوه غيرَ قادر على الجلوس. هو
الآن واقف على أرض الغرفة لا يدري أيفرح بما فعل "فلاحه" في الجمكوي أم
يغضب. - إذن حاغور الذي تسميه ابنة آل ناورز "حاغور الحواص" بيّن عن
رجولة ونحن لا نعرف.

- لا أعرف إن كانت بطولة إنما هذا هو الخبر المتعلق بـحاغور.
- وكيف لا يكون بطولاً أن تتركب إلى بلاد لا تعرفها، وتجمّع عدداً كبيراً من
النبلاء، وتسوطهم، وتعود إلى بلادك؟ إيه أيها البائس كيف لم أسمع هذا الخبر
في الجدوغ! ولا يعرفون إن كان والدك أمير الجدوغ الكبير أم أميراً في
الجدوغ؟ إذا كانوا يعرفون فلماذا لم يخبروني بشيء؟ والله عجيبة طباعُ أمراء
الجدوغ هؤلاء. ماذا كان يضيرهم لو أخبروني؟ كان قلبي انشرح. متى عدت يا
ألقس فأخبر الأمير الكبير عتي عليه لأنه كتم عني الخبر المتعلق بـ"فلاحه" في
الجمكوي. جلسنا عدة أمسيات في المضافة فلم نسمع فيها غير أخبار أفراس
بجحقه شراندقوه حتى كدنا نصوّت كالخيل... يا "حاغوري" ماذا فعلت!..
هل تصدّق يا ألقس أنهم لم يسألوا في الجمكوي عن "مالك" هذا الفلاح؟..
أكد أنهم سألوا. ليس هذا موضع شك!..

- ألم أقل إن الخبر خرج من الجمكوي؟ تكلموا فيه في الجدوغ والساحل. -
ابتسم ألقس خفيةً.

- نعم، نعم. لابد أن يصل الخبر إلى الأبخاخ الطحالب. - بدأ فرح ناغوه يهدأ
شيئاً فشيئاً. ثم فكر برهة وقال: - حسناً يا ألقس عُد إلى الضيوف، وأنا
سأحييهم بعد قليل. وأشكر أولاد الأمراء على تشريفهم لنا.

رجع حاغور بداد من القرية غاضباً جداً، مستعجلاً على العودة إلى البيت. قلع الباب الصغير برجله، دخل الدار وتفقدها ويداه على خصره. لم ير أحداً من الأسرة. وباب الغرفة الصغيرة المبنية من العيدان، والمسقوفة بالقش مغلق. ولا يصدر دخان من الوجاق المسودّ. قال بداد: أين ذهبوا؟ عندنا امرأة ممجوجة، جواله كمن ابتلعث رجل كلب. لن تستقبلك بوجه طلق إن رجعت إلى البيت. الله أعلم، تدور القرية زحفاً من بيت إلى بيت. تتصرف كما تريد هي، ولا تسمع كلمة مما أقول لها. ولا تسمح للولد أن يفارقها؛ ستعمل منه دون علمنا مطوعاً للمرأة.

صدرت من جهة سور في طرف القرية أصوات صبيان. رأى من بعيد أخاه الأصغر رشّد قادمًا. كان الأفضل أن أرى ذلك الدب صاحب الرقبة الثخينة. سأحاسبه على عدم طاعته. تطوّع أهل القرية بكلمات سخيفة!.. استدار بداد سريعاً وتوجه نحو باب الدار.

سمى موسى بصاحب رقبة الدب، غير أن بداد قد يكون أضخم من أخيه. والقبعة الفلاحية التي قد تكون صغيرة عليه تعلو رأسه. والحاجبان المتداخلان يضيفان الظلام على الوجه. والذراعان كأنهما مغرقتان خلطت بهما الباستا الساخنة فاسودتا، تصلان إلى الركبتين. يشبه كتلة رصاص تحسف الأرض تحتها.

- هيا، ادع لي أخي الثرثار، - نادى بداد رشّد دون أن يتجاوز الباب.
- من إخوتك الصغار تريد؟ - توقف رشّد وقد فهم في الحال أن أخاه الكبير غاضب.

- ألا تعرف من أسميه أخي الثرثار؟! - غلب الغضب الساخر بداد.
- والله لا أعرف.

- لا تتظاهر أمامي بالجنون!.. هيا، حالاً ادع لي موسى!

- هكذا أنا ديه لك يا أخي الكبير.

- وإخوتي الصغار الآخرون أيضاً!

من أضرم النار في بداد هو شرلأقوه ناغوه. حين التقيا في الشارع لم يتوقف ناغوه، بل سأله متحرّجاً أمام الناس من وقوفه مع الفلاح:

- ماذا تفعل هذه الأيام بإذن الله يا كبير الإخوة حاغور الذي لا يحترمه أحد، صاحب القبة الكبيرة بداد؟

- لا أعرف أيها الأمير سبب سؤالك ولكن نحن أحياء. - ارتعب بداد قليلاً من طريقة سؤال المتنّفذ، وأجابه بلطف كعادته كلما التقى به:

- سبب سؤالك عدم قدرتك على تطويع أخيك، وكأن المعروف لا يبين معكم. هل أنت لهم بمثابة والدك المرحوم عبثاً!

- ألا يزال "رقبة الدب" يحتج إلى الآن؟

- لا تسألني عن هذا؛ الأفضل أن تسأله هو، - تابع شرلأقوه طريقه بجواب مختصر. ثم استدار، وقال له باستخفاف: - هيا، أرسل زوجتك إلينا دون تأخير. سيعطونها قطعة بنطال من أجل الولد...

كان كل إخوة بداد في أرض دار بداد إلا كريم. احتل إخوة حاغور الدار التي كانت خالية إلى أن حضروا. انفعّل قلب بداد حين تأمل إخوته. هؤلاء شباب يمكن أن تتوسّم فيهم جميعاً الخير، وإن لم يكونوا يرتدون ثياباً نظيفة منتقاة كما يلبس المتنّفذون. من النظرة الأولى إليهم تكتشف من سحنة وجوههم الغليظة أنهم أبناء أمّ واحدة. أليس من حسن الحظ أن يكون لك سندٌ كهؤلاء؟ امتلأ قلب بداد بشيء من الثقة. هؤلاء الإخوة الصغار متى كبّروا معاً أصبحنا قرية كاملة. كيف أسمح لشرلأقوه أن يهينني وهؤلاء وراء ظهري!.. هل تظنني يتيماً وحيداً فتكلّمني بهذه الطريقة!.. إن لم يسمع هؤلاء كلامي فمن من آل حاغور في الشابسغ يسمعه؟ وفي الحال ضرب دكّر قطعة البنطال التي تكلم عليها شرلأقوه رأس بداد كالصاعقة. وتفحص أثواب إخوته الصغار المرقّعة. أقول هذا ولكن لا يجوز التهاون في معاملة هذا العدد من الإخوة. ليعرفوا معنى كوني كبيرهم؛ ليفهموه وهم صغار!.. خيرٌ لنا أن نكسب ودّ آل شرلأقوه من أن نعاديتهم. معاداتهم كمعاداة الذئب. ثم إن آل شرلأقوه لا يضرّونا إن لم ينفعونا.

- أين كريم؟ - تفحص بداد بعين غاضبة ثقيلة إخوته.

- كريم ذهب مع جيراننا لنقل الخطب. - أجب موسى.

- ليس كريم الذي ذهب لنقل الخطب من أريده، بل أنت!.. - ارتفع صوت بداد أكثر. - لماذا لا تسمع أنت الكلمة؟ ما شأنك أنت بأمر آل شرلأقوه حتى تتدخل فيها؟ كم مرة يجب أن أعيد عليك ألا تخاطبهم بكلام جارح! افرح إن شعلوك راعي بقر وسمحو لك بركوب فرسهم الأنثى. ألا ترى موقف القرية من آل شرلأقوه؟ ألا تعرف أنك لا تساوي طرف ظفر شرلأقوه ناغوه؟

- إن لم تكن لي قيمة غيرها... - لا تكمل يا عديم الإيمان!.. - قطع بداد كلام أخيه الأصغر، - لا تسمح لتحخوخوه نبافؤه أن يخذلك. أنتم تريدون أن تربوا القرية... - أمور الفلاحين هي أمور القرية. الجميع يفهمون هذا دون تربية. - اسمع ما يقول!.. أغلق فمك إن كنت لا تريد أن أصفعك!.. - اقترب بداد من موسى وهو ينظر من تحت جبينه.

- يا بداد!.. - ارتقى لاقه بين الأخوين الأكبرين المتشاجرين. - عيب أمام من يروننا أن تمتد أيدي الإخوة على بعضهم!

- وهل بقي عندنا عيب!.. - غاب موسى بكل ثقله وراء مخزن الحبوب كاظماً غضبه، مراعيّاً أخاه الأكبر.

- لا تُسمعي بعد الآن أنك أسأت إلى آل شرلأقوه!.. - صاح بداد وراء أخيه الأصغر، ثم خاطب بقية إخوته الذين تسرب القلق إلى قلوبهم: - هل تسمعون؟ أنتم أيضاً. لا تنسوا أنكم غرباء في هذه القرية!..

-7-

- يا والدنا، أودّ أن أسألك في أمر، - وقف نطار، الصبي الرشيق الحبيب إلى القلب، أمام والده.

- هات يا ولد!.. - ابتسم أنزور الذي يقلب حبات السُّبحة وهو يستمع إلى وقع مطر الخريف.

نظر أكجكوه إلى الغلام الخفيف الطويل الذي لما يكتمل قوامه، تخيل أنه رأى

نفسه في شبابه. وها هو جالس قد أخطأ في عدِّ حبات السبحة ومتردد في إعادتها. نطار كبير في السنوات الأخيرة كنبته يسقونها ثم يعرضونها للشمس. هو رشيقي خلافاً لأولاد الفلاحين الذين حُلِقوا للعمل. تغلب عليه اللطافة إن جلس أو قام أو تكلم.

- الأولاد الذين تعلمهم في الجامع لا يفهمون القرآن يا والدنا، يصعب عليهم، ألا يوجد مثل هذا الكتاب بلغتنا؟

- بسم الله الرحمن الرحيم، - انتفض رأس الأب من الكلام الذي سمعه، - يا إلهي، يا من يتوسل إليه أكثر الناس، ولا يرجو هو أحداً، اغفر للولد جهله، لا يزال قاصراً غافلاً. لا يذهبُ فكره إلى البعيد. ادعُ إلى الله يا غلام خيرٌ من أن تبقى واقفاً. لن يخطر للولد مرة أخرى ما خطر له. فارحه وافهم حالنا. انظر إلينا بعين الرضا وانس ما سمعت منه. هيا هات سجادتك وقفْ إلى جانبي!.. سندعو إلى الله ليعفو عن قولك. هيا أسرع!

نظر نطار بعين حائرة مرتعباً من حال والده أكثر من رعبه مما قاله. رأى والده جالساً يتوضأ من الإبريق الموضوع دائماً وراء الباب فخرج من الغرفة صامتاً جافلاً. توضأً وجاء بسجادة الصلاة. وفي الحال توجهها إلى القبلة، ووقف أمام الله كما يقول أنزور.

مضت بضعة أيام لم ينقطع فيها المطر المتساقط مما في سُحب الخريف المتجمعة في محيط باستوك، حتى لم تبقى بقعة لم تبتل. وانقطع كل أثر لنهر إيل الذي كان ينثر مياهه، مُصدراً صوتاً كصريف الفضة. يجري عبر القرية المبلولة كاتماً صوته بين الضفتين.

والجبال اختفت تحت السحب المستريحة على الأرض. والغابة التي لم تستطع التخلص من كل أوراقها إلى الآن تبتعد عن حدود القرية، يغلب عليها لون الماء، وتختفي في ضباب المطر. وليس في بيت أكجكوه إلا صوت قطرات المطر التي تتساقط على زجاج النافذة.

وفجأةً أنحيا صلاتهما ونهضا بسرعة كما جلسا. ولما طوى نطار السجادة واتجه إلى الغرفة قال والده:

- يا ولد، عُدْ إلَيَّ بعد أن تعيد السجادة إلى مكانها، - وقبل أن يجد أكجكوه الكبير الفرصة للجلوس عاد أكجكوه الصغير، ووقف حيث كان بين الباب والصوفا. - يا ولد، الذنب الذي جُني في بيتنا قبل قليل استغفرنا الله من أجله. رحمنا الله وفهمنا فاحفظ هذا في قلبك: مُنزل القرآن هو الله الذي كنا في حضرته. لا تنس هذا أينما توجهت. واللغة التي كتب بها هي لغة الله. لغة الله ولغة القرآن لغتنا أيضاً. لا داعي للسؤال عن هذا.

ما كان في ذهن نطار شيء آخر وإن لم يعلق على كلام والده. لماذا لا نفهم القرآن إذا كانت لغتنا ولغة العرب ولغة القرآن واحدة؟ إن استمعت إليه تخيلت أصواتنا تداخلت به، تفهم صوت سير نهر إيل المعبر عن نيته أكثر مما تفهم من لحن القرآن حين تقرأه. وتعرف لحن المطر الهاطل، وتعرف دوي الرعد أكثر من لحن القرآن. وحين تصرخ من ضفة نهر إيل يرتفع الصدى من غابة الضفة الأخرى. وفي الصيف متى غطست برأسك سمعت صوت اصطدام الحجرين. والماء لا ينسى أنه صوت الأحجار. أما حين تقرأ القرآن فتغير صوتك يُجَيِّلُ إليك أن الأصوات الأخرى وُضعت في فمك هكذا.

أنصت نطار إلى صوت المطر العابر للنافذة:

- هل يأتي أحد؟ ما الذي تنصت إليه؟

- لا أحد يا والدنا.

- ما الذي تنصت إليه إذن؟

- المطر يهطل.

- لم ينقطع منذ ثلاثة أيام؛ ما الجديد؟

- بدأ يهطل بنعومة.

- كيف تعرف أنه ناعم؟

- أنصتْ تعرف يا والدنا.

- وهل صوت المطر جديد عليّ فأنصتْ؟

- لا يا والدنا، لا تقل هذا. كل مطر يهطل له صوته الخاص. بل ليس هبوب

ريح الشرق كصوت الريح البحرية. هل أنصتْ مرة؟

- وكيف لم أسمع ريح الشرق وريح البحر!.. - استغرب الأب طريقة سؤال ابنه. وأضاف. - ولكن ما تأتي على ذكره لم أهتمّ به... الريح الشرقية وريح الشمال لم تفيداني، إن لم تقتلعا سقف بيتي. الحق أن الريح الشمالية تفيد فلاحي الشابسغ أكثر من الشرقية. يأتينا المطر غالباً من الجهة البحرية الغربية. هذه تتذكرنا في الخريف، ولا تعرف إن كان في الطبيعة نبتٌ ربيعي في طور الانفجار.

- ليس هذا ما أقصده يا والدنا.

- حسناً، كفى، لسنا مستعدين للاهتمام بما تقول يا نطار، - قطع أنزور الكلام الذي بدأه ابنه، - ما نتكلم عليه أبوه وأمه صوت ريح، صوت مطر... الأفضل من هذا أن تتعلم الأذان! امتدح الحاج قايمرزا أذاني كثيراً. وإلى الآن لا يزال صوت أذاني فوق القرم. لماذا أنت واقف يا ولد؟ لا تتصور أن في كلامي كذباً. لن تسمع طوال عمرك أن والدك كذب. إذا عملت قرابة العام وجمعت أجرتي فسأصطحبك إلى مدرسة القرم، أطال الله في عمر الحاج قايمرزا، إذا قلت له إني جئتكَ بولدي نظر إلينا بعين الرضا. وإذا عرف أنك تتقن الأذان فلن ييخل بشيء عليك. يثمنون المؤذن في القرم جداً، لا كما في باستوك. تذكر نطار كيف هاجمه شرلأقوه علي سلطان قبل أيام. ولم يكفِ هذا بل أضيفت ذكرى ضرب علي سلطان لرجله باردة ثقيلة. وكيف أتوه بشباكوه، وكيف أغمي عليه حين كسروا الرجل المكسورة من جديد، وحفلات الجابشه التي أقيمت بهذه المناسبة. كل هذا ارتسم من جديد أمام عيني. وكيف كانت جدته التي توفيت العام الماضي تغني له. ولم ينس الحصان الجاهز الذي أرسله إليه شرلأقوه بمناسبة مرور عام على عودته إلى المشي. وإذا كان نطار يركب هذا الحصان في العام الماضي فإنه لم يركبه هذا العام، بل لم يورده الماء. وأنزور نفسه عرف هذا من ابنه فلم يهتم بالأمر. وكان الحصان مسروراً بحياة الحرية في قطيع من خيول المتعاهدين.

- بع الحصان الذي أعطانا إياه آل شرلأقوه دون انتظار أجرتك.

- هل تود السفر إلى القرم يا ولد؟ - تجاهل الأب كلام ابنه.

- إن أرسلتني سافرت.

- عندك نية طيبة يا ولد، حققها لك الله! إن كنت تريد السفر فبكل سرور. ما تراه العين يساوي العمر كله. ما من شيء أحجبه عنك في هذه الناحية. ماذا أحقق لك إن لم أحقق هذه الأمنية؟! وما مهمتي في الحياة غير تحقيق ما تتمنى! ألن يصيبك اليأس يا ولدي إن وجدت نفسك في بلاد الغوي لا تعرف لغتهم؟

- لا خوف عندي من هذه الناحية. أتصرف كما تصرف.

- وهل نحن متشابهان؟

- لا، - أسرع نظار في الجواب، - لم يكن عندك أي صديق أو معرفة حين سافرت إلى القرم، ولا معك شيء. لا تقلق من ناحية اللغة. علّمتني بضع كلمات من لغتهم. والآن تعلمني أكثر. ثق بي في المهمة التي سترسلني من أجلها إلى القرم. مصيري مصير من أنضم إليهم.

- وهذا صحيح يا ولد... وهذا كلام مفيد، - فرح أنزور حتى لم تعد قبعته تتسع لرأسه، واستنتج من كلام الولد على صوت المطر وصوت الريح... أن ابنه ذكي، - أنا أيضاً سلكت طريق القرم على مبدأ من يسلك طريقاً لا يئته فيه. وعدت إليكم بصحتي وسلامتي. حسن يا ولدي حسن؛ جعلك الله من أصحاب النوايا الحيرة. وأنا لن أقعد مكتوف اليدين. كنت أؤمن أن عندك مثل هذه النية فجمعك لك بعض المال. ألن يستاء آل شرلأقوه إن بعنا الحصان الذي أعطوك إياه؟.. - عاد إلى النقطة التي بدأ بها.

- لا بأس أن يستأوا، - لمعت عينا نظار الهادئتان، - ما شأنك أنت بآل شرلأقوه؟

- لا تدع أحداً يسمعك يا ولد، - تفقد أنزور المكان بوجه جافل، - لا بد أن يعرف آل شرلأقوه بسفرك إلى القرم. تسير الأمور بناء على قراراتهم، وتعيش القرية.

- أليس كلام الفلاح أرسى بشأن حكمهم صحيحاً يا والدنا؟

- لا شأن لنا بما يقول أرسى ورفاقه الفلاحون، في عالمنا يا ولدي كلّ وما

يقدر أن يعيش به. وآل شرلأقوه ليسوا أحياناً. كل امرئ يمر نصيبه من الشر. لا تظنّ أني لا أعرف هذا. هل تعرف ماذا يقال: غني أغنية من تركب عربته!.. تركب عربتهم فغني أغنيتهم. ولا أستطيع إلا أن أساير الفلاحين نوع مسايمة. الفقراء يطيعوني لأن قائمة البقرة لا تقتل عاجلاً. وأرسي نفسه لا عتب لي عليه. ولا أذكر أن له عتياً عليّ. لا تأت على ذكر ما تسميه حصان آل شرلأقوه، سنجد له حلاً. من أعرفه قادراً على تصريفه هو مامرقوه. نُقل عن بعضهم أنه قُتل على شاطئ البحر. ولكن لا أعرف صحة الخبر.

- هل النبيل الذي يزور آل شرلأقوه هو من قُتل؟

- نعم، هو من يصاحبه مقاي التآء.

- كان من الواضح من طريقة ركوبهم أن في عينيها شراً ما.

- والله من قضى مامرقوه على يده رجلٌ أياً كان! - أعدد أنزور التفكير في الخبر كما لم يفعل حين أتاه الخبر، - إن كان القاتل هو زيش من الجمكوي فهو رجل حقيقي؛ ما شاء الله!.. الذئب يقضي على يد ذئب، اترك هذا الأمر الآن يا ولد. هؤلاء عرقُ أشرار. أما قلت لك إني سأجد حلاً للحصان! أعرف أنك لا تريد هذا الحصان، وأنا لم أقبله منهم بإرادتي... حسناً، قفّ أمامي. هذه طريقة الصعود إلى المئذنة، - نخض أنزور.

- يجب التوجه أولاً إلى القبلة، - ووقف نطار على أرض الغرفة متشوقاً جداً.

- صحيح يا ولد، - ثم ماذا عليك أن تفعل؟

- ألم تقل لي: عليك أن تضع إصبعك في أذنك وتمسك طرفها بإبهامك.

- صحيح، قلت هذا. والآن ابدأ دون أن تستنشق الكثير من الهواء. نعم، لا تستعجل يا ولد!..

- الله أك بر، - بدأ نطار الأذان بصوت مأسور تعرف منه شعوره بالحياء.

- مُطَّ الصوت أكثر بلا عجلة!.. نعم... الآن أفضل. أطلقِ الصوت بلا حياء. أطلقه، أطلقه! تلاعب بالصوت في حنجرتك أكثر. كان الحاج قايمرزا يقول: لا يكفي الصياح وحده. عليك أن تنغم الصوت الذي بدأته بنفسك عن طريق إنصاتك إليه. لا تستحي يا ولد، لا أحد يسمعك في هذا الجو

الرطب. لماذا استدرت سريعاً نحو الغرب؟! ألم أطلب منك التريث؟..

- أي اتجاه يجب أن أتجه إليه؟

- لا أقول إنك أخطأت في جهة الغرب، صحيح، ولكن عليك أن تصيح في كل جهة من الجهات الأربع ثلاث مرات. دُرْ بشكل دائري متبعاً هذه القاعدة.

- سأصحح إذن.

- صحَّ الآن أسلوبك. اعمل كما يأمرك قلبك.

- لا تتدخل يا والدنا إذن متى بدأت الأذان! تُخرجني.

- لن أندخل إن فعلت كما قلت لك. سأريك أنا أولاً، ثم ابدأ أنت. -
توسّط أنزور أرض الغرفة كمن صعد إلى المذنة، ثم وقف والرجلان بين المضمومتين والمنفرجتين. وبدأ الأذان. بدأ باتجاه القبلة أولاً حريصاً على صوته، ثم نسي نفسه لما بدأ يتجه إلى الغرب فرفع وتيرة صوته، وأطلقه.
استمع نطار إلى أذان والده واقفاً إلى مسند الصوفا. ولم يحسّ أيّ منهما بانفتاح الباب:

- ماذا جرى لكما يا حبيبي؟ - قالت مريم التي أفرعها الأذان، وسألت ابنها وزوجها.

ولم يستدر أنزور الذي كان يؤذن مديراً ظهره، وأسرع نطار يشير لأمه ويهمس:
- لا تدعينا نخطئ يا أمانا؛ أتعلّم الأذان!..

-8-

قضى علي سلطان كثيراً من الوقت لا ينسى الإهانة التي ألحقها به الفلاحون العاملون في الغابة، الذين كانوا يغنون مرثية الابن المدلل لآل حتك. تجنّب هو أي سلوك يؤدي إلى نشر الخبر، غير أنه وصل إلى والديه بعدما انتشر في القرية. كان خطر له في أثناء زيارتهم لأسرة الأمير الكبير حجمقوه أن يُخبر أخاه الأكبر ألقس، أن يلقنوا أرسى درساً ولكن رأى في هذا إهانة لنفسه. تناسى الموضوع تجنباً لسخرية أولاد الأمراء منه، ولكن لم يتحقق ما توقّعه علي

سلطان. وصل خبر محاولة منعه الفلاحين من غناء المراثية وقد اكتسى بكثير من الإضافات والزخارف، وبعدها تناقلته القرية أياماً كثيرة، وكانت داريت أول من وصلها الخبر. قررت أن لا تعيش في القرية التي يعيش فيها الخبيث مستنه أرسى الذي أهان ولدها، فأثارت ضجة عظيمة في الدار. وعلى عادتها حين تغضب لم تترك حياً في طريقها دون أن تصدمه، حتى وصلت إلى غرفة شرلأقوه ناغوه، وفتحت الباب على مصراعيه:

- أنت هنا تسخر مني يا شرلأقوه حين أقول شيئاً، وتنهري، - يدا داريت على خصرها، - وهناك أهان الفلاح أرسى ابنك، فجعل القرية كلها تسخر منا.

- أي إهانة؟ - ارتعب شرلأقوه الأكبر مما يسمع.

- ساط أرسى الخبيث ولدي أمام الفلاحين!... - قالت داريت وصرخت بكل طاقتها. - لن أعيش في القرية ما دام اللعين أرسى يعيش فيها. يجب أن يموت من مدّ يده على الأمير الشاب ميتة الكلاب.

- مهلاً يا ابنة آل ناورز، اسكتي لحظة! - بقي الرجل على أرض الغرفة حائراً: أيتأكد من صحة الخبر أم يهدئ المرأة التي تصرخ.

- لن أستطيع إلا أن أصرخ وقد أهين ولدي الأمير الشاب الوسيم. لا ينصحنى أحد في هذا الشأن!.. - يتعالى صراخ داريت، - إن لم يبق في آل شرلأقوه من يلبس قبعة فليعطوني السيف!

تجاوز صراخ داريت دار شرلأقوه ووصل إلى الجيران. وسمعه الرجال الواقفون على ضفة الماء. وبدأ الأهل والجيران والفلاحون الأغنياء يتراکضون إليهم. ونبحت عدة كلاب في الحي لا تعرف ما حدث. والكلب المربوط في دار شرلأقوه كان سيقتل نفسه لو لم يهدئوه.

- والله لا أحسد شرلأقوه ناغوه، - قال حنانا الفلاح وضحك، - ستخلع المسكينة السقف بصراخها فتبقيهم في العراء. هذا هو من يأتون على ذكره أرسى، كما يقال: من تأت على ذكره تجده على العتبة، يأتي إلى ناحيتنا. والله هذا غير ممكن!..

نظر الجمع إلى الجهة التي يأتي منها أرسى الفارس. وانعطف علي سلطان من وراء السور وهرع إلى بيته:

- ماذا جرى لك يا أمنا فتصرخي؟ - نظر علي سلطان إلى وجه أمه ووجه أبيه فزعاً، فوجد من موقفهما أن بينهما حدثاً خطيراً.

- أصرخ لأن الإهانة التي ألحقها بك الفلاح أرسى تحرقني!.. - عادت داريت إلى الصراخ بعدما كانت شارفت على السكوت. - هل يُهان أمير شاب مثلك؟ لماذا كتمت هذا؟!

لم يفهم علي سلطان في البداية ما تقول أمه فألقى نظرة رعب على والده. ولم يكف هذا فتفحص أمه، وجنتاها حمراوان كأنها ستنفجر في هذه اللحظة. وارتفعت حنجرتها. وبالقياس إلى داريت لا يبين ناغوه عن أرض الغرفة. شاحب كأن لم تبق في جسده قطرة دم. تذكر علي سلطان الفلاحين العاملين في قطع الأشجار، ووقوفهم وأرسى الفلاح أمامه. ولكن لم يضربني أحد بالسوط كما تقول أمنا. ولماذا الافتراء على أحد؟ ما المشكلة إن تواجها، وعبر كل عن رأيه؟

- يا أمنا، لا تقولي هذا، لم يُهَيَّ أحد. - لا، لا، لا تُخفِ ما فعلوا بك. - أشارت داريت بيدها جهة ابنها، - هيا إرو لوالدك ما حدث بالضبط دون أن تُسقط منه كلمة. يجب أن نعرف الفلاح الوقح أرسى حقيقته. وإن عرفنا أنكم غير أهل له فسأعرضه على مؤتمر الشابسغ.

- ألم أقل لك يا أمنا أن أحداً لم يُهَيَّ! لماذا تقولين ما ليس ضرورياً؟ ومن في باستوك يستطيع إهانتني؟!

- كفى، كفى!.. لا أريد أن أسمع. - أنت تبالغين يا ابنة آل ناورز، ما كنت أريد أن أقول ما أقول الآن، ولكن لماذا تُلحّين على هذا الولد؟ قل يا علي سلطان: هل ضربك أرسى الفلاح بالسوط؟

- لا، لم يضربني يا والدنا.

- إذن من أين أتت أخبار أملك؟
- هذا الموضوع الذي تتكلمان فيه أتَحمَلُ جزءاً من مسؤوليته يا والدنا...
- لا ذنب للأمير الشاب، لا تُكْمَلِ!.. - لم تقبل داريت انتقاد ابنها لنفسه. -
- اعرف أن كل ما تفعله يتقبله الله على أنه صائب. لا تنس هذا! لا أريد أن أسمع، لا أريد!..
- ألم أطلب منك أن تغلقي فمك لحظة أيتها المرأة! - هل تعرفين أنت أكثر مما يعرف الولد؟!.. هات يا ولد حقيقة الحادث دون أن ندخل في قضايا النساء.
- ما حدث لي يا والدنا هو أنك إن تدُس على ذنب الكلب بعضك! طلبت منهم ألا يغنوا مرثية الفلاح حتك فلم يقبلوا. لم يُشهر أحدٌ سوطاً عليّ. وإن لم تصدِّق فهناك جمعٌ من الفلاحين على ضفة الماء فاسأهم! وبينهم أرسى.
- هات السوط! - أسرع داريت فانتزعت من ابنها سوط الحصان. في الحال ارتقت من بين قائمتي الباب، - سأجعله يفرع كلما رأى سوطاً!..
- توقفي يا ابنة آل ناورز!.. إلى أين؟
- يا أمنا!.. - لحق علي سلطان بأمه، ولكنه توقف عند المسطبة إذ عرف أن المنظر عارٌ على الأسرة.
- لا تكفي دار المتنفذ لداريت فتتوجّه إلى الباب. تفرّق صبيان الحي المتجمعون عند الجدار. وأدار الفلاحون المجتمعون عند الماء ظهورهم كأهم لا يرون شيئاً.
- دفعت داريت بقدمها الباب وخرجت من الدار:
- يا أرسى الفلاح، إن كانت أملك ولدتك رجلاً فتوقف لحظة!
- ماذا خطر لداريت الجنية؟ - قال أحد الفلاحين.
- أيها الخبيث أرسى، - هجمت داريت دون أن تمنح الفارس الوقت للترجل، فأمسكت بالزمام، وضربته بالسوط. - هل أنت أمهر مني في استعمال السوط؟! - ضربته عدة مرات دون أن تُفلت الزمام والحصان يدور في أرضه. وحين عجزت عن السيطرة على الحصان الهائج تركته، وساطت ظهر راكمه. ولما استدار أرسى بالحصان أسرع بعض الفلاحين نحو باب دار شرلاًقوه خوفاً من

أن بيدر من أرسى تصرف طائش بحق أصحاب الدار. وهُرع حاغور موسى وتحخوخوه نفافوه وعلي سلطان فخرجوا من الدار. عاد أرسى إلى وعيه ريثما أدار الحصان. وتحلى بالرجولة فكظم غضبه. ماذا بيده أن يفعل؟ لو كان من أهانه رجلاً لما كان من داع لمعرفة ردّ فعله. ماذا تقول لداريت التي لا توفر كلمة نابية، والتي يعود بها ابنها إلى الدار. مهما كانت عدواً فالغطاء على رأسها، من جنس النساء.

- داريت ما يثيني عن الرد عليك هو الغطاء الذي على رأسك، لا كونك من الأسر القوية. مرّ أرسى دون توقف والحصان الجافل إلى جانبه.

- لا تُرني وجهك يا عديم الإيمان!.. إن كنت تستقلّ ما فعلته بك فتوقف حتى نستأنف!..

وبدأ من اجتمعوا على الهرج والمرج يتفرقون.

- اللعنة يا أرسى، أيّ مشكلة وقعت فيها!.. - قال حنانا الذي سحب عنقه إلى ما بين كتفيه. - والله داريت امرأة تستحق العقاب، لا شيء في العالم يردعها.

- كفى يا حنانا، لا تُكثّر من الكلام. - اعترض أحد الفلاحين.

- وهل أخالف حقيقتها؟

- ليس ما فعلته المرأة ذات الغطاء مما يمكن الحديث عنه... عشت يا أرسى، تصرفت برجولة.

- وهل من الرجولة أن يجلدوك بالسوط؟.. - ابتسم أرسى، ومسح بحنان على جبهة الحصان الذي ما يزال يرتجف. - ما العمل؟ كنت في ورطة كما يقول حنانا. - ضحك. - والله امرأة ذات قوة هائلة تلك التي جلّدتني. لا يزال جلدي يلتهب. والله ما كنت مهتماً بجسدي ولكنها دارت بنا بزمام الحصان، حتى ليتمكن أن تصرعني أنا والحصان في أي لحظة. ضحك الفلاحون.

- لست وحدك يا أرسى، - مرة أخرى تكلم حنانا، - نحن ارتعبنا رغم وقوفنا جانباً، مع أنها كانت تمسك الزمام بيدها الأخرى.

- أليس هذا ما يجعلنا نقول: لا تعلق بداريت، إن كان هناك مخرج آخر.
- يا حسرتي يا أرسى، كانت داريت جلدتني وهي عروس، ولكن كنتم الخبر
عن الجميع. - قال حنانا، ودفعته الذكرى إلى تناول كيس التبغ. - كان
شرلاًقوه ناغوه قد نسي كيس التبغ، فأرسلني إلى بيته لآتيه به. كانت الشمس
حارقة فلم يخطر لي أن تكون داريت نائمة، دخلت الغرفة فإذا بها نائمة على
الصوفا. لا أعرف لماذا لم أستدر وأخرج؛ ألم أكن وقتها أصغر سنًا وأكثر
استهتارًا، بل وقفت في الغرفة أسعل.

- ألم تكن وقتها في سن الزواج؟ - سأل أحد الواقفين.
- أي شاب في سن الزواج تتكلم عليه؟.. - أشعل حنانا الغليون. - لست
أصغر من شرلاًقوه ناغوه إلا بثلاث سنوات. كان مضى على عجوزي في البيت
بضع سنوات!.. ألم أقل ما اللعنة التي دفعتني إلى البقاء في الغرفة أراوح مكاني.
حين سمعتُ سعلتي أفاقت. قفزت من الفراش وأنا أترنح طالباً كيس التبغ،
وأمسكت بيد قبة قميصي، وبالأخرى حذاء خشبياً، ورمتني من الغرفة وهي
تضربني. وبعدها لم يريني أحدٌ في متناول داريت. ليحكم الله منها!.. هذه المرأة
التي لا تعرف أين تُصَرَّف قوتها الهائلة. والله لا أحسد شرلاًقوه ناغوه. حركة
يدها كحركات العمالقة في الحكايات.

- اسمع ماذا يقول كأنه رأى عملاقاً! - ساهم أحد الفلاحين في الحوار.
- لو وقعت بيد داريت كما وقعتُ، كما وقع أرسى قبل قليل، لعرفت إن
كانت من العماليق أم لم تكن. لا تتكلموا في ما لا تعرفون. - مص حنانا
دخان غليونه دليلاً على ارتياحه لجوابه. وارتفع الدخان أمام وجهه حتى
لُشكره!..

مهما قالوا ومهما فعلوا ظل أرسى يضحك معهم ويمزح. أيّ عادة هذه،
الضرب بالسوط، اعتاده المتنفذون! يبدو أن السؤال الذي طرحه ابنها عليّ:
هل يحكك جلدك؟ أجابني عنه والدته. لو كنت رجلاً يا علي سلطان،
وعليك شاربان، لما سألتني هذا السؤال بل فعلت بي في الغابة ما فعلتُ أملك
بي هنا أمام أهل القرية. ما العمل؟ تبين اليوم أنك أقوى على أملك، وما قلته

لي إن كنت تعرف أي ساعته بطولة فقد حقيقته. من يستحق التقدير هو أنت، لا أنا. ألا تراه يتظاهر أنه يسحب أمه إلى أرض الدار! وأنا ستأثني الفرصة لأفعل بك ما فعلت أمك. مهلاً، مهلاً؛ سأجعلك تغني في ظاهر باستوك أغنية مشؤومة. ولكن لا تتأمل أن أعاقبك على ما فعلت أمك. أمامنا كثير من المواقف يمكن أن تتسبب في الخلاف. كلانا على الخنجر ذي الحدين القاتلين نفسه. سنرى من يجرح أخمصه أولاً!

الفصل العاشر

-1-

قرر حاغور موسى ألا يتأخر أكثر من هذا في مكاشفة أكوز بعاطفته نحوها. يقال: حرير قصير مطرز بالذهب خيرٌ من كلام طويل. إن لم تفتح فمك بقيت أمينتك محبوسة؛ فلأفتحه سواء كان هناك أملٌ أم لم يكن. من يعرف؟ قد يكون قلب أكوز على غير ما أعرف؟ مزاج المرأة الحلو كشمس الصباح وسحابة ظهرية تغيب. يقول تحخوخوه نفافؤه إنها تبتسم له كما تبتسم لي، ولذا يجب معرفة حقيقة عواطفها. ثم إن معاملة شراًقوه ناغوه لي تغيرت جداً كما لم تكن في يوم من الأيام. ولا أرى سبباً يجعل علي سلطان يعتب علي لأجله. تغير موقف الأسرة مني منذ سمعوا بما جرى بيني وبين النبيل أردن. والله لو عطف عليّ وحقق طلبي لكان ثواباً له إلى الأبد.

الطبيعة خرجت من محنة الشتاء، ولذا تبدو على المرتفعات بقع من الأرض السوداء. ومتى فكرت في الربيع حُيِّل إليك أنه يُريح أعضاء الجسم. والثلج القديم الخشن على الأرض تمزقه رطوبتها وضيق صدرها.

قطع صوتٌ هياج خيلٍ من جهة الحظيرة أفكار حاغور. الحصانان يتصارعان، خلافاً لعادتهما، واقفين على القوائم الخلفية. أعاد حمل الحشيش الذي كان ينوي نقله إلى مكانه، وأسرع لفك الاشتباك بين الحصانين، فعرف أنهما حصانا الأب والابن شراًقوه. ينقض أحدهما على الآخر. أعرفهما متناثرة، والشعر

على أعينهما يقذفانه إلى الخلف، والعيون جاحضة، ولا أحد منهما يقبل التراجع. ما الذي يتنازع عليه الحصانان الآن؟ لا يجب الأب ناغوه أن تصدر من داره حممة خيول متعركة. بل إن أي فلاح يتشائم من هذه الحالة. ومن المعيب في رأيهم عراك الخيل وعراك البشر. ثم إن المتعاركين هما حصان الأب وابنه. التقط حاغور أول عود وقع عليه، واقترب منهما، غير أن الحصانين لم يعباً. ولما ارتفع العراك حتى صارت مناخيرهما تقذف ما يشبه اللهب، أمسك بالعصا التي يُرتج بها باب الدار، وضرب مؤخرة أحدهما. وفي الحال سمع شرلاًقوه الكبير يقول:

- اهدأ يا حاغور لحظة، دغهما يتناحran!..
- إن لم نندخل قتل أحدهما الآخر... - خفض حاغور عصا الرتاج لا يعرف ماذا يفعل.

- قائمة البقرة لا تقتل عجلاً يا حاغور... - هل سيصل الصراع بينهما إلى هذا الحد؟ - ضحك شرلاًقوه لا يعرف أيّ الحصانين سيكسب المعركة، - لا تحاول الوصول إلى حاجبه، بل أمسك بأذنه. مرة أخرى! مرة أخرى!..

- لن ندع الحصانين يتقاتلان على مبدأ: جرح ورك حصانه ثم وقف يعالجه!..
- قال حاغور ونهر الحصانين فسمعاه، وكأهما تعرّفا على صوته فاشتبكا مرة أخيرة وافترقا. - هيا اذهب وقف هناك!.. - نهر حصان علي سلطان الذي كان فاغراً عينيه.

إذا نظرت إلى صاحبي الحصانين جاءتك الرغبة في الضحك إذ يقف كل منهما إلى جدار من جدران الفناء مديراً ظهره للآخر، يرتجف غضباً. حصان الأب عاد إلى رشده أولاً ووقف يحك رقبتة بالعمود المتقشّر، أما حصان الابن فلا يستطيع الوقوف حيث هو، يرقص في مكانه.

- من من الحصانين غلب الآخر يا حاغور؟

- والله لا أعرف يا ناغوه.

- ليس في الأمر ما لا يُعرف؛ قل وكفى!..

- وكيف وأنت لا تعرف الغالب؟

- أنا أعرف إذن.
- من؟
- أنا من سأل؛ أجب أولاً.
- والله لا أعرف يا ناغوه.
- لا يزال يقول: والله لا أعرف. حاغور أنت إنسان لست بسيطاً. تتظاهر بالجن أمامي وأنت اجتاحت بطولة في الجمكوي! هل هذا جائز؟ قلّ حالاً دون تحرُّج من الأب والابن. يضحك ناغوه ناظراً إلى حاغور بوجه بريء.
- قابل حاغور شرلاًقوه بوجه بريء كما وجه الآخر، ولكن ما في قلبه نحوه بصفته من المتنفذين شيء آخر. يا ربي، ما أشدّ إلحاحك عليّ كذاب الخريف اللجوج، يقال: لا يتفاهم الشبعان والجائع. لا يهمني من غلب الآخر منكما. إن كان عقلك لا يتجاوز هذا المقدار فليت الأب وابنه تذابحتما!.. ما شأني أنا بما تسألني عنه؟ إن لم يوافق جواي هواك فما يُدريني كيف ستتصرف معي؟ لو كان خصمُ حصانك حصان أحد الفلاحين لكان الجواب سهلاً. وما كنت لتسألني عن الغالب. كان الأفضل من هذا أن تسألني: ما نيتك وما مرادك - هل نبقي بالنسبة إليكم أولاداً - ها هو ابنك، وأنا أكبر منه، مشغولون بترويجيه. لم تتركوا فتاة في الشابسغ لم تسألوا عنها. وداريت بدورها تبحث على مبدأ: انظر إلى الأم وتزوج البنت. كأنّ لا أمّ في العالم أفضل منها!.. أظن أن شرلاًقوه يمزح ولكن ليس عنده مثل هذه النية، يقف بانتظار الجواب. عليّ أن أُلبي سؤاله وإلا غضب وحرمني من مرادي.
- ربما كان ما أعده منتصراً يا ناغوه، هو من هداً أولاً. - قال حاغور، ونظر باتجاه حصان الأب. - ما رأيك أنت؟
- ألم أقل يا حاغور إنك خبيث؟! - سرت ابتسامة باهتة على وجه شرلاًقوه، - بل أكثر من خبيث. ماذا كنت تجيب لو كان صاحب الحصان الآخر علي سلطان حاضراً؟
- كان الجواب نفسه جواي.
- لا تقل يا حاغور، ليس صحيحاً.

- وهل أخالف الحقيقة يا ناغوه، يقولون إن من يعود إلى طبيعته أولاً هو الغالب.

- هذا صحيح، ولكن هل تعرف ماذا سأقول لك يا حاغور؟ كانت قوة حصاني تتراجع لولا أنك تدخلت وفصلت بينهما. ألا ترى إلى هذا كيف ينظر إلينا معتداً بقوته المفرطة؟ عيناه تلمعان كعيني الذئب. ولا يسيطر على فخذه متشوقاً إلى أن يقفز بهما، ولا ينوي أن يخفض رأسه.

- لا يزال حصان علي سلطان شاباً؛ ليس غريباً أن يكون قوياً.

- هاه، الآن يا حاغور اقتربت مما أقول. ما يجعل الناس يقولون: الشتاء يأتي صاحباً، والصيف ينصرف باكياً، هو الشاب والعجوز. ما العمل، نحن بدأ نهارنا بالانحدار منذ زمن بعيد.

- وهل أنت عجوز جداً؟

- إن لم أكن عجوزاً فلننتصارغ، ومن يرانا من الناس يتعجب. ونعرف الجواب. لا تضحك، لا تضحك، أنا جاد. إذا درت بالنبيل الجمكوي كثيراً وأنت تلهث حتى صرعته، فأنا لا أساوي شيئاً، كيس تن، بالنسبة إليه. - قال ناغوه من أعماقه. ثم اقترب منه متظاهراً بأنه سيصارعه، ونظر يميناً ويساراً، يطمئن إلى أن أحداً لا يسمعه، وأخيراً همس في أذنه: - أليس كل ما تشهده في عالمنا مما يسبب الهرم؟! إن كنت محظوظاً لم تعثر بامرأة شريرة؛ ألم يقولوا: المرأة الشريرة تسبب الشيخوخة للرجل؟! وإن لم يقولوا فأنا أقول... أتظن أن الضجة التي افتعلتها ابنة آل ناورز في خريف العام الماضي أمام باب الدار، وعلى مرأى من القرية، لم تسؤني؟ غمرني الخجل حتى لم أعد أجروء على أن أرفع جفني وأنظر إلى الفلاحين. وأنتم أستم بشراً وإن سميناكم بالفلاحين؟! حقاً نقول بحقكم في ساعة غضب ما لا يعجبكم، ولكن هل يليق بامرأة أن ترفع السوط؟ وبأي عين تظن المتنفذين سينظرون إلي؟ وحجمقوه أسرة ريبينا من كبار أمراء البجدوغ. أما كان الأجدر أن تراعيهم إن لم تراع حالي؟ هذه هي حياتي اليومية. كم يجري في داخل بيتي مما لا تعرفون ولا تسمعون به؟ يا حاغور إياك أن تنقل كلامي إلى أحد!.. من يفهمني إلا أن أقف إلى حصاني وأشكو له؟ لم

يبقى في الحياة ما أرغب فيه. أفضل أن أهتم على وجهي لو وجدت مكاناً أستريح فيه...

تصور حاغور أن شرلاًقوه المستند إلى كومة حشيش زاد صِغراً على صِغره. وفيما يستمع إلى الحديث الذي انفتح فجأة يبدأ بالإشفاق على من يجلس أمامه. عاش حاغور نصف عمره في دار شرلاًقوه، فلم يره على مثل هذه الحال من اليأس كما اليوم. تفحص الرجل ثانية كما لم يتفحصه ساعة جاء والحصانان يتصارعان. رأى القوسين أسفل عينيه مسودّين غائرين دليلاً على أنه لم ينم ليلته. ومن عينيه تقرأ الحزن الخفي. والقبعة على رأسه كيفما اتفق. والزناز الحامل للخنجر مائل، والخفّان الأصفران ليسا مشدودين على الساقين كما في السابق. وتعرف من طريقة لبسه، ومن نظراته، أن ناغوه وصل إلى حافة اليأس. ما السبب في أن شرلاًقوه اتخذ من حاغور موضع ثقته؟ طاف السؤال كل أنحاء جسد حاغور. استعرض، راعباً في معرفة بداية أزمة شرلاًقوه، مجريات العام الأخير من حياته. العام والأعوام السابقة مثل طفل ولد مرتين: يأتي الربيع فيحترثون. ويأتي موسم جني المحاصيل فيجنون، ويتداولون في أعمال الخريف. وفي الشتاء يهتمون بعلف المواشي، وتنظيف الإسطبلات من الروث. وطوال هذه المدة لا ينحني الفلاحون لالتقاط شيء وقع منهم لولا رقابة المتنفذين. لا ينفكون يأكلون ويشربون. والزيارات بينهم هزأت حوافر خيلهم ومقايض قدورهم. ومضافاتهم لم تعد تتحمل البطولات الزائفة التي تدور أحاديثهم فيها. انفجر شرلاًقوه ناغوه وقد أطبق اليأس على قلبه.

هل اتخذ شرلاًقوه لحاغور موضع ثقة أمر إيجابي أم سلبي؟ ماذا لو انتهت هذه المصارحة التامة بعواقب سيئة كما يقال في المثل: المزاح قد ينتهي بتكسير الأنوف؟ ارتعب موسى للحظة حين ورد على البال مثل هذه الأسئلة. ما حاجتي إلى سماع أحزان شرلاًقوه؟ أما تكفيني أحزاني؟ ما إن تُجأبوا شيئاً من الصعاب حتى تنفجروا غير متحملين. ماذا تظنوننا فاعلين نحن بجائنا إذن؟ نتحمل المشاقّ مهما عظمت، ونحمل حملنا مهما ثقل. لسان الكلب يتصرف معك ولسان القطة شرّ. لا تعرف من يروي لك همومه الآن كيف يتصرف معك

لاحقاً. هذه الطبقة من المجتمع ليست جديدة بالثقة، مثلها مثل تكليف الصقر بأن يحضن الفراخ. ولكن ما العمل؟ سأستمع إليه، وأغلق فمي بوتد متين. - هذه حالي يا حاغور إن فهمتني. - وقف ناغوه حزيناً بعض الوقت ثم تنهد عميقاً.

- أفهمك يا ناغوه... لا تيأس. لا بد أن يحلها الله بإذنه.
- لن ينحلّ لاحقاً ما لم ينحل إلى الآن يا حاغور، هذه تبعات الزواج من امرأة شريرة. تكون محظوظاً إن عثرت على امرأة كالبشر.
خطر لحاغور بأن الفرصة مناسبة للكلام في موضوع أكوز. كرر ناغوه مرتين عبارة "إن عثرت على امرأة جيدة". هكذا حانت المناسبة دون أن يمهد حاغور للموضوع. إذا كان ناغوه بادر واتخذ موضوع ثقة فليقبله بالمثل، وليخبره بما في نفسه. إن لم يُلَبَّ طلبه الآن فلن يليها أبداً. قل له يا حاغور، لا تُفَلت طرف خيط الحظ الذي بدا لك. فكر بمصارحته، وحالاً ضبط أعصابه وسكت. نصح نفسه خائفاً من أن يؤول ناغوه طلبه تأويلاً غير متوقع، فسكت: لا يليق بي أن أفاتح رجلاً يائساً في موضوع فرحي. ورأى نفسه هكذا خالياً من كل ما يسمى بالإنسانية. ولكن ناغوه سأله وكأنه عرف ما يُسِرّ الفلاح:

- الحقيقة يا حاغور كأنك عشت ما لا يعيش أحد، ألا تنوي الزواج؟
- والله لا أعرف يا ناغوه... أنت صاحب القرار، كما تقرر أنت.
- وهذا صحيح، أنظر إليك فأراك بلحية وشاربين. وأقرانك أرباب أُسر. - قال شراً فقهه، وأضاف ملمحاً إلى أنه يدين نفسه: - وأنا أتحمل جزءاً من المسؤولية. أنا مثل من يقال فيه: من لا يفعل المعروف لا يعرف كيف يخاطبك خطاباً حلواً. أتجاوز غيري في غمرة انشغالي بنفسي. ولكن يا حاغور تزوج دون اختيار إذ أن من يختار يتوه. ليس عندي ما أعتب به عليك. ولا أتذكر أنك جرحت شعوري. ولا أنا فعلت. ولكن لن أكنم أي لا بد جرحتك أحياناً، هذه حال الدنيا. إذا أنت لم تجرح شعور أحد فسيُجرح شعورك. أيسس أسرة صغيرة، وأنا أساعدك، فنعيش متعاونين متعاضدين على الخير. وإذا صرت من

فتة نخبة الفلاحين نظر الناس إليك بعين أخرى. هل في ذهنك فتاة معينة؟

- نعم، عندي.

- من أي أصل؟

- والله لا أعرف... هي أكوز...

- قلت لي أكوز؟ أكوز فتاة محبة إلى القلب. وإن وجدت زوجاً مثلك عاشت

حياتها على جبل من الذهب. حسناً يا حاغور أعدك لم تخطئ في حساباتك.

فتاة تتحلى بالحياء وبالاحترام. الحياة مع داريت صعبة يا حاغور. ألا تراها

تُرضي ابنة آل ناورز كل هذه السنين دون أن تردّ بكلمة. هذا له معنى كبير.

- ولكن يا ناغوه، غلب موسى حياؤه، - لم أصرحها بمرادي إلى الآن...

- وهل عجيب إن لم تصرحها؟.. - رفع شرلأقوه حاجبه، - وهل تعيش في

بيتنا كأنها ابنتنا إن لم تسمع كلمتنا؟! إن قلت لي فاعتبر نفسك صارختها

ووافقت.

-2-

- على روايتك يا جمكوي انطبق عليك قولهم "لا تعد الزوجة بجلد الدب، ولا

تصارع الدب اعتماداً على رفيقك". لست وحدك في هذا، يحدث الأمر مع

كثيرين. - قال رمباكوه بجقان، - وأنا، ألم أرو لك، حدث لي الأمر نفسه مع

مامرقوه. كان قد حرمني من كل شيء وخرجت صفر اليدين بعدما قلت: الآن

لن يجد مكاناً يلجأ إليه، وفي المحصلة لا أعدّ ما حدث لك مصيبة.

- قلت الحقيقة يا زعيم الخير، هذا ما يقال فيه: إن أردفت من لا تعرف أصله

سلبك السرج. يجب أن يكون شاباً فلاحاً مثلي. لا يمكن أن تصفه بالقبیح،

كنت تركته يرصد جماعة مامرقوه ريثما أصل إلى شباكوه. لما اهتديت إلى

مامرقوه لا بد أني وقعت في الإهمال. فاعتبرت ما حدث قد حدث وانتهى. ولما

قيل لي إن شباكوه الذي أسرع إليه، في سفر، عدت ووجدت نفسي في هرج

ومرج، أحد التجار يصرخ قائلاً إن فارساً نهبني جمل القماش. في البداية اتهمت

مامرقوه، ثم لما شرع التاجر يصف الفارس اللص تبين أنه هو من كلّفته برصد

مامرقوه. وهكذا بقيتُ صفر اليدين، لا من هنا، ولا من هناك. ومن أين تأتي بالآبرة التي رميتها في حُملِ عربية من التبن إلا أن تكون الأرض انشقت وابتلعتته. لم أجده.

- هل شكّوا في ملاحقتك لهم؟

- لا أظن. أنا من رأيهم في السوق، لا هم.

- إلى أي جهة تتوقع أن يتجهوا؟

- أنا متأكد أنهم ليسوا في الساحل. لم أترك بقعة لم أسأل فيها عنهم طوال أسبوع كامل.

- ألا تقول هذا من البداية يا مسكين!- ابتسم بجحان وتناول كيس التبغ. - ثم تقول إنهم لم يروك! وكيف لم يروك وأنت سألت عنهم؟ المجرمون يا جمكوي ليس عندهم عينان فحسب، بل ثلاثة. أعرف مكاناً غير بعيد عن قريتنا إن لم نجدهم هناك فاقطع أملك منهم طوال هذا الربيع. أظنهم رحلوا نحو البدو النغوي.

- يا زعيم الخير أين المكان الواقع قريباً من نواحيكم؟ - سأل زيش محتفظاً ببارقة أمل.

- تصل إليه إذا مشيت في غابة تحمّر نصف نهار.

- ليس بعيداً إذن.

- هيا يا جمكوي، لا فائدة من القعود.

- والله يا زعيم الخير إن كان لصاً فقد أضرب. مثل هذا من يقال فيه: "يسخنون جلده" ماذا كانت حاجتي إليه فأخذته صديقاً؟!

نفضوا ليسيروا فتفحص رمباكوه الضيف. هذا الذي أراه كأنه لا يلبس قميصاً من الزرد. كنت أريد أن أسأله ولكني سهوت عنه. أيها الشاب المسكين كيف تسافر دون زرد؟ هذا لا يجوز. تذكر رمباكوه قميص الزرد الذي كان عنده في شبابه. تفحصه من جديد متسائلاً: أيمكن أن يكون على قياسه؟ ثم قال لمن خلفه وهو يدخل الغرفة المجاورة:

- اهدأ لحظة يا جمكوي!..

- جلس زيش بعض الوقت يفكر في سبب تفحصه كأنهم يرونه لأول مرة، وسبب طلب السكوت منه. ليس من عادة رمباكوه أن يتراجع حين يقرر السفر. يفكر ماذا سيفعل قبل أن يوعز بالسير. ما الذي يقلقه حتى خرج؟ وقبل أن يجد الأجوبة على الأسئلة عاد المضيف.

- البس قميص الزرد هذا!

- وأنت؟

- أنا عندي ما ألبسه. هذا كان والدي فضّله لأجلي؛ ألا يسعك يا ترى؟

- يسعني، ليس صغيراً إن لم يكن كبيراً.

- أعطيك القميص طالِباً أن تقبله. ليكن ذكرى عندك حين أرحل عن الدنيا.

لا يرى زيش القميص لأول مرة، ولكنه لم يلبسه في حياته، بل لم يلمسه بيده. يعرف أن الأمراء - النبلاء يلبسون منه. وهؤلاء يلبسونه حين ينطلقون في غزواتهم ومسيراتهم، أو حين يلعبون ألعاب المبارزة، وليس كل يوم. وتذكر زيش أن والده كان يعده أن يفصل له منه حين يصبح رجلاً.

- حياك الله يا بجقان. أقسم لك بسيف والدي هذا ألا أخذك به. - قرب زيش الخنجر الذي ورثه من والده إلى شفتيه.

- مبارك عليك إذن أيها الشاب. - خرج بجقان مدركاً أن زيش لن يخلع أمامه ثيابه ليرتدي قميص الزرد.

خفف زيش ثيابه حالما أغلق المضيف الباب، وارتدى الزرد. ولبس فوقه القميص. ليس الزرد صغيراً عليه، بل إنه كبير قليلاً. فرح زيش بكون الزرد واسعاً، لا على قياسه تماماً. سيكفيه مدى العمر إن عاش. لم يشعر في غمرة فرحه بثقل شبك الحديد. ورأى نفسه وقد عرض كتفاه كثيراً.

عاد بجقان إلى الغرفة وكأنه لا يرتدي الزرد. لا تزال مشيته خفيفة خلافاً لعمره.

- هل أنت جاهز يا جمكوي؟.. قف إن كنت جاهزاً، - وقف بجقان على أرض الغرفة مشمراً عن ذراعه. كان زيش يعرف أن الكبير سيتلو دعاء السفر فوقف إلى يساره، ولقد المضيف في حركاته. - يا ربي، يا إله السفر، اجعل طريقنا لا قريباً بعيداً، بل بعيداً قريباً. اجعلنا من بين من تُحقق لهم هذا الدعاء

يا إله السفر، يا من عنده كل الأعطيات الطيبة.

استغرب زيش مرة أخرى السور المحيط بأرض الدار حين خرجا بسرعة من الغرفة. هذه ثالث مرة يزور فيها ربما كوه بجقان ولا يستطيع إلا أن يتعجب من السور. والأعجب من السور الباب الصغير والبوابة الكبيرة. البابان مزينان بسجاجيد من النوع الذي يرسم فيه البجدوغ صورة في داخل الحصيرة بنوع من القش. لا يرى فيهما شيئاً يمكن أن يوصف بأنه زائد. والعيدان المصفورة دائرياً على العمود لإغلاق الباب مشغولة على طريقة أسواط الثيران. ومعالف الصيصان الدائرية المثبتة على السور بعود واحد، والمربوطة أعاليها، لها مظهر السلة التي تلتقط بها الطيور. والأعجب من كل هذا أن جدران المخزن المليء بالذرة الصفراء مصفورة بالطريقة نفسها.

لاحظ بجقان أن الضيف يعمن النظر في السور وفي الخزان فابتسم، وأسند السرج إلى ظهر الحصان وهو يتظاهر بعدم رؤيته. وبعد قليل سألوه وهو يشد حزام السرج:

- ما الذي تنظر إليه يا جمكوي؟

- الطريقة التي ضُفرت بها عيدان الباب والخزان.

- ألا يعرفون في الجمكوي طريقة الضفّر هذه؟

- ربما، ولكن أكذب عليك إن قلت إنني رأيت.

- كل ما تراه أيها الضيف لا تنسبه إليّ. ليس من صناعي.

- صُنْع من إذن؟

- التطريزات على السجاد من صُنْع ابنة شُحْبَه التي استطيت الشبس والباستا من طبخها. - قال بجقان، وركب.

لم يجد زيش الفرصة لمزيد من الأسئلة فركب ولحق ببجقان.

لم يجتازا منتصف القرية، بل التقيا حولها.

- هل تعرف يا جمكوي لماذا نذهب في هذا الاتجاه؟ مشيا بعض الوقت غير منتظرٍ الجواب. - انظر إلى البيت الظاهر أمامنا المسقوف بالقش، تعيش فيه عجوز مباركة. كان من الحسن أن نرى وجهها. ليس في العالم إنسان أنبل منها،

ولذا أنا واثق أننا إن نظرنا في وجهها فستحقق أمنيّتنا. أنا لا أسافر دون أن أراها. ألا تعرف امرأة مثلهما؟

- لا، أسمع ما تقوله للمرة الأولى.

- احفظ إذن في سِرِّك أن في العالم مباركين ومنحوسين.

- أعرف هذا، سمعته من المرحوم والدي.

- احرص إذن على اتقاء الناس المناحيس. والآن كما اخترت هذه العجوز عجوزٌ خير وبركة، اختر أنت من قرينتك عجوزاً ماثلة. وستأكد أن ما تمّم به يتحقق لك. الآن يا جمكوي لا شك أن ما نوبناه سيتحقق لنا. هل ترى هذه الصبية حاملة النار التي التقينا بها في الطريق؟ - توقفت الفتاة حاملة النار حتى لا تقطع طريق الفارسين، - يا حلوتي حياك الله على هذه الفطنة. أعطيني نارك إن لم تنطفئ لأشعل بها غليوني.

مدت الصبية المجرفة الخشبية التي أسفلها من التوتياء، والتي فيها بضع جمرات. تناول رمباكوه بأصابعه العارية إحداها، وأشعل بها الغليون. ثم رماها في مجرفة الصبية. استغرب زيش ما يرى متسائلاً إن كانت يدا رمباكوه من الحديد.

- حياك الله يا صبيتي الحلوة. ماذا يعمل والدك بإذن الله؟ إذا كان سليماً وبصحة جيدة فهذا خير كبير. والدك واحد من رجال الفلاحين في القرية. حيّيه عني تحية الصباح.

- رافقتكما السلامة يا زعيم الخير، - قالت الصبية، وأذنت للفارسين بالمرور. لا يمكن من طريقة ركوب بجقان أن تعرف البتة أنه يلاحق مامرقوه. يجلس على صهوة الحصان مطمئناً لا يهمله شيء. وليس في وجهه أي تعبير عن القلق كمن لن يخوض أي معركة. مظهره كمن يروّض حصانه في ظاهر القرية.

- أراك يا جمكوي لا تقول شيئاً؟

- ماذا تريدني أن أقول يا زعيم الخير؟

- وهل ما يمكن أن تقوله قليل؟ أليس العالم كله مليئاً بالموضوعات؟!

- مامرقوه لا يفارق الذهن.

- أطرّد مامرقوه من ذهنك. الوقت الذي يجب أن تتذكر فيه مامرقوه هو وقت

- إشهار السيف عليه. ما الفائدة من أن يحتل ذهنك الآن فيمنعك من التفكير؟.. ما سعر العسل على شاطئ البحر؟
- لم أسأل يا زعيم الخير.
- ألم تسأل فيه عن السترة القصيرة وجلد الثور؟
- رأيتهما، ولكن لم أهتمّ بهما.
- ما سعر الخيل إذن؟
- لم أر خيلاً يُباع.
- ماذا؟ هل قلت إنك لم تر خيلاً يباع فيه؟ ماذا رأيت إذن يا جمكوي في سوق الساحل؟! يبدو أنك كنت في السوق ومامرقوه عَصَبَ عينيك. المزارعون متى ما زاروا السوق بحثوا عما يباع فيه. سألوا عن الأسعار. هل تظن أن ما لا يهتمك شخصياً في السوق لا يهتم غيرك؟.. ها أنا عندي قليل من العسل أريد أن أقيضه. ولو عرفت الأسعار لربما ما قطعْتُ كل هذه المسافة إلى هناك.
- والله يا بجقان لو عرفت أن لديك مثل هذه النية لسألت عن أسعار العسل.
- انتقد زيش نفسه.
- على الفلاح أن يعرف ماذا في السوق. لا تنس هذا بعد الآن. متى قلت إنك كنت في الساحل فقد يسألك فلاح غبي مثلي. واحفظ هذا في قلبك. حسناً، والآن نصل إلى منزل العجوز المباركة.
- يا مزكواش!¹ - صاح بجقان مُوقفاً الحصان حين لم ير العجوز في أرض الدار.
- ألا تفضلُ يا بجقان. يقال إن ضيف الصباح يستأثر بالقشدة. - خرجت عجوز طلقة الوجه من الغرفة، وأسرعت نحو باب الدار.
- بيتك عامر يا مزكواش. ونعرف أن عندك قشدة طازجة. كنا مارين فناديت لأتأكد من صحتك. سامحينا على عدم النزول عندك، نحن على سفر.
- رضي الله عنك إذ لم تنسني يا بجقان، - سُرّت العجوز بما قيل لها، - وأنتم

¹ سيدة الغابة.

ما أحوالكم؟ ما أحوال ابنة شحبه؟

- ونحن كما تعرفينا نعيش على راحتنا، وابنة شحبه بخير. تعيش في البيت تكذب على لبنها غير المتخثر¹. رأيـناك بخير يا مـركـواش.
- رفيقك الفارس ليس من قريتنا يا بجقان، لابد أنه ضيف.
- رفيقي الفارس ضيف من بلاد الجمكوي.
- تفضل أيها الشاب. أنت ضيف. خرجت العجوز من أرض الدار.
- عامر يا أمنا.

بعدما ابتعدا عن دار العجوز وسارا مدة، التفت بجقان الذي كان صامتاً إلى الآن نحو زيش، وسأل:

- أليست عجوزاً مباركة يا جمكوي؟

- نعم يا زعيم، عجوز طلقة الوجه سليمة الطوية. في قريتنا عجوز تشبهها، لولا أنها أطول قليلاً.

- إن كان عندكم مثلها فافعل كما فعلتُ واختبرِ بركتها؛ لن تندم. والآن أهـمُّ ما أمامنا هو مامرقوه الذي نلاحقه. لا يجوز أن نتهاون في مهمتنا. أرخى رمباكوه زمام الحصان فأسرع. ولم يتأخر زيش في تقليد الكبير.

-3-

لم تكن شمس الخريف تنوي الاستيقاظ حين جهز فطور سيسار: قطعة من لحم الغزال الذي اصطادته أمس، المقلي جيداً. وحليب إحدى المعزتين اللتين أطلقهما قبل قليل في الفناء المسيح بالعيدان المتصالبة، يملأ الصحن الكبير. وباب القبو مفتوح. ولولا أن نسيم الصباح الخفيف يلعب بأوراق الأشجار المتساقطة المتعددة الألوان، ولولا أنها تتساقط هامسة متراقصة، ما كنت تصدق أن سيسار تعيش في عمق غابة الشابسغ، بل في عالم آخر. والحصان الذي لم

¹ في اللغة هناك جناس بين التخثر والكذب. وأذكر أن نساء القرية، على سبيل المزاح، كن يتنـدرن بأنهن روين اللبن بكذبة فلان أو غيره من المعروفين بالكذب البريء طبعاً.

يهدأ طوال الليل عاد إلى مكانه.

- هل عدت يا حصاني الجميل، - استقبلت سيسار الحصان، - ها نحن سننطلق حالما ننتهي من الفطور. وها هي الشمس تستوي على قدميها، - نظر الحصان إليها بعين حادة كأنه يفهم كلامها، ومد رأسه غير المتناسق ظاهراً مع القوائم الرفيعة والبطن النحيف. وأكملت سيسار مناجاتها له وهي تسمح على جبهته النحيلة، - لا تستعجل يا حصاني الجميل، سنعب نهر إيل دفعة واحدة، ونصل إلى البجدوغ في ثلاث غلوات. ونمد أيدينا إلى روح من يمد يده إلى أعيننا. ألم تقلق هذه الليلة؟ نعم، وأنا كنت مرتاحة.

انتبهت سيسار والحصان حين صدمت الريح ذرا الأشجار، وشُع صوت تكسُر بالأغصان اليابسة. ولما أدركا أن لا خطر عليهما هداً. انتبهت سيسار إلى أنها حاسرة الرأس فارتدت القبة الفلاحية. وغدت سُحنتها حالاً سحنة رجال دون أن تظهر شعرة واحدة من رأسها. اعتادت قامتها الأثوية على ملابس الرجال في السنوات الأخيرة التي هربت فيها من عبد الله سوناي. القامة الرشيقة يناسبها الزنارُ المحزومُ إليه الخنجرُ الفضي والمسدس. والخفان اللذان تهرأ من ملامسة جانبي الحصان، ملفوفان على الساقين غير السميتين. والكتفان منسجمتان مع الردفين غير العاليتين وإن كانتا غير عريضتين.

عبرت سيسار في السنوات الأخيرة كثيراً من الصعاب لا تتحملها كتفاها النسائيتان: عاشت في بيت عبد الله سوناي لا تسمح لأحد أن يمد يده إليها على أمل أن يلحق بها تامبر ويستعيدها. ولم تفارق يدها المقص الحاد حين يكلمها النغوي المتنفذون بخير أو بشر. وسوناي لم يكن راغباً في الوصول إليها رغماً عنها. ولما سمعت سيسار أن الفلاح تامبر قضى على يد الأمير بحقوقه بكتُّه طوال الليل، وفي الصباح وجدت حصاناً مسرجاً أمام الباب فقفزت إلى صهوته وهربت. لم تعد إلى بلاد البجدوغ بل توجهت إلى أرض البسلني. لم يكن لسيصار أقرباء يزورونها في بلاد البجدوغ. نشأت الفتاة التي لم تتجاوز بضعة سنوات حين اشترت من ساحل البحر الأسود مقابل قطعة بنطال، في دار الأمير بحقوقه. كان الفلاح تامبر قريبها الوحيد. وفي بلاد البسلني لم تكن

سيسار محظوظة. التجأت إلى رعاة الأغنام في الجبال فعاشت معهم بعض الوقت يعاملونها كأخت لهم. وخلال هذه المدة تدربت جيداً على السلاح. وأتقنت أسرار الفروسية. صارت تصرع الطائر في سمائه، والأرنب في جريه. ومزنت عضلاتها بالصراع مع الكباش الضخمة في القطعان، تجرّها، وتدور بها. وأتقنت جزّ أصواف الأغنام، وسلّخ جلودها. ولما اكتسبت قوة الرجال في قوام المرأة أطلعت رفاقها الرعاة على نيتها: - لن يعيش الأمير بحقوقه الذي جلب المأساة إلى موقعها نصف الجاهز!.. وإن قضت على يده عاجزة عن صرعه التقت بتامير في العالم الآخر.

كان بين رعاة الأغنام من وافق رغبتها ومن لم يوافق.

- والله لن ندعك ترحلين وحدك يا أختنا. - إذن سنرافقك حالاً!
- لا، لا أريدكم أن ترافقوني!.. - مهما قالوا لها، ومهما ترجّوها لم تتراجع سيسار.

- إذن نوصلك يا أختنا إلى بلاد الجمكوي...

أوصل الفارسان سيسار إلى الجمكوي حزينين إذ يعلمان أنهما متى عادا فلن يجدا أختهما في العريشة، ولن يجلسا إلى مائدتها الجاهزة، ولن يسمعا ضحكها.

- مع السلامة إذن يا أختنا... - ودّعها أكبرهما. - كيف سنقيم وحدنا في العريشة إذن! - وعاد بالحصان سريعاً.

- أتمنى لك الخير يا سيسار، قال الفارس الثاني _ التقت نظراتها بنظرات الفارس نَردم لحظة نطق هذه العبارة. رأت سيسار في عينيه نظرة حزنٍ من لن يراها إلى الأبد، من يضيع منه شيء. وهي الأخرى تحرك شيء في قلبها لأول مرة، فسرت مع هذا الشعور رجفة رعب في العروق. وبعدما ساروا مدة وسيسار تحت تأثير نظرة الفارس الأصغر الذي يتوسط بينها وبين الأكبر، سمعت الفارس الأكبر يناديه:

- ما الأمر يا نردم، لماذا لا تزال واقفاً؟

عَصَرَ وَقَعَ حوافر الحصانين المنطلقين قلب سيسار. لم تستطع مع أنها نصحت

نفسها ألا تلتفت. اتجهت إلى اليسار تاركة طريقها عسى أن تنسى وقع الحوافر، ونزلت إلى المضيق. نهرت نفسها على الفكرة التي تخطر لها لأول مرة. مرة أخرى ارتسمت صورة الراعي نردم وهي متجهة إلى الغابة المحاذية لنهر لابا. تمتت سيسار أن تلتفت في الحال ولكنها عضت على شفتيها، وطردت أمنيته من القلب. وعادت صورة تامبر بكتفيه العريضتين وقميصه الرقيق...

منذ أن عبرت سيسار نهر لابا، ووطئت أرض الجمكوي، عاهدت نفسها عهداً قوياً أن تغَيّر ملاحمها وسلوكها اليومي وحركاتها الأثوية إلى تلك التي للرجال. وتحقق لها ذلك بعدما عاشت فترة في الغابات الجبلية المتاخمة لنهر لابا، تصيد الغزلان بالسهم. ولما حل الربيع، فالصيف، اتجهت إلى أنحاء نهر فرزه. رآها الناس في أحد الأيام الحارة تستحم في الماء فتجاوزت أرض الجمكوي واتجهت إلى الشابسغ كي لا تثير فضول الناس. وصارت السوق الساحلية أقرب إليها، تجدد فيها الرصاص والبارود والسهم.

أكلت سيسار قطعتين من اللحم المضفور، واحتفظت بالبقية زاداً للطريق. واليوم تذكرت رفاقها الرعاة الذين رافقوها في مراعي جبال ينحج، كما حدث بضع مرات في الأوقات الأخيرة. وانتصب نردم أمام عينيها بوجهه الأشقر وعينيهِ الواسعتين. وبدأت عاطفة دافئة تنشأ في الصدر خلافاً للأيام السابقة. وتذكرت، مع الرجفة الحبيبة التي داهمتها قبل أيام، الأميرَ بحقوقه الذي جلدته قبل أيام. وفي الحال عادت المرأة الوحيدة إلى وعيها. يصعد النهار من الجبل الشرقي قبل أن تثير الريح الأوراق اليابسة في الغابة. وإن نظرت عبر الأغصان رأيت أعالي الأشجار تنير تحت السماء. رفعت سيسار المائدة، وأسرجت الحصان الذي كان بانتظارها.

- ماذا يا عزيزي؟ هل تنتظري؟ - سألت سيسار الحصان. - حالاً يا عزيزي حالاً... - ثم أضافت وكأنها نسيت شيئاً ما: - سنصلي صلاة الصبح قبل الطريق...

توضأت سيسار بعد أن خلعت عنها السلاح ومدت جلد الماعز جهة القبلة. ودعت إلى الله أن يسهّل المهمة التي تمضي إليها، ويسرّ طريقها إلى البجدوغ،

ويُعمي رصاص العدو عنها، ويفتح باب الجنة واسعاً لتامبر. ولما انتهت من الصلاة تفقدت بعينها موقعها من الغابة، ثم ركبت.

-4-

أقلع شرلأقوه ناغوه عن عادته في امتطاء الخيل مع استيقاظه، وتوجَّهه إلى حيث يأخذه الحصان دون أن يكون أمامه أي مهمة. ويلاحظ هذا كل العاملين من الفلاحين في الدار بالإضافة طبعاً إلى داريت. والشاب، سليل الأسرة المتنفذة، علي سلطان، الذي كان فرحاً بسلوك والده مؤخراً إذ كان يتابعه صباحاً خفية، حارماً نفسه من النوم الصباحي اللذيذ، يستطيع الآن الاستمتاع بدفء الفراش.

لا يزال ناغوه في الفراش مع أن عمود الصباح انصدع منذ زمن طويل. وداريت يصدر صوتها أحياناً بعدما خرجت من الفراش: تبدو في مزاج جيد جداً من كلامها ومن ضحكاتهما. يجب أن يكون الجو اليوم رائعاً بالقياس إلى غيوم الباردة. يتفحص محيط باستوك بعدما بددت الريح التي هبت مساء البارحة غيوم الربيع. لا يرى شرلأقوه أي عجب في هذه الأيام. وإذا أردت أن تروي خبراً فال شرلأقوه المتنفذون صاروا أغنى بستة عشر عجباً وخمسين خروفاً. وعندهم ثلاث وعشرون فرساً تستعد للإنجاب.

سمع شرلأقوه الكبير أكوز تضحك من بعيد. رفع رأسه وأنصت ولكن الصوت انقطع. مضى وقت طويل على آخر مرة سمع فيها ضحك أكوز خادمة داريت بهذا الصوت العالي. ما حاجة شرلأقوه إلى ضحك أكوز؟ كان الأفضل أن تضحك داريت أكثر فأكثر. كانت نشرت الانشراح في البيت على الأقل. من البديهي أن تفرحي يا أكوز، وكيف لا تفرحين إذا وجدت عريساً مثل حاغور. صحيح أن حاغور ليس بالشاب الرشيق ولكنه يريد تأسيس أسرة. أيكون صارح الصبية بمراده؟ كان أخبرني قبل أيام أنه لم يفعل. والله يا حاغور ستنظر طويلاً قبل أن أوسس لك أسرة. ليس أشباهك من يساعدونهم؛ أمثالك يجب مراقبتهم مقيدين بالسلاسل. أكان علي أن أجمع بمثله وأحكي له أسرار

أسرتي لو لم أكن مجنوناً؟! حين وضع رجله في الجمكوي أربك كثيراً من النبلاء. وأنا كنت مسروراً لهذا التصرف. إن أطلقت له الحرية في بلاد الشابسغ لم يربكك فحسب بل حملك إلى نهر إيل مقيداً ورماك فيه. لماذا تشاجر مع النبل في الجمكوي؟ ماذا كان شأنه به، كما يقول ألقس. أفسدنا أخلاقهم بأن عودناهم أن نبتسم في وجوههم. ينكمشون في حضرتنا، ويتباهون وراء ظهورنا. يقفون في حضرتنا دون خوف أو حياء في مؤتمرات الشابسغ فلا يدعوننا نتكلم. كان صالح أفندي -أسكنه الله الجنة حيث رحل، - والذي ضاع في الكعبة كلياً يقول: لا تسمحوا للفلاحين أن يكسروا الحواجز بينكم وبينهم. كان المسكين من بين الشيوخ الألباء في الشابسغ. لو عاد حاجاً لعاش هنا صاحب نفوذ قوي، له كثير من المعجبين.

حُيِّل لناغوه أن فراشه دافئ أكثر مما ينبغي. لبس وأكل صحن قشدة الجاموس. يبدو جبل بيباو قريباً جداً. رأسه مغطى بثلج الشتاء ولذا تلاحظه أشعة الشمس الصباحية. والغابة التي تنثر أوراقها الخضراء تتسع. مساء أمس هاجت الرياح في تلك الأنحاء. الهواء النظيف يخيم على الأرض حتى ليعث الدوار في الرأس. كان وقتاً متأخراً من الصباح ولذا كان الفلاحون قد انتهوا من أعمال الدار: المواشي إلى مراعيها، والخيل أوردت الماء، ثم نُظِّفَت، فلا تحتاج إلا إلى الركوب. ونُفِضَت اللبادات تحت السروج. وروث الخيول المجموع إلى السور لا يزال يتصاعد منه البخار.

رأى حاغور شرلاًقوه وسوط الخيل ملفوف على ذراعه فأخرج حصانه دون أن يسأله.

كيف أحوالك يا حاغور بإذن الله؟ - شرلاًقوه طلق الوجه كشمس الصباح.

- حياك الله يا ناغوه، نعيش على راحتنا.

- ما الذي تعنيه بـ "على راحتنا" وأنا أرى أمورك تسير كما تريد. - أين تحخوخوه؟

- تحخوخوه دوره اليوم في الرعي.

- وأين علي سلطان؟

- خرج قبل لحظات دون أن يقول شيئاً.

- راكباً؟

- لا، على رجليه.

- حسناً إذن، وأنا سأنزله الحصان. ألا تجهز نفسك يا حاغور للموضوع الذي
تكلمنا فيه في الشتاء؟

- هذا يتبع تحضيرك يا ناغوه.

- إذا كنت جاهزاً يا حاغور فستحدث في التفاصيل. ونفكر معاً في الأسرة
التي تستضيف العروس...

من أين جاء الحظ الذي لم يعرفه موسى إلى الآن؟ ارتفع نبض القلب عاثراً. ولم
يستطع وهو يتابع شرلاًقوه إلا أن ينظر باتجاه غرفة أكوز. ما إن تصعد الشمس
إلى قبة السماء، لا تسعها دار المتنفذ الواسع، حتى يبدأ القلب المتوهج كأنه
يريد أن ينهض من صدره. يا جبل بيباو المبارك ليجعلني الله أراك في نهار
حقيقي. افهمني وحقق مرادي. نبت جناحان لحاغور كأنه سيقفز في الهواء.
خيل إليه أنه وأرض الربيع، ومجلسه في ظل كومة الحشيش، وفناء المواشي،
والمخازن الملائى بمحصول العام الماضي، والموقد الذي يقذف الدخان، حتى
الغابة التي عند مخاض النهر، كلها تطير. ما أسهل أن تشيع الفرح في قلب
الإنسان!..

لولا صوت طرق سندان بترز شعبان الآتي من جهة المرتفع لطار حاغور موسى
نحو جبل بيباو دون وعي. وما أعاد إليه الشعور بأنه بلا جناح هو تذكره أنه ما
فاتح أكوز بعدُ بالموضوع. يعرف كلٌّ منهما ما في قلب الآخر ولو أنهما لم
يلتقيا وجهاً إلى وجهٍ فيتصارحا. لا يعرف حاغور هذا الشعور اليوم فحسب.
عاشا إلى اليوم وكلما التقيا عبرا بلغة النظرات عما في نفسيهما. أليس من
السعادة أن يكون كل من العاشقين يعرف ما في نفس الآخر ولا يعرف. أقول
هذا ولكن الأفضل أن تكون أكوز مستعدة للزواج. المسافة بعيدة بين التقاء
نظرات الحب والزواج. كل الأمور سهلة إذا عرفت بها. لا تهتم يا شرلاًقوه بنزول
العروس ضيفة على أسرة ما. لا تظن أنني أعيش في باستوك بلا أصدقاء. لا بد

من حلّ ما. نظر موسى نحو مسطبة الغرفة وقد تشجع لتحقيق مراده. لابد من مقابلة أكوز قبل أن يعود شرلاًقوه. سيجلب العيب لنفسه إن ظهر في الأمر ما لم ينتبه إليه، ويصبح مهزأة القرية. سيذهب إلى جهة غرفة الموقد ويرجو إحدى الخادومات لمقابلة أكوز. وبعد أن يصارحها بكل ما يعرف، يخبر أصدقاءه. وسيعتني بلباسه قليلاً حتى لا تراه أكوز بثياب رثة جداً. عنده منذ زمن بعيد قطعة قماش تصلح بنطالاً، سيطلب من مريم، زوجة أكجكوه أنزور، أن تخطبها له... أعقد ما في الأمر هو كيفية إطلاع تحخوخوه نفافؤه على المشروع. كيف ستكون ردة فعله؟ مهلاً، أقول هذا دائماً ولكنه لم يقل لي كلمة واحدة تتعلق بأكوز في شأن الزواج. الفتاة لا يظهر خاطب واحد فحسب لها، تجد من تختار بينهم. وتتعلق بمن يعجبها.

خرجت أكوز من الغرفة كأنها تعرف نية حاغور. ولكنها توجهت نحو البئر دون أن تنظر جهة حاغور. ركض حاغور نحو كومة الحشيش الأخرى، ونادى:
- أكوز!

نظرت أكوز وقد عرفت المنادي، ولم تعرف سبب النداء:

- ماذا يا موسى؟

- تعالي!

- عيب إن رأنا أحد يا موسى.

- لا خطر علينا، عليّ أن أحدثك في موضوع.

- ماذا يا موسى؟ - وضعت الدلو من يدها وقالت في حياء شديد وهي تراقب الجوار.

- فقي أسفل كومة الحشيش ولن يراك أحد. - احمرّ وجه حاغور كمن اشتعلت به النار، وجفّ حلقه من الحرارة، - ما أود أن أقوله لك يا أكوز، لا تؤاخذيني، ليس تكبراً على المجيء إليك، أنت تعرفين وضعنا. ما رأيك في أن نصبح أنت وأنا واحداً؟

احمرت وجنتا أكوز خجلاً:

- أفهم وضعك، وتفهم وضعي يا موسى. ولكن إن كنت تسمعي فليس

مكاننا هذا ملائماً لمثل هذا الموضوع. ليكن بيننا احترام وتقدير مهما كان وضعنا. أريد أن يعرف آل شرلأقوه أننا نعرف الأصول ولو كنا فلاحين. اصطحب عدداً من الأصدقاء، وتعال كما يذهب الشاب إلى أي فتاة. وأنت تعرف الموعد الأنسب. وأنا أمد قلبي إليك واثقة أنك قادر على هذا.

انصرفت أكويز كما جاءت. لا يتذكر حاغور كم من الوقت قضى إلى جانب كومة الحشيش. أما ما لا يفارق الذهن فهو كلام الفتاة. أليس صحيحاً أن كون أكويز خادمة لا يعني ألا يُطلب يدها؟ إن لم تحترم نفسك فلن يحترمك أحد. سأبلغ جماعة بترز شعبان لنذهب في إحدى الأماسي إليها كما طلبت. كلامك صحيح يا أكويز ليس فيه ما يعيب. ما كنت لأنصرف معك كما فعلت الآن لولا أنني كنت على عجلة من أمري قبل عودة شرلأقوه. وتحذوخوه ممن أحسب حسابهم وإن كنت لا تدرين.

كان شرلأقوه ناغوه قد قرر أن يروض الحصان قليلاً ويعود، ولكنه تأخر. عاد بعد الظهر برفقة مامرقوه ومقاي. وما إن وصل الضيوف حتى أَسْتُدعي حاغور. - يا حاغور، قال شرلأقوه، - عليك إيصال هذه القطعة من القماش إلى ناورز حاج عمر. ينتظرها ليسافر إلى البجدوغ. الوقت متأخر قليلاً ومع ذلك عليك إيصالها. ألا يمكنك إيصالها إن ركبت حصاناً جيداً؟ - بكل تأكيد.

- أسرع إذن! حالاً. وإن فكرت بقضاء الليل هناك فلا بأس. تُريح الحصان، وتسهر مع أقربائنا...

عادت أكويز إلى الغرفة بعدما جلست داريت وحدها بعض الوقت. لم تستطع أكويز كتم فرحتها. تشعر بقوة جديدة بعد لقاءها بموسى قرب كومة الحشيش وقد استولت عليها السعادة بمناسبة الفرحة القادمة. اليوم فحسب فهمت أكويز أنها لا تعيش وحيدة في العالم. لن تعرف أبداً أنها هي من اشتراها يوماً من الأيام آل شرلأقوه بثمان قماشة بنطال. ألقت إليها داريت نظرة متسائلة عن سبب طلاقة وجهها، هذه المتصنعة التي تريد لفت الأنظار. كأن هذه القبيحة تزداد جمالاً كل يوم!.. ما كنت لأصبح بجمالها البتة... عصر الحسد قلب

داريت.

- تعالي مشّطي لي شعري بدلاً من أن تقفي كالصنم!
فكّنت أكوّز دون إجابة ضفائر داريت. ومشطت لها شعرها بمشط متباعد
الأسنان. يبدأ قلق ينشب شيئاً فشيئاً في صدر أكوّز: أيّ قماشة كساء يرسلون
بها حاغور إلى بيت ناورز بهذه العجلة دون انتظار الغد، ولماذا حاغور وحده
إلى هذه المسافة البعيدة؟
يمّ تفكرين؟ كفّاك عبثاً بشعري!.. أعيدي ضفّره. - قطعت داريت أفكار أكوّز
القلقة.

ضفّرت شعر سيدها، وعادت إلى موقفها إلى الحائط. مرة أخرى نظرت داريت
إلى الفتاة الرشيقة المحبوبة، وابتسمت خفية. مهما كنت جميلة أيتها المتصنعة
فسعرك قماشة بنطال... ويبيعونك بها!..

أسرع الفارس القادم من البجدوغ إلى باب دار شرلأقوه:
- يا ناغوه، نهنّك، ربيك ألقس تزوج ابنة الأمير بحقوقه. عند الأمير الكبير
حجمقوه كنة.

- ما أسعد هذا الخبر! ليفرحوا دائماً بها!.. - حُيل لشرلأقوه ناغوه أن الخبر
السعيد يرفعه عن الأرض. هيا أبلغوا ابنة آل ناورز. وهاتوا حصاناً مسرجاً
بشارة لمن جاءنا بالخبر!..

-5-

قضى حاغور ليلته في بيت أنزور حتى لا يقال إن زيارته خاطفة. ثم سلك
طريق العودة. وكما قال شرلأقوه الأكبر فقد كان قضاء ليلة بين آل ناورز، بل
ساعة، شاقاً عليه. أضف إلى هذا أنها كانت ليلة خريفية طويلة لم يُغمض له
فيها جفن. وكلما تقدم الوقت زاد قلقه بشأن المهمة التي أمامه. تأسيس أسرة
تدخل فيه منغصات كثيرة غير منتظرة. ومهما جابه من صعاب فقد انتهى من
الهمّ الأكبر. وما بقي هو تحديد موعد قريب. هذا موضوع لا يحتمل الماطلة.
سأنفذ ما طلبت أكوّز خلال يومين أو ثلاثة. تصرفت بحكمة معي في هذه

المسألة يا أكوز. ولكن الحقيقة أي لم أتوقع منك الموافقة السهلة على طلبي. عرفت من النظرة الأولى ما في قلبي.

سار حاغور إلى ما بعد الظهر دون أن يقابل أحداً. من بعيد كان يرى قطعان المواشي على المرتفعات. لم يكن يريد مقابلة أحد في هذه الساعة. وما حاجته إلى الناس يقطعون عليه أفكاره العذبة؟! وقّع حوافر حصانه ينبعث من الأرض وأفكاره تطير حكاية واضحة. يا ربي هل تعرف داريت وعلي سلطان بما جرى بيني وبين ناغوه؟ وما رأيهما في هذا الموضوع؟ أيمكن أن يكون أخيرهما، وأصل أنا، وقد عانده؟ لا تخسر داريت ولا علي سلطان شيئاً في هذا المشروع. مضى عليّ في دارهم سنوات لا شأن لي فيها سوى المواشي. لم أتوجه إليهم بكلمة نائية، ومن جهة العمل لم أقصّر إن لم أعمل أكثر مما هو مطلوب مني. لا أرى فيّ مطعناً بل كل ما فيّ مفخرة.

خرج حاغور من عمق الغابة كمن اقتحم سحابة سوداء وخرج منها. ولكن هذا لم يمنع أن سها عن الأفكار التي هو فيها. كان مهتماً بموقف داريت، لا بعلي سلطان. الرجل في أسوأ الأحوال تجد عنده قلب رجل. ويؤثر فيه شيء من كلامك. وها هو شرلاًقوه ناغوه، حياه الله، كلمه ففهمه. ولكن إذا عاندت داريت فبأي وسيلة أقترب منها؟ ما العمل؟ لن نتصاغر في حضرتهما أكثر مما نفعل الآن. يتذكر حاغور موسى تواضعه أمام شرلاًقوه ناغوه قبل أيام وفي الحال يبدأ يحترق نفسه. أي تصرف ذليل تصرفت؟ كررت من أجل أن أخطو خطوة في الاتجاه الصحيح: "حسناً يا ناغوه، جاهز يا ناغوه..." وحنيت له الرأس الذي لم أحنه طوال عمري لأحد، فجعلت نفسي ممسحة لهم. إن تحولت إلى رتبة نخبه الفلاحين فهل سيتحول باقي الشابسغ إلى تلك الرتبة؟ إن عرفت أكوز سلوكي فبأي عين ستنظر إليّ؟ تطلب مني أن أزورها دون خوف من أحد، وأنا هنا جالس في مقلاة شرلاًقوه الأكبر مستمتعاً. أقلبي نفسي بوعبي.

أطلق حاغور العنان للحصان الذي نسي العدو منذ زمن. وفيما يستمتع بالريح التي تهب مع عدو الحصان ينظر نحو باستوك فيرى فارساً يعدو من جهة باستوك التي يعود إليها هو. توقف حاغور عائباً على الحصان الآخر طريقة

جربه. ووقف ينظر من هو فإذا به يُخلّي طريق العربات إلى درب المشاة الضيق. حُيِّل إليه أنه يعرف وجه الفلاح الراكب. ربما يكون مرسلاً في مهمة كما أُرسِل هو أَمَس. ولماذا الاستغراب؟ ألم يفعل هو أَمَس ما يفعله الفارس الآن؟ قطع الغابة والجبل ليصل إلى آل ناورز.

وصل حاغور إلى المنعطف. خطرت له، وهو يفكر في المرور على بيت رمباكوه، خاطرة باردة: مامرقوه ومقاي! ما سبب مجيء المجرمين إلى دار شرلأقوه بعدما انتشرت أخبار مقتلهما؟ هذان لم يرهما أحد يدخلان دار شرلأقوه في عز الظهيرة، بل في الظلام. ليسا ممن يأتيان دون هدف مسبق. ولماذا أُرسِلت في مهمة عاجلة إلى آل ناورز؟..

نسي حاغور موسى أفكاره بسبب وقْع الخوافر الذي صدر من موقع قريب، كمن هبط من السماء ووقف أمامه. نظر فإذا فارس أنيق مدجج بالسلاح وقف أمامه على مسافة قامتي حصان:

- رافقتك السلامة يا زعيم الخير!.. ورفع يده اليمنى تحيةً.

- حياك الله يا أخي الصغير، - ربما هو الآخر مرسل مثلي في مهمة، قال حاغور بعدما تفحص الفارس: شاب جميل بوجه فتاة. يبدو ماهراً في الفروسية بما لا يتناسب مع عمره، كأنه ولد على صهوة الحصان. مظهره مظهر ابن أمير مدلل لولا قُبَعته الفلاحية المهترئة. وتبدو معه، بالإضافة إلى الخنجر والسيف والمسدس، سهامٌ قوس من الجعبة. - وأنت مع السلامة أيها الفارس!

- حياك الله يا أخي الكبير، - حُيِّل لسيصار وهي تحدّث نفسها أن الفارس أمامها ليس كبيراً في السن فتخاطبه بـ "زعيم الخير". - كأن الفلاح الفارس عرفني إذ بدأت وجنتاه تحمّران.

- ماذا يا أخي الفارس، ما العار الذي جرى على تلك التبة عما قليل؟ - والله لا أعرف يا أخي الكبير. - قالت سيسار وقد عاد إليها الوعي، وأنا عِثْتُ على هذا الفارس جربه، إنه عديم الرحمة.

- أكثر من عديم الرحمة. ولولا أنني على عجلة من أمري للاحقته... وأنت من أين تأتي وإلى أين يا أخي الصغير؟

- أنا في طريقي إلى البجدوغ يا أخي الكبير، - أذهب إلى الأمير بحقوقه لأجلد ظهره.

- قلت لي: لأجلد ظهر الأمير بحقوقه؟! ابتسم حاغور مستغرباً ما يسمع، - ولماذا ظهره؟ اقطع رأسه وكفى!..

- هذا لاحقاً يا أخي الكبير. يسرني أن ينتشر خبرُ جلدي الأمير في البجدوغ كلها. خيرٌ للمرء أن يفقد رأسه بضربة واحدة من أن يموت من عار الإهانة. مع السلامة يا أخي الكبير. - أرخت سيسار الزمام، وحنّت ظهرها قليلاً، فانطلق الحصان كالطائر.

تابع حاغور موسى الفارس بعينه غير مستوعب ما حدث. ثم تذكر خبر جلْد أحد الفرسان الأمير بحقوقه أمام باب داره، الذي شاع في الشابسغ. تابع طريقه لائماً نفسه على عدم سؤال الفارس عن اسمه، داعياً له بالسلامة، وصورة الفارس الشاب لا تفارق عينيه.

وصل حاغور إلى أطراف باستوك والشمس انحدرت وعششت على جبل يباو. نظر باتجاه دار شرلأقوه حالما صارت القرية في مدى رؤيته. ظهر أناس وفرسان يبعثون على القلق. والناس الذين لا تسعهم الدار منتشرون في الحي. عرف حاغور أن الأمر يتعدى القلق إلى معرفة أن لا شيء يسر في تلك الناحية. وارتسمت أمام عينيه صورة الفارس وارتقاؤه المعيب ظهر المرتفع في طريق آل ناورز القريب. ولما أسرع بالحصان إلى أقصى طاقته، ونظر إلى المقبرة رأى أناساً يحفرون قبراً. لم يبق شكٌ في أن في القرية مأتماً. وكان واضحاً لحاغور أن مصيبة في دار شرلأقوه. وليس من الصعب معرفة أن من اجتمع له كل هؤلاء هو من المتنفذين.

سأل حاغور عجوز آل كوبله إذ لم يجد غيرها:

- ماذا جرى يا أماً في القرية؟

- مصيبة كبيرة، هذا الصباح حمل حصان شرلأقوه ناغوه صاحبه قتيلاً.

- ومن القاتل؟

- لا أعرف يا حسرتي... ولا أحد يعرف... مأتم كبير لآل شرلأقوه.

ترجل حاغور قبل أن يصل تماماً إلى حي شرلأقوه. ربط الحصان إلى أول مرتبط وجده. ودخل الدار على رجليه. من جانب يقف آل شرلأقوه في صف، والأطراف الثلاثة الأخرى مليئة بالناس حتى لا موطئ قدم فيها. ومن البيت يصدر نواح نساء عالٍ. وما إن فكر أن يدنو من علي سلطان ليعزيه حتى وصلت مجموعة من المعزين فانضم إليها حاغور، وبقي واقفا مدة معتبراً كلام أكبر أعضاء المجموعة سناً إلى آل شرلأقوه كلامه أيضاً. ثم انتهى الكبير من شعائر التعزية، وتوجه لمصافحة من يتلقون التعازي، فتردد حاغور. وبعدما انتهوا توجه إلى علي سلطان وقال له:

- ما جرى لنا مصيبة كبيرة يا علي سلطان، جعلها الله خاتمة الأحران.
- ثم انضم حاغور إلى الفلاحين. كان يود سؤال أحدهم عما جرى، فبحث عن تحخوخوه ولكن لم يره بين من وقف معهم. وفي لحظة توجهه إلى أرسى يسأله رأى تحخوخوه بين الفلاحين في فناء المواشي فتوجه إليه. وفعل الآخر مثله، ثم تنحيا جانبا:
- الحمد لله على السلامة... - قال تحخوخوه وعيناه تلتمعان خلافاً لطبيعته،
- يهمني أنك وصلت أخيراً. - ماذا كان عندك من مهمة حيث كنت؟
- أرسلوني في مهمة، لا شوقاً إلى رؤية آل ناورز. كيف قُتل شرلأقوه؟
- إن كنت تعرف فأنا أعرف... ما يُدريني؟
- والله ما جرى عجيب.
- لا عجيب في الموضوع. من ينهب تركة الفقير يكافأ بمثله. الأفضل يا حاغور أن تسأل عما جرى لأكوز.
- وماذا جرى لها؟
- الليلة خرج بها مامرقوه على حارك الحصان.
- غامت عينا حاغور، وصرخ وقد خيل إليه أن الأرض والسماء تدوران به. ودخل إلى الإسطبل. أمسك بمعلف الحصان بيديه، ووقف بعض الوقت مديراً ظهره. ثم سأل من مكانه:
- ألم تسع بطولئك أن تمنع سرقة أكوز؟

- وهل عرفت!.. صباحاً فقط عرفت... ما جلبته لي رجولتي بالنسبة إلى آل شرلأقوه أمام عينيك.

- ماذا تقول؟.. - التفت حاغور ذاهلاً.

- ألم أقل لك إن من يسلب الفقير تركته يُكافأ بمثله.

- هل رآك أحد؟

- لم يرني إلا السماء والشمس. وأظن أنهما وافقتاني على ما فعلت. ليس في العالم من أخبرته غيرك، ولن أخبر، كنت سأخبر أكويز...

- لا فائدة من وقوفنا هنا... - رفع حاغور جفنيه الثقيلين، - لا أظن أن مامرقوه وجماعته تجاوزوا الساحل.

- هل تعرف إن ذهبوا إلى الساحل؟

- لا مقصد لهما غيره من أجل أكويز. - لا، أنت لا يجوز أن تغادر. لا يخطر

لك مثل هذا. - لماذا تجعل آل شرلأقوه يشكون فيك؟ وفي جميع الأحوال

يبحثون حالياً عن متهم. - لن يستطيعوا اتهامي أنا. هذا الصباح خرجت من

دار آل ناورز. - سأخبر رمباكوه وشباكوه. - بلّغهما أن يخبرا نارج إن كان في

الأبزاخ أخبار عن أكويز. عليّ أن أجد مامرقوه وصاحبه ولو ابتلعتهما الأرض.

وإن سألا عني فلا تكتمهما أي أبحث عن أكويز.

...

خرج حاغور من جانب الدار المتجه إلى نهر إيل، متجنباً الطرف الذي يتجمع

فيه الناس، وركب الحصان الذي تركه في الحلي المجاور.

بعد منتصف الليل بمدة طويلة، دنا حاغور من باب دار رمباكوه بجقان،

ونادى. وبعد مدة انفتح الباب، وخرجت ابنة شحبه:

- تفضّل يا ضيف!

- عامر يا أختي، كنت أريد بجقان.

- رمباكوه خرج منذ أكثر من ثلاثة أيام برفقة جمكوي زبش.

- إذن بلّغي بجقان أن حاغور كان يريده.

- أنت حاغور موسى من باستوك؟

- أنا يا أختي إن كنت تعرفيني.
- سمعت اسمك كثيراً على لسان رمباكوه. تفضل يا حاغور. حان وقت عودة رمباكوه وصاحبه. أنتظرهما.
- حياك الله يا أختي، أنا أمامي مهمة عاجلة: عليّ أن أصل إلى الساحل. --
- أظن أن بجقان ورفيقه يتابعان المهمة نفسها.
- هل ظهر ما مرقوه في نواحيكم؟
- لم يظهر فحسب، بل اختطفوا فتاة من قرينتنا على الحصان.
- يا للعجب!.. يا للمسكينة الصغيرة! - صرخت ابنة شحبه منفعلَةً بما سمعت. - ما أبأس المرأة التي ولدتها. أما كفاكما أيها المجرمان؟ ما عمر الفتاة؟
- ربما في العشرين. - أستودعك الله إذن يا أختي. ربما يكون بجقان في الساحل حيث أسافر... - ارتمى وقع حوافر حصان حاغور على الطريق المؤدي إلى التل.

-6-

- أوصل مامرقوه ومقاي أكوزَ إلى الساحل دون أن يدعا الحصانين يلتقطان أنفاسهما. قررا أن يذهبا بها إلى السفينة القادمة من تركيا ويُنهيها المسألة فيها. وهي السفينة التي فيها التاجر حسن مراد. متى صارت أكوز في يده فلن تقع عينك عليها ثانية كما لو أُلقيت بصخرة في الماء.
- ما إن بدأ النور ينبلج حتى بدا البحر من بعيد. مرّ مامرقوه بعيني صقر على بضع السفن الراسية في الميناء. ولما رأى السفينة الراسية أسفل الصخرة العمودية قال لمقاي وقد نسي مشاق الرحلة الليلية:
- ها هي سفينة حسن مراد راسية. - لم نرهق خيولنا عبثاً. كان أخبرني أنه سيكون على الساحل خلال يومين أو ثلاثة. ليس حسن مراد ممن يطلقون الكلام على عواهنه. لم يخدعنا يوماً واحداً خلال السنوات الطويلة التي تعاملنا فيها.
 - إن عجزت الخيل عن التنفس، فالأفضل أن ننهي رحلتنا. قال مقاي، إن

أنهينا أعمالنا قبل أن يلحق بنا مطاردونا فليقفوا على رؤوسهم إن شأؤوا!.. - لا أحد يمكن أن يلحق بنا الآن. ألا ترى كيف دفعتهم إلى إرسال حاغور في مهمة!.. - قال مامرقوه فاضطربت أكوذ على حارك الحصان. وقالت شيئاً غير مفهوم، - ما الذي يزعجك يا أختي الصغيرة؟ ما الذي لا يعجبك أيتها المغفلة الصغيرة لا تعرفين أننا ننقلك إلى بيت من بيوت الجنة؟ ستتذكريننا كثيراً في جنتك الجديدة بالقياس إلى جهنم شرلاًقوه. وستدعين لنا إلى الله.

- ارفع عنها الكمامة ودعها تنفّس، - التفت مقاي إلى أكوذ. - أيّ مصيبة تريدني أن أوقع نفسي فيها بأن أنزع الكمامة فأسمع منها اللعنات؟.. - لم يقبل مامرقوه، - متى صارت في السفينة وانصرفنا فلتقل بحقنا ما تشاء!.. ألا تعرف يا مقاي أنني لا أتحمل شكاوى النساء في مثل هذه المواقف!..

- لا أطلب منك أن تدعها تنفّس إشفافاً على المخلوقة التي على حصانك، - ابتسم مقاي، - أقول هذا لأنها متى تنفست وارتاحت فسنحدد سعرها بحسب مظهرها الجديد... ولا تقف إلى حسن مراد فتتحلّ معه بالشهامة. لا تدعهم يظنوننا سُدجاً، فيسخروا منا! لا تنزل عن السعر الذي تحدده. وإن شئت ساومته أنا. يكفي ما أعطيناه مجاناً. علقنا به نريد أن نُغنيه فنردد معه ما يقوله، ونوافق على ما يفعله. هل سألته بم يبيع أمثال هذه في تركيا؟

- وما شأنك بما يربح منهم في تركيا! - وهذا صحيح، ولكن مع ذلك يكفي ما خدعنا. - قال مقاي، ونظر نحو السفينة، - ماذا أرى!.. كأنهم ينوون الإقلاع!

صار الفارسان في المضيق بغلوة حصان واحدة. كان السوق الساحلي في أوجه رغم أن الوقت مبكر. الناس في المضيق الجبلي كخلية نحل. الثيران والخيول، والحمالون، والبائعون والشارون، والسفن على البحر. متى انحدرت من الجبل إلى السهل صرت في عالم آخر، وداخ رأسك لا تدري لإلام تنظر، وماذا تسمع؟ لم يكن مامرقوه ومقاي معنيين بازدهام السوق مهما بلغ. كانت السفينة مبتغاهما، ولذا تجاوزا السوق إلى السفينة. لم يكن أحداً يظهر في جهة السفن

التي وجَّها إليها الحصانين. وبعدها وقفوا بعض الوقت أشار مامرقوه بالسوط، رافضاً الصباح:

- لا أعرف ماذا جرى لهم، وإلا فليست هذه عادتهم. - يبدأ القلق يساور مامرقوه، وأحياناً لا يعرف ماذا يجري وراءه فيلتفت.
- أيعقل أنهم لم يرونا؟

- رأونا، عرف حسن مراد نيتنا فبدأ يلعب معنا من أجل السعر. إن وصل بك الأمر إلى هنا فنحن نعرف ما نفعل أيها الخبيث. تعال، نتظاهر بالانصراف، ونرى ما يفعل. - انعطفا وانصرفا.

وفي الحال شُع من جهة البحر بضع صفرات. لم يلتفتا. مرة أخرى ارتفع الصغير أقوى من سابقه. لجم مامرقوه الحصان ونظر فرأى قارباً أطلقوه من سفينة أخرى. ومن تلك الناحية يشيرون إليهما بالتوقف. وقبل أن يسبح القارب على البحر شوهدت من سفينة حسن مراد الإشارة نفسها.

- هذه هي المعاملة التي تستحقها!.. - قال مامرقوه وهو ينظر إلى القارين المتنافسين، وابتسم. - الآن يا مقاي صار بإمكانك طلب السعر الذي تريد. لا حاجة إلى المساومة.

سبق قارب حسن مراد الآخر وإن تأخر عنه في الانطلاق. نزل من القارب واتجه إلى حيث مامرقوه ورفيقه دون أن يعباً بالقارب المنافس، ثم عانقهما كأنه لم يلتق بهما منذ سنوات. ووجد الفرصة لتفحُّص الفتاة التي أنزلوها من الحصان. وفي الحال أخبر بالتركية من خرج من القارب الآخر أن لا حاجة لمجيئه فهذان من أصدقائي.

- والسعر؟ سأل حسن مراد.

- خمسمئة وخمسون بارة. حسم مامرقوه السعر. أكوز ترتجف غير قادرة على الكلام، بل من الصراخ. صارت قامتها النحيقة وساقها عاجزة عن تحمل المأساة الإهانة. ومامرقوه يمسك بمعصمها كأنه سيكسره. حدد حسن مراد من مكانه سعر الفتاة في تركيا. ما أكثر ما شحن من فتيات شركسيات عبر البحر غير أنه لا يتذكر أنه شحن مثل أكوز. حقاً

إنها مرتعبة الآن ولكنها ساحرة متى صحت. قال حسن مراد في نفسه: أعطيكما السعر الذي طلبتماه، ولو طلبتما أكثر لدفعت. غريب أمر هؤلاء الشراكسة. لا يعرفون البيع والشراء. خلقهم الله للبطولات فحسب. ولا يبدو على وجوههم أي قلق رغم ممارستهم السرقة. مطمئنون كأن ما يبيعونه رأس ماشية.

مدّ حسن مراد ما طلباه دون تعليق:

- هيا يا أختي، لتخطي خطوة خير إلى تركيا البلد المسلم الذي تقصدينه. -
مدّ مامرقوه رسغ أكوز إلى البحر الذي يلعب بالقارب.
- نان، ناني!.. صرخت أكوز.

تناول الرجلان التركيّان يد أكوز ورميا بها إلى القارب وهي تصرخ وتبكي. ولم يتأخر مامرقوه ومقاي في الركوب. ولم يعودا من حيث أتيا، بل من أسفل السوق حيث الازدحام أقل، وحيث كان حاغور قبل لحظات.

- مامرقوه، هات نصف ما أعطوك، - قال مقاي قبل أن يصلا تماماً إلى السوق.

- ألا يجب أن نتقاسم مع شرلأقوه إن أعطيتك النصف؟

- نعم، صحيح، نسيت شرلأقوه... هل علينا أن نرّج على شرلأقوه في طريق عودتنا؟

- ما الأمر يا مقاي؟ هل أرعبك شيء؟

- لا، ولكن الأفضل ألا ندخل إلى باستوك الآن... ولماذا نتوجه إلى السوق؟
- أوافقك على موضوع باستوك، اتفقنا مع شرلأقوه أن يوافينا غداً في الغابة. ولا خوف من التجول في السوق. لن يخمن جمكوي الذي لا يدع لنا طريقاً أننا هنا. الأرجح أنه يبحث عنا في الأبراخ. - ضحك مامرقوه من أعماق قلبه. -
ليبحث إن شاء إلى أن يغمر الدم عينيه!

- علينا أن نتصرف مع الجمكوي يا مامرقوه!

- اعتبر الموضوع منتهياً: لا يحتاج إلا إلى الإمساك به مرة في البرية.

لو عرف مامرقوه أنه يخطئ الآن في شأن زيش لما فضل على معرفته شيئاً آخر.

حين راقبا يوماً وليلة المكان الذي حدده رمباكوه تبين أنهما جاءا اليوم إلى السوق الساحلية، ويذرعاها طولاً. لم يتركا مكاناً يمكن أن يكون فيه مامرقوه، بل رصدوا بعض البيوت التي يمكن أن ينزلا فيها. وتبعاً للخطة التي رسمها رمباكوه لم يتكلما إلى أحد بشأن مامرقوه.

- لا فائدة يا زعيم الخير ممن نلاحقه، - قال زيش يائساً، والزرد الذي يلبسه منذ أيام يثقل عليه، - أظنهما اختبأ في بيت أحد الأمراء - النبلاء. أتعبتك بلا فائدة.

اكتفى رمباكوه بالالتفات إلى رفيقه دون كلام. حُيِّلَ لرمباكوه أنه يسمع ضجة في أسفل السوق: انتفض برأسه، وسمع صوت إطلاق نار. كان البائعون والشارون اعتادوا على إطلاق النار في السوق فلم يرفع أحداً رأسه. ولم يجعلوا من الصوت خبراً. مرة أخرى صدر صوت طلقتين متتابعتين، نظرا فرأيا الفارسين مسرعين يصرعان بصدر الحصان من يعترضهما.

- مامرقوه! - لحق رمباكوه بالفارسين.

رأى مامرقوه الفارسين أمامه، فجعل حصانه ينبطح واختبأ هو وراء عربة حشيش. أما مقاي فوجد نفسه مواجه رمباكوه لا يعرف أين يذهب. أسرع زيش ملتفتاً حول عربة الحشيش فرأى فارساً وراء مامرقوه. ظن في البداية أنه مقاي. أعاد زيش حصانه مدركاً أنه لن يلحق بهما إن تابعهما، وارتمى في المضيق ليقطع عليهما الطريق. بعد مسافة رأى نفسه عند المنعطف وجهاً لوجه أمام من غشي الدم عينييه مامرقوه:

- يا مامرقوه، ألم أذكرك بأني لن أدعك على قيد الحياة!.. - وقعت ضربة سيف زيش على مجمع كتف مامرقوه. ورأى المضروب واقعاً تحت بطن الحصان. انتفض مامرقوه قبل أن يقع على الأرض واستجمع آخر قواه، فمدّ يده يائساً حانياً ظهره إلى الجرح. نظر إلى الأصابع التي يقطر منها الدم غير مصدق أنه في مواجهة الموت. ولم يكف هذا بل مدّ اليد اليسرى إلى الجرح. ركض بضعة خطوات متعثراً بيأسه، وسقط. ثم تعب بعد أربع خطوات كالوحوش التي تُقطع أردافها. جلس النبيل مامرقوه والعنق الفاقد للقوة عاجز عن حمل الرأس.

طوال هذا الوقت كان زيش يتابعه فارساً، ولم يفكر في ضربة سيف ثانية. ولما رأى جعبة المصاب تقطر دماً استدار زيش بالحصان، وصرخ إلى من وراءه:
- يا حاغور، ربماكوه يلاحق مقاي، سأنضم إليه.

- أين أخذت أكوز؟ - ارتقى حاغور من صهوة الحصان بلا وعي، وهجم على لَبّة مامرقوه.

- لماذا لحقتني يا حاغور بالنحس - فتح مامرقوه جفنيه بمشقة.
- لست من لحق بك، بل أنت. أين أكوز؟ هجم مامرقوه الذي يُتَضَرَّ أكثر من مرة على حاغور. ثم بدأ حاغور يتوسل إليه حين أدرك أنها النهاية: - يا مامرقوه أتوسل إليك باسم حليب أمك أين ذهبتما بأكوز؟ لا تفارق الحياة قبل أن تُخبرني. أخبرني بمكان أكوز وسأدعو لك طوال حياتي. قل لي.

- يا حاغور - مرة أخرى رفع مامرقوه جفنيه بصعوبة، - حقق لي رجائي أخبرك... إحلف لي قبل كل شيء... أُهي حياتي هنا...

- أقسم لك أن أحقق رجاءك، قل بسرعة أين أكوز؟
- أتوسل إليك ألا تدع جثتي للوحوش. أدفنوني كسائر الناس... هل مقاي حي؟

- لا أعرف؛ ربماكوه من يلاحقه.

- مقاي رجل قذر... - يعرف المكان الذي خَبأت فيه كل ما جمعته في حياتي فلا تدعه ينهني. لا شيء يردع هذا الخبيث. لا تدعه يبعث بجثتي... في غابة شرلاًقوه حيث يسقط نهر إيل، مقابل الصخرة الكبيرة، هناك شجرة بلوط كبيرة دفنت تحتها كل ما عندي من ذهب وفضة ونقود، أهبها لك كلها. لا تدع الوحوش تأكل جثتي.

- أكوز أين هي؟ قل بسرعة!

- هل تقف سفينة مقابل الصخرة الكبيرة الناتئة من البحر؟.. - حاول مامرقوه أن يرفع رأسه وينظر، ولكنه لم يستطع، - في تلك السفينة أكوز... - لم يدع الموت يُكمل كلامه.

أسرع حاغور موسى إلى صهوة الحصان. كانت السفينة تغادر ساحل الأديغة.

تابعها ولكن السفينة تابعت. وبعد أن وقف حاغور مدة لا يعرف إن كان حياً أم لا، أعاده وقع حوافر رمباكوه وجماعته إلى الحياة.

الفصل الحادي عشر

-1-

في بيت الأمير الكبير حجمقوه فرخ. حين قيل إن ابنه الأكبر تزوج نشأت في البجدوغ منافسات يغلب عليها طابع الرياء بين الأمراء - النبلاء. والفلاحون الأغنياء الخارجون من صفوف الفلاحين الفقراء الذين يعيشون بمجهودهم البشري فحسب، دُعك من النبلاء، يحاولون تقليد الأمراء الذين يسندونهم، فيوهونك بأنهم يأتون بكل ما عندهم: ما تستطيع الثيران جلبه تجلبه، وما يسوقون من رؤوس الماشية يسوقونها، كأن عيشة الجنة التي يسمعون بها تحققت لهم، ومعهم عازفو الشبابات، فاضوا على جهة طؤابغو معاً. بعضهم على الخيول، وبعضهم على رجليه، حتى لَتَقُول إن سماء الخريف لن تتسع لهم. ومن بعيد يأتي تباعاً الحمشي والججنائي. وعلى مداخل القرية الأربعة يقف مندوبو الأمير الكبير تحت حراسة النبلاء: يستقبلون الضيوف بمراسم التحية والترحيب، ويرون بأنفسهم هدايا العروس، كانوا يبلِّغون الأمير الكبير بها، سواء كانت قليلة أم كثيرة. ويحفظونها في قلوبهم، وما في عربات الثيران يجمعونه في الريف القريب من القرية موجّهين إياها نحو دار العرس. ومن طؤابغو يأتي قليل من الفلاحين حاملين الخراف على أكتافهم.

خرج ألقس على مدخل القرية من الذين يزفون العروس على أغاني تبلغ عنان السماء، وتوجه إلى ترقان، الأخ الأكبر من الإخوة الثلاثة مشقوه، متخذاً إياه إشبينا¹. استغرب الناس اتخاذ ألقس الأمير الشاب من الفلاح ترقان إشبينا

¹ يُقصد بالإشبين هنا، والأصل في اللغة "شبين"، وإنما نراعي الاستعمال الدارج، العادة الأديغية القديمة، وهي أن الشاب المتزوج كان يحلّ ضيفاً على صديق له طوال أيام العرس السبعة، ثم يعود إلى بيت أهله بمراسم خاصة.

أكثر من استغرابهم قراره المفاجئ بالزواج من جانسور ابنة الأمير بحقوقه شراندوقوه. ولما وصل الخبر إلى السيدة الكبرى لتناي، والدة ألقس، ارتعبت، وصرخت أمام الأمير الكبير:

- يا لمصيتي، الأمير الشاب قطع رؤوسنا!.. ألم يجد في القرية نبياً يلجأ إليه بدلاً من ابن أخت فوجه لامجي؟!

- اهدئي لحظة، - اعترض الأمير الكبير على كلام امرأته، - وهل عجيب إن كان فلاحاً؟ أليس الفلاحون من يأتمر العالم بأمرهم الآن؟ أنسيت كيف طرد هؤلاء جدك على حصان عار من بلاد البجدوغ؟ - ولكن أليس عاراً أمام من يسمع الخبر؟

- ليس عيباً يا ابنة وجبش أن يلجأ إلى غيره في خير أو اضطرار. إن كنت تتذكرين فقد أوصانا والذي الحاج ما دام حياً معنا، ألا نقاطع فلاحاً في أزمة. وفي الضرورة ابتسموا لهم وأنتم تعاونوهم. كان يقول لنا: ما من أحد أسهل إرضاءً منهم. يعيش الفقير حياته وهو يشتهي ما ليس عنده. ورغبوهم عند الحاجة. وعاقبوهم دون أن يعرفوا المصدر. اجعلوهم تحت نعالكم ووجوههم في الأرض، وهم لا يعرفون من يمشي على ظهورهم. احرصوا عليهم، ففي النهاية هم سندكم في الضرورات. وهم من ينهبونكم.

- جعل الله آخره حمينا خيراً!.. لم يكن في البجدوغ مثيل له. وكان والدنا يشهد أنه لم يُخلق أحد بذكائه. وأنا عايشته... إن كان هذا رأيك فربما اتفقتما أنت والولد. لا مشكلة إذن.

- لا، لا علم لي بتصرفات الأمير الشاب. وإن قالوا: من يعيش ألف عام فقد يخطئ في أحد الأعوام فمرحي للولد. لن تكون نهايتنا على ما فعل ألقس. وفي البجدوغ كثيرون سيغتابونا ويهرسوننا بأضراسهم. - ليس هؤلاء من علينا الاهتمام بهم. صارت تقوية جذورنا عادة لنا، نحن آل حجمقوه، فأنا راض عن ولدنا الأكبر. المحيطون بفوجه لامجي الكثيرون، بمن فيهم شباكوه الناختوي، سيرعون ولدنا، وإن لم يرعوننا نحن.

احتدت لتناي حين عيها الأمير الكبير حجمقوه بالعار الذي لحق بأهلها

نتيجة غضب الفلاحين، والذي لا يزال خبراً يدور في المضافات، ولكنها تفكرت في الأمر ففهمت أنه لا يقصد سوءاً. تذكرت الابن الأصغر بالتجري في غمرة افتخارها بحكمة الابن الأكبر ألقس ورغبته في توطيد مكانة الأسرة عن طريق القربات، فبدأ فرح لذيذ يسري في القلب والعروق. وعاد الدم إلى الوجنتين المليئتين اللتين كان الدم هرب منهما. نهضت ترفع طرف ثوبها الخمري المنسدل على الأرض، والزوار الذهبي يرتفع عن الخاصرة بما لا يتناسب مع عمرها منسجماً مع الردفين اللذين لا يزالان متينين. الفرحة الأولى لأسرتها الغنية جعلت عينيها تفرحان من أعماقهما. وكما كانت تفعل في أيام زواجها الأولى ألفت إلى زوجها نظرة خجولة فرحة. وأصلحت باليدين البيضاوين البضتين غطاء الرأس الحريري على أعلى جبينها.

- إن كان هذا رأيك يا قانشاوا، - بدأت السيدة لتناي الكلام المعبر عن الرضا بصوت ناعم، فليذهب صراخي دون تفكير إلى الجحيم. اغفر لي هذا العقل النسائي. يقولون فينا عن استحقاق: غباؤنا على قدر طول أثوابنا.

- أرجوك، لا تنتهي نفسك بهذه القسوة يا ابنة وجبش، - ابتسم أمير البجدوغ الكبير، - لست على هذه الدرجة من الغباء. وأحياناً، تتذكرين هذا، تعلميننا ناسية العرق المؤنث الذي تنتمين إليه. نعم، حقاً لا نزعم أننا لا نجد الحكمة عندك، ولا يلعنك الله بداعي أنك امرأة...

- إن كانت نظرتك إليّ هكذا فأنا لا أندم على ما قلت لك بشأن لابسات الثوب الطويل. واعلموا يا جنس الرجال أنكم إذا أصغيت أحياناً إلى النساء فلن تحسروا. - أنا راضٍ عنك من هذه الناحية يا ابنة وجبش. غير أنني لا أعرف إن كانت عروستنا الصغيرة ستصبح مثلك.

- لماذا لا تصبح؟ إن سألت عن أمها فهي واحدة من أفضل نساء البجدوغ. وإذا كان طبع الأب يظهر مرة في الابن في اليوم، ألن تكون البنت على تفصيل طباع أمها!... لا جدال في هذا!.. عادت ذكرى خروج لتناي من الغرفة ليلة البارحة، وقد غمرتها الفرحة، إلى ذهن الأمير الكبير دون أن يعرف السبب، فسرت ابتسامة خفيفة على الشفتين رغم حضور الأمراء، ووقوف النبلاء في

الخدمة. ثم أعاد التفكير في ما قاله للمرأة في شأن الفلاحين فبدأت وجنتاه النحيلتان تحضران لائماً نفسه على ما قاله. لماذا جلستُ في حضرة لابسَةِ الغطاء أتوسل إليها كأن ابنها ارتكب خطأ ما؟! متى أصبح آل حجمقوه يستشيرون النساء في ما يفعلون؟ إن اتخذتَ منهن موضع ثقة فقلتَ لهن اليوم شيئاً فسيطلبن غداً أن تبوح لهن بما في قلبك. يا ربي هل سيتحلى الولد بالرجولة حيال زوجته؟ يجب أن أنصحه ولكن لا أعرف الذريعة، وإلا أركبها على رأسه من وراء الابتسامات، وانتهى أمره تحت تأثير سحر النساء، وسلبته إمرته من لم يشرفوها بقبعة الرجل. بأي حجة أنقل إلى الولد هذه الأفكار؟ هل أنقض موقعي ككبير، وأخالف الروح الأديغية فأحدث إليه؟ أقول هذا ولكن كيف نصحني الوالد هذه النصائح قبل أن أجد الفرصة للدخول إلى العروس؟ ألا تكون زوجته أديغية فينقض الروح الأديغية؟ ليسليني الله مكاني إن لم يقولوا الكلام نفسه لابنة الأمير بحقوقه قبل أن تُزفَ؟ لا يتورع آل بحقوقه عن شيء من أجل الاستيلاء على الإمرة!.. أما الأمير نفسه فهو حلمه. كان قال لي قبل أيام وهو يعرف أننا سنصبح أقرباء إنه رأى كرسي إمرتي قد انثقب!.. يموت على إمرتي كأنه قادر على الاحتفاظ بها إن قلّده إياها. يا حسرتي يا صغيري، ما أكثر من كانوا طامعين في المنصب، وماتوا قبل أوانهم!..

زال استياء الأمير قانشاو الذي كان قد بدأ نحو الزوجة حين تكلم في سرّه مع الأمير بحقوقه الذي صار قريبه. وعاد إلى راوي الأخبار الجالس في غرفة الأمير مع المهنيين. قرر أن يلتقي الليلة بالأمير الشاب حين تهدأ القرية. لن يسمح لأحد أن يراها إن أمكن. ألم يقيم الأمير بعمل أشدّ سرية من هذا. وإن رآه أحد فهل سيُسَمِعهم ما سيقول لابنه. وإذا كان الحديث بين شخصين لا يعود سرّاً فسيؤكد على الولد سرّيته.

دخل مرزيج إلى الغرفة كعادته كلما مضى بعض الوقت.

- أيها الأمير، جاء الأمير قزانقوه مع ثلاث عربات من الحبوب وخمسين رأساً من الماشية، - تراجع مرزيج ووقف إلى اليسار، مفسحاً الطريق للأمير ومرافقيه. - بارك الله لكم في عروسكم يا قانشاو، - قال الأمير قزانقوه مستمتعاً

بالصوت الحاد المناسب مع العمر. - اجعلنا، ليس آل حجمقوه وحدهم، في عداد المسلمين في كل إقليم الأديغة، ممن خطوا خطوة مباركة.

- آمين! - ردد من نهضوا احتراماً للضيف من كبار صغار.

- حياك الله، - أجاب الأمير حجمقوه الكبير، - نرد لكم الزيارة في مناسبة مماثلة إن شاء الله. وليردّ آل حجمقوه مئة ضعف مما قدم لهم آل قزانقوه. ومع كونه أميراً كبيراً فقد عاد إلى مجلسه بعدما جلس أكبر الواقفين عمراً.

دار حديث الحاضرين في مجلس الأمير الكبير في إقليم الأديغة، ووصل إلى القمر، حين دخل النبيل الحارس مرزيج:

- أيها الأمير، جمه تناو، أحد رجالات الأبراخ، سمع في خلال عودته من كوبل بخبر فرحتكم فعرّج عليكم يهنئكم.

ظهر جمه تناو من الباب ضخماً، مبتسماً من خلال شاربيه، فنهض الجميع لاستقباله.

- ما الأمر يا حجمقوه، أنظر إليك فأراك قد هرمت جداً؟ - بدأ تناو بالمزاح.

- لا تأخذ يا صديقي الشيوخوخة طامعاً فيها ولو كانت من الذهب.

وحصانك لا تبدّله لتوقفه. ومع أن عندك الآن كنة فأنا جاهز لأن أرافقك إلى

زفاف متى أخبرتني. المزاح يحبه الله. لير خير كنتك يا قانشاو! لا أعد زيارتي

انتهت هنا. كنت ماراً من هنا فعرّجت عليكم. والد العريس من أصدقائي،

ووالد العروس كذلك. لتترك عقب خير حيث خرجت، ولتضع قدم خير حيث

أتت. ونحن ليجعل الله لنا بداية خير في هذا المكان. وليكن خيراً على كل

المسلمين!

- آمين!.. - ردد الواقفون معاً من قلوبهم.

كانت العادة في المناسبات أن يُخلّي المهنتون المكان لإفساح المجال لغيرهم بعد

أن يقولوا ما عليهم، فخرج عدد من النبلاء، فاتسعت المضافة. منذ الصباح

لا يعرف باب الأمير الكبير راحة. يتعاقب المهنتون واحداً تلو الآخر. يكتيف

الحارس مرزيج الصوت تبعاً للقادمين؛ فمتى تفحصت وجهه عرفت القادم.

وتحكي عيناه مقدار هدية العرس، أكبيرة أم صغيرة؟ وكذلك تبدو من كلماته.

بدأ القلق الخفي يظهر على الأمير الكبير أكثر فأكثر حين بدأ النهار يقترب من الليل. دخل الكثيرون إليه غير أن من ينتظرهم لم يظهروا. لم يعرف سبب تأخر وصولهم. كان ينتظر من مرزيج، مع كل انفتاح للباب، أن يعلن قدوم وفد آل شرلأقوه، ولكن مربيّ الأمير الشاب لا يظهرون. قال لنفسه: الله يعلم فيم قانشاو مشغول، وابتسم. هل يبلغ أهله أن عنده فرحاً؟ هو من الأدعياء، يقلد الأمراء فيحمل الفلاحين على أن يقدموا الهدايا. وتبعاً للمحصلة يجهز نفسه للقدوم إلينا. الحقيقة أننا نحن أيضاً لم نتصرف معهم كما يجب. كان علينا إبلاغهم حين سمعنا بنية الولد. من عرف أن الأمور ستجري بهذه السرعة؟ حتى نحن سمعنا أغنية الزفاف قبل أن نجد الوقت للتفكير. وفي الحال أرسلنا الفرسان للأهل. ومن أرسلناه إلى آل شرلأقوه عاد وجددنا مهمته إلى مكان آخر. سيتأثر الأمير الشاب إن سمع أن جماعة شرلأقوه لم يصلوا. كان بإمكانهم إرسال وفد شبابي بقيادة علي سلطان ريثما يرتبون أمور الوفد الرسمي الآخر. الشابسغ الصغار خفيو الحركة غير أن انطلاقهم صعب. عليهم قبل الانطلاق إرضاء كل من لهم علاقة بهم. وإذا لم يكن طحين الباستا غير جاهز تكلفوا وقتاً طويلاً في طحنه.

دخل عدد من المهنيين ولكن شرلأقوه ليسوا بينهم. بدأ العتب الخفي لقانشاو يخرج إلى العلن. لا يفرح بمن هم أمامه. ما إن خاطب نفسه: وهل يجوز اتخاذ الشابسغ الهمج أقرباء؟ فنهرا، حتى انقطع عزف الشابات في أرض الدار. وهدأ الضجيج الذي كان يصدر من جهة الدار، ومن جهة غرفته، ومن غرفة النساء، كأن أحداً أمر بإيقافه. ليس قانشاو وحده من انتبه إلى الأمر، بل الحاضرون معه. انفتح الباب ودخل بدلاً من مرزيج الفرّج دائماً وجه من الشابسغ مكلل بالسواد. وتوجه إلى حجمقوه قانشاو أمير البجدوغ الكبير:

- جئت من مكان المأساة، ولكني أهنتك يا قانشاو بكتّك. - مع الكلمة الأولى للموفد نصّ جميع من في المضافة برؤوسهم. وخيم عليهم سرّ صامت حزين يوحي بالخوف. وفي الحال سمع الأمير وغيره الخبر المشؤوم: - مات شرلأقوه ناغوه غدرأ...

لم يكن في ذهن الأمير الكبير قانشاو إلا ركوب طريق البجدوغ، وإن أخفى رغبته، حتى مضى على دفن شرلأقوه أسبوع. لم يكن ما في ذهنه مأساة الأسرة التي دفنت عضواً منها بل الإهانة التي لحقت، سواءً كان بين المعزين، أم نام، أم استيقظ. لم يكن يستطيع أن ينسى حين أنزلوا المتوفى في القبر، وخلعوا عنه الكساء الأسود الموصول بقبعة، وحين شرعوا يهيلون عليه التراب، الفرح الأول في حياته الذي انتقض. ومظهر حزنه على المتوفى تكلم عليه فلاحو باستوك أكثر من مرة. تضعض حتى كأنه ليس الأمير الذي كانوا يرونه في زمان ما: تهدلت كتفاه، والظهر الذي ستحنيه السنون تحذب أكثر فأكثر. والوجنتان تبرزان من الوجه كبطنٍ غائرٍ لحصان قطع مسافة طويلة. أي مأساة جرت لابنه المسكين مصدِّفة قولهم: من أين أتيت يا مصيبة!.. أما كان بإمكانك يا ناغوه أن تنتظرنا أسبوعاً آخر ريثما تنتهي حفلات العرس؟ والآن ما العمل؟ مهنتونا لا يزال ثلثهم غائباً. وربما فرح أكثر أمراء البجدوغ. إن تفعل غداً ما كان يجب أن تفعله اليوم فقد معناه. وهذا الغد عمره سنة كاملة. وإلى وقتها سيكون للأمير الشاب أولاد. ما فائدة أن تُشرك فرساً أنثى ترضع مهراً مكان حصان شابٍ معدٍّ للسباق؟

أرسل قانشاو وراء زوجته مستغلاً بقاءه وحيداً في الغرفة. السيدة لتناي بدورها لا يخفى أن التفكير أوهنها في الأيام القليلة الماضية. تعرف من نظرتها أن قلبها وعقلها هجرا بلاد الشابسغ. حُبِل للزوج أن النعومة التي كانت فيها حلت محلها قسوة غير لائقة بما. ومع أنه يعاني المشقة نفسها فقد أشفق على المرأة الواقفة أمامه.

- ما أشدَّ ما استسلمت لليأس يا ابنة وجيش؟!

انفعلت لتناي السيدة.

- اهدئي قليلاً يا ابنة وجيش!

- نعم، نعم يا قانشاو، - مسحّت بعناية الدمع الذي جرى على الخدين. لا نستطيع إبعاد الدم عن حزننا.

- ماذا تنوين الآن إذن؟
- كما تريد يا قانشاؤ.
- والله يا ابنة وجيش لا أستطيع أن أقيم بين الشابسغ أكثر من هذا. لن يعود شراً لقوه ناغوه ويجلس بيننا مهما أجلنا إلى الغد وبعده. ولن نسمح للشابسغ الصغار الذين لا نهاية لهم أن يكرهونا بتساؤلنا عمن قتله. هيّا استعدي للرحلة!..
- حالاً! - عادت لتناي: - وسأبلغ ألقس.
- اتركه، سيبقى هنا.
- عجباً، - توقفت مرتعبة، - لو كان مسموحاً لي أن ألتقي به كنت فعلتُ وعرفت ماذا يجري لقلبه الصغير. ما الذي جرى يا رجل حتى يُفني نفسه إلى هذا الحد؟!
- أنا استدعيتَه ونصحتَه.
- عجباً، وكيف التقيت بالعريس الجديد!
- نصحتَه مديراً له ظهري.
- يا رجل، يقال إنه ليس من المستحب أن تنصح ابنك وظهرك له...
- كفى، ستقولين إنها نهاية العالم!.. جهزوا أنفسكم مع موعد الفطور.
- ما إن مدت لتناي يدها إلى مقبض الباب حتى فتح بالتجري الباب ودخل يصحبه الريح من السرعة. وقف الصبي أمام أمه وأبيه، يلبس ثياباً سوداء دليلاً على المأتم، ولكن ليس في وجهه إلا المرح. وصل طوله إلى صدر والده، ومن عينيه السوداوين يقطر الفرح. وحزمة الكعوب¹ التي رجمها من أولاد الجيران تتدلى من يده كأنه يقول: ألا ترونها!.. والركبتان ملوثتان بالطين.
- ما الذي جرى لك يا بالتجري؟
- ألا تراني رجمت من الفلاحين حزمة من الكعوب؟ جئتُ بها أُرِيها لأُمير

¹ الكعب قطعة عظم صغيرة في ركبة الخروف، كانوا يلعبون بها بطريقة الريح والخسارة كما في لعبة الداحل.

- الجدوغ الكبير حجمقوه قانشاو. ها هي يا أمير!
- تلاقت نظرات الأب والأم الفرحة بإتقان الطفل لألقاب التشريف للأمير.
- قالت لئنائي: - هذا ما يحدث متى فصلت الصبي عنك وعهدت بتربيته إلى غيرك. -أحسنت، هذا مشروع رجل في المستقبل. وسيبقى مؤثلاً لآل حجمقوه. فرح الأمير الكبير به.
- نودي بالتجري من طرف الدار، فقالت الأم:
- اذهب يا صغيري، ينادونك من هناك.
- لست صغيراً، بل ابن أمير! - لم يقبل بالتجري ما نودي به. - تبادل الأمير والسيدة النظرات مرة أخرى.
- أراك أيها الأمير الكبير قانشاو لم تعلّق على كعوبي. - صارع الأمير بعدم رضاه.
- أنت رجل ممتاز، لم نخذلنا.
- هذا مقبول منك، الآن أمشي.
- أيها الصبي الأمير توقف لحظة!
- ماذا يا أمير؟
- هل تريد متابعة اللعب مع أولاد الفلاحين الذين ربحت منهم حزمة الكعوب؟
- هذا رأيي يا أمير.
- لا أدعك تفعل هذا يا أمير إن سمعت كلامي.
- أسمعك يا أمير.
- أن تغلبهم وتربح منهم مرة أفضل من أن يتحالفوا ضدك ويُحسّروك.
- أسمعُ بَعْدَ سار يردد القول نفسه يا أمير. سأطيعك في هذا.
- عليك أن تجد حجة ما.
- إن قلتُ: لن ألعب هذه اللعبة، - حكّ رأسه مفكراً، - عيب كأني خائف... وإن قلت إن يدي تؤلّني فهذا كذب...
- لماذا ترهق نفسك يا بالتجري؟ - استعجلت لئنائي السيدة، - نستعد لركوب

الطريق مع موعد الفطور.

- هل قلتِ إننا سنرحل؟ هذه حجة مقبولة!..

انطلق آل حجمقوه حين ارتفعت شمس الخريف مقدار شجرة منتصبة فوق جبل بيباو. في البداية، وكما تفرض تقاليد الأمراء، بل التقاليد الذكورية للأديغة، انطلق الأمير ومعه النبلاء - الحراس. وبعده، وبفاصل هدوء الغبار الذي أثارته حوافر الخيل، أرسلوا بالتجري، الأمير الشاب. ولحقت بهم عربة السيدة الكبرى، من وسط القرية.

وجرياً على عادة المآثم لدى الأديغة، اكتفى شرلاقوه علي سلطان بتوديع الأمير الكبير من مكانه في الغرفة دون أن يشيعه إلى خارجها. وكذلك لم يتحرك من كانوا في الدار من أهل وفلاحين من أماكنهم. كان كلٌّ من تحخوخوه نبافؤه قاتِلُ شرلاقوه ناغوه الذي لم يشكّ فيه أحد إلى الآن، وحاغور موسى الذي فقد أكوّز، يقف في مكان غير مكان الآخر، فلم يرفع أيّ منهما رأسه ويتابع العائدين إلى أرض البجدوغ. وفي حاغور موسى بالعهد الذي قطعه على نفسه لما مرقوه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، جزاء على إبلاغه بمصير أكوّز. وهو يعيش إلى الآن والذهب الذي خصّه مامرقوه به يخطر له أحياناً، ولكنه يعتبر خسارة أكوّز الحبيبة فوق كل شاغل. ولم يكن مهتماً بمصير مقاي الذي هرب من رмбаكوه وزيش، أهو حيٌّ أم ميت. أي ذهبٍ لا يفارق الذهن؟ أكيد أن مقاي استولى عليه. أيحفظه منتظراً إياك!.. أقول هذا ولكن من يدري؟ خطرت في الذهن الفكرة التي كان يخاف منها. تفقّد الجوار كأن أحداً سمع ما في ذهنه. يجب أن أتشاور مع شباكوه وصحبه في هذه المسألة. سنقدّم لشرلاقوه ناغوه، سواء كان إنساناً صالحاً أم رديئاً، ما يؤسّعنا. قضينا أعواماً في داره. وعانينا حسنه وسوءه. وأكلنا من رزق المسكين. من المسكين؟ هل شرلاقوه ناغوه الذي لم تكن الدنيا تكفيه هو المسكين؟ يا حسرتي يا حاغور! الفقير يبقى فقيراً في كل زمان. أتشفق على المتنفذين الذين قضى والدك على أيديهم؟ أليس حسناً؟ بلى هو حسن! إذا قضيت عمرك هكذا فسيشنتك بأمعائك المتنفدون الذين تشفق عليهم!..

رفع موسى جفنيه الثقيلين فرأى العربة التي فيها السيدة لتناي في منعطف الشارع وراء الفرسان المتجهين نحو ورشة بترز.

كان عدد من الفلاحين متجمعين عند الورشة. وما كان الجميع يتحاشون ذكره طوال الأيام الماضية هو طريقة قتل شرلأقوه ناغوه. لم يبق أحد لم يتهموه بشخصه. خرجوا من الشابسغ إلى الجمكوي. ورأوا بين البجدوغ من لم يثقوا به. وفي النهاية اتهموا مامرقوه ومقاي. الشرير ينتهي على يد شرير!.. وظهر بين المتجمعين من رأى أن ما جرى لآل شرلأقوه ليس جديراً بالاهتمام كثيراً. واتهم بعضهم الجن. ومهما قالوا فما أنساهم إياه هو الخبر الذي ظهر أمس في باستوك. انتشر بين الناس خبر ينتقل من بيت إلى بيت، مفاده أن شرلأقوه ناغوه قضى على يد مسننه أرسى. ولما سمع الأخير هذه الشائعة ضحك ولم يعلق بشيء. ولما وصل إلى تحخوخوه نبأفوه رفع حاجبه واستغرب. وابتسم حاغور موسى بكل غلاظته...

- أليس الأمير حجمقوه هو القادم؟- سأل أحد الواقفين.
- نعم، ولكن لا أعرف لماذا يستقبله أرسى الفلاح. - استغرب حنانا الذي لا ينقطع عن زيارة الورشة، والمتتبع للأخبار. والناشر لها. ثم ألقى بين الواقفين: - هذا الأمير الوسيم كأنه من سلالة القمر تسببت مأساة شرلأقوه في خراب بيته. احترق حتى صار قطعة سوداء.

- أيكون سبب كارثة حجمقوه أن فرح ابنه، ربيب باستوك، انهار عرسه؟ - قال بترز بعدما أوقف الطرق على السندان.

- هذا لا يحتاج إلى سؤال، - قال حنانا لنفسه وهو ينظر واقفاً على رؤوس أصابعه. - انظروا ما يصنع أرسى الفلاح، لا ينوي أن يحيد عن طريقه!.. هل يفعل أحد هذا أيها البائس!..

وفي اللحظة نفسها سبق مرزبج الحارس الجمع، ووقف في وجه أرسى وعيناه تقدحان شرراً:

- ألا ترى من يأتي أمامك، أمير البجدوغ الكبير، أيها اللعبة!
- أراه.

- إن كنت ترى فلماذا لا تبتعد عن طريقه يا عديم الإيمان؟
- متى وصلتكم إلى بلاد البجدوغ فاطلبوا هذا من أول مَنْ تَلْقَوْنَه من الأمراء -
النبلاء، أما في الشابسغ فليس عندنا مثل هذه العادة! - أجاب الفلاح أرسى
بصوت عال، يسمعه الأمير، دليلاً على عدم شعوره بالإهانة مما قيل له. ومَرَّ
من أمام مجموعة الفرسان بقامة منتصبه، دون أن يرفع جفنيه ويلتفت إلى أحد.

-3-

لم يغمض جفنٌ لحاغور موسى في الليل. لم ينهض من الفراش كي لا يُوقظ
إخوته الصغار، لا كما يفعل حين يكون وحيداً فيذرع أرض الغرفة. بل لم
يتقلب كثيراً في الفراش، ولم يدخن قبضة تبغ. ظل متمدداً على ظهره يتأمل
السقف المظلم. كان ينتظر اليوم الخريفى التالي كأنه سيجلب له شيئاً لا يعرفه
الآخرون. مضى على وفاة شرلأقوه ناغوه شهران أو ثلاثة ولكن موته لم يأت
بشيء جديد للفلاحين كما كان حاغور يتأمل. ينقضي هذا الليل شيئاً فشيئاً
كسائر الليالي كأنه لم يكن. ما يُقيى حاغور في الضيق الذي لا نهاية له هو ما
جرى لأكوز. ما حياة الفتاة في بلاد غريبة؟ هذا السؤال يدور مع حاغور أينما
ذهب.

أحس حاغور بأن الفجر يطاء الأرض فنهض قائلاً: لا فائدة من البقاء في
الفراش. خرج من الغرفة فحُيِّل إليه أن العالم الأبيض الذي استقبله يهجم عليه
فرفّ بجفنيه. بعدما وقف يشم رائحة الثلج البارد فتح جفنيه ونظر: غاب
الخريف الأسود الباهت عن الأرض. الثلج الهادئ على الأشجار والسطوح،
حتى الأعمدة. دعا موسى أن يكونوا بين من أتاها ثلجٌ خير، وأمسك بقبضة
منه. واحتفظ بها حتى بردت يده، ثم مسح بها وجهه بحذر. قال حاغور
لنفسه: هذا ما جرى: الثلج غمر العالم كله. ثم تنهد ثانية شاعراً بأن الوقت
يُبعده عن أكوز. وتذكر بلا مناسبة أن الثلج غطى قبر شرلأقوه ناغوه، وغمر
الشجرة التي أخبره عنها مامرقوه.

خيّم أذان أكجكوه أنزور سماء باستوك قبل أن يجد حاغور الفرصة ليفكر. ربما

أشفق على نطار أن يوقظه لأذان الفجر فجاء بدلاً منه. ابتسم حاغور موسى. ثم نمر نفسه بعد قليل: أيّ نطار آتي على ذكره؟ أليس الولد يدرس في القرم!.. ما أشد الشبه بين صوت الأب وصوت الابن!.. من أراه سيصبح أفندياً حقيقياً هو نطار، لا والده. ينشأ ولداً ذكياً.

- يا حاغور توقف لحظة! - نادى نبافؤه صديقه وهما يمشيان في رتل، يفتحان طريقاً في الثلج.

- ماذا يا تحخوخوه؟

- أود أن أعرف ماذا تنوي بشأن أكوز؟

مد حاغور يده فأخرج كيس التبغ، أخذ منه قبضة ومد البقية إليه. حُبل لتحخوخوه أن الكيس يحرق أصابعه: في الربيع الماضي، شاهد أكوز تشتغل الكيس نفسه.

- لا أمل لنا، أنت وأنا، في موضوع أكوز.

- تراجع سريعاً!

- وماذا بيدي؟

- لو كنت تحبها ما كنت قلت هذا يا حاغور!

- وكيف أشعر بمثل هذا نحو أختنا الصغيرة؟..

- حاغور، كفى، لا تتظاهر... لا تُقنعني أن ليس بينك وبين أكوز عاطفة حب!.. - مصّ نبافؤه الغليون بتنهيذة مسموعة، ثم نفث الدخان، - لم يبق في المسألة سرّ. أنت تعرف أنني تخلّيت عن هذا الموضوع، وما كنت لأتخلّى عنها لغيرك. ليس لك وحدك بل لكليكما. والآن إذ أكوز في هذا الضيق لا أعرف مُعيناً لها غيرك. وإن رفضت يا حاغور فاسمح لي... إن كانت لا تزال حية فسأجدها لك!..

انفتل موسى عائداً وقد أشعلت كلمات تحخوخوه الأخيرة النار فيه. وخفّ الحمل عن نبافؤه بعدما باح بكل شيء لصديقه. ظل حاغور طوال النهار لا يعرف كيف يتخلص من الذكريات، وقضى ليل الخريف الطويل في هذا اليأس. وبقي في الدار حتى تجاوزت الشمس سور البيت لا يعرف ماذا يفعل. ثم مشى

نحو السور بكل ثقة وركب. أعاد الحصان من طرف باستوك. مرّ على أخيه الأكبر وصاح دون أن يدخل الدار.

خرج بداد من البيت يتصاعد منه بخار الثلج:

- لماذا تصرخ من على صهوة الحصان بكل بلاهة؛ ألا يسمحون لك بالدخول!..

- اركب يا بداد!

نظر بداد إلى أخيه دون كلام. ولما لم يكن من الجائز أن تسأل من يطلب منك الركوب: إلى أين، ولو ولدتهما أم واحدة، سار معه يلبس كساء مهترئاً كان شرلاًقوه أعطاه إياه.

خرج الأخوان من باستوك، ودخلا مضيق إيل، وبعدما التقّا حوله وسارا بعض الوقت نزلا من التبة غير العالية، وغابئة الشتاء العارية على الجانب. الغابة التي كانت على يمين الفارسين انتصبت أمامهما بحيث يمكن تجاوزها بغلوة واحدة. وطوال هذا الوقت لم يتبادل الأخوان كلمة واحدة. نظر بداد بطرف عينه إلى أخيه، وابتسم ابتسامة خفيفة: ما الذي خطر لك أيها الدب الكبير الآن؟ منذ زمن طويل، ليس اليوم فقط، لم يتبادل الأخوان الكلام. منذ تشاجرا من وراء آل شرلاًقوه تدابرا. وإلى الآن يعدّ بداد نفسه بريئاً، ويدين الأصغر. لا مشكلة أيها الدب، ستبوح بسرك متى دخلنا الغابة. إن لم يهتمك أنت فأنا من لا يهمه البتة. طلبت مني مرافقتك ففعلت. لو لم تكن بحاجتي لما طرقت بابي بعيون جريئة.

كلما اقتربت الغابة سرى قلق خفي في جسد بداد. وتردّد على الذهن أمور كثيرة لا قيمة لها. ويشعر، رغم ركوبه، بالعرق الحار على حرف قبعته. تشبّث بالركاب كأن خطراً داهماً سيخرج الآن من وراء شجرة ما. التفت قلقاً لا يعرف السبب.

غابوا في أسفل المرتفع والغابئة إلى جانبهم. وسمع صوت سقوط الماء من الشلال. وبعد مدة أوقف موسى الحصان وجال بعينيه في المكان. وفعل أخوه الأمر نفسه. توجه الأخ الأصغر إلى الأشجار المقابلة للجدار المبلول الذي

يرتفع عن الغابة، توقف موسى قبل أن يصل تماماً إلى الشجرة المكسوة بالثلج، وفتش مرة أخرى. ثم ترجل ووقف تحت الشجرة. خطا ثلاث خطوات حذرة نحو دغل البندق، ثم بدأ يكشف الثلج برجله.

يتابع بداد ما يفعل أخوه من على صهوة الجواد. لم يستطع إلا أن يتساءل إن كان هذا "المجنون" ما يزال في عقله. كان يتشبث بالسرج ولا ينوي الترجل. كشط موسى الثلج تحت شجرة البندق مساحة غرفة تقريباً، ودار بعض الوقت يبحث عن أرض طرية. ثم نظر نحو أخيه وشرع يحفر بطرف الخنجر. ولما رأى بداد الأرض المخططة بمقدار قبر، ارتعب لا يعرف السبب:

- بالله عليك، ماذا تفعل؟

- ترجّل تعرف!

- يا موسى، لن أراعيك ولو أن أماً واحدة ولدتنا؛ ماذا تنوي؟

- احفر معي بدلاً من أن تغضب! - لم يرفع موسى رأسه.

- لا تجعلني يا موسى ممن يحفرون قبورهم بأيديهم.

- يا حسرتي يا أخي الكبير، - رفع موسى جفنيه الآن والحزن واضح في

صوته، ونظر إلى بداد، - كيف تستطيع العيش دون أن تفهم إلا هذا القدر؟

ما أسوأ هذا الخاطر الذي غزا رأسك!.. لن يخطر لأحد ما يخطر لك!

- وهل أعرف ما تفعل أنت؟

- لا تخف يا أخي الكبير، لن أفعل بك ما لا تفعله بنفسك.

لم ينفذ بداد لأخيه الأصغر ما رجاه غير واثق منه. وخطر له أن ينصرف. ولما

رأى موسى يبحث برأس الخنجر في الأرض الرطبة، انصب العرق على جبينه

لسبب غير الذي جعله يرخي عنان الحصان. ولحظة بدأ يراجع نفسه ويقرر

بخطئه في التوجس من أخيه رأى بداد موسى يسحب كيساً من الحفرة، فارتمى

من الحصان كصقر ينقض:

- أي كيس جلدي هذا؟

- مالٌ من تركة مامرقوه، - رمى موسى الكيس المربوط على الثلج، نفذ

التراب عن يديه وعن بنطاله.

- من أخبرك أنه هنا؟

- تكلم حين فقد الأمل في الحياة، - فك موسى رباط الكيس، ولما بدأ ينثر ما فيه قفز بداد، وفرش كساءه المصنوع من جلد الذئب على الثلج.

ما يخرج من الكيس قطع من الذهب، وخواتم، وأقراط من الفضة، وقروش ذهبية، وعشر ملاعق ذهبية، وزناران منه. نظر بداد إلى ما على الفروة وقد غشي الدم عينيه. ثم رفع الرأس وألقى نظرة حارة على أخيه. لم يُعد الدم الحار في الرأس بدادَ إلى وعيه. جلس على ركبتيه فوق الثلج، والقلب يخفق، والأطراف ترتجف.

- ماذا سنفعل يا أخي بهذا؟!

- لا تقلق إذا لم تتعفن تحت الأرض فلن تصدر منها الآن رائحة.

- مهلاً يا أخي، ربما لا يزال شيء مدفوناً. - جمع بداد أطراف الكساء على الذهب والفضة، وبدأ يحفر بالخنجر. نظر إلى أخيه وإلى الذهب وقد ارتعب مما برق في الرأس.

- كفى يا بداد، لم يبق شيء تحت.

- هل تظن هذا؟ - بحث من جديد متلهفاً بطرف الخنجر.

- ما سأقوله لك الآن يا بداد، - رفع موسى الفروة ومدّ يده إلى الذهب. - خذ هذه القطع الثلاث. وهذا القرط الفضي، والخاتم الذهبي. خذ ما يقدمون إليك، ليس حراماً، إذ ليس عند الفلاحين مثلها. وأرفق بها هذه المعلقة الذهبية. وأنا سأخذ الزنارين الذهبيين والعملية الذهبية في طريقي. والخواتم الثلاثة، والأقراط الثلاثة، وقطع الذهب لن تضربي إن لم تنفعي، - ابتسم موسى، - وهاتان الملعقتان قدّمهما باسمي لتحخوخوه نفافوه هدية عرسه إن تزوج في غيابي. والبقية ضعها في عهدة والدتنا ثُربَ بها إخواننا الصغار.

- أليس الزناران الذهبيان كثيراً؟ - التمتعت عينا بداد مستقلاً ما قدّم إليه.

لا يا بداد، لن أستطيع إعطائك أيّاً منهما. لا تتهمني بالحرام بسببهما.

- والزنار الفضي؟

- وهذا تحت تصرف أمانا. إن عدتُ حياً أعدتُه إلى صاحبه. كان هذا لوالد

جمكوي زبش. مع السلامة يا بداد. أنا سأسافر إذن. انتبه إلى إخوتك الصغار. ولا تُسئ إلى أمنا المسكينة.

ركب موسى متمهلاً وانطلق.

لم يلاحظ بداد انصراف أخيه إذ كان مشغولاً بتأمل الذهب الذي أعطي له. كسر الثلج غصن الشجرة فارتعب بداد وغطى الذهب بالفروة، ثم تفقّد كافة الاتجاهات. عرف أن لا خطورة. ثم تذكر كيف انطلق أخوه بسعلة مصطنعة. أين سيسافر؟ ولماذا قال: إن عدتُ حياً...؟ أين انطلق الدب الغبي الآن؟ قفز بداد من مكانه وهو يسأل هذه الأسئلة، ووضع القطع في جيبه مستعجلاً. والتقط الفروة بحرص شديد، ولما لم يقع منها شيء لبسها وركب. ولما خرج من الغابة ونظر رأى أخاه متجهاً إلى طريق يؤدي إلى البحر، لا إلى باستوك.

-4-

- الشتاء في هيجانه؛ لا أعرف ماذا ينوي. - قالت داريت لعلي سلطان وهي تنصت إلى الريح العنيفة التي تهب مع العام الجديد. - يا ولد، يا صغيري، البس ما يدفئك!.. أستحلفك بالله أن تحمي نفسك من البرد.

- لن أذهب إلى مكان معين يا أمنا، أريد أن أروض الحصان فحسب، - نظر علي سلطان بخنان إلى أمه وقد بدأ الدم يعود إلى وجنتيه، وتناول الفروة المعلقة بالجدار.

أفنت داريت الأيأم الصعبة خلال نصف العام. ذابت حتى لا تكاد تتعرفها. إذا كانت أمه ستقيم في الغرفة محبوسة فالأفضل أن أصحابها إلى كُدّاق أو إلى البجدوغ. حرام، ذنبها عليّ. تروّج عن نفسها، وتسلو عن أحزانها. كان ألقس سافر وهو يترجهاها، وأخوها الحاج عمر أرسل وراءها مرتين.

- إياك أن تخرج وحدك يا صغيري!

- ماذا يجري لي يا أمنا إن كنت وحدي في أطراف القرية؟

- لن أسمح لك بالخروج من البيت إذن يا ولد. - قفزت داريت من مجلسها ووقفت أمام الباب. - قضى والدك في تلك الأطراف اللعينة، وهو يردد هذه

العبارة. ونحن بقينا دونه وعيوننا حائرة. - انفجرت باكية، وابتعدت عن الباب.

تلوى قلب علي سلطان ألماً حين رأى الأم تبكي. وقف قليلاً صامتاً ثم خلع الفراء. قرّب المقعد الوطيء من أمه، وجلس:

- ألم تتفق يا أمنا على ألا تُفني نفسك هكذا؟! مسح علي سلطان على يديها. فزادت الحركة من انفعالها، واستأنفت البكاء بصوت أعلى.

شعرت داريت بأن أطراف علي سلطان ارتاحت، فتصلبت خاصرهما وأطرافهما، وتوقفت عن البكاء. لماذا أتسبب للولد بهذه الانفعالات؟ هل نعيش يومنا الأخير؟ من مات مات وانتهى، فما بالنا نحن؟ كم قلت لشراً لقلوبه أن كل ما أصابه كان نتيجة تصرفاته الطائشة. لم يتقبل أياً من نصائحي خلال سنوات حياتنا معاً. رمى بنفسه في التهلكة كما يقال عن الدجاجة إنها تحفر بقائميتها مصيرها. لم يكن له صديق ولا عدو؛ فمن قتله؟ كان على هامش الحياة يحصل على خبزه كيفما اتفق.

- نعم يا صغيري، نعم. لن أدعك ترى دموعي بعد الآن. قاتل الله قلب المرأة!.. لو عرفنا قاتِل والدك لهان الأمر. ما كنت أفضل شيئاً على معرفته، كنت خلعت الآن ملابس الحداد ورقصت! - لمعت عينا داريت كعيني رجل غاضب، فأعادتا الوعي إلى علي سلطان بعدما منحتاه قوة. - علينا يا ولد أن نعرف مَنْ عدُّونا وَمَنْ صديقُنَا من بين هؤلاء الفلاحين الذين يستهلكون خبزنا جزافاً كي لا يأكلونا ونحن أحياء؛ وإلا مزقونا إرباً إرباً. هذا ما لم أستطع إفهامه لوالدك الراحل... اذهب يا ولد، اذهب إلى حيث قررت. لا تذهب وحدك، اصحب تحخوخوه الكسول. وإن التقيت الأفندي أكجكوه فبلغه أن لي معه حديثاً فليزري.

لا يتذكر أهل الشابسغ شتاء كشتاء هذا العام. الريح الباردة تحمل كُتل الثلج. السماء متكومة فوق باستوك كحليب سُحب منه دسمه. الحصانان يرفعان أذنيهما مع صفير الريح كأنهما يتهيبان أمراً ما. ينظر تحخوخوه نبافؤه إلى الفارس الذي يتقدمه فيراه غراباً أسود مغطساً بمصل الحليب. الهواء يعبث

بطرفي فراء علي سلطان. وظهّر الفراء الذي يلعب مع الظل الأسود ينتفخ معه. ما الذي يدفع هذا إلى الخروج؛ لماذا لا يستقر في البيت؟ يتذكر تحخوخوه فجأة كيف قتل شرلأقوه ناغوه في منتصف المرتفع. لم يكن ينوي قتله. لما سمع أن أكوز حُملت ليلاً إلى الساحل لم يستطع أن يفارق مكانه بسبب الإهانة التي ألحقت بأكوز. فبقي واقفاً مدة والشوكة بيده عليها حزمة حشيش، ثم رماها، ونظر نحو بيت شرلأقوه يفكر في مهاجمتهم، ولكنه لم يفعل، بل ركب، وأسرع خارجاً من الدار. دخل إلى غابة تحمز، مشحون الرأس بالأفكار، غير عابئ بالمكان الذي يحمله إليه الحصان. وفيما هو واقف في مكان وعمر من الغابة صحا على وقع حوافر، فنظر فرأى شرلأقوه ناغوه. كان يود أن يدعه يمر دون أن يسمح له برؤيته، غير أنه لما وصل إلى أغنية الحب التي ينشدها هجم الدم الحار إلى رأسه. قال في نفسه: يغني لها بعدما نكب الفتاة! واعترضه:

- لماذا تغني يا شرلأقوه؟

رفع شرلأقوه رأسه مرتعباً والأغنية لا تزال على شفثيه في منتصفها. غير أنه عرف نفاقه فعاتت إليه الروح:

- عضّ الكلب والدك! أهذا أنت يا تحخوخوه؟! ماذا تفعل هنا؟

- وأنت يا شرلأقوه؟ - حُيِّل لشرلأقوه أن النار التي انبعثت من عيني تحخوخوه أحرقت حاجبيه. وسرت رعشة رعب في عروقه تنبئ بنهاية العمر.

- ما طريقة السؤال هذه بدلاً من أن تترجل من الحصان؟ - عاد شرلأقوه إلى وعيه، وتعثّر الحصان على صوت غضبه.

- هذا ما في ذهنك!... شهر تحخوخوه نفاقه خنجره، وحثّ الحصان.

- ماذا تفعل يا عديم... - انغرز رأس الخنجر في جانبه الأيسر قبل أن يجد الوقت لإشهار مسدسه، غير أنه هجم عليه وتشبث باليد التي تحمل الخنجر.

- ماذا فعلت بك يا نفاقه...

حين نطق من تفارق الروح جسده اسم نفاقه ارتخى للحظة، وفكر أن يترك الخنجر، غير أن يدي شرلأقوه كانتا ما تزالان تشدانه.

-تستحق الموت ولو عقاباً على ما فعلت بي بتصرفك مع أكوز!

- وأنت، تحب تلك الصبي...ة... - هوى رأس شراًقوه ناغوه قبل أن يكمل ما بدأه.

أرجع علي سلطان الحصان بسرعة كأنه أحسن بذكريات تحخوخوه: العودة إلى الوراء والريح تدفعك من ظهرك خيرٌ من مجابقتها. ولما دخل إلى باستوك قال لرفيقه دون أن يلتفت إليه:

- عد أنت يا تحخوخوه إلى البيت، أنا مشغول.

ما عناه علي سلطان بـ "أنا مشغول" هو وعُده لأمه بأن يأتيها بأكجكوه أنزور. وقف علي سلطان أمام باب دار أكجكوه. تحقّق له ما يريد تماماً: رأى أنزور يعلف الحيوانات عند السور، ففرح إذ أنهى مهمته وعاد إلى البيت.

...

انتهى أنزور من خدمة الماشية فدخل البيت وقال لزوجته:

- والله أنا مللتُ من آل شراًقوه. يا مبارك النسل، كنت عندهم البارحة ومع ذلك ترسل داريت ورائي اليوم. هل يظنون أن لا عمل لي في باستوك غيرهم!... -ماذا خطر الآن لداريت الجنية كما تقول حماقي، - رفعت مريم رأسها عن العجينة التي أمامها، وسألت زوجها.

- وما أدراني!.. قالت لي أمس إنها تخشى ألا يكفي العلف لأبقارهم؛ فليتك تلمّح للفلاحين أن يرفعوا لأجلها صلاة إلى الله. لم ننته من الدعاء من يوم ما رحل شراًقوه ناغوه: مرة لأجل هذا، وأخرى لأجل ذاك...

- كفى يا أنزور، لا تغب عن الأرملة فتلوّك بلسانها. الأرملة تجد ما تقوله...

- والله صرت أخجل: ليلاً ونهاراً في دار شراًقوه. هل تعرفين بَمَ لَمّحت لي جماعة حنانا قبل أيام، ويحقّ لهم تلميحهم؟ قالوا: هل صرت خادماً لهم؟ إن استمرت الحال فسيلمّحون لي بشيء آخر... لا نفارق حضرة داريت. حتى ناغوه ربما ما كان يراها بقدر ما أراها...

نظرت مريم إلى الزوج ولم تنبس ببنت شفة.

أخّر أكجكوه أنزور زيارته إلى المساء. ليس مظهر داريت كمظهرها في الأيام السابقة. غطاء الرأس الأسود المنسدل على الثوب الحريري الأسود، لا يتجاوز

أثره إلا تذكيرك بالحداد. ولكن لا ترى في وجه المرأة شيئاً من هذا: تجلس داريت بقامة طويلة منتصبة، واليدان متعاقبتان، والقدمان ممدودتان إلى مقعد وطيء. لم يتكلم هذا المساء في موضوعات كثيرة كما كانا يفعلان في الأيام السابقة. منذ زمن بعيد رتباً ما في باستوك من أخبار. وما من أخبار جديدة إلى الآن.

- ما استدعيتك من أجله يا أفندي - ألفت داريت نظرة في غاية البرود إلى عيني أكجكوه السوداوين. - يكفي ما أتيت على ذكر والد علي سلطان أمام الفلاحين. حياك الله، ورضي عنك. وختمتم القرآن مرات عديدة. الميت مات ولقي جنته. والآن يسرني أن تذكر فضائل الأحياء بالخير. ابنك يدرس في القمر، مدّ الله في عمرك لتعيش معه شيخوخة سعيدة!.. أنت تحتاج إلى الكثير مما ليس عندك، وآل شرلأقوه لن يُمسكوا عنك شيئاً. ما أريده هو أن تنشر بين المصلين الذكر الطيب لعلي سلطان. شرلأقوه علي سلطان هو من بقي لدى الفلاحين زعيماً. وعليهم أن لا يدعوا كلمته تنزل إلى الأرض. نعتمد على ذكائك، واستفادتك من الصلاة لتوطد بينهم هذه الفكرة. رضي الله عنك، لن نخذلنا. ولن يضيع معروفنا...

- لن يضيع بإذن الله، - قال أكجكوه وهو يهز رأسه مع كلام داريت. ثم خفض رأسه خجلاً من هذه الكلمات نفسها، ونظر إلى الخطب الذي يحترق في الموقد.

- وكذلك لا تسمع ما يُشيعونه عن الفلاح أرسي. وما ينشرونه من أخبار حاغور موسى الغبي الذي لحق بفتاة ما يزال أنفها يسيل، غير صحيح... وعاجلاً أم آجلاً ستشهد اكتشاف قاتل والد علي سلطان... - أراح الله باله في جنته، كان ناغوه من رجالات الشابغ. كان طيباً لطيفاً معي. رفع أكجكوه رأسه فرأى نظرة باردة في عيني داريت.

بداد، كبير آل حاغور، في ضيق شديد لا يعرف معه أين يضع رأسه. لم يكن ما يجرمه الراحة هو ما خطر له في غابة تحمز، وهو جاثٍ على ركبتيه فوق تركية مامرقوه، من قتل أخيه الأصغر، بل يستقل حصته منها؛ أليس الأخ الأكبر على كل حال؟! ولا يكفي هذا بل طلب مني أن أوزع منها! وما بال تحوخوه ليكون شريكاً؟ والآخر جمكوي زيش؟ في أسوأ الأحوال أشارك أمنا. أما الآخرون فلا أعرف...

لم يحقق بداد توصية أخيه الأصغر وهما يفترقان في الغابة من زيارة والدتهما، حتى بعد مُضي عشرة أيام. خبأ الذهب في سقيفة السطح دون أن يسمح لأحد برؤيته. أفاق مرتعباً هذه الليلة كما البارحة، نظر في كل اتجاه بوجه مذعور. ألقى الفراء على كتفه وركض في الجو العاصف إلى الزريبة. لمس باليد ما يقلق عليه فارتاح قلبه. ولما دخل العرفة وألصق بالزوجة الجانب الذي تعرض للبرد لم ينم حتى الفجر. كم كنت غيباً في ذلك الموقف!.. سمحت لهذا الذي لا يساوي شيئاً أن يأخذ هذه الكمية من الذهب. لو كان عندي منه لاشتريت في السوق الربيعية على الساحل. لم يُراع كوني رب أسرة وصاحب بيت. لم يعتبرني حتى كتبن الشعر المستعمل خشوة. أكون أحياناً لأن أمماً واحدة ولدنكما؟ كان علي أن أقتله وأسلمه البقية، عديم الإيمان هذا؛ انظر ما فعل!.. في الصباح، وقد توقفت العاصفة، أفاق بداد فرأى الشمس التي لا تعلم ماذا جرى على الأرض في الأيام الماضية قد أشرقت حمراء طلقة الوجه، وأطلت من وراء الجدران. سمع أصوات مجارف الجيران من هنا وهناك، وخوار الأبقار من القرية.

توجه بداد إلى الزريبة ينثر الثلج برجليه، دون التوقف عند ما تجتمع أمام البيت، يريد أن يطمئن مرة أخرى على ما في السقيفة، غير أنه رأى الزوجة خرجت من البيت، فتظاهر بمداعبة الحصان، ثم تركه. أخرج السرج من الزريبة، وهمم بالركوب، فلم تقبل زوجته سامت:

- إلى أين الآن؟

- هل أستشيرك عادة في ما أذهب إليه؟
 - صحيح، ولكن كيف تترك ما أمام البيت من الثلج؛ ألا ترى؟
 - المجرفة وراء الباب، اجرفيه أنت!.. أنظر إليك فأراك تكادين تنفجرين من السُمنة. - وخرج من الدار.
 لم تعلق سامت على أقوال الزوج. وقفت بعض الوقت على المسطبة متوهجة الحدين. قالت: أيُّ زوج ساقه الله إليّ؟ وتنهدت. عادت إلى البيت، وألقت في نار الموقد بضع قطع من الحطب. حدّثت نفسها: لا يجوز أن تبقى مسطبة بيتنا هكذا، سيسخر منا من يراها. سأجرف الثلج، وسيفرح من خرج غاضباً متى عاد. فتناولت المجرفة وخرجت من الغرفة. وبعدما جرفت شيئاً جاء سلفها لاقه، وقال مستغرباً:
 - ماذا تفعلين يا كنة؟ - تحمس لاقه يريد أن يثبت رجولته غير أنه ما يزال شاباً جداً، - أليس بداد في البيت؟
 - هذا أنت يا زيكُشو¹؟ - نادته بالاسم الذي سمته به حين صارت كنة لآل حاغور. - لم أعرفك، أُلستم بخير والحماة بخير؟ ألا تزال على حالها من يوم ما رأيتهما؟ بداد سيعود حالاً، ذهب إلى الأفندي أكجكوه في مهمة.
 - وهل هناك الآن ما هو أهمّ من جرف الثلج من أمام البيت؟ هات المجرفة! أرسلتني أُمي لأسأل عنكم بعد العاصفة الثلجية.
 تناول لاقه المجرفة من الكنة، خجلاً من سلوك أخيه الأكبر، فنظف حتى باب الدار. وفتح باب الإسطبل، ونظف روث الأبقار الذي تجمّع في الليل. وفيما أنجز لاقه كل هذه الأعمال تصنّع بداد النشاط فاشتغل مع الفلاحين في تنظيف دار شراّفوه من الثلج، عاد إلى الدار فارساً. لم يكن مهتماً بتنظيف المسطبة، كان يعرف أن المرأة ستفعل هذا، ولكن من فتح باب الإسطبل؟.. وماذا يفعل من في داخله؟ قفز بداد من ظهر الحصان. وارتقى إلى الإسطبل.

¹ اسم مستعار تحتّره الكنة لأنها لا يجوز أن تنادي سلفها باسمه الحقيقي، ومعنى الاسم: فارس أسفار أو غزوات.

وإذا بلاقه يُشعل النار في الحشيش الذي اقتلعتة العاصفة من سقف الإسطبل.

- ماذا تفعل؟ - هجم بداد بلا وعي ورمى الولد من الملعف.

- هل جننت يا بداد!.. - نظر لاقه بوجه مذعور إلى أخيه.

- ماذا تفعل هنا؟ - مرة أخرى صاح بداد خائفاً من أن يكون أخوه الأصغر شكّ في أمر الذهب، - ألسنت من أطلب منه أن يُحتفي من وجهي!..

- وضربه على رقبتة!

- إن كان هذا ما وصلت إليه يا أخي الأكبر فهذه آخر مرة أطأ فيها دارك.

- التقط لاقه قبعته ومضى.

- هذا الكلام نفسه كان قاله أخوك الدب الكبير. ولما احتاجني جاءني من نفسه!.. - قطع كلامه خائفاً من أن ييوح بسرّه. نظر غير قادر على الصبر نحو السقف الحشيشي. - والله لن تأتي فحسب بل ستركض إليّ. من الأكبر بيننا؟ أنت أم أنا؟

- انتظر إذن حتى آتيك! - قال لاقه دون أن يلتفت.

- اسمع ماذا يقول!.. - إلى أين أيها الثرثار؟ ارجع قبل أن ألحق بك! ادخل إلى الغرفة، واجلس قرب النار... ألم أقل لك أن ترجع؟.. - تناول بداد السوط ولحق بأخيه.

أحرق الإهانة لاقه، ورغم ذلك لجمته روح الأديغة حين ناداه الأكبر كما يُنادى الأصغر، فتوقف. نظر بداد إلى ظهر لاقه فذكر أخاه الأصغر الآخر: لاقه بوقفته، وبتركيبه الجسد، نسخة طبق الأصل عن موسى لولا فارق العمر. وليس هذا وحده بل طريقة كلامه وطريقة عمله وحركات يديه.

- أحسنت صنعاً أيها المتمرّد، - دخل بداد إلى الإسطبل حين رأى أخاه عائداً. دخل لاقه إلى البيت فهجم بداد على السقف، وصلت أصابعه إلى الحزمة.

أسرع بداد فاستردّ يده كمن أحرقتة النار. لم يملك مع فرحه إلا أن يمسح على كفل الحصان أمامه. ثم نظر بوجه مرتعب خائفاً أن يكون شيء من محتويات الحزمة اختفى. أغلق باب الإسطبل وتفقد بعينه ما في الحزمة، ولم يُعدها إلى

مكانها، بل إلى تحت الملعف: تراجع وتأكد من أنها لا تبدو. ثم اطمأن إلى أن أحداً لن يشكّ في الأمر.

بقي بداد في الإسطنبول ريثما عاد نبضه إلى حاله. لم يكن يريد أن يتذكر سلوكه مع الأخ الأصغر: ليس خجلاً، وقد يكون هذا سبباً، ولكنه كان يريد أن ينسى ما فعل، بغضّ النظر عن كل هذا. لم يتخل عن عادة صفع إخوته بدلاً من أن يُعزّهم. لا أدعهم يحبوني حتى لو أرادوا. توصيني أمنا ألا أتعامل معهم بهذا الأسلوب، ولكن هل يطيعونك إن لم تتصرف هكذا؟! حتى مع التهيب لا يحسبون حساباً لك. والدتنا امرأة عجيبة، تكاد لا تعرف من الدنيا شيئاً... كيف سأصرف إذن بما عليّ نحوها؟ ماذا ستفعل بقطع الذهب إن حملتها إليها؟ لن تذهب إلى سوق الساحل، وليست ممن يبيع ويشترى. وإن وثقت بإخوتي الصغار نهبوها إياها في السوق. ولذا فأنا من ستمنحه من جديد ما أعطيتها. لن أخرج مشاعرها لهذا السبب، وعند الحاجة أقدم لها ولهم شيئاً من قبيل القماش وما شابه. وعلى كل حال أنا أخدمها عادةً مثل هذه الخدمات. أنت استأثرت مني وهربت أيها الغبي، نظر بداد إلى حيث يجلس أخوه، لكني متى حلّ موسم السوق الربيعية فسأشتري لك قطعة بنطال تساوي فلاحاً، وربما أرفقه بقميص. أليس من أجل مثل هذا نخدم طوال السنة على عتبة شرلأقوه! بعد ما وقف بداد على باب الإسطنبول مدة وقد اقتنع بأنه وجد ذريعة لعدم تقاسم المال مع إخوته، أجبره البرد على اللجوء إلى البيت.

همّ لاقه بالنهوض عن المائدة القريبة من الموقد احتراماً لأخيه الداخل إلى الغرفة، فلم يقبل بداد:

- لا داعي، إجلس، أنا أفطرت قبلك. أريد أن أقرب من النار فحسب. الجو بارد حتى مع الشمس. أراك يا أخي الصغير بينطال مهترئ تبيّن منه ركبتك. أليس في هذا البيت الكبير رقعة له؟ اسمع، هات من الغرفة الأخرى الفراء الكبير الذي أعطاني إياه آل شرلأقوه، والبسه. ودعّ سامت ترقع بنطالك. - قال بداد وقد نسي وعده بينه وبين نفسه، لأخيه بقطعة قماش بنطال وقميص متى حلّ وقت سوق الربيع في الساحل، - سيصمد عاماً كاملاً...

كان علي سلطان يائساً في الخريف الماضي حين رحل شرلاًقوه ناغوه عن الدنيا، ولكنك لن تلاحظ عليه شيئاً من هذا في الشتاء الحالي. الميت خسر الدنيا حقاً، غير أن من يرثونه يعيشون حياتهم يبعثون عن المزيد. لم يبدأ علي سلطان يطمع في الرجولة منذ بدأ الشاربان ينموان، بل كان صبيّاً حين بدأت طباع والدته الخبيثة نحو الفلاحين تظهر فيه. ومهما تصرف لم يُبهِه أحد إلى خطئه. كانوا يبتسمون في وجهه فيشجعونه على المزيد. بدأ في طفولته الباكّة يسوط قطتهم الطيبة فهربت ولم تعد قَطّ. ثم بدأ يؤذي كلب الدار، فلم يقبل الكلب وهجم عليه. وكيف تقبل داريت بإهانة ولدها فأمرت بقتل الكلب البريء أمام علي سلطان. وبعد الكلب بدأ يسوط سيقان الخادِمات. ولم يتوقف عند هذا بل صار يغافل الفلاحين في الدار، فيضربهم من الخلف، حتى بلغ أشدّه وهو يزداد ظلماً. ولكنه بدأ يحرص على نفسه منذ اعترضه الفلاح أرسى في الغابة.

كان اعتاد حين يتجمع الفلاحون في باستوك، وهم يحترمون المتنفذين عادة بغضّ النظر عن أي شيء، على أن يتركوا له مكان والده. ونما عنده الاعتقاد بأن ليس في القرية رجلٌ أفضل منه. ولم يكن هذا السبب الوحيد. كان يتهم الجميع بقتل والده، ويصف الفلاحين جميعهم بالقتلة فلا يغفر شيئاً لأحدهم. ومهما قلت فهو يعبث بالمال الكثير الذي هو من جني الفلاحين، وأمير البجدوغ الكبير سنّده. ونبلاء الشابسغ فرسانه المنفلتون، ونخبة الفلاحين الأغنياء الذين ورثهم من والده...

الكلمة الحلوة التي ألقاها أكجكوه أنزور أمام المصلين بشأن علي سلطان كلمة قيّمة. ومثل هذا الإنسان يستحق أن تهديه قطعاً من البقر. جزى الله أكجكوه خيراً، لم يضع معه معروف والدنا. وعلي سلطان على عادة جده، يتمشى على أرض الغرفة متفكراً، ويداه خلف ظهره. أكجكوه متلهف على ولده مثل والدنا. يريد أن يصنع منه رجلاً. أبعده عنه يعلمه في القرم. لا شك أن نظار كان فيه شيء يختلف عن سائر الفلاحين. كان يحمل المصحف في صدره. كم

مرة لطمته على قفا رأسه كي يكفّ عن هذا ولكن لم يفعل. والآن سنرى إن لم يستجب. أين يذهب متى عاد؟ سيبقى معاون أفندي في جامعنا. سأراك تعزف في بوق والدك أفضل من ذي قبل. وإلا هل أرسلناك كل هذه المسافة عبثاً؟

التفت علي سلطان حين انفتح الباب. دخلت والدته. توجهت دون كلام فجلست فوق كومة البُسْط. وفي الحال مدّ الابن يده ووضع المقعد الناعم تحت رجلي أمه. وعلى عادتها جلست مدة واضعة يداً فوق يد. ثم تنهدت، وقالت كأنها تحدّث نفسها، مرتاحةً للهفة ابنها عليها:

- من أين تأتي بيد أحرقّ عليك من يد من خرج من رحمك!.. يبعثوني على الغثيان بوجوههم القبيحة، كانت أكوز تتحمل إن قرصتها أو شددت شفتيها. الله يعلم خادمة من الآن؟..

لم يعلق علي سلطان جهرًا على أقوال الأم. من المسؤول عما جرى لها، نصحنك ألا تفعلني فأبيت إلا أن تبيعيها. وبعدها جاءنا خراب البيت من جهة والدنا، ربما نتحمل جريرة بيعها. تنهد شرلاًقوه فجأة نتيجة أفكاره، فانتفضت داريت ونظرت نحو ابنها.

- يا صغيري، يا ولد، هل ستبقى محبوساً في البيت وحدك؟ ألا تزور أحداً لتزجية الوقت!.. لا بأس أن تزور الفلاح مامرخان مساء. يقال عن المسكين إنه يشعر بالملل أيضاً في بيته. - لمّحت داريت، وكأنها قالت ما قالت دون قصد، إلى ما كانت تفكر فيه منذ أيام.

جرى ذكر المرشحة للزواج لعلي سلطان فتورد خداه لا يعرف أين يذهب برأسه. أدار وجهه إلى أحد طرفي الباب يريد إخفاء انفعاله. لم يكن أحد يعرف قدوم مأساة آل شرلاًقوه الذين وقّتوا عرسهم في الخريف الماضي. كان أول من فكر بالعروس هو ناغوه. قال لنفسه بعدما أطلعته حاغور موسى على رغبته في أكوز: لماذا أذن لكم أنتم قبل أن يتزوج ابني، وأشهد فرحه، وأدعو الشابسغ كلها إلى عرسه، فعجّل هذا من مخططه لأكوز. وكما العادة ألا يُختتم المأتم بعرس لم يتوقف مشروع آل شرلاًقوه فحسب بل كذلك عرس آل حجمقوه

المستعجل فسبّب الحزن للأسرة كلها. وأفنت الإهانة الأمير حجمقه قانشاو حتى لنتكره إن رأيته فقربت سنوات الحِداد غير المرئية.

- أراك لا تقول شيئاً يا ولد؟

- وهل نحن في وضع يسمح لنا بالكلام في الموضوع يا أمنا؟

- أكون قد فكرت في وضعنا متى ما قلت لك!.. لا تستحي مني يا ولد في هذا الموضوع، ولا تُشح بوجهك عني. إن تشاركنا، أنت وأنا، في قولنا وفعلنا رقصت القرية كلها على كلامنا. لا تُفن نفسك بشرعة الأديغة! نحن الشرعة. ليتهمنا أيّ إنسان. من لا يعجبه فسنجعل عينيه تذرفان دمًا.

- ليس هذا ما أتكلم عليه يا أمنا، - لم يرفع علي سلطان رأسه.

- ماذا إذن؟ - لم ترفع داريت عينيهما الباردتين عن الجدار طوال حديثها مع ابنها، - ولم تحرك قامتها الطويلة المنتصبة، ولا حركت رأسها الذي يشبه الحية المتأهبة.

- ألن يستاء والدي إن فعلت مثل هذا؟

- والدك تكلم معي الليلة في المنام يا ولد. وهو من أرسلني إليك. استقبلوه في الآخرة وباب الجنة مفتوح على مصراعيه... قال لي: بلّغي الولد أن يتحلى بالرجولة مع الفلاحين. وهنا يتصارع هؤلاء على باب جهنم. يتماسكون، والأقوى يرمي خصمه في النار. وأخبرني أن جهنم بانتظار شباكوه ووستقوه. ومامرقوه لم يسمحوا له بالجنة، ولا ألقوه في النار، بقي لا من هنا ولا من هناك. يؤلم مرآه القلب.

- يا أمنا، - أسرع علي سلطان خائفاً ومتعجباً مما يسمع، - ألم تسأل والدنا عن مقتلته؟

- وكيف لا أسأله؟

- إذن؟

- قال لي أن لا حاجة لكم به الآن!

- لماذا يُخفي يا ترى؟

- لا أعرف يا حسرتي إن لم يكن في الأمر مسألة الجنّ.

- وهل يعرف الجن الخنجر؟

- لا أعرف يا صغيري... - لم يخبرني شيئاً بهذا الخصوص. - نهضت داريت، - واكتفى بالقول في طريق عودته إلى الجنة : لا ينس الولد مامرخان!..

كلما مضى الوقت على الحديث الذي دار بين داريت وعلي سلطان اقترب الخوف من ذهنه مثيراً فيه الذعر الخفي. يثور فيه الرعب إن كان جالساً أم نائماً كأن أحداً ناداه. وفي طريق عودته من صلاة العشاء يتصور أن أحداً سيأتيه من الخلف ويهاجمه، فيصل إلى البيت غير مصدّق، وعزق الذعر يتصعب منه. صدق كلام أمه عن زيارة والده إليها، غير مستوعب لها، متسائلاً عن سبب عدم زيارته إليه هو. وزار مامرخان في الأمسيات الأخيرة بضع مرات دون نشر الخبر تحقيقاً لرغبة والده. ولما كان استقبال المتنفذ وحده مسؤولية الفتاة، ولا يستسيغونه، فقد دخلت معها أختها الصغيرة. وكنتموا الخبر. ولم يصل الخبر إلى القرية فلم ينتشر. فحموا الشاب وابنتهم معاً. وتغيرت نظرة علي سلطان إلى أمه خلافاً للماضي. وداريت من جهتها، لا تسمح لكلامه أن يطأ الأرض، وتنفذ طلباته بسرعة، مطوعة ابنها كما تشاء.

في أحد الأيام، بعد صلاة الظهر، لم يغادر علي سلطان الجامع وأطلع الأفندي أكجكوه على سره: أطلعه على زيارة والده لوالدته، وحديثه إليها، مع بعض الزيادات دون وعي منها. في البداية ارتعب أنزور، متسائلاً عما تقول هذه الجنية الشريرة. وغزا التكذيب الذهن. ثم قرر ألا يضحى بمنصبه، ويسايرهما مهما قالوا. وعاد الدم على مرأى العين إلى وجهه الشاحب.

- ليجعلنا الله من المسلمين الذين يزورهم شراً فقه ناغوه بالخير. يا مبارك النسل، يا علي سلطان، أعطاك الله لساناً مباركاً. ما أجل هذا الخير!.. لماذا تكتُمونه إلى الآن؟ إذا كان مصير ناغوه إلى الجنة فقد انفتح بابها لفلاحي باستوك أيضاً. لو عرف المساكين كانوا فرحوا. لن أؤخر الخبر عن صلاة العشاء الليلة. جئتنا يا مبارك النسل بخبر سار!..

- أليس الأفضل أن نستشير والدتنا؟ - عاد علي سلطان بقلبه إلى أمه متسائلاً عن صحة تصرفه باتخاذ الأفندي موضع ثقة.

- تقصد داريت؟ .. - وكيف لا نسألها؟.. - ابتسم أنزور بوجه ممتلى متوهج.
- ألا نذهب الآن ونسألها!.. - داريت قديسة، إن لم نستشرها فمن
نستشير؟!

كان ما تريده داريت تماماً هو لقب "قديسة" الذي نطقه الأفندي. وهذا هو
السبب في أنها نطقته أمام ابنها أولاً. فكرت لنفسها قبل كل شيء باللقب
حين بدأ آل شرلأقوه يتقبلون نفوذ زوجها كي تطوع ابنها كما تريد. استعجلت
بالموضوع مقدرة أن من الأفضل تصديق من يسمعون الخبر.

حين توجه علي سلطان والأفندي أنزور إلى داريت للاستشارة تبين أن عند آل
شرلأقوه ضعفاً. مقاي في المضافة، اختلط شعر رأسه ولحيته وشاربيه دليلاً على
أنه جاء من مكان بعيد. وداريت، ولو أنها امرأة، فهي المسؤولة عن الضيف.
بعد أن تبادلت التحية مع الأفندي، وجلسا بعض الوقت يتحادثان، قالت
داريت في لحظة انقطاع للحديث:

- هل تعرف يا أكجكوه الخبر الذي جاء به الضيف؟ شاهد حاغور ذا الرأس
الضخم في القرم بعدما سلب من غابة تحمز كل ما جمعه المرحوم مامرقوه طوال
عمره. يأكل ويشرب على هواه...

- حاغور؟.. - استغرب أكجكوه ما سمع.

- لماذا؟ إن كنت لا تصدق فاسأل ابنك متى رجع يُجيبك.

-7-

- نان، يقال إن موسى شوهد في القرم!.. - انفتح الباب، ودخل لاقه فرحاً
متلهفاً لإبلاغ الخبر.

- ماذا تقول يا صغيري؟! - تلهفت لاشين مما سمعت. - بارك الله في فمك؛
من جاء بالخبر؟

- ضيف آل شرلأقوه. - تغير لون لاقه بدلاً من الفرح، - هو مقاي.

فرحت لاشين بالخبر ولكن ناقله لم يسرها: لم تكن تريد أن يكون هو مصدر
الخبر، خيراً كان أم شراً. ألم يكن من الممكن ألا يلتقي ابنها بأخبث الناس في

إقليم الأديغة؟ ما أسوأ هذا الحدث!.. بأي عين سينظر إلينا من يسمع الخبر؟.. سيقولون إنه صاحب المجرم فيسينون إلى سمعة أولادي. لاشين جالسة بصمت أمام ابنها لاقه ناقل الخبر كأنها أمام خطر داهم. تتسابق أفكارها، قلقلة على ابنها موسى الذي هو في بلاد غربية. وفجأة شحب وجهها، ورفعت رأسها:

- يا صغيري الحبيب، ما الذي أخذ ابني إلى القمر البعيدة؟ هل يعرف بداد بالخبر؟

- نعم، بداد هو من أخبرني.

- ألم يكن جديراً به أن يخبرني أيضاً؟

خرجت لاشين من الغرفة غاضبة. شمس الظهيرة تتأمل باستوك بقبعة شقراء مائلة. أطفال الحي يلعبون لعبة البلبل وهم يتصايحون. خرج رشيد من بين اللاعبين، ونادى أمه:

- إلى أين تذهبين يا نانا، أنا أيضاً سآتي.

- لا، تابع لعبك. أنا سأعود، ذاهبة إلى بيت بداد.

توقف رشيد حين سمع أنها ذاهبة إلى بيت بداد. وعاد صامتاً إلى رفاقه، ووقف بينهم يفوقهم طويلاً. قالت لاشين في سرّها: حقاً اقترب رشيد من سن البلوغ، غير أنه لا يكفّ عن لعب البلبل. وفي الحال سمع الولد اسمه:

- يا رشيد، ألم أطلب منك الخروج من بينهم؟ - نادى لاقه من فوق باب الدار. تعال نقدم العلف للأبقار.

- يا ربي، هل سيكبر هؤلاء يوماً وأعوض شقائي معهم؟ تأملتُ من الأكبرين وأنا أردد هذا، غير أنهما كليهما كالطفل الهائم على وجهه. بداد، لا أعرف كيف سقط هذا الولد الكبير من بين أولادي. لا فائدة منه في شيء. الأفضل أن تقولي: لم يكن عندي بداد، وانتهى! لا يعرف ما يسمى بالشفقة على الأم وعلى الإخوة. لا يصل فكره إلى البعيد وإن كان أكبرهم، وعنده أسرة جميلة. ألا ترى أن خبر أخيه لا يشغل باله؟ إن لم يهتم به أفلا يهتم بي؟ لا يفارق باب آل شراً لقوه.

توقفت لاشين كي لا تقطع طريق الرجل الذي ظهر من المنعطف. وفي الحال تعرفت المرأة على تحخوخه نفافؤه. فرحت لاشين حين رأت صديق ابنها ظناً منها أن ابنها الذي يقال إنه في القرم قد عاد. ونسيت برؤيته عتبها الذي في صدرها على بداد:

- هذا أنت يا نفافؤه من لم أعرفه!..

- نعم، أنا هو يا لاشين، كيف حالك؟ والأولاد ما عيشتهم؟

- عتي عليك يا نفافؤه!.. أنا غاضبة منك. لو كنت تريد معرفة حالي كنت زرتني. التقينا بالمصادفة في الشارع فتتظاهر بالسؤال عني. أنت مثل أولادي. لي عليك أن تأتي إلي وتسألني عما أريد.

- والله كنت آتي إليك بهذه النية. - قال تحخوخه دون رياء. كنت أود التأكد من صدق الخبر الذي سُمع عن موسى.

- جاء هذا الخبر من مضافة آل شرلأقوه. يجب أن تعرف أفضل منا.

- لا أريد أن أتحدث إلى النبيل مقاي يا أمنا. ولكني فرحت حين سمعت الخبر. المهم أنه بخير.

- نعم، نعم يا صغيري. المهم أن يكون بخير أينما كان. ولكني لا أعرف ما الذي ذهب به إلى القرم البعيدة فاحترت. ألم يقل لك سبب سفره إلى هناك؟ كيف سيجيب نفافؤه على سؤال لاشين؟ إن قال: بسبب قصة حب؛ أيليق الحديث في هذا أمام الأم؟ لم يجد الجواب من اللائق. وإن أخبرها أنه لم يصارحه بسبب سفره ففطنة لاشين تصل إلى البعيد؛ لن تصدّق. سيدخل بينهما ارتياب بارد إن كذب عليها.

- موسى يتابع قضية فلاحية يا أمنا.

- أليس في باستوك من هو أشد منه رجولة؟

- وهل هذا موضع سؤال يا أمنا؟

- إن كان هذا فمن حسن الحظ أن يخصّوك بهذا الشرف. ولكن في باستوك من هم أشد رجولة من ولدي. من معه؟

- لا أعرف يا أمنا.

- يا مصيبي إن كان الولد وحيداً!.. سيكتفه النبلاء المحرمون ويجعلونه ثمن قماش بنطال.

- لا تخافي على ولدك!.. لو كانوا قادرين على أن يفعلوا به هذا فالنبيل مقاي الذي نقل الخبر يعرفه في القرم منذ زمن بعيد. ثم ثقي بأن ابنك موسى سيجد رفيقاً أينما سافر. ألسن يا لاشين من كانت تقول لنا: من يركب طريقاً لا يتعثر فيه؟ اطمئني من هذه الناحية.

وقف تحخوخوه بعض الوقت أيضاً معتبراً وقوفه مع المرأة في الشارع غير لائق. ولم يكن يجد من اللائق أن يقاطع حديث لاشين. رأى من بعيد فارسين يأتيان من الحي الشمالي. قال نبالوه مستغلاً فرصة انقطاع كلام لاشين:

- سأعود إذن يا لاشين. سأزورك في إحدى الأمسيات. سيكون عندنا الوقت لمزيد من الحديث. مع السلامة.

لم تجد لاشين ابنها بداد في البيت. جلست هي والكنة بعض الوقت، ثم طلبت منها أن تلح عليه في أن يزورها مساء.

لم يزر بداد أمه في المساء المقرر ولا في المساء التالي. ولم يظهر له سبب ملح يمنع من الزيارة. وجاء المساء الثالث وهو يجد لنفسه مبررات وهمية. كان سبب صعوبة زيارة أمه واضحاً إليه. كانت الوصية التي تركها له أخوه تبدو له قاتلة حقاً. يُحِيل إليه أنهم يُجبرونه على أن يرمي بالذهب في نهر إيل، لا إلى أمه. يغضب بداد قائلاً: وأنا أيضاً محتاج إليه!.. وحين يهجم الدم على الصدغين يقفز ويدرع أرض الغرفة. والمرأة تنظر بدهشة إلى الرجل الذي يحترق غضباً دون معرفة السبب. والمناسبة المباشرة لحالة القلق هي الخبر الذي نقله مقاي بشأن تركه مامرقوه، وانتشر في القرية. لم يكن يثق بأحد متوهماً أن الجميع يعرفون تقاسمه المال مع أخيه، وأن الجميع يتآمرون خفية عليه. ثم عرف الخبر المنتشر في القرية باستجواب غير مباشر للمرأة:

- لا أظن أن سبب رحلة أخيك إلى القرم هي ثروة مامرقوه، - قالت سامت وهي ترفع المائدة من أمام الزوج، - يقال إن تركه مامرقوه يزن حمل عربة ثيران. هل يستطيع أن يحمل كل هذا إلى القرم فارساً؟

- أياكون مامرقوه ترك مالا كئيرا كهذا؟ - سأل بداد المرأة متظاهرا بأنه لا يعرف شيئا. ثم هجم عليه الشك كجناح صقر بعدما كان إلى الآن محتفيا. - الدب الكبير لا قرار له. لا يرتدع عن فعل أي شيء. ربما تظاهر بأنه يتقاسم معي، أنا المغفل الكبير، حذرا من أن أسمع الخبر، فخدعني. إن كان فعل بي هذا فلن أغفر له ما دمت حيا. أنا هنا أرقع لإخوتي ملابسهم، وأفنى لأجلهم، وهو ينقل مالا بالعربة إلى أرض غريبة. ماذا ينوي بالمال؟ والله ما تقولينه عجيب، - نهض بداد عاجزا عن الاستمرار في الجلوس. ولبس الفراء ليخرج من الغرفة.

- ألم تزر السيدة الوالدة إلى الآن؟
- الحق أيتها المرأة اتركيني! هل عليك أن تحدد لي أين أذهب! - عض بداد بجلد الذئب إلى الخلف، واستشاط غضبا.

كانت سامت تعرف طبع الرجل فلم تُجر جوابا.
خرج بداد من الغرفة ووقف على عتبة الباب لا يعرف أين يتجه. نجوم المساء تتلامع في السماء. وفي الحديقة ثلج كقماش أبيض حتى لتظنه يضيء السقوف. يا بداد، ارتعش فجأة، ما العمل إن عرف الناس أنني تقاسمت مع أخي، ووصل الخبر إلى أمي؛ ألن يُجنّها الخبر؟ وسيتحول حليب صدرها إلى لعنة عليّ. وإن رجع موسى سليما فلن يقبل مني.

حين أرتج بداد باب الحظيرة، وخرج من الدار، لم تكن كومة الذهب التي في جيب الفراء تثقل عليه. وصل إلى أرضهم وهو مسرور للصواب الذي يفعله. ولما رأى أول عمود يظهر من تحت الثلج عصر الألم قلب بداد. ومد يده إلى الجيب بلا وعي. مر بأصابعه على القطعة الملفوفة بالقماش، وفيما يحاول أن يعرف عددها من جديد وصل إلى الباب، وفتحه.

النار المتأججة في الموقد تنير البيت أكثر من مصباح الدهن في الزاوية. نهض الإخوة الأصغر منه سنا جميعا حين رأوا الأكبر يدخل. ووضعوا له المقعد الطري الوطيء قريبا من الموقد. جلس بداد لا يعرف أين يخلع الفراء، ولكنه ظن أن أسفل الجيب نافر جدا فخلعه. وعلقه بيديه على الحائط دون أن يسمح لإخوته.

كانت لاشين عاتبة على ابنها الأكبر، ولكن العتب اختفى من القلب حين رآته:

- ما أكثر ما تأخرت في المجيء يا صغيري!.. سألت الأم يغلبها الحنان.
- والله لا أعرف كيف جرى هذا يا أمنا... عدت متأخراً أول من أمس، فلم أستطع المجيء وأمس كان عند آل شرلاقوه ضيف فأخرجوني حتى زرتهم. وفي النهار لا أستطيع بسبب الأبقار.

- يبدو أنك كنت على طرف مائدة آل شرلاقوه، صحيح؟
تبادل من سمعوا سؤال الأم: كريم وسبح ولاقه ورشيد النظرات وابتسموا.
وأجاب بداد دون أن يتوقف عند قلة أدب الإخوة:
- ليس كما تظنين تماماً يا أمنا. احتفوا بي هذه المرة حتى لا يعرفون أين يجلسوني. لماذا أفترى عليهم؟!

- ماذا أخذت إذن من الضيف من معلومات بشأن أخيك الأصغر؟ - سألت الأم سؤالاً آخر دون الاهتمام بجلوس ابنها في صدر المائدة، لا على طرفها.
- والله لم يقلل مقاي شيئاً أكثر مما سمعتم يا أمنا. رآه في القرم سالماً بحمد الله.
- نعم، ليحفظه الله، لا أعرف لماذا سافر إلى هذا المكان البعيد.
- لا يمكن السؤال عن سبب رحلته إلى هناك. - قاطع بداد كلام أمه.
- ماذا سمعتم يقولون يا صغيري؟

- ألم يكن "الرجل العظيم" قد همّ بالسفر على تركيا لرفّ عروس؟
كانت لاشين حملت قطعة حطب لتلقيم النار، فتركتها من الاستغراب.
وابتعدت بوجهها عن النار كأنها تحرقه، ونظرت إلى ابنها الأكبر.
- ألا تقول هذا من البداية!.. قالت لاشين بعدما تشاغلت بتقليب الجمر، -
على ما تقول: أخوك لا يخلو من الرجولة: لا يتخلى عن الفتاة.

- لا أعرف إن كانت رجولة، إن لم تذهب إلى تركيا من أجل لابسة غطاء رأس فالشابسغ مليئة بالفتيات. ثم كان بينها وبين تحخوخه علاقة ما على ما يقال. ما أحسن أن تلاحقه وتعيده من القرم تحت السوط، هذا المهرج الكبير.
- لا تقل هذا يا ولد. موسى، عافاه الله، يحمي شرف إخوته، ولا يسيء إلى

حاغور .

ارتمي بداد بقلبه إلى بيته عاجزاً عن الاستمرار مع أهله.

-8-

كان حاغور موسى يعرف أن السفن التركية لا تزور الشاطئ الشرقي للبحر الأسود شتاء، غير أنه لحق بأكوز دون مزيد من الانتظار. يتساءل: من يعرف؟ ألا يمكن أن تأتي سفينة مضطرة مثله؟ اللصوص لا يتورعون عن شيء في سبيل المال. وأسوأ طريق طريقهم.

وصل حاغور إلى بُنيده في يوم وليلة. لم يكن حصانه يعرف التوقف كأنه يعرف لطفة راكبه: يمشي متمهلاً، فما إن يُرخى له الزمام، حتى يركض بأي قدرة له حتى يوقفه راكبه. صار موسى على المرتفع المطل على السوق في الصباح وقت الفطور، فارتسم أمام عينيه البحر الذي له لون الرصاص. لم يكن في مرأى العين أي سفينة. والأمواج التي يطاردها المطر البحري تجري متتابعة في خط مستقيم حتى تصطدم بالشاطئ الصخري فتتكسر شرّ تكسير. وقبل أن تعود قطرات الماء التي قذفها الأمواج ترتفع قطرات أخرى. لا يجد صوت الصراخ ودمدمة البحر الغاضب هدوءاً تحت السماء.

طارت أفكار حاغور فوق جيش الأمواج الذي يتدافع صوب المكان الذي يقف فيه من الشاطئ، وارتقى على الجانب الغربي الآخر. تاه حاغور على مفرق الطرق السبعة دون أن يعرف إلى أين يتوجه. ليست الرجولة أن تحمل الجراءة وحدها، فالمهم في الأمر أن تعرف بنفسك حدود قدراتك. أن تأبى أن يأسرك العدو المعتدي على أرضك، وتأبى أن تتوسل إليه على ركبتك، وتضيق أسراً واحداً منهم، رجولة. ولكن من أجل أن يصفوك اعتباطاً بأنك لم تحف، ولا تعرف من أجل مَنْ تضحي، فالتبجح الفارغ يذهب سدى. ما دفع حاغور موسى إلى اليأس هو انقطاع الأمل. البحر الغاضب يقتحم وجهه، ولا يجد معبراً له، فبأي شيء تفكر يا حصاني الأصفر؟ تذكر حاغور أنه ليس وحده فتأمل عيني حصانه الواسعتين فيما يسمح على وجهه. وردّ الآخر بنظرة إشفاق

كأنه يفهم ما يقال. إن فكرنا بالعودة فلا تراجع عندنا. وإن فكرنا في التقدم فجيش البحر أمامنا.

رأى موسى شمس الشتاء الشاحبة تُشرق من جهة بلاد الأديجة إلى ما فوق الجبل. وفي الحال نسي إله الإسلام الذي لقّنه إياه أكجكوه الأفندي في جامع باستوك طوال سنوات. ابتسمت الشمس في وجهه كأنها تقول له: لا تيأس!.. ارتقى على ركبتيه ويده إلى الأعلى:

- أيتها الشمس، يا إلهي الكبير، إفهمني وارحمي. لا تُبعدني عن طريقي. اصنع معي هذا المعروف كسائر ما صنعت لي. وساعدني حتى أجد الفتاة التي أبحث عنها.

لا يتذكر حاغور أطال جلوسه أم لا. نهض ورأساً كتفيه خفاً بعدما أوصل مبتغاه إلى الشمس. مرة أخرى تفقد المرتفع بعدما ابتسم للشمس. وأعاد النظر في البحر الذي جعله إلى جانبه. كانت الأمواج ترتفع إلى أعلى منه في الصباح، غير أنه نظر إليها الآن بعين أخرى.

قرر موسى أن يبحث عن المراكب في خلال التفافه حول الشاطئ. نظر فإذا شاهدة قبر مامرقوه ترتسم أمام العين. يرتفع طرف الصخرة الكبيرة عن الثلج. تراءى له طريقة تفتيش جمكوي زيش، وطريقة اختباء مامرقوه في الدغل على أربعة أطراف كقوائم الكلب. كان يريد الانصراف عنه غير أنه لم يستطع إلا أن يدنو من القبر النائي في البرية. وقف بعض الوقت دون أن يترجل على قبر الذي أنزل المصيبة بأكوز، ثم انصرف.

ظلّ حاغور يلتف حول الشاطئ إلى ما بعد الظهر: وطوال هذا الوقت لم يعرف الدوي الأصم للبحر والهدير الصاخب انقطاعاً. قطع الفارس يوماً آخر يبحث عن مركب. وتجاوز مدينة سُجُوق. ولما اتجه إلى الخليج الذي يلتقي فيه البحر الأسود وقازيخ قرر أن يسافر إلى القرم. وما شجعه على هذا القرار أمران: أولهما توفر سفن كبيرة تتجه من القرم إلى تركيا، كان قد سمع بها مرة، ربما من شباكوه. والثاني أن نطار ابن الأفندي أكجكوه يتعلم في المدرسة.

كما يقال: العتب كبير، والحياة الدنيا غالية؛ حين عبر حاغور موسى الخليج

قطع طريقه في أسبوع، ووصل إلى قبجسراي. المدينة الكبرى خلية نخل خلافاً للقرى الأديغية والأخرى التترية التي مرّ بها. الخبز المشروح على الصباح، وخبز الذرة، على زوايا الشوارع. يقفون على طرف الشارع والدهن الذي يسيل من اللحم الذي يُشوى يؤجج النار. والحمالون عند عرباتهم يدعون الزُّبُن إلى استئجار قُواهرم. والعربات الفاخرة ذات الحصانين تدور في كل مكان. لم يفهم حاغور في البداية ما يرى: كيف يجري هذا؟ أليس هذا النوع من العربات للثيران؟ انظر إلى اللوح الخشبي الضخم الذي يحمله هذا الرجل على ظهره!.. هذا هو الحمال الحقيقي. يصدر صوت صريف النقود من أكف البائعين والشارين حتى ليستغرب حاغور جِدّة الصوت الذي يسمعه. وليس ما في المدينة جامعاً واحداً، بل يتجاوب أذان المساجد من أنحاء المدينة.

رأى حاغور عدة فرسان يجرون في الشارع. يُبعدون الناس إلى طرفه. وهو ينظر فاغر الفم مستغرباً ما يرى، ولا يريد أن يصبح على الطرف. تلقى من الفارس المدجج بالسلاح ضربة على ظهره بالسوط المنتهي بكرة رصاصية فرماه إلى تحت شجرة قبل أن يجد الوقت للغضب. وفي الحال حيّا الناس العربية المزينة بالذهب والفضة، وترجّل الفرسان.

بعدما عبر موكب الخان عاد الناس إلى أشغالهم. وتوقفت الضجة فوق قبجسراي. أيّ عالم وقعت فيه؟ ما الذي يلاحق هؤلاء فيتحركوا بهذه السرعة؟ لم يفهم حاغور، وليس مؤهلاً لأن يفهم الآن. دبّ اليأس في قلبه أكثر مما عاينه حين كان ينظر من فوق البحر الغاضب نحو تركيا. وأكثر ما يتسبب في اليأس جهله بلغة النغوي التترية. لا يعرف اللغة وإن كان معه ما يشتري به الطعام. ولا أمل له إذا أراد استئجار بيت. لا بد أن يجد أكجكوه نطار. هذا هو من يستطيع مساعدته في الموقف الصعب الذي هو فيه. أوقف حاغور عدة أشخاص وهو يقول: "مُدْرَس، مدرّس" ولكنهم لم يفهموا كلامه. ابتسموا له وانصرفوا. وبعدما وقف مدة ممسكاً بالزامام، لا يعرف أين يتجه، وقف إلى جانبه شابٌ. سأله بالأديغية محاولاً إفهامه موقفه الصعب:

- أيها الشاب هل تعرف المدرسة التي يتعلم فيها نطار ابن الأفندي أكجكوه

أنزور؟

رفع الشاب النعوي رأسي كتفيه إشارة إلى أنه لا يفهم الأديعية.
- "مدرس" ألا تعرف المدرسة أيها البائس؟- غضب حاغور. - المدرسة التي
يقيم فيها أكجكوه نطار.

فهم الشاب النعوي أن الأعجمي الذي يحدثه يسأل عن مدرسة ما. أشار إلى
جامع على طرف الشارع. فركب موسى من جديد وقد عاد إليه الأمل كأنه
وجد نطار حقيقة.

مقابل الجامع عدة بيوت. نظر حاغور إلى الدار فلم ير فيها أحداً. وبعدما
وقف مدة تدفق من البيوت جمعٌ من الأولاد. ولما كانوا يلبسون لباساً موحداً
فلن تجد فيهم حتى ولدك. ومع ذلك يستغرب موسى ما يرى: أكجكوه نطار
يركض وقد خرج من بين التلاميذ:

- يا عجبي يا نطار!.. - قال حاغور، وقفز من السرج.

- عرفتك منذ نظرت يا موسى!..

لم يدع نطار الرجل القادم من رحلة طويلة ينتظره. طلب الإذن سريعاً وصحبه
إلى صاحب البيت الذي يقيم فيه. ولم تكفهما فترة ما بعد الظهر فسهرًا حتى
منتصف الليل يتحدثان. لم ير حاغور نطار منذ أكثر من سنة. الولد التلميذ نما
جسده حتى لتنتكره. يتكلم بلسان مهذب كفتاة في سن الزواج. والشاربان
الأسودان الكثيفان يُضفيان عليه طابع الرجال. ولما انتهيا من أخبار القرية،
وسمع نطار ما يشغل بال حاغور، شحب لونه كما لم يحدث يوم قُتل شرلاًقوه
ناغوه:

- هل يأتي يوم يا ترى نتخلص فيه من الإجم؟ - الإنسان الذي لا يحترم
قيمة حياة الإنسان الآخر ليس إنساناً. لا يأتي مثل هذا قائلاً: أنا إنسان!..

- من لا يساوي الإنسان بقماشة بنطال ليس إنساناً يا نطار. - كان كلام
موسى مختصراً. - لو عشتَ مئة سنة لما انتهيت من جرائم الأمراء - النبلاء
والمتنفذين. وأنت يجب أن تذهب غداً إلى المدرسة، وأنا إن طلع علي الفجر
سأفكر في مكان عبور البحر.

- عندي صديق تركي والده بحار ممتاز، أتأمل أن يفيدنا يا موسى. سأقابلة غداً إن لم يكن غائباً.

-9-

مضت عدة أيام لا يستطيعان مقابلة الملاح. ولما ذهبوا الليلة أجاهما بأنه سيبلغهما الخبر اليقين غداً. توجه حاغور موسى مع نظار إلى الجامع وفي قلبه هذا الأمل. بحث بين المصلين لعل الرجل الذي وعدهم يكون بينهم، ولكن لم يجده. صلى موسى ونظار معاً عند المدخل. ولما خرجا من الجامع قال حاغور: - والله يا نظار لا فرق كبيراً بين صلاتنا وصلاتهم. تبين أن والدك أنزور رجل حكيم. يعمل بالدين دون أن يُنقص منه شيئاً.

سُرَّ نظار بالثناء على والده. وارتقى بقلبه إلى بلاد الشابسغ. وتناهى إلى سمعه صخبُ نهر إيل. ورأى شروق الشمس من وراء قمة بيباو البيضاء. وتساقط ورق الخريف في غابة تحمز مساء. وشعر حتى بنباح الكلاب.

- المأساة يا موسى أن والدنا يجهل اللغة العربية. - انفصل نظار من ذكرياته، - لا فائدة إن لم تعرف معاني اللغة التي تعمل بها، كل ما تعرفه عبثٌ.

- أليست لغة الله الكبير هو من يعرفها فحسب، لا أحد يستطيع تعلمها.

- من قال هذا؟

- سأقول لك: والدك!..

- لا معنى لكلامه وإن قال. نغوي القرم وتركيا ونحن وكل المسلمين يعملون بالدين الذي ظهر في المنطقة العربية. وبلغتهم كُتب القرآن.

- وهل هناك بلاد عربية؟

- وهناك بلاد أخرى غيرها.

- والله عالمنا مركَّب بطريقة عجيبة. كل قوم عندهم لغتهم الخاصة.

- الحاج قايمرزه يعرف ثلاث لغات: لغة النغوي، ولغة الترك، واللغة العربية.

ويتعلم الآن لغة الأمير الكبير. وحين يكلمني يستعمل أحياناً بعض الكلمات الأديغية.

- والله ما تقوله عجيب، - مرة أخرى أبدى حاغور تعجبه.

- الحاج قايمرزه ليس مجرد متعلم كبير، له قيمة عظيمة.

- ما منصبه الآن؟

- ألا تعرف ما يسمى بالشعر؟ - استغرب نطار جهل حاغور بالمعنى، - ألا تعرف هو أيضاً مثل ما يؤلفون الأغاني.

- ألا تقول إنه مطرب!.. قاطع حاغور الشاب.

- لا يا موسى، الشعر شيء آخر. - لا تستعجل، سأريك متى وصلنا إلى البيت.

مشى الاثنان مسافة لا يقولان شيئاً. الاثنان يتكلمان اللغة الأديغية نفسها، ولكن نظرة كل منهما إلى العالم مختلفة، وأفكارهما هذه اللحظة متباينة. الحياة تجعل الإنسان ذكياً. ليس ما عاناه حاغور موسى في الحياة قليلاً: مرّ بمصاعب كثيرة، وحدث أن استصغروه وأن كرموه. ولكن انتباهه زاد، شاعراً بهذا في نفسه، حين طاف أرجاء بلاد الأديغة إكراماً لشباكوه. وسما فهمه الإنساني. قال حاغور: لهذا قيل: ما تراه العين يساوي العمر كله، والتفت إلى نطار. هل كان تفكيره يصل إلى ما يصل إليه الآن لو بقي في القرية ولم يأت إلى هنا؟ لتكن في رعاية الله يا أخي الصغير!.. تنشأ شاباً لبيباً. لا تنس الفلاحين الذين تنتمي إليهم كما فعل والدك، كنّ سنداً لهم. ووالدك الأفندي لا ذنب له. آل شرلأقوه يدفعونه إلى الخطأ. وهل والدك وحيد في هذا؟ أخي الأكبر بداد، رغم معرفته بقاتل والدنا، يتمسح بآل شرلأقوه. يتخبط ويحلم أن يتحول إلى نخبة الفلاحين. يقف على عتبة المتنفيين. يا ربي هل أعطى لأمننا ما أوصيت لها به؟ ينشد أكجكوه نطار البيتين الأخيرين من مقطوعة خطرت له قبل أيام وكان نسيها، مع نظرة خفية:

لن أشبهك بشيء يا أرضي

سأحملك في أعماق القلب...

حالما دخلا البيت أشعلا مصباح الدهن. غمس الريشة في الحبر، وكتب بحروف عربية. نظر حاغور إلى الورقة متعجباً من طريقة كتابة الشاب. ثم قال وهو

يضعها:

- والله أنت ماهر يا نطار. تكتب كما كتب القرآن. دعني أر يا مبارك النسل.
كم هذه الكتابة قرآن حقيقي!..

بعد العشاء، صار الموضوع المقلق لحاغور مرة أخرى فوق الجميع فيما هو
يضحك ناوياً أن يضيف إلى ما قال نطار "سأريك عندما نصل". ظل
الموضوع بين شد وجذب بين الاثنين، مكرراً مئة مرة، حتى تعب. وبعدما أوى
إلى الفراش، وفيما ينصتان إلى صوت المطر في الليلة الشتائية، سأل حاغور مرة
أخرى:

- الحقّ يا نطار؛ هل يمكن أن يكذب علينا الملاح؟

- لا أظن أن يخدعنا يا موسى. ربما يريد إحراجك بالأجرة.

- هذا رأيك؟ سأدفع له مهما طلب. سنرى ما يقول صباحاً.

- تصبح على خير يا موسى!

- وأنت يا أخي الصغير. - قال حاغور، وبعدما هدأ قليلاً، عاد فجلس في

الفراش. - يا نطار أراك نسيت ما وعدتني أن تُريني إياه.

- غداً يا موسى، غداً.

- لا، حالاً - قام حاغور من الفراش، وأشعل المصباح. - سننسى مرة أخرى،

أرني ما وعدت.

تناول نطار الورقة التي كتب عليها قبل قليل، راضياً بتذكّر موسى لما نسيه هو:

- وعدتُك أن أريك ولكن يجب أن تقرأ، لا شيء يُرى فيها.

قرأ نطار بلغة أديغية، وبصوت لطيف، الشعر الذي كتبه، والذي يصف جمال

بلاد الشابسغ التي ولد فيها: غاباتها، وأنهارها السريعة، وجبالها، وسماها

الصفافية.

- أستغفر الله¹، أيّ عجب هذا الذي قرأته؟ - مدّ موسى يده، وقد استمد

الثقة مما سمع، ومرّ بعينه على الأحرف الملتوية، ثم سأل وقد هبط عليه خوف

¹ بالعربية في الأصل، هي والتعابير الدينية الأخرى، مثل: سبحان الله.

خفيّ: - هل كل ما قرأت مكتوب هنا؟ لا تضيّع هذه الورقة يا أخي الصغير.
- ما الذي اختتمت به ما قرأت يا أخي الصغير؟
- لن أساويك بشيء يا أرضي.

سأحملك أينما سرت في أعماق قلبي...

لا يعرف موسى سبب إعجابه بالشعر الذي قرأه نطار. أ يكون لأنه يخطط للسفر إلى بلاد أخرى؟ جرى له شيء لم يعرف هو طبيعته، وخطرت أكوز في الذهن، وقبل أن يجد الفرصة للتهد عاد حاغور بذهنه إلى إقليم الأديغة.
أجلاً نوم الليل، وسهراً مدة طويلة. حين صاحت الديكة في منتصف الليل نأماً على مضض تحسباً للمصاعب التي تنتظرهما غداً. لم تكن الأشعار القليلة التي ألقاها نطار تسمح لحاغور بالنوم. ولا يصدق أن ابن قريته، النائم معه في الغرفة، هو صاحب هذه الأشعار.

- يا نطار، هل أنت كاتب ما قرأت؟ أستغفر الله. ما أجل ما ولّفت بينها!..
لم أعرف أننا نتكلم مثل هذه اللغة. لا تُضيّعها يا أخي الصغير! ما أجل ما نظمت تلك المقطوعة المتعلقة بالأرض!.. مرة أخرى كرر حاغور الأسطر الأخيرة منها.

لم يكن الطالب الشاب يتكلم غير أن الفرح كان قد تملكه: من قرأ عليه الشعر بصوت عالٍ صدّقه، لم يهزأ به. وفي هذه اللحظة لم يكن يريد أن يُشرك أحداً في أفكاره: كانت الأفكار في صدره بكل دفئها.

تحقق ما كانوا يسعون وراءه صباحاً كما وعد نطار. كان كلام الملاح مختصراً:

- إن أعطيتني حصانك عبرت بك البحر.

- هل قلت حصاني؟ - تغير لون حاغور مع سماع كلمة الحصان، - هل يبيع حصانه ومعه كل هذه النقود؟ - ألا يمكن أن نتعامل بالقروش؟

- لا، حصانك أعجني - حسم الملاح، - وإن رفضت فأنت حرّ، ابحت عن غيري... - مصّ غليونه بضغمرات دون كلام، ثم سأله: - هل تنوي العبور مع الحصان؟

- لا، سأعود به إلى بلادي بعد انتهاء مهمتي.

ابتسم الملاح.

بعد ظهر اليوم الثالث، موعد ركوب موسى المركب، رأى الشمس تغرب. خطر له أن يركع ليشكر الشمس، ويدعو إليها أن تسهل مهمته، ولكنه خشي ألا تفهمه شمس النغوي، فلم يركع لها، ودخل المركب غير أنه نظر وهو يسمع نبض قلبه إلى جهة شروق الشمس التي كان قد قرر أنها ليست شمس، فخطرت له آيات شعر مما أنشد نطار قبل أيام يمرّ بها على شفّتيه فجأة. رأى الشمس الحمراء التي تنزل خلصة ثم تغرق في البحر فتملّكه اليأس المطلق. تخيل موسى أن العالم يتغير مع سرّه المخيف وأسرار البحر اللامتناهية. والناس تجمعوا على باب السفينة. هذا هو الواقع؛ شمسك لن تصبح لك، تتركك في عباب البحر وتغيب. خطرت باستوك لحاغور. وخرج منها إلى الجمكوي. شمس الأديغة رحيمة مهما كان رأيك فيها. تفهمه؛ أليس يخاطبها بلغتها؟ يا ربي من يرشدني إلى بيت حسن مراد؟ لو وجدته لسهل العثور على طلعت، سيفيدني بقدر طاقته. ولم لا يفيدني وهو فلاح مثلي؟ لن أزعجه في شيء. سيكسب ثواباً كبيراً إن دلّني على مكان أكوز. من حظي أن "قباي" النغوي الذي يعرف الشركسية صار رفيقي. هو مسافر إلى الكعبة، وصالح أفندي الرجل الصغير ركب الطريق بهذه النية، ولم يعد. لولا صحبته لصرت أعجم في السفينة هذا اليوم.

- قل لي يا صاحبي لماذا كل هذا اليأس وأنت ما زلت هنا!.. - سأله الملاح القادم بلغة النغوي، نظر حاغور إلى الرجل دون أن يفهم كلامه. - نسيت أنك أعجم... كيف تسافر وأنت لا تعرف شيئاً من العالم؟
- كم أنت أعجمي تماماً، لا أفهم كلامك - أجاب حاغور على من لم يفهم كلامه، ونادى قباي. - هذا الملاح ينوي لي شيئاً؛ أسأله... تبادل قباي والملاح بضع كلمات. ربّت الملاح التركي على كتف حاغور وهو يضحك. - لماذا تضحك كاشفاً عن أسنانك وراثتاً على كتفي. هل تسخر مني بعدما سلبتني حصاني يا سليل الكلاب! استغللت حاجتي لتعاملني كما تشاء.

- سألك: لماذا كل هذا اليأس.
- هذا ما يقوله؟ ظننت من ثرثرته أنني اقتربت حراماً... قل له: هل أيأس إلى هذا الحد لمجرد أنني فقدت حصاني.
- ما العمل؟ تحدث لك أمور كثيرة في الأسفار غير منتظرة. أنا عندي ابن أخت يعرف جيداً الأدبيغة، يعمل مترجماً للثريّ لحسن مراد، ويسافر إلى إقليم الأدبيغة كل عام. وعنده معارف كثيرون هناك.
- هل تقصد طلعت؟
- نعم، هو بعينه. من أين تعرفه؟
- يا لحظّي الذي ساقك إليّ!.. إذا كنت تعرف طلعت فقد انحلت مشكلتي. الأدبيغة يدفعون بشارة في مثل هذه الحالة. أخرج موسى متلهفاً خاتماً ذهبياً، ومدّه للرجل. - خذه مكافأة على خبرك السارّ، خذه، سأكون سعيداً إن قبلته!..
- هذا عيب لا أريده - لم يقبل الملاح. - أنت على طريق، الخاتم، بل الكوبيك مفيد لمن يسافر. سنصل إلى إستانبول الليلة، وسيستقبلني طلعت.
- الليل المظلم الذي خيم على البحر والذي يشبه وجه حاغور جلب له فرحة غير منتظرة. فاضل، الملاح الذي عاداه من أول من أمس، وظل ينظر إليه شزراً، لم يكن في السفينة من هو أقرب إليه قلباً. كان يتقبل كل ما يقوله أو يفعله الملاح. أحياناً حين ينقطع صوته عن حاغور أو يغيب عن ناظره، يُخيل إليه أنه فقد أثره، وبقي وحده في العراء. صار يقف قريباً منه أينما ذهب.
- لمعت النجوم في السماء، يبدأ سطح البحر يضيء على نحو ملحوظ. وتبدو من بعيد مصابيح باهتة على الجانبين. قال حاغور: ربما هذا ما يسمونه بلاد الترك. ماذا إن لم يستقبل طلعت الملاح؟ إن لم يستقبله فهل يترك فاضل السفينة بحاها ويهرب؟ اعتبر موسى سؤاله غيباً. متى ما وطئ الأرض فسيكون طلعت في استقباله. ويعتبر نفسه وجد أكوز بعده. ما حال أكوز يا ترى؟..
- كان بيت طلعت يبعد مسير نصف ساعة تقريباً من محلّ رُسو السفينة. اصطحب طلعت الضيف إلى داره عبر الدور دون أن يلتفوا. لم يكن في البيت

أحد. كان فيه كرسيان وصوفا خشبية. وإلى جانب الحائط سجادة قديمة تصلح للجلوس أو للنوم.

- تفضل يا موسى. لا تعدّ نفسك ضيفاً وإن كنت كذلك. ما عندي عندك، وما ليس عندي ليس عندك.

- هل تعيش هنا وحيداً؟

- نعم، أنا لستُ من إستانبول؛ بل من قرية صغيرة تبعد من هنا مسير نصف نهار. استأجر لي حسن مراد هذه الغرفة لأبيت فيها حين لا أستطع العودة إلى القرية.

- ماذا يفعل حسن مراد في هذه الأيام؟ - يسأل حاغور الشاب الذي أعدّ مائدة من حواضر البيت.

- في أحسن حال. يعيش كما تعرفه. مستعجل على قدوم الربيع. يستعد للسفر إلى نواحيكم.

- ربما يُحضّر أقمشة البناتيل.

- لا تُخطئ يا موسى، والله لا يتصرف حسن مراد بطريقة لائقة مع أكوز، الصبية التي اشتراها من مامرقوه!.. سقط من عيني بعدها. ما أعجب صاحب المال...

- ما سلوكه السيء؟ - سقطت اللقمة التي رفعها موسى!..

الفصل الثاني عشر

-1-

مرض الأمير الكبير حجمقوه قانشاو في طريق عودته من الشابسغ، تغير نبض قلبه، وسقط الزمام من يده بلا وعي منه، فحملوه من السرج غير قادر على تحريك جانبه الأيسر. وبكى بعض الحراس الذين ظنوا أن أميرهم مات. حتى من كانوا يقولون: الحمد لله على أن ارتحنا منه، لم يمسكوا دموعهم. كان أكثر الواقفين على رأس الأمير المضطجع على جانب الطريق فوق كساء أسود

مهمومين بمصير الأمير الذي سيصبح جدّاً. لم يتوقف أحد عند الحارس النبيل مرزيج الذي أطلق صوته بالبكاء. ولكن عندما صحا الأمير من غيبوبته، وفتح جفنيه، ارتعب الواقفون. ثم عاد إليهم الوعي؛ فاختلط ضحكهم وبكاؤهم بفضل الله الذي عطف عليهم.

لم يعودوا بالأمير المريض إلى طؤابغوه في عزّ الظهيرة. قالوا: لماذا نعرضه بهذه الحال على الفلاحين، فأوصلوه إلى البيت في ظلام الليل.

منذ ذلك اليوم، وخلال نصف العام المنصرم لم ينهض الأمير الكبير من فراشه. لم يتركوا طبيباً في إقليم الأديغة لم يطرقوا بابه. ولم يكتفوا بهم، بل استدعوا طبيباً من القوزاق الذين أقاموا عند كوبل. لم يُخَفِ هذا الأخير أن الشَّق المشلول من المريض لن يُشفى، بل تبّهّم إلى إمكان عودة المرض الأصلي، ومع ذلك يستطيع أن يعيش سنوات كثيرة.

يعرِف الأميرُ الكبير الذي مرض وصحا على طريق الشابسغ، مهما كانت مدة غيابه عن الوعي، حقيقة كل من وقفوا من النبلاء على رأسه: نظراتهم، وبكاؤهم، حتى طريقة وقوفهم. ومن لم يكتفوا منهم بمحادثته على انفراد وشى له بعضهم بحق البعض. وكان معتاداً على هذا. فإذا طال الوقت على الوشاة ظن أن الواشين والضحايا يعادونه. ولا يحبذ أن يأتيه العُود مجموعات، وإن لم يُبدِ انزعاجاً، يفضل أن يأتوه فرادى، فيبشّ لهم. أنا لا مشكلة لديّ، المهم أن يعرفهم الأمير الشاب كما أعرفهم أنا. كان والدنا المرحوم يقول: عليك أن تعرف الصالح والطالح ما دمت حياً. هل حان موعد التحاقي بك يا والدنا؟ هل الوقت ما زال مبكراً؟ أولادي لم يمدّوا جذورهم بعد. من النحس أننا صرنا أقرباء لآل شرلأقوه فلم نعمم بالفرحة الأولى في حياتي لابني الأكبر. ومن سيقدمون لنا الهدايا لم يقدّم لنا نصفهم. متظاهرين بأنهم مترددون في تهنئتنا، ماذا تقول لهم؟ وإن قلت شيئاً يدينونك!..

ما يشغل بال قانشاو هذه اللحظة، ويوهن القلب، هو ما أضيف إلى مرضه من أوجاع الأعضاء. لم ينس ساعة انتكاسة عرس ألقس، حمله معه. لا يتذكر أحداً من آل حجمقوه أصيب بهذا المرض. والآن انقلبت عليهم الحال. صارت

حياته: فرح العدو وشارب متسخ. ليس في ما حدث إصابة بالعين. ولا علاقة للجن. لم نقصر في معالجة المرض من هذه النواحي. بصّرناهم في الليل، كما في النهار. استدعينا حتى عجوز آل قُف من قرية طؤابسه الشابسغ. ربطنا ثلاثين قطعة من أذيالها في الغابة لمن لا تثق بهم. أياكون الحاج عاتباً علينا؟ ارتعب الأمير قانشاو من السؤال المفاجئ الذي خطر له. وكيف لنا أن نعرف إذا كان الحاج عاتباً علينا؟ لا يمر يوم جمعة دون أن نتصدق، تُرفق بفخذ الخروف ملعقة ملح. سأوصي في الجمعة القادمة بملعقتين، بدلاً من واحدة¹. لا أعرف مقدار ما عندنا من الملح. وألّقس لا يقول شيئاً. إذا لم يهتم بمثل هذه الأمور فيم يهتم؟ والمأساة أن الأرامل الذين نرسل إليهن الصدقة عنيّات: لا يقبلن إلا بالملح فوق فخذ الخروف. وإلا ما اعتبرن أعطيتهن شيئاً، حتى لتظن أن لهن علينا ديناً من الملح! كان والدنا المرحوم يحتج على مثل هذه التصرفات قائلاً: هل لهنّ علينا دينٌ من الملح؟ وهذه هي حالنا إلى اليوم. ما أصعب إرضاء الإنسان!..

قال الأمير الكبير لمرزيج في أحد الأيام:

- اذهب وأحضِر لي الإخوة الفلاحين الثلاثة مشقوه! وقل لهم أن يصطحبوا فوجه لاجبي. هذا الـ "فوجه" لا أريد أن تقع عيني عليه، ولكن ما العمل؟ قريبهم!

وصل الإخوة مشقوه حالاً ومعهم فوجه. الفلاحون الأربعة الذين دخلوا الغرفة كلّ واحدٍ منهم أضخم من الآخر. وبالقياس إليهم لا يبدو ألّقس ومرزيج من أرض الغرفة. والأمير نفسه صغر في الفراش. نظر الأمير إلى الفلاحين الأربعة الواقفين إلى جانب قائمة الباب فامتلاً قلبه باليأس. لم يكف هذا فنهر نفسه بنفسه: لماذا طلبت هؤلاء الصلّعان الأربعة ليقفوا أمامي؟ لو كنت إلهاً ووقفوا أمامك لما نجوت منهم. عينا لاجبي تلمعان كعيني الذئب. ماذا يضيره أن يخلق السواد يشع من وجهه. وهل إشبين ألّقس مشقوه ترقان أحسن من فوجه؟ كفاه

¹ كان الملح قليلاً عند الأديغة، والحصول عليه صعباً.

كأصابع الشوكة القديمة تصلان إلى ركبتيه. وفردتا حدائه تحتلان أرض الغرفة. والأصغر ان هل أراهما أطول من الأكبر!.. قائمة الباب وراء كليهما تحتفي وراء كتفه. يا إلهي احبنا منهم!.. خطر لأمير البجدوغ أن يستدعي حراس الفلاحين ليمزقوا هؤلاء قطعة قطعة. انظر إلي وإلى ابني الأكبر، وانظر إلى هؤلاء؛ لماذا لا مساواة بيننا في الأجساد؟ كان عليك أن تنظر إلى من أعطيت. يا إلهي أقول هذا في ساعة ضيق فاغفر لي كلماتي السخيفة، الملهوف يتكلم ما لا يجوز فلا تُدِرْ لي ظهره!

- اذهب يا مرزيج، وتابع أعمالك، - لم يفتح الأمير عينيه إلى النبيل الحارس، وينظر إليه.

- أيها الأمير، الأحصنة...

- الحق أيها الحارس مرزيج، - قاطع الأمير كلام النبيل، - كم مرة تبهتلك ألا تقاطع كلامي!..

- سامحني يا أمير!

- هيا، أغرب عن وجهي، وبلغهم ألا يسمحوا لأحد بالدخول. ظهر الغضب على قانشاوا الأمير أكثر من ذي قبل، وقال عقب مغادرة النبيل للغرفة:- اجلسوا أيها الفلاحون!

- لا يا أمير، لا بأس بالوقوف. - قال ترقان.

- اجلسوا متى قلت لكم أن تجلسوا!

- بأي حجة نجلس في حضرتك يا أمير؟ - تكلم فوجه لامجي من لحيته الكثيفة. - أليس عيباً؟

- كان عيباً لو لم أطلب منكم الجلوس - لماذا قالوا: من يطلب منك الجلوس لا يغتابك لاحقاً؟ - اجلسوا يا إخوتي الصغار!

- ما تطلبه منا يا أمير عيب... - ابتعد ترقان عن القائمة قليلاً وجلس.

- وأنت يا أمير؟ أراك واقفاً. - نهض أصغر الإخوة مشقوقه ودعا ألقس إلى الجلوس.

- اتركه، الأمير نزل ضيفاً عليكم، - سوّغ الأمير الكبير عدم جلوس ابنه: هل

تظنون أننا في حضرة مؤتمرٍ فلاحيّ؟..

- إن حضرت معنا جمعاً فلاحياً يا أمير عرفنا مكاننا نحن. ولكن إن وقف الأمير وجب عليّ أن أشاركه في الوقوف بصفتي أصغر الإخوة. - عاد ماجه فوقف إلى جانب الباب.

تكلم الأمير الكبير على الشتاء القارس الذي يتراخى قبل أن يصارحهم بسبب استدعائهم لهم. وروى لهم أنه لا يتذكر شتاء كشتاء العام في ثلجه. ومهما دار ولمّح لم يستطع جرّ الحديث إلى ما كان يريده. هذه هي الحال، لام الأمير الكبير نفسه؛ أليس لهذا السبب قالوا: متى كنت مريضاً تهرأ فرائك حتى لو كان معلقاً إلى الجدار. لا أستطيع التحكم في عقلي كما أريد. وكيف تتحكم في بلاد كاملة ونصف جسدك معطّل؟! لا حاجة إلى الإطالة، هؤلاء الجالسون أمامي لا يذهب عقلهم بعيداً.

- السبب في استدعائكم أيها الفلاحون، - قال أمير البجدوغ الكبير، - قرر الله أن يشترك آل حجمقوه وآل مشقوه في الخير فتحقق. وأنت يا فوجه لست غريباً؛ آل مشقوه أخوالك. صرنا أقارب نتشارك في رعي المواشي، فاستدعيتك. لا عتب لي على أحدٍ من الحاضرين. كان الأمير ألقس يريد أن يجعل منكم أهلاً فاتخذ منكم إشيييناً. أنا واثق أن الإخوة مشقوه سيؤدون واجبهم كاملاً. حدثت مأساة في بلاد الشابسغ فلم نجد الوقت للاحتفال بعمره. وأنا صرت في الفراش عاجزاً. وبدلاً من أن أرحل إلى الآخرة بين يوم وآخر ها أنتم ترونني مقعداً في الفراش. - حُيِّل للجالسين أن صوت الأمير تغير. - لا تيأس يا أمير، - قال ترقان حين انقطع صوت الأمير، وقد حُيِّل إليه أن عليه أن يتكلم، - سنراك غداً على صهوة الحصان. لستُ مخطئاً، أقول هذا باسمي واسم إخوتي.

لم يجد الفلاحون من اللائق أن يتنافسوا في الكلام أمام الأمير اليأس. وكان هذا ما يريده الأمير الكبير، لم يكن في مخططه الخبيث إلا أن يحملهم على الإشفاق عليه لتبليغهم ما يريد منهم.

- رضي الله عنكم يا ترقان. ما من مخلوق على الأرض إلا وهو راحل؛ فلماذا أقع في اليأس. ولذا، ما كنت بدأته: ما فعلتم من أجلنا للأمير ألقس يسرنا.

ليس من عادة آل حجمقوه أن ينسوا من فعل معهم معروفاً. وما يتوجب علينا اليوم ندفعه لكم، ونبقى دائماً دعامة أميرية لكم. وإن شاء الله تعيشون متضامين وإن رحلت عنكم. لن يظهر في البجدوغ أميرٌ لا يطيع آل حجمقوه. ولن يكون في الجوار فلاحون يعصونكم. وسترون ألقس الذي اتخذ منكم إشبيناً أميراً كبيراً للبجدوغ إن قبل الأمراء فأنا وأنتم نضمن رضا الفلاحين... سيصعب على من يعجز عن ركوب الخيل الاحتفاظ بالإمارة الكبيرة. إن عشتُ إلى الربيع فسنعقد مؤتمر البجدوغ...

- اسمعوا ما استدعانا لأجله!.. قال لاجي لنفسه. يصارع من أجل الإمرة وهو على فراش الموت. منذ متى يستشيرنا آل حجمقوه؟ لن أصدق أبداً أن السبب في موقفه هو استضافة العريس ألقس. تنوي بهذه الحجة أن تتخذ من آل مشقوه دعامة للأمير ضد الفلاحين. لا ترى من اللائق الحديث بصراحة، لا تظنّ أننا لم نفهم حُبثك!..

انفتح باب الأمير ودخل مرزيج:

- الأمير ججقوه قادم أيها الأمير. هل نسمح له بالدخول؟
لم يُعجب الخبرُ الأمير الكبير: - هل كان ينتظرنا هذا الذي أرسل الله إليه الشلل؟! من أين سقط عليّ؟ أنا لم أستدعه. لينتظري!.. كلما انتظروك ارتفعت هيبتك.

- خذوا الأمير إلى غرفة الضيوف بحجة أنه قادم من سفر. وإن أسرعتم بالمائدة المستعجلة، فلا تستعجلوا بالمائدة الأصلية. - شدد الأمير قانشاو على مرزيج، ثم قال لابنه: - اذهب يا أمير واستقبل أنت أيضاً الأمير ججقوه. أنا أود أن يبقى الفلاحون معي بعض الوقت...

-2-

- ما الأخبار حيث كنت أيها الأمير؟ سأل مجر والده.
- لا أخبار مهمة، - ظهر من صوت الأمير بجقوه حزنه. - هذا هو السبب يا ولدي في قولهم: من أين أتيت يا مصيبة!.. قانشاو في الفراش وقد صار

ضئيل الحجم. ومع ذلك لا يعرف اليأس. لا يزال حياً يقول هذا وذاك. يرتب أحوال البجدوغ.

- له الحق في ذلك لأنه يحمل لقب الأمير الكبير.

- ليتني أريتك هذا الذي يرتب الأمور!.. يفتل جبل الاحتضار. عيناه في محجريهما، ولا يزال فيه رمق. يحرك يده السليمة قائلاً: انظروا إلى قوتي، ولا يبعدها عن وجهه المحتضر.

- هذه عادة في آل حجمقوه يا أمير.

- ألم أطلب منك ألا تخاطبني بلقب الأمير متى كنا وحدنا؟ - لم يصبر الأب على مناداة ابنه له دائماً بلقب الأمير. - يخيل إلينا أننا أغراب عن بعضنا حين نسمعك تقول هذا. نحن في عالم صعب، لا بأس أن يكون بيننا حديث دافئ. أنا لا أشبهك بإخوتك الكبار. هؤلاء، ولو أنهم أبنائي، فكما يقال: الولد الأصغر أحب إلى الأب. وهكذا كانت معاملة جدك لي.

- وأنا في قلبي الأمر نفسه يا والدنا. ولكننا اعتدنا عليه فلا أستطيع التخلي عنه.

- ها، - كلامك هذا لا شيء يساويه. - نظر الأمير شراندقوه إلى ابنه مجر بعين الرضا. ثم أضاف باسمًا: - لو قال لي ابني الأصغر مثل هذا الكلام لأعطيته قطيعاً كاملاً دون سؤال. حياك الله يا ولدي، أنت عاقل.

لم يكن الأمير بحقوقه شراندقوه مهموماً جداً بمرض الأمير الذي صار قريبه. كثيرون من أمثاله خلّقوا وماتوا، فما المشكلة؟ لم يلتق الأمير بحقوقه بشخص صنعوا له مهداً ولم يحفروا له قبراً. ولم تكن طريقة كلامه مع الابن الأصغر دون أساس. حين عاد الأمير الكبير المريض رجع بغضب خفيّ بدلاً من أن يلين قلبه. لم تفارق أقوال الأمير الكبير ذهنه طوال طريقه. وكلما تفكّر فيها كان يلتهب غضباً. وكان نزقه فوق الجميع، وإلى الآن لم يسمح له نزقه بالارتياح في حضرة ابنه الأصغر. ومهما كظم غيظه لم يستطع إلا أن يسترجع ما قاله له الأمير الكبير.

- يا شراندقوه، عندي لك رجاء صريح. - نظر الأمير الكبير في عيني قريبه،

وكظم غيظه.

- قل يا قانشاؤ، قل، ما فائدة صداقتنا إن لم أنفذ لك طلبك!.. - قال بحقوقه دون تفكير.

- حياك الله يا شراندقوه. كانت بيننا صداقة جميلة. عشنا ونحن نتقاسم اللقمة. وكان بيننا ثقة دائمة. والآن أرحل عن الدنيا بهذه المشاعر.

- لا تقل هذا يا قانشاؤ!

- لماذا أكذب يا شراندقوه؟ إن لم أصارحك بحالي فمن أصارح! أضيفت القرابة إلى الصداقة فصرنا أهلاً. ليجعل الله الأحد الأسترتين حجمقوه وبحقوقه تعيشان ألف عام بودّ، أما أنا فقد اقتربت نھايتي. ولذا عندي رجاء لأجل صهرك. أود أن أتخلّى عن الإمرة الكبيرة إن عشت إلى بداية الربيع. لا أمير في البجدوغ يعصي أمرك، ولذا أريدك أن تعمل في هذه المسألة. لن يقتصر نفع الإمرة الكبيرة على حجمقوه وعلى صهر آل بحقوقه، بل سيشمل الكنة التي ستدخل بيتنا. لا أعرف إن كان كلامي لم يعجبك.

- يا للعجب؛ وهل هذا كلام يا حجمقوه! لا أقول من أجل صهري؛ إن لم تنصّب أميراً كبيراً فمن غيره في البجدوغ!..

حين خرج بحقوقه مما في ذاكرته، نظر إلى ابنه مجر وقلبه يتلوى ألماً. ما الأمر؟ هل أولادي أبشع من أولاد حجمقوه؟ وهل عجيب إن كان صهراً؟ ليفرخ إن زوّجته ابنتي!.. وهل كُتبت الإمرة الكبرى لآل حجمقوه؟ الإمرة الكبرى التي اغتصبها الحاج الخبيث القميء لا يريدون أن يتخلوا عنها إن استطاعوا. أنا خمنّت هذا. كان هذا رأيي حين طمعت في الفتاة، وهذا سبب معارضي. ثم ذهبت بإرادتي فدخلت في فجّهم. والآن أحاول التملّص. يا حسرتي، الصهر والفتاة الوحيدة التي ستسمح على رأسي حين أموت يلجماني؛ وإلا كنت في موقف يسمح لي أن أرقص في إمرتك الكبيرة...

كانت أفكار مجر غير أفكار والده. يشفق على الأمير الكبير حجمقوه. يبقى الموت موتاً ولو كان الأمير الكبير سيدخل الجنة. لم يشعر أحدٌ بسره إلى الآن. لو كان الموت خيراً لما أقاموا مأتماً لمن يموت. أليس مأساة ألا ترى ثانية عاصفة

الثلج، ولا تسمع صفير الريح؟!!

- شتاء قارس، - قال مجر وهو يصغي إلى صفير الريح.

- وهذا سيمضي ويأتي الربيع يا ولدي.

- لو عاش الأمير حجمقوه إلى الربيع لكان محظوظاً...

- لا أظن من رأيت حاله سيعيش طويلاً. - قال الأمير بحقوقه متمنياً أن تجري

الأمر هكذا. ثم قال لنفسه: لو عاش الأمير إلى الربيع لكان حسناً. لو عاش

لصار لقب الأميرة الكبيرة أسهل للفتاة.

خيل مجر أن أحداً يدخل من البوابة الكبيرة، لا، ليس تصوراً فقد سمع النداء:

- أيها الأمير بحقوقه!

ارتعب الأمير لأنه يسمع الصوت لأول مرة. انقطع نداء الفارس الوحيد الذي

ينتظره منذ أواخر خريف العام الماضي. ظن أنه الفارس الذي ساطه في حضور

الفلاحين والعبيد فقفز من مكانه. رأى أمام الباب فارسين لم يستطع تمييزهما.

حاول مجر الخروج من الغرفة فلم يقبل.

- إهدأ لحظة يا ولد!.. - ثم نادى نحو الغرفة المجاورة، وفي الحال استقبل

فلاحان الفارسين.

سُمع صوت نفض الثلج عن الملابس من جهة خزان الحبوب قبل أن يجد الأمير

الوقت للجلوس. انفتح الباب ودخل رجلان إلى الغرفة، أولهما وابق تامبر،

ووراءه نكراس ميشكا.

- نهاركم سعيد، - حيا تامبر بصوت هادئ.

- غمرك الله بالخير أيها الضيف، تفضل! - ردّ الأمير على التحية، - تفضلاً.

عرف الأمير الفلاح تامبر منذ سمع صوته ولكنه تظاهر بجهله إياه. واستقبله

كأنه يراه أول مرة تبعاً للتقاليد الأديغية. وتعرف على الشاب الروسي الذي رآه

قبل تحت شجرة الجوز في دار جنجته سليم. من كان لا يعرف شيئاً عن

الضيفين اللذين خرجا من العاصفة هو مجر. ومن أين يعرفهما دون أسماء؟

- كيف تعيش حياتك أيها الأمير بحقوقه بإذن الله وماذا تفعل؟ - سأل تامبر

المضيف وكأنه صديق العمر، - أراك في عافيتك، لم يتغير فيك شيء.

ماذا ينوي هذان المهرجان بحقي؟ أهما متسولان أم إرهابيان؟ أقول جاءا لإخافتي ولكن الاطمئنان يغلب عليهما. وإن قلت متسولان فجلستهما المعتدة لا تعبّر عن هذا. لا يعرف نيتهما فيعبر عن احترام زائد لهما. ومجر واقف في حضرة الضيفين ناسياً أنه أمير شاب.

- وماذا أقول أيها الضيف! الشتاء حبسنا ننتظر الربيع. - اكتفى الأمير بكلمة "ضيف" ولم ينطق اسمه. - والله أنتما نشيطان. لم تمنعكما العاصفة الثلجية. وهل الجو في نواحيكم هكذا؟ - الجؤ عندنا أبرد مما عندكم.

- لا أظنه يتحسن قريباً، - خطر للأمير بحقوقه أن ينطق اسم من يجلس مقابله، ويُسمع ابنه مجر، غير أنه خاف أن يعرف الابن شيئاً لا يجوز له معرفته؛ كيف سيراني بعدئذٍ، فأحجم. أستقبل أعدائي كأهم ضيوف كبار. - عليك أن تعرف قبل أن تقول هذا يا بحقوقه حال الورود البرية أرى أنها على وشك أن تبرعم.

- هذا خبر طيب أيها الضيف. - فرح شراندقوه مما سمع من أعماق قلبه. - ونحن من هنا نقول: جاءنا شتاءٌ لا نهاية له. - أيها الأمير - قال لابنه، - هل سنبقى ننظر في وجوه الضيوف أخبر السيدة أن تقوم بواجبها.

- مهلاً يا مجر، - أعاد وايقق الخارج من الغرفة، - لم نأت إلى هنا للسمر والحديث، نحن على عجل من أمرنا، - أيها الأمير، جئتُ أنا وهذا الفلاح للسؤال. سمعنا أن فارساً اعتاد على إهانتك؛ كنا نود أن نخبرنا عن أوصافه، أهو شابٌ أم عجوز؟ ما عمره؟..

- والله لا أعرف إن كان فارس مثل هذا قد اعتاد عليّ أيها الضيف. - احتدّ الأمير بحقوقه، ماذا تريد أن تقول بهذا؟ هل تنوي أن تهينني؟ اتركه، ليس مثلك من أسمح له أن يلمس غطاء قبعتي. - كان فارس مجنون على حصان قد توقف عند سياج بيتنا، وصار يتفوه بكلمات مجنونة بحق آل بحقوقه، فطاردوه، ولن يعود أبداً إلى مثل هذا.

- إذن يا شراندقوه، ألم يقلقكم الفارس الوحيد أكثر من هذا؟ - ظهر على

صوت تامبر عدم تصديقه، - يا ربي من أي جهة يأتي هذا الفارس؟
- حددوا مرة، ولكن كنت غائباً.

- سأقول لك من أين يأتي هذا الفارس أيها الضيف - استعجل مجر على عادة والده، - يأتي من غابة تحمز، وحين نطارده يعود إلى تلك الجهة. يركب حصاناً جيداً. وإذا لحقنا به يقول: إن كنتم رجالاً فالحقوا بوايقت تامبر، وبغلوّة واحدة يختفي عن أبصارنا. هل تريدني أن أعتبر "وايقت تامبر" الذي تحول إلى خادم في الأبراخ رجلاً!..

لم يعد وايقت تامبر يريد البقاء في البيت أكثر من هذا، ما سمعه جعله ينهض:

- في أمان الله إذن يا آل بحقوقه. هذا ما جئنا لأجله...

حين خرج الضيفان من غرفة الإمرة، انتظر مجر أن يقول والده شيئاً. ولما لم يتكلم سأله:

- من هذان الضيفان اللذان يلبسان ملابس رثة يا والدنا؟

هما يعرفاننا، وأنا لا أعرفهما!.. - أخفى الأمير عن ابنه اسمي الضيفين.

-3-

أكل حجمقوه ألقس من الموائد الثلاث التي جيء بها إليه الدجاج المقلّى، وجلس إلى نار الموقد لا يريد أن يذهب إلى أي مكان. ولا يرى جانسور إلا حين يذهب للخلود إلى النوم، أما في النهار فلا تقع عينه عليها. المرأة تكتّم مشاعرها ولكنها في الشهر الأخير تود أن يقضي معها وقتاً أطول. ومن أجل ألا توصف بأنها حوّلت إلى امرأة تنام مع الحماة، تجد ذرائع لنفسها فتخرج من الغرفة. اليوم لن يذهب إلى أي مكان، في مثل هذا اليوم قيل: لا يخرج أحد إلا إذا طُرد. الشتاء صاحبٌ برياحه الباردة. ووقع قوائم الكلب يشبه وقع حوافر الحصان.

لم يكن ألقس جاهلاً بسبب رغبتها في الجلوس إلى جانب الرجل وقتاً أطول. كان يحاول ألا تجد المرأة نفسها في موقف استحياء، فيتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً. ولا يحتاج الثوب المسدل المفصّل على جسدها، والذي يضيق يوماً

بعد يوم إلى سؤال، فهو على مرأى العين.

تناول ألقس حجر الجليخ وسنّ موسى الخلاقة. وطوال هذه المدة راقبت جانسور عمل الزوج، ولم تنطق بكلمة. تناول ألقس قطعة الجلد الناعمة من على الجدار، ووضعها فوق المقعد الوطيء، وجرحها عدة مرات، ثم قال لجانسور:

- أمسكيه يا حلوة لحظة!

قدّمت جانسور راغبةً المقعد الصغير، وأدارت ركبتيها الملمومتين إلى جانب الزوج، وجلست. أمسكت بجوانب القطعة المقصوفة من الجلد، ولما وصلت السكين إلى طرف ظفرها ارتعبت:

- حذار يا ألقس أن تجرح يدي!

- والله يا ابنة آل بحقوقه أنت جبانة جداً. - ضحك ألقس.

- لا تضحك، لا تضحك؛ كدت تجرح يدي وأنت تضحك قبل أيام.

- هذا جرى قبل أيام.

- ماذا ستفعل بكل هذه الرُقَع الجلدية؟

- وهل قليل ما يمكن أن نفعل بها!.. لا يمكن السفر دونها. ماذا إن تمزقت عيّن الركاب؟ سنرقعها بها. إياك، حرّكت يدك فقطعت الرقعة بشكل مائل. حسناً، الآن أصلحت الوضع. هذا العمل يحتاج إلى لطف ولكنك لا تعرفين. ولا بأس أن تتعلم النساء خياطة الجلود. - زمّ ألقس عينيه، ونظر إليها نظرة خبيثة. يحدث كثيراً ألا تجدوا الرقعة.

- ماذا سيفعلن بها؛ هل سيضفرن شعورهن بها؟ - أجابت جانسور دون أن تفهم أساس كلمة الرجل.

- لم ألتق بمثل هذه الحالة إلى الآن. الجلد الناعم المتين يزمّ الصدر على نحو أفضل. ويجمل القوام. ولكن لا أعرف لماذا تقولين ما تقولين!..

تذكر ألقس ليلته الأولى التي تفتّر القلب. قطع الخبر المأساوي المفاجئ الذي أتى من طرف شرّاقوه ناغوه، ولما يمض يوم وليلة على زفافها، حفلات العرس، وقبل أن يجدوا الفرصة لعقد القران. وشارك ألقس مربيه حزنها ريثما انتهى

أسبوع الحداد. وبعد ما عادوا إلى البجدوغ قضى وقتاً ليس بالقصير، يقضي الليل عند إشيينه من آل مشقوه خائفاً من أقاويل الناس. ويكدر فرحته مرض والده. ثم تشاور الشباب في الوضع، وقرروا أنه لا يليق بالطرفين، الزوج والزوجة، الاستمرار على هذه الحال، فزقوه إليها. وعلى مبدأ ما فات تصعب إعادته فإن ألقس الذي عاش وعنده زوجة وليس عنده، وقع ثانية في القلق الذي عاناه قبل الزواج. كلما اقترب الليل زاد شعوره بنبض القلب. اكتفى آل حجمقوه بالدعوة إلى مآدب الزواج دون موسيقى بسبب حدادهم على شرفقوه. ولماذا يحتفل العبيد والفلاحون والخدم؟ ليقم هؤلاء بواجبهم. ولماذا تمارس أسرة حجمقوه الحداد مادام العريس دخل على العروس في الليلة الأولى. في تلك الليلة عاشت جانسور قلقاً خفياً. كان من في غرفة العروس يعرفون أن الشاب سيأتي الليلة فيتظاهرون بعدم المعرفة: لا ينقطع ضحك البنات، وراوي أخبار البجدوغ في الساحة. ولما تجاوز الليل صلاة العشاء فرغت غرفة العروس شيئاً فشيئاً. وأخيراً لم يبق في الغرفة إلا فتاتان من عمر جانسور، وعروس حديثة قريبة منال حجمقوه. لم تكن العروس القريبة تسكت، تثرثر بما على العروس أن تفعل حين يأتي العريس في الليلة الأولى:

- لا تخافي يا جانسور، من سيدخل عليك الغرفة هو من كتبه الله لك. أحسي بدفء الرجل متى صرت في حضنه. في هذا الموقف، ستقضيان عمريكما تبعاً للتقارب الروحي بينكما... - ابتعدا أتما، - لم تقبل أن تنصت الإشييتان إليها باهتمام، - تستمعان فاغرتي الفم. استمعا إن أردتما؛ أمامكما مثل هذه الليلة!.. - ثم أريد أن أقول لك يا جانسور: إن قال لك الزوج تعالي نامي فلا تنفذي طلبه في الحال. دعيه يترجأك، يتوسل. وإن حملك بين ذراعيه فتظاهري بمحاولة الهروب!..

صدر وقّع أقدام من جهة الباب. انفتح الباب ودخل الشاب الإشيين. وقبل أن ترد العروس السلام اختفت الفتاتان المرافقتان لها بكل استحياء. وبعده بقليل دخل حجمقوه ألقس. وسلم بكل حياء لا يدري أين يذهب برأسه: - مساء الخير.

- مساء الخير. - قالت الكنة القريبة من الأسرة بعد مدة، ونهضت، - اجلسا أنتما، سأعود إلى من فارقتهم هناك...

حين خرجت المرأة التي كانت ترافقها طوال المساء، شعرت جانسور باليأس التام. والخبر الذي كان يرويه الشاب الإشبين لتزجية الوقت لم تعد تصغي إليه، بل لم تعد تسمعه. ولم تعد ظروف الصفر اللامعة على صدر كساء ألقس، ولا الزنار الفضّي المشرب بالذهب، الحامل للخنجر، يتراءيان لها. كان قلبها كمن يريد القفز من صدرها.

- هل سنسهر ثلاثتنا الليلة؟ - سأل الشاب الإشبين مع نهاية الخبر الذي يرويه. - اسمع يا حجمقوه: هاتِ فردة من جزمك أخلعها، والأخرى تقدر عليها جانسور. - خلع فردة الحذاء من الشاب العريس بحركة واحدة، وقال وهو خارج: - تصبّحان على خير!..

كانت إحدى الفردتين قد خلعت، ولكن ألقس لم ير من اللائق أن تخلعها العروس فمد يده وهو يروي شيئاً وخلعها. ولما بقيت جانسور للرجل وحدها شعرت بالراحة.

- هيا اذهبي يا حلوة، وجهّزي الفراش، - قال ألقس هذا فلانت جانسور على الكلام اللطيف.

أظلمت الغرفة فخلع ألقس ملابسه بسرعة لم يحس بها:

- تعالي يا حلوة أفضل من أن تقفي إلى الجدار البارد!..

كل ما قالته الكنة المرافقة للعروس طوال الأمسية كان هباءً: رفعت اليدان المذكرتان القويتان جانسور فصارت جزءاً حقيقياً من الذي صبرت من أجله أياماً كثيرة. لم تكن جانسور مهيأة لأن تخلع ملابسه بنفسها. قصّ ألقس حمالة الصدر الجلدية برأس الخنجر...

- يال!.. ماذا يقول هذا دون حياء!.. سقطت الحمالات الجلدية الرفيعة من جانسور وقد توهّج خداهما. - ابتعد يا ألقس... ما أوقحك...

تصنعت جانسور أنها تمد يدها إلى نار الموقد. ولا تستطيع المرأة إلا أن يغلبها الحياء وإن كانت مسرورة لحكايات ألقس. وتقول له رغم أنها لا تريده أن يتعد

عنها:

- هيا ادخل إلى الأمير الكبير خيرٌ من أن...

- ماذا هل تطرديني بالقوة؟

رفعت جانسور الوجنتين المحمرّتين من الحياء ومن نار الموقد، ونظرت إلى الزوج وفرّج الحب يشع من عينيها. ولما نظر ألقس إلى النهدين المتينين غير الكبيرين على القامة الرشيقة، واللذين نبأ أمامه، نقض الخفر الذكوري وقال لنفسه: يا ألقس ما أجمل المرأة التي عندك!..

-4-

منذ أن عاد تامير من بيت بحقوقه صار لا يجد مكاناً عند الأبخاخ. لم يبق عنده شكٌ في أن الفارس الوحيد الذي نادى: "وايقت تامير" هي سيسار!.. يبدو أن ما قاله له نردم، الفارس البسلني، بخصوص سيسار صحيح؛ وإلا فما سبب سوط الأمير بحقوقه من قبل الفارس الوحيد الذي سمى نفسه تامير؟ يبدو أنها تنتقم للإهانة التي ألحقها بها. الفارس البسلني لم يصرّح تماماً وإلا فلماذا يبحث عن سيسار؟ من يعرف؟ ربما أُخْطِفت سيسار وهي صبية صغيرة من البسلني؟ لا أعرف، أنا لا ألاحظ فيها شيئاً من أمارات البسلني. عاشت عمرها وكأنها خلقت في دار الأمير بحقوقه. هذا الموضوع يجري فيه شيء!.. كان عليّ أن أسأل الفارس الضيف الباحث عنها. ولكني قلتُ في نفسي: وهل قليلات من يحملن اسم سيسار في العالم فلم أر السؤال مناسباً. وانظر الآن إلى حاغور. أزاح السرج نصف الجاهز، وقال فجأة للشاب الذي يرقع حذاءه:

- يا ميشكا، هل تعرف ما يجري؟ سيسار حية!.. هي الفارس الوحيد الذي نسمع سيرته. لم أصدّق دون سبب ما كان قاله لي الفارس البسلني. هل تتذكر ما قاله الفارس نردم: "والله ما أقوله صحيح".

نكراس ميشكا اكتسب مظهر الرجال حتى لا تكاد تعرفه. لم يربّ الشاب الروسي لحية مثل تامير. كل يومين كان يحلق. يمسّد شاربيه الكستناوين اللذين

يمنحانه مظهر الرجولة من حين إلى حين. اعتاد على أن يتكلم لغة الأبراخ الذين يعيش معهم ولغة البجدوغ مع شيء من الروسية. قامة ممشوقة وشعر أشقر، والعينان اللتان بلون سماء الربيع فيهما دفء دائم.

- لم تسمع كلامي يا تامبر؟! - قال ميشكا مستغرباً وغير مستغرب ما سمعه، - لم تدعنا نتابع البحث ولذا يا تامبر لا تقل شيئاً، تصرفك تجاه سيسار ليس صحيحاً. - لم أقصّر يا أخي الصغير في ما علي نحو سيسار. - تنهد تامبر حزناً من الذكريات. ولم يُطق القعود فاتجه نحو النافذة.

بالقياس إلى البارحة ظهر ذكاء الشمس اليوم جلياً. أعطت للثلج الذي يلعب تحتها صوت السواقي، وخلقت لها أجنحة. رسمت في أرض الظهور الملتفة من المرتفع بقعاً على شكل كف الكلب. واختفت رائحة البرودة من الغابة العارية البادية للعيان، تحس الأرض أن الربيع قادم وإن لم يظهر بعد. منظر قطرات الماء الراشحة من الثلج الذي على سقف البيت الذي بنوه للأبرخي بالعمل الطوعي يمر أمام عيني تامبر. ومن الإسطبل الذي فيه خيولهم تنبعث رائحة رطوبة دافئة.

- والآن يا تامبر دخلنا مرة أخرى أرض الشابسغ. ربما نجد فيها سيسار. لم يعلق تامبر بشيء على كلام ميشكا. عيناه تنظران إلى البعيد، إلى "جعف" قرية أبده نارج. كان يخيل لتامبر أنه ليس في العالم من هو أسعد حظاً من نارج. أسرة فلاحين كبيرة متضافرة الجهود، ما يسقط من أحدهم يلتقطه الآخر قبل أن يصل إلى الأرض. وعنده ابنتان وثلاثة أولاد ممتازون. دخل برفقة نارج داره بضع مرات فإذا بالأولاد ودودون إلى أقصى حد. يُسنونك تعبك وحزنك. ويغيرون نظرتك إلى العالم الثقيل الذي نعيش فيه. أنا لا أتذكر يوماً واحداً مريحاً في حياتي. ما فائدة أن يكون عندي الآن أرض ومُلك إن لم يكن فيها ترويح عن النفس؟ ومن تسبب لنا، أنا وسيسار في مصيبتنا، آل بحقوقه، يعيشون حياتهم يجمعون المال طامعين في المزيد، يزوّجون بناتهم وأولادهم. وأنا أعيش سنوات كثيرة لا أملك شيئاً، قطعة الخبز منتهى فرحي. أعيش غير حرّ في أن أعيش على الأرض التي ولدت فيها. ومن يريد أن يهينني يناديني بالغريب، كأني

سقطت من قمة شجرة. وميشكا هل سيعيش عمره وحيداً مثلي؟ والله لن أدعه يعيش مثل هذه الحياة. لا تزال صورته في ذهني وهو يغازل إحدى الفتيات حين سافرنا إلى قرية قريبة من قريته. في الليل ينطق باسم واحدة منهن: ليزا. ارتعب تامبر الليلة أيضاً لما سمع اسمها منه قائلاً في نفسه: كيف ستكون حالي إن وجد ميشكا شريكة حياة!.. ميشكا بالنسبة إليّ ابنٌ وأخ. لا، لا، أظلمُ ميشكا بهذا الكلام؟ صار سليم وجماعته يلمّحون لي قائلين: - أنت لا تتزوج، ولا تسمح لميشكا بالزواج. أستحق ما تقولونه يا سليم. - أعرف أبي غير عادل مع ميشكا. أخطئ بحق الشاب معتبراً من تفضّله النساء عدواً خفياً لي.

- إن كان هذا رأيك يا ميشكا عرّجنا على الشابسغ. خرج تامبر من أفكاره ونظر إلى رفيقه. - ولكن لا أضننا نجده في البيت...
- قلبي يحدثني يا تامبر أننا سنجده.

- كنا في البجدوغ والناخوي والجمكوي؛ فإذا درنا كل هذه البلاد فلندخل إلى الشابسغ أيضاً. ولكن لا أعتقد أن من لا يراه أحدٌ يعيش في قرية. أضن الغابة مسكنه.

- هل تستطيع أن تعيش في الغابة وحيدة؟
- نعم، تستطيع، ليس كالغابة موضعٌ سرٌّ للإنسان، وأنا كان يُخيّل إليّ أن لا موضع رعب كالغابة، متى أقمت فيها بعض الوقت والغصن الذي يهتر يثير انتباهك، صرت متى غبت عنها تشتاق إلى العودة إليها. الغابة تتغير أربع مرات في السنة، وفي كل مرة تجعلك تنظر إلى الحياة بعين أخرى. تغرس فيك الإنسانية اللطيفة، وكل ما تراه يبقى في الذاكرة.
- وفي مثل هذا الشتاء؟

- وفي الشتاء فرحٌ من نوع ما. - أجب تامبر وهو يود أن يتحول إلى الطريق. - من يستصعبُ الشتاء هو من يستقبله غير مستعدٍّ له. - ما لا تجده في الصحو لا تجده في المطر. إن تخلّيت بالرجولة وجدت في الغابة كل حاجاتك في الشتاء أيضاً. حقاً هل تتذكر، روى أنك في العام الماضي ونحن في

الشابسغ رأيتَ على ضفة نهر إيل شيطاناً بحرياً؟.. - قال تامبر دون مناسبة.

- هل قلت شيطان بحري؟.. - استغرب ميشكا بعينيه الزرقاوين كلام تامبر.

- كان أنزور قال، ما هو؟

- لا شيء مهم، تذكرت فحسبُ - جلس بعض الوقت، ثم أضاف بعدما اتضح له شوقه إلى سيسار، - هيا يا ميشكا، لنتجه إلى بلاد الشابسغ!

- هل تريد أن نتحرك حالاً؟

- ولماذا لا نتحرك؟ لا التزام لنا بشيء في الحياة. نحن جاهزان في أي وقت. نمر على سليم، ونخبره بمقصدنا كي لا يقلق علينا.

لا يزال تامبر وميشكا في رحلة الشابسغ منذ عدة أيام. يقضيان الليالي في القرى، ولا يخرجان في النهار من الغابة. دارا كل ما يعرفان أنهما قادران على بلوغه. مهما توجهتا لم يكن مقصدهما واضحاً. ولم يقابلهما ما يرتابان فيه. غابة تحمز كأنها لا سرَّ لها في أي وقت: لم يريا في أعماقها أي سرّ. لا شيء لا يخطر على بال الإنسان، أيّ شيطان نهرى يتحدثون عن رؤيته؟ يسير تامبر على الطريق الجبلي في الغابة مرهقاً ضائقاً صدره. وميشكا وراه. لماذا أفنينا أنفسنا في الغابة؟ تحركنا بحجة أن مجنوناً ما قال شيئاً ما!.. في الشتاء لا يتحرك الشيطان المائي، هذه الكائنات تلجأ إلى مكان دافئ تحت الجليد. وفي الصيف حين ينتشر الدفء والضيق تجلس على المراكب تمشط شعرها. هذا ما يحدث لك متى لاحقتَ ما لا تعرفه.

فجأة تحول الطريق المهجور إلى درب فحسب. الثلج الذائب لا يزال صامداً ولكنه على الأماكن المرتفعة تحول إلى وحل، وهو يتوغل في أعماق الغابة متلوياً. شمس الظهيرة وقفت على رأس الغابة عمودياً فتنظر من خلال الأغصان. ومع أن الأغصان الكثيفة توحى لك بأنها تلجم الدفء، فإن دموع الثلج تحت الغابة تقطر على ما تحتها باردة. وفي سكون الغابة يرتفع نخير الخيل ووقّع الحوافر السريع.

رفع تامبر رأسه فخيل إليه للحظة أنه متجه إلى المكان الذي يعرفه. وبعدها سارا مدة رأى شجرة الصفصاف الكبيرة في المنخفض، ففهم أنه ليس مخطئاً في

ما جرى له. صحا مرتعباً إلى المكان الذي ألجأه إليه آل بحقوقه في الغابة. حثّ الحصان المطمئن عفوياً إلى المكان الذي يودّه. ولما تجاوزا المنخفض وصارا على المرتفع تجاوزا المرعى الصغير، ووصلا إلى عمق الغابة. وبعد قليل ظهر أمامهما مكان مغطى، كبيرٌ على أن يكون قنّ دجاج، وصغيرٌ على أن يكون إسطلب خيل. أهيل التراب على العيدان التي تؤلف الجدار، وفي الأرض عيدان متكسرة. وظهر تحت شجرة البلوط قبوٌ محفور.

- وجدناه يا تامير!.. - أسرع ميشكا متصوراً أن ما يراه ملجأ سيسار. لم نجد شيئاً يا ميشكا... - ترجل تامير، ووقف بعض الوقت دون كلام، ثم أضاف: - ما تراه كان لي في وقت من الأوقات... هذا شيء من الماضي. لم يكن صعباً معرفة أن أحداً لم يتوقف عند الملجأ طوال سنين. والباب ذاب مع السنين وانهار. ومسند القدر لا يزال معلقاً بالغصن. والساقية الصغيرة تنعطف وراء الشجرة صاحبة. والصخرة الكبيرة التي كان يقف عليها تامير ليغسل وجهه ويديه في الصباح لا تزال في مكانها. عاد تامير إلى الحصان سريعاً مثلما ترجل، وانصرف دون كلام عن مأواه السابق. وبعدها مشيا مدة قال لميشكا:

- لنذهب إلى باستوك. لن نعود دون أن نعرّج عليها وقد وصلنا إلى هنا. سنزور جماعة حاغور، ونلتقي بأكجكوه أنزور الذي رأى الشيطان المائي. أظن أن ما نسعى وراءه نوع من العبث. - قال تامير وسيسار لا تفارق القلب، مصمماً على أن يجدها أينما كانت. وأوعز لحصانه أن يسير خبياً.

-5-

استيقظ الناس في باستوك على صباح هادئ. شمس الشتاء تصعد شيئاً فشيئاً مغطية السماء كلها. لا يتذكر الفلاحون يوماً جميلاً كهذا اليوم طوال أشهر الشتاء الثلاثة: ظلت المواشي حبسة الزرائب لحمايتها من البرد القارس. واستُهلك العلف بسرعة خلافاً للأعوام السابقة. ولا ترى في دور الفلاحين أكوام الحشيش العالية التي كنت تراها، وما بقي منها لم يعد فيه نفع كبير.

المواشي التي أُطلقت من محابسها تتروض في الدور، منها ما يخور ومنها ما يجترّ. تختار الأماكن المشمسة بعدما ظلت حبيسة طوال أيام الشتاء. تحك جلودها بالأبواب والأعمدة التي غُلّقت عليها رؤوس خيل كي لا تصاب بالعين، ولا تمرض. ويسمع صهيل خيول وحمحماتها في أنحاء القرية.

ولم تكن المواشي وحدها التي تتشمس، فالناس أيضاً يفعلون هذا في دورهم. وعربات الصبيان الخشبية تعلق بالثلج شبه الذائب، ولا تُسرّع. ولاعبو البلبل يصعب عليهم ترقيصها. والكلاب التي تكاسلت في الأيام الباردة انطلقت أصواتها، وتتصارع فيما بينها أحياناً. والديك الحبشي ينقر الخراف في الدور، والديوك التي تجمدت مناقيرها تتعالى على الدجاجات المنكمشة على نفسها من البرد.

دار آل شراًقوه الواسعة نظيفة من الثلج تماماً. وفي الدار الأخرى البعيدة نحو نهر إيل ترى الخيل مطلقة، والبقر في الدار الأقرب. ومن فوق الخيول يُسمع ثغاء الخراف. ومن بين كتل الحشيش الثلاث التي حُزّنت في العام الماضي أُستهلكت كومتان. ونقص شيء من الثالثة. والذرة الصفراء تبدو عيداًها من المخازن المصفورة.

خرجت داريت وعلى رأسها غطاء أسود يغطي ظهرها، وعلى جسدها كساء أنثوي رقيق. تجاوزت شجرة الإجاص، ثم وقفت تسرح النظر. أعجبها عمل الفلاحين الذين أزاخوا الثلج وكوموه، واستحسنّت لهم ترويض المواشي في أرض الدار. وفُتح باب إسطبل الخيل الملاصق للمضافة لتهويته. وفيما هي تتفحص الدار وقعت عينها على مكان كومتي الحشيش المختلفتين. أعادت النظر إلى تلك الجهة مرتبة لا تعلم ما حدث. وفوق الكومة الثالثة فلاحان يرميان الحشيش إلى الأرض. - ماذا فعلتم أيها الفلاحون الملاعين بكل هذا الحشيش، أصابكم الله بالكوليرا!.. هل تأكلون أنتم أيضاً مع المواشي؟ توجهت داريت غاضبة تمشي كالرجال نحو الفلاحين فوق الكومة. طرفا غطاء الرأس الأسود الذي يُلبس للحداد بيدوان كجنّاحي غرابين. وينفتل طرف الكساء مع مشيتها.

- يا تحخوخوه انزل أنت ورفيقتك حالاً من كومة الحشيش، على مرأى مني!
- صاحت داريت فاقدة صوابها، جاحظة بعينيها.
- نحضّر طعام الحيوانات الليلة يا داريت، - صاح تحخوخوه من فوق الكومة لا تعرف سبب استدعائه.
- ليُصبك الله بالكوليرا أنت وعلفك!.. ألم أمركما بالنزول حالاً!.. أين اختفت كومتا الحشيش؟
- لماذا تسألين يا داريت عبثاً وأنت تعرفين أين اختفتا؟ - زحف تحخوخوه من فوق الكومة.
- لا أعرف، ولا أريد أن أعرف!
- إذا كنت لا تعرفين فأنا أقول لك إننا لا نأكل العلف - أجبر موقف داريت الفلاح على الكلام.
- أبعد عن وجهي يا عديم الإيمان الشوكة التي على كتفك! هل تريد أن تضربني بها أم كيف تتصرف؟ أعرف أنكم لا تأكلون الحشيش!.. لا تتألمون لمواشي غيركم، ولا تعرفون قيمتها. من أين نأتي بالعلف متى انتهى هذا القليل؟
- بدأت داريت تلين قليلاً، وغدت تريد الانصراف دون أن تنظر إلى عيني تحخوخوه الغاضبتين. - لا يزال أمامنا شهر كامل تعلقونها خلاله. طلبت منكم أن تحرصوا عليه، ولا أهّمكمم بأكله... ماذا يضيركم أن تحرصوا عليه... أين علي سلطان؟
- ومن أين لنا أن نعرف؟ لم يُخبرنا بمكانه.
- أخبروه أن يأتي إليّ حال عودته. - استدارت داريت وعادت كما أتت.
- لم تكن داريت راغبة في الوقوف في وجه الفلاحين، بل في البقاء في الدار كلها. رأت الثلج أسود، وضوء الشمس مظلماً. لو كان السوط المذيل بالكرة الرصاصية حاضراً لديها الآن لانتقمتم من شجرة الإاجاص. ولما دخلت إلى الغرفة عقدت يديها وراء ظهرها كالرجال، وشرعت تذرع أرض الغرفة. ولم تناسبها هذه الوضعية، وأرهقتها أفكارها، فعقدتها على صدرها. ولما جلست عرفت أن المقعد الوطيء ليس تحت ساقها فصاحت:

- يا مَنْ رماكم الله بالكوليرا؛ ألم يبق أحد في البيت؟.. - وفي الحال صرخت على الفتاة الخادمة التي خرجت من الغرفة المجاورة: - مَن طلبت أن يوافيني إلى الغرفة متى دخلت؟! هاقي المقعد الناعم لرجليّ، واغربي عن وجهي برأسك القبيح.

لم تعجب تحركات الخادمة التي تخاف أن تركلها داريت على عادتها:
- لا تمدي يدك كقطعة جامدة، ألم أطلب منك أن تحني ظهرك؟ لماذا لا تمسّدين رجليّ؟ أيجكك جلدك!..

- ساحيني يا داريت، نسيت - برأت الخادمة المسنة نفسها.
- نخدعوننا بهذا الكلام المنمق، فتأكلون ما عندنا، عيونكم فاغرة على مالنا. تسببوا في انتهاء الكومة الكبيرة من الحشيش، هؤلاء المنافقون عديمو الإيمان، تبا لكم! هيا لا تقفي أمامي كاللوح ضعي الوسادة وراء ظهري، أشعر بالبرد!.. لماذا تقفين أمامي تتفحصيني كالكلبة الشرهة؟ ألم أطلب منك الانصراف!..
لم تكن كومتا الحشيش تفارقان ذهن داريت. وبعدما جلست مدة تعيد وتغضب ثانية عرفت بقدوم علي سلطان من وقع قدميه.

كان الأخير سعيداً من أعماقه لتغيّر الجو هذا الصباح. والعشية سهر عند مامرخان وقتاً ليس بالقصير. تكلما، وتسلياً، وجلسا متقابلين حتى امتلأ قلباهما سروراً.

- قالوا لي إنك طلبتني يا أمنا.
نظرت داريت إلى ابنها فارتاح قلبها: أمامها شاب طويل أسمر صبور. قالت لنفسها: هذا جدير أن يكون أميراً، وفرحت. ولدت واحداً من رجالات الشابسغ. لن تجد مثيلاً له في إقليم الأديغة ولو بحثت ليلاً ونهاراً. أنت أيها الإله الكبير، أنت من أنا راضية عنه!..

- نعم، كنت أريدك يا صغيري. - قالت داريت لابنها بلسان معسول. - لماذا لم تخبرني شيئاً بشأن الحشيش؟ جماعة تحخوخوه لا يحرصون علينا. تركوا الحشيش الكثير يخرب تحت قوائم الماشية. راقبت الماشية فرأيتها ضامرة كأنها لم تأكل طوال الشتاء. لا تنخدع بيوم الصحو الجميل، لا تزال أمامنا أيام باردة.

اليوم الذي ينتكب فيه الشابغ هو مثل هذا اليوم. لا يزال أمامنا إلى شهر ولادة الخراف شهران. لا تنس كلام والدك المرحوم: إحتاطوا للأيام السبعة من شهر نيسان بسبعة أحمال من الحشيش. الليلة أيضاً كلمني والدك. قال لي: انتبهوا إلى الحشيش، إحرصوا عليه! وعدّد لي الفلاحين الذين يدينون لنا بالحشيش. وطلب استردادها اليوم حصراً. لا تخبر أحداً بأني أنا من تخبرك. وأخبرني أنه لا يزال أمامنا شتاء قاسٍ.

بدأ علي سلطان يصدق الخبر الذي ترويه أمه فيصاب بحزن كبير. وصار متلهفاً لمعرفة مَنْ مِنَ الفلاحين مدين له بالحشيش. لا يتذكر أنهم أقرضوا الحشيش لأحد في السنوات القليلة الماضية. والعالم الماضي تحديداً كان فقيراً بالحشيش. -وهل في باستوك مَنْ ليس مديناً لنا بالحشيش؟! - عدد لي والدك: على آل مَتَحْمَه حملان، وآل حرات ثلاثة، وآل كوبل نصف حمل، وآل شو ثلاثة... - علينا أن نرسل الفلاحين إلى القرية ليستوفوا ديوننا. وإلا نكون أذنبتا بحق والدك...

بعد الظهر قامت ضجة كبيرة في باستوك. تبَيَّن أن لا أحد بين كل من عددتهم داريت اعتباطاً مدينٌ إلا أسرة مستته. لم تصحّ تقديرات داريت في أنه إن سدد مستته أرسى ما عليه فسيخاف الآخرون ويدفعون. ولما طلبوا من أرسى أجابهم بأنه دفع قبل عامين. والآخرون رفضوا قائلين: أيّ عيب تطلبون منا!.. زارت داريت بيت وتاح تسبقها عربة الثيران. خرج العجوز متكئاً على عصاه: - تفضلي يا داريت، تفضلي!..

- ما كنت أريد أن أقول هذا، ولكن أي إهانة تُلحقوها يا آل وتاح بآل شرلأقوه؟ هل عشت إلى الآن عبثاً لا تعرف أن الدين يجب سداده؟ - لا أعرف أن لآل شرلأقوه ديناً عليّ، يا لابسَة الغطاء التي ليس في عينيها حياء!

- من أين جئت بهاتين الكومتين إذن؟

- من حيث تأتي بها القرية.

- إن جئت بها فمن أرضنا، لا تتظاهر بالجنون!

- إذن قولي هكذا، ولا تركضي إليّ تطالبن بدّين. لا ألطخ سمعتي في آخر عمري من أجل حمل حشيش.

- هيا اذهبوا وحملوا حمّل الحشيش! - طلبت داريت من مرافقيها من الفلاحين.

- لا يا كنة آل شرلأقوه!.. لا أسمح أن يسلبوني حشيشاً بالقوة!.. - قولي إنك محتاجة إليه وأنا أعطيك كرمي للحيوانات، هبةً لا ديناً. - وقف العجوز أمام الثورين.

تراكض الجيران إلى الضجة التي نشأت، وركض الفلاحون المتجمعون أمام ورشة بترز شعبان، واستنفر الصبيان. وفي ذروة الضجة دخل تامر وميشكا إلى القرية. ولما كان من طبع الإنسان أن يُسرّع إلى حيث المشكلة توجهها مباشرة إلى الضجيج.

-6-

قال أنزور لزوجته بعدما تعشى:

- سأمرّ على مضافة بترز، وأعرف ما يقول الفلاحون، وأقابل ضيوفهم. وأتوضّأ هناك. ثم إلى الجامع.

- لا بأس أن تصبر الليلة على لقاء الفلاحين بعد الضجة الكبيرة أمس. ابق في البيت. لم تقبل مريم رغبة الزوج.

نظر أنزور إلى المرأة. كانت مريم مديرة ظهرها تغسل الصحون ولكنها كانت تفهم نظرة الزوج. غسلت صحناً وتناولت الآخر منتظرة جواب الزوج. لم أقل للزوج ما ليس صواباً. حان الوقت، إذا كنا نعلّم الولد في القرم فهل يعني هذا أن نجعل من أنفسنا ممسحة لأقدام آل شرلأقوه؟. نجد ما يقوم بأودنا بفضل الله، والفلاحون لا ييخلون علينا. أجرة الأفندي في العام الماضي لم يكن عندنا مكان لتخزينها فأبقيناها للعام التالي. وسنحرث أرضنا إن شاء الله بالعمل الطوعي. لماذا لنا على الفلاحين دين. يقال: إحرص على الرزق في بدايته، ولا تبخل في آخره. إن سمعنا الفلاحون فلن نموت بينهم جوعاً بإذن الله. متى عاد

ولدي فسيكون ذكياً مثل والده. لن نفتقر إلى أجرة الإمام. سينهالون بها عليه.
- هل ارتعبت بهذه السهولة أيتها العجوز الصغيرة؟ - لم يستطع أنزور إلا أن يسأل حين رأى الزوجة مصرّة على عدم الالتفات.

توجهت مريم إلى الزوج وهي تحفف يديها بقماش الستارة. صحيح أنه نادها بـ "العجوز الصغيرة" ولكن لم يكن عند أنزور أغلى منها. لا تزال مريم كالفتاة في سن الزواج وكأنها لم تلد نظار. بعدما توفيت الحماة لا يزال جمالها يزيد. لماذا لا تكون مريم سعيدة؟ لا تتذكر من يوم دخلت عش الزوجية أن زوجها تصرف بخساسة. لم تصدر من فمه إلا كلمات الدلال. منذ اليوم الأول لزوجها يناديها زوجها بـ "العجوز الصغيرة" كنوع من الدلال. ولا يناديها بهذا اللقب إلا وحيدين. حين كان نظار صغيراً لم يكن وجوده معهما يمنعه من هذا اللقب. ولما كبر وبلغ مبلغ الرجال امتنع عن مناداتها بهذا اللقب.

- هل نعرف في أنفسنا يا أنزور شيئاً نرتعب منه؟ - أجابت مريم على السؤال، - أنت موفد الله إلى القرية، لا تقصّر في واجباتك. من البديهي أن لا تستطيع إرضاء كل الناس إذا كنت قائد القرية. حسناً، انتبه أنت إلى آل شرلأقوه، ما أقصده... ألا ترى أن أحداً لا يعرف ما حدث للكبير ناغوه. ليحمنّا الله!..

- والله لا أعرف يا عجوز أني اقترفت خطأ. المهمة التي أوكلها إلي الله حمل ثقيل. وهذه المهمة لم تسمح لي أن أحيد مقدار إصبع. أما ما ذكرت في مقتل شرلأقوه فالأرجح أن القاتل هو حاغور موسى.

- يا الله، لا تسمح لي أن أتفوه بالخطأ، أنا أيضاً أشكّ فيه.

- هل هرب حاغور ناجياً بجلده لو لم يكن خائفاً من عواقب شروره؟

- ما يتناقله الناس في القرية أنه يسعى لاستعادة أكوز.

- هذه ذريعة فحسب يا عجوزي الصغيرة. وهل يسمح للفلاحين باتخاذهم موضع سخرية من أجل لابس غطاء!.. يكون هكذا قد ارتدى غطاء رأس بدلاً من القبعة.

لم يعجب كلام الزوج الزوجة. بدا، لا على لونها فحسب، بل على صوتها أيضاً، استياؤها من الإهانة التي تُلحق بـ "لابسة الغطاء" تلك.

- أليست حماية شرف المرأة رجولة يا أنزور؟
 أعاد سؤال المرأة أكجكوه أنزور إلى وعيه:
- وهل هذا كلام يا مريم!
- إن لم يكن كلاماً فلماذا تدين حاغور؟
- لا، لا، ليس في نيتي هذا. نحن نعيش يا مباركة النسل من أجل لابسـة الغطاء. إن كان حاغور ركب من أجل خادمة آل شرلأقوه فهو يستحق الثناء. أعدّه رجولة منه. لن أخرج شعورك أيتها العجوز الصغيرة لهذا السبب. لا شيء أمتنع عن فعله لأجلك. لو طلبوا أن أنزل تحت الجليد من أجلك لنزلت وإن كنت واثقاً أي لن أخرج من الماء ثانية. تبادل الزوج والزوجة النظرات فالابتسامات. ثم قال لمن وراءه: - أنا ذاهبٌ إذن إلى مضافة بترز، وأنت اذهبي إلى بيت الجيران، سلّي نفسك!..
- في مضافة الحداد بترز كثير من الناس: الصدر للضيوف الأبخاخ. والفلاحون الشباب على الباب على رؤوس الأكبر سنّاً منهم. ولما انضم أكجكوه أنزور الأفندي إليهم خفض الجميع، وأجلسوه في مكان الصدارة. تكلموا في موضوعات مختلفة، ووصلوا إلى ما أثاره موضوع ديون الحشيش في القرية. وبداد الذي لم يستطيعوا لجمه طوال السهرة هو من عاد إلى الموضوع:
- إذن أيتها الجماعة، - قال بداد، - لنسأل الأفندي أكجكوه، لنميز المدين من البريء. أصحيح يا أفندي ما فعل عجوز آل وتاح اليوم؟
- والله يا جماعة لا أعرف ما أجيب به على سؤال بداد، - اصطدم الأفندي بما كان يتوجّس منه في طريقه إلى المضافة. ولكن كان عنده جواب حاضر لهذا السؤال، فلم يدعهم ينتظرنه، - الدّين ديينٌ ولذا فالعادة سداده. هذا حكم الله في المسألة. ومن لا ينقذ حكمه يُجرّم من رحمته. إذا لم يكن وتاح سدّد الدين فقد كسب إثماً عظيماً عند الله.
- وهذا رأيي أنا أيضاً يا أفندي. - وافقه بداد، - لن أقترف إثماً أمام الله من أجل عربة حشيش ورجلي في القبر. لم يتصرف وتاح على نحو صحيح اليوم أمام آل شرلأقوه.

- وتاح لم يذهب إلى دار شرلأقوه يسلبهم الحشيش، - قال أحد الحاضرين.
- صحيح، لم يذهب، - أسرع حنانا بالإجابة.
- ليست داريت مجنونة فتسلبهم ما ليس لها، - رنّ من بين الحاضرين صدى صوت بداد.
- صحيح، ليست مجنونة، - أيد حنانا الآن الرأي الآخر.
- كيف إذن ردّ الفلاح أرسى حمل الحشيش دون أي اعتراض... لم يتسبب بكلام أو فعال زائد. تبين أنه رجل حكيم. - ارتفع صوت بداد معارضاً الجميع.
- نعم، ردّ أرسى حمل الحشيش بلا كلام ولا فعال، - مرة أخرى لم يستطع الفلاح حنانا إلا أن يتدخل.
- بالله عليك يا حنانا أن تغلق فمك لحظة!- لم يتحمل أرسى نفاق حنانا، - ومرة أخرى التفت إليه. - ما كنت أودّ أن أقول ما أقوله ولكن ما أشد سذاجتك يا حاغور!.. اسأل عما لا تعرف. إذا كنت محامياً عن آل شرلأقوه فلا تظهر أمامي كأنك تحامي عني، لا أريد أن تتكلم علي بخير أو بشرّ!..
- أيها الفلاح أرسى لا تسخر مني!.. - جحظت عينا بداد بلا شعور، معتبراً ما سمع إهانة. - ليس مثلك من يتكلم علي!..
- إن كنت لا تعرف يا صغيري فتعلّم!.. - غضب الفلاح أرسى أيضاً، - نحن سمعنا من بيت شرلأقوه أن لهم دين حشيش على جدي، فلم أشأ أن يتكلموا على جدي؛ وإلا فليس لأحد علي دين. اليوم أذنب آل شرلأقوه بحق العجوز وتاح. ولولا هذان الضيفان، كانوا أهانوا العجوز الفلاح وتاح وكانت ابنة ناورز، كنة آل شرلأقوه تعرضت للأذى. - ومرة أخرى أقول لك يا كبير أسرة حاغور إذا كانت نفسك لا تهملك، فانظر إلى إخوتك الصغار الذين لا تساوي ظفرهم.
- ماذا تعرف عني يا سليل الكلبين حتى تهيني!- نهض بداد بكل ضخامته.
- أنا سليل الكلبين - نهض الفلاح أرسى أيضاً.
- تبادل الفلاحان نظرات غاضبة، وامتشقا خنجريهما، وتلاحما.

- أيُّ عيب تفعلاه أمام الضيوف! نهض الأفندي أكجكوه أيضاً.

خيل لحاغور بداد أن طرف شحمة أذنه قد جرح. وأخرج عدد من الفلاحين أرسى من الغرفة تحسباً للأسوأ. وأخرج بداد من أمام الضيوف ممسكاً طرف أذنه الجريح إلى الغرفة المجاورة.

- أيها الضيوف، - قال أنزور بكل خجل، - لا تؤاخذونا على سلوك الفلاحين غير اللائق. أرجوكم باسم الجمع، وباسم من لم يحضر، ألا تتكلموا على فلاحي باستوك بالسوء.

- نتفهم يا أفندي، - قال تامر الذي لم يرف له جفن لما اشتبك الفلاحان، - ليس وجه القرية متعلقاً برجلين غاضبين. أليس هذا رأيك أنت أيضاً يا أخي الصغير ميشكا؟

- نعم يا كبيرنا، - كان جواب نكراس ميشكا مختصراً.

- والله يا أفندي لا يمكن أن تعرف أن هذا الذي بُثرت نهاية أذنه هو الأخ الأكبر لحاغور موسى. - أضاف تامر بسرعة إلى كلامه.

- ما الذي يجمع موسى وبداد؟ - ساهم بترز شعبان بصوت أجش - لولا أنهما أولاد أب وأم لقلت إن بينهما ما بين السماء والأرض.

- وحاغور بداد أيها الضيف ليس رجلاً مغفلاً، - احتاط الأفندي خوفاً من أن يسمع بداد ما يقال فيه، - موسى بالقياس إلى الأخ الأكبر رجل هادئ. ولكن ما أعتب عليه لأجله أمر واحد: إن استطاع محا الأسر المنتفذة من الوجود...

- والله غياب موسى أمر مؤسف، - قطع تامر كلمات الأفندي الأخيرة غير عابئ بها، - كان بودنا، ميشكا وأنا، أن نراه، لم تتقابل منذ العام الماضي.

-7-

في وقت الفطور ارتفع من زاوية بيت لاشين ضجيج أطفال. رشيد والصبي الجار في عراق. وفي الحال تراكض الأطفال من هنا وهناك، وتوافد صبيان الأحياء الأخرى. وجرياً على العادة انقسم الجمع إلى فريقين، فانشغل المحرضون

- لا يعرفون مَنْ من الطرفين سينتصر.
- من أنت لتتكلم بالسوء على أخي الكبير؟ - يهجم رشيد على الصبي الجار معتبراً ما قيل له إهانة.
- إذا كنت لا تريدني أن أتكلّم عليه فليكنْ شجاعاً!.. ردّ الآخر.
- من أين تعرف أن بداد بلا رجولة؟
- لو كان أخوك الكبير شجاعاً لما سمح لهم ببتّر أذنه.
- من قال هذا؟
- أنا!..
- إذا كنتَ القائل فخذ!.. - ضرب رشيد الجار، وهجم الآخر عليه.
- جرّ ضجج الصبيان حاغور كريم إلى الباب. نظر فإذا أخوه الأصغر وابن الجيران يتعاركان.
- إن كنت رجلاً فلا تضرب الرأس!.. - الصبي الجار يهجم على رشيد.
- وأنت إن كنت رجلاً فلا تمزق قميصي!..
- لا تتراجع يا باجه، - نادى كريم الولد الجار، - هيا إصرعْ أخي الأصغر!..
- ها هكذا نعم، اصرعْ واجلس على صدره!..
- نظر رشيد نحو أخيه الأكبر معتبراً ما سمعه إهانة. وانفعل قلبه. ثم أفلت غريمه وركض يبحث عن قطعة حجر. وعثر عليها حالاً:
- وأنت تؤيد هذا أيضاً!.. - ضرب رشيد أخاه غاضباً. ومع الجري هجم على غريمه فرماه على ظهره.
- من تنادي يا كريم؟ - خرجت لاشين من البيت.
- أناذي هذين المتعاركين.
- عجباً، كيف تسمح للصبيين أن يتعاركا في حضرتك؟
- هذان لن يتوقفوا إلا أن ترمي غطاء رأسك بينهما. - مزح كريم مع أمه، وتوجه إلى الأولاد، - لطم أخاه الأصغر فرماه عن صدر الصبي الآخر.
- انفضْ يا باجه، انفضْ يا ولد!.. ألسن رجلاً فتسمح لهذا الصغير أن يصرك!.. تعلّم في المرة القادمة استعمال رجلك لتوقعه أرضاً. هذه نقطة

ضعفه يا أخي الصغير.

- لا تساعدّه يا كريم!.. - بدأ رشيد يكي معتبراً سلوك أخيه الأكبر عيباً عليه. - لو قال لك مثل ما قال لي لتشاجرت معه أنت أيضاً مرغماً.
- أيها الفلاحان الجاران، لا أريد أن أراكما ثانية تتعاركان. هل تعرفان موقف المتنفذين إن تعارك فلاحان؟ يقولون: كلبانا يتعاركان!.. هذا عيب، عيب، أيها الفلاحان!..

- لا تسمح له يا كريم إذن أن يقول لي: إن أذن بداد بُترت!..
نظر كريم إلى أخيه مستغرباً ما يسمع. ونظر إلى الصبي الجار يريد أن يسأله عن صحة الخبر.

- لم أكذب يا كريم، - أسرع باجه بالرد، - قيل إن الفلاح أرسى قطع ليلة البارحة أذن بداد في مضافة بترز.

- من قال؟

- والدي.

- عضّ الكلب والدك!- لم يملك كريم إلا أن ينهر الصبي البريء، غلبه الشعور بالإهانة إذ سمع من الصبيان ما جرى لأخيه الأكبر، - أما كان لمن أخبرك لساناً فيخبرنا نحن؟!

وفي الحال توجه الإخوة حاغور، دون موسى، ووالدُهم تتقدمهم إلى بيت بداد. أول من هُرع إلى دار بداد هو رشيد. بداد يتحرك في أرض الدار كمن لم يحدث له شيء: يقوم الحائط المائل، لا يصدّق رشيد ما يرى. - أذنا أخيه الكبير على حالهما. كأن باجه كذب عليّ فجعلته يمزق قميصي عبثاً؟.. لا، هذا طرف أذنه اليسرى مقطوع، ومدّهون بشيء أسود.

امتلاّت الدار بالإخوة وعلى رأسهم أمهم. سألهم بداد على سبيل تزجية الوقت وهو عارف سبب مجيئهم:

- ماذا جرى لكم أنتم الجمع؟

- لو كنت مهموماً بما جرى لنا يا ولد لأخبرتنا بما جرى لك!.. - قالت لاشين، وتفحصت ابنها. - يا مصيبي أيّ أذى ألحقوه بك!..

- اسمعوا يا إخوتي الصغار، - غضب كريم من الإهانة التي ألحقت بأخيه الكبير، - تعالوا نُرِي الفلاح أُرسي كيف تكون المعركة!..
 هبّ الإخوة حاغور كأنهم كانوا ينتظرون كلام كريم.
 - اهدؤوا لحظة يا أولاد!.. - نادى لاشين أولادها فتوقفوا.
 - أيّ عيب سترتكبونه يا إخوتي دون استشارتي!.. - استعمل بداد أيضاً حقه بصفته الأخ الأكبر على نحو غليظ.
 تأمل بداد إخوته فامتلاً قلبه ثقةً. وندم على تصالحه مع أُرسي أمام الضيوف بعد صلاة العشاء. ونهر نفسه: كيف تخاف وعندك كل هذا السند؟!
 - ألهذا السبب جعلت باجه يمزق قميصك؟ من أين آتى الآن برقعة له؟
 - عنقت لاشين ابنها الصغير رشيد، وتفحصت أولادها بنظرة خالية من الرضا. وأنتم أيها المجانين إلى أين تتجهون دون أن تعرفوا حقيقة الأمر؟
 أسألكم: منذ متى يعاديننا الفلاح أُرسي، نحن أسرة حاغور؟ هات أسمعنا يا بداد حقيقة ما جرى!..
 - بحقك يا أمي، ليس موضوعاً مهماً، تخاصمنا فغلبتنا الحمية. والعشية صالحني الفلاح أُرسي أمام القرية... لم يكن عليك يا رشيد أن تُعارك وتمزق قميصك. ما العمل؟ كتب الله عليّ أن أشتري لك قميصاً. تعالوا إلى البيت؛ لماذا نقف هنا؟ - تخيل بداد أن أحد إخوته غائب عن الجمع، ثم تذكر موسى فابتسم قائلاً: صرْتُ كمن نسي اسم كلبه.

-8-

حين وصلت أكوّز إلى تركيا حجزها حسن مراد في البيت ثلاثة أشهر لا يسمح لأحد أن يراها. ليس لأنه لا يجد من يشتريها؛ ليس في إستانبول من لا يدفع مثلي أو ثلاثة أمثال السعر المعتاد لأمثالها. يريد التاجر أن يعيد إلى الفتاة الأديعية الكاملة التي أفنتها الإهانة وعيها فيبيعها بأعلى سعر، ولكن المرأة لم تسمح له بتحقيق مراده. كانت أكوّز قد بقيت جلدًا على عظم ولكن جمالها يسي العيون، حتى لَنَقول: أليس الحزن الذي في العيون منسجماً مع جمالها،

فيجعلك هذا الحزن لا تشبع من النظر إليها. ولهذا بدأت زينب زوجة حسن مراد تغار من أكوز أكثر مما غارت من ضربتها الجديدة. كانت أكوز التي لم تفتح فمها طوال شهرين ترتعب كلما انفتح الباب ولكن زينب فقدت راحتها في البيت الذي أنجبت فيه ثلاثة أولاد. وحين يكون دورها مع زوجها فيدخل إليها لا تفارق صورة الفتاة الأديعية مخيلتها. وكلما نامت أغرقت أكوز باللعنات. تدعو عليها: يا إلهي ابعث لها وحدها الجذري فيقتلها.

لم يكن قد تبقي لأكوز دموع ولا قوة تبكي بها مأساتها. تقيم في الغرفة المغلقة عليها تبكي عذابها دون دموع ودون صوت. وحين تُفتح نافذة الغرفة التي تعلق طابقيتن تنظر كأن بلاد الأديعية التي سُبيت منها في هذا الاتجاه كطائر بلا جناحين. ومن في الذهن ليلاً ونهاراً، في خلال نومها أو طعامها... هو حاغور موسى، ومن ينظر من ورائه تحخوخه نابؤه. وحين تتذكر داريت فجأة تنهض، وهي تكسر أصابعها النحيلة، غير قادرة على الجلوس. ولا تنسى خروج شرلأقوه ناغوه من الدار دائماً على صهوة الحصان. وتتذكر علي سلطان مغوراً بنفسه. ويقف أمامها ربيهم حجمقوه ألقس دون أن تعرف من أين جاء. ومع الأفكار تدور على دُور الفلاحين في باستوك. ولا تنسى كيف كانت داريت تشدّ شفتيها وتقرص نهدبيها، ومع ذلك كانت تفضّل الحياة مع داريت على الحياة في أرض غريبة. ما حاجتي إلى طرف السماء هذا، الخالي من أي دفء؟ يا إلهي اعطف عليّ وخذي إلى بلادتي. رقق قلب حسن مراد عليّ. ارحمني وحقق لي هذه الأمنية. يا ربي أنا مستعدة لأن أجعل من نفسي ممسحة تحت أقدام آل شرلأقوه في ما تبقي من عمري إن كنت كتبت عليّ هذا. وإن لم تحقق لي هذا فلا تعاقبني إن نحرث نفسي بطرف المقصّ. أنا في حضرتك كثمرة وقعت من شجرة، لا أهل لي، فإن لم تحنّ عليّ فلا أحد عندي. حاغور وتحخوخه مثلي لا لأمل لهما.

دخل حسن مراد في أحد الأيام إلى غرفة أكوز. ولما لمستها يده وهو يشير إليها أن تجلس ضربت أكوز يدي التاجر. واحتمت بالمقعد.

- كم أنت شرسة؟ - تراجع حسن مراد.

- أعِدني إلى حيث جلبتني منه!- صرخت أكوز.
- ضحك حسن مراد دون أن يفهم كلامها. أنتِ كهرة صغيرة عضوض.
- سترضخين بنفسك. وسترين نفسك تعلقت بعنقي.
- إن كنت تحمل اسم إنسان، وإن كانت أمٌ ولدتك فأعِدني إلى بلادي!..
- لان صوت أكوز. والدموع التي جفّت منذ أيام ملأت وجنتيها. أتوسل إليك باسم الحليب الذي أرضعتك إياه أمك. سيكون صدقة عنك. أعِدني إلى من انتزعتني منهم!..
- لم يفهم حسن مراد من كلام أكوز إلا كلمة "صدقة". كأنها تطلب مني أن أدفع عنها صدقة!
- وهل أحرمتك من هذا، سأدفع صدقة عنك، وأجعلهم يدعون إلى الله لأجلك. أهذا ما تتوسلين إليه؟ لا أعرف إن كانت تطلب شيئاً آخر.
- يا طلعت، تعال إلى هنا. اسألها، تتكلم على أشياء لا أعرفها، تقول "صدقة".
- يسألك حسن مراد يا أختي عما تطلبين. - سأل طلعت دون أن يفارق قائمة الباب، - يسألك عما تقصدين بكلمة "صدقة"؟
- قلت: إن أعادني إلى بلادي يكن صدقة له إلى الأبد.
- إن كان هذا طلبك أيتها الفتاة، - ضحك حسن مراد، - فهذه صدقة زائدة عن الحدّ. لن أستطيع دفعه مرة واحدة.
- إن لم تُعِدني إلى ديارنا فأوصلني إلى شاطئ البحر، ما من شيء أحبسه عنك.
- صمت حسن مراد بعض الوقت، ثم قال:
- إن سمحت لي أن أقضي ليلة واحدة إلى جانبك حققْتُ لك هذا الطلب. وكل ما دفعْتُ لأجلك أعتبره لم يكن لي. ترجّم لها يا طلعت حرفياً!..
- ترجم طلعت على مضض.
- أفضلُ أن أنتحر بالمقص على أن أفعل هذا، - هجمت أكوز وتناولت المقص من تحت الوسادة.

- هيه! صرخ حسن مراد كمن يقتلونه بالمقص.

أسرع طلعت فاختطف المقص من أكوز.

- لا تفعلي هذا يا أختي. - نهرها وأسمعها وهو يلتقط المقص تأنيباً. لا تيأسي ما دمتُ حياً!

وبعد بضعة أيام من الحادث تجادل في إحدى الليالي حسن مراد وزينب، وتطور الأمر، فلم يُدِرْ لها ظهره وينم بل توجه إلى الزوجة الثانية. ولما كانت الزوجتان متفاهمتين فعلت الزوجة الثانية به ما فعلت الأولى. ورغم الإهانة التي ألحقتها به الزوجتان فما كان يشغل بال حسن مراد شيء آخر. لم يكن ينسى هجوم أكوز على المقص. الفتاة الأديعية قليلة التربية ستفعل شيئاً بنفسها فأخسر ما دفعت لأجلها. وأحياناً كان يطمع في أن يتزوج منها ولكنه لا ينسى ما قالت زينب. لم أتوقع قط أن تصبح زينب زوجة شريرة كما حالها الآن. كانت هادئة لينة الطباع، وفي الفراش تتودد إليّ فولدت لي كثيراً من الأولاد. والزوجة الثانية لا تزال ترى نفسها عروساً، ولكن لا أعرف ما في نيتها. ألم تر كيف تصرفت هي الأخرى في تلك الليلة؟!

- إن لم تُبعد هذه الفتاة الأديعية التي هي ضرّة ثلاثة فستعود يوماً إلى البيت وقد أحرقت وجهها بماء النار.

- إن تفعلي هذا قلعتُ عينيك دون اعتبار للأولاد الثلاثة الذين ولدتهم لي. - كان حسن مراد قد هدّد الزوجة.

- سأبيعها لو سَمِنَ الأفطس قبل أن أتورط في فضيحة بين النساء. وهو الذي يلح عليّ: يرسل إليّ موفداً بعد موفد. والآن هل أذهب إليه بنفسي راضحاً لطلبه؟ لا، لن أستطيع هذا. أنا من يبيع وهو من يشتري. إن كان راعباً فيها إلى هذا الحد أرسل وراءها مرة أخرى. وإلا أهانني معتبراً إياي متراجعاً.

ظل حسن مراد ينتظر إلى هذا اليوم وسمن الأفطس، غير أن أموره لم تنجح. ولم يكن يجد من المناسب أن يترك أكوز بين الزوجتين. لا يجوز أن أبقى هكذا مكتوف اليدين كالحارس، سأغلب على صعوبة عملي.

قطع طلعت أفكار حسن مراد.

- ما الذي يُقلقك وقد قارب الوقت الليل؟ - سأل حسن مراد الشاب القادم.

- لا شيء يقلقني، جئت هكذا... - أخفى طلعت سبب قدومه.

- أنت لم تكن تأتي في الأماسي دون سبب، - قل لي ماذا؟

- كنت أريد أن أعرف السعر الذي حددته للفتاة الأديغة.

- لماذا؟

- كنت أود معرفته إن لم يكن سرّاً.

- أتكون تريد شراءها؟

- ومن أين آتي بكل هذا المال؟

- أنت أدرى بهذا. ستدبره إن أردت.

- قل لي السعر إذن يا أفندي.

- اسمع ما خطر لهذا الشاب! - رفع حسن مراد حاجبه مستغرباً ما سمع.

- هل تريد أن تشتريها مني بنقودي بعدما جعلت منك إنساناً؟! لم يفقد

حسن مراد عقله بعد. إن كان هذا ما تفكر فيه فاغرب عن وجهي، وسأطلب

طردك من الغرفة التي أستأجرها لأجلك. سأتركك لا تدري ماذا تفعل بنفسك

يا سليل الكلاب!..

- إفعلي ما تريد إن لم تعد محتاجاً إليّ ولن تزور بلاد الأديغة بعد الآن...

- أسمح لك أن تتفوه بكل هذا الهراء لحاجتي إليك أيها الجرو!.. لا تُسمعي

سيرة الفتاة الأديغة بعد الآن. هيا انصرفي حالاً!.. حسناً توقفي لحظة! سنزور

الأديغة في الربيع، - قال حسن مراد دون أن يخفف من حدة غضبه،

- فاستعدّ إذا أردت أن تجمع شيئاً من المال.

ازدادت عوامل قلق حسن مراد هذه الليلة أيضاً. لا فائدة من انتظار وسمن

الأفطس، سيذهب إليه بشخصه، ومهما انتقص من الثمن فسيدفع ضعف ما

اشتري به أكوز. سنرى إن كانت دار البغاء التي يملكها حسن الأفطس أفضل

مني لك. سأراك تتمسكين بي بأسنانك، تتوسلين إلي ولا أسمعك!.. إن كان

هذا مرادك فسأتيك إلى دار البغاء تلك فما من شيء يعجز عنه مالي. لا يهم

في الذهاب إلى حيث تنجح إن كان الوقت متأخراً أم متقدماً. وسأريح زوجتي... إلى وسمن الأفطس إذن!

-9-

حُيِّلَ لزَيْنَب أن صخرة أُزِيحَتْ عن كتفها حين أخبرها حسن مراد وخرج منشراح القلب والوجه، وصارت تقفز على أرض الغرفة، لا تعرف ماذا تفعل أو تتناول. مسحت على صدرية الرجل، وقفزت إلى الغرفة الثانية، ثم خرجت منها. أصلحت الوسادتين اللتين سينام عليهما الزوج متى عاد من عند وسمن باقه، وإن لم تكونا بحاجة إلى إصلاح، ومدت يدها على الستائر... ثم تساءلت فجأة عما إذا كانت ضَرَّتْها تعرف الخير. حكمت أن السبب في إخبارها هي هو أن دورها الليلة. وهل عرفتِ الآن من يحبُّ منا نحن الاثنين؟.. إذا كنتِ دخلت البيت بالأمس مزهوة فأنا اللبُّ هنا. أنا الزوجة الكبرى، ومن تقرر هنا. جلست زينب إلى المرأة تتزين. اطمأنت على حاجبيها، وفكت ضفائرها، وعادت فضفرتها. وتعطرت بالعطر الذي يحبه الرجل. وهل عجيب أن حملتُ بثلاثة أطفال، الولادة تنظف الجسد، وتضفي جمالاً ونعومة لم يكونا في المرأة. لم تكن زينب تريد أن تنهض وتتأمل جسدها. وجه أسمر مائل إلى الطول، والقاعدة التي يطير منها الحاجبان من الجانبين واسعة لا تحيط بها العين. يَمُّ أنا أبشع من تلك الفتاة الأديغية الصغيرة؟ بللتُ بفمها إصبعها الوسطى وممرت بها على حاجبيها بحرص شديد. واحمرت الشفتان حين بللتهما. وأخفت الجبين الملفطح الكبير تحت الناصية. وفي هذه اللحظة خطر لها أن تزور أكوز وتُريها جمالها. سأودّعها قبل أن تباع إلى دار بغاء وسمن الأفطس.

ارتعبت أكوز حين سمعت صوت الباب. وقفت وراء المقعد الوطيء. ولما رأت زينب داخلة بدأ قلبها يطمئن قليلاً. مهما بلغ ظلمها فهي امرأة ذات غطاء رأس.

- ماذا أيتها الفطساء الصغيرة، صاحبة الأنف المدور؟ أراك جالسة. - ألقت زينب نظرة غطرسية واحتقار. وابتسمت كأن جمرة ملتهبة سقطت على وجهها،

وأبعدت الضفيرة التي وقعت على الحاجب.

تأملت أكو ز المرأة سيدة البيت دون أن تفهم من كلامها سوى أنها تكلمت. لا تراها للمرة الأولى ولكنها لا تتذكرها بهذه الأناقة: امرأة جميلة لولا سمنتها. وفي كل إصبع خاتم ذهبي. والثوب الحريري الفاتح يكاد يصل إلى الأرض، وهو يُضفي على زينب طولاً ليس فيها. ولما رفعت عينيها عن خفيها المذهب ونظرت في وجه زينب ارتعت أكو ز من نظراتها. فأمسكت طرف المقعد بقوة متسائلة عن سبب مجيئها.

توقفت زينب أيضاً كأنها عرفت ما في نفس أكو ز. ما أجملها كأنها عصفور من عصافير الجنة!.. قوامها رشيق كأنها يمكن أن تمر من أحد خواتمي. غامت عينا زينب كأنهم يسلبونها شيئاً. تسليم هذه الفتاة الجميلة على مرأى منك إلى مبعي وسمن الأفطس ليمزقها الرجال إثم عظيم. صارت لي علاقة ما بهذا الموضوع فلن يقبل الله مني سلوكي. صارت تريد الخروج من غرفة الفتاة التي دعت عليها بالجدري ذات مرة. لا تُخلق مثل هذه المرأة دون علم الله؛ هل كتب الله إذن أن تكون هذه نهايتها؟ لا، لم يكتب. ما كان لهذا الخاطر الذي في نفسي أن يغزوني!.. ألقّت زينب نظرة متلهفة على أكو ز.

- ماذا تريدان؟ لا تقتربي مني!- رفعت أكو ز المقعد.

- لماذا تصرخين؟ - قالت زينب، ووضعت يديها على فمها تريد أن تُفهمها ألا تقول شيئاً. ثم أشارت إليها أن تتجه إلى الباب.

أبعدت أكو ز المقعد كأنها استبشرت خيراً وإن لم تفهم تماماً مراد زينب، وتبعثها. نظرت المرأة التركية من خلل الباب واقفة على رؤوس أصابعها. ولما لم تر عائفاً مدت يدها إلى أكو ز، وقادتها خلفها. وصلت المراتان بين مشي وجري إلى الباب الخلفي للدار، لا الأمامي. فتحت زينب الباب، وأطلقت أكو ز في ظلام الليل.

عادت زينب إلى البيت جرياً دون أن يراها أحد، ولكنها وقعت في ضيق. ذرعت أرض الغرفة مراراً. وجلست إلى المرأة تنقض أصابعها. لمست خديها الحمرأوين. مصيري بيد الله، لا أعرف من نفسي أنني اقترفت ذنباً. وفي الحال

تذكرت زينب أن الفتاة الأديغية شبه عارية. وليس معها أي نقود. أخاف عليها أن تضيع في ليل الربيع. تناولت أول قطعة وقعت عليها يدها من الخزانة، وصندوق المال الصغير، ولحقت بأكوز. كانت أكوز فارقت الدار. والظلام دامس حتى لا ترى الإصبع التي تمتد إلى عينك. سمعت زينب المؤذنين يدعون إلى صلاة العشاء فعادت إلى غرفتها متوقعة عودة الزوج.

لم تعبأ أكوز مع حريتها بالنهار أو بالليل. لم يكن لديها فرح وقلق إلا ابتعادها عن دار حسن مراد. وجدت وهي تبتعد عن الدار فتحة في السور يمكن أن تنسلّ منها. سمعت صوت عربة الركاب الصادر من المنعطف فوقفت وراء السور ريثما مرت العربة، ثم ركضت لا تعرف إلى أين. اختطف القمر الذي لمع من بين الغيوم السوداء أشجار جانبي الطريق من الظلام، وأنارت الدرب الذي هي عليه. رأت جمع المصلين المنصرفين من صلاة العشاء فاختبأت وراء بيت، وجلست وراء خزان خشبي. يا إلهي لا تدعهم يروني، يا إلهي ارحمني. تحتبئ من الناس بدلاً من أن تلاقهم. ولما مرّ المصلون أصابها اليأس. التفتت إلى الجهة التي كانت تركض منها. إلى أين أذهب، إلى أين أركض؟ هذه الجهة التي أركض إليها لا أعرف فيها أحداً. الجهة التي آتي منها فيها طلعت وزينب. ودّت العودة؛ ألم يقل لي طلعت: "لا تيأسي ما دمْتُ حياً" لماذا رمتني زينب بهذه اللهفة؟ تبدأ أكوز تثق بالمرأة التركية التي فتحت لها باب الحرية. أأخرجتني من البيت بنية الخير أم بنية الشر يا إلهي؟ أنا حرة ولو تُهت في ليل الغربة. وطريقي هو ما أركض باتجاهه. لماذا لم أسأل طلعت عن مكان بيته؟ وكيف أسأله ولم نلتق وحدنا مرة واحدة؟ يا إلهي لا أظن أنك لا تعرف حالي، امنحني القوة التي تردني إلى بلادي الشابسغ. دغني أرى ثانية، ولو لمرة واحدة، أرضي وسمائي، دغني أرى روعي الوحيدة موسى!..

قررت أكوز ألا تعود من حيث أتت. المخرج الوحيد أمامها هو الساحل الذي ترسو فيه السفن. أين يقع البحر؟ وقفت تحت الشجرة وأنصتت. لم تسمع أي صوت يشبه صوت البحر. هل أطرق أحد الأبواب إذن؟ ألن يعرفوا محنتي ولو لم أعرف كيف أكلمهم؟ لا، لن أدنو من هذا القصر. فيه غني شبيه بحسن

مراد... أطرق باب بيت أصغر؟ الفقير يفهم الفقير. زينب من الأغنياء ومع ذلك فهمتني. يا ربي كافي هذه المرأة في الآخرة على معروفها. واجعلني أنا قادرة على أرد لها معروفها. لا، يجب أن أجد البحر قبل أن ألتقي بأي إنسان. فإن لم أجدّه فما حمّلي الله حملي... لن أطرق باب بيت كبير، بل بيت صغير!..

لا تتذكر أكوّز إن كانت ركضت كثيراً أم قليلاً. ولا تتأذى ببرد الليلة الربيعية. إلى أين أجي؟ نظرت أكوّز إلى حيث يطلع القمر فأفاقت. كانت الليلة في خريف العام الماضي، حين أخرجوني من السفينة، مثل هذه. والقمر كان يطلع من تلك الجهة. كان على يساري. لماذا أدخل الآن إلى تحت القمر؟ ألم يكن القمر فوق رأسي؟.. عبرت الشارع، وركضت بعض الوقت أيضاً إلى جانب سور من الأسلاك. حُيِّل إليها أنها سمعت صوتاً بحرياً. لم يُحِيل إليها بل تسمعه من قريب. الأضواء الظاهرة ليست كتلك التي في البيوت. بل أضواء سفن. إنها تتحرك...

لم تذهب أكوّز إلى الجهة التي تأتي منها أصوات بشرية. تفحصت المكان متجنباً السفن. ولا تقترب من أي سفينة واثقة بها. تنحرف نحو المكان الأقل بشراً. وقبل أن تصل إلى آخر سفينة نادى رجل: - من هذا؟

قرفصت أكوّز حيث تقف. وفيما هي ساكنة ناداها الرجل نفسه. ثم رآته خارجاً من السفينة، متجهاً إليها. صُعرت أكوّز وقد فقدت كل شجاعتها. ثم قفزت وقد وجدت قوة لم تكن فيها، واتجهت إلى الرجل الذي لا تعرفه: - أنا هي، أنا!.. أليس طلعت هنا؟ - خطر لها طلعت في ساعة المحنة، واهتالت على الرجل بلغتها الأديغية دون أن تنطق اسمها.

...

- خالي يريدني، - قال طلعت متلهفاً بعدما دخل البيت، - لن أغيب طويلاً. إن تأخرتُ لسبب ما فلا تجزع يا موسى. سنعثر على أكوّز أينما كانت. لم يبعها إلى أحد غير وسمن الأفطس. سمعته مرة يأتي على ذكره. هذا عرقٌ عديم

الإيمان، لا شيء يُقلق بإذن الله...

حين مشى طلعت في إثر الشاب المرسل إليه لم يكن الفجر ينوي الطلوع بعد. ولكن الشرق كان قد بدأ يبهت. ومع أن النهار يكاد يمزق عينيه فالناس على شوارع إستانبول. أكثر الناس متجهون إلى السوق. الرجال يتوافدون نحو السفن، تعرفهم حمالين من ظهورهم المحنية. وفي كل اتجاه ترى لابس قبعات، لا أغطية رأس. القلق لم يدعه يعلق جفنيه طوال الليل. أما كان بالإمكان أن يؤخروا استدعائه إلى ما بعد الفجر؟! لماذا يا ترى يطلبني خالي. لم يخطر له أن يسأل في هذا الموضوع الشاب الذي أرسلوه إليه.

- سفيتنا الليلة، - همس الشاب لطلعت، - طارت إليها حمامة صغيرة على رأسها غطاء... لا تُخبر خالك أنني أطلعتك على الخبر، لن يدعني حياً. ألا تعرف تقاليد سفيتنا؟ لا أقصد اغتيال خالك... لم أر أحداً إلى الآن بمثل هذه الرجولة...

- ما اسمها؟

- من يعرف؟ لا يعرف خالك لغة يتفاهم معها بما. الكلمة الوحيدة التي فهمناها منها هي "طلعت". نطقتهما مرتين أو ثلاثاً. قلنا ربما أنت من تسأل عنه... ما أجملها!!

وفي الحال تذكر طلعت صوت حسن مراد في احتجاجه وتأنيبه. وعاد إلى الأذن صوت انصراف عربة وسمن الأفطس. أ تكون تلك الصبية أكوز؟ أي غريب في إستانبول يعرف اسم طلعت؟ حثّ طلعت الخطأ. ثم بدأ يركض بلا وعي. ولما قفز إلى السفينة قاده خاله دون كلام. لم يكن عنده نية السؤال إذ يعرف سبب استدعائه. ما يريده هو أن يرى الفتاة فحسب.

دخل إلى غرفة خاصة صغيرة في السفينة. وقبل أن يجد فاضل الوقت للكلام أَرعبهما صوت أكوز:

- طلعت!! - استقبلته أكوز بيدين ممدودتين. - الله أرسلك إليّ يا أخي الصغير.

- كفى، اسكتي يا أختي... ما الذي أتى بك إلى هنا؟ - كانت أكوز تبكي،

ولا تسمع ما يقال.

- من أين تعرفك هذه الفتاة يا طلعت؟

- هي من يبحث عنها حاغور الذي جئت به.

- تقصد موسى؟.. - لم يملك فاضل إلا التعجب مما يسمع. ونصّت أكوّز برأسها دامعة العينين.

- أين حاغور إذن؟ سأل فاضل ابن أخته وقد فهم واقع الحال، وعرف أن عليه الإبحار حالاً إذ لا بد أن تعقب هذه الحادثة مشكلات.

- عندي في البيت، سآتي به حالاً.

- أسرع!.. - صاح فاضل وراء طلعت. ثم توجه إلى معاون قائد السفينة قائلاً: - لا يجوز أن يخرج أحد من السفينة. ليقف كلٌّ في موقعه جاهزاً. لم تروا غريباً في السفينة!..

تبّين أن موسى الذي أسرع طلعت وراءه ليس في البيت. خطرت لطلعت هواجس كثيرة: أيكون حسن مراد أوعز بسجن ضيفه؟ أيكون رأى موسى في البيت وهو يلاحق أكوّز؟..

...

لم يستطع موسى البقاء في الفراش حين أُسْتُدعي طلعت إلى السفينة. خرج من الغرفة، ووقف على سور البيت يراقب الشارع مدة. مشى معجباً بما يرى، قائلاً في نفسه: هذه هي التي تستحق اسم قرية، حتى وجد نفسه في منتصف الحي. أسْتَغفر الله ما أكبر هذه القرية التي أتيت إليها! البيوت كبيرة، والشوارع مرصوفة بالحجر. ومآذن مساجدهم ما أدقّ نهاياتها كرؤوس السهام. إلى هذا الاتجاه يسير الناس والعربات ولا يأتي منها أحد. عاد موسى إلى وعيه وهو يتابع بعينه رواد السوق، فتوقّف. قال لنفسه: إلى أين أذهب؟ قد يكون طلعت عاد وينتظري.

بقي موسى على الشارع ينظر في كل اتجاه ولا يرى أحداً. من العيب أن أقف، أنا الرجل، في وسط الشارع حائراً فلاأقف وراء جدار ما. وإذا لحق بي طلعت يريد معرفة ما جرى لي وجدني في مكان ثابت. اشتهى حاغور التبغ فوقع في

ضيق. ولما تناول الكيس تلوى قلبه من الألم إذ أنه من تطرّيز أكوز. يا الله هل ستجمعنا، أكوز المرأة الصغيرة وأنا؟ في أي بيت غريب تقيم الآن المرأة التي لا ذنب لها؟ ماذا تعرف عن حالها وعما تعانيه؟..

انتهى حاغور من قبضة التبغ فسأل نفسه عن سبب وقوفه. سأمشي حيث يتوجه الناس بدلاً من أن أقف كالعمود المغرور في الأرض، لن يصيبني أذى حيث يتجه الناس. بعدما سار بعض الوقت ظهر رجل من إحدى الزوايا يحمل كيساً كبيراً على ظهره. يتصبب عرقاً، دليلاً على ثقل الحمل. ربما يأتي بالكيس من مكان بعيد. وقف الرجل إلى جانب شجرة يستريح، فترحل الكيس لا يستطيع صاحبه الإمساك به. انقطع رباط الكيس وتناثر القمح على الأرض. اللعنة! يا للمصيبة، - أسرع حاغور إلى الرجل الذي يجمع القمح، وأمسك له برأس الكيس. قال له الرجل شيئاً لم يفهمه. فهزّ رأسه. - ثم سأل الرجل: إلى أين تذهب؟

- السوق، السوق، - قال الرجل، ونظر إلى يده مستغرباً. ثم ابتسم له.
- نعم، نعم، وأنا ذاهب إلى هناك.

...

حين لم يجد طلعت الضيف في البيت لم يسأل أحداً بل دار في نواحي الحي. وفتش السور الشائك لحسن مراد دون أن يراه الأخير. لم ير ما يشك فيه. وها هو حسن مراد قد خرج من البيت. أين يمكن أن يكون البائس حاغور؟ وقبل أن يجيب نفسه ركض باتجاه السوق. قفز إلى العربة ووصل فإذا السوق مكتظة بالناس. قطع طلعت السوق في كل اتجاه يتلقى شتائم من يصطدم بهم. ثم وقف مدة يتصبب عرقاً. أين يكون حاغور؟ أليكون رجع إلى البيت؟ اصطدم في جناح الحبوب برجل يحمل كيساً كبيراً فنهره بالأديعية:
- هل أنت أعمى أيها البائس!..

- حاغور؟!

استدار حاغور موسى والكيس على كتفه. ولما عرف طلعت هُرع إليه والكيس على ظهره لا يسخو به:

- أهذا طلعت؟

- ما الذي على ظهرك؟

- كان الكيس ثقيلاً على أخي الأصغر، فساعدته، - قال حاغور يكاد يطير من الفرح وهو يحطّ الكيس عن كتفيه. لا ضيرَ في هذا، ساعدتُ الفلاح الشاب.

- تعال، بسرعة... - سار طلعت مستعجلاً، - ينتظرنا خالي وجماعته.

ارتقيا في أول عربة وحاغور يعرف أن هناك ما يدعو للاستعجال، ولا وقت للسؤال، ووصلا إلى مدخل السفينة. في الطريق أخبر طلعت صاحبه بحال أكوز. رأى موسى السفينة فخفق قلبه، فأصلح وضع قبعته، متلهفاً على لقاء أكوز، والخنجل يغلبه. ونشفت شفتاه.

- يا موسى؛ ما الذي جاء بك إلى هنا! - استقبلته أكوز وخداها محمران كالجرم، ثم عادت إلى وعيها فتوقفت.

وحاغور أيضاً لم يجد من اللائق أن يهجم عليها من الفرح.

وما إن التقى موسى وأكوز حتى تراجع طلعت ومن معه كي لا يسببوا الحرج للعاشقين، وخرجوا من الغرفة.

- ألن يكافأني من أخدمهم؟ - سأل الملاح. - وأنت تعرف أن الطريق ثقیل...

- لن يخذلك حاغور يا فاضل!..

- سنركب طريقنا إذن، لا يجوز أن يعرف أحد، ولا أريد التورط في مشكلات من هذا القبيل...

- ودّع طلعت خاله، ثم استدار إلى أكوز، فنظر من خلال الباب المفتوح: موسى جالس بكل هدوء كأن لم يجر له شيء، ومن الجانب الآخر تقف أكوز بوجهها الشاحب اللائق بها حتى لتظن أن هذا اللون يناسبها أكثر. قال طلعت: ما حاجتهما إليّ حتى أقطع حديثهما وحبهما! وانصرف. ولكن لم يستطع إلا أن يلتفت. ما يظهر من قائمة الباب هو أحد خدّي أكوز، والصفيرة السوداء تسيل على الظهر. تنهد طلعت غير قادر على الصبر غابطاً

حاغور على فرحته. إن كان هناك ما يسمى بالخطّ فهذان هما المحظوظان... ما إن وضع طلعت قدمه على الأرض حتى أمر فاضل ملاحيه بالاستعداد للرحلة. وانطلقت السفينة تشق عباب الماء. رجع طلعت بسرعة وكأنهم يسلبونه ما لن تقع عيناه عليه إلى الأبد، وانصرف.

الفصل الثالث عشر

-1-

لم يبق إلا ثلاثة أيام على افتتاح مؤتمر البجدوغ. لم يبق للمنادين إلا التبليغ ابتداء من الصباح إلى بداية المساء. منادو طؤابغه الثلاثة يدورون في أرجاء البلدة، يتنافسون على من صوته أقوى. يتكلمون على رجولة الأمراء، ويثنون على النبلاء، ويكملونها بفضائل الفلاحين.

أصغى الأمير الكبير قانشاو حين تناهت إليه أصوات المنادين. ولما لم يفهم ما يقولون بوضوح أمر بفتح الباب.

- أيتها القرية، أيها الحيّ، لم يبق إلا ثلاثة أيام على موعد مؤتمر البجدوغ. جعلنا الله من المسلمين الذين سيأتيهم المؤتمر بالخير. وليرزقنا الله في ذلك العيد بعشرة أضعاف ما عندنا. يقترب اليوم الذي سيشيد فيه الناس بالأمير الكبير حجمقوه قانشاو. يا إلهي امنحه ألف عام عمراً. سعادنا مع الأمير الكبير قانشاو، وسنسعد معه. تفقدوا شرايكم، وسمّونا أفخاذ خرافكم. ليستمتع الأمير بعمر حافل، عميق كالبحر، عالٍ كال موج!..

- ماذا يقول هذا المجنون؟! - لم يقبل الأمير الكبير ما يسمع. - اسمع يا مرزيج: أوقف هذا المجنون، وأفهمه أن شخصي ليس مهماً. يكفيني ما يعرفه الفلاحون عني!.. المهم الآن الأمير ألقس: معروفه، رجولته... فإن لم يكن المنادي قادراً فأغلقوا فمه بالخشب والمسامير. ألم يعد أحد ممن أرسلناهم إلى القرى لإقناع الناس؟ أرسلوا إليّ أول من يعود منهم. في مثل هذا اليوم لا تجلس إليّ يا ألقس

مكتوف الـيدـين. خـالـطِ القـرى، وعـاشـر الفـلاحـين مـزيـداً مـن الـوقـت؛ فـإن لـم يـخـجـلـوا مـنـك خـافـوا. حـسـناً فـعـلـتَ إذ قـابـلـتَ فـي مـنـاسـبـة عـابـرة عـلى الطـريق الـأمـيرين قُتـنـقـوقـه وفـزـنـقـوقـه. لـيس فـي الـبـجـدو غُ أـمـيرٌ يـعـادـينـا مـثـلـهـما. لا تـقـلـق بـشـأـن وِجـبـش وِجـمـاعـتـه، أـخـوالـك كـفـيـلون بـهـم. وأـنا واثـق مـن يـدَ بـسْـقـواي فـبـغـديـسـار كـفـيـل بـهـم. فـلـيس فـي تـلك النـاحـية فـلاح لا يـحـترـمـه.

انـقـطـع صـوت الطـريق فجأة. يُسـمـع صـوتٌ أـعلى القـريـة مـن بـعـيد. ولا يـسـمـع الـأمـير الكـبـير قـانـشـاو شـيئاً مـمـا يـقـول. لـيس هـذا مـا فـي الـذهـن. فـما يـهـمـه هـو تـأخـر النـبـيل مُغـاسـه بـامـبـت الـذي أـرسلـه لـلتـجـسـس إـلى نـواحي قـريـة قُتـنـجـق. مـاذـا يـقـول المـنادون فـي تـلك النـاحـية يا تـرى؟ أـلـن يـصـفّ المـنادون إـلى جـانـبـنا احـتراماً لـأقـمـشـة البـناطـيل والقـمـصـان الـتي أـرسلـناها إـلـيـهـم؟ إـن خـدعـونا ذـهـب كـل هـذا القـمـاش هـباءً. ولا أـعـرف سـبـب تـأخـر التـاجـر حـسـن مـراد. كـنت أـعـلمـتـه فـي الـشـتاء المـاضـي أن يـصـل مـع الرـيـع إـلى المـؤقـر ويتـاجـر فـيـه. هـذا سـيـصـل، لا يـحـرمُ نـفـسـه مـمـا فـيـه فـائـدة لـه. وبارـينـقـوقـه بـغـدسـار يـلـين قـلبـه لـك، ويُشـيـع عـنـك الـخـير إـن نـاولـتـه مـا لا يـجـدـه. لا يـجـوز تـقـديـم البـاخـسـمـه لـلفـلاحـين فـي الـيـوم الـأول. يـمـكـن الإـحـسان إـلى الـأمـراء - النـبـلاء بـهـذا المـشـروب. يـجـب تـبـيـهـهـم إـلى تـقـديـم مـاء العـسـل لـلـأمـير قـزـنـقـوقـه قـامـش كـثـيراً. يـلـين قـلبـه لـلـمـشـروب. وهـو يـجـب المـديـح فـلا يـيـخـلـوا عـلـيـه بـالـثـناء. ولا يـجـوز لـأحـد مـن رـعيـة الـأمـير قـنـجـق أن يـعـتـرضـه. نـسـتـطـيع أن نـحـمـلـه عـلى فـعـل مـا نـريد مـنـه عـن طـريق مـوافـقـتـه عـلى كـل مـا يـقـول.

- أيتـها القـريـة، أيـها الحـي، دعـونا نـمتـدح الـيـوم فـضائل الـأمـير حـجـمـقـوقـه أـلـقس!.. - عـاد الصـوت الـذي كان انـقـطـع.

- أيـها اللـعـبـة هـذا يـصـلح أن يـكـون شـعار مـنادٍ. - ابـتـسـم الـأمـير الكـبـير قـانـشـاو. - أي صـاحب لـلـأمـير الكـبـير يـتـكـلم عـلـيـه هـذا؟ - قال أـلـقس يـريد أن الـأمـير الكـبـير لـيس لـه مـعارف هـنا.

- ومـا شـأنـك أنت بـهـذا؟ - رـفـض الأب، - لا تـزال صـغـيراً وإن لـم يـكـن فـسـيـكـون عـندـك. كان جـدـك يـقـول: لـيس فـي الشـمال عـرق أكـبـر مـن هـؤـلاء. دـخـل النـبـيل مـغـاسـه بـامـبـت الغـرفة لا يـعـرف كـيـف يـسـير فـي أـرض الغـرفة:

- أيها الأمير!..

- حسناً فعلتَ إذ وصلتَ، - لم يسمح الأمير قانشاو للنبييل بإتمام كلامه.

- ما الأخبار في الناحية التي جئت منها؟

- يا أمير، المنادي خدعنا في قرية قنجق. لاهمّ له إلا الأمير قنجق. لم أسمع طوال البارحة إلا أغنية أميرهم.

- أنا عرفت أن الأمر آل إلى هذا. - اسودّ لون الأمير الكبير، - ورشوتنا أكلها الكلب. جعلها الله سمّاً!.. يبدو أنه يغني لمن يركب في عربته. لا عجب في هذا. أليس لمثل هذا قالوا: لا تنادِ غير أبنائك، وقم بنفسك واشرب من الماء!¹ حتى منادي قريتنا يحتاج إلى توجيه منا. وكيف يخدمك من ليس مناديك!.. - أليست قرية قنجق من قرى أمير البجدوغ الكبير قانشاو؟ - لم يستطع النبييل إلا أن يسأل موافقاً للأمير. - ما العمل؟ فيها أمير معتدّ بنفسه. كيف يتصرف أهل قزانقواي إذن؟

- لا بأس بمنادي هؤلاء يا أمير. لا يفرق بين آل حجمقوه وآل قرنقوه. لا أريد أن أظلمه.

- تبين أنه أعقل من غيره، - لمعت عينا الأمير الكبير، والتهب قطعة جمر. كان ينوي أن يقول شيئاً بحقّ دعاة قريتي قنجق وقزانقواي، غير أنه احتفظ بأدبه. متى ما انتهى مؤتمرنا على خير فسأحبس هؤلاء حتى لا يستطيعوا أن يقوموا بمهمة الدعوة إلى الأبد. وهل عجب إن كان عندهم أمراء صغار طامعون جاحظو العيون!..

الجو جميل كأنه سيحضر مؤتمر البجدوغ. لم يقصّر في ما يستطيع فعله في الربيع: الريف أخضر مستوٍ، عجل الربيع كأنه يريد تزيين الأرض التي نجت من الشتاء. والغاية التي كان بصرك قبل مدة قرية يخرقها، تفوح منها الآن رائحة الخضرة. والمواشي تناثرت على الجبل والوادي والريف.

لم يجد ألقس الليلة أيضاً مخرجاً مما كان يشغل باله في الأيام الأخيرة. يصدعه

¹ القول المأثور كغيره من الأقوال يعتمد كثيراً على الجنس بين "نادى" و"قام".

كيفية إيصال الأمير المريض إلى المؤتمر. إن أوصله فسيستريح بطريقة ما في مقعد. ولكن المشكلة في إيصاله. لن يستطيع السير على الرجلين، ولم يضع رجله في الركاب منذ مدة طويلة. سيوصله بعربة الركاب ولو سخروا منه.

نُحِض أَلْقَس مع الفجر. وخرج من الغرفة لا يتحملها. كانت دار الأمير الكبير مستنفرة. قرر أَلْقَس أن يدخل إلى والده بعد أن يكسوه ويُطعموه. سيتضح اليوم إن كان حجمقوه أَلْقَس سيصبح الأمير الكبير. إما اليوم، وإما لا إلى الأبد... تحول في أرجاء الدار ليوقف الضيق الذي نشب في الصدر. كان ينتظر شيئاً آخر غير السفر، ولا يعرف تسمية ما ينتظر. لما نظر إلى الشرق الذي يحمرّ فيه ما ينتظره: أليس قد رُبّي في أرض الشابسغ؟ الشمس تشرق، يظهر طرفها مشعاً جداً من وراء الجبل. وفي الحال انفعَل قلبه. كان ينوي أن يشتر عن ذراعيه ويستقبلها كما يفعل فلاحو الشابسغ، ولكنه صحا فتسّر في مكانه متمتماً: يا إلهي يا شمسي، ليشرق نهارك عليّ اليوم!!.. لثبق خير من في قلبه الخير لي، ورقّق قلب من لا يُضمّره لي!!..

- العربة جاهزة يا والدنا، - دخل أَلْقَس إلى والده في الموعد.

- أي عربة يا ولدي؟

- ما ستسافر فيها إلى المؤتمر.

- وهل أنا ألبس غطاء رأس فأركب في العربة؟! لم أبلغ بعد مبلغ العجز عن ركوب الحصان. سأساندك يا ولدي حتى تستطيع الوقوف على قدميك. ومتى رحلت تركت الأمر لك. إن خالطتهم ركباً بقيت هيتي تحرسك. هل تظن أن الأمراء وصلوا؟ احفظ في قلبك يا ولدي ما يلي: متى كنت أميراً كبيراً فلا تنتظرهم؛ دعهم هم ينتظرونك!!..

لم يكن الناس المتجمعون في تحم الغابة يُعدّون: الفرسان والراجلة. وعلى مسافة مبلغ نداء واحد، يُسلق اللحم. ويُنضجون باستا الدخن. وتستقر براميل الباخسمه وشراب العسل. وأينما جلّت بنظرك لم تر إلا رجلاً. كلٌّ في مكانه المحدد له وفي مهمته، ينتظرون وصول أمير البجدوغ الكبير. والأمراء بحقوقه وقنحق ووجبش وقزانقوه وجحق وبشقوي وتبوه وتَحْتَمَقوه جالسون معاً. ويقف

أعلى من صف الفلاحين النبلاء الكبار، ثم يقف النبلاء الصغار معاً. وبالترتيب نفسه تقف نخبة الفلاحين، فعامتهم.

دخل الأمير الكبير قانشاو إلى الساحة فنهض الأمراء كلهم. واستقبله من يمسون الأعنة والركائب.

- هذا الذي أراه الآن لا يزال قوياً، - همس الأمير قزانقوه قامش إلى الأمير قنجق الذي يقف إلى جانبه.

- ستعرف إن كان قوياً في أثناء إنزاله من السرج - أشاح الأمير قنجق برأسه. لم يعرف الواقفون إن كان الأمير الكبير ترجل أم لم يترجل، ولم يعرفوا من المحيطين به اختطفه من السرج. لم يره الأمراء المتجمعون إلا جالساً في مقعده. سكت قليلاً ثم قال للأمراء المحيطين به:

- تفضّلوا أيها الأمراء. اجعلنا يا رب من المسلمين الذين سيفتتحون مؤتمر خير. سنبدأ. يا أمراء البجدوغ، والنبلاء الكبار، والنبلاء الصغار، ونخبة الفلاحين، وكل من حضر إلى هنا والله في قلبه. أفتتح اليوم مؤتمر البجدوغ. - شرع المنادون القرييون والبعيدون يكررون كلام الأمير حتى يصل إلى الجميع. - اليوم يوم عمل من بداية الربيع. لم تكن نوّقت في الماضي مؤتمرنا على بداية الربيع، ولكن وجب علينا هذا العام أن نوّقه عليه. ولذا لن يقبل الله منا يا جماعة أن نعقد مؤتمرنا في يوم عمل؛ فلنختصر الوقت!.. وأنا من ناحيتي سأختصر كلامي. ليس في المؤتمر إنسان لا يعرف حقيقة عمل أمير البجدوغ الكبير حجمقوه قانشاو. أنا هرمث، وهدي المرض، بغض النظر عن عمري. يكفي ما حملت لقب أمير البجدوغ الكبير. وعندنا من هم أكفاء لحمل هذا اللقب بأعمارهم وحكمتهم. إن رأيتم الوقت مناسباً فأنا أطرح هذا الموضوع.

لم يكن الحاضرون من أمراء ونبلاء وفلاحين يسمعون كلام الأمير لأول مرة، ومع ذلك تصوره هكذا. بقي الجمع واقفين مدة لا يعرفون من سيبدأ الحوار، ليس لأن آل حجمقوه لم يحضروا من سيتكلم؛ وهل أنفقوا عاماً كاملاً على تحضير الأمير الكبير!.. ولم يحضروا دون أن يعرفوا النتيجة. ورغم أن الأمر محسوم هكذا فلا ينفك القلق الخفيف يساورهم. من يعرف؟ ما من شيء لا

يمكن للإنسان أن ينطقه. وإن كنت تعرف أن لا مفاجأة فالأفضل أن تتحسب لها. وأعوانهم منتثرون بين الأمراء والنبلاء والفلاحين. وهؤلاء يعرفون ما سيقولونه أولاً وما سيسألونه. وفي حال الضرورة هناك أشخاص معيّنون يقبلون الأبيض أسود، والأسود أبيض.

- إن كنت ترى يا أمير أن الوقت مناسب لاقتراحك فنحن أيضاً نراه كذلك.
- قال الأمير تيوه الأسمر. وبلغ المنادون كلامه إلى الحضور.

- كلامك كلامنا يا أمير، - أيده جمع النبلاء، ورددت معه نخبة الفلاحين.
- من ستقترحون إذن؟ سأل قانشاو الذي لا يسخو إلى الآن بلقب أمير البجدوغ الكبير.

- وهل هذا يستحق السؤال يا أمير؟! - أسرع الأمير بحقوقه، من عندنا من سلالة الأمير الكبير غير أسرة حجمقوه؟

حدث ما توجس منه الأمير قانشاو: اعترضه الأمير قزانقوه:

- هل تقترح صهرك؟!

- وما الغريب في هذا؟ وهل أعيش في البجدوغ دون لقب الأمير؟ إن وصل بك الأمر إلى هنا أيها الأمير قزانقوه فسأقول لك: نحن لسنا أصغر من آل حجمقوه. ورغم ذلك لا أنقض التقليد السائد في البجدوغ. ليس من أقترحه من أسرة بحقوقه بل من أسرة حجمقوه.

ورّط الأمير بحقوقه المؤتمر في أزمة وهو يظن نفسه يفعل خيراً. انقسم المؤتمر قسمين في غمرة الجدل بينه وبين الأمير قزانقوه. اصطدم الججنائي والشمشي. لم ينته المؤتمر في اليوم الأول ولا الثاني. يتخاصمون، يتصالحون، ثم يتشاجرون. وفي اليوم الثالث نفعت الباخسمه وماء العسل كما قدّر الأمير الكبير. فعاد الأمير قزانقوه وأتباعه بفضل صبر الأمير قانشاو ولغته اللطيفة. وبعد الظهر تبدد العداء بين الفريقين، وشرفوا الأمير حجمقوه ألقس بلقب أمير البجدوغ الكبير. وفي اليوم نفسه، وفيما الأمير قانشاو يعود من المؤتمر أميراً عادياً شلّ مزيج الفرع والإرهاق جسده للمرة الثانية، وأسقطه من السرج فعادوا به ليكونه، يحمله إلى داره فارسان متقابلان.

- سيكون الجو اليوم لطيفاً، - عاد بغدسار إلى الغرفة وهو يردد الجملة، - ما كان علينا أن نتخذع بغيوم العشية. كنا اجتزنا إلى الآن البجدوغ ودخلنا في الشابسغ.

- ألا يمكن أن نتطلقوا حالاً؟ - سألت كارينا الرجل، - لا أرى معكم ما يعيقكم.

- والله لن أستطيع الانطلاق وقد حان الظهر على مرأى من الناس. ما مضى كثيره سيمضي قليله. ألا تعرفين أن الإنسان البسيط تائه. لن أسمح للناس ان يقولوا أين يسافر بارينقوه الآن لجمع المال. أين باتجري؟

- باتجري وليفان خرجا لترويض الخيل.

تذكر بغدسار فارسِيه، فجعله الفرح يمد يده إلى لحيته السوداء وشاربيه. ينشأن بفضل الله رجلين حقيقيين. كلاهما يتصف بالرجولة، ليسا ناعمين جداً حريصين على المظاهر. زميلاي في العمل منذ شتاء العام الماضي. لا يميلان إلى اللعب. يلاحقان أعمال الرجال. ما قيمة الثمانية عشر عاماً؟ حين كنا في عمرهما كنا مولعين باللعب بالكعوب، نحملها معنا دائماً، ونلعب "الباي"¹، ولا نترك القفز. الآن نحن في عصر آخر. يبحثون عن البطولة قبل أن يولدوا. عِدْهم أن تذهب بهم إلى الشاطئ واحرمهم من الطعام! باتجري تكومت عليه المصائب، ونحن أيضاً. ماذا كان يجري لو عاش الأمير قانشاو إلى أوائل الخريف؟ كان أدى مراسيم ولديه. ورحل على نحو أهدأ. في حال الضرورة ليس باتجري مشكلة. من لم ينجح هو ألقس الأمير الكبير. تقياً شيطاناً في عرسه. حصل على لقب الأمير الكبير بمنتهى المشقة. فخسر والده. وتأخرت إعادة ربيبنا عاماً كاملاً.

¹ هو الاسم الشعبي للعبة كانت شائعة في الجولان. والاسم الشعبي في أحياء دمشق "بري"، والاسم الرسمي "دق الحاي". وأدوات اللعبة عصا عادية الطول وقطعة صغيرة بطول شبر أو أكثر. وللعبة تنوعات كثيرة.

- لم نوقِّق في شيء مع باتجري، - قال بغدسار للزوجة وهو يخرج من أفكاره،
- وهل حدثت مشكلة لو لم نخبره بموعد إعادته؟! سيبلغ غاية الحزن مفكراً في
ما جرى له. وهو في الأحوال العادية ينادي ليفان باسم ألقس أحياناً...
- لِيُنَجِّنِي الله من ذنب قانشاوا!.. قالت كارينا بعدما جلست مدة تتفكر في
أقوال زوجها. كنت فرحت حين أخبرونا بوفاته بدلاً من أن أحزن. بالنسبة إلي
لا فرق بين ليفان وباتجري. كلاهما رضع من صدري. وكلاهما نشأ على
فخذي. لماذا أقتلعه من حضني وأسلمه لمن لم يرِّه؟.. - انفجرت باكياً،
- ومن أين تعرف لثنائي المترفة إن كان باتجري نام أو مرض؟.. هي جاهزة تماماً
لتنادي ولدها حين يعود إليها قائلة: "يا صغيري"، وهي التي ربّوا لها ابنها دون
أن تمد يدها إلى الماء البارد... وأنا؟ ما مصيري أنا؟..
- يا امرأة!.. كأنك تهذين!.. لا تحاولي انتزاع ابن أسرة حجمقوه منهم
بالقوة!..

- وهل عجيب إن كان ابن آل حجمقوه؟ الولد لمن رباه، لا لمن ولدّه!..
- هذا ما يقال، لكن ما العمل، لسنا مشمولين اليوم بهذا المبدأ. إذا كان لابد
من التدقيق في المسألة فلن أذهب وأقف وراء آل حجمقوه. صحيح ليس
عندي ضيغ وقطعان من الماشية ومن الخيل... ولكن ما عندي ليس أقل بل
أكثر من كل هذا. ما عند آل حجمقوه وليس عندي أمرٌ واحد: لستُ من
سلالة أمراء!.. من ربيت لهم يفوقوني في هذا. - ما قلته بشأن الأمير قانشاوا
لا تدعي أحداً يسمعه. لن يدعنا الأمراء - النبلاء نعيش بأمان.
- باتجري، ولدي الذي ربيته، لو كان بالإمكان ألا أسلمه لهم لقدمت لهم كل
شيء. بأي حجة أنتزعه من لحمي؟!

- هل جننت يا امرأة؟.. - لم يقبل بغدسار ما تتحدث فيه كارينا. - رينا لآل
حجمقوه مقابل المال. وأنت تعرضين أن تدفعي لهم ما نملك!.. حسناً أنت
سيصدر منك كثير من مثل هذا الكلام إذا سُمح لك. وهل غياب باتجري عن
البيت يعني عدم تربيتنا له؟ حتى الولد الذي ولدته الأسرة تفصله عنها متى
تزوج.

- يا حسرتي، من يفعلُ هذا هو من عنده أولاد كثيرون. وأنا هل أقصَّ أحد غصنيّ بإرادتي؟! أيُّ بؤس دفعني إلى أن أربي لآل حجمقوه؟ عادت كارينا إلى البكاء.

- ابكي أنتِ إذن!.. - نهض بغدسار، - نقّسي عما في صدرك بالبكاء، ولا تربني نفسك بعد الآن تبكين. يكفي من يتكلم على آل حجمقوه، فلا تزيدهم!.. الأولاد غابوا طويلاً، سأكون في استقباهم.

بحث بغدسار في الأماكن التي يذهب إليها عادة بالتجري وليفان، ودار هنا وهناك: وصل إلى الغابة وإلى ضفة النهر، وتجاوز صيادي السمك، وصعد إلى المرتفع. ولما رجع توجه إلى قرية شَبَن، فبحث في حُجج. لم يظهر الولدان في أي مكان، فبدأ الألم يغزو قلبه. وتدافعت الخواطر في الرأس يطارد بعضها بعضاً. ليت الأشرار لم يلاقوهم فلم يهينوهم!.. ودون أن يدري إلى أين يذهب صار على ضفة طؤابغه بغلوة حصان. المطر الذي هطل قبل أيام بلا انقطاع أثار الطين فالنهر يقلّب غاضباً الماء الموحل، ويهددك بأن يجرفك إن لم تعرف المخاضة. ولما سأل الراعي على حدود قرية قَزَنقوايه دون أن يدخلها، أفاده أنه رأى فارسين على ضفة نهر بُسْثُبسه.

- يا ربي أيكونان اجتازا نهر غُواعُوهُ؟ - بدا القلق على سؤال بغدسار.

- لا يا زعيم الخير، لا أظنهما سارا بهذا الاتجاه. - أجاب الولد الراعي، - تسلفا رأس النبع.

- أنت من أي أسرة؟

- أنا من سلالة بَنَف.

- حياك الله إذن. - انصرف بارينقوه بغدسار.

- وأنت يا زعيم الخير من أي أسرة؟ - صاح وراء الفارس معتبراً عدم سؤاله عيباً.

- إن كنت تعرفني فأنا بارينقوه بغدسار.

- يا لعجبي يا زعيم الخير، يا من جعل الله يومه مئة، هل هذه طريقة تقديم؟ وكيف لا أعرف بغدسار التاجر؟ - لاحقه الراعي ولكن لم يكن في ذهنه إلا

الفارسان.

نهر بسقيس صافٍ جداً بالقياس إلى طوابجه. يجري متناقلاً غير متأثر بالمطر، يسمح بنواصي الصفصاف فمه. وتقفز منه الأسماك بيضاء تنظر مرتابة. ترتقي طيور السنونو العابثة فيه فتمزق بأجنحتها الماء. سار بارينقوه على الضفة مسافة، ولما صار مقابل تل أصلان تسلقه ليفتش فيه. رأى على الطريق الرئيس للبعدوغ ثلاثة فرسان. دنا منهم مسافة غلوة حصان فبين أنهم الأولاد. وكان من السهل أن تعرف أن الفارس الثالث ليس من هذه الأنحاء. الكساء الكبير تنسجم معه أفواه ظروف الصفر. ومقبض الخنجر يتآلف مع ما على الزنار من زخارف. والقبعة المتوسطة الحجم من لون الجزمة التي في الركاب. ليس على الفارس والفرس ما لا حاجة بهما إليه. حتى الكساء القصير، وغطاء الرأس، إلى العصا التي تسند البندقية، كلها مرتبة بحيث يسهل على الفارس الوصول إليها عند الحاجة. ومن مظهره تعرف أنه قطع طريقاً طويلاً.

- مع السلامة، - ودع بارينقوه الفارس وقد نسي غضبه مع بُعد المسافة وفرحه بالعثور على الشابين.

- وأنت يا زعيم الخير، - ردّ عليه التحية. - يتناثر منك الغبار.
- والله لست في سفرة مهمة... أخشى أن يكون هذان الثرثاران قطعاً طريقك؟.. أنا أبحث عنهما. لا أعرف أين هما، - اختلط سؤال بغدسار ولومه نفسه وتحفظه.

- لا يا أخي الكبير، لا يستحق أخوأي الصغيران مثل هذا الظن. سألتهما عن طريق الشابسغ فلم يدعاني أكمل السؤال، وتبرعا بإيصالي إلى هناك. رأيتهما أولاد رجال حقيقيين.

- حياك الله يا أخي الصغير إن رأيت فيهما هذه الملامح، تعال تفضّل، قربتنا ليست بعيدة. تقضي ليلتك عندنا، وتُريح حصانك. أنا لقي بارينقوه، واسمي بغدسار.

- بيتك عامر إن شاء الله يا أخي الكبير، إن كنت لا تعرفني فأنا أعرفك، وسمعت كثيراً سيرتك. تتمنى النساء الهاويات للملّون، وزوجتي أولاهنّ، مجيء

التاجر بارينقوه إلى نواحيهن، فينتظرن. أنا اسمي مخوش. آتي من الجمكوي العليا. لو لم يكن أمامي مسير يوم آخر لشرفتك بـكل سرور، وذقت من الشيبس باستا في بيتكم. علي الوصول إلى باستوك مساء الغد. أسافر بناءً على طلب من حاغور موسى. موسى رجل ممتاز، أظنك تعرفه؟

- قلت حاغور موسى؟ - تظاهر بارينقوه أنه لا يعرفه والتفت إلى باتجري. - سمعت مثل هذا الاسم... أظنك تتكلم على حاغور موسى فلاح آل شـرلأقوه. - أنا لا أعرف إن كان فلاحاً لدى آل شـرلأقوه، ولكني أعرف أنه من رجالات الفلاحين في الشابسغ. هو فلاح يتحلى بالرجولة من أي أصل كان. لن أنسى معرفه إلى الأبد. التقيت به في بلاد الجمكوي قبل بضعة سنوات. ولم ينسني منذ ذاك. وها هو قد دعاني يود مقابلتي.

- والله خسارة لنا ألا تنزل عندنا يا أخي الصغير. تعال إذن نوصلك إلى طريق الشابسغ.

تبادل باتجري وليفان اللذان لم يتفوّها بكلمة إلى الآن النظرات حينما سمعا الكلمات الأخيرة لبغدسار. وتهامسا مسرورين لتشجيع الفارس.

عند العصر رجع الفرسان الثلاثة ودخلوا يدبّسقوايه. وفي الليلة نفسها، قبل الفجر اصطحب بغدسار الولدين، وسافر إلى الساحل لجلب القماش. ولما وصلوا إلى مفرق طريق قرية حجمقوه سأل بغدسار ربيبه يريد اختبار ردّ فعله:

- ما رأيك يا باتجري أن نعرّج على أخيك الكبير؟.. - فهم بغدسار من نظرة ربيبه، قبل أن يجيب، رغبته في رؤية أخيه فتذكّر كلام زوجته أمس، فوجّه حصانه نحو طوابغه، متألماً، قائلاً في نفسه: "معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري صار عدوّي".

-3-

سهر عدد من الفلاحين عند مشقوه ترقان. كان باتجري ذهب إلى بيت مشقوه بناءً على طلب ألقس أمير البجدوغ الكبير، ألم ينزل ضيفاً عليهم حينما تزوج؟ فلم يدعوه يخرج دون أن يُعدّوا له مائدة. ولما كانت المآدب توقفت حداًداً على

الأمير الكبير قانشاو، فقد دُعي عدد من الفلاحين الجيران. وبعضهم كان قد جاء بالمصادفة لتزجية الوقت. وخصّوا بالتجري وليفان بمكان الصدارة، بصفتهم ضيفين، ولو أنهما أصغر الحضور سنّاً.

رُفعت الموائد من المضافة فبدأ سرد الأخبار. لم يتركوا موضوعاً لم يمسه إلا الغناء. ولما ظنّ الجمع أن الأخبار انتهت قال أحد الفلاحين:

- يا لامجي أسمع الجمع الخبر المتعلق بحاتونقوه أشه الذي رويته سابقاً.
- تقصد حاتونقوه أشه؟ - سأل فوجه لامجي راضياً - ألا يجوز أن يكون الحاضرون سمعوا بخبر حاتونقوه الفلاح؟ لا بأس أن يكون بيننا من سمعه فليسمعه مرة أخرى!.. يروى أن حاتونقوه أشه فلاح كان يتحلّى بالرجولة، ليرزقه الله الجنة حيث رحل. عاش عمره يحمي شرف الفلاحين، ويثمن الأسرة التي ينتمي إليها. ومن كان يعرف حكايته هو المرحوم والدنا. سمعته مراراً يرويها. رأيته مرة في زيارة قصيرة لنا. وكنت وقتها في حدود العاشرة. وعلى ما يُروى لم يكن يعيش على القوة وحدها. كان عقله وفطنته ممتازين. وحيثما وصل، لا في ضفة نهر بُششّه وحدها، كانوا يُقدّرونه. بل ليست قليلة الأماكن التي يُذكر فيها اسمه بالخير. ولكن من لم يكن يعجبهم رجولته وفطنته كانوا أكثر.

- أليس ما يحدث هذا دائماً؟ - قال فلاحٌ برقبة قصيرة لم يتكلم طوال السهرة، - من تعلّق قبعته على الآخرين يراقبه الكثير من الناس.

- صحيح يا أدشس، - استطرد لامجي، - أتفق معك في هذا، - وكذلك لم يكن أعداء حاتونقوه أشه قليلين، لا في البجدوغ وحدها، بل في الجمكوي أيضاً. لم يكن الأمراء - النبلاء يتحملون أخباره البطولية وإن لم يضّرم في شيء. في يوم من أوائل فصل الخريف وصله من الجمكوي خبر إهانة تسبب فيها الأمير جُنّقت. كان الابن الأوسط لجنقت قد تزوج، فسمح لعازفين من البجدوغ غير عازفيه. ولما انتهت أيام العرس السبعة مُنح العازفون أجورهم. قال الأمير: إذا كانت أجوركم قليلة، مع أنه يعرف أنها كافية، فأنا أضيف إليها فلاحاً مشاكساً من البجدوغ اسمه حاتونقوه أشه.

- اسمع ماذا قال!.. - لم يملك مشقوه الأكبر إلا أن يتناول التبغ.
- نعم يا أخي عرق الكلاب هؤلاء لا يعرفون أنفسهم. - كان أحد الفلاحين الجازين يعتبر هذا الكلام إهانة، ناسياً وجود بائجري بينهم. ولكنه لم يُظهر ندماً على ما قال، حتى حين تذكر أنه في حضرة الأمير. وبائجري نفسه لم يُظهر انفعالاً رغم شبابه، ولم تختلج عضلة من عضلات وجهه. ومهما سمع ظل جالساً بقامة مستوية، محترماً نفسه.

- في اليوم نفسه ركب حاتونقوه ، - ابتسم فوجهه لاجبي، قال: سنرى نهاية الخبر. كيف ستتحمل يا حجمقوه، وكيف ستتحمل رأس الإبرة التي تجلس عليها. - وذهب إلى الأمير جنقت، أليست بلاد الجمكوي واسعة؟ فوصل في منتصف الليل. دنا من البوابة الكبيرة للأمير جنقت ونادى. ليس من الرجولة أن تسمع اسمك ولا تجيب أمام الزوجة التي في حضن الأمير، وكذلك أمام من يسمع. خرج الأمير والمسدس بيده. قال: "هل أنت الأمير جنقت؟". "أنا هو..." إذا كنت أنت الأمير فأنا حاتونقوه أشه الذي منحتة أجرة للعازفين!"، ومد يده إلى الأسفل، وتناول الأمير ورفعته إلى كفل الحصان، وانصرف كأن الأمير لم يكن. ومنذ تلك الليلة بحثوا عن الأمير جنقت لا يعرفون مصيره. ولم يجدوه. أقاموا مأتماً للأمير، ولبست الزوجة ثوب الحداد، وبعد قرابة شهر من ارتدائها الثوب أخبر حاتونقوه أشه الزوجة "لتخلع عنها ثوب الحداد الذي تلبسه من أجل الأمير جنقت". وبعد ظهر اليوم الثالث جيء بالأمير، وعلى مرأى من أهل القرية كلهم، مقيداً بالمقلوب على حصان، إلى البوابة الكبيرة. وبعد الحادث لم ينطق الأمير بكلمة، خيراً كان أم شراً، بحق حاتونقوه إلى أن رحل عن الدنيا.

- هذا سلوك رجال، - قال أحد الفلاحين.
- أحسنت يا حاتونقوه أشه الفلاح!- نهض مشقوه الأصغر مائج معبراً عن احترامه للمتوفي، ثم جلس.

مهما تصرف بائجري فقد فهم الآن فحسب أنه وقع بين مجموعة من الفلاحين الأغراب. ما أعند من وجدت نفسي بينهم!.. لا يحسبون حسابي في ما

يقولون. توهج خدا الأمير الشاب. حين قال لي ألقس: اذهب إلى بيت مشقوه الذين نزلت عليهم ضيفاً حين تزوجت، وتعرّف إليهم، ظننت أنهم بشر، ولكنهم بلا حياة. تكلموا بالسوء في حضرتي على الأمراء - النبلاء.

- أيتها الجماعة، - لم يصبر بالتجري، - ليست حكاية الأمير جنقت والفلاح حاتونقوه إلا حكاية سخيقة. كلاهما من مستوى واحد. لم أر في أي من الطرفين رجولة. جنقت لا أعده أميراً. الأمير المحروم من الرجولة يجلب العار لنا. - ما رأيك إذن بما حدث أمس لقرييكم حمزقوه؟ - سأل مشقوه ترقان الأمير الشاب. وأضاف كأنه يهين نفسه نوعاً ما: - والله جللنا، نحن أهل طوابغوه كلهم، بالعار، حتى لم نعرف ماذا نفعل بأنفسنا.

- وكيف؟ - سأل بالتجري، - لا أعرف شيئاً عن الموضوع. - من أين لك أن تعرف أنت؟ حدث هذا أمس فحسب. اصطحبوني لسوء الحظ معاوناً للنبلاء والفلاحين. - وفي الحال ساد الصمتُ المضافة. وجهوا عيونهم نحو مجلس ترقان لا يعرفون ماذا سيروي. - البارحة كنا عائدتين من الججنائي، ولم يبق بيننا وبين المضيق إلا القليل، مشى فارس مجهز على تخم الغابة، وقطع طريقنا دون انتظارنا، فلم يقبل الأمير حمزقو:

- من هذا الفارس العنيد الذي يقطع طريقنا؟ - هيه؛ ألسنت من طلبوا منه التوقف؟ - صاح وراءه الواقف إلى يسار الأمير، غير أنه لم يتوقف، فلحق به مع فارس آخر. وصلوا إلى جانبه، وتبادلوا حديثاً لم نسمعه. ولكن مهما قالوا له فالفارس الأوسط لم ينفع. الموقف الوحيد الذي أتذكره هو أنه ارتفع عن الفارسين اللذين وقفنا منتصبين تماماً إلى جانب حصانه. ولما استدار صرع من كان على يمينه بصدر الحصان، وأسقط الآخر بضربة على قفا رأسه. ومع كل هذه الضجة لم يلتفت إلينا. تابع طريقه دون أن يزيد من سرعته. ماذا بيدنا أن نفعل أو نقول؟ رأينا الأمير لحق بالفارس فتبعناه. وفي لحظة خروجه من الغابة لحقنا به. تجاوزنا الفلاح الشاب وقطعنا طريقه:

- ترجّل! قال الأمير حمزقوه. - هل أنت من أركبني حتى تطلب مني الترجّل؟ - لم يعبأ الفلاح بكلام

الأمير .

- ترجّل دون ثرثرة، وتخلّ عن السلاح! - مرة أخرى شدد الأمير لهجته.

- كائناً من كنت فإن جلدك يحكّك؛ قل لي ماذا تريد؟

- يا سليل الكلاب، من يكلمك هو الأمير حمزقوه! - إن كان مثلك ممن لا يساوي شيئاً يركب مثل هذا الحصان فماذا أركب أنا؟ وإذا كان مثلك يحمل كل هذا السلاح فماذا أحمل أنا؟ وإذا كان مثلك يلبس مثل هذا الكساء فماذا ألبس أنا؟ - ترجّل، ولا تتجاوز حدودك! - صرخ على الفلاح.

- لا أركب الحصان الذي أعطيتني، ولا أحمل السلاح الذي قلّدتني، ولا اللباس الذي فصلّته عليّ. لا تتخذني هدفاً لمشاكستك. تابع طريقك أيها الأمير حمزقوه!

- يا سليل الكلاب، هل يقابلون الأمير بهذه الطريقة؟.. - ضرب باقة الفارس بسوط الحصان، وفي هذه اللحظة لا أتذكر أنا أيضاً ما حدث. حثّ الفلاح حصانه فانطلق ينفث النار. أراحنا على الجانبين، وشهر مؤخرة البندقية على أميرنا:

- متى ما تحركت أسقطتك! إن كان عندك إله فصدّق أبي لن أدعك تخرج من هذا المكان. - قال الفلاح، وجمّد الأمير.

ونحن حملنا السلاح فصرخ علينا:

- متى مد أحدكم سلاحه فأنا أعرف ما أفعل بأميركم.

وهل تسمح بقتل أميرك وأنت صاح، توقفنا جميعنا حائرين.

- أقسم لي أن لا تتعرض لعابر سبيل أُطلق سراحك، وإلا فلن تتراجع بندقيتي.

- قال الفلاح ووضّع الأمير في مأزق، ماذا يفعل باقه؟ ونحن أيضاً. نتدخل ونقتل أميرنا؟ ماطلّ الأمير ولكن الفلاح كان مصمماً فأقسم له.

- افرح يا وجه الكلب على أبي لم أجعلك تقطع ذيل حصانك! إن كنت بلا شرف وجدت من يفعل بك هذا. أكلت فاصولياء نصف مستوية، وكوسا غير مطبوخة، فانتفخت. إن كنت انتفخت لجشعك فادخل في الغابة وفرّغ. لا توسخ السرج، لست من نفخك!.. - قال الفلاح الفارس، وتركنا لا نعرف

ماذا نقول وماذا نفعل. وتوغل هو في عمق الغابة دون أن نعرف اسمه أو شخصه. هذا ما حدث لنا، والإهانة تحرقني. ألم تسمعوا بهذه الحادثة إلى الآن؟ ظننتُ أنكم سمعتموها... - تظاهر مشقوه ببراءة نفسه. - لو عرفت أنكم لم تسمعوها لما رويتها أمام ضيفنا. أخطأت...

- من أي أسرة هذا الرجل الذي نشأ في البجدوغ؟ - سرت ابتسامة زائفة على وجهه بالتجري وقد اشتعل غضباً مما سمع.

- لا أعرف والله، - لم يتراجع مشقوه الأكبر كرمى لضيفه الأمير. - في البجدوغ كثير من الفلاحين يحمون شرف الفلاحين... أظنه الابن الأصغر لمُفقوه قرباتر.

- إن كان ما رويته صحيحاً يا مشقوه، - قال بالتجري مشتعلًا من الغضب، ولكن كاطماً غيظه، - فليئنه حمزقوه باقه إمرته عند هذا الحد. لم يُهن آل حجمقوه فحسب، بل أهان شخصه. وليأخذ غطاء رأس خادمتهم وليلبسها! هيا يا ليفان. لنمش. لا أرى من اللائق أن أجلس في بيت من تسبب في إهانة الأمير، نسرد الأخبار!.. لا تؤاخذونا أيها الفلاحون، لو كنتم مكاني هذه الساعة لفعلتم ما أفعل. - نهض بالتجري، وخرج من بيت مشقوه.

-4-

انتشر ما جرى في مضافة الفلاح في طؤابغوه قبل الفجر. وكالعادة رجع الخبر إلى مصدره نفسه ببضع روايات مختلفة. هذا يروي أن الإخوة مشقوه طردوا الأخ الأصغر لألقس الأمير الكبير من بيتهم، والآخر يقول إن بالتجري ولاجي تعاركا، وغيره يروي أنه لولا المري بغدسار لكانت نهاية بالتجري. - ويتناقلون خبراً آخر مفاده أن الأمراء - النبلاء هاجموا الإخوة مشقوه، وأحرقوا بيتهم. وكأنهم لم يكونوا في تلك القرية التي حدث فيها كل هذا. غير أن آل حجمقوه وآل مشقوه أفاقوا صباحاً وليس عندهم أي خبر. ومنذ زمن بعيد لا يزال بالتجري وليفان وبغدسار على الطريق الساحلي.

ما إن وصل الخبر إلى بححقوه شراندقوه حتى استدعى ابنه الأصغر:

- اذهب حالاً إلى طؤابغوه وجئنا بالخبر الصحيح!... إن كان الفلاحون هاجموا آل حجمقوه فأخبرني سراً قبل أن تحمد نارهم. لو كان المرحوم قانشاو حياً لركبْتُ ووصلت إليه. الآن بقيت تحت إمرة الصهر.

وصلت مجموعة فرسان مجر في ثلاث غلوات إلى ظاهر قرية طؤابغوه. لم يروا في القرية ما يسترعي الانتباه. بيوت الفلاحين المسقوفة بالقش متناثرة هنا وهناك. وترتفع رؤوس "الوجاقات" التي سودتها النار كبيرةً. البيت الكبير لحجمقوه أكبر البيوت. والدار فسيحة. وكما يبرز الأمير من بين الفرسان، تبرز منارة الجامع. كان مجر مرتاحاً لهدوء القرية، ومهاناً في الوقت نفسه. لم يكن الأمير بحقوقه الشاب يكره شيئاً كما يكره المشكلات. ولا يتذكر أنه شهر الخنجر المربوط إلى حزامه في حالة غضب. في العام الماضي حين جلد الفارسُ الوحيد المعتاد على إزعاجهم والدّه لم يُشهر مسدسه ويرمه، هذا هو سبب رضا مجر على هدوء طؤابغوه. وما كان يُشعره بالإهانة أمرٌ غيره؛ يتخيل والدنا دائماً أمراً آخر. كلما سمع خبراً أضاف إليه رأيه. بأي حجة أقود هؤلاء الفرسان إلى طؤابغوه؛ والناس لا يعرفون ماذا يعلقون علينا حتى دون أن نفعل هذا؟! والفلاحون جاهزون ليؤلفوا بحقنا أغنية ساخرة.

رأى الأمير الكبير حجمقوه حشداً من الفرسان تفوح منهم رائحة السواد، فلم يعرف سبباً لقدومهم. مسلحون كالكلاب العضوفة، ومعهم كل ما يرسل الشرر. قليلون على أن يكونوا جيشاً، كثيرون على أن يكونوا ضيوفاً. يبدو من طريقة تجمّعهم أنهم ليسوا أعداء، ولا ينوون شراً. يخمن أن يكون وقت ألعاب الأمراء ولكن الشهر شهر الحرائة، لا بداية الخريف. ولما اقتربوا عرف ألقس قريبهم الأمير مجر. وعلى عادة والده عاد إلى الغرفة وجلس على كرسي الإمرة. لما جاؤوا بالأمير بحقوقه إلى الغرفة تراجع الحارسان وخرجا. ونهض ألقس الأمير الكبير للأمير الضيف:

- أهلاً يا مجر، إن شاء الله بخير وبصحة جيدة - وصافحه.
- والله نحن بخير وبصحة جيدة، - قال مجر قلقاً للأمر الذي جاء من أجله، ولكن مُخفياً قلقه. - وأنتم كيف تجري أموركم بإذن الله؛ ألستم بخير؟ أنظر إليك

أيها الأمير الكبير فأراك في كامل صحتك؛ أدام الله عليك الإمرة الكبرى، ومنجزاتكم تزيد، وما لا تنجزونه يقل، ومن ينظرون إليكم بعين الرضا كثيرون، ومن ينظرون إليكم شزراً قبورهم جاهزة، والأسرة كلها أليست بخير؟! - حياك الله يا مجر، ورضي عنك. الأهل كلهم بخير. كان بالتجري هنا أمس. كنت أود أن أقضي الليل معه، غير أنه كان في ضيافة إشبيني فلم يعد إلا في منتصف الليل.

جاء ألقس على سيرة الإخوة مشقوه في معرض حديثه عن أخيه الأصغر، ففهم مجر أن الخبر الذي وصلهم غير صحيح، وأنهم استنفروا الناس عبثاً. وأنهم جاؤوا من هذه المسافة يثيرون الغبار، ويتناثر منهم. أيّ ذريعة أجد الآن؟ أصارحه أم لا؟ وإن تبين أن آل حجمقوه لا يعرفون حقيقة الأمر أكون قد نشرت خبراً مزعجاً في أسرة أختي... وإن عدت دون إخبارهم عتبوا علي متى عرفوا سبب قدومي. لا بأس، سأصارحه سواء كان خيراً أم شراً.

- منذ وقت غير قصير لم أر بالتجري؛ يقال إنه صار رجلاً؟ - من جهة الكبير هو كبير، ينظر من فوق كتفي. وانقضى زمان تربيته. لولا والدنا المرحوم كانوا عادوا به وصار معاوناً لي. الآن فحسبُ يا مجر فهمت أن الإمرة الكبيرة عبء ثقیل. لا حدود للمشكلات التي لا معنى لها يومياً. النبلاء والفلاحون يرهقوننا جداً.

- بدأت بالشكوى باكراً جداً أيها الأمير الكبير، - سأل مجر على عادة والده، وأعقب السؤال بالضحك. - لا تقلق لهذا! ستعتاد عليه كالبارحة. ما من عمل لا يعتاد عليه الإنسان.

- هذا صحيح، - ندم ألقس على قوله: "النبلاء والفلاحون يرهقوننا". هؤلاء لا يجوز أن تعرفهم شيئاً من خصوصياتك. سيقرّعونك به في أول سوء تفاهم معهم. أما هم فلن يكشفوا لك عن شيء ولو كان جثمانك في البيت. - لم أصدّق في البداية أن والدي فارق دنياي، والآن صار الأمر عادياً.

- الأمير قانشاو، هدأ الله باله حيث رحل، كان رجلاً حكيماً. جعل الناس يذكرون جدك بالخير كثيراً. - كان مجر قرر مصارحته بسبب مجيئه، غير أنه

ندم. لو كانت هناك حاجة لأخبروه. - ستركب طريقنا إذن يا ألقس، دمتم بخير، رفاقي الكثيرون ينتظرونني، والأمر الذي نتابعه ليس بالسهل.

- هل هناك ما يشغل بالكم؟

- الحقيقة ليس موضوعاً مهماً. قيل إن وايقق تامبر الذي يسمي نفسه بالفارس الوحيد، رأوه أمس في ضواحي القرية، فانطلقنا.

- لم أسمع أنا مثل هذا الخبر. أرفقك بعدد من الحراس إن كنت محتاجاً.

- لا، ونحن في الأصل كثيرون على فارس وحيد. - لم يستطع أن يصريح بسبب مجيئه.

قبل أن تصل مجموعة بحقوقه مجر إلى كتف قرية طؤابغو دخل الحارس مرزيج إلى الغرفة لاهناً. عيناه تلمعان دليلاً على أنه أتى بخبر ما. يريد أن يتصاغر أمام الأمير ولكنه لا ينجح. يتنفس عميقاً فترتفع كتفاه. منذ صار ألقس الأمير الكبير يُقي على مسافة بينه وبين كبير الحراس. لا يريد أكثر من أن يصرفه من خدمته حاملاً لقب النبيل. يفكر في بديله. يتعرف على صفات الرجولة في البديل المحتمل، ويحلل إنسانيته. الحارس الأكبر مرسال حقاً ولكنه مرآة للأمير الكبير. دغ مرزيج ينبح ويعض، واقطع عنه الطعام!!.. بم أتى الآن من أخبار القرية؟

- تعال، لماذا أنت واقف؟

- يا أمير ألقس بنا إهانة! - أخوك الأصغر، جعل الله يومه مئة، أهانوه البارحة في مضافة آل مشقوه.

- من في طؤابغو يستطيع أن يهين أخي؟ - جلس الأمير قليلاً يفكر في ما سمعه، ثم سأل، والحمية تفارقه.

- من يا أمير غير فوجه لاجي يعاديننا هنا؟! إن يستطع يجعل منا ممسحة تحت الأقدام. لن يسمح لآل حجمقوه أن يفتحوا عيونهم.

تذكر الأمير ألقس أنه أمر النبيل مامرقوه وجماعته أن يُذيقوا لاجي ضرباً مبرحاً قبل أعوام. وفي هذه العملية كان الأمير قانشاو مساهماً بالإضافة إلى مرزيج. أما حان الوقت لتكفّ عن إيذاء هذا الفلاح؟ هؤلاء كلما عاقبتهم ارتدّ عليك

طرف سوطك؛ أفلا تتوجع أنت؟ وما يهملك أنت من الأمر؟ لا أنت أمير ولا أنت نبيل. لا فرق بين من ضربوا الكلب بعظمة وبين من ضربوك. لا يمكن أن تفعل شيئاً بنار حمرة عتيقة.

- لا أعرف من أين جئت أنت بهذا الخير؛ لم أسمع من باتجري شيئاً يتعلق بلامحي. - ظهر من كلام الأمير ارتياحه في الخبر. ونظر الحارس مرزيج إلى الأمير لا يدري ما يقول وما يفعل.

- هذا رأيك يا أمير؟

- أقول لأنه لم يخبرني بشيء، - رفع الأمير الكبير جفنيه، وألقى نظرة باردة جداً على الحارس. - كم قلت لك يا مرزيج ألا تتكلم في ما لا تعرف حقيقته؟!

- ولكن يا أمير، يقال إن الفلاح لامحي شرع في رواية حكاية الأمير جنقت، ثم روى مشقوه ترقان أمام الأمير الشاب الإهانة التي ألحقها أمس مافقوه قرباتر بالأمر حمرزقوه في الغابة، فلم يتحمل الأمير وغادر المضافة. - قال الحارس مرزيج مبرئاً نفسه.

- هذه قضية أخرى!.. - ابتسم ألقس. - يبدو أن باتجري تلقى إهانة في مضافة الفلاح بسبب جبن قريبه الأمير حمرزقوه. من لا يفهم أكثر من هذا لا يدخل المضافات. إن كنت واقفاً فتبجح، وإن كنت على الأرض فتوسل. الفلاح مشقوه ترقان روى ما سمع. ولهذا يدين الفلاح. يقال: ترب في بيتك ثم اذهب إلى الاجتماع. لم يجد في قريبه رجولة فيستعرض رجولته في القرية!.. - امض، لا تنقل إليّ وشايات أخرى. لا تنقصني هذه الأخبار. لا تُسمعي من أخبار النبلاء والفلاحين شيئاً!

خرج مرزيج من غرفة الإمرة وكأن كلمات الأمير الجارحة لوث قامته. وفي الحال أدرك أنه لن ينجح مع الأمير الكبير الجديد. وتصبب العرق على جبينه، تأكله الإهانة، شاعراً بخجل لم يشعر به في حياته. ولأول مرة ثقل عليه السوط المسلح بكرة رصاص في طرفه. بالله عليك إفعل ما تشاء، وما شأنني أنا به!.. لم أذغ قبائحكم إن لم أنشر فضائلكم. أرضى بلقب النبيل وإن لم أكن في خدمتك.

يمكن أن أساندك أحياناً. السنّ في عجلة العرب تطاء الأرض مرة ولا تطاء أخرى. وأخوك ينشأ أميراً شاباً ذكياً. سنرى ما يحدث...

كانت أفكار ألقس مختلفة. يعتبر أن مرزيج الحارس أنهى اعتباره بصفته كبير الحراس قبل أن يستلم هو الإمرة الكبرى. ولذا لم يكن يرى من المناسب الكلام في الموضوع مرة أخرى. متى ما انتهى من الحداد سيُنهى أمره، وسيعلن أحد النبيلين اللذين يرشحهما. أما الآن فلن يفشي سره لأحد. قال ألقس: إن أعلنت للنبلاء وجدوا لك ذرائع كثيرة تجعلك تتراجع عن القرار. وسيحاول كلٌّ منهم حملك على اختيار من يودّه هو لمنصب كبير الحراس. على كل حال ليس الموضوع مهماً، المهم هو تصوّف بالتجري في مضافة مشقوه. ليس لأني لا أجد في البجدوغ من أتّخذة إشبيناً فكل الناس سيستقبلوني بالأحضان. ليس لأني ألقس، بل لأني من أسرة حجمقوه. كيف سيكون موقعي الآن من الإخوة مشقوه؟ ما جمعته بغبائي، يمزقه مشقوه الآن متذاكياً. سأقول لمشقوه ترقان أن يتفهم شباب أخي. لا، لن أقول له هذا. سأظاهر بأني لا أعرف شيئاً إلى أن يخبروني هم. الأفضل من هذا أن أكلم المري. عليه أن يربي ربيبه قبل أن يُطلقه إلى الاجتماعات. ولن ألتقي بأخي فأجرح شعوره لهذا السبب.

بعد عدة أيام سمع ألقس أن جماعة بارينقوه عادوا من سوق الساحل، فرجع من طريق أدبستقواي، كأنه كان في زيارة للأمرير تواي، فعرّج عليه.

- الليلة يا أمير، ودون أن يعرف أحد، ذهبنا إلى بيت مشقوه وعُدننا بلا فائدة. - قال بغدسار بعد مدة وقد خمن سبب زيارة الأمير الكبير. إن قابلي حجمقوه بالتجري وحده واعترف بذنبه فلن أقبل منه. كان الفلاح ترقان قال لي: إن كان رجلاً فسأجمع الفلاحين الذين كانوا حاضرين، وليرى الخبر الصحيح، فرجعنا دون تحقيق هذه المهمة.

- يا للأسف، أنا توقّعتُ هذا... - صُدم الأمير الكبير ألقس بما سمع.

الجو اليوم لطيف جداً حتى إنك لا تستطيع البقاء في البيت إن لم تكن مسجوناً. لا تبالُغ الشمس في تدفئة الأرض، ولا نسمة فوقها. يظهر بحقوقه شراندقوه من بين أزهار حديقته. وغناء العاملات من النحل يرتفع عند البئر القريبة من شجرة الإجاز. وتعبر الغربان عن فرحتها قدر المستطاع. ويُسمع هنا وهناك طنين الفراشات الملونة العاكفة على الأزهار.

دار الإمارة خالية، كل لابس القبعات، باستثناء الأمراء والنبلاء، في البرية وراء أشغالهم. والنساء خرجن مع الفجر إلى عزق الأرض. وانقطع صوت الصبيان الذين يلعبون بالدوامات الخشبية. شراندقوه يجلس حاسر الرأس إلى جانب حائط الغرفة الجانبية من الدار. وضع القبعة التي تثقل عليه فوق المقعد الوطني. حاول تجنّب الشيخوخة إلى الآن غير أن الزمن لا يستشير. انحنى رقبتة، وغارت عيناه. ودقّت أصابعه. والوجنتان اللتان كانتا متينتين يوماً ما، تهدلتا وطلتا. شهد الأمير شراندقوه موت الكثير من أصحابه، غير أن ذكرى الأمير حجمقوه قانشاو أثّرت فيه أكثر من غيرها. أحسّ بعد رحيل صديقه أكثر من أي وقت مضى بدنوّ الأجل. قال الأمير وهو يمسح بيده على الرأس الحليق: يا إلهي ما أمتع الحياة!.. لا شيء يعادل شهقة فيها. نعيش في عراك دائم حتى تفاجئنا الشيخوخة، ثم يتوجب علينا قبل أن نجد الوقت للتأمل أن نفارق كلّ ما حولنا من الشجر والسماء والأرض... والآخرة التي ننتظرها ماذا تحبّ لنا؟ من يعتبرك إن رحلت والمال يغمرك، ونحن لا نعتبرنا أحد هنا مع كل هذا المال؟ من حسن حظنا أن النبلاء ونخبة الفلاحين يدعموننا. والأفندية نحملهم على أن يقولوا ما نريد. الإنسان يصارع مادام شاباً ولا يعرف أن أمامه رحلة إلى الآخرة. اغفر لي يا ربي ما اقترفت من ذنوب دون علمك. لم تفارق قلبي مهما فعلت ومهما قلت. لم يصدف أن نسيك ولو ساعة واحدة. صدر صوت حوافر خيل من جهة باب الشارع. وما إن أنهى الصوت أفكاره حتى سمع صوتاً ينادي. تعرّف الأمير على الصوت. قفز من مكانه واختبأ وراء خزان الحبوب قبل أن يجد الفرصة لالتقاط قبعته.

نادى الفارسُ ثانية، ولكن لم يستقبله أحد. سبحان الله، أما آن لهذا الفارس أن يتوقف! يا للأسف، لماذا تركت مسدسي في الغرفة؟ كنت فاجأته من الخلف ورميت رأسه فأسقطته. ينظر شراندوقوه من خلال عیدان الجدار فيرى وجه الفارس بوضوح: لا هو كهل ولا هو شاب. وعلى الوجه الشبيه بوجه النساء قبة فلاحية تليق به وإن تهرأت قليلاً. يجلس على السرج كأنه ضَبَّ عليه:

- ألم يبق في دار بحقوقه من يلبس قبة؟ - فتح الباب بصدر حصانه ودخل الدار. توقف الفارس على بعد خطوات من الأمير. ارتجفت ساقا الأمير بحقوقه. وسرت برودة في جسده قلّصت عضلات وجهه. يا لحظي العاثر؛ تركت القبة على المقعد، ما إن ينظر في ذلك الاتجاه حتى يكتشف مكاني.

نظر الفارس نحو خزان الحبوب فرأى مرفق الأمير، ووقعت عينه على القبة.

- أيها الأمير بحقوقه أخرج من وراء الخزان! - نادى الفارس. - ولما تأخر الأمير عن الخروج انطلق الفارس. هرب شراندوقوه إلى إسطلب الخيل. ركض في أرجائه لا يعرف أين يذهب، ثم اختبأ في الزاوية الأشد ظلاماً. يا الله ماذا فعلت بحق هذا الفارس فلا يتركني!.. حتى إني لا أعرف إن كان جنياً. يظهر في الزمان الذي لا نتوقعه. يا الله هل أفنيت أناس هذه القرية؟ ما أغرب ألا يظهر أحدٌ في ناحيتنا!.. إن نجوت اليوم منه فقد كتب الله لي عدة أعوام أخرى. لماذا أرسلت إليّ يا ربي هذا القاتل في هذا اليوم الجميل؟! اللهم أعم طلقته وأصمّها! إن كنت أسأت إليك بلا قصد فاغفر لي. وإلا فاتركه يسوطني مرة أخرى بدلاً من أن يقتلني. وليقل القائلون ما يريدون.

- أيها الأمير بحقوقه أخرج من إسطلب الخيول!.. هل أصبحت اليوم تحب أن تشم روث الخيول أم في وقت مضى؟ إن كان هذا رأيك فكما تريد. أنا لست في عجلة من أمري، أنتظر!..

وقعت الشوكة الخشبية بيد الأمير، ففرح آملاً أن تحميه. أمسك بها بقوة رغم أنها تؤلم يده. لماذا ليس للإسطلب باب آخر؟ لا مخرج إلا أن تنقب السقف. الفارس الذي يلاحقني يبدو من كلامه أنه من البجدوغ. من أي قرية يأتي يا ترى؟ ماذا فعلت به حتى يتقصديني؟

- إن كنت ترفض الخروج أيها الأمير فلتحترق بنار جهنم!- دفع باب الإسطبل فأغلقه. - سأحرق السقف بنار المسدس.

- أشعل السقف، هذا ما أريد أن تفعله. فرح الأمير لما سمع. أئن تستنفر القرية ريثما يحترق السقف؟ سينقذونني من جهنم التي تكلمت عليها. وسنشهد نهاية مغامرتك أنت أيضاً. وصوت بندقيتك سيسمعونه؛ أهذه القرية صماء!.. أشعل، ماذا تنتظر؟ نظر الأمير إلى الجهة القريبة من الفارس. وابتعد ظناً منه أن الطلقة ستقع فيها. أتوقع أن يفزعوا لي على منظر النار ولكن ماذا إن لم يفعلوا؟ وماذا سيتحمل سقف القش الجاف. انقطع أمل الأمير. ما العمل الآن؟ هل أثقب سقف الحظيرة وأخرج؟ ماذا ينتظر إذن من هدد بإحراق السقف؟ أأكون انصرف؟

نادى الفارس وكأنه قرأ ما في نفس الأمير:

- شراندوق، لا تأمل في الخروج سالماً. لن أبتعد خطوة حتى يحترق الإسطبل وينهار. ولا أكتمك أن رفاقي لن يسمحوا لأحد بالاقتراب. فإما أن تخرج منه وإما أن تحترق فيه. هيا أيها الفلاحون اقطعوا الشوارع. ولا تبخلوا بالرصاص إلى أن ينهار السقف!..

تحيل الأمير أن الخيل تتباعد مسرعة. ارتقى في الزوايا الأربع على غير وعي، وفارقها. تعثر بالشوكة التي يحملها ووقع فخيل إليه أنه شم رائحة حريق. وقف على قدميه وهجم على الباب وعلى جبينه عرق الموت، وخلعه.

- أيها الأمير، إن كانت روحك غالية عليك فضع الشوكة من يدك. - رأى المسدس مسدداً عليه فوقف على قدميه. وسقطت منه الشوكة. - إن فعلت هكذا فهو أفضل. وإلا فلماذا تدعهم يقتلونك؟

- أنت أيها الفارس ماذا جنيت بحقك حتى تلاحقني؟.. - بدا التوسل من عيني الأمير الغائرتين.

- لي عليك دين يا بحقوقه!

- ألا تخبرني فأدفع لك كل ما تريد... ذهب أم فضة...

- ليس ما عليك مما يسدد بالمال.

- بأي شيء منحوس أسدد إذن؟
- أمسك برأسَي العمودين وأدِرْ ظهرَكَ!
- ماذا تنوي بحقي أنا العجوز؟ إن لم يردعك لقيي، ولا كَوْنُ الأمير الكبير صهري، ففكّر بروح الأديغة ثم انظر إليّ!
- ممن طلبتُ أن يمسك رأسَي العمودين!
- ما ذنبي؟ أي جريمة ارتكبت؟ لماذا أمسكُ رأسَي العمودين؟ اضربني قبل أن تضرب قفا رأسي وأسقطني!.. لماذا تلعب معي فتؤلم جسدي؟
- ألم أطلب منك أن تدبر ظهرَكَ دون ثرثرة؟ - صفع الفارس الأمير بالسوط، وفي الحال أدار ظهره ممسكاً بالعمودين. - اليوم سأجلدك عشرين جلدة بسوط الحصان يا بحقوقه. إن عشت بعدها فمن حظك، وإلا لحقت بتامير. هنا أنتهي من تأري.
- ما إن سمع الأمير اسم وايقق تامير حتى استدار. ولكن ضربة السوط جعلته ينطوي.
- هذه واحدة، أيها الأمير بحقوقه، وهذه اثنتان، ثلاث... - كان الفارس يُحصى ضربات سوطه. ولم يكن يرى قميص الأمير الممزق المدمى... - خذ يا ابن الكلب، خذ، لتكن نهايتك على سوطي. خذ هذه إحدى عشرة...
- لا تقتلني بحق حليب أمك! صرخ الأمير ولكن الفارس لم يكن يسمع شيئاً.
- وايقق تامير حيّ... تجده في بلاد الأبراخ!.. - يا إلهي أسلمتني لهذا يقتلني! أدخل في قلب من يجلدني الرحمة، يقتلني تحت بصرك... ألم تبق امرأة في البيت تشفق عليّ؟ - صاح الأمير.
- يا لمصيتي!.. - ركضت الزوجة من الغرفة ويدها أول عصا وقعت عليها، ووقفت أمام الجلال. - هل تغير عقلك أنت... اضربني أنا أيضاً دون اعتبار لغطاء رأسي يا عديم الإيمان!.. - نظرت المرأة إلى الجلال فتذكرت خادماتها.
- فصرخت بوجه مرتعب: يا مصيتي، هذه سيسار!..
- خذي أنت أيضاً- شمل الفارس الزوج والزوجة بآخر سوط.
- خرجت سيسار من الباب الذي دخلت منه متمهلة. تركت مواجهة الفلاحين

القادمين وعلى أكتافهم شوكاتهم، واستدارت نحو نساء الجيران المتدافعات. وحالما انعطفت أسرع فطارت نحو الغابة. حملوا الأمير بحقوقه في رmqه الأخير إلى الغرفة. ثم عاد إليه الوعي وقت إشعال المصابيح، وفتح عينيه. - والله من مدّ يده على المرأة، كائناً من كان، ليس رجلاً... - قال بكل صعوبة، مُفهِماً المرأة أن عليها إخفاء كون الجلال امرأة.

-6-

- لا تنظر إلي بعينين جاحظتين بذريعة أنك تحمل لقب أمير البجدوغ الكبير، - نخض الأمير حمز باقه، - إذا كنت حجمقوه فأنا أيضاً حجمقوه! لا تظن أنني ساذج، انا لا أشرب الماء من أنفي. أنا أحمل لقب الأمير كما تحمل أنت. لن أسمح لفلاح سليل كلاب أن يقول عني ما يأتي على رأس لسانه فيوسخني. افهم هذا كما تعرف يومك هذا، أنا لست سليل فلاحين، بل سليل أمراء!.. - لماذا تقفز من مكانك يا أمير! - نظر ألقس إلى قريبه بهدوء تام، وبعينين زرقاوين باردتين. - اجلس، ولا تُدخل إلى صفاتنا، نحن آل حجمقوه، ما ليس فينا. لنتكلم كما الرجال. أأنا من لا يسرّ إن أصابك الخير؟ أأنا من ليست مصيبتك مصيبتّه؟ ماذا يضيرنا إن تحدثنا بلطف؟ ما أخبار عمنا باتقوه بإذن الله، ماذا يفعل؟ أليس بخير؟

- لو كانت صحة عمك تهمك يا أمير لجئت وقابلته!.. يعتب عليك لأنه لم يرك منذ صرّت الأمير الكبير. جلس حمزقوه وهداً وقد استوعب ما قيل له، - سيفرح بك إن أطللت عليه في أحد الأيام. ستحظى بمزيد من احترامنا واحترام من يقابلونك. ألا تعرف أحوال الدنيا الآن. هيبة السلطة تلجم كثيراً من الناس.

الأمير الكبير ألقس والأمير حمز باقه ابنا أخوين. الأمير باتقوه أصغر الإخوة حجمقوه. وهو الوحيد من الأسرة الذي بقي له لقب "الأكبر". وإن قلت "الأكبر" فبين وبين الأمير قانشاوا سنتان فحسب. يعيش في قرية مستقلة له،

وهو ليس أفقر من حجمقوه ألقس إن لم يكن أغنى. وهو أمير على ثلاث قرى غير قريبته. ليست بحجم طؤابغوه ولكن فيها كثيراً من الفلاحين. يعطونه من الماشية والمحصول ثلاث أو أربع مرات في العام. وإن استقل ما يعطونه فهو من يتحكم: يجد أعداراً لهم: يتعلل حيناً بقلة المطر إن كان المطر غزيراً، وحيناً بالصحو، وحيناً يقول إنه دعا إلى الله أن يوقف الريح. هل الحجج قليلة إن أردت أن تناقشهم؟ حمرز باقه أكبر من ألقس بثلاثة أيام. يغلب عليه امتداح النفس. وتقل عنده الرجولة. يتدخل في كل شيء. لم تبق فتاة جميلة في البجدوغ لم يزرها، ولا يتذكر أحد أنه خرج من زيارة إلا حدث له فيها حادث ما: مرة يجد خطّاب الفتاة التي زارها عندها، ومرة يقال له إنها تزوجت في لحظتها، ومرة يجري له مثل ما جرى له قبل أيام بسبب ثرثرته وامتداحه لنفسه. وفي جميع الأحوال فهو ممن يقال فيهم: يقفز على الماء ممتطياً الهواء. شاب جميل المظهر. يقال إنه لم يولد لآل حجمقوه شاب أجمل منه. البنات اللواتي لا يعرفنه ولم يسمعن كلامه يعشقنه. يفهم أنه يعيش كما يقول المثل: جعبة رصاص بقم واسع، ولا يصيب هدفاً.

- أنا مذنب في هذا يا أمير. لم أزر عمي منذ زمن طويل. لا تظلمني بكلامك.
- أجاب ألقس، واحتقره على عبارة "هيبة السلطة"، متذكراً ما فعله به مافقوه قرباتر، دون أن يُظهر انفعاله. - سأزورك إن أمكن يوم الجمعة القادم. ألا تعرف يا أمير أن الوقت يمضي ونحن نتابع قضايانا. الفلاحون حيناً، والنبلاء حيناً. خناجرهم مشهورة دائماً. يخلقون المشكلات من أي شيء.

الفلاحون يا أمير عليهم أن يسدوا أفواههم منذ اليوم. - لم يكن الأمير حمرز باقه يعرف كيف يعود إلى الموضوع الذي بدأ يسرده، والذي قطعوا حديثه فيه، ففرح إذ أتت سيرة الفلاحين، وقال كأنه يخاطب مؤتمر البجدوغ. - لا يحق لأمثال مشقوه ترقان أن يأتوا على سيرتي بسوء في المضافات.

- كيف أبلغهم؟

- تأمرهم أن يلزموا موقعهم بصفتهم فلاحين.

- وهؤلاء في جميع الأحوال لا يظهرون حيث يوجد أمير.

لم يكن الأمير الكبير ألقس يريد معارضة قريبه الأمير العنيد. كان يكظم انفعاله منذ أول كلمة نطقها باحثاً له عن الذرائع، ولكنه لم يستطع الصبر هذه اللحظة، أجبره على أن يقول ما قاله اللحظة. وقد قاله كما العادة بلطف وبحرص شديد. ماذا ينوي بحقي هذا الثرثار المتبجح؟ يلح علي أن أرى العالم بالعين التي يراه بها، كما يقال: يقيم مئة كومة حيث لا شيء، يتهم الدب بغضب الكلب. هل تتوقع مني أن أزرع فيك الرجولة إن كانت تنقصك؟ وإن زرعته لم تستقر فيك.

- لم آت إليك يا أخي الأصغر لأستمع إلى إجابات تافهة!.. - احتد حمزقوه مما قيل له. - من أهاني هو مشقوه الأكبر من طؤابغوه ولذا جئت إليك. - ليس مشقوه ترقان من أهانك يا أمير.

- من إذن؟

- لماذا تسألني أنا عن هذا؟

- أسألك لتخبرني.

- إن كنت تريد أن تعرف فاسأل مرة أخرى الفلاح قرباتر في تخم الغابة... - لماذا تنظر إليّ شرراً. ليس مشقوه ترقان وحده من تكلم في الحادثة، بل البجدوغ كلها!.. إن كنت يا أمير تعرف رجولتك من نفسك فلا تحاول أن تعرف أحداً قوّته. سيؤلف لك الناس أغنية خالدة.

- يبدو أنك أنت أيضاً تهينني، صحيح؟

- ولماذا؟ ألم يمض وقت طويل على الحادثة؟ وإن كنت لا تعرف أقل لك: من يوم ما وضعت رجلك في الركاب.

- إن كان هذا ما وصلت إليه أيها الأمير الكبير فانظر إن لم أرسل إليك رأس صديقك مشقوه الآن!.. سأعتبر ما دفعت من ماشية من أجل رأس الفلاح القدر كأن لم يكن عندي. وبعده إن لم أعلق رأس الفلاح قرباتر على باب دارك.

- يا قريبي الأمير، ما أريد أن أقول لك قبل أن تركب: لا تبالي في ردود الفعل! لا أريد أن أرى جثمانك في مسألة من هذا النوع. اعرف: كل طؤابغوه تساند

الإخوة مشقوه الذين نزلت عليهم ضيفاً لما تزوجت.

- وأنت معهم، وقد أكلت يقطيناً... - شتم الأمير حمز، وغادر الغرفة.

ألقس الذي لم تظهر عليه علامة غضب مهما قال، ومهما قالوا له، انفجر غضبه مع الكلمة الأخيرة. مهما قال له فالقائل ابن الأسرة، أبناء أخوين، ويحملان معاً الاسم الوحيد للأسرة. من يسمع يسخر منهما، ولن يهتم بإدانة الأمير حمز. أي عار هذا الذي قاله لي!.. هل عجيب إن كان يكبرني بثلاثة أيام؟! لن أقول مثل هذا الكلام المهين لقائله إن كان أكبر مني أم أصغر. أغفر لك مهما قلت لي، ألا يقال في المجانين: إن قابله فضغ قبعتك له وامش! ولا أريد أن أجادل ذلك. إن لم تضع رأسك حيث ذهبت الآن فسأراه مقطوعاً دون علاقة لي. والأمر الوحيد الذي يحزني هو أن عليّ إحضار قاتلك إلى المؤتمر... يذرع ألقس أرض الغرفة على عادة والده. انقطع وقّع حوافر الخيل الكثيرة التي غادرت باب الإمرة. تخطر على البال أفكار كثيرة. وهو ينصت مزججاً إياها: ليت ضجة كبيرة لم تنشب في القرية الآن!.. وسيكون السبب من يحمل لقب الأمير من أسرة حجمقوه. سواء كان ذكياً أم مجنوناً فسيترك كل على هواه. أنا أرضى بأن يهينه الإخوة مشقوه إلا أن يقطعوا رأسه... أقول لنفسى: ألحق بهم، ولكن لا يلبق بي أن أتوسط بين هؤلاء. وإن أرسلت حراسي وقفوا مع الأمير. وإن قلت لهم: لا تكونوا مجانين لم يفهموا. أي مشكلة سيورطنا فيها هذا الرجل؟!

وقفت مجموعة الفرسان الكثيرين التي يقودها الأمير حمز باقه أمام بيت الإخوة مشقوه. وقال للحراس:

- لا تتجاوزوا أنتم هذا المكان، - فتح الباب بصدر الحصان، ودخل. لم ير في الدار أحداً فنأدى:

- يا مشقوه ترقان!

- يا للعجب، عندنا ضيف كبير - استقبل ترقان الأمير وهو يعرف أن وراء مجيئه شراً. - تفضل يا أمير، ترجّل!

وفي الحال خرج أخواه الأصغر من البيت مزودين بالسلاح، كأخهما يتبادلان

الحديث، ووقفوا دون اهتمام بضجة الحراس أمام الباب.

- ليس مثلك أيها اللعبة من يذهبون إليه ضيفاً! - ما إن تناول الأمير حمز المسدس حتى ارتقى مشقوه الأكبر تحت صدر الحصان، فأسقط راحبه أرضاً.
- ليس من العادة أن يفعلوا بالضيف مثل هذا، - ركل ترقان المسدس فأبعده، - ولكنك تستحق كل ما أفعل بك لأنك لست ضيفاً.
- ضجَّ الحراس حين رأوا ما حدث للأمير، ولكن مشقوه ماجه قال لهم بكل هدوء:

- لماذا تهيجون وأميركم وراءنا. استقبله أخونا الكبير لو كان في قلبه خير، وإن لم يكن أعادوه إليكم من تلايبيه.
- ومن سيأتون من ورائكم من الفلاحين - قال مشقوه الأوسط، - لا تنسوا سلامهم بالخناجر.

- بالله عليك يا مشقوه، ألسْتُ ضيفاً، يا للعار مما تقول، - تلهّف الأمير حمز باقه، - ألاّني تناولت المسدس لأختبر رجولتك فهل يرفعون صدر الحصان؟ أغرّمك بالاعتذار للأمير. إذبح لنا عاجلاً نظيفاً. جئنا لنجلس بعض الوقت، ونكرّم أنفسنا، ونتحدث، تجاوزنا طؤابغوه، وعرجنا عليك.
- ما تقوله الآن يا أمير أمر آخر، - قال ترقان مقابلاً الرياء برياء، متفهماً كلام الأمير، ولو أنه فلاح، - إن كان عليّ إكرام من أسقطوه من صهوة الحصان فأنا أقبل. ولكن سيتوجب علينا دعوة الفلاحين الذين لا تودهم إلى المأدبة يا أمير.

- وإن أردت فادعُ الفلاح قرباتر أيضاً، ما المشكلة، يروى عن جدي إنه ليس ضاراً أن تجلس مع عدوك على مائدة واحدة.
- فتح الأخوان مشقوه الأصغران باب الدار لحراس الأمير حمز باقه، وأدخلوهم إلى دار الفلاح وكأن شيئاً لم يكن بينهم.

لم تعد سيسار راغبة منذ قدوم الربيع في طريقة عيشها في الغابة. ليس لأن الشتاء القاسي أوقعها في اليأس، فلم تقض شتاء واحداً أو شتاءين من هذا النوع فحسب، بل ما كرهته هو الوحدة. تغبط حين تمر بالقرى متخفية من يصدر دخان من موقده. وحين ترى الأولاد يلعبون بالبلبل، أو الفتيات الصغيرات، تشعر بالدوار. وحين لا تسافر بل تبقى في الغابة لا تملك من الفرح إلا ثوبها النسائي الوحيد وغطاء رأسها. تلبس ثيابها النسائية، وتجلس إلى الموقد وأفكارها تلهب. تضفر كل يوم شعرها الذي غراه الشيب عدة مرات وإن لم تكن بحاجة. وحين تقرر الركوب تلبس متأففة ملابس الرجال. ومتى قطعت غلوة حصان نسيت أنوثتها، وتستعد بالسلاح لمن يقابلها.

لم تستطع سيسار اليوم أن تتزين بالملابس النسائية وتجلس في الغابة رغم الجو الجميل. اعتادت مع مَرِّ السنين على طبائع الرجال التي كانت تخاف منها، ولكنها، مغلوبةً بقلب المرأة، كانت في جهة القرى التي تشتعل فيها المواقد. لم تكن تعرف ما جرى للأمير بحقوقه الذي كان آخر من تأثرت منه.

لا تذهب سيسار إلى مكان محدد. خرجت هكذا من الغابة لتتخلص من القلب الأثوي. وكما يقال: مَنْ حذاؤه ضيق على رجله لا يسمع ما تقول له، لا يخطر أمام الحصان أحد. أفكارها، وهي تنصت إلى حوافر الحصان، في مكان بعيد. إن كنتما اثنين فأنتما واحد، وإن كنت واحداً فكأنك ميت. وإذا كانت تتجنب الناس إلى الآن فقلبها نحو مكان هؤلاء. تبحث عن رعاة خراف الجبال لتتحدث إليهم وإن لم يكن لها شغل معهم. وأينما نظرت لا ترى أحداً منهم كأهم اختبؤوا عنها. حين نظرت في ما يبدأ بذروة خضراء ويتحول إلى قمة بيضاء، وقفت ناحيةً البسلمي أمام العين، فخطر لها راعي الخراف نردم. ولا تزال مرافقتهم لها حتى بلاد الجمكوي في العين. ثم يتابعها فارساً صامتاً متسماً في أرضه. وكما لا تنسى تامر فلا يمر يوم تنسى فيه نردم. كانت تنظر إلى مردم أيام كانت تقيم مع الرعاة في مرعى الجبل كأن أمها ولدته. ولما وصلت إلى الجمكوي أحست سيسار بأن نردم نظر إليها بعين أخرى. حين

صدّقت أن تامبر فارق الحياة بدأ مرعى الجبل يدخل في خيالها أكثر. واليوم لم تستطع إبعاده عن القلب. تنهدت وهي تفكر في أن تتخذ قراراً حاسماً وترحل إلى تلك الجهة. هل أعيش حياتي إن بقيت هنا وحيدة؟ وكما يقال: الاثنان للذان لا يعرف أحدهما الآخر ذئبان، فكم من الوقت سأعيش ومن يصادفني يجيد عن الطريق، ومن ألتقي به فارسٌ متخفٍ. قال لي نردم مراراً: انظري إلى من فوق التراب، وابكي من تحته. الآن فحسبُ فهمت معنى هذا الكلام. بقيت أقول: لا مشكلة لدي، إلى أن بقيت رأساً وحيداً بقبعة ووجهاً ذات غطاء رأس.

أجبرت أصوات الخيل التي بدت من المنعطف سيسار على رفع رأسها. وخرجت العربية من المنعطف. كان كل من في العربة حتى الثيران أسود. من الواضح أن الجمع يذهبون إلى مأتم أو يعودون. ما كان ينقص حزن الناس هو وقعُ حوافر الخيل. حادت سيسار عن الطريق دون أن تنقض العادة في مثل هذه المناسبات ووقفت جانباً. وحين اقتربت العربية قالت للفرسان:

- البقية في حياتكم يا زعماء الخير. من رحل إلى الجنة بإذن الله؟

- بحقوقه شراندوق رحل عن الدنيا. - أجب أكبر الفرسان، وأضاف قبل أن يستأنف السير، - نحن عائدون من البجدوغ بعدما دفّناه.

اختلجت وجنتا سيسار للخبر. تجمدت لا تعرف أترفح بالخبر أم تحزن له. ولكنها صحت فردّت بما هو معتاد:

- إن كان للمتوفى ذنوب فليغفر له الله. وليهدأ باله في الآخرة!

عادت سيسار بسرعة، وتوجهت عبر طريق الفرسان الجبلي إلى مقرّها في الغابة دون أن تعرف سبب هذا التصرف. ما كانت تريده في هذه اللحظة هو ألا يراها أحد. طارت سيسار إلى الغابة، لا تفهم ما يعتمل في القلب، وليس في ذهنها إلا الأمير بحقوقه. ولما وصلت إلى مقرّها أرسلت حصانها للراحة في المرعى: اذهب يا صغيري، اذهب وأرخّ ظهرك قليلاً. دارت أمام "البيت" لا تعرف ماذا تفعل، ثم جلست على الأرومة. يا الله، لا يجري شيء لم تقدّره. ولست نادمة على ما فعلت. قالوا: من مدّ يده إلى عينك فمدّ يدك إلى روحه.

جعلت ثأري قدر بحقوقه. كنت نذرت أن أنهي حياته بالعقاب الجسدي والإهانة فارتديت ثوباً لا يناسبني، وحملت السلاح. وقررت أن أعود إلى أصلي الأثوثي متى أنهيت حياة الأمير عديم الرحمة الذي خنق حظي، فوفيت بنذري. يا رب ضيق عليه جهنم حيث رحل. وأنا أتحلل من نذري هنا.

خلعت سيسار القبعة الفلاحية المهترئة فوق الشعر الطويل على كتفيها. وفيما هي تفك أزرار صدارها تذكرت طريقة صراخ بحقوقه. كان يصرخ ببعض الكلمات إلى الخلف، ولكن لا تتذكرها. كان ينطق اسم تامير؛ ولماذا لا تنطقه إذا كان تامير خاطف روحك. وفي الحال امتلأ صدرها بمنظر الناس المزدحمين في الدار. يتعاقب على عيادته كل من في البجدوغ من رجال والنساء في مناحة عظيمة. انظروا بأنفسكم إن كان حسناً، أنتم على كل حال تكون شخصاً حاضراً أمامكم. أنا ماذا جرى لي، لم تعانوا ثلث ما عانيت. لو عرفت أي سأكبي تامير، رجلي، كما فضلت عليه شيئاً في العالم. هجمتم عليه كالوحوش حتى قطعتموه إرباً إرباً. ابكوا، واحكموا أهو خير؟! انفجرت سيسار التي لم تذرف دموعاً خلال سنوات، فبكت. لم تصدق نفسها في البداية، فلمست الدموع على وجنتيها. ثم خربت ملوحة الدمع بين الشفتين. ثم مع البكاء، وعلى نحو مفاجئ، ودون أن تعرف من أين، رنت في أذنيها كلمات الأمير بحقوقه، وظهره إليها ويداه ممسكتان بالعمودين: "وايقق تامير حيّ، تجده في بلاد الأبراخ!..."

ظنت سيسار أن أحداً ناداها واختفى وراء الشجرة. هجمت مع الرعب إلى قبعة الفلاح. وأخفت شعرها فيها على عجل. ولكنها لم تر في المدى المنظور من تشكّ فيه: الحصان في المرعى هادئاً، والعصافير تغني، وهي تبكي. ولو لم يكن الأمير بحقوقه يعرف شيئاً عن تامير لما قال إنه حيّ، ويعيش في الأبراخ. يا الله هل كلامه على تامير صدق أم كذب؟

امتطت سيسار الحصان. ولن تتأخر دقيقة عن السفر. في البداية إلى الأبراخ، كانت زارتها قبل أعوام وجالت في أرجائها.

في ذلك النهار تركت سيسار أرض الشابسغ، وقطعت حدود الأبراخ دون أن

تلتقي بأحد. أنبت لها الفرح الذي في رأسها ولا تعرف حقيقته، أجنحة. كان قلب سيسار أسرع من تلك الأجنحة. ولكنها حين قطعت أرض الأبراخ ليلاً كان قلبها ورأسها يثقان. لم تلق جواباً في بضع القرى التي سألت فيها عن تامير. لم تكن تريد قضاء ليلتها في إحدى الأسر فقضتها في غابة قرية من إحدى القرى. ولما شرع الفجر ينبلع، سقت الحصان واستأنفت الرحلة.

في الصباح الجميل، ومع إطلال الشمس من وراء الجبل، التقت سيسار بفارسين يبدو أنهما قادمان من مسافة بعيدة:

- رافقتكما السلامة يا زعماء الخير، - حيثهما، ولم تنتظر الجواب فسألتهما:

- لمن هذه القرية الجبلية الظاهرة يا زعماء الخير؟

خُيِّل للفارس الأسرّ إلى اليمين أن صاحب الصوت ليس غريباً عنه. وأجاب دون أن يعرف لمن هذا الصوت:

- والله، أيها الفارس المبارك، هذه القرية لأبده نارج... - أجاب الفارس بلغة البسلني.

تعرفت سيسار على الفارس أمامها لا تدري أين تذهب برأسها. ونظر نردم إلى سيسار يشك فيها.

- يا ربي، أ يكون نارج في البيت؟ - رافقتكم السلامة أيها الزعيمان المباركان... - انصرف الفارس متمنياً ألا تتعرف عليه سيسار.

- سيسار، ماذا تفعلين، ألسن سيسار!.. - صاح نردم وراء الفارس بعدما وقف قليلاً.

لم تستطع سيسار، مهما ضببطت نفسها، إلا أن تلتفت. وبدلاً من أن تحت الحصان غلبها قلب الأنتى فقفزت من ظهره، واختبأت وراءه تستحي من ملابسها الرجالية.

- نردم، توقّف!.. - صدّت سيسار الفارس الجاري نحوها بلغتها البسلني.

- ماذا تقولين يا سيسار؟ أنت من أريدها كل هذه السنوات - قفز نردم من السرج لا يعرف أيفرح أم يُذعر.

- أخجل حتى لو كنت تريدني طوال سنوات. لا تأت!.. - اختبأت سيسار

متصاغرة أكثر، وردت بخليط من البسلني والبجدوغ.
 - أنا لا يهمني ما تلبسين. يهمني أني وجدتك!..
 - اسمع يا نردم ما أقول لك: أديرا ظهريكما لأركب. وتعالا إلى مضافة أبده نارج، ستتقابل هناك بوجهي الأنثوي.
 أدار الفارسان البسلني ظهريهما تلبية لطلب سيسار حتى ركبت، ولم يفتحا جفنيهما ليريا سيسار حتى منعطف التل، بل ظلا يستمعان إلى وقع الحوافر. تبين أن سيسار عاقلة، وهل كنا مضطرين أن نُخرج المرأة التي تلبس ملابس الرجال؟! لماذا تلبس هذا الزي يا ترى؟ ركب نردم يرقص من الفرح، قائلاً لنفسه: لابد أن نجد في القرية ثوباً وغطاء رأس. ثم لحقا بالفارس الذي قدما له الاحترام.

-8-

كان تناو يستعد للعودة إلى الأبراخ يوم انتهت مراسم مأتم الأمير بحقوقه. دخل حسن مراد إلى دار الأمير ييكي، وتوجه إلى غرفة الإمرة، لم يعز أحدًا، ولم يتوقف عند حشد الرجال المتجمعين. دخل وراءه أولاد الأمير وأقرباؤه. جددت النساء اللواتي سمعن رجلاً ييكي صياحهن. والواقفون في أرض الدار لم يتحملوا نحيب النساء، قائلين ألا يكفي ما بكين؟ فنهض أحدهم لا يطيق المزيد من الجلوس، وبدأ يتمشى في مكانه، يروح عن نفسه.
 - هيا يا رجل، انصحو النساء. - قال تناو حين استمرت النساء في البكاء، - لا فائدة من البكاء إلا أن تؤذي نفسك. لن يفتح شراذقه جفنيه بالبكاء. حدث ما حدث وانتهى. ليُفتح له باب الجنة حيث رحل.
 انقطع بكاء النساء كأنهن كن في انتظار من يفصلون بين المتعاريين. وتأمل الواقفون العالم بعين أخرى. خرج حسن مراد من الغرفة، واختلط بالواقفين. تبادل جمه تناو والتاجر التركي حسن مراد التحية وهما يعرفان أنهما في مأتم، ولكن بارتياح. وبعدما وقفا صامتين بعض الوقت حدادا، ترجم طلعت كلام حسن مراد:

- لم أتعب في محالطتي الأديغة في خلال السنوات الماضية كما تعبت السنة. لم أجد الوقت لتوديع أيٍّ من أصدقائي الثلاثة الراحلين. لا أعرف يا تتاو ما يخبئ لنا المستقبل. الإنسان كالزجاج: اليوم حيٌّ وغداً راحلٌ.

- يا حسرتي، رحل عنا رجال ممتازون. - أيد تتاو الضيف هازاً برأسه، الموت يصل إليك ولو كنت راكباً حصان الأساطير... ولو كنت تعرف أين تسقط كنت احتطت لنفسك ببساط ناعم... ومع ذلك فأمال الإنسان أكثر مما عنده. نحن في عالم ثقيل، ومتى رحلنا إلى الآخرة تنفسنا الصُّعداء. ما من كبير أو صغير، منحوس أو ضئيل، إلا ينهش فينا، كلٌّ يظننا مدينين له. نحن لا نستدين من أحد، إن لم يكن لنا عليه.

ألحّت على تتاو الرغبة في سرد طريقة موت الأمير بحقوقه ولكنه ضبط نفسه. لماذا يبادر هو؟ ليروها غيره!.. لا أظن حسن مراد جاء دون أن يخبروه بها؛ هو حمُّ الأمير الكبير ألقس الذي يقيم عنده. وهل يجوز أن تنصّب مثله كبير أمراء للبيجدوغ؟! يقال: من لا ثور عنده يربط مكانه عجلاً إلى النير. هذا هو سبب غياب النظام عن بلاد البيجدوغ. إن شاء الفلاحون شهروا على الأمير حمرز باقَه الخنجر، وإن شاؤوا اعتذروا له إكراماً. وإن أرادوا قتلوا أميرهم بالسوط.

وبلاد الترك في حالة فوضى وصراع كما هنا، - قال حسن مراد يهز رأسه مع أفكاره، - ما قلته من أنّ من يسلبونه يستكثر ما سلبوه، ومن يسلبهم يستقلّ، - صحيح يا تتاو. الأمل كبير، والدنيا غالية. الإنسان ما دام حياً يرى حريته ضيقة، ومتى مات لا يفكر في أن الضريح الضيق سيتسع له.

نظر تتاو إلى المترجم متغرباً كلمات الضيف الأخيرة. داخله الشك في أن المترجم نقلها على نحو صحيح. ولكن الأمر لم يكن كما توقّع جمه تتاو. ترجم طلعت مُعجباً بالكلام وكأن حسن مراد يتكلم من أعماقه أيضاً دون أن يزيد كلمة أو ينقص. لم يكن حديث الدنيا والآخرة يفارق فم تتاو ولكنه حين يخلد إلى نفسه كان يستسلم لهذه الأفكار. كان يردد: ما فائدة أن يعجز لسانك عن التعبير عما أمامك؟ لم يكن يستصعب الذهاب إلى المأتم، غير أن المأساة أن يدخل إلى القبر، ويتأمل الضريح المحفور على قياس الإنسان. كان يتخيل أن

أحداً سيمد يده منه ويجره إليه. ولذلك كان يعاني مشكلة في هذه المناسبة: لا يرى من اللائق أن يكون وراء من يُنزلون الجثمان في القبر، ولا أمامهم. يشيح بنظراته عن القبر. وجرى له الأمر نفسه في أثناء دفن بحقوقه شرانديقه. وكان عليه أن يمسك معهم جثمان الأمير الكبير فانشاوا فتخيل أنه يقع على رأسه في القبر، فدارت عيناه في محجريهما.

حين يكون مع الأبراخ لا يتكلم جمه تتاو بملء صوته على الفلاحين كما اليوم. لا يقبل الأبراخ مثل هذا الكلام حيث رجولة الفلاحين طاغية. ولذا يعيش عمره غابطاً الأمراء - النبلاء، وما في القلب ليس على اللسان، يغني أغنية من يركب عربته. وحين يزور البجدوغ أو الجمكوي، ويخالط الأمراء - النبلاء، فلا حدود لفرحه كسمكة أخرجت من الماء وأعيدت إليه. حقاً إن تتاو أمام الفلاحين مثل السمكة التي مُزّق فمها والتأم، الحريصة على ألا تتبلع فراشة، فهو يخاف من الفلاحين، مطلق اللسان حيث يغيبون.

- ليقبل الفلاحون ما يريدون! - قال تتاو معتداً، - سيكون عندك ما دمت حياً أصدقاء وأعداء. حتى الفراشة عندها أعداء.

ترجى جمه تتاو الأمير الكبير ألقس الذي يستضيف التاجر حسن مراد أن يأذن له باصطحاب الضيف التركي إلى بلاد الأبراخ. تظاهر الأمير بالرفض ولكنه كان راضياً في أعماقه، يتمنى انصراف ضيفه لأن أحداثاً كثيرة تجري في بلاد البجدوغ. كان حسن مراد يتظاهر بأنه يؤيد المضيف، ويجعل من نفسه حامياً لشرعة الأديغة، فقد جاء للتجارة في بلاد الأديغة، ولم يقطع كل هذه المسافة للتعزية وللحداد. وكان تتاو حريصاً على أن ينتشر مديحه في الأبراخ، قائلاً: - التاجر التركي جاءنا بأقمشة ممتازة، أغنانا عن البحث ونحن في بيتنا.

- والله يا تتاو لا أعرف ماذا أقول لك، - تذكر حسن مراد أن عليه المرور على آل شرلاقوه للتعزية. لم يكن يريد الذهاب حالاً فقد لمّح كرمي لربيهم. - لن أستطيع الذهاب إلى الأبراخ قبل أن أعزي علي سلطان، وأقرأ سورة على روح المرحوم ناغوه. هه يا ألقس ما رأيك أنت؟

- هذا تبعاً لموقفك يا ضيف. - لم يعبر ألقس عما في نفسه.

- طبعاً عليك أن تعزي آل شرلأقوه. والمرحوم ناغوه كان صديقك، - أكمل
تناو كلام الضيف مؤيداً إياه، - أليس طريق الأبراخ والشابسغ واحداً؟ إذا
انطلقت من عندنا فباستوك أقرب. متى استرحت عندنا يوماً وليلة سافرنا معاً.
- وهل هذا كلام؛ ما مضى عليه الكثير فسيمضي القليل.

- قال حسن مراد: لا أدعى للسعادة من أن تلقى التأييد في ما تريده من
قلبك. متى سافرت إلى الشابسغ فلن أعود وحدي إلى الأبراخ. ليس من السهل
السفر إلى الأبراخ ولو مع رفيق. هؤلاء الملتحون يُخيفونك بنظراتهم. لا أعرف
لماذا لا يجبن الناثقواي والأبراخ. لم نضرم قط إن لم نخدمهم بالتجارة. سأأاجر
لاحقاً في الأبراخ وجهه تناو مضيفي. كل شيء بأمر الله. ومن الشابسغ أعود
إلى تركيا. ولولا موضوع شرلأقوه لسافرت إلى الجمكوي. مضى زمن طويل على
آخر زيارة إليهم. وكنت حققت رجاء أمير الحاتيقواي. هو من ألح عليّ. سأرى
أموري تبعاً لما سيجري معي في الشابسغ والأبراخ. لن آتي كل يوم إلى بلاد
الأديغة من أجل شرلأقوه. وعاماً بعد عام يصعب السفر؛ لم يعودوا يرحبون بنا
كما في الماضي.

قطع المسافرين طريق البجدوغ - الأبراخ القصير مع وقع حوافر الخيل، متماشية
مع أفكار حسن مراد. ووصلا إلى قرية دكابأه التي انبسطت الشمس فوقها.
فاستقبل كل من يلبس قبعة في دار جمه تناو الضيفين. والنساء يتلصصن
بأنظارهن محتفيات بالقماش أكثر من الضيف. ويسمع صوت غسيل الخادومات
للقدور. والخراف المعدة للضيافة في الدار.

اجتمع كثيرون في المضافة على عادة الأديغة حين يأتي ضيف إلى القرية،
فيتوافدون لمعرفة أخبار بلاد غيرهم. والمجتمعون في مضافة جمه تناو الليلة ليسوا
قليلين. تكلموا في كثير من الموضوعات، وتكلموا على الكثيرين.

- من يا ترى قاتل بحقوقه شراندقوه؟ كائناً من كان والله لم يفعل خيراً. تصرف
بلا رحمة.

- والله هذا رأيي أنا أيضاً يا ضيف. - التقط تناو ما كان ينتظره دون أن
يفتتحه. ربما سمعت أنت أيضاً أن القاتل ساط المرأة أيضاً. لا أظن أحداً فعل

هذا إلا عدوه... من يا ترى؟ وأنا أيضاً مهموم بالأمر.

- وهل تسأل عن هذا يا تناو؟ - سأل أحد الحاضرين مستغرباً، وأجاب دون أن يجعلهم ينتظرونه. - لم يفعل هذا غيرُ وايقق تامبر الخبيث.

- ومن هو هذا؟ - سأل حسن مراد مرتعباً نوعاً ما.

- والله يا جار شككتُ فيه أنا أيضاً. - لم يدعهم تناو ينتظرون. ثم أجاب الضيف بسرعة. - كنت كلمتك عنه مرة، في قرية دكاباه شخص غريب من البجدوغ اسمه تامبر، كان واحداً من فلاحي المرحوم شراندقوه، ومعه شاب من القوزاق الروس.

- اليوم فتح فارسُ باب وايقق الغريب. - مرة أخرى قال جازُ جمه، - اهتممت بالأمر وسألت الفارس عما يقلقه، فنظر إلي كالأخرس ولم يقل شيئاً. ولما قلت له إن تامبر الغريب ذهب مع جنجته سليم إلى العرس في باستوك، نظر إليّ بعين شريرة وانصرف قبل أن تدخلوا دكاباه بقليل، كانت الشمس على وشك الغروب.

-9-

فكر حاغور موسى كثيراً، ريثما عبروا البحر، في المكان الذي سيأخذ إليه أكوز. لو عادا إلى باستوك ما كان فيها أسرة تأوي إليها أكوز. الفتاة التي سرقوها واشتروها بثمان قماش بنطال نشأت بين آل شرلأقوه، لا أهل ولا أقباء لها في القرية. متى فكرت في حياتها سمعت غناء أمها كقمة بيضاء تبدو من بعيد مغلفة بالسحب. ولا تنسى في دارها ثورين بقرون كبيرة. وأحياناً يحيل إليها أنها إنما تتوهم هذه الأمور ويخترعها الأمل. يفكر حاغور أن يزف الفتاة مباشرة إلى بيته عروساً ولكن من يسمع الخبر لا يراه تصرفاً لائقاً. ثم يقول: إذا كان تصرف مع أكوز إلى الآن بأخلاق فلن يهتم بما يعيب. فكر موسى في هذه الأمور، فلما دخل أرض الأديغة صحبها إلى دار رماكوه بجقان. أبلغها أنه سيعود مع زفة العروس من باستوك بعد ترتيب أموره، وعاد إلى القرية. والآن كل فلاحي باستوك ينتظرون العرس. الإخوة حاغور يستقبلون الضيوف.

وقدور الطباخين مترصفة. وغرفة العروس مرتبة تماماً. وما تقوله أختنا لاشين شرعة عند النساء. وعممة موسى الوحيدة العجوز التي جاؤوا بها من سَنَقِي جالسة على فراش ناعم، ووراءها الوسائد، وتحت رجلها المقعد الصغير المغطى بجلد الخروف. وتقيم معها بضع عجائز من الجيران. وإلى جانب سور البيت حيث تنبعث روائح الدهون عدد من لاعبي الكعوب. وإلى غرفة العروس تتوافد البنات الصغيرات حيناً وتختفي حيناً. ويُسمع صوتٌ شحد السكاكين. وتتقافز الجمرات من تحت القدور كأنها تنبئُ بقدوم الضيوف. الرجال شتموا عن سواعدهم يحركون الحساء بمغارف من خشب البقس، والنساء في زاوية البيت البعيدة يقمن على طبخ باستا الدخن. ويقلن أكباد الذبائح، وما شابهها، فتنبعث روائح مشهية. والقدور المعلقة إلى سقف المطبخ تعج بالسلامة. نساء الجيران يهرسن الثوم، ويتناقلن الدجاج المسلوق، والباخسمة التي في القرب الجلدية تتصاعد منها الفقاعات. وتُملأ الأواني بماء العسل.

- حيا الله فلاحى باستوك ورضي عنهم، - تدعو لاشين إلى الله، - لم أتوقع أن تخدمني حتى قريتي الأصيلة كما أرى. ليساعدنا الله كي نرد جمائلهم بمئة ضعف. ولتصبح حياة كل منهم حلوة كالماء والهواء، ولنردّ زيارتهم بالخير! كان فلاحو باستوك قد بدؤوا للتوّ تقديم المواشي للعرس. وغداً متى بدأ العرس ستنهال الهدايا. وكل أسرة تجهّز الحلويات. وكل من يأتي يحمل معه هدية العرس. أقرباء لاشين ذبحوا لها ثلاثة عجول. وتحضّر أعلامُ البندق. وجيء بالأقمشة الجميلة من سوق بشده على الساحل.

ما إن مالت الشمس للغروب وبدأ الجو يعتدل حتى سُمع من جهة طؤزيس أغاني الزفاف. انتبه كلُّ من في دار حاغور. وخرج كل من في الغرفة. وهداّت ضجة لاعبي الكعوب. وتسلق الصبيان الأشجار، والصبايا الأسوار، ونسي الطهاة للحظة قدورهم.

- الزفاف، الزفاف يا ابنة آل حاغور! - قالت إحدى عجائز الجيران لعمّة موسى، - عروس مباركة، لتخالطنا بالخير إن شاء الله. ولتخطّ خطوة مباركة إلى القرية.

- يا إلهي دعنا نعيش حياتنا كلها أفراحاً. - وافقتها عجوز أخرى.

- حياكم الله آل حاغور، وأهل القرية، بارك الله لكم فيها. - دعت لمن عمة موسى. ثم أضافت وعيناها ساهمتان: - لو كان المرحوم أخي الصغير حياً لما وسعه الفرح مبتسماً من تحت شاربیه. مات ميتة فظيعة على يد آل آباته المتنفلين... - أجهشت العجوز بالبكاء، ثم استحييت أن تبكي في عرس ابن أخيها فكفكت دموعها وصحت. - هذه حال الدنيا لم يخطر لي قط أن أعيش إلى عرس موسى. وهذا من فضل الله، فرحة ما بعدها فرحة. وأولاد أخي الصغير صاروا رجالاً. وأنا راضية عن الكثة. كنا شعرنا بالألم حين أتت بالأولاد من ستقي، ولكنها تصرفت بحكمة. ربّتهم دون أن يغبطوا من لهم آباء.

وفي الحال شُمت أغاني الزفاف وأصوات طلقات البنادق من مسافة قريبة جداً. وارتفعت فرحة الحضور على المسطبة. هُرعت النساء لاستقبال أكوز التي جاءت من طوابسه على صهوة حصان. صحبوها إلى غرفة العروس في أحضانهن. ورجع موسى، وتوجه ليحل ضيفاً على مَسْتَنّه أرسى.

خرج شباكوه ووستقوه من بين المشاركين في حملة الزفاف، ودخلا إلى الغرفة التي تقيم فيها عمة موسى:

- عندك عروس يا أمنا، بارك الله لك فيها. - هنأ شباكوه العجوز، ثم توجه إلى سائر العجائز: - ليجعلكن الله من بين القرى التي تشرفت بعروس خيرة. ولتترك بإذن الله كعب خير في طؤزبس التي خرجت منها.

- أنطقكم الله دائماً بلسان خير يا أولادي، ولتكنم العالم كله على رجولتكم، ولتنتشر أخباركم بالخير في بلاد الأديغة كلها. من يعرفكم يفرح بكم، ومن لا يعرفكم يصادقكم!.. لا يقال فيكم إلا الثناء!..

- آمين يا إلهي! - ردد العجائز بصوت واحد.

رافق عازفو الشبابات العروس إلى غرفتها. وطاف عريف الحفل أرض الدار. وقف الشباب في طرف والشابات في طرف. تحخوخوه نباؤه هو المضيف العريف المسؤول عن الضيوف. والفلاحون بأجل ملابسهم، وبكامل أسلحتهم من خناجر وزنانير تُشدُّ إليها، وظروف فارغة بيض الثغور، والبنات بصداريهن

المتعددة الألوان...

لم يتخلف أحدٌ ممن بلّغهم آل حاغور عن الحضور. جاء شباكوه ووستقوه من الناتخواي. وأبده نارج وجنجه سليم ووايقيق تامبر ونكراس ميشكا هم موفدو الأبراخ. ومشقوه ترقان وفوجه لامجي من البجدوغ، وزيش ومخوش من الجمكوي. ومن قرى أخرى جاء الكثيرون بداعي القرابة أو الصداقة. ويمكن أن تزعم أنه لم يبق لأبس قبعة في باستوك غاب عن العرس. الفرسان يحتلون الشارع، وحممة الخيل تعلو المساء. كان من المفترض أن يكون أكبر الضيوف سناً في العرس هو رمباكوه بجقان. ولكنه تحول فجأة إلى حم لموسى.

- أيها الجمع، أيتها القرية، قال العريف، -ليكن فرح آل حاغور فرحاً، لا لأهل هذه القرية فحسب، بل لكل بلاد الأديعة. هيا يا عازني الشبابات اعزفوا لنرقص. هيا يا نارج، يا أحد رجالات الأبراخ. افتتح لنا الرقص. تذكّر أيام شبابك!

برقصة أبده نارج بدأ عرس سيستمر أسبوعاً كاملاً. نسيت لاشين في غمرة فرحها أن تسأل ابنها بداد. أرسلت وراءه، واستدعته إلى المطبخ:

- هل أرسلت إلى طؤزيس تخبرُ بجقان بعرسنا؟

احتار بداد لأياً بَمَ يجب.

- والله يا أمانا نسيت هذا.

- حالاً، أرفق بكريم فارساً وأرسله. سيقولون أيُّ بشرٍ صارت الفتاة كنتهم!..
ينتظرون دعوتنا. سنجلب العار لأنفسنا.

وفي الساعة نفسها أرسل بداد فارسين إلى طؤزيس.

...

- أيّ فرح في القرية؟ - تظاهر حسن مراد في العزاء بالبكاء، وسأل بعدما تغسّل بماء الإبريق والطشت: - مررنا بحفلة رقص لدى مرورنا بباستوك، كانت حفلة جنونية.

- نعم، من أجل هذا يقولون: هذا عنده مآثم والآخر عنده عرس. - لم ينتظر

جمه جوابهم.

يبدو على علي سلطان عدم ارتياحه لحفلة الرقص القائمة في القرية. جلس مدة لا يقول شيئاً. لم يبق على وصول المعزين الكثير، ولا تفارق ذهنه كلمات أمه: "سأذهب وأبصق في حساء آل حاغور" الإهانة التي ألحقت بأسرة شرلاًقوه تمنعها من رؤية الضيوف. الضباب يغطي عينيها. وهو الآخر يخطر له كل شيء مثل أمه. ليس قليلاً ما كابد علي سلطان منذ البارحة. والآن لم يعد يعرف الراحة مع صوت الزمامير. لو عرفت ما سيحدث لسافرنا أمنا وأنا إلى البجدوغ، إلى ربينا. ولكن هذا عيب لمن يسمعه كأننا طردنا من باستوك.

- والله يا ضيف لا أعرف بم أجيب على سؤالك. - بدأ علي سلطان مستسخفاً الموضوع، - وأظنك تعرف الجواب... الليلة عرس ذلك الذي هُرع إلى تركيا. ناكدنا فتزوج قبل مرور عام على وفاة والدنا.

فرح طلعت حين سمع باسم حاغور موسى. وترجم كلام علي سلطان للتاجر. وارتقى بقلبه إلى حيث الزمامير.

- أي زفاف من تركيا؟ - سأل حسن مراد مستغرباً ما يسمع، شاكاً في أكويز. - ألم يأت بأكويز من عندك؟.. - لمَح علي سلطان غير متأكد من حقيقة الأمر، متهماً حسن مراد.

- قلت أكويز؟.. - قفز حسن مراد واقفاً، - ألم يسرق مني إذن من تسميه حاغور؟! أنا من هناك أقلب تركيا كلها، وهم يقيمون عرساً صاخباً هنا. هل تعرفون كم دفعت ثمناً لها؟

ابتسم علي سلطان لأنه سمع ما يريد بالضبط. وفي الحال خُيِّل إليه أن عرس حاغور انتقض، وأن الماء انصبَّ على نار مواقد الفلاحين. ولولا خجله من الضيوف لقام وسافر إلى أهل أمه.

- لماذا لا تسترجع مالك يا ضيف؟ - قال علي سلطان، - مالك لك، أعطاك إياه الله. لا أحد يستطيع أن يسلبه منك. سنستدعي أقرباءنا، ونتشاور. وسنسمع ما يفعل آل حاغور...

- من أين يأتي آل حاغور بالمال الذي دفعته ثمناً للفتاة؟ - انصب العرق على

جبين التاجر.

- ما يدفني إلى الكلام هو أنهم لا يملكون ما يدفعون. - عادت الحياة إلى عيني علي سلطان، وعاد الدم إلى خديه. - لو اجتمع الفلاحون كلهم لما وجدوا عندهم ما دفعت. كيف وقبعاتهم مهترئة، وزُكْبُ بناطيلهم مثقوبة. سئى إن كان أولاد الكلب هؤلاء سيقيمون عرساً!...

- هذا ما قالوا من أجله: اللعب يتسبب في القتال... - قال جمه تناو عائداً بقلبه إلى الأبراح، متفكراً في ما سمع.

-10-

ترجلت سيسار كأنها شريت من سائل مسكر، فجلست تحت جذع شجرة زيزفون. جفل حصانها غير مدرك ما جرى لمن ترجلت من صهوته. تأملها بعينيه الواسعتين فلام نفسه على ابتعاده عنها فاقرب منها، ونظر في وجهها كأنه يقول: أنا متعب حقاً، ولكني قادر على أن أجري بضع غلوات بعد.

كان من عادتها ألا تخلع قبعتها الفلاحية في مكان لا تعرفه، غير أنها رمتها عن رأسها وقد كرهته. عادت إلى وعيها مع تساقط شعرها على عنقها فأعادته على عجل. وبدلاً من أن تفرح بالعثور على تامبر حياً سيطر عليها اكتئاب قلق كمن خرج من بيتها جثماً راحل. كيف يعيش تامبر يا ترى؟ عنده بيت وحديقة ولعبٌ والدار مكنوسة بإتقان. الجرار والقنطور الصغيرة والدلون، كلها مغسولة معلقة في الجواق. من يا ترى تقوم بهذه الأعمال؟ كان عليّ أن أسأل الرجل الذي أخبرني أن تامبر سافر إلى عرس الشابسغ. لو كان في البيت لابسة غطاء رأس لخرجت لأني دنوت من البيت بضع مرات. وإذا كان في حياته امرأة حقاً فأين ستكون؟ ألسنت أنا الخاسرة إن كان في البيت امرأة تقوده؟ أعيش وحيدة لا أنا امرأة ولا أنا رجل. لو عرفت أن هذا مصيري لما كذبت على نردم. بأي عين أنظر إليه إن التقيت به يوماً؟! ألتقي به أم لن ألتقي؟! كانت دائخة لأنها لم تذق لقمة منذ البارحة، ولكنها لم تكن تريد تناول الطعام. تخيم عليها سحابة أفكار لا نهاية لها، إن تبين أن الأمر كما أتوقع فلن

يروني هنا يوماً إضافياً. ليرسل الله الأمير بحقوقه إلى قعر جهنم! سأتوجه إلى البسلي أعيش فيها بقية عمري. إذا كان نردم يحبني إلى هذا الحد فسيغفر لي سلوكي. ماذا جرى عليّ حتى أحلق شعري بنفسي؟ إن كان في بيته امرأة فلتحلق هي، كفاني ما لافيت من عذاب. لن أعود إلى مسكني في الغابة؛ ماذا سأفعل فيه؟ إذا كان ما يشدني البقرة والخراف فقد أطلقتها، لن أكسب ذنبها... لماذا أسمح لكلاّب الغابة أن تمزق رفاقي السابقين؟ أفلتها أمام باب إحدى الأرامل فأكسب ثواباً...

- هيا يا صاحبي نعد إلى طريقنا!- لاطفت سيسار الحصان واستأنفت الرحلة. وصلت سيسار بعد منتصف الليل إلى مسكنها في الغابة. كانت البقرة والخراف في أرض الدار كأن أحداً حبسها. ثار شعورها بالظلم حين نظرت إليها بقرتها السوداء.. كيف خطر لي أن أترك البقرة الحامل في الغابة وأهيم على وجهي؟ نهرت نفسها.

فتحت سيسار جفنيها لا تعرف إن كانت نامت قليلاً أم كثيراً. جالت بعينيها فإذا بشمس الصيف لم تعشش تماماً بعد فوق الأشجار، تلمع من بين الأغصان كأف الكلاّب. ليس عليها ملحفة جلد الخراف الكبيرة، ولا تحتها الفراش الرقيق، عرفت أنها ما تزال على غفوتها الليلة فوق العشب. بدأت بتجهيز النار على عادتها كل صباح. كوّمت الحشيش اليابس، ثم سحبت المسدس وأطلقت تحت الكومة، ارتجّت الغابة من صدى الطلقة، وتطاير الشر من الكومة.

أفطرت سيسار فُيّل الظهر. رحلت بقلبها إلى باستوك حيث يعيش تامر. منّت نفسها بأنها ستراه ولو مرة واحدة. كانت ترتدي ملابس الرجال ولكنها ستذهب إلى عرس القرية. تناولت المرأة، وتأمّلت نفسها. وتأمّلت خديها اللذين بدءا يتغضنان تحت العيون. تنهدت وقالت: يا حسرتي، من يحتاج إلي الآن؟

وصلت سيسار إلى باستوك والحفلة في ذروتها. الفرسان في الأحياء المجاورة لا يتسع لهم الحيّ. الزمامير لا تعرف التوقف. وصوت عريف الحفلة لا ينقطع.

يذهب بالراقصين إلى الحلبة، ويعود بهم. تنظر سيسار فتجد نفسها وسط مجموعة من الفرسان الفلاحين. ترى الراقصين، وتسمع كلام عريف الحفل. ليست مهتمة بالبنات اللواتي يغطي القماش المطرز بالذهب صدورهن. بل عيناها مسمرتان على جمع الرجال. وأينما نظرت لا تتعرف على تامبر، أو لا تراه في الحفل.

أشار العريف وهو وسط الحفلة إلى شاب أشقر يزهو بلباسه، قائلاً: يطالب الجمع بأن يأتي إلى الحلبة نيكراس ميشكا الروسي الأبخازي. - هيا يا شاب دعنا نرى أسفل حذائك. هيا إلى التصفيق، بمزيد من الحماسة!

يرقص نكراس ميشكا وكأنه خلق للرقص. لا يهتز خنجره على وسطه. يبتسم لمراقصته بشاربيه الشقراوين. وبعده وصل الدور إلى شابين وفتاتين يرقصون معاً. حولت سيسار نظرها عن الراقصين إلى قبعات الرجال الواقفين بعيداً. ما أصعب أن تميز وايقق تامبر من بين هؤلاء! وإذا حدث وتبين أنه ليس تامبر؟ داخل الشك قلب سيسار. وفي الحال سُمع صوت العريف، وما سمعه اقشعر له شعر الرأس.

- لا يزال أمانا وايقق تامبر، دوره الآن في الرقص. يطالبون به على الحلبة. وأنتم يا عازفي الشابات دعوا موسيقى الرقصة تصل إلى عنان السماء. خرج تامبر من بين جمع الرجال، ودخل الساحة فشعرت سيسار بالدوار. أمسكت بمقدمة السرج فعاد إليها التوازن. اللحية والشاربان حيث بدأ المشيب تتناسب مع لون الكساء. ورأسا الكتفين يتناسبان مع الخصر. حين بدأ يلاحق على رؤوس أصابعه الفتاة التي تراقصه. رأسا الكتفين الرفيعين يتناسبان مع الخصر الدقيق، وحين يمشي على رؤوس أصابعه مع الفتاة التي تراقصه ترتفع قامته العالية فوق الحفلة. وحين يريد ممازحة الفتاة فيُسرع من حركات الرجلين تُنبّهه رجولته، ويشعر بالحرج أمام الكبار والصغار فيعود إلى رزانه. تامبر حيّ!.. يا إلهي تامبر حيّ. شعرت سيسار أن مجموعة البنات في الحفلة يسلبنها تامبر.

ظهر عدد من الفرسان قادمين من جهة بيت شرلأقوه. التفتت المجموعة التي

بينها سيسار إليهم كأنها كانت تنتظرهم. وارتفعت في الحي حمى الفضول. كان المشاركون في العرس يعرفونهم وينتظرونهم منذ الصباح.

- كم عدد الفرسان القادمين؟ - سأل شباكوه.

- في حدود العشرين، إن لم يكونوا أكثر. - ردّ أحد الناظرين من الفلاحين.

- ليركب عشرون فارساً إذن! - أصدر شباكوه أمراً، وتوجه إلى عريف الحفل.

- لا تقطعوا الحفلة مهما حدث!. تعال يا نارح، وأنت أيضاً يا تحخوخوه.

وليركب بداد. وايقق تامير هو كبير الفرسان الذين ييقون وراءنا.

وقف الفرسان الذين يقودهم شباكوه إلى جانب الباب مُفسحين الطريق.

وصدف أن رأت سيسار نفسها بينهم دون أن تعرف كيف حدث هذا. ووصل

الفرسان الذين يقودهم علي سلطان. وحسن مراد يتوسط ثلاثة فرسان. وجهه

تتاو بين الفرسان الآخرين.

- من أكبر من في الحفلة؟ سأل علي سلطان دون تحية.

- إن كنت تنوي تهنتهم فعمة آل حاغور في البيت. - قال شباكوه، - وإن

رفضت فأبدعه نارح الذي يقف في موقف الرئاسة وأنا أكبرهم. تفضّل إن كانت

عندكم نية الدخول، هات ما تريد!

- أنا من جهة الأكبر، - بدأ علي سلطان دون أن يعرف نتيجة المهمة التي

بدأها، ولكن الحق معه في هذا، - ما أعرف أن أبلغه لكم أمراً واحداً: أقام آل

حاغور عرساً دون علاقة بآل شرلاقوه. والآن اسمعوا ما جاء لأجله حسن مراد:

- هذه العروس التي تحتفلون بعرسها أيتها الجماعة سرقوها من بيتي، وأنا

اللاحقها... - ابتسم طلعت وترجم. - ولذا أود أن أسترجع المرأة المسكينة قبل

أن تصبح قضية نظام.

- عروس آل حاغور يا ضيف لا نعرف أنها جيء بها من تركيا. والقرية تشهد

على هذا.

- دفعت لأجلها مالا كثيراً ولو لم تأت من تركيا. اشتريتها من مامرقوه ومقاي.

لماذا علي أن أتعرض لسرقة أحدهم؟ لو كنا في تركيا ما احتجنا إلى كل هذا

الكلام. النظام كان يُبيلني ما لي.

- نوافقك على هذا يا ضيف. بلاد الأديغة غير تركيا. ولذا عليك أن تتصرف وفق نظامنا.

- لا أعرف أن للأديغة بلاداً. أنتم مرتبطون بدولة تركيا. يجب أن يكون قانونها قانونكم. - أجاب حسن مراد على كل سؤال خائفاً على ما بدا، ولكن مقنعاً نفسه أن النظام إلى جانبه. - ثم أضاف بحيث تعرف أنه يتراجع. - ومهما كان فأنا آمل أن يعيد أصحاب العرس إلي ما أنفقت.

- الفتاة التي تأتي على ذكرها يا ضيف، - سأل أبده ناراج الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن: - هل باعوك إياها بمحكمة؟ - لا.

- هل من تلاحقها إذن كلبة؟! - يبدو أنك سرقت. ومن سرق، ومن اشترى مسروقاً، بالنسبة إلينا واحد. ولذا إذا كنت تريد الفصل في هذه القضية من خلال محكمة أبنزاخية فأنت أيضاً مذنب. كم دفعت من أجلها؟ - دفعت ألف قرش!.. - زاد المبلغ ضعفين.

لما رأى علي سلطان أن ما كان يتوجس منه يدخل في القضية، التفت إلى التاجر التركي

وبدأت أضراره تصطك. ثم قال في نفسه: - من أين سيأتي هؤلاء بكل هذا المال فابتسم.

- والله باعوك الفتاة التي رأيتهما بسعر رخيص أيها الضيف. لا قيمة لها!.. ولذا سنعيد إليك مالك، هذا حكم الكبار الذين حضروا. أعد له يا شباكوه!.. - خذ، وستعيد إلينا الباقي. وما تزعم أننا سلبناه من تركيا فلا أعرف، نحن لسنا رعايا أحد. نحن نعيش عمرنا بلاد أديغة. لا تُخطئ في هذا يا ضيف! - عاد شباكوه إلى الفرسان الذين فارقه.

داخ شرلاقوه علي سلطان.

- والموضوع الآخر يا شرلاقوه، - مرة أخرى ردّ عليه شباكوه - لا أوافقك فيه. يجب أن تفرح لأعراس القرية، لا أن تتنصل منها. من يعرف بالزفاف أشخاص محدودون، ثم يصبح العرس ملك القرية.

لم يقع علي سلطان في موقف أصعب من هذا. تغير لونه، تألم كما لم يكن يتألم لوقع رصاصة الموت. أدار رأس حصانه وغادر. وتبعته مجموعة الفرسان صامتة. ومن جاء مع الجمع ولم يعد هو طلعت. كان هو من أخبر موسى مساء أمس بنية علي سلطان وحسن مراد. لم يكن يريد في يوم فرح حاغور موسى الوحيد، خيراً أو شراً، أي مال لأحد.

لم ينقطع العرس طوال بقاء جماعة علي سلطان. وعادت جماعة شباكوه إلى حيث الفرح وكأنهم لم يركبوا بهدف القتال. نارج وزيش ومخوش ووستقوه وبترز رقصوا مرة أخرى. من ليس من هنا أو من هناك هي سيسار. قالت: ما أسعد المرأة الصغيرة التي ساندتها القرية، استطاعت أن تعود من تركيا. وجدت سعادتها أخيراً بعد كل ما جرى لها. من هي يا ترى؟ والرجل الذي حضر عرسه أكثر ممن حضروا عرس الأمير رجل حقاً ولو لم أره... لماذا أنا واقفة هنا أشتهي ما ليس عندي؟

بعد الظهر انصرف من كانوا في حفلة الرقص إلى القرية المجاورة. وقاموا باستعراض مبارزة بالسيوف. وتنافس المصارعون في عرض مهاراتهم. واستمتع الجمهور بألعاب متنوعة. ونظمت مباريات التهديف، وشهدوا سباقات الخيل. وفي هذا الوقت كله كانت سيسار تلاحق تامبر، تقترب منه لا تشبع من رؤيته. راقبت نظراته إلى البنات فاستنتجت أنه بلا زوجة. وكان هذا يهدئ خاطرها. تمنّت أن تعترض حصانه، ولم تجد هذا لائقاً. ستفعل هذا حين تكون بين فرسان البرية.

ظهر فارس في الساحة يحمل جلد خروف كأنه عرف ما في نفس سيسار. وقف الراحلة جانباً وفي الحال تداخل الفرسان. وتوغل بينهم فارس اختطف الجلد منه. لحق تامبر بالفارس واختطف منه الجلد. ولما صار الفرسان يتدافعون إلى مكان وقوف سيسار سابقت تامبر، وبدلاً من الجلد اختطفت قبعته، وصاحت به:

- استرجع قبعتك إن كنت رجلاً!.. ولما سلبته سيسار القبعة انتزعوا منه الجلد أيضاً. لحق تامبر بالفارس الذي اختطف قبعته وهرب إلى جهة غابة تحمز، لم

يعد الناس مهتمين بالتنافس على الجلد، كان الجميع يراقبون صاحب القبة وخاطفها.

كان تامبر يقول مع الجري: ماذا يريد مني هذا الذي اختطف قبعتي؟ يريد إلحاق العار بي؟.. لم يكن قادراً على اللحاق بخصمه مهما كان حصانه جيداً. والآخر يلجم حصانه يريد أن يلحق به، وينظر إلى الوراء. كأنه يقول: الحق بي إن كنت رجلاً!..

رأى نكراسُ ميشكا الفارسين لحظة توغلتهما في الغابة فحسب. لم يسأل ميشكا أحداً عما حدث. رأى تامبر حاسراً يلاحق فارساً فعرف أن لا خير في الأمر فقذف الجلد إلى من ورائه، ولحق بصديقه. ولكنه تصور أن من أمامه كانا يطيران بالقياس إلى سرعته هو.

- توقّف!- صاح تامبر في إثر الفارس. - سأتبعك أينما توجهت!..

- وكيف لا تتبعني إذا كان رأسك يُحمل بدلاً من قبعتك!

- يستوي أن يُسلب منك رأسك أو قبعتك. لا فرق عند الأديغة بينهما. لم تكن سيسار تجهل هذا. وهذا سرُّ اختطاف قبعة تامبر.

يثس تامبر من إمكان اللحاق بالفارس بعدما توغلا في الغابة. ولكنه رأى غريمه يعدو خبياً عندما تجاوز المنعطف. أي حصان يركب هذا المهرج! أله جناحان لا نراهما؟ لا أعرف إن كان من يستدرجني دون وعي جنياً. ولما كاد يصل إليه انطلق الفارس من جديد. وبعدها جرى الثلاثة بعض الوقت دخلوا منخفضاً. ثم تسلقوا المنحدر ودخلوا في مرعى جميل. رأى تامبر عدداً من الخراف وبقرة فشكّ في أن مسكن إنسان قريب من هنا. وفي الحال ناداه الفارس الذي في الطرف الآخر من المرعى:

- إن كنت رجلاً يا تامبر فلا تعد بحجة أنك عثرت على قبعتك!.. - ترجلت سيسار، ووضعت قبعة الفلاح على السرج.

- لست عاجزاً عن معرفة رجولة من خطف قبعتي!- صاح تامبر وراء من يدخل المكان المسقوف. هيا جرّد سيفك!..

اقترب تامبر من الفارس الهادئ، وارتدى قبعته. القلب الهائج يمكنه أن يقف

أمام مئة خصم. وقف أمام الباب ينتظر خروج من دخل إلى الكوخ دون حذر من الجوانب والخلف. أنا أعرف ما سأفعل بك. لن أكون رجلاً، وسأحلق شاريّ إن لم أحملك إلى من كانوا حاضرين لحظة اختطفَت القبعة. وأنت إن كنت رجلاً بشارين عرفت معنى حلاقة الشارين!

خلعت سيسار على عجل ملابس الرجال متمنية ألا يلحق بها تامبر. خلعت الثوب، ووقفت تمشط شعرها، وضفرته بأصابع مرتجفة. ولما لبست غطاء الرأس ونظرت إلى نفسها في المرآة رأَت حاجبيها اللذين لم تتمصهما طوال سنوات فغدوا كالغابة. وبلّت بطرف لسانها شفتيها الجافتين من الهم. وصرت خصرها الذي بدأ يتسع قليلاً. نهضت وتوجهت إلى الباب.

نص تامبر برأسه لا يعرف من أين أتت المرأة التي تغلب عليها مشية الرجال. ثم عرفها وارتمى من الحصان:

- سيسار! هذه أنتِ؟..

- أنا يا تامبر!.. - تداعت سيسار أمام الرجل لا تستطيع الوقوف، ولا تعرف ما حدث.

هُرِع تامبر فاختطف سيسار من الأرض. دار في المرعى بضع مرات لا يعرف أين يذهب بها. ولما لمح الكوخ أعادها إليه متلهفًا. وفي الحال وصل صدَى صوت نكراس ميشكا والآخرين.

...

في الليلة نفسها سُمِع في باستوك أغاني زفاف. اتسعت حلقة رقص حاغور موسى ووايقيق تامبر. وفي اليوم السابع أوصلوا موكب عرس سيسار إلى الأبخاخ.

الفصل الرابع عشر

-1-

مضت عدة أعوام.

تتابعت أعوام الخير وأعوام النحس على بلاد الأديعة. شمسهم تشرق وتغيب. يرزقون بأطفال. والموت لا يتجنبهم. بعد المأتم عرس. من عنده القدرة يرسل أولاده إلى الأتاليك المري، ومن ليس عنده يريهم على صدره، ويُشئهم. أما ما لا يتغير فهو عدم المساواة بين الأمراء - النبلاء من جهة والفلاحين من جهة. لا يكفيهم مهما صنعوا من البارود، وما جلبوا من القرم ومن تركيا وغيرها. ومهما مارس الأمراء - النبلاء من مظالم سَوَّغها الجامع. يلجؤون إلى الإله للوقوف أمام قدرة الفلاحين العظيمة.

أكجكوه أنزور ناسياً أنه لم يدرس في القرم إلا بضعة أشهر، أفنديٌّ نافذ في الشابسغ. من يصبح أفنديا صار إماماً حقيقياً لهم، يصفونه بالشره على الموائد، لا يرى أبعد من بطنه.

لم يبدأ أنزور يتجه إلى الشيخوخة خلافاً لعمره إلا بعدما عاد نطار إلى القرية. لم يعد الشباب من جيل ابنه يجلسون حيث يجلس هو. يعطونه مكان الصدارة في المجالس مع وجود من هم أسنُّ منه باعتباره أفندياً. فيستلم قيادة المجلس، كالشور الكبير يستلم قيادة العربة. متى رأيته يمشي في الشارع أنكرت أنه هو نفسه فلاح القرية ذو القبة المهترئة. ولا تشك أنه كان في الدار التي يعود إليها كوخ يكاد سقفه يتداعى: البيت المجهز تماماً بالوجاق العالي، إلى جانبه مطبخ ملحق. ومن الطرف الآخر، جهة البستان تبدو زريتان طويلتان.

متى وقف أكجكوه أمامك بخدين موردين فهو رجل هادئ طلق الوجه يُقنعك بكل ما يقول. حين يبدأ الحديث واسم الله يخالط حديثه عبّرت لغته عن كل شيء. هاتان الموهبتان هما اللتان جعلتا من أنزور رجلاً نافذاً، لا في باستوك وحدها، بل في الشابسغ كلها. لا يمر عامٌ لا يُدعى فيه بضع مرات إلى أنحاء الشابسغ. وكلما عاد ارتفعت مكانته، لا عند الفلاحين فحسب، بل عند

الأسر المنتفذة. يزيد الناس في الأخبار التي يروّجها لنفسه، وتصل شفاهاً إلى أماكن أخرى.

أنزور في بيته وقد عاد من صلاة الظهر. لا يلتصق الثوب الحريري الناعم بجلده. القبة مفتوحة، يجلس متحرراً من زناره. الخدان المتوهجان بسبب الصيف الحارّ الذي فارقه لا يزال عليهما أثر الأشعة الحارقة. والرجلان المغسولتان المنشفتان تستندان ممدودتين أمامه إلى مقعد صغير مريح. يحب أنزور أن يجلس هكذا مرتاحاً متى عاد من الجامع بانتظار الغداء. وبعد الغداء يركب إلى مضيق نهر إيل مهما كانت الشمس حارقة. ثم يعود وينام إلى صلاة العصر.

أفكار أكجكوه أنزور هادئة كطريقة جلوسه. مضت الأيام الأخيرة من حياته بسلام. ولم تحدث في القرية مشكلة تقلق. وهو راض عن الفلاحين؛ كلٌّ يتابع عمله. وشرلاًقوه داريت في زيارة إلى ربيبه في البجدوغ. أما علي سلطان فلا تسأل عنه: غائب في رحلة أميرية مع باتجري منذ شهر، ولا أحد يعرف عنهما شيئاً. قال أنزور: بالقياس إلى ربيب بارينقوه فولدنا تلقى تربية ممتازة. أراقب المتنفذين والأمراء فأتعجب كيف لا يفكرون في تعليم أولادهم وتربيتهم. لا مال ينقصهم. المشاية عندهم تحت أقدامهم، ماذا كان ينقص باتجري الذي جاؤوا به من عند مربيه؟ الشاب الذي لا يساوي شيئاً أخذه في رحلة أميرية. ربما يختبئ وزميله في دغل في الغابة يأكلان مما سرقا مستلذين به. لا يكفي أن يعلم ابننا في المدرسة أولاد الفلاحين. يجب إرساله إلى تركيا للدراسة. يمكنني أن أتحكم أنا بالأمر بفضل الله. المال لا تستعصي عليه أي مشكلة في الدنيا. الحاج قايمرز أثني على ولدي، كان نصحني أن أرسله إلى إستانبول. إن لم أستمع إلى نصيحته فمن عندي أستمع إليه؟ لتتطق دائماً بالخير يا حاج! سألي لك هذه النصيحة قبل أن يتخذ الولد أصحاباً كثيرين من أولاد الفلاحين. البائس لا يجب أن يلتحق بالمتنفذين، كأنهم سيأكلونه. ما المشكلة إن كانوا كسروا له رجله؟ ونحن لم نسلم من شرهم، ولكن تناسيناها. يقال: الرجل يسخر من الفارس، فلا يجوز أن تفعل هذا.

أتت مريم بالمائدة إلى الرجل. باستا الدخن واللحم المشوي، ومعهما الشراب.

ارتدى أكجكوه القبعة قبل أن يمد يده إلى الطعام.

- يبدو أيتها العجوز الصغيرة أنك ستسعدينا بالطعام. - مزح أنزور مع المرأة، البخار يتصاعد من الباستا ومن اللحم المقلي. - هل غديت الولد؟ لا تدعيه يخرج من البيت دون أن يأكل يا عجوز. عندنا كثير من الطعام بفضل الله. يا إلهي لا تحوجنا إلى طعامك، وامنحنا العمر لنشهد فرح ابننا الوحيد!.. واقلع عين من لا يودنا، أيّا كان، وأنسه لغته!

- آمين يا رب. - وافقت مريم دعاء الزوج، لا تبخل باللعنات.

كانت مريم مسرورة بتناول زوجها الطعام متلواً بالشراب. تنظر إلى زوجها واقفة مستندة إلى جدار الصوفا، عاقدة يديها على صدرها. ما أغلى أن يرى الناس لك زوجاً مثله!.. ظهر في باستوك واحد يدعى حاغور موسى أولع الناس به. قالت من قلبها ناسية سبب شجارها مع زوجها. ما العجيب في أن يسترد زوجته من تركيا؟ لن أسترجع، وأنا رجل، امرأة عاشت في بيت غيري!.. كلام داريت معي قبل أيام حملني على التفكير. لا أظن كلامها خالياً من الصحة. عاشت وحيدة تماماً بين الرجال الأتراك!.. لا أحسد لاشين المسكينة. - لا قدّر الله أن يحدث مثلي هذا لولدي!

- لا سمح الله، والحمد لله! قال أكجكوه دون أن يعرف المقصود تماماً، وإنما يفهم منه الرزق، ومسح فمه. ورفع راحتيه العريضتين كمجرفتين أمام وجهه، وتمتم بعض الوقت. ولما رفع الطعام التفت نحو المرأة وقد تذكر ما كان يفكر فيه قبل قليل. - يا عجوز، إن سمح الله، أنوي أن أرسل الولد إلى إستانبول في العام القادم. يكفي ما ضيّع من وقت في صحبة أولاد الفلاحين. ما رأيك أنت؟

ارتحفت مريم قليلاً. سمعت ما كانت تخاف سماعه منذ رجع الولد من القرم في العام الماضي. قالت: يا مصيبيتي؛ وهل أستطيع أن أقتلع الولد مني سنوات؟! ألا يكفي ما درس؟ يعرف ما لا يعرف أبناء الأمراء.

- أراك لا تقولين شيئاً؟

- وماذا أقول إن كان هذا رأيك؟ الأمر بيد الله. - لم تكن مريم راضية البتة

ولكنها لا تجرح مشاعر الزوج. هل أعارضه لأنه قال: "أنوي" فأخلق مشكلة وجدالاً؟ يخلق الله ما لا تعلمون إلى العام القادم.

- ما تراه العين يساوي العمر يا عجوز. الحاج قايمرز من رجالات القرم الحكماء. متى اقترح شيئاً فلا تترددي!.. والله كان سلوك الحاج قايمرز جيداً معي أنا. لما ذهبت للعودة بالولد أوقفني إلى جانبه أمام المصلين، وجعلني أصلي إلى جانبه والناس يغبطوني. وصحبني إلى مكان الأذان وطلب مني أن أؤذن. ولكن هل نعود كما كنا شباباً؟ ومن هذه الناحية فعلت ما أستطيع أمام النغوي. لم أكن أسمح لهم أن يسخروا من الأديغي البسيط... إيه يا عجوز بم تفكرين؟ حتى أنك لا تُصغين إلى كلامي.

- وكيف لا أصغي! - برأت مريم نفسها وهي التي لا يفارق ابنها ذهنها. - أسمعك بكل سرور. لن يظهر في باستوك رجل بمثل تربيتك. - اسمع ما تقول العجوز! - تعجب أكجكوه، - وما قيمة باستوك؟! من مثلي في الشابسغ؟ لا أعرف في الجمكوي، ولكني أعرف أن ليس في البجدوغ والأبزاخ. ليتني أريتك يا عجوز قراءتي سورة في جامع آل حجمقوه؛ كيف كانت دموع فلاحِي البجدوغ تسيل على خدودهم!.. وهل تظنين أنهم لم يسمعوا بالخبر في الجمكوي؟ هذه البلاد الوحيدة التي لم ترسل لي موفدين. أنا لست مستعجلاً على هذا. سترين يوماً ما.

- نعم، صحيح، - أيدت مريم الزوج مرة أخرى. - سنرى هذا اليوم! ذهب أنزور في وقت أبكر قليلاً إلى صلاة العصر. لم يكن قد أتى بعدُ أيّ مصلٍ. ووقت مجيء المؤذن اقترب. كان باب المدرسة مفتوحاً، فلما تسلل من الباب رأى مجموعة من الأولاد تجلس على الركب فوق جلود الماعز، ونظار يشرف عليهم. رأى ابنه يقرأ من الورقة التي معه بالأديغية. ارتعب حتى احمرّ أخمص قدميه. ابنه يرتل هذه الأسطر مع لحن أديغي:

... ماء البحر يثب إلى الأعلى،

يرتفع قافزاً،

النهار يأتي بالجو الجميل...

- أي لحن أسمع يا ولد؟ - سأل أنزور ابنه وحرزٌ خفيٌّ يهيمن عليه. - ما الذي كنت تقرأ؟!

نفض الجالسون حين رأوا الأفندي. ووضع نظار الورقة التي كان يقرأ منها في جيبه. ومن أجل ألا يقع الأولاد في حيرة أمام الرجلين تراجعاً نحو قائمة الباب: - سألتك ما الذي وضعته في جيبك؟ - سأل أنزور مرة أخرى ابنه لا يعرف أيغضب أم لا، ومدّ يده. - دعني أر هذه!.. ما هذه؟.. لا هي لغة القرآن ولا هي لغة الأدبغة... - رأى الكتابة بالحبر تحت حروف القرآن السوداء فهرب الدم من وجه أنزور أفندي، وألقى نظرة على ابنه وقد تضاعف الخوف مئة مرة.

-2-

- يا كتنّة، تعالي سرحي شعري بدلاً من أن تلعب معي لعبة الغميضة، - نادت داريت من غرفة السيدة، ثم بدأت كالعادة في الصراخ والتأنيب. - كيف تتصرف هذه؟ تختبئ متى رأيته. شلّ الله رجلك!.. لست أبشع من أمك الثرثرة. ماذا يضريك أن تدخلني صباحاً إليّ وتساليني: كيف حالك يا حماقي؟.. لن آكلك. أطعمني الله إياك إن كانت هذه نظرتك! أجبرنا الولد على الزواج منك إجباراً. لن تؤسسي أسرة إذا بقيت جالسة تتأملين في شاربتي الرجل. إن شاء الله تفقدين معرفتك بنفسك!..

نفضت مامرخان على نداء داريت. كان الوقت لا يزال مبكراً، يكاد الفجر ينبلع. خرج علي سلطان من الفراش مخرجاً من سلوك أمه. منذ تزوج لا ينتهي من طرّق الصباح. يوقظ من في البيت رغماً عنهم. ألا تركنا ننام إن كانت هي لا تنام!.. ظلت بهذا السلوك حتى أخرجت الوالد من طوره، وانظر النتيجة الآن. صارت أمانا لا تطاق بعد عرس آل حاغور خصوصاً. لا أعرف حالاً إلا أن أطلب من شيخ الويخ أن يكتب لها رقية...

تذكر علي سلطان أن أمه ألحت عليه في اليوم الذي أخوا فيه عرس أكوز، وزفوا سيسار إلى الأبراخ، أن يتزوج هو أيضاً. لم ير من اللائق أن يفعل هذا ولم يمض بعد عام واحد على وفاة والده. كان يقال إنها وسيط بينه وبين والده، حتى

قالت له داريت ذات صباح:

- لا أظنك تحب والدك أكثر مما أحبه يا ولد. - انفجرت داريت بكاء،
- سينتهي حدادنا في بداية الخريف، لن ننتظر كثيراً بعده إن شاء الله. سأري
آل حاغور الفلاحين ما يسمى عرساً. سأتي بعازني المزامير من القبرتاي حتى
لينظر إليك بفمه من يستمع إليهم. سندعو أقرباءنا إلى العرس حتى الأبخاخ.
وسندعو أقرباءنا الترك وأقرباءنا في القرم. لا، لا أقصد حسن مراد. لن أدع هذا
الكلب يدخل بيتنا، بل يقترب منه؛ اعتمدنا عليه فإذا به يجلب لنا العار، لا في
القرية وحدها، بل في الشايفغ كلها. ليس لهذا الرجل شرف ولا أخلاق. يا
حسرتي يا ولد، لا أذكر أنني ندمت على أمر مثلما ندمت عليه. من أجل هذا
كنت طلبت منك أن نستشير أحوالك، وآل آبائه. إلى الجحيم حسن مراد
اللئيم!.. عندما استرجع ماله تركنا وحدنا نفتل في الساحة. يا ربّ دعه يصل
إلى ما يعتدّ به من مال ويحرص عليه وقد صار رماداً. ولتغرقه في البحر الذي
سيركبه فتأكله الأسماك! لا يا صغيري، يجب أن تؤسس أسرة وإلا نظر إليك
الفلاحون على أنك رجل دميم. سنجهز منذ اليوم للعرس...

ابتسم علي سلطان حين تذكر صراحة الأم الجارحة. وهل من مهرّب أمام رغبة
داريت؟ لم تتأخر ساعة واحدة عن الموعد الذي حددته. طلبت مامرخان
فزفوها بأغاني العرس وطلقات البنادق المدوية. دارت أعراس آل شراًفوه سبعة
أيام في ضواحي باستوك وإن لم تكن الحفلة كما أرادت تماماً. حضر أمراء
البجدوغ كُرمى لأمر البجدوغ الكبير ألقس. ولم يحضر الزمارون القبرتاي، بل
من القرى المجاورة. ومن أجل أن يقول الناس إن ضيوفاً جاؤوا من تركيا،
أحضروا من سوق بشده أشخاصاً لم يعرفوهم قط. وحفلات الرقص تقام للمرح
والسرور ولكن من يوسع دائرة الحلقة هم المشاركون فيها. كان ضيوف الحفلات
مختارين من الأمراء - النبلاء الذين يتحفظون على كلامهم وحركاتهم، ولا تعلق
وجوههم بالبتسامة، في حين كان جمهور حفلات حاغور ووايقيق كله من
الفلاحين الذين ليس بينهم كلفة في ما يقولون وما يفعلون، ينثرون المرح كماء
الفضة. ولا يغيب عن ألسنة الناس إلى الآن قولهم "حين كنا في عرس حاغور

ووايقق"، وهذا مما يزيد في آلام داريت. ولكن كان فوق الجميع سبب صراخها إلى العروس. وكانت داريت أول من تقلق لهذا الشأن.

لبست مامرخان وخرجت بسهولة، جمال المرأة حلو في صدر علي سلطان. تعجبه المرأة الجميلة الشابة الشقراء ذات الوجه النحيل مهما فعلت، ومهما مدت يدها، ومهما جلست إلى المرأة. خطر له أن يلحق بالمرأة التي نادتها الحماة دون أن يهتز لها خصرٌ فيعانقها. وما كان يجب المرأة إلى علي سلطان نعومتها وكلامها الجميل؛ لم تكن نعومة مبالغاً فيها. تنظر إليك بعينيها الصافيتين نظرات تفرط القلب. تبتسم لك وما في القلب يحكيه لك الوجه الطلق. ليت أمنا ما حطمت قلب مامرخان! لم تولد مامرخان للمناكفة. ولكنه لم يسمع من لقاء الحماة والكنة ما يشي بشيء من هذا. نحن لا نتحملها رغم أنها ولدتنا فكيف بها؟! تهينها بضربة على ظهرها وهي الأخرى سليمة أم وأب. لن تفعل أمنا شيئاً من هذا. وإن فعلت فلن أقبل منها ولو أنها ولدتني. أقول هذا ولكن كآبة مامرخان تبدو عليها أكثر منذ نهاية العام الماضي. هذا غير ممكن، لا يجوز!.. علينا أن نشترى فتاة صغيرة لأمنا تصب عليها حقدها وغضبها. أين مقاي يا ترى؟ لم يطأ دارنا منذ زمن بعيد. ولم يحضر عرسنا.

- يا كنة كم تحبين الفراش الدافئ!.. - لم ترفع داريت جفنيها لتنظر إلى الكنة.
- لا تظني أنني لا أجد في البيت الفسيح من يسرح لي شعري. الخادومات يتنافسن على خدمتي. لا أريدهن، رائحة الباستا تفوح من أيديهن... يداك أنت تريحاني. ما إن تلمسيني حتى يرتاح قلبي... أه يا للراحة مشطي إلى الأسفل. مرري المشط على رقبتني! كم تسعديني. حماتي المسكينة كنت أقضي ليالي أفكر في أن أسبقها إلى خدمة المنزل... الزمن الصعب كان زمن كنا عرائس. أنتن الآن سعيدات. ما أكثر ما خدمنا وكشاشة الذباب بأيدينا!..

كانت مامرخان تضفر شعر داريت شعرة بشعرة ولكن داريت لم تكن تستطيع رغم ذلك إلا أن تتألم. من مدة إلى أخرى تشكو ألمها، وتنظر إلى زنار الكنة باستياء قائلة: ألم يحن الوقت لرفع هذه الحديدية المستديرة؟ رزقت من تزوجت معها بأكثر من صبي، ونحن جفت عيوننا من الانتظار. ألم يقولوا: عنزة ولود

خيرٌ من امرأة عاقر!..

يا صغيرتي خلعتِ شعري! احتدّت داريت. ليتك تحرصين عليّ. هل تخلعين شعر أملك كما تفعلين معي؟ لهذا يا صغيرتي يقولون: لا تطلب المعونة ممن لم تلده، وقومي بنفسك واشربي من الماء. لم يقل أحد أصدق من هذا الكلام. لم ترد مامرخان بكلمة على الحماة.

أتساءل لماذا ملؤوا فم هذه المخلوقة ماءً!.. قالت داريت. الناختوي عرق يعتد بنفسه. لا يشكون مهما آلمتهم. آه ليتني أمسكت بهذه، واقتطعت قطعة من لحمها!

تذكرت داريت ابن حاغور موسى الذي مروا به من أمام بيتها أمس. ألا ترى ابنة الكلب ولدت قبل أن تنزّوج!.. يناكدوني فيمرون بالصبي في شارعنا. خرب الله بيوتكم! كأني في البيت لا شاغل لي إلا ابن خنزيركم. هذه نتيجة الزواج من فتاة عانس. تحصل منها على من يكرهك. ما حاجتنا إلى خصرك الدقيق كدجاجة صلعاء؟ ألسنّ إذن من سينتكب آل شراًقوه على يديها؟ ألسنّ الطاعون الذي يفتل على أرض بيتهم؟ ألم تقطعي ذرية ابني الوسيم؟ أراك انقطع خصرك إن شاء الله!..

ماذا جرى لك اليوم يا كنة؟ تمرّقيني بحركاتك! - دفعت داريت كنتها مامرخان بقفا يدها في ظهرها. - يا مصيبي أي حديد على خصرك! ألم يحن الوقت لنزعها؟ كنائن القرية أطلقن بطونهن. وأنت مربّطة بالزنار.

- هل يقال مثل هذا يا حماقي؟ - احمرّ خدا مامرخان من الخجل.
- ما الذي لم يعجبك في كلامي؟ ألسنّ من قالت لك؟ أم عجوز آل مستنه؟
- تُحجليني يا حماة!

- إن كنت تخجلين فضعي حداً لحالتك هذه. ما كنت أريد أن أبلغ هذا المبلغ ولكن هل تظنين نفسك على طرف أرض بيت آل ناخوي؟ وضعت أسرة مهمة من الشابسغ أملها فيك. وأنت معنا منذ ستين كفتاة عزباء...

سالت الدموع على وجنتي مامرخان الحمراوي. ولكنها لم ترد بكلمة على حماتها.

لم يعد حاغور موسى عاملاً عند أسرة شرلأقوه بعد عودته من تركيا. كان بداد الفلاح الأكبر في الأسرة بعدما حلّ محل أخيه الأصغر. ولم يسأل أحد موسى عن سبب تركه العمل. ولو سألوه لم يكن ينوي أن يخطو خطوة نحوهم. كان بعضهم يحاولون أن يُحيلوا الموضوع إلى المؤتمر، ولكنهم حسبوا حساب الفلاحين، وخافوا أن يفشل مشروعهم، فسكتوا. ورغم هذا الموقف لم يكن حاغور يريد أن يعادي أحداً، ولكن آل شرلأقوه كانوا يعادونه. موسى وحده كان عدوهم، في حين ظل بداد صديقاً مخلصاً لهم. ولم يكن لشرلأقوه موقف عدائي من سائر إخوته. ومن طرف داريت كان موسى وأكوز هما من يتلقيان اللعنات. لم يكن علي سلطان يُظهر العداء أمام الفلاحين. وأعظم تعبير عن الاحتقار كان حين يلتقيان وحدهما. ولو استطاع لشقّ الأرض ودفنهم، بل أكثر من هذا.

لم يكن موسى يفهم وضع بداد مع آل شرلأقوه: لا هو عبد، ولا هو أجير. يقيم في الدار يكرر أوامر علي سلطان. وإذا سافروا أحياناً في مهمة اصطحبوه حارساً. جسد ضخم جدير بأن تعرضه على الناس. يجعلك مظهره صغيراً وإن لم تكن كذلك.

في السنوات القليلة الماضية استطاع موسى العثور على حصان آخر جيد. وقد نفعه في هذا زيش ومخوش. كانا اصطحباه من رحلتها إلى القبرتاي من أجل الخيل. وفي الدار ثوران ليعمل في الأراضي القليلة التي عنده. والخراف التي أُهديت إليه في عرسه تحولت إلى بركة حقيقية. - أنتجت توائم حتى ساهم في قطع القرية بثلاثين رأساً. والبقرة التي أنتجت حديثاً تحلبها أكوز في دلو كبير. وفي كل الأحوال هي أسرة متفاهمة، تستغرب القرية أن لا مشكلات فيها. وباختصار يتعايش الإخوة حاغور مرتاحين.

موسى راضٍ عن عيشته. يستطيع إعالة نفسه. ولا يُجوج الأسرة إلى شيء. ولكن ما لا يمنحه الراحة النفسية هو عيشة بداد. القرية تغبط الإخوة التسعة، في حين يقف هو على باب شرلأقوه طامعاً في أن يرموا له شيئاً. يخطر لموسى

أن يقول شيئاً لأخيه الأكبر ولكنه مَحَرَج من الأخ الأكبر. سيتعاديان كما حدث مرة قبل أعوام. لن يعتب عليك أحدٌ إن قاطعته إذا سمعت كيف تصرف حين جاء شراًقوه مع حسن مراد إلى عرس موسى يجادلون. وقبل أن ينتهي عرس موسى رآه الناس واقفاً إلى جانب باب شراًقوه. وليست رؤيته مشكلة بل تبرئته نفسه ملقياً باللوم على أخيه الأصغر.

ما العمل، قال موسى، مهما كان فقد ولدته أُمي. وهو الأكبر بين الإخوة. إن قلنا إن كلبنا مسعور لحق به الجميع. سنتحمله إن كان هناك أي أمل. وعلى رأي أُمنا ننصحها، ونكلمه بالحسنى. فإن لم يمتثل فلن تستطيع ثنيه بالكلام القاسي. ما الفائدة إن لم تستطع أُمنا تربيته بالكلام الجميل؟ اعرف ما الذي يجعله عالفاً بآل شراًقوه، في حين أن من يمر بسور دارهم يستعجل حتى يفارقه.

تغسل أكوز الثياب وراء مخزن الحبوب مشمرة عن ذراعيها. تسيل رغوة الصابون من الطست. والهواء الخفيف يجعل الأوراق المتساقطة تنهامس. ولأشين تجلس على مقعد صغير وفي حضنها عرائس ذرة تفرطها في حضنها.

- يا كنة، يا صغيرتي، يكفي، لا تستعجلي على الغسيل كثيراً. - قالت لأشين، - استرخي، تنفسي قليلاً، تتفانين في العمل. - لم تجهز الغداء بعد يا سيدة، - أجابت أكوز دون أن ترفع رأسها عن ماء الغسيل.

- وهل تحضير الغداء سهل؟ ليأكل الأولاد الباستا واللحم المجفف. اليوم تغسلين، لا يمكنك أن تعملي في عدة أعمال معاً.

الأم والزوجة حبستا موسى في الكوخ المطبخ، لا يعرف التخلص منهما. تظاهر بفتح باب الكوخ ولكنهما لم تشعرا. ولا يرى من اللائق أن ينادي أمه، وليس من المقبول أن يقف يحاججهما. فتح موسى الباب وتسلسل. فهمت أكوز أن الزوج محبوس في الكوخ. خرجت من وراء الخزان وماء الصابون يسيل من يديها.

- كأننا حبسنا الولد في الكوخ، - قالت لأشين ونهضت، - سأذهب وأشعل

نار الموقد.

دار موسى إلى حيث تغسل المرأة ومزح معها:

- ماذا تفعلين بإذن الله أيتها الحلوة العسلية العينين؛ لم نر وجهك منذ الصباح؟

سترانا الحماة، - التفتت أكوذ خفية إلى الرجل دون أن توقف الغسيل.

نظرت أكوذ في وجه موسى بعينين جميلتين متعبتين فلان قلبه تماماً. يريد أن يتوقف ولا يستطيع، مستعد لولا الخوف أن يتقدم ويعانقها. فهمت أكوذ الرغبة الدافئة في قلب الرجل فقابلته بالشعور نفسه، حكّت جبينها، دون أن تعرف السبب، بيد ملوثة بالصابون. وأبعدت الشعر المبتل من أمام عينيها.

في أحد الأيام، قُبيل المساء، فيما يجهز موسى معلقاً في أرض الدار، وقف تحوحوه نفاؤه أمامه. تقابل الصديقان كالعادة بمودة واشتياق. حاغور مشمر عن ذراعيه، ورغم الحرارة فطرفا البنطال محزومان بجوارب صوفية رقيقة. ويرتدي قبعة لبادية سوداء تشعر بأنها صغيرة على رأسه. والقميص مسدول على جانبيه.

- ماذا تفعل هذه الأيام يا حاغور بإذن الله؟

- أجهّز معلقاً للعجل الصغير، - ابتسم موسى.

- وهذا خير. يبدو من كلامك أن بقرتك أنتجت لكم عجلاً؟ بديهي أن تأتي مثل هذه الأفراح مع الأسرة الجديدة. - أخرج تحوحوه الكيس وجلس على الأرومة العتيقة، - مبروك إن شاء الله.

- حياك الله نفاؤه. وأنت إن شاء الله تتزوج ونخطب في عرسك. ولكن هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك: أنا آخذُ عليك أمراً، وكذلك أكوذ.

تغير لون الصديق على نحو ملحوظ عند سماعه اسم أكوذ. لا يزال الحزن الخفي الذي سرى في قلب تحوحوه حين سمع أن حاغور عاد مع أكوذ من تركيا إلى بلاد الأديغة على حاله. ومع أنه أخفى شعوره في العرس وغلب الصداقة على مشاعره فقد كان يصدف أن تطغى عليه الأفكار الحزينة. ومن كان يعرف الحب الخفي الذي يُكنّه لأكوذ هو موسى. وأكوذ نفسها كانت تحمّن هذا تحميناً حين كانت داريت تضطهداها ولا تعرف حقيقته. لم يفتح نفاؤه فمه

ويتكلم إلى أكوز بكلمة. وعاش على أمل اليوم أو غداً. ولم يقتصر الأمر على أكوز، بل لم يتصارع موسى ونبافؤه يوماً. وشيئاً فشيئاً اتضح لنبافؤه حب موسى لأكوز. وكان هذا ما وراء قوله لموسى يوم قُتل شرلاًقوه إنك لم تسأل عن أكوز، وسبب إبلاغه له بشأن مامرقوه وجماعته. لم يكن نبافؤه قادراً على نسيان أكوز وإن كان أمرها حُسم منذ زمن بعيد. كان يحملها في زاوية من القلب مخفية، يعرف أن لا أمل البتة فيها، ومع ذلك يحتفظ بها حلوة حلوة. ولذا لم يزر أسرة حاغور في ليلة سمر إلا أن يلتقي به في مناسبة فرح أو حزن أو في مضافات الفلاحين. والحق أن صداقتهما لم تنقطع بسبب زواج موسى من أكوز. وبقيت علاقتهما كما كانت يوماً من الأيام.

- أفهم يا موسى ما تريد أن تقوله. ومع ذلك لا أستطيع تسويغه. تعرف أنهم يقولون إن للفتاة مئة شاب يغازلونها. لم أفتح فمي ولم أقل لأكوز كلمة واحدة. كنت أعدّها، وإلى الآن، أختاً صغيرة. من هذه الناحية لكما الحق في عتبكما. الصراحة جارحة، والكذب لطيف. لا أهتم بهذا، ليتني لم أهتم بأخيك بداد كما لا أهتم بموضوعنا القديم. ينكد بداد علينا، نحن فلاحى شرلاًقوه، حياتنا. هو في وجهنا كل يوم كالكلب المسعور.

وضع موسى من يده العود الذي تناوله لما سمع باسم بداد. وتعرق جبينه مغلوباً بالحزن والإهانة. وتناول الغليون عاجزاً عن الوقوف. ولما أخرج الكيس الذي صنعتته أكوز تذكره نبافؤه، فمضّ من غليونه مخفياً انفعاله. ووقف أمامه، على سهوة منه، أخوه الأكبر بكتفيه العريضتين. قال موسى: أي مصيبة نحن فيها؟ يسيء إلى الفلاحين، ولم يبق في القرية غيرُ هذا الحديث. يتكلمون علينا في غيابنا وإن لم يصارحونا كما فعل نبافؤه. يدفعهم إلى أن يصفونا لأول مرة في باستوك بالغرباء. نحن، إن كنا قليلين أو كثيرين، تسعة إخوة التجأنا إلى أخواننا، ونعيش معهم. إن لم يحسب حسابنا فلماذا لا يحترم من ربانا؟ تذكر موسى أنهما بحثا قبل أعوام عن كنز مامرقوه المدفون في الغابة. وانتصب أمامه سلوك بداد حين رأى الذهب أمامه. وإلى الآن لا يأتي على سيرة الحصص التي طلب منه إيصالها لأصحابها. ولا أرى من المناسب أن أسأل أُمي ونبافؤه عما

إذا كان أعطاها نصيبتها. لم يعطهما، لو كان قد فعل لأبلغني. كيف أشيء عن أخي الأكبر أنه لص!.. أنتظر من بداد أن يلمح إلى الموضوع. انتظر إذن!.. إنه يتمنى ألا يفتح معه أحد الموضوع. إذا وصل بك الأمر يا أخي الكبير إلى هذا فساأصارك. قبعة السارق تشير إليه، وهذا السبب في أنه لا يسمح لي أن أنظر في وجهه. يجد أكثر من ذريعة كي لا يقف حيث أنا. هل أغادر القرية وأعود إلى مسقط رأسي؟ وإن فعلت فماذا سيكون مصير إخوتي الأصغر مني؟ الأحسن سهل دائماً، والأسوأ صعب أن تجد منه مخرجاً. لن أستطيع أن أفعل هذا!..

- والله لا أعرف يا نبافؤه ما أقول لك بشأن بداد. - تخلص موسى من أفكاره الصعبة، - تعبت من سلوك أخي. لا حلّ عندي إلا أن أرجو من أكجكوه أنزور أن يكلمه.

- وهل تظن أن أكجكوه أفضل من بداد؟

- أليس أفندياً وإن لم يكن أفضل؟

- أليس مربوطاً مع بداد إلى عربة آل شرلأقوه وإن كان أفندياً؟ بداد ينبح وأكجكوه يدعو إلى الله... رأي الفلاح أرسى صائب حين يقول: لا يجوز العيش في العالم الذي يعيش فيه هؤلاء.

صدر صوت باب من جهة البيت، نظر تحخوخوه وحاغور، أشارت أكوز من المسطبة.

لا بد أن الغداء جاهز، - تعال يا نبافؤه، مضى كثير من الزمان لم تذق فيه من مائدة أكوز.

- والله أنت على حق يا حاغور، - قال نبافؤه وقد أنسته من أشارت بيدها من المسطبة، - مضى الكثير، الكثير...

-4-

تطل شمس أوائل الخريف على باستوك بعين عطوف. تتساقط أوراق الأشجار ملتفة على نفسها بسبب غياب الريح. وإلى جانب السور يتسابق لاعبو

الكعوب على إصابة الأهداف. وتطير رقاقة العصا في لعبة "الباي". ويدورون البلابل. وإذا دقت السمع حُيِّل إليك أن ليس في القرية إلا الصبيان.

خرج الأفندي أكجكوه من البيت لا يُطبق البقاء فيه. ألقى عبر باب الدار نظرة ثقيلة إلى جبال البجدوغ. لا يظهر فارس ولا راجل ولا عربة. قال لنفسه: أظنه خدعنا، ننتظره منذ ثلاثة أيام حتى تكاد عيوننا تجفّ. إن لم يصل اليوم فسأرسل وراءه مرة أخرى. نظر إلى مصدر الضجيج جهة نهر إيل فرأى نطار يلعب بين الصبيان لعبة الكعوب. ليس بين من يلاعبهم أحد من جيله، فيرتفع رأسه من بينهم. لم يتقبل أنزور سلوك ابنه. أليس من العيب لمن يرانا؛ هل درس في القرم عبثاً؟ أيها الولد التعيس نصحتك حتى جفّ لعابي، تبثّ وأتعبتُك!.. وتذكّر أنه كتب بخطه على صفحة القرآن. لا يتذكر أنه كلّم ابنه بمثل هذه القسوة. من حظنا أن أحداً من الفلاحين لم يره. كنا سمعنا ما لا حاجة لنا به، حتى من دون آل شزلأقوه. وربما كانوا طردونا من القرية. كيف يمكن أيها البائس أن تقلّد القرآن بلغة الأديغة!.. لغتنا لا تتسع له!.. نحن في حماية الله، لا تُسمع أحداً هذا الكلام!. لا يجوز أن يبقى أكثر من هذا بين صبيان الفلاحين. إن أرسلته إلى إستانبول اكتسب العقل فيها. ليتظاهر بالبكاء إن شاء، هذا العرق، عرقنا، خلق لهذه المهمة.

كان أكجكوه قد توجه من الحديقة إلى الشارع ليستدعي نطار من بين أولاد الفلاحين، غير أنه لم يكمل طريقه. لماذا عليّ أن أظل في مراقبته؟ لا أنفك عن تعنيفه حتى كأني لم ألدّه؟ اعتدت على قسوة الكلام. لتحلّ أمّه مكاني قليلاً!.. ليس ابني وحدي. إن قسوتُ عليه لاطفئته أمه. أصبح الولد يرى فيّ عدواً.

ظهر الفلاح حنانا من وراء السور متعثراً كالشبح. بقي أنزور في الساحة لا يعرف أين يضع رأسه: لم يكن يريد أن يلتقي بحنانا. كرهه من الجامع لأسئلته التي لا تنتهي. إن كان تحت نظري فوجهه نحو الله، ومتى أدار ظهره فهو يطوّع الفلاحين، دون أن يلمح قطعة لحم الخروف التي يُطعمنا إياها الأغنياء، قائلاً:

ليحرم الله من الصحة من أسقط اللحم السمين من أفواهنا!..¹ أيها الولد البائس ألم يكن بإمكانك ألا يراك حنانا في المرة الوحيدة التي تلعب فيها الكعوب؟ سينحُلنا بمنخله الواسع الثقوب غداً في القرية. يبلغ من لا يعرف، ويزيد لمن يعرف.

- سلام عليكم يا أفندي، - ألقى حنانا التحية.
- وعليكم السلام، - ردّ أنزور، وابتسم في وجه الفلاح ممتعضاً. تفضل حنانا، أنت ضيف.

- لا أعرف إن كنت ضيفاً، يقال إن ضيف الصباح يحظى بالقشدة. توقف حنانا مسروراً بلقاء الأفندي. ولكنّ من وراء السور لم يكن يريده البتة. ماذا يستطيع؟ أينغاضى عن التقاليد جهاراً؟

- يمكن أن تجد في بيتنا قشدة جاموس أيضاً يا حنانا. لا تُسمع من في بيتنا هذا الكلام. ثم أضاف متجاهلاً عدم دعوته صراحة، - أظنك وراء مهمة ... ما.

- والله يا أفندي لا أتابع قضية مهمة. نعيش حياتنا نسعى وراء أمر ما. أذهب إلى أصدقائي، أريد أن آتي من الغابة ببعض الحطب. أحتاج إلى ثور قرين. هذا الشتاء بقينا بلا حطب فلم تبخل علي العجوز بالتقريع. أمضيت الشتاء دون أن أحس بالبرد بفضل كلامها وبكائها. أليس ممتعاً يا أفندي أن تجلس إلى نار الموقد، وعجوزك إلى جانبك، تفكر في العدم، ليس عندنا هذا، وهذا يحتاج إلى ترقيع، وهذا إلى... وأحياناً تغضب فتبعثر جمر الموقد، لا أعرف رأيك ولكن هذا يسرني جداً. يا ربي، حانت شيخوختنا؛ هل نجد في الآخرة التي نتحدث عنها شيئاً مما ليس عندنا هنا؟ حين أقول لها هذا القول تعتني بي العجوز من جهة الطعام، إن استطاعت لا تريدني أن أذهب إلى الآخرة. هذا سبب قولهم: المرأة عدوّ. وما سأضيفه إلى هذا شيء آخر: المرأة المتصنعة تخدع الرجل.

¹ العبارة كعبارات كثيرة في الأقوال المأثورة، تعتمد على الجنس وتهتم به أكثر مما تهتم بالمعنى الحرفي.

- ولكني أعرف ما أفعل بالعجوز التي تُهلكني بالعمل...
- ماذا ستفعل؟ - سأل أكلجكوه الفلاح اعتباطاً، قائلاً في نفسه: هذا الرجل لا يتفوه إلا بالحقاقات.
- أعرف ما أفعل بها لولا تحرُّجي أمامك.
- وما شأني أنا بالموضوع؟
- وكيف لا شأن لك؟ - استغرب حنانا رافعاً حاجبيه الرقيقين، - كنت في الشابسغ يوماً... حسناً لن أفعل بالعجوز سوءاً كرمي لك، سأعتبر نفسي تحللت من النذر الذي نذرت أن أفعله بالعجوز، مثل ما فعل فارس الجمكوي بالأبزاخ.
- وماذا فعل فارس الجمكوي بالأبزاخ؟
- فارس من الجمكوي، - ضحك حنانا، - ذهب إلى الأبزاخ ضعيفاً. سرق الأولاد بطانة سرج حصانه. ظلّ يردد: "سرقوا بطانة السرج ولكني أعرف ما أفعل بهم" قالوا: "ما فعله الأولاد الأشرار عيب. يجب أن نفعل شيئاً وإلا أذانا هذا الرجل". اهتموا بالموضوع حتى وجدوا له البطانة. ثم قالوا له: "أيها الضيف، جرى ما جرى، وهذا ليس غريباً... قل لنا الآن ماذا كنت تنوي أن تفعل؟" قال: "كنت أنوي أن أتخذ من سترتي بطانة وأعود". وكذلك سأجود على عجوزي بالحطب هذا الشتاء. كلما شكت من قلته وضعتُ لها قطعة في النار.
- يا حنانا، - لم يملك أنزور نفسه أن ضحك، - أنظر إليك فأتعجب. ستعيش مئة عام أخرى. لا تعرف اليأس. ولا أذكر أنك حزنت يوماً. أغبطك يا حنانا.
- لماذا تغطني يا أكلجكوه؟ عندك ما ليس عندي بفضل الله. وما عندك ليس عندي. ثم هل تعرف يا أفندي ما سأقول لك؟ مَنْ كيسه مملوء هو الجدير باليأس. يفني نفسه حرصاً على ماله. لن تعيش بإذن الله أقل مني. إذا كان هذا الولد الكبير الذي يلعب بالكعوب سندك فلا تيأس. لم تلد لي العجوز مثله، ومع ذلك لا نياس.

- هل تقصد نظار؟ - نظر أكلجكوه نحو نظار مخفياً استيائه مما كان توقّعه،
- ألا تذكر كيف كنا في زمانكم تتبعكم، نحمل لكم الكعوب، ويمكن أن
تصفعوننا أحياناً. أقول: أعارض من في بيتي قائلاً لها: ليلعب ما دام شاباً!..
ماذا في الحياة أسعد من الشباب؟.. نحن ماذا شهدنا، وماذا يمكن أن نروي من
حياتنا!..

- ليس إلى هذا الحد يا أفندي. شهدنا كثيراً مما يمكن أن نرويه. لم نعش
كالمتنفذين نلهث وراء المال. لم نسلب أحداً لقمته إن لم يسلبونا. أما قولك:
كنتم تصفعوننا فلا أتذكر. مضى عهد الشباب وأنا أحمل حبل الثور القائد
بيدي. ربما تخلط بيني وبين أحد المتنفذين. أتذكر أنك كنت تحب الجري وراء
هؤلاء... عطّلثك عن عملك كثيراً يا أفندي، سأتابع إلى رفاقي.

تابع أكلجكوه وهو يلوم نفسه الفلاح الذي انصرف. أيُّ لعنة حملتني على أن
أحادثك؟! لم تقصّر معي. ربما من قيل فيه: إن تمد يدك إلى الأرقطيون¹ علق
بيدك، واحد مثلي. نظر الأفندي إلى حيث ابنته، ثم نظر غاضباً إلى باب
البيت. خرجت مريم وببيدها صحن الذرة الذي فرطته، ونادت الدجاجات.
- أنت يا هذه! - نادى الأفندي زوجته. - أنت، أنت!.. الأفضل أن
تستدعي ابنك من بين لاعبي الكعوب بدلاً من مناداة الدجاجات. يلعب مع
الصغار كمعجل كبير.

- يا نظار، يا صغيري، تعال إلى هنا!.. - تقدمت مريم قليلاً والدجاجات
وراءها، ونادت ابنها.

ترك أنزور من كان ينتظره من جهة مرتفع البجدوغ، وتوجه إلى الجامع رغم أن
الوقت ما يزال باكراً. حالما وضع رجله على جلد الماعز وقف بعض الوقت
يتمتم، يريد أن يقول إنه واقف أمام الله. ثم جلس والمصحف المفتوح في
حضنه، وبدأ يقرأ السورة. وبعدما مر بعينيه على بضع صفحات صدر صوت
من جهة الباب. نظر فإذا بالرجلين اللذين ينتظرهما إلى جانب الباب: أحدهما

¹ جنس نباتي من فصيلة النجميات، له أزهار شوكية تعلق عند جفافها بما تمسّه.

ضخم جداً، والآخر يكاد يصل إلى حزامه.

شاع في القرية خبرُ مجيء المطهرين فهبت الريح وكنست لاعبي الكعوب ولاعي البري، كأنّ ليس في باستوك صبيان. وتوقف نباح الكلاب وصهيل الخيول كأنّها أحست بخطر ما. وبعد وصول الفارسين بقليل تتابع بكاء الصبيان في القرية.

شرع المطهران في عملهما دون أن يعبأ ببكاء الصبيان الذي اعتادا عليه. يفتحان صندوقاً كان معلقاً بجدار الجامع، وفيه عدة مشارط للحلاقة في الأصل. وأشعلا ضوء مصباح الدهن. وفي مكان ما المسنّ الجلدي.

يؤتى بصبيين يتشبّهان بجدران الشارع. وصبي ثالث يُعول في الحي الذي يقع فيه الجامع. وصبي حاغور بداد يركض إلى جانبه موعوداً برؤية شيء عجيب. سمع بكاء من سبقوه من الصبيان، فنظر باتجاه الصوت ثم تسمّر مكانه.

- تعال يا ولد، تعال. نحن لسنا مثل أولئك الجبناء، - قال بداد للصبي ذي الأعوام السبعة، - سينظر إلى "حمامتك" ويصرفك... ما أسرع ما تبكي يا "سالي"!.. أأنت رجلاً يا حاغور؟

كان سالي أول الواصلين. قال الرجل الضخم للصبي وهو يوقفه بين فخذيه:

- أين هو حمامتك دعني أراها... - وغرز السكينة الحادة في الطرف.
- هذا صار الآن مسلماً حقيقياً. - قال أكجكوه دون اهتمام بعويل الطفل.
لم يطل عمل المطهرين أكثر من نصف ساعة، يرتفع صراخ الأطفال وينقطع.
- لم يصحّ توقّع أنزور. وبعدها وقف مدة لا يأتي صبي جديد، سأل ظاهراً استياؤه:

- ألم يبق في باستوك صبيان؟

- وكيف يبقى يا أفندي وابنك هرب بعدد من الأولاد إلى الغابة؟.. - عرّض به أحد الواقفين.

ربما لم يحدث ان اجتمع الإخوة حاغور التسعة في مكان واحد: دون بداد يفيق الثمانية الآخرون، فتضيق بهم الدار. ولكن أكثرهم لم يكونوا ييقون معاً في الدار - اثنان إلى الفلاحة، واثنان إلى الغابة لجلب الحطب، والاثنان الآخران؛ كانا يجدان ما يستطيعان فعله؛ وهل الأعمال قليلة في موسم العمل؟ أيّ عمل يقومون به كانوا يزاولونه كل اثنين أو ثلاثة معاً. ومن كان في مشكلة هو رشيد. كان أصغرهم فيسقط من جدول الكبار. ولكنه لم يكن يتخلف عنهم قدر الإمكان.

وفي المساء كان نادراً أن يجتمع الإخوة. يتفرقون بحجة أنهم يذهبون للقاء أصدقائهم. إن كنت شاباً عازباً اعتمدت على الأصدقاء أكثر. تروي للأصدقاء ما لا ترويه للإخوة في شأن الفتيات. وإن اجتمعوا بالمصادفة في إحدى المضافات كان الأخ الأصغر يترك المضافة أو يقف إلى جانب الباب بعيداً عن الأخ الأكبر.

لم تكن الدنيا تتسع للاثنين حين يجتمع عندها الإخوة. والليلة إحدى الليالي التي تفرح فيها لاشين. دخل إليها الإخوة مثنى وثلاث كأهم توافقوا. كان بداد الغائب الوحيد.

- يا قاسم، يا ولد، اذهب واستدع بداد. - قالت لاشين لابنها الأوسط. - الولد التعيس حين فصلناه أسكنناه في مكان بعيد دون أن نفكر. ماذا كان يضيرنا لو أسكنناه في طرف ذلك البستان القريب! الفلاح حنانا رجل حكيم رغم اتهامه بالثرثرة، رجل لبيب. كان عليّ سماع نصيحته؛ قال لي لا تبعد الإخوة بعضهم عن بعض، فتشترهم في أنحاء القرية. دعيهم يسكنون حولك.

- ألن نشاق إلى بعضنا أكثر إن كنا بعيدين يا أمنا؟ - قال لاقه. - لا تبدأ، لا تبدأ! - لم تقبل لاشين، - أعرف نيتك، لن يخرج أحد من الدار. ستعيشون، الإخوة، وأبواب بيوتكم متقابلة والدار واحدة، وقدوركم مستقلة. يا لشوق بداد إليكم!.. لم أره من وقت قطاف الفاصولياء. ولا أعرف أين هو.

- واقف على باب شرلأقوه، - غمغم كريم.

- ألا تقول: جالس! - وافق صبح أخاه الأكبر.

- اتركوا بداد في حاله، - لم يقبل حبّج.

- نعم يا صغيري، نعم. - سُرّت لاشين بكلام حبّج، - بداد أكبر آل حاغور. لا تجادلوه بلا ضرورة. ستسقطون من أعين من يسمعونكم. إن كانت عندك سُلطة في البيت احترمك الناس. لا أظن بداد كما نصّفه تماماً. ورث بعض طباع المرحوم خالي. قائمة البقرة لا تقتل عجلاً، وإن كان يجرح مشاعركم أحياناً. أنتم لا تجرحوا شعوره، هو الأكبر، تحملوه معاً.

- وإن تفوّه بالحقائق؟ - تدخل نقار الذي لم يقل شيئاً إلى الآن، - أنا لا أتحمّلها، عليه أن يؤيد الفلاحين، لا أن يميز نفسه منهم. ليتك سمعت يا أمي تعليقات الفلاحين الكثيرة على بداد!..

- كفى يا ولد، كفى، - امتلأت لاشين حزناً، ونظرت نحو نقار، - عجيب أنك أنت أيضاً تؤيد إخوتك... هو مثلكم تماماً، خرج من رحمي...

كان موسى يؤدّ التدخل في موضوع النقاش غير أن كلمات أمه الأخيرة لجمته. إنه متى تكلم تكلم دون اعتبار الأكبر والأصغر، فلماذا يجرح قلب أمه؟ يكفي ما عند أمنا مما يؤلم القلب. لا تجهل حال بداد وإن كان إخوته يهيمونها أيضاً. تعرف حسنات كلّ منهم وعبوبه. وأكبرهم نشأ على صدرها، ومهما كان عمره يبقى طفلاً في نظرها. تعيش عمرها وآلامهم آلامها. هذا لم يبدأ مع لاشين ولن ينتهي معها. هذا مصير كل الأمهات، أو مررن بها. عملهُ بواباً لآل شرلأقوه لم يعد يهمني، قال موسى، سيضجر يوماً، يتخلى عنهم. وإن لم يحدث هذا فسيدفعونه ويتخلصون منه. أصعب ما في طبعه شرهه. لماذا حجب عن أمنا القليل الذي أوصيت لها به؟ الثقة تساوي أملاك العالم. حسناً، اعتبره لم يدفع لتخوخوه، لو كان فعل لأخبرني تخوخوه لأخبرني بطريقة ما. لا أعرف كيف أسمى إخفاء الأمانة عن أمك وإخوتك!..

دخل بداد بكل ضخامته إلى الغرفة فنهض له إخوته. وقام موسى من مجلسه وأعطاه الصدارة، وتوجه إلى حيث كان يجلس كريم. وقف كريم حيث كان

حجب. ينتظرون بعدما أخذ كلٌّ مكانه، ما سيقول الكبير.

- إجلسوا! - قال لإخوته بعدما استراح في مجلسه، ولكن لم يجلس غيرُ موسى ممن يحق له الجلوس. - والله اجتمعتم جمعة كبيرة يا أمنا. ليس في مضافة شرلأقوه مثل هذا العدد.

لم يُسرّ الجميع، بدءاً من لاشين وانتهاءً بالإخوة، بتطرق بداد إلى آل شرلأقوه ولم يجلس بعدُ. قالت لاشين: ألا تكفّ أيها المسكين عن سيرة أولئك المتنغذين؛ قطع الله ذكرهم!.. سيكرهك إخوتك لهذا السلوك. وأنا من عندي أصب الماء على غضبهم.

- نعم يا صغيري، اجتمع الأولاد فأرسلوا وراءك يودون رؤيتك. - قالت لاشين وهي تتفحص أبناءها، تريد أن تقطع حديث شرلأقوه الذي بدأه بداد. - إخوتك الصغار يشناقون إليك. طبخت العروس فاصولياء باللبن فدعوناها لاحتسائه. يا كنة، هاتي مائدة لبداد. - نادت لاشين نحو المطبخ.

- هل قلتِ فاصولياء باللبن؟ - فرح بداد، - والله أنا جائع يا أمنا. توقعت أن يُحضر آل شرلأقوه مائدة، ولكن لا أعرف ماذا جرى لهم. الليلة فقراء جداً بالطعام، حتى ليبخلون برائحتهم. مقاي جالس في صدر موقدهم يتلمظ. والله، حقاً مقاي شرير، ولكنه جلب لهم فتاة صغيرة قد تبلغ ثلاثة عشر عاماً. أظنها من سلالة أمراء أو نبلاء. والأرجح أنه جاء بها من القبرتاي. تتكلم بلهجتهم. سألتُ من أي جهة جاءت فقيل لي: إن تعرف الكثير يكبر ذكاؤك!..

لم تكن أكوز تظهر في حضرة أخي زوجها الأكبر، فلما انفتح باب المطبخ قام لاقه وتناول منها الطعام.

- يا صغيري، يا ولد، - قالت لاشين بعد قليل، - لا تتخذ من النبيل مقاي صاحباً. أتوسل إليك باسم الحليب الذي رضعته من صدري. من يعملُ مع الشرير مثلُ من يجلس في الرماد. لم يلق أحدٌ خيراً من هذا الرجل.

- نعم يا أمنا، وهل أتخذ من هذا المجنون صاحباً!.. - قال بداد وهو يغرف من الحساء، - منذ زمن بعيد يود أن يتخذ مني صديقاً، ولكنني أغلقت الباب في وجهه. يقول لي: أشبهك بمارقوه في ضخامتك. أنت صاحب قوة جسدية

كبيرة.

- لا سمح الله!.. - جزعت لاشين.

- ألا يزال متعلقاً بمامرقوه؟ - لم يملك موسى إلا أن يسأل.

- ييكيه متهماً جماعة جمكوي زيش بقتله.

- لبيك نفسه أفضل من أن ييكى على مامرقوه، أمامه المصير نفسه.

- لم أر فيه مثل هذا الحزن.

- سترى فيه قريباً وإن لم تره.

- إياك أن تقترف حماقة ما!..

- ولماذا أفعل؟

- من إذن؟

كانت لاشين تعرف أن مناكفات الأخوين لا تنتهي على خير فخافت. لا

تسمع هذا الكلام لأول مرة. تتذكر أن المتنفذين جعلوا منها قضية وتخاصموا.

لماذا تسمح لولديها أن يختلفا أمام إخوتهم الأصاغر؟

- يا صغيري، ليس من مهامنا ترتيب أمور النبلاء. الأفضل من هذا أن تطلبوا

من كريم أن يروي لنا حكاية. لا تعكروا علاقاتكم من أجل نبيل شرير خبيث.

لو استمع والدكم المرحوم إليّ لعاش بينكم سعيداً. نكب نفسه بعلاقاته مع

المتنفذين، وترككم أنتم بلا قيم عليكم.

- كان والدنا وحيداً، أما نحن فتسعة إخوة. - قال بداد وهو يُعيد المائدة، نظر

الإخوة إلى والدتهم مستغربين ما يسمعون. ونظر بعضهم إلى بعض. - إذا كان

الخنجر بحدّين فنحن أيضاً لسنا وحيدين... كلام أمنا صحيح. هيا يا كريم

أسمِئنا قصة جيدة!..

سهر الإخوة معاً الليل كله دون أدنى خلاف. ورووا الحكايات والأخبار

والألغاز. وحبج الذي ما كان يفتح فمه في يوم وليلة أطلقوا لسانه، فروى لهم

حكاية.

شيع موسى أخاه بداد إلى باب الدار. الليل مقمر صاف حتى لتجد الإبرة إن

سقطت منك. وفي السماء تتلامع النجوم. وفي البعيد، جهة الجامع، يصبح

ديك.

- سيكون الغد نهاراً جميلاً، - قال بداد.

- هذا ما تقوله السماء، نظر موسى إلى السماء، ثم قرر وهو يهم بالخروج من الباب أن يفاتحه بالموضوع الذي في ذهنه طوال السهرة، قائلاً: لن تتكرر مثل هذه الفرصة. - يا بداد أود أن أسألك في موضوع ما: ماذا جرى لما طلبت منك قبل أعوام أن توصله لأمناء؟

كان بداد مستعداً للسؤال منذ وقت طويل:

- والله أحسنت يا أخي بالسؤال... أنا كنت مهموماً في السنوات القليلة الماضية لا أعرف كيف أقول. جرى معي شيء مؤسف يا موسى. ما أعطيتني إياه، صحيح ما يقال عن سرقة البومة، بعد انصرافك بأيام لم أجد الذهب في الزريبة. راقبني شخص بلا إيمان، ونهني. لم أخبر أحداً. والعادة ألا يأتوا على سيرة مثل هذا الموضوع... هل أخبرت أمناء؟

- لا، أمناء لا تعرف شيئاً.

- لا بأس إذن... لماذا نوقع أمناء في مشكلة، أمورك سارت كما نريد نحن. - نصر الله حظنا على حظوظ الجميع... لماذا لم تأت في ذلك اليوم بالولد دَمَر؟

- والله لا أعرف كيف تسير الأمور، - تجنب موسى السؤال.

- كان من المفروض أن يأتي المطهران ثانيةً. خذ الصبي إن كنت مسلماً. عليك أن تمارس الإسلام... تصبحون على خير يا أخي، - حاذى بداد الشارع، ثم انصرف.

-6-

- يا ولد، لم أعرف قطُّ أنك ستتصرف معي هكذا.

- لماذا يا والدنا تملأ قلبك باليأس؟

- لأنك تعطي الفرصة للفلاحين أن يقولوا: الأفندي أكجكوه لا يعرف تربية ولده.

- وماذا فعلت حتى تقول إني لا أسمع الكلمة؟

- ألم تكن تعرف بقدوم المطهرين؟

- كنت أعرف.

- وماذا إذن؟

أطرق نطار برأسه، ولم يقل شيئاً. ما كان يريد أن يحدث والده في هذا الموضوع. مضت بضعة أيام وهو يتمنى ألا يبدأ والده، غير أن أمنيته لم تتحقق. لا يتذكر نطار والده غاضباً كما اليوم. يحاول أن يجعل صوته عادياً، غير أن سحنه العابسة تنطق. الإهانة التي لم يتوقعها من ابنه هذلت كتفيه. لماذا افتتح والدنا هذا الموضوع؟ لا حاجة له ولا لي إليه. لم أر أفندياً يقلقه الإسلام كما والدي. يأتي بالمطهرين من البجدوغ. الأفضل من هذا أن تتكلم في الجامع عن ضرورة العلاقات الودية بين الناس. ليتك كاشفت آل شرلاقوه بأسلوبك العذب ليغيروا سلوكهم. لهذا يقولون: لا يعرف الناس، أحدهم نوايا الآخر، دون أن يتكلموا. داريت من جهتها لا توفر أحداً كأشرس الرجال. تحرض ابنها الأحمق بدلاً من أن تقيده بالرسن، وتطلقه من البيت.

- يا والدنا، لا تؤاخذني، لا أوافقك على طريقة ممارستك للدين.

- ماذا رأيت فيها حتى لا تعجبك يا ولد؟

- أود أن أرى قلبك موجهاً للفلاحين أكثر.

- لا أعرف لماذا تقول هذا يا ولد. - هوى كلام الولد بصوت أنزور. - هل كنت أتقدم الفلاحين إلى وجه الله لو لم يكن قلبي إليهم؟ الله العظيم الذي يتوسل إليه الجميع، ولا يطلب العون من أحد لن يقبل كلامك إن سمعه.

- وكيف لي أن أعرف إن سمعه؟

- ماذا؟ ماذا أسمع؟ - أسرع أكجكوه بالسؤال المرتعب. ماذا قلت حتى دخل الشك إلى قلبك؟ هيا، أسرع بالوضوء، ودعنا نقف أمام الله!.. لنركع أمامه!.. لماذا لا تزال واقفاً؟ ألم تسمع كلامي؟

- لا يا والدي. لا أعرف من نفسي أنني قلت ما لا يجوز. - نظر نطار في وجه والده بوجه صافٍ لا أثر للقلق فيه. ومال إلى جهة الباب للخروج.

- أين تذهب؟ هيا، ارجع!..

- سأعود كرمى لك، ولكني لن أغيّر موقفى.
- وهل لك ألا تغير قبل أن تولد!.. بأي وجه أقف أمام الفلاحين باسم الله العلي العظيم. ابني قطع رأسي بسيف مثلوم... لا أعرف إلا أن أصبح: يا لمصيتي!.. - وقف أنزور محمر الجسد على أرض الغرفة. - يا مبارك النسل، ألا يمكنك أن تراعي حال والدك الأفندي إن لم يردعك شيء؟ أي عار كبير خرج من فمك في حضرة الله العظيم!.. أعرف من الذي يوحى لك بهذه الأقوال. الجن الشعراء الذين في صدرك. لا تُسمعني بعد الآن شعراً من فمك!.. يا إلهي لا تصدّق ما خرج من فم الولد. هذه أشعار الجن!..
- لا تقل هذا يا والدنا!
- ألحان جنّ!..
- ما قيل بلسان الأديغة ليس مقامات جنّ. إنما هي أشعار من وحي القلب.
- توقف أنزور وسط أرض الغرفة ونظر إلى ابنه. لم تر العينان اللتان غيمهما الغضب شيئاً. يتعد قلبه عنه وهو غارق في الضباب الخفيف. وقف قليلاً لا يدري أيسرع بالإمساك به. ثم يئس القلب مدفوعاً بغياب المساعدة. وفي الحال تذكّر الزوجة، فصاح بلا وعي:
- أنت، أين أنت!.. - ألا تسمعين أقوال ابنك؟!
- لم تكن المرأة بعيدة، مريم على الباب جاء بها صوت الرجلين اللذين في البيت، لا تدري أتدخل أم لا.
- ماذا جرى لكما أنتما؟ - تفحصت مريم الزوج والولد.
- لا تسأليني في هذا بل أسألي ابنك عديم التربية. - مال الرجل بغضبه على الزوجة أكثر من الولد. - من لم يربّوه في القرم يريد أن يربينا نحن!.. يستقبح ما أفعله، ولا يراني جديراً بالثقة.
- يا ولد هل يقال للأب مثل هذا؟
- أنا لم أقل لوالدنا أي كلام غير صائب.
- وما يزل يتكلم!.. - جحظ أنزور بعينيه لابنه. ثم التفت إلى الزوجة وقال لها بصوت ألطف: - هيا اذهبي وهاتي لي ماء وضوء. عليّ أن أستغفر لذنب

الولد أمام الله.

- أنا حان موعد ذهابي إلى المدرسة يا والدنا. سينتظرونني.
- اذهب إذن!.. قف في حضرة الله طالباً العفو، توسّل إليه. ولا تعلّم التلاميذ أشعارك الجنّية فنصبخ مُضغّة في أفواه الناس. يا مبارك النسل، ماذا يمنعك من أن تطيّب خاطري في هذا العالم القبيح؟ ألا يمكن ألا تُضاف أنت أيضاً إلى الكثيرين الذين يصدعون رؤوسنا؟ حنانا الفلاح وحده يكفي.

مضت عدة أيام والأب والابن يتبادلان النظر ولا يتبادلان. يلتقيان في البيت وفي الدار. لم يكونا يتعمدان الوقوف جنباً إلى جنب للحديث، إلا أن يلتقيا في الدار فيتبادلان بضع كلمات في شؤون الأسرة. وفيما هما في هذه الحال سافر الأفندي إلى الناخووي. ولم تنس الأم الأيام الماضية الثقيلة. صعب عليها الخلاف غير المتوقع بين الأب والابن. ولم يُطلعها الزوج على حقيقة سبب الخلاف، بدأ به، ثم تركه إلى موضوعات أخرى. قالت مريم: لا بأس ألا يخبرني؛ لماذا أتدخل في قضايا الرجال؟ وقد يكون سراً. والرجال، ولو أنهم يلبسون قبعات، لا يختلفون كثيراً عن النساء. يعيشون في أسرار لا نهاية لها. أقول هذا ولكن هل أنا غريبة؟ ماذا عندهم يكتمونه عني؟ إن لم يصارحاني به فمن يصارحان؟ قررت مريم أن تسأل ابنها ولم يمض بعد نصف ساعة. توجهت إلى الباب، ونظرت إلى الشارع، تنتظر دقيقة بدقيقة عودة ابنها.

لم تفتح مريم ابنها بالسؤال راغبة في ألا تفسد عليه غداه. ولم تستطع بعدما رفعت المائدة. كان نطار طلق الوجه خلافاً للأيام الماضية: يُشعّ الفرحة من حركاته ونظراته وسلوكه، فلماذا تقلب مزاجه بالسؤال؟

- أليس اليوم جميلاً يا أمنا؟

- نعم يا صغيري، نزل الجمد من السماء، فتوقعت أن يكون النهار جميلاً.

- وهل الجمد علامة على نهار جميل؟

- لا أعرف، كان والدي المرحوم يقول هذا.

- وأنا كنت فكرت في العلاقة بين الجمد والجو الجميل... ألا تأتيك أوقات كأنك تطيرين فيها؟ ألا تشعرين بنفسك ستطيرين إلى السماء

- يا صغيري، يا ولدي، - سألت مريم مرتعبة مما تسمع، - لماذا تقول هذا؟
لست غراباً فتطير؟..

- لا يحتاج هذا إلى أن يكون المرء غراباً يا أُمنا - استغرب نطار عدم فهم الأم
لكلامه، - ألا يحدث أن يصبح قلبك خفيفاً؟

- وكيف لا يحدث؟ ها أنا سعيدة لأنك سعيد... من أين آتي بفرحة أعظم
منك؟ أنت يا صغيري سبب حياتي.

- اسمعي هذا يا أُمنا إذن، - ضحكت عينا نطار من داخل محجريهما، وخطرَ
الصباح للذهن، فقرأ الشعر الذي ألفه:

الشمس تشرق، أنظر إلى الأعلى،

تبدو في السماء كتفاحة برية.

- يا صغيري، ما هذا الذي قلته؟ - سألت مريم ثانية مستغربة، وخائفة معاً. -
كرّرها إن لم تنسها!..

ساد وجه نطار مزيداً من الفرح. وحُيِّل لمريم أن وجهه يشع بأشعة الشمس
الدافئة. لا تتذكر منذ متى لم تر ابنها يمثل هذا الوجه. يطل من عينيه ذكاء
دافئ، ولا تعرف المصدر البعيد للشعر. كرر نطار المقطوعة.

- وأنا لا أعرف يا أُمي. قلبي يحدثني.

- ماذا قلت؟ "تبدو في السماء كتفاحة برية"؟ كررت مريم سطرًا من شعر ابنها
وهي تحدّث نفسها متفكرة.

- نعم يا أُمنا، "... كتفاحة برية" - أسرع نطار: الشمس التي هي مثلُ
التفاحة. تشرق في الصباح، وتغرب في المساء وراء جبل بيباو حمراء، غير أنها في
الظهيرة مستديرة مشربة بالصفرة كالتفاحة. هل فهمت الآن؟

- نعم يا صغيري، نعم... وأنا خمنت هذا. ولكني لم أعرف إن كانت كالتفاحة
المائلة إلى الصفرة. من قال لك هذا؟ نعم، أصبت في التشبيه. في أحد
الصباحات أتيت بخبز طازج إلى البيت قارنته بالشمس. لا إله إلا الله. كم
تطابق قولنا!.. ماذا كان رأي والدك لو سمعه؟

- لا يفهم والدنا هذا الكلام. - تنهد نطار، - كانت هذه المقطوعة الشعرية

أحد أسباب غضبه عليّ في ذلك اليوم. لم يعرف إلا أن يصفها بلحن جيّ.
- هل قلت "لحن جي"؟.. - ارتعبت مريم، - خطرت لها أمور كثيرة جديدة.

...

عاد أنزور مساء من الناحوي. وقبل أن ينفض عنه غبار السفر أخرج رُقية من جيبه، ومدها للزوجة:

- خذي هذه؛ جئت بها للولد. ليعلّقها في عنقه!..

- بأي حجة طلبت كتابتها؟

- ماذا، ماذا؟.. - كان أنزور على شفا الغضب، ولكنه نظر إلى الزوجة التي امتّقع وجهها فترجع. - أنت يا عموز يجب أن تعرفي كل شيء!.. أوصيت بها لحماية الولد من الألمان الجنية.

- عجباً أي لحن جي؟.. - ما إن همّت مريم بالكلام حتى تذكرت ما تكلمت فيه أمس مع ولدها. - أنا إذن بحاجة إلى مثل هذه الرقية.

- وهل تغلغل الجن فيك أنت أيضاً؟

- لا أعرف؛ ألسْتُ من أنجبتِ الولد؟

- لم تلديه وحدك. - تلّونت عينا أنزور بلون عجيب، - خرج مني أيضاً...
إذن اطلب رقيتين... - جلست مريم على طرف الصوفا عاجزة عن الوقوف بعدما تأملت الرجل.

-7-

جرى لتحخوخه نفافؤه ما كان يتوجس منه طوال السنوات الثلاث أو الأربع الماضية. لماذا قاده النحس إلى بيت حاغور، لم يكشف بهذا بل ذاق من طعام أكوز؟ القلب الذي بدأ يهدأ شيئاً فشيئاً بعد حفلة الزفاف عاد يضطرب من جديد. إنه في مأزق؛ لا يعرف أين يذهب بنفسه. سواء كان في جماعة أم يسوق القطيع أم وراء الحراث أم يتهيأ للنوم، لا تفارق صورة أكوز عينيه. يستيقظ صباحاً على حلم أن يراها. يلتقي بها في الحلم ليلاً إن لم يستطع رؤيتها نهاراً. يطيران معاً بين سحب المساء لا يستطيع أن يعبر لها. ليس أسهل

من لقاء أكوز: إن ذهب مع حاغور إلى بيته أمكنه أن يشبع من رؤيتها؛ بل يمكنه أن يمازحها دون أن يشكّ فيه أحد. ولكن موسى يُعزّه إلى أبعد الحدود. ربما كان يغامر لو كان غير موسى. ومع ذلك يخاف نبافؤه على نفسه من جهة أكوز.

يكاد يمسك بيد المحراث، والثيران تذهب به كما تشاء، وقلبه وذهنه نحو أكوز. لماذا لم ألاحق مامرقوه وصاحبه؟ سفكت دم شرلأقوه ناغوه بدلاً من أن ألحق نصيبي!.. ماذا نفعلني قتله؟ كسبت إثم قتل ناغوه، وتركت حيي الوحيد لغيري. أما كنت قادراً على أن أفعل ما فعل حاغور موسى؟ لو عرفت أنها محبّاة، لا في تركيا فحسب، بل في أقصى الأرض لتابعتها وعدتُ بها. ما العمل؟ يردعني دائماً شخص ما. مثلي من قالوا فيه: أراد أن يزيد فأنقص، وأراد أن يغسل فوسخ نفسه. بقيت في الدنيا، لا من هنا ولا من هناك، أراوح في مكاني. أقراني تزوجوا، ومن هم أصغر مني عندهم أطفال. والمرأة التي أقامت من أجل وإيقق تامبر في الغابة بضع سنين، عوّضته بطفل جميل. ويقال إنها الآن حامل في أيامها الأخيرة. ونكراس ميشكا يستعد للزواج.

توقف الثوران فرمى نبافؤه من يده المحراث. خلع قبعة الفلاح ومسح العرق عن جبينه. الخريف الدافئ يتعامل مع العالم بحنان. الفلاحون متناثرون في البرية الممتدة بين سلسلة الجبال وبين غابة تحمز، يفلحون بمحارث ذات أربعة ثيران. أطراف الصخور السوداء اكتست بالأبيض علامة على سقوط الثلج. الشمس المظلة على المضيق تتفحص ببطء الغابة التي لوّنتها بالأصفر. وتميل إلى الغرب منصبة إلى حفيف الأوراق المتساقطة. وقطعان آل شرلأقوه تحتل المرتفع المقابل من بعيد لباستوك.

عاد نبافؤه فأمسك يد المحراث. وبدلاً من أن يغني في مثل هذا اليوم الجميل هاجمته الفكرة التي كانت سقطت منه. كان يُقسم أن يمنع أكوز من غزو قلبه ولكنه يحس من نفسه بالرضا حين ترسم أمام عينيه. انتصبت أكوز أمام نبافؤه بعدما سار بالمحراث قليلاً بوجهها الصبوح وقد انسدت صفائرها على ظهرها. كانت كما عاشت فترة من حياتها في دار شرلأقوه ناسياً أنها الآن زوجة

صديقه. حاغور أفلع عن السفر منذ تزوج كأنه خائف عليها. لو فعل حاغور مثل هذه الرحلة لوجد نبافؤه حجة للقاءها. والإخوة حاغور؟ أسرة كبيرة كل أخ فيها أضخم من الآخر، ولاشين أمهم لا تخرج من الدار طوال النهار... أي حماقات أتفوه بها؟! نهر تحخوخوه نفسه، وصاح على الثيران يريد أن ينسى ما يتسرب إلى ذهنه. ونهر الفتى الممسك بزمام الثيران¹. بدأ تحخوخوه يتجنب لقاء حاغور موسى على نحو يشعر به هو نفسه. يرفض الذهاب إلى المضافة التي فيها صديقه، ويبحث عن غيرها، أو لا يذهب إلى أي مكان. وينام في وقت أبكر من السابق. وإن لم يستطع النوم فأفكاره ترجية للوقت.

لم يحدث أن نسي موسى صديقه يوماً وإن مضى الآن أسبوعان على آخر لقاء. كان قد أرسل قبل أيام أخاه الأصغر يدعو إلى وجبة من الفطائر أعدتها أكوز، وكان وعده بالجيء. ولما قطع موسى أمله من مجيئه ذهب وراءه بنفسه، ولكن لم يجده. ولم يجد لذة في الفطائر التي أكلها.

سمع تحخوخوه يبحث حاغور عنه، فنهز نفسه عارفاً بخطأ سلوكه مع صديقه. كان عليّ أن ألبّي الدعوة، عبرت عن احتقار لصديقي من أجل لابس غطاء رأس صغيرة. سيعيب عليّ من يسمع بالخبر. الأفضل أن أخسر رأسي من أن أنجّر وراء ما يخطر له. لو كانت هذه التي أفني نفسي لأجلها تشعر بمثل مشاعري لالتقيننا منذ زمن بعيد أيام الخدمة لدى آل شرلأقوه. كيف صارحها حاغور إذن؟ كانت تتجنب أي محاولة لي بمكاشفتها بأن تحوّل الحديث إلى مزاح. سأعرج على آل حاغور في طريقي إلى سقاية الخيل، فأعتر لأني أخطأت بحق أم موسى من أجل ما ذقت من طعامها، قبل حقّي موسى. إخوته، باستثناء بداد، يودوني. لا ينسونني أينما ذهب. يُبدون نحوي احترام الصغير للكبير.

انطلق تحخوخوه بالخيل إلى نهر إيل غير أنه تراجع عن فكرة المرور على بيت

¹ كانت العادة، كما في روايات إسحق، في المحارث الرباعية الثيران أن يقود شاب صغير الثيران من الأمام للمحافظة على استقامة خط الحراثة.

حاغور. قال: لا، لن أستطيع. لن أستطيع الجلوس عندهم تنظر إليّ أكوذ وتبتسم لي فيتألم قلبي. ليس ما في صدري قطعة حجر!.. يشعر هو الآخر بالألم. ثم إن أكثر ما يؤلمني هو وثوب دَمِز الصبي إلى حضني كأني أبوه. وقتها لا حدود لألم قلبي. يهجم عليّ ويحصرني، ويتعلق بعنقي بيديه الصغيرتين كأهما يدا أكوذ.

وعلى قولهم: متى ضاق القلب بحّ الصوت، مضى على نفافؤه وقت لا يكلم فيه أحداً كأنه فقد صوته. وهزل. وما أضيف إلى أفكاره حديثاً شيء آخر: لماذا يقيم في باستوك يُفني نفسه فيها؟ عالم الفلاحين كبير، يسعه أينما رحل. دعاني زيش ومخوش إليهما. الحفا خيرٌ من الهَمّ، إذا خالطتهما وجدت حصتي عندهما. وإن لم يتحقق ذهبت إلى وستقوه في الناختوي، وأنسى آلامي هناك. وقد أجد صبية فيها؛ وها هو وابقق تامبر يعيش مع الأبراخ كأنه خلق فيها. في أحد الأماسي، بعد الصلاة، صاح حاغور موسى في إثر تحخوخوه المستعجل:

- ماذا تركت حيث تركض؟
- هه، هذا أنت؟ - توقف تحخوخوه.
- أنظر إليك يا نفافؤه فأراك متلهفاً كمن ترك أسرة كبيرة وراءه، كما قال حاغور موسى،- ساهم الفلاح أرسى أيضاً.
- والله لا أعرف ما الذي يدفعكما إلى هذا الكلام. - لست على عجلة من أمري.

- نظر تحخوخوه إلى الصديقين لا يعرف بِمَ يجب. ثم قال عارفاً ذنبه:
- ما تحكمان به عليّ حقُّكما... لا أعرف سبب عدم انتظاري لكما.
- إن كان هكذا فلا يجوز أن تخالفا كلامنا شبراً واحداً.
- هذا تبعاً لما تطلب يا أرسى.
- من في باستوك من الفتيات قريبة من قلبك؟
- وهل هذا سؤال يا أرسى؟
- هل ستقيم إذن في باستوك منفرداً بالعزوبية بين شباهما؟ - لم يقبل حاغور

اعتراض الصديق، - هات حالاً، سنذهب لمغازلة أيّ فتاة تشير إليها. وهذا سبب متابعتنا إياك.

- وهل هذا كلام؟.. - بدا من صوت تحخوخوه يقينه أن الصديقين لن يتركاها دون جواب، وحثَّ إليه أهما حصراه إلى جانب جدار مستقيم، - لم أفكر في الموضوع الذي تتحدثان فيه... سأطَّلِعكما على ما في ذهني بعد يوم أو أكثر، ليس هذا الموضوع مُلحاً في رأيي.

- وافقنا إذن، - تراجع حاغور. - تعالاً إذن إلى بيتنا نسهر. كنت خرجت من البيت على رائحة اليقطين.

- والله لم أذق اليقطين منذ زمن بعيد، ولم أر والدتك أيضاً. - قال تحخوخوه، - غير أنني لا أستطيع أن أذهب إلى أي مكان الليلة. لابد أن أتفقد قطع الخيل مرة أخرى... ثم إنني أريد أن أفكر وحدي في اقتراحكما. تعرفان أن التفكير في الزواج يصبح صعباً مع التقدم في العمر؛ تساورك الشكوك...

أجاب تحخوخوه الأصدقاء في ما سيفعله. صعب عليه في الليلة الأولى ما قالوا له، ولكنه نظر في اليوم التالي إلى المقترح بعين أخرى. ستسبني الأسرة أكوذ. ولن تسمح لي بالتخلي عن حاغور. تقرر أن يزوروا إحدى بنات الفلاحين لجلس نبضها.

- هل قلت توجان بنت مشوسّ الفلاح؟ - فرح حاغور لما سمع اسم الفتاة. - هي نفسها يا نبالؤه من فكرتُ فيها لأجلك. ما أحسن هذه المصادفة!.. ابنة فلاح محترم في القرية. فتاة جديدة بأن تؤسس لك أسرة. أليس صحيحاً يا أرسى؟

- قلت يا تحخوخوه قبل أيام أنك لم تفكر في الموضوع ولكن، - ضحك أرسى، - أشرت إلى أجل فتاة فلاحية الآن في باستوك. غير أنني لا أعرف إن كان لنا فيها نصيب... لا تيأس يا تحخوخوه ما دمنّا إلى جانبك، هل تظننا عشنا لا نحلّ موضوعاً مثل هذا.

ذهبوا إلى مشوسّ الفلاح، وجلسوا ينتظرون بعض الوقت الفتاة التي ستدخل إليهم. داخل الشك تحخوخوه ولم يعرف ما يحدث لقلبه. وغضب على نفسه

لجلوسه هنا. وفي الوقت نفسه بدأت أكوز تنتصب أمام العينين، ناسياً إن كان حاغور موسى الذي في حضرته ما يزال جالساً أم لا. ولما انفتح الباب، وظهرت الفتاة برفقة أخيها الصغير، نهض مع غيره على العادة فحسب، ولم ترتسم توجان لتنسيه أكوز بجماها.

-8-

تعجبت الخادومات حين سمعن أغنية من جهة غرفة السيدة. داريت على النافذة والتطيرز في حضنها. أشعة شمس الخريف الآتية من النافذة تجعل الخيوط الذهبية المتنوعة الألوان تتلامع. وكما تسير إبرتها عشوائياً فكذلك أغنياتها. تقفز من لحن إلى لحن. لا تعرف إن كانت الأغنية أغنية حب أم أغنية بطولة. تضيف من عندها ما يخطر لها. والكلمات تغلب عليها التفاهة، منظومة كيفما اتفق. سقط الخيط الذهبي من يدها، ووقع وراء مسند الموقد. نادى داريت إلى الخارج:

- يا كنة، تعالي لحظة كُرمي لله، - تفحصت داريت بعين الرضا كَنَّتْها مامرخان، - ناوليني الخيط قبل أن تقع عيني على الثرثرة الصغيرة البسلي... تردّ على كلمتي بعشرٍ. قرصتها، شاجرتها. سأموت على يد هذه المخلوقة، ولن أستطيع أن أحملها على طاعتي. وأنت يا كنة ماذا تفعلين اليوم؟ - أحمي المكواة يا سيدة.

- ألم يبق في البيت غيرك يحمي المكواة؟ - توقفت داريت عن التطيرز، - أين هذه المفوشة الذنب الثرثرة؟ أين أنت يا من أصابك الله بالكوليرا؟ يا صغيرتي، يا كنة، هل يفعلون مثل هذا؟ هل تعملين على نار الموقد وحولك الخدم؟ بأي عين سينظر إليك الرجل مع رائحة الدخان؟ ألم تفكري في هذا؟ هل عجيب إن كان الزوج غائباً اليوم؟ لا تعوديهن على هذا يا كنة ستندمين! هل تظنين أن ما كُتِبَ على جباهنا كُتِبَ على جباه جميع النساء؟ يا ثرثرة، يا من أصابك الكوليرا، هل انشقت الأرض وابتلعتك؟ لئبعدك الله عن وجهي!.. دخلت الصبية إلى الغرفة. سمراء صبوخ. القُدُ نحيل. يبدو أنها تحترم نفسها

معتبرة نفسه صبية في سن الزواج، وإن لم تتخذ قلبها النهائي. طويلة القامة تقريباً خلافاً لعمرها. وتحت الحاجبين اللذين يدق طرفاهما تبدو عينان واسعتان سوداوان.

- قيل لي إنك بحاجة إليّ فجئتُ، - قالت الصبية عند قائمة الباب.
- أنت مثل من أكلت قائمة كلب فلا تتوقف عن الحركة يا عديمة الإيمان. أين كنت إلى الآن؟ - سألت داريت الصبية وهي تنظر إليها شزراً.
- ولماذا آكل قائمة الكلب؟ ألسن من أرسلتني إلى بيت حاغور؟ - أجابت الصبية بجوابٍ سؤالٍ.

- ألم أحذرك من أن تردي علي يا ثرثرة!... - انفجرت داريت غاضبة كالرجال لم يعجبها جواب الصبية.

- اسمي الذي تناديني به أمي، وأبي وإخوتي هو لاتسه. وأريدك أن تناديني به أيضاً. ألم أخبرك ألي ابنة أسرة نبلاء؟ أنا أنتظر منذ اليوم من إخوتي أن يتبعوا أثري. الأفضل أن تعامليني كإنسان... ماذا تريدان؟ هاقي!..
- اغربي عن وجهي أيتها القبيحة. ترطنين في كلامك. - لان صوت داريت.
- كم قلت لك ألا تثرثري بنصف لسان؟¹ اذهبي وحمي المكواة للكنة. لا يهمني إختوتك.

لما غادرت الصبية الغرفة جلست الحماة والكنة دون كلام تخجلان من تبادل النظر. وكلتاها تفكر في الصبية التي تقول إنها ابنة أسرة نبلاء. لم تكذب لاتسه منذ اليوم الأول. جاء بها مقاي من البسلني، وهي ابنة نبلاء. ومن سرقها لم يكن يعرف هذا. حمل لاتسه على كفل الحصان مع حلول الظلام وهي عائدة من عند الجيران، وجاء بها إلى الشابسغ. ولما عرضها على داريت منحها إياها على أمل أن تنقّس عن غضبها من خلالها. ولكن الصبية خيبت أمل داريت. ولاتسه نفسها تكشّفت عن فتاة ذكية. صرحت لمالكيتها منذ صباح اليوم التالي لوصولها إلى دار شرلأقوه باسمها واسم أسرتها وإخوتها... لم يصلّق آل شرلأقوه

¹ تقصد أن الصبية تتكلم بلهجة البسلني القبرتاي.

في البداية، ولكنهم بدؤوا يرضخون شيئاً فشيئاً. لم تتوقف لانتسه عن مكاشفة داريت بنسبها، ففي أحد الأيام أخبرت تحخوخوه نبافؤه، وانتشر الخبر في القرية.

- والله يا كنة لم يتصرف معنا مقاي أيّ تصرف صحيح، - تنهدت داريت عميقاً وهي تفارق أفكارها، - ما كانت حاجتنا نحن إلى ابنة نبلاء؟.. لو لم تكن تعرف هي أصلها ما همّني إن كانت ابنة أمير أو نبيل. كنت جعلتها تكنس الأرض بشعرها!.. سيلحق بها أهلها إن عاجلاً أم آجلاً. لولا أنها لم تنشر خبرها في القرية لأرسلتها الليلة قبل الفجر إلى الساحل. ولكن ماذا إن كانت يا كنة تخدعنا بادعائها أنها ابنة نبيل؟

- لا أظن يا سيدة... هل تكذب إلى هذا الحد؟ لا يخفى أنها ابنة نبلاء. عندها اعتداد كبير بنفسها.

- لا يكفي هذا لمعرفة، - لم تقبل داريت، ووجدت نقطة ضعف تغمز منها الكنة فلمعت عينها. - أعرف كثيراً من بنات النبلاء والمتنفذين عديمات التربية. ليس عندهن كبير أو صغير، يتفوهن بما يرد على ألسنتهن على حمواتهن وبنات حمواتهن. ليرسل لي إلهي ابنة فلاح صاحبة تربية، على الأقل تقدّر الفلاحة قيمة ما تقدّم لها... لو كنت أعرف أن هذه الثرثرة ابنة نبلاء حقاً لأعدتها إلى أهلها مع كل احترام وإعزاز. في كل حال ليس لنا في الجمكوي والبسلني أي معارف. حتى حاغور موسى القبيح، الذي لا يساوي شيئاً، له في كل مكان معارف. لا ينتهي أهل القرية إلى الآن من تعداد من كانوا في عرسه. ابن الكلب وجد امرأة ممتازة أعلى منه شأنًا. لم تخدمني يا كنة قطّ فناة أراحتني مثل أكوز. ثم إنها جميلة، وحكيمة، وصنّاعُ اليدين. يخيّل إليّ أن نعومتها ما تزال على بشرتي إلى الآن...

لم تعجب أخبازُ أكوز كُنَّتْهم مامرخان، ولكنها كتمت شعورها. تؤيد الحماة وهي تمزّ برأسها. قالت مامرخان: الدجاجة علفُها حلُّها!.. أقول لكُنّتي وجارتي تفهم!.. لا تظني أنني أجهل نواياك. إذا كان هذا ما لا تستطيعين البوح به فلماذا لم تزوجي ابنك منها أيتها الخبيثة؟! أنا من لا تنتهين من سيرتها، يا

من انتزع الله الأحد روحها! تستبشعين جلستى وقيامى. لا توفيرين بالكلام ما يخطر لك. تلهفت عليّ إلى أن تزوجت من ابنك. وحين تزوجني انطلق لسانك.

- نعم يا سيدة، نعم. - قالت مامرخان. كانت أكوز فتاة تخطف العين. لا أعرف بعدما تزوجت، لم أرها.

كانت داريت تود أن تقول للكنّة: "لم تصبح أقبح إن لم تصبح أجمل، لا تظنيها بقرة عاقراً مثلك" ولكنها تراجعت لا تعرف السبب.

ترضي الأسرة الكبيرة التي هي فيها. تخدم الجميع، أما حماها فلا تدعها تفارق مجلسها. يا كنة ليس آل حاغور مشكلة. من يهملها أمر كنتهم الكسول؟! - تذكرت داريت ما يجب أن تبلغه للكنّة، - أنستني البنت البسلي الثرثرة سبب طلبي لك. إن رويث لك يا كنة ما سمعته أمس لما صدقت. بُحّنين، يرتبط لسانك!..

- كان الله حامينا!.. ماذا سمعت؟

- قالوا: ابن الأفندي أكجكوه عنده قرين من الجنّ...

- ماذا تقولين يا سيدة؟

- مهما قلتُ فهو الحقيقة. يذهب إلى الغابة، ويظل يتمتم فيها. رأوه قبل مدة وهو يتكلم إلى الشجر. يشير إليهم بيده، يجلس تحت الشجرة ويكلّم نفسه. من زمان كان علي سلطان تكلم في الموضوع، لم تكن عنده نية الذهاب إلى القرم. رأوه على الشاطئ يتمتم، ولكنّ حماك المرحوم لم يقبل من علي سلطان كلامه. يا حمانا الله، أكيد أن المسكينة مريم تعاني الكثير. أشفق عليها، لم يسمع أحد منها كلمة سيئة طوال عمرها. أيّ مصيبة لم تكن على البال!..

- هل قرينه جني أسود أم أبيض يا سيدة؟

- من يعرف من أي نوع جنّ القرم؟ - قالت داريت وفكرت، ثم أضافت:

- على كلامهم هو أسود وأبيض. يقال أقرب إلى الصفرة. يتحول كما يريد: أحياناً بلون الثعلب، وأحياناً بلون الغراب على الشجر، وأحياناً يورونه كالقطة. متى دخل عمق الغابة استقبلوه. يتسلل إليه في الليل عبّر ثقب الباب، فينام في

حضره كفتاة جميلة.

- الله الله!!.. ارحمنا... أليست هذه مأساة؟
- مأساة طبعاً، وهل هناك مأساة للقريّة أعظم منها؟ هذا ما يحدث لك يا كنة إذا أرسلت ابنك إلى بلاد غريبة.
- ولا يزال والده يحاول إرساله إلى إستانبول للدراسة ولكن الولد يرفض.
- وهل تظنين أن القرين الجني يتركك؟
- ربما يخاف ألا يستطيع عبور البحر معه.
- طبعاً، وهل عبور البحر سهل؟..
- في أحد الأيام، فيما داريت قلقاً بتأخر علي سلطان الذي ذهب إلى كوبل، عرفت داريت واحداً من الفرسان الثلاثة الذين توقفوا عند باب المضافة: أباته قازجري بكل ضخامته. لأن القلب كأنه سيتصدع. يا ربي هل يمكن للولد أن يعود الليلة؟..
- ركضت داريت في أرجاء البيت لا تعرف إلّام تمد يدها. جلست إلى المرأة، وفارقتها. طلبت أن يفرقوا شعرها، ومدت يدها إليه كي لا تثير الريبة. والثوب الذي تلبسه غيرته، كانت قد لبست أجمل ما عندها كأنها تعرف بوصوله اليوم.
- يا كنة، - صاحت داريت من الغرفة، - يا للمصادفة السيئة! يأتي الضيف الكبير أباته قازجري وعلي سلطان غائب! سأرسل وراء الأفندي أكجكوه أنزور. لا أعرف إن كنا سنجده هو أيضاً. هيا أرسلني إليه باسمي. وإلى أن يصل أشغله أنا. أسلم على الضيف الكبير.
- أهلاً بقازجري، - انبعث الشرر من وجنتي داريت يغلبها الخجل. - طال غيابك عنا. - ثم همست له: - اليوم موعد وصول علي سلطان؛ إياك أن تفضحني!..
- أمس فحسب خرج من كُداق، اليوم يصل إلى كوبل غالباً.
- وماذا فعل في كداق إلى الآن؟
- كان في ضيافة إخوانك الكبار. وأنا أرسلوا ورائي فاستضافوني معه.
- لا بأس إذن... - ألقّت داريت نظرة خفية باتجاه الباب. - حين تهدأ الدار

سيكون باب غرفتي مفتوحاً في منتصف الليل...

-9-

تظهر لحاغور موسى أشياء كثيرة تستدعي التفكير في حياة الفلاحين الشاقة: هل قليل ما تصطدم به لا تدري مصدره. لا يكفي أن تفيق في الفجر وتبقى مربوطاً إلى العمل الذي تعيل به الأسرة. إن كنت في صحتك ولا تشعر بالكسل فالمسألة بسيطة. إن تعبت استرحت بنوم ليلة. إن كنت تتحلى بالإنسانية وتريد أن تمارسها فهذا أعلى شيء. صحيح أنها سهلة في الكلام ولكنها صعبة في الحياة. لم يكن موسى يحب الثروة منذ طفولته. لماذا تثرثر وكلامك بلا معنى ولا قيمة؟ إن قررت أن تذهب إلى الغابة وتأتي بالإجاص فلا داعي لمزيد من الكلام؛ اذهب واملاً عُبك به وكفى! حين يلعب لعبة الكعوب ويخسر كان يجد صعوبة في إيجاد ذريعة للانسحاب، فيحصّر طريقة للانتصار عليهم غداً. ظل يتجنب الأولاد الثرثارين في طفولته. ولما بلغ أشده وصار يخالط الفلاحين في المضافات تعود أن يتكلم على ما يعرف، ويستمتع إلى ما لا يعرف. كان والده يقول: رواية حكاية جيدة والاستماع إليها سيّان. وموسى نفسه لم يكن من الناس المزاجيين النزقين. وغالباً لا يتكلم إلا مرتين أو ثلاثاً طوال السهرة في المجالس. وإذا كان بين من استمتع إليهم واحد أو أكثر يتصف كلامه بالصدق استعاده بينه وبين نفسه متى عاد، مثنياً إياه. راغباً في معرفة أساسه.

منذ زمن بعيد فهم حاغور انعدام المساواة بين الأمراء النبلاء والفلاحين. اتضح السبب جيداً من خلال نخبة الفلاحين، الفلاحين الأغنياء. ولماذا الابتعاد في التمثيل؟ يكفي أن تقارن بين حياة الأفندي أكجكوه وأخيه الأكبر بداد اليوم، وبين حياتهما في الماضي. أكجكوه أنزور وضّعه مختلف. يقيم في القرية جامعاً

العُشْر¹. وإن لم يدفعوا له سلبهم إياه. وإن لم يسلبهم فهناك عدة مسلمين في القرية يدفعون له بالمديح - القوة. بدأ يغتني من هذا المصدر دون أن يشعر. أهراؤه لم تعد تتسع للحبوب. وتزداد المواشي التي تصل إلى داره يوماً بعد يوم. وبدلاً من ضريبة العشر يحشّون له العشب، ويشحنونه إليه. وبدلاً من الضريبة أيضاً يخدم الفلاحون مواشيه. قال موسى: وبداد الذي وصفناه بأنه يقتات على طرف مائدة شراً لِقوّه تبَيّن أنه منافق من بين الإخوة. يجمع المال إليه، ولا يفرّط بشيء. لا يسمح لما يسقط من رزق آل شراً لِقوّه أن يصل إلى الأرض. استطاع الاستيلاء على أرض غير صغيرة من الغابة بحجة العمل الطوعي من الفلاحين. ومتى أخرج قطيعه من الدار رأيته يعادل مجموع ما عند عدد كبير من شركائه في الرعي. ولا يفكر أن يُعيد شيئاً مما سيق إلى حفلة عرسي قبل أعوام. لا بأس!.. هناك أعراس كثيرة قادمة ندفع فيها. إن لم يقدمها لإخوته الصغار فلمن يفعل؟! ولكن ليس هذا أصل الموضوع، بل طريقة ابتداء تحوله إلى فلاح من النخبة. أضاف أخويه إلى الفلاحين اللذين استأجرهما. تحول لاقه ورشيد من معاونين له على زعمه إلى أجيرين.

- يا موسى، ارفع رأسك قليلاً، - نادى أكوز زوجها لا يعجبها جلوسه حزناً. - ما الذي تفكر فيه إلى هذه الدرجة؟ أتوقع أن تنتبه إليّ مرة في دخولي وخروجي...

- نعم، صحيح يا أكوز؟ - خرج موسى من أفكاره. والله يا أكوز لا أفكر في أمر مهم. مطر الخريف ألهاني فحسب. هل يمكن أن تبقى عاطلاً هكذا؟ لو توقّف لذهبت إلى الغابة للاحتطاب. أين الولد؟
- السيدة اصطحبت دَمَز إلى بيت أخيك الأكبر.
نظر الرجل إلى أكوز التي بدأ جسدها يمتلئ نوعاً ما، وابتسم لها كالعادة.

¹ العُشْر محرّفة إلى وُشْر، نقلاً عن العربية، وهو ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم عليها أهلها، وهي التي أحيها المسلمون من الأرض والقطائع، وكانت تدفع للمشايخ والفقراء. المعجم الوسيط والمعجم الشركسي..

وقابلته المرأة بالّظرة نفسها. دفعه الدفء - اللين الذي يتكون في الصدر نحوها إلى النهوض من مجلسه. عانق أكوز وقبّل الشعر الذي أفلت من تحت غطاء الرأس عند أذنها. وشعر بارتعاشة المرأة الخفيفة.

- يا موسى، كفى، توقّف! - صحت أكوز، ودفعت الزوج عنها. - إن رأنا أحد في عزّ الظهيرة فضحنا...

- لا أحد يرانا في اليوم المطير.

- مساءً، مساءً... ما زال عليّ أن أطبخ. - هيا الأفضل من هذا أن تشعل لي نار الموقد.

- هذه مهمة سهلة... هل من عناق آخر...

- لا يا موسى، لاحقاً، لاحقاً...

حين أفلت حاغور المرأة التي عاندته جلس مسنداً رأسه الدائخ إلى جدار مخزن الحبوب ينتظر تخلّص الجسد من النعومة - العذوبة. وأعادت أكوز كنس أرض الغرفة التي كنستها قبل قليل لتنسى بخار الرغبة الذي تجمّع في الصدر. نظر موسى إلى الزوجة بطرف عينه وابتسم. ثم لمّح لها حين وجدها لا ترفع رأسها ولا تنظر إليه:

- انتبهي إلى المكينة؛ ستهرب منك!...

- كفى، اتركني الآن، - ابتسمت أكوز مرة أخرى للرجل.

لم يكن مطر الخريف ينوي التوقف. والموقد اشتعل كأنه يناكد العالم الرطب. ومضى وقت قصير على خروج أكوز من الغرفة بصحن من الدخن: يُسمع صوتها من الكوخ وهي تجرشه. بقي حاغور وحده إلى نار الموقد، فعاد إلى أفكاره. من لا يفارق الذهن هذا العام هو مدينة إستانبول. لم يكن في البداية مهتماً جداً. ولم ير الكثير في الليل والنهار اللذين قضاهما فيها. والآن كلما أعاد التفكير لم يجد جواباً. وأياً سأل كان بلا جدوى. يتساءل حاغور: لماذا؟ إذا كان الترك بشراً فالأديغة بشر أيضاً. عندهم أغنياء، عندنا! الفقراء كثيرون عندهم؛ عندنا أيضاً. ولا يفترقون عنا في بيوت قراهم. لماذا لا نعرف نحن بيوتاً من حجر، قصوراً؟ لماذا ليس في إقليم الأديغة مثل ما في مدينة إستانبول؟

يصنعون السفن، والقماش كثير، ليس في سوقهم ما لا يتم تبادله. والمدافع أمام باب زعيمهم. نحن، الأديغة الصغار، فيم نفع؟ ما يقوله أحدهم ينقضه الآخر. نعيش حياتنا على صهوات خيلنا نتنافس على الزعامة، تفوح منا رائحة البارود. فيم ينفع آل شرلأقوه؟ تصفر الريح من تحت زرائبهم، لا تتسع البرية لمواشيهم. ما يتقنه الأديغي هو سباق الخيل. والتنافس على التقاط جلد الخروف أيام الأعراس. يعمل في موسم العمل يتصبب عرقاً، ونصف ما يجنيه للأمرء - النبلاء. وما تبقى يدفع منه العشر، ويتقاسم البقية مع مجلس القضاة¹؛ لم يبق له إلا أن يدهن شفتيه بالدهن، وينام!

عادت أكوز إلى الغرفة ويدها الصحن المملوء بالدخن. تناولت صينية الطعام وفرزت الدخن. ولما صار القدر المعلق فوق النار يغلي صبت الدخن فيه. - لن يكفينا اليوم باستا الدخن وحده يا أكوز، - قلب حاغور الخطب المشتعل، فتفافزت منه الجمرات، - هذه هي الجمرات التي تنبئك بقدم ضيوف.

- لماذا يا موسى، عندنا لحم مقدّد، وجبن، وزبدة مغلية.

- ألسنا أغنياء إذن!

- عندنا ما نأكله بفضل الله. - تصفّي أكوز الباستا من الشوائب الطافية عليها. - وإن حضر الضيوف الذين تتكلم عليهم فعندنا ما نختاط به. لا تجزع! - الأفضل من كل هذا أن تخبرني لماذا يقاطعنا تحخوخوه.

- ولماذا يقاطعنا تحخوخوه؟

- لا أعرف، لم يعد يزورنا.

- وإن لم يأت؛ هل أضع الزمام في عنقه وآتي به؟! يؤجل من يوم إلى آخر. لا تأتي على ذكر تحخوخوه كإنسان. متى تذكرت ما فعل بنا في تلك الليلة خطر لي أن أذهب إليه وأعاقبه جسدياً. ويؤيدين الفلاح أرسى.

¹ يبدو من معلومات الرابطة الشبكية أنه كان مؤلفاً في القبائل ذات التنظيم الطبقي من النبلاء وكبار السن الذين منهم القضاة. وتُستعمل الكلمة العربية "قاضي" في الأديغة.

- ماذا فعل بكما، يا مصيبيتي؟
- أسألي الفلاح أرسى يخبرك!
- ألا يجوز أن تخبرني أنت؟
- إذا أخبرتك ارتعب قلبي... ما أجمل الفتاة التي اصطحبناه إليها!.. ولماذا أقول "اصطحبناه"؟ هو من اقترحها فذهبنا معاً. ليس في باستوك وحدها، بل في الجوار، أجمل منها!..
- عند توجان؟
- خمنت يا أكوز، خمنت- مدّ موسى يده إلى جيبه، وأخرج منه الكيس المتهرئ الذي أهدهت إياه أكوز وهي عازية، وأخرج منه قبضة تبغ. وبدأ يملأ الغليون دون استعجال.
- ماذا بعد؟ - لم تملك أكوز إلا أن تسأل الرجل متلهفة.
- وماذا سيكون؟ ألا تعرفين مزاج تحخوخوه المتقلب؟ رفض أن يذهب معنا في اليوم التالي. وترجيناه مساء أمس ولكنه لم يقبل. كنا وعدنا الفتاة بزيارتها.
- وهو ماذا يقول؟
- ومن أين لنا أن نعرف؟ لو كنا نعرف لهانت، كنا فكرنا في المخرج.
- أتكون توجان لا تريده؟
- اسمع ماذا تقول! وكيف لا تريده؟ تريده!..
- لا أعرف إذن!.. - خفّت صوت أكوز الآن. ثم أضافت وكأنها تحدث نفسها: - ألا يزورنا البائس وإن كان يرفض الذهاب إلى بيت توجان؛ ما ذنبنا نحن؟ ليأت إلينا إذن؛ أسأله عن سبب عناده. ولن أتركه قبل أن يجيبني!..
- أسأليه يا أكوز، أسأليه!- أطلق موسى نفخة تبغ مرتاحاً لكلام المرأة. - إن لم يخبرك أنت فلن يخبرنا أبداً. من أين سيأتي هذا المجنون بمثل توجان؟ نحن جاهزون أن نقيم له العرس لحظة موافقته. سأتيك به مساء الغد إن شاء الله لتسأليه. أيعيش عمره، هذا المتطاوّل الرأس، دون امرأة؟!

قُبيل الظهر حدث ازدحام شديد على باب دار شرلاًقوه. كانت لاتسه أول من انتبهت إلى مجموعة الفرسان الكبيرة. رأت أباها الأكبر فكانت أول من استقبلت الفرسان بكل احترام لنفسها، وكأنها كانت في زيارة أخوالها فحسب. ولما رأت إحدى الخادومات الصبية ظنت أنهم يخطفونها فصرخت بملء صوتها:

- يا مصيبي، يخطفون لاتسه!..

تقاطر أهل الحي، لا أهل الدار وحدهم، على صراخ المرأة. ووصل تحخوخوه وبداد وغيرها من الفلاحين. قفز من الغرفة علي سلطان الذي لا يعرف ما جرى. وأطلت مجموعة من النساء تستحيي من الظهور علناً من المطبخ. ووصل الفلاح أرسى وثلاثة آخرون. وداريت التي سمعت الصراخ ولا تعرف ما حدث لم تتحرك من مكانها. قالت: ليس عندي بنت للاختطاف، من يريدني يأتي إليّ. ومن لا يريدني يغور من وجهي. كانت داريت تنصح نفسها بما ستفعل، ولكن الضجة التي في الدار تقلقها.

- ألم يبق أحد في البيت؟ - نادى داريت من غرفتها لا تطيق صبراً. ولما لم يأت نداؤها بأحد نهضت غاضبة: - ليقبض الله أرواحكم!.. يحتبئون حين أحتاج إليهم!..

خرجت داريت من غرفة الضيوف الكبيرة، ونظرت إلى باب الغرفة المجاورة، فرأت مامرخان تنظر من النافذة على رؤوس أصابعها. اشتهدت داريت أن تضرب ظهر الكنة، فبحثت عن أي شيء لهذا الغرض، فلم تجد. وفي الحال هجم الدم على رأسها فهتّت بالتقاط فردة الحذاء. ولكنها صحت فعنفّت الكنة:

- ماذا يا عديمة الحياء، أترين أصحاب الشوارب والقبعات لأول مرة؟ ابتعدي عن النافذة، يا ابنة العرق الذي بلا حياء!

- الواقفون على الباب يا حماقي يغلون من الغضب - التفتت مامرخان بوجه مذعور دون أن تسمع كلام حمائها.

- يا ويلي!.. من يطرق بابنا وعنده مثل هذه القدرة؟ - قفزت داريت من

الغرفة كالصقر.

كانت الضجة على الباب تستنفر الناس، ولا نية للهدوء. ووصل أكجكوه نطار مستعجلاً. لم يختلط بالمستنفرين، بل اتجه إلى الحصان الذي على كفله لاتسه. القلب يتعثر في الصدر بسبب رحيل الفتاة التي أحبها.

- ليس الباب الذي تقفون عنده باب فلاح، تفضلوا، - مرة أخرى قال لهم علي سلطان كأن شيئاً لم يحدث، ولكن مبدئاً كونه من أصحاب النفوذ.

- نحن لسنا ضيوفاً يا شرلاًقوه، تابعنا أثر أختنا الصغيرة، - لم يقبل النبيل موزج أخو لاتسه، - من أهان هذه الفتاة أهان أسرتنا وقربتنا كلها. نحن لم نأت إلى هنا للقتال، ولكننا جاهزون بهذه المجموعة للرد على من يُشهر السلاح في وجهنا.

- لا يا أمير، خرج من المجموعة أكجكوه الأفندي، - من تقفون على بابه واحد من رجالات الشابسغ. إن لم تحترمونا، ولم تحترموا القرية فاحترموا البلاد التي أنتم فيها. أختكم الصغيرة وجدتموها. بارك الله لكم فيها. الله شاهدي على أن أختكم عاشت في هذه الأسرة مكرّمة.

وفي هذه اللحظة التقت نظرات لاتسه ونطار. سمعت لاتسه التي ظنت أنها وصلت إلى بيتها حين صارت على كفل حصان أخيها دقات قلبها. رقت بأهدابها السوداء الطويلة كأنها تهوي لعينيها. وابتسمت للشباب الرشيق، ثم التفتت إلى أخيها الأكبر وقالت:

- ما يقوله هذا الرجل صحيح يا موزج...

- لماذا اجتمع كل هؤلاء؟.. - دنت داريت بوجه صبح وجسد ضخم مهيب، - لماذا لا يقبل ضيوفك يا علي سلطان التفضل؟ - يا لاتسه، يا ابنتي، يا صغيرتي، - نطق اسم الفتاة المختطفة لأول مرة. - ما أشدّ سذاجتك يا صغيرتي، أنت كما خلقك الله لا تعرفين شيئاً. انزلي يا صغيرتي، عيون الجميع على الحصان الذي تركبينه... ألا تفضلون أيها الضيوف!.. لاتسه الصغيرة التي حطّت عندنا، عرفت أنها ابنة أسرة كريمة فانتزعناها من اللصوص. انتظرناكم لأننا لانعرف من نخبر. كاد المجرمون يؤذونا ويؤذونكم...

- وأنت يا أفندي أراك واقفاً، ألا تدعو الضيوف!.. هيا يا علي سلطان مُرهم أن يذبحوا أجمل مهر في القطيع...

- والله يا أمنا، طبيعتك الحلوة والغطاء على رأسك يدعواننا للترجل. - أنزلت موزج لاتسه من الحصان.

ظَلَّت مضافة شراً لقوقه عامرة منذ الظهيرة حتى منتصف الليل: تعاورت موائد كثيرة. ودارت أخبار البسلي والشابسغ. وخلاها اجتمعت أفضل الخياطات بزعامة مريم، وخطن ملابس من أفخر أنواع الأقمشة، كلٌّ منها أجمل من الأخرى، وطرزنها بخيوط الذهب والفضة. وأرفقنها بغطاء رأس حريري وخَقَيْن للبيت. لم تبخل داريت بشيء من أجل لاتسه. وفي اليوم التالي قالت داريت لابنها والضيوف يستعدون للمغادرة:

- اسمع يا ولد، - أشارت داريت إلى الثياب التي على الصوفا. - الثياب التي أوصيت الليلة بخياطتها للفتاة، من قبيل التقاليد الأديغية في توديعها... الله الأحد يُريني يدي مقاي مقطوعتين إن شاء الله، سرقنا منها... لا أفقرنا الله! - ولكن يا صغيري، مقاي الذي أنزلتُ به اللعنات واجبنا أن نكرمه: وجدنا بفضلِه معارف ممتازين ونحن في بيتنا. والأخت الصغرى التي كنت تتمناها أعطاهَا الله إياك. براسي موزج، على ما أرى، واحد من النبلاء المرموقين في البسلي. كان والدك المرحوم يقول إن كلامه نافذ كالسوط الذي يمسك الهواء... ثم ليس هذا وحده يا ولد. أظن أن نظرات لاتسه ونطار ستؤدي إلى إقامة علاقة قُربى بيننا. ومريم قالت إن الفتاة أعجبتها. هيا يا صغيري، هيا يا ولد، عدْ إلى الضيوف!..

...

بعد انقضاء أسبوع على انصراف الضيوف البسلي، ذهب أكجكوه أنزور برفقة بداد إلى حاغور موسى. لم يقبل الضيفان الدخول إلى البيت:

- لا داعي، - قال أكجكوه، - يسرني أن نجلس في الشمس، ثم لم أصطحب أخاك الأكبر يا موسى بنية الجلوس. الحقيقة أن الولد البائس يلح علينا منذ العام الماضي في السفر إلى إستانبول للدراسة، ألا يكفي أنه غاب في القرم

ثلاث سنوات؟ والآن لم أكن أود أن أبعده عني. ورغم ذلك فإنه يا مبارك النسل يلح على الذهاب.

- إن كانت هذه رغبة نطار فنؤله رغبته. - قال موسى ولم تعجبه تحفظات الأفندي الكثيرة في الكلام، - نطار صاحبي تماماً، ولكن لم أسمعهُ يقول مثل هذا.

- إن لم يقل فسيقول، ما أهمية هذا لك، - تدخل بداد لا يعجبه كلام أخيه الأصغر، - لستما من عمر واحد، ولا صديقين كما يقال.

- نطار يثق بي وإن لم تكن من عمر واحد. ولدٌ نبيٌّ، وأنا أثق به، أسمعني قبل أيام مقطوعة شعرية ف...

- الولد يا موسى، - قاطع الأفندي حديث موسى عن الشعر، - إن أوصلته إلى الساحل وأرسلته، تقول إنه يمكن أن يجد بيت حسن مراد، كيف هي إستانبول؟ كان قال لي: إن سألت عن حسن مراد التاجر فليس في إستانبول من لا يعرفني. القرية التي فيها بيته لا تشبه قريننا، ولا بخجسراي التي يسكن فيها الحاج قائمير...

- والله لا أعرف يا أفندي كيف أقول لك... أرى نطار يتحمل أي طريق وأي مكان بعيد. لن يصعب العثور على بيت حسن مراد، ولكن لا أعرف ماذا سيفعل به.

- يا مبارك النسل؛ أليس هذا رأيي أنا أيضاً؟ كما يقال: انظر إلى الموضع الذي تدخل فيه قائمة البعوضة وأنت تخرجها، وانظر إلى ما تخرجه؛ كيف أتخلى عن الولد الوحيد الذي أعتمد عليه في شيخوختي؟ أنا فقير، فقير يا موسى، ولكن لا أريد أن أكون عقبة في طريقه.

- ولماذا يا رجل؟، - قال بداد كمن يحدث نفسه.

- نعم يا بداد، عندنا ما نأكل بفضل الله، إن أراد أن يدرس، ويتنزه ويسافر هنا وهناك، فالله منّ علينا بشيء من المال نعينه به عليه. كان ناغوه زار داريت قبل أيام فأخبرته بنية الولد فأجابها: أمنية مقبولة، وليبلغه أمنيته.

- يقال إن داريت تقابل ناغوه باستمرار. - ابتسم موسى، - لماذا لم يخبرها

باسم قاتله إذن؟!!

- أخبرها، أخبرها، - تفحص الأفندي المكان، وهمس، - لا أعرف لماذا يكتمون؟!.. أظنه من فعل الجحّ. لا تأتوا على سيرته، كانت داريت طلبت مني كتابة رقية. وترجتني ألا أخبر أحداً. لا بأس، ليست هذه مشكلة. سترون سرّ آل شرلاًقوه صار جهراً كما اليوم. ما أهتم به هو موضوعي. يا ربي، هل يطلبون الكثير لعبور البحر بالسفينة يا موسى؟

- يعبرون بك مقابل خمس جلود بقر إن لم يكن معك حمولة.
- لا بأس إذن. - فرح أكجكوه، - سأعطيههم إن لم يطلبوا قروشاً. ستحتاج إلى المال في تركيا. ليس كجلد البقر. يبقى في جيبك. لن يطلب منك أن تطعمه. والله فعلتُ خيراً يا موسى بالاستشارة... كنت اتفقت معهم على القروش فأذيت نفسي. نعمل لنكون مستقيمين أمام الله، ولكنهم لا يدعوننا في حالنا. حسناً، مهما حدث فسأنفذ هذا أمام الله العلي العظيم.
- متى تنوون الانطلاق؟ - سأل موسى غير متحمل تبجّج الأفندي.
- ألم أقل لك يا موسى، يا مبارك النسل، الولد يلحّ علينا. ينتظري الليلة جاهزاً تماماً.

في المساء، ساعة هبوط الظلام، جاء نظار إلى موسى حزيناً جداً. لم يكتّم عنه أنه غير راغب في السفر إلى تركيا، وأن والده يضغط عليه للسفر. لم يكن يعرف كيف يعبر عن سبب عزوفه عن السفر، ولكنه كان يعرف أن قلبه لا يطاوعه.

- لا أعرف ماذا وجد الأديغي الصغير في إستانبول. - قال موسى كمن يكلم نفسه، ونظر إلى نظار... - لا أرض بيننا، بل البحر المالح... أرى القبرتاي أحكم أعراق الأديغة. قلوبهم متجهة نحو الملك الكبير أكثر من غيره. كان السفر إلى بترَبف¹ أفضل من السفر إلى إستانبول. يا نظار لو كانت الجهة التي

¹ النطق الأديغي لاسم بطرس بورغ. وكانت المدينة مضرب المثل في البُعد والهلاك في شتائم جداتنا: ليأخذك الله إلى بترَبف!.. والملك الكبير هو القيصر.

تغرب فيها الشمس مذمومة لما غربت فيها الشمس. كنت سترى فيها الكثير.
هذا ما يقولون. أنا لا أعرف ما فيها.

- كنت التقيت وأنا في القرم بمثقف قدم من بترف. أسمعته أشعاري فدعاني
إلى نواحيهم.

- وهل يقيم في بترف؟

- نعم، وكتبْتُ اسمه ونسبُهُ عندي. ظننت والدنا سيقتلني لما قلت له. ولكن إن
بقيت حياً فسأزور هذا الرجل متى عدت من تركيا. - تعانق نطار وموسى
عناق الوداع.

الفصل الخامس عشر

-1-

مضى على شهر ولادة الغنم، نيسان، من عام 1771 الذي دخلت فيه الكوليرا
إلى إقليم الأديغة سبعة فصول ربيع. ليست الأعوام السبعة رقماً مهماً بالنسبة
لحياة الإنسان. ولكنها وقت كطويل لمن عنده جرح فيبراً، أو مأثم فينسى حزنه،
أو عليه نذر فيتحلل منه. وبالقياس إلى السنوات الماضية فلم يعد أحد يأتي
على ذكر الكوليرا التي اجتاحت بلاد الأديغة.

ليس هناك ما هو أتعس مما لا تعرف علاجه. أول بداية للكوليرا كانت في
سهل الجمكوي. بدأت في يوم من بدايات الربيع ببضعة أشخاص صرعهم
المرض، وفي خلال أسبوع أفنى قرى بكاملها. كان الأديغة الذين اخترعوا أول
دواء للجدرى عاجزين أمام الكوليرا. همُّهم إخلاء القرى التي هاجمها الوباء.
ولكن لم يتوقف الموت لهذا السبب: يموتون على الطرقات، تحت الغابات،
والبراري. ييكون من يموتون، ويتجنبون من يشكّون فيه. ثم حين يعود إليهم
شيء من الشجاعة يفكرون في مجابهة المرض بالنار. أينما نظرت رأيت ألسنة
اللهب تتطاير. ولا يسمحون لغريب أن يدخل القرية، ولا أن يخرج منها.

كان وقوع الأبراخ في اليأس المطبق حين انتقل المرض من سهول الجمكوي إلى

هضبة البجدوغ. لم يتكلموا في مؤتمر البلاد إلا على الكوليرا. وفيه لم يشغلوا أنفسهم إلا نصف نهار مقابل عدة أيام في المؤتمرات السابقة. تقرر منع أي إنسان سواء كان عابر سبيل أم عائداً من رحلة من الدخول في البلاد، بغض النظر عن الذين يطاردهم المرض في البلاد. ونشروا رساداً على رؤوس الطرق التي تنتهي إلى الجبال. كانت ضجة قرع على الطسوت كبيرة، تسمع في كل مكان وقت هجمة الجراد لإرعابها، ولكن الكوليرا رفضت الابتعاد. غير أن بلاد الأبراخ لم تكن كمسطح الجمكوي. لم يستطيعوا مساعدة الخيران، غير أنهم اتخذوا احتياطاتهم باكراً فحموا أنفسهم. وبالقياس إلى الأبراخ كان وضع الشابسغ أفضل: لم يسمحوا لأحد بالدخول، لا من جهة البحر، ولا من حدود الأبراخ - البجدوغ. حتى بائعو الملح لم يسمحوا لهم بالتقدم خطوة، ولو أكلوا اللحم دون ملح. ولما فتحو الحدود بنهاية الكوليرا خافوا أن يكون المرض في الملح فأجبروا الباعة على رميه في البحر.

- وهذا عصر مأساة ولي، - خرج وايقق تامر من ذكرياته، - هذا هو ما وراء قولهم: المرض يأتي عبر عين فأس ويعود من ثقب إبرة. لم يحدث أن يئست في أعوامي الأربعين يا سيسار كما في ذلك الموضع. كانت فرحتنا التي انتظرناها طوال عمرنا بتأسيس أسرة، انهارت علينا بعد الزواج بعام.

- نعم، رحمنا الله فنجونا، الأسرة كلها، من الوباء. - قالت سيسار بالتناغم مع حركة منخلها.

- توقفت عن الاهتمام بشخصي، أنا مررت بكثير من التجارب. كان همي البنيت المولودة حديثاً وميشكا. قضيت الصيف كله أقول: إن لم يأخذها الوباء الآن أخذها قريباً. ثم هل تعرف ما كان يقلقني جداً: ماذا إن رحلنا نحن مع المرض وبقيت الطفلة وحدها؟.. سبحان الله، كان عاماً رديئاً، بل أكثر من هذا: عاماً يدعو إلى اليأس.

- كفى، لماذا تعيد اليأس إلى قلبك من جديد يا تامر فتؤله ثانية؟

- لا تقولي هذا يا حلوة. وأنت يجب أن تستعيدي هذه الذكرى اليوم.

- ماذا؟

- فكري تعري!..

تنظر سيسار إلى الزوج ويدها منخل طحين الذرة، ولكنها مهمومة لأنها لا تعرف ما قصد تامر بقوله: "وأنت يجب أن تستعيد هذه الذكرى اليوم". قالت سيسار: - من يتذكر بعد سبع سنوات؟ حملت لنا السنوات كثيراً من الأفراح والأتراح. غادرت بقلبها الضفة التي يقيم فيها إلى دكاها، وخرجت منها. وتفحصت مرتفع البجدوغ. وتذكرت كيف جلدت بحقوقه شراندقوه آخر مرة. وكيف لا يتذكر القلب عرس الشابسغ الذي حلت فيه عروساً ضيفة. لا تتذكر سيسار فرحاً أكبر من هذا طوال عمرها. الأفكار تتدافع في الرأس كالبرق.

- لا أتذكر ماذا عليّ أن أتذكر. - قالت سيسار تبرى نفسها قليلاً، - ما هي يا ترى؟ - ألا تخبرني!.. لا تشوّقي أكثر!
- فكري، فكري، ليس صعباً فلا تتذكرني!..
- والله فكرتُ يا تامر!
- والله أنتم جنس عجيب أيتها النساء، تنسين بسرعة طريقة صراخكن... فكري أيضاً...

- أي طريقة صراخ تتكلم عليها. قاطعت سيسار الزوج وسألت.
- ألا تتذكرين كيف أمسكت بطنك وجلست أمامي؟ - ركض ميشكا وأتى بوالدة سليم مامكراً إليك؟..

- تامر!.. - خجلت سيسار، - اسمع ماذا تقول؟ في ذلك اليوم كنت ستتركني أموت ولو كنت في خطر حقيقي. لا تتأمل أن أنسى الحادثة، أتذكرها كالיום. ما كان سلوكك طيباً، ولا ميشكا. لحق بك ميشكا بعد ما أوصل مزكوش المسكينة، ثم اختفيتما إلى أن حان الوقت في منتصف الليل، لا يدري أحد بمكانكما.

- تنسين ما يجب ألا تنسيه، - ضحك تامر، - وتحفظين في قلبك بما يجب أن تنسيه. سأقول لك إذن: اليوم مضى على ولادة الصبية سبع سنوات. كانت في مثل هذا اليوم من آخر شهر من أشهر منتصف العام - منتصف الشتاء،

وقت أولى الزهور الربيعية... ثم تتهميني بأني كنت مستعداً لأن أتركك تموتين حتى لو كان الموت يُحْدَق بك!.. لا تفكري، لا تفكري، أنا فكرت منذ وقت طويل... أليس دمز ابن حاغور موسى وُلد في منتصف شهر كانون لأول؟ نعم، وبعدها بثلاثة أشهر ونصف ولدت ابنتنا.

- نعم، صحيح، - اقتنعت سيسار. وفي الحال تحرك الجنين في بطنها كأنه يُعلن عن نفسه. ابتسمت دون أن تُعلم الزوج. ودعت إلى الله أن يكون صبياً.
- ما كنت لأعرف لو أجبرتني أن مزيس بلغت اليوم السابعة من عمرها. -
ميشكا ومزيس غابا طويلاً عنده، تجاوز الوقت العصر.
- لا تقلقي، سيصلان قريباً يتراكضان.

حين كان وايقق تامبر عازباً، كان يعيش هو وميشكا في البيت الذي بنياه بمساعدة العمال الطوعيين، يتقاسمان الأفراح والأتراح، ويقتسمان اللقمة، كأن ميشكا أخوه الأصغر. ويزرعان الحديقة معاً، ويسافران معاً. ولم يحدث أن عاشا حياة مشردين طوال هذه السنين. ولم يحدث أن غاب ميشكا عن مساندة تامبر إن دُعيا إلى فرح أو ترح، أو إلى أي مناسبة أخرى، وإن عادا إلى البيت. كانا شخصاً واحداً قلباً وروحاً، لا مجرد اعتياد من أحدهما على الآخر. وعاش تامبر، بعدما تزوج من سيسار، بعض الوقت مهموماً بالعلاقة بينه وبين الشاب الروسي مستقبلاً. ولكن قلقه راح عبثاً. نسي تامبر أن ميشكا أخ أصغر له، وبدأ ينظر إليه ابناً حقيقياً.

- ليست المشكلة في عودتهما يتراكضان، - ابتسمت سيسار للزوج، - بل في أنه سيعود بها على رقبته، وهو الذي صار في سن الزواج ترنو إليه الأبصار. يا مصيبي، لا يزال عاجزاً عن أن يفهم شيئاً.

- لم يحن موعد زواجه فحسب بل تجاوزه كثيراً... لا يجوز أن يبقى عازباً بعد هذا العام. ألا يمكن يا سيسار أن تلمّحي له؟..

- يا حسرتي، أَلَمّح له. وأبلغته قبل أيام عن طريق غيري، - تنهدت سيسار، - لا يمتنع بسببي، وأنا أغبط من عندهن كنائن... سأسألك عن أمر يا تامبر، لا تُخَفِ عني. لماذا قلت لي حين عدت بي من دكاباه أن أسلك مع ميشكا

سلوكاً سيئاً؟

- لم يخطر لي وقتها شيء من هذا.

- لا تقل هذا، أنا أعرف.

- إن أردت معرفة الحقيقة يا سيسار فلست مخطئة. كنت أتساءل: ماذا أفعل

إن لم يتفاهم هذان، فأقلق. بقيت أفكر طويلاً خائفاً من السنة الأبراخ.

- من كنت ستختار منا لو لم نتفق؟ - سألت سيسار الرجل مرة أخرى بحُبث

خفي وهي تنظر إليه بوذ.

- هذا ما لا أعرف جوابه يا سيسار... لو أنت مكاني أيّ عينٍ كنت اخترت

من عينيك؟.. ولكن كُرمي لوالده، وللأديغة الذين جئت به إليهم، كنت

اقتلعت العين التي لا تقبل مني... هذا جوابي إن أردت معرفة الحقيقة. أنظر

إليك كامرأة تفهمت هذا الوضع من اليوم الأول.

- لو لم أتفهم هذا يا تامبر لعشت سنواتٍ وحيدةً بلا معنى. أعلم أيّ خلقت

لأحب من تحب، هذا لا يحتاج إلى سؤال. كثيراً ما لمّحت لي جماعة جمه تتاو

أنك كنت متزوجاً من امرأة كافرة أنجبت منها ميشكا، وأنك اعتنقت دين

الكفار، وأنك جئت إلى الأبراخ كملجأ لك، غير أنني لم أصدق شيئاً. وأنا

أحب ميشكا مثلك، وأدعو الله أن نشهد عرس ابني الجميل... - بكت

سيسار وهي تتكلم دون أن تعرف سبب انفعالها.

- سيسار، لا أعرف ما فعلت الآن. هذا لا يجوز. - قلق تامبر. - كفى،

سنشهد عرس ميشكا كما اليوم، ألم أقل لك إنه يجب أن يتزوج هذا العام!..

كفى يا حلوة، كفى، أتبيكين بهذه السهولة على الفرح الذي ننتظره؟

- قاتل الله هذا الدمع اللعين، - مسحت سيسار عينيها، - نبكي إن فرحنا،

ونبكي إن حزناً. ساحني يا تامبر، لن تراني أبكي بعد اليوم. لماذا أبكي إن لم

أكن مجنونة! - صحت حين ردت نفسها. - عندي موقد، وعندي أسرة

جميلة، وأعيش في قرية، وتحت سماء!.. نعم يا تامبر، يجب أن يتزوج ميشكا

هذا العام بالتأكيد. أنا اخترت له صبية لا أجمل منها ولا أعذب في العالم...

- ابنة أي أسرة؟

- لا تسألني، لا تسألني!- حسمت سيسار الأمر، - لا أستطيع الذهاب حالاً، لم أفتحها، بعد أن أكلتها. أنت لا تهتم بما سأبلغها، بل اطلب باسمك أن يكلمه أحد أصدقائه. ومن جهتي سأرتب الأمر غداً أو بعد غد.

وفي الحال، طارت إلى قلب تامبر الفتاة الشقراء التي التفت إليها ميشكا حين عرّجوا في طريقهم إلى كابل، على قرية روسية، وزاروا نيكراسوف الذي كان الأديغة يسمونه بصياد السمك.

-2-

في السنوات الأخيرة الماضية بدأ جمه تناو يحرص على نفسه أكثر من ذي قبل. يراقب نفسه في ما يقول وفي ما يفعل خلافاً للسابق. في المضافات يستمع أكثر مما يتكلم. ليس ما ليّن موقفه رحيل حجمقه قانشاو وبحقه شراندقه من البجدوغ، وشرلأقه ناغوه من الشابسغ، ومامرقوه النبيل من الجمكوي. جرت أحداث كثيرة في الأبراخ خلال السنوات القليلة الماضية تلطّف موقفه. وأهلك الكوليرا اثنين من أصدقائه. ولكن لا يمكن القول إن هذه الأحداث كانت السبب في تراجعه. تعرف من لمعان عينيه ومن بياض أسنانه حين يضحك أن فيه قوة استثنائية رغم ما تضفي عليه لحيته من مظهر الشيخوخة. وربما كان غياب الأصدقاء والمساندين عنه أحد الأسباب. لا يخلو حضور الأصدقاء والمساندين من معنى ودلالات في عالم اليوم ، ولكن لماذا محاولة التميز منهم بحجة المال؟ الإنسانية هي التي فوق الجميع، لا أحد يمكنه الهروب منها. كان تناو يقول: لماذا أحرص الفلاحين ضدي من أجل ألا أبتسم في وجوههم؟ لا أشتري الابتسامة ولا أتسولها كما يقال. ها هو وايقق تامبر الغريب يعيش مكرماً في الأبراخ كأنه ولد بينهم. وفي مضافته يسهر الفلاحون كل ليلة، والروسي الذي يعيش معه في بيته يعتبرونه كأمرأة أديغة ولدته. يَمُّ يَفْضُلْني جَنُجْته سليم؟ القرية كلها تنهض له. وأنا أتخذ خصوماً ممن أجادلهم ومن لا أجادلهم، فأكسب احتقارهم بلا سبب. ليست حماية أرض الأبراخ مسؤوليتي وحدي. أنا جعلت الناس يكرهوني من وراء الرجل القوزاقي الروسي.

سأريكم إذن أي لست ساذجاً فأشرب الماء من أنفي. الوقت الذي بدأ فيه تناو هذه الطريقة في التفكير هو زمن زفاف حاغور موسى ووايقت تامبر، حين عاد من الشابسغ. المكان الذي عرف فيه الفلاحون نتيجة تضامنهم، بأن يتحدوا في قبضة واحدة، خلال السنوات الكثيرة التي عاشها تناو، هو هذا المكان. ولكنه عاش بضع سنوات لا يريد أن يصدق هذه النتيجة، معتداً بثروته، متحصناً بشخصه. والآن يحاول مزيداً من التقرب إلى جنجته سليم ووايقت تامبر. وتعمد لقاءهما بضع مرات في مضافات الفلاحين. وظل يفكر في استضافتهما متى جاءه ضيف كبير.

تحقق له ما أراد هذا المساء. جاء أمير الحاتيقواي برفقة النبيل ابن أخت أردن، ضيفاً إلى تناو.

- والله أيها الضيف، - قال تناو للجمع الساهر، - ليس من السهل ممارسة الإمرة، في هذا العالم الثقيل، أن تتقدم القرى جميعها، وتطوِّع سكانها... أحياناً أخالط البجدوغ، ويخطر لي آل حجمقوه سواء خالطتهم أم لم أخالط. ليست بلاد البجدوغ مثل بلاد الجمكوي. في كل قرية صغيرة أمير. لا أغبط حجمقوه ألقس لأن الإمرة وقعت عليه وهو شاب. هو في شغل دائم، يقصدونه في كثير من المشكلات. ما يحل منها كثير، وما يتسبب له منها بالعتب كثير... وضُّعنا حسنً بالقياس إليهم. نحن جميعنا متضافرون.

- آل حجمقوه من الأسر الأميرية الكبيرة في البجدوغ. ذقت من ملحهم وخبزهم أكثر من مرة. احتراموني، الحمد لله. رضي الله عنهم! أنا راضٍ عنهم، - بدأ أمير الحاتيقواي الموضوع من بعيد. التفت إلى النبيل أردن، وتفحص الجالسين. - والأمير الكبير صديق مقرب مني جداً. ولي معرفة بأخيه الأصغر باتجري. قابلتهم في أثناء جولاتهم الأميرية في الخريف الماضي، فرافقتهم أسبوعاً. رجال حكماء، ويستطيعون العيش دون أن يتناسوا جدهم الحاج. ولكني لا أتفق مع أمراء البجدوغ في ناحية واحدة. لماذا يعملون بنظام أمير الأمراء؟ لا أفهم هذا الإجراء. ولن أفهمه بأي حال. لماذا تُفَتَّت "الأمير موفد الله" إلى أمير كبير وأمير صغير؟ لا أريد أن يسمعوا كلامي، غير أنني لا أوافق.

ابتسم وابقق تامير.

- يا ضيف، تعبر عما يريدك امراء البجدوخ تماماً. - وافق جنجته سليم الأمير الضيف، - ولكني لا أوافقك شخصياً. الأفضل أن يكون على كل أمير، ولو كان أحكمهم، قريباً. أليس من أجل هذا قالوا: رأسان خير من رأس واحد؟ ليس كلام الأمير صائباً دائماً. وأخطأه أكثر...

- لو كان الأمير يخطئ، - لم يوافق النبيل أردن، - أكانوا لقبوه بالأمير؟ - الحصان يتعثر رغم أنه بأربع قوائم، فلماذا لا يخطئ الأمير؟ - عارض تامير أيضاً النبيل.

- هذا حصان، والآخر موفد الله تعالى، أمير، - ارتفع رأسا كتفي النبيل أردن رغمًا عنه، إذا وصلتم إلى هذا الموضوع فإن الأمير ما كان فائضاً عن حاجتكم. - لماذا ليس عند الأبراخ امرأة تلد أميراً؟ - لم يستطع فلاح قريب من الباب أن يصمت أمام الأكابر منه سناً.

- الأمير لا يولد، بل يرسله الله إليهم!.. - تصلب النبيل أردن الذي بدأ مفعول الباخسمة يؤثر فيه، على رأس المائدة.

ندم المضيف تناو على طرحه موضوع الأمير. ورط نفسه بحجة موافقة الضيوف. وكذلك أمير الحاتيقواي لم يكن يريد شيئاً، مثله مثل تناو: لماذا تناؤل هذا الموضوع في بلاد ليس فيها أمراء؟ ومن دون هذه الذريعة فالأبراخ لا يعرفون على من يُشبهون خناجرهم فينتظرون ما لا يعجبهم!.. يا ابن أختي حماقتك تعادل ضخامة جسدك الذي بحجم الفيل! ومن اصطحك أشد حماقة منك. كانت أمننا نصحتني ألا أصطحك.

- يا ابن أختنا، - قال أمير الحاتيقواي، - اهدأ قليلاً، لم نأت لترتيب أمور الأبراخ. إذا لم يعجبك الحساء الذي وضعوه لنا فالأفضل أن تتظاهر بأنه يعجبك. هيا دُق منه!..

- إن كان هذا رأيك يا أمير، - أعاد صوت الأمير النبيل أردن إلى وعيه، - فما أطيبه من حساء، أمامي بفضل الله، سأذوق منه. - الأفضل من كل ما سواه هو أن تسمع حكاية قديمة مما أعرف، - أضاف

النبيل إلى كلام الأمير، - ما لا ضرر منه الآن هو الحكاية.

- وفي الحكايات تروى مظالم الأمراء يا ضيف، - قال تمبر، والتفت إلى النبيل أردن غير أنه لم يلاحظ عليه شيئاً.

- إذن يا جماعة، - ابتسم أمير الحاتيقواي، - سأروي لكم حكاية القائل: من سيشي بي ما لم يكن حولي أمراء ونبلاء وفلاحون، إن لم يش بي كسار الزبادي¹، لا أعرف اسم القرية التي حدثت فيها الحكاية. قبل أيام كانوا مجتمعين في مضافة أحد الأمراء، - لم يستطع إلا أن يأتي على ذكر الأمراء، وتظاهر بأنه لام نفسه على ورود سيرته. - كان أحدهم انتهى زوجة صديقه. خدع الخائن صديقه فاصطحبه إلى مكان ناءٍ وقتله. قال الصديق وهو يُحتَضَر: قتلتي وأنا بريء، لن يُغْفَرَ هذا لك. رد الخائن: من سيشي بي إلا كسار الزبادي؟ ونظر إلى نبتة علق فيها الكسار، وضحك. لم تكن الزوجة تعرف كيف قتل زوجها. وبعدما ترملت بمدة غير قصيرة تزوجت من الخائن. وفيما هما يعيشان في تفاهم دخل كسار إلى الغرفة. تذكر الخائن ما كان قاله صديقه وهو يموت فضحك. سأله المرأة: ما الذي يُضحكك؟ ظن الخائن أن زوجته نسيت زوجها الأول، فروى لها معتدّاً بأنه قتل رجلاً في سبيلها. وفي الليل قتلت الزوجة زوجها الخائن. ألم تكن امرأة خبيثة؟ سترنا الله من مثل تلك المرأة. - لا أرى المرأة فعلت ما تلام عليه. قال سليم.

- لم تفعل ما لم يفعلوا بها. - وافقه غيره.

- لو كنت مكانه، - غمغم النبيل أردن لجاره، - لخنقتها بشعرها. لا يجوز أن تبتسم لجنس النساء في وجوههن، حتى أفضل النساء عدوٌ خفي للرجل.

- لا تبقى لذة في من يطلقها ثلاثة رجال. - قال أحد مرافقي الأمير، وابتسم، - ماذا كان رأى فيها؟

- لو كان عمل خيراً لوجد خيراً، - مرة أخرى تدخل سليم، - وكرر ما قال

¹ نبتة برية تزهر زهوراً خفيفة جداً على شكل كرات صغيرة، تنتطير في الهواء. وتُعرف في الأديغية باسم "تتركن".

- سابقاً مؤكداً رأييه: - لا أرى المرأة فعلت ما تؤاخذ عليه.
- أنا كنت وصفتها بأنها سيئة ولكنها، - تراجع أمير الحاتيقوأي، - امرأة صادقة. هكذا يجب أن يكون سلوكها مع الرجل.
- طبعاً، أيد تتاو الأمير الضيف. وفجأة قفز إلى الذهن الطريقة التي مات بها شراندقوه بحقوقه الأمير، دون أن يدري من أين جاء الخاطر. كان يعتبر عدم ظهور قاتل شرلأقوه ناغوه، والفراس الوحيد الذي قُتل على يده الأمير الصديق، نوعاً من الإهانة. - هذا هو السبب في قولهم إن الجريمة تنكشف إن عاجلاً أم آجلاً. لا أعرف بشأن شرلأقوه ناغوه، ولكني أعرف أن الصديق القديم بحقوقه عرف الفراس القاتل.
- جفل تامبر من الخبر الذي رواه الأمير على سبيل الحسرة على صديقه القاتل، خائفاً من أن يكون نوعاً من الخبر المبطن. ومما جعل الدم يقفز إلى الذهن ورود اسم الأمير بحقوقه. كان يحدث كثيراً أن يخفي عن الزوجة أسفه على أن الأمير الذي طرده من بلاده، مسقط رأسه، قُتل على يد سيسار، لا على يده هو. مضى زمن طويل على آخر مرة سمع فيها تامبر قصة مقتل الأمير. وبعد مقتله التقى بابنه. كانت الأم التي لم تعش إلا نصف عام قد أخبرت ابنها مجر باسم القاتل، غير أن الأسرة صمتت معتبرة مقتل الأمير على يد امرأة إهانة لها. أشاعوا عنه أنه قتل على يد عدو كان الأمير شهر عليه سيفه يوماً ما. إذا كان هذا موضوعك يا جمه تتاو فسأحقق لك ما تريد تماماً. سأحمو البطولة التي يزينون بها وجه أميرهم، وسأكشف لك من اجترح البطولة. المرأة تعاتبني دائماً على أني أمنعها من رواية انتقامها.
- لا أعرف قاتل شرلأقوه كما أنك لا تعرف يا تتاو، - قال تامبر، والتفت إلى سليم، - ولكن قاتل الأمير بحقوقه ليس بعيداً، وإن أردت أحضرته لك حالاً.
- هل هو ميشكا القوزاقي؟.. - جحظت عينا تتاو كعيني البومة ناسياً الضيوف.
- لا، ليس نكراس ميشكا.
- من إذن؟

- إن كنت تريد رؤيتها فاستدعها لأنها في بيتنا. - أطلبوها على لساني، وإلا خجلت من غطاء الرأس، ولم تأت سيسار.
- سبحانه الله يا جماعة، ما أسمعته عجيب! لم تكف العينان لجمه تتاو فتفحص الجالسين في المضافة بفمه.

-3-

- فيما شمس الصيف الحارة تبدأ بالانحسار عن الجبال، دخل إلى دكاياه ثلاثة فرسان مجهزين، وتوجهوا إلى باب دار وايقق تامبر دون أن يسألوا أحداً. عرفت سيسار أحد الثلاثة، واستقبلتهم بفرح قبل أن تتيح لهم الترجل:
- عندنا ضيف كبير، تفضلوا يا موسى، - أمسكت سيسار زمام حصان موسى كما يفعل الرجال في استقبال الضيوف، وأنزلته.
- حياك الله يا أختي، أين وايقق إذن، لا أراه؟
- لا يزال غائبا منذ سافر هو وميشكا لزيارة لاجي في البجدوغ. حان موعد وصولهما، أنتظرهما اليوم.
- لماذا لا تظهر مزيس؟ أكون نَعْدُ نفسها صارت صبية؟ - فتش موسى عن الصبية الصغيرة.
- حبستها في البيت لشقاوتها، تفضلوا يا موسى إلى المضافة. كيف حال أمك؟ أعدها كحماة لي فلا أنطق باسمها. وأكوز وسامت، وإخوتك؟
- كلهم بخير، في أحسن حال.
- من رفيقك يا موسى، لا أعرفهما؟ - لم تترك سيسار ما لم تسأل عنه في طريقهم إلى باب المضافة. وكانت تنظر إلى ظهر المرتفع لعل الغائبين يعودان. وفحصت قطيع الخراف وراء البيت.
- سأعرفك على رفيقي يا أختي، - توقف موسى بكل ضخامته، - هذا أخي الصغير صبح إن كنت تتذكرينه، والثاني أكجكوه نطار، ابن أفندينا. نعم، هو ابن أنزور.
- واه!.. هذا صبح الذي لا أتذكره؟ - دنت سيسار من صبح فاتحة ذراعيها

وعانقته. - صرت رجلاً!.. تفضل يا نطار، أسمع أخبارك وإن لم أكن أعرفك. والثوب الجميل الذي خاطته أمك مريم عندنا في البيت. اسمُ والدك وصل إلى البعيد. تفضل يا ولدي، تفضّل!

لم يستطع نطار أن يقيم في إستانبول وراء البحر إلا عاماً ونصف. لم يقصّر حسن مراد ولكنه لم يتحمل. تبَيّن عن رجل لم يتوقعوا منه قطّ ما بدر منه. ساعد نطار في التعرف على أسرتين غنيتين من أسر رجال الدين بناء على رجاء والد نطار، وعلموه. وكذلك بشخصين آخرين، ولما تزوج تركي متنفذ من أسرة قريبة منه اصطحبه إلى حفلة عرسه بلباس أديغي كامل. عاش الشاب في إستانبول مكرماً أينما ذهب في المدينة، يُذكر اسمه بالخير. ومع أنه شارك في الأعراس التي يتألق فيها الذهب والفضة، وفي سباقات الخيل، فإن عينيه لم تتوقفا عند أي شيء. قضى نطار سنة ونصفاً، والشمس التي تحيم على رأسه ليست له، والليلة المقمرة ليست ليلته، والأذان الذي في أذنه ليس أذانه، وحين يجلس إلى البحر يرى الأمواج المتدافعة أعداءه. يغبط السفينة التي تبهر صوب بلاده. أنفق عاماً ونصف على البحث عن طريقة لإقناع والده.

كان من حظ نطار أنّ طلعت كان صديقاً أكبر منه في تركيا. ولولاه لما استطاع أن يصبر شهراً. لم ينس لاتسه يوماً واحداً خلال العام والنصف. لم تغب صورتها على كفل حصان أخيها موزج على باب شراًقوه عن ذهنه. المقطوعات التي كتبها نطار بشأن لاتسه مهداة إلى أرضه. عندما يقرأ نطار الأشعار التي كتبها في تركيا فإن دموعه تخونه مع أنه يعيش في الأرض التي ولد فيها بعد ما عاد إليها. قلبه متجه إلى الفتاة التي تعيش في البسلني البعيدة عن الشابسغ. يتعارفان من خلال السلامات المتبادلة، وحلاوة هذه التحيات هي قوام حياتهما.

بعد عودته من تركيا فحسبُ نشأت بين نطار وصبح صداقة عميقة فلا يصبر أحدهما عن لقاء الآخر. وحينما كانا طفلين قبل هذا كانا يلتقيان طبعاً: ليس

قليلاً أن قذفوا كعوبهم بالكعب الرئيس لهما¹. ولما تقدما خطوة أخرى في العمر تجسسا كثيراً على البنات². ولعبا معهن كثيراً لعبة "القانديس"³. وفي السنوات الثلاث أو الأربع كوّنا صداقة لا يمكن فصمها. ولم يغيب موسى عن التدخل في صداقة الولدين. كان نطار يعتبر موسى أخاً أكبر له منذ التقيا في القرم. يحترمه في كل مكان. وكان أصبح كأخيه الأكبر في طباعه وحركاته وهدوئه. ولم يقتصر الأمر على هذا، فقد كان أصبح يقدر احترام صديقه لهذه الأمور. وإذا أجلستهما وقارنت بينهما فأحدهما غليظ الملامح، والآخر رقيقها، ولكنهما متشابهان روحاً وطبعاً.

يعتدّ موسى بصداقة أخيه صباح ونطار. وهذا هو السبب في مرافقته لهما. يمكنه أن يساعدهما في إحدى المهمتين اللتين يسافران لأجلها. والمهمة الأخرى الأصعب، يظن نفسه قادراً عند الضرورة أن يساهم فيها إن جندوه جاسوساً. رفع حاغور رأسه ونظر فاستغرب ما رأى في المرعى: سيسار بقبضة الرجال هجمت على أحد الخراف ولكنها تعثرت ووقعت أرضاً. نهضت، وخادعت الخراف الآمنة فأمسكت بأحد كبارها، وصرعته. أمسكت بالقوائم الأربع وقذفت به على ظهرها تحمله، فقال موسى للأصغرين:

- والله يا أخوي الصغيرين لم يكن تصرفنا نحن الثلاثة مشرفاً. أسرعاً، وخذا عنها الخروف.

بقي موسى بعض الوقت في الغرفة كي لا يُخرج سيسار. ولما سمع صوت شحذ السكين خرج غير واثق من قدرة الشابين على التعامل مع الخروف. ومرة أخرى ما رآه عجيب: سيسار على الباب تشحذ سكينه، كبيرة على أن تكون سكيناً، وصغيرة على أن تكون خنجرًا. والشابان يقفان أمام الخروف، ينتظران

¹ يتكلم على كعب مختار تُصبُّ في منتصفه كتلة من الرصاص للثقل، ترمى به الكعوب الأخرى.

² يتكلم على بنات يسهرن في أحد البيوت ويطبخن ويدعون الشباب للسمر.

³ الاسم بالأديغية، وهي عظمة صدر الدجاجة على شكل حرف V، يمسك شخصان، ولا سيما شاب وشابة، بطرفيها، ويكسرانها، ويتراهنان على غرامة لمن يتكلم قبل صاحبه.

صاحبة غطاء الرأس.

- ماذا تنتظران؟

- ننتظر من تشخذ السكينة. همس صبح في أذن أخيه.

- وهل هذا مقبول؟

لم تسمح لنا بمسّته ريثما تسن السكينة. - كان نطار أيضاً يستغرب ما يراه.

- أكانت ذبحت الخروف بنفسها لو لم أطلب منكما مساعدتها؟ ذهب موسى نحو المرأة، سحب الخنجر، ووجّه الخروف نحو القبلة، وكرر مرة أخرى متعجباً. - هل هذا ممكن؟

لم يعد تامير وصاحبه في المساء، ولا في اليوم التالي، ولا في اليوم الثالث. كان الضيوف قلقين مع سيسار. أرسلوا الابن الأصغر لسليم بضع مرات لمعرفة إن كانا عادا. وفيما قرر الضيوف أن يبحثوا عنهما في اليوم التالي إن لم يصلا، عاد الفارسان مساءً إلى الدار. فرح الصديقان باللقاء كأتهما لم ير أحدهما الآخر منذ سنين. وكان الشابان الشابسغ صاحبين لميشكا فلم تسعه الدنيا من الفرح.

لم يحدث ما يزعج لمن سافروا إلى البجدوغ. استقبلهم الفلاح لاجحي، والإخوة مشقوقه بالترحيب. وتعرفوا إلى بضعة فلاحين من البجدوغ لأول مرة. ورتبوا أمور الأمراء والنبلاء أكثر من مرة. وتكلموا على طريقة إدارة الأمور في غياب الأمير الكبير حجمقوه ألقس. وبعدما قضيا يوماً وليلة قرر تامير، وقد قررا السفر، أن يتوجها إلى قرية ميشكا بعدما وصلا قريباً منها. لم يكن سلوك تامير مرتجلاً ولو أنه تحول إلى ما يشبهه. كان قد أحس منذ زمن بعيد أن ميشكا يحس بحزن عميق إن لم يدخل قريته مرة في العام رغم غياب أهله. ثم إن الحزن بان جلياً على ميشكا لما بدأت سيسار تتكلم في قضايا الزواج. كان تامير يريد اختبار نفسه مرة أخرى قبل أن يخطو خطوة بحجة زيارة البجدوغ. وإلا أذنب ذنباً لن يخلص العمر من عواقبه. لا يمكن العيش وفق رغبات المرأة فحسب. من يجب أن يعيش ميشكا معها العمر هي من يريد لها هو بروحه وقلبه، لا من تشير إليها سيسار.

- في الصباح لما نُحَضّ الضيوف، وضعوا تامير في صورة الموضوع.
- أعلّمنا نظار برغبته في تعلّم اللغة الروسية، فاصطحبته إلى جوار ميشكا.
 - تفحص موسى بنظرة ودّ الثلاثة المجتمعين عند الباب. وكذلك بالنسبة إلى أخي، لن يضره إذ ليس عبثاً، وهي أول رغبة عنده، ما رأيك أنت يا تامير؟
 - ممتاز! وأنا سأفيدهما بالقليل الذي أعرفه من الروسية. - فرح الفلاح وايقق، ثم سأل ميشكا مفهماً إياهم أنه يعرف الروسية جيداً. - حسناً يا ميخائيل؟ غارنو باتكو¹، - أجاب ميشكا.
 - أعرف معنى "باتكو"، ولكن لا أعرف ماذا يقصد بـ"غارنو" - قال موسى.
 - ليجب ميشكا على هذا، - ضحك تامير.
 - في لغتنا نحن القوزاق يا موسى، - قال ميشكا تغلب عليه لغة الأبخاز، - معنى غارن هو حسناً التي قالها موسى. أي: نعم.
 - وفي الحال ردد نظار في ذهنه الكلمتين، والتفت إلى صبح.
 - والآن يفضل أيها الولدان أن تخرجا من المضافة، - قال حاغور، واستشار تامير، - ماذا قلت يا تامير معنى "حسناً" بلغة القوزاق؟
 - غارنو- خَرَشُو! - أسرع نظار بالردّ.
 - واه، ما أسرع ما التقط الولد!.. - تعجب موسى، - حسناً إذن؛ اخرجنا من الغرفة، نحن سنحل الموضوع الآخر من دونكما.
 - لأي موضوع تطلب من الشابين الخروج؟
 - بالله عليك يا تامير ألا تعرف، هذان شابان، مليئان بالحياة والحرارة. يسافران إلى الأخت الصغرى للنبيل موزج في البسلني. ما كنت أريد الكلام في الموضوع بحضورهما. لنرافقهما حتى الجمكوي، سنزور زيش برفقة ميشكا، لم نره منذ زمن بعيد. وعندما يجيز الشبان الأمر نعود معهما.
 - ووي يا حاغور، أهذا خبر!.. نرافقهما بكل سرور، - فرح تامير كأنه كان بانتظار الخبر، واختطف الكلام من الصديق قبل أن يكمله. - والله يا موسى

¹ باللغة القوزاقية، وسيرد معناها بعد أسطر.

لا تزال هذه المهمة أمامي من أجل ميشكا. ولكن لا أعرف كيف أتفاهم مع من في بيتي.

-4-

- ما تَسَبَّب في قولهم: "من يغيب عن حمارة تأكله الكلاب" يا عجوز حادث من هذا القبيل. - ترجل جمه تتاو من الحصان وهو يشتم، والعجوز في خدمته، تسمعه وهي تتظاهر بنفض غبار السفر عنه. - لم أتوقع قط أن مجر بن بحقوقه شراندقوه يمكن أن يتعامل مع موضوع والده بهذه الطريقة. يا حسرتي يا شراندقوه!.. كان أرحم لي أن أموت معك في ذلك اليوم من أن أسمع ولدك المدلل. كيف سأخبرك إن التقينا يوم القيامة؟ لم يسمع نصيحتي؛ ابتسم لي واستمع إلي كأمر مدلل مُراء، وصرفني وكأن ما أرويه له حكاية قديمة.

- ألم يصدّق الخبر الذي نقلته إليه؟

- قال لي: والدنا جرح مشاعر الكثير من الناس، فإذا شهرنا السيف على كل واحد منهم فلن يبقى من الأسرة أحد.

- يا مصيبي، يا مصيبي!.. - لا تزال العجوز تقتل حول الرجل.

- اهدئي لحظة!.. - نهر تتاو العجوز، - ماذا جرى لك حتى تدوري حولي، عيب إن رأنا أحد. الأفضل من كل هذا أن تغسلي لي رجلي بالماء البارد، فترجي صجري. قائمة البقرة لا تقتل عجلاً، لم يعد يهمني ما قال لوالده المرحوم. بل إهانتني لي. أيجوز الخوف إلى هذا الحد من امرأة قاتلة؟.. قال لي إن قاتل أبيه ليس امرأة!..

- ومن أين يعرف أنها ليست امرأة؟.. - تناولت شهيدت معاتبة إبريق الماء من الكنة من وراء الباب. كانت اعتادت منذ دخلت بيت جمه على أن تغسل رجلي زوجها. فقرصت أمام الطشت مسرورة بعملها. - اختبأت الأسرة بكاملها فقتل المسكين على يد الفارس العابر. لم يسأل أحد القاتل لماذا يفعل فعلته. ولم يصرخوا فينبهوا القرية.

- القاتل ليس فارساً عابراً، بل قاتل مارق...

- نعم هي امرأة آل وايقق الخبيثة... إن شاء الله إلى الجحيم. لا أرى من اللائق أن تحمل السيف من تنجب أولاداً...

- ليس بالسيف أيتها العجوز المسكينة، بل بالسوط.

- وبالسوط ألأم من القتل بالسيف!.. ألا تستمتع بالماء البارد؟ إن لم أمتّع أيها العجوز فمن يفعل هذا؟! ألست أعيش من أجل أن أرضى بما ترضى به أنت، ويعجبني ما يعجبك؟ ما يهينك يهينني. وشرفك شرقي. ليطأ بحقوقه مجر دارنا إذن!.. سأحمل العصا وأتلف ما لا يُعوّض!..

- هذا هو يا عجوز، - يلوم تتاو نفسه وقد لَينَ كلام العجوز قلبه. - ما حدث لي ينطبق عليه قولهم: العزة الصلعاء ذهبت لتأتي بقرن فسلخوا أذنّها. إن كانت يدك مُدْهِنَةٌ فامسح بها رأسك. جرى لي ما جرى للعجوز التي تعرف كيف تفصّل، ولكن ليس عندها ما تفصّل. ليس من يصرعك مشكلة يا عجوز بل من يفاجئك.

- لم يجر لك شيء مهم يا عجوز. لم تزرهم لغاية سيئة بل فاعلَ خير. من لا يستبشع رأسه لا يستبشع رجله. لن يعيرنا أحد بأننا قبيحون. لن نذهب لنغدر بأحد. من عنده قضية ثرثار. ومَن على جسده دملة، ليعشّ عمره يا عجوز، وهو يحك جلده. لا أريد أن أسمع اسم مجر، لا أريد. ليتقيّاً الطعام الذي ذاقه من عندي، وليملاً الخلاف بيته!.. - لا يريد أن يعرف الناس أن والده قضى على يد لابسَة غطاء رأس؟! تريدون أن نقول: من خُلق بقبعة على رأسه مات وعلى رأسه قبعة؟ أهذا ما تريدونه؟ دارت عينا شهيدات دون إرادتها.

- هيه يا عجوز، لماذا لا تعرفين قدرك؟ - استعجل تتاو دون أن يغضب. - لا تنسي أنني جالس أمامك!..

حين بدأ غضبُ تتاو على الطريق يهدأ مع لعنات العجوز وشتائمها ندم على أنه لَقَمَ العجوز موضوعاً يمكن أن تجترّه إلى الخريف. ما العمل؟ من الصعب إطفاء النار بعد رميها. ولن تستطيع فعل شيء إن خلعت القبعة وهربت. قال تتاو: أخطأت إذ ورطت هذه العجوز في قضية آل بحقوقه. ليتها لم توجه كلاماً مهيناً إلى مجر في إحدى زياراته لنا. في عالمنا اليوم إن كان وراءك رجل

متنفذ استفدت من حمايته. ولذا لن ندع آل بحقوقه يقولون لنا: من يلحق لك فكأنه يقول لك صراحة، ومن يصارك يقتلع عينك!.. وراء آل بحقوقه أمير البجدوغ الكبير حجمقوه. لماذا أتغابي فأجعل منه، هو الآخر، عدواً أسود؟ أغنية من تركب عربته غالية في عالمنا اليوم. البجدوغ - الأبراخ ليس عندهم امرأة يمكن أن تنجب أميراً، فلذا يعيشون وهم يسفحون ماء رجولتهم مشتاقين إلى ماء غيرهم. يشتتون من غبائهم طرد النحل الجديد بغصن أشعث. ليس الموضوع أن آل بحقوقه يحبوني، وأنا أحبهم؛ ليس ما عندي في الأبراخ أقل مما عندهم. وإنما ذاع صيت الأمير عنهم فينادونهم بهذا اللقب... لا بأس لينادوهم، فلن أعاديهم من أجل هذا. سألو: مَنْ رأسه أجمل؟ فأخرجت السلحفاة رأسها. لن نعمل مثلها، لن نُخرج رؤوسنا سواء كنا أغنياء أم فقراء. سنعيش والناس يجهلون غنانا.

- يا عجوز، إياك بهذه الحجة أن تلقي الفتنة بين آل بحقوقه!
- لا سمح الله يا عجوز!.. - فهمت شهيدت مبلغ كلام الرجل، - وهل هم أعداؤنا فأرمي الفتنة بينهم؟!
- ومن أين أعرف؟ أسمعك تُكثرين انتقادهم.
- أقول لأنهم جرحوا شعورك... ولكن إن لم أُنْتَفِ وإيقق الأشعث شعرة شعرة فلن أكون إنساناً.

- هذا ما لا يجوز الآن. اصبر في فمك عنه. سيطرنا وإيقق من القرية.
- وهل تظنني غريباً مثله فيطرنا؟ - لم يأت بي أحدٌ إلى دكاباه بالمجرفة... ولا أحتمي بالكفار. لا تقلق أنت، أنا أعرف ما أفعل به. وصلني كلام إن ثبت صدقه فلا أريد غيره.

- وماذا سمعت
- ينوون تزويج ولدهم الكافر!..

- وممن سيزوجونه؟
- أغور، ابنة أخت جنجته سليم.
- ومن أخبرك؟

- أخبرني من يعرف. ليتهم زواجه من ابنة الفلاح هذه والناس يستغربون ما يسمعون!.. لا أريد أن أسمع بعرس غيره هذا العام!..
- ولماذا لا تريدين؟
- كنت سأرى كيف يتصرف الفلاحون.
- لن يفعلوا شيئاً.
- لا تقل هذا يا عجوز، لن يفعلوا فحسب، بل سيبالغون في عملهم.
- ولماذا؟ ألم ير فلاحو الأبراخ عرساً؟!
- بل لأنه لن يجري في دكاياه مثل هذا العرس!..
- سيجري، وإن لم يجر إلى الآن.
- وسنشهد هذا كما نشهد يومنا إن عشنا.
- إذا كان فلاحو الأبراخ يلبسون قبعات فلن يقبلوا ما يفعل سليم وجماعته.
- القبة التي يلبسونها اليوم هي نفسها التي كانوا يلبسونها حين سمحوا، رغم اعتراضاتي، للكافر أن يمد رجله إلى أرض الأبراخ. من أين تأتي بمثل هذه الرجولة؟ لم يبق في الأبراخ من يلبس قبة صحيحة!.. رأوا الكافر الوحيد الذي خالطهم يخلق ذقنه فبدووا يعزّون وجوههم أيضاً. هذه الجماعة التي أراها يا عجوز سيبراهم أولادنا، إن لم نشهد نحن، وقد حلقوا وجوههم. ألا ترى إلى رجالنا "المحترمين" يكلموننا بلغة القوزاق "خَرَشو!"... آه يا جماعة المجرمين!
- ليسلّ حليب أمّ من يقول هذا من فمه!، وليتركه الله بعض لسانه!.. لا أعرف يا عجوز غير أنني أتوقع ألا يقبل الفلاحون. أعرف أن كثيرين لن يرضوا.
- لماذا لا يعتنق الإسلام؟
- أستغفر الله، لم يدخل بعد في الإسلام؟
- انتظر إذن!.. لا يزال الصليب في عنقه. القوزاقي ووايقق يمارس كل دينه. أحدهما يقول "الله أكبر" والآخر يقول "خرشو" ويرسم الصليب. ثم يجلسان معاً إلى المائدة فيأكلان معاً ما رزقهما الله. الأسرة كلها تأكل من الصحن نفسه.
- يا إلهي، يا من يبتهل إليه الجميع لا يبتهل هو إلى أحد، ارحمنا فاغفر لنا. لا

أظن أن يصيب دكابه مصيبة بعد الكوليرا أعظم من هذه. اغفر لنا، نحن لا علاقة لنا بالأمر. أفضّل أن أسفح دم القوزاقي على أي شيء آخر منذ أن عادوا بأخي الأكبر ميتاً من الضفة الأخرى لنهر بشزه. لماذا تعرف سيدة البيت ذات الرأس الأشعث حين يتجابه الدينان في القرية؟ وهي إلى أين وُجهتُها؟ إلهي اغفر لي، لا أريد أن أتكلّم عليهم، الأسرة التي خرجت من كنف الله، لا أخلاق لها، ولا الله قائم عليهم. نعم، نعم، الله تحلى عنهم. أشفق عليهم، ولا أحسدّهم، لا سمح الله!.. الآن أفهم لماذا تُحمل ابنتهم الصغيرة على رقبة الكافر كأنها حُثى. - من يتقبلها كفتاة متى كبرت؟ - حَقَّتْ صوت شهيدت، ثم غضبت وعيناها تلتمعان، - لا يا عجوز، لن تقبل أي امرأة في دكابه أن يزوّج الفلاحون الفتاة بالقوزاقي.

- هذا شي آخر يا عجوز.

- سبحان الله، سيسمح الفلاحون على مرأى منهم للقوزاقي ببناء كنيسة على أرضهم!..

- لا أعرف إن كانت الكنيسة مُلِحّة، ولكن سيخلفنا من سيري مثل هذا، - مرة أخرى ألهب تناو العجوز مستمتعاً بغضبها.

-5-

إذا صعدت إلى جبل شَحَعُشَاشْحه، وخرجت من مضيق وارب دخلت في بلاد البسلني، وأحياناً يسمونها ينجج. هذا الطريق هو أقصر الطرق إلى ينجج إذا خرجت من الأبراخ. وإن لم تكن على عجلة من أمرك قطعته في يومين. ولكن حاغور موسى وأصحابه لم يختاروا هذا الطريق. كانوا ينوون أن يوصلوا الشباب إلى الجمكوي، ويدلّوهم على القرية التي يعودون إليها. ثم يتركوهم على راحتهم. ما إن ظهرت قرية جمكوي زيش من خلال الأشجار على جانب نهر فرزه حتى أوقف حاغور حصانه دون أن يصل إلى الحافة، وقال:

- اسمعوا أيها الشباب ما أريد أن أقوله لكم الآن: متى عدتم فستقصدون هذه القرية الظاهرة. إن سألتكم عن بيت جمكوي زيش فما من أحد في الجوار لا

يعرفه. نعطيك مهلة خمسة أيام بالإضافة إلى يومنا هذا. فإن لم تعودوا في اليوم السادس شغلتم بالنا. متى وصلتم إلى تخم الغابة الأيسر دون أن تعبروا نهر فرزه، وأضفتكم المسافة نفسها، فاعبروا النهر، واقصدوا منبع وارب. متى دخلتم البسلني، فسألتم، لأن هدفكم واضح، دلوكم على أي قرية تريدون. والاتجاه الآخر تعرفونه دون حاجة إلى أن أشرح لكم. وأياً قابلتم، فلا تسمحوا له بأن يتقرب إليكم بالكلام لأن عالمنا اليوم مضطرب، ولا تحاولوا أنتم من جهتكم. لا تتصرفوا بطيش الشباب. مع السلامة!..

- يا حاغور، - قال تامبر، - ليتنا عدنا شباباً مثلهم ونحن نعرف ما نعرف الآن!.. الله أعلم بما يعتمل في قلوبهم. ما أسعد أن تسافر إلى بلاد أخرى للمغازلة، والنساء والعجائز يسترقن الأنظار من النوافذ وثقوب الأسوار قائلات: هؤلاء جاؤوا من الشابسغ البعيدة، وتوأم قلوب شباب البسلني!.. حتى دون "بلاد أخرى" أليس من السعادة أن تذهب وأنت شاب إلى مغازلة البنات؟ أنت وأنا لم نسعد بشيء من هذا.

- والله صحيح... ولكننا لن نشبه أنفسنا بالعجوز الأصم الذي قال: في شبابتنا كانت الخراف تنغو، أما الآن فتغلق أفواهها، ولا تنغو!.. أنا تخطبت الخمسين، وأنت بعيد عن هذا، لا تجزع، بيننا ثلاث سنوات. - لا تستعجل!.. لا أفكر في هذا!..

الفرسان الثلاثة المتجهون إلى ينجج للمغازلة مجهزون باللباس وبالسلح. الخيل التي تستريح منذ مدة قصيرة تمضغ أرسائها. ومن على السروج تغلي دماؤهم. وكما نصحبهم الكبار يأسروا نهر فرزه وعبروا مخرج الغابة. وذهبوا نحو نهر وارب حتى حلول الظلام مبتعدين عن الجبال التي تبدو من بعيد. قصرُ ليل الصيف يساوي صبيحة ديك!

قبل أن ينبجج الفجر، عاد المسافرون إلى الطريق. طلوع النهار في الريف أسرع مما في الجبال. بهت الضوء في بداية الدرب قبل قليل. ثم رأى الفرسان أحدهم الآخر وقد اتضحت وجوههم. ولما ظهرت الشمس من قمة الجبل وبدأت ترتقي في السماء، اختفى الندى بمنتهى الحياء.

- والله هذا مؤسف، - قال صبح ما كان يقلقه منذ البارحة، - خدعتُ أخي الكبير...

- كيف خدعته؟ - لجم نطار الحصان.

- قلت له إني أعرف تقاليد التقاء عدة فرسان من اتجاهين، وأنا لا أعرف. هل تعرف أنت يا نطار؟

- وكيف أعرف وأنا لم أسافر في رحلات؟

- وأنت يا ميشكا؟

- أنا سافرت إلى أماكن كثيرة برفقة تامبر. وحدث أن مررنا بجموع من الفرسان. ولكن لم أتبته كيف كنا نتجاوزهم. أعرف أنك تحيي باليد اليمنى المرفوعة، وبالأخرى لا أعرف ما تفعل. - زَمَ نكراس ميشكا كتفيه. ثم نظر فرأى راعي خراف عجوزاً في البرية، فقال بسرعة _ دعونا نسأل هذا العجوز! توقف الفرسان الثلاثة عند الراعي العجوز:

- يا جدّنا، بارك الله في خرافك! - حيّا صبح، وترجل من الحصان. وفعل الآخرون مثله.

- حياكم الله يا أبنائي. تفضلوا! أنتم ضيوف. تأتون من بعيد. من الواضح أنكم من الشابسغ من طريقة تحيتكم. بيتي قريب، والعجوز عندها جبن طازج. - حياك الله يا جدّنا. ما زال أماننا طريق طويل. نود أن نسألك في أمر ما إن سمحت.

- هاتوا ؛ يسرني أن أنفعكم.

- نود أن تُطِيعنا على تقاليد تقابل الفرسان في الطريق، وتجاوز بعضهم بعضاً. - هل سألت عن تجاوز جماعات الفرسان... تجاوز الأعداء أم الأصدقاء؟ إن قابلتم يا أبنائي مجموعة من الفرسان؛ فإن كان تجاوز سلامٍ فهاكم الطريقة: تعبرون من يمينهم وأنتم ترفعون اليد اليمنى. أما التجاوز من اليسار دون سلام فهو تجاوز الأعداء.

- حياك الله يا جدّنا، - عاد الحُطّاب فركبوا.

- حياكم الله أنتم يا أبنائي على أنكم لم تأنفوا من السؤال عن هذا الموضوع.

حقق الله هدفكم حيث تسافرون. أراكم جديرين بأن تصبحوا رجالاً. من الصعب على شباب اليوم أن تقنعهم بأن يفعلوا ما فعلتموه الآن. وما لا يعرفونه يدعون أنهم يعرفونه.

قطعوا ضفة ينجح قبل حلول الظلام، ودخلوا إلى قرية أديفية. وبناء على تعليمات سيسار دخلوا إلى دار نردم الراعي قبل أن يدخلوا إلى دار لاته. رأى نردم الضيوف الشابسغ - الأبخاخ فجهر لهم أكبر خرافه تعبيراً عن فرحه بهم. وسهرت مجموعة من الفلاحين في المضافة إلى منتصف الليل. وكيف لا يتعرفون على حياة الفلاحين في بلاد أخرى!.. سألوها. - وأين يذهب البسلني الذين يعيشون في ينجح خارجين من إقليم الأديفة؟ - هؤلاء ليست أمورههم على ما يرام في هذه المنطقة. لا يترك الأمراء - النبلاء موضوعاً لا يطرقونه.

- والله ليست الأوضاع عندنا جيدة بالقياس إليكم أيها الضيوف. - أنهى الفلاح الأكبر سنّاً السهرة، - ليس الأمراء مشكلة بالنسبة إليّ. النبلاء لا يدعوننا نتنفس. ليعدّ كل منا إلى بيته كما يقولون: كل بيتهم قائمة بقرة، وأنا بيتي من ذهب¹. والضيوف عابرو سبيل. فليستريحوا. تصبحون على خير. - سنلتقي صباحاً إن شاء الله أيها الضيوف.

انتشر في القرية الأديفية في المساء نفسه خبرُ قدوم الضيوف من الشابسغ. حين قيل إن شباباً أمراء دخلوا إلى القرية ضحك الذين يعرفون أن ليس للشابسغ أمراء. ومن لا يعرفون استغربوا معتبرين الحدث عظيماً. وتبين أن من قالوا: من أين يأتي إلى الراعي نردم أمراء، كانوا أقرب إلى الصواب. وفي جميع الأحوال تحول الأمراء إلى نبلاء. والنبلاء إلى فلاحين. ومهما قالوا أو ظنوا فإن لاته حين سمعت بقدوم ضيوف من الشابسغ، وعرفت أن أحد الثلاثة اسمه نطار، قضت النهار بصعوبة، ولا سيما أن نهار الصيف طويل جداً. نطار الذي لم يكن يفارق القلب في السنوات الأخيرة بسحته الناعمة، أزاح الحُطّاب

¹ عبارة كانت تُردّد في الجولان أيضاً عند افتراق الأصدقاء أو رفاق اللعب، دون معنى منطقي واضح وارتباط بين جزأي العبارة.

البسلي الذين تقدموا إلى لاتسه. كانت لاتسه واثقة أنه سيزورها عاجلاً أو آجلاً. لم تكن تسمح لأحد أن يفتحها في شؤون الحب. وأخوها الأكبر موزج لم يكن متلهفاً على تزويج أخته. متى حان الوقت فستخرج وحدها من البيت. هذا من جهة، والأمر الثاني الذي لا يدعوه إلى الاستعجال شيء آخر: لا يرى بين الشباب من يستحق أن يكون صهراً. وهو جاهز تماماً حالما يظهر شاب من الأمراء. لا يطمع في الملك؛ يكفيه ما عنده، يرضى بأي مرشح إذا كان يحمل لقب أمير مهما كانت مرتبة الأمير صغيرة. المال يأتي ويغيب، ولقب الأمير يبقى على حاله، لا أحد يستطيع أن يمنحه لك أو يسلبه منك. يأتي إلى الأسرة سليل قمرٍ وشبيهة شمس. وإذا تحقق ما يريد موزج بشأن أخته فسيكون لأسرة براسبي الطامعة طوال عمرها في لقب الأمير ابنُ أخت أميرٍ. ولن يقفوا على قائمة باب الأمير كما هم الآن. سيجلسون معه إلى مائدة واحدة وسيجلسون إلى طرف كرسیه.

في المساء حين أبلغته المرأة أن الضيوف الشابسغ دخلوا إلى غرفة لاتسه، ابتسم النبيل موزج:

- والله لن أجتاز كل هذه الأرض، مهراً حوافر الخيل وأنا لا أعرف نوايا من أذهب إليهم. أختنا، إن لم تردعها شرعة الأديغة، لن تسمح لهم بخطوة واحدة إلى غرفتها.

-6-

- لن نعود، وقد وصلنا إلى هنا، دون أن نعرّج على الحاتيقواي. - قال تامبر،
- لا أعرف لماذا أعجبتُ أمير الحاتيقواي. كان قد غادرنا قائلاً: إن تجاوزت باب دارنا ولم تدخل فسأعتب عليك.

- كان قال هذا الكلام في بلاد الأديغة، - قابل زيش الضيف بالجواب السؤال، - بأي حجة تطرق بابه الآن إن تظاهر هذا النزق الصغير بأنه لا يعرفك؟ ألا يكون قد أهانك؟ هذا الخبيث يتبدل قلبه سبع مرات في النهار. لو سمعني لما سمحت لك أن تمرّ عليه كأنك طامع في شيء.

- في كلامك نصيب من الصحة يا زبش، ولكني وعدته فلا أريد أن أخلف بوعدتي. إن سمع أي كنت في هذه الأنحاء ولم أترك بابك فبأي عين سينظر إلي؟ سيقول في غيالي إني كذاب. وإن لم يتعرف علينا فلنسنا مدينين له. سنقول "رقصتنا غير رقصتك" ونصرف.

كان تامبر إلى جانبه وإن لم يساهم حاغور في الكلام معهما. كان ينوي أن يرجوه الذهاب إلى نواحي نهاية نهر لا با ولو لم يقترح صديقه التوجه إلى أمير الحاتيقواي. وهل سيأتون كل يوم إلى هذه الديار؟ وإذا كانوا أتوا فعلاً فسيجانبون نهر بشزه، وسيرى الجيش الروسي في الضفة الأخرى، وسينظر إليهم من بعيد وإن لم يختلط بهم. كانا تكلمنا في الموضوع هو وشباكوه في أثناء عبورهما للجمكوي. ولكن أموراً عارضة أحبطت المشروع. سيجدون من يضيفهم من فلاحي القرية وإن لم يتركوا باب الأمير. وإن صدف أن التقوا بالقوزاق فمعهم ميشكا مترجماً.

في اليوم الرابع من الموعد عاد نظار وجماعته مبكرين، باسمي الوجه، مما يدل على نجاح مسعاهم. لم يخرجوا الأصاغر سناً بسؤالهم عما فعلوه. واتخذ الشباب موقعاً مناسباً تبعاً لاحترامهم الكبار. اتخذ الفرسان طريقهم، ولم يسلكوا طريق الأبراخ بل نحو نهاية نهر لا با.

لم يكن لدى نظار اعتراض على أي جهة يتجهونها. الخاتم الذكرى الذي في الجيب يُنبئ له جناحاً يطير به. يهمس في قلبه مخفياً عن الرفاق، وفي الصدر تنبت أشعار سطرّاً بعد سطر. وفي دنياه برية الصيف التي يسرون فيها، والسماء الباهتة، والجبال الملتفة الظاهرة، وعربات الفلاحين البالية التي دَنُوا منها، بل صرير عرباتها. متى حان الموعد الذي أعطته إياه لاتسه فسيأتي بها في مثل هذا اليوم من ينجح على صهوة حصان، عبر سهل الجمكوي، ويجتاز جبال الأبراخ، ويصل بها جهراً إلى مضيق الشابسغ. وفيما ينصت نظار إلى وقع الخوافر أتت لاتسه ووقفت أمامه: القَدَّ الرقيق يليق به ثوب الحرير الملون، والوجه الشاحب يحاول إخفاء الفرخ الخفي. والشفتان قانيتان كأن الفرخ الذي في الصدر يلهمها ناراً. وبالإضافة إلى الحاجبين المتلاعبين تحت الجبين غير

العريض يتسق العنق الجميل مع القامة. والعينان السوداوان تظهران تحت الأهداب السوداء الطويلة فتدكران بالبحر الهادئ.

توقفت أفكار - ذكريات نطار حين توقف الفرسان الذين كانوا يلتفون تحت شمس الصيف الحارقة حول نهر لابا. يُسمع صدى الأحجار التي يعبث بها تيار نهر لابا، فيحكها بعضها ببعض، من الضفة - الغابة الأخرى. وأشجار الصفصاف لا تكتفي بما تبتلعه جذورها فتشرب أغصانها من الماء. والأعشاب والأوراق خضراء تُشعر بالماء القريب خلافاً لسهل الجمكوي. ومياه أمواج لابا تقفز كأنها فرحة باللقاء المرتقب مع نهر بشزه بعد ثلاث أو أربع غلوات حصان.

لم يُعد تامبر وصحبه ترتيب ملابسهم كثيراً. ركبوا، وقبل أن يصلوا إلى نهاية لابا انعطفوا إلى اليسار، ودخلوا إلى قرية الحاتيقواي المتناثرة في مخرج الغابة. بدا بيت الأمير من بعيد حتى لا يحتاج إلى السؤال عنه. تجاوزوا الحظائر الأميرية المحيطة به، وصاروا أمام باب المضافة.

وصل الإبريق والطشت قبل أن يجد الضيوف الفرصة للجلوس. ولما قدر الأمير أن الضيوف المسافرين انتهوا من الاعتناء بأنفسهم حيّاهم. لم يصح توقُّع زبش بشأن الأمير. تعرّف على وابق واستقبله بالترحيب:

- والله يا تامبر تبينت عن رجل حقيقي. لم تخذلني. عرّجت علي دون أن تتجاوز أرضي. وأنا راض عن رفاقك وعنك؛ رضي الله عنكم. - قال أمير الحاتيقواي بتصنعه المعهود، ولكن ليس نحو ضيوف اليوم، وإنما بشيء من الافتخار. - كنتم على طريق سفر، استريحوا!..

وفي الحال، وقبل أن ينهي الأمير كلامه، سمعت بضع طلقات بنادق. وقبل أن ينتبه الجالسون، ارتفع الصوت كأن أصوات بنادق أخرى تداخلت بالأولى.

- ما الذي حدث هنا؟ - ألقى أمير الحاتيقواي نظرة نحو مصدر الأصوات.

- ربما أولاد الأمراء يلعبون خارج القرية يا أمير، قال الحارس.

- لا تقل "ربما" بل اذهب وأت بالخبر اليقين.

سهر الناس في مضافة الأمير ومرحوا ولكن كان واضحاً أن بال الأمير مشغول

بأمر ما. الأمير قائد السهرة يرفع الرأس أحياناً وينصت، وفيما تظنه يضحك ينظر نحو الباب.

حين بقي حاغور ووايقيق وحدهما في الليل سأل حاغور صديقه:

- هل انتبهت إلى قلق الأمير الليلة يا تامير؟

- وأنت أيضاً؟ والله لاحظت، ما الذي ألم قلب الأمير الليلة يا ترى؟

- ما صدر من أصوات في القرية ليست علامة خير يا وايقيق. حاول الأمير إخفاء مشاعره ولكن حدث في القرية مكروه ما. ولكن لا أعرف من يخبرنا.

- أنا سألت النبيل الذي كان بجاني.

- ماذا قال؟

- قال إنه لم يسمع أصوات بنادق.

- لأنه حذرٌ قبل أن يعرف ما حدث في القرية.

- لا خير مزعجاً في القرية يا حاغور. سيتضح مع الفجر.

اتضح وقت شرب الشاي ما كان يشغل بال الأمير. رأوا ثلاثة فرسان لا يلبسون الزي الأدبيغي، فكشف أمير الحاتيقواي ما كان يخفيه ليلة أمس:

- ما كنت أتوَجس منه جاءنا به عديمو الإيمان. - قفز من مكانه ناسياً كونه أميراً. ثم ضغط على مشاعره واستقبلهم وقد صحا ذهنه، - تفضلوا يا ضيوف، لم يأتني ضيوف أغلى منكم في السنوات الأخيرة.

لم يكن للفرسان الثلاثة الواقفين أمامه نية الترحل. أعلموه بنظراتهم الجديدة أنهم لم يأتوا ضيوفاً. لم يدعوا الأمير يكمل كلامه، فقال الفارس الأوسط بالروسية، وترجم الشاب على يمينه بالقبرتاي:

- نحن موفدو الجنرال ألكسندر فاسيلوفيتش سوفوروف. مساء أمس أطلق شبابكم يا أميرُ النارَ على المعسكر الروسي. فإن بدر منهم ثانية مثل هذا التصرف الإجرامي فالجنرال يُعلمكم أنه لن يغفر لكم!..

انصرف الموفدون.

تابع الأمير شاحباً لا يعرف ما يقول وما يفعل، الفرسان الثلاثة. ثم التفت بقلب غاضب ونظر إلى الدار. رفع بضعة الأشخاص المختبئين وراء خزان

الحبوب رؤوسهم. واختبأت السيدة التي تلصصت عبر الجدار بوجه مذعور. وألقى الأمير نظره إلى الدار خائفاً أن يكون الضيوف قد سمعوا.

- أين أولاد الأمراء؟ - سأل الأمير الحارس الذي خرج من وراء الباب، - ليركب هؤلاء الثرثارون، وليلحقوا بي!.. الآن حالاً، وأنا في هذا الموضع!.. أيها الضيوف، - قال لهم شاعراً بالإهانة مما جرى له، دائماً نفسه، - لا تؤاخذوني، سأعود حالاً.

ركب النبلاء مذعورين حين رأوا الأمير ووراءه ثلاثة أمراء شباب راكبين. والذين لم يكونوا يعرفون ما حدث قفزوا إلى صهوات الخيل، ووضعوا أرجلهم في الركائب. الأمير أفكاره نحو الجبل الذي يعسكر فيه الجيش الروسي، وكأن لم يبق في العالم غيره. لا يلتفت، ولا يعرف ما يجري في قريته. أيها الثرثارون ماذا فعلوا بكم حتى تُفرغوا عليهم رصاصكم؟ الجنرال الحليق الوجه، لو لم يكن إنساناً، لأطلق عليكم بضع قذائف مدفعية فأبادكم. ما أسوأ ما فعل هؤلاء!.. نظر الأمير مجهداً نحو اليمين، رأى جنوداً مجهزين بالسلاح عيونهم على القرية. التفت الأمير متسائلاً عما في القرية، فرأى بضع مئات من الفرسان يتبعونه.

- بأي نية تبعتموني يا جماعة؟ - صرخ عليهم جاحظ العينين، - عودوا حالاً، سيظن من أزره أنني ذاهب لمحاربته. ألم أطلب منكم العودة حالاً!

حين رجع الفرسان نحو القرية عاد الجيش الروسي إلى هدوئه. وبعد قليل سحب الجنود الذين استقبلوهم الأمير إلى الجنرال سوفوروف.

- الجنرال المحترم. - ترجل الأمير، ثم توجه إلى الأمراء الشباب الذين يترجلون، وصاح فيهم: - ترجلوا يا عديمي الإيمان!.. أيها المحترم قائد الجيش القيصري، أخبرني موفدوك أنهم أسأؤوا إليكم. فجئت بهم إليكم بنفسي، ساحمنا أيها الجنرال الذائع الصيت. - مرة أخرى توجه الأمير إلى الشباب دون انتظار ما سيقول الجنرال، - هل ترون يا عديمي الإيمان هذا الجنرال الكبير؛ هل يُرفع السلاح على مثله؟ لا تنظر إليّ يا عديم الإيمان!.. - أسرع الأمير على عادة الأديغة إلى السوط وضرب به الأقرب إليه، ثم الثاني، أما الثالث فعلى ظهره. - خذوا يا عديمي الإيمان، خذوا!.. لماذا تستفزون من لم يتعرض إليكم؟! لا أراكم

بعد اليوم وقد فعلتم مثل هذا!.. هيا ابتعدوا وقفوا هناك!.. لا يستحق أمثالكم الوقوف في حضرة مثل هذا الجنرال!..

-7-

كان المثل الأعلى للفتاة أغور أمَّها، ثم سيسار، على الرأي القائل إذا كانت الفتاة صالحة نظرت إلى جارتها كشريكة لها في حياتها. في هذه السنوات الأخيرة، بعدما أسست سيسار أسرة، صارت أغور في أسرة تامبر قصداً أو عن غير قصد. لا تعرف لماذا أعجبتها سيسار خلافاً لسائر النساء. أغور منذ أن فهمت سرَّ الاعتناء بنفسها، أعجبتها العروس الجارة. لم تكن سيسار حقاً بمظهر العروس لتقدمها في العمر، غير أن أغور منذ أن تستيقظ تهرع إلى بيت سيسار ولا تفارقها إلى أن يعيدها أهلها إلى البيت. ولما وُلدت لأسرة وابقق فتاة صغيرة فرحت أغور كما لم تفرح بأخيها الصغير. عاشت أغور حاضنة الطفلة في غياب أهلها، تهرز لها مهدها، وترسلها سيسار إلى هنا وهناك حتى صارت صبية حلوة نظيفة على الأكتاف. لم يكن من الصعب ملاحظة أن زيارتها إلى بيت تامبر انقطعت في العام الماضي. كانت سيسار تبتسم حينما تفكر في سبب غلبة الحياء على الصبية، وتفهم السبب، وقد زاد حياؤها هذا العام جداً بالقياس إلى العام الماضي. ما العمل؟ ليست من الصبايا اللواتي تُفتح لهن ساحات الأعراس.

الوقت الذي كانت تختفي فيه أغور هو وقتُ ظهور ميشكا في الدار أو في البيت. ومتى تأكدت من غيابه هُرعَت إلى سيسار بسبب ودون سبب. في الأيام القليلة الماضية، حين ذهبت جماعة ميشكا إلى ينجج بحثاً عن عروس، سَعِدَت سيسار وأغور. وبقيتا تجتمعان وتتسامران على راحتتهما. وأحياناً، حين تأتي سيسار على ذكر ميشكا، تلتهب كفا أغور كجمرتَين، فتخفي انفعالها خجلاً. ومع أن الحياء يغلبها فقد كانت تستمتع بسيرة ميشكا والحديث فيها. فتستمع طوال النهار سواء احمرَّت أم شحبت.

لم تَلْمَح سيسار إلى أغور في مسألة زواج. ومن الواضح أنها تحبه دون حاجة إلى

تلميح. قالت سيسار: إن تخرج من فم ميشكا كلمة واحدة فأغور جاهزة تماماً. جنس النساء لا يُحسد!.. ييقين ينتظرن كلمة من الرجل، فيكتمن ما في قلوبهن من الجمال. أما الرجال فهم مرتاحون، قلوبهم متحجرة، لا يعرفون من يحبون ومن لا يحبون، يعيشون على المصادفة. شباب اليوم ليسوا مثلنا. مهما رجوتهم أن يتزوجوا رفضوا. ماذا ينتظر ميشكا؟ لماذا لا يلتفت إلى أغور الفتاة المثالية؟ مثلُ هذه الفتاة هي الجديرة بأن تصبح زوجة إن أردت أن تؤسس أسرة. بعد أن زار تامير الجمكوي وعاد، لم يتكلم في الموضوع، بل أصمَّ أذنيه عن أي كلام. أيكون عثر لها على عروس هناك؟ لا يمكن أن تخمن ما يخطر على قلوب الرجال. ألسْتُ أعامل أغور هنا على أنها كنة فأدللها. أيفعل تامير مثل هذا في كبره؟ لا، لن يفعل. وإن فعل فلن أقبل وإن لم يبق غيري!.. أنعيش حياتنا دون الحد الأدنى من الأخلاق؟! ما أشدَّ ما نرغب نردم فيّ حتى فارق جبال ينجج وأتى إلى إقليم الأديغة. ولما عثر عليّ كان تامير مقدراً لي فلم أقبل من نردم أن أكون زوجة له؛ ألم تبق في العالم كله ذاتُ غطاء رأس غيري؟! وها هو الشاب عاد بخبر: أرسل إليّ تحياته ودعواته بالرفاه والبنين الكثيرين. أسعده الله مع أولاده!..

قضت سيسار عدة أيام تنتظر من الزوج المبادرة، ومضى أسبوع آخر وسيسار تستغرب صمّت الرجل.

في أحد الأيام خرجت سيسار من البيت بعد العصر، لا تُطبق البقاء فيه. جالت بعينها في الدار. المسطبة نظيفة جداً. ولا جسم غريباً فيها. قررت أن تنظف سرج الحصان لترجية الوقت فحسب، وفي هذا الوقت عاد تامير من القرية، ونهر المرأة على عملها:

- كم قلتُ لك أيتها المرأة أن تكفّي عن مهام الرجال وطبائعهم!.. لا تُريني نفسك بعد الآن في الإسطل!.. أراك مرة تعملين في السوط، وأخرى في الرسن، وأحياناً في الركاب... لم يبق إلا أن ترتدي قبعتي! ما تفعلينه غير لائق لمن يراك. كيف أخالط رجال الحي غداً؟

- اللعنة على هذه، - رمت سيسار كومة الحشيش، غير آبهة بغضب الزوج،

بل باستمرارها في أعمال الرجال. - اعتدت على الفروسية فلا أستطيع إلا أن أمسح على جسد الحصان... أنت على حق يا تامبر، أستحق كل ما قلت لي، ولكن ما العمل؟ اعتدت... لن تراني بعد الآن أعطني بالحصان.

لا يرى تامبر سيسار بطباع الرجال لأول مرة هذا اليوم. كان يستغرب في البداية حين عاد بها من الشابسغ في زفاف، ثم بدأ قلبه ينفر من هذا السلوك. وفي البداية لم تكتشف سيسار في نفسها هذا الطبع. حُيِّل إليها أنها اعتقلت وزُمي بها في هذا الزبي النسائي الواسع عليها. وأكثر ما كان يزعجها طول الثوب النسائي، كان يعرقل حركة رجلها في أثناء سيرها. وكانت ترى أبأس سلوك لها في ارتدائها بنطال الرجل في غيابها. لم تعد رؤيتها نفسها بقبعة الفلاح في المرأة مشكلاً لها، غير أن تامبر لم يكن يشهد هذه المظاهر منها. ما كان يشغل باله شيء آخر: فكر كثيراً في غياب الأنوثة من حركاتها، والطابع الذكوري فيها. ومع أن الأسرة بدأت تتوطد مع الصبية والطفل الجديد فقد عاش إلى الآن متأملاً إقلاع المرأة عن عادات الرجال، ولكنه لم يستطع السكوت اليوم. وما كتمه في صدره طوال سنين أفرغه.

ندم تامبر على كلامه إليها حين رأى شحوب المرأة واكتئابها، ولكن كان من المستحيل استعادة الكلام الحاد. يا ربي لماذا جرحت مشاعرها؟ لتركب وتُخرج من الدار إن لم تكن هي ترى عيباً في هذا! ربما كانت مناسبة شبيهة هي التي دفعتهم إلى القول: جُرح السيف يلثم، وجُرح الكلام يبقى مفتوحاً. طبعي أنك إذا لم تتوقف وجد الناس ما يقولون لك. ألا تتحلين بشيء من اللطافة؟ متى مددت يدك إليّ ارتحفت بدلاً من أن أستمع بالنعومة. أقول هذا غير أن سيسار لم تكن هكذا. يتذكر تامبر الليلة الأولى التي مرت عليها سنوات. لم ينس الرغبة اللذيذة التي شعر بها وقتها حتى في أحلك السنين. والآن يدينها على مظاهر اكتسبتها مرغمة. لا ذنب لسيصار، الأمراء - النبلاء الباحثون عن ذنب هم المسؤولون.

- يا للعجب! ما أسرع ما بكيت الآن، - قال تامبر دون نبرة غضب، ولكن باستياء واضح، للمرأة التي تسبيل دموعها على خديها، - توقفي، إن شاء الله

لن يكون عندنا ما نبكي لأجله. إن كنت مسحت ظهر الحصان فلا تمسحيه ثانية وكفى!

- أهو ذنبي يا تامر إن خطر لي أحياناً أن أركب؟ - صارحت سيسار زوجها فجأة برغبتها.

- أين تذهبين إن رغبت؟ ألم يهدأ قلبك إلى الآن نحو آل بحقوقه؟
- ليأخذ الله آل بحقوقه إلى حيث لا يرجعون!.. - نكبوني، - مسحت سيسار دموعها، - كفى يا تامر، لن أسبب لك الحرج مرة أخرى في موضوع الخيل. تعال، العشاء يبرد. ميشكا ونطار أفطرا وخرجا. نشفت عيني في انتظارهما.

- لا تقلقي عليهما، لم يبتعدا. حان موعد عودتهما. أين الصبية؟
نادتها أغور قبل قليل إليها، وأخذت معها أخاها أيتج.
وضعت المائدة أمام الرجل. الباستا والدجاج المقلّى لا يزال البخار يفوح منهما.
وإلى جانبيهما عصير الإجاص المغلي المبرّد.
- تنوين أن تسرّينا الليلة.

- لا شيء أتكاسل عن طبخه إذا عرفت أنه يعجبك.
- أمن أجل الضيف الذي عندنا؟ - ضحك تامر.
- الضيف يأتي معه حظّه. ولكن لم أعد أعتبر نطار ضيفاً، على مبدأ: الضيف يصبح جزءاً من الأسرة بعد ثلاثة أيام.
- ويقال: الضيف متى طالّت إقامته ملّ المضيف منه. ألم تسمعي شيئاً من هذا؟

- وهل تستطيع الاعتماد في الكلام على بضعة أقوال؟
- ألا يتعلم هكذا شيئاً فشيئاً؟
- لا بأس إذن. - ابتسم تامر للمرأة بحنان، - اسمعي يا سيسار، اجلسي بجانبى بدلاً من أن تقفي على رأسي، ودعينا نأكل معاً وليتعجب من يرانا!
- لا سمح الله، هذا عيب!.. - إن يرنا أحد ينشر خبرنا قائلاً: الزوج والزوجة يأكلان معاً!.. لا، لا يا تامر!..

- ومن سيرانا؟ اجلسي دون مزيد من الكلام.
- إذا كنت تريد اقتسام لقمتك معي قاسمتك مرة واحدة. - غمست سيسار لقمة الباستا في الدجاج ووضعت في فمها. - ربما أكثر من الملح، سنأكل أنا ومزيس معاً متى عادت. كل أنت، كل. أريد أن أسألك يا تامير لماذا لم تسألني عن آخر أخبار ميشكا؟ - لمحت للزوج عما كان يشغل بالها في الأيام الأخيرة.
- بأي حجة أسألك؟ - أعاد تامير السؤال وقد فهم سبب سؤالها، ولكن يريد تجاوزها.
- هل تذكر ما تكلمنا فيه؟.. هل تعجبك أغور؟ أليست فتاة ممتازة؟ تعجبني أنا، لا مثيل لها، هادئة، جميلة قريبة من القلب.
- سمع تامير ما كان يتوجس منه. ولكنه كان مستعداً للجواب منذ زمن، فحسم الأمر بسرعة:
- ميشكا على علاقة بواحدة.
- من، يا مصيبي، عنده، ولا أعرفها؟
- فتاة من قريته. قررا الزواج في هذا الخريف.
- وكيف أتفاهم مع الكنة التي يأتونني بها وأنا لا أعرف لغتها؟
- تتعلمين.
- وكيف أتعلم لغة الصيادين؟
- تتعلمين كما تعلم ميشكا لغتنا.
- لا تدع ميشكا يفعل هذا إن سمعت كلامي. لن يجد أبداً أفضل من أغور.
- إن كنت محرجاً في محادثته فأنا أكلمه.
- كلميه إن شئت...

كلما اقترب موعد العرس بان حزن ميشكا أكثر فأكثر. لم يكن هناك من يعترض على الزواج من جهة الفتاة: كان تامبر قد انتهى من كل الإجراءات اللازمة. خلال هذا الشهر سافر وحده أو برفقة ميشكا إلى موطن الصيادين ثلاث مرات. والتقى بأم الفتاة. وكلّم عروس المستقبل، كَنَّتِه، متجاهلاً تقاليد الأديغة. كانت العقبة الكبرى أمّها. لم تكن تودّ إبعاد ابنتها الوحيدة. ومع ذلك تبين أن الأم حكيمة - قررت أن تعيش حيث ابنتها مهما كانت بعيدة. وهل عجيب إن لم يتكلم الأديغة لغة الروس؟! ألم يكن ميشكا كذلك؟ استقر بينهم كأنه ولدهم. الأديغة لا يبدؤون أعراسهم بفارس أو فارسين. كلمت الحامية الروسية كي يطمئنوا إلى أن الأديغة حين يتوجهون في مجموعة كبيرة مسلحة على ضفة نهر بشره، إنما يتوجهون إلى عرس، لا إلى حرب. وحددت لهم اليوم المقرر للعرس. تصورت أن جانب الأبخاخ أصعب ولكن تبين أن الأمر على خلاف ذلك: العادة أن تُزفّ المرأة من بيت الرجل فكل الأبخاخ أحرار في ما يفعلون. قيل لتامبر هذا، لا في المؤتمر فحسب، بل في كل بلاد الأديغة. ولما أطلعهم على موضوع الأم، أضافوا أنهم لن يعترضوا إذا كان الصهر والأم مقتنعين بصواب ما يفعلون. كانت هذه هي المشكلة التي ظهرت لسيصار فجأة. رضخت الزوجة لتامبر مهما سفحت من دمع سراً أو علناً.

- من يجب أن يتزوجها ميشكا هي من يحبها، لا من تشيرين أنت إليها! - مرة أخرى أعاد تامبر الكلام على الزوجة، - فكّري في ما جرى لك أنت قبل أن تتكلمي في مثل هذا الموضوع. هذا يحميك من الخطأ. لا علاقة للعاطفة التي تنشأ بين قلبين بالعرق: ترك، أديغة، روس... هذه العاطفة لا تستشير أحداً، بأمر القلب دائماً.

- ولكن أمها؟.. كيف يمكنها أن تتألف معنا؟

- ستألف معنا!

- يا مصيبي يا تامبر؛ أصبحت بقلب روسي!

- لا تقولي: قلب روسي، قلب أديغي! تُخطئين في هذا. إن كنت تودين أن

تعرفني فما في صدري هو قلب إنسان، قلب فيه رحمة. حين وقف نكراس جُدْ ميشكا، في وجه القيصر، وقاد ألفين من القوزاق، وعبر بهم الدون، إلى ضفاف بشزه، لم يسأل إن كان ما في صدور من جاء إليهم قلوباً روسية. لم يسبوا لنا أي أذى. ونحن لم نؤذهم. يأكلون ما كسبوه بتعبهم. يربون الأولاد سعداء بهم، إن مات أحدهم دفنوه كما نفعل تماماً بكل إنسانية. هؤلاء أيضاً أبناء أمهات وآباء. هل اعتناقهم ديناً آخر عجيب؟ أنا خالطت رجال القوزاق، وأكلت من طعامهم، ورافقتهم كثيراً في أسفارهم. لم يُشعروني يوماً بأني غريب عنهم. كان والد ميشكا مضيفاً لي إلى أن قضى على يد الأمراء. أناس طيبون، مستقيمون. وليسوا وحدهم في هذا، بل القوزاق الذين سنأتي بالعروس منهم. كانت القيصرة إيكاترينا أوفدت إليهم الجنرال الحليق الوجه تخبرهم بالعمو عنهم، ولكنهم قالوا إنهم انسجموا مع من اختلطوا بهم، ورفضوا العودة. وفي آخر زيارة لي إليهم سمعهم يقولون: إن أصرت روسيا فلن نخالط الأديغة. - لا أعرف يا حسرتي. - فكرت سيسار عميقاً في ما سمعت. - إن كان هذا رأيك فأنت أدري، تصرّف كما تريد... يا لحظي أني لم أتكلّم مع أغور بشأن ميشكا!.. كنت أتوجس من حدوث أمر ما في هذه المسألة فحملت معي قلبي بين أسناني حذرة. أريد فحسب ألا يشن علينا الجنرال الحليق الوجه الذي جلد أمير الحاتيقواي حرباً. سنحضر عرس ميشكا، ونشهد أعراس أولادنا.

- انظر كيف يتحول الصدق إلى كذب. أنا قلتُ إن أمير الحاتيقواي جلد الأمراء الشباب في حضرة الجنرال الحليق...

- لماذا فهمتُ أنا شيئاً آخر؟

- اسمعي جيداً!.. ثم هل تعرفين ما أنوي بشأن أم العروس؟ لا تظني أن حماة العروس وحماة العريس ستعيشان معاً في بيت واحد. سأبني بتطوع العمال بيتاً في طرف الحديقة للعروس. يكون لميشكا بيت مستقل إن أرادوا العيش معاً.

- هذا ما لا يعجبني، ستأمرون عليّ فلا تدعونني أمارس دور الحماة حتى أرتوي. حسناً، ما العمل، لا بد أن أجد طريقة ما للتفاهم مع حماة ميشكا.

...

كان مع ميشكا الحق في أن يقلق: ليست الحياة مع شخص آخر مثل الحياة منفرداً حراً تتوجه حيث تشاء، وأرضك حيث تكون. والآن سنصبح، تبعاً لسير الأمور، ثلاثة لا اثنين. هل سيعجبهما المكان الذي تأتيان إليه؟ ما اعتاد عليه هو منذ صغره قد لا يعجب غيره، وإن حاول أن يتقبل فسيكون صعباً عليه. وأصعب المسائل مسألة اللغة. صعوبة جهل اللغة. قال ميشكا: عند الضرورة أنا أتفق معهم. إن لم تتفاهم الزوجة والحماة مع هؤلاء الناس المستقيمين فلماذا أسيء إلى الأديعة اللذين تقاسمت معهم لقمة العيش؟ إن حدث هذا فلن أسامح نفسي، سأجلب لنفسي عاراً أبدياً. أعيش مع الأبناخ منذ سنين ولا أتذكر موقفاً جرحوا فيه مشاعري.

- كفى، لا تُفن نفسك إلى هذا الحد يا ميشكا!.. - سأله نطار الذي جاء كي يرافقه في الزفاف. ثم أضاف بالروسية وهو يلتفت ضاحكاً نحو صبح الذي أتى معه من الشابسغ - كل ما يجري سيكون جيداً. انظر إلى هنا. - ألا تقول: حسناً! - وافقه صبح أيضاً، ثم قال باسمًا: لا تظن يا نطار أننا لا نعرف شيئاً من لغة القوزاق: صحيح ميشكا.

نظر الجالسون إلى حاغور صبح. تعجب السامعون إلا ميشكا ونطار. ورفعوا حواجبهم. وابتسموا، يتساءلون أين تعلم نطار لغة القوزاق؟

- صحيح، صحيح، يا صبح. - فرح ميشكا أيضاً، - انظر، انظر ماذا أسمع؟ قال نطار مستغرباً، - من أرسلنا وراءه أتا جقوه إسماعيل، إذا أرسله الجنرال الحليق مع صديقيه الروسيين، فسنكلف حاغور صبح بالتحدث إليهم. يا ربي، هل يرسله؟

- نعم، سيرسله، - وافق ميشكا صديقه، - ألا تتذكر الصليب الأحمر المعلق على صدره زاعماً أن الجنرال الحليق سوفوروف أعطاه إياه على سبيل الذكرى؟ - كانوا منحوه إياه مكافأة على بطولته في حرب تركيا. وإن نظرت إليه عرفت أنه ليس محروماً من الرجولة.

...

ظهر فرسان الزفاف من جهة طريق البجدوغ.

ركب حالاً من دكابه كل من يستطيع وضع قدميه في الركاب. ولحق عدد من الصبيان بالفرسان يتعثرون. وتقترب طلقات بنادق العرس عند العصر. ومن استقبلوهم لا يخلون بطلقاتهم. وأغنية الزفاف التي يرددها مئة شخص ترتفع من المضيق لتطير إلى الجبل. سماء الخريف صافية دون سحابة واحدة. في السهل، المرتفع، في مكان انخفاض الجبل، كل بقعة تراها العين تزيتها أوراق الأشجار المتساقطة؛ فإذا أضيف العرس إلى المنظر خلت نفسك في حكايات الأحلام!

- يا للنحس؛ ماذا أفعل لك يا أغور! - مرة أخرى نظرت سيسار متممة نحو الجارة، - ما يعجب قلبك لذيذ، ومن تحب جميل!
جمه تتاو أيضاً عمل كما فعل أهل القرية. خرج من البيت كي يُفني عداؤه لما يجري. وصاح عند باب الدار إلى الجار:

- ليجعل الله العروس القادمة إلى القرية فرحاً للجميع. - ثم لم يملك إلا أن يقول لنفسه وهو يتميز غيظاً: - أقاموا له زفافاً أديعياً حافلاً ناسين أنه كافر... ألا ترى كيف جاؤوا بفرسان من الضفة الأخرى لنهر بشره؛ ما حاجتنا إليهم! - رأى جمه تتاو الجار قادماً بغير نبرته، - هذه فرحة كبيرة، أن يجري عرس في القرية دون حرب وما شابه. أن تسرّ الفلاحين أفضل من أن تُغضبهم.
لم يقصّر الفلاحون الأبراخ بشيء، - قال الجار مرائياً، دون أن يكشف ما في قلبه للجار، - لا ينس القوزاقي ميشكا أن البلاد كلها، لا دكابه وحدها، أقامت له زفافاً.

- والله صحيح يا كُشك، - جعل تتاو من نفسه كتلة من المشاعر الرقيقة، - ثم ماذا ينتظره من عرس! - يقال إن موفدي الجنرال الحليق وصلوا أيضاً.
- سمعتُ بهذا، - أسرع كُشك، الفلاح الجار الغني، بالجواب. - ومع الوفد شابٌ من القبرتاي تلمع النجوم والأوسمة على كتفيه وصدرة. هيا يا تتاو نستقبلهم، لا يليق بنا أن نفق هنا.

- يا حسرتي يا كشك، أهلكني وجع الأضلاع!
- ألا يتسبب هذا المرض في تراجع الصحة؟

- يا حسرتي...

- اشرب مغلي القُرْاص ينفعك... أنا سأنضم إذن إلى الجمع.

بعد قليل من انصراف الجار خرج فرسان الزفاف من مخرج الغابة يتدافعون. واتجهوا إلى شارع جمه تتاو. كان تتاو يريد العودة إلى البيت ولكنه لم يفارق الباب خوفاً من أن يثير الشكوك. رأى العروس المكسوة بالأبيض الناصع على كفل الحصان فاختلجت عضلاته، ولما مرّ الفارس الأول وغناء الفرسان يخلع عنه قبعته، أشاح بوجهه:

- تفوه، تفوه! ثم دخل البيت مسرعاً، ناسياً مرض الأضلاع، قائلاً: نشروا رائحة الذكورة الكافرة!..

الفصل السادس عشر

-1-

يوماً بعد يوم يزداد الأمير الكبير حجمقوه ألقس اقتناعاً بصعوبة مهام الإمرة الكبرى. كان استلم المنصب شاباً فبدأ الشاربان الأصهبان يشيبان، وما لم يفهمه البارحة يفهمه اليوم. مضت سنوات على منصبه ولم يحدث في البجدوغ أي حادث يُذكر بالسوء كالصراعات والحروب. والأقوام المجاورة هدأت عن ذي قبل. وخفّت حدة الصراعات بين الأمراء. والمؤتمرات التي تُعقد في السنة مرتين أو ثلاثاً تمر بهدوء. ولم يعد المؤتمرون يُشبهون مسدساتهم، بعضهم على بعض. الصعاب توحّد الناس، وتعيد إليهم الوعي. وتخلق بينهم علاقات طيبة لم تكن سابقاً. وكانت الكوليرا واحدة من هذه المحن. والآن بدأ الأمير الكبير ألقس يفهم أنه كان مخطئاً في تقديره أن الوثام الذي ساد بين الأمراء - النبلاء من جهة والفلاحين من جهة، سيستمر. كان يرى أن "أكلة الخبز" لن يفهموا مهما أسديت إليهم من معروف، فظلت هذه المقولة تدور في خلد الأمير. ولم يكن يمر يوم ينساها وإن لم يصارح بها أحداً. ما الذي يجعل الفلاحين يحتكون بأُمير البجدوغ؟ لم يكونوا أحراراً في أن يقتربوا منه حين يخرج راكباً، دُعك من

أن يكلموه!! كانوا يرافقونه في الأسفار محاطاً بالحراس من جميع الجهات. ولم يكف هذا بل كانوا يرسلون فارساً يبلغ الناس أن الأمير الكبير على الطريق فاستقبلوه على حدود قريتهم. وكان الغالب على أسفاره الأكل والشرب بحجة تفقد الفلاحين. يسير الأمير الكبير وأولاد الأمراء والنبلاء ونخبة الفلاحين وأتباعهم كجيش يلاحق لصاً أو ما شابه، فيرهبون الفلاحين العاملين في حين أنهم لا يفعلون أكثر من إظهار هيبة الأمير الكبير. وفي مثل هذه الأيام كانت العجائز يدعون إلى الله أن يحميهم، والنساء يجمعن إليهن الأولاد ويختبئن، أما الفلاحون فكانوا يتعدون تجنباً لسياطهم فالمسألة ليست مجالاً لإظهار الرجولة. الطريق لمن لباسه سلاح، والعدد والعدة له.

- على ما يبدو يا أمير، - قال بحقوقه مجر الذي قدم إلى صهره لتزجية الوقت فحسب، - لا نزال بحاجة إلى وباء ما ليحترمنا الفلاحون.

- لا أفهم لماذا هذا الاستنتاج؛ أما رأيي أنا فمختلف: لن تستطيع انتزاع الاحترام ممن لا يملكه وإن جاء وباء أو حدثت حرب كبيرة. هل قصرت في سنوات إمرتي الكبيرة في التودد إليهم؟ فهمت أنهم لم يفهموني مهما فعلت لهم أو قلت. الإنسان البسيط يستقل ما تقدم له مهما قدمت. كلما رفعت الكلفة بينك وبينه ركب رأسك. ولماذا الإبعاد في المثال؟ ها هم آل مشقوه اتخذهم إشبيناً يوم تزوجت، ولم يخل الأمر من فائدة للطرفين، ومع ذلك انحازوا إلى الفلاحين، لا إلينا. لا أقصد أنهم يعادوننا، ولكنهم مغرورون، يرون أنفسهم بقبعاتهم الفلاحية المتهرئة أعلى من الأمير الكبير. خيِّبوا أملنا.

- ماذا تنوي إذن يا أمير بحق الإخوة مشقوه؟ هل تركهم على باب بيتك كالكلاب العضوض؟

- ليقوا!! ألا يكفي ألا أظأ على أذيالهم؟.. - ابتسم ألقس، ثم أضاف وهو يرم عينيه الباردتين، - سيملون، وستتلم أسناهم من تلقاء نفسها. ثم إنه جرى في هذه المسألة أمر آخر: نحن وآل مشقوه لا نتعادي: رزقوا بطفل فهنأهم. لم أذهب بنفسي ولكني أهديتهم فرساً جميلة يمكن أن تؤسس أسرة من الخيل، وأرفقتها بسرير للطفل. وأبلغني من سمعوا بالخبر أنهم فرحوا.

- وكيف تصرّف من أهديتهم؟

- وماذا يهمني؟ لم يعيدوا الهدايا...

- وهذا صحيح.

- من رأيته حازماً مع الفلاحين يا مجر، - طارت ذاكرة ألقس إلى تركيا، وسرى الدفء إلى عينيه دليلاً على رضاه، - كبيرُ أمراء الترك، السلطان الذي دعاني في العام الماضي. يقال إنه يتخذ من خان القرم مثلاً ولكني لا أعرف. جلستُ بضع ساعات إلى سلطان الترك فلم أسمع أحداً تكلم في حضرته. كان معي حسن مراد الذي يملأ أرض الأديغة بادعائه، فلم يجلس في حضرته بل وقف مع الواقفين عند الباب البعيد. ثم إن القاعة التي تجلس فيها كبيرة، عالية، مضيئة، إن وجدت نفسك فيها وحيداً ثمت لا تعرف المخرج. عبرنا عدة أبواب، وعلى كل باب يقف الجنود، والجميع صامتون كأن أفواههم مملأى بالماء، لا أحد غير السلطان يفتح فمه. ولما جيء بالمائدة وجلسنا لتناول الطعام بقي المترجم وحده، وخرج الآخرون بمن فيهم حسن مراد.

- ولماذا لم يدعه هو الآخر؟

- سأقول لك حالاً ما هو أعجب من هذا، حين رويته لأختك قاطعتني عدة أيام متهمته إياي بقلة الأدب. أكلنا، ولما جاؤونا بالفواكه، رقصت نساء عاريات أمامنا.

- كما خرجن من أرحام أمهاتهن؟

- لن يسمح سلطان الترك بهذا تماماً. كنّ يرتدين كيلوات صغيرة جداً تكاد تستر عوراتهن، وحالات نخود تكاد تخفيها. حافيات، حاسرات. هذا غير لائق، سواء وافقنا أختك أم لم نوافق. وماذا يجد في رقصهن عاريات على السجاد، إن كان رجلاً فلا يتراجع متى اختلى بالزوجة!

- يا عجيبي مما تقول!.. - ابتسم مجر للصهر. - ما الذي يساوي بين زوجتك وغيرها؟ المرأة الأجنبية ألدّ دائماً. تجيد التصرف، يلتذ من أسعده الله بهنّ. هكذا يجب أن تعيش يا ألقس إن كنت أميراً كبيراً؛ ما عيشتنا نحن؟!

- إن كنت تقول هذا أيها الأمير بحقوه فماذا أقول أنا؟.. سأخبر من في بيتي

أن أذاك أطلق لي الحرية. نحن لا تناسبنا مثل هذه المظاهر يا أمير، لماذا نورط أنفسنا ونحن نعرف استحالتها؟.. - ثم ترك الأمير ألقس فجأة موضوع الجنس الذي هما فيه إلى موضوع آخر، - سأل السلطان التركي باهتمام بالغ عن الشابسغ: عن أحوالهم، ومعيشتهم، وموقفهم من الكفار. هل يودون الترك أم لا. ولا أعرف من أين يعرف أنني ربيب أسرة شرلاًقوه، سألني عنهم. وعرفني بالجنرال جانقل¹. ماذا ينوي يا ترى؟ - سأل مجر شاحب الوجه، ناسياً حكاية النساء العاريات.

- لا أعرف، وأنا مهموم إذ لا أعرف ما سيحدث، ولا سيما أنه طلب مني ألا أخبر أحداً. لم أرو لأحد غيرك يا مجر. حتى أختك لا تعرف، ولا أخي بالتجري. وما كان لا ينتهي من سيرته هو الجنرال الحليق الوجه. ويعرف أنه على الضفة الأخرى لنهر بشنه. وأغرب شيء هو أنني عرفت من هناك أن الفلاحين الأبراخ أقاموا عرساً كبيراً لنكراس ميشكا، وأن ثلاثة من العساكر الروس شاركوا فيه. وتبين أنه يعرف وابقق تامبر، وسألني أين تعلم اللغة الروسية.

- ما أغرب أن يصبح وابقق رجلاً عظيماً فيصل صيته إلى تركيا!.. كان الأفضل أن يجعل زوجته تتخلى عن طبائع الرجال فيها. قيل إنها تصرع العجول الذكور الضخمة وتذبجها. وهل تنجو من شرها يا مبارك النسل!.. أعرف ما كنت أفعل بما لو لم تكن لابس غطاء رأس... حسناً؛ ومن يهتم بهذا؟ لا أعرف ماذا أقول. ما الفائدة كما يقال: متى فاتك رأس الحصان فلا تلحق بذيله. أهمّ موضوع هو ما قلته الآن. ليس خبراً جيداً يا أمير. ليس ما جئت به خبراً جيداً...

- وأنا فكرت فيه. ليت من أماننا ومن وراءنا لم يورطونا في فتنة. سينتكب الأديغي الساذج وكلّ يزعم أنه يحمي أرضه. ثم هذا ما فكرت به في نصف العام الماضي: أقول أحياناً: ما حاجتنا إلى تركيا البعيدة على الجانب الآخر للبحر؟ هذا جار أبعد مما يجب. لن ينفعك عند الضرورة. ولن يسمعك إن

¹ يأتي في النص أحياناً بلقب الجنرال وأخرى بلقب الأدميرال.

صرخت. لا أعرف رأيك أنت؟

- والله يا أمير، - لم يدع الأمير ينتظره، - لا أعرف ماذا أقول في هذا الشأن. إذا كنا عاجزين عن حل مشكلات أسرتنا فكيف بمشكلات غيرنا. ولكن ما أريد أن أقوله: لا يعجبني الحديث عن بشزه وما وراءه. هم جاهزون جداً لأن يرمقوا فيه ويعبروه. ما بيننا مقدار إصبع فحسب!.. والأترك أصحاب السراويل العريضة يمكننا أن نفعل ما نريد ريثما يعبرون البحر. من يُقلقك: الجار القريب أم الجار البعيد؟ ماذا يقدم لنا الأتراك؟ نعيش عمرنا بلا تدخل منهم فينا قولاً وعملاً. نركب متى أردنا، ونترجل متى أردنا.

- كان الأفضل مما سواه أن تعيش دولةً مستقلةً. - قال ألقس الأمير الكبير للبعدوغ كمن يكلم نفسه، - نحن أدنى درجةً من خان القرم، نتجاذب إقليم الأديغة كأربعة ثيران مربوطة إلى النير، نتبادل نظرات التحدي ونحن نتنافس على مَنْ قدمه أشد ثباتاً. وعلى رأي الترك فهل يستحق مَنْ ليس عنده عملة مصكوكة باسمه لقب دولة؟!

- ماذا تفعل بالنقود يا أمير، عندنا الكثير من الماشية بإذن الله. نقايض بها البارود، ونجلب الملح.

- ليس هذا صحيحاً يا مجر. أدخل إلى تركيا إذن وليس في جيبك نقود!.. هل تحمل معك جلود الماشية في العربة أينما سافرت؟ النقد ماشية، والماشية نقد¹. هذه العبارة هي التي لا تفارق لسان بارينقوه بَعْدَسار التاجر. عرّج علي قبل أيام يطلب مني الاتفاق على رأي ما في الموضوع.

- يا ربي، وهل القوزاق عندهم نقد؟

- ليس عند القوزاق صيادي السمك نقد. أما بلاد القيصرة إيكاترينا التي موفدُها هو الجنرال الحليق سوفوروف، ففيها نقود ذهبية ونقود فضية.

- أستغفر الله، ماذا تقول؟ - استغرب مجر ما سمع، - هل سلطان القوزاق امرأة؟ والله ليست هذه بلاداً! لا تُسمع من في بيتك، ستفسدان عيشتنا...

¹ هناك جناس تام في اللغة بين ماشية ومفيد.

جاءت الرياح بالثلج في ظهيرة اليوم الذي يُفترض فيه أن تتوقف.
ترتفع الشمس فوق الجبال فرحة بالعالم الأبيض. وليس في الفضاء سحابة
يمكنها أن تعرقل الشمس. الدخان المتصاعد من المواقد يرتفع بخط مستقيم
تماماً. وأصوات الأولاد لاعبي البلبل يخيم على طؤابغوه. وارتفع وقت تناول
الفطور نباح الكلاب وخوار الأبقار التي أُخرجت للاستراحة، وثغاء الخراف.
فوجه لاجبي واحد من الناس الفرحين هذا اليوم الذي هو أحد عدة أيام توقفت
فيها الرياح الشرقية الباردة التي لا شيء يسلم من شرها، ويبدأ الثلج الذي يأتي
بالخصب بالمطول. يفكر في ما سيزرع في الربيع القادم. يخدم الماشية، ومنظر
القمح الجديد الأخضر أمام عينيه. جلس إلى جانب الجدار ليدخن حين انتهى
من العمل. وقبل أن يجد الوقت للاستماع إلى ضجيج لاعبي البلبل انفتح
الباب وخرج الولد الأصغر. يلبس قميصاً من القطن الملون، وبنطالاً مرقعاً،
وقبعة كانت لوالده فأصلحت له، وحذاء من المطاط. في يده البلبل وسوطه.
كان الصبي مشغولاً بدخل الثلج أمام الباب: مشى فوقه بضع مرات، وخبأ
البلبل تحت الثلج. ثم انحنى وهو ينفخ في راحتيه وعاد إلى الغرفة. مصّ لاجبي
الغليون بضع مرات مجروح القلب بما رآه. ثم همّ بإكمال محاولة الولد مع الثلج.
كلما ضغط عليه بقدميه الكبيرتين عاوده التفكير في ملابس الولد الرثة. ما
هذه الحياة التي أحياها؟ لا أستطيع تربية الولدين والصبية. تربي الولد الأكبر
على ملابس القديمة. لم يلبس جديداً في أعوامه الستة عشر إلا البنطال الذي
خاطوه له العام الماضي. والصبية نكسوها بما تستغني عنه أمها. ومن يقضي
الشتاء في أبأس حال هو الولد الذي لجأ إلى الغرفة هرباً من البرد. ويكبر الولد
على هذه الحال، يجد هذا ولا يجد ذاك حتى ينضم إلى قائمة الفلاحين.
مرة أخرى خرج الولد مسرعاً، نظر إلى والده مستغرباً منظر الثلج المرصوص،
ونزل من المسطبة يريد اللعب بالبلبل الأسود الذي معه، ولكن الأب لم يقبل:
- يا ولد، عُذ واطلب من أمك أن تلقك بغطائها الكبير.
- أنا لا أحس بالبرد، - رد الصبي مسرعاً.

- أعرف أنك لا تشعر بالبرد، - لم يكن لاجحي يريد أن يجرح شعور الولد، فلاتفه في شبه اعتذار، - ولكن كنت أود أن تنفذ ما أطلب منك، وأنا إلى وقتها أدخل لك الثلج.

- لا تلمس البلبل إذن، دعه يبرد، سيصقّر على نحو أفضل مع البرد...
في إحدى الأمسيات، فيما الأسرة حول الموقد لم تُشعل المصباح بعد، قال لاجحي للمرأة:

- والله لا أتفق مع من قال: "إن عملت جيداً نمت مرتاحاً، وإن تكاسلت شعرت بالهم". لا ننام جيداً إن اشتغلنا، ولا نخلص من الهم إن لم نتكاسل. نعيش حياتنا، ولا شيء أمتع فيها من نار الموقد. هذه ليست حياة. من لا يعمل يلبس ملابس أنيقة ويركب حصاناً عالياً. ومن يعمل يتصبب عرقاً وما ينتجه قوت فقراء. أفكر في تربية النحل بالإضافة إلى الزراعة. إن جهزت خلية نحل أعطتني شيئاً من العسل. وإذا أخذته إلى الساحل فهو ثمين خلافاً للحبوب. يقال إن الشمع مطلوب. الأولاد عراة، أقايض بالعسل قماشاً. والله لا أعرف ما العمل. احترت أين أبدأ. أم نرحل إلى الشابسغ أو الأبراخ؟

- وهل المعيشة فيهما أفضل من هنا؟ - سألت فجّ زوجها.
- أرى أن الفلاحين أوثق تضامناً فيهما. المتشاركون في رعي القطعان أشدّ تماسكاً.

- لن نستطيع تأسيس أسرة من جديد، - لم تقبل الزوجة فجّ، - نقيم هنا ولو كانت حياتنا صعبة. وُلدنا في قرينتنا التي نقيم فيها. وعندنا من الأهل هنا من يفرعون لنا عند الضرورة. ومن فضل الله أن أحداً لم يتخل عنا إلى الآن. ها هو الفراء الذي أرسله إلينا الإخوة مشقوه استطعت أن أفصل منه فراء للولد الأكبر. حياهم الله، أخوالك لا ينسوننا.

- ما يدفعني إلى موقفتي للأمراء - النبلاء. ألا ترين كيف يجهزون أنفسهم؟ لا يفرغون من الأكل والشرب. اقتربت من آل حجمقوه قبل أيام فرأيتهم قد احمرّ عيونهم ورائحة الشراب تفوح فوق رؤوسهم. يقفون أمام باب المضافة لأنهم تعبوا من الجلوس. واللعين مرزيج جعل من نفسه نبياً، وابنه يبدّل

الحصان في اليوم مرتين. والله عجيب ما فعل ألقس أمير البجدوغ الكبير بمرزيج اللعين. خلعه من منصب كبير الحراس، وأنا تنبأت له منذ اليوم الأول بهذا المصير. والآن يحترق أسى وغضباً من طرده من منصبه.

- والحارس دَرَدَر كيف يتصرف؟- سألت فج وهي تقلب حطب الموقد.
- لا فرق كبيراً بين الاثنين. دردر حريص على نفسه أكثر من سابقه. ولكن لا تدع نفسك تسقط تحت حوافر حصانه متأملاً منه الخير. سيسحقك. الرابع في هذه التغييرات هو مُغاسه بامبت. هو صديق دردر، وليس صديقاً فحسب، لا أعرف علاقته بالزوجة الثالثة التي في بيته. هناك علاقة بينهما.
- أقول لك العلاقة بينهما: هما أحفاد أخوين من خال واحد. سمعت الجارة تتكلم على مغاسه، تقول إنه ممن يطربون للمديح.
- إذا كان يحب المديح فلا يحاول أن يفعل ما فعل أمير البسلني مَزْجَقوه محمت باحثاً عن الثناء. سيقع بيد أحد أمثال نارج الفلاح فيجلب لنفسه العار.
- وماذا فعل أمير البسلني؟ - سأل قَبْرَدَاكه، الابن الأكبر للامجي، الذي كان جالساً يرقع السرج.
- لا يتورع الأمراء - النبلاء عن فعل شيء يخطر لهم يا ولدي. - قال لامجي، ولم يُح بما فعل الأمير.

-3-

خرج حجمقوه باتجري دون رفيق، وريح الشتاء تعبت بطرفي فرائه المصنوع من جلد الذئب. الحصان الذي مضى عليه زمن في الإسطبل يعض الزمام متشوقاً إلى الجري. توقف باتجري لأنه عرف أن طريقة ركوبه غير صحيحة: ربط القَبَّة التي كان الهواء يتدفق عبرها. وفرك الخدين اللذين جمدهما البرد الجاف دون ثلج. ومسح الدموع التي يتسبب فيها الهواء البارد. أرخى الأمير الزمام وانحنى بجسده على الحصان فانطلق. وصل باتجري بسرعة الريح إلى أَسْتِجغ. وعبره إلى مخرج الغابة. خيل إليه أن وقع الحوافر الذي كان وراءه قد صار إلى جانبيه الآن. وقبل المنعطف بقليل أوقف الحصان متوجساً من خطر ما، ورجع

أدراجه. ثم تحول إلى الخبب كمن يقول: انظروا؛ أنا لا أخاف من شيء!.. كان الحصان متمعضاً من هذا التغيير ولكن الراكب اكتفى في يومه بهذا القدر. مضت عدة أعوام على استرداد بالتجري من الأتاليك. شعر بصعوبة العيش وحيداً هذا الشتاء أكثر من الأعوام السابقة. هل يبقى شاباً دائماً؟ يقيم في دار الإمرة الكبيرة، لا هو من هنا، ولا من هناك. لا يزعج أحداً، ولا يزعجه. ينام متى شاء ويصحو متى شاء. يزداد فهمه يوماً بعد يوم لاستحالة تعايش ملكتين للنحل في خلية واحدة. وعلى هذا لم يكن هناك داع للسؤال عما يجب أن يفعل: كان عليه أن يتزوج، ويترك أخاه الأكبر، الأمير الكبير في البيت الأساس، ويرحل هو إلى قرية أخرى. وكلما مضى الوقت ابتعد عن أرض الأب. كان كل ما في الدار، أول ما رجع، من بيت الإمرة والإسطبلات ومحازن الحبوب والحديقة، إلى آخر قشة في الدار مزروعاً في القلب. والآن غابت كلها عن ساحة عينيه. ولو كان الأمر بيده ما سمح بوضع باب الإسطبلات في مكانه، كان يرضيه أكثر لو فتحوه من الجانب الآخر.

الوقت الذي أحس فيه بالتجري بالرغبة في الإمرة الكبيرة هو شتاء العام الماضي زمن غياب أخيه ألقس. وجب عليه حين بقي وحيداً، أن يتحمل، برضاه هو وغيره أو بغير رضاه، أعباء المسؤولية. حقاً كانت والدته مستشارة له في الأيام الأولى. ثم بدأ يشعر بالرضا إن سأله الجميع شخصياً. وفيما هو يشعر بالملل إن لم يأتئه النبلاء والفلاحون بأمور مختلفة، عاد أخوه من تركيا. وفي الحال رجع بالتجري إلى حياته المعتادة وحيداً عازباً. وصارت حياته في طوابعه نوعاً من الزينة كالسيوف المعلقة على سجادة الجدار. وكره الجموع التي تسهر في المضافة، والنزهات على الحصان كما اليوم، ونفاق النبلاء. الفرحة الوحيدة التي كانت أمامه هي ثمرات الأمراء في آخر الربيع لتزجية الوقت. وهذا لا بد أن يبعث على الملل، وهو يتبع المجموعة التي تقع فيها والمكان.

قال بالتجري، وقد خرج الحصان من العدو إلى السير هوناً، كما أفكاره التي هدأت وهو يستمتع إلى حوافر الحصان: حياة الفلاحين هي العجيبة. لا يعرفون الراحة في أيٍّ من فصول السنة. ولا تسمعهم يشكون من التعب. مساء

يسهرون في مضافات الفلاحين، وفي النهار أصابعهم العشر متشبثة بالعمل. لا فرق بين بردهم وحرّهم.

خرج بالتجري من تحم الغابة، ودخل أستجغ. فأحس بالريح الباردة تعصف به من الخلف. والحصان الذي يشعر بسرعة الهواء أشعر راكبه برغبته في الإسراع. وبعد أن جرى الحصان غلوة رأى بالتجري الفارس الخارج من القرية. هذا هو ما يجعلني أقول ما لا أريد؛ ها هم أرسلوا ورائي!... ينظر إلى الولد الأصغر لألقس شخصاً لا فائدة منه. يخيل إليه أي محروم من الرجولة، وأني قُذِفَت إلى الحياة اعتباراً بمجرفة. من يخطفني، من يأكلني، لا يدعوننا نعيش أحراراً. إلى الآن كنت أعتب على أمنا بلا معنى. كنت أتهمها بما لا ذنب لها فيه، محملاً إياها المسؤولية.

- لماذا تلحق بي الآن؟ - أوقف بالتجري الحصان غاضباً، وسأل دردر بديل مرزيج، - أجبروك، أليس كذلك؟ والله سلوككم عجيب أنتم الجماعة.
- خرجت لترويض الحصان يا أمير، ولم يطلب مني أحد البحث عنك. - برأ الحارس دردر نفسه.

- نعم، نعم، تروّض الحصان الذي لا يعرف الراحة نهاراً وليلاً.
- والله لا أعرف إن كنت لا تصدّق كلامي...
- لا أصدّق لأنك لا تنطق صدقاً. كم قلت لك أن تتكلم كلاماً له أساس من الصحة!.. ماكنت لأعتب عليك لو قلت إنهم طلبوا مني البحث عنك. الخادم يبقى خادماً دائماً. أنت وقفت أمامي تنظر في عيني فتخرجني لتكذب عليّ. لا أحب مثل هذا النفاق. صدق الإنسان وكذبه يجب أن يكونا في السياق الصحيح. وإلا اختلطا عليك وسببا لك الإهانة.
- ماذا بيدنا يا أمير؟ علمنا عالم لا يتفق فيه القول والعمل. - زمّ دردر كتفيه وهو يبرئ نفسه من جديد. الصدق أفضل، لا يرتدّ عليك...
- هذه رجولة.

عاد الفارسان كلٌّ في مكانه الصحيح. تنهد بالتجري خفية عن رفيقه قائلاً: لن يدعوك تهنأ. الأفكار التي خرج منها أعادته إليها من شعر الرأس إلى أصابع

القدمين. وتذكر كلام بغدسار له في العام الماضي: الأفضل أن تتزوج وتستقل بنفسك. أي قرية سيعطوني يا ترى في حال استقلالي؟ ما تختاره مكان إقامة له معنى. والإقامة على مفرق سبعة طرق لها محاسنها ومساوئها. سترهقك كثرة الزوار. وإن لم يأتك أحد فأنت مثل من يقيم في مغارة قديمة. لم يقولوا عبثاً: ما تراه العين يساوي العمر. لو أعطوني قرية سالتوك لرضيت بها، ولكن لا أعرف إذا كان ألقس سيسخو بها. ليست قرية من طوابغها، مشكلتها أن الجنرال الروسي الحليق يقيم في الغابة التي على ضفة نهر بشزه. وما العجيب في هذا؟ إن ساد الوفاق بينك وبينهم زرتهم وزاروك، هم أغنياء بالبارود والملح. يقال إن أمير الحاتيقواي يقيم على نهاية نهر لآبا، اغتنى منهم. وقبل أن أرغب في سالتوك هناك أمور كثيرة يجب القيام فيها. أمي تلمّح لي عن طريق غير مباشر كل يوم. ويجب التفكير في ما تطلب. يكفي ما قাদني من يقفون إلى جانبي ممسكين بيدي. أقول هذا ولكن متى أصبحت أمير قرية فلا بد أن أحتاج إلى أمثال هؤلاء. ليس أميراً من ليس عنده خدّم يعتنون بالضعيف، ومن لا يُبدون له مظاهر الاحترام.

حالما ترحل من الحصان سلّم الزمام للفلاح الذي استقبله، ودخل إلى أمه قبل أن يعود إلى بيته. السيدة لتناي في وسط الفراش وحوها الوسائد. وفي الموقد نار عظيمة يتردد صداها في البيت. لا يخفى أنها كانت جميلة يوماً ما وإن غلبتها الشيخوخة الآن.

- يا صغيري، تفوح نك رائحة البرودة. أين كنت؟ تعال إليّ لأفرك لك خديك. شحمتا أذنك باردتان جداً.

- لم أبرد يا أمنا.

- وكيف لم تبرد؛ ألا أراك؟ - قرّبت لتناي ابنها وفركت له خديه وطرقي أذنيه.

- تجمدت يا صغيري، تجمدت. يا إلهي أيّ ريح باردة جاءتنا لا نهاية لها؟

ارحمنا وأوقفها!.. يا بالتجري، قيل إن آل مشقوه رُزقوا بصبي، ألن تزورهم؟

- يا عجي كيف يتشبث آل مشقوه بالقرية لا يجري لهم إلا الخير؟! لا ينجبون إلا لابس قبعات!

- أرسل إليهم خروفاً صغيراً، واذهب لتهنئتهم. أخوك الكبير كان ضيفهم حين تزوج. يستطيعون تطويع جماعة فوجه لاجبي. هؤلاء لا يجوز لنا إهمالهم. حين أرى هؤلاء ذوي الأشكال القبيحة الذين تفوح منهم رائحة التيوس، أدعو إلى الله أن يحمينا منهم. لا ييأسون في أقسى الظروف...

- والله يا أمنا أفضل الموت على أن أزور آل مشقوه. - نهض بالتجري، - سأذهب لأن الله فرض علينا فصاروا أقباءنا. هل تذكرين المشكلة التي حدثت حين زرعهم مرة؟ أجبرني ألقس على مصالحتهم؛ ما العمل؟..

- إياك يا بالتجري أن يظهر عليك جفاؤك؛ لم تعد شاباً!..

- لا أستطيع يا أمنا، - التفت بالتجري وابتسم لأمه. ثم أضاف وهو يزرق. - ولكن أعرف أن آل مشقوه لا يودوننا ولو أنهم أخفوا. يسمح ألقس لهم عبثاً أن يخذعوه.

فرحت لتناي السيدة حين خرج بالتجري من الغرفة: الأمير الشاب بعيد التناول للأُمور. يستطيع تقييم من يودهم ومن يعاديهم. كان المرحوم والده يفكر له بعروس من الجمكوي، غير أنه رحل قبل أن يشهد عرسه. ليته رأى الأمير الشاب الوسيم!

في أحد الأيام استدعت لتناي أمير البجدوغ الكبير:

- كيف حالك يا أمنا؟ - سأل ألقس على عادته وهو يجتاز العتبة. قَرَّب المقعد إليها وجلس بمسح يديها. كيف نمت الليلة؟

سألت الأم عن كثير من الأمور دون أن تذكر سبب استدعائها له. تكلما على الأمراء، واستعرضا النبلاء، ووصلا إلى الموضوعات التي سَطرَح في مؤتمر البجدوغ، وكذلك موضوع فقدان الملح. ولكن ما كان يهمَّ السيدة لتناي هو حياة العزوبية التي يحياها الأمير الشاب، والزوجة المقترحة.

- يا أمنا، لماذا تقلقين بشأن بالتجري؟ ألا يقيم معنا على راحته، يسافر متى شاء ويعود متى شاء؟ هل لَمَح لك بشيء؟

- كيف يقول لي ما لم يقل لك؟.. لم أعد أريد فرحة في الدنيا إلا أن أشهد عرسه وأنا على رجلي. ثم لأرحل إلى جوار والدك. أموركم تسير على نحو

حسن بفضل الله. ولما ولد بالتجري كان بودّ والدك أن نتجه صوب الجمكوي بحثاً عن العروس.

- جهة الجمكوي يا أمنا، - قال ألقس الأمير الكبير وفي عينيه الزرقاوين تتصارع الحرارة والبرودة، - لا عمل لنا فيها حالياً. لا شيء يقلقنا من جهتهم. يجب إغلاق الحدود مع الأبخاز عن طريق أخي كما فعلتُ مع الشابسغ عن طريق الأتاليك.

-4-

كان الفلاح يجد في أرض الدار ما يفعله ولو أن الجو لا يزال غير مناسب للعمل في البرية: ما لم يسمح لك الشتاء بلمسه بمدده لك إلى الربيع.

- إن استمرت الشمس بضعة أيام كالיום، - قال مشقوه ترقان لأخيه الأصغر، - فالأرجح أننا سنعمل في البرية.

- كان الأفضل تقليب التربة قبل أن تفقد رطوبتها. - وافق ماج أخاه الأكبر.

- يجب أن نزيد هذه السنة مزروعاتنا من الحبوب. - ومن فضل الله زاد علينا لابس قبة. - قال ترقان في درج الكلام كي لا يُخرج ماج والد المولود الجديد.

- سأذهب أنا إذن إلى لاجي. سنتشاور في المكان الذي سنبدأ منه الفلاحة. اعتنِ بالثيران. آخر الشتاء لن يكون سهل التقليب. هيا، هات لي حصاني من الإسطبل.

حُيِّل لماج أن ترقان زادت ضخامته ضعفين حين ركب. ليس هو الآخر ضئيل الجسم فيغبط الأكبر. متى وقف تحت بطن الحصان رفعه عن الأرض محمّماً وقائمتاه الأماميتان تضطربان. وإذا ضغط على سكة المحراث سمر الثيران الأربعة في مكانها. وإذا حدث في الجوار عرسٌ لا ينبري أحد لمصارعة أحد الإخوة فقد صاروا معروفين. وإذا صاروا حيث لا يعرفهم الناس لم يصمد أحد أمامهم. وما حدث لهم قبل أعوام لا يملّ الفلاحون من روايته. لم يكن في طوابعه أحدٌ أشد نزعاً من أبرّاء، لا يغضب فيهاجم اعتباراً ليستنفد قوته. ويستطيع التعايش مع رفاقه. وهو ممن يتصفون بإنسانية - فلاحية كبيرة. وإذا دُعي إلى عمل طوعي

في القرية كان أول الملبّين. وإذا عرف أن عنده ما ليس عندك جاءك به على ظهره. وهو ماهر في النجارة، ولا يثور إلا حيث لا عدالة. يحاول أن يفهم من يعمل شراً ومن لا يعمل؛ فإذا أحسّ بأحد يرائيه صبّ غضبه على الجميع. وليس ممن ينصرفون قائلين: الحق معي. يروى أنه في أحد الأعوام شارك أحد الفلاحين الأغنياء فحرث معه. ولما صار العمل في أواخره رأى الفلاح الغني يخدعه فلم يقبل منه. وهذا ما كان الآخر يريد، ولما كانا في أرض أبراو، فقد استرجع ثوره من النير. قال: هل تظني عاجزاً عن الفلاحة إن سلبتني ثورك، فحل محله، وأكمل الجولات الثلاث المتبقية. لم يستغرب ترقان حين وصله الخبر، ولا يزال خبرُ صفعه أبراو قائلاً: لا يُضحى بالقوة البدنية لأجل حماقات كهذه، منتشراً في طؤابغه.

الأخ الأهدأ بين الإخوة مشقوه هو ماج. هو من النوع الذي يقال فيه إنه يتكلم مرة في السنة. وإذا تكلم لم يأت إلا على سيرة الخيل. يعرف صاحب أفضل حصان، لا في طؤابغه فحسب، بل في البجدوغ كلها. وهو يعرف كم سيقطع بالعدو السريع وبالحب... وإذا وقف إلى جانب الحصان ونظر إليه، دون اختبار أسنانه، فخطؤه في تقدير عمره قليل جداً. يروّض أشرس حصان في القطيع فيخضعه في يوم واحد، ويُسرجه وهو يرتجف. ومن يختارون خيلاً يستشيرون ماج. ولكن أحداً لا يتذكر أنه ركب خلال سنوات عمره الثلاثين، إذا استثنين منها ما قضاه في المهده، وما درج فيه على الأرض، حصاناً جيداً. وكان ما يركبه فرساً لا تتغير، وراءها مهر دائماً. وإذا سئل لماذا يركب فرساً مؤنثة، لا حصاناً، أجاب مازحاً:

- ولماذا أركب حصاناً، مخالفاً لتعليمات الأمراء. الفرس أيضاً لها أربع قوائم كالحصان. ليركبهُ الأمراء - النبلاء!..

لم يكن آل مشقوه كععض الفلاحين الذين يقومون برحلات. قضوا عمرهم، هم وأسلافهم، فلاحين عاملين في الأرض. لا فرح عندهم إلا الأرض. لا يفارقون البرية منذ الربيع إلى موسم جمع الحشيش في الحريف. كان ترقان وحده من يركب. ولم يكن يتبعد أكثر من الخمشي القرية. وإذا سافر في السنة مرة أو

مرتین إلى الججنای عاد متخیلاً أنه سافر إلى بلاد أخرى. وحين یُستدعى ماج إلى قرية أخرى، غیر طؤابعه، لترويض حصان، لا یعتبره ركوباً إذ یعود فی الیوم نفسه وكأنه كان فی عمله المعتاد. وإذا اشتغلوا طوال العام كالمربوطین إلى النیر كان نتاجهم حصة الأمير، والعُشر، والقلیل الذی یُعیلهم. وبشق النفس كانوا یلحقون المحصول القدیم بالمحصول الجدید.

صدف أن لامجی الذی ركب إلیه ترقان لیس فی البیت.

- غائب فی البریة منذ الفجر، - قالت زوجته فج.

- ماذا یفعل هذا الذی لا یهدأ له بال؟

- لیتنی أعرف. ألا تتفضل! ابن أخت الحماة حان موعد وصوله.

- سألتقی به، وألقی نظرة على البریة.

خرج ترقان فی موعد الفطور من القرية مسرعاً، تُنبئ سرعة حصانه أنه یتابع أمراً هاماً. شمس حارقة ترتفع باكراً إلى السماء لا تتناسب مع الجو الربعی. أطراف الأعشاب التی بدأ الثلج الرطب یطویها فجأة تخضّر على سطح التربة. وفی الغابة العاریة ترى الیوم ما لم تره أمس. تغیر لون الأرض من الأسود الذی ساد فی الشتاء الفقیر بالمطر. یسر المنظرُ القلبُ كأنه ینشر الدفء فی النظرات. أغصان الصفصاف غسلها الثلج بعناية فهي بیضاء یسری فیها النسخ. وثقلت من الحیاة التی بدأت تسری فیها. والسماء تُظهر نفسها وكأنها تعلو. ولا تنوی التمدد نحو الأرض كما فی أمسیات الخریف.

حین نظر جهة أُستجغ ظهرت نارٌ من یقطعون شجر الغابة. الناس والخیل والثیران والعربات مجتمعة فی تلك الناحية. كلٌ یعمل جهده. الأرض التی ینتزعها الفلاحون من الغابة سیزرعونها حبوباً. هذا هو الواقع: ما لا تجنیه بعرق الجبین لن یأتیک به أحد ویعطیک إیاه.

توغل ترقان فی البریة تاركاً الغابة على یساره. بدت من بعید، من جهة نحر بشزه، أعواد القصب المشدّبة البیضاء. وإذا نظرت من فوقها بدت الضفة العالیة للنهر. لا یرى على الیسار فی جانب الأدیغة من نحر بشزه حیث القرى أی بناء مسقوف. ولیس على الضفة أی شجرة. یلتف یمیناً ویساراً على

الأرض العارية. قال ترقان: عجيب ألا يظهر اليوم من يقيمون هناك. وأعاد النظر. ولكن لم تقع عينه على أي جندي روسي ممن يأتي على ذكرهم. اعتلى ترقان التبة فرأى لاججي في القاع. الحصان طليق، وهو واقف على الأرض السوداء التي حرثها في الخريف. التقط حفنة تراب، مرّ بجانب القسم المحروث ثم مد يده إلى الأسفل ثانية.

- لثُخِصِبَ أرضك يا لاججي!.. - ترحل ترقان من الحصان.

- لِنَقْصِمْنِي! - تبادل الفلاحان الابتسام ولاججي يجيب.

- ماذا تقول لك الأرض إن شاء الله؟

- تقول: لا شيء يسرّ إلى الآن.

- ولماذا يا رجل؟

- غياب الثلج جمّد الأرض يا ترقان، فجعلها كالحقّان.

- أنا توجسّست من هذا. - جثا ترقان على ركبتيه وتناول قبضة تراب. - ها هو يتفتت، لا تمسكُ به اليد. لا تيأس يا لاججي. هذه الأرض تستعيد مرونتها متى وجدت قليلاً من المطر الدافئ. لا بد أن تفهمنا الأرض. أسدت لنا الخير طوال عمرنا، ولن نخذلنا الآن.

- أنا واثق من هذه الناحية. - نظر لاججي إلى كتلة التراب التي بيده كما لو أنّها حفنة قمح، وشمّتها، - انظر كيف تدفّئ يدي!.. تقول: الله أملّ فتأملوني!.. نعم يا ترقان، متى وجدت الأرض شيئاً من المطر الدافئ تماسكت من جديد. لا داعي لليأس بإذن الله. إن كنت تتذكر فنحن راضون بالقياس إلى ما قبل بضع سنوات. وإذا حفرنا الأرض الحديثة وجدنا طعام سنة. ارحمنا يا الله واغمرنا بلطفك.

- آمين يا الله، - وافق ترقان قريبه لاججي.

ركب الفارسان إلى طريق القرية. كلاهما لا شيء في ذهنه إلا الأرض. إن وجدوا شيئاً من الدخن واللحم لم يطلبوا غيره. سيقضون عاماً ثقيلاً آخر وعندهم ما يضعونه في أفواههم. ثم يخلق الله ما لا تعلمون. إن تكرم الله عليهم لم ينقطع زادهم على مدار العام، ولم يشتهوا ما ليس لهم.

شكّ لاجبي في أن عيني ترقان لا تفارقان الجانب الآخر لنهر بشزّه، فسأله:

- حقاً، ماذا في تلك الناحية؟

- هناك لا أعرف ما يسرّ. هل تحرك الجيش الروسي؟

- لبيق هنا، ماذا يضرك؟

- كيف لا تقلق وقد حشدوا جيشاً أمام باب دارك؟!

- إن أردت الحقيقة يا ترقان فلا يقلقني وجودهم. - دعنا نتجه إلى تلك

الناحية إن أردت. سنتجاوز مستنقع القصب، ونعود من أسفل طوابغه.

- وماذا سنفعل هناك؟ هل تظني أرى القوزاق لأول مرة؟ - قال ترقان، ثم

أعاد التفكير حتى لا يظن صاحبه أنه ارتعب، فأضاف: - إن كنت راغباً

فلنذهب! يقال إن وايقق يخاطبهم كل يوم. ولكن لا أظنه هنا. وربما ذهبوا

لمصالحه القوزاق بنكراس ميشكا. كنت سمعت أيضاً من حجمقوه باتجري. كان

الجنرال الحليق أرسل نكراس موفداً إلى صيادي السمك، ولكن قيل إنه لم

يُسمح له بمقابلة الأمير القوزاقي الكبير.

-5-

- أيها الأمير، - دخل الحارس دردر إلى الأمير الكبير ألقس، - اعتاد علينا

فلاح من قزانقواي، فسدّ علينا منافذ الحياة.

- ماذا يريد؟

- لا يُصارحنا. يطلب مقابلة الأمير الكبير.

- وماذا سيقول لي آكلُ الخبز هذا إن قابلني؟

- لا أعرف يا أمير.

- كيف إذن تأتيني بخبر ولا تعرف غير هذا؟ - بدا من عيني ألقس عدم

ارتياحه للطلب. ثم أضاف ملطفاً صوته: - أسأله مرة أخرى عن مراده.

- سألته يا أمير. قال لي: لو كنت أريد مصارحتك بمراذي لما جئت إلى أمير

البجدوغ الكبير، بل إليك مباشرة.

- إن كانت فطنته تصل إلى هذا الحد فليس آكل الخبز هذا مجنوناً. كان والدنا

المرحوم يقول: الفلاح ذكيه جداً ومجنونه مجنون تماماً. ألم تسمع ما قال لك؟ ليس مجنوناً أكلي الخبز، ليس مجنوناً. ربما كان من الجماعة التي يهيجها قزاقوه قامش على النباح. قامش ظالم بلا حدود. لا يتقبل شيئاً مما تنصحه به. يتصرف على هواه، حتى والدنا كان يهدّته بصعوبة. وأنا أكبحه بكل طاقتي. قنشق وقامش يظل عندهما من يعارضهما. لا أعرف إن كنا نعيش في البجدوغ لا شاغل لنا سواهما. لم يكونا راضيين حين مُنحت لقب الأمير الكبير. ومتى سمعا باسمي في غياي برما شفاههما، وأشاحا بوجهيهما. أنا يصلني كل ما يجري: إن تكلم أو بكى أو ضحك. إن وصلتني إلى أن تشموا رائحة القلي ولا تذوقوا البرك فسأبقي عليكما تشتهيهما ما دمت الأمير الكبير. - عاد الأمير الكبير ألقس إلى وعيه لا يرى من اللائق البوح بما في صدره أمام الحارس، - ما سمعته الآن، ابقى بعيداً عنه أيها الحارس دردر. سبب النكبة في عالمنا هذا هو اللسان.

- نعم يا أمير، أنا لم أسمع شيئاً.

- على ما تقول فالقزاقوي، أكلي الخبز، يريدني في أمر ما. يم سيخبرني عن الأمير قزاقوه ولا أعرفه؟ وإن كنت لا تعرف فاسأل مرزبج الحارس الذي حللت محله.

نفض ألقس حلماً خرج الحارس من الغرفة. وبدأ يذرع أرض الغرفة. يجد كثيراً مما يصدع الرأس وإن لم يكن يقلق لأمر الفلاح الذي يحاول اقتحام الغرفة. لا يختلف العصر الذي مارس فيه والده مهمة الأمير الكبير عن عصره هو. في إقليم البجدوغ- الشابسغ تغيم سماء العلاقات متجاوزاً الأقاليم الأخرى. بُلينا بموقعنا بين الترك والقيصر بالإضافة إلى مشاكلنا المحلية. والجو مضطرب أمامنا ووراءنا. وإذا دخل الأبراز في الموضوع أججوا النار. حرّدت أماناً لكلامي معها بشأن بالتجري ولكني لا أتصرف بشكل خاطئ. ولو فهمني أخي الأصغر في هذا الموضوع لسرّني. وإن لم يفهمني فعليّ أن أتصرف بما يخدم مصلحة الأسرة. إن وجدنا عرقاً يساندنا من أجل تطويع الأمير قزاقوه والأمير قونقوه وغيرهما، والنبلاء، والمتنفذين، ونخبة الفلاحين، أفادنا إن عاجلاً أم آجلاً. ما لم أفهمه

حين دعاني السلطان التركي فهمته حين عدت إلى هنا: ما كان ليسأل عن الشابسغ لو لم يكن في ذهنه أمر ما نحوهم. وما شأنه بالأساس الذي يمتلكه شباكوه أحمد في الناختواي؟ وأنا من أين لي أن أعرف إن كان صديقاً للقوزاق أم عدواً؟..

انقطعت أفكار ألقس بسبب الضجة التي نشبت في دار الإمارة. أنصت بعض الوقت، ولما قدّر أن الوقت حان للخروج من الغرفة توجه إلى الباب. لا يجوز إبعاد الفلاحين كثيراً. هؤلاء يحمونك عند الضرورة على رأي والدنا. أنت وقدرتك على خداعهم. الأفضل أن تلعب مع الأشرار بخبثك من أن تُدان أمام من يبري الأشرار. ليس هذا السلوك مع أكلة الخبز فحسب، لن تضرك هذه السياسة حتى مع الأمراء - النبلاء.

- ألم أطلب منك ألا تُريني وجهك، أن تخرج من دار الأمير الكبير يا سليل الكلبين! - صرخ الحارس ددر على الفلاح الجالس على المسطبة.
- لن أفارق قبل أن أقابل الأمير الكبير.

- خذ يا عرق القذارة! - تناول الحارس السوط.
- ماذا تفعل يا ددر! - نهر الأمير الكبير الحارس، وتسمر الحارسان الآخران اللذان كانا قادمين جرياً. - أي ضجة أثرتوها؟ وأنت ماذا تفعل هنا على المسطبة؟

- جئت إليك يا أمير ولكن لا يسمحون لي بالدخول. - قفز الفلاح واقفاً حالماً رأى الأمير. - أنا قادم من قزنقوايه، وأصلي من فلاحين بنف.
- وهل يستطيعون منعك؟ تعال! - قاده الأمير الكبير خلفه باسماً إلى غرفة الإمرة. هات الآن ما تريد أن تقوله، ما الأخبار في ناحيتكم؟ ماذا يقول الفلاحون؟ وما عيشتهم؟

كان الفلاح الذي يتفقد الغرفة في الثلاثين أو أكثر، لا أقل. لا يمكن أن تفهم لباسه: القبعة متهرئة، ومن أطراف الحذاء الجلدي تبرز ذرات من التبن. والبنطال الذي نزل كُمّاه في جراب أبيض تغلب عليه الرقع المختلفة. وأطراف الجُعب التي خلت من الظروف منذ زمن بعيد، متهدلة. الوحيد الذي تشتهيه

مما يلبس هو الخنجر الملبّس بالفضة. وهذا، الله أعلم، ربما استعاره. لا تفارق عينُ الفلاح السجادة الجدارية الكبيرة التي جاء بها الأمير من تركيا في العام الماضي. وعلى الجدار أسلحة ممتازة يمكن أن تزوّد بها بضعة فرسان. وعلى الخزائن غير العالية صحنون فضية كبيرة وصغيرة. ويرتفع الهلال التركي على مقعد الأمير. وغير بعيد مقعدٌ صغير مغطى بالمخمل الأحمر.

- يا أمير، يا من جعل الله يومك مئة، أمير البجدوغ الكبير، - قال الفلاح بنف للأمير، - أنا أديتُ مهمتي التي جئتُ من أجلها إليك. عشتُ في صحة وهناء!

- بهذه البساطة؟ - استغرب ألقس، ثم سأل وقد فهم ما كانت نية الفلاح، - يبدو أنك جئت لترى فحسب.

- لن أكتم عنك يا أمير، قيل إن أمير البجدوغ الكبير يعيش في الجنة، فأرسلني فلاحو قزنقوايه لأتأكد من صحة الخبر. سأروي لهم ما رأيت حين أعود. أميرنا الكبير بفضل الله لا يعيش عيشة بؤس. بيته دافئ، وأرض غرفته وجدارانه مكسوة بالسجاد. ولا أظن مائدته فارغة.

في البداية أشعت البرودة من عيني الأمير الكبير. ومدّ جسده من المقعد شاعراً بالإهانة من كلام الفلاح. ولكنه كظم برودة عينيه، مبتسماً برياء. جلس قليلاً ريثما انحسر غضبه، وقال للفلاح مبتسماً في وجهه:

- اشكر باسمي من أرسلوك. لم أعرف أنهم يقلقون لأجلي. رضي الله عنكم. ليس هذا جنة، الجنة هي جنة الآخرة التي تنتظرن. ولنبلغها فالأفضل أن تُثوق صالحتنا سيئاتنا. ليشمروا عن سواعدهم، وليخصبوا زرعهم. وليتهلوا إلى الله. لا ينسى عباده. وليؤدوا مراسم الاحترام لموفديه الأمراء. وأنا لن أنسى فلاحي قزنقوايه في إحدى وقفاي أمام الله. لن أنسى فضائلهم...

قضى ألقس بضعة أيام وصورة فلاح قزنقوايه لا تفارق خياله. لم يخجل، بل لم يُخَف. جاء مستطلعاً ما عندي بحجة أن الفلاحين أرسلوه كأني مدين لهم. كنت غضبت على الحارس مرزبج ولكن لا يجوز رفع الكلفة مع هؤلاء. وإذا ابتسمت في وجوههم وقفوا على كتفيك. بالله عليك من يهتم هؤلاء؟ علينا أن

ننجز قضايا أسرتنا قبل تطويعهم. أمنا حردت بحجة نذر والدنا. أنا لم أنس نذر والدنا. أنوي أن أزور الكعبة متى اتخذت علاقاتنا نحن والترك شكلاً ما، وصفت العلاقات بينها وبين روسيا. وفي شأن موضوع بالتجري لا تتدخل يا أمنا!.. لا يحتاج هذا إلى نذر. أنا أسعى إلى الحل الأفضل.

- لا تجرح مشاعر الحماة، - قالت جانسور يوماً لألقس، - تقول إن والدك لن يكون راضياً عنك في الآخرة.

- طلبت منك أن تلمّحي لباتجري، لا أن تجعلي أمنا تشكو إليك...
- لمّحت له فابتسم ولم يقل شيئاً.

- لماذا يبتسم؟ هل سيقى عازباً العمر كله صاحب الرأس الرفيع هذا؟ صار مثل مربيه آل بارينقوه، يبتسم لما تقول له. سأفاته إذن، وسنرى ردّ فعله.

- إن سمعني فلا تفاته بالكلام. أنت الأكبر، تفقد احترامك. اجعل ابن مربيه ليوان يكلمه، فإن لم يستجب له فكرنا معاً. - التفتت جانسور إلى مصدر وقع حوافر الحصان، - ها هو أخوك وصل.

- ما الخبر الذي جاء به يا ترى؟

كنت تلاحظ على باتجري صعوبة الطريق الثقيل الذي قطعه، ولكن يبدو عليه عودته راضياً. الشاربان الكثيفان الكستناويان اللذان يغلب عليهما السواد خلافاً لأخيه يضيفان عليه مظهر من تجاوز الرابعة والعشرين. أثمر صبح طويل القامة، أقرب إلى صورة والده. تغلب على حركاته وكلامه ونظراته الخفة خلافاً لأخيه الأكبر. والحاجبان المتداخلان يضيفان عليه عبوساً ليس من طبعه.

- الخبر عجيب يا ألقس، - أسرع باتجري بالكلام، - لم تمش الأمور كما توقع كولباكين، لم يصلح صيادو السمك نكراس؛ هل تعرف ما فعلوا؟ عبروا نهر بشزه، ودخلوا إقليم الأديغة.

- إلى أين ينوون الوصول؟

- توجهوا نحو الشابسغ كما فهمتُ.

- وجيش القيصر؟

- لم يعبر نهر بشزه.

- والله ما جئت به يا أمير أخبار عجيبة، - جلس ألقس الذي كان يتمشى على أرض الغرفة، سكنت بعض الوقت، وسأل: - أياكون للشابسغ علاقة بما فعل آل نكراس؟

- الأرجح نعم، ويقال إنه كان بين من وقفوا في وجه كولباكين عدد من الفرسان الأديغة.

- ربما كانوا من نوعية وايقق تامبر؟

- هل يمكن أن يكون وايقق بينهم يا أمير؟! كولباكين ووايقق صديقان. كان من بين من دعوهم إلى عرس نكراس ميشكا. وكان معهم أبجوقه إسماعيل.

- لم تأت بخبر مفرح يا أمير، - نحض ألقس ثانية لا يُطيق الجلوس. - هل يقبل الجنرال الحليق دخول نكراس ميشكا القوزاقي إلى أرض الأديغة؟.. لم تأت بخبر طيب يا أمير... لا يقوم في إقليم الأديغة إلا كل ما يتسبب في الاضطرابات. ليس كل اللاجئين متشابهين يا أمير. من لجؤوا إلينا هم من سلالة الفلاحين الذين وقفوا بوجه القيصر... - ألقى ألقس نظرة قلقة على أخيه ناسياً أنه كان قرر مفاتحته في شأن الزواج.

-6-

بجحقوقه مجر مثل من لا يعرف الشر والخير، ويعرف كل شيء. طباع والده التي لم تكن فيه في شبابه تظهر فيه الآن. قضى السنوات الأولى من تولي ألقس الإمارة الكبرى في سلام تام دون أن يُقلق أحداً ولا يقلقه شيء. يقيم في قرية تمام، لا يسافر إلى أبعد من طؤابغه قائلاً: ولماذا السفر إلى حيث لا شاغل لك فيه. حتى طؤابغه القرية يتكاسل عن الذهاب إليها. والده شراندقوه كان يعجبه في البداية عيشة الهدوء التي يحياها الفتى، ولكنه بدأ يقلق حين اتصف بالهدوء أيضاً في جمع المال. وبدأ معه التأنيب العلني قبل أن يقضي نتيجة الجلد بالسوط والإهانة. ولكنه عجز عن تفتيح موهبته فيه إلى أن أجبر الأب على مفارقة الحياة. كان مجر يعرف منذ زمن بعيد الفارس الذي قضى والده على يده، غير أنه لم يجعل من الموضوع قضية تشغله. ولما جاءه جمه تناو خصيصاً

من الأبراخ لهذا الغرض سمع الخبر الذي جاء به الضيف بشأن سيسار، وأجابه كأنه يسمع لأول مرة:

- هل يجوز أن تشهر السيف على جنس النساء وأنت لابس قبة؟
كان مجر خالياً من ظلم الأمراء ومفاسدهم غير أن ما كان يغلب به أمراء البجدوغ شيء آخر: عنده ستة أبناء وثلاث بنات بين الواحد والآخر ثلاث سنوات. ولما وُلد آخر صبي كان هو في الخمسين. وعلى عادة جنس الرجال يعيش مجر فرحاً بالأولاد الذكور. ولم يسلّم الولد لتربيته مهما ترجّوه. والبنات كانتا عند الأتاليك، ولولا الزوجة كان أرفق الولد بهما. لم يكن هناك ما يُقلق الأمير مجر. يقضي الليل إلى أن يناموا وليس على لسانه إلا سيرة الأطفال. ويطلع عليه الصباح متلهفاً لرؤيتهم. ولما بدأ الصبيان والصبايا يكبرون، شرعوا يطالبون بكذا وكذا. بدأ مجر يفهم أن تفتت الثروات التي نهبوها من الفلاحين آن أوانه الآن. لم يبق له شاغل إلا جمع المال ونهبه. نسي كسله وعدم اكتراثه، وصار يدور على قراه مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع. وحين يعود يسوق أمامه قطعاً من المواشي، ويحمل عدداً من دلاء العسل. ويعطونه في العام جلد حيوان من أصل كل اثنين، ومعه فخذه.

لما أخبرت جانسور أخاها الأكبر برغبة الأسرة في تزويج بالتجري من فتاة من الأبراخ نظر إلى الأمر كمصدر فائدة، ولم يهتم بمسألة القرابة التي تهتم بها أسرة أخته. وفي اليوم نفسه التقى الأمير مجر بصهره أمير البجدوغ الكبير:

- لا تقلق يا أمير، ليس لنكراس القوزافي وللجنرال الحليق سوفور¹ نية التوغل في أرض الأديغة. سأقف في طريقهم متقدماً أولادي إن لم يبق غيري. وفي أسوأ الأحوال سنقف، كل البجدوغ في طريقهم، ولا بد وقتها من أن يفرع لنا الأبراخ والشاباغ.

- لم يصل الأمر إلى هذا الحد بإذن الله يا مجر. - لم تعجب ألقس طريقة كلام ابن الحم، - كان كولباكين موفد الجنرال سوفوروف ضيفنا قبل أيام. وعلى

¹ النطق الأديغي لاسم سوفوروف.

كلامه فليس للجنرال الحليق نية تجاهنا إلا السلام. جلس بيننا طلق الوجه جداً. وأتى على ذكر نكراس القوزاقي. مستاء من انتقلهم إلى جوارنا، ولكنه أخبرنا أنه لن يعادينا من أجلهم، وأنا سنعيش في وئام.

- والله لم أعرف إن كان عندكم ضيف. - قال الأمير مجر ممتعضاً من عدم إخباره بالضيف، ناسياً موضوع زواج أخي صهره. - كيف لم تخبرونا؟
- عرّج علينا موفدو القيصر دون موعد مسبق. برأ ألقس نفسه وقد فهم أن ابن اللحم مستاء لعدم دعوته، - ثم إن عدوك وابق كان معهم فلم نشأ إزعاجك.

- هذا القبيح لا يترك مناسبة لا يبيض فيها. كيف وطئ بيت أختي دون حياء؟!

لم تعجب عبارة "بيت أختي" الأمير الكبير ألقس. لا يسمع ألقس هذه العبارة من فم مجر لأول مرة. قالها قبل أيام في جمع ولم يردّ عليه. بردت نظرات القس. ما أسهل ما يرتب أموره كأن آل حجمقوه في خدمته!.. وعلى مبدأ: "لا ترفع الكلفة مع قريبك"، فترية القريب كترية الحصان. سأقول لك قبل أن نبتعد عن الموضوع.

- آل حجمقوه يا أمير جاؤوا إلى بيتهم بلابسة غطاء رأس، ولم يغيروا نسبهم فتقول "بيت أختي" - ردّ الأمير الكبير بكل برود واثقاً من قوته.

- ماذا قلت يا أمير؟ تعرّق قلب الأمير مجر مما سمع ولكنه تراجع باسماء، - هل قلت "بيت أختي"؟ هذا عيب والله، لا نعي أحياناً ما نقول. ولو سمعت أختي أنني قلت هذا الكلام لرفضت. ربما كان غضبي على وابق وراء قولي.

- فات الوقت الذي كان يجب عليك فيه أن تغضب على وابق. لا فائدة الآن منه يا أمير. رأيت الفلاح وابق له سندٌ كبير.

- ولماذا لا يكون إذا ساندته الأبخاخ!..

- ليس الأبخاخ وحدهم. ابن الكلب يعرف لغة القوزاق كما يعرف الأديغية. يؤلف الكلام أسرع من نكراس ميشكا الذي معه. وما سأقوله لك يا أمير أعجب من هذا: هل تعرف أكجكوه أفندي الشابسغ؟ إن كنت تعرفه فقد

كان ابنه نطار معهم. لا أعرف من أين تعلم هو الآخر لغة القوزاق. كان يساهم في الحديث. وخطب بلغة أديغية ممتازة. قرر بالتجري أن يتعلم لغة القوزاق، فرأيت قراره في محله.

- وماذا سيفعل بها يا رجل؟

- أليس من الواجب أن تعرف لغة جيرانك، لا هي حمل، ولا هي خسارة كما يقال.

- يا أمير، - ضحك مجر، - أنا لم آت إليك لشؤون الإمارة... الأفضل لباتجري من لغة القوزاق وما شابهها أن نتشاور فنزوجه من فتاة جميلة. وابتنتا متلهفة على "سلفة" لها.

- ما علاقتنا نحن؟ الأمر بيده. - لم يبح ألقس بما في قلبه، - هل لمّح لك إلى واحدة؟

- أعرف ولو لم يلمّح لي. - يقال إن في الأبراخ فتاة مغرمة به. وإن كنت لا أعرف هل تفكرون في عروس من الأبراخ.

- من أي أسرة يا ترى؟ - لم يملك ألقس مهما كظم انفعاله إلا أن يسأل، ثم أضاف: - لنكن من تكون إلا أن تكون قريبة جمه تناو... لا أريد أن تكون لي قرابة بآل جمه. لا يفارقون بابك حتى يكرهوك حياتك.

- لا علاقة لآل جمه يا أمير، - أزاح مجر تناو مع أن الفتاة هي مجرد فكرة. - الفتاة لا علاقة لها البتة بتناو إلا أنها تعيش في قريته. لا أستطيع الاستغناء عنه كرمي لوالدنا، وإلا فهل تظني أطيعه؟

- والله يا مجر أقول لأنك بدأت الكلام، ما كنت أريد الحديث في موضوع زواج أخي. الحقيقة أني أريد تزويجه، ومنذ زمن طويل أنوي أن أصبح قريباً من الأبراخ. في الوقت الحالي ليس عندنا جيران يشغلون بالنا أكثر منهم. عشنا عمرنا وهم يتحرشون بنا. وشتوا علينا حروباً عبثية. ونحن قابلناهم بالمثل دون إرادتنا. والججناي هم الذين ضيق الأبراخ عليهم معيشتهم. يعيشون حياتهم في رعب دائم منهم. أما فلاحو الطرفين فيجدون سبلاً للتعيش. ويجدون عندهم ما ليس عندهم. الأمراء هم موضع هجومهم الدائم. لا يتركون لهم ماشية. ولا

رجعة لمن مرّ بجانب حدودهم. أحوالنا يشكون كثيراً منهم؛ أعداء الداء. ولذلك لا تريد أمنا عروساً من تلك الناحية. ولكنها تخطئ هي أيضاً كأبناء عرقها. لا يعني رحيلنا عن العالم نهاية أمراء البجدوغ. سيبقى الأمراء مادامت السماء تُظِلُّ أرض الأديعة، وسيحافظون على عرقنا. لذا فالأفضل أن ننظر إلى الأبعد. إن تقاربنا بالقلوب كان فيه فائدة لنا. حين ينشأ هنا كثير من أولاد ابنة الأبخاز سيحرص أحدهم على الآخر في أقوالهم وأفعالهم... وفي غزوات الليل. يسرني أن يتوجه بالتجري نحو الأبخاز في الزواج.

- اعتبر الموضوع منتهياً إذن يا أمير، - قال الأمير فجر فرحاً لا يعرف كيف يقارب الفائدة الشخصية له. ثم أضاف وقد أمسك دفعة الحديث من حيث يريد، - أنا سأتولى الأمر منذ اليوم. ولكن لا أعرف ما الثمن الذي سأجنيه من الموضوع... - قهقهه فجر.

- لن أبخل بشيء على من يحل هذا الموضوع يا أمير، - قال الأمير الكبير ألقس، - قل لي حالاً ماذا تريد؟

- ليس إلى هذا الحد يا أمير... لن أستطيع أن أقبض مالاً على عرس سلفه أختي. إن لم أخدمكم في هذا فماذا تتوقعون مني؟ ولكن إن كانت عندك مثل هذه النية فلا بأس بفرس أنثى من سلالة الفرس التي أهداها أبحقوه، الأمير القبرتاي إلى والدك.

- أمسكتني يا أمير في هذه. لا أثق بقدرتي على تحقيق ما سألت عنه. لا أذكر أننا أعطينا أحداً من هذه السلالة فأعطيك أنت وتعتني منها؟! يقال: ليس فال خير.

- كيف أهداكم إياها الأمير القبرتاي إذن؟

- أخطأ، وبعدها يقال: أفنى الوباء خيله. إن أردت أعطيتك فرساً أخرى حاملاً ممتازة.

- والقطيع الذي ستأخذه منها ألن يتغلغل فيه الوباء؟ - ابتسم الأمير فجر.

- لا، منذ زمن بعيد تُهدي أفراساً من هذا القطيع. - أسرع الأمير الكبير في الإجابة. ثم قال لنفسه: حرمك الله من الخيل، لماذا عليّ أن أعطيك من أفراس

- القبرتاي الأنثى فأغنيك؟ فرس واحدة منها تساوي قطعاً مما عندك.
- أوافق إذن، - ضحك مجر ثانية بصوت غليظ، - أين بالتجري؟ سأبدأ بالتنفيذ دون أن أضيع ساعة واحدة.
- بالتجري غائب في الأبراخ منذ البارحة.
- من أجل فتاة؟
- لا، في نزهة فحسب.
- لا بأس إذن. - ظن الأمير مجر أنهم يسلبونه الفرس الأنثى التي مُنحت له.
- ابحث له عن ذريعة وأرسله إلى عندنا... لا يكفي، لا تقل له شيئاً، سأقابله بنفسى.

الفصل السابع عشر

-1-

في عام 1778 أنزل الأدميرال التركي جانقل اثني عشر ألف جندي في مدينة سوجوق الواقعة غير بعيد عن بُسْمَز قبل أن يهزم الفجرُ الصيفي المبكر الليل. ولد الخبر على الساحل. لم يكن أحد يعرف نوايا الجيش الذي انتشر في أرض الشابسغ، ولكن الخبر انطلق حالاً عبر الفرسان، يدخل قرية ويخرج من أخرى. لم يتفائل أحد بالخبر، وكانوا يعرفون، وإن لم يسألوا، أن بعده مصيبة ما. استنفر الناس من رجال ونساء، وركبان ومشاة، ومن يستطيع الركوب ومن لا يستطيع. لا يتذكرون منذ زمن بعيد مثل هذا العدد من الجيش حل بأرضهم. وأول من وصل إلى عند شباكوه هو وستقوه. وقبل أن يجد الوقت ليفتح الباب، جعله قلقه يُسرِع بالسؤال:

- ماذا تعرف يا شباكوه من نوايا الجيش التركي؟
- وهل يُطْلِعُك الجنرال جانقل على نواياه؟ نتوقع أن يقول شيئاً ما ولكنه لا يقول. وباستوق يتصام، يركض في خدمته، طامعاً في أي شيء يتكرم به.
- يا عديم الإيمان ذاك!، - غضب وستقوه، - لا حياء في عينيه. يفقد وعيه

متى رأى سروالاً عريضاً!.. ماذا تنوي أنت إذن يا شباكوه؟ هل نجلس مكتوفي الأيدي والجيش منتشر أمامنا؟

- وهل نصل إلى هذا يا وستقوه؟ - ابتسم شباكوه، - ماذا سمعت الفلاحين يقولون؟

- غير راضين.

- هذا حدثٌ لن يرضى به أحد. والمتنفذون ما رأيهم؟ - سأل شباكوه، وأجاب بنفسه، - وماذا سيكون رأيهم؟ ربما يقولون: ليفعلوا ما يشاؤون إلا أن يتعرضوا لنا. ولكن هذا لا يؤدي إلى شيء. هذا الحدث له أساس أعمق مما نرى يا وستقوه. ألم تسمع ماذا قال زملاء أُنَجَّوه إسماعيل القوزاق ونحن في الأبراخ؟ لا تزال تركيا تسنّ أسنانها للقيصر. وإلا فلماذا ينشرون كل هذا الجيش عندنا!

- هذا رأيك أنت؟ وربما هذا هو الصحيح... ومع ذلك كان الأفضل معرفة نواياهم.

قبل أن يجدوا الفرصة لمعرفة نوايا الأدميرال جانقل بدأ الأخير يجمع المتنفذين الشابسغ، ونخبة الفلاحين، والفلاحين الناشطين، فرادى ومثنى. كانت نيته واضحة لا لبس فيها.

في أحد الأيام أرسل وراء شباكوه وجماعته. استقبلهم الأدميرال كأنه يعرفهم طوال عمره. وبعدما جلسوا إلى المائدة مدة لا يعرف أين يذهب بهم ، وأين يجلسهم، وماذا يُطعمهم. قال القائد التركي، وباستوق يترجم له:

- لا سرّ أيها الضيوف في سبب دعوتكم إليّ. من أجلكم أنتم أمرني السلطان التركي بعبور البحر، وأن أصحب هذا الجيش الضخم، من أجل حماية أرض الأديغة من الروس. جيش سوفوروف يحتشد على الضفة الأخرى لنهر بشزه كي يهجم عليكم بين عشية وضحاها. الكفار في كل وقت كفار. مصرون على أن يمحوا دين الإسلام عن الأرض. يدعوننا من يدعو إليه الكثيرون ولا يحتاج هو إلى أحد قائلاً: أنتم في وضعٍ إن لم تتضافروا فيه اليوم ندمتم غداً على ما لم تفعلوه. إن تطوع الفلاحون في جيشنا فلن نسمح للروس أن يخطوا خطوة

واحدة في أرض الأديفة. أنتما، زعيمى الناختوي، كم فارساً يمكن أن تجندا؟ - لم يأذن لنا فلاحو الناختوي ببحث مثل هذه المسألة، - قال شباكوه دون مناورة، - نحن أيضاً في بلاد لا تخلو من نظام. عندنا مؤتمر نأتمر بأمره. أليس صحيحاً يا وستقوه؟ الأفضل أن نتشاور على مبدأ: رأسان خير من رأس واحد.

- يا عجي يا شباكوه؛ هل هذا كلام؟ - ابتسم وستقوه وقد فهم أصل الموضوع، - نحن لم يرسلنا أحد، بل دُعينا...

شحب وجه الأدميرال جانقل، ودارت عينا المتنفذ باستوق في محجريهما. لا يعرف الأدميرال الأديفة اليوم حسب، فقد أرسل رجلاً إلى الشابسغ عرفوا كل من يمكن أن يطيعوه في الشابسغ. وقطع البحر الواسع واثقاً منهم. وانظر الآن ما يجري له. كلُّ يجد له حجة مهرباً. متى صار في بلاد هذين دولة ونظام؟ قال جانقل واستغرب. ما يجعل قرارات المؤتمر نافذة هم أمثالكم، وليس لكما من تستشيرانه. لا تتظاهرا بالجنون وأنتما عاقلان. تكلمت مع الكثيرين ولم أستطع أن أظفر من أحدهم بجملة مفيدة. آل ناورز وآل شكش أعلنوا أنهم سيتشاورون وانصرفوا. علينا إيجاد حل لهذا الموضوع. ماذا عليّ أن أفعل ليفهموني؟ هل أتزوج من أخت باستوق كما اقترح السلطان فأصبح من أقارب الأديفة؟ لو عرفت أن الأمر سيجري كما أريد لما توقفت عند أي عائق. كنت أودعتها بين نساء بيتي الأخريات. أخوها جاهز ليزوجني إياها من هذه اللحظة. الأديفي إن فرضت عليه نفسك قريباً بقيت طوال عمرك مقرباً منه.

- لا أعرف أيها الجنرال ما يجعلك تروي هذا الخبر الذي تنسبه إلى السلطان، ولكن، - قال شباكوه، فانقطعت أفكار القائد التركي. - لا أحد يزعجنا من جهة نهر بشزه. ليس في بلاد البجدوغ مثل هذا الخطر. كل شيء بحجر وسلام، ليس إلا أن مظالم الأمراء تهيج الفلاحين.

- والله يا شباكوه، - قال باستوق، - أنا لا أوافقك. التقيت بالأمرير بحقوقه محر قبل أيام فرأيت هناك خطراً شديداً. لا يجوز أن تنخدع بأقوال آل حقمقوه. يقال إن بالتجري، الأخ الأصغر لأمرير البجدوغ الكبير ألقس، صديق

للجنرال الحليق. وصلنا خبر استضافتهم عدداً من القوزاق لا أعرف إن كان بينهم الجنرال سوفور. إن كان آل حجمقوه يتصرفون على هذا النحو فليس في سلوكهم ما هو خير لنا.

- ليس من شأننا ترتيب أمور آل حجمقوه يا باستوق. ما شأننا بهم؟ - لم يرتح شباكوه لما سمع. - في بلاد الشابسغ كثيرٌ مما هو غير مرتّب.

- لا تقل هذا يا ضيف، - قال الأدميرال جانقل بلغة أديغية صافية، - الله يكره من يجلس مع الكفار إلى مائدة واحدة، يصبح وقود نار جهنم. سلوك آل حجمقوه غير صحيح. لم يأذن لهم أحدٌ بالانفتاح على روسيا. إقليم الأديغة أحد أقاليم تركيا. عليه تنفيذ أوامر السلطان. من صالح الأمراء والنبلاء والفلاحين ألا ينسوا هذا...

- لماذا تكلفُ باستوق جهداً وأنت تتقن لغة الأديغة أيها الأدميرال جانقل؟ - سأل شباكوه وابتسم، وأضاف دون انتظار الجواب، - لا نعرف يا جنرال أن الأديغة فرضوا على أنفسهم نذراً للترك. نفذ ما علينا من التزامات نحو خان القرم، ليس لأحد التدخل في شؤوننا!.. يقال يا وستقوه: الضيف متى انتهى من الطعام نظر جهة الباب. - ضحك شباكوه حتى بدت أسنانه البيضاء. - المضيف قام بواجبه نحونا، وأطلعنا على مراده. سركب طريقنا.

- ولكن مجيء الضيف بإرادته، - قال الجنرال متناسياً ما قال شباكوه بشأن أرض الأديغة، وانصرافه بإرادة المضيف؛ أليس الأديغة أصحاب هذا القول؟ - هذا صحيح، ولكن الأديغة يقولون: الضيف يكره الضيف الآخر. والضيفان يكرهما المضيف. ها هم جمعٌ من الضيوف على بابك. - قال شباكوه، ونهض.

- إليك ما يحدث لي بشأن لغتي الأديغية يا شباكوه، - جرت على شفتي جانقل ابتسامة رياء، - أخجل إذ مضى علي زمن لم أتكلمها. ولكني أأمل أن يذكّرني بها جنود الأديغة متى انتسبوا إلى جيشي.

خرج شباكوه ووستقوه دون الإجابة على كلام الجنرال جانقل المبطن، وركبا. لم يتبادلا كلمة واحدة حتى خرجا من مدينة سوجوق. لم تكن المدينة كبيرة فتتبع

فيها طرقاً كثيرة. لم يسيرا في الشارع الوحيد فيها، بل انعطفا إلى اليسار بعد خروجهما من القصر، ودخلا المضيق.

- هل فهمت يا وستقوه؟

- ماذا أفهم؟

- مراد الجنرال جانقل؟

- كنت فهمت نيته حين زرتك قبل أن يدعونا إليه. أنظن يا شباكوه أن

الجنرال جانقل لم يدعُ المتنفذين من الأعراق كما دعانا نحن؟

- أكيد دعاهم.

- يا ربي، ماذا يكون المتنفذون قالوا للجنرال؟

- إن ركبوا إليه حدثوه بأفكارهم الفردية، ولكن ماذا يقولون دون مؤتمرات؟ لا

تستعجل يا وستقوه، سيظهر خلال أيام ما قال كلُّ وما فعل. ولكن إن سألتني

فما سأجيب به هو أمر واحد: لم يؤذنا القيصر بشيء فأرفع عليه سلاحه. إن

كان حشد على نهر بشزه فليبق إلى الأبد! هؤلاء ليسوا مجانين؛ ألم تر أنهم لم

يعادونا من وراء نكراس ميشكا الذي التجأ إلينا؟ أما كان الجنرال الحليق يجد

ذريعة لو أراد التوغل في أرضنا؟ ليس هناك ذريعة أفضل من مشكلة نكراس لو

كان يريد القتال حقاً.

خرجت من وراء المنعطف مجموعة من الفرسان. ولما اقتربت منهم سلك شباكوه

ووستقوه نحو اليسار، فتبادلت المجموعتان التحية الصامتة باليد المرفوعة، وكلُّ

منهما يده اليمنى إلى الأخرى. ولم يلتفت أيُّ من المجموعتين نحو الأخرى. وفي

لحظة التجاوز أجال شباكوه النظر فيهم، غير أنه لم يجد بينهم من يعرفه.

- وموضوع آل حجمقوه الذين أتى على سيرتهم، - أكمل شباكوه حديثه

الذي قطعه الفرسان، - لا تصدِّقه!.. لا أعرف أن هؤلاء اهتماماً إلا

بأنفسهم. استضافوا من أتى على ذكرهم لهدف واحد وهو ترهيب لاجبي

وجماعته من الفلاحين بسندٍ لهم. حسناً إن لم أخض في هذا الموضوع ألا تقول

يا مستقوه لماذا علينا أن نرفع السلاح في وجه القيصر؟ أي مشكلة حدثت

بيننا؟

- وهذا صحيح يا شباكوه. ولكن ماذا إن انعقد مؤتمر لفلاحي الشابسغ وقرر القتال؟

- هل تخاف أن يتحالف المتنفذون ويطوّعوا الفلاحين؟

- لا يمكن التنبؤ يا شباكوه بما يخطر لهؤلاء....

-2-

مضت عدة أيام وعلي سلطان لا يهدأ. قابل أحواله آل ناورز في خلال عودته من عند الجنرال جانقل في مدينة سوجوق. تفكّر في أمور كثيرة قبل رفع السلاح على أحدٍ مهما كان عدوًك. من السهل إشهار السلاح دون تفكير. هو حقاً من مظاهر الرجولة، ولكن لا تُشهره في غير وقته. ومتى أشهرته لا تُغمده دون أن تكسب الثناء. ولما عاد من عند أحواله لم يقض إلا ليلة قلق واحدة في البيت: ركب إلى آل أباته. ثم عرّج على آل شُكُش. وأينما سافر، وأياً سأل كانت الأسئلة أكثر من الأجوبة. لا تعرف إن كانوا موافقين أم لا.

- كفى يا ولد، لا تُفنّ نفسك! - نصحت داريت ابنها، - مصير البلاد مصيرنا. ما رأي آل أباته، وقازجري ما رأيّه؟

- والله لم يقلوا لي شيئاً يا أمنا، كان زارك قبلُ يقتل شارييه السوداوين، ولكن لم أحصل منه على كلمة شافية.

ارتعبت داريت من كلمات علي سلطان التي لا تقصد شيئاً. احمرّ خذاها، ثم شحبا. قالت: يا مصيبي، أيكون الولد شكّ في أمرنا؟ لماذا سأل عني باهتمام ولم تمض أيام على انصرافه من عندنا؟ وهل يعيش في هذا العالم القاتم وليس له من يسأل عنه غيري؟ وأنا لا أعرف إن كنت جُننتُ في كبري. لا أستطيع إلا أن أنظر إليه بودّ حين أراه بشاربيه المعقوفين كقرفني الكبش. يكفي؛ أنبقى شاباً إلى الأبد؟.. ها هو الحفيد الذي أتنا بشق النفس يركض على أرض الغرفة. يقف أمامي يناديني: نان!.. وأي نحسٍ يجعل قازجري يُدلي بجملة مفيدة، وهو الذي يعيش على هامش الحياة يبحث عنّ يقول له جملة مفيدة؟! أكان سمح لوالدك أن يخطفني أمام عينيّه لو كان رجلاً؟.. والآن أحبني من جديد؛ حتى لو

طلبت منه أن يطلق زوجته السمراء الصغيرة لما تردد. ابتعد عني!.. أي مصيبة حلت بي فأسمح لهذا المعنوه أن يخدعني في شيخوختي؟! ليعش مع العجوز التي ربت له أولاده كل هذه السنين!.. لمثل هذا قالوا: من يختار يُسئ الاختيار. أنا بالقياس إلى التي صارت عجوزاً في عصمته، مثلاً من تتزوج اليوم لتؤسس أسرة. هذه القبيحة التي تظل ترفّ بجفنيها لا تساوي بكل جسمها فخذاً من فخذِي. عطّلت مواهب الرجل الوسيم. أليس من البؤس أن يعدّوا مثل هذه القردة قد ربت لك أولادك؟ كم مرة تبهت قازجري ألا يتودد للولد فيجعله يشكّ في أمرنا؟ أيها الخبيث أنا أعرفك! عرّج علينا مرة وترى إن لم أتركك أنت وحصانك لا تعرفان أين تطآن!..

- منذ متى صار أباته قازجري في عداد الرجال!- غضبت داريت، - من ير شاريه ولا يعرفه يُضفّ عليه صفة الرجال كما تقول أنت. يعيش وغبّاه على قدر ضخامته. أنا مجبرة عندما يزور والدك مرة في العام لصداقتهما أن أعبر له عن الاحترام، لا بد من أن أجالسه. تركني والدك، يا حسرتي، أرملة ورحل. ماذا كان لو اصطحبني معه!.. - كان يؤدّها أن يراها ابنها وهي تتظاهر بالبكاء، ولكن دموعها غير المنتظرة سالت، فلان قلبها.

- يا أمنا، ماذا جرى لك الآن؟.. - نهض علي سلطان لا يستطيع البقاء جالساً، ووقف برهة لا يعرف أيقرب من أمه فينصحبها.

- امض يا ولدي، اتركني وتابع أشغالك، - صحت داريت ومسحت دموعها. - رق قلبي فلم أعد قادرة على كفكفة دموعي. متى جلست وحدي بعض الوقت عدتُ إلى طبيعتي.

لم تعد داريت إلى صفائها بعد أن خرج ولدها. ما إن أغلق الابن وراءه الباب حتى أعاد الحزن الذي مضى عليه عدة أعوام أفكارها، فسال الدمع من جديد. ارتوت من البكاء الصامت. بدأت داريت تعابث أباته قازجري على سبيل الدلال والتصنع، حتى ارتكبت خطيئة العمر. ولكنها لم تكتشف خطأها في ذلك الزمان كما اكتشفت الآن. عاشت إلى الآن والندم يُغنيها ولكنها حين ترى قازجري بضخامته تنسى. قلّت لقاءاتهما، ولكنها كانت تقرر إثر كل لقاء

أنه الأخير بينهما. لم تكن تستطيع أن تنساه مهما قررت بالكلام. يرتسم أمامها لا تدري من أين جاء. لماذا تغايبت ونكبت نفسي من أجل صبوة قلب؟ كم من النساء مثلي بلا أزواج؟ وهل يعيشن مثلي يسرقن اللذة؟ ها هي حاغور لاشين ربّت تسعة أولاد بلا رجل. كان حالها أسوأ من حالي حين ترقّلت. لم يسمع أحدٌ أنها ارتكبت الخطيئة. من نحسي نظرتُ إليك بعين الود حين ابتسمت لي. يا الله لم أقترف ذنباً دون علمك فاغفره لي، ومهما حملتني فهو حملي. وأوقع من دفعني إلى الخطأ وجلب لي المصيبة، في مصيبة لا تفني. أما كان يجدر به أن يرى حالي وإن لم ير حاله هو؟ لماذا لم يتركني قانعة بترؤملي؟ أقول هذا ولكني أتحمل قسطاً من الذنب. كنا نتبادل المزاح المُرّائي في حياة الزوج. اللهم إقلع عين من دفعني إلى الخطأ!..

مضت ليلة ونهار على الساعة التي صارحت داريت نفسها بالموضوع الذي كانت تحسب حسابه، واحترقت ندماً. نظرت في المرأة تعرف أنها نَحَلت في هذا اليوم.

- يا كَنّة!

- هل ناديت يا حماتي؟

- نعم، يا من حماك الله من الطاعون، لا تدعيني أنتظر حين أناديك... انظري إلَيّ لحظة! ألا ترين فيّ شيئاً غريباً؟

- لا يا حماتي، لا أرى؛ هل من جديد؟

- طبعي ألا تري! - عيّرت داريت الكنة، - لو كانت أمّك لاحظت عليها نحوها ولو لم تسألك. ما أنا إليك؟ هذا ما يجعل الناس يقولون: الأم التي لا ابنة عندها لا تجد من يكي عليها. لو ولدتُك لركضت ورائي تسأليني: ماذا يؤمك يا أمنا؟! عندي ولد يججل أن يضع يده على جبيني. أما أنت فلا تبادرين فتأتي وتسأليني عن حالي إلا إن استدعيتك!

- لا تقولي هذا يا حماتي، لا يسيء ابنك معاملته، لا همّ له غيرك.

- وهل كنت تريد أن يكون سيئاً نحوي؟ - جحظت داريت، كانت تود أن تغضب ولكن الكنة لم ترد عليها. - الأفضل من كل هذا أن تمسدي جبيني

براحتك فتزيلي الغضون عنه. كأنها برزت أكثر مع نحولي!..
- وأنا شككت في هذا يا حماقي.

- هذا رأيك؟ - فرحت داريت ناسية أنها كانت تريد أن تغضب. - هذا الجبين المنحوس هو ما يُحسّني بالهرم. نعم، هكذا إلى الجانبين، وارفعيه، هل تناسبني النحافة يا كنة أكثر من حالي الآن؟ أشعر من قلبي أنني صرت خفيفة. لا أعرف من أين يأتي الكبر لعنه الله!.. يا حسرتي يا كنة لم تربني أيام عزوبيتي. لم يبق في قريتي كُداق من لم يتودد إلي ويعازلني. أما الأبراخ فقد دخلوا مسطبة بيتنا. من أين نسترجع ذلك الزمان يا حسرة! ما كان أجمل زماننا!..

- يا حماة، لا يخفى أنك كنت جميلة ولو لم أرك في عزوبيتك. كثيرون يقولون لي: عندك حماة جميلة جداً.

- ولماذا لا يقولون؟! من الذين يقولون لك بالقياس إلي؟ - يكفي الآن، هاتي المرأة لأرى. - أمعنت داريت النظر في المرأة ثم قالت للكنة بخبث: - يا صغيرتي؛ هل كنت عمية حتى لَوْنَتِ جبيني بالأحمر؟ طلبت منك أن تدلّكي بلطف، لا أن تسلّخيني. كم قل لك أن تليني يدك معي!؟

- أما كنت تخبريني يا حماة إن كنت أوْلُك؟

- وهل يداك من حديد فلا تحسي بهما؟ ثم لا تكلميني بهذه النبوة!.. لا تتكبري علينا أن ولدت لنا صبيّاً! كثيرات في باستوك قدرات على أن يفعلن هذا. ولكنهن لا يُعلنّ عن أنفسهن!

- لم نعد نعرف ماذا نقول يا حماة!.. - لا نحوز رضاك إن ربّينا، ولا إن لم نربّ.

- من قال لك ألا تربّي؟- جحظت داريت بعينيها.

يا إلهي، قالت مامرخان، من أي نوع من البشر هذه المرأة؟ تتغير مئة مرة في اليوم وكلها مما لا يطيقه الإنسان. لا توقّر شيئاً من قدرات فمها. تلاحقني لأنها تريد أن تصبّ أحقادها عليّ. لا تخرج، ولا تُقِم، ولا تدعني أراك في البيت! هذا منطقها، تريد منك المستحيل. نعاملها بالجميل فلا ينفع معها، وبالقبیح فتكاد تلتهمنا. أي أسلوب يمكن أن أجد لها؟ إن فسوت عليها في الكلام

انتشر خبرنا، لا في باستوك وحدها بل في الشابسغ كلها، فعاب علي الناس. وإن لم أرد عليها فقد ركبتي بكل راحتها. تظنها تكلمك فإذا هي تعنّفك، وفيما هي تعنّفك تصالحك!.. أنا لست خادمة في هذا البيت إن كنت لا تعرفين. إن لم تتوقفي عند هذا الحد فلن تكون العاقبة إلا سيئة. لا أعرف أي قدرة على مزيد من التحمل!..

كانت داريت تنتظر من الكنة أن ترد عليها، ولكنها لم تفتح فمها بكلمة. عادت فتناولت المرأة التي كانت ألقتها في حضنها، ونظرت ثانية فيها. - كفى يا كنة؛ لماذا تقفين مرتجفة؟ اللعنة؛ متى سمعتم ما لا يعجبكم هرب الدم من وجوهكم. يا حسرتي؛ أكانت حماتي تكتفي بمثل هذا؟ ما أكثر ما تنفت لي شعري، وتحملت. ما أبعد ما بين عالمنا وعالمكم! كانت حماتي ظالمة إلى أقصى حد، ومن بقيت في حمايته أخيراً هو المسكين شراًقوه. ليجد الراحة حيث رحل بإذن الله تعالى. لن أنسى إنسانيته ما عشت. كنا متفقين في الطباع أنا والمسكين. هيا يا كنة هاتي لي ولدي الذي يكاد يدرج ليريح قلبي.

-3-

موضوع مؤتمر الشابسغ اليوم موضوع واحد، وهو موقف الشابسغ من الصراع بين تركيا وروسيا. ولهذا الغرض اجتمع موفدو قرى الشابسغ في مرعى الغابة بين كداق وباستوك. لم يكن موضوع النقاش يهّم الشابسغ وحدها، فاستضافوا موفدين من البجدوغ والأبزاخ والوييخ. واستضافوا، دون إشراك الجمكوي كلها، أمير الحاتيقواي لأنه تكلم مع الجنرال سوفوروف. حضر من البجدوغ الأمير الكبير حجمعقوه ألقس، وأخوه الأمير باتجري، والأمير بححقوه مجر، والأمير قزانقوه. كان الأبزاخ يقولون إنهم أوفدوا وفداً من المتنفذين برئاسة جمه تناو، ولكن موفدي الفلاحين من تلك الناحية كانوا في جانب آخر من المؤتمر. الوقت فجر باكر من أيام الصيف. العاملون في المؤتمر جاهزون تماماً بانتظار الشروع فيه. والأفندي أكجكوه القيم على الإسلام في الشابسغ سيفتح المؤتمر. ولكنه ينتظر شمس الصيف. لن يبدؤوا بالعمل قبل أن تطل على أرض

الشابـسـغ. كل العيون متجهة إلى الشرق. والضيوف وجوههم إلى حيث وجوه الأكثرين. والأمير الكبير ألقـس ليس جديداً عليه هذا التقليد فقد رُبِّيَ عليه في الشابـسـغ حتى استعاده أهله. كان باـتـجـري ومـجـر هـما من يتعجبـان مـما يـريـان. وأحياناً يتبادلان النظـرَ بأطراف العيون، والإشاراتِ بأطراف الأصابع. والأمير قزنقوه قامـش يجلس ناصباً رأسه، معتداً بنفسه، يقلد الأمير الكبير ألقـس. لا يعرف ما في هذه الأنحاء فهو ينتظر الشمس وكأنها ستحمل إليه شيئاً عجيباً. وجهه تتاو يتكلم مع أباته فازجـري مستعيناً بحركات اليدين. وأحياناً ينظر بطرف عينه إلى الفلاحين الذين يتزعمهم أبده نارج.

أكثر الناس انشغالاً بالهمّ هو الأفندي أكجكوه. هو قلقٌ لأنه لا يعرف كيف سينتهي المؤتمر الذي سيفتتحه. لا ينسى المـشـادة بينه وبين ابنه نطار مساء أمس. كلما احمرّت سماء الشرق اشتعلت أمامه جمرٌ ملتهباً. يخيّل إليه أن نظرات ابنه تحرقه. ماذا ينقصه؟ أنت من نعيش لأجله أنا وأمك. وليس عندنا غيرك في الدنيا. عليك أن تقف إلى من يأتـمـر بأمر الإسلام، لا أن تستدير صوب القوزاق - الروس الذين ينوون تدميره!.. إن لم تضع حداً لنفسك قضيتُ عليك أنت وأشعارك يا سليل الكلبين. المسؤول عن هذا هو حاغور موسى، سمح لأصحابه من أمثال وايقق تامبر أن ينكبوا الولد المهذب. ماذا سيفيدك في النهاية نكراس ميشكا أيها المجنون التعيس؟ نحن من عندك تلجأ إليه عند الضرورة. إفعـلْ كما أفـعـلْ لا تخطئْ!.. هؤلاء الذين تتبعهم لن ينفعوك في شيء. هَيِّجْهم، ودعهم يتكلمون على الأغنياء، ولا تُطعِمهم!..

حالما ظهر طرف الشمس صاح أكجكوه هارباً من أفكاره، رافعاً يديه، محدقاً نحو الشمس، ناسياً الجمع حوله:

- يا شمسنا العظيمة، لينظر إليك إلهنا العلي بعين الرضا اليوم! لا تفارق قلوب المسلمين. نفتتح مؤتمراً، بعلمك، في أرض الشابـسـغ لتتكلم في هومنا. ليتفرق المسلمون الذين اجتمعوا على نية الخير كما اجتمعوا على الوفاق والألفة، وحقّق لهم ما في قلوبهم. - اختصر الأفندي كلامه بذكر الموضوع الذي سيتناولونه، ولم يُدِلْ برأيه هو. وأخى كلامه بسؤال وهو يتأمل وجوه القوم:

- هل نقف إلى جانب الجنرال جانقل ضد الجنرال الحليق، أم لا؟ نتأمل من الضيوف أيضاً أن يُعربوا عن قناعاتهم.

استلم أباته قازجري الكلام:

- أيها الجمع، أيها المؤتمر، أيها الضيوف الكرام. ليس موضوعنا اليوم موضوعاً عادياً. ولا يتحمل الإطالة. لا يعرف الشابسغ الجنرال جانقل اليوم فحسب. أرى أن الجنرال جانقل يضمّر لنا الخير، أَلُمْنَا أَلْمُهُ، وفرحنا فرحهُ، وما يُقلقنا يقلقه. لو لم يكن هكذا لما صار صهراً لنا...

- ومن قال إنه صاهرنا، نحن الشابسغ؟ - تدخل أحد الحاضرين.

- ها هو المندوب؛ اسألوه!

- من هو؟ - سأل حاغور موسى.

- موفد الجنرال جانقل.

- إذا كان موفد الجنرال جانقل فلماذا يقف بيننا؟ خرج شباكوه من بين

الواقفين. - إن لم ينصرف حالاً فمندوبو النأتخوي منصرفون!

- وماذا يؤذيك حضوره؟ - بدا من صوت علي سلطان ومن سؤاله معاً

استياؤه، - تقف دائماً معترضاً على أحدهم يا شباكوه. الجنرال جانقل ليس

عدونا. قطع كل هذه المسافة لحمايتنا من الروس. نطرد مثله بدلاً من شكره.

ليس هذا من الأدبغية في شيء.

سمع أباته قازجري الذي أثارت كلمته الضجة ما كان يريده، فتراجع مسروراً،

وعاد إلى رفاقه.

- يا شرلأقوه، لا أحد يسلبنا أرضنا، - خرج حاغور موسى من الجماعة، - لم

نتج الأتراك قائلين إن القوزاق هجموا علينا فاحمونا منهم. مرت سنوات،

وجيش القيصر لم يعبر النهر مقدار إصبع إلى أرضنا. من منكم رجا الأدميرال

جانقل حتى يحشد اثني عشر ألفاً في أرضنا؟ أنا لم أرجه. نحن نعتمد على

أنفسنا في حمايتنا إن كان هناك خطر. ما يقوله شباكوه صحيح. إن لم يخرج

من جاءنا بخبر العرس حالاً فوفدٌ فلاحي باستوك سيغادر حالاً.

تحرك بالإضافة إلى فلاحي النأتخوي وباستوك وستقي، فلاحو كُداق وطؤزيس

وبُشده. ولم يطيعوا كلام ألكجكوه أنزور: طلبوا من موفد الأدميرال جانقل الرحيل. وفهم ألكجكوه أن مشروعههم لن ينجح. وقرر الأمير الكبير للبعدوغ، وقد عرف أن لا فائدة من الحديث أمام المؤتمر، عدم التدخل في شؤون الشابسغ. ومن جهة جمه تتاو فمند زمن طويل سحب رأسه إلى صدره كالسلحفاة، مدركاً عدم جدوى التدخل بين الفلاحين الذين احتلوا ساحة المؤتمر. وكان واضحاً أمام متنفذي الشابسغ ومن استضافوهم أن الأديغة لن يحاربوا من أجل الجنرال التركي.

استدعى علي سلطان غاضباً حاغور بداد، وعيّره:

- ألسنت كبير آل حاغور؟ لماذا سمحت لأخيك أن يُخرب المؤتمر؟

- لا فائدة الآن؛ ألم يقولوا: ربّ نفسك في البيت ثم اذهب إلى الاجتماع؟! دعنا نصل إلى بيوتنا. سأعلمه ألا يتكلم، أخرجني!

لم يسفر المؤتمر عما تأمله المتنفذون الشابسغ. كانوا ينوون إنهاء المؤتمر اليوم والتشاور فيما بينهم غداً، ولكن الفلاحين نسفوا هذه الفكرة أيضاً.

- ما لم نقله اليوم لن نستطيع قوله غداً، من أراد القتال فليتزود بالسلاح وليحارب! - كان تحخوخوه نباؤه من أوائل أصحاب هذا الرأي.

انصرف فلاحو الشابسغ جماعات دون أن يذوقوا من الطعام الذي جيء به إلى المؤتمر. وبقي المتنفذون الشابسغ والضيوف في المكان يتبادلون النظرات المتسائلة. ثم أحضروا موائد الغداء كأن شيئاً لم يكن. وبعدما أكلوا شيئاً منه قال شرلأقوه علي سلطان:

- والله لم يجر معنا أي شيء صالح. من يسمع يعبّ علينا. بأي وجه سنعود إلى قرانا؟

- أنتم لا بأس بحالككم، - قال ألقس الأمير الكبير للبعدوغ، - ما جرى للجنرال جانقل هو المصيبة الكبرى.

- ماذا جرى للجنرال جانقل؟ - رفع أباته قازجري رأسه عن قطعة اللحم الكبيرة التي بيده.

- الرجل صاهركم أيها الشابسغ معتمداً عليكم، - ابتسم الأمير الكبير ألقس،

- ظن البائس أنه يفعل خيراً فأذى نفسه. من أي أسرة تزوج؟
- ابنة آل باستوق، - غمغم ناورز حاج عمر. - لم يتصرف الأدميرال بحكمة. ما حاجته إلى فلاحي الشابسغ؟ هيّجهم.
- إن لم يتجاوزوا هذا، ساهم حجمقوه بالتجري، - الفلاحون الذين رأيتهم لا تستطيع حملهم على القتال...
- إذن بأي وجه سنذهب غداً إلى عرس الأدميرال جانقل؟ - سأل علي سلطان وقد هاجت الشمس والباخسمة رأسه.
- على قدر قدرتكم على خداعه. - أجاب أمير الحاتيقواي باختصار.
- بأي حجة؟ - نظر ناورز حاج عمر نحو الأمير.
- فكروا، - قال ألقس الأمير الكبير، - لا يليق بكم معاداة الجنرال جانقل بداعي أن الفلاحين الشابسغ يعادونه. مهما قلنا ومهما فعلنا فنحن تحت الحماية التركية. لا تدعوه يعتب علينا إن كان هناك أي إمكان. أنتم قولوا ما عليكم. ماذا قال أحد الفلاحين الذين تكلموا، لا أعرف من هو، طلب أن يعطيكم أجرة انضمامكم إليه. فكروا في هذه النقطة، وحددوا سعراً. ماذا كان الفلاح قد قال؟..
- قبل الآن حين تحارب الترك والروس، - استعجل علي سلطان، - ولو أعطانا تعويض ما فقدنا من أملاك، فلن نقف إلى جانب الجنرال جانقل ونحارب معه. الفلاح وستقوه هو من قال هذا.

-4-

- لا أريد أن أسمعك بعد الآن يا أخي الصغير؛ لا تقف أمامي وتتكلم في الجموع، - قال حاغور بداد لموسى بين الغاضب والعاتب - أخرجتني في الاجتماع. نظر الفلاحون إليّ وأنا لا أعرف أين أذهب بوجهي. سأل الضيوف عن نسبك. لماذا تجعل الناس يكرهونك؟
- ما كنت أستطيع الصمت في هذا الموقف. ساعمني على تجاهل كونك الأكبر.

- ما كنت أفصّل شيئاً على ألا تخرجني أمام الأمراء الضيوف. سأل بداد وفي ظنه أن أخاه الأصغر يلين، واستلم الكلام من موسى ليضع له خاتمة، - مهما قلنا فنحن فلاحون، ومعروف مكاننا المتواضع في الذيل، يبقى الأمير أميراً، والنبيل نبيلاً، والمتنفذ... إن لم تُظهر أمامهم شيئاً من الاحترام فقدنا روح الأدب.

- في المؤتمر يجب أن يتساوى الجميع، من أمراء ونبلاء... - رفع موسى رأسه الضخم ونظر إلى أخيه.

- هذا مستحيل يا أخي!

- وكيف حدث في ذلك اليوم!

- ماذا حدث؟

- نجح الفلاحون في موقفهم بعدم التحالف مع جانقل.

- نجح الفلاحون لأنهم احتلوا الساحة ولم يسمحوا لرجل حكيم بالكلام.

- والمتنفذون تكلموا في المؤتمر، ولأنهم ليسوا من سيذهب إلى الحرب، بل الفلاحون فقد صمتوا لأنهم يعرفون أن كلامهم مرفوض. ألا تفكر يا بداد من أجل من سنسفك الدم؟ هل هجم عليك أحد يسلبك أرضك؟ الصحيح ما قاله شباكوه: إذا كنا تحت هيبة تركيا، فهل نسمح تحت أعيننا بحرب بين دولتين على أرضنا؟ كانت هذه البلاد بلادنا من الأزل، لا أرض هؤلاء الترك القادمين عبر البحر. لم يشهد أحد أننا بادرنا بإشهار السلاح على أحد ما لم يشهر علينا.

- وهذا صحيح. لم نشهر على أحد.

- لماذا إذن كان المتنفذون يعلنون أنهم سيقفون إلى جانب جانقل؟ كانوا سيرسلوننا أنت وأنا والآخر محاربين. هذا هو الوضع؟

- لماذا كنت أنا سأذهب؟

- هل كان علي سلطان سيذهب إن أنت لم تذهب؟! والمتنفذ الكبير أباته قازجري سليل القمر، شبيه الأمير، وموفد الله أكجكوه أنزور، أفندي الشابسغ الكبير. وناورز حاج عمر يعدّ نفسه رسولاً. كل هؤلاء ليس عليهم أن يضخّوا

بأنفسهم. وأما آل شُكُش فكلهم مُقْعَدُونَ. من بقي الآن يستطيع رفع السلاح؟ الإخوة حاغور الثمانية.

- ولماذا ثمانية؟ أين التاسع؟

- ألسن التاسع؟

- ومالي أنا إن كنت التاسع؟

- أنت في موقف يمكن أن تجد فيه عذراً. ألسن من أغنياء الفلاحين؟

- اسمع ماذا يقول!.. - ابتسم بداد متظاهراً بالحياء مما سمع. وهل تعدني بين نخبة الفلاحين؟!

- لست من يعدك منهم. شرلاًقوه علي سلطان من يسميك به. سواء عدك منهم أم لم يفعل فأنت في نظري أكبر الإخوة. وليس هذا وحده، بل يتخذونك مثلاً لأنك أكبرهم.

- نعم، أنا أكبرهم بفضل الله، - ظهر على بداد ارتياحه، - أليس كوني الأكبر ما يدعوني إلى أن أطلب منهم الاحترام؟ لا تُبرز نفسك من بين الناس بلا داع. لن يضرك أن تتصاغر في حضرتي قليلاً. المتنفدون يا أخي ما سمّوهم هذا الاسم لو لم يكونوا أقوياء حقاً. اخدعهم بالابتسام كما أفعل أنا. سيخصّونك بأحسن أجزاء الذبيحة ولن يرموا إليك بعظمة كالكلاب. لا تكن كوالدنا المرحوم إنساناً مشاكساً فيوقعوك في الفخ. ألم تر ما فعلوا بنا؟ تركوا أمنا أرملة أم جيش من الأيتام. لن تستطيع أن تصرع هؤلاء الأقوياء بمجرد أن تنفخ صدرك، ولن يظهر من يستطيع صرعهم. أنت وما تستطيع التلاؤم معهم. إن استطعت فانتزع مصلحتك دون اعتبار لأحد. وهكذا تظل تجمع المال فتعيش أيامك كلها سعيدة لا تحتاج إلى غيرك. ومن أجل الوصول إلى هذا ستطأ ظهر أحدهم، ويحدث أن تنتزع ما ليس لك. وستصادف كثيرين يستدرّون دمعك فلا تتوقف، اعتبرها ساقية ماء وامض. ومتى توقفت فستشرع تشكو مع الباكي فتخسر الحظ الذي بانتظارك. ثم هل تعرف يا أخي ما سأقول لك إن سمعت كلامي؟ لا تسمح لنفسك أن تعاشر الفقراء أمثال تحخوخوه، ولا لهم أن يعاشروك. وتجنّب الفلاح أرسى. ولا تدع الناس يرونك بصحبته. سيسمونك

بِسِمَةِ الْفَقْرِ. أَلَا تَعْرِفُ قَوْلَهُمْ: عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ مَجْنُونٍ؟..
 لَا يَتَذَكَّرُ مُوسَى أَنَّهُ تَحَدَّثَ بِصَرَاحَةٍ مَعَ أَخِيهِ مِنْذُ أَنْ بَدَأَتْ آرَاءُ الْأَخْوِيَيْنِ
 وَأَفْعَالُهُمَا تَتَبَاعَدُ. وَلَوْلَا الْكَلِمَاتُ الْأَخِيرَةُ مِنْ بَدَادٍ لَانْصَرَفَ الْأَصْغَرُ مُوسَى
 رَاضِياً عَنِ الْأَكْبَرِ بَدَادٍ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَمَا يَرِيدُ. إِذَا تَجَالَسَا هَكَذَا وَتَكَلَّمَا بِهَدْوٍ
 عَرَفَ كُلُّ مَنْهُمَا مَا فِي نَفْسِ الْآخَرِ، وَافْتَرَقَا أَكْثَرَ تَقَارِباً. قَالَ مُوسَى: مِنْ أَيْنَ
 أَتَى بَدَادٌ مُخَالَفاً لِلْإِخْوَةِ الْآخَرِينَ؟ تَقُولُ إِنَّهُ مُرَاءٍ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ. تَقُولُ إِنَّهُ
 أَذْكَى مِنْ فَلَاحِي بِاسْتَوْكَ فَلَا أَرَى فِيهِ هَذَا. وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الذِّكَاءِ
 أَضَاعَهُ فِي جُلُوسِهِ عَلَى طَرَفِ مَائِدَةِ آلِ شَرْلَاقُوهِ. لَيْسَ عِنْدَهُ الْكَثِيرُ حَتَّى
 تَصْنَفَهُ مَعَ نَجْبَةِ الْفَلَاحِينَ. أَقُولُ إِنَّهُ يَجْمَعُ الْمَالَ فَلَا أَرَى عِنْدَهُ مَا عِنْدَ الْفَلَاحِينَ
 الْأَغْنِيَاءِ. يَجِدُ قُوَّةَ يَوْمِهِ. فَلَمَّاذَا يَحَامِي إِلَى هَذَا الْحَدِّ عَنِ الْأَسْرِ الْمَتْنَفِذَةِ؟
 سَأَجِيبُ بِصَرَاحَةٍ وَإِنْ غَضِبَ مِنِّي.

- وَاللَّهِ لَا أَعْرِفُ يَا بَدَادُ، آرَأُونَا فِي الْأَسْرِ الْمَتْنَفِذَةِ مَتَبَايِنَةً. لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ
 أَتَنَاوَلَ الْقِطْعَةَ الدِّسْمَةَ مِنَ اللَّحْمِ كَمَا اقْتَرَحْتَ. وَلَنْ أَقْبَلَ بِالْجُلُوسِ عَلَى أَطْرَافِ
 مَوَائِدِ الْمَتْنَفِذِينَ.

يَغْلِي بَدَادٌ غَضَباً مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمَبْطُنَةِ وَلَكِنَّهُ يَكْظُمُ مَشَاعِرَهُ خِلَافاً لِعَادَتِهِ. لَمْ
 يَكُنْ بَدَادُ، كَمَا مُوسَى، يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ بَيْنَ الْأَخْوِيَيْنِ سُوءَ تَفَاهُْمٍ. أَلَا يَكْفِي مَا
 كَانَ بَيْنَنَا مِنْ عَدَاءٍ أَسْوَدَ دُونَ أَنْ يُضَافَ مَا جَرَى الْيَوْمَ؟ سُوءٌ وَافَقْتُ أَخِي أَمْ
 لَمْ أُوَافِقْهُ فَقَدْ فَرَضَ الْفَلَاحُونَ رَأْيَهُمْ عَلَى الْمُؤْتَمَرِ. لَمْ يَسْمَحُوا لِأَحَدٍ مِنَ الْمَتْنَفِذِينَ
 أَنْ يَقِفَ فِي السَّاحَةِ. وَمَهْمَا تَكَلَّفَ الْأَفَنْدِيُّ أَكْجَكُوهُ لُغَةَ الْقُرْآنِ لَمْ يَرْضَخُوا
 لَهُ. لِأَجْلِ هَذَا يَقَالُ: مَنْ تَضَافَرُوا نَبَتَتْ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ. لَمْ يُعْرِ الْفَلَاحُونَ اهْتِمَاماً
 بِالْأُمْرَاءِ - الْبُلَاءِ الضِّيُوفِ، تَكَاتَفَوْا فَفَرَضُوا كَلِمَتَهُمْ. لِلْحِظَةِ نَظَرَ بَدَادٌ إِلَى
 أَخِيهِ نَظْرَةً وَدَّ وَابْتَسَمَ كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَلَيْسَ حَسِناً أَنْ يَكُونَ لَكَ أَخٌ مِثْلُهُ تَلْجَأُ إِلَيْهِ
 عِنْدَ الضَّرُورَةِ؟ ثُمَّ قَالَ:

- أَنْظِرْ إِلَيْكَ يَا أَخِي فَأَرَاكَ شَرِساً مُشَاكِساً؛ صَحِيحٌ؟
 - لَا أَعْرِفُ فِيِّ مِثْلَ هَذَا الطَّبَعِ وَلَكِنْ لَا أَعْرِفُ مَا يَدْفَعُكَ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ.
 - وَبَادِلَ مُوسَى أَخَاهُ الْابْتِسَامَةَ.

- وكيف لا تعرف بعد كلماتك الأخيرة لي؟ لم تُبق مثلبة لم تُضيفها عليّ، من وقوف على الأعتاب، وتعلّق بأطراف الموائد، ومصاص للعظام...

- لست وحدك المقصود بهذه الأوصاف يا بداد. بيننا، نحن الفلاحين، كثيرون من هذا النوع. يتملقون المتنفذين، ولا يحققون لأنفسهم شيئاً يُذكر.

- أعرف، وأتقبّل كل ما توجهه إليّ. وأنا، هل تعرف يا موسى، أوبّخ نفسي أحياناً. ولكن ماذا بيدي؟ أحبّ جداً الجلوس في مضافات المتنفذين. أعيش عمري متصوراً أنهم، بفضل الوقت الذي أقضيه بينهم، يمدّوني بما ليس فيّ. في هذا الموقف فحسب أنسى الفلاحين، ولا أعرف في نفسي أني انفصلت عنهم قولاً وفعلاً. أما كنت قريباً منكم بقلبي يوم المؤتمر؟ كان شرلاًقوه طلب مني أن أصفعك حين خالفت كلام الكبار. ليفرّج إن لم يصفعوه هو! لم يُبق عليه الفلاحون شيئاً في ذلك اليوم. هل تعرف ما الذي كنت أتعجب منه؟ لم يفتح ربيهم أمير البجدوغ الكبير فمه!..

- لم يتكلم لأنه أدرك أن كلمة الفلاحين هي الغالبة. ألم تره وجد الحجة التي يتذرعون بها أمام الجترال جانقل؟ آل حجمقوه أناس بلا موقف، لا يمكن أن تعرف إلى أين يمكن أن يصل كلامهم وفعّلهم.

- أنا رأيت أخاه الأصغر باتجري أحبّث منه. لا يخفى أنه من تربية بارينقوه. كان عائداً من مؤتمر الشابسغ قبل أيام، قال في مضافة شرلاًقوه مستغرباً: ما شاء الله أنتم إخوة كثيرون. ولكن لا أعرف ما وراء كلامه، قال لي: لا تنسوا ما حدث للإخوة الذين ذهبوا إلى الغابة للاحتطاب.

- لسنّا أغبي من آل حجمقوه!.. غضب موسى.

- ماذا يقصد بهذا؟ هل نحن مجانين؟

- ربما... هؤلاء الإخوة الخطابون تروى عنهم هذه الحكاية. كنت سمعتها من الفلاح حنانا. انطلق الإخوة الخمسة إلى الغابة وكلّ معاً فأسه¹. تبين أن النهر الذي يجب أن يعبروه قد فاض، فقال أحدهم: "دعونا نرمي فؤوسنا فنعبّر بها"

¹ يتكلم على سلاح قديم يشبه هالاً حديدياً له مقبض خشبي.

وافق الإخوة معتبرين أن لا حلّ غيره. غرقت فأس أول الرامين من الإخوة. رمى الثاني فأسه معيّراً أخاه بالعجز، فلم تصل إلى الضفة الأخرى. وهكذا غرقت في الماء فؤوس الإخوة الخمسة. ولكن عليهم الوصول إلى الغاية. "علينا أن نلّم العيدان ولو دون فؤوس. فعبروا النهر. وفيما هم يجمعون الحطب اليابس رأوا غصن شجرة كبيراً يابساً، فطمعوا فيه. فوقفوا إلى جانب الشجرة. قالوا: "ليصعد أحدنا إلى الشجرة ويتعلق بالغصن، ونحن نتعلق بأخينا، ونشدّه" صاح من يمسك بالغصن اليابس: "يدي تتزحلق، يدي تتزحلق" تلهف أحد الإخوة وأجاب دون تفكير: "أثقل في راحة كفك إذن!" أسرع الممسك بالغصن، فأفلته كي يتفل في راحته فسقطوا جميعاً. - انتهى حاور موسى من الخبر ضاحكاً. شبّهنا حجمقوه بالتجري بأولئك الإخوة الخمسة.

- هكذا إذن! نهض بداد بكل ضخامته.

-5-

جرى لأكجكوه الأفندي حادث عجيب وهو يظن نفسه يتجنب داريت. لازم البيت عدة أيام يلوم نفسه معتبراً إخفاق المتنفذين في المؤتمر ذنبه هو، فأشاعوا أنه متوعك، فكان مرتاحاً في البداية للإشاعة وكأنها من تدبير الله، متأملاً أن ينسى الناس مع الزمن، ولكن أمله لم يتحقق. وجب عليه مع توافد الزوار أن يلازم الفراش. وفيما هو في هذه الحال جاءته نوبة حمى بعد بضع ليال. فطلع الصباح عليه وقد التهبت شفتاه. ما أمرض الرجل هو مسألة ابنه نطار. في كل يوم يزداد الأب والابن تباعداً قولاً وفعلاً. وكلما تباعدا في الموقف بردت القرى بينهما.

- كرهنا العالم المتوهّم الذي نحن فيه، - كان الأفندي قال هذا الكلام غاضباً يوم عاد من مؤتمر الشابسغ.

- العالم لا ذنب له يا والدنا، - اعترض نطار، - من يقف في وجه العالم هم المتنفذون المراؤون الباحثون عن عراقيل.

- كم تبتهك أيها الولد ألا تتكلم على المتنفذين!.. - أوضح أنزور ما يعده

إهانة.

- لا أعرف بم نفكر، وعلام نتكلم... - عارض نطار والده رغم محاولته ضبط أعصابه، - لا يحق لنا الكلام على الإسلام، ولا على المتنفذين الشابغ. بل لا حق لنا أن نفكر في جمال الربيع، ولطف الخريف كما تحدثنا قلوبنا.

- نعم، لا حق لك!

- ما الذي نحن أحرار فيه إذن يا والدنا؟

- أنت حر في أن تقف في حضرة الله وتصلي. وحر في أن تأكل من الخبز.

- كنت وقفت وصليت لو تأكدت من وجود من أقف في حضرته... كان من يدعو إليه الشابغ واضحاً حين يقفون أمام أكبر شجرة بلوط فيدعون إليها. والآن، من نحن؟ لا لغة ولا كيان لنا. وكذلك الخبز الذي نأكله ليس من عرق جبيننا. نكذب على الفلاحين...

كان نطار قد خرج من الغرفة قبل أن يجد والده الذي امتقع وجهه من أقوال ابنه، الفرصة للصراخ. الليلة التي أعقبت تلك الظهيرة هي التي بدأت فيها شفتا أنزور تحمران وتتقشران. لم يخبر مريم بما جرى بينه وبين ابنه إذ لا شأن للنساء بأمور الرجال. ثم إن الحديث الذي بدأ فجأة بين الأب والابن ليس من شؤون الأسرة الاعتيادية. بل لا يجوز أن يسمع أحد به؛ إذ سيذهب هباء من نصيب أكجكوه وعلمه وعمره. المشكلة المفاجئة سيحلها بنفسه، لن يكلف بها أحداً. والفكرة التي خيمت على رأس أنزور هذا الصباح ثقلت عليه فتنهد عميقاً. ترمّدت شفتاه المتشققتان كجمرة انطفأت. يا ربي ألهمني فكرة بشأن الولد! ظننت أن قرينه الجني سيفارقه إن تزوج ولكن لم ينفع زواجه شيئاً. طلب الزواج ففرحنا وجئناه بعروس من ينجج البعيدة. لم أكن أريدها ولو كانت ابنة أمير، لا ابنة نبيل فحسب، إذا لا أحد يأتيك من هذه المسافة إن احتجت. يا مبارك النسل لا نستطيع أن نُسي من في بيتنا كلماتها التي تقلد بها لهجة كنتها. ستنشأ رينان الصغيرة خرساء بين لهجتنا الشابغ ولهجة أمها البسلني. فرح أنزور حين تذكر الصبية الصغيرة فأثار وجهه. وفي اللحظة سها عن أفكاره، وتمنى أن يرى حفيدته التي تناديه بلهجة أمها القبرتاي "داده". وقبل أن ينادي

زوجته طلباً لرينان صدر من جهة المطبخ خطوة مستنجدة. وقفزت مريم من الباب الذي انفتح:

- يا رجل، داريت آتية!.. - هُرعَت إلى المريض، وأصلحت وضع اللحاف. ودفعت كيفما اتفق المنشقة التي على جدار الأريكة. وأعادت المذبذبة المطروحة على المقعد إلى مكانها. وتظاهرت بترتيب أمور أخرى.

- وحدها؟

- معها ابنها.

- ماذا يريدون. لا يتركونك بحالك ولو كنت مريضاً!..

- كفى، إياك أن تبعث الريبة في قلوبهم!

عبرت داريت قائمتي الباب تترنح بقوتها الهائلة. لم يكن الثوب الملون يناسب العجوز المتصابية الطويلة القائمة، فيذهب بها الثوب يميناً ويساراً، كأنها يقول: انظروا إلي كم أنا ما أزال أبدو صبية، فلا يُخفيان عمرها. رأت في عيني علي سلطان ما يدل على أنه مهموم بأمر ما في هذه الأيام: بالقياس إلى الأيام الماضية فالوجه الأسمر تهدل، فزاد من عمره.

- ما الأمر يا أفندي أراك مرضت، - قالت داريت لحظة اقتحامها الغرفة. ثم لما رأت حقيقة الراقد في الفراش أضافت بشيء من الرحمة: - يا مسكين، انظر كيف شوته الحمى. لم تُبق منه شيئاً.

- لا بأس بحالي اليوم بإذن الله بالنسبة إلى البارحة، تجاوزت الحمى التي لاحظتها عليّ. تفضلاً! اجلسي يا داريت، وأنت يا علي سلطان ما أخباركم بإذن الله؟!

- المهم حالك أنت، - سبقت داريت ابنها، - والله يا أكجكوه ما كنت لأصدق مرضك لو لم أر بعيني. أنا كنت عاتبة عليك متهمة إياك بأنك حققت للفلاحين مطالبهم في المؤتمر وتظاهرت بالمرض. جئت ناوية أن أضربك "علقة" في الفراش. - مزحت باسمّة.

- والله يا داريت، - ابتسم أنزور، لا تدري أهو مذنّب أم بريء، - أستحق أيّ شيء تقولينه، ربما أحمل ما حمّلي الله، لم أستطع أن أدير المؤتمر هذه المرة،

هاجمتني جماعة حاغور موسى يا مباركة النسل، فتركوني لا أعرف ماذا أقول وماذا أفعل.

- لا ذنب لك يا أفندي، - قطع علي سلطان كلام المريض الذي يزورانه، لم تدّخر جهداً. نصحتهم، عاتبتهم. هؤلاء تخلّوا عن كل شعور إنساني؛ فلا أعرف ماذا ينوون. لا يلجمهم أمير ولا متنفذ، ولا ضيوف...

قالت داريت: ما أشد منعة هذا الولد تجاه كل ما يقال له، والتفتت نحوه. لا يزال يتكلم على إنسانية الفلاحين بكل برادة، ناسياً كل تعنيفي له قبل أيام. ألا تفهم ما وراء الموضوع؟ لو استطاعوا حرموك الهواء. إن كنتم فرساناً أنزلوكم من ظهورها، وإن كنتم مشاة ركعوكم.

- لا حاجة للسؤال عن نواياهم. - غلبت البرودة على صوت داريت. - حققت للدبية حاغور ما يريدون. هذا مرادهم إن أردت أن تعرف. ماكنت لأسمح لهؤلاء الفلاحين أكلة الخبز أن يفعلوا بي ما فعلوا بكم، وأنتم مفتحو العيون، ولو أني لابسة غطاء رأس. لا يقف قازجري بعد اليوم مدّعياً أنه رجل. - يا أمانا، ليس الأمر كما تتصورين...

- كفى، - أحرصت داريت ابنها، - لم نأت إلى هنا لنحلل أسباب عجزكم. لا تصدغ رأس المريض!.. وأنت مقصّر يا أكجكوه، لم تستطع إقناع الفلاحين. سنتكلم في الموضوع متى قمت من الفراش... ما أحوال الولد نظار؟ ماذا يشتغل؟ وكيف تتعامل معك الكنة البسلني يا مريم؟ لو عرفت ما كنت سمحت لكم أن تأتوا بها من هذه المسافة. وأظن الفتاة الصغيرة تدرج على أرض الغرفة؟ قالت مريم في سرها: عندك أنت ما يكفي من الهموم فاتركي الكنة والولد بحالهما. ولم تكشف ما في قلبها. نحن لا نتدخل، ولكنك تطردين كنتك إلى بيت أهلها مرتين وثلاثاً في السنة. ولا تستشيرين ابنك المقيم معك في ما تقولين وما تفعلين.

- لا بأس بالولد إذا كانت الكنة بخير يا داريت. لا علاقة بالقريب والبعيد، تُسعدنا امرأة طيبة.

- حسناً إذا كانت تُرضيكم فلا بأس. - أجابت داريت ممتعة مما سمعت. -

أشفقتُ عليها أن تتذكر أهلها البعيدين فتشتاق إليهم. كُنَّا أرسلها في الشهر مرتين أو ثلاثاً ولو أننا من قرية واحدة. وأتركها هناك حتى ينطفئ شوقها. وهناك من يعتب عليّ بحجة أنني أسرف في السماح لها بزيارة أهلها. ماذا في الأمر؟ ما المشكلة إذا زارتهم؟! أليس حسناً أن يكون عندها وعندك من تزورهم؟ إخوتي أنا في حترامتوك البعيدة فأستصعب زيارتهم. متى اشتقت إليهم قاسيت.

سُمع من الغرفة الأخرى بكاء رينان الصغيرة التي أفاقت من النوم فخرجت مريم على عجل. توجهت داريت إلى أكجكوه كمن كانت تنتظر هذه الفرصة، وهمست في أذنه:

- ألا يزعجُ القرينُ الجني نطارَ يا أنزور؟

ارتعب أنزور من السؤال المفاجئ. ابتسم بشفتيه المتشققتين يريد أن يخفي انفعاله. ما الذي أوصلك إلى هذا الآن؟ أ تكون تسأل وهي على علم بتعنيفي للولد؟ لا أحد يعلم بهذا. لم أفتح فمي به لأحد إلا أن يكون الولد كشف لآل حاغور عن قرينه. الولد ليس من النوع الذي يثرثر بأسرار الأسرة.

- أما نسينا هذا الموضوع منذ زمن بعيد يا داريت؟

- هكذا؟

- اختفى بعدما أقمنا له عرساً مشهوداً.

- ما أحزنني هو أنني سمعت أمس أنه يذهب إلى الغابة فيناجي قرينه هناك، وهذا سبب زيارتي لكم...

- هذا كذبٌ يا داريت، كذب، - استعجل أنزور، - لا تسمعي أحداً في هذا الموضوع.

- لا أعرف إن كان كذباً يا أفندي، - هزت داريت رأسها كأنها محزونة للأمر، - لماذا نخفي عنك هذا، ها هو من رأى أمامك، علي سلطان. سمعه يتحدث إلى جني أبيض تحت شجرة.

- نعم يا أنزور، - لم يدعه علي سلطان ينتظر، - رأيته يتكلم مشيراً بيديه فخفت أن أدخل بين الجن فرجعت راكضاً... افعل شيئاً مع نطار وإلا انتكب

على أيدي الجنّ.

وفي الحال دخلت مريم بالصبيّة الصغيرة مرحة. ولما رأت جدها ارتمت عليه منادية إياه بلهجتها البسلي: "داده"، غير عابئة بالآخرين.

-6-

لا يتذكر الناس يوماً بحرارة هذا اليوم: كانت الشمس تكاد تبلغ عنان السماء حين بدأ الضيق الذي خلّفه الليل يزيد. لم تبق في العالم ريح تزيح الهواء الحار الثقيل الملتصق بالأرض. الشارع الوحيد في مدينة سوجوق خالٍ من البشر كأن المدينة خلت منهم، ولو أن الوقت لم يتجاوز موعد الفطور.

في سوجوق عدة بيوت حجرية، وبضعة بيوت مسقوفة بالقش. وهذه ليست متراصفة بل تجمعت على بعضها كأن شيئاً أُرهبها فتهدمت. قلعة الأتراك محصنة بمجدار حجري هائل. والبوابة الكبيرة يحرسها الترك ليلاً ونهاراً في وجه الناتخوي. والناخوي ليسوا مهتمين بالمدينة جداً ولكن الفضول يدفعك دائماً، بإرادتك أو عفواً، إلى معرفة سبب إغلاقها. وأحياناً يجتمع الفلاحون الفرسان على التبة المشرفة على المدينة لمعرفة ما فيها. يراقبون بفضول المدافع المنصوبة على البوابة، ويتابعون مستعربين تدريبات الجنود الأتراك فيقضون نصف نهارهم. ثم ينصرفون.

في البداية لم يكن الأتراك يفهمون سبب تجمع الفرسان الأديغة على المرتفع فينشغلون بالأمر: الفرسان المراقبون ليسوا في الكثرة جيشاً، ولا في القلة جمعاً. وكان يحدث أن يشهر الطرفان السلاح عن جهل بالنوايا. ومن يرمي من طرف الأديغة أكثر بكثير ممن يرمي من الجانب التركي الذي لديه أوامر بعدم رفع السلاح في وجوه السكان المحليين، فلا يهتمون إلا بالتهوين من المسألة. ظن جانقل الأدميرال أنه سيصبح أقرب إليهم من بعدما ما تزوج من سانيات ابنة آل باستوق، ولكن أمله خاب. ولما سمع بقرار مؤتمر الشابسغ صار ينتظر يوماً بيوم جواب الخبر الذي أرسله إلى إستانبول.

الجنرال مهموم بتأخر الرسول. فإذا أضيف إلى همّه ثقل الأيام الحارة ضاقت به

الدنيا. يعرف أن الخبر الذي أرسله لن يعود بنتيجة مهمة. الثمن الذي طلبه الأديغة ليحاربوا معه صعب الأداء. وهو على علم بما جرى في مؤتمر الشابسغ حتى لو لم يشارك موفده فيه. أوصلوا الأخبار إليه في الليلة نفسها دون أن تتأخر ساعة واحدة. صحيح أنه يقيم في البيت الحجري المنعش بقميص رقيق ولكنه يتصبب عرقاً، ولا حد لما يشرب من الماء. وأفكاره لم تعد في بلاد الأديغة بل في إستانبول. الأديغة أعلنوا موقفهم وانتهى. لم يفهموه وإن تزوج ابنتهم متودداً إليهم. ولم يكف هذا فلا تمضي ليلة لا يفقد فيها عدداً من جنوده دون أن يعرف إلى أين، وليس بينه وبين الروس حربٌ معلنة. فقد في ليلتي زفاته سبعة وأربعين من جنوده؛ حتى إنه مستعد لمحاربة أنسابه الناختواي إن سمح له السلطان. وفي الأيام والليالي التالية يضيع يومياً اثنان أو ثلاثة.

ما فجر الأدميرال غيظاً هو الخبر الذي جاؤوه به اللحظة: الجنود الخمسة الذين ذهبوا لجلب الماء لم يعودوا. هجم عليهم عدد من الفرسان الشراكسة فطردوهم، مع عربات الثيران، إلى الغابة. تابعوهم، ولكنهم اختفوا من الطريق الجبلي دون معرفة الاتجاه. كظم جانقل غيظه ريثما غادر من جاء بالخبر الأليم، وما إن خرج حتى نادى المرأة:

- ما كنتِ تصدقيني حين أقول لك، - قال الأدميرال وعيناه السوداوان جاحظتان، - الناختواي لا يُيقون لي على جنود!.. الآن حالاً، ابعتي وراء أخيك، لا تضيعي دقيقة واحدة!

- يا مصيبي - سألت سانيات مرتعبة لا تدري نية الرجل، - ماذا خطر لك؟ - ما حاجتي إلى أخيك الأكبر إن كنت سأكشف لك عن نيتي؟ - متى طلب منك أن تأتي به فأتي! أيّ عار يُلحقه بي الأديغة ونحن لسنا في حرب؟! يغدرون بي بدلاً من أن ينضموا إلى جيشي ويساندوني. إذا كانوا رجالاً هكذا يحتاجون إلى أسرى فليعبروا نهر بشزه وليأسروا جنود الجنرال سوفوروف!. أي عار صريح ألحقوه بي دون أي اعتبار؟ إذا كان هذا ما وصلوا إليه فسأهاجم الناختواي وأُحرق بلادهم. هل يجوز أن تحارب مع هؤلاء، بل أن تخالطهم؟ يقولون في حضورك شيئاً، ومتى أدت ظهرك فعلوا بك غيره.

وصل من أرسلوا وراءه في عز الظهيرة دون أن يدعهم ينتظرونه. لم يوجه الجنرال جانقل كلمات جارحة للرجل كذلك التي وجهها للمرأة. كان يغلب عليه التوسل والعتاب ولم يحفظ عليه بعينه:

- والله ما عرفت يا هارون أن الناختوي سيقابلونني بمثل هذا السلوك. جئنا إليهم وكل أملنا فيهم. أليس مفيداً أن تخالط المتنفيين وتعمل على إعادة جنودنا دون ضجيج. وإذا احتاجوا إلى شيء، كالبارود والرصاص، وجدوه عندي. مضى على عبورنا البحر بضعة أشهر فقدت خلالها بضع مئات من الجنود.

- سأقول لك يا صهرُ لأنك بدأت الكلام، - قال باستوق هارون. - جاءني عدد من الفلاحين في هذا الموضوع، ولم أعرف كيف أبلغك إلى الآن. إن سألتني هل تأثرت فهذا صحيح. مهما قلت لي فأختي في بيتك. ونحن أقرباء. إن لم نخدم أحدنا الآخر فمن يخدمنا؟ على من نعتمد إن لم يعتمد أحدنا على الآخر؟!

- ماذا كان يريد الفلاحون الذين أتوك؟ - قطع الجنرال كلام حميه الطويل. - نعم، - عاد هارون إلى وعيه، - قالوا لي: إن كان الجنرال جانقل يود استعادة جنوده فسنقيضه بالبارود والرصاص، فطردتهم من أمام بيتي. - ما كان عليك أن تفعل هذا. هل أبخل بالبارود مقابل جنودي؟! أخبرهم، هم وغيرهم، أن يبادلوني إياهم منذ اليوم.

رجع الرسول إلى إستانبول بعد يومين أو ثلاثة من هذا اللقاء: جاء من السلطان بأمر يطلب من الجنرال تجنُّب الحرب مع الأديغة.

أقام الجنرال جانقل أسبوعاً آخر يحاول استكمال جنوده، لا يبخل بالبارود والرصاص. وبذل باستوق هارون جهده في المسألة بلا هوادة فطاف على قرى الناختوي، نفذ للصهر كل ما بوسعه. ومهما فعل فمن لا يفارق الذهن أخته. كان خائفاً أن يطلقها الأدميرال الغاضب على الأديغة. هؤلاء ما من رادع لسلوكهم، يفعلون ما يخطر لهم. إن حدث هذا شئت بنا أعداؤنا في الناختوي، وجللنا العار. من يهتم بالفلاحين؟! المهم أصحاب النفوذ. يكفي ما وصلني

من تعليقاتهم حين زوّجت أختي. ما لا يتحقق لهم يصبح عدوهم. تُفنيهم الغيرة التي بلا حدود. اغمرنا برحمتك يا إلهي. ولين قلب صهرنا علينا. ولا تحقق ما يفرح لأجله آل شراً فقه وآل أباته. وإذا كتب على آل باستوق مثل هذا فليحدث ما يحدث بعد أن يخرج بأختي إلى تركيا. إن حققت لنا هذا غلبت حظنا على حظوظ أعدائنا.

في مضيق سوجوق رست السفن التركية ثلاث مرات. ولم يحدث طوال هذه التحركات أن غابت مجموعات الفرسان الشراكسة عن التباب. واليوم، وهو الأخير الذي سيركب فيه الجنرال جانقل كان الفرسان على المرتفع. وظهر غيرهم في مخرج الغابة.

- هيا ودّع الناختوي! - قال الأدميرال جانقل لزوجته وابنته، - ليس في الجهة التي تنظرين إليها، بل الواقفين على المرتفع. ارتفعت طلقات المسدسات في سماء الواقفين على المرتفع كأنهم سمعوا كلام القائد التركي إلى زوجته الأديغة.

- ماذا يفعل هؤلاء؟ - رفعت ابنة آل باستوق رأسها فزعّة. - لا ييخلون بالبارود الذي كسبوه من الجنرال التركي، - نظر الجنرال إلى مصدر الرمايات وهو يخاطب نفسه. ومرة أخرى ارتفعت الطلقات فوق المكان الذي كان الجنرال يفارقه.

-7-

أول من جاء شباكوه بخبر انسحاب الجيش التركي إلى قرية نباله، هو طارق سوباش:

- غادر الجيش التركي الملاحق الناختوي يا شباكوه. - جئت بخبر طيب يا أخي الصغير. أوصلوا الخبر إلى القرى الأخرى بالإضافة إلى نباله. سيفرحون به. والفلاحون البجدوغ كانوا قلقين لهذا الأمر. أرسلوا فارسين منكم إلى الإخوة مشقوه. وإلى جهة طؤزيس من المقرر أن نسافر أنا ووستقوه. أخبرونا أن رмбаكوه بجقان مريض جداً فسنبلغ القرية التي سنعبرها.

- والله خبر بجقان خبر مزعج. - تبدد فرح سوباش ليحل محله الحزن. - قبل أن ألتقي بواحد من رجالات الفلاحين في الشابسغ...

- إن كنت تقول هذا يا سوباش - فهم شباكوه ما يريد الشاب، - تعال، نصطحبك لعيادته في طؤزيس. اذهب وقل للموفدين على لساني أن يسبقونا.

أسرع سوباش فرحاً بمرافقته لهم إلى طؤزيس. نظر شباكوه إلى جاره، وابتنسم من خلال شاريه اللذين دبّ فيهما المشيب. وتذكر ما كان يعاني من لعبة العصا، والعجل الذي ساقه إليه أكجكوه مرة فأهداه إليه، وقطعة الكساء التي اشتراها له لاحقاً في سوق بشده. كانت المرحومة أمنا ستفرح كثيراً لو رأت سوباش رجلاً كما الآن. كانت توصيني دائماً بأن أعني به لأنه مشروع شاب ممتاز.

- يا شباكوه أنا جاهز إن كنت أنت جاهزاً. - اقترب وستقوه إلى الباب. إلى أين أرسلت سوباش؟ أليس هو من كان هنا؟

- نعم سوباش، هل تعرف أخبار الجنرال جانقل؟

- أعرف. يقال إن آل باستوق المتنفذين في شبه حداد كأنهم دفنوا عزيزاً.

- وهل طلق ابنتهم؟

- يخافون عليها.

كانت الشمس تفارق الصباح حين خرج الفرسان الثلاثة من نباله. لم يتبعوا طريق العربات الساحلي، قرروا أن يعبروا طريق المشاة إلى الجبل، ولو أنه أصعب. وكما توقعوا دخلوا القرية قرابة العصر، ودنوا من البيت الذي ربطت إليه عدة خيول.

نفض الجالسون حالما دخل زوار المريض الغرفة. وبعد تبادل التحيات خرج بعض الشباب من الغرفة. ولما دققوا في الخيل التي على الباب عرفوا حصان موسى الذي شكّوا فيه. - كان موسى ونباؤه إلى جانب المريض.

- يا بجقان، أراك مريضاً؟ - جلس شباكوه على المقعد الذي قام منه موسى.

- وجسّ جبين المريض البارد. ومن النظرة الأولى فهم أن الفلاح المريض دنا أجله. كنا عازمين على مرافقتك في سفرٍ نواحي ينجج، وأنت هنا في الفراش.

هل يجوز هذا يا بجقان؟

- هل تعيش يا أحمد ما لا يعيشه إنسان! - قال بجقان وابتسم، - عشنا الكثير بفضل الله. ولست حراً حتى لو وجدته قليلاً. ما أحوالكم بعون الله؟ سمعت أن فلاحى الناتخواي لم ييخلوا على الجنرال جانقل بالغارات ففرحت جداً. وهل صحيح أنه انسحب من أرض الأديغة لا يلوي على شيء؟

- صحيح يا بجقان، صحيح. أطمئنك أنه لن يطلب من نسيبه مساعدة الأديغة له في الحرب. وحدة الفلاحين غلبت المتنفذين. سيرحسون على أنفسهم أكثر في أقوالهم وأفعالهم.

- والشكر لله على أني شهدت هذا قبل رحيلي. - قال الفلاح رمباكوه كأنه يحدث نفسه. ثم أضاف: - سيبيدي شابنا معجزات أكثر، لا فائدة إن لم يتكاتف الفلاحون. أليس صحيحاً يا وستقوه؟

- وكيف لا يكون صحيحاً! - رفع وستقوه حاجبيه، صحيح يا بجقان؛ وإلا استحالت الحياة.

تفحص بجقان الغرفة بنظرة دافئة. نظر في وجوه الفلاحين كأنه يودّعهم، وارتقى بقلبه إلى أرض الأديغة التي تضم أعراقاً متنوعة تجمعها لغة الأم الواحدة. الفلاح رمباكوه معروف في بلاد الأديغة كلها، لا في الشابسغ وحدها. وله أصدقاء في أي قرية يدخل إليها. وإذا سمع الفلاحون اسمه عبّروا عن احترامهم. قال رمباكوه: في السنوات العشرين الأخيرة ظهر في بلاد الأديغة أبطال. حقاً لم تكن البلاد خالية من أبطال ولكنهم كانوا فرساناً وحيدين غالباً¹. عاشوا ولهم النية نفسها دون أن يعرف أحدهم الآخر. والآن، رغم المسافات، فالفلاحون من ينجج والشابسغ والأبزاخ والجمكوي والبجدوغ والويخ، وصولاً إلى الأباطة، يعرف بعضهم بعضاً. يتشاركون أفراحهم؛ إن أخبرتهم لم يتركوك وحيداً في الساحة.

- هذا الشاب الواقف إلى جانب الباب، - خرج بجقان من أفكاره، - لماذا لا

¹ الأرجح أنه يقصد من يسمّون مهاجر أو حجرت، كانوا يغيرون على العدو غالباً، وعلى الصديق أحياناً، كما في حاشية سابقة.

تدعونه يجلس؟ هذا ليس من شباب طؤزيس، ادخل واجلس هنا يا أخي الصغير!

- هذا الشاب رفيقنا يا بجقان، - قال شباكوه، ونظر جهة سوباش، - من فلاحي نابله. رافقنا في عيادتك راغباً في التعرف على رмбаكوه الفلاح.

- حياك الله يا أخي، من أي أسرة أنت؟

- من أسرة طاريق يا زعيم الخير، - تقدم سوباش نحو طرف السرير حيث رجلا المريض.

- ما قرابتك إلى طاريق سوباش؟

- هو نفسه سوباش الواقف أمامك يا بجقان. - أجاب وستقوه بدلاً من المسؤول.

- أنت طاريق سوباش الذي لم يدع راحة للجنرال؟ - عافاك الله يا أخي الصغير. - رفع بجقان جسده قليلاً عن الوسادة، ومد يده إلى سوباش متفحصاً وجهه. - لا تتراجع في ما يمكن أن تقدمه لإخوانك الفلاحين. أرض الأديغة التي ولدت فيها غالية كغلاوة أمك. لا تنس هذا مهما وجدت نفسك في أغنى البلدان وأجملها. قف كالسيف في وجه من يشهر السيف عليك يا أخي. لا خوف إذا اتحد الفلاحون قولاً وفعلاً.

القلب المتألم صبّ العرق على جبين بجقان قبل أن يسحب يده الممدودة. وشعر بالبرودة تسري في أصابع رجله. وبعدما جلس بجقان بعض الوقت وقد استولت عليه برودة الاحتضار أسلم الروح.

عرفت النساء في الغرفة المجاورة برحيل رмбаكوه بجقان فبدأن بالنحيب. وفي الحال فتح الفلاحون الذين في أرض الدار البوابة الكبيرة. وبدأ من سمعوا بالخبر المشؤوم من نواحي طؤزيس يتوافدون إلى الدار. وفي المساء نفسه توافد جميع لابس القبعات في الجوار لتوديع الراحل.

وقبيل ظهر اليوم التالي، قبل أن تعشش الشمس في قبة السماء، حمل الرجال الجثمان المغطى بسترة سوداء إلى الفناء ليصلوا عليه صلاة الجنازة. الحي لا يتسع للرجال، والشارع الآخر ممتلئ بالرجال المستعدين لتشيعه متى تحرك

الموكب.

بدأ الرجال الذين سيرا ففون الجثمان إلى القبر يتجردون من سلاحهم ويودعونه في كساء مبسوط بوجهه حزينة. وما إن رُفع الجثمان على الأكتاف حتى ارتفع عويل النساء. ودّعت ابنتا بجقان والدهما إلى ما وراء المنعطف وسط جموع الرجال.

استقر بجقان في الضريح. ولما أهيل عليه التراب الأحمر وركزت شاهدة القبر نحو القبلة، خرج الرجال من القبر مسرعين لا ينظر أحدهم إلى الآخر. خطر لطريق سوباش أن يلتفت لآخر مرة إلى قبر بجقان ولكن التقليد لا يسمح بالالتفات صوب القبر متى أودع الجثمان فيه، فلم يحقق رغبة قلبه.

-8-

- هل تعرفين الخبر المنتشر يا أمنا؟

- ماذا؟

- ربما كوه الفلاح قضى نحبه.

- وخ، وخ! ¹ يا شماتي، أصابته لعنتي!- رفعت داريت يديها فرحة تريد أن تصقّق. - ليرسله الله الأحد إلى السراط الذي بثخن الشعرة، ولْيُسْقِطْهُ في منتصفه! ولْيُلْحِقْ به جماعة شباكوه، وحاغور، ووستقوه. هاجوا في بلاد الشابسغ ففتنوا الفلاحين وأفسدوهم... ولْيُلْحِقْ بهم مستنه أرسى بعد أن ينتزعوا عظامه من الوحل. وليسوا وحدهم بل رفاقهم في ينجج والبجدوغ والجمكوي. ربما كوه العين واحد ممن نشروا في الشابسغ بدعة العهد والقسم بين الفلاحين، فنكبونا. يا عديم الإيمان يكفيننا فرحاً أن أخي الكبير ارتاح من رؤية وجهك. إن شاء الله الأحد يجد نفسه غارقاً في النار إلى ذقنه، يترجى والدك في الجنة أن ينقذه منها! سأوصي والدك أن يدفعه إلى جمر جهنم بدلاً من أن يمد يده إليه فينقذه. يا إلهي اجعل الأرض التي تركها مسقطاً للصواعق،

¹ بالشركسية، وتعني الشماتة كما سيلي.

- ثم أهْل عليها ماء السيل، بل اجعلها بعد كل هذا مرقصاً للشياطين!
- كفى يا أمنا!.. - نهض علي سلطان وأغلق مصراعي الباب.
- وماذا إذا لم أتوقف؟! - رفعت داريت رأساً كرأس الحية مستاءة مما سمعت.
- أخاف أن يسمعنا أحد فيعيب علينا.
- ليسمعنا من يشاء!.. لا أترجع مما أقول في حضرة إلهنا العزيز. لا يجري شيء دون علمه.
- كم قلت لك يا ولد ألا تحزن أسنانك أمام الفلاحين! دفع والدك حياته ثمناً لتهاونه أمامهم رغم تحذيراتي. مهما حاولت معه لم أستطع أن أحمله على قتل أحدهم بأسنان الشوكة، في حين عاد به حصانه دون رأس. كلما أظهرت شفقة بالفلاحين اقتربوا منك خطوة لقتلك. لا تنس هذا!.. يا ليتني أشهد جثة شباكوه وحاغور كما شهدت جثة رمباكوه؟!
- لا فائدة في شيء من هذا يا أمنا.
- ولماذا يا ولدي؟ أنا أقول ثور، وهو يقول: يحلبونه!.. هل أذنك مغلقتان تجاه ما أقول لك؟!
- في هذا الموضوع يجري أمر لا تفهمينه يا أمنا، - أجاب علي سلطان دون اهتمام بصراخ أمه. - يحل محل رمباكوه وجيله غيرهم. لا تنتهي المسألة بموت أحدهم في حينه أو بقتل غيره كوالدنا. أنا حللت محل والدي، ومحل رمباكوه سيظهر كثيرون في الشابسغ يجعلونك تترحم على رمباكوه. وسوباش وريث رمباكوه الذي أفسد على الجنرال جانقل حياته ملأ الناختواي فساداً. آل باستوق لم يعودوا يعرفون أين يذهبون بوجوهم في الناختواي. ظننا أن هيبة الجنرال جانقل ستحمينا ولكن خاب أملنا. وهل عجيب إن لم ينضم الفلاحون إلى جيشه. لم يكن حشده جيشاً مقابلنا ليؤذينا. لما وجد ابنة آل باستوق زوجةً حمل نفسه وهرب بجيشه كأنه جاء للزواج فحسب!..
- كفى، لا أعرف إذن، - أسرع داريت بالرد بعدما تفكرت في أقوال ابنها.
- ليئنه المتنفذون نفوذهم إن لم يبق لهم في الشابسغ نفوذ غير هذا! بديهي أن يحل فلاحون محل رمباكوه إن سمحتم لهم دون أي اعتراض. لأجل هذا كنت

أقول: اهتموا بأمر نخبة الفلاحين. لو بقي هؤلاء بين المتنفيين والفلاحين لاصطدموا دون أن يمسّونا نحن. وكان علينا أن نحجز بينهم.

- ما فائدة كون الأفندي أكجكوه من نخبة الفلاحين؟ - قاطع علي سلطان كلام الأم، - يذهب إلى الجامع فيرتاح على السجادة. ومتى عاد طلب من المرأة أن تهوّي له. يعيش لا يهتمه شيء إلا أن يسعد في يومه.

- الأفندي أكجكوه سأزوره يوماً يا ولد. لا تستغرب سكوتي عنه. لا تظن أننا حملناه إلى الجنة وتركناه يسرح فيها عبثاً. ليقُلْ إن كان عاجزاً عن تطويع الفلاحين لله. سأتركه غداً لا يعرف أين يذهب برأسه كعجلة العربة الصدئة الفالطة من مكائنها. كفى ليست هذه مسألة مهمة، عليك الذهاب إلى طؤزيس للتعزية. ستنال رضا الفلاحين الذين يسمعون بزيارتك. ما نقوله هنا يبقى هنا. نقول ما نريد، ونفعل ما علينا.

- وأنا أنوي الذهاب غداً.
- لا تصطحب معك أكجكوه. - قالت داريت، بل حسمت الأمر، - ليفهم أننا عاتبون عليه.

- اكتسى بكثير من الشحم، لن تعود قادراً على إيذائه بهذا التصرف.
- لا تقل هذا يا ولد. اصطحب الأفندي وتاح، وانظر ردّ فعل أكجكوه. حتى لو سكت هو فالخبر سينتشر في القرية فيهبجونه. قبل أعوام، أنت لا تتذكر هذا؛ كنت صغيراً، فعل والدك مثل هذا بالأفندي صالح، فصار مطوعاً يدور حوله كالراقص على الحبال.

- إن كان هذا رأيك يا أمنا فسأصطحب وتاح، ونرى كيف سيتصرف معنا أكجكوه. وعلى كل حال هو مذعور كأن وتاح سيسلبه الأفندية.
- لو لم يكن في الأمر غير هذا يا ولد لذهبت إلى طؤزيس للعزاء. - ابتسمت داريت وعلى وجهها المدور ترسم ابتسامة باردة.

وصل الخبر إلى أكجكوه ولم يمض على انطلاق علي سلطان وصاحبه إلا ساعات. كان علي سلطان ووتاح وأكجكوه في صلاة الفجر. ولكنهما لم يوحا بنيتهما لأكجكوه. قال أكجكوه: الآن بأي عين سينظر إلي الناس؟ وأي

مظهر سأكسب في عيونهم؟ لو لم يكن بجقان صاحبي لما اهتممت بالأمر. ليس في طؤزيس أحد، غنياً كان أو فقيراً، يُكَنّ لي البغضاء؛ فلماذا فعل علي سلطان هذا بي؟ أقول إن له عتياً علي ولكن لم ألاحظ عليه شيئاً من هذا. زارني هو وأمه ومعهما كثير من الحلويات حين صرت في الفراش. وزارني بعدها أكثر من مرة. ما قيمة وتاح حتى تصطحبه في طريق؟ هو من النوع الذي يلزم الموائد قبل أن يصبح أفندياً. لماذا تصرّف معي آل شرلأقوه هكذا؟

خرج أنزور من الغرفة لا يطيق البقاء فيها. تظاهر بأنه يقضي بعض الأعمال في الدار ولكن الضيق لازمه. اعتمد على السور عند الباب الصغير وقضى بعض الوقت تتناهبه الأفكار المتناقضة. هل يمكن أن يتجنبوني خوفاً مما يظنون أن للولد قريناً من الجن؟ إن كان هذا اعتقادكم فمن في العالم الآن ليس له قرين من الجن؟ كلهم عندهم، وعلى رأسهم شرلأقوه داريت... أين الولد الآن؟ تذكر أن نطار في المدرسة فألحّت عليه الرغبة في التوجه إلى تلك الناحية. ثم ندم قبل أن يغلق الباب الصغير. الأفضل من هذا أن أتوجه إلى بيت شرلأقوه وأعرف النية الحقيقية لداريت. هل يطردوني من دارهم بالشوكة المعدنية؟ لا بأس وإن طردوني. ما العمل جربنا الكثير من هذه الإهانات؟!

حالما فتح أكجكوه الباب استقبلته داريت بكل رحابة صدر.

- لماذا لم ترافق علي سلطان إذن إلى طؤزيس يا أنزور؟

- قلت طؤزيس؟ سأل أنزور متظاهراً بأن لا فكرة لديه عن الموضوع. ولكن لم ير من اللائق التصرف بهذا الرياء. ولم يعرف سبب ترحيب المرأة به.

- نعم، طؤزيس يا أفندي. - لا نية لداريت أن تنقص من رباؤها إن لم تزد. انطلقوا قبل قليل، ربما لم يتجاوزوا ظاهر القرية. الفلاح الطيب رмбаكوه رحل عن الدنيا. حزن جداً عليه. كان رجلاً حكيماً. أنا ظننتك سافرت معهم؟

- كيف ولم يخبرني أحد؟

- وهل يفعل أحدٌ مثل هذا يا صغيري؟ من اصطحب إذن بصفة الأفندي؟

الآن فحسب فهم أنزور رياء داريت المفضوح. متى يا زعيمة الكلاب صار ابنك يتصرف دون علمك؟ أأنا من اتخذتموني لعبة الآن؟ مرة أخرى أشعلت

الإهانة وجنتي أنزور، غير أنه ضغط على مشاعره ف ضبط أعصابه، فأجاب داريت كأن لم يجر له شيء:

- من في القرية من أفندي إلا أن يصطحب المؤذن وتاح؟

- يا للأسف على ما فعل!

- ما العمل؛ ربما عتب علي؟

- ولماذا، ماذا فعلت به؟

- لا أعرف والله يا داريت. لا أعرف من نفسي أمراً. أياكون السبب ما جرى في مؤتمر الشابسغ؟ - لا يا أفندي. لست ملوماً في هذا. لم تدخر جهداً. امتدحك قازجري الذي مرّ علينا في زيارة نهائية مهموماً بأمر ما. وباستوق هارون أيضاً لا يعتب عليك في شيء.

- لماذا إذن أبعدني علي سلطان معرضاً شخصي لسخرية القرية؟ وتاح الذي اصطحبه لا يساوي قلامة من ظفري. وأنت تعرفين هذا جيداً دون حاجة لشهادتي. وكما يقال: من ليس عنده ثور للفلاحة يربط عجلاً إلى النير، فلا أنكر أنني حزين لما جرى وشاعر بالإهانة.

- نعم يا أفندي، نعم. لا حاجة أن تذكرني، أفهم حالك. ولكن على مبدأ: الشيء بالشيء يُذكر، أقول لك: أخبرني علي سلطان قبل أيام أنه عاتب عليك جداً. لا تخبره بأني أبلغتُك. قال: إذا كان وجه الأفندي نحونا فابنه نطار يتفوه بأقصى العبارات ضدنا. ولم يكف ما يقول للفلاحين بل أخبرني أنه سمع في غابة تُحجَّع ما يقول لقرينه الجني. الناس مستأوون من وجود قرين من الجن لابن الأفندي الكبير للشابسغ يا أنزور. إن كان الولد هكذا فالأفضل ألا يكون عندك. فكّر في تصريفة له، وصحّح سمعتك عند الناس، وإلا تخلى المسلمون عنك. والله نفسه سيكرهك.

نظر الأفندي وعرق الاحتضار يسيل على جبينه إلى داريت. فتلوى قلبه ألماً عاجزاً عن التنفس.

الفصل الثامن عشر

-1-

- والله يا آل حجمقوه، سواء صدّقنا كلام الناس أم لم نصدّق، أنتم في غاية البخل. - سمع بحقوقه مجر الخبر ف جاء إلى طؤابغه معاتباً، - ماذا كان يضيركم لو نوّلتُموني مرادي؟ صرت كمن يقال فيه: معروفي انقلب نحساً علي، وجاري صار عدوّي. أنا من هنا أجري وراءه بالتجري، وهو يجول أرجاء الأبراخ باحثاً عن عروس. أتكون العروس مقبولة يا ترى؟ من أي أسرة؟

- وهل أعرف شيئاً عن الموضوع؟ - تظاهر الأمير الكبير ألقس بالجهل. - أسمع منك لأول مرة. أنطقك الله بالخير دائماً يا أمير!

- إن كنت لا تعرف غير هذا عن الموضوع يا حجمقوه، - زمّ مجر عينيه رياءً، - فقد حصلتُ على البشارة. عليك أن تنفذ وعدك. وإلا فبأي عين أنظر إليك؟

- كنت نفذت وعدي لو عرفت مقدار إسهامك في الخبر الذي ترويهِ يا أمير. - نظر الأمير ألقس باسمّاً في وجه الأمير الجار، - حصلتُ على البشارة، لا اعتراض لي عليها. سأمد يدي إلى جيبِي إن أردت، لعلّي أجد فيه شيئاً من النقود، وإن أردتُ تجاهلْتُ. وما اتفقنا عليه بشأن الفرس الأثنى لم تنفذه أنت. جئت تلومنا، ولم تخط خطوة في طريق ما أمَلتني به.

- وكيف أتحرّك يا أمير وأخوك الأصغر هجر أرض البجدوغ؟ - حضرت الابتسامة إلى وجه مجر وهو يقابل الأمير الكبير بمثل موقفه. - أَلخي وركبي وأنا أجري وراءه على الحصان. كأنه صار جزءاً من الأبراخ. لا أسمع إلا "جزء منهم" و "سافر إلى هناك". ولا يزال غائباً، آخر مرة رأيته كان في مؤتمر الشبابسغ. إلى أين وجّه رأس حصانه؟

قال الأمير الكبير ألقس: ما شأنه بنا حتى يرتّب أمور أسرتنا؟ يسأل عن هذا، وعن ذاك. يريد معرفة كل شيء كأنه مهموم بها. كيف لا تهتم أين ركض كلبنا العجوز؟ آل بحقوقه يتدخلون في ما لا يعينهم. وهل تعادي حماك؟ صحيح ما

يقول الأديغة: لا تحلّ ضيفاً على من يعرفونك! يعرفوننا فإذا ابتسمنا لهم طمعوا فينا. مصرّ على أن يسلبني الفرس الأنثى المخصصة للذرية الممتازة من الخيل. ستنظر طويلاً!

تجاوز الأمير الكبير ألقس فجأة الفكرة التي في ذهنه بخصوص الأمير الجار، وارتسم مؤتمر الشابسغ أمامه من جديد كالبرق. تجاوز حشد المتنفيين، وجال بعينه سريعاً على وجوه الطرف الآخر، طرف الفلاحين. لم يكن ينسى نظرة الصقر من الشاب الذي كان يقف إلى جوار شباكوه أحمد: ما إن انتهى المؤتمر وألقى نظرة نحو الفلاحين حتى قلّته نظرة الشاب قلباً، لا أحرقة فحسب. لا يتذكر حجمقهو ألقس خلال السنوات الكثيرة التي قضاها في منصب الأمير الكبير مثل هذه النظرة حتى من ألد أعدائه من الفلاحين. لو كانت نظرة الفلاح خنجراً لقتلني دون أي فرصة للمقاومة. ولو كان وحده لهانت المشكلة فالفلاحون الآخرون الذين عبر من أمامهم كانت نظراتهم في غاية العداء. ما الذي لا يعجب هؤلاء فينا؟ أنظر إلى نفسي فلا أراها كالهمج مثلهم. لا نلبس ما لا يناسبنا. ولا نركب حصاناً ليس من مستوانا. ما العمل؟ لا يولد الناس كلهم حاملين لقب الأمير. اقبلوا بما كتب الله لكم خير لكم من أن تنظروا إلينا من فوق جباهكم. وكما يقال: الكلب، إن ألبسته حذاء، أكله! فمهما قُيِّم لكم لم تقنعوا.

- إن كان سرّاً فلن أستاذ من عدم إفشائه لي. - قال الأمير مجر حين لم يجد جواباً لأسئلته.

- أيّ سرّ؟ - خرج الأمير الكبير من أفكاره.

- كأن أمراً ما يُقلقك يا أمير؟

- أنا؟

- لا تقل شيئاً يا أمير، كفى. قلت لك: إذا كانت وجهة بالبحري سرّاً فلا داعي أن تفشيه. ولن أصدّقك يا أمير إن قلت إنك لا تعرف. أخوك ليس ممن يخطون خطوة دون علمك. أنا راضٍ عنكم، الإخوة، بينكم طاعة عظيمة. أما أبناء أسرتي الكبار فلا ينطبق عليهم هذا الحكم. أغبطك ولا أحسدك!

- لماذا أخفي عنك يا أمير أين سافر أخي؟ هو عند أبحمقوه إسماعيل. عبّر نهر بشزه ولا يزال غائباً.

- يعني أنه يبذل لغته الأديغة بالروسية؟ - غضب الأمير مجر، - اتركوا أصحابكم الروس يا آل حجمقوه. ستتكبون على يدهم.

- ماذا يفعلون بنا؟

- لا أعرف تحديداً، ولكنهم لا يعجبونني.

- هذا أمر آخر يا أمير.

- أنا أقول ما عليّ وأنتم أحرار في ما تفعلون.

- لا مشكلة في ما نفعل يا أمير.

لماذا انتفضت لكلامي إذن؟ ابتسم الأمير مجر. تخالطون الروس اليوم، وغداً يردون لكم الزيارة، ثم يتجرؤون علينا، فيعبرون بجيشهم، ويمدون جذورهم نحونا شيئاً فشيئاً حتى تراهم يوماً وقد احتلوا أرض الأديغة. عليك أن ترمي بجيش من يبطأ نهر بشزه في النهر، لا أن تزوره ضيفاً مكرماً!.. كان موقف المتنفيين الشابسغ صحيحاً في ضرورة التحالف مع الجنرال جانقل لولا إحباط الفلاحين لمخططهم. نحن على دين الترك وإن لم نتكلم لغتهم. يحترمونا، نزورهم ونغادرهم متى أردنا.

- حسناً أنتم أدرى بالموضوع. أنتم أصحابهم. تنخدعون بكلام الفلاح وایقق وأنتم تعرفون تواضع مكانته!.. لا يسرني يا أمير أن يتخذ أخوك الأصغر أصدقاء من الأسرة التي قضى والدي على يدها. أتقزز من الجلوس على مائدتهم. في بيت وایقق شخص اسمه نكراس ميشكا، لا تعرف إن كان لابس قبة أم لابسة غطاء رأس، يعتبره وایقق ابناً له. ويتخذ من زوجة الأخير كنة كأنها أديغة.

- والله لا أعرف تفسيراً لعتابك يا أمير. قاطع الأمير الكبير ألقس كلام نسييه،

- أنتم أول من صالح قاتل والدكم. ما المشكلة إن كان أخي سافر إلى ميشكا لتعلم الروسية؟ إذا كنتم عاجزين عن معادة وایقق فلماذا على آل حجمقوه معاداته؟ لا مشكلة بيننا وبينه. لم يتعرض، لبقرتنا، بل لم يحرك دجاجتنا الراقدة.

ترجل مع أصحابنا على باب دارنا، فلم نستطع بحكم كوننا أديغة أن لا ندعوه إلى الدخول. ليس من عادة الأديغة أن يصرفوا الدَّ الأعداء، إن كان ينوي خيراً، دون استضافته.

- صحيح يا أمير، صحيح. ليس في كلامك ما تُعاب عليه. نحن مقصرون بحق والدنا. عجزنا عن الثَّار له. لم نجد من اللائق أن يقول الناس إنهم رفعوا السلاح في وجه لابس غطاء. كلما سمعت باسم وايقق أحرقتني الإهانة التي ألحقتها بنا زوجته. وهذا ما وراء حديثي الطويل. لا يزال أثر الإهانة التي يجب أن أنساها مع الوقت قوياً في صدري، وإن لم أفعل شيئاً فسيضربني هذا الصبر. لا أعرف ماذا أفعل؟.. كيف كنت تتصرف يا أمير لو كنت مكاني؟

- من يُهن يجد الفرصة للانتقام يا أمير. تعرفون أفضل إن تشاورتم، أنتم الإخوة. ولكن ما خَطَرُ لك موضوع له عواقب خطيرة إن لم تتصرف على نحو صحيح. الله حريص على عباده فكونوا أنتم أيضاً حريصين. وايقق له أصدقاء كثيرون حتى خارج الأبراز والشابسغ والبجدوغ. إن كشفوكم قلبوا الدنيا عليكم.

- أليس هذا ما يلجم ألسنتنا وأيدينا؟.. ولكن يجب التفكير في إجراء ما... لم يكن الأمير مجر باح لأحد إلى الآن بما ينوي في موضوع والده. يتظاهر أمام الناس بمصالحة وايقق تامر، ولكنه متى خطر له غاب عن رشده. ولم يبح بهذا لألقس الأمير الكبير مهما كلف الأمر. وفجأة جاء الحديث في عُرض الكلام على بالتجري.

كان مقاي اعتزل منذ زمن بعيد أعمال الإجرام. استمر وحده بعد مامرقوه شريكه بضع سنوات. ثم استقر في سن السابعة والستين في قرية أزات البعيدة عن دكاباه غلوتي حصان أو ثلاثاً، بعدما أرهقته آلام العظام والشيخوخة. دخل الأمير مجر مع حلول الظلام إلى أزات تاركاً رفاهه من النبلاء في غابة أناي. وارتقى مسطبة بيت مقاي دون أن يلححه أحد. وقبل أن يتفوه الأمير بكلمة فهم مقاي مقصده، فأتى من وراء كومة حشيش بقامة حدباء وانتصب أمامه:

- ماذا تنتظر يا ضيف؟ أفلا تترجل!
- مساء الخير، جئتُك في طلب. لا أعرف يا مقاي إن كنت تذكرني؟
- لو كانت لي علاقة عمل بك لتذكرتك... تعال، تفضل إلى البيت. من صوتك أحمّن أنك من أمراء البجدوغ. ابتسم مقاي كاتماً تعرّفه على الفارس وإن ساد الظلام.
- لم يدع الأمير حجر مضيفه مقاي ينتظر طلبه، فبعد أن دخل المضافة، وسأل عن أخبار البجدوغ، روى له سبب زيارته. ولم يُخف كرمه بالثمن. ولم يبق إلا أن يوافق مقاي.
- والله أخرجتني يا أمير حجر. - قال مقاي بعد أن قلب الموضوع بعض الوقت. أنا تركت هذه الساحة منذ زمن طويل. ثم إن وايقق ليس فلاحاً عادياً، ولا أضمن إن صرّعته أن تستطيع يداي تثبيته في أرضه... لم تبق في يدي مثل تلك القوة.
- ليس وايقق تامر موضوع حديثي. - أسرع الأمير حجر، - بل لابسة غطاء الرأس التي في بيته. لا يمكن لأحد أن يعرفك.
- أليس هذا هو المستحيل بعينه! - ابتسم مقاي، - هل تعرف القوة التي يزعمون أنها تتحلى بها؟.. - كم تدفع مقابلها؟ - سأل مقاي فجأة، ولمعت عيناه كعيني ذئب من وسط الظلام الذي عجز مصباح الدهن أن يبدده.
- مثناً باره.
- ثلاثمئة لا تنقص كوبيكاً واحداً.
- أليس الثلاثمئة مبلغاً كبيراً؟
- أنا لم أذهب إلى أحدٍ في موضوع إجرام!.. - ارتجف صوت مقاي، ثم بدأ يتلعثم. - وافقت كُرمي لوالدك شراندقه وإلا لزمْتُ مكاني... والمبلغ ثلاثمئة لا تنقص كوبيكاً واحداً!..

كان حجمقوه بالتجري في أرض البجدوغ بجسده فحسب. قلبه وروحه في دكابه من الأبراح. وأغور هي من لا تفارق ذهنه سواء كان في البيت أم مسافراً أم في مضافة مع جمع من الناس. رأى الأمير الشاب وهو في بيت ميشكا الفتاة التي دخلت أرض الدار فأعجب بها. ظل إلى المساء يراقب الباب متوقفاً مع كل صوت وحركة أن تدخل أغور إلى المضافة، غير أنها لم تكن من جاءت بالمائدة ولا من رفعها. ولما أوى إلى الفراش ظل يفكر في الفتاة التي لم يرها إلا مرة واحدة إلى أن غلبه سلطان النوم. وحلما أفاق صباحاً استمر في خواطره العذبة. وسأل عنها في الصباح نفسه دون إضاعة الوقت. قضى النهار الخريفي بصعوبة مستقلاً إياه، فلما تبعها إلى غرفتها مساء شهد القلب مرة أخرى أنه لن يستطيع تجاوزها.

كان الجو ثقيلاً، رذاذ ناعم بارد، والسماء تزحف على الأرض. غير أن بالتجري الذي ذهنه نحو أغور نهض وهو يرى النهار مشمساً. توجه إلى النافذة وهو يمحط أطرافه الخفيفة، وألقى نظرة على ما أمامه. عاد متخيلاً قطرات الماء على أوراق الأشجار كقطرات من الفضة. أشرقت الشمس من وراء طرف سحابة وكان فرحةً بالتجري أوقفت المطر. فرح بالتجري بالشعاع المتسلل إلى الغرفة قائلاً: ألم أتوقع أن يصحو الجو؟.. وبعد أن جاؤوه بالإبريق والطست وغسل، أفطر مسروراً بلحم العجلة مع الباستا. وشرب من شاي القالمق المرشوش أعلاه بالفلفل الأسود، والغني بالزبدة.

ما إن توجه بالتجري بقلبه نحو الأبراح حتى دخلت من ترفع المائدة، وقالت له:
- السيدة الكبرى طلبت مني أن أبلغك أنها تريد مقابلتك.

تغير لون بالتجري في الحال وهو الذي كان يطير فرحاً منذ الصباح. وحُيِّل إليه أن الشمس التي أشرقت من وراء السحابة الممزقة غابت منذ زمن بعيد. لماذا طلبتني أمناً؟ تفقد بالتجري مجريات الأسبوع الماضي مع السؤال. لم يتذكر أنه اقترف أي خطأ. عاد أول من أمس من الضفة الأخرى لنهر بشزه فدخل إلى والدته واطمأن عليها، وروى لها كيف استقبله الروس. وبعدها، مساء أمس،

زار السيدة في غرفتها، وجلس إليها بعض الوقت، وإن لم يجر بينهما حديث مهم.

توجه بالتجري دون أي حماسة إلى أمه.

- جئت بناء على طلبك يا أمنا.

- نعم يا ولدي، طلبتك.

- هل يزعجك شيء؟

- لا يا صغيري، رأيتك الليلة في المنام فأرسلت وراءك. - وجدت السيدة لتناي حجة في الحال.

- خيراً.

- لتّر الخير يا ولدي، ربما لم تزر آل بارينقوه منذ زمن بعيد. رأيت كارينا تشكو إليّ في المنام.

- مضى بعض الوقت على انقطاعي عن تلك الجهة.

- أن تتوجه إلى تلك الجهة أفضل من أن تدحل طريق الأبراخ بحوافر حصانك يا ولدي. - لمّحت لتناي بلطف لابنها، - تشنّجت عيناها من انتظارك. أما الأبراخ الذين تزورهم فحقّف يا ولدي من زيارتك لهم. سترخص في عيون الفلاحين دون أن تدري. لا تُضَيّع منصبك أبداً. ولا تُكثّر من مقابلة وابق الغريب. ستجرح مشاعر أقربائنا آل بححقوه. ابنتهم كُنّنا. إذا سمع أمراء البجدوغ أنك اتخذت من الفلاح صديقاً عابوا عليك، ونظروا إليك بعين أخرى. ثم إن الرجل يفقد منظره وهيئته مع طول العزوبة... حسناً يا ولدي، زُرّ آل بارينقوه، اطمئنّ عليهم.

لم تكن لتناي تضمّر لآل بارينقوه كل هذا الود لترسل ابنها في هذا الجو الماطر إلى موطن بغدسار. لم يتطرق بالتجري إلى علاقته بالأبراخ إلا عَرَضاً في أحاديثه مع الأتاليك. احترقت أعصاب لتناي عدة أيام لا تخبر أحداً حين علمت بحكاية ابنها مع ابنة الفلاح الأبراهيمي. قالت لتناي: مهما كان جمال البنت، حتى لو زُرعت نجمة ذهبية في جبينها، لم يسمع أحدٌ إلى الآن أن أميراً شاباً تزوج من ابنة فلاح. وهل عجيب إن كان والدها من نخبة الفلاحين؟ حتى لو

كان من متنفذي الأبراخ، فلا أريد أن تدخل كنة من سلالة غير أميرية بيتي. لن أدع أحداً، حتى لو كانت إحدى عيني، تلتطخ سمعة الأسرتين الكريمتين حجمقوه ووجيش. حدثته اليوم بما يكفي ليفهم، إن لم يكن مجنوناً، فإن تجاوز هذا الحد فإما أنا، أو ابنة الفلاح الأبراهيمي.

لم يكن بالتجري عاجزاً عن فهم ما وراء كلمات الأم. ولكن مراده من أغور كان صادقاً. كانت مسألة الأمراء - النبلاء - الفلاحين غائبة عن ذهنه أمام حبه لأغور. لم تكن في العالم قوة تقف في طريق هذا الحب. قلبه مستعد لتجاوز أي عقبة.

كان أمير البجدوغ الكبير ألقس مهموماً بحماية حدود البجدوغ، لا بأقوال أمه. حقاً حزن في البداية حين سمع أن من اختارها أخوه هي من بنات متنفذي الفلاحين الأبراخ. ولكنه أعاد التفكير فتقبل الأمر قائلاً: ما الفرق بين المتنفذين وفلاحي النخبة عند الأبراخ؟.. ليست ابنة أمير من تتزوج فلاحاً، بل ابن الأمير يتزوج من ابنة فلاح.

ركب بالتجري مع فارسين من النبلاء إلى مربيته الأتاليك فعبروا مرتفع طؤابغه. رأى القمم البيضاء لجمال الأبراخ تبدو من خلال السحب التي مزقتها الريح القادمة مع شمس الصباح، فأحجم عن زيارة قرية مربيته يدبسقواي، وتوجه إلى حيث قلبه وروحه.

قال لرفيقيه بعدما انحرفوا إلى اليمين وساروا قليلاً:

- سنعرّج على الأبراخ لأن عندي مهمة عاجلة في قرية دكاباه، ثم نكمل ليلاً إلى يدبسقواي. وصلت جماعة بالتجري مع العصر إلى قرية أزات فمال نحو منحلة مقاي كي لا يزور أغور في هذا الجو الحار، ولكن المرعى كان فارغاً من الخلايا إذ نقلها مع الخريف.

مالت الشمس إلى الغروب فيما الفرسان الثلاثة ينفضون عنهم غبار السفر. ومع انتهائهم من صلاة المغرب تحت أشجار الزيزفون بدأ الظلام يحل سريعاً كما العادة في الخريف.

وصل بالتجري وصاحبه في موعد إشعال المصاييح. تجاوزوا باب دار أغور،

ودخلوا مضافة تتاو ضيوفاً ليليين.

عرف تتاو هُوية الضيوف فاستقبلهم لا يسع العالمُ فرحتَه وصوته:

- يا أهلاً وسهلاً بالضيوف الأعزاء!.. - قادهم تتاو مردداً الترحيب فرحاً. - كيف تقضون أيامكم يا ذن الله؟ ووالدتك لتناي، السيدة الكبرى أليست بخير وبصحة جيدة؟ والأمير الكبير ألقس؟ وكيف أحوال البجدوغ؟ أليسوا بخير كلهم؟ أستغفر الله، يقال: من تأت على ذِكْرِه تجده على العتبة. كنت قبل لحظات آتي على سيرتكم مع العجوز. كنت أحدث نفسي قائلاً: لم أزر بلاد البجدوغ منذ زمن بعيد. ما أحسن ما فعلتم بقدمكم. فرّحتموني فرحاً بلا حدود. هيا يا ولد ابعثوا وراء كُشك. عندنا ضيوف كبار.

خمن بالتجري من خلال تعليمات تتاو أن لا مجال اليوم لتجاوز ضيافته، لائماً نفسه على مروره عليه. لم أعرج على أيٍّ من تامبر وميشكا بسبب تعليمات أمي ألا أتعامل مع الفلاحين. لم أصب في تصرفي. إن لم أزر أغور الليلة توجب علي الانتظار إلى ليلة الغد. كيف سنقضي يوماً كاملاً هنا؟ كان علينا التوجه مباشرة إلى مضافة أغور دون اتخاذ مضيف آخر. جئنا إلى دكاباه في مهمة، لا لرؤية جمه تتاو. استبد الحزن بالتجري نتيجة ندمه. وتتاو لا يزال يثرثر في المضافة رغم أن ضيوفه من جيل أولاده الأصاغر، إن لم يكونوا أصغر منهم.

- والله يا تتاو، قال بالتجري حين وجد لحظة انقطاعٍ لثرثرة المضيف: - ليس عندنا نية السهرة. أماننا مهمة يجب إنجازها الليلة.

- أي مهمة أمانكم؟- لم يقبل تتاو، - ألم يبق غيرُ الليلة، لن أسمح لكم بالمغادرة إلى أي مكان يا أمير.

- من نلاحقه لا يمكن أن يأتي إلى هنا. - قال أحد النبيلين المرافقين عاجزاً عن تحمل كلام المضيف.

- من في دكاباه لا يدخل إلى بيتي؟ قولوا، وانظروا إن لم آت به حالاً!..! أكون الروسي نكراس ميشكا من تبحثون عنه؟ أنا مستعد من أجل ضيوف كبار من وزنكم أن أستقبل الدّ أعدائي من وابق تامبر ونكراس ميشكا... هيا يا ولد ادعوا باسم حجمقوه بالتجري كلاً من تامبر وميشكا. اذهب يا ولد، لا تنتظر

إليّ. بيتي ليس أدنى من البيوت التي دخل إليها هذان القبيحان. لماذا علينا معاداتهما أكثر من الأبراخ الآخرين!

- نظر بالتجري إلى رفيقه متأكداً من أن مشروعه في زيارة أغور أخفق اليوم. وتنهّد وقد أثقل الحزن قلبه.

-3-

رأى مقاي السماء خالية تماماً من الغيوم ففرح إذ سيكون الجو اليوم ممتازاً. أنجز خدمة الماشية كأن ما ينتظره لا يشغل باله: أوصلَ البقرة والعجلة إلى القطيع، وأفلت الخراف في الحديقة الجرداء دون أن يضمها إلى الراعي المناوب اليوم من القرية.

دخل مقاي إلى الغرفة فملاً بالبندقية بالرصاصات التي قُتلَ بمثلها الخنزير البري. وجهاز المسدسين.

- ماذا تنوي؟ سألت العجوز زوجها. - إلى أين تجهز نفسك؟

- لماذا تسألين عن وجهتي؟ - أجاب مقاي متمعضاً من سؤالها، ثم أضاف وهو يذوق من مزيج السمن والعسل. - ليس إلى مكان محدد، هل فهمتِ؟ أنا في البيت، لا أخرج منه. سيكون هذا جوابك حتى لو سألت عني إحدى عينيّ. وأينما ذهبت فسأعود ليلاً إن لم أعد ظهراً.

- حسناً يا عجوز، حقق الله مرادك! منذ زمن بعيد لم تذهب إلى أي مكان.

- ظهر من كلام العجوز الطويلة النحيلة رضاها بما سمعت.

ركب مقاي فلم يسلك الشارع المقابل للبوابة الكبيرة بل خرج من الباب الصغير المقابل لمخرج الغابة. واختفى تحت الأشجار. قطع المسافة من الطريق الجبلي المختصر ولو أن المسافة إلى دكاياه ليست بعيدة. ربط الخيل غير بعيد عن المكان الذي انتظر فيه سيسار عدة أيام. والتف هو حول المضيق، وجلس في دغل الزعرور على جانب الطريق.

رأى مقاي ثلاث نساء قادمات من جهة بيت تامر قبل أن يحين الوقت الذي تصل فيه سيسار عادة إلى النبع. قلق مقاي قائلاً: لا سِرَّ حيث يوجد ثلاثة

أشخاص. إن لم أستطع أن أنجز اليوم المهمة التي جاء من أجلها الأمير بحقوقه فلن أستطيع أن آتي إلى هنا كل يوم. إن رأني أحدٌ أغدو وأروح إلى هذا المكان فسيشكّ فيّ. سأنجو مما نجوت منه إلى الآن. أيكفي أن أقتل من بينهن من أقصدها أم أقتل الثلاث معاً؟.. الموعد غير المحدد بعيد عادة، غير أن المحدد سيصل كما اليوم. والأمير مجر ينتظري. اليوم آخر يوم في موعدنا... وهل البارات الثلاثة التي لم أعرف من أين جاءت سهلة؟ أنا أحصل عليها. من رفيقتها الثارتان يا ترى؟

رأت ليزا زوجة ميشكا، وأغور، سيسار ماضية إلى النبع فرافقتها.

- يا سيسار، - قالت أغور لدى وصولهن إلى الساقية، - انظري ناحية الجبال؛ لا بد أن الثلج سقط هناك الليلة. ما أشدّ بياضها!.. لن تشبعي من جمالها ولو نظرت طوال النهار. وانظرا إلى أوراق الأشجار اليابسة على تلك التبة ما أشدّ تباين ألوانها! ستتغيّر ملامحها خلال بضعة أيام.

- الجوّ اليوم جميل، - قالت ليزا وهي تنظر إلى الجهة التي ترتفع منها الشمس. ملأت سيسار الجرة من ماء الساقية. مدتها إلى أغور، ولحظة قررت تسليمها لها أصابت الرصاصة القادمة من دغل الزعرور صدر الفتاة التي مدّت يدها. - يا أمي!.. - سقطت الجرة من يد أغور. وما إن مدت سيسار يدها إلى أغور التي تنزف دماً حتى أصابت الرصاصة التالية يدها.

- يا مصيبيتي!.. - صرخت ليزا بملء صوته، - قتلوها!..

تقاطر الفلاحون والنساء حتى الصبيان الذين سمعوا إطلاق النار على ساقية القرية المجاورة لدكابه. وكان بين من يركضون النبيلان رفيقا باتجري أمس. - ما الذي جرى في تلك الناحية؟ - سأل باتجري مضيفه شاعراً في أعماقه بمصيبة ما.

- وماذا سيكون؟ - ابتسم تناو بلا مبالاة، تعرف طبيعة الأبراخ، إذا اختلف فلاحان قتل أحدهما الآخر. لا يمر يوم على دكابهة دون ضجة.

- وفي الحال عاد أحد النبيلين:

- ما الخبر؟

- لا خبر ساراً يا أمير. قُتلت أغور!..
- نعم؟ ماذا تقول؟! - صرخ بالتجري بلا وعي. - من قتلها؟
- لا أحد يعرف يا أمير.
- هرب مقاي باحثاً عن النجاة لما رأى المرأتين ملقائتين أمام الساقية، معتبراً
الاثنتين قتيلتين. وقبل أقل من نصف ساعة قرر أن يصل إلى بحقوقه مجر
ويخبره؛ فلماذا يترك نصف الأجرة مع الأمير؟ وقاربة العشاء طرق مقاي باب
مَنْ له عليه باقي الأجرة. لا أحد في الدار. ترجل وإن لم يكن ينوي الجلوس
عند الأمير، وفيما هو يلتف نحو الغرفة اصطدم بالأمير يحمل الإبريق.
- من هذا الذي يمشي في الدار متخفياً؟
- أنا يا أمير.
- هذا أنت يا مقاي؟ ادخل الغرفة، انا راجع.
- من فيها؟
- اذهب وادخل، لا أحد فيها.
- يا بحقوقه، - قال مقاي مع عودة الأمير إلى الغرفة، - لم آت إلى هنا
للسهرة. - إن كنت تريد تعزية آل وايقق فأنت حر. أنا عملت ما عليّ فادفع
ما بقي عندك. انتهينا، أنت وأنا، من مهمتنا، عليّ أن أعود حالاً إلى الأبراخ.
- متى حدث هذا؟
- هذا الصباح. ماذا يا بحقوقه ألا تصدّقني؟
- ولماذا لا أصدّق؟ - مدّ يده إلى الصندوق الصغير فأخرج النقود. - خذ،
لتهنأ بها!.. لم يرك أحد؛ صحيح؟
- لا أعرف عمّ تسأل يا أمير. لم أرفع ما على الأرض من سلاح، دُعك من
استعماله، على مرأى أحد. مع السلامة إذن. أنا منصرف. هل يليق بي يا أمير
ألا أذهب إلى التعزية وفي القرية جثمان!
- صحيح يا مقاي، - ابتسم الأمير مجر، - وهذا من تقاليد الأديغة. اهدأ
لحظة! وأنا سأودعك إلى ظاهر القرية عملاً بتقاليدنا... لا، لا يا مقاي، لا
مشكلة في هذا، أنا جالس طوال النهار. حتى لأكاد أتشنج.

تخيل بحقوقه أن من أمامه ليس مقاي بل وايقق تامر. لا يتذكر الأمير مجر يوماً كالיום انفعل فيه منذ دفن والده. لا يجوز لأحد أن يعرف أنه وراء ما حدث في ذكابه. وماذا إن عجز مقاي عن حفظ السر عاجلاً أو آجلاً؟ ولماذا يعرف إنسان غيره سرّه؟ هذا هو المخرج الوحيد الذي خطر له في هذه اللحظة. إن لم أفعل هذا الليلة فلن تتاح لي أبداً مثل هذه الفرصة. ولماذا أدعه ينهني الكثير من مالي على مرأى مني؟

- من لا يُسرّ يا أمير إذا عبر لك الأمير بشخصه عن الاحترام!.. - ابتسم مقاي فرحاً بالاحترام الذي يُظهر له. وكرمي لوالدك المسكين وجب عليّ أن أحمل السلاح الذي توقفت عن حمله. إن أردت يا أمير قضيت على تامر أيضاً ببساطة. ولكن سره سيكون أغلى.

- سنفكر في الأمر إن عشنا.

- معك حق يا أمير؛ من يمد يده إلى عينك فمُدَّ يدك إلى روحه.

اجتاز الفارسان وهما في غمرة الحديث ظاهر أرض بحقوقه، ثم أراضى حجمقوه. كان الأمير يريد إبعاد مقاي ما أمكن. ولهذا روى خبراً بعد خبر حتى وصلا إلى الطريق القديم للأبزاخ فتوقفوا.

- مع السلامة يا أمير.

- مع السلامة يا مقاي. - أخرج الأمير وهو يرفع يد التوديع المسدس من كُم الكساء، وأطلق عليه النار.

- يا حسرتي، أكلني الكلب!.. - وقع مقاي على كفل الحصان. لم يجد الأمير مع الرجل القتيل إلا النقود التي أعطاه إياها قبل قليل.

-4-

بعدما حدثت المصيبة في ذكابه، وجرى دفنُ المرحومة عاد بالتجري إلى قريته تحرقه نار الإهانة، دون أن يمر على مكان آخر.

غزت خواطر كثيرة ذهنه بالتجري وهو في طريقه إلى البجدوغ. ظل في ذهنه وأمام عينيه نواخ نساء القرية التي قُتل فيها أغور، وحزنُ الفلاحين الذين واروا

جثمانها، بمن فيهم المتنفذون. لا مصيبة تعادل أن يأتوا بجنمان الفتاة التي تحبها وتأملها زوجةً للمستقبل، قتيلاً في غير أوانها. وقد عانى بالتجري المأساة بشخصه. ليست كواحدة من أصل الأسرة. أنت حرٌّ في الحالة الأخيرة أن تبدي حزنك، وأن تبكي حتى بملء صوتك. مَنْ بالتجري إلى أغور؟ كانت الفتاة الفلاحة حبيبة الأمير الشاب. هذا وضْعُها، لم يأخذها من عتبة البيت ويصحبها إلى بيته. كانت مجرد حبيبة في بلاد أخرى. صحيح أن من تموت زوجته لا يُظهر تأثره أمام الناس أيضاً، يتحمل أيامه الصعبة، وعزاؤه من يقدمون له التعازي. أما بالتجري فقد بقي وحيداً في الساحة في مأساته مع أغور.

متى حان موعد زواج الفتاة لا يأتيها خاطب واحد فحسب. ليسوا قليلين من يظهرون في الساحة من أصحاب القبعات فتبحث بينهم عمن هو قريب من القلب. هذا ليس موضع تعجب أو تساؤل. هذه العادة الأزلية لم تبدأ بأغور، ولن تنتهي مع حجمقوه بالتجري.

- هذا الشاب الفلاح الممتاز كان من خطاب الفتاة، - حين يتذكر بالتجري كلام أحد الفلاحين من ورائه يعصر الألم قلبه، - كانا تواعدا على الزواج. - قضت في غير أوانها هذه التعيسة... لا شيء دون دواء إلا الموت. سترى الشاب يوماً رب أسرة. لم يملك إلا أن يستمع إلى جواب أحد المجتمعين.

بحث بالتجري عن الشاب الفلاح ولكنه لم يشكّ في أحد. كان الخاطب الوحيد لأغور الذي يعرفه بالتجري بالوجه هو الشاب المتنفذ الذي رآه مرتين أو ثلاثاً في بيت الفتاة. كان هذا بين كثيرين من أصدقائه. لم يحمل بالتجري احتقاراً أو كرهاً خفياً له يوم الجنائز كذاك الذي كان في الأيام السابقة، في بيت الفتاة أو في بلاده البجدوغ وفي غيرها. كان بالتجري يود، مستغرباً، التقرب منه. ولم يكن وحده بل من الشاب الفلاح الذي تحدثوا عنه. لا يعرف لماذا كان يتخيل أن حزنه سيخف إن شكا إليهما آلامه. ورغم كل ذلك كانت مرتبة الإمرة فوق كل شيء، فلا يرى أخيراً مثل هذه العلاقة مع شاب من المتنفذين مناسبة. حتى دون هذا الشعور الفوقي لم يكن هذا التصور مناسباً للعلاقات بين

الأديغة.

ما لا يفارق ذهن باتجري هو وايقق تامبر ونكراس ميشكا، ومن لحق بهما من فرسان الأبراخ الباحثين عن القاتل في الغابة. بحثوا طوال النهار فلم يجدوا من يُشكّ فيه. ولما عادوا مساء قال وايقق لباتجري:

- يا أمير، قد يجرح شعورك ما سأقول لك، لم يفعل هذا إلا واحد من آل الأمير بحقوقه. ولن يظهر في العالم من يفعل.

- ولماذا أستاذ من كلامك يا وايقق؟ - انتفض باتجري بوجهه الأسمر النحيف مستغرباً ما يسمع. - ما علاقة بحقوقه بآل جَنْجَتَه؟

- لم تكن ابنة آل جنجته المقصودة بالجريمة، بل زوجة وايقق تامبر!

- صحيح يا تامبر، - ساهم نكراس ميشكا، لماذا لم يلحق بليزا أي أذى!.. أخطأت الرصاصة القاتلة سيسار فتجاوزتها إلى أغور.

- والله عجيب ما تقوله... - قال باتجري، ثم أكمل وقد انهار صوته فجأة:- لا يمكن اتهام أفكاركما بعدم الصحة... أياكون آل بحقوقه هم الفاعلين؟ ألم أركم كأنكم تصالحتم؟!

- لم يكن صلحاً صادقاً بل صلحاً وراءه جباه عابسة. تحسباً لمثل هذا كنت أعلّق لمن في بيتي البندقية المحشوة بخزان الحبوب. يا أسفي على أغور التي لم تشهد عرسها!.. كنا نشاق إليك حين تغييبين عنا؛ والآن بم تتعلل؟

تخلص باتجري من خواطره الثقيلة، ونظر من الغرفة فرأى ذرات الثلج الباردة مكان قطرات المطر. وفي الحال ارتمى قلبه إلى بلاد الأبراخ. رأى في دكابه قبر أغور في التراب الأسود. ربما كانت تُثلج في تلك الناحية أيضاً. نحن في سهل، الشتاء يأتي إلى الأبراخ أسرع مما يأتي إلينا. وسيغمر قبر أغور. وليس قبر أغور وحده بل سيجري هذا لمقاي الذي عاد به الحصان قتيلاً. هل الاثنان ضحية شخص واحد يا ترى كما قال الفلاح وايقق؟ ما الذي يجمع بين هذين الاثنين من إنسانية: أغور كانت كساقية الماء تشرح قلب من ينظر إليها، والآخر كان من يُرعب كل من ينظر في ساقيته المعكرة بالدم كلون عينيه. ما أشدّ ما يتفاوت تركيب العالم؟ يتصارعون على سطح الأرض لا تسعهم، ويتذاجون. ثم

لا يجد كلٌّ منهم مكاناً فيها إلا على قدر جسده.

بدأ الثلج، كأفكار باتجري العشوائية، يغمر الأشجار وسطوح المنازل، حتى أعمدة الآبار. بقي باتجري على النافذة مدة لا يجد راحة إلا في الثلج الذي يتساقط هادئاً. وحين تذكر، مع منظر الثلج على شجرة التفاح، كيف دخلت أغور بوجهها الأبيض وشفثتها الحمراءين، لم يُطق البقاء في الغرفة.

- أليس هذا باتجري من يخرج بالحصان من الإسطبل؟ - قالت السيدة لتناي، - إلى أين في هذا الجو الرديء؟ وكأنه يريد الركوب وحده؟!

- أفضل من أن يبقى وحيداً في البيت! - أجاب ألقس غير مهتم بما تهتم به أمه. - تلقى باتجري صدمة كبيرة تدعو إلى الإشفاق. في مثل هذه المناسبة قيل: من أين أتيت يا مصيبة؟! كنا فرحين بتوجهه إلى الأبراخ للزواج، فجرت لنا مأساة لم ننتظرها.

- لم أفرح قطّ، - لم تستطع السيدة لتناي أن تخفي شعورها، - لا أستطيع أن أولم قلبي من أجل ابنة أحد الفلاحين. لم أكن أريدها منذ أول يوم سمعت بالقصة. ولو قرر الزواج منها لما سمحت لها أن تتأ أرض الدار وفي روعي بقية. تفهّم الله جل جلاله ما في قلبي فأصاب آل جنجته بما أصابهم به. وأزاح عنا من كانت ستلوث عِرْقنا. لا أريد أن أسمع منكم بعد اليوم حديثاً عن الأبراخ. لا أريد إلا ابنة أمير. ولا تخطُر لكم ابنة نبيل!

- يا أمانا، قلت لك سابقاً، وأكرر الآن: إذا فهمني باتجري وأطاعني فسأوجهه إلى ابنة أحد المتنفذين. افهمي أننا لا نتابع موضوع زوجة فحسب، نبحت عن الأفضل للمستقبل. ألم تسمعي أن الجنرال جانقل تزوج من فتاة من الشابسغ ليكسبهم؟

- وماذا استفاد من زواجه؟

- كسب قرابة لا تفهمينها أنت.

- إذا كسب القرابة فلماذا عاد إلى تركيا يجر أذيال الخيبة؟

- سحبوه لأن أموره لم تنجح في الوقت الحالي. ولكنه لم ينته من قرابة الأديغة عند هذا الحد. تعلم منذ صباه لغة الأديغة في أسرة السلطان من أجل هذه

- القراة وحدها. آل جانقل أعلى بكثير نسباً من أسرة باستوق. لا يعرفون حدود مملكهم. يهتم بقضايا بلاده أكثر من اهتمامه بشخصه.
- لا أريد أن أسمع هذا الهراء! لن أنفذ لأحد ما طلبه إن لم يعجبني!
- من أين تعرفين ما يعجب بالتجري، وما سيعجبه؟
- أنا من ولدت بالتجري فأعرف...
- إذا كنت ولدت بالتجري فهو أخي الأصغر...
- يا صغيري، كيف تكلمني هكذا بعينين وقحتين؟ - ازرقّت لتناي، - أيجوز أن تصرخ عليّ لأنك أمير البجدوغ الكبير؟
- لا أصرخ عليك يا أمنا.
- بلى، تصرخ في وجهي!.. اذهب إلى كنة آل شرلاقوه التي ربّتك على المشاكسة واصرخ في وجهها. هل تظنني لا رأيّ لي في البيت فلا تسمع كلامي؟ والدك، رغم لقب الأمير الكبير، لم يكن يخرج عن طوعي.
- ذاك والدي.
- لا تنس أنك من صلبه.
- لا أحد يجهلني في بلاد الأديغة، لا في البجدوغ وحدها، فالجميع يعرفونني باسم حجمقوه. ولكن عالمنا اليوم يتطلب منا أن ننظر إلى أبعد مما كان ينظر والدي. إن لم نعش أمراء ونبلاء وفلاحين ومتنفذين متكاتفين فسننتكب بسبب التناحرات الأديغة. صحيح أننا في إقليم واحد غير أنه لا وفاق بيننا. نحن، كل منا يجرّ الحبل إلى جهته. حان الوقت لنربط أنفسنا من جديد إلى النير ونتحّد.
- وإن لم نفعل هذا اليوم خسرنّا إلى الأبد.
- قولوا ما تريدون وافعلوا! - لا تقول لتناي شيئاً لا تريده متجاهلة كلام ابنها.
- لا أوافق على كلامك بشأن الأبراخ ذوي الوجوه الشائهة. يكفي ما نُهبنا هؤلاء. ليس اعتراضني على عروس منهم فحسب بل لا أريدهم حتى لو تحولوا إلى شهداء دين.
- لا تقولي هذا يا أمنا، لا أظن أن في ما تقول أي فائدة.
- اسمع يم يرد عليّ بعد كل ما قلت له!.. - استشاطت لتناي غضباً، إن

تجاوزت هذا يا ولد عاقبتك جسدياً دون اعتبار لمنصبك، ومن يسمع يتعجب! - لن أعارضك في هذا يا أمنا، اضربيني إن شئت، هذا ضمن إمكاناتك. ولكني سأعمل واجبي في ما يتعلق بالبلاد، بما فيه قضية أخي، فأخبرك أنه لن يقف أحد في طريقي من هذه الناحية. - نهض الأمير الكبير ألقس تفوح منه رائحة البرودة الخشنة، وخرج من غرفة أمه.

-5-

على مبدأ: الثلج يهرب الإنسان وإن كان أبيض، خرج مشقوه ترقان من الغرفة فاصطدم بالثلج الكثيف الذي تكاد تختفي فيه رؤوس الأعمدة. العاصفة الثلجية المصحوبة بالريح التي هاجت فجأة طوال بضع ساعات أغرقت طؤابغه. وأينما نظرت هاجمك البياض الغامر كأنه يحمل عصياً، ويمنعك من أن تفتح عينيك. مدّ ترقان يده وتناول شيئاً من الثلج المتراكم أمام الغرف. إنه بارد، ناعم كالقطن، يذوب في راحة اليد معلناً أنه لن يستقر طويلاً على الأرض. تذكر ترقان وهو يعصر الثلج براحته الأرامل والمسافرين والمواشي. الأرامل اللواتي ليس لديهن وقود لابد أن يسعفنّ الجيران، والمواشي المحبوسة في الزرائب لابد أن تجد علفاً. الوضع الأصعب هو وضع من فاجأهم العاصفة على الطرقات. قال ترقان: لا تجوز المغامرة بالسفر في هذه الظروف إلا في حال الضرورة. أخوه ماج غائب في الأبراخ منذ ثلاثة أيام. نصحته هو ولاجبي فلم يسمعي. الوصول إلى الأبراخ الآن خطير حتى دون سلوك الطريق الجبلي الصعب. يعد ماج ما جرى في دكاباه مأساة للبلاد كلها وإهانة لها.

تفقد ترقان الدار التي يسكنها الإخوة الثلاثة. كلٌّ له بيته المستقل. وكلٌّ قريبٌ من زرائبه وفنائهم وقرنٌ دجاجه بما يكفل سهولة الوصول إليها. وأكوام الحشيش الكبيرة المغطاة بالثلج ظاهرة. نظر جهة بيت أخيه الأصغر لعله عاد ليلاً، ولكن باب إسطلب الخيول مسدود بالعاصفة الثلجية. ثم إنه يخبر أخاه الأكبر متى عاد من سفر مهما تأخر الليل. وليس ماجه وحده في هذا بل الأخ الأوسط زيكوغ أيضاً. وترقان أكبر الإخوة فهما يعدانه بمثابة أب وأمّ لهما.

يحملان إليه هومهما فيتشاورون. يعيشون متكاتفين، وما ليس عند أحدهم يجده عند الآخر.

خرج زيكوغ عاجزاً عن البقاء في الغرفة، وارتقى المسطبة القريبة من الأخ الأكبر.

- والله الثلج كثيف الليلة.

- الثلج الكثيف كثيف غير أن أخانا الأصغر غائب.

- اليوم موعد وصوله.

- كيف يكون اليوم مواعده؟ أكّدتُ عليه أن يصل أمس. سيتوجب علينا أن نبحث عنه إن لم يصل ظهراً. هات الجرفة لتنظف المسطبة. ابدأ من أمام بيت ماجه أولاً!

وما صعوبة المسطبة على الأخوين؟ جرفوا الثلج عن آخره. وبدؤوا بمواشي الأخ الغائب فعلفوها. ولما تذكر ترقان غياب لاجي قال لأخيه الأصغر:

- اذهب إلى بيت لاجي وقدم العلف للمواشي. وإذا لم يكن عندهم حطب مقطّع فقطع لهم، ثم غد. أنا سأمر على بيت جارتنا الأرملة، وأكشط لها الثلج. وأسقي ماشيتها.

لم يصل ماج ظهراً، لم يعد الأخوان مشقوه يهدآن في البيت، بل في الدار كلها. وفيما هما أخرجا الحصانين من الإسطبل وينويان الركوب، إذا بأصغرهم على الباب.

- مرحباً يا مشقوه، - استقبل زيكوغ أخاه الأصغر، - طال غيابك؟

فكّ ترقان حزام سرجي الحصانين، متظاهراً بعدم رؤية أخيه، منتظراً المبادرة منه بصفته الأكبر. وخيل إليه أن الحمل الذي كان على ظهره منذ البارحة والذي هدّل كتفيه قد زال الآن.

- إلى أين يا ترقان؟ رأى ماج الحصانين الجاهزين فسأل شاعراً بقلق خفي.

- قيل إن مشقوه ماج غائب فقررنا البحث عنه.

- هذا هو! متى كنت الصغير بينهم اعتبروك ولداً صغيراً. - امتعض ماج من نيتهم البحث عنه.

- لأنك أخلفت بالموعد الذي ضربته لعودتك.
- لم أستطع يا ترقان. طلب منا جنجته سليم أن نمدد إقامتنا يوماً إذ وصلنا إليهم، فأخّرنا. وكان عنده ضيوف من الشابسغ. عرفت أنكما ستقلقان. تعرف أن الأمور لا تجري كما تخطط لها.
- زاد ارتياح ترقان جسداً بعدما أراضاه تبرير أخيه تأخره. ثم سأله وهو ينظر من فوق الحصان الذي حرره من السرج:
- ما الأخبار حيث كنت؟
- ذكاباه هادئة أمس وأول من أمس. ولكن لا أعرف ما سيفعلون اليوم أو غداً... مصيبة جنجته سليم مصيبة الأبراخ كلهم.
- ومن يتهمون بالقتل؟
- لا يمكن معرفته. هذا يتهم مقاي، والآخر أحد أعداء حجمقوه بالتجري. وثالث يتهم من رفضته من الخطّاب.
- مهما قالوا فالفتاة البريئة رحلت قبل أوانها؟ - قال زيكوغ، فما الفائدة الآن؟
- وسليم ما رأيه؟
- تبين الفلاح سليم عن رجل حكيم. آل حجمقوه قتلوها كي لا يزوّجوا ابنهم الأمير الشاب من فتاة فلاحية. عرضوا عليه الثأر فرفض قائلاً إنه لا فائدة من اقتتال قريتين بعدما حدث ما حدث. وسيظهر القاتل إن عاجلاً أم آجلاً.
- لا أظن أن هؤلاء علاقة وإن كانت السيدة لئناني كانت تعارض زواج ابنها بشدة. - أعرف أن ألقس الأمير الكبير كان متحمساً لهذا الزواج. - قال ترقان، - ما رأي وايقق الفلاح؟
- هذا لا يغيّر موقفه: لا يتهم إلا الأمير مجر.
- أعتقد أن رأيه لا يتطرق إليه الشك. - قال ترقان هذا، والتفت إلى صوت حصان قادم. لا يخفى أن فوجه لاجي وصل تواءً على أطراف الكساء آثار ندى الخريف. والحصان المتعرق يتصاعد من ظهره البخار. - ما الأمر يا لاجي؟ هل هناك ما يشغل بالك؟
- والله غمرني الشعور بالعار أمام الأرملة الجارة. بقي حشيشها في البرية،

- بدا على لاجحي حزنه على نسيانه أمرها، - بقيت أؤجل من يوم إلى آخر، وأنسى حتى فاجأنا الشتاء. من عرف أن الشتاء سيأتي باكراً هذه السنة؟! - وحشيشك أنت؟
- وحشيشي بقي نصفه في أرضه.
- لا بأس إذن. - تفقد ترقان الذي كان ينوي أن يلوم ابن أخته كاظماً غضبه، ثم قال لأخيه: يا زيكوغ، هيا جهّز الثورين للعربة!

-6-

لا يتذكر حجمقوه بالتجري، خلال سني عمره الأربع والعشرين، وقتاً أثقل من الخريف الماضي. خنقت المأساة الحب المفاجئ قبل أن يستعيد قلبُ الشباب المتحمس وعيّه. وطبع على القلب ندبة غير مرئية. لم يكن ألقس قادراً على تجاهل حِداد أخيه الخفيّ. صار يحرص عليه خلافاً للماضي. ويحرص على لقائه كل يوم بحجج مختلفة. ومع أن الخلاف بينه وبين أمه بشأن زوجة أخيه المستقبلية قد حلتها الأقدار فإن الموضوع لا يزال ضمن أفكار الأمير الكبير. يداهم التفكير فيه دون أن يدري مصدره كأنه نوع من المناكدة.

يتصور بالتجري أن وسط الشتاء الذي هو فيه خفف من آلامه بالنسبة إلى الخريف الماضي: ألمه ينحسر عنه، وأحياناً يخطر للقلب فجأة أن يختلط بالناس أكثر فأكثر. يتهم ثلج العام الجديد في تغلّب تفكيره الجديد على القديم. يحاول أن يخفي حزنه عن الأمراء- النبلاء، ولكن أغور تعود فوق الجميع حين يخلد إلى الوحدة في الليل. ومتى وجد نفسه في مثل هذا الموقف خرج من الغرفة عاجزاً عن الاستمرار في التفكير.

ليست أغور سبب خروج التجري من الغرفة اليوم. حال خروجه رفعته الفرحة بالثلج وبالشمس المشرقة. وقف على المسطبة فرأى حصانه خارج الإسطبل يروضونه، وشعر حالاً بالرغبة في الابتعاد عن طوابعه. قال في نفسه: أليست فكرة حسنة زيارة آل بغدسار؟ ولكن لا تكفي الرغبة الطارئة؛ ليست يدبسقواي قريبة فيحملك إليها الحصان متى خطر لك. سيستشير أخاه

الأكبر، ويصطحب بضعة نبلاء. وكان أخوه تَبَّهه ألا يسافر إلى أي مكان دون علمه. كان امتعض من هذا التنبيه ولكنه رأى أخاه صائباً حين أعاد التفكير. ارتقى ألقس أيضاً المسطبة فيما يفكر بالتجري في التوجه إليه:

- إلى أين يا بالتجري؟

- وإلى أين دون استشارتك يا ألقس؟ كنت أنوي الدخول إليك قبل لحظات. ليس الجو جميلاً لزيارة آل بارينقوه؟

- الجو اليوم جميل، ولكن لا أعرف ما أقول لك بشأن آل بارينقوه. إن كان قلبك يحدثك رغباً في زيارة مريبك فاذهب!.. لا أعارضك في هذا. لا تنسهم، حافظ على وُدِّك نحوهم. كنت أنوي أن أصارحك في أمر ما اليوم. إن كنت نويتَ فلا تتوقف!

- ولماذا؟ يمكن أن أسافر غداً.

- لا، سنتحدث بمزيد من الراحة متى عدت من الأتاليك. - سحب ألقس نيتّه، وكان مرتاحاً أكثر لهذا التحول. ومدّ له طرف الخيط ليفكر: - كنت أود أن نتكلم في موضوع يتعلق بالأبزاخ...

لم تفارق كلمة ألقس ذهن بالتجري طوال طريقه. وفقد فرحته باليوم الجميل الذي أغراه بالسفر. يسأل نفسه من وقت إلى آخر: أيّ موضوع يتعلق بالأبزاخ نتكلم فيه؟ ما شأني أنا بالأبزاخ بعد ما حصل؟ ثم يقول أخي إن الأمر متعلق بي. ألا يكفي حديث أمانا الطويل قبل أيام في موضوع الأبزاخ؟ فإن كنت تريد أن تضيف إلى حديثها فلا أعرف ما أقول لكما كليكما. أقول إنك وأمانا متواطئان ولكن لماذا قالت لي حين لم أوافقها إنكما، الأخوين، متشابهان؟ ما كان عليّ أن أسافر قبل أن أعرف حقيقة الأمر.

فرح آل بارينقوه حين علموا بقدوم الريب. لم يتركوا أحداً يحمل لقب أمير في ضواحي يديسقواي لم يخبروه. ولم يكفهم النهار فسهروا طوال الليل في المضافة. ولما انتهوا من الاحتفاء بالريب، وتفرّق الضيوف، أخبر بغدسار برغبته في العودة، فرفض المربي على نحو يظهر منه تأثره:

- هل ستعود قبل أن تصل يا بالتجري؟ لم تزرنا منذ خريف العام الماضي.

ولمّحت لي جماعة قزنفوه مراراً مهمومين بعدم قدومك. ابق معنا اليوم واللييلة، وتعود غداً إلى طؤابغه. لماذا تجلب الحزن لأملك؟

- إن كان هذا رأيك فأنا رهن أمرك. - ألقى بالتجري نظرة دافئة على بغدادسار، ولكن حزنه غلبه. ثم أضاف بسرعة محاولاً إخفاء تأثره، - لم أستطع أن أرى أمنا كما أريد مشغولين بالطعام والشراب. وماذا إن عدتُ إلى طؤابغه؟.. - تنهد يعني أنه ليس فيها من ينتظره، وغير ناسٍ أنه في حضرة مريبه.

قال المرابي في نفسه: لماذا تريد العودة إذن؟ لا تظن أني جاهل بما يشغل بالك، غير أنك تحجل مني فلا تصارحني. كلنا، الأسرة بأكملها، نقلق لهذا مثلك تماماً. تأملت فتألمنا. قضينا الوقت إلى الآن نفكر في طريقة مساندتك. وبعدما اطمأننا إلى أن قلبك هداً وتجاوزت المحنة ها أنت عدت من جديد!.. ماذا رأيت، على رأي أملك، في ابنة الفلاحين أكلة الخبز، التي لا تمشط شعرها، فتعشّقها؟ أجمل بنات الأمراء مستعدة لأن تلحق بك من إشارة، ولكنك لا تعرف أيها البائس. إن كنت تتحرج، وتشعر بالخجل مني فلمّح لابني ليفان، أنا أحقق لك طلبك قبل أن يخرج من فمك. وهل أعيش لم أحلّ وأربط مثل هذه القضايا؟ إن كان ينقصك المال فلن أبخل عليك بشيء. فرحك فرحنا وحزنك حزننا. لو عرفت أنك ستستشيرني وتطيعني، ما كنت جعلتك تنظر نحو الأبراخ. ليس عند هؤلاء احترام لأنفسهم. لا يعرفون إلا أن يتشاجروا ويُشهرُوا السلاح. لا تنتظر الأخلاق ممن لا أمير عندهم. لا يعرفون ما يسمى بالهيبة والاحترام.

تذكر بغدادسار وهو سارح في هذه الأفكار كلام لتناي معه في أوائل الشتاء. - يا بغدادسار، - كانت لتناي قالت، - لن أخفي عنك شيئاً في شأن الأمير الشاب. أنا من ولدته حقاً ولكنكم من ربّوه. حياكم الله ورضي عنكم. أتأمل منكم أن يسمع بالتجري كلامكم ويحترمكم فأقول لك: لمّحوا للولد ألا يتجه إلى بلاد الأبراخ أكثر مما فعل. يبدو أن آل جنجته سليم اتفقوا فسحروه. الله الأحد رحّمنا فنفهمّنا، آل حجمقوه. كنت سأقترف ذنباً لو لم يحدث للفناة الفلاحة ما حدث. وفي هذه الناحية لا شيء يردعني حتى لو دفعت كل ما

يملك آل حجمقوه.

- ما الذي يدفعك إلى هذا الكلام يا لتناي؟ هل تشكين في أن باتجري لا يزال هواه نحو الأبراخ؟ - ألا يزال باتجري شاباً؟ لا يمكن تخمين ما في رأسه...
- كنت أود معرفة رأي أمير البجدوغ الكبير في هذه المسألة.
- وماذا سيكون رأيه؟ لن يخالفني! - كتبت لتناي الخصام بينها وبين ابنها بعد النقاش، - ألقس يرضيني جداً. عاطفته نحوي قوية. واحترامه لي شديد.
- والأمير الأصغر لا أستطيع القول إنه لا يطيعني، يُطعمني روحه. كانت أمورنا بخير لولا الأبراخ. لا أعرف ماذا وجد عندهم. يكفي ما فعل هؤلاء بالأمير وجه. نذرنا ألا ندخل أحداً منهم في عرقنا.
- إن كنت واثقة مني يا لتناي فلن أقصّر في شيء يتعلق بباتجري. لن أحيجك إلى شيء مما في قدرتي. وأسرتنا لها الموقف نفسه. أليس حسناً أن يكون لنا أقارب في الحاتيقواي أو في الجمكوي؟..
- نعم بغدسار، نعم. كم وافقت هواي!.. هذا ما أريد أن لا يغيب عن ذهنك حين تكلم الأمير الشاب الآن...
- دخل ليفان الغرفة وبغدسار لا يزال في أفكاره:
- يا والدنا، جاء الراعي بنف يطلب قطعة قماش بنطال إذا توقّر عندنا.
- هل معه نقود؟
- من أين سيأتي بها؟ جاء بسبع قطع من جلود الخراف، وقطعة جلد بقرة واحدة.
- لا بأس إذن. أعطه ما يريد.

...

وصل باتجري في اليوم الثالث إلى طؤابغه . وحال وصوله توجه إلى غرفة الأمير الكبير. ولكن تبين أن ألقس غائب عند أمراء دربا. سيطر الحزن على باتجري لحظة سماع الخبر متوجساً شراً. فدخل غرفته مرهقاً من سفر الشتاء. جلس بسترته الذئبية على السرير الموازي للجدار. قال: يا ربي، ماذا كان ينوي أن يقول لي بشأن الأبراخ؟ مرة أخرى انتصبت أغور أمام باتجري: على ظهرها

ضفירתاها تبرزان من تحت الإيشارب الحريري الملون، وتفتتان القلب. نهض
باتجري لا يطيق الجلوس، تفقد المكان متخيلاً أن الغرفة ليست غرفته بل
للغرباء. كان ناوياً أن ينسى أغور في الشتاء الذي أعقب الخريف الثقيل ولكن
باتجري فهم اليوم أن هذا مستحيل فقد صارت قطعة من الروح. قرر ألا يتزوج
أبدًا معتقداً أنه لم تولد بعد المرأة التي تنسيه أغور.

الفصل التاسع عشر

-1-

مضت عدة سنوات على انسحاب الجنرال جانقل بجيشه إلى تركيا. في آخر
شهر من ربيع عام 1781 جاء الترك بجيش آخر على ضفة نهر بُغر الصغير.
كان الجيش الذي نزل بأرض الأديغة يبدو أنه لا ينوي القتال بل يسعى إلى
السلام، ولكنه يحمل نية مدّ جذور عميقة. سبني مدينة قلعة على ضفة نهر
بغر. ما إن نزلوا من السفن إلى البر حتى بدأ البناء دون هوادة بعلم من المنتفد
زانقوه محمد جري دون استشارة أحد. وبجهد استمر ليلاً ونهاراً بنيت أول
مجموعة من البيوت على الأرض حتى منتصف الصيف. وفي الخريف اكتسبت
أنابه مظهر المدينة القلعة.

الوقت الذي علم فيه شباكوه أحمد بموضوع القلعة على نهر بغر هو بداية تحوّل
الصيف إلى شيء من البرودة. استدعي إلى جهة ينجج القبرتاي في مهمة طبية
فأقام هناك. وفي طريقه من هناك دخل إلى أرض الجمكوي ونزل ضيفاً على
زيش في تيزج حابله. سمع الفلاح مخوش بقدوم الضيف الناخواي شباكوه
فاستضافه أسبوعين. ولما وصل إلى البجدوغ لم يستطع الوصول إلى ابن أخته
لامجي.

وقبل أن يجد شباكوه العائد لتوه من السفر الوقت لإصلاح هندامه وحاله، زاره
سوباش:

- أهلاً بالزعيم!

- تفضل سوباش، تفضل! - رأى في وجه الفلاح الشاب قلقاً. فلم يملك إلا أن يسأل: ما الأمر؟ هل يقلقك شيء؟ ما أخبار القرية؟
- في نبأه يسود السلام.
- ماذا إذن؟
- أحاط بنا الترك على ضفة نهر بئر.
- ماذا يقول الأتراك أصحاب السراويل العريضة؟
- لا يقولون شيئاً، يبنون قلعة.
- من استشاروا؟
- قالوا إنهم استأذنوا زانقوه وآل ناورز وآل شكش.
- والفلاحون؟ ما رأيهم؟
- ماذا يقولون؛ ليسوا راضين.
- هكذا إذن!.. - جلس شباكوه لأياً يفكر، ثم قال خارجاً عن الموضوع:
- حياك الله يا سوباش على مساعدتك للأسرة في أعمال الحقل. لم أقدر أن أغيب كل هذا الوقت في القبرتاي. كنت واثقاً في غيابي من الذين تعاهدوا فغبت مطمئناً.
- لم نقم بأي عمل مهم يا أحمد. ألا تخدم أنت الفلاحين بأكثر من هذا في أوقات الضيق؟ ما من فلاح في أرض الأديغة لا يحتاجك أنت. كان الحاتيقواي أرسلوا وراءك قبل أيام من أجل مريض. صدف أن كنت غائباً.
- الحاتيقواي؟ الحاتيقواي وجدوني. سمعوا أنني وصلت في عودتي إلى الجمكوي فاستدعوني. غير أن الشاب الفلاح الذي استدعوني من أجله سبقني إلى الآخرة. وما كان بيدي شيء ولو لحقت به. قالوا إنه بعدما انكسرت رجله آذاه الحر فتعطلت ساقه. - ثم خارجاً عن الخبر الذي يرويه، - هكذا إذن؛ الأتراك أحاطوا بنا تماماً وعرفوا ضعفنا. ماذا يريدون من وراء القلعة؟
- حرم الخبر الذي سمعه شباكوه من نوم هانئ في نبأه. أقلقه هذا الخبر أكثر مما أقلقه جيش الجنرال جانقل سابقاً. فهم فلاحو النأتخوي، لا شباكوه وحده، الهدف من قلعة الترك على الجانب الأديغي للبحر كما فهم الأتراك. ولكن

المفاجأة عقدت ألسنتهم فلم يعرفوا إلى الآن ما سيكون موقفهم. كان الفلاحون قد قرروا أن يعقدوا مؤتمراً للناخبين غير أن المتنفذين ونخبة الفلاحين تحالفوا وماطلوا فيه. ولم يكن لدى الفلاحين وقتٌ يضيعونه في موسم الأعمال الربيعية - الصيفية من أجل الترك. ومضى أكثر من شهر حتى اتضحت نوايا الجيش المحتل. والآن لا حديث في أفواه فلاحى الناخبين متى اجتمعوا في جماعات إلا حديث قلعة أنابه.

- أيّ غدر مارسه الترك معنا دون أن يسألونا؟! - سأل أحد الفلاحين شباكوه قبل أيام، - ما الذي جاء بهم إلى أرضنا؛ ألا تكفيهم أرضهم؟ يفعلون بنا ما يريدون، والله لو كنا أبزاخ ما فعلوا بنا هذا!

- لماذا أنت مهموم يا خورم، لم يبنوا على أرضك. - ردّ شباكوه على الفلاح ليرى ردّ فعله.

- والله لم أتوقع منك يا شباكوه أن ترد عليّ بهذا الجواب. - ظهر على الفلاح خورم تأثره، - أظن أرضي هي التي عليها بيتي وزرائي فحسب؟ كل أرض الأديغة ملك لكل الأديغة. نحن لم نخرج من بلادنا فسلب أحداً أرضه. لا يستخفّوا بنا ما دمنا نحترمهم. أنا شخصياً لا أقبل من أحد هذا السلوك.

- ماذا تنوي إذن يا خورم الفلاح؟

- سأعمل على إجلاء القلعة عن أرض الأديغة إن استطعتُ.

- ماذا ستفعل؟

- ألم أقل لك إني سأطلب منهم عدم بنائها؟

- وإن لم يسمعوك؟

- إن لم يسمعوني فالجواب مختصر: السلاح!

- بأي حجة سنحمل السلاح في وجه من ننتمي إليهم؟

- يا شباكوه، صبرْتُ عليك إلى الآن ولكن، - احتدّ الفلاح خورم، - لا

تسألني مثل هذه الأسئلة. منذ متى صار الأديغة أتراكاً بسرراويل عريضة؟ إن

كنت تخاطبني بهذا الأسلوب مستهيناً بعقلي فلا تُسمع غيري هذا الكلام! لن يقبل منك. سيرد عليك بكلمات قاسية تعففت عنها أنا.

- أليس آل ناورز وآل شُكُش من الأديغة؟ - ابتسم شباكوه.
- أنا لا أتكلم على هؤلاء، من ليس إنساناً لا يستطيع أحد أن يصنع منه إنساناً. الفلاح لا يستطيع إلا أن يقلق لأرض الفلاح. ولذا أود أن تفهمني يا شباكوه. ضفة بعر، ولو أنها ليست مسقط رأسي، أرض أديغية، ولذا أعدها مثل نبابه، قريبٌ منها بروحي وقلبي، لا أتنازل عنها لأحد. لن أسمح لأَيِّ أن يأذن للترك إن لم يستأذنوني، ويستأذنوا فلاحي ناتخوي...
- قضى شباكوه أحمد بضعة أيام محتفظاً في ذاكرته بكلمات الفلاح خورم. اجتمع شباكوه بعدد من فلاحي قرى الناتخوي بالإضافة إلى فلاحي نبابه. اطلع على آرائهم في القلعة التي يُنشئها الأترك. وطوال هذه المدة لم يلتق بفلاح انحاز إلى صفوف الترك. ولكنه انصرف من عند الفلاح خورم الذي تكلم من قلبه.
- كان شباكوه من أوائل من طرحوا هذا الموضوع في جدول أعمال مؤتمر الناتخوي الخريفي. ولكن رأي المتنفذين غلب هذه المرة.
- كفى يا شباكوه، لا تُفن نفسك أكثر من الآخرين، - قال وستقوه بعدما جلس يستمع إلى عتاب شباكوه. - هذا الاختلاف هو ما يمنعنا، نحن الأديغة، عن التطور. كلُّ هُمِّه شخصه وبيته وأرضه المحدودة. هل تظن الفلاحين ينظرون حيث تنظر؟!
- لا أوافقك يا وستقوه في هذا.
- ولماذا لا توافقي؟
- كان ناورز حاج عمر تكلم قريباً من الصدق فخدعت أقواله الفلاحين. أنا لا ألوم الفلاحين.
- ليس الفلاحين بل نخبة الفلاحين.
- ليكن من النخبة، لم أسمع من ناورز حاج عمر ما يعيب. أيهما أسهل على فلاحي الناتخوي: الذهاب إلى سوق بشاد أم إلى سوق قلعة بعر؟
- وهل تسأل عن هذا يا شباكوه؟ قلعة بعر أقرب إلى الناتخوي. هل تقيس بضع غلوات حصان إلى طريق يحتاج إلى الانطلاق صباحاً؟

- إذن هذا ما يستغله المتنفذون. المؤكد أنهم عبّروا في هذا الأمر عن مصالح الفلاحين. ولكنهم ضموا إلى تلك المصلحة الفائدة التي يجنونها من وجود الجيش التركي في الناختواي. يمكنهم إرهاب الفلاحين بالجيش التركي المدجج بالسلاح بحجة السوق. في اعتقادي أن القلعة التي يعسكر فيها الجيش التركي لا يمكن أن تصبح سوقاً كسوق بشاد بالنسبة لفلاحي الناختواي. الفلاحون يخططون من هذه الناحية. إن لم يفهموا الأمر الآن فستشهد، عاجلاً أم آجلاً، يوماً فهموا فيه.

- في كلامك هذا يا شباكوه نصيب من الصحة.

- صدّق يا وستقوه أي، وإن لم يبق غيري، لن أسمح للترك أن يرتاحوا في بغر.
- إذا تصرف شباكوه هكذا فماذا يمكنني القول؟ - ألقى وستقوه بوجهه المجذور الثقيل نظرة على شباكوه، لا يعرف سبب اقتناعه بكلامه. - هل تصفّني في عداد الفلاح خورم الثرائين؟

- لا عتب لي على الفلاح خورم. هو من فلاحي بغر الذين خدعهم المتنفذون. سنرى ما يحدث... إن لم أهدم الليلة باب القلعة فاحذفني من الغد يا وستقوه من قائمة لابسّي القبعات.

- لن نقف في صفين متقابلين يا شباكوه بعدما ترافقنا إلى الآن. - قال وستقوه بجذّ، وتفحص شباكوه بعينين ودودين متعبتين.

-2-

- أما طلبت مني يا داريت إخبارك متى رأيت أكجكوه نطار يتكلم إلى الجن؟
ها أنا الآن أخبرك. - وقف حاغور بداد بوجهه المذعور أمام داريت.
- أين رأيته؟

- هناك، - أشار بداد بطرف السوط إلى غابة إيتاو - إيتاش، عند البلوطة الكبيرة. يتكلم ويشير بيديه... يقفز ويقعد، يصفق حيناً، ويبتسم حيناً...

- ليرحمنا الله الأحد، - شحب وجه داريت من الخبر الذي كانت تنتظره وإن كانت تعرف أن لا قرين من الجن لنطار. ولكن الدم لم يتأخر عن الخدين

اللذين ظلا يقهران الشيخوخة. - ليحمنا الله منه. أيّ إنسان شرير نشأ هذا الشاب في القرية!.. متى رأيته؟ - هيا أسرع، - غادرت داريت البيت. - استدعوا علي سلطان أينما كان!.. كم تَبْهت الأفندي أكجكوه أن يضبط ولده! لم يسمع كلمة مما قلتُ.

- أكيد لن يسمع، - مسح بداد بكُمّ كسائه العرق عن جبينه. - قلْ له: "العُشْر" يسمعك ولو كان في أقصى زاوية من القرية... يستقلّ مهما أعطوه. دخل علي سلطان إلى الغرفة.

- هيا يا صغيري أوصلوا الأفندي أكجكوه حالاً إلى إيتاو - إيتاش. لا تتحركوا وحدكم! اصطحبوا عدداً كبيراً من الفرسان. قيل إن أكجكوه نطار أقام عرساً كبيراً للجن في إيتاو إيتاش. ليتأكّد والده بعينه من صدق كلام الناس!.. انتشر خبر الجن في القرية ريثما طلبوا من أنزور الركوب دون أن يسمحوا له بالجدال، واصطحبوه إلى إيتاو - إيتاش. في البداية تجمعت النساء، وبعدهن مجموعة من رجال الحي الشمالي لا يعرفون حقيقة الخبر. كان أكثرهم ركب من أجل إبعاد الجن عن نطار، وتبع المشاة علي سلطان حاملين العصي الثخينة والشوْك الحديدية. والصبيان الذين هُرّعوا وراء الكبار لحقت بهم أمهاتهم فأعدهم. كانوا يغلقون أبواب الدور تحسباً من مصيبة كبيرة في باستوك. ويُرْتَحَن أبواب الغرف والنوافذ بشتى الوسائل. هدأت أصوات الكلاب التي هيجتها ضجة الناس. بل إن الديكة كَفَّت عن نداء الصباح كأن الخوف عقد ألسنتها. والطيور خرسَت في ذرا الأشجار.

رأى حاغور موسى من بعيد جيش الفرسان المتجه إلى غابة تحمز، عاد إلى حقل الذرة نصف المحصود مستغرباً ترك هؤلاء أعمالهم في هذه الساعة. - أي مجموعة من الفرسان توجهت إلى الغابة يا موسى؟ - سألت أكوْز. - لا أعرف والله، ربما جاءت إلى آل شرلأقوه مجموعة كبيرة من الأمراء - النبلاء...

- ماذا يتابع هؤلاء إذن؟ - نظرت أكوْز إلى الجهة التي يأتون منها عاجزة عن فهم هذا التجمع الكبير من المشاة. - والله يا موسى لا خير!

- سأجري وأعرف القصة، - قال دمر ونظر إلى والده.

- إلى أين ستجري؟.. - رفضت أكوز.

- يبدو أن شيئاً حدث في ناحية إيتاو - إيتاش، - نظر موسى نحو الحصان الذي يريعى قريباً من طرف حقل الذرة، رغباً في الركوب، رأى فارسين خرجا من القرية مسرعين وتوجها إليه. ولما تجاوزاه ركب أربعة فلاحين ولحقوا بهما.

- هيا يا ولد هات حصاني!.. أليسا نبافؤه وصبح من يجريان؟

تحرق الإهانة أكلجكوه أنزور حتى لا يعرف إن كان راكباً أم راجلاً. ماذا يعرف كل هؤلاء الفرسان المسرعين بعيون محمرة عن ابنه؟ أشاعوا عنه أن عنده قريناً من الجن فيتفوهون بما يجري على ألسنتهم. يا مبارك النسل، كم قلت له ألا يتوغل في الغابة، وألا يشير بيديه فيها، ويتجنب أن يراه الناس يثرثر ويصيح!..

من يفهم الأشعار التي تنظمها؟ تعيش وأنت تثرثر: أرضي، ربيعي، غابتي، بلادي، ولا يفهمك أحد. كان الأفضل أن تؤلف أغاني للمتنفذين، كانوا منحوك كثيراً من الثيران، وكنت قضيت وقتاً ممتعاً في مضافات الأمراء

- النبلاء... لماذا تجعل هؤلاء الذين لا يعرفون منك ما أعرف أنا يرافقوني إلى إيتاو - إيتاش كحصان مربوط إلى صاحبه. كنت أفضّل أن يُقَطَّع رأسي على أن يشاع عن أسرتنا مثل هذا الخبر. درستُ عبثاً في القرم وطعامي طعام الكلاب، وعملي تنظيف روث خيول النغوي. لم يكفِ هذا فأرسلتك ونكبت نفسي. تذكر أنزور الآن مرة أخرى الشجار بينه وبين ابنه في الربيع الماضي.

كان ما جرح شعور أنزور هو إعلانه أنه سيهجر بلاد الشابسغ إلى بلاد زوجته. ثم بادر هو بمصالحة ابنه كي لا تصل الأمور إلى هذا الحد إذ كيف سينظر إلينا من يسمع بالخبر؟ لو عرف أن ما حدث اليوم سيحدث لأرسله، لا إلى ينجج فحسب، بل إلى حثراقتك. توقعت أن يصحو متى صار عنده أسرة وأولاد فزوجته. ثم إنه جاء بزوجه من آخر الأرض كأن لم تبق في الشابسغ لابسة غطاء رأس! ولما أعرب عن رغبته في تعلم الروسية لم أعارضه رغم نظرات المتنفذين العدائية، وأرسلته حتى حدود الجنرال سوفور ذي الوجه الحليق. وجاءني بجمع من القوزاق مسببين استياء معارفي الترك فاستصفت

الأخيرين بضع مرات. ولم يكف هذا بل صمم على الذهاب إلى بترف فأحبطنا نيته بشق النفس. أقول هذا ولكنه ذكر لي قبل أيام أنه مسافر إلى هناك... يا الله اجعل ما ذكره شرلاً قوه مجرد وهمٍ فانصر حظي على من لا يُكنون لي الود. لو نجوُث هذه المرة لفكرت لهذا العديم الإيمان بحلّ ما ولو أنفقت عليه ما أملك. أقول هذا ولكن ماذا يا إلهي إن صدق ما يشاع من أنه له قريناً جنيّاً؟.. من يدري فنحن في عالم المفاجآت. إن كان الموضوع صحيحاً فسنحاصره كما قيل لي في البجدوغ بعدد من الفرسان، ونرعب الجنّ حتى لا يعودوا إلى هذه الأنحاء. لن أبخل بالرصاص، ورفاقي مزودون بالسلاح.

تبين لأكجكوه أنزور أن موضوع الجن ليس صحيحاً، فقبل أن يصل الفرسان إلى المرعى رأى أنزور ابنه تحت شجرة البلوط. ولما رفع علي سلطان اليد يوعز إليهم بالانتظار توقّف الجمع. لم يكن نطار يتصرف وفق أخبار بداد: لا يضحك، ولا يقفز من مكانه... بل يستلقي هادئاً ويداه تحت رأسه.

- اصبروا لحظة!.. - همس بداد، - سيتحدث حالاً إلى قرينه.

- أيّ قرين جني تتحدث عنه؟.. - لم يقبل أنزور ما سمع.

رفع نطار رأسه فجأة كمن كان ينتظر هذه الإشارة فقال بصوت عالٍ، متأملاً ما حوله، كأن الدنيا مُلكه:

أيها العالم المضيء، يا أرض الربيع

إن سألتني أهى ملك المتنفيين

قلت لك، لا، ليست لهم!

جلس نطار بضع دقائق يفكر حتى لتتساءل إن كان نسي شيئاً من الشعر، ثم أضاف:

هذا العالم بكلّ دفئه

ملك الفلاحين

لا شكّ، كما الشمس.

- حاصروه، ودعونا نطرد رفاقه الجن من الجوار!..- صرخ علي سلطان بالحضور، وقد أفقده ما سمع وعيّه. - أسرعوا، من الناحية الأخرى أيضاً!

قفز نطار واقفاً. اتجهت أنظار الحضور إليه دون أن يدري ما حدث. وسمع ضجيج الناس الذي يقترب من جهة باستوك:

- أيّ جمع من الفرسان حشدت لي يا شرلاًقوه؟ - سأل نطار وقد نفذ صبره، ودون أن يرى والده.

- أنا أم أنت من جاء بهم؟ ماذا تفعل هنا؟ جعلت من القرية مرتعاً للجنّ. اضربوا الجن! اصرعوهم بصدور الخيل!

- ها هو أحدهم حرك دغل البندق! - صرخ أحد الفرسان من طرف المرعى. وسمع تبادل إطلاق نار المسدسات.

عرف نطار أن الشر قادم. ضرب أحد الفرسان المقتحمين للساحة، وهو علي سلطان، نطار بالسوط. وفي غمضة عين صرعه غيره بصدر الحصان. وقبل أن يستجمع قوته للنهوض، ويداه على الرأس الذي فجّته قائمة الحصان، صرعه ضربة أخرى بصدر الحصان.

رأى أنزور ابنه والدم يسيل منه، فارتقى من ظهر الحصان، وركض إلى الساحة.

- ماذا تفعلون يا شرلاًقوه، يا عرفاً عديم الإيمان!.. - أطبق أنزور على جسد ابنه الذي يسيل الدم من فمه. وملاّت جماعة حاغور الساحة...

-3-

لم تكن سماء الشرق عازمة بعد على الاحمرار حين خرج الفرسان الستة من نباله. تلمع النجوم في السماء كجمرات ممزّقة. لم يكن قمر الصيف قد ابتعد عن منتصفه: الضوء يغمر الكون حتى ليتمكنك النقاط الإبرة التي وقعت منك. والشهب تنهاوى أحياناً يتطاير منها الشرر. مجموعة درب التبانة ترتفع إلى كبد السماء فتحترق. وما يكتمه النهار الحار القادم من النجوم كأن وقع الحوافر أربعها، أكثر من سابقاتها.

توجه الفرسان الخارجون من نباله إلى الطريق القصير إذ من المقرر أن ينضم إليهم خمسة فرسان قبل الوصول إلى رأس نهر بغر. الفرسان يسرون منذ ساعتين تقريباً ولم يفتح أحدهم فمه للآخر: يسرون مثني بالخبب البطيء.

لا ينسى شباكوه أحمد الطريقة التي تراجع بها الفلاح خورم. كان أول الرافضين لبناء القلعة التركية على أرض الأديغة هو خورم. كان شباكوه معجباً جداً بطريقة كلام خورم المليء بالذكاء والرجولة. وقبل الآن حين هاجم شباكوه برفقة عدة فرسان منشآت تركية كان خورم غائباً عن القرية، فلم يكن بين المهاجمين بالطبع. فلما سمع بالخبر تكلف الرجل وجاء إلى شباكوه معاتباً:

- لست راضياً عنك يا شباكوه. كنت وضعتُ ثقتي فيك لأنك لا تخلف وعداً. توقعت أن تدعوني حين هاجمت القلعة التركية. ولكنك خيبت ظني... لا أعرف إن كنت لا أحظى بثقتك. لا ألومك في هذا... حسناً، أنت وما ترى. آل خورم إلى الآن لا ينفصل قولهم عن فعلهم.

- وكيف لا أثق بك! - كان شباكوه مرتاحاً لعتاب الفلاح. صدفتم حملتنا غيابك. وهل تظنها آخر عملية؟! سأخبرك في العملية القادمة.

لم يخلف شباكوه أحمد بوعده. أرسل سوباش مساء أمس إلى خورم ليكون مستعداً. صرف خورم الرسول قائلاً: "أنتظر ضيوفاً من طؤزيس". في البداية تأثر شباكوه بغياب خورم عن العملية، ثم فكر: ألا يكون إله السفر رتب الأمر على هذا النحو لمصلحة العملية؟ فارتاح ضميره. لماذا يصدع رأسه بهذه الأفكار وقد صاروا على الطريق ومعه رفاق مخلصون؟ تذكر شباكوه فجأة سوباش الذي يتأخر عنهم بفارسين فابتسم له من قلبه. كان والدي يقول: أشباه الرجال كثيرون، والرجال الحقيقيون قلائل. ما أصدق هذا الكلام!.. سوباش، ولو أنه شابٌ جداً، واحد من الرجال الحقيقيين في الناتخوي. يقال: لا تمتدح من لم تنجر معه عملاً، ولا من لم ترافقه في سفر!.. ولكن هذا لا ينطبق على سوباش الفلاح. لو لم أر بأم عيني البطولة التي اجتريتها في العملية الماضية لما صدقتُ ولو أخبروني. ألقى كومة التبن المشتعلة في مستودع البارود ففجّره. ومن الصعب معرفة كيفية نجاته من الجنود الكثيرين الذين لاحقوه. لم يملك شباكوه في غمرة تفكيره بالفلاح الجار إلا أن يفكر ثانية في الفلاح خورم. ولكنه كان يودّ تجاهله، لا أن يحتفظ به: التفت إلى الفارس وستقوه على يمينه:

- أراك نائماً يا وستقوه.

- لا أعرف ولكني نعلان.

- نكاد نصل.

انحدرت مجموعة الفرسان التي يقودها شباكوه من المرتفع، فاستقبلتهم مجموعة الفرسان الخمسة التي كانت تنتظرهم على ضفة نهر بئر. وجاؤوا برميل البارود الخشبي على حصان مربوط إلى آخر ليفجروا به الباب الجنوبي الحديدي الكبير. ولما التقط الفرسان المتعبون أنفاسهم قال شباكوه:

- تعالوا، لا نلته. الآن وقت حلاوة النوم. لن نهاجم القلعة، لنناموا مرتاحين! سننفذ عملنا من الباب.

- أليس مؤسفاً إنفاق كل هذا البارود على أصحاب السراويل العريضة؟ - ركب وستقوه مدمماً.

- لا تندم، البارود يعود إلى مصدره. - قال أحد الرجلين اللذين جاءا بحملي البارود.

كانت أنابه ما تزال بعيدة عن أن تُدعى مدينة. ولكن الترك اختاروها لسهولة رسو المراكب فيها فبنوا فيها بضعة بيوت. ولا تزال بيوت أخرى قيد الإنجاز. والصور الحجري الكبير يمنحك من رؤية ما خلفه. لم يكن لها إلا معبران باستثناء البحر.

لم يقترب الفرسان الأحد عشر معاً من الباب الجنوبي الأقرب إلى البحر. انقسموا قسمين: قسم من سبعة فرسان بقيادة وستقوه توقفوا وهم على خيلهم في موضع كثيف من الغابة لدعم القسم الثاني. والأربعة الآخرون ومعهم شباكوه اقتربوا من الباب، ووسطهم الحصان الحامل برميل البارود. لم يكن منظر الفرسان يوحي بالشر.

- هيه، من هذا الذي على الباب - نادى شباكوه حين لم ير أي حركة من أحد. - أليس هؤلاء حارس؟

أنزل سوباش وصاحباه برميلي البارود من الحصان ريثما نادى شباكوه، ودحرجوهما إلى أسفل الباب.

- ماذا تريدون؟ صدر سؤال من فوق الباب.

- لا نريد شيئاً، جئنا للباشا ببرميل من العسل. - أجاب شباكوه بخليط من الأديعية والتركية.

- أما كان بإمكانكم أن تتأخروا قليلاً.

- لم نستشرك في هذا... هيا أبلغ أنت من يجب إبلاغه. نترك المسؤولية عليك. سنخبر باستوق المتنفس الذي أرسلنا أنهم لم يسمحوا لنا بالدخول. التفت شباكوه إلى سوباش الذي يعمل في تحضير البارود شاغلاً الحارس بالحديث لكسب الوقت.

- أي ضجيج على الباب؟ - سأل أحدهم، ربما رئيس الحراس. ومع أصوات اقتراب آخرين تأكد سوباش من سريان النار في البارود.

لما ارتفع اللهب فوصل إلى البارود انصرف شباكوه ورفاقه. وحين التفت سوباش مستثقالاً وقت العودة إلى عمق الغابة ارتفع لهب أضاء المنطقة كلها بما فيها طريق الفرسان، يرافقه دوي انفجار. وارتفع في المدينة الصراخ وطلقات البنادق. وفي الليلة نفسها، مع بداية نور النهار وصلت جماعة شباكوه إلى حدود قرية نباله. وفي المساء وصل خبر يفيد أن القلعة كلها، لا الباب وحده دمرت عن بكرة أبيها.

وحالما سمع خورم بالخبر جاء إلى شباكوه:

- عِشْتُ يا أحمد. اجترحتم بطولة. - قال رافعاً حاجبيه السوداوين فوق العينين اللامعتين.

- أي رجولة تتكلم عليها يا خورم الفلاح؟! - تظاهر شباكوه بأنه لا علم له بشيء.

- ألم تكونوا أمس حيث كان مقرراً أن نذهب؟

- لا أذكر أننا تحدثنا أنت وأنا مساء أمس. - حسم شباكوه بكلمات باردة. - والله لا أعرف، - انكسر صوت الفلاح خورم، - أرسلت طارق سوباش من أجل أن نركب...

- اعتبر الأمر مثل ضيوفك من طوؤيس...

خفض الفلاح خورم رأسه. جلس بعض الوقت ينظر إلى الباب لا يدري أيبقى

جالساً أم يغادر... ثم نهض لا يُطيق صمت المضافة، وقد ازداد سواداً على سواد:

- لا تؤاخذني، أعرف يا أحمد... ولكن ما العمل...

- ولماذا أعتب عليك؟

- أنا مثلك من قالوا فيه: الصدق مهما ظننت نفسك صرعتَه نهض من جديد، والكذب مهما ظننت نفسك أقمته انهار أمامك... ولكن ماذا بيدي، عندي حشد من الأولاد. لم أستطع مفارقتهم حين حاصرني عيونهم. أجبروني على الكذب...

- صعبٌ أن تجد فلاحاً دون جيش من الأولاد. ها هم الإخوة حاغور التسعة نشؤوا بلا أب. كانوا صغاراً حين وقف والدهم في وجه آل أباته. هذه حال الدنيا: إما أن تموت وإما أن تكون رجلاً...

-4-

كان الناس يتكلمون، لا في باستوك وحدها، بل في كل بلاد الأديغة، على ما جرى لنطار في غابة تحمز، من بيت إلى بيت، يزيد وينقص، كلٌّ على هواه. لم يعد نطار في وضع يؤثر فيه الكلام خيراً أم شراً. بعدما رقد في الفراش أسبوعاً، لا يشعر فيه بما تكسّر من جسده بصدر الحصان، والأطباء يتعاقبون عليه، ظهر ما لم يكن في الحسبان: بدأ ينفث الدم المتخثر، والسعال يخنقه.

لم يتوقع الأب في البداية أن يتحول الأمر إلى هذا. كان يتأمل أن يقوم ابنه بعد بضعة أيام من الفراش. ظل يخدم الدين، يذهب إلى الجامع ويصلي بالناس، لا يتهم أحداً غير ابنه، والجن، وإن لم يكن يصدّق الثانية. لا يفوّت صلاة دون أن ييتهل إلى الله من أجل ولده الوحيد. ولكن كلما مضى الوقت، وتعاقبت الأيام، ظهر له عبثُ الدعاء. ابنه لا يتحسن إن لم تتردّ حالته. لا يغفر أنزور لنفسه قوله لنطار غاضباً، وقد عاد به إلى البيت محطّم الضلوع: "لم يجر لك ما لا تستحقه". لا يمكن إلا أن يفكر في كلامه سواءً كان على سجادة الصلاة أم وحده. وأشدُّ ما يعذبه، وأمراضه مرضاً لا دواء له، هو أن ابنه لم يعد ينطق

كلمة واحدة.

في أحد الأيام، سأل علي سلطان وهو عائد من صلاة الظهر، أكجكوه أنزور:
- كيف أحوالكم يا أفندي؟ فرحتُ إذ سمعت أن نطار يتحسن. هذه المرة يا أنزور لا ذنب لنا. لا أحد يسره أن يعيش معه في القرية جيّ. ولكن، لن يعود عنده. وقبل أيام رجوت جمعاً من الفلاحين فأرسلتهم إلى إيتاو - إيتاش فقاموا بمطاردة الجن. وما استهلكوه من بارود ورصاص ليس قليلاً. ليس البارود مشكلة يا رجل إن تركونا نعيش في أمان. ما من شيء يساوي حياة الوفاق في القرية. ما أرجوك من أجله يا أنزور هو أن يكفّ عن اتخاذ المتنفذين مسخرة متى وقف على رجليه. ليس إسماع الفلاحين بعض كلمات على المتنفذين مثل نظم الشعر فيهم ونشره. وإن لم يكن قادراً على التخلي عن هذه العادة فلينظم شعراً في والدي المرحوم، وأنا لن أبخل عليه بمال الدنيا. كل ما يعجبه ويطلبه أضعه في يده.

لم يكن أنزور ينوي الرد على المتنفذ غير أنه لم يُطق صبراً. صمت إلى أن وصل إلى منعطف الزقاق مخفياً عدم رضاه مما يسمع، ثم تنهد رغباً عنه:

- والله لا أعرف، الولد ليس شاعراً...

- يرتب الكلمات جيداً إذا أراد، وإن لم يكن شاعراً.

- هذا أمر آخر.

- إذن إن كان أمراً آخر فبلغه باسمي.

هجم الدم على جبين أنزور، وغلبه الضيق من الإهانة. شعر بقوة في بدنه لم يشعر بها إلى الآن، وبرغبة في خنق محدثه. غير أن تلك القوة انطفأت كما اشتعلت. وارتحت أطرافه:

- سأبلغ رجاءك للولد إن سمع كلامي.

- أليس ابنك فلا يطيعك؟!

- إن شاء الله، هو ابني...

حين افترق شراًقوه وأكجكوه أعاد الأخير التفكير. ولما تذكر ارتخاء أطرافه نهر نفسه محتقراً إياها. ومسح براحته العرق الذي سال على الرأس الحليق حديثاً.

حاصره عتاب النفس وتبكيها غير قادر على العودة إلى البيت. ولكن أين يذهب في حر ظهيرة الصيف؟! إلى الجامع؟ يَمُ فضلُ الجامع البيت؟ لا شاغل له ليلًا ونهارًا سواه. من سوء حظي جعلوني معاون إمام فضربت رأسي بفأس خلافاً لغيري من الفلاحين. من يحتاجني في هذه الدنيا؟ يهشّ المتنفذون في وجهي، والفلاحون ينظرون إليّ شزرًا. ماذا آذيتكما أيها الطرفان؟ لستم المشكلة، ابني الوحيد متى دخلتُ أطلُّ عليه أدار لي ظهره. لم يفتح فمه بكلمة واحدة إلي منذ لازم الفراش. أي ذنب أقترفه في هذا العالم؟ لا أقول إلا ما أُثني به على الله العزيز. لا أدع الفلاحين ولا المتنفذين ينسونه. يا الله قل لي إن كنت عاتباً عليّ، واغرز الخير في قلب من لا يُضمّره لي. اسمعني وبلّغني رحمتك. إن صدرت مني كلمة نائية فبسبب الضيق الذي في قلبي فاغفرها لي... اسمع ما يقول لي علي سلطان؟ يريد من ابني أن يؤلف أغنية لشرلاًقوه ناغوه!.. كيف أطلب من ابني الذي ينازع تأليف أغنية يا عديمي الإيمان؟ يا الله اغمرنا برحمتك. إن كان مصير ابني الوحيد قد تقرّر هكذا فليجر أمرك. ليس بيدنا نحن شيء.

قضى أنزور عدة أيام كلما تذكر ما طلبه علي سلطان من تأليف قصيدة مديح في والده تملكه الغضب. وطوال هذه الأيام لم يمر يوم لم يُعد فيه ابنه ويدلّك قدميه. كان أصدقاء نطار يعودونه كل مساء. ولم يتركوا نباتاً في تحمز مما يوصف بأنه دواء لم يجلبوه له. ولكن لم ينفعه شيء.

دخل أنزور على ابنه وقد مضى على رقوده في الفراش قرابة الشهر:

- كيف حالك يا ولد؟ - لمس جبينه.

- نظر إلى والده بعينيه السوداوين البريقتين، ولم يُجِب.

- كأنك اليوم أحسن من البارحة، - جلس أنزور إلى قدمي ابنه، وابتسم حزناً يفرّكهما. - أراك لا تقول شيئاً يا ولد. يا مبارك النسل قل لي شيئاً أخفّف به الحمل عن صدري. إن كنت عاتباً عليّ فأعلمني بعثك. أنت من صليبي، قطعة من لحمي... - أجهد أنزور بالبكاء رغماً عنه. وخاف إن فكر بكلمة أخرى أن تغلت منه الدموع. عصر الألم قلب نطار حين رأى حزن الأب. وفي الحال

داهمه السعال فتضرج المنديل الأبيض على فمه بالدم. - لا تيأس يا ولد، ستشفى بإذن الله. يحدثني قلبي بهذا. أنت ولدي الوحيد كأنك سقطت من قمة شجرة. أتأمل من الله أن يعطف عليّ.

- لا يا والدنا، لا تقل هذا، أنا انتهى عمري... سألتني إن كنت عاتباً عليك، لا، لماذا أعتب؟ أنت تعيش باعتقاداتك. لم تتوجه إلى أحد بكلمة نابية... ولكنك جرحت شعوري مرة واحدة... وكان الذنب ذنبي. هل تذكر حين قلت لك: الدين الذي لا تمارسه بلغتك ليس ديناً، غضبت وشفعتني.

- أتذكر. ساحني، كنت شفعتك. - أسرع أنزور، - نحن لسنا أحراراً في أن نخالف كلام الله في شيء. آمن بالله وباليوم الآخر!

- هل تصدّق إذن يا والدنا أن شرلاًقوه ناغوه يأتي من الجنة ويزور داريت؟

- أومن بالجنة، والشّق الآخر من سؤالك لا علم لي به. ولا علاقة لي به. هؤلاء عرق بلا إيمان. لا شيء يخطر لهم ولا يفعلونه. دعنا من الكلام عليهم...

- زيارة شرلاًقوه ناغوه لزوجته في الليل مثلُ قريني الجني.

- أعرف يا ولدي، أعرف. - استلم الحديث من ابنه، - لا يجوز تصديق كلّ ما يقولون.

- ولماذا كنت من أوائل من نشروا هذا الخبر؟ جعلت الفلاحين يعتقدون أن داريت قديسة.

- وهل أقول ما أقول وأنا حرٌّ بنفسي؟

- ولماذا يعيش شباكوه أحمد وحاغور موسى حرّين إذن؟

- يا حسرتي يا ولدي، هل تعتقد أن الناس كلهم متشابهون؟ حاغور موسى وحاغور بداد ولدتهما أم واحدة. ولكن انظر إلى أسلوب حياة كلّ منهما. ولماذا نذهب بعيداً؟ ها أنا أقول شيئاً وأنت تقول غيره. هل كنا نعيش في هذه البحبوحة لو لم أكن أساير أصحاب السطوة؟! لم أستطع أن أفهمك هذا منذ سنين كثيرة.

- يا والدنا، لا يعيش الإنسان من أجل طعامه فحسب!

- وهذا صحيح. - قال أنزور كأنه يحدّث نفسه، - ولكن مع ذلك لا يعمل فكرك دون أن يمتلئ بطنك. لماذا أعيش مثل تحخوخه نفافوه بقبعة عالية ولا يحترمني أحد؟ لا فائدة من كلام بلا نتيجة...

- على ما يبدو يجب أن تغني أغنية من تركب عربته! - هاجم السعال نظار، فتلوث المنديل مرة أخرى بالدم. وفي لحظة راحة قال لوالده بعينين باردتين: أن تقف في وجه من تغني له بعينين مفتوحتين، وتفتحم رمحه بصدرك، أفضل من أن تغني من خارج قلبك!..

كانت هذه آخر كلمات أكجكوه نظار ذي الستة والعشرين عاماً لوالده. وفي اليوم التالي فاضت روحه.

-5-

أبلغ السلطان التركي عبد الحميد الأول بما يقوم به الأديغة من مشاغبات، فأصدر أمراً سرياً بأن لا تشيع هذه الأخبار ومثلها إلى روسيا. لم يكن الترك بخلاء بالهدايا النقدية والعينية من أقمشة وخيوط من الذهب... على فلاحي القرى، عامة الناس، بقصد إضفاء الاحترام على طبقة الفلاحين الذين هم عامة الناس¹، ليتساووا مع الأمراء - النبلاء والمتنفذين. لا داعي للسؤال عن النفاق الذي مارسه تركيا مع الأديغة. لم يكونوا، وحديث الإسلام يسبقهم إلى أي قرية يزورونها، ينسون الجيش الروسي المتمركز على الضفة اليمنى لنهر بشزه. يلّمّحون إلى أن هذا الجيش سيتوغل في أرض الأديغة، أو يسرّبون هذه المعلومة في عرض الكلام. يدعون في المساجد أن يقف معهم من تغلغل الإسلام في قلوبهم. ويتكلمون عليهم بشيء من البارود والرصاص.

مضى أكثر من عام على وفاة أكجكوه نظار. ولُقّب شباكوه أحمد بسبب غاراته على القلعة التركية بمحطّم القلاع، لا في الناختوي وحدها بل في الشابسغ أيضاً. يتكلمون عليه في مضافات الفلاحين مضيفين إلى رجولته

¹ لاحظ هنا مساواة الكاتب بين الفلاحين وعامة الناس.

مثلها. أشاعوا عنه أكثر من مرة أنه قُتل على يد الأتراك. ووصل خبر الموت إلى أسرته أيضاً. والآن سرى في باستوك خبر مفاده أنه قتل على مدخل أنابه. ولما سمع تحخوخوه نباؤه هذا الخبر لم يهتم بالخبر في البداية بداعي أنه مثل سائر الفلاحين. ثم أعاد التفكير، ووجد حاغور موسى في مضيق إيل:

- سنرتكب خطأ غير مقصود البتة بشأن شباكوه فيكسونا العار. - قال تحخوخوه، - ما الصعوبة في الأمر: نقوم بزيارة خاطفة الليلة ذهاباً وإياباً.

- اركبْ إذن، ومرّ عليّ!

- ولماذا أذهب إليكم على هذا البعد؟ - لم يكن تحخوخوه راغباً في المرور على بيت موسى فيرى أكوز، - سأنتظرك على طريق التبة. سنصل في وقت أبكر إلى نباله إن سلكنا هذا الطريق.

ما إن التقى حاغور وتحخوخوه على التبة، وبدأ المسير حتى وجدا نفسيهما وجهاً لوجه أمام الفارس الذي خرج من المنعطف. وفي الحال لجم الحداد بترز حصانه:

- مع السلامة أيها الزعيمان.

- حياك الله يا شعبان. - تفحص تحخوخوه الفارس وهو يجيب، - وأنت من أين تأتي؟

- كنت في نباله.

- ماذا فيها؟

- القرية بسلام بإذن الله. يعملون في جني العسل الجديد.

- هكذا إذن! - قال حاغور بصوت ثخين بعدما استمع، وابتسم، - ألم تقابل شباكوه؟

- معي تحياته إليكما.

- وعليكم السلام، رفع الرجلان جسديهما قليلاً عن السرج.

- وأنتما إلى أين بإذن الله؟

- متى رأيت شباكوه يا شعبان؟ - أجاب تحخوخوه بسؤال على سؤال الحداد.

- كان مضيفي الليلة، - الآن فحسب أحس شعبان بأن شيئاً يُقلق الفارسين،

- اليوم صباحاً باكراً شيعني هو وسوباش، وذهبا إلى مدينة بُغُر.
- لا بأس إذن، - تنفس حاغور الصُّعداء.
- كأنكما سمعتما خبراً جديداً يتعلق بشباكوه؟ - لم يملك بترز إلا أن يبتسم،
- لم يدّخر المتنفدون جهداً. سيكونه، يرسلونه إلى الجنة. ولكن جهودهم سدى. لا أظن أنّ ما يجري له هو ما يتمنونه. ربما سمعتما أنه قُتل في مدينة بغر؟
- نعم، سمعنا. - قال تحخوخوه، - ونسافر للتأكد من صحة الخبر. والله حصل خيرٌ بلاقئنا بك. تعال يا حاغور نعدّ، غداً يوم عمل. إذا كان شباكوه غائباً فلماذا السفر إلى نابله؟
- سأل حاغور وقد قطعاً مسافة في طريق العودة:
- لماذا سافر شباكوه وصحبه إلى بغر؟
- كان الباشا التركي أرسل وراءه أمس. أجب شعبان.
- ماذا ينوي بحقه؟ - لجم تحخوخوه الحصان، وتوقف الرفيقان.
- ومن أين لي أن أعرف نيته نحوه. نصحته ألا يذهب، غير أنه لم يسمعني. هل يجوز أن تنق بهؤلاء فتخالطهم؟ وعارضه فلاحون آخرون، ولكنه لم يسمع كلام أحد.
- وأنت لماذا لم تذهب معه؟
- كيف أذهب دون أن يطلب مني؟! وفي نابله من حاولوا مرافقته ولكنه لم يصطحب إلا الشخصين اللذين ذكرت اسميهما. غير أن مجموعة كانت تستعد لمتابعته دون تأخير. وقابلت من يقول: نُعلم الترك أصحاب السراويل العريضة أن وراءه جمعاً كبيراً ولو لم نكن بصحبته.
- إذا نفذ فلاحو نابله نيتهم فقد تصرفوا على نحو صحيح. - قال تحخوخوه واستدار بالحصان. - تعال نذهب إلى حيث ذهبوا. ماذا نفعل إذا عدنا؟ لن نستطيع النوم الليلة دون أن نكون مع شباكوه.
- اتفق الفرسان الثلاثة واتجهوا إلى بغر. قطعوا بضع غلوات حصان وليس في البال غيرُ شباكوه أحمد. وانعطفوا نحو بُرمز تاركين كُداق وطؤزيس على يمينهم.

وقبيل العصر وصلوا قريباً من أنابه. ولما اقتربوا أكثر، بعد الإسراع، من المدينة - القلعة توجهوا إلى مجموعة الفرسان المتجمهرين على المرتفع غير العالي على باب القلعة. ولما انضموا إليهم رأوا في عمق الغابة قرابة مئة فارس، ليس بينهم راجل واحد. تعرف من العرق المتصبب على ظهور الخيل، ومن اختلاج عضلات أفخاذها أنهم وصلوا منذ قليل. كل الفرسان وجوههم إلى المدينة. قلقون على مصير شباكوه. والأتراك المتجمعون عند الباب على أهبة الاستعداد، وعيونهم نحو حشد الفرسان. ولا أحد يخرج أو يدخل إليها.

تعرف فلاحو نبابله على تحخوخوه وصاحبيه:

- أهلاً بفلاحي باستوك. - استقبل الفلاح خورم الفرسان الثلاثة. - هل أنتم ممن دعاهم باشا القلعة؟

- لا أعرف إن دعانا، - قال حاغور، - جئنا لما سمعنا أنهم استدعوا شباكوه إلى هنا. والله أنتم مجموعة ليست قليلة، هل كلهم من نبابله؟

- لا، من قرى متعددة. لم يتأخر عنا من سمع بالخبر.

- حياهم الله، هكذا يجب أن يتضامن الفلاحون كعصا واحدة. - ارتاح تحخوخوه لكلام الفلاح، - ودون هذه الوحدة لن يدعنا المتنفذون هنا بحياتنا. يُفَرِّقون بيننا بأن يدعوا بعضنا إلى فئات موائدهم.

- من البديهي أن نتضامن هكذا. - وافقه خورم، ودان نفسه متذكراً عتاب شباكوه له في العام الماضي. - نجد لأنفسنا حجة كوننا أرباب أسر فنسمح لهم بهزيمتنا.

وفي الحال ظهر في سهل بغير مجموعة الجنود الأتراك المكلفة بجلب الماء. وأمامهم ووراءهم مدفعان إلى جانب براميل الماء. وإلى جانبهم عدد من الفرسان المسلحين.

- أي نوع من البشر هؤلاء؟ سأل شعبان لا يعرف تفسيراً لما يرى.

- الأتراك ذوو السراويل الواسعة عائدون من الماء. - قال أحد الواقفين.

- ولماذا المدافع إذن؟

- يستعرضون رجولتهم. لا يسировون في الناحوي دون أن يجروها وراءهم... بل

يصحبونها حين يخرجون لقضاء حاجتهم...

توقف الجنود الأتراك الذين يجلبون الماء حالما رأوا الفلاحين الفرسان. وقفز السائسون من العربات، وتوجهت أطقم المدافع إلى أسلحتها.

- ما الذي خطر ببال هؤلاء المهرجين؟ - قلق الفلاح خورم، ونظر نحو تحسوخوه، - كأهم سيرموننا بالمدافع.

- إن كانوا كرهوا حياتهم فليرموا! - قال حاغور موسى، وفي الحال رأى سدنة المدافع مجموعة من الفرسان الفلاحين قادمة من ورائهم فترك الجنود المدافع والعربات وتدافعوا نحو الباب. - هذه مأساة العمل في أرض غريبة: الأرض مستعارة، والماء مرّ.

تجاوز الفرسان الفلاحون العربات فعرف الترك أن لا خطر عليهم فعادوا إلى عتادهم، ودخلوا القلعة.

...

الحياة في داخل المدينة هادئة بخلاف خارجها. بيت قائد القلعة آمن ومنعش وأنيق. لا تُسمع فيها إلا كلمة لطيفة. وعلى المائدة تأتي وتروح أطيب أنواع الماكل. وطوال هذه المدة لم يلمح القائد التركي لشباكوه بسبب استدعائه. يدنو إلى مراده من بعيد، ويتكلم إلى ضيفه كأنه لم يكن قائد المجموعة التي هدمت القلعة.

- حقاً لا نتكلم لغة واحدة، - قال القائد التركي، - ولكننا نمارس شعائر الإسلام معاً. هذا قضاء الله، ليس لنا أن نبذل فيه شيئاً. إذا اتفقنا على تنفيذ أوامر الله فلن نستطيع أي كافر أن يتدخل بيننا. الأديغة والترك يعيشون في سلام. يتقاسمون اللقمة. ويجد أحدهم عند الآخر ما ليس عنده. صرنا أهلاً وأقارب بأمر الله العلي العظيم. والجنرال جانقل، صهر الأديغة تعرفه؟

- لم يكن بيننا معرفة شخصية إلا أنني سمعت باسمه. - قال شباكوه وابتسم متذكراً أنه افتدى جنوده بالبارود. يقال، ولا أعرف مدى صحة الخبر، أنه أخفق في الشابسغ.

- لم يتصرف بحكمة فأخفق، - قال القائد التركي، وتجاوز الموضوع بسرعة.

- أود أن أسألك أيها الضيف في موضوع؛ أنت واحد من المعروفين لا في الشابسغ وحدها، بل في كل الأديغة: ما رأيك في البجدوغ؟
- والله لا أعرف إن كنت معروفاً في إقليم الأديغة. - فكّر في سبب السؤال عن البجدوغ، - وماذا سيكون رأيي في البجدوغ؟ يعملون من أجل لقمة العيش. الفلاحون أظافرهم العشر في الأرض. يمضي العام وظهورهم محنية، ويأتي عام جديد. أما الأمراء - النبلاء فوضّعهم مختلف. أظافرهم وردية، وجوههم بيضاء مغسولة بالحليب. مخازنهم مملأى بالحبوب. والبرية تضيق عن قطعانهم.
- يقال، على ذمة الراوي، أن الأمير باتجري، شقيق الأمير الكبير، يتردد على الضفة الأخرى لنهر بشزه.
- إذا قيل فالقائل يجب أن يعرف. أنا لا أعلم لدي. - فهم شباكوه إلّام يرمي المضيف بكلامه، - نحن لا نتدخل في شؤون البجدوغ. نعيش في سلام بتوجيهات من مؤتمراتنا. نعيش كأفراد عرق واحد.
- كان الأفضل أن يخفف البجدوغ من مخالطة الكفار. مهما كانوا فهم أعداؤنا. وبيننا حرب. إن غدروا بهم واحتلوا أرضهم فلن نستطيع مساعدتهم. كنت أود أن أفهم هذا للأمراء - النبلاء وللأدجين. سمعنا أن الجنرال غودوفيتش مختار كيف يتوغل في أرض الأديغة، ويعبر أرض البجدوغ والشابسغ، ويصل إلى هنا. أنا واثق من أن الشابسغ لن يسمحوا لهم بدخول أرضهم، غير أنني لا أعرف موقف البجدوغ. لو حدث هذا لشنّ الروس حرباً على تركيا بالإضافة إلى الأديغة. الشيشان هم من يجتريحون البطولات. شنوا على الكفار غزوة بقيادة منصور وُشورما، والقبرتاي معهم.
- هل وقف القبرتاي في وجه القيصر؟ - لم يسع وستقوه إلا أن يستغرب، والتفت إلى شباكوه، - والله هذا الكلام عجيب!..
- ليس القبرتاي وحدهم، - ابتسم القائد التركي وقد أصاب الهدف تماماً، - بل وقفت أعراق أخرى تحت راية جهاد منصور. وهل نحن مسلمون عبثاً؟! -
- لم يكن شباكوه راغباً في مزيد من الجلوس إلى القائد التركي. ولما نظر من

النافذة يبحث عن حجة للمغادرة رأى الشمس القانية تستقر فوق البحر. وفي الحال قال شباكوه إن وُضِعَ الترك في الحرب ليس بخير. هم عاجزون عن الانتصار فيبحثون عن حلفاء. يريدون زَجْنَا في الحرب بحجة الغزو. زعمت أنك دعوتني لمجرد التعارف أيها الخبيث، غير أنك أبلغتني ما تريد مما في نفسك. هذا شأننا نحن، أما أنت فقد عملت ما عليك.

- الليل اقترب، بيتك عامر، أمامنا طريق طويل. - قال شباكوه فنهض رفاقه الذين كانوا ينتظرون هذه الكلمة.

خرج القائد الكبير يريد توديع الضيوف وفقاً لتقاليد الأدبغة إلى الباب الكبير للقلعة، فاستغرب حين رأى الفرسان الأدبغة واقفين منذ بعد الظهر، كأنه لا علم لديه:

- لا أعرف، ولكن مئة فارس بانتظار ضيوفي!..

- أيّ جمع كبير من الفرسان هذا؟ - شباكوه الذي لم يكن يعرف شيئاً عن الأمر هو من استغرب. ثم فهم الآن فحسب لماذا أُسْتُدْعِي القائد التركي بضع مرات إلى خارج الغرفة، ولماذا كانوا يدخلون فيستشيرونه. - والله يا باشا لم أعرف أن عندي مثل هذا العدد من الرفاق... عيب أن ينتظر هذا العدد كأنهم لا يثقون بالمضيف. وكأن جماعة حاغور جاؤوا من باستوك البعيدة؟ والفلح خورم بينهم!..

-6-

- نحن من لا ينفك الجميع عن اتحاننا، أصابهم الله بالطاعون! - نظرت داريت من مجلسها على مسطبة البيت فرأت تحخوخوه نفافه، فأسمعت شائمه، - هات أسمعنا ما فعلنا بأهل هذه القرية! إن حدث خير فيها تبناه عدد من الفلاحين المشاغبين، وإن حدث مكروه ألصقوه بنا. ألا يقتنع الفلاحون أكلة الخبز بأن يجدوا كسرة خبز، كالغراب وجد عيناً فطلب حاجباً. لماذا يتدخلون في ما لا يعينهم، هؤلاء المشاكسون؟

بدأت داريت هذا العام تشعر بتقدمها في العمر بالقياس إلى الأعوام الماضية. لم

تعد متوَّبة القلب، مولَّعة بتبديل الأثواب. وصارت تتكاسل عن تغييرها وإن كانت تبدل أغطية الرأس الجميلة الملونة بضع مرات في اليوم. وداريت التي كانت تحتج: "وهل أنا كبيرة في العمر فيقال إني عجوز!" بلغت هذا الربيع عامها الثاني والستين. في صباح يوم ربيعي نظرت إلى وجهها في المرآة، وبعدما جلست مدة تفقدت الشعرات البيض في رأسها، والتجاعيد تحت عينيها، معتبرة إياها عيباً، بكت حالها بصمتٍ، يائسة مما وصلت إليه، آسفة على شبابها الذي لم تسعد فيه كما تريد. ومن ساهم في حزنها دون رحمة هو أباته قازجري. كانت رأت في اليوم السابع من عرس باتجري في البجدوغ، الرجل الذي كان يوماً ما وسيماً، ضخماً كالفيل، قد وخط المشيب رأسه، وتهدل جسده من الكبير.

- لماذا تبكين يا أمنا ولما يطلع الفجر؟ - لام علي سلطان أمه، - ارتاحي واطمئني، اطلي طعاماً طيباً يعجبك. هؤلاء الفلاحون الذين تأسين لحالم إلى هذا الحد لن يشكروك يوماً مهما قدّمت إليهم. أنا اختبرت هذا بنفسي. الإخوة حاغور التسعة، وقد قدّمنا لهم ما قدّمنا، لم يقرّ معروفاً منهم إلا واحد. - تقول هذا ولكني غير واثق من بداد. كيف يمكن أن يختلف عن إخوته الثمانية؟!

- لا يا أمنا، لا تحكمي على بداد بهذا... من لا أثق به، إن كنت تودين أن تعرني، هو تحخوخوه الذي يظل ينظر من تحت جبينه. أحياناً تفزعني عقده اللطيفة المظهر. يُخيّل إليّ أنه يعرف قاتل والدنا ولكنه لا يبوح بسرّه. هو فوق كل الخبثاء غير الظاهرين في الشابسغ.

لام شرلاًقوه علي سلطان أمه على احتجاجاتها التي لا تنتهي، ولكنه اندمج في هذا الاحتجاج في غمرة الحديث. ليس قليلاً ما يعتمل في القلب. يحدث في الشابسغ كل يوم مشكلات تتعلق بالمتنفذين. الفلاحون يرفعون رؤوسهم خلافاً لأيام الأجداد. متى تضامنت مجموعة منهم حققوا هدفهم. ويستطيعون فرض آرائهم على من يرفضون. الترك الذين يشنون الحرب الثانية على روسيا لم تعد أمورهم نافذة في الإقليم كما في السابق. تركيا تنتقل من هنا إلى هناك بقصد

حمل الفلاحين على التحالف معها. لا ينجحون في الناختوي والشابسغ لأنهم بين نازي المتنفذين والفلاحين. شعر المتنفذون بالغضاضة، وعلى دمهم من استضافة القائد التركي لشباكوه. ولما صارحوه عاب عليهم موقفهم محتجاً بأنه ليس ممن يكتمون مثل هذا السلوك. وكلّ يستغل التخويف من اقتحام الجيش الروسي لأرض الأديجة. لا شيء يبعث على القلق كترقب المستقبل، ليس كالذي مضى وانتهى. حقاً لم تصل الحرب الثانية بين تركيا وروسيا إلى بلاد الأديجة ولكن لهما يصل إليها عبر مواضع كثيرة. علي سلطان مهموم لأنه لا يعرف ما ينتظره. وهذا هو السبب في طرح هذا الموضوع على غفلة منه.

- ألم تجد موضوعاً تتكلم فيه إلا موضوع تحخوخوه؟ لا أريد أن أرى هذا الذي تفوح منه رائحة التيوس. ماذا سيعرف من مقتل والدك؟.. - ربما قضى على يد واحد من الخبثاء مثل مستته أرسى... - رأت داريت الفرسان الثلاثة الذين يلتفون على ضفة نهر إيل فقطعت حديثها، - من هؤلاء الفرسان يا ترى؟ وماذا يريدون منذ الفجر؟ كأن الأوسط فيهم هو النبيل قريب الأفندي أكجكوه؟ هو بعينه، لماذا يأتون إلينا؟

- والله هو النبيل موزج، - عرف علي سلطان الفرسان فنهض، - سأدعوهم، لا يجوز أن يتجاوزوا سور دارنا وأنا أراهم. هؤلاء جاؤوا من ينجج البعيدة. - اجلس يا ولد، إن كانوا بحاجةتنا وقفوا عند باب دارنا. ثم إن هؤلاء لا ينوون خيراً.

- من أين تعرفين - استمع علي سلطان خجلاً إلى أمه فأدار ظهره للفرسان. - أظنه آتياً ليسترد أخته الصغيرة من آل أكجكوه. - تجاوز الفرسان باب الدار وعبروا ورؤوسهم تكاد تظهر من وراء السور العالي. - ألم أقل لك إن هؤلاء ليس عندهم روح الأديجة؟ إذا كان النبلاء لا ينزلون عند المتنفذين، يتخذونهم مضيفين فمن في باستوك جدير بأن ينزلوا عنده؟! مصيبتهم في صهرهم تخضُّهم. لا تريد أن ينزل هؤلاء عندك. سيتسببون في كثير من الإهانات. وإن أرسل إليك الأفندي أكجكوه فلن تلي الدعوة. غاب ولدهم القبيح من وجهنا وارتخنا. هذا الذي لا يساوي شيئاً كان ينوي تلطيخ سمعة

أُسرَتنا.

قالت داريت: "لا تريد أن ينزلوا ضيوفاً عندك" ولكن الضيوف القادمين من ينجج لم يولوا علي سلطان أهمية. تأثر بتجاهلهم بوابة مضافته، فآل شراً قوه، مهما قيل عنهم، من الأسر المتنفةذة في الشابسغ. يكفي ما فعلوا إهانَةً؛ سيعيب عليهم من رأوا ومن سمعوا. إذا كان النبلاء يفعلون هذا فماذا يمكن أن يفعل بك الفلاحون مستقبلاً؟ سيثور الليلة جدال كبير في القرية. اسودّت داريت من الأفكار المتلاطمة. وأظلم الصباح الصيفي اللطيف. والفكرة نفسها هي التي هاجت في رأس علي سلطان. ولكنه استطاع أن يضبط سلوكه، فقال لأمه:

- أي نبالة لهذا الذي مرّ. ربما لم يكتمل عدد نبلاء ينجج فأضافوه تكميلاً للعدد. من هؤلاء الذين يرطنون بلهجة القبرتاي!.. كان الأفضل له أن يبحث في روث حصانه عن شيء يأكله من أن يمر بأرضي ولا يلقي التحية. من لا يخذلونك في البجدوغ على علمي هم الأمراء - النبلاء. وعدنا بالتجري أن يزورنا غداً أو بعد غد. هؤلاء أنوي أن أسافر معهم رحلة أمراء - نبلاء.

- حسناً تفعل. امش معهم يا ولدي امش. على الأقل تريح عينيك من منظر الفلاحين، وترتاح. كادت الأشغال التي لا تنتهي تذهب بعقلك... اسمع يا ولد، بالله عليك أرسل وراء حاغور بداد:

- لماذا؟

- أحتاجه.

- ألا يمكن أن تقولي؟

- لن أرتاح ما لم أعرف أين توجه الفرسان البسلني.

- أين يذهبون إن لم يكن عند قريبهم؟

- هؤلاء لا يبدو أنهم ذاهبون إلى بيت أكجكوه. يا لرُعبي، حمانا الله، لا أحسدكم. عرفت يا حسرتي أن هذا سيحدث. سنرى ماذا يقول الأفندي أكجكوه. يعادينا خفيةً.

- والله أنا بريء يا أمنا من ابن أكجكوه العنيد هذا. كنت أريد الوصول إليه،

ولكن صدر حصاني لم يمسه. إلى الآن لا أعرف من الذي صدمه بصدر حصانه. اتهموا بداد ولكن لم أره بأمر عيني. وكيف ترى وقد كان زهاء خمسين فارساً يحرثون الأرض فوق رأسه؟! الأفندي لا يفهم هذا ولكن الحقيقة هي أن الفلاحين أنفسهم هم الذين سحقوه.

- ولماذا لم تقل هذا للأفندي إذن؟

- أخبرته، ورأى بعينه.

- ربما هذا السبب في أنه صمّت دون ضجيج... عديم الإيمان هذا كم طلبت منه أن ينتبه إلى ابنه!.. لم يشتر كلامي بكويك واحد. ولم يُساوِني بطرف ظفروه. وخُ، يا شماتي فيه، حدث له ما يستحقه. انظر إلى المتعطر الثرثار حين يسترجعون الكنة؛ ألن يصبح تابعاً ذليلاً لنا، حبلنا في عنقه؟ ليس في العالم من هو أسرع يأساً منه. ليس هذا مشكلة، عند من نزل الفرسان البسلي ضيوفاً غيرنا؟..

تبيّنت صحة ما كانت داريت تتوجس منه: السبب في مجيء النبيل موزج هو استرجاع أخته لاسا من بيت أكجكوه بعد مُضيّ عام على وفاة صهرهم.

لم يكن عدم توقف موزج عند شرّاقوه اعتباطاً. لم ير من اللائق قضاء ليلة في مضافة من تسبب في وفاة صهره. مرّ من أمام باب دارهم ليفهمهم، وإن لم ينظر إليهم كأعداء، واختار أشد الفلاحين عداء له لينزل عنده.

أقام الضيوف إلى ما بعد الظهر لا يُفصّحون عن مرادهم، تكلموا على أخبار الشابسغ وينجج. وكان أشد ما يشغل بالهم الحرب الروسية التركية. لا يعرفون إن كان شررها سيتطاير إلى إقليم الأديغة. ووصل الحديث إلى الفلاحين الذين ثاروا في الشيشان. وتكلموا على إخفاق منصور وُشورما الذي عاد إلى أنابه قبل وقت قصير. ولما وصل الحديث إلى نزول منصور في بلاد الأديغة ليحالف الفلاحين بالترك ويحاربوا الروس، وإلى ما يمارس من "غيبات"، قال حاغور موسى:

- منصور يقيم عبثاً في بلاد الأديغة، يحرق رأسه بالعمامة التي يرتديها. يطلب منهم نقله على مدفع مربوط إلى حصان. لا يتأمل أن يتحقق له في بلد الأديغة

ما أخفق فيه في الشيشان!

- والله لم ينجح في ينجح والقبترائي. طردوه قائلين له: ماذا تريد؟ ليس هذا مشكلة، المشكلة ما جئتُ إلى هنا لأجله. ماذا ستفعل هنا في باستوك أختنا؟ إن عادت إلينا، إلى أرض أجدادها، فستكون الحياة أسهل عليها...

- ما سألت عنه يا موزج أمر صعب، - قال حاغور موسى مستثقالاً ما سمع، - لا أعرف ما أقول لك بهذا الخصوص. موقف أختك لاسا، أهم من موقفنا، رأيها فوق الجميع. إن قابلتها وكلمتها عرفت كيف تتصرف. ولكن لا أتصور أن أنزور، دُعك من مريم، سيتحمل هذا. وليس وحده، بل الأسرة كلها. أختك متألّفة معهم جداً.

ما إن أنهى حاغور موسى الكلام الذي بدأ به، وقبل أن يجد الضيوف الفرصة للتعليق عليه بآرائهم، حتى نادوا المضيف من خلل الباب واستدعوه إلى الخارج. وكما خرج عاد موسى سريعاً ووراءه لاسا بملابس الحداد السوداء. وحالما رأى الرجال المرأة نهضوا جميعهم.

- تفضلوا، تفضلوا، - قالت لاسا والحزن باد على صوتها، وانتظرت حتى جلس من نهضوا لها. ثم توجهت إلى أخيها بالعتاب. - ماذا يا موزج؟ ألسْتُ أعيش في أسرة، ولي نسبي فيها؟! لا يفعل أحدٌ مثل هذا. أعرف سبب مجيئك فأقول لك: لن أهجّر الأسرة التي كان نصيبي فيها وأرحلَ إلى مكان آخر... نقضتم روح الأدبغة فجئتم إلينا، بلغوا سلامي إلى والدنا. وإن رفضت فقد انتهت أخوتنا، وأنا عائدة.

-7-

بعد أن ودعوا الضيوف القادمين من ينجح حسب التقاليد إلى حدود منطقة الأبراخ، عرّج حاغور وتحوّخوه إلى دكاباه ليستغلا هذه الفرصة ولا يعودا دون مقابلة سليم وتامبر. ومنذ وقت طويل لم يدخل بيت نكراس ميشكا. سيقضيان بضع ساعات، دون أن يبيتا ليلتهما، ويتحدثان إلى المعارف، ويطلعان على أخبار الأبراخ. كان الفلاحان ينويان هذا، ولكن تبين أن من

ذهبا إليهما ليسا في القرية.

- ألم تلاقوهما في الطريق؟ استقبلتهما سيسار بالترحيب، وسألتهما بعد ما دعتهما إلى الدخول.

- من سنلاقي؟ سألها حاغور.

- قبل قليل انطلق هو وميشكا إلى جَعْف.

- وماذا في جَعْف؟

- سمعا أن بعض الأتراك جاؤوا من بَعْر لتطويع الفلاحين الأديغة في الجيش التركي فركبا. وسليم معهما. وتبعهم عدد من الفلاحين الفرسان.

- لا بأس إذن. كنا ارتعبنا حين أخبرتنا أنهما ركبا بسبب مرض نارج.

- نارج تعافى بفضل الله. كان ميشكا في نواحي جعف قبل أيام فحمل إلينا الخبر السار.

حين ارتقيا ظهر شِبَعَه رأيا من بعيد، على الطرف المقابل لمستنقع القصب، الجيش الذي كان يقطر المدافع، قال تحخوخوه: ربما هذا هو الذي قيل إنه جيش الترك الذي جاء إلى جعف. لا شغل لهم إلا هذا منذ تدهورت أوضاعهم الحربية في ربيع العام الماضي. وليس من يخدعونهم قلائل، ولكن من يرفضون قطعاً أكثر. عدّ تحخوخوه الجنود فرداً فرداً وهم يلتفون حول مستنقع القصب: كانوا مئة وستين فارساً. وأعجب ما معهم المدفعان اللذان يقطرونهما. ابتسم حاغور وصاحبه قائلين إن الترك يستعرضون قوتهم.

- تعال يا نفافؤه، - قال حاغور، - نحن أيضاً سنذهب إلى حيث ذهب الأصدقاء. ونمر على نارج. ما أخبار زوجة ميشكا يا سيسار؟

- بخير وعافية. انسجمت معنا ليزا جيداً. تربي وتعمل، وأبناء حيّهما راضون عنها. حياكما الله، سأقل تحياتكما بكل سرور. وهي تظل تذكركم دائماً.

وصل حاغور ورفيقه إلى مرتفع جعف قبيل العصر ولكن جانب القرية كان هادئاً. ولما التقيا حول الجدار الصخري العالي وهما يدوران حول مخج الغابة دون أن ينزلا منحدر التبة، سمعا ضجة. ولما انعطفا رأيا قرابة مئتي فارس متجمعين على طريق التبة.

ظهر الترك في الجهة التي تتجه إليها أنظار الأبراخ خارجين من المضيق الجبلي، متجهين إلى مرتفع الشابسغ. وحتى لا يقفا بمفردهما، ودون أن ينتظرا العثور على أصدقاء، وقفا إلى الجانب الأقرب من الفرسان. وبعد قليل سأل تحوخوه الفارس الذي بجانبه:

- ما الذي يشغل بالكم يا زعيم الخير؟

- بفضل الله ليس عندنا إلى الآن ما يشغلنا. - أجاب الفلاح الأبراخ المتقدم في العمر دون أن ينقطع عن المراقبة. ثم التفت إلى الفارسين اللذين وقفا إلى جانبه كأنه أخطأ في معلومة ما، - اعتاد هؤلاء الأتراك ذوو السراويل العريضة الذين يقطرون المدافع على التوغل في أرضنا، فتجمعنا وأبلغناهم ما في نفوسنا. ، يطلبون منا أن نقف إلى جانبهم في الحرب لأنهم لا يجدون من يخدعونهم. وأنتم من أين تأتيان؟ أنتم ضيفان. تفضّلاً!

- نحن لا نأتي من بعيد. - أجاب حاغور، - نحن من الشابسغ. كنا عائدتين من توديع الضيوف فقيل لنا إن هناك ما يُقلق في ناحية جعف، فجننا. نحن أيضاً نعرف أن هذا الحشد الكبير ليست نواياهم حسنة. كانوا في نواحينا يوزعون أقمشة القمصان والبناطيل.

- وما رأي فلاحي الشابسغ إذن؟

- لم يعدوهم بالوقوف تحت علمهم وإن لم يجرؤوا كالأبراخ على أن يطلبوا منهم عدم التوغل في أرضهم. يقال إن المتنفذين، ونخبة الفلاحين، وقليلاً من الفلاحين الذين لا يملكون خيولاً وقفوا إلى جانبهم.

- ونحن عندنا أمثال هؤلاء. لا يمكن إلا أن يخدعك المال. ألم يأتكم إذن أيها الشابسغ منصور وشورما الشيشاني يعظكم باسم موفد الله؟

- سمعنا باسمه، ولكن لم نره إلى الآن.

- في الليل نزل حاغور وصاحبه ضيفين على نارج، وعادا في اليوم التالي قبل الظهر إلى باستوك. لم يفارق منظر الفرسان الأبراخ مخيلة تحوخوه في الطريق، ولما استأنف أعمال الصيف. كان يغبطهم قائلاً إنهم يتمتعون بالوحدة والرجولة. ولم يكن يفوت جمعة دون أن يأتي على ذكرهم.

- لماذا يجزّ أباته قازجري برأسه المتناول منصور وشورما الذي لم يحترمه
الناخوي والويخ إلى باستوك؟ لم يُعجب الخبر الذي سمعه الفلاح مشوّست.
- لا أظنه جاء به دون علم علي سلطان. - قال أحد الواقفين. - لا حديث
له أينما ذهب إلا منصور، ملقّباً بإيه بالنبي.
وفي الحال سُمع من الحي المقابل للورشة صوت المنادي. وفي الحي الآخر لم
يتأخر الصوت:

- أيتها القرية، أيها الحيّ، غداً في يوم الجمعة، - كرر المنادي ما قاله،
- جهّزوا أنفسكم لسباق الخيل الكبير، واحضروه. السباق ينظمه شرلأقوه على
شرف منصور وشورما. والجائزة ثلاثة أحصنة بتجهيزاتها. تعالوا يا أهل القرية!..
- والله آل شرلأقوه لا ييخلون بشيء. - استغرب الحداد بترز. - لا أعرف ما
هو الحدث المهم، ربما ليست الخيول من أملاكهم. سنرى ما يجري غداً...
انتهى سباق الخيل في باستوك قبل الظهر. ومُنح الثلاثة الأوائل الخيول الثلاثة
كما أعلن المنادون أمس. وكان بينهم الفلاح أربي.
- أيتها الجماعة، - خرج أكجكوه أنزور من بين المتنفذين ونادى، - اهدؤوا
قليلاً!.. يبلغكم علي سلطان تهانیه للرابحين. بارك الله لكم فيها. وجعل الفرس
مئة. والآن يود ضيفنا منصور وشورما أن يوجّه إليكم بضع كلمات. دعونا
نستمع إليه بصبر وأدب. إنه واحد من رجالات الشيشان. وهو موفد النبي
محمد...

- أمن أجل هذا خصصوا ثلاث أفراس للسباق على أنها لآل شرلأقوه؟ - لم
يملك حاغور إلا أن يسأل تحخوخوه.
- اسكت لحظة يا حاغور، - قال تحخوخوه، - سأريك الفرس التي زعم
أكجكوه أنها ستنتج مئة فرس... لا يظنّ هؤلاء أننا سنُدجّ حتى لنشرب الماء
من أنوفنا!.. لسنا أغبياء إلى هذا الحدّ.

قبل أن يجد حاغور موسى الفرصة ليسأل صديقه عما سيفعل، خرج منصور
وشورما نصف خطوة من بين صحبه، وبدأ كلمته بصوت هادئ:
- أيها المسلمون الذين جاؤوا اليوم إلى السباق، والذين هم في حماية الله،

ليحفظ الله الأحد القبلة أمامكم. لِيُقَنَّ الكفار الذين شنوا الحرب على المسلمين حتى لا يبقى منهم من يترك وراءه ذريرة!.. وليجعل الله الكفار الذين يستعدون لعبور النهر وقوداً لجهنم. ولا يكفي هذا فليقف أمامه الأديغة كلهم. قفوا جميعاً، يا مَنْ تدينون بالإسلام تحت راية الجهاد الإسلامي. سيُفتح باب الجنة لمن يريق دم كافراً!.

- يا منصور وُشورما الشيشاني، - خرج تحخوخوه نباؤه من بين الفلاحين،
- الأجل أن تقول لنا هذا خصصت الخيل التي اشتراها شراً لقوه بمال الأتراك
جوائز للسباق؟

- أيها الفلاح تحخوخوه، - استعجل الأفندي أكجكوه، - أيّ إهانة توجهها
للضيف؟ اتَّقِ الله، ولا تنطق بما لا يجوز!

- لا أتكلم على ما لا أعرف أيها الأفندي أكجكوه!.. رأيت بعيني وسمعت
بأذني النقود التي جرى تبادلها في المضافة. وإن لم تصدّقوا أيتها القرية فأنا أقسم
باسم الشمس العظيمة. إن بقيت عندك رجولة ما فأخبر القرية بالحقيقة، لا
تكتمها!..

ضحّ الفلاحون. ومن كانوا بعيدين عن الساحة ولم يسمعو جيداً اقتربوا. وبدؤوا
يدفعون بصدورهم ويتجهون نحو المتنفذين. وفي الحال تَوَاجَه الطرفان حقيقةً.
- هل نحن ممن يُغمضون عيونهم عن الحقيقة بالرشوة إن كنت واعظاً؟ - صاح
حاغور موسى في الحشد الذي صمت، - متى جائب الفلاح تحخوخوه
الحقيقة؟ بلِّغ يا ضيف من أرسلوك أن فلاحي باستوك لن يقفوا تحت راية
الجهاد!..

- لماذا نحن واقفون نتأمل وجوه المتنفذين الذين لا شرف لهم؟ - ركب الفلاح
أرسي الذي كسب من السباق.

فهم الضيف القادم، لا شراً لقوه فحسب، أنه لا يجوز الوقوف أكثر من هذا. لم
يكن منصور يرى مثل هذه الغضبنة الفلاحية لأول مرة. الفلاحون هم هم أينما
كانوا، في الشيشان والقبرتاي وينجج.

- تعال، من لا يحترمك لا قيمة لاحترامك له. همس منصور للمضيف علي

سلطان، وتوجه إلى الفلاحين: - أنا جئت ضيفاً إلى آل شرلأقوه يا أهل باستوك، لا لتهيجكم على الحرب. عشتم بخير، سيظهر متى وقفنا أمام الله من الصادق ومن الكاذب. لا يجوز أن تعتب على من يعبر عن اعتقاده وإن أخطأ.

- انصرف الفرسان الكثيرون الملتفون حول منصور من أمام الفلاحين. ولم ينطقوا بكلمة حتى اجتازوا برية القرية. قضى منصور ليلة من الهم في مضافة شرلأقوه حتى لا يقال إنه خاف فهرب. وانصرف إلى أنابه إلى غير رجعة.

الفصل العشرون

-1-

كان شتاء عام 1791 ثقيلاً على الشابسغ جميعهم. استمرت العواصف الثلجية من بداية الشتاء حتى حلول فصل الربيع. احتفظوا بالمواشي في حظائرهم لا يستطيعون إخراجها منها. البرد يستهلك العلف، واستمر لا ثلاثة أشهر فحسب، بل تجاوز الأربعة فوصلت المواشي إلى الربيع بأسوأ حال. ولم يكن الربيع الذي ينتظره الفلاحون باسمًا. المطر البارد الذي لا نهاية له يكتم أنفاس العشب الجديد. الأرض سوداء كاذبة أينما نظرت، لا نية للخضرة لها. والشمس لا تقدر على النظر عبر السحب التي لا نهاية لها فالسما تكاد تلتصق بالأرض كالرصاص الثقيل. يبدأ المطر فيعقبه الثلج الندي.

فقد الفلاحون السيطرة على الماشية المحرومة من العلف، والتي شمت رائحة الربيع. خوار الأبقار يخيم على باستوك فتتألم له القلوب. وأكثر الفلاحين يذبجون الماشية حتى لا تنفق من الجوع. والتي شمت رائحة الدم فقدت الإحساس فتحفر أرض الدار، ويفني بعضها بعضاً.

- أيّ عام نحس أتاناً؟ - قالت داريت وخوار الأبقار منعها من البقاء في الغرفة لا تعرف أين تذهب. تستعجل الماشية على استهلاك القليل من الحشيش المتبقي عندنا. لن يملأ المelf أكثر من مرتين. الأبقار التي ولدت هي التي

تستحق الرعاية يا ولد. والأبقار العاقرة الأخرى كلها سوقوها إلى قلب غابة تحمّز. ستقرض من أغصان الأشجار. ألن يصحو الجو خلال أسبوع؟ وهل نسيّتنا شمسنا؟ انظر، ها هو الثلج رجع من جديد!.. يا إلهي ما أشدّ ما أدركت لنا ظهرك!.. افهمنا وارحمنا. نحن سنؤدي لك كل ما علينا. أدرك وجهك إلينا من جديد!..

نظر علي سلطان عبر النافذة فأوقع الثلج الذي يحجب السماء قلبه في اليأس. - لا فائدة يا أمنا من أن أجلس هكذا مكتوف اليدين. لن أذهب إلى البجدوغ البعيدة من أجل الحشيش، بل إلى جيراننا الوبيخ. وأترجاهم أن يعطونا بضعة أحمال. الجو الذي أراه لن ينفرج قريباً. لا أتذكر أزمة علف كأزمة عامنا هذا.

- ألا تتذكر كيف كان شهر الحشّ في العام الماضي شهراً مطراً؟ ما جمعناه راح سدى. اذهب يا صغيري إلى الوبيخ، كثير منهم يرعون خاطرنا. وآل برزج لن يخذلوك. لا تذهب وحدك؛ اصطحب عدداً من أغنياء الفلاحين. وإلى حينها سأفكر في استرجاع بعض ديوننا من الحشيش. لن أترك من عندهم علفاً ولو كومة من كل واحد منهم. هل يدعون الماشية الكثيرة تنفق تحت أعينهم؛ أليسوا مسلمين؟!

ركب علي سلطان إلى الوبيخ دون إضاعة الوقت. ولم ينفذ توصية أمه باصطحاب عدد من نخبة الفلاحين بل اكتفى بحاغور بداد. وداريت من جهتها بدأت منذ اليوم بمخطتها. تدور على أسر باستوك برفقة عربة ثيران. هناك من يعطيها ولو كومة تخرجاً. ومن يصرفونها أكثر. ومن تستطيع إرهابهم تُرهبهم فتأخذ منهم.

حصلت داريت حين توسلت إلى الظهر دون أن يرفّ لها جفنٌ على ملء عربة. ولم يكن الحشيش وحده مطلوبها: كانت تأخذ منهم أي شيء يعطونها: من التبن، ومن قشّ الذرة الصفراء. وفي اليوم التالي، وفيما تدور في الحَيّ الجديد، وجب عليها المرور بسور بيت تحخوخوه نبالوه الذي ترك الخدمة عندهم منذ العام الماضي.

- انظر إلى كومة الحشيش الكبيرة في دار عديم الإيمان هذا!.. - توقفت داريت مستغربة ما ترى. - ماذا سيفعل بها، ليس عنده إلا الحصان الذي يركبه. وليس عنده أسرة، ولا أولاد... ولو كان الحشيش من أرضه لوجدنا له تبريراً. سرقه من أرض آل شرلأقوه. ظلوا يسرقوننا حتى نفد علف مواشينا. هيا أدخلوا وأخرجوا الكومة كلها!.. ألم أمركم بالتحرك!.. أنا كفيل بهذا الطويل الرقبة، عديم الإيمان.

تبين أن تحخوخوه نفاقه ليس في القرية. كان في البجدوغ هو وموسى حاغور، في زيارة لللاجي. لم يعرف الجيران في البداية سبب ملء العربة بالحشيش. بعضهم ظن أنه بمعرفة تحخوخوه، وبعضهم تظاهر بأنه لا يرى شيئاً حتى لا يفتح باب العدا لآل شرلأقوه.

أسرع الفلاحان أرسى ومشوست اللذان رأيا البوابة الكبيرة لدار شرلأقوه مفتوحة وسمعا بخبر حشيش تحخوخوه، فوقفا في وجه العربة.

- عيب أن تسرقوا حشيش رجل غائب عن بيته يا آل شرلأقوه!.. - ظهر الغضب على صوت مشوست. - عودوا حالاً، وأعيدوا الحمل لصاحبه!

خرجت داريت التي سمعت الضجة من الغرفة ولما تدخل إليها. فاقتربت من الصوت مرتدية فرواً من جلد الخروف الناعم:

- أيّ تجاوز للأدب يجري في دار المتنفيذ!.. - صرخت داريت على الفارسين الفلاحين وهي تعرف ما حصل، ولكنها تعتبر حريتها فوق كل اعتبار - هيا اغربا عن وجهي!.. لماذا اقتحمتما الدار وتوسخاها بروث حصانيكما؟ قل لي إن نسيت ما فعلت بك قبل أعوام يا أرسى. أين البندقية؟ دعوني أرمي هذين اللذين كرها حياتهما!..

- لست ممن ينسون مثل هذا يا لابسة الغطاء المشاكسة!.. اشتعل قلب أرسى الفلاح غضباً حتى ليفكر في أن يصصرها بصدر الحصان. - إن مارست حرية الشر فاعرفي أن غطاء رأسك لن يحميك. ولذا نَقَدُوا كلام الفلاح مشوست!.. - بأيّ وقاحة تتعامل معي دون حياء أو خوف!.. - انطلقت داريت دون وعي جهة أرسى، ثم توقفت. - أما طلبت البندقية؟ - هُرِعت إلى البيت

وجاءت بمسدسين بدلاً من البندقية. أما أمرتكما بالانصراف؟ اخرجنا من دار المتنفس!.. هل أنتما من سيربياننا؟.. إن وصلتما إلى هذا فسأحرمكما من الحياة ومن الحشيش معاً.

أسرعت داريت إلى عربة الحشيش وأطلقت عليها النار من المسدسين. انبعث الدخان من قلب العربة. ثم لسان اللهب من الموضعين. أمسكت داريت وقد غلبها الغضب بزمَام أقرب الفارسيين إليها مشوس، وشهرت المسدس الفارغ وهي لا تدري على الرجل:

- خذ أنت أيضاً يا أكل الخبز!.. لا تأكله ناشفاً؛ بل مع رصاصتي!

طار المسدس من يد داريت بضربة من سوط مشوس. ورماها الحصان الذي اقترب منها إلى الجانب متعثرة. وقبل أن تستطيع النهوض وقع على ظهرها بضعة سياط.

الثوران الجافلان اللذان اشتعلت نار مجنونة فوقهما نثرا هنا وهناك الحشيش المحترق. وأسقطا مخازن الحبوب. وجريا نحو الحظائر. وارتمى اللهب على مخزونات الحبوب. وتحولت النار إلى جهة إسطبلات الخيول فسُمعت حمحماتها. وهربت الخيول المذعورة من باب مخلوع لا تكاد ترى ما أمامها. وصدر من الحظائر التي من جهة نهر إيل خوار الأبقار والثيران.

- والله نحترق، ننتكب!- صرخت داريت تلطم فخذيها، شاردة عن السياط التي تلقتها- النجدة، النجدة! الفلاحون أحرقونا بلا ذنب!..

- لم يجر لك ما لا تستحقين!- قال أحد الفلاحين الذين جاؤوا للنجدة وهو يرى البيت يحترق،- أنت أشعلت النار بيديك!

استمرت النار التي اشتعلت قبل العصر إلى العشاء في دار شرلأقوه. وطوال هذا الوقت قامت أسرة شرلأقوه على خدمة داريت التي أشعلت النار، ثم أغمي عليها. لم تكن الأسرة تعرف، بغياب علي سلطان، ما ستفعل إزاء الفلاحين اللذين كانا في موقف عدائي. كان بينهم من يقترح إشعال النار في بيتهما، ومنهم من لا يقبل صب الزيت على النار. ولكن الجميع اتفقوا على عمل واحد الليلة: أرسلوا فارساً يبلغ آل ناورز وآل أباته.

لم ينتظر الفلاحون مكتوفي الأيدي ما سيقدر المتنفذون. عاد حاغور وتحخوخوه في منتصف الليل، فأخبروها بما حدث البارحة في باستوك.

- ليس الموضوع كومة الحشيش التي شُحنت من دار تحخوخوه، - قال حاغور موسى، - بل افتقار الفلاحين إلى الحرية. لسنا وحدنا من نتلقى منهم الإهانة. يفعلون الأمر نفسه بالفلاحين في البجدوغ والجمكوي والأبزاخ والقبرتاي والبسلني. إذا كان المتنفذون بشراً فنحن بشرٌ أيضاً مثلهم تماماً. لن نتعامل بإنسانية مع من لا يتعامل بها معنا. ولا يتأملوا منا أن نعاملهم بها!..

- أمس أهانني آل شزلأقوه، - وافق تحخوخوه صديقه، - فساندني الفلاحان أرسى ومشوست. كلام حاغور صحيح. لا نتعامل بإنسانية مع من يفتقر إليها. علينا، نحن الفلاحين، أن نتكاتف ونقف صفاً واحداً. لن يغفر آل شزلأقوه لأحد ما جرى لهم. سترون إن لم يتحركوا الليلة. نحن لم نهاجم أحداً ما لم يهاجمنا. متنفذو الشابسغ يشدون أزرهم بأترك أنابه، ولكن الأخيرين مشغولون بالحرب، لا يمكن أن ينفعوك بشيء. كان الجنرال غودوفيتش رجا البجدوغ أن يسمح لهم بعبور النهر للهجوم على أنابه، سمعنا أنهم كانوا مجتمعين في طوابقه لمناقشة الوضع. وجماعة شباكوه وعدوا بالسماح لهم بالعبور دون اعتراض. سنرى لاحقاً من أين سيأتي من يقفون إلى جانب متنفذي الشابسغ!..

سمع الفلاحون في باستوك الخبر السيء الذي وصل إلى علي سلطان العائد من الوبيخ قبل أن يجد الفرصة للعودة إلى وعيه: هبّ الناس الذين سمعوا أن التجارين اللذين استضافوهما في القرية سرقهما شزلأقوه فشعروا بالعار. رأى آل شزلأقوه الفلاحين يقصدون دارهم فرساناً وراجلة، فحملوا أنفسهم وهربوا من القرية.

لم يكن آل شزلأقوه قد وصلوا بعدُ إلى طريق مرتفع البجدوغ حين افتتح حاغور موسى على ضفة نهر إيل مؤتمراً للفلاحين يدعو إلى منع عودتهم إلى باستوك.

لا يعرف حاغور موسى راحة. وليس وحده، بل معه تحخوخوه نبافؤه وشعبان والأفندي مشوست بديل أكجكوه أنزور. قبل أن يجدوا الفرصة لحل القضايا الطارئة تظهر قضية جديدة. ولا يكفي الحل فإن لم تجد طريقة صحيحة للحل فكل فكرة تلد فكرة جديدة. واليوم الجديد يحمل إليك مشكلة جديدة تصدع الرأس.

أيام حاغور موسى الجديدة ليست كأيامه السابقة. قضى سنواته الماضية بين العمل العضلي وتقرعات داريت. ومهما كانت ثقيلة، فهي لا تعادل يوماً من الحاضر. وما يصعب العمل هو الجهل. يقال إنك ماهر في ما تعرف كثيره، ولكنه كان جاهلاً بالمهام الجديدة؛ من يستشير؟ من يفكر في سؤالهم لا يختلفون عنه. ما جرى لآل شرلأقوه جرى لآل ناورز ولآل زانه ولآل أباته ولآل شُكُش. ما العمل بما تركوا من أملاك؟ كيف تُطَوِّعُ الفلاحين الذين أوقدوا نار الأحداث؟ يصير ثلاثة على تقاسم الخروف الواحد. أراضى الفلاحة ليست مشكلة يمكن تقسيمها، ولكن المواشي الكبيرة؟ والمواشي الصغيرة؟ هذا يطلب بكرة مع عجلها، والآخر يطلب بكرة لم تلد...

- ماذا سنفعل يا موسى بالماشية؟ - سأل تحخوخوه فصحا حاغور من تفكيره.

- لن نقرر شيئاً قبل أن نعثر على ما تُرك في الدور. - ينهض حاغور من جدار السور حيث يتشمس إلى حصانه. - متى وجدنا الماشية مجهولة المالك التي في دار حاغور بداد، ومستنه أرسى فسنفعل بها ما فعلنا بماشية آل ناورز وآل أباته. سنوزعها على الأسر. سنعطي الأبقار الحلوب للأرامل ولمن عندهم أطفال. والباقي بالتساوي. تعال يا صبح، يا أخي الصغير، نزر كبيرنا، كما كتب الله علينا، نسترجع من داره ما ضمه إليه من الخراف. وأنت يا نبافؤه اصحب بترز شعبان وعد بالخليل التي حشدها أرسى في داره. لا تتركوه مهما قال. ليست الماشية ملك شخص واحد بل ملك لكل سكان باستوك.

- وما حشده حنانا في داره؟ سأل أحد الفلاحين.

- لم يبق شيء في دار حنانا، - قال أحد رعاة الماشية، - أعادها هذا الصباح. والخروف الذي اعتنى به مساء أمس أعاده مع جلده. قال إن قرار مجلس القرية أمرٌ له.

- وهل كان امتنع عن إعادته لولا قرار مجلس القرية؟ - خرج بترز شعبان بكل ضخامته باسمًا من بين أصحابه.

ما إن انصرف الفرسان حتى خرج حنانا من وراء السور مستعجلاً، شاعراً بأنه يُحرم من شيء ما، وقبل أن يصل سأل:

- إلى أين تذهب جماعة حاغور؟

- إلى بيت بداد لاسترجاع مواشٍ.

- ها! - رفع حنانا حاجبيه الخفيفين: - سيذهبان ولكن سيعودان كما ذهبا... تخطفون إن تصورتُم بداد مجنوناً مثل حنانا. والله ما يجري عجيبٌ. سأذهب وأسأل. من يا ولد صاحب هذا الحصان المُسرَّج؟ هاته لأركبه. حالاً!.. ما تحرمنا منه عجيب!..

لو كان هناك مهرب مما يقوم به موسى اليوم لما فعله. بل ما كان من واجبه أن يفعل. ليس بداد كسائر الفلاحين الذين تكلم معهم. هؤلاء تكلم معهم باسم القرارات التي اتخذها المجلس. أكثرهم لم يعلّق على الموضوع؛ لا يعني أنهم أعادوا الماشية دون اعتراض، ولا أن أحداً منهم لم يجادل أو يغمغم، ما العمل: يقال إن الصراحة مثل قلع العين. تَحْمِل الطرفان صعوبات الحدث الجديد، ولكن بداد وأرسي هما من لم يقبلا قرارات المجلس. لم يكن أرسي ممن يستعصون على الأوامر؛ قال لمن أرسلوهم إليه: "إن لم يُعِد حاغور بداد ما في داره من مواشٍ فأنا لن أفعل". أما بداد فلم يتقبل منهم أي كلام. سافر في اليوم التالي فلم يجد موسى من اللائق استرجاع الماشية من داره في غيابه. واليوم استقبلهم بالشوكة قائلاً: "إن كان من أرسلكم رجالاً فليأت بشخصه إليّ".

كان موسى يعرف هذا، لا حنانا وحده. ولهذا لم يطلب من أحد الفلاحين الركوب، بل من أخيه صبح.

لحق حنانا بالأخوين حين وصلا إلى زريبة بداد.

- ما الأمر يا حنانا؟ هل هناك ما يقلقك؟ - سأل صبح مستاءً من لحاقه بهما.

- كيف أترككما، الأخوين، وحدكما تسترجعان الماشية؟! - قال بداد، ولكن أياً من الأخوين لم يُعره اهتماماً.

- يا بداد! - وقف موسى عند البوابة ونادى من على الحصان.

خرج بداد من الزريبة وكأنه كان في انتظاره، ويده سوط الثيران ملفوفاً على ذراعه. تجاوز أخويه، وقال للفارس الثالث:

- تفضّل يا حنانا، أنت ضيف!

- أنا مع أخويك وإن كنت ضعيفاً... - قلق حنانا على السرج لا يجد تفسيراً لعدم ترجّل أخويه.

- وهل عجيب أنك معهما؟

- يا كبيرنا، - قطع موسى كلام بداد أخيه الأكبر، - جئنا بأمر من المجلس نسترد الماشية الغريبة التي في دارك.

- هذا ما تريدونه؟.. - خرج بداد من باب الدار، واقترب من موسى وأمسك بزمام حصانه: - أليس من تقف أمامه منتصباً أخاك الأكبر يا عديم الشرف؟!

- ساط موسى بسوط الثيران، - هيا ترجّل أمامي حالاً!..

ترجل موسى دون اعتراض أمام أخيه، ولكن حين لم يكفّ سوط بداد عن الحركة، قفز صبح من ظهر الحصان وارتمى أمام من يضرب بلا وعي:

- بداد، أوقف سوطك، لا يكفي كونك الأكبر حجةً.

- انظر يا حنانا إلى من وقف أمامي بشاربين لم يكتملاً. أظن جلدك يحكّك كذلك الخنزير الصغير. خذ أنت أيضاً! يبدأ بجلده أيضاً. لم يتدخل موسى في الضربة الأولى، ولا الثانية. ولما وصل إلى الثالثة اعترض:

- يا كبيرنا اهدأ لحظة! ما جئنا لأجله مسألة تهم القرية، لا مصلحتنا الشخصية. قرارات المجلس أوامر للجميع.

- إذا كان هذا كلامكما يا قليلي الأدب فلن أسمح لكما بإخراج رأس واحد من الماشية!.. ما من حيوان هنا لم أتعب عليه.

- هذا صحيح يا بداد، ما العمل، نحن أيضاً أجبرونا على إعادتها... لا مجال للاعتراض: كما يقول هذان، وكما يقول النظام... - قال حنانا ممسكاً بزمام حصانه بين المؤيد لرفيقه، وغير المؤيد.

- اغربّ عن وجهي أنت الآخر يا حنانا!! - ضربه على وجهه فارتقى حنانا تحت بطن الحصان. تدخل موسى لإنقاذ حنانا الذي تركه الحصان الجافل تحت رحمة بداد، فأسرع وأمسك بيد أخيه.

- يا بداد، لا تتخلق بأخلاق شرلأقوه داريت، ولا تفضّخ نفسك وتفضّحننا في القرية!!.. نحن الأصغرين لن نرد عليك، ولكن رُفّعك السوط على حنانا لن يقبله المجلس، بل نحن أيضاً...

- أما طلبت منك أن تُفْلِت يدي!

- لن أفلتها، - أدار اليد اليمنى مع السوط، أجبر بداد على الركوع على ركبتيه متنهداً.

- اتركني يا أخي، تفضّحنني!!..

- فضحتنا أكثر من هذا في القرية يا أخي الكبير، إصبر!!.. هيا يا صبح وحنانا، اعزلا خمسين خروفاً من القطيع وأخرجاهما من الدار. لا تريدوا خروفاً واحداً ولا تنقصا!!..

- ليست خمسين، بل ثمانية وأربعين.

- بل خمسون، لا أتكلّم عن غير معرفة يا كبير.

- كفي، خمسين، خمسين!!.. تخلع كتفي أيها الشقي!!.. تسلبني ما تركه آل شرلأقوه يا عديم الحياء!

- لست وحدك يا كبير من سفح عرقه على تركة شرلأقوه. تعال، سنقسم غداً أمام القرية. سيعطونك حقلك واضحاً صريحاً...

...

في اليوم نفسه، بدأت، بأمر من حاغور موسى، إعادة تجميع الماشية التي شردتها النار. أكّد عليهم ألا يتركوا رأساً منها، ولا يفكر أحدٌ بإخفاء شيء. وألزم عدداً من الرجال بإعادة ترميم الحظائر المحترقة، والأسوار المتصدعة، وجلب

- ما يلزم من الحطب من الغابة. وأمر على المرمين تحخوخوه. ورأس بترز شعبان على النجارين. وركب أرسى مع الباحثين عن الماشية.
- وأنا يا موسى؟ - تلَهف حنانا حين غاب اسمه.
- أنت ماذا يا حنانا؟
- ألسْتُ من أي فرقة يا حاغور؟
- بلى.
- إن كنتُ منها، - أصلح حنانا وضع قبعته المتهرئة معتدّاً بنفسه، وخرج من بين الرجال، - أي مهمة لها اسمها تبتكرها لي؟
- ألم تنفق على أن تكون بين من يرفعون السور؟
- أكون بينهم أم زعيمهم؟
- ماذا يقول حنانا هذا؟ - لم يقبل أرسى ما يسمع.
- ماذا تقول يا مستته؟ - سأل حنانا بشيء من الازدراء، معتمداً على أحد شقيقه، ماداً إحدى أذنيه، - أعد ما قلته!.. إن كنت لا أعرف يا أرسى فأنا لسْتُ أضعف منك. دَعك من بترز شعبان.
- كفى يا حنانا، - لم يقبل تحخوخوه، - لسنا اليوم في موقف جدال.
- صحيح يا تحخوخوه، أوافقك. لا أعدك بين من يعجزون عن أداء مهمتهم.
- أنا واثق من تأديتك لها. لم يخطئ حاغور... ولكن لا ينسونا عند توزيع المهام!.. كانت داريت كنه آل شرلأقوه ضربتني وطردتني من الغرفة. لم أنس إلى الآن، - وقال مشيراً بطرف السوط إلى ظهره، - لا تزال الضربة تحرقني. أعرف أن على أرسى ضربة سوط داريت أيضاً... لم أنس. لم تدعوني أتكلم في مؤتمر القرية أمس، ولكني أؤيدكم: لا عودة لآل شرلأقوه الذين هربوا إلى البجدوغ. لن نقبلهم ولو زحفوا إلى أرض الشابسغ على رُكبهم. نعم، هذا أنا حنانا من يؤيد القرية في مواقفها!..
- ولكن يا حنانا، - قال أحد الواقفين، - يقال إن التائب يقبله الله.
- نعم، - يجب بسرعة كمن ينتظره، - أعرف أن هناك مثل هذا القول المأثور، ولكن على آل شرلأقوه أن يتناسوا هذا القول. أليس صحيحاً يا حاغور؟

- يجيب بنفسه على نفسه دون انتظار الجواب. - صحيح طبعاً!.. وهل كان حنانا يوافقكم لو لم يكن صحيحاً؟ قل الآن يا موسى المهمة التي كلفتني بها في القرية؟

- ماذا تريد أن تفعل اليوم؟ - لم يصبر شعبان.
- لا أقصد اليوم فحسب... أهتمّ بالمنصب الذي سيكون لي في القرية بشكل دائم. ما كنت أريد أن أكون بهذه الصراحة يا ابن آل بترز ولكنك لست من يوزع المهام اليوم. قل يا حاغور، ما تطلبه أنت حملي.
- ألم أبلغك أنك ستكون في عداد الذين سيرفعون الجدار يا حنانا؟
- لا تخطئ يا موسى؛ هذا عمل لا يناسبني.
- ألا يمكن أن تصرح بحقيقة ما تريد يا حنانا؟ - بدا من سؤال تحخوخوه أنه مستاء من أنه يؤخر جمع الرجال.

- هذا سؤال معقول يا موسى، - حتى لو كان السائل هو تحخوخوه، - توجه حنانا إلى حاغور وقد سمع ما يريد. - سأقول لك ما أريد. أريد أن أكون معاوناً لمستقوه أرسى الذي يقود مجموعة البحث عن الماشية. صدّقني يا أرسى أني لن أتجاوز أوامرك، لا خطوة، بل إصبعاً.
- هذه ليست مهمة؟.. - ضحك حاغور، - لم يُظهر عدم ارتياحه لإلحاح حنانا على منصب.

- ليس منصباً الآن ولكن أرى أن منصباً سيليه. اسمع يا ولد، ينادي أحد الحضور معتداً، - هات حصاني، ودعوني أركب!..
- يا أرسى ويا حنانا، لا يجوز أن يضيع من مواشي شراًقوه رأس واحد. هل فهمتما؟ - ذكرهما حاغور مرة أخرى وهما يركبان. ولم يكف هذا بل أكّد على مجموعة الرجال الواقفين جانباً: - لن نرحم من يُخفي ما ليس له أيتها الجماعة. سنغرّمه أياً كان.
- فهمنا... ولكن من نحاسب على ما افترست الذئاب الليلة؟ - ركب أرسى محتجاً.

حث حنانا الحصان حالما ركب، وجانب حاغور، وقال له:

- هل يكلفون أرسى بجمع الماشية دون أن يرافقه واحد مثلي؟ - ترك حاغور، وعاد إلى رفاقه، ولما اختلى هو وأرسى لأمه: - يا مبارك النسل، أرسى، إن لم يرافقتك مثلي في مثل هذا الملك المفاجئ فمن يرافقتك؟

- ألم تسمع ما قال حاغور في إثرنا؟ - أجاب أرسى على سؤال حنانا، قائلاً في نفسه: ما كان أحوجني إليك! - من كان الأجدر بهذا الكلام هو أخوه بداد، لا نحن... آذتنا رائحة شواء لحمه البارحة.

- الحق يا أرسى، ماكنت أودّ أن أقول هذا - غضب حنانا، وكنتم استرداد عدد كبير من الخراف من بداد، - ماذا ينوي حاغور موسى في النهاية؟ نحن طردنا آل شرلأقوه من الشابسغ، وهو يحرس أملاكهم. أيكون يخطط للاستيلاء وحده على تركتهم يا أرسى؟

- والله لا أعرف... - قال أرسى، وأضاف بعد قليل: - من أين تعرف ما في رؤوس الإخوة التسعة؟

- أهذا رأيك، ليسوا قلائل حقاً.

- هؤلاء الإخوة، دعك من آل شرلأقوه قادرون على نهب القرية كلها. ما أسهله عليهم يا حنانا!..

- والله صحيح... - ليحْمَنَا الله، ليحْمَنَا الله!..

-3-

سرت النار التي التهمت في باستوك إلى كل مكان في الإقليم، تُشعل ما تصل إليه، كالرعد يلقي الرعب في القلوب. البارود الذي عاشت عليه بلاد الفلاحين الشابسغ، منذ بدأ عدم المساواة بين البشر لا يجد من يسمعه الوقت لأن يستغرب، انفجر مدمراً ما في طريقه. ألحق الفلاحون بآل شرلأقوه، قبل أن يصلوا إلى البجدوغ، حيث ربيهم الأمير الكبير ألقس، سائر المتنفذين من أسر آبائهم وأنزور وشكش وزانه. كانوا يتخلون عن كل ما جمعوا في حياتهم بعرق الفلاحين، وإن لم تصلهم النار، وكأنهم كانوا ينتظرونها. ويلجؤون إلى جيرانهم من الأمراء والنبلاء.

الفلاحون المنتفضون كانوا محميين بمؤتمرات قراهم، وبالفرسان المسلحين القادرين على حمايتهم. حاغور موسى وتحخوخوه نبافؤه يعملان على عقد مؤتمر لعموم الشابسغ. الفلاحون المنتفضون في الجنوب أبلغهم العامة في الناختواي، والوبيخ، والجانبيه، بمساندتهم لهم. وأخبرهم فلاحو الأيزاخ أنهم وقت الضرورة جاهزون. و"الغوايه" الذين كانوا يرفضون الإسلام، أبلغوهم أيضاً جاهزيتهم في أي وقت: سلاحكم سلاحنا!..

حين أبلغ آل أباته وآل شكش علي سلطان أنهم سيلجؤون إلى البجدوغ، ظهر عليه يأسه المطبق خلافاً للأيام الماضية. وقال بعدما تصارعت الأفكار الكثيرة في ذهنه، وبعد شرود طويل:

- لم أتوقع البتة أن يلحق بنا آل أباته وآل شكش. يبدو أن فلاحي الشابسغ يلعبون بالنار جداً، لا أعرف ماذا ينوون، ولكن أمامهم شرّاً ما.

- هؤلاء سيهيجون ثم يعودون بأنفسهم إلى هدوئهم. - قال الأمير حجمقوه حمرز، - ثرثارون لا يعرفون إمكاناتهم.

- وهذا صحيح، - سرّ علي سلطان بما سمع، - لن يستطيع هؤلاء العيش دون أن نقوم على رعايتهم. - سترون إن لم يتوسلوا إلينا معترفين بالخطأ الذي ارتكبوه.

- سننتظر الأخبار التي سيأتي بها موفدونا إلى الشابسغ، - كتم الأمير الكبير ألقس عدم رضاه عن حديث الحضور في مضافته، أنا واثق من أن البجدوغ لن يتركوا متنفذي الشابسغ وحدهم. نعيش حياتنا وبيننا سلام دائم. إن كنت تقصد حاغور وتحخوخوه وبترز يا أخي الصغير، فسنجد لغة للتواصل معهم. وإن لم يفهموا فسنفكر في ما يمكن أن يفهموه. اجتزنا كثيراً من مثل هذه الأحداث فلا تيأس يا علي سلطان.

- لست يائساً يا أمير لأن عدداً من الفلاحين نظروا إلينا بعيون غاضبة، - رغم أن علي سلطان بقي دون بنطال، فلم ينس تصنّعه، وابتسم كمن لم يجر عليه شيء. - مضيفي ليس من أواخر أمراء البجدوغ مرتبة. عندنا سندٌ كبير بفضل الله. وليس أكلة الخبز الشابسغ عاجزين عن فهم هذا.

انتظروا اليوم الموفدين الذين أرسلوهم أمس من البجدوغ إلى الشابسغ، ولكن لم يعودوا حتى المساء. ولم تأت أخبار عنهم في اليومين التاليين. ولما مضت خمسة أيام بدأ الأمير الكبير ألقس الذي كتم مشاعره إلى الآن بالقلق. قال في نفسه: إن كانوا قتلوهم فالشابسغ هم من نقضوا السلام القائم بيننا وبينهم. هل يصلون إلى هذا الحد دون أي رادع؟ إن فعلوا هذا كان احتقاراً لنا. ولوثوا بلادنا. ووجب علينا أن نفكر في ما علينا فعله...

نفض الأمير الكبير ألقس راغباً عن الخاطر المفاجئ. ذرع أرض الغرفة بضعة مرات دون أن تُصدر جزمته المصنوعة من الجلد الناعم صوتاً. واستمر يذرع أرض الغرفة قلقاً من عدم حضور الأمير بالتجري القيم على سالتوك وقد أرسل إليه صباحاً. ثم سمع وقع أقدام من جهة الباب. - هل يقلقك شيء يا أمير؟ - سأل بالتجري أخاه الأكبر بعد التحية، وقبل أن يجلس.

- لم يعد الرسل الذين أرسلناهم إلى الشابسغ. اليوم هو السادس. لا أعرف بم أفكر تحديداً. أأكون فلاحو الشابسغ أهانونا؟ أفكر في إرسال فارس وراءهم، ولكن ما جرى، غير لائق.

- ما مضى كثيره سيمضي قليله يا أمير. - قال بالتجري لأخيه وظروف الرصاص البيضاء على صدر كسائه تنير وجهه الأسمر. دغنا نُمهل أنفسنا ثلاثة أيام أخرى.

- علي سلطان يعتب عليّ.

- لماذا؟

- لا يؤيد السماح للجيش القيصري الذي يقوده الجنرال غودفيتش بالعبور من أرضنا. يريد مني جمع مؤتمر البجدوغ لحمله على التراجع عن القرار. وليس علي سلطان وحده في هذا، فقد وكل كل من أباته قازجري وناورز حاج عمر، الأمير مجر، فجاء إليّ أمس. لم يسألاً لماذا ترسل الجيش القيصري على جيش بغرقاله المؤيد لمتنفذي الشابسغ، بل قالاً لماذا تسمح للكفار أن يتقربوا إليك. يريدان أن يوقعا العداء بيننا وبين وبين من عاملونا بإنسانية وحسن جوار،

قائلين: دعونا نمر من أرضكم، ولن تروا منا مكروهاً في مرورنا. ثم سيجرانا إلى الغزوة التي يريدونها منصور وشورما.

فهم بالتجري جوهر الموضوع حالما بدأ ألقس الكلام. وهو تدخّل الروس كما ترجّوا في مؤتمر البجدوغ، والمواقف المختلفة للأمرء - النبلاء فيه. وتذكر طريقة الحوار بين الأطراف المتنازعة خلال يوم كامل. ومن طرف الفلاحين أقوال مشقوه ترقان، وكيف نهره الأمير بحقوقه مجر، كل هذا انتصب أمام عينيه من جديد.

القرار الذي اتخذته الأمير الكبير حجمقوه ألقس بمرور الجيش الغريب في أرضه التي يحميها، كلّفه ليالي طويلة من السهر. لم يكن ألقس يريد، بقدر الإمكان، أن تقوم في بلاده أي خصومات منذ أن استلم منصب الأمير الكبير. كانت نظريته أن من يعادي جاراً يفقد هيئته عنده. ظل مهتماً بالتقارب مع الجمكوي والأبزاخ كما علاقته بالشابسغ. عادته أمه عداً صامتاً قرابة العام لأنه زوّج أخاه من فتاة من الأبزاخ. لم يكن حجمقوه ألقس متعلقاً بالروس أكثر من تعلقه بالترك. وطوال ممارسته منصب كبير أمرء البجدوغ لم يحلّ ضيفاً على الروس. ولا خطر له أن يفعل هذا. وقبل أن يطيأ الجانب الأيمن من نهر بشزّه سافر إلى القرم. واستضافه في تركيا وفي إستانبول كثيرون من كبار الأغنياء. وقابل زعماء الترك. وبغضّ النظر عن هذا كله فهم يتشاركون في الإسلام. ولهم الإله نفسه. ورغم هذا كله أدار ظهره للترك، وفتح باب بلاده للروس.

- ماذا ستفعل إذن يا أمير؟
- في أي موضوع؟ - خرج الأمير من خواطره.
- في طلب المتنفذين تغيير قرار المؤتمر.
- لن أستطيع هذا. لا بأس أن أخطئ في هذا...
- لا تخطئ يا أخي الكبير.
- ولكنني أتوقع أن تظهر لنا مشكلة لم نتوقعها في هذا الموضوع... - نهض ألقس وذرع أرض الغرفة، ثم قال ما ينتظره أخوه: - ماذا إن جاء الجيش التركي إلى هنا بحجة مجاهدة الجيش الروسي؟

- اطمئن من هذه الناحية يا أمير. لا تنتظر أن يأتوا إذ لم يأتوا إلى الآن. غداً سيعبر جيش الجنرال غودوفيتش نهر بشنزة، ويهاجم بغرقاله.

دخل إلى غرفة الإمرة الكبرى كلٌّ من شرلأقوه علي سلطان وحاج عمر. ووجب على الأخوين حجمقوه أن يقطعاً حديثهما. قال علي سلطان بوجه قلق وهو ينظر إلى ألقس:

- الموفدون على طريق العودة يا أمير.

دخل الموفدون الثلاثة إلى دار حجمقوه يتقدمهم الحارس دردر، ودخلوا إلى الأمير الكبير حالاً.

- يا أمير، - قال دردر مباشرة، - لم يقبل فلاحو الشابسغ. استبقونا إلى الآن بانتظار مؤتمهم العام. قالوا إن قرار المؤتمر قرارهم، فأشركونا، وأسمعونا حديثهم. إن قبل المتنفذون المساواة بينهم وبين الفلاحين فنحن أصدقاء. وإن لم يقبلوا فليستريحوا حيث ذهبوا. وأملآكهم سنجمعها لنا لأننا من أنتجها.

- من أدار هذا الذي سميت مؤتمر الشابسغ؟ هل هو الأفندي أكجكوه؟ - سأل علي سلطان وقد أظلمت عيناه مما سمع، وناسياً أنه في حضرة الأمير الكبير.

- حاغور موسى وتحخوخوه نبافؤه هما من أدارا المؤتمر. لم أر الأفندي أكجكوه بين الحضور. وكان مندوبو النأتخوي بقيادة شباكوه بينهم. ثم طلبوا يا أمير أن نبليغك ما يلي: - استدار الحارس دردر إلى الأمير الكبير بعدما أجاب على سؤال المتنفذ، - قالوا إنهم راضون تماماً عن البجدوغ في السماح لجيش القيصر بالمرور في أرضهم، ومجيئه إلى بغرقاله.

قفز علي سلطان من مجلسه، محمّر الوجنتين، بعدما أنهى الموفد الخبر الذي أرسله فلاحو القوقاز، غير قادر على مزيد من الجلوس:

- استحلحك يا ألقس باسم حليب أمي الذي رضعته، ألا تسمح لأولاد القذارة هؤلاء، أكلة الخبز، أن يهينونا!.. - ثم صرخ رافعاً يديه: - يا إلهي، هل تسمع، ماذا ستكون دعواهم؟ لا يمكن أن تتساوى الشمس ومصباح الدهن!..

تحسّن وضعُ فلاحِي الشابسغ كثيراً بعدما احتل جيش غودفيتش أنابه في صيف عام 1791: الأتراك الذين كان المتنفذون يتأملون منهم الحماية لم يبق لهم همٌ إلا حماية أنفسهم. لم يكن الجيش التركي، حتى دون موضوع فلاحِي الشابسغ، موفقاً في أي موقعة. ثم إن الترك لم يكونوا راضين عن الأديغة لعدم انضوائهم تحت راية حرب "الغزوة" التي دُعُوا إليها. وبدلاً من أن يقفوا إلى جانبهم ويحاربوا معهم، سمحوا للجيش الروسي بعبور بلادهم، وتركوه يدمر أنابه. وعلى قول الأتراك فقد غرز من كنا نتأمل معونتهم السكّينة الحادة في ظهرنا.

لم يكن كل المتنفذين غادروا الشابسغ. ليسوا قليلين من بقي منهم في القرى، بسبب الخوف والرياء والأمل، فتقبّلوا قرار المساواة الذي أُتخذ في مؤتمر الشابسغ. وفي القرى فلاحون غير راضين عن الحرب التي نشبت في البلاد، غير أنهم يُخفون مشاعرهم. وهناك من كانوا ينتظرون على أمل أن يحدث شيء ما إلى الخريف.

من لا علاقة له بأحد، وغير مهتم بشيء هو أكجكوه أنزور. حين كانت حظائر آل شرلأقوه تحترق، وبيوتهم تنهار، وخيلهم تحمم، ومضافتهم تشتعل فيها النار، والناس كلهم، من عنده علمٌ بالأمر ومن لا علم عنده، يتسابقون إلى دار شرلأقوه، في هذا الوقت العصيب، لم يخرج أنزور من البيت، ولم ينظر جهة المتنفذين الواقعين في المصيبة. قضى في البيت الأشهر الثلاثة التي انتفض فيها الفلاحون كما يريد تماماً: يذهب إلى الجامع كي لا يخالط الناس، ويتظاهر بالمرض، ولا يزوره كثير من الناس. لم يبدأ أنزور يخفي عن الناس بعد ما حدث في باستوك فحسب، لم يكن يستطيع إلا أن يتوقع، عاجلاً أو آجلاً، ثورة للفلاحين الذين يسميهم المتنفذون "أكّلة الخبز"، وإن كان يتعد عن الفلاحين الذين خرج من صفوفهم، يسايرهم ولا يسايرهم. ظل يعد نفسه بأن يقف في صفوف الفلاحين الفقراء، يساعدهم حيث يمكنه، حتى أدار ظهره شيئاً فشيئاً لمن خرج منهم.

متى تأملت في حياة الأفندي أنزور فليس بعيداً في البداية أن تأخذ عنه هذا

الانطباع. كانت أيامه تنقضي أمام المصلين، وأحياناً متوجهاً إليهم. لم يكن في الصف الأخير في القرية، ولا في الشابسغ. يغتني من مهنته سنة بعد سنة. تقبل الإسلام في قلبه وإن لم يكن يفهم أساسه ولا معاني القرآن. يُطَوِّع المؤمنين باسم الله كما يفهم هو. يقول لهم إن الحياة الدنيا التي تعيشونها مستعارة، ويغري الفلاحين بالأخرة التي لا يفهم منها شيئاً. ولم يكن هو نفسه يعرف أنه يعيش في أمل خادع. ولم تكن المرات التي يقف فيها فجأة أمام أعماقه فيفكر في حاله مذعوراً قليلة. ولكن ما كان يمنع أكجكوه أنزور من الوقوف كثيراً أمام ضميره هو المرض الخفي الذي لا يعرفه في نفسه، وهو جمع المال لشخصه، والمكانة الخادعة له، والتي لا يعرفها في نفسه ولا يعرفها الفلاحون.

لم يبدأ أنزور يفكر في عيشته المرفهة منذ زمن بعيد على مبدأ: من لم يجرب الشر لا يعرف الخير: بدأ هذا التفكير حين رأى الولد الوحيد الذي وجده في الدنيا التي يقود الفلاحين إلى الاعتقاد بأنها عارية فانية، يقطر دماً، وعلى شفا الموت. ولم يكن يصدّق هذا إلى أن جرت المأساة. لم يفهم ما جرى له في العام الذي أودع فيه نطار القبر، وفي العام التالي، إلى أن جاء أهل الكنة يريدون استعادتها. وما إن وضع قدمه على الطريق الذي جاءت منه المصيبة حتى عمت نار الفلاحين أرض الشابسغ كلها، لا باستوك وحدها. ولما سمع بقرار المؤتمر بالمساواة ارتعب قليلاً إذ اقتنع أن الفلاحين لا يناضلون من أجل الإنسانية وحدها، بل من أجل المال أيضاً. في البداية آمن بعدالة قضيتهم، ولكن حين فكر في ماله صرخ قائلاً: أيّ مساواة ينادون بها، وأي امتهان للإنسانية هذا، المساواة مستحيلة. ولكنه لم ينس حين صارت أملاك آل شرلأقوه توزّع على الأسر، أنه كان يوماً ما فلاحاً. ارتعب لا يدري ماذا يقول وماذا يفعل كأنهم يسلبونه أمواله الشخصية.

- يا عجوز، والله الفلاحون استبعدونا تماماً، - قال أكجكوه، - لا أعرف ما ينوون، غير أن قلبي يؤمّلي حين أرى حطام دار شرلأقوه، وأقول في نفسي: ليس عيباً أن يحدث لك هذا؟

لم تردّ مريم التي لم تخلع ثوب الحداد منذ أكثر من عامين. أخفت الشعر الأبيض

الذي تسلل من جانب أذنها اليمنى إلى تحت الغطاء بأصابعها الهزيلة. نهضت فأصلحت الوسادة الكبيرة التي لا عيب فيها. ولم يكف هذا فأمسكت بالمكنسة وشرعت تمسح أرض الغرفة النظيفة.

- أراك يا عجوز لا تقولين شيئاً، - لم يصبر أنزور على ما يرى.
لم ترفع مريم رأسها وتنظر هذه المرة أيضاً إلى الرجل. لا صوت في البيت إلا صوت المكنسة.

- أنت، ألسنت من أتكلن إليها؟! لماذا تتصاممين فنكنسين أرض الغرفة؟
- ماذا أقول؟ - قالت مريم وهي تضع المكنسة وراء الباب دون أن تنظر إلى الرجل، - لم يجرِ لآل شرلاًقوه ما لا يستحقون. اصطدموا بما كان مقدراً لهم. وأما شكواك من ابتعاد الناس عنك فأنت من يدعوهم إلى هذا؛ لا ألوم الفلاحين.

- ماذا تريدان أن تقولي بهذا؟
- كفى، لا أستطيع أن أفهمك ما لا تعرف... - خرجت مريم منفعة تمسح دموعها بطرف غطاء رأسها.

تابع أكجكوه أنزور بعينيه المرأة المنصرفه، وقال: هذه حالنا منذ أكثر من عامين. تبكي في حضورنا ليلاً ونهاراً. يا حسرتي، من أين لك أن تعري ما يغتلي في قلبي؟ لم يكف ما انتكنا بالولد الوحيد، بل هذه أسرته قد تمزقت... لا أعرف لماذا عزلنا أنفسنا عن الناس. لم أدع فلاحاً واحداً يخدمني إن لم أخدمهم ليلاً ونهاراً. قاسمتهم مصيبتهم إن مات قريب لهم. وشاركتهم أعراسهم أدعو إلى الله من أجلهم. ولم يُعقد نكاح في السنوات الخمس عشرة الأخيرة دون مشاركتي، لا في باستوك وحدها، بل في الجوار أيضاً. وشرلاًقوه الذين تتكلمون عليهم لا تظنهم مجانين تماماً. عندهم أعوان كثيرون في البجدوغ، لن يتخلّوا عنهم.

في إحدى الأمسيات، وقد أظلمت الدنيا تقريباً، جاء حاغور بداد إلى بيت أكجكوه. لم يعرف أنزور سبب زيارة بداد. لم يطرق باهم بعد وفاة نطار. ولم يكن يلتقي به في الجامع كسائر المصلين. ولا يتخذ منه محدثاً إلا أن يتبادل معه

التحية. وأحياناً يراه على طرف مائدة شراًقوه حين يدعونه. وحين يتكلم فليس كلامه المليء بالتأناة ما يكرهه ويجعل القلب لا يطيقه، بل يجعلك تستهين به. قال أنزور: ماذا يلاحق هذا الرجل الآن؟ لماذا يأتينا من لا يدخل بيتنا عادة؟ لن تحصل مني على شيء وإن خاطبني بلسان معسول، ومهما تعلقت بي. لولا أنني محرج أمام أديغيتي وقد تجاوزت بابي طردتُك من بيتي كالكلب. ليس مثلك من يستقبلونه، بل ينهضون لأجله. لا تظن أنني نسيت ما فعلت بنا بخصوص ولدنا الوحيد. أعرف ما ستقول: لست أنا! ولكني لن أدعك تتهم أحداً بذنبك. استنفرت الفلاحين والمتنفذين، بمن فيهم أنا الغبي الكبير، فجعلتهم يقتلون الولد على مرأى مني بحوافر الخيل...

- تفضل يا حاغور، - استقبله مزيجاً كل ما كان في الدهن، وكأن القادم سيأتيه بحظ لم يكن لديه، منسجماً مع ما في العادات الأديغية من لطافة تساوي النفاق أحياناً. - تفضل، والله مضى زمن طويل لم أرك فيه...
- والله أنت يا أنزور من لم نعد نراك. لا أعرف ماذا تنوي وقد حبست نفسك في البيت.

- أنا متوعلك، لست بخير.

- سمعتُ هذا؟ ما مرضك؟

- وهل تعرف تحديد مرضك متى أصبحت عجوزاً! يأتيني الوجع من هنا مرة ومن هناك أخرى. لم يعد هذا مشكلة. أحياناً يصعب علي التنفس. لم تبق لي راحة في الحياة.

- هل يصعب تنفسك في الليل؟

- لا عنده ليل ولا نهار. مواعده متى أمسك بي. لم يعد يسمح لي بمخالطة الناس. وتخلينا عن الأصدقاء. جاؤوني بعشبة من الجمكوي أشرب مغليها الآن. أتأمل أن تفيدني. ما أباركم أنتم، وما أخبار العالم بإذن الله؟ أنت تخالط الناس، وأخوك موسى يقال إن كثيرين يقصدونه... ماذا يفعل هؤلاء؟

- ما تعرفه يا أفندي هو ما في العالم من أخبار. نحن في مهارشة كلاب لا نهاية لها. مضى نصف عام ونحن على مائدة ليس عليها زعيم. تغلبنا القسوة بدلاً

من اللطافة. يقولون إنهم يخدمون المتنفيين الذين لم يهدؤوا فلم يبق في الشابسغ موضوع غيره. ونحن، الفلاحين الميسورين، ينظرون إلينا من فوق جباههم. لا أعرف بم تتميز منهم نحن... من بقي الآن في الشابسغ ليس عنده حصان وزوج من الثيران؟

- أأكون خائفاً يا حاغور؟

- ممّ سأخاف؟

- وكيف لي أن أعرف؟

قال بداد لنفسه: وهل أنت أفقر مني أيها الخبيث؟ عندك عشرة أضعاف ما عندي. يكفي ما سلبتنا رافعاً يديك إلى السماء، مخاطباً الله العلي. لو كنت مكان أخي الأهل، وتحخوخوه مثله، كنت أول من يحطمون مخزن حبوبه، كنت أول من أقص قرون جاموسه!.. يبدو لي هذا الرجل لم ينس إلى الآن آل شرلأقوه. أظنه يبكي موقدهم المنطفئ. لماذا لا يأتي البتة على ذكركم!..

- لا أعرف ما الذي يدعوك إلى هذا الكلام يا أنزور؛ لست في موضع يدعوني إلى الخوف. إن أردت أن تعرف فأنا تعجبني عدالة تحخوخوه.

- وأخوك موسى؟

- والآخر ليس مجنوناً.

يا ري، قال أنزور، ماذا يريد هذا الثرثار الذي يصدع الرأس؟ ينتقل من موضوع إلى آخر. لم تكن تقول مثل هذا حين كنت على طرف مائدة شرلأقوه. كنت تظن العظمة التي رموها إليك قطعة لحم دسمة. إلى أي جهة وجهه هذا الرجل الآن؟ هو مثل من يقال فيه: إن كنت في سعدك كان معك، وإن كنت في نحسك تحلى عنك. إن ربطته إلى النير جرّ ما لا يجره ثوران. ما أشد تنافر الجسد الهائل مع غناء من يركب عربته!

- على مبدأ: لا تُشع كلاماً كثيراً، ولا تغتب الرجل الذي يحتاج إليه الكثيرون،

- قال أنزور حذراً، - والله حاغور موسى وتحخوخوه نفاقه مقربان جداً مني.

لا تأخذ عني هذه الفكرة... وشباكوه أحمد لا يساويني بأحد. أما وستقوه فصديق حميم...

- وطريق سوباش؟ - أسرع بداد فاستلم الحديث وقد فهم مرام محدّثه.
- قلت لي: طريق سوباش؟ سمعتم يتكلمون عليه، ولكنه ليس من معارفي.
- سوباش لا يزال شاباً على أن يكون من معارفك. ولكن يقال إنه يتمتع برجولة مشهودة. لم يترك أذى لم يُلحِقْه بالترك في بغرقاله. وهو ممن انضم إلى جيش الجنرال غودفيتش... وليس وحده. يقال إن معه غيره من الفلاحين.
- أستغفر الله، - تظاهر الأفندي باستغراب ما يسمع وإن كان يعرف منذ مدة. - ثم قال لنفسه: كفاك، أضجرتني؛ ألا تبوح بسبب زيارتك!.. - ما أعجب ما قلت!..
- طبعاً أقول لك يا أفندي، ولكن لا أعرف إن كان الله سيقبل منا إدارتنا ظهورنا له. كان أخوأي هناك.
- من من الإخوة التسعة؟
- كريم وصبح.
- قلت لي صبح؟ كان صبح صديقاً حميماً لولدي نطار... - تخلى أكجكوه عن ريائه، وصمت. ثم عاد من أفكاره البعيدة. - ما كان الولد ليتخلف عن أصدقائه. يا حسرتي يا حاغور، تجمّعت عليّ فنكبتموني... لم يكن للولد أي صاحب من الجنّ. كان قد بدأ يقرض الشعر قبل أن يذهب إلى القرم. وكان يعلم في المدرسة بعض أشعاره. والأولاد يحفظونه عن ظهر قلب. رجوتهم قبل أيام وردّده أمامي. حين زاره بعضهم قبل وفاته ببضعة أيام، كان قرأ عليهم في حضوري بضع مقطوعات. ما كنت أفهم الكثير منها، كانت أم الولد تفهم أكثر مني. وإلى الآن تردد بعض أشعاره حين تبكيه... كان الولد يحب أن يذهب إلى الغابة ويُدع فيها الشعر. لم يحدث لنا أيّ خير.
- لماذا إذن كنت أوصيت لنطار برقية ضد الجن؟ أشفق بداد على الأفندي الجالس أمامه، فعصر الألم صدره. وفي الحال انتصب أمامه نطار الذي كانوا يتقاذفونه بصدور الخيل في المرعى.
- فكرت بالرقية كي أنسيه الشعر... ثم إن آل شرلأقوه كانوا يرفضون الشعر، وجّهوا كل غضبهم علينا. - خطر له فجأة أن يسأل عن آل شرلأقوه لا يعرف

من أين جاءت الرغبة، ثم تراجع رافضاً أن يسأل دون أن يبادر محدّثه بشيء، واستأنف حديث ابنه. - أنا بنفسى جعلت من نفسى مُضغّة في أفواه الناس فنكيتها...

خطرت لبداد الرغبة في الخروج من البيت لا يُطيق مزيداً من الحديث؛ قال: لم آت إلى هنا لأبكي من جديد على الميت. يتناسى ما أريد، ويتكلم على ما يريد هو. لا تأتِ على ذكرهم إن أردت. أنت كنت أقرب إليهم منى بكثير. ليحرمنى الله من رؤيتهم كما لا أرى قفا رأسى! كلما ابتعد المتنفذون عنا كان فى صالحنا نحن الفلاحين الأغنياء. وسترتفع قبعاتنا فوق قبعات عامة الفلاحين.

- سأنصرف إذن، - قال بداد، - جلسنا ما فيه الكفاية، لا تدع المرض يغلبك. اشرب يا أنزور من العشبة التي جاؤوك بها من الجمكوي. أنا أيضاً أظنها ستفيدك.

- بإذن الله، هو أُملى، - ودّع الأفندي إلى الباب الصغير الضيف الذي لم يعرف سبب قدمه، - زرنا من حين إلى آخر يا بداد، لا تتكاسل!..

-5-

التقى علي سلطان في نصف العام الماضي بأمراء البجدوغ، كلاً على حدة. وتكلم إلى النبلاء أصحاب النفوذ. وتعتمد الالتقاء مباشرة أو على نحو غير مباشر بنخبة الفلاحين يريد إفهامهم. ولكن أينما ذهب، وأياً قابل، فمن يعود إليه طرف الحديث هو ربيهم ألقس.

كان ألقس يتجنب قدر الإمكان رفع السلاح في وجه بلاد الفلاحين الجارة. أرسل من ينصح حاغور موسى وتحخوخوه نفافؤه بالإضافة إلى الوفد السابق، ولكن الجميع عادوا صفر اليدين. ولم يكف هذا فأرسل تلميحاتاً إلى شباكوه، غير أن جواب الناتخواي كان أقصر من جواب الأولين: لا شغل لنا مع من يستضيف أعداء فلاحى الشابسغ. أخفى ألقس ردّ فعله على الخير المزعج، سواء أعجبه أم لم يعجبه. حُيِّل هذا للحضور، غير أن ما اعتمل في القلب شيء آخر. ألمه جداً ما جاءت به البعثة الثالثة خلافاً لأجوبة البعثتين الأوليين.

كان ألقس يعرف قيمة شباكوه في بلاده بل في كل إقليم الأديغة، وأن الفلاحين يقفون معه، وسيقف من لم يقف معه إلى الآن، فيتجنب معاداته بقدر الإمكان. وهو من البداية لا يُكَنَّ له الود. ويتحاشى قدر الإمكان أن تصدر الشرارة الأولى منه. ينصح نفسه مدركاً أن الوقت هو الدواء الوحيد للجروح والمُطفئ للعداء؛ فلينتظر!.. يحاول جهده تجنُّب الحمية التي في مجالسيه.

في يوم خريفى ماطر دخل إلى مجلس الأمير الكبير ألقس كلٌّ من علي سلطان ووالدته. وكالعادة الدائمة، استقبل مربيته بالترحيب، وأجلسها على الكرسي الذي لا يجلس عليه غيره. وجلس هو إلى جانبها ينظر إليها بودٍّ.

- كيف حالك يا أمنا؟ - مسح الأمير الكبير على يدي داريت، وتأمل الوجه الذي تفنيه الإهانة التي لا تنتهي.

- لا بأس يا ربيينا، لا نزال نتحرك.

- وأنت يا أخي الصغير؟

- كما تعرف.

ماذا أقول لمن يجلسان أمامي ولا ينطقان إلا بكلمات مفردة؟ يئس ألقس الذي كان يود أن يظهر أمامهما بوجه طلق. لا يهتمان بما أقول، بل يصران على ما يقولان. جمعت القرية في بداية هذا الخريف، فبنينا لهم بيتاً ممتازاً. دارهم تساوي ضعف مساحة دار الأمير. وأعطيتهما من الأرض ما ليس عند كبار النبلاء. ولم يبق أمير أو نبيل لم يُهدم من الماشية. لم أقصّر في شيء نحوهم، فليقبلوا!..

- والله كرهنا هذا المطر الذي لا نهاية له. - نظر ألقس نحو النافذة، وقال يريد أن يجرهم إلى حديث آخر، - اليوم هو اليوم السابع دون توقف.

- الجو ثقيل جداً، - اتفق علي سلطان مع الأمير. ونظر إلى جهة أمه، - الله أعلم ماذا يجري في ناحيتنا، السماء مطبقة على الأرض هناك أيضاً.

- السبب الذي جئت من أجله بشخصي يا ألقس، - قالت داريت، - لا فائدة من أن نجلس مكتوفي الأيدي هكذا. يجب أن نتصرف. عندنا قليل من الذهب انتزعناه بشق النفس من أكلة الخبز. ويمكن لسائر المتنفيين أن يملكوا

مثله. عندهم نقود، وما عندهم عندنا أيضاً. ولا نبخل باللباس وبالسلاح.
ومتى عدنا إلى أرضنا فلن ننسى من قدموا لنا العون.
- أفهم من كلامك يا أمنا أن علينا محاربة الفلاحين الشابسغ.
- طبعاً!.. وإلا فلن ينجح مسعانا.
- بيننا، البجدوغ والشابسغ، عهدٌ سلام اتخذناه معاً. بأيّ حجة سننقضه؟
- تنقضه كما نقضوه هم معنا!..
- سنبدأ هكذا يا أمنا في فناء العرق.
- لن أقبل أن يبقى فلاح واحد في الشابسغ. - رفعت داريت رأسها كحية
تستعد للانقضاض، وعيناها جاحظتان، ونظرت نحو ابنها. - هل انعقد
لسانك يا ولد، لماذا تجلس ساكناً؟.. هكذا سمحنا للفلاحين أن ينيهونا ونحن
ننكمش ونراجع. ألقس يا ولد، ستتذكر هذا الكلام يوماً ما، لا يعجبني
قعودك في المأساة التي جرت لنا. إن عاجلاً أو آجلاً سيقندي فلاحو البجدوغ
بفلاحي الشابسغ وينقضون عليكم. ولكن لن تلحق ما فات. اسمعنا على
مبدأ: من لم يجرب الشر لا يعرف الخير. وسمع أحياناً كلام الأمراء - النبلاء.
ماذا ننتظر الآن؟ جيش الكفار أخلى بغرقاله. والسند الذي كان يتأمله
الفلاحون أكله الخبز عاد وعبر نهر بشزه. والأمير مجر، ليس ساذجاً فيشرب
الماء من أنفه، لا مانع لديه، يؤيدنا. والأمير قزانقوه معنا. انظر إليّ فحسب ولا
تنظر إلى غيري. الحليب الذي رضعته مني حلال عليك. لا أحسدك عليه.
لا يتابع علي سلطان الذي غضبت عليه الأم لأنه لا يساهم في الكلام هذا
الموضوع من اليوم أو البارحة فحسب. ولا يسمع أقوال ألقس الأمير الكبير
لأول مرة. مهما قال لمضيفه لم يجبه بالرفض. ولكنه لا يتقدم خطوة واحدة.
ويوماً بعد يوماً يتمكن فلاحو الشابسغ في أرضهم، ويقوون. يشترون السلاح
من سوق الساحل. وأمثال بترز شعبان لا تتوقف ورشاتهم ليلاً ونهاراً. يصبون
السيوف الفولاذية. ويصنعون البارود في الغابة الجبلية. ويؤمنون الرصاص. نحن،
قال شراًقوه، من لا يتحرك. ننتظر ما يقدمون لنا في أرض الغربة كما ينتظر
الكلب قطعة العظم.

وفي الحال تذكر علي سلطان حاغور موسى وتحخوخوه نبافؤه ورأسه يدور. من لا قيمة لهم أمثال هؤلاء استطاعوا تطويع فلاحى الشابسغ. ويُصَرَّون الآن على تطويع البلاد بكاملها. ونحن هنا لا نسمعنا أحد. والله تبين أن أمانا ذكية. كلامها إلى ألقس: "فلاحو البجدوغ سيقتدون بفلاحى الشابسغ ويتعالون عليكم" صحيح. أنا ما كان ليخطر لي مثل هذا. أمانا تصيب الهدف أحياناً.

- كفى يا أمانا، لا تُفني نفسك إلى هذا الحد، - نصح علي سلطان أمه، - لسنا عراة ولا حفاة كما يقال. وبفضل الله لا يدلف سقف بيتنا. ولا نفتقر إلى الطعام. ولا يقصّر بحقنا من لجأنا إليهم. نقول لهم: حياكم الله!..

مرة أخرى انتفضت داريت لا يعجبها ما تسمع. يا إلهي ما أشبه هذا الولد بوالده! ما أشد ما كرهت آل شرلأقوه!.. تلعب بهم العربة كما تشاء بدلاً من أن يوافقوك. ليس كلامك الذي لا معنى له هو ما جئنا لنناقشه معه. أهلكني والدك أيضاً بهذا الطبع، ولم يسعدني، لا يوماً بل نصف يوم. لم ترث من أحوالك آل ناورز شيئاً من ذكائهم. يا من حماك الله من المصائب.

- لماذا تنصحي يا ولد؟ هل تظننا جئنا إلى هنا لتتسول؟ أنا في بيتي. ومن أجلس في حضرته ربيته مثلك تماماً على فخذي. أيكفى أن يسكت إذا أُهينت أمه؟ هل تظن آثار سباط الفلاحين على جسدي قد التأمّت؟ لا تزال تلتهب فتحرمني من النوم ليلاً والجلوس نهاراً. يقال إن البطر يخرج عن طوره، ولذا أحتمي بولدي. إما أن أموت، وإما أن تتقدّم الجيش إلى الشابسغ، فأراكما جئتماي برأسى حاغور موسى وتحخوخوه نبافؤه. يا إلهي الواحد الأحد لتُنطقني دائماً بكلام الخير!..

كان ألقس يعرف منذ طفولته أن داريت لا يجوز الوقوف في وجهها متى غضبت فلم يعترض عليها، ولم يعدها بتنفيذ ما تطالب به. من ينتفض قلبه بسرعة يلق ما لا يحب. فلا داعي للتسرع في هذا الموضوع. نصح ألقس نفسه بنفسه. كان يبحث عن الكلام الذي يهدئ داريت، لا عما يهيجها. أخدعك إن قلت لك إنى سأفقد جيش فرسان، ألا يمكن أن نتفاهم سلمياً؟ لماذا نتخلق بالحمية غير المفيدة؟..

- نعم يا أمنا، بيتك هو الذي تقيمين فيه، وابنتك من تقيمين معه. - تذكر ألقس وهو يوافق الأم: "إن عاجلاً أو آجلاً سيقتدي فلاحو البجدوغ بفلاحي الشابسغ وينقضون عليكم". ودار على بلاد البجدوغ بطرفة عين، غير عابئ بإتمام كلامه. شرفك شرفنا، لن نقبل أن يهينك، لا فلاح، بل أكبر الأمراء شأنًا. إذن ألبستنا عبثاً قبعتنا.

- نعم يا صغيري، نعم، - هدأت داريت.

قال علي سلطان راضياً حين عاد وأمه من غرفة الأمير الكبير ألقس.

- والله تكلمت إلى الريب بطريقة ممتازة!

- هل تظني بارداً مثلك؟

- شفيت قلبي من فلاحي البجدوغ. كيف وصل تفكيرك إلى هذا؟ يجب أن تدفعيهم هم أيضاً إلى ما يمكن أن يجري لهم.

- لم أقل إلا الصدق. ألم تسمع أن فلاحي البجدوغ يرحلون إلى الشابسغ للعيش هناك. أي بشر أنتم لا تفهمون ما يجري في العالم؟!

- ولماذا يهاجرون؟ - سأل علي سلطان وهو ينظر إلى أمه مرتعباً. - من أجل معاضدة الفلاحين؟

- يقولون، ليس فيها أمراء ونبلاء.

- ألا يعرف ألقس هذا؟

- وهل أعرف إن كان يعرف؟ وهل يُطلعك إن كان يعرف؟!

الفصل الحادي والعشرون

-1-

مضى على انتفاضة الفلاحين وطردهم المتنفذين من الشابسغ أكثر من عامين. كان وضع المنتفضين يقوى يوماً بعد يوم. وفي هذا العام، صيف عام 1794، تطورت انتفاضة فلاحي الشابسغ: لم يكونوا يقبلون سلوك الفلاحين الأقوياء. وبدأت حقيقة بعض المتنفذين الذين أيدوا انتفاضتهم، ولا يثقون بهم، تتضح.

والنخبة الفلاحية القوية، بتواطؤ مع بقايا المتنفيين، مهمة بالقبض على مراكز القرار. والمطرودون يقفون وراءهم من بلاد البجدوغ. كانوا يلتقون بهم في الليل فيتحدثون. ويأتون برشاوى متنوعة من الذهب أو النقود أو القماش. ويحرضون عامة الفلاحين على قتل زعمائهم. وباختصار لا يفعلون إلا إشاعة الأخبار السيئة عنهم.

لم يحقق المتنفدون الذين بقوا في البلاد مرادهم مهما مارسوا من قذارات. قطع الأمراء - النبلاء الذين لجؤوا إلى البجدوغ أملهم تماماً بعد أن تجمع الفلاحون الكثيرون في موسم الحش. ولما وصل الخبر إلى علي سلطان ركب إلى حجمقوه بالتجري في قرية سالتوك دون أن يعرف أحد بسفروه.

لم يكن علي سلطان يعرف بقصة الخلاف بين الأخوين حجمقوه في الأشهر القليلة الماضية. غير أنه لم يتمكن من الاقتراب منهما من قريب أو من بعيد. وإن التقى بالأخوين متخاصمين لم يلق منهما إلا كل وجه طلق، ونظرات دافئة. ويجلسان متصافيين كأخما لم يلتقيا منذ مدة طويلة.

استقبل بالتجري علي سلطان كعادته بالترحيب. وتبادلا تحية حارة وإن لم يمض على فراقهما أكثر من بضعة أيام. ودخلا متعانقين إلى غرفة الأمير. وجلسا متقابلين يتبادلان الابتسامات.

- كيف أحوالكم، ماذا تفعلون بإذن الله يا علي سلطان؟ وأمك أليست بخير؟ وجه بالتجري المقدمة المعهودة في لقاءات الأديغة.

- لا بأس بحياتنا، وأمنا بخير، وبصحة جيدة. ما العمل بدأت تعتاد على الأرض الجديدة. لم تعد تبكي لي كما في العام الماضي. تقول: المهم صحتنا أينما كنا، إن كنت تعد هذه عيشة. قال شراً فقه: لا أظنه يعرف شيئاً عن الخبر الذي جئت به. وكيف يهتم من ينام في فراشه دافئاً، ومن يعيش على أرضه ولم يتلقَ إهانة. انظر ما عنده من ملك قبل أن يولد. وأنت ممن أضروا بنا يا سليل الكلبين. تحالفت مع الروس في وقت مأساتنا، وسمحت لهم باحتلال بغرقاله، فجعلت الفلاحين الملاحين يهبوننا. والآن جالس أمامي تبتسم لي.

قال بالتجري: هذا الذي أمامي لا يعرف ما حدث في الشابسغ. لو كان يعرف

ما جلس أمامي فرحاً كمن جرت له فرحة عظيمة. هل أصارحه دون اعتبار لمشاعره؟ أنت من أسباب ما حصل في الشابسغ، حاولت أن تجعل من نفسك أميراً ولست بأمير. فأثرتموهم. والآن، أينما اتجهت في بلاد الأديفة بدأت فتنة عظيمة تثور. حتى فُوجّه لاجبي هائج يريد أن يهاجر إلى بلادٍ لا أمراء ولا نبلاء فيها.

- حقاً يا علي سلطان من أين تأتي بمثل وطنك الأصيل. استقبلناكم بما نقدر عليه. لا تؤاخذونا وإن لم تسر الأمور كما تريدون تماماً. لم يدّخر ربيكم جهداً. - والله لا نعتب على أحد يا أمير. - أكّد شراً لقوه على إمرة مضيفه، ولن أقبل ممن يخطر له مثل هذا. حيا الله مضيفينا الأمراء - النبلاء... ولكن مع ذلك لا يمكن إلا أن تحزن حين تسمع تصرفات الفلاحين الخارجين عن حدودهم. لا أظنك تعرف الخبر الآتي من الشابسغ.

- أي خبر هذا؟ - تظاهر بالتجري بعدم المعرفة.

- لا خير يُفرح يا أمير. اصطدنا بأنفسنا بما كنا نتوجس منه. كم قلت هذا لأمير البجدوغ الكبير!.. الفلاحون ذوو الهيبة في الشابسغ فرّقوهم. والمتنفذون الذين لم يرضخوا طردوهم أيضاً. وقالوا: إن تجاوز الأمر هذا الحد فسندخل أرض البجدوغ...

- متى حدث هذا؟

- أمس، ظننتك تعرف!

- والله لم أعرف... وهل هذا معقول؟!

كان توجّه فلاحي البجدوغ إلى الشابسغ للعيش فيها يُقلق بالتجري أكثر من الانتفاضة الثانية للفلاحين الشابسغ. وليس هذا وحده ما يُقلق؛ ففي داخل أرض البجدوغ حديث ذائع، وهو ما يعتبره بالتجري أخطر شيء. ولهذا وجب عليه أن يكلم أخاه الأمير الكبير أكثر من مرة. ولكن مهما قال ومهما فعل بالتجري فالأمير الكبير لا يريد إشعال حرب بين البلدين. في البداية كان بالتجري يؤيد أخاه في هذه المسألة، ثم دبّ الخلاف بينهما. ومضى نصف العام الأخير وموقفهما مختلفان، وفعالهما قليل.

- حتى لو جرى ما جرى وانتهى يا أمير، - بدأ لسان علي سلطان ينطلق، - فأنا أرى أن نتجاوز الأقوال إلى الأفعال في هذه المسألة، وإلا وقعنا في البجدوغ في كارثة لا مخرج منها كما حدث في الشابسغ. القضية لسنا المسؤولين عنها، لن نتسبب لكم في الأذى بقدر الإمكان. سنتخلى عن قضيتنا معترفين بالأمر الواقع. ولكن ألا يجب أن نتصرف حيال اللهب الذي يمتد يوماً نحو أرض البجدوغ؟ أنسمح له أن يحرقنا ونحن بوعينا؟ إذا لم أكن ألوم سابقاً ربينا فلا يعجبني جلوسه الآن. لماذا لا يفهم أن هؤلاء لا يأتون بالكلام؟ يقول إن بين البلدين قرار سلام فلا يتحرك. لا ينفك يرسل الوفود دون فائدة. والفلاحون يستغلون هذا فيقومون أنفسهم.

- لا تعتب يا علي سلطان على أمير البجدوغ الكبير. هو يسعى إلى تحسين الوضع. وفي حال الضرورة يجد أحدنا ملجأ في الآخر. من كان يدري أن ما حدث سيحدث؟ لو عرفنا أن فلاحى الشابسغ سينتفضون كنا تحالفنا مع الروس... أقول هذا ولكن توجههم إلى الضفة الأخرى لنهر بشزه في صالحنا. لو لم نتصرف هكذا كان المتوقع أن ينخرط إقليم الأديغة في الحرب. ثم إنه لا يجوز تشبيه الترك بالقيصر. لا أعرف لماذا أقول هذا ولكن قلبي يحدثني به.

- هذا هو... ولكن قعودنا لا يعجبني!..

...

مضى على هذا الحديث بين علي سلطان وبتجري أسبوعان. وطوال هذه المدة أقام بتجري في القرية لم يضع رجلاً في الركاب. خطر له مرة أو مرتين أن يزور ألقس الأمير الكبير، ولكنه أحجم راجباً عن زيارته ما لم يدعّه هو. زار مريبه بارينقوه بغدسار للخلاص من الأخبار المزعجة اليومية. وعاد في المساء بعد يوم وليلة. رأى على طريق الشابسغ عدة ثيران، وفي خلال التفافهم حول الجبل عدّ ثلاثاً وعشرين عربة ثيران. ووراءها قطيعان يثيران الغبار. ويبدو أمامها ووراءها بضعة فرسان مسلحين.

- أيّ ثيران هذه التي تظهر؟ - سأل بتجري الحراس المرافقين. - وإلى أين تذهب؟

- لم يجب أحد من سألهم. وبعد قليل سأل أحد أصغر الواقفين:

- هل أجري وراءهم يا أمير وأعرف أين يتجهون؟

- لا داعي!..

خرج من طرف الغابة أربع عربات أخرى. وتوقفت عندهم. ولما رأوا بضعة فرسان يقفون انضم الفرسان الستة الخلفيون إلى من أمامهم. ونزل الرجال من العربات. وأصلحت النساء أغطية رؤوسهن وأدرن ظهورهن. حيا الفلاحون الفرسان برفع اليد على عادة الأديعة، واجتازوا دون أي كلام.

أشاح حجمقوه بالتجري بوجهه كاظماً غضبه بصعوبة. ولما تجاوزت عربة الثيران الأخيرة التي تننّ تحت ثقل أثاث البيت، غيّر طريقه إلى طؤابغه حيث أخوه ألقس دون العودة إلى سالتوك.

لا يرى بالتجري اليوم فحسب مثل هذه العربات التي تنقل أثاث البيوت، بل منذ صيف العام الماضي. لا يمر يوم دون أن تتجه عربات ثيران محملة بالأثاث، وأبقار مربوطة إلى العربات. ولما كان الأمراء - النبلاء يرصدون لهم لم يسافر الفلاحون فرادى. يتجمعون في مجموعات يحرسهم بضعة فرسان فيسافرون، على حد تعبيرهم، إلى الشابسغ حيث لا أمراء ولا نبلاء.

- يا أمير، - قال بالتجري بعدما دخل على أخيه وحياه، - ما كنت أريد التدخل في شؤونك. ولكني لا أستطيع إلا أن أتدخل وإن كان يسوؤك. نحن الآن وحدنا، ولا أحد يسمعنا. يجب وضع حدٍ للفلاحين الذين رأيتهم في طريقي من عند بغدادسار المري، يرحلون إلى الشابسغ ليستقروا فيها. إن هاجروا على راحتهم فلن يبقى في البجدوغ فلاح حتى الخريف. علينا أن نفرض غرامة على المهاجرين يُحصِّلها النبلاء برجولتهم حتى لا يرحل الفلاحون بحرية.. إن لم نزيح من هذه العملية فلن نخسر.

- اهدأ يا أمير، - أشعّت من عيني ألقس رائحة البرودة، - ما سيدفعه المهاجرون من غرامة لن يفيدنا إن لم يضرنا؛ يشيع البلبلّة في صفوف الفلاحين. أظن أن موضوع هجرة الفلاحين البجدوغ إلى الشابسغ انتهت اليوم. أبلغت حاغور وتحخوخوه ألا يسمحوا للفلاحين البجدوغ بالرحيل للإقامة عندهم

فأجابوني: إن كنتم قادرين فلا تخرجوهم من بلادكم. وعلى هذا فلن نقف في طريق أحد بالقوة ممن يريدون الرحيل. وإذا سمع الفلاحون بهذا فالعناد يولّد العناد. والأهم من هذا أن نعمل منذ اليوم على عدم نقض اتفاق السلام بين البجدوغ والشابسغ.

- أليسوا هم من نقضوا دون تدخل منا يا أمير؟

- قالوا: إن استطعتم فلا تسمحو لهم بالخروج، ولم يعلنوا نقض اتفاق السلام. كان حسناً لو نقض فلاحو الشابسغ الاتفاق. كنا أصبحنا أحراراً في ما نفعل. كان أفضل حلّ هو أن نثير الشابسغ بأن نشن عليهم حرباً خفية، فيحاربونا علناً أمام الجيران. ويجب القيام بدعاية بين الأبراخ الذين تصاهرهم. إن اتخذوا موقفاً وسطاً في القضية فسنترك الناختوي وغرق الشابسغ. وبدون هذا لن نستطيع تهدئة الفلاحين البجدوغ. لست مهتماً بآل شرلأقوه، ليفرحوا إن وجدوا ملء بطونهم. أهم شيء هو ألا نثير الفتنة بين فلاحينا. أن يعملوا في الأرض بأصابعهم العشر دون أن يفكروا في شيء، أفضل من أن تصلهم أخبار الشابسغ. الزمن الذي يجب أن نعيشه هو زمن الرجاء واللين، لا القسوة. أرسلت طلباً إلى الأمراء: فُنْجَق وقرانقوه وجُجَق وبجحقوه ووجبش، بأن يطفئوا في معاملة الفلاحين، وأنت أيضاً اشرح الوضع لمن تقابلهم يا أمير.

لا يتذكر باتجري يوماً كالיום يقتن فيه قول ألقس وعمله، وعنده تصميم ثابت نحو فلاحي الشابسغ. وليس أخوه وحده بل هو نفسه، قال: في أي قضية تغلب على الإنسان عيشة الكسول ريثما يكتشف الخوف القريب، وابتسم مطّبقاً على نفسه هذه الحكمة. رفع حاجبيه ونظر إلى أخيه فرأى البرودة الزرقاء ما تزال فيهما.

-2-

- لا فائدة في أن أقعد هكذا مكتوف اليدين، - قال الأفندي أكجكوه،
- وكما يقال: الله يتقبل التائب، يكفي ما أدّرت ظهري للفلاحين، وعاملتهم بجفاء. لم أجن خيراً من المتنفيين إن لم أجن شراً.

نظرت مريم إلى الزوج ولم تقل شيئاً.

- قولي لي يا عجوز هل تريدان أن انفجر في وجهك؟! لماذا لا تقولين شيئاً خيراً أو شراً؟ - سأل أنزور وصمتت مريم يغمر قلبه بعرق بارد. - ماذا يضرك يا مباركة النسل إن تكلمت؟ هل تقلدين أنت أيضاً أهل القرية؟ لا يساووني بمشوست الذي يلحس الموائد والذي علمته قراءة القرآن بشق النفس. الكلمة التي تسقط من فمه يلتقطونها قبل أن تبرد...

- لأنه يفهم الفلاحين، - أسرع مريم فاخترت دفة الحديث من الرجل. وكعادتها تناولت المكينة من وراء الباب كي لا ترفع رأسها وتنظر في وجه الزوج، ووقفت تكنس أرض الغرفة.

- ضعي من يدك هذه المكينة!..- غضب أنزور، - متى قلت لك شيئاً ووقفت وسط الغرفة تكنسين في إثري. ماذا أذنبت بحق الفلاحين فلا يفهموني؟ أمثلي من يعزلونه؟ لا أعرف إن كنت تعرفين أي كنت القيّم على الشابسغ بأسرها. البلاد كلها لم تكن تخالف كلمتي. الكلمة التي تسقط مني يلتقطونها قبل أن تصل إلى الأرض.

- لا فائدة من أن تلحق المطر الفات بكساء. لم تكن تفعل هذا من أجل الله بل من أجل المتنفيين.

- يا عجوز، لا تسحبي الكلام من فمي الآن. - أظلمت عينا أنزور، ثم تراجع فجأة. - لماذا يا مباركة النسل تقاطعين كلامي فنتشاجر؟ المتنفدون سلبوا مني حياة ابني الوحيد في هذا العالم الثقيل. أنا من يسعى وراء هؤلاء؟ سأذهب حالاً إلى موسى حاغور. فإن لم يفهمني، ولم أوفق مع تحخوخه فما من أحد يمكن أن يفهمني.

تناول أنزور من الجدار العصا الفضية المزينة التي أهداه إياها قبل سنوات حسن مراد، وخرج مسرعاً جداً من الدار. توقف عند منعطف الشارع حائراً في أيّهما سيتوجه إليه أولاً: موسى أم تحخوخه. اختار حاغور موسى فذهب إليه، ولكن تبين أن من يثق به ومن لا يثق، كلاهما غائب عن القرية: هما على حدود الشابسغ - البجدوغ منذ ثلاثة أيام.

مضى أكثر من شهرين على نشوب اضطرابات على تلك الحدود. من بلاد البجدوغ يأتي في الليل فرسان من الأمراء والنبلاء، فيغزون قرى الشابسغ. يشعلون النار في بيوت الفلاحين، ويسلبون المواشي، والذين يجابهونهم من سكان هذه القرى غير مسلحين جيداً، يقتلهم هؤلاء المجرمون. ولا يرحمون من لا يجابههم. يسلبونه القليل الذي عنده. ثم يعودون من حيث أتوا.

قرر أنزور التوجه إلى حدود البلدين حين لم يجد من قصدهما. قال أنزور: أنا لست حاغور بداد فأصارع أبناء عرقي. لم يخجل ولم يتحرج من كلام الناس فالتحق بالمتنفذين. ما الذي ينقصه؟ كان يعيش وكل ما يطلبه عنده. وهل عجيب إن كنت فلاحاً طويل اليد؟ لا يعني هذا أن تكون قائداً. لماذا أيها البائس تسمح للمتنفذين الذين أكرهوا على هجر بلادهم أن يخدعوك؟ لم يسأل عنك أحد منهم. وأنا ربما كان يهدف إلى خداعي حين اعتاد على زيارتي ليلاً وسراً منذ العام الماضي. لم يلحق بك أحد، لا زوجتك ولا ولدك الصغيران، دغك من إخوتك.

ارتدى أكجكوه ببساطة ملابس السفر. وتسليح بالسلاح الذي هجره سنوات طويلة. ومسح على رأس رينان التي صادف خروجها خروج جدها من الغرفة، وتوجه إلى حيث يقصد مسمياً بالله. ولحظة وضع رجله في الركاب خرجت مريم من وراء مخزن الحبوب بيدها دلو الماء، فسألته غير قادرة على تفسير ما ترى:

- إلى أين بسلاحك؟

- إلى حيث يذهب رجال القرية.

- يا لخوفي، ألا يجوز أن أعرف إلى أين؟

- أسألي إلى أين ذهب رجال القرية تعريني إلى أين أنا ماضٍ!.. ألا يكفي ما نمثُ ورأسي عند قدميك بلا فائدة؟!

وجد أنزور في اليوم التالي كلاً من حاغور وتحوخوه. دخل ثلاث قرى على حدود البجدوغ فرأى فيها ما يدعو إلى اليأس: البيوت نصف المحترقة ينبعث منها الدخان، ومن عندهم ضحايا ييكونهم، فتسمع أصواتهم من هنا وهناك.

في مضيق الجبل ما لا يُحصى من الفرسان حتى لو حاولت عدّهم، ليس بينهم

راجل واحد. خطر له أنهم يعدّون أربعمئة أو خمسّمئة. وفي مواجههم ليس أكثر من أربعة فرسان. لا يسمع كلامهم ولكن ما يقوله أحدهم واضح. نهر أكجكوه نفسه: انظر ممّ حرمت نفسي إذ حبسْتُها في البيت؟! لماذا لا أفعل ما يفعل هؤلاء؟ هل سلوكي معيب؟ لستُ من هنا ولا من هناك كمن سقط من قمة شجرة. أُحرم مما يجري في العالم كامرأة صماء بكماء. لماذا أقف قائلاً: "هناك"؟ لا أستطيع أن أكون في عداد المتنّفين الذين نكبوني!!

اقترب أنزور أكثر من مجموعة الفرسان الكبيرة، فتعرف على الواقفين في الساحة: حاغور وتحخوخوه وشباكوه ومشوّست المؤذن. مشوست المولى الذي لم يتقن الأذان إلى الآن واقف مع الرجال كأنه ينجز شيئاً ما. دارت عينا أكجكوه في محجريهما مغلوباً بالغيرة، لا يرى من في الساحة. خيل إليه أنه واقف على الجمر وهو ما يزال على الحصان. لأجل هذا قالوا: من يغب بشخصه تأكل الذئاب حماره.

- ... كما يقال: مهما تخيلت أنك توقّف الكذب على رجليه تهّدّم، والصدق وإن خلته تشنت عاد وتجمّع. - وصل صوتُ حاغور موسى الغليظ إلى أكجكوه. - توضحت إنسانية المتنّفين الذين عبّأنا البلاد ضدّهم. ليس شراً لقوه وناورز وأباته وزانقوه وحدهم من يمارسون الإجرام. بل وقف إلى جانبهم الأمراء - النبلاء البجدوغ الذين بيننا وبينهم اتفاق سلام. إن لم نردّ على من يشنون علينا حرباً خفية جلبوا لنا المآسي، وحرّمونا من أسباب العيش. لا يصدّق أحد ما يقوله آل حجمقوه من أن لا شأن لهم بما يحدث في بلاد الشابسغ. ينوون أن يهدموا نظام المساواة الذي أسسناه في الشابسغ، ويعيدوا نظام المتنّفين إن لم تقابل الرصاصة بمثلها والسيف بالسيف. أصحاب البلاد هم الفلاحون، لا الأسر المتنّفة. لا تنسوا سبب قتلهم أكجكوه نظار في شرح الشباب بصدور الخيل.

"العالم الوضيء، أرض الربيع

إن سألت أهو للمتنّفين؟

قلت لك: لا، ليس لهم"

بدأ حاغور موسى ينشد الشعر برأس مرفوع وصوت أجشّ، يُحاول أن يُسمع كل الحاضرين. وفي الحال توجهت عيون الفرسان الذين كانت تصدر منهم بعض الضجة إليه فهدؤوا. وأنزور نظر جهة حاغور حين سمع اسم ابنه. وصدق صوت قائد الفرسان من على صهوة حصانه:

"الفلاحون الكثيرون، بلا جدال

هم أصحاب هذا العالم

بكل دفئه"

حين انتهى حاغور موسى من تلاوة الشعر تفقّد الجيش المحتشد أمامه. وفي الحال تقدم شباكوه أحمد من بين رفاقه، والتقط لحن النشيد يريد أن يُشرك الجميع في ترديده. وحالاً استجاب الفرسان، في البدء بأصوات متنافرة، ثم منسجمة. ففزع صوت الفرسان من مضيق الجبل وتناثر على الجبال. وتردّد الصدى في الشابسغ بكاملها، تحت الغابات وفي القرى وفي البراري المقفرة وفي الزوايا المهجورة. صحا أكجكوه أنزور من حلمه، فأنشد بشفتيه اللتين كان يتلو بهما الأدعية مقطوعات ابنه مع الجماعة. ومن بعيد ردد الصدى بضعة مرات السطر الذي يقول: "ملّكهم جميعاً كالشمس".

تكلم شباكوه بعد حاغور. أبلغ الحضور أن فلاحى الناختواي والجانيه والحكوف يؤيدون كل ما يتحقق في الشابسغ من قرارات المساواة. وتكلم على نقض الأمراء - النبلاء البجدوغ تفاهم السلام مع الشابسغ. وفيما يتكلم على تأمر الأمراء - النبلاء على جيرانهم الشابسغ، اختتم كلامه على هذا النحو:

- علينا أن نُطلع فلاحى الأبراخ والجمكوي وصولاً إلى ينجج، على المؤامرات التي يحوكها الأمراء والنبلاء البجدوغ الذين التجأ إليهم المتنفذون الشابسغ. ولذا سنختار موفدين إليهم. نحن لا نحارب أحداً. ولكننا سنقابل بالسيف من يأتيانا بنية سيئة، ومن يمد يده إلى عيوننا نمد أيادينا إلى روحه.

حين وقف شباكوه وتحخوخوه ومشوست المؤذن في الساحة كان أنزور يستمع إليهم ولكنه لا ينسى أبيات شعر ابنه. كان الصدى الذي يمزق سماوات الجبال لا يزال يتردد في الأذن.

- هل تعرف من نظم الشعر الذي أنشده حاغور؟ - سأل مشوست فلاحاً بجانبه.

- وكيف لا أعرف؟ - استغرب الفلاح، - أليس ابن الأفندي أكجكوه الخبيث الذي هاجر مع المتنفيين إلى البجدوغ؟ ألم ينظمه صادراً من صميم قلب الفلاح؟

- والله عجيب ألا يتفق الولد الذي نظم مثل هذا الشعر ووالده!
- ما هذا الكلام، كيف يتفقان والحال أن الأب سعى لقتل ابنه بصدر الحصان!

- والله هذا الكلام لا يجوز.
- هذه هي الحقيقة ولو كانت لا تجوز!
- ألم يتخلَّ إذن عن أفنديته مع ابنه؟! لا يجوز اعتبار الأب الذي مد يده على ابنه إنساناً. ولا أريد أن آتي على ذكره!.. نكب الولد الذكي. هل سمعت ما قال... ماذا قلت لي اسم الولد؟
- أكجكوه نطار.

- اسمع ماذا قال أكجكوه نطار: "كلها ملكنا جميعاً كالشمس" كيف وقَّع: الملك الجماعي عليك؟ العالم كله. المتنفدون ادَّعوا أنها ملكهم وحدهم، فخرجوا عن طورهم...
تسلل أكجكوه أنزور من مكانه غير قادر على المزيد، وتقدم إلى الأمام. وبعدما وقف قليلاً لم يملك إلا أن يلقي نظرة وُدَّ على الذين كانوا يتحدثون عن نطار.

-3-

الوقت هو ما لا يستطيعون إيقافه، بل عرقلته، وليس من يصنعون له مهداً ثم يحفرون له قبراً. نظن أن صخر الجبل أقسى الصخور ولكنه يتفتت شيئاً فشيئاً. النهر الذي كان يجري أمس يغيض على نحو محسوس. والشجرة التي عُمرت مئات السنين تنهاوى بفعل عمرها. يأتي الشتاء، يمضي العام، ومن كان ينوي

الاحتفاظ بالسيطرة العمر كله يتخلخل جذره. وتُريحه العدالة عن العالم. ويحدث أن يفعلوا هذا بعينه للعدالة؛ تلاقيها وقد حُصرت في الزوايا الضيقة. مضت أعوام ثقيلة والعداء بين فلاحي الشابسغ وأمراء البجدوغ يزداد يوماً بعد يوم. وخلافاً لقولهم: الكلمة الحلوة تُخرج الحية من وكرها، فقد تصامم العرقان الأدغيان عن سماع هذا وتجاها. لم يعد سراً أن الطرفين يستعدان للحرب. ومن هذه الناحية يفعل كل طرف ما بإمكانه.

- ما كان علينا أن نسمع كلاماً بحقوقه، لولا تحرجي منك في هذا الوضع يا أمير، - قال باتجري للأمير ألقس، منصرفين من نواحي سالتوك، - قلبي يحدثني منذ اليوم الأول أن متنفذي الشابسغ وفلاحيهما لن يتفقوا. ولكن لم أتوقع أن تنشأ ضجة بين فلاحي البجدوغ.

- ما فائدة الكلام في هذا الموضوع بعدما نقضنا اتفاق السلام؟ - أجاب الأمير ألقس بعد قليل. - لم أكن أحب أن أخوض الحرب التي تدمر العرق. نحن العرق الأدغي نتباعد بدلاً من أن نتوحد. المأساة أن جيراننا، أكلة الخبز الشابسغ، لا يسمعون شيئاً من كلامنا. ينوون وضعنا أمام أوامرهم. كنت أود أن يدوم السلام بيننا ولو أن الأمر اليوم على هذا النحو.

- كأنك متردد أمام الأمر الذي شرعنا فيه يا أمير؟ - أسرع باتجري بالالتفات إلى أخيه، - تبيئتنا جذورنا في البجدوغ فوق كل اعتبار يا أمير. إن لم نتصرف هكذا وتُرهب الفلاحين فعل بنا فلاحو البجدوغ ما فعل فلاحو الشابسغ بمتنفذيهما. لن يهتموا بكوننا أمراء. ثم إن ضمنا إلينا أرض الشابسغ حللنا مشكلة التشتت العرقي التي تهتم بها. إن لم نُصالح المتنفذين بفلاحي الشابسغ فأنا لا أهتم بما كان قاله الأمير بحقوقه مجر بتحريض من آل شرلأقوه. من يهتم بأمر متنفذي الشابسغ؟! إن لم نحرق بالنار من ألقوا في أرض البجدوغ النار نفسها فلن ينجح مسعانا يا أمير. اطمئن! ما كتبه الله علينا جِملنا. وكما اتفقنا، إذا ذهبنا إلى الحاكم القوزاقي جيبسغ زاخار، فأنا واثق من أنه سيفهمنا. التقيت به بواسطة الجنرال غودوفيتش على الضفة الأخرى لنهر بشزه. وكان ضيفي في هذا الربيع إن كنت تتذكر. وعدني بالمساعدة...

- والله لا أعرف... - قال ألقس، ونظر جهة جبال الشابسغ البعيدة حيث قضى طفولته.

حين نزل بالتجري بأخيه من مرتفع باستوك أعاد التفكير في حديثهما. ممّ لا يزال يتوجس ألقس؟ يُفرغون بلاد البجدوغ حتى لو وقفنا في وجههم كل يوم سراً أو علناً، يثورون في المضافات قائلين: ألسنا مثل فلاحى الشابسغ؟ وبدلاً من أن يُظهروا لنا الاحترام ينظرون إلينا بازدراء من فوق جباههم، دعك من النبلاء الذين يطردونهم من مجالسهم. ولماذا تذهب بعيداً؟ يكفي ما فعل بك من نزلت عندهم وأنت عريس، الإخوة مشقوه: رحلوا جميعهم، ومعهم ابن أختهم لامجي، إلى الشابسغ. وكم من يضمرون لنا العداء ولا يُبدونه؟ حين يحملون شوكهم المعدنية ويهجمون علينا، في هذه الساعة يُنسوك رحمتك وشفتك!.. ودونها أراك دائماً متوجساً من أمر ما...

إلى الضفة اليمينية العالية من نهر بشزه، نظر بالتجري لأنها الجهة التي أفكاره عندها. بدت من بعيد القلعة التي بناها الجيش الروسي بعد أن هزم الجنرال غودوفيتش الترك في أتابه عام 1793، مضت ثلاثة أعوام على نصب عمود أول بيت في المدينة ولكن ما سموها في شتاء العام الماضي إيكاترينودار ليس فيها بعد ما يمكن أن يسمى بالمدينة، ولا شيء يذكرك بها: الأكواخ الصغيرة المغطاة بالقش، وبضعة بيوت لخدمة الجيش، وحكام وكنيسة، فحسب.

سافر بالتجري بعلم الأمير الكبير ألقس لمقابلة الحاكم القوزاقي جيبغ زاخار. استقبل الحاكم القوزاقي الأديغة القادمين من الضفة اليسرى لنهر بشزه. وحضرت الموائد دون تأخير. كان جيبغ مطلعاً على الموضوع الذي جاء من أجله الأمير. كان الأمير لمّح له في زيارته في هذا الربيع. والأخير وعد بالتفكير في الأمر، فبادره:

- سبب مجيئي يا جار هو تأميلك إياي في الربيع الجاري بالمدافع. وطلبت مني الانتظار بضعة أشهر ريثما تستشير؛ ماذا جرى؟ - ابتسم بالتجري في وجه الحاكم القوزاقي كأنه غير مهتم بالجواب. - إن أفرحتي أرسلت إليك عبر نهر بشزه حصاناً مسلحاً على عادة الأديغة.

نهض جيسينغ زاخار دون كلام إلى الغرفة المجاورة. ضاق قلبُ بالتجري رغم أن الحاكم لم يتأخر.

- قررنا ألا نتدخل في أمور الأديغة.

- ولماذا هذا القرار؟

- لأن إقليم الأديغة مرتبط بتركيا.

- نحن لسنا مرتبطين بأحد!.. وإن كنّا فبقرار على ورقة فحسب. - احتدّ بالتجري لا يملك ضبط نفسه، - ما علاقتنا نحن بتركيا!.. إذا كان هذا جوابك فسأسافر بشخصي إلى قيصركم، وأقابله، وأتوقع أن يفهمني.

- أنا معك في هذا. وأعدك بالمساعدة في طريقة الزيارة. ولكن لا أعرف إن كنت قادراً على مقابلته. - قال الحاكم مرتاحاً لتصميم الأمير الأديغي الجار.

- من يستطيع منعي من مقابلة القيصر؟! - قال بالتجري تغلبه حمية الشباب، ناسياً أنه في بلاد أخرى. ثم قال لنفسه بصوت هادئ: - والله سأقابله بالتأكيد كما يؤمننا هذا!..

...

انصرف الضيف، وبقي جيسينغ وحده، فابتسم: استطاع أن يوصل ضيفه بكل وسيلة إلى ما يريد. أنا أنجزت ما عليّ. وسنرى الآن ما يمكن أن تفعله أنت. ملاحظة قيصرنا تصل إلى البعيد: إن كان يريدني كما قال فلا يوسّطك إليّ، بل ليتوسّل إليّ بنفسه. الأفضل في قضايا الأديغة أن تتعلق كل خطوة فيها بالدولة، لأن الأتراك سيعترضون: لا تتدخلوا في شؤون الضفة الأخرى لنهر بشزه.

كانت قيصرة روسيا إيكاترين الثانية تقول هذا ولكنها لم تترك موضوعاً لا تتدخل فيه سراً أو علناً. لم تعد القيصرة تثق بأحد بعد الحرب المريعة التي تفني العرق مع إيميليان بوغاجيف، والتي نجت هي منها بشق النفس. لا تنسى إيكاترين الثانية قول بوغاجيف الذي دُمّر جيشه ولكنه لا يزال طليقاً: لا تياسوا، سننوجه إلى الأديغة الأحرار على الضفة الأخرى للنهر، نؤلف جيشاً، ونهاجم القيصر مرة أخرى، صحيح أن القائل مات منذ زمن طويل، ولكن كلامه لا يزال في الذاكرة. كانت على علم بالحرب التي يشنها الفلاحون

الأديغة ضد الأمراء - النبلاء ولو أنها لم تتدخل، إذ يصلها تقرير شهري عنها. كانت جاهزة لما ستتصرف به عند الضرورة وإن لم تصدر أمراً، تقول: لن تكون ثورة الفلاحين الأديغة أعنف من الثورة التي نشبت في فرنسا قبل نصف عام، والتي سُحقت.

في أحد الأيام، في الربيع الماضي، أخبروا القيصرة بفكرة إرسال مبعوثين من اليعاقبة¹ في غمرة الصراعات ضمن الثورة الفرنسية المنتصرة، إلى الفلاحين الأديغة المنتفضين.

- ما مصدر الخبر؟ - نهضت القيصرة إيكاترينا وقد شحب خداهما، ثم عادت وجلست لا تعرف السبب. وأبعدت الأوراق التي أمامها.

- الناس في باريس أيتها القيصرة.

- وما مقدار صحته؟

- لا مجال للشك فيه.

- ومن هما؟

- يعاقبة. العقيد أنجيلي، والسفير كومينفيل.

- أرسلوا حالاً إلى سفرائنا في أوربا ليقطعوا طريقهما!...

وكما تفعل إيكاترينا في مواقف الضيق عادت ومرت بخطوات ناعمة وسريعة على الأرض التي تلمع كالمرآة تحت قدميها، إلى حيث تعتزل في الغرفة الأخرى.

...

وبعد شهرين، قُبِضَ في فينيسيا بإيطاليا على المندوبين الفرنسيين المقرر مجيئهما إلى بلاد الأديغة: أنجيلي وكومينفيل. ولم يمض كثير من الوقت حتى سُلِّمَ إلى من قضى على حكم الحركة اليعقوبية في باريس. وأعدما دون محاكمة.

¹ اليعاقبة نسبة إلى دير يعقوب الذي استأجره نادي اليعاقبة، وكانوا من النواب الفرنسيين، ولهم مطالب ثورية جداً من قبيل المطالبة بالجمهورية وفصل الكنيسة عن الدولة، ومنهم روبسبير المشهور. انتهت حركتهم وسط خلافات دموية عام 1794.

لم يتحقق الأمر الذي تحمس له الأمير حجمقوه بالتجري بسهولة كما توقع. تمخضت الرحلة عن كثير من النتائج الضرورية وغير الضرورية. في البداية حين حمل إلى أخيه الأكبر ألقس مشروعه لم يفوضه في أن يفعل ما يريد. وكالعادة في مسائل الحرب كان يماطل في الإجابة بحجة معرفة ردّ فعل الترك حيناً، والفلاحين الأديغة حيناً. ولكن بالتجري لم يكن يهتم بتردد أخيه الأمير الكبير. بل ما يشغل باله هو ردّ الفعل المحتمل لأمرء البجدوغ. ولا يستطيع إلا أن يفكر في ما سيكون موقف النبلاء الكبار والنبلاء الصغار. ثم يكتسب موقف الفلاحين البجدوغ في الموضوعات الحالية أهمية فوق أهمية الجميع شيئاً فشيئاً، فتخطر أفكار جديدة له غير متوقعة.

لم يُردّ بالتجري أن يكشف المشروع الذي يعمل عليه فقابل النبلاء واحداً واحداً خلال أشهر الخريف الثلاثة. وافقه الأكثرون، ومن كان يقول كأخيه الأكبر: "والله لا أعرف" ليسوا قلائل. وقرر آخرون أن بإمكانهم الانتصار على الفلاحين الشابسغ وحدهم دون حاجة إلى القيصرة الروسية فلا داعي لأن نسافر إلى هذا المكان البعيد، ونملأ المرأة الروسية غروراً بطلب المساعدة منها. شعر بالتجري أن رأي الموافقين على طلب المساعدة يُعجب غير الموافقين دون أن يعبروا صراحة، والجميع معه. فتوجه مرة أخرى إلى أخيه:

- أنت من آتية بكلمتي الأخيرة يا أمير، - ما رأيك في السفر إلى القيصرة؟
حُيِّل لألقس أن من أمامه ليس أخاه الأصغر، بل من إحدى القرى التي لا يعرفها. عاش إلى الآن يشك فيه وإن كان يخفي شعوره. كانت هذه الفكرة إذا هاجمت الذهن فجأة فكر في كيفية إنجازها بسرعة، ولا يريد أن ينشغل بها. ولكن مهما أطبقت عليه أهمُّ الأفكار كانت هذه الفكرة تعلق الجميع شيئاً فشيئاً، فبقيت في رأسه فكرةً عنيدة خلال نصف العام الماضي. واليوم وجب عليه أن يسأل نفسه صراحة: ما الذي يبحث عنه أخوه؟ لماذا يلح علي لترتيب أمور الأمير الكبير؟ لا تتلهف يا أخي الصغير، سيأتيك هذا المنصب في حينه. وسيكرهونك حياتك. هل يشغل بالك هذا المشروع أكثر مما يشغلني؟ لا تظن

أني لا أعرف لقاءاتك السرية بالنبلاء في مضافاتهم!.. ليس في بلاد البجدوغ سرٌّ بين شخصين لا يصل إليّ. وأنت من أين لك أن تعرف هذا؟ ستفهم حين تكون في محلي فحسب. سيأتونك بالأخبار حتى لو لم تكن راغباً فيها. وإن لم يأتوك جرحوا شعورك.

- ماذا سيكون تعليقي يا أمير؟ - تخلص ألقس من أفكاره المتضاربة. ونظر إلى أخيه كأن كلمات باردة لم ترد إلى ذهنه قط. - وقفنا على غير علم فوق جمرة النار. لم يجر لنا أيُّ خير. إن عرف فلاحو الشابسغ أنك مسافر للقاء القيصر توسلوا هم إلى تركيا؟..

- يمكن أن يحدث هذا أيضاً... أنا واثق أن تركيا ستقف إلى جانب المتنفذين، لا إلى جانب الفلاحين. وهذا ما يدعوني إلى الأمل في أن يفهمنا القيصر.

- متى تنوي السفر؟

- متى أذنت لي يا أمير.

في طريقه إلى بتراف تذكر أكثر من مرة أنه انتزع من أخيه الأكبر عبارة "مع السلامة إذن". لم يكن الاثنان قادرين، ولو أن أمّاً واحدة ولدتهما، على مقاومة الغيرة بينهما. كان باتجري يهتم كثيراً في البداية بتوجُّس أخيه الكبير من المشروع. ثم خرج من هذا التوجُّس بين العالم به وغير العالم إلى الغضب. وبعد مدة صار طامحاً إلى سلطات الأمير الكبير. لما عرف متنفذو الشابسغ أنهم لم يجنوا خيراً من تردد الأمير الكبير التفوا حول باتجري، وهذا ما جعله يصدّق كل ما يقولونه له. والآن، وهو مسافر إلى جهة واحدة فحسب، وطريقه يمتد أكثر من شهر، وعنده وقت طويل للتفكير، ينظر إلى نفسه بمنظار آخر تماماً. ولكنه لا يعرف التراجع عن المهمة التي يسافر من أجلها. لا يفكر في الأمر؛ بل لا يشكّ فيه. ولا يتخذ من رفاقه الثلاثة موضع ثقة في ما يعتمل في قلبه. ما يفكر فيه باتجري في الأشهر القليلة الماضية يحتفظ به في قلبه لذيذاً لذيذاً: إن وحدت الأعراق المتنافرة في إقليم الأديغة جعلت منها دولة. وإن بدأت المحاوله من بلاد الشابسغ رضح الأبراخ والجمكوي. الجمكوي لست واثقاً منهم، ولكن هل أنا صهر الأبراخ عبثاً إن كانوا غير مستعدين ليتقبلوا شيئاً من كلامي؟ لماذا

لا نؤسس نحن دولة كالقيصر والترك؟ بل قبل الترك والروس، لماذا ليس عندنا سلطان واحد كالكرج؟ إن لم نفعل هذا فلن يتحقق لنا شيء. سنعيش حياتنا ينيهنا من ينتصر علينا ريثما نقف في وجهه. كان بحقوقه شرانذوقه تحامل على وإيقق تامبر بحجة أنه فلاح، ولكنه رجل حكيم علامةً على أنه خالط الناس. ليس عنده إلا هذه الفكرة: الدولة. ولكني لا أستطيع موافقته لأنه يشد الدولة إلى جهة الفلاحين. الفلاح يجب أن يبقى في وضعه فلاحاً. هؤلاء إن أجلستهم على طرف مائدتك طمحووا غداً إلى رأسها.

وجب على باتجري أن ينتظر شهراً لمقابلة القيصرة إيكاترين الثانية. شعر باتجري بالإهانة حين أُبلغ أنه لن يستطيع مقابلتها بسرعة كما أراد. وهل يصح أن تقول لضيفك إنك يجب أن تنتظر شهراً؟ أي عادة هذه؟ لولا اضطراري لقلت: لا يجوز اتخاذ مَنْ لا أخلاق عنده مضيفاً، وعُدْتُ. ولكن إن كان هذا ما وصلت إليه فلن أخطو خطوة واحدة على شوارع مدينتك المرصوفة بالحجر قبل تحقيق مرادي. أعدك أن أنفذ لك هذا!..

لم تعط القيصرة الأمير الأديغي موعداً بعد شهر دون نفاق. حين آن الموعد بعد شهر، أجلسه بضعة أيام أخرى بحجج مختلفة، تريد أن تقول: إن جاء يريدنا فلينتظر حتى يضعف عزمه.

في النهار، قرابة الساعة الثانية أصرطُحب باتجري إلى القاعة التي تلمع أرضها فجلس. خرج من الباب الآخر رجلان بالإضافة إلى مترجمه. قال باتجري: هؤلاء هم الأمراء الحقيقيون، أما إمرتنا نحن فلا شيء. ثم طُليت هذه الأرضية الخشبية؟ أبدهن الخروف؟ أم الشمع؟ حقاً لا بد أنه الشمع إذ تفوح منه رائحة الصفرة. لأجل هذا يشتري القيصر الشمع من الأديغة. ثم هل تظن من السهل صيانة الباب الكبير الذي يفتح وينغلق، والذي قادوني عبْرَه؟ يا حسرتي يا ألقس، يا أمير البجدوغ الكبير! وأنت يا كبير أمير نبلاء البجدوغ!

حين انفتح الباب المواجه لباتجري، والمزين بالكتابات، نهض كل من في القاعة. ورفع هو الآخر جسده عن الكرسي غير مصدق ما يرى. دخلت القيصرة إيكاترين الثانية إلى القاعة بثوبها الأبيض المفتوح الصدر، كأن ملابسها سترفعها

وتطير بها، واستدارت إلى حيث يجلس ضيفها الأديغي. قال بالتجري وهو ينظر إلى المرأة ذات الصدر المفكوك الأزرار، والشعر الأجعد المضفور: يا الله ما هذا الذي أرى! لا تحجل من الرجال الذين في حضرتها فيكاد صدرها يبين كله. والشعر كأنه مرشوش بالطحين الأبيض. هي نشيطة رغم أنها متقدمة في العمر. وتحت الحاجبين الرفيعين عيان زرقاوان صافيتان دب إليهما شيء من الوهن، تتوددان إليك. والحاجبان الرفيعان متسقان مع الشفتين الرقيقتين اللتين تقطران فرحاً. لابد أنها كانت جميلة في صباها. حافظت على قوامها الدقيق خلافاً لعمرها. ليست امرأة ضخمة ولا ضئيلة. لو رأتها عُشْفَج لما صدَّقَتْ جمالها، وفي الحال تذكر الزوجة.

- يا ألكسندر أندريفيتش، - توقفت القيصرة قبل أن تصل إلى الضيف بقليل، ونادت بيزورودكو الذي يحمل أعباء بلادها: - أمثل هذا الضيف الأمير الشاب اللطيف من تركناه ينتظرنا شهراً كاملاً؟! مثل هذا الشاب الحبيب تنتظره النساء، ولا ينتظرهن هو!..

- ما العمل يا إيكاترينا ألكسييفنا، لم تُقلعي عن عُجْجك رغم شيخوختك، قال بيزورودكو، وابتسم. - لم نستطع ترتيب مقابلة الضيف على هوانا. لا يؤاخذنا!.. والضيف يعرف أن قضايا البلد فوق الجميع.

- لا يا ألكسندر أندريفيتش، لا أوافقك، - التفتت إيكاترينا بحث نحو الضيف، وابتسمت له، - لا تظن أنك تموه على ذنبك بهذا. عليك أن تحضّر الليلة لقاء مسائياً للضيف، فنستمتع برؤياه.

قال بالتجري بعد تحية الوداع: القيصرة تحب المزاح، فهدأ باله. ثم صارحها بالموضوع الذي أتى من أجله، ناسياً متاعب الطريق الطويل، وتعرّضه لكل هذا البرد:

- جئت إليك وعندي رجاء ملح. - رأى الأمير بالتجري الناس ينهضون في حضرة القيصرة فنهض هو أيضاً، فأشارت إليه أن يجلس. فرح جداً إذ لم يدعوه واقفاً أمام القيصرة المرأة، ونظر نظرة رضا إلى من تكرمت بهذا. - الفلاحون الشابسغ انتفضوا ويضايقون الأمراء - النبلاء. ونحتاج إلى عون من قبلكم من

أجل إخماد حركتهم.

وفي الحال شحب وجهه إيكاترينا، وتذكرت الفلاحين الذين ساندوا إميليان بوغاجيف قبل عشرين عاماً...

-5-

انتظر أمراء البجدوغ ونبلاؤهم إلى أن تحمى شمس الربيع وتُذيب الثلوج قبل عقد مؤتمراتهم.

من كانوا لا يطيعون إقامتهم أشباه أسرى في البجدوغ فيحسبون الوقت، لا باليوم، بل بالساعة، هم متنفذو الشابسغ. حين رجع حجمقوه بالتجري من لقاء القيصرة تخيل متنفذو الشابسغ أن قضيتهم محلولة. والإجراء الوحيد المتبقي هو أن يأتي إليهم طاردهم خائفين نادمين، ويترجّوهم العودة إلى ديارهم واضعين أنفسهم ممسحة تحت أقدامهم. ولذلك كانوا يُشيعون الكثير مما تجود به أفواههم: الجيش الروسي عبّر نهر بشزه، ويحطم الفلاحين، ودخل أرض الشابسغ معيداً معه المتنفذين إلى دورهم. ولا يكفي هذا فباتفاق بين تركيا وروسيا يأتي من جهة البحر ويهاجم الفلاحين العصاة، ويدمرهم. ومهما أشاعوا فقد مرت أشهر الشتاء الثقيلة على الشابسغ ولم يتحقق شيء مما أشاعوا. وحلت أيام الربيع الواعدة.

في الربيع، وقد بقي على مؤتمر البجدوغ عدة أيام أتى بارينقوه بغدسار مربّي بالتجري إلى ربيبه. ليس في البلاد خبر خلال نصف العام الماضي إلا حرب البجدوغ والشابسغ، فكان الجميع مهمومين بها. متى التأمت جماعة، أو تحدث شخصان، فهذا وحده موضوع الحديث. وكان سبب مجيء المربي إلى ربيبه هو ما يُقلق الجميع. ولكنه يريد أن يكشف لباتجري أمراً ظل سراً إلى حينه.

- ما موقف أخيك الأمير الكبير يا بالتجري في ما سيبحثه المؤتمر؟

- يعلن أنه سيحارب.

- هكذا إذن!..! خمنتُ هذا.

- لماذا تقول هذا يا والدنا؟ هل سمعت شيئاً غير صحيح؟
- لم أسمع شيئاً... ولكنني أستغرب النشاط الذي يديه ألقس في هذا الموضوع.
هل يريد أن يجعل من نفسه قائداً للجيش بعدما حُسم الأمر؟ كان الأفضل له
أن يزور الكعبة ويتحلل من نذر جدّه. من الصعب أن تقتحم أرض الشابسغ
عدواً وهم الذين ربّوك!..

كان باتجري ينوي أن يقول لمريه: آل شراًقوه المتنفذون هم من ربّوا ألقس، لا
الفلاحون. غير أنه فهم مغزى الكلام في اللحظة نفسها. قال باتجري لنفسه:
لا يسمع هذا لأول مرة اليوم، لم يصارحه في طريقه إلى بطرسبورغ. بأي حجة
يغدر بأخيه الذي ولدته أمه، فيسلبه الإمرة الكبرى وسط استغراب السامعين؟
إن كنتم فكرتم في الأمر وحدكم فوجدتموني جديراً بالمنصب فحياكم الله، ولكن
لن أمارس هذه الخيانة من نفسي.

- الأمير الكبير ألقس في موقف حرج. ما العمل؟ - قال باتجري، ونظر إلى
مريه نظرتة إلى أهله. وأضاف بعد قليل: - أياً كان قائدنا فلا بد أن نتوجه إلى
فلاحي الشابسغ بالسلاح. إن أخضعناهم صرنا دولة واحدة فتوسّعنا. يكفي
ما عشنا قرى وإمارات صغيرة!..

في صباح يوم الجمعة الريعي، ساعة بدء اهتزاز أوراق الأشجار، انعقد مؤتمر
البجدوغ. ودّعي الفلاحون كعادة متّبعة. وكالعادة المتبعة أيضاً طرح الأمير
الكبير ألقس موضوع المؤتمر أمام المجتمعين:

- أيها المؤتمر، أيتها الجماعة، لن أطيل الكلام. ليس بيننا من لا يعرف سبب
اجتماعنا. انتقض السلام الذي بين الشابسغ والبجدوغ. تكلمنا مع جيراننا
بالحسنى وبالشدة، ولكنهم لم يتقبلوا شيئاً مما قلنا لهم. يهددوننا بالهجوم علينا
وسحقنا. ما رأيكم في الموضوع؟

- هؤلاء خرجوا عن طورهم يا أمير. - قال الأمير بحقوقه، - الإهانة التي
وجهوها للمتنفذين من الشابسغ موجهة إلينا أيضاً. نحن من عرق واحد، ومن
عظم واحد وإن لم يحملوا لقب الأمير أو النبيل. والاحترام الذي لم يُدوه لهم لا
يبدونه لنا. السوط الذي يلتف حول اليد ثلاث مرات يعيد المثة، والسوط

الذي أعرفه يعيد للمتنفذين الشابسغ أرضهم هو السلاح. ما يجعلهم يستعيدون بأسناهم ما ركلوه بأرجلهم هو السلاح. ما تمدّه إلى روح من يمد يده إلى عينك أيتها الجماعة هو السلاح. إن طلبتم منا وضع الأرجل في الركاب فأنا من جهتي أعدكم بالأأخذلكم. لست وحدي بل أتكلم باسم القرى الثلاث التي أمثلها. لم تكن مسألة تحضير الأمراء والنبلاء البجدوغ للهجوم على الفلاحين الشابسغ موضوع خلاف. كانوا يستعدون لها سرّاً وعلناً منذ سنوات. وما تبقى هو أن يتخذ المؤتمر اليوم القرار فتُمنح لهم حرية التصرف. لم يكن بين من اجتمعوا في هذا المكان من ليس لديه قرار نهائي بالحرب. وجوه الجميع المستنفرة موجهة نحو الشابسغ. في السنوات الأخيرة، بعد زيارة الأمير باتجري إلى قيصرية روسيا، استطاع الأمراء - النبلاء أن يستميلوا بعض الفلاحين بالرشوة. وخذعوا غيرهم بحجة أن الفلاحين سينهبوننا. وكانت مئات الأسر قد رحلت إلى الشابسغ، حيث نظام الفلاحين، دون الاستجابة للأمراء - النبلاء. تكلم الكثيرون في الساحة، من أمراء ونبلاء وفلاحين أغنياء، بالإضافة إلى الأمير مجر. كان كلام الجميع واضحاً كالنهار: لم يتكلموا إلا في الحرب. حتى الأمير ججقوه الذي قال: "لا يجوز هذا الذي تحاولونه" تكلم شاعراً باهتزاز أساس إمرته وهو في قرينته، مدفوعاً بقلقه، قائلاً: يجب علينا أن نعرّف كل فلاح مكانته، وإلا فهم عنيدون، لم تبق فيهم شهامة ولا يحترمون كلمتهم. والأمير حجمعوه حمز الأفتس اقتحم الساحة أكثر من مرة، ولم يتأخر عن رفاقه المؤتمرين. ولما أنهى كلمته أطلق بضع عبارات نارية كأنه سيُسقط الشمس التي توسطت السماء.

مهما قيل في المؤتمر، وأياً تكلم، فالوحيد الذي ظل صامتاً هو باتجري: كان يتأملهم بوجه قلق قائلاً: أنا فعلتُ ما عليّ وأنتم قلتم ما عليكم، يريد أن يكتّم ما في نفسه. ومريه بارينقوه بغدسار الجالس غير بعيد عنه، يلتفت إليه من حين إلى حين، ثم ينظر في وجه الأمير قزانقوه والأمير الكبير ألقس. لم يكن بارينقوه بغدسار مهتماً جداً بالموضوع الأول. كان يعرف النتيجة منذ وقت طويل. والموضوع المحضّر هو الذي فوق كل شيء الآن: هل يمكن أن يتراجع

الأمير قزانقوه عمّا تعهّد أن يفعله في المؤتمر؟ فجأة استولت الفكرة على ذهن بغدسار، ثم زابلتة بسرعة كما جاءته. ونظر إلى مجموعة النبلاء التي يقف ابنه ليفان ابنه قريباً منها.

- يا إلهي، - في اللحظة تقدم الأمير ألقس إلى الساحة، وقال متوجهاً إلى القبلية: - المجتمعون في مؤتمر البجدوغ قرروا الحرب بعلمك...

- حرب!.. - ردد الواقفون معاً وأيديهم اليمنى على خناجرهم.

- يا إلهي، امنحنا القوة لنتنصر، - رفع ألقس مرة أخرى ذراعيه في الهواء.

- آمين! - مسحوا وجوههم بأيديهم، ولقوا بها على لحاهم. ووافقوا أميرهم الكبير أن يتحقق لهم مرادهم.

كان الأمراء - النبلاء الذين جمدهم الهواء الأزرق البارد، راغبين في إنهاء المؤتمر بأسرع ما يمكن. ومن سيقود جيش البجدوغ معروف دون حاجة إلى كلام: الأمير الكبير ألقس الذي أدار أعمال مؤتمر أمراء البجدوغ. ومع ذلك كان يجب البت في الأمر علناً. كانت الخطوة الثانية تثقل على حجمقوه ألقس أكثر من الأولى وهي الكلام في موضوع الحرب. وكان مخطئاً في اعتقاده أن أحداً غيره لا يعرف السبب. ولما طرح مرحب أفندي الموضوع على المؤتمر كما اتفق مع ألقس، ردد الجميع قبل أن يكمل الأفندي كلامه، متوحدين حول قائد الجيش:

- الأمير ألقس قائد جيشنا!..

- سلاحك سلاحنا يا أمير!

ألقت طريقة صراخ الأمراء - النبلاء اليأس في قلب بغدسار. خُيِّل إليه أن الأمل الذي وضعه في الأمير قزانقوه قد تضاءل. ولم يستطع إلا أن ينظر جهة بائجري الذي لا يقول شيئاً. ولكنه رأى الأمير قزانقوه يدخل الساحة رافعاً يده، فعاد الوعي إلى التاجر بغدسار، وفرح من جديد إذ ان برميل البارود الذي أرسله إلى جاره لم يذهب سدى.

- أيتها الجماعة، أيها المؤتمر، - قال الأمير قزانقوه، - أنا عندي وجهة نظر أخرى في موضوع قائد الجيش. ليس لأنني لا أثق بمن أُكِّن له كل احترام الأمير

ألقس، - هو جدير بها، وشجاع، ورجولته معروفة ليس في البجدوغ وحدها بل في كل إقليم الأديغة. ولكني لا أستطيع أن أرسل ربيب الشابسغ محارباً إليهم. ليس هذا الموضوع سهلاً، فلنفكر، لسنا اليوم في موقف نتحمل فيه أي وهن!..

سرى صمتٌ على قبعات الأمراء - النبلاء فلم يعد يُسمع إلا صوت الريح التي تحرك أغصان الأشجار. قال الأمير الكبير ألقس: جرى لي ما كنت أتوَّجس منه. رفع جفنيه الثقيلين وألقى نظرة خفية على الأمير باتجري: ليحكمك الله يا أخي الصغير!.. تحقّق لك هدفك تماماً. يا ربي هل أنهي هنا منصب الأمير الكبير؟

- ليس الفلاحون الشابسغ العنيدون من ربي الأمير ألقس بل آل شرلاقوه!..
- قال النبيل مغاسه ناقضاً الهدوء.

- لا يمكن الاختلاف مع ملاحظة الأمير قزانقوه. - ابتعد الأمير قنيجق عن أصحابه، - حياك الله يا أمير، وصل تفكيرك إلى البعيد. حميتنا من الخطأ. لا يمكن لمن يرفع السيف في وجوه من ربّوه إلا أن تهتز يده. مهما كنت عنيفاً فستتحرك الشفقة تحت السيف. أنا أرشح الأمير الأصغر باتجري لمنصب قائد الجيش. من استطاع الوصول إلى بتربف يا جماعة يمكنه أن يقودنا إلى الشابسغ!..

غاب الأمير ألقس لحظة عن نفسه ناسياً أهو في المؤتمر أم ليس فيه. ثم دخل الساحة متمهلاً بيد مرفوعة.

-6-

يحدث أن لا يتحقق ما يقال، ولكن لا يحدث ألا يُروى. كل ما جرى في مؤتمر البجدوغ وصل في ليلة اليوم نفسه إلى الشابسغ. قال حاغور موسى:
- هجوم الأمراء - النبلاء علينا توقعته منذ زمن بعيد. ليس في هذا عجيب. ولكن ما لم يخطر لي البتة هو أن تسلب إمارة جيش البجدوغ من الأمير الكبير ألقس حجمقوه، بقرار من "الدولة"، وتسلم إلى أخيه الأصغر باتجري.

- يقال: قائمة البقرة لا تقتل عجلًا يا زعيم الخير. - قال الفلاح بترز.

- وهذا صحيح. - تابع حاغور الحديث الذي انثزع منه، ووافق الحداد الذي لا يعمل منذ خريف العام الماضي إلا صبّ السيوف. - إذا فكرت اكتشفت أنهم لم يخطئوا. صحيح أنهم أعداؤنا ولكن تبين أن الأمراء - النبلاء البجدوغ أذكىاء. تحلّوا بالرجولة فحَمَوْنَا من ربيبنا.

تناول موسى الكيس وملاؤه تبعًا. لم يعرف الرجل في نصف العام الأخير راحة. كان يعرف بوضوح كوضوح الشمس أن الأمراء - النبلاء البجدوغ سيهاجمون الفلاحين الشابسغ فلم يترك قرية في الشابسغ لم يزرها. وشباكوه أحمد الذي كلفوه بقيادة جيش الفرسان يتابع العمل دون حاجة إلى تعليمات. أكبر نقطة ضعف عند الشابسغ هي جيش المشاة. الأديغة يقضون عمرهم فرساناً فأسلحة الفرسان جاهزة دائماً. ولكنهم يفتقرون إلى أسلحة المشاة: الدروع والسيوف والأسنة أطراف الرماح، احتاج تحضيرها إلى عمل مرهق. قضى الحدادون في كل قرية من الشابسغ الشتاء وليس لهم عمل إلا تحضيرها، ووصلوا إلى بداية الربيع. أفران الحديد لا تتحمل النار. والفحم لا يكفي. والتجار يعرفون بقرب الحرب فزادوا في أسعار البارود والرصاص. ولم تعد سوق الساحل ملأى بهما كما في السابق. يبيعونك سراً بثلاثة أو أربعة أضعاف السعر. والنقود فقدت قيمتها. يطلبون بدلاً منها الذهب والفضة وجلود الحيوانات والشمع. في حال الضرورة يمكن أن تجد الجلود والشمع ولكن هناك طلباً على الذهب والفضة أكثر من الجلود والشمع. ومن هذه الناحية تنازل الفلاحون الشابسغ عن كل ما يملكون: يأتون بزنانير الفضة والخواتم والأقراط حتى خيوط الذهب. وفي كل قرية عدد من الأشخاص المكلفين بتبديلها.

- هل ستؤيد القيصرة الأمراء - النبلاء البجدوغ كما يدّعون؟ - سأل تحخوخوه وهو بمص الغليون. ثم أضاف كمن يكلم نفسه: - لتؤيدهم إن شاءت؛ لن نتراجع قيد إصبع. توقعْتُ أن يطمح بالتجري إلى قيادة الجيش. بأي حجة سيدخل جيش القيصرة إلى بلادنا؟ ما شأنهم بنا؟ لا أظن أن القيصرة تقترف مثل هذا العار. ربما يريد الأمراء - النبلاء البجدوغ إرهابنا!..

- ونحن ألا يجوز أن نترجى الترك؟ - سأل الفلاح مشوست.

- لا، - حسم حاغور، - لن نذهب إلى أحد متوسلين. لماذا نلجأ إلى تركيا في وجود فلاحي الأبراخ والجمكوي والويخ والمخوش؟ أمس أرسل لنا فلاحو الجمكوي ملء عربتي ثيران من السلاح. أخبرونا أنهم سيأتون لنجدتنا بقيادة واحد منهم في حال هجوم البجدوغ. والفلاح أرسى توجهه إلى الأبراخ، والأفندي أكجكوه سافر إلى الويخ. وفلاحو المخوش وعدوا بمئة فارس. ووستقوه سافر إلى الأبخاز. والفلاح نردم جهاز فلاحي ينجج، جاءهم لاسه بالخبر لأنها كانت في بيت أهلها. لا يأس بإذن الله مادام الفلاحون يساندوننا. ما يُقلقني يا تحخوخوه هو جيش المشاة. لا يزال يفتقر إلى السلاح.

- القطع الخمسمئة التي يرسلها طلعت نتأمل وصولها اليوم أو غداً. - أجب نابفوه حاغور، وأضاف لوضع الجالسين الآخرين في الصورة، - كان سلاح طلعت وصلنا لولا أن وجب مجيئها عن طريق القرم. حالما تصلنا يكتمل تسليح جيش الناتخووي. سوباش مكلف بهذه الشحنة، ينتظر السفينة.

- حيا الله طلعت. - قال بترز شعبان راضياً، - تفهم صعوبة موقفنا.

- أليس سبب اعتقال طلعت هو اكتشاف تجهيزه السلاح بأموال الفلاحين الأتراك. - أجب حاغور موسى مستثلاً الخبر الذي سمعه مؤخراً.

- يقال إن حسن مراد هو من وشى به. لما عرف فاضل ملاح السفينة أن الترك يلاحقونه توجه إلى القرم، لا إلى هنا...

...

مضى شهر نيسان، وحل شهر أيار الذي يصفو فيه الجو ويحل موسم الفلاحة. الفلاحون المتابعون قضية الجيش في المساء يقومون بأعمال الربيع في الأرض نهاراً بلا استراحة. يتعاون من أقسموا بمين العهد؛ فما لا يستطيع الفرد إنجازها يتعاون اثنان أو ثلاثة عليه. والنساء يقمن بأعمال الرجال. والصبيان يحلون محل آبائهم في مسؤوليات الأسرة. حاغور لاشين لا تعرف متى يخرج أولادها من البيت، ولا متى يعودون. وبداد الذي رحل مع المتنفذين وعاد في الخريف نفسه يعيش دون أن يتدخل في شؤون أحد.

قضى الإخوة حاغور أربعة أعوام لا يستغنون عن أحبيهم، ويُعزّون زوجته إن قابلوها بصفتها كَنَّة لهم، ويدللون أولاده. وبداد لم يكن يعادي إخوته ولكنه لا يتحدث إليهم. وإن التقى بأحدهم مصادفة في الشارع تجاوزه بقلب متألم، ولم يتوقف. ومتى زار أمه لم يلق عليهم السلام؟ وإذا احتاج شيئاً طلب من الأعراب، لا منهم. مهما عاش بداد عيشة تختلف عن عيشة أهل القرية لم يملك موسى وسائر إخوته إلا أن يتألموا.

تمددت قضية الشابغ من باستوك إلى سائر بلاد الأديعة. ووصلت إلى قيصرة روسيا. وبداد يعيش ليس من هنا ولا من هناك، يدفع ثمن جمود طبعه، يرى الجميع طريقة عيشه. قال موسى يوماً وهو عائد من كُداق: إن لم تكن حاله همهم فلماذا لا ينظر إلى حال إخوته؟ بل دعك من إخوته، لماذا لا ينظر إلى ابنه الأكبر سالي. تذكر موسى كيف اشتكى إليه سالي. وليس سالي وحده بل ابن موسى نفسه لام أباه لأن عمه يتسبب في الإهانة لهم أمام فلاحى الشابغ. لا يمكن لهذه الحال أن تستمر؛ سأكلّمه حالما أصل إلى القرية.

عاد موسى مساء إلى باستوك، فعرج في طريقه على الفلاحين الذين يقودهم كُنّاي لينقل أحوالهم إلى تحخوخوه. رأى موسى ما على المائدة من ملاعق ذهبية وخشبية فتوقف لا يعرف السبب:

- أهلاً يا حاغور، - ترك تحخوخوه المائدة التي عليها الذهب، واستقبله، - ما الأخبار حيث كنت؟

- ليست الأحوال سيئة... ولكن ما أستغربه هو ما أراه. من أين كل هذا؟

- ألم تلتق بأحد في أثناء دخولك الدار؟

- لا.

- وإن لم تلتق فهذه كلها من عند بداد. جاء وألقاها على المائدة قائلاً: هذا ما أستطيع أن أنفعكم به، وخرج. ولكن لا أعرف من أين جاء بها...

- أنا أعرف يا تحخوخوه من أين جاء بها. - قال حاغور، ثم تجاوز الزنارين الذهبيين، وترك الملاعق التي كان أوصى بها لتحخوخوه، ومد يده إلى الزنار الفضي الذي كان ملكاً لوالد جمكوي زيش.

الفصل الثاني والعشرون

-1-

اليوم هو الثلاثاء، التاسع والعشرون من الشهر الأول من صيف عام 1796، في المكان الذي يسمونه مرعى نجد.

إذا خرجت من غابات جبال الشابسغ المتلاصقة، ودخلت إقليم البجدوغ المرتفع، فأول ما يلقاك فجأة على شكل سهل مستو هادئ هو مرعى نجد. وإذا خرجت من يسار نهر بشزه متوجهاً إلى غابة بزمز، فالمرعى يدنو من نهر بزيقوه الصغير متكلماً في فمه، ملتفاً على المرتفع، يتلوى معه ويراقصه، فيتسع جهة الشمال، ويتلاشى على ضفة المستنقع. لا يمكن أن تصف الأرض التي يشكل المرتفع حاجباً لها من طرف، والمرعى مستراحاً لها من الطرف الثاني، بأنها صغيرة. إن كنت على رجليك وجريت من أحد طرفي المرعى إلى الطرف الآخر اكتشفت أنك قطعت مسافة لا بأس بها. وإن كنت راكباً حصاناً جيداً قطعته في غلوتين. أما العرض، فإن لم تحسب التوسع نحو الشمال، فهو أصغر كثيراً من الطول. وليس في مرعى نجد الآن أي قرية.

أمس، قبيل أن تحمي الشمس، هو اليوم الذي زحف فيه جيش الأمراء - النبلاء بقيادة حجمقوه باتجري إلى المرعى من جهة الشمال الشرقي. توسع جيش الأمراء - النبلاء البجدوغ في الموقع قبل وصول جيش الفلاحين الشابسغ: تمركز الفرسان في الجانب الجنوبي الشرقي المرتفع وسط الغابة الكثيفة. وأخفوا جيش المشاة في منخفض بزيقوه المقابل على مسافة غلوة حصان. وقريباً من موقع المشاة أخفوا المدفعين اللذين حصل عليهما باتجري بعلم من القيصرة كاترينا، مع مئة جندي قوزاقي بقيادة العقيد تيموفي يرميف في موقع كثيف من الغابة.

لجيش الفرسان وجيش المشاة ومدفعي القيصر خطة واضحة: حين يهاجم فرسان الأمراء - النبلاء البجدوغ فرسان الفلاحين سيتراجع فرسان الأمراء - النبلاء متظاهراً بالرعب، فيسحبون جيش الشابسغ إلى قرب المدفعين. وفي

الحال ستنهمر قذائف المدفعين عليهم. ثم يحاصر جيش المشاة من الجانبين جيش الشابسغ المضعض، فينتهون من أمره قبل أن يستعيد وعيه. وما إن يفتح الطريق حتى يقتحموا أرض الشابسغ بخط مستقيم.

البارحة، حوالي العشاء، حين وصل العقيد يرميف، استغرق نصب المدافع حتى منتصف الليل. وتوجب عليهم إعداد جيش الأمراء - النبلاء من جديد. وأخفوا ثلاثمئة فارس وراء المرتفع على سبيل الاحتياط. وحشدوا جيش المشاة المكون من أربعمئة جندي، والذي سيتبع جيش الفرسان، على ضفة نهر شُجج الصغير قريباً من مستنقع القصب. وما كان يمنعه من بدء الحرب هو عدم ظهور جيش الفلاحين الشابسغ.

- الفرسان الذين أرسلناهم لملاقاة جيش الشابسغ تأخروا، - قال حجمقوه باتجري، وهو ينصت في ظلام الليل إلى جهة الشابسغ عسى أن يسمع وقع حوافر، ولكن لا شيء يستدعي الرية. - والله عجيب غياب الشابسغ، نفيسر الأمر على أنهم تراجعوا ولكن جاسوس البارحة لم يأت بمثل هذا الخبر. ومن أرسلناهم عشية أمس تأخروا عن موعد رجوعهم.

- لم يبق كثير على طلوع الفجر يا أمير، - قال مرزيج الحارس الذي صار قريباً قلباً وروحاً من باتجري بعدما عينوا الأخير قائداً للجيش. كان حسناً لو غفونا قليلاً قبل الفجر. ارتح يا أمير. آن موعد رجوع الجواسيس. وليثق بنا الأمير الكبير ألقس. لن نخذله. وأنت لو أمرتنا أن نمشي على حد الخنجر لفعلنا...

- حياك الله يا مرزيج على أنك لم تعتبر إقالة الأمير الكبير لك من منصب كبير الحراس إهانة. متى انتصرنا على الشابسغ، وتحقق لنا مرادنا فنق بي أن أدعك تشعل النار تحت أقدامهم. يقال إن عدم احترام الأمير يجري في دماء الفلاحين الشابسغ فلنر كيف سيتصرفون معنا.

- أعدك يا أمير أن أترك من لا يحني ظهره بلا ظهر. - لمعت عينا مرزيج في الظلام كجمرتين. - سأوقفهم على رؤوس أصابعهم فوق النار. أما الموضوع الآخر فأنا يا أمير لست حساساً، ولكني تأملت في الحقيقة: لم أذكر آل حجمقوه بسوء إن لم يجر على لساني امتداحهم. إن لم أجمع لهم الثروة فلم

أدعهم يخسرون. يسرني جداً يا أمير أن الأمراء - النبلاء شرفوك بمنصب قائد الجيش؛ وإلا كنا أخفقنا.

- مهلاً، مهلاً يا مرزيج. - تظاهر بالتجري بالاستعجال مسروراً بما سمع. ونظر جهة الشابسغ لا يعرف لماذا انتفض برأسه. وشعر بقلبه يرتجف فيصدم الصدر. - لا تستعجل، لا نعرف ما سيحمل لنا الفجر القادم.

- لا تقل هذا يا أمير، - ثقب بالجيش الذي بيدك. ستري إن لم نشنت الشابسغ الذين لا يصدّقون أن كاترين القيصرة وقفت إلى جانبنا متى سمعوا أصوات المدافع. ثم ننصرف إلى قطع رؤوس رؤوسهم.

لم يداخل أيُّ شك قلب بالتجري ريثما تفقد مواقع نوم الجنود. الجنود جاهزون في كل مكان للانقضاض بقفزة واحدة. النبلاء الذين استعدوا لهذه الحرب بضع سنين مزودون بأسلحة تبث فيك الرجولة وإن لم تكن فيك. والجيش الروسي على الضفة الأخرى جاد عليهم بالبارود حتى لا ييخلوا به. الأمراء - النبلاء الذين عاشوا حياتهم على الغزو والسرقة والإجرام كانوا دائماً ماهرين في القتال، جاهزين له في أي وقت. ومع ذلك لم يكن بالتجري يعرف سبب رغبته الدائمة في الالتفات كأن أحداً يناديه من خلفه.

- وهذا صحيح. - فجأة كرر بالتجري الجملة التي قالها على ذكر قطع الرؤوس معلّقاً على كلام النبيل مرزيج: "لا نعرف ما سيحمل لنا الفجر القادم".

- ولكن مع ذلك يقال يا مرزيج إن جدنا الحاج كان يكرر: ليس كل ما يلعب في الظلام ناراً. لا تقترب من نار الليل ظناً منك أنه قريب. ولا ترجع ظناً بأن نباح الكلب بعيد. أنا سأغفو قليلاً. أيقظني متى عاد الجواسيس.

قال بالتجري إنه سيغفو ولكنه لم يغف. ما يغزو الذهن كثير تفيض به الأفكار. لا يتذكر أنه وقع في موقع قلق كما الساعة طوال السنوات الخمس التي قضاهها متنفذو الشابسغ اللاجئون عندهم، بل حتى حين زار القيصرة متوسلاً المساعدة. كلما دنا الفجر تمكّن القلق في الصدر. ينصت بالتجري متمدداً على العشب المخشوش الرطب، مسبلاً جفنيه وإن لم ينم، إلى حممة الخيل التي تأتي من جهة جيش فرسانه، وإلى أصوات البشر يتحادثون. قال بالتجري: ماذا جرى

يا ترى في قلب ألقس حين انثُرعت منه قيادة الجيش في اجتماع البجدوغ؟ أخفى شعوره، ولكني لو كنت مكانه لتأثرت. ما العمل يا ألقس؟ ليتنا كنا نعرف ما سيجري غداً؛ لهذا يقولون: أسنان عجلة العربية تطأ الأرض سناً سناً. أنا واحد ممن أزاخوا عجلة عربتك من مكانها: حين وصفك بغدسار لي بأنك ربيب الشابسغ أغرتني فجأة الفجوة التي حدثت في منصبك، ماذا سيجري لنا، نحن الاثنين، متى عدنا من الشابسغ منتصرين؟..

أجبرته الأسئلة - الأفكار التي تحوم حوله على الجلوس. نظر إلى السماء فوقعت عينه على نجمة من جهة الشابسغ. ما أشد ما تلمع خلافاً لغيرها!.. وفي الحال سقط شهاب آخر يقذف الشرر جهة الأبراخ. ركض باتجاهي على جسر الجمرة تلك تاركاً وراءه غشفج، المرأة التي تركها في البيت، فخطرت له أغور. ما كان أقربها إلى القلب ولو أنها ابنة فلاح!.. فعصر الألم قلبه. لا أظن أن الله كتب علينا ألا نتحد. ليتني تزوجت من ابنة فلاح من الأبراخ لا من ابنة فلاح متنفذ؛ ما كانوا حاربونا فأنا صهرهم، ما وقفوا إلى جانب الشابسغ. ومن كنا نعتمد عليه جمه تناو منذ العام الماضي، آمن بأنه غير قادر على شيء فقعد في بيته. جنجته سليم عم أغور كيف لم يقل هذا! وقفوا إلى جانب الشابسغ قائلين: سلاحكم سلاحنا. حسناً قفوا إلى جانبهم إن كنتم كرهتم حياتكم!.. - هيا نادوا مزغ حبقول!، - صاح باتجاهي جهة النبلاء الجالسين على بُعد خطوات منه.

- ماذا يا أمير؟ ها أنا هنا، - جاء القائد مزغه النبيل.

- لماذا أنت هنا وليس حيث جيش الفرسان؟

- جئت أعرف الأخبار يا أمير.

- لا يذهب القائد بشخصه لالتقاط الأخبار، بل يبعث المراسل. ما أريد أن أقوله لك: متى هاجمتم الشابسغ فلا تقفوا وتقاتلوهم، تظاهروا أنكم ارتعبت، وانسحبوا، واسحبوا جيش فرسانهم إلى حيث المدفعية ورماة البنادق!..

- لم أنس يا أمير، ألم نتكلم في الموضوع مساء أمس؟

- أكرر الآن أيضاً. بلغ وجوخ وحاتيت وكوسق. لا يجوز أن يخرج حياً أي

فلاح وطئ أرض مرعى نجد؛ سواء كان من الشابسغ أو الأبراخ أو الوبيخ أو الناتخوي أو الحكوف.

- قيل إنه جاء من الجمكوي عدد كبير من الفرسان يا أمير.

- لتصيح أجساد موتاهم طعاماً للغربان!

مع بدء انبثاق الفجر ظهر جيش الفلاحين في الجنوب الشرقي لمرعى نجد، في عمق الغابة، مصداقاً للخبر الذي جاء به الجواسيس. تمدد جيش الفرسان بقيادة شباكوه أحمد فاحتل عرض المرعى على جانب الجبل. ووراءهم وقف جيش المشاة بقيادة حاغور موسى وتحخوخوه نفافؤه، لا يخرج من الغابة كلياً، يرون أمامهم المرعى الفارغ.

- أيقصدون هؤلاء الذين يعدون اثني عشر ألفاً جيش الفلاحين الواقفين قبالتنا؟ - تظاهر حجمقوه حمز بأنه يلمح لقريبه حجمقوه باتجري، معتداً بنفسه. - ما الذي يحمله أول واحد منهم فيبدو أعلى من رأسه؟

لم يُجب أحد على سؤال الأمير حمز. قال باتجري: قربي هذا يظل يتابع أمراً تافهاً. ليس هذا هو الموقف الذي تعرف فيه إن كان الجيش المعبأ كثيراً أم قليلاً، بل حين يحمل الطرفان السلاح ويتجابهان به.

- هل كل هؤلاء الأقدار أتون إلى حفلة عرس حاملين علماً؟! - قال شرلأقوه علي سلطان لجاره أباته قازجري وهو ينظر بطرف عينه إلى الفارس حامل العلم. لا أمتع من أن تعلق رأسي حاغور وتحخوخوه بما عُلق به العلم.

- يا إلهي الأوحده، أرنا هذا اليوم! ارتجفت ساقا قازجري الهرمتان، وسيطرت عليه رجفة باردة من الخوف المكتوم، سرت من شعر رأسه إلى أخمص قدميه. - دعني أعود إلى أرضي على ظهور الفلاحين!..

حمل وقّع حوافر الحصان المسموع باتجري على النظر هنا وهناك. رأى ألقس الأمير الكبير مع عدد من الحراس يأتون إليه. لم يعرف ما وراء مجيئه.

- لم أستطع يا أمير البقاء في البيت في اليوم الذي سيقود فيه أخي الأصغر الجيش إلى ساحة المعركة. - قال ألقس الأمير الكبير. - إنه أخي الأصغر ولو وقفنا حفاة على حد الخنجر، لمشيناً عليه كاللنا جنباً إلى جنب.

- أنت تنقض قرار مؤتمر البجدوغ يا أمير، -لم يقبل بالتجري مجيء الأمير الكبير.

- لم يسلبني أحدٌ بعدُ منصب الأمير الكبير يا أمير- ردّ ألقس على أخيه الأصغر ومن عينيه يتطاير شرر أزرق بارد.

-2-

أشرقت الشمس من جهة شرق إقليم الأديغة، وأطلت على مرتفع البجدوغ. من بعيد يبدو جبل بباو في بلاد الشابسغ التي تعلق جبالها قد اختطفه الصباح. ونهر بزيقوه الصغير ينثر همساته في مرعى نجد، يلعب مع الجبل الذي يلتف حوله. الصباح جميل هادئ لا يحرك أغصان الأشجار بل حتى رؤوس الأعشاب. وسحب بيضاء تشبه أكواماً من الثلج تتجه نحو الجنوب. لا يخفى أنه سيكون صباحاً صيفياً حاراً ولو أن الشمس لم ترتفع بعدُ.

لم يستغرق استعداد جيش فلاحي الشابسغ في مرعى نجد وقتاً طويلاً. في الجيش الذي يقوده شباكوه أحمد كلٌّ من وايقق تامبر وجنجه سليم ونكراس ميشكا والفلاح مخوش. وبالإضافة إلى الفلاحين الشابسغ عدد من البجدوغ القادمين من بلادهم في جيش الفرسان وفي جيش المشاة. والإخوة مشقوه وفوجه لاجي، في جيش المشاة مسلحون بالدروع والتروس لمجاهة الأمراء - النبلاء. وهم جاهزون لأي إشارة.

كثيرون من الشابسغ جاؤوا إلى مرعى نجد بالإضافة إلى جيش الفلاحين الذي أتى إليه، يحملون الشوك والفؤوس والرماح والخيال، توافدوا من هنا وهناك. الآن كل فلاح، مهما كان سلاحه، يعتبر مهمته الأولى منع الأمراء - النبلاء من دخول أرض الشابسغ. يقولون: نفضل الموت على السماح للمتنفذين أن يركبوا رقابنا من جديد. فيتعاهدون معاً على عدم التراجع وعلى قيام كلٍّ منهم بواجبه. وليس الرجال وحدهم بل لحقت بهم النساء فأعادوهن إلى بيوتهم قائلين: أيّ عيب تُلحقن بنا كأننا محرومون من أي رجولة!.....

وبداد الذي أعلن "لا أستطيع أن أفيدكم بأكثر من هذا" هو اليوم مع إخوته

الصغار. ورغم أنه لم يفتح فمه ويتكلم مع موسى فجسده الضخم الذي يشبه جسد الفيل مكسو بلباس المشاة كاملاً. يود بداد منذ مساء أمس مقابلة أخيه موسى، غير أنه لم يُنحَ لهما الانفراد. لا يريد بداد أن يدخل الحرب وبينهما عداً أو جفاء. يقول بداد: لماذا أسمح للأمراء - النبلاء، وأنا مستند إلى جذع البلوطة التي بثخني أن يفعلوا بنا هذا فأعادي أخي. من قال: الماشية ندىً وروح الإنسان حلوة، أصاب كبد الحقيقة. كان والدنا المرحوم يجب هذا القول المأثور جداً. فكر بداد كثيراً وهو يستذكر خروجه إلى البجدوغ مع المتنفيذين فقضى بضعة أشهر خادماً تابعاً لهم. فيشعر بالعار والإهانة.

رفع بداد رأسه فرأى موسى واقفاً عنده. خفق قلب بداد لا يعرف أينفض أم لا ينفض ناسياً أنه الأكبر. وما كان في عينيه من أخوة ودفءٍ كان في عيني أخيه.

- كيف تجري الأمور يا أخي الصغير؟ - سأل بداد بأول ما يخطر في ذهنه وقت السلام وكأنهما ليسا في موقف حرب.

- تنتظر تحرك جيش الأمراء - النبلاء.

- ألا يجوز أن نتحرك قبلهم؟

- لا، هم الذين جاؤونا محاربين فليبدؤوا!

- كلامك فيه صحة يا أخي... اجلس إلى جانبي قليلاً!

جلس موسى تحت الشجرة إلى يسار بداد مراعيًا كونه الأكبر. بدأ الجفاء وسوء التفاهم بينهما يتلاشى، دون أن تخرج كلمة من فم أحدهما، ودون أن يدريا أجلسا قليلاً أم كثيراً.

- إيه... الآن خفّ الحمل على قلبي يا أخي الأصغر... - مزق بداد أولاً الغشاوة التي تراكمت على القلب طوال سنين كثيرة. - اغفر لي ما فعلت متجاوزاً كوني الأكبر. جلبت لنفسني الذنب وأنا أظن أنني جلبت لها النفع. تسببت في برود عواطف إخوتي نحوي. وجعلتُ الفلاحين ينظرون إليّ ككصّ. بقيت وحيداً في الساحة لا من هنا ولا من هناك. لم أستطع أن أتخلّى بالرجولة التي تمتع بها أكلجكوه أنزور حين اعترف بأخطائه. وسامحني على ادّعائي سرقة

الذهب. طمعتُ، وهذا الطمع اللعين هو سبب نكبتِي. بقيت على هامش الحياة متمتعاً بالعظمة التي يرميها لي المتنفذون. الذهب سلّمتَه لتحخوخه، لا أدري إن كنت تعرف...

- أعرِف، نفَعنا في شراء البارود والرصاص.

- إِرْع إخوتك الصغار حين ندخل ساحة المعركة. تذكّر والدنا المرحوم كلما قُتل أمير أو نبيل بحد سيفك؛ سيمدك بالقوة... هذا ما قالته لي أمنا حين لحقتُ بكم.

- لا يمر يوم لا أتذكر فيه والدنا يا بداد.

خيل لبداد أن صوت الحديث الذي سمعه صوت معارف له. نظر إلى الفرسان الواقفين في عمق الغابة، فعرف سالي ودمز ينظران جهة مضيق الجبل الذي ظهر فيه جيش الأمراء - النبلاء. وهما وحصاناهما جاهزان للانطلاق.

- هل دمز هو الراكب على هذا الحصان؟ - سأل بداد قلقاً لما رأى دمز الذي لا يتجاوز الخامسة عشرة.

- أين هو؟ - نظر موسى إلى الجهة التي ينظر إليها أخوه، لا يعرف إن كان ابنه في المعركة أيضاً، معتبراً جهله بالأمر عيباً.

- هذا هو، على يسار سالي... لا يجوز ما فعلت يا موسى. ليس عليك أن تصطحب دمز إلى الحرب. لا يزال شاباً جداً. - نادى بداد قلقاً خائفاً عليه: - دمز!

- لا داعي يا بداد، اتركه!

- وكيف أتركه؟ لا يزال طفلاً؟!

- من يستطيع وضع رجله في الركاب لم يعد صغيراً... مصيره مصير القرية... ها هو سالي معه. يحرص أحدهما على الآخر.

- سالي!

نادى بداد ابنه يريد أن يطلب منه رعاية أخيه الأصغر دمز، ولكن المطر العاصف الذي هبّ من جهة القبلة فجأة صدم رؤوس الأشجار بعضها ببعض، وانضم الفارسان إلى زملائهما الذين هيّجتهم الريح. سرت الريح

الساخنة على أعشاب المرعى حانيةً أطرافها. وجرفت إلى مياه نهر بزيقوه المتموجة الأوراق المتساقطة والعيدان اليابسة. الفرسان القادمون من الجهة التي هبت منها الريح يشبهون كرة تلتف على نفسها، صابغين الفضاء بالسواد، تلمع منها رؤوس الأسنة. ثم أعقبها الرعد والبرق، وبدأت قطرات المطر. وقبل أن يعود الجيشان المتواجهان إلى الوعي هطل المطر المصحوب بالصاعقة غزيراً، فلبل خلال نصف ساعة الجنود الذين لم يتحركوا من مكائهم حتى العظم. تضرر جيش الفلاحين من المطر جداً بالقياس إلى جيش الأمراء - النبلاء المجهّز جيداً: تعطلت البنادق بسبب تسرب المطر إلى البارود. وجرى هذا أيضاً لمشاة الأمراء - النبلاء المتمركزين على ضفة المستنقع.

أشرقت الشمس حالما انتهت العاصفة المطرية مع وقت الفطور. وبدأ البخار يتصاعد من الأرض. وشرع ماء نهر بزيقوه يرتفع مع السواقي التي انصبّت فيه. - يا ربي؛ في أي جهة يريض مدفعاً هؤلاء؟ - نظر شباكوه أحمد إلى الغابة الجبلية كأنه يعرف المكان. - كان حسناً لو عطلهما المطر كما فعل ببنادقنا. وإن لم يعطلهما فما العمل؟ الأرجح أنهما في بداية الغابة الجبلية الكثيفة. يا سوباش، اتركنا وقد فرسانك المئة إلى تلك الجهة. إفصل القوزاق عن المدفعين. وسيهجم الفرسان الذين يقودهم وايقق تامبر ونكراس ميشكا من يسارك. - وإن لم يكونوا في ذلك المكان؟

- ستعرف المكان من الجهة التي تأتي منها الطلقات. أهذه أول مرة تغير فيها على المدافع؟ تذكر كيف كنا نفصل الأتراك عن مدافعهم!

- تبعاً للوضع الذي حدث الآن يا شباكوه، - قال تحخوخوه، - سيتوجب علينا إتباع الفرسان بالمشاة سريعاً. - لم تعد لرماة البنادق فائدة. هذا الموقف يناسبه قتال السيوف. لا أعرف ماذا ينتظرون. ربما ينتظرون جفاف الأرض؟ ماذا سنفعل يا حاغور؟ ننتظر جيش الأمراء - النبلاء أم لا ننتظر؟

- ليقربوا هم منا، أفضل من أن نفعل نحن. - تكلم موسى من تحت شاربيه الكثيفين متمهلاً، كأنهم ليسوا في حرب.

- ملاحظة موسى أفضل، وصحيحة. - لم يدع شباكوه الواقفين ينتظرون.

- ينوون استدراجنا إليهم وقصّفنا بالمدفعية.

قبل أن ينهي شباكوه كلامه، هجم فرسان الأمراء - النبلاء من جهة مضيق قوبيسل، متدافعين، مائلين عرض المرعى، وسيوفهم تلمع تحت الشمس. وبالمقابل انطلق فرسان الفلاحين الشابغ بالسيوف، وواجه الجيش المعادي في وسط المرعى. خيم على المكان حممة الخيول المتجابهة على قوائمها الأمامية، وصراخ الفرسان، وصليل السيوف، وطلقات المسدسات. الخيول التي لا تتحمل صدمات صدور الخيول الأقوى تنهأوى. والفرسان الذين يسقطون من ظهورها يقفون يتلمسون رؤوسهم وبطونهم، ويحتجون، ويتداعون على الأرض. ومن ينهضون مع الحمية تصرعهم صدور الخيل ثائية، وتطوهم الحوافر. وقسوة الطرفين لا تعرف التراجع. جيش الأمراء - النبلاء الذي ينوي التراجع حسب خطة المعركة لا يستطيع الخروج من الساحة. الجميع مغلوبون بحمية الرغبة في الانتصار.

- هل جئ النبيل مزاغه آخر عمره؟ - قلق الأمير حجمقوه بالتجري الذي يراقب المعركة من المرتفع. - لماذا لا يتراجع؟ هل نسي أن عليه استدراج الفلاحين إلى المدفعية ورماة البنادق؟ ومشاة الفلاحين انطلقوا... أي مجموعة كبيرة من الفرسان تتجه إلى رماة المدفعين؟! هيا يا مرزيج انطلقوا حالا، واقطعوا طريقهم.

جابه مرزيج مجموعة الفرسان الكبيرة التي يقودها سوباش: نشبت معركة جديدة مستقلة على ضفة نهر بزيقوه. لم يفهم مرزيج اتجاه الفرسان الفلاحين إلا بعد أن أمره بالتجري. رأس أول فلاح ضربه مرزيج بالسيف سقط تحت بطن الحصان. وقص كتف الثاني. وقبل أن يجد حاغور كريم الذي هجم على مرزيج الفرصة ليضرب بالسيف أطلق عليه الأخير المسدس فأسقطه. وفي الحال تجابه سوباش الفلاح ومرزيج بصدري حصانيهما:

- ماذا تريد يا صغيري!! - ضرب مرزيج بالسيف ولكن السياف نبا.

- هذا ما أريده أيها النبيل العنيد!! - جابه سوباش ضربة مرزيج بمثلها، فانطلقت شرارة بين الفولاذيين.

عطف الفرسان البجدوغ خيولهم كأن مشاة الفلاحين أرعبوهم فاستداروا. ولما رأى مرزيج هذا نادى رفاقه الفرسان:

- بالله عليكم أن تتراجعوا!

رأى الفلاحون الشابسغ النبلاء - الأمراء يتراجعون فظنوا أنهم انتصروا، ولحقوا بهم فرساناً ومشاة. ولكن المدافع التي على المرتفع قصفت الفلاحين بسرعة، وتصدى لهم رماة البنادق، فتوقف جيش الفرسان الذي أصيب بخسائر كبيرة. ولما همّوا بالتراجع لم يسمح لهم المشاة الذين أتوا من خلفهم. وبدؤوا يسحق بعضهم بعضاً بالخطأ.

أخطأ حجمقوه بالتجري في تقديره أن الفرسان الفلاحين يتراجعون. حين طارد الفلاحين الذين أنهكتهم المدافع والبنادق لم يستطع المطاردون التراجع بسبب المطاردين، فاشتبك الطرفان ولم يستطع الأمراء - النبلاء الاستفادة من مدافعهم ومن بنادقهم، فوجب على الطرفين أن يخوضا حرب مشاة بالسلاح الأبيض. مرة أخرى ارتفعت فوق المكان حممة الخيول وصليل السيوف. خضبت الدماء العشب المبلول، واختلطت بالسواقي التي تصب في بزيقوه. ورائحة الدم والبارود تبعث الوهن في القلب. وارتفع أنين البشر.

المشاة ناجحون أكثر من الفرسان المحصورين بين الطرفين: يُسقطون الفرسان الذين يجرون فوق الجثث، ويقتلونهم بالسيوف والخناجر ورؤوس الرماح. ويخنقونهم تحت بطون الخيل.

تخلّى شباكوه ووستقوه عن الحصانين. يقاتلان في صفوف المشاة. وحاغور موسى وتحخوخوه نبالؤه يفتحان طريقهما بالسيوف إلى حيث أسرع الأمير بالتجري. ينظر موسى فيرى أخاه الأكبر على ركبتيه ممسكاً بيده بطنه المبقر، ولا يسمح بسيفه للخصم الواقف على رأسه بأن يضربه. وليس بعيداً عنه يرقد أصغر الإخوة التسعة رشيد ولاقه قتيلين. وفوجه لاجمي يضطجع إلى جانب الأمير بحرقوه مجر وقد تشنجت كتفه اليسرى العريضة.

حين صحا أكجكوه أنزور من ضربة حافر الحصان التي صرعته وأفقدته وعيه وهو لا يعرف ما جرى له، تعرف على علي سلطان وهو يقتل حاغور بداد

بالخنجر. وفي الحال هجم على الخاطر شعُر ابنه الذي كان يردده حاغور موسى، فرمى عن كتفه النبل القليل، وأهضته قوة الانتقام:
- يا شرلاًقوه!! - اختطف أكجكوه العمود المدب على الأرض بدلاً من الخنجر، - الله جمعني بك اليوم، إن كنت رجلاً فاختر الموت!
قبل أن يجد علي سلطان الفرصة لانتزاع خنجره من صدر بداد صرعه العمود الذي أصاب ظهره.

- "أيها العالم المضيء، يا أرض الربيع"، - قرأ أنزور بصوت عالٍ واقفاً على جسد شرلاًقوه هذا السطر من شعر ابنه. "إن سألتني أهى ملك المتنفيين قلت لك، لا، ليست لهم، هذا العالم بكلّ دفعه ملك الفلاحين لا شكّ، كما الشمس. لا شكّ أنها أرض الفلاحين!" من أجل هذا كان الولد قال...
- وقبل أن يُنهي الكلام قتلته ضربة سيف من النبل.

مشاة الفلاحين لا يعرفون التراجع وإن تناقصت أعدادهم. ووجوههم نحو المكان الذي يأتي منه الأعداء حتى وهم يفارقون الروح. ولا ترى أفقاء رؤوسهم. ومن بين أصحاب الجروح الخطيرة جمكوي زيش ومشقوه ترقان وبترز شعبان وسوباش. والفلاح شباكوه فارق الحياة. لم يمت بالسلاح بل خنقه الحصان الذي سقط عليه. حاغور موسى لا يعرف سيفه توقفاً، ناسياً جرح رقبته. كان قد بقي له خطوات ليصل إلى الأمير بالتجري حين ظهر له أباته قازجري، وقبل أن يرفع سيفه نبّهه الأمير حمز الذي صرخ به:

- عجباً، ألا يزال رأسك سليماً يا حاغور!

- متى صرت يا حمز شجاعاً؟! - ما إن ارتقى حاغور نحو الأمير حتى ضرب فلاح من الخلف الفارس الواقف عنده، فأسقطه من ظهر الحصان. وفي الحال وثب حاغور بخفة لم تكن فيه طوال عمره، وركب الحصان، وحين همّ بملاحقة أباته قازجري قابله حجمقوه بالتجري بسيف مشهر.

تعانق الحصانان واقفين. ضرب بالتجري بالسيف ولكنه أصاب الترس الذي قابله به موسى. ومرة أخرى همّ بالضرب فخرق خنجر موسى ضلوع الأمير. وقبل أن يجد الفرصة للنظر إلى الأمير الذي يسقط من ظهر الحصان قتل سيفُ نبيلٍ

مهاجم موسى الفلاح.

حين أسقطت ضربة موسى القاتلة بالتجري من ظهر الحصان، أحاط الفرسان
الأمراء - النبلاء قائدهم بسيوف مشهورة. ولم يكف هذا بل أحاطت به
حلقتان من جيش المشاة.

- قُتل قائد الجيش!.. - صرخ أحد النبلاء.

- بالتجري!.. - أسقط بارينقوه ليوان من السرج قبل أن يكمل كلامه.

ليس مرعى نجد بالمكان الذي تسمع فيه الصوت مهما صرخت: الفولاذ
يتكسر، والدم البشري يسيل، والشمس تُظل اليوم الذي انعدمت فيه الرحمة.
نقل حجمقوه بالتجري ذو الجرح العميق من أرض المعركة إلى ظل شجرة بعيدة.
وقال وهو يتنفس بصعوبة للشخصين اللذين يضمدان جرحه:
- أنا لستُ مهماً... ما يحدث هناك هو المهم!. ارفعوني وأجلسوني في أسفل
الشجرة.

إذا نظرت من مكان بالتجري رأيت كل ما يحدث في المرعى، ونهرُ بزيقوه قريب
جداً. لا يزال الصراخ البشري وصهيل الخيل وصليل السيوف يرتفع إلى أعلى
فأعلى. حُيِّل لباتجري مرة أن الفلاحين يتراجعون. ولكن جرح الصدر أفقده
الوعي. وبعدها صحا بعد وقت طويل أو قصير، تصوّر أن المعركة تنحسر عن
المرعى. ولكن اليأس تسرب إلى قلبه لما رأى في ناحية غابة لثغتك الفلاحين
المسلحين بالشُّوك الحديدية، وبالأعمدة المدببة والرماح، كلُّ بما يستطيع،
يركضون وهم يملؤون نصف المرعى. وفهم أنه أخطأ في مدافع القيصر. قال
باتجري: من توقّع أن يأتي إلى المعركة كل هذا العدد من الفلاحين؟ لم تجر الأمور
كما تأملت. أيّ قوة تدفع الفلاحين إلى اقتحام رؤوس الخناجر؟! يفضلون
الموت على التراجع.

لم يكن بالتجري يستطيع أن يجد إجابات على الأسئلة التي لا تفارق الذهن.
كان عليه أن يقف موقف الفلاح ليلغ عقله هذا المبلغ. وقتها كان هو أيضاً
سيبلغ بقلبه ما يعتمل في قلوبهم: إن من يحمي حريته تتضاعف قوته مئة
ضعف. ماذا يحمي الأمراء - النبلاء إذن؟ لا يمكن أبداً أن تتساوى السيادة

والحرية، والعبيد والمستعبدون: هذا يقتلع جذر هذا، والآخر يثبته.

- لماذا لا يتحرك جيش كَوْسَقُوهِ بي؟ أمر بالتجري بدفع آخر ثلاثمائة فارس إلى المعركة. ثم أضاف وجرحه يثقل عليه جداً: - والفرسان القوزاق لا يقفوا عن القتال!.. ليشاركوا بأنفسهم إذا لم تنفع مدافعهم!

صدرت ضجة شديدة في الجانب الذي يستلقي فيه الأمير بالتجري قائد الجيش. وُسِّع بكاء رجال. والتفت كل من بقي في المرعى من جرحى وأصحاء نحو مصدر الضجيج.

جلس تحخوخوه نبافؤه ممسكاً الكتف المجرّحة بيده اليسرى، وألقى نظرة إلى الجهة التي تصدر منها الصيحات. ثم نادى وابق المنبطح على صدره دون أن يعرف أنه قتيل:

- هل تسمع يا تامير بكاء البجدوغ على قائد جيشهم؟

- هل أنت حيّ يا تحخوخوه؟ - نادى بترز شعبان بدلاً من وابق، - نعم نسمع يا نبافؤه. انتهى أمر الأمير حجمعقوه بالتجري، نكراس ميشكا يسمع، وهو جريح إلى جانبي...

- وحاغور موسى؟

- لا أعرف أخبار حاغور.

لم يبق أحد في المكان الذي امتلأ بالجثث والجرحى والأحصنة القتيلة، وبالأسلحة بدءاً من الأعمدة وانتهاء بالبنادق. الأمراء - النبلاء يتدافعون إلى جثة الأمير بالتجري متناسين أنين الجرحى.

وحاغور موسى الذي لم ييكه أحد، ولم يسجّه، ولم يغلق جفنيه، فبقيت عيناه مفتوحتين للشمس، ولم يتراجع خطوة، راقداً بين الأمراء - النبلاء والفلاحين القتلى والجرحى ممدداً على الأرض.

-3-

حين شرع الأمراء - النبلاء بنقل الأمير بالتجري إلى البجدوغ بوجوه كئيبة، شرع أيضاً كل من الطرفين المتحاربين قبل ساعة بتفقد أرض المعركة لإخلائها من

القتلى والجرحى. المرعى مملوء بالبشر حتى لا تجد فيه موطئ قدم، ولا ترى الأرض تحتهم، أكثرهم قتلى، والجرحى ليسوا أقل كثيراً: بعضهم يصيح، وبعضهم يبكي، وبعضهم يئن. لا ترى مكان العشب الأخضر إلا الدم. الأرض التي تعشش فوقها الشمس الصيفية لا تسمح لك رائحة الجثث ورائحة الدم فيها بالتنفس.

وفي الطرفين يُسمع صوت الأفندي الواعظ:

- رجاء الطُفُوف بالقتلى والجرحى!

- رَفَّقَ اللهُ قلوبكم!

- كلنا مسلمون ومن أصل واحد.

- اخدموا الأمراء أولاً!

- حقاً نحن مسلمون ومن أصل واحد،- حين يسمع حجمقوه حمز الذي سقط حصانه فوق رجليه، هذا الكلام، يهزّ السيف في الهواء قائلاً، - لا يمكن أن تتساوى مع الفلاحين سلالة القذارة!.. أسرعوا، الحصان الذي سقط عليّ يقطع رجلي!

نظر تحخوخوه نبافؤه إلى الجهة التي صدر منها صوت الأمير حمز: لم ير وراء الحصان القليل إلا سيفاً يهتز. بدأ نبافؤه يزحف نحو مصدر الصوت دون أن يحرك الكتف التي تحتر عليها الدم، ولكنه جلس معتمداً على الخنجر حين صعب عليه اختراق الجثث. أوهنه الدم الذي نزفه. دوار في الرأس، حتى المرعى يدور به. ولا يعي إن كانت شمس الصيف فوقه. تسربت منه آخر قوة رفعته بعدما جلس بعض الوقت. وسقط على جثة أحد النبلاء لا يستطيع رفع رأسه. ولما فتح جفنيه ونظر بصعوبة إلى الأرض أعادته رائحة الدم إلى وعيه. وما إن زحف من فوق الجثة واستند إلى الحصان القليل حتى سمع من جديد صراخ الأمير حمز:

- ماذا تفعل يا سليل الكلاب فتزحف نحوي؟! تكرم الله عليّ فلم يدعني حياً حتى تقتلني أنت. - رأى الأمير حمزقوه تحخوخوه المستند إلى الحصان، صاح من جديد يهز السيف ويحاول الجلوس فيتهاوى: - اقترِبْ مني مقدار إصبع

واحدة إن كنت رجلاً، سأسلبك روحك أيها القدر!.. يا مبارك النسل؛ ألم يبق نبيل في العالم؟ هل تتركون الفلاحين يقتلون الأمير أمام أعينكم!

لم يكن تحخوخه نبافؤه مهتماً بالأمر حمز مهما قال، ومهما تصرف. هُمة الوحيد الآن هو الزحف إلى مصدر صوت بترز شعبان. ومن لا يفارق الذهن طوال هذا الوقت هو حاغور موسى. قد يكون راقداً غير بعيد من هنا. لم يكن بقي أمامه إلا بضع خطوات حين كان متجهاً إلى صديقه المحاصر. يا ربي أهو حي؟ إن كان حياً فلماذا لا يقول شيئاً؟ خطر له أن ينادي: موسى! ولكن لم يجد من اللائق أن يسمع الأمير حمز نداءه. قال: لماذا أُطلع أعداءنا على وضعه إن كان حياً أم شهيداً؟ وفي الحال انتصبت صورة أكوز في المخيلة دون أن يعرف من أين جاءت، ودون أن يجد الفرصة للتفكير في الموقف الصعب الذي وقع فيه. شحنت الصورة الرجل الجريح بالقوة فانتفض برأسه، وبحث بعينه. أسرع بالابتعاد عن الحصان محاولاً أن ينسى زوجة الصديق. وبعد خطوتين أو ثلاث رأى وجه وايقق تامر. والأمير بحقوقه مجر الذي غرز الخنجر في بطنه راقداً إلى جانبه وقد سال دماغه. والخذ الذي تخثر عليه الدم هجم عليه الذباب. نظر نبافؤه من فوق الجثث فتعرف على لاقه، أصغر الإخوة حاغور، التوى نصف خده دليلاً على أنه عانى آلاماً مبرحة. والشفتان مطبقتان. فارق الحياة وإحدى عينيه نحو الجهة التي أتى منها الأمراء - النبلاء. وبعيداً عن لاقه بخطوات يرقد أصبح قتيلاً. ورشيد أخوهما يراقب السماء بعينه اللتين لم تُسبلا. ودمز بن موسى جالس لا يعرف ما حدث له والدم تخثر على اليد اليسرى المجروحة، وباليدي اليمنى يمسح على خدّ صبح، ولا يسمع صراخ حجمقوه حمز.

- ألم أقل لك ألا تزحف إليّ يا سليل الكلاب!.. - صرخ الأمير ثانية حين صار تحخوخه على مسافة بضع جثث من النبلاء والفلاحين. وجلس يلوح بالسيف فوق رأسه. - إن تجاوزت حصاني القليل سلبتك روحك بهذا السيف.

يا مبارك النسل ألم يبق في العالم أحد؟ هل تركتموني في الساحة إلى الأبد؟

- من هذا الثرثار الذي يصرخ من تحت بطن حصانه؟ - سأل تحخوخه، متظاهراً بأنه لم يتعرف صوت الأمير، وهو الذي يعرفه منذ زمن بعيد. ثم أضاف

بعد قليل، - أتساءل: أهو حجمقوه حمرز؟ كيف رفعت سلاحك في المعركة وأنت لا تتحلى إلا بهذا القدر من الشجاعة؟ أراك لا تقول شيئاً؟!

- ماذا أقول لك يا تحخوخوه؟ - أجاب والخطر القريب كسر صوته، أنت حرٌّ في ما تفعل بي، أنت طليق اليدين. أما أنا فرجلاني محصورتان تحت الحصان... أستحلفك بالله أن تساعدني. حررني من هذا البطن فوقى؛ لن أنسى لك معروفك عمري!.. انسَ اليوم فحسبُ ما بيننا من قسوة! يا الله أي مأساة جرّنا إليها آل شراًقوه! تسلل إلى الأديغة فناء العرق. أظن الله عتب علينا، يا الله أطفئ نار جهنم بيننا! الروح حلوة، ليس أحلى من الروح التي وهبنا إياها!

- سأنفعلك لأن العادة مساعدة من في ضيق، - قال تحخوخوه، - ولكن من الصعب معرفة ما تعني بالقسوة التي قلت إنها بيننا. القلب الملوّع يأتي بالظلم، إن قلتَ هذا وافقتك. ولكن ليس ما في صدورنا اليوم قلباً ثائراً فحسبُ، هي الرجولة التي قابلنا بها عدم المساواة الذي مارستموه معنا من الأزل. في اليوم الذي أشهد فيه هذا الردّ عليكم يمكنني أن أفارق الحياة دون عتب على الأمراء - النبلاء. ولكن مشروع الفلاحين لن ينتهي اليوم. سيأتي يومٌ عاجلاً أو آجلاً لا نراكم فيه أمام عيوننا!..

- لا يمكن أن يطول عمر من يكره سلالة الشمس والقمر، - ردّ الأمير حمرز على تحخوخوه، - كيف لا تتورع عن قول ما تقول؟

- أيّ تورّع تتكلم عليه؟ إذا كنا زائدين عن حاجتكم، فلا تقلق، لا مشكلة. قد لا نشهد نحن، ولكني واثق أن من سيخلفونا سيشهدونه... - لحظة أنهى تحخوخوه كلامه، نظر فإذا بحاغور موسى قتيلاً، وجهه إلى السماء. والأمراء - النبلاء الذين سقطوا بسيفه منشورون حوله. وغير بعيد عنه عددٌ من الفلاحين بين قتيل وجريح، ربما كانوا فزعوا لحاغور.

تلوى قلب نبافؤه ألماً ساعة رأى جثمان الصديق. نحض وقد وجد في نفسه قوة لم يألفها في نفسه، متحاملاً على جرحه الثقيل. وما إن خطا بضع خطوات حتى سمع من جديد صراخ الأمير حمرز:

- ماذا تنوي بحقي؟.. ضع عنك الخنجر يا عديم الإيمان!..

جمع نبالؤه بقايا قوته غير عابئ بصراخ الأمير وبحركة سيفه، ووصل إلى حاغور متخطياً الجثث. ولم يطل به الأمر فبعدها جلس على ركبتيه دار رأسه، وسقط بلا حركة.

وصل إلى نبالؤه ثلاثة من الفلاحين بقيادة وستقوه يجمعون القتلى ، رأى الأمير حمز الفلاحين يركضون، فتظاهر بالموت خائفاً منهم، وممسكاً بالسيف. خُيِّلَ لنبالؤه أن الضجة التي حوله تأتي من بعيد. ولما وصلوا يربطون له الكتف المجروحة صحا وفتح جفنيه. وسأل وستقوه كأنه يبدو من خلال ضباب بعيد: - حاغور، ما وضُع حاغور؟

- اهدأ يا نبالؤه، دعنا نرى جرحك أولاً. - قال وستقوه. وأجاب على سؤال تحخوخوه.

- هل حاغور حي؟ - سأل نبالؤه ثانية لا يُصغي إلى ما يقال له، ثم تنهد عميقاً وقد فهم صنت من حوله، ودون أن يعرف من أين جاءت أبيات أكجكوه نطار بدأ ينشدها: "إن سألتني أهى ملك المتنفذين قلت لك، لا، ليست لهم، هذا العالم بكلّ دفعه ملك الفلاحين لا شكّ، كما الشمس. لا شك أنها أرض الفلاحين!" يا حسرتي يا صديقي العتيق. ما أسرع ما فارقت الدنيا قبل أن ننهي مهمتنا!.. والأمير حجمقوه بالتجري الذي قطع كل هذه المسافة لمقابلة القيصرة عاد إلى قريته، وسطّ مناحة عظيمة، على نعشٍ مغطى بسترة سوداء.

وصل أناس آخرون غير الذين نقلوا جثمانه من ساحة المعركة. قرروا حمل تحخوخوه فلم يقبل:

- لا مشكلة عندي... بترز شعبان ونكراس ميشكا يرقدان ليس بعيداً من هنا. وجثامين وايقق تامبر وحاغور لاقه...

- نعرف يا نبالؤه، نعرف. - استعجل وستقوه بالجواب، - شعبان وميشكا سلمان بفضل الله. ساعدناهم. ها هم الفلاحون يعودون بعربة الثيران.

- والأمير حجمقوه حمز؟ سأل تحخوخوه الذي ينهض بمساعدة فلاحين، ونظر نحو الأمير الذي يرقد عاجزاً عن التنفس.

- أين هو؟ جريح أم قتيل؟

- لا هو قتيل ولا هو جريح. يرقد تحت الحصان القليل.

- ما إن فهم حجمه حمز أن الفلاحين لا ينوون شراً حتى تحرك قليلاً يريد أن يدهم على أنه حي. ثم أنّ مُسمِعاً الحاضرين. ولم يكف هذا بل تنهد أعمق من سابقه.

حرر الفلاحون رجلَي الأمير، فحاول أن ينهض وحده، غير أن رجليه المخدرتين عجزتا عن حمله فتهاوى. ولما حاول القيام مستنداً على السيف تداعى ثانية.

- أي عار هذا الذي يجري لي؟ - تكلف الأمير حمز الرجولة ولكن بلا فائدة. - وهل يُعقل أن يحدث مثل هذا؟

- لا عجب في هذا أيها الأمير حمز. - ابتسم وستقوه الذي كان جالساً يغلي قلبه، افرخ لبقائك سليماً. هيا ساعدوا الأمير وأركبوه في العربة. حين أوصلوا تحخوخوه نبافؤه والأمير حمز في العربة وكلٌّ منهما يدير ظهره للآخر، من البرية إلى ضفة نهر بزيقوه، لم يملك الأمير نفسه:

- أوقفوا العربة ودعوني أنزل!

- بهذه البساطة؟

- ماذا تريد إذن؟

- اتركه يا وستقوه! - لم يقبل تحخوخوه، - ماذا تفعل بهذا؟ أمسكوا له بحصان شارد، ورجلوه!

- إذا كانت هذه إنسانيتكم فحياكم الله... كنت حين أسمع اسمك أتصورك شخصاً آخر...

- يا أمير، - قال تحخوخوه مع قدوم الحصان، - ما أريد أن تقوله باسمي لقريبك ألقس أمير البجدوغ الكبير: نعزيك بأخيك الأصغر. الفلاحون الشابسغ حين جاؤوا إلى مرعى نجد، كان ما في قلوب أحيائهم وقتلاهم، والذي يعودون به إلى بلادهم، أمرٌ واحد: إذا عدت ثانية بسيوف مشهورة فسيوف فلاحى الشابسغ جاهزة في أي وقت!..

انتهى الصراع بين الفلاحين الشبابغ والمتنفذين الذين لجؤوا إلى الأمراء - النبلاء البجدوغ، والذي استمر خمس سنوات، بعدما كلف الطرفين ستة آلاف قتيل خلال أربع ساعات في بزيقوه. لا يتذكر أحد أن الأدبغة المنتشرين على امتداد الجبال في شمال غرب أوديسا، منذ أنجبوا الأولاد، وربوهم، واشتغلوا في الأرض، وأعالوا أنفسهم، حتى نهاية القرن الثامن عشر، يوماً أقسى من يوم معركة بزيقوه.

في اليوم الذي أنهوا فيه المعركة، وفي ليلته، لم يفعل الطرفان إلا إخلاء الجثث: كان صرير عجلات الثيران التي تُحلي القتلى والجرحى يُسمع في كل مكان. والأنين والبكاء يملآن ليل المنطقة. ولم يكن أي شخص يملك، مهما كان الواعظون كثيرين في كل مكان، حين يرى الأصدقاء الضحايا، ومهما كان قلبه قاسياً، إلا أن يتلوى قلبه الماء، ويذرف الدمع.

لم يقبل تحخوخوه، مهما نصحوه، أن يغادر المرعى إلى باستوك إلا مع آخر جريح. وبعد أن حدث ما حدث، وقف نبافؤه أمام العربة التي تحمل موسى من بين العربات الخمس الحاملة الإخوة التسعة، وقال للفلاحين الأحياء:

- أيها الفلاحون، القتلى والأحياء، باسم البلاد التي حميتموها من الأمراء - النبلاء - المتنفذين أقول: رضي الله عنكم. وحياكم. لم يستطع الأمراء - النبلاء اختراق وحدتنا. بل لم تستطع مدافع القيصرة إيذاءنا. سنعيش حياة مساواة فلاحية ما دام اسم بزيقوه يجري على ألسنتنا. ومن لا يقبل هذا ويجارنا فسنحاربه كما فعلنا اليوم ولو تلقينا الرصاص. يا إلهي افتح أبواب جنتك للشهداء، وحقق للأحياء آمانياتهم!

- آمين، - ردد الواقفون من فرسان ومشاة. أُخلي من باستوك ثلاثمائة وست جثث من الفلاحين ما عدا الإخوة حاغور التسعة.

جاء إلى لاشين بجثامين أولادها التسعة. نهض المسنون الجالسون إلى ظل الحائط. توافد الناس وأولهم الفلاح أرسى الذي أرسل يبلغ الخبر. نُقل الإخوة

التسعة تغطيهم السترات السوداء إلى الدار. وصُفّوا أمام البيت بترتيب أعمارهم.

وطوال هذا الوقت ظلت لاشين أهمهم واقفة إلى جانب دمر الذي عاد بيد مجروحة، ولم يسمع أحد من الحاضرين كلمة منها. ولم يروا دمعة، فلما رأت سالي الابن الأكبر لبداد يأتون به إلى الدار تداعت ساقاها. وتهاوت أطرافها، وارتجفت شفتاها المطبقتان. وسالت الدموع المحبوسة على الوجنتين الشاحبتين. ضغطت على شفتيها خجلة من الضعف الذي اعترأها أمام القرية. وحجرت دموعها.

خرج تحخوخوه نفافؤه من بين الحضور مع آخر جثمان، واقترب من لاشين:
- رحم الله الأموات يا أمنا، لم يقل أيُّ من أولادك "نان" تحت السيف. تركوا أرواحهم في ساحة المعركة ووجوههم نحو العدو لحماية عدالة قضية الفلاحين. قوّي قلبك أمام المأساة، وتحلّي بالصلاية التي كانت في أولادك!
كان نفافؤه ما يزال يريد نُصح الأم بكلمات أخرى ولكنه حنى رأسه غير قادر على أن يقف أمامها أكثر من هذا، خجلاً من أنه عاد حياً من المعركة. مدت لاشين يدها ومسحت بيدها على وجه نفافؤه ولم ترد عليه...

-5-

مضى أكثر من شهر منذ دفن الأمير بالتجري، لم يُقَم فيه سباق خيل في البجدوغ، ولا سُمعت فيها أغنية راعي خرافٍ، دحك من أغاني الزفاف. ما من قرية في البجدوغ لم يُدفن فيها ضحايا المعركة، كما في سالتوك. غطت المناحات سماء كل القرى بضعة أيام.

هرم ألقس الأمير الكبير حتى لا تكاد تعرفه. وبعد أن دفن أخاه وعاد، لم يره أحد ركب حصاناً وخرج من طوابغوه إلا أن يذهب إلى تعزية. لم يكن يستطيع الانتهاء من التفكير الدائم ليلاً ونهاراً. لم يعدّ الأمراء - النبلاء أنفسهم منتصرين في معركة بزيقوه رغم أن خسائر الشابسغ البشرية كانت أكثر. ولا يتعلق الأمر بمصرع أمير البجدوغ حجمقوه بالتجري وحده، بل كانت المعركة تطرح مسائل

كثيرة في شأن نط معيشة الأديغة.

في أحد الأيام دخل علي سلطان على الأمير الكبير لائماً نفسه في المأساة التي جرت للأديغة. والآخرُ إنسان أفناه عدم تحقُّق مسعاه. العينان اللتان كانتا سوداوين صافيتين غارتا وبهت لونهما بسبب الأرق المستمر، حتى لتنظران بصعوبة. وترى جداده من الشيب الذي وخط الحية والشاربين.

- ربما كنت غائباً عن القرية يا علي سلطان؛ لا أراك، - سأل ألقس رغم معرفته أن مربيه لم يغيب.

- أين أذهب يا ألقس؟.. لم نخرج حتى إلى الزقاق، فكيف خارج القرية!..

- ولماذا؟ - مرة أخرى تظاهر ألقس أنه لا يفهم شيئاً، فسأل من أمامه.

- نحسناكم بلجوئنا إليكم، لم نجلب لكم إلا المآسي... ألقى علي سلطان نظرة جانبية على الريب يريد معرفة ردِّ فعله على كلامه.

- هل تقصد معركة بزيقوه؟ لماذا تنسبون المأساة إليكم؟ أنتم كنتم البداية فحسب. من دونكم كان علينا منذ زمن بعيد أن تُري الفلاحين العصاة قوتنا. عليك أحياناً أن تُري الفلاحين حقيقتهم وإلا خرجوا عن طورهم. ألا ترى كيف تعامل معنا الإخوة مشقوه في النهاية؟ وقفوا في وجهنا وحاربونا!.. وليسوا وحدهم ففلاحو البجدوغ أفسدتم الدعوة إلى المساواة التي أطلقها الشابسغ. يا للحسرة، لولا إصابة الأمير بالتجري الذي قضى في عز شبابه، أسكنه الله جنته، لوقع الشابسغ تحت إمرتنا. لم يجر لنا أيّ خير من هذه الناحية.

- صحيح يا أمير، لم نُصِب أيّ نجاح، - هزّ علي سلطان رأسه أسفاً من إخفاق أمنيته أكثر من قضاء بالتجري في غير وقته. - يقال: إن كان الإخفاق مكتوباً على الجبين عضك الكلب وأنت على ظهر الجمل. لم يكن علي الأمير بالتجري أن يستسلم لحميته فيقتحم أتون المعركة. بقينا في الساحة لا من هنا ولا من هناك... - نسي علي سلطان أنه في حضرة الأمير الكبير المهزوم فبدأ عتبه، ثم صحا فتوقف كمن عضّ طرف لسانه. - ماذا بيدنا، ربما هذا ما كتب الله علينا. لم يقصّر الأمراء - النبلاء في شيء. سيقضي متنفذو

الشابسغ، لا آل شرلأقوه وحدهم، حياتهم مدينين لهم...
لم يكن الأمير الكبير ألقس معنياً بحديث علي سلطان غير المترابط. هو لم يعد يطيقه، ولا يريد أن يبدو عليه ضيقه به. ما يشغل بال ألقس فكرة أخرى: من أين جاء فلاحو الشابسغ بكل هذه القوة؟ لماذا وقف إلى جانبهم فلاحو الجمكوي والوبيخ والمخوش، دُعك من فلاحى الأبخاخ، إلى جانبهم؟ بل قيل إن فلاحى الترك ساعدوهم بالبارود. يَم أسأنا نحن إلى الفلاحين؟ من وقف إلى جانبنا حين احتجنا إلى المساعدة؟ إن قصدت أمراء الجمكوي فإنهم لم يتحركوا. ولما أرسلت إلى أمير الحاتيقواي أخبره بوضعنا، لم يقف تحت رايتنا، بل جاء معزياً محتجاً بالغياب. ولما جاء الفلاحون الفرسان من ينجج البعيدة لم يفرع لنا أي أمير. من حسن حظنا أن القيصرة تفهّمنا. لماذا يا ترى لم يغلب حظنا الفلاحين في ذلك اليوم؟ إذا وضعنا جانباً المدفعين والبارود الكثير عندنا فالمطر العاصف في ذلك اليوم أضر بالفلاحين فمزق ملابسهم، كان معنا. كان الفلاحون ورسا صا الموت في وجوههم يتقدمون، ولا يعرفون التراجع. من أين جاؤوا بالقوة التي كانت عندهم؟..

كان عقل ألقس يصل إلى جواب أسئلته ولكنه مهتم بتجنّب مصارحة أعماقه. لا همّ لألقس إلا أن ينسى ما أرسله تحوحوه نبالؤه إليه عبّر قريبه الأمير حمرزقه في شأن حماية حرية الأرض، وعدم التنازل عنها لأحد. حين تلخّ عليه الفكرة يقول: أليس ما يحميه الأمراء - النبلاء من الفلاحين العنيدين أرضنا نحن؟ فينهر نفسه بنفسه متناسياً أن الفلاحين الذين يعيشون بقوتهم العضلية هم من يعملون في الأرض بعرق جباههم. توصل إلى النتيجة التي يريدّها تماماً، وإن كان يفكر فيها منذ زمن بعيد، موهماً نفسه أن هناك سبباً آخر لانتصار الفلاحين. ولكن شرلأقوه نقض هذا الشعور العذب الذي داعب القلب بضع دقائق:

- ما لا أفهمه يا ألقس هو أن فلاحى الشابسغ لا يزالون يحتفلون كأن أكثرهم لم يقض في المعركة. قالوا إنهم لم ييكونوا من قضى برجولة، فلم يذرفوا عليه دمعة. وقد سمعت خبراً أعجب من هذا يا أمير.

- أي خبر؟

- لما نقلوا جثامين الإخوة حاغور التسعة إلى أمهم، ونقلوا خبر مقتل الأمير باتجري، قالت الأم: نساء الشابسغ سيلدن في ليلة واحدة كثيرين من أمثال أولادي، ولكن نساء البجدوغ لن يلدن طوال العمر مثل باتجري.

- لن تقول والدة الإخوة حاغور مثل هذا!

- ولماذا لا تقول يا أمير؟ أولونا قيمة كبيرة. أخونا الأصغر باتجري يساوي الشابسغ بكاملها. ربما كان الله قدّر هذا.

كان الأمير الكبير ساهياً عن كلام علي سلطان. ليس عاجزاً عن فهم مغزى كلمات لاشين. لا يسمع ألقس هذا الخبر اليوم. لم تكن كلمات المرأة الفلاحة التي ضحّت بأولادها التسعة تفارق الذهن. ومن أجل أن يزيح مرة أخرى الخبر المناكف عن مقتل باتجري تجاوز الإجابة عن سؤال علي سلطان، بعدما انصرف عنه مدة:

- كيف حال والدتنا؟

- لا بأس بصحة والدتنا. تقول إنها لن تعود ما لم يركع فلاحو الشابسغ أمامها، فتقيم قلبها نحو جبل بباو.

كان الأمير الكبير يريد أن يقول شيئاً ولكن وقع الأقدام من ناحية المسطبة أوقفه.

دخل دردر كبير الحراس إلى الغرفة.

- يا أمير، جاء الحاكم القوزاقي جيبيغ زاخار ضعيفاً.

توافق نهوض ألقس ودخول الحاكم الذي تلمع النجوم على كتفيه. قبل أن يصبح الحاكم في منتصف غرفة الإمرة وقف ومط جسده. وفعل رفاقه الثلاثة مثله. نظر علي سلطان نحو الريب متسائلاً عما يريد هؤلاء. وألقس أيضاً تفحص الضيوف لا يعرف ما يريدون.

خرج أحد الثلاثة الذين يقفون خلف الحاكم من بين رفيقيه، وتوجه الحاكم نحو الأمير ألقس ويده السيف الفضي الذي استلمه من مرؤوسه:

- كرمي لتلقينك الفلاحين المتمردين درساً يا أمير أرسلت لك القيصرة إيكاترينا

ألكسييفنا هذا السيف، تقديرًا للبطولة التي أبديتها في المعركة، عطية احترام، فأرسلتنا لتقديمه إليك....

...

مدّ ألقس يده وقد هيّج قلبه الخبير الذي جاء به الضيوف، مغلوباً بشيء من الخجل، وأجاب على كلمة الضيوف والسيف بيده:
- أبلغوا شكرنا للقيصرة التي لم تنس الأمراء - النبلاء. سيقى هذا السيف عطية ثمينة، ليس لي وحدي، بل لكل أسرة حجمقوه. وسأقدّره حقّ قدره. تفضلوا أيها الضيوف!

-6-

لا أظن أن هناك مأساة أعظم من أن تدفن معظم أصدقائك وتبقى وحدك! شعر تحخوخوه نبافؤه بهذا دون أن يقوله له أحد يوم معركة بزيقوه وفي اليوم التالي. رحل حاغور موسى وشباكوه أحمد وشحلخوه حلاش وتّجّخ نف ووايقق تامبر وجمكوي زيش وفوجه لامجي وجنجته سليم ومشقوه ماج وآخرون. لم يمر يوم في العام الماضي نسي فيه أصدقاءه. وليس وحده فذكرهم يجري في مضافات الفلاحين. ويُسمى الأطفال في كثير من القرى بأسماء الشهداء. وتؤلّف لهم الأغاني التي تمجد البطولة.

لم يبق تحخوخوه نبافؤه شجرة بلا أغصان كما كان المتنفدون الراحلون إلى البجدوغ يُشيعون. ففي الشابسغ عنده بترز شعبان، ومستنه أرسى وحاغور دمز وأكجكوه تائمز، وفي الناختواي وستقوه وسوباش وجّرزه بزد. وفي الأبناخ جنجته ترام ونكراس ميشكا. وفي سهل الجمكوي المخوش مَشْلاً أمزان، وغيرهم... وقف معه كثيرون في مناطق مختلفة. كان الجميع مهتمين بحماية البلاد التي انتهت فيها سلطة الأسر المتنفة. وكان نادراً ألا يعرّج الفلاحون على نبافؤه في باستوك، والجميع يعلنون وقوفهم إلى جانبه بالسلاح. وتحخوخوه نبافؤه ورفاقه مشغولون بإجراءات حماية حدود البلاد من الأمراء - النبلاء - المتنفذين الذين لا ينوون الهدوء إلى الآن، فلا يعرفون الراحة. ولا يدعون أفراد

التعاهدات والولاءات ينسون أرامل المعركة ومن يحتاجون إلى مساعدة. ضعفت بلاد الشابسغ التي خاضت حرباً طوال خمس سنوات من كل النواحي. والأرض التي لم تمتد إليها يد رجل طوال هذه السنين صار منظرها مؤسياً: الأراضي المهجورة غطتها الحشائش الضارة.

خرج تحوخوه بعد ظهر أحد الأيام حين آلمته الكتف المجروحة الملثمة، لا تسمح له الذكريات بالبقاء في البيت. الدار مشمسة ولكنه حين نظر إلى جبل بباو خَمَّن أن ثلج الخريف آت بين عشية وضحاها. قال نفافؤه: السنة الجديدة التي سيأتي بها الثلج بعد المطر على الطريق. وبعده سيأتي الربيع. إن لم يُذكرنا الأصدقاء الراحلون، والجرحى السابقون، بمرعى نجد فسيغمره الحشيش كأنه لم يُرق في دم ولا سُمع فيه أنين جرحى.

الشمس تشرق على العالم، والدم يُسْفَح فيه، والإنسان يولد فيه، ومن عنده سلطة ومن ليس عنده يموت. والأرض التي تجري عليها كل هذه الأحداث هي التي تبقى ذاكرة للقرون. ومن تلك الأرض حقيقةً جبلُ بباو وغابة تحمز ونجد. يتركها الراحلون وراءهم وتبقى لمن بعدهم.

مرة أخرى انتصبت في مخيلة نفافؤه صورة حاغور موسى ممدد اليدين. ويكفي مضحكة الأمير حجمقوه حمز الذي تظاهر بالموت حين اقترب منه الفلاحون. وابق تامير قتل بسيفه عدداً من الأعداء رغم أن الرمح خرق جسده. وشباكوه وجمكوي كانا يحاربان ظهراً إلى ظهر، لم يسمحا لأحد أن يلمس حاغور صبح إلى أن فارق الحياة. ما ألم ألا يشهد أكجكوه نطار كل هذا!.. نكبونا بالشاب قبل أن نعرف قيمته. كان سينظم شعراً ممتازاً بمن لم يفقدوا وجه رجولتهم!.. يا أسفي يا أكوز كم ولدت قليلة الحظ في هذا العالم! ماذا بيدي أقدمه لك؟ بم أخدمك لشفاء الجرح الأبدي الذي أصابك به الأمراء - النبلاء؟ كان الأفضل أن أموت بدلاً من موسى وشباكوه... أحياناً كنت أدخل برفقة موسى إليك بصعوبة شديدة. والآن بأي حجة أقف أمام ترمُلك؟ مرة واحدة فقط رأيتك في الزقاق بعد رحيل موسى وصحبه. أخرج مما سيقول الناس إن زرتك وحدي أو برفقة غيري.

- هناك خبر سارّ يا تحخوخوه، - قطع سوباش أفكار نبالؤه.

- ما الخبر السار الذي تحمله؟ استقبل نبالؤه الفارس، وفي الحال تعرّف على نكراس ميشكا ورفيقه الآخر.

- القيصرة التي منحت آل حجمقوه سيفاً فضياً ماتت!.. - طار سوباش الفلاح من السرج في غمرة الفرح. - الجنود القوزاق على ضفة نهر بشزّه رفعوا أمس علم الحِداد. رأيناه ميشكا وأنا في طريق عودتنا من كوبل. وأخبرنا فلاحوهم.

دعا تحخوخوه نبالؤه الضيوف إلى البيت دون أن يعلق بخير أو بشرٍ على الخبر، متجاوزاً إياه بذهنه.

...

تبدأ معركة بزيقوه بالابتعاد عن القرن مع الوقت. الألم الجسدي يزول، والخصوم يتصالحون. وحينما تتطور الحياة ويبدأ العقل يتطور يغتني بعضهم منه ويفتقر غيره. من عنده حصان يغبط من عنده حصانان. والتنافس يسحق أحدهم، ويسبقه الآخر رغم التنافس. وليست قليلةً المواقف التي تظن نفسك قد وقفت على رجلك فإذا بهم يصرعونك، وما إن يصرعونك حتى يقيموك بسرعة. والطريق الذي تسير عليه يتفرع فجأة إلى سبعة. وفيما أنت تفكر في أي طريق ستمشي لا يكفي ما يتطلبه الأمر منك من التفكير بل يحدث أن يدفعك إلى الخطأ. رفع تحخوخوه نبالؤه الرأس، وبلغ تفكيره أن المتنفذين في الشابسغ لن يدعوا سبيلاً للحياة للفلاحين، فوضع حداً مع حاغور موسى لحرب بزيقوه. فلم يخطئ في وضع نهاية لحرب السنوات العديدة. ولا يتذكر أن فكرة الندم على ما فعله بعثت البرد في قلبه. وإن عرف أن عليه أن يمشي في هذا الطريق فسيفعل دون التفات إلى الوراء ولو أن الموت ينتظره في أحد الفروع. لا يولد الإنسان، ولا يعمل طوال عمره، ويعاني كل أنواع المشاق، من أجل أن يتحكم فيه أصحاب السطوة، يطردونه كالكلب، ويقتلونه مع الخنزير، ويتخذونه ممسحة لأقدامهم. وهذا هو السبب في انتفاضة فلاحي الشابسغ مضحين بحياتهم، وطردهم المتنفذين من بلادهم، وتصديهم بالدم لمن دعموا المتنفذين.

يقول تحخوخوه: ما الذي يجري الآن بعد مرور بضع سنوات على حرب بزيقوه؟ الناس الذين لم يكن عندهم إلا لقب الفلاح يقفون الآن في الساحة بلقب نخبة الفلاحين. ومن يعتقدون أنهم ظلموا المتنفذين يزدادون.

قال بترز شعبان في إحدى الأمسيات وكأنه عرف أفكار تحخوخوه نباؤه:

- والله لا أعرف يا نباؤه، نكون حاربنا المتنفذين عبثاً إن كنا سنعيش هكذا.

- ولماذا عبثاً؟ - تأمل أرسى الأصدقاء وقد فهم أساس الكلام.

- لأننا في حين نظن أننا اقتلنا جذور المتنفذين يقوم مقامهم الفلاحون الأغنياء. يستولون ما عندهم، يكلفون من يحرث أراضيهم بالمناصفة في المحصول. يستولون على أراضي الأرامل المنتجة للحشيش. لم يعودوا يعرفون مقادير مواشيهم...

- لا يعرفوا! - لماذا أنت مهتم بهذا؟ - احتدّ أرسى أكثر فأكثر. - عالمنا اليوم: كلٌّ وطريقته في العيش. من عنده القدرة تملكو قبعته على قبعات غيره. والناس لا يُخلقون بأشكالهم وأجسادهم متساوين. بل الجبال متفاوتة في الارتفاع؛ في حين نحن مصرون على المساواة بين الجميع. كيف أقارن نفسي بالمرحوم حنانا، منحه الله الراحة حيث رحل، أعمل ليلاً ونهاراً من أجل تحسين حياة أسرتي؟ وكل ما عندي إنما جنيته بعرق جيبني.

- وهل فرس آل شرلأقوه المترفة التي في دارك من عرق جيبك؟ - سأل تحخوخوه بصراحة.

- لا أعرف يا تحخوخوه ما وراء كلامك، ولكن لا أعرف في قريتنا أسرة ليس فيها من مواشي شرلأقوه.

- ما يجعلني أقول هذا هو أن الظهر الذي ساطته داريت لم يعد يؤمك. - أجاب نباؤه بغضب مكتوم، - لماذا إذن ليس في دار حاغور، ولا بترز، ولا وتاح، شيء منها؟ أقول لك صراحة كان حاغور موسى أولى منك بتقاسم مواشي شرلأقوه. وبدلاً من أن يفعل هذا وقف في وجه المتنفذين، فدفع حياته في مرعى نجد.

- يا تحخوخوه! - غضب أرسى حتى جحظت عيناه، - لا تُهَيّ!.. لم أكن

وراء الإخوة حاغور في مرعى نجد. كنت أواجه الرصاص والسيوف. لم أخطّ جثة أمير - نبيل واحد فحسب!

- أحسنت!.. لم يلحق بك أحد يسلبك رجولتك وإن تخطيت. ولكن إن سمعت نصيحتي فلن أدعك تتواصل مع الفلاحين الأغنياء، ولا سمحت لك أن تغني أغنيتهم. وما قلته عن عدم التساوي بين الجبال مخطئ فيه. لم أكن أريد يا أرسى في أيام انطلاقنا إلى اجتماع بُسَجَتَّقوه أن نذهب متجافيين. لا حاجة لأن نتشاجر نحن؛ فمن يسنّون أسنانهم ليخاصموننا ليسوا قلائل. الأفضل أن نذهب موحدّي الرأي إلى اللقاء الذي سنتكلم فيه على عودة من رحلوا إلى البجدوغ من متنفذين. لن يعود المتنفذون إلى البلاد ما لم يرضخوا، ولكننا سنخلص لموقفنا. وقيل لنا الكلام نفسه في الناختوي حين زرت وستقوه. ولذا لا أثق في نخبة الفلاحين التي اغتنت في الشابسغ. هؤلاء هم من يرون أن عودة المتنفذين لن تضرنا.

- بالله عليك، أنا لم أقصد بكلامي كل ما تقول، - تراجع الفلاح أرسى بعدما استمع إلى كلام صديقه. لن يعود المتنفذون إلى البلاد إن لم يساووا أنفسهم بنا. وفي هذا أوافق الناختوي.

- الآن يترجّون أن نبحث موضوعهم في مؤتمر الشابسغ. - قال بترز شعبان كأنه يكلم نفسه، ثم أضاف: - الفلاحون الأغنياء هم من شجعوا المتنفذين، كأهم يخافون على أنفسهم.

استمع تحخوخوه وهو ينظف الغليون من بقايا التبغ، ولم يُضف شيئاً إلى كلام بترز. وفي الحال داهمته نوبة ضيق تضغط على كتفه. كان يريد مفارقة المجلس لعجزه عن الاستمرار معهم ولكنه لم يدر كيف يتصرف، فملاً الغليون ثانية. لم تكن أفكاره تذهب إلى أبعد من أكوز. ومهما حاول تجنّب التفكير فيها لينساها عاد إليها دون أن يدري. تحرقه الكلمات التي قالتها له أكوز حين التقى بها قبل أيام: "لا يا نبافؤه؛ لا تدفعني إلى الخطأ، أريد أن أقضي ما بقي من عمري إن كثيراً أم قليلاً مع الأسرة التي فيها نصيبي". أفهم يا أكوز، لم توجّهني إليّ أي كلمة غير صحيحة... أحمل لك إلى الآن ما كان يحمله لك

موسى؛ فما العمل؟ ليتني تركت روحي في مرعى نجد، ولم أحملها إليك. أنت لا تعرفين؛ حملت حبك في صدري سنوات دون أن يدري أحدٌ، ودون أن أكشفك به. ربما نجوت من رصاص الأمراء - النبلاء ومن سيوفهم لأبوح لك بهذا الحب!.. كنت أَرْضَى ألا تقولي لي ما في قلبك نحو من لا أساوي به أحداً في العالم، بل أن تخدعيني وتعيشي معي من بعيد طوال عمري. كنت عشتُ لا فُرْحَةً عندي سواها، وخنجر الصدق بيننا. والآن تقطعين بهذا الخنجر نفسه نورَ الشمس غير المرئي الوحيد الذي كان يشدني إليك...

-7-

السابع عشر من شهر تموز من عام 1803، أمير البجدوغ الكبير ألقس جالس ينتظر بفارغ الصبر الخبر الذي سيأتونه به من اجتماع بُسَجِّقُوهُ، فلا يملك دفع الوقت. يعرف من تأخرهم أن أمور متنفذي الشابسغ لا تسير كما يريدون. غير أنه قضى عشيّة البارحة وأول من أمس وما قبله، متأملاً الأفضل. واليوم يمكن أن تعرف من جفنيه ثقل هذه الليلة الماضية عليه، وها هو الوقت يقترب من الظهر، ثم ها هو يتوجه إلى العصر. يقول ألقس وهو يعرف أن قضيتهم خاسرة: لماذا يجادلون الفلاحين الأغنياء؟ جعلوا منهم بشراً بالتوسل إليهم ورشوتهم، والآن يجادلونهم!.. كم نصحتهم ألا يضموا إليهم بالمال متنفذي الشابسغ ونخبة الفلاحين! سيمونكم من سهوة الحصان ويحتلون مكانكم. وما توجستُ منه تماماً اصطدموا به بجباههم. حتى أرسى، أكلُ الخبز التافه، احتل الساحة تحت لقب فلاح النخبة. جعل المتنفذين الذين اكتسب منهم غناه يتوسلون إليه. لا ينطق إلا بضرورة المساواة!.. يقول لهم: متى عدتم إلى البلاد تعيشون في مساواة بين الجميع، ونحمي لكم حياتكم وأملاككم. وإن رفضتم فتآلفوا مع من التجأتم إليهم. يا أسفي، لولا بالتجري كان أمرنا وصل إلى تركيع الفلاحين الشابسغ. أقول هذا ولكن: فلاحو البجدوغ؟ ثاروا دون وعي!..

ظن ألقس أن الصوت الذي صدر من جهة المسطبة هو صوت داريت فقطع تفكيره، ورفع رأسه. ولكن أحداً لم يدخل غرفته. لم يكن يريد في هذه اللحظة،

لا داريت، ولا أمه وزوجته وأولاده: ما يتوجه إليه بقلبه وروحه هو اجتماع بسجنتقه، ليس لأنه جزعٌ جداً على متنفذي الشابسغ، بل شخصه هو الأهم من كل ما عداه. كان يعتبر وقوعه في موقف يُحسب فيه وقوفه مع المتنفذين الشابسغ موقفاً سلبياً، إهانة له، وغير لائق به. كان واضحاً أن الأساس لاجتماع بسجنتقه لن يبقى في مكانه مفهوماً حتى للمجانين. لا يمكن إلا أن يعرف بالخبر الفلاحون، لا في الشابسغ وحدها، بل في البجدوغ والجمكوي والقبرتاي والبسلني. وهم يسنون لنا أسنانهم حتى دون هذا الاجتماع.

- أي خبر مزعج جئتم به! - نهض الأمير الكبير حجمقوه ألقس حالما سمع الخبر الذي حملوه إليه من بسجنتقه. ألسنا نحن إذن من أراق دم الأمراء - النبلاء، حتى كره الفلاحون حياتهم، بلا فائدة؟! الأفضل في اليوم الذي أصبحت فيه دية الفلاح أكل الخبز ثمانية وعشرين حصاناً، ودية المتنفذ ثلاثين، أن تتنازل عن إمرتك! هؤلاء الذين لا يعرفون قيمتهم مضت علينا سنوات ونحن نحامي عنهم!.. توجسُّت من هذا حين رأيت المتنفذين الشابسغ لا يفارق اسم بسجنتقه ألسنتهم. أين شرلأقوه علي سلطان؟

- عاد إلى بيته أمانا يا أمير، - أجاب الحارس دردر الذي لم ير الأمير الكبير غاضباً إلى هذا الحد في السنوات الأخيرة، - سيأتي إليك متى أصلح هندامه. - لا أريد أن أراه، أخبروه متى جاء أي غائب. بأي عين سينظر إليّ شرلأقوه؟! - يا أمير، بذل شرلأقوه كل جهده، ولكن الفلاحين لم يعبؤوا بأي شيء مما قاله. حين طرح موضوع حماية المتنفذين أنفسهم وافق آل شكش وآل أباته أولاً.

- وشرلأقوه؟

- عاد دون الاتفاق معهم يا أمير.

- وآل ناورز؟

- وكذلك آل ناورز يا أمير.

- يبدو أن آل شرلأقوه وآل ناورز هم من لم يتفقوا مع قرارات الاجتماع.

- حالياً هم فحسب. عادوا مجروحي الشعور جداً، ولكن لا أعرف ماذا

سيفعلون مع الأيام. وقف ألقس بعض الوقت عند السجادة التي عُلِق عليها
السيف المُهدى من قيصرية روسيا، ينظر إليه. ثم سأل الحارس فجأة:
- مَنْ أفضلُ مؤلفِ أغاني في البجدوغ على علمك؟
- في البلاد كثير من مؤلفي الأغاني يا أمير. - لم يفهم الحارس سبب تطرُّقه
إليهم.

- لا تهمني الكثرة، من أريده هو من يؤلف أغنية لطيفة على البطولات التي
اجترحها الأمراء - النبلاء في حرب بزيقوه، ومن يستطيع نشر الأغنية التي
تمجد بطولات آل حجمقوه بين الفلاحين. لن أبخل بالمال على مؤلفها.
أكلفك بهذه المهمة. أنجزها دون أن تُبرِزني. ومتى سمعتها غُنِّيت في مضافة
فلاحين فاستعدَّ لأننا سننطلق إلى الحج.

...

زار علي سلطان قبل أيام الأمير الكبير ألقس برفقة أمه، وجلس الثلاثة وحدهم
طويلاً يرتبون مقررات اجتماع بسجنتقوه. لم تبخل داريت على الجميع، الأحياء
منهم والأموات، باللعنات. وعَنَّت ابنها. ثم استعطفته. وتظاهرت بالبكاء وإن
بلا دموع. ورمت إلى الريب بضع كلمات حاقدة، ثم سحبتها.

- لم تبقى فائدة من التعنيف والاحتجاج يا أمنا. جرى ما جرى وانتهى.
- اختتم ألقس الحديث، - لو لم يرضخ آل أباته وآل زانه وآل شُكُش لكنا
استطعنا أن نفعل شيئاً. كنا أغرينا الفلاحين الأغنياء أصحاب الكلمة في
المؤتمر، وفرضنا عليهم رأينا.

- لماذا لم تفعلوا هذا إذن في مؤتمر بسجنتقوه؟ - فاجأت داريت بالسؤال،
وألقت نظرة فرح على ابنها وربيبها أمامها.

- ولم نغفل عن هذا، ولم نبخل عليهم بالمال؛ رأيي تحخوخوه استمال أكثرهم.
- ليترك الله الأحد لي تحخوخوه وليس له من يستطيع نزع القيد عنه غيري!..
- أطلقت داريت لعنة، ثم لانت، - كفى، لا تقسوا على أنفسكم. من أقيم
في بلاده ابني، سنرضخ لحكم الله. ولكن لا أعرف إن كنت سأشهد عودتي إلى
بلادتي لأرى الفلاحين يرحفون أمامي على رُكبتهم...

في مساء ما، وقت أذان العشاء في طؤابغوه، أسرع الحارس دردر لاهتاً إلى غرفة الإمرة:

- أيها الأمير، تُعقَى أغنية حرب بزيقوه في مضافة الفلاح الغني جكمقوه!..
- بارك لنا فيها يا إلهي!.. - ابتهل ألقس الأمير الكبير إلى الله. ثم عاد الدم إلى الخدين اللذين كانا فقدوا اللون. وسأل: - ما رأيهم فيها؟ هل تعجبهم الأغنية؟

- نعم يا أمير، ويرددونها مع المغني. لم يُخلف المؤلف بوعده.
استدار الأمير ألقس وهو يذرع أرض الغرفة ويداه وراء ظهره الذي حنته السنون، شاعراً بأنه الآن أخفُّ عن ذي قبل، ونظر إلى الحارس الواقف إلى جانب الباب، ثم نظر إليه جزعاً وقد تذكر ما كان نسيه:

- قلت لي مضافة فلاح من الأغنياء؟ ومضافات عامة الفلاحين الأخرى؟

- وعامة الفلاحين يغنون يا أمير... ولكن... أغنية أخرى...

- ما خلاصة الأغنية؟

- بطولة الفلاحين كلهم. مأساة أرض الأديغة...

- من سمح لهم بتأليف مثل هذه الأغنية؟

- لا أعرف يا أمير. ولا يعرف أحد مؤلفها. يغنونها في القرية.

- اغرب عن وجهي أيها الحارس دردر!..

التفت الأمير الكبير حين بقي وحده إلى السرير يريد الجلوس. وجلس خائفاً جداً من الشعور بالضعة الذي غلبه كأنه يحرقه. ولكنه عجز عن الاستمرار في الجلوس فعاد يذرع أرض الغرفة. ولما وصل إلى السجادة الجدارية ارتسمت أمام عينيه لمعة سيف إيكاترينا الباردة، حُيِّل إليه أن السيف يقول له ساخراً: "كيف تقضي أيامك يا أمير؟ هل أنت سعيد؟ هل أنت راضٍ عن حياتك؟.." وفيما السيف يخاطبه مدّ يده إليه يريد انتزاعه من الجدار، ولكنه توقّف. ولام نفسه وهو يهز رأسه بخفة، ونصح نفسه: نعم نعم أيها الأمير الكبير. ليست قليلة السنوات التي عشتها، وليس قليلاً ما شهدت. مهما عشت، ومهما شهدت فلا فائدة!.. لم يتفق معك الناس الذين عشت معهم، لم تفهمهم... الأمر

الوحيد الذي بقي أمامك هو أن تفارقهم... ما العمل؟ هذا ما كتبه الله علينا. إن شاء الله سأمضي إلى الكعبة. وأتحلل من النذر الذي عليّ. ونتوب إلى الله عن ذنوبنا إن كنا مذنبين... ولما ظن نفسه سيترك السجادة أحرقتة الأفكار التي غزت الرأس ثانية كما لو أن جمرة قفزت من النار فأصابته. أقول هذا ولكن الفلاحون؟.. ينظرون إلينا نظرات تقدح شرراً كأنهم سيقتلونا. كيف تستطيع أن تذهب بعيداً يا ربّ وعيناك إلى الخلف؟.. آمين، سننتقل، هذا فرضُ الله علينا...

...

استعد الأمير الكبير عاماً كاملاً لطريق الحج. كان في صندوقه نقود وذهب وفضة. يمتي النفس بشمس الطريق الدافئة، يعتمد عليها. في دار الأمير زوجته وأولاده وآخرون. ينظر ألقس إلى الواقفين مميّزاً ملامحهم بصعوبة، ولا يرى أحداً منهم. ولا يشعر بدموع زوجته الصامته، ولا بقلقها الخفيّ. وجهه ألقس نحو من اجتمعوا لأجله، ولكنه يتخطاهم بأفكاره البعيدة. فجأة تدافعت السحب السوداء - الباهتة من جهة الجبل. وبدأ المطر الذي حملته يقذف قطرات باردة. لمع البرق من بين السحب وقصف الرعد البعيد. وبعد قليل قصف الرعد من مسافة قريبة. ونظرت الشمس الصفراء من بين السحب الممزقة. أوعز ألقس للسائس وقد فقد حماسه لها وللواقفين: - هيا!..

جرت الخيل والرعد المتقطع يطمر في الأرض أصوات عجالات عربية ألقس...

